

تَارِيخُ ابْنِ خَلْدُون

المُسَمَّى

وَيُؤَلِّقُ الْمُبْتَدَأُ وَالْخَبَرَ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ
وَمِنْ عَائِلَتِهِمْ مِنْ ذَوِي السَّائِقِ الْأَكْبَرِ

مُتَّالِفٌ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ خَلْدُون

٧٣٢-٨٠٨ هـ - ١٣٣٢-١٤٠٦ م

مراجعة الدكتور

سهيل زكار

ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس

الاستاذ خليل شحادة

طبعة مُسْتَكْمَلَةٌ وَمُقَارَنَةٌ مَعَ عِدَّةٍ نَسَخَ
وَمَخْطُوطَاتٍ وَمُذَيَّلَةٍ بِحَوَاشِيٍّ وَشُرُوحٍ وَتَمْتَازُ
بِفَهَارِيسَ لِلْمَوْضُوعَاتِ وَالْأَعْلَامِ وَالْأَمَاكِنِ الْجُغْرَافِيَّةِ

الْجُزْءُ السَّابِعُ

دار الفكر

جميع حقوق إعادة الطبع محفوظة للناشر

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

Email: darelfkr@cyberia.net.lb
E-mail: darifkr@cyberia.net.lb
Home Page: www.darelfkr.com.lb



حارة حريك - شارع عبد النور - برفياً: فكي - صرْب: ١١/٧٠٦١

تلفون: ٥٥٩٩٠٠ - ٥٥٩٩٠١ - ٥٥٩٩٠٢ - ٥٥٩٩٠٣

فاكس: ٥٥٩٩٠٤ - ٩٦١١٥٥٩٩

بيروت
لبنان

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

الخبر عن زناة من قبائل البربر وما كان بين أجيالهم من العز
والظهور وما تعاقب فيهم من الدول القديمة والحديثة

هذا الجيل في المغرب جيل قديم العهد معروف العين والأثر ، وهم لهذا العهد آخذون
من شعائر العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتغلب في الأرض
وإيلاف الرحلتين ، وتخطف الناس من العمران والإبابة عن الانقياد للنصفة .
وشعارهم بين البربر اللغة التي يتراطنون بها ، وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة^(١)
البربر . ومواطنهم في سائر مواطن البربر بأفريقية والمغرب ، فمنهم ببلاد النخيل ما بين
غدامس والسوس الأقصى حتى أن عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم كما
نذكره . ومنهم قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحي أفريقية ، وبجبل أوراس
بقايا منهم سكنوا مع العرب الهلاليين لهذا العهد ، وأذعنوا لحكمهم ، والأكثر منهم
بالمغرب الأوسط حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال : وطن زناة . ومنهم
بالمغرب الأقصى أمم أخرى ، وهم لهذا العهد أهل دول وملك بالمغربين ، وكانت لهم
فيه دول أخرى في القديم ، ولم يزل الملك يتداول في شعوبهم حسبما نذكره بعد لكل
شعب منهم إن شاء الله تعالى .

(١) وفي نسخة أخرى : رطاناتهم .

* (الخبر عن نسبة زناة وذكر الخلاف الواقع فيه

وتعديد شعوبهم) *

أما نسبهم بين البربر فلا خلاف بين نسباتهم أنهم من ولد شانا وإليه نسبهم ، وأما شانا فقال أبو محمد بن حزم في كتاب الجمهرة ، قال بعضهم : هو جانا بن يحيى بن صولات بن ورمك بن ضري بن رحيك بن مادغيس بن بربر^(١) . وقال أيضاً في كتاب الجمهرة ذكر لي يوسف الوراق عن أيوب بن أبي يزيد يعني حين وفد على قرطبة عن أبيه الثائر بأفريقية أيام الناصر قال : هو جانا بن يحيى بن صولات بن ورساك بن ضري بن مقبو بن قروال بن يملا بن مادغيس بن رحيك^(٢) بن هرحق ابن كراد بن مازيغ بن هراك بن هرك بن برا بن بربر بن كنعان بن حام هذا ما ذكره ابن حزم . ويظهر منه أن مادغيس ليس نسبة إلى البربر وقد قدمنا ما في ذلك من الخلاف ، وهو أصح ما ينقل في هذا الآن ابن حزم موثوق ولا يعدل به غيره .

(ونقل) عن ابن أبي ريد وهو كبير زناة ويكون البربر على هذا من نسل برنس فقط ، والبر الذين هم بنو مادغيس الأبر ليسوا من البربر ومنهم زناة وغيرهم كما قدمنا لكنهم إخوة البربر لرجوعهم كلهم إلى كنعان بن حام كما يظهر من هذا النسب .

(ونقل) عن أبي محمد بن قتيبة في نسب زناة هؤلاء أنهم من ولد جالوت في رواية أن

(١) ورد في جمهرة انساب العرب لابن حزم ص ٤٩٥ ان زناة هوشانا ابن يحيى بن صولات بن ورتاج بن ضري بن سقف بن جندواذ بن يملا بن مادغيس بن هرك بن هرسق بن كراد بن مازيغ بن هراك بن هريك بن بدا بن بديان بن كنعان بن حام بن نوح النبي (صلى الله عليه وسلم) .

(٢) كذا في قبائل المغرب وفي نسخة أخرى من ابن خلدون زجيك وفي مراجع أخرى زجيك (الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للشيخ أبي العباس أحمد بن خالد الناصري) .

زناة هو جانا بن يحيى بن ضريس بن جالوت ، وجالوت هو ونور بن جريل^(١) بن جديلان بن جاد بن رديلان بن حصي بن باد بن رحيك بن مادغيس الأبر بن قيس بن عيلان .

(وفي رواية أخرى عنه أن جالوت بن جالود بن بردنال^(٢) بن قحطان بن فارس ، وفارس مشهور .

(وفي رواية أخرى عنه أنه ابن هربال^(٣) بن بالود بن ديال بن برنس بن سفك ، وسفك أبو البربر كلهم ، ونسابة الجليل نفسه من زناة يزعمون أنهم من حمير ، ثم من التبابعة منهم^(٤) . وبعضهم يقول أنهم من العماقة ، يزعمون أن جالوت جدّهم من العماقة ، والحقّ فيهم ما ذكره أبو محمد بن حزم أولاً وما بعد ذلك فليس شيء منه بصحيح . فأما الرواية الأولى عن أبي محمد بن قتيبة فمختلطة وفيها أنساب متداخلة . وأما نسب مادغيس إلى قيس عيلان فقد تقدّم في أول كتاب البربر عند ذكر أنسابهم وأن أبناء قيس معروفون عند النسابة . وأما نسب جالوت إلى قيس فأمر بعيد عن القياس ، ويشهد لذلك أن معدّ بن عدنان الخامس من آباء قيس إنما كان معاصراً لبختنصر كما ذكرناه أول الكتاب . وأنه لما سلّط على العرب أوحى الله إلى أرمياء نبيّ بني إسرائيل أن يخلّص معدّاً ويسير به إلى أرضه ، وبختنصر كان بعد داود بها يناهز أربعمئة وخمسين من السنين ، فإنه خرّب بيت المقدس بعد بناء داود وسليمان له بمثل هذه المدة .

فعدّ متأخّر عن داود بمثلها سواء ، فقيس الخامس من أبنائه متأخّر عن داود بأكثر من ذلك ، فجالوت على ما ذكر أنه من أبناء قيس متأخّر عن داود بأضعاف ذلك الزمن . وكيف يكون ذلك مع أن داود هو الذي قتل جالوت بنصّ القرآن ؟ (وأما إدخاله جالوت في نسب البربر ، وأنه من ولد مادغيس أو سفك فخطأ ،

(١) وفي نسخة أخرى : هرييل .

(٢) وفي نسخة أخرى : بن ديال .

(٣) وفي نسخة أخرى : ابن هوبال .

(٤) يقول ابن حزم في الجمهرة : (وادعت طوائف منهم إلى اليمن ، إلى حمير ، وبعضهم إلى برّ بن قيس عيلان وهذا باطل لا شك فيه .. وما علم النسابون لقيس عيلان ابناً اسمه برّ أصلاً . ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر ، إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن) . ص ٤٩٥ .

وكذلك من نسبه إلى العالقة . والحق أنّ جالوت من بني فلسطين بن كسلوحي بن
مصرام بن حام أحد شعوب حام بن نوح ، وهم إخوة القبط والبربر والحبشة
والنوبة كما ذكرناه في نسب أبناء حام . وكان بين بني فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل
حروب كثيرة ، وكان بالشام كثير من البربر إخوانهم ، ومن سائر أولاد كنعان
يضاهونهم فيها ، ودثرت أمة فلسطين وكنعان وشعوبها لهذا العهد ، ولم يبق إلا
البربر ، واختص إسم فلسطين بالوطن الذي كان لهم فاعتقد سامع إسم البربر مع ذكر
جالوت أنه منهم وليس كذلك .

(وأما) ما رأي نسبة زناة أنهم من حمير فقد أنكره الحفاظ أبو عمر بن عبد البر
وأبو محمد بن حزم وقالا ما كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في أكاذيب مؤرخي
اليمن ، وإنما حمل نسبة زناة على الانتساب في حمير الترفع عن النسب البربري لما
يرونهم في هذا العهد خولاً وعبداً للجباية وعوامل الخراج ، وهذا وهم فقد كان في
شعوب البربر من هم مكافؤون لزناة في العصية أو أشد منهم مثل هواره ومكناسة ،
وكان فيهم من غلب العرب على ملكهم مثل كتامة وصنهاجة ومن تلقف الملك من يد
صنهاجة مثل المصامدة ، كل هؤلاء كانوا أشد قوة وأكثر جمعاً من زناة . فلما فئيت
أجيالهم أصبحوا مغلبين فنالهم ضرر المغرم ، وصار إسم البربر مختصاً لهذا العهد بأهل
المغرم ، فأنف زناة منه فراراً من الهزيمة .

وأعجبوا بالدخول في النسب العربي لصراحته وما فيه من المزية بتعدد الأنبياء ولا
سيما نسب مضر وأنهم من ولد اسمعيل بن ابراهيم بن نوح بن شيث بن آدم ، خمسة
من الأنبياء ليس للبربر إذا نسبوا إلى حام مثلها مع خروجهم عن نسب ابراهيم الذي
هو الأب الثالث للخلقة إذ الأكثر من أجيال العالم لهذا العهد من نسله . ولم يخرج
عنه لهذا العهد إلا الأقل مع ما في العربية أيضاً من عز التوحش ، والسلامة من
مذمومات الخلق بانفرادهم في البيداء . فأعجب زناة نسبهم وزينه لهم نسبهم ،
والحق بمعزل عنه ، وكونهم من البربر بعموم النسب لا ينافي شعارهم من الغلب
والعز ، فقد كان الكثير من شعوب البربر مثل ذلك وأعظم منه . وأيضاً فقد تميزت
الخلقة وتباينوا بغير واحد من الأوصاف ، والكل بنو آدم ونوح من بعده . وكذلك
تميزت العرب وتباينت شعوبها والكل لسام ولا اسمعيل بعده .

(وأما) تعدد الأنبياء في النسب فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ولا يضرك الاشتراك

مع الجليل^(١) في النسب العام إذا وقعت المبينة لهم في الأحوال التي ترفع عنهم ، مع أن المذلة للبربر إنما هي حادثة بالقلّة ودثور أجيالهم بالملك الذي حصل لهم ، ونفقوا في سبله وترفه كما تقدّم لك في الكتاب الأول من تأليفنا . وإلاّ فقد كان لهم من الكثرة والعزّ والملك والدولة ما هو معروف .

(وأما) أنّ جيل زناتة من العمايقة الذين كانوا بالشام فقول مرجوح وبعيد عن الصواب لأنّ العمايقة الذين كانوا بالشام صنفان . عمايقة من ولد عيصوبن إسحق ، ولم تكن لهم كثرة ولا ملك ، ولا نقل أنّ أحداً منهم انتقل إلى المغرب بل كانوا لقلّتهم ودثور أجيالهم أخفى من الخفاء . والعمايقة الأخرى كانوا من أهل الملك والدولة بالشام قبل بني إسرائيل وكانت أريحاء دار ملكهم . وغلب عليهم بنو إسرائيل وابتزّوهم ملكهم بالشام والحجاز وأصبحوا حصائد سيوفهم ، فكيف يكون هذا الجليل من أولئك العمايقة الذين دثرت أجيالهم ؟ وهذا لو نقل لوقع به الاسترابة فكيف وهو لم ينقل ؟ هذا بعيد في العبادة والله أعلم بخلقهم .

(وأما) شعوب زناتة وبطونهم فكثير^(٢) ولنذكر المشاهير منها (فقول) : اتفق نسّاب زناتة على أنّ بطونهم كلها ترجع إلى ثلاثة من ولد جانا وهم : ورسيك وفربي والدبرت^(٣) . هكذا في كتب أنساب زناتة . (وذكر) أبو محمد بن حزم في كتاب الجمهرة له من ولد ورسيك عند نيابتهم مسّارت ورغاي ووأشروجن ، ومن وأشروجن واريغن بن وأشروجن . وقال أبو محمد بن حزم في ولد ورسيك أنهم مسارت وناجرت وواسين^(٤) .

(وأما) فربي بن جانا فمن ولده عند نسّابة زناتة يزمرتن ومرنجيصة ووركلة ونغالة

(١) وفي نسخة أخرى : مع أهل الجليل .

(٢) قوله : وأما شعوب الخ . بهامش ما نصّه من هنا إلى الشجرة الآتية أسماء بربرية لا يمكن ضبطها بل ولا النطق بها كما هي في لسانهم ولا يتعلق بها غرض مهم . اهـ . (كتبه حسن العطار) وتريد بأن هذه الأسماء تختلف من مرجع إلى آخر من المراجع التي تناولت تاريخ البربر وهذا التحريف في الأسماء ليس له أي أهمية في سرد الحوادث التاريخية ولكن رأينا أن نشير إلى هذه الأسماء لاطلاع القارئ الكريم إلى هذا الاختلاف .

(٣) وفي نسخة ثانية : ورشيل وفربي والدبرت . وفي جمهرة أنساب العرب ورسيج والدبدت وفربي (ص ٤٩٦) .

(٤) وفي نسخة ثانية تاجرة وراسين وفي الجمهرة : بني تاجرة وبني واسين وفي النسخة الباريسية باجرة .

وسبرتره ، ولم يذكر أبو محمد بن حزم سبرتره وذكر الأربعة الباقية . (وأما) الديرت
ابن جانا فمن ولده عند نسابة زناتة جداو^(١) بن الديرت ، ولم يذكره ابن حزم . وإنما
قال عند ذكر الديرت ومن شعوبه : بنو ورسيك بن الديرت وهم بطنان دمر بن
ورسيك وزاكيا بن ورسيك قال : ودمر لقب واسمه الغانا . قال : فمن ولد زاكيا بنو
مغراو وبنو يفرن وبنو واسين . قال : وأمهم واسين مملوكة لأم مغراو وهم ثلاثتهم بنو
يصلتن بن مسرا بن زاكيا . ويزيد نسابة زناتة في هؤلاء يرنيات بن يصلتن أخاً لمغراو
ويفرن وواسين ولم يذكره ابن حزم .

قال : ومن ولد دمر بنو ورنيد بن وانت بن واردين بن دمر ، وذكر لبني دمر أفضاء
سبعة وهم عرازول ولقورة وزناتين^(٢) ، وهؤلاء الثلاثة مختصون بنسب دمر ، وبرزال
ويصدرين وصغمان ويطوفت ، هكذا ذكر أبو محمد بن حزم وزعم أنه من إماء
أبي بكر بن يكنى البرزالي الأباضي . وقال فيه : كان ناسكاً عالماً بأنسابهم ، وذكر
أن بني واسين وبني برزال كانوا أباضية وأن بني يفرن ومغراوة كانوا سنية . وعند نسابة
البربر مثل سابق بن سليمان المطاطي وهانيء بن يصدور^(٣) والكومي وكهلان بن أبي
لوا ، وهو مسطر في كتبهم أن بني ورسيك بن الديرت بن جانا ثلاثة بطون وهم بنو
زاكيا وبنو دمر وأنشة بنو آتش ، وكلهم بنو واردين بن ورسيك ، فمن زاكيا بن
واردين أربعة بطون : مغراوة وبنو يفرن وبنو يرنيان وبنو واسين ، كلهم بنو يصلتن
ابن مسرا بن زاكيا ومن آتش بن واردين أربعة بطون : بنو يرنال وبنو صقعات وبنو
يصدورين وبنو يطوفت كلهم بنو آتش بن واردين ومن دمر ابن واردين ثلاثة
بطون : بنو تقورت وبنو عزرول وبنو ورتاتين كلهم بنو وتيد^(٤) بن دمر ، هذا الذي
ذكره نسابة البربر وهو خلاف ما ذكره ابن حزم . ويذكر نسابة زناتة آخرين من
شعوبهم ولا ينسبونهم مثل يحفش وهم أهل جبل قازاز قريب مكناسة وسنجا سن
وورسيغان وتحليلة وتيسات وواغمرت وتيفراض ووجديجن وبنو بلومو وبنو ومانى^(٥)
وبنو توجين على أن بني توجين يتسبون في بني واسين نسباً ظاهراً صحيحاً بلا شك

(١) وفي نسخة أخرى : جراد .

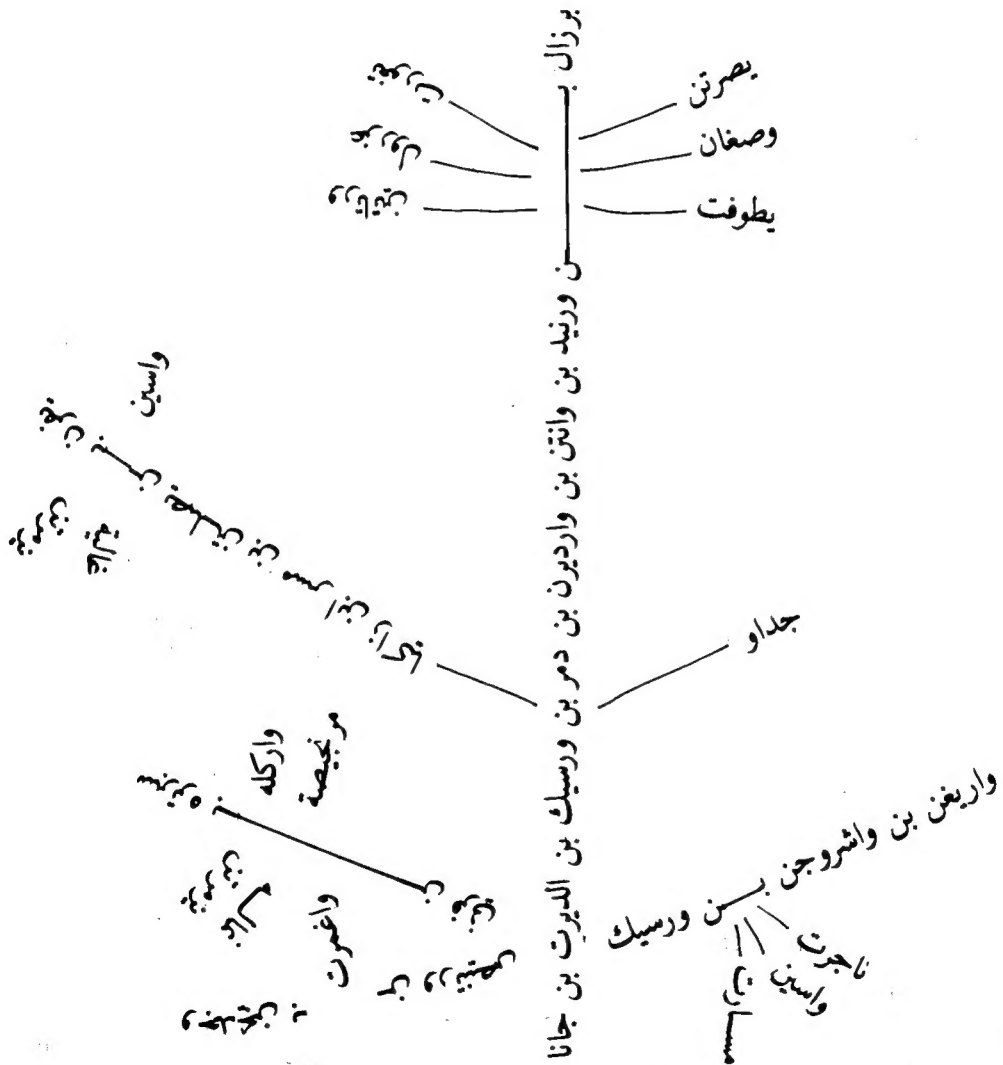
(٢) وفي نسخة أخرى : غرزول ولقورة وورتاتين .

(٣) وفي نسخة أخرى : صدور .

(٤) وفي نسخة أخرى : وريند بن دمر .

(٥) وفي نسخة أخرى : تيفرض ووجديجن وبنو بلومي وبنو ومانوا وبنو توجين .

على ما يذكر في أخبارهم . وبعضهم يقول في وجديجن وواغمرت بنو ورتنيص^(١) أنهم من البرانس من بطون البربر على ما قدمناه . وذكر ابن عبد الحكم في كتابه فتح مصر خالد بن حميد الزناتي ، وقال فيه هو من شورة إحدى بطون زناته ، ولم نره لغيره . هذا ملخص الكلام في شعوب زناته وأنسابهم بما لا يوجد في كتاب . والله الهادي إلى مسالك التحقيق لا رب غيره .



(١) وفي النسخة البارسية : وريند وفي نسخة أخرى : ورتنيص .

* (فصل في تسمية زناة ومبنى هذه الكلمة) *

(أعلم) أن كثيراً من الناس يبحثون عن مبنى هذه الكلمة واشتقاقها على ما ليس معروفاً للعرب ولا لأهل الجليل أنفسهم فيقال : هو اسم وضعته العرب على هذا الجليل ، ويقال بل الجليل وضعوه لأنفسهم أو اصطالحوا عليه . ويقال : هو زانا بن جانا فيز يدون في النسب شيئاً لم تذكره النسابة . وقد يقال إنه مشتق ولا يعلم في لسان العرب أصل مستعمل من الأسماء يشتمل على حروفه المادية ، وربما يحاول بعض الجهلة اشتقاقه من لفظ الزنا ، وبعضه بحكاية خسية يدفعها الحق ، وهذه الأقوال كلها ذهاب^(١) إلى أن العرب وضعت لكل شيء اسماً ، وأن استعمالها إنما هو لأوضاعها التي من لغتها ارتجالاً واشتقاقاً . وهذا إنما هو في الأكثر وإلا فالعرب قد استعملت كثيراً من غير لغتها في مسماه إما لكونه علماً فلا يغير مثل ابراهيم ويوسف واسحق من اللغة العبرانية ، وإما استعانة وتخفيفاً لتداوله بين الألسنة كاللجام والديباج والزنجبيل والنيروز والياسمين والآجر ، فتصير باستعمال العرب كأنها من أوضاعهم . ويسمونها المعربة وقد يغيرونها بعض التغيير في الحركات أو في الحروف ، وهو شائع لهم لأنه بمنزلة وضع جديد .

وقد يكون الحرف من الكلمة ليس من حروف لغتهم فيبدلونه بما يقرب منه في المخرج فإن مخارج الحروف كثيرة منضبطة وإنما نطقت العرب منها بالثمانية والعشرين حروف أبجد . وبين كل مخرجين منها حروف أكثر من واحد فمنها ما نطقت به الأُمم ، ومنها ما لم تنطق به ، ومنها ما نطق به بعض العرب كما هو مذكور في كتب أهل اللسان . وإذا تقرّر ذلك فاعلم أن أصل هذه اللفظة التي هي زناة من صيغة جانا التي هي اسم أبي الجليل كله ، وهو جانا بن يحيى المذكور في نسبهم . وهم إذا أرادوا الجنس في التعميم الحقوا بالاسم المفرد تاء فقالوا جانات . وإذا أرادوا التعميم زادوا مع التاء نونا فصار جاناتن ، ونطقهم بهذه الجيم ليس من مخرج الجيم عند العرب بل ينطقون بها بين الجيم والشين وأميل إلى السين ، ويقرب للسمع منها بعض الصغير فأبدلوها زائاً

(١) الصحيح أن يقول تذهب .

محضة لاتصال مخرج الزاي بالسين ، فصارت زانات لفظاً مفرداً دالاً على الجنس .
ثم الحقوا به هاء النسبة وحذفوا الألف التي بعد الزاي تخفيفاً لكثرة دورانه على الألسنة
والله أعلم .

* (فصل في أولية هذا الجليل وطبقاته) *

أما أولية هذا الجليل بأفريقية والمغرب فهي مساوية لأولية البربر منذ أحقاب متطاولة لا
يعلم مبدأها إلا الله تعالى . ولهم شعوب أكثر من أن تحصى مثل مغراوة وبني يفرن
وجراوة وبني يرنيان ووجدجن وغمرة وبني ويحفش وواسين وبني تيغرس وبني
مرين وتوجين وبني عبد الواد وبني راشد وبني برزال وبني وريند وبني زنداك
وغيرهم . وفي كل واحد من هذه الشعوب بطون متعددة . وكانت مواطن هذا الجليل
من لدن جهات طرابلس إلى جبل أوراس والزاب إلى قبلة تلمسان ثم إلى وادي
مكوية . وكانت الكثرة والرياسة فيهم قبل الإسلام لجراوة ثم لمغراوة وبني يفرن .
(ولما) ملك الإفرنجة بلاد البربر في ضواحيهم صاروا يؤدّون لهم طاعة معروفة ، وخراجاً
معروفاً مؤقّتا ، ويسكرون معهم في حروبهم ويمتنعون عليهم فيما سوى ذلك حتى جاء
الله بالإسلام ، وزحف المسلمون إلى أفريقية وملك الإفرنجة بها يومئذ جرجير ،
فظاھر زناته والبربر على شأنه مع المسلمين وانفضوا جميعاً . وقتل جرجير وأصبحت
أموالهم مغانم ونسائهم سبايا ، وافتتحت سبيلة . ثم عاود المسلمون غزو أفريقية
وافتحوا جلولا و غيرها من الأمصار ، ورجع الإفرنجة الذين كانوا يملكونهم على
أعقابهم إلى مواطنهم وراء البحر . وظنّ البربر بأنفسهم مقاومة العرب فاجتمعوا
وتمسكوا بحصون الجبال واجتمعت زناته إلى الكاهنة وقومها جراوة بجبل أوراس
حسبما نذكره ، فأتحنّ العرب فيهم واتبعوهم في الضواحي والجبال والقفار حتى دخلوا
في دين الإسلام طوعاً وكرهاً ، وانقادوا الى إيالة مِصرَ وتولّوا من أمرهم ما كان
الإفرنجة يتولونه حتى إذا انحلت بالمغرب عرى الملك العربي وأخرجهم من أفريقية
البربر من كتامة وغيرهم ، قدح هذا الجليل الزناتي زناد الملك فأورى لهم ، وتداول
فيهم الملك جيلاً بعد جيل في طبقتين حسبما نقصه عليك إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن الكاهنة وقومها جراوة من زناتة وشأنهم مع المسلمين عند الفتح) *

كانت هذه الأمة من البربر بأفريقية والمغرب في قوّة وكثرة وعديد وجموع ، وكانوا يعطون الإفرنجة بأمصارهم طاعة معروفة وملك الضواحي كلّها لهم ، وعليهم مظاهرة الإفرنجة مما احتاجوا إليهم ولما أطلّ المسلمون في عساكرهم على أفريقية للفتح ظاهروا جرجير في زحفه إليهم حتى قتله المسلمون وانفضّت جموعهم وافترقت رياستهم ولم يكن بعدها بأفريقية موضع للقاء المسلمين يجمعهم لِمَا كانت غزواتهم لكل أمة من البربر في ناحيتها وموطنها مع من تحيّر إليهم من قبل الإفرنجة .

(ولما) اشتغل المسلمون في حرب عليّ ومعاوية أغفلوا أمر أفريقية ثم ولّاهم معاوية بعد عام الجامعة عقبة بن نافع الفهريّ فأخضع في المغرب في ولايته الثانية ، وبلغ إلى السوس وقتل بالزاب في مرجعه . واجتمعت البربر على كُسيّلة كبير أوربة ، وزحف إليه بعد ذلك زهير بن قيس البلويّ أيام عبد الملك بن مروان فهزمه وملك القيروان وأخرج المسلمين من أفريقية .

(وبعث) عبد الملك حسّان بن النعمان في عساكر المسلمين فهزموا البربر ، وقتلوا كسيّلة واسترجعوا القيروان وقرطاجنة وأفريقية والإفرنجة والروم إلى صِقِلِيَّة والأندلس ، وافترقت رئاسة البربر في شعوبهم . وكانت زناتة أعظم قبائل البربر وأكثرها جموعاً وبطوناً ، وكان موطن جراوة منهم بجبل أوراس ، وهم ولد كراو بن الديرت بن جانا^(١) . وكانت رياستهم للكاهنة دهبيا بنت^(٢) بن نيعان بن بارو^(٣) .

مصكسرى بن أفرد بن وصيلا بن جراو . وكان لها بنون ثلاثة ورثوا رئاسة قومهم عن سلفهم وربوا في حجرها ، فاستبدّت عليهم وعلى قومهم بهم ، وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم فانتهت إليها رياستهم . قال هاني بن بكور الضريسي : ملكت عليهم خمساً وثلاثين سنة^(٤) وعاشت مائة

(١) كراد بن الديديث بن شانا (جمهرة انساب العرب (ص ٤٩٨) .

(٢) بياض بالأصل وفي النسخة الباريسية : دهبيا بنت ثابتة وكذلك في نسخة أخرى دهبيا بنت ثابتة .

(٣) وفي نسخة أخرى : بن نيقان بن باورا .

(٤) وفي نسخة أخرى : خمساً وستين سنة .

وسبعا وعشرين سنة . وكان قتل عقبة بن نافع في البسيط قبلة جبل أوراس باغرائها برابرة تهودا عليه ، وكان المسلمون يعرفون ذلك منها . فلما انقضى جمع البربر وقتل كسيلة رجعوا إلى هذه الكاهنة بمعتصمها من جبل أوراس ، وقد ضوى إليها بنو يفرن ومن كان بأفريقية من قبائل زناتة وسائر البتر ، فلقيتهم بالبسيط أمام جبلها ، وانهزم المسلمون واتبعت آثارهم في جموعها حتى أخرجتهم من أفريقية ، وانتهى حسان إلى برقة فأقام بها حتى جاءه المدد من عبد الملك ، فرحف إليهم سنة أربع وسبعين وفضّ جموعهم ، وأوقع بهم وقتل الكاهنة ، واقتحم جبل أوراس عنوة واستلحم فيه زهاء مائة ألف .

وكان للكاهنة إبنان قد لحقا بحسان وحسن إسلامها واستقامت طاعتها ، وعقد لها على قومها جراوة ومن انضوى إليهم بجبل أوراس . ثم افترق فلهم من بعد ذلك وانقرض أمرهم . وافترق جراوة أوزاعاً بين قبائل البربر ، وكان منهم قوم بسواحل مليلة ، وكان لهم آثار بين جيرانهم هناك . واليهم نزع ابن أبي العيش لما غلبه موسى ابن أبي العافية على سلطانه بثلثمان أول المائة الرابعة حسباً نذكره . فترل عليهم وبني القلعة بينهم إلى أن خربت من بعد ذلك . والفّلّ منهم بذلك الوطن إلى الآن لهذا العهد مندرجون في بطونه (١) ومن إليهم من قبائل غمارة والله وارث الأرض ومن عليها .

* (الخبر عن مبتدا دول زناتة في الإسلام ومصير الملك اليهم بالمغرب وافريقية) *

لما فرغ شأن الردّة من أفريقية والمغرب وأذعن البربر لحكم الإسلام وملكت العرب ، واستقلّ بالخلافة ورياسة العرب بنو أمية اقتعدوا كرسىّ الملك بدمشق ، واستولوا على سائر الأمم والأقطار ، وأثخنوا في القاصية من لدن الهند والصين في المشرق ، وفرغانة في الشمال ، والحبيشة في الجنوب ، والبربر في المغرب ، وبلاد الجلالقة والإفرنجة في الأندلس . وضرب الإسلام بجمرانه ، وألقت دولة العرب بكلكلها على الأمم . ثم جدع بنو أمية أنوف بني هاشم مقاسمهم في نسب عبد مناف ، والمدّعين

(١) وفي نسخة أخرى : بطوفت .

استحقاق الأمر بالوصية . وتكرّر خروجهم عليهم ، فأثخنوا فيهم بالقتل والأسر ، حتى توغّرت الصدور واستحكمت الأوتار وتعدّدت فرق الشيعة باختلافهم في مساق الخلافة من عليّ إلى من بعده من بني هاشم . فقوم ساقوها إلى آل العباس ، وقوم إلى آل الحسن ، وآخرون إلى آل الحسين ، فدعت شيعة آل العباس بخراسان وقام بها اليمنية فكانت الدولة العظيمة الحائزة للخلافة ونزلوا بغداد واستباحوا الأمويين قتلاً وسبياً . وخلص من جاليتهم إلى الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، فجدد بها دعوة الأمويين واقتطع ما وراء البحر عن ملك الهاشمين فلم تحقّق لهم به راية . (ثم نفس) آل أبي طالب على آل العباس ما أكرمهم الله به من الخلافة والملك ، فخرج المهدي محمد بن عبدالله المدعوّ بالنفس الزكية في بني أبي طالب على أبي جعفر المنصور ، وكان من أمرهم ما هو مذكور واستلحمتهم جيوش بني العباس في وقائع عديدة . وفرّ ادريس بن عبدالله أخو المهدي من بعض وقائعهم إلى المغرب الأقصى فأجاره البرابرة من أوربة ومقيلة وصدينة ، وقاموا بدعوته ودعوة بنيه من بعده ، ونالوا به الملك وغلبوا على المغرب الأقصى والأوسط ، وبثوا دعوة إدريس وبنيه من أهله بعده في أهله من زناتة مثل بني يفرن ومغراوة وقطعوه من ممالك بني العباس . واستمرّت دولتهم إلى حين انقراضها على يد العبّسيّين .

ولم يزل الطالبيون أثناء ذلك بالمشرق يتزعون إلى الخلافة ويبثون دعائهم بالقاصية إلى أن دعا أبو عبدالله المحتسب بأفريقية إلى المهديّ ولد اسمعيل الإمام بن جعفر الصادق ، فقام برابرة كتامة ومن إليهم من صنهاجة وملكوا أفريقية من يد الأغالبة ، ورجع العرب إلى مركز ملكهم بالمشرق ، ولم يبق لهم في نواحي المغرب دولة ، ووضع العرب ما كان على كاهلهم من أمر المغرب ووطأة مضرّ بعد أن رسخت الملة فيهم ، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ، واستيقنوا بوعد الصادق أنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده . فلم تنسلخ الملة بانسلاخ الدولة ولا تقوّضت مباني الدين بتقويض معالم الملك ، وعداً من الله لن يخلفه في تمام أمره وإظهار دينه على الدين كلّه . فتناغى حينئذ البربر في طلب الملك والقيام بدعوة الأعياص من بني عبد مناف يسدّون منها حسداً في ارتقاء^(١) إلى أن ظفروا من ذلك بحظّ مثل كتامة بأفريقية ،

(١) وفي نسخة ثانية : يسترون منها حسواً في ارتقاء .

ومكناسة بالمغرب ، ونافسهم في ذلك زناته ، وكانوا من أكثرهم جمعاً وأشدّهم قوّة فشَمَرُوا له حتى ضربوا معهم بسهم ، فكان لبني يفرن بالمغرب وأفريقية على يد صاحب الحمار ، ثم على يد يعلى بن محمد وبنيه ملك ضخم . ثم كان لمغراوة على يد بني خَزَر دولة أخرى تنازعوها مع بني يفرن وصنهاجة . ثم انقرضت تلك الأجيال وتجرّد الملك بالمغرب بعدهم في جيل آخر منهم ، فكان لبني مرين بالمغرب الأقصى ملك ، ولبني عبد الواد بالمغرب الأوسط ملك آخر تقاسمهم فيه بنو توجين والفّل من مغراوة حسبما نذكر ونستوفي شرحه ، ونجلب^(١) أيامهم وبطونهم على الطريقة التي سلكتها في أخبار البربر ، والله المعين سبحانه لا رب سواه ، ولا معبود إلا إياه .

*** (الطبقة الأولى من زناته ونبدأ منها بالخبر عن بني يفرن وأنسابهم وشعوبهم وما كان لهم من الدول بأفريقية والمغرب) ***

وبنو يفرن هؤلاء من شعوب زناته وأوسع بطونهم ، وهم عند نسابة زناته بنو يفرن بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت^(٢) بن جانا وإخوته مغراوة وبنو يرنيان وبنو واسين ، والكلّ بنو يصلتين . ويفرن في لغة البربر هو القار^(٣) وبعض نسابتهم يقولون : إنّ يفرن هو ابن ورتنيد^(٤) بن جانا وإخوته مغراوة وغمرت ووجديجن . وبعضهم يقول يفرن بن مرّة بن ورسيك بن جانا ، وبعضهم يقول هو ابن جانا لصلبه والصحيح ما نقلناه عن أبي محمد بن حزم .

(وأما) شعوبهم فكثير ومن أشهرهم بنو واركوا ومرنجصة . وكان بنو يفرن هؤلاء لعهد الفتح أكبر قبائل زناته وأشدّها شوكة ، وكان منهم بأفريقية وجبل أوراس والمغرب الأوسط بطون وشعوب ، فلمّا كان الفتح غشى أفريقية ومن بها من البربر جنود الله المسلمون من العرب فتطامنوا لبأسهم حتى ضرب الدين يجرانه ، وحسن

(١) جلب جبلاً : اجتمع (قاموس) .

(٢) وفي جمهرة انساب العرب : الديديث (ص ٤٩٦) .

(٣) وفي نسخة أخرى : القار وفي النسخة الباريسية القار .

(٤) وفي النسخة الباريسية : ويتص ، وفي نسخة أخرى : ويتير ، وفي جمهرة انساب العرب ص ٤٩٨ : ورنيد .

إسلامهم . ولمّا فشا دين الخارجية في العرب وغلبهم الخلفاء بالشرق واستلحموهم
 نزعوا إلى القاصية ، وصاروا يثّون بها دينهم في البربر فتلقّته رؤساؤهم على اختلاف
 مذاهبه باختلاف رؤوس الخارجية في أحكامهم من أباضية وصُفريّة وغيرهما كما
 ذكرناه في بابه ، ففشا في البربر وضرب فيه يفرن هؤلاء بسهم وانتحلوه وقاتلوا عليه .
 وكان أوّل من جمع لذلك منهم أبو قرّة من أهل المغرب الأوسط . ثم من بعده أبو
 يزيد صاحب الحمار وقومه بنو واركوا ومرنجيسة . ثم كان لهم بالمغرب الأقصى من بعد
 الانسلاخ من الخارجية دولتان على يد يعلى بن محمد صالح وبنه حسبا نذكر ذلك
 مُفسّراً إن شاء الله تعالى .

مرنجيسة بن يفرن بن يصيلين بن مسرا بن زايكا بن ورسيل بن الديوت بن بجانا
 واركوا
 مغراوي
 (خ) مغراوي
 ايفرن
 (خ) ايفرن
 ابلجين بن ورتنيس

* (الخبر عن أبي قرّة وما كان لقومه من الملك بتلمسان ومبدأ ذلك ومصائره) *

كان من بني يفرن بالمغرب الأوسط بطون كثيرة بنواحي تلمسان إلى جبل بني راشد المعروف بهم لهذا العهد ، وهم الذين اختطّوا تلمسان كما نذكره في أخبارها . وكان رئيسهم لعهد انتقال الخلافة من بني أمية إلى بني العباس أبو قرّة ولا نعرف من نسبه أكثر من أنّه منهم . ولما انتقض البرابرة بالمغرب الأقصى وقام ميسرة وقومه بدعوة الخارجية وقتله البرابرة قدّموا على أنفسهم مكانه خالد بن حميد من زناته ، فكان من حروبه مع كلثوم بن عياض وقتله إياه ما هو معروف . ورأس على زناته من بعده أبو قرّة هذا .

ولما استأثرت^(١) دولة بني أمية كثرت الخارجية في البربر ، وملك ورفجومة القيروان ، وهوارة وزناته طرابلس ومكناسة سجلماسة ، وابن رستم تاهرت . وقدم ابن الأشعث أفريقية من قبل أبي جعفر المنصور . وخافه البربر فحسم العلل وسكن الحروب . ثم انتقض بنو يفرن بنواحي تلمسان ودعوا إلى الخارجية ، وبايعوا أبا قرّة كبيرهم بالخلافة سنة ثمان وأربعين ومائة ، وسرح إليهم ابن الأشعث الأغلب بن سودة التميمي فأنتهى إلى الزاب وفر أبو قرّة إلى المغرب الأقصى ، ثم راجع موطنه بعد رجوع الأغلب .

(ولما انتقض) البرابرة على عمر بن حفص بن أبي صفرة الملقب هزار مرد عام خمسين ومائة وحاصروه بطبنة كان فيمن حاصره أبو قرّة اليفرنى في أربعين ألفاً صفرية من قومه وغيرهم حتى اشتدّ عليه الحصار ، ودخل أبا قرّة في الإفراج عنه على يد ابنه على أن يعطيه أربعين ألفاً ، ولابنه أربعة آلاف ، فارتحل بقومه وانفضّ البرابرة عن طبنة . ثم حاصروه بعد ذلك بالقيروان واجتمعوا عليه وأبو قرّة معهم بثلاثمائة وخمسين ألفاً ، الخيالة منها خمسة وثمانون ألفاً . وهلك عمر بن حفص في ذلك الحصار .

وقدم يزيد بن حاتم والياً على أفريقية ففضّ جموعهم وفرّق كلمتهم ، ولحق أبو قرّة

(١) وفي نسخة أخرى . لما الثالث .

وينو يفرن أصحابه بمواطنهم من تلمسان بعد أن قتل صاحبه أبو حاتم الكندي رأس الخوارج ، واستلحم بني يفرن وتوغل يزيد بن حاتم في المغرب ونواحيه وأتخن في أهله إلى أن استكانوا واستقاموا . ولم يكن لبني يفرن من بعدها انتقاض حتى كان شأن أبي يزيد بأفريقية في بني واركوا ومر نجيسة منهم حسبا يذكره إن شاء الله تعالى الكريم . وبعض المؤرخين ينسب أبا قرّة هذا إلى مغيلة ، ولم أظهر بصحيح في ذلك ، والطرائق متساوية في الجانبين ، فإن نواحي تلمسان وإن كانت موطناً لبني يفرن فهي أيضاً موطن لمغيلة ، والقيلتان متجاورتان . لكن بني يفرن كانوا أشد قوة وأكثر جمعاً ، ومغيلة أيضاً كانوا أشهر بالخارجية من بني يفرن لأنهم كانوا صُفْرِيَّة . وكثير من الناس يقولون : إن بني يفرن كانوا على مذهب أهل السنة كما ذكره ابن حزم وغيره والله أعلم .

* (الخبر عن أبي يزيد الخارجي صاحب الجمار من بني يفرن ومبدأ أمره مع الشيعة ومصائرهم) *

هذا الرجل من بني واركوا إخوة مر نجيسة ، وكلهم من بطون بني يفرن ، وكنيته أبو يزيد ، واسمه مخلد بن كيداد لا يعلم من نسبه فهم هير هذا . وقال أبو محمد بن حزم : ذكر لي أبو يوسف الوراق عن أيوب بن أبي يزيد أن اسمه مخلد بن كيداد (١) بن سعد الله بن مغيث بن كرمات بن مخلد بن عثمان بن ورنمت بن حويفر (٢) بن سميران بن يفرن بن جانا وهو زناتة . قال : وقد أخبرني بعض البربر بأسماء زائدة بين يفرن وجانا ، اهـ . كلام ابن حزم . ونسبه ابن الرقيق أيضاً في بني واسين بن ورسك بن جانا ، وقد تقدم تسبهم أول الفصل . وكان كيداد أبوه يختلف إلى بلاد السودان في التجارة ، فولد له أبو يزيد بكر كوا من بلادهم ، وأمه أم ولد اسمها سبيكة (٣) ورجع به إلى قيطون زناتة ببلاد قصطيلة . ونزل تَوَزَّر متردداً بينها وبين تقيوس ، وتعلم القرآن وتأدب ، وخالط النكارية قال إلى مذهبهم وأخذها عنهم ، ورأس فيها

(١) وفي النسخة البارسية : كنداك .

(٢) وفي النسخة البارسية : ورنيت بن جوسفر وفي نسخة أخرى : جوسفر .

(٣) وفي نسخة ثانية : سبيكة

وزحل إلى مشيختهم بهيرت ، وأخذ عن أبي عبدة منهم أيام اعتقال عبيد الله المهدي بسجلاصة

ومات أبوه كيداد وتركه على حال الخصاصة والفقر ، فكان أهل القيطون يصلونه بفضل أموالهم ، وكان يعلم صبيانهم القرآن ومذاهب النكارية . واشتهر عنه تكفير أهل الملّة وسب عليّ هذّاف وانتقل إلى تقيوس . وكان يختلف بينها وبين توزر ، وأخذ نفسه بالتغيير على الولاة ، ونفي عنه اعتقاد الخروج عن السلطان فنذر الولاة بقصطيلة دمه ، فخرج إلى الحج سنة ثمان وثلاثمائة وأرهقه الطلب فرجع من نواحي طرابلس إلى تقيوس . ولما هلك عبد الله أوعز القائم إلى أهل قصطيلة في القبض عليه ، فلحق بالمشرق وقضى الغرض وانصرف إلى موطنه ، ودخل توزر سنة خمس وعشرين وثلاثمائة مستترا . وسعى به ابن فرقان عند والي البلد فتقبض عليه واعتقله ، وأقبل سرحان^(١) زائلا إلى البلد ومعهم أبو عمار الأعمى رأس النكارية واسمه كما سبق عبد الحميد ، وكان ممن أخذ عنه أبو يزيد فتعرضوا للوالي في إطلاقه ، فتعلل عليهم بطلبه في الخراج ، فاجتمعوا إلى فضل وي زيد ابني أبي يزيد ، وعمدوا إلى السجن قتلوا الحرس وأخرجوه ، فليحق ببلده بني واركلا ، وأقام بها سنة يختلف إلى جبل أوراس وإلى بني برزال في مواطنهم بالجبال قبله المسيلة ، وإلى بني زنداك من مغراوة إلى أن أحابوه ، فوصل إلى أوراس ومعه أبو عمار الأعمى في إثني عشر من الراحلة ، ونزلوا على النكارية بالنوالاث^(٢) . واستجمع إليه القرابة وسائر الخوارج ، وأخذ له البيعة عليهم أبو عمار صاحبهم على قتال الشيعة وعلى استباحة القنائم والسبي ، وعلى أنهم إله ظفروا بالمهدية والقيروان صار الأمر شورى ، وذلك سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة

وترصدوا غيبة صاحب باغاية في بعض وجوهه فصبوا على بسطها ، واستباح بعض القصور بها سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وغسل بذلك أيدي البربر في الفتنة . ثم زحف بهم إلى باغاية واستولت عليه وعلى أصحابه الطويمة فلحقوا بالجبل . وزحف إليهم صاحب باغاية فانهم ورجع إلى بلده ، فعاضده أبو يزيد وأوعز أبو القاسم القائم إلى كتامة في إمداد كتون صاحب باغاية ، فتلاحقت به العساكر فبيتهم أبو يزيد وأصحابه

(١) سرعان الزمان أي أوائلهم السابقون (قائمين)

(٢) اسم موضع كذا يردد إليه الولاة النكادية

ففلّوهم ، وامتنعت عليه باغاية وكاتب أبو يزيد البربر الذين حول قصطيلة من بني واسين وغيرهم ، فحاصروا تَوَزَّرَ سنة ثلاث وستين وثلثمائة ورحل إلى تَبَسَةَ فدخلها صلحاً ، ثم إلى بجاية كذلك ، ثم إلى مَرْمَاجَنَةَ . كذلك ، وأهدوا له حماراً أشهب فلزم ركوبه حتى اشتربه . وبلغ خبره عساكر كتامة بالأربص^(١) فانفضوا وملك الأربص وقتل إمام الصلاة بها . وبعث عسكراً إلى تبسة فلكوها وقتلوا عاملها . وبلغ الخبر القائم وهو بالمهدية فهاله . وسرح العساكر لضبط المدن والثغور ، وسرح مولاة بشرى الصِقْلِي إلى باجة ، وعقد لميسور على الجيوش فعسكر بناحية المهدية ، وسرح خليل بن اسحق إلى القيروان فعسكر بها . وزحف أبو يزيد إلى بشرى بباجة ، واشتدّت الحرب بينهم ، وركب أبو يزيد حماره وأمسك عصاه فاستمالت النكارية ، وخالفوا بشرى إلى معسكره فانهزم إلى تونس ، واقتحم أبو يزيد باجة واستباحها ، ودخل بشرى إلى تونس وارتدت البرابر من كل ناحية فأسلم تونس ولحق بسوسة . واستأمن أهل تونس إلى أبي يزيد فأمنهم وولّى عليهم ، وانتهى إلى وادي مجردة^(٢) فعسكر بها . ووافته الحشود هنالك . ورعب الناس منه فأجفلوا إلى القيروان ، وكثرت الأراجيف وسرّب أبو يزيد جيوشه في نواحي أفريقيا ، فشنوا الغارات وأكثروا السبي والقتل والأسر . ثم زحف إلى رقادة فانفض كتامة الذين كانوا بها ولحقوا بالمهدية . ونزل أبو يزيد رقادة في مائة ألف .

ثم زحف إلى القيروان فانحصر بها خليل بن إسحق ثم أخذه بعد مراوضة في الصلح ، وهمّ بقتله فأشار عليه أبو عمار باستبقائه فلم يطعه وقتله . ودخلوا القيروان فاستباحوها ولقيه مشيخة الفقهاء فأمنهم بعد التقريع والعتب ، وعلى أن يقتلوا أولياء الشيعة ، وبعث رسله في وفد من أهل القيروان إلى الناصر الأموي صاحب قرطبة ملتزماً لطاعته والقيام لدعوته وطالباً لمدده ، فرجعوا إليه بالقبول والوعد . ولم يزل يردّد ذلك سائر أيام الفتنه حتى أوفد ابنه أيوب في آخرها سنة خمس وثلثين وثلثمائة ، فكان له اتصال بالناصر سائر أيامه . وزحف ميسور من المهدية بالعساكر وفرّ عنه بنو كملان من هوّارة ولحقوا بأبي يزيد وحرّضوه على لقاء ميسور ، فزحف إليه واستوى اللقاء . واستمات أبو يزيد والنكارية فانهزم ميسور وقتله أبو كملان وبعث برأسه إلى القيروان ،

(١) وفي نسخة ثانية : الأريس وكذلك في معجم البلدان .

(٢) وفي نسخة ثانية : مجردة .

ثم إلى المغرب واستبيح معسكره .

وسرح أبو يزيد عساكره إلى مدينة سوسة فاقتحموها عنوة وأكثروا من القتل والمثلة . وعظم القتل بضواحي أفريقية ، وخلت القرى والمنازل ومن أفلته السيف أهلكه الجوع . واستخف أبو يزيد بالناس بعد قتل ميسور فلبس الحرير وركب الفاره . ونكر عليه أصحابه ذلك ، وكاتبه به رؤسائهم من البلاد ، والقائم خلال ذلك بالمهدية يخندق على نفسه ويستنفر كتامة وصنهاجة للحصار معه . وزحف أبو يزيد حتى نزل المهدية وناوش عساكرها الحرب ، فلم يزل الظهور عليهم ، وملك زويله . ولما وقف بالمصلّى قال القائم لأصحابه من ههنا يرجع ، واتصل حصاره للمهدية ، واجتمع إليه البربر من قابس وطرابلس ونفوسة .

وزحف إليهم ثلاث مرّات فانهزم في الثالثة ولم يقلع ، وكذلك في الرابعة ، واشتدّ الحصار على المهدية ونزل الجوع بهم . واجتمعت كتامة بقسنطينة وعسكروا بها لأمداد القائم ، فسرح إليهم أبو يزيد يكوس^(١) المزاتي من ورفجومة ، فانفضّ معسكر كتامة من قسنطينة . ويثس القائم من مددهم ونفرت عساكر أبي يزيد في الغارات والنهب فعصف المعسكر ، ولم يبق به إلا هواره ورأس بني كملان^(٢) وكثرت مراسلات القائم للبربر .

واستراب بهم أبو يزيد وهرب بعضهم إلى المهدية ، ورحل آخرون إلى مواطنهم ، فأشار عليه أصحابه بالإفراج عن المهدية فأسلموا معسكرهم ، ولحقوا بالقيروان سنة أربع وثلاثين وثلثائة . ودبر أهل القيروان في القبض عليه فلم يتبيأ لهم ، وعذله أبو عمار فيما أتاه من الاستكثار من الدنيا فتاب وأقلع ، وعاود لبس الصوف والتقشف . وشاع خبر إجماله عن المهدية فقتل النكارية في كل بلد ، وبعث عساكره فعاثوا في النواحي وأوقعوا بأهل الأمصار وخربوا كثيرا منها . وبعث ابنه أيوب إلى باجة فعسكر بها ينتظر وصول المدد من البربر وسائر النواحي فلم يفجأه إلا وصول عليّ بن حمدون الأندلسي صاحب المسيلة في حشد كتامة وزواودة ، وقد مرّ بقسنطينة والأربص وشقنبارية ، واستصحب منها العساكر فيته أيوب وانفضّ معسكره ، وتردّى به فرسه في بعض الأوعار فهلك .

(١) وفي نسخة ثانية : زكوا .

(٢) وفي نسخة ثانية : هواره ورأس وينوكملان .

ثم زحف أيوب في عسكره إلى تونس وقائدها حسن بن علي من دعاة الشيعة فانهزم ، ثم أتاحت له الكربة ولحق حسن بن علي بلد كتامة فعسكر بهم على قسنطينة . وسرح أبو يزيد جموع البربر لحربه . ثم اجتمعت لأبي يزيد حشود البربر من كل ناحية وثابت إليه قوته . وارتحل إلى سوسة فحاصرها ونصب عليها المحانيق . وهلك القائم سنة أربع وثلاثين وثلثمائة في شوال وصارت الخلافة لابنه إسماعيل المنصور فبعث بالمدد إلى سوسة بعد أن اعتزم على الخروج إليها بنفسه فمنعه أصحابه . ووصل المدد إلى سوسة فقاتلوا أبا يزيد فانهزم ولحق بالقيروان ، فامتنعت عليه فاستخلص صاحبه أبا عمار من أيديهم وارتحل عنهم .

وخرج المنصور من المهدية إلى سوسة ، ثم إلى القيروان فلكها وعفا عن أهلها وأمنهم وأحسن في مخلف أبي يزيد وعياله . وتوافى المدد إلى أبي يزيد ثالثة فاعتزم على حصار القيروان ، وزحف إلى عسكر المنصور بساحتها فيبتهم ، واشتد الحرب واستمات الأولياء وافترقوا آخر نهارهم . وعادوا الزحف مرات ووصل المدد إلى المنصور من الجهات حتى إذا كان منتصف المحرم كان الفتح ، وانهزم أبو يزيد وعظم القتل في البربر ورحل المنصور في اتباعه قر^(١) ثم تبسة حتى انتهى إلى باغاية . ووافاه بها كتاب محمد بن خزر بالطاعة والولاية والاستعداد للمظاهر ، فكتب إليه بترصد أبي يزيد والقبض عليه ، ووعده في ذلك بعشرين حملا من المال . ثم رحل إلى طينة فوافاه بها جعفر بن علي عامل المسيلة بالهدايا والأموال . وبلغه أن أبا يزيد نزل بسكرة وأنه كاتب محمد بن خزر يسأله النصرة ، فلم يجد عنده ما يرضيه ، فارتحل المنصور إلى سكرة فلتقاه أهلها . وفر أبو يزيد إلى بني برزال بجبل سالات ، ثم إلى جبل كتامة وهو جبل غياض لهذا العهد . وارتحل المنصور في أثره إلى ومرة^(٢) وبنته أبو يزيد هنالك فانهزم ولم يظفر وانحاز إلى جبل سالات . ثم لحق بالرمال ورجع عنه بنو كملان ، وأمنهم المنصور على يد محمد بن خزر .

وسار المنصور في التبية حتى نزل جبل سالات ، وارتحل وراءه إلى الرمال . ثم رجع ودخل بلاد صنهاجة ، وبلغه رجوع أبي يزيد إلى جبل كتامة فرجع إليه ، ونزل عليه المنصور في كتامة وصحيفة وزواوة وحشد بني زنداك ومزانه ومكناسة ومكلاته .

(١) بياض بالأصيل وفي نسخة ثانية : قر تبسة ثم تبسة

(٢) وفي نسخة أخرى : معة

وتقدّم المنصور إليه فقاتلوا أبا يزيد وجمع النكارية فهزموهم واعتصموا بجبل كتامة ،
ورحل المنصور إلى المسيلة وانحصر أبو يزيد في قلعة الجبل ، وعسكر المنصور أزاءها
واشتد الحصار ، وزحف إليها مرّات ، ثم اقتحمها عليهم فاعتصم أبو يزيد بقصر في
ذروة القلعة فأحيط به واقتحم ، وقتل أبو عمّار الأعمى ويكموس المزاتي ونجا أبو يزيد
مثنخاً بالجراحة محمولاً بين ثلاثة من أصحابه فسقط في مهواة من الأوعار فوهن وسبق
من الغداة إلى المنصور فأمر بمداواته . ثم أحضره ووبّخه وأقام الحجّة عليه وتجاوى عن
دمه ، وبعثه إلى المهديّة وفرض له بها الجراية فجزاه خيراً . وحمل في القفص فمات
من جراحته سنة خمس وثلاثين وثلثمائة . وأمر به فسلخ وحشي جلده بالثبن وطيف به
في القيروان . وهرب الفلّ من أصحابه إلى ابنه فضل ، وكان مع معبد بن خزر
فأغاروا على ساقّة المنصور ، وكمن لهم زيري بن مناد أمير صنهاجة فأوقع بهم . ولم
يزل المنصور في اتباعه إلى أن نزل المسيلة وانقطع أثر معبد ، ووافاه بمعسكره هنالك
انتقاض حميد بن يصل عامل تهرت^(١) من أوليائهم ، وأنه ركب البحر من تنس إلى
العدوة فارتحل إلى تهرت وولّى عليها وعلى تنس . ثم قصد لواتة فهربوا إلى الرمال ،
ورجع إلى أفريقية سنة خمس وثلاثين وثلثمائة . ثم بلغه أنّ فضل بن أبي يزيد أغار
على جهات قصطيلة ، فرحل من سته في طلبه وانتهى إلى قفصة ثم ارتحل إلى^(٢)
من أعمال الزاب ، وفتح حصن ماداس بما يليه . وهرب فضل في الرمال
فأعجزه ورجع إلى القيروان سنة ست وثلاثين . ومضى فضل إلى جبل أوراس ، ثم
سار منه إلى باغاية فحاصرها . وغدر به مايطيط^(٣) بن يعلى من أصحابه ، وجاء
برأسه إلى المنصور . وانقرض أمر أبي-يزيد وبنيه وافتقرت جموعهم . واغتال عبد الله
ابن بكار من رؤساء مغراوة بعد ذلك أيوب بن أبي يزيد وجاء برأسه إلى المنصور
متقرباً إليه . وتبّع المنصور قبائل بني يفرن بعدها إلى أن انقطع أثر الدعوة . والبقاء لله
تعالى وحده .

(١) تاهرت : معجم البلدان .

(٢) بياض بالأصل وفي النسخة البارسية : مديلية وفي نسخة أخرى ميطلة .

(٣) وفي نسخة ثانية : باطيط .

* (الخبر عن الدولة الأولى لبني يفرن بالمغرب الأوسط والأقصى ومبادئ أمورهم ومصايرها) *

كان لبني يفرن من زناتة بطون كثيرة وكانوا متفرقين بالمواطن ، فكان منهم بأفريقية بنو واركوا ومرنجيسة وغيرهم كما قدّمناه ، وكان منهم بنواحي تلمسان ما بينها وبين تاهرت أم كثير عددهم وهم الذين اختطّوا مدينة تلمسان كما نذكره بعد . ومنهم أبو قرّة المتري بتلك الناحية لأوّل الدولة العبّاسيّة ، وهو الذي حاصر عمر بن حفص بطبنة كما تقدّم . ولما انقرض أمر أبي يزيد وأنّحن المنصور فيمن كان بأفريقية من بني يفرن أقام هؤلاء الذين كانوا بنواحي تلمسان على وفودهم . وكان رئيسهم لعهد أبي يزيد محمد بن صالح . ولما تولى المنصور محمد بن خزر وقومه مغراوة ، وكان بينه وبين بني يفرن هؤلاء فتنة هلك فيها محمد بن صالح على يد عبد الله بن بكّار من بني يفرن ، كان متحيزاً إلى مغراوة . وولي أمره في بني يفرن من بعده ابنه يعلى فعظم صيته ، واختط مدينة إفكان^(١) .

ولما خطب عبد الرحمن الناصر طاعة الأموية من زناتة أهل العدو واستألف ملوكهم ، سارع يعلى لإجابتة ، واجتمع عليها مع الخير بن محمد بن خزر وقومه مغراوة ، وأجلب على وهران فملكها سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة من يد محمد بن عون ، وكان ولّاه عليها صولات اللميطي^(٢) أحدر جالات كتامه سنة ثمان وتسعين ومائتين فدخلها يعلى عنوة على بنيه وخربها . وكان يعلى قد زحف مع الخير بن محمد إلى تاهرت وبرز إليه ميسور الخصي في شيعته من لماية فهزمهم وملكوا تاهرت ، وتقبّض على ميسور وعبد الله بن بكّار فبعث به الخير إلى يعلى بن محمد ليثأر به ، فلم يرضه كفوّاً لدمه ودفعه إلى من ثأر به من بني يفرن . واستفحل سلطان يعلى في ناحية المغرب وخطب على منابرها لعبد الرحمن الناصر ما بين تاهرت إلى طنجة . واستدعى من الناصر تولية رجال بيته على أمصار المغرب فعقد على فاس لمحمد بن

(١) إفكان : تقع بين معسكر وسيدي بلعباس من عمالة وهران على بعد ٢٥ كلم من الأولى ، تعرف اليوم بعين فكان ، وكانت تدعى في العهد الزناتي أفكان (قبائل المغرب ص ١٢٠) .

(٢) وفي نسخة أخرى : دواس بن صولات اللبصي .

الخير بن محمد بن محمد بن عشيرة ونسك محمد لسنة من ولايته ، واستأذن في الجهاد والرباط بالأندلس فأجاز لذلك واستخلف على عمله ابن عمه أحمد بن أبي بكر بن أحمد ابن عثمان بن سعيد ، وهو الذي اختط مأذنة القرويين سنة أربع وأربعين وثلاثمائة كما ذكرناه ولم يزل سلطان يعلى بن محمد بالمغرب عظيماً إلى أن أغرى بعد المعز لدين الله كاتبه جوهر الصِّقْلِي من القيروان إلى المغرب سنة سبع وأربعين وثلاثمائة فلما فصل جوهر بالجنود بادر أمير زناته بالمغرب يعلى بن محمد اليفرنِي إلى لقائه والإذعان لطاعته والانحياش إليه ، ونبذ عهد الأموية ، وأعمل إلى لقيه الرحلة من بلده إيفكان وأعطاه يد الإنقياد وعهد البيعة عن قومه بني يفرن وزناته ، فتقبَّلها جوهر وأضمر الفتك به ، وتخير لذلك يوم فصوله من بلده ، وأسرَّ إلى بعض مستخلصيه من الاتباع فأوقعوا نفرة في أعقاب العسكر طار إليها الزعماء من كتامة وصنهاجة. وزناته ، وتقبَّض على يعلى فهلك في وطيس تلك الهيعة فغصَّ بالرماح على أيدي رجالات كتامة وصنهاجة ، وذهب دمه هدرًا في القبائل . وخرب جوهر مدينة إيفكان وفرت زناته أمامه وكشف القناع في مطالبتهم .

(وقد ذكر) بعض المؤرخين أن يعلى إنما لقي جوهرًا عند منصرفه من الغزاة بمدينة تاهرت ، وهناك كان فتكه به بناحية شلف ، ففرقت بعدها جماعة بني يفرن وذهب ملكهم فلم يجتمعوا إلا بعد حين على ابنه بدوي بالمغرب كما نذكره . ولحق الكثير منهم بالأندلس كما يأتي خبرهم في موضعه وانقرضت دولة بني يفرن هؤلاء إلى أن عادت بعد مدة على يد يعلى بفاس . ثم استقرت آخرًا بسلا وتعاقب فيهم هنالك إلى آخرها كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن الدولة الثانية لبني يفرن بسلامن المغرب الأقصى وأولية ذلك وتصاريفه) *

لما أوقع جوهر الكاتب قائد المعز يعلى بن محمد أمير بني يفرن وملك المغرب سنة سبع وأربعين وثلاثمائة كما ذكرناه وتفرقت جموع بني يفرن لحق ابنه بدوي بن يعلى بالمغرب الأقصى وأحسَّ بجوهر من ورائه فأبعد المقرَّ وأصحر إلى أن رجع جوهر من المغرب . ويقال إن جوهرًا تقبَّض عليه واحتمله أسيرًا فاعتقل إلى أن قرَّ من معتقله بعد حين ،

واجتمع عليه قومه من بني يفرن وكان جوهر عند منصرفه من المغرب ولي على
الأدارة المتحيزين إلى الريف وبلاد غمارة الحسن بن كنون شيخ بني محمد منهم
فترل^(١) وأجاز الحكم المستنصر لأول ولايته سنة خمس وثلاثمائة^(٢) وزيره

محمد بن قاسم بن طملس في العساكر لتدوين المغرب واقتلاع جزومة الأدارة ،
فأجاز في العساكر وغلبهم على بلادهم وأزعجهم جميعاً عن المغرب إلى الأندلس سنة
خمس وستين وثلاثمائة كما ذكرناه . ومهد دعوة الأموية بالمغرب ، وأقبل الحكم مولاه
غالباً ورده إلى الثغر لصدّه ، وعقد على المغرب ليحيى بن محمد بن هاشم التجيبسي
صاحب الثغر الأعلى ، وكان أجازته مدداً لغالب في رجال العرب وجند الثغور حتى
إذا انغمس الحكم في علة الفالج وركدت ريح المروانية بالمغرب واحتاجت الدولة إلى
رجالها لصد الثغور ودفاع العدو ، استدعى يحيى بن محمد بن هاشم من العدو ،
وإداله الحاجب المصحفي بجعفر بن علي بن حمدون أمير الزاب والمسيلة النازع إليهم
من دعوة الشيعة ، وجمعوا بين الانتفاع به في العدو والراحة لما يتوقع منه على الدولة
ومن البرابرة في التياث الخلافة لما كانوا أصاروا إليه من النكة ، وطوقوه من الجهة .
ولما كان اجتمع بقرطبة من جموع البرابرة فعقدوا له ولأخيه يحيى على المغرب وخلعوا
عليها وأمكنوها من مال دثروكسي فاخرة للخلع على ملوك العدو . فنهض جعفر إلى
المغرب سنة خمس وستين وثلاثمائة وضبطه .

واجتمع إليه ملوك زناتة مثل بدوي^(٣) بن يعلى أمير بني يفرن وابن عمه فويحت بن
عبدالله بن بكّار ، ومحمد بن الخير بن خزروا بن عمه بكساس بن سيد الناس ،
وزيري بن خزرويري ومقاتل إبن عطية بن تبادها^(٤) وخزرون بن محمد وقفلول بن
سعيد أمير مغراوة ، واسماعيل بن البوري أمير مكناسة ، ومحمد ابن عمه عبدالله بن
مدين وخزرون بن محمد الازداجي ، وكان بدوي بن يعلى من أشدهم قوة وأحسنهم
طاعة . ولما هلك الحكم وولي مكانه هشام المؤيد ، وانفرد محمد بن أبي عامر
بمحجابه اقتصر من العدو لأول قيامه على مدينة سبتة ، فقصبتها محمد السلطان

(١) بياض بالأصل وفي إحدى النسخ : فترل البصرة

(٢) حسب مجرى الأحداث : يجب أن تكون خمسين وثلاثمائة

(٣) وفي نسخة أخرى : يدر .

(٤) وفي نسخة أخرى : تبادل .

ورجال الدولة ، وقلدها الصنائع من أرباب السيوف والأقلام ، وعول في ضبط ما وراء ذلك على ملوك زناتة وتعهدهم بالجوائز والخلع ، وصار إلى إكرام وفودهم وإثبات من رغب في الإثبات في ديوان السلطان منهم ، فجددوا في ولاية الدولة وبث الدعوة .

وفسد ما بين أمير العدو جعفر بن علي وأخيه يحيى واقتطع يحيى مدينة البصرة لنفسه وذهب بأكثر الرجال . ثم كانت على جعفر النكبة التي نكبه برغواطة في غزاة إياهم ، واستدعاه محمد بن أبي عامر لأول أمره لما رآه من استقامته إليه ، وشدّ أزره وتلوى عليه كراهية لما يلقى بالأندلس من الحكم . ثم أصلحه وتخلّى لأخيه عن عمل المغرب وأجاز البحر إلى ابن أبي عامر فحلّ منه بالمكان الأثير ، وتناغت زناتة في الترف إلى القبولة بقرب الطاعات ، فزحف خزرون بن فلفول سنة ست وستين وثلثمائة إلى مدينة سجلماسة فافتحمها وعيى دولة آل مدرار منها ، وعقد له المنصور عليها كما ذكرنا ذلك قبل .

وزحف عقب هذا الفتح بلُكَيْن بن زيري قائد أفريقية للشيعة إلى المغرب سنة تسع وستين وثلثمائة زحفه المشهور وخرج محمد بن أبي عامر من قرطبة إلى الجزيرة لمداغته بنفسه ، واحتمل من بيت المال مائة حمل ومن العساكر ما لا يحصى عدّه . وأجاز جعفر بن علي بن حمدون إلى سبتة ، وانضمت إليه ملوك زناتة ورجع بلُكَيْن عنهم إلى غزو برغواطة إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة كما ذكرناه .

ورجع جعفر إلى مكانه من ابن أبي عامر ، لم يسمح بمقامه عنه ، ووصل حسن بن كنون خلال ذلك من القاهرة بكتاب العزيز نزار بن معدّ إلى بلُكَيْن صاحب أفريقية في إعانته إلى ملك المغرب وإمداده بالمال والعساكر ، فأمضاه بلُكَيْن لسييله ، وأعطاه مالا ووعدّه بإصغافه ونهض إلى المغرب فوجد طاعة المروانية قد استحكمت فيه . وهلك بلُكَيْن أثر ذلك وشغل ابنه المنصور عن شأنه فدعا لحسن بن كنون إلى نفسه ، وأنفذ أبو محمد بن أبي عامر ابن عمه محمد بن عبدالله ولبقّ عسكلاجة لحربه سنة خمس وسبعين وثلثمائة وجاء أثره إلى الجزيرة كما يشارف القصة ، وأحيط بالحسن بن كنون فسأل الأمان وعقد له مقارعه عمر وعسكلاجة ، وأشخصه إلى الحضرة فلم يمض ابن أبي عامر أمامه ، ورأى أن لا ذمة له لكثرة نكته فبعث من ثقاته من أتاه برأسه ، وانقرض أمر الأدارسة وانمحي أثرهم فأغضب عمر وعسكلاجة لذلك .

واستراح إلى الجند بأقوال نمت عنه إلى المنصور فاستدعاه من العدو وألحقه بمقتوله ابن كنون .

وعقد على العدو للوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي ، واكتف عدده ، وأطلق في المال يده ، ونفذ إلى عمله سنة ست وسبعين وثلثمائة فضببط المغرب أحسن ضبط وهابته البرابرة ، ونزل فاس من العدو ، فعز سلطانه وكثر جمعه ، وانضم إليه ملوك النواحي حتى حذر ابن أبي عامر مغبة استقلاله ، واستدعاه ليلو صحة طاعته ، فأسرع اللحاق به ، فضاغف تكرمته وأعادته إلى عمله ، وكان بدوي بن يعلى هذا من بين ملوك زناتة كثير الاضطراب على الأموية والمراوغة لهم بالطاعة . وكان لمنصور بن أبي عامر يضرب بينه وبين قرينه زيري بن عطية ويقرن كلاهما بمناعة صاحبه في الاستقامة ، وكان إلى زيري أميل وبطاعته أوثق ، لخلوصه وصدق طوبته وانخياشه فكان يرجو أن يتمكن من قياد بدوي بن يعلى بمناعته ، فاستدعى زيري بن عطية إلى الحضرة سنة سبع^(١) وسبعين وثلثمائة فبادر إلى القدوم عليه وتلقاه وأكبر موصله وأحسن مقامه ومنقلبه وأعظم جائزته ، وسام بدوي مثلها فامتنع ، وقال لرسوله : قل لابن أبي عامر متى عهد حمر الوحش تنقاد للبيطرة . وأرسل عنانه في العيث والفساد ونهض إليه صاحب المغرب الوزير حسن بن عبد الودود في عساكره وجموعه من جند الأندلس وملوك العدو مظاهراً عليه لعدوة زيري بن عطية ، وجمع لهم بدوي ولقيهم سنة إحدى وثمانين وثلثمائة فكان الظهور له .

وانهزم عسكر السلطان وجموع مغراوة ، واستلحموا وجرح الوزير حسن بن عبد الودود جراحات كان فيها لليال مهلكه . وطار الخبر إلى ابن أبي عامر فاغتم لذلك وكتب إلى زيري بضبط فاس ومكاتبة أصحاب حسن ، وعقد له على المغرب كما نستوفي ذكره عند ذكر دولتهم . وغالبه بدوي عليها مرة بعد أخرى ونزع أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي عن قومه ، ولحق بسواحل تلمسان ناقضاً لطاعة الشيعة ، وخارجاً على أخيه المنصور بن بلكين صاحب القيروان . وخاطب ابن أبي عامر من وراء البحر وأوفد عليه ابن أخيه ووجوه قومه فسرب إليه الأموال والصلاة بفاس مع

(١) وفي نسخة أخرى : سنة تسع وسبعين .

زيري حسبما نذكره ، وجمع أيديها على مدافعة بدوي ، فساء أمره فيها جميعاً إلى أن راجع أبو البهار ولاية منصور ابن أخيه كما نذكره بعد . وحاربه زيري فكان له الظهور عليه ولحق أبو البهار بسبته ، ثم عاد إلى قومه .

واستفحل زيري من بعد ذلك ، وكانت بينه وبين بدوي وقعة اكتسح زيري من ماله ومعسكره مالا كقولہ ، وسبى حرمه . واستلحم من قومه زهاء ثلاثة آلاف فارس . وخرج إلى الصحراء شريداً سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة . وهلك هناك فولي أمره في قومه حبّوس ابن أخيه زيري بن يعلى ، ووثب به ابن عمه أبو يداس بن دوتاس فقتله طمعاً في الرياسة من بعده ، واختلف عليه قومه فأخفق أمره وعبر البحر إلى الأندلس في جمع عظيم من قومه . وولّى أمر بني يفرن من بعده حمامة بن زيري بن يعلى أخو حبّوس المذكور ، فاستقام عليه أمر بني يفرن وقد مرّ ذكره في خبر بدوي غير مرّة ، وأنه كانت الحرب بينه وبين زيري بن عطية سجلاً ، وكانا يتعاقبان ملك فاس بتناول الغلب . وأنه لما وفد زيري على المنصور خالفه بدوي إلى فاس فملكها ، وقتل بها خلقاً من مغراوة ، وأنه لما رجع زيري اعتصم بدوي بفاس فنازله زيري وهلك من مغراوة وبني يفرن في ذلك الحصار خلق . ثم اقتحمها زيري عليهم عنوة فقتله وبعث برأسه إلى سدة الخلافة بقرطبة سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة والله أعلم .

(ولما) اجتمع بنو يفرن على حمامة تحيّرهم إلى ناحية شالة من المغرب فملكها وما إليها من تاذلاً ، واقتطعها من زيري ، ولم يزل عميد بني يفرن في تلك العمالة ، والحرب بينه وبين زيري ومغراوة متصلة ، وكانت بينه وبين المنصور صاحب القيروان مهاداة ، فأهدى إليه وهو محاصر لعمّه حماد بالقلعة سنة ست وأربعائة ، وأوفد بهديته أخاه زاوي بن زيري فلقية بالطبول والبنود . ولما هلك حمامة قام بأمر بني يفرن من بعده أخوه الأمير أبو الكمال تميم بن زيري بن يعلى فاستبدّ بملكهم ، وكان مستقيماً في دينه مولعاً بالجهاد ، فانصرف إلى جهاد برغواطة وسالم مغراوة وأعرض عن فتنهم . (ولما) كانت سنة أربع وعشرين وأربعائة تجددت العداوة بين هذين الحيين بني يفرن ومغراوة ، وثارت الإحن القديمة ، وزحف أبو الكمال صاحب شالة وتادلا وما إلى ذلك في جموع يفرن . وبرز إليه حمامة بن المعز في قبائل مغراوة ، ودارت بينهم حروب شديدة وانكشفت مغراوة وفرّ حمامة إلى وجدة ، واستولى الأمير أبو الكمال تميم وقومه على فاس وغلبوا مغراوة على عمل المغرب . واكتسح تميم اليهود بمدينة فاس ،

واصطلم نعمهم واستباح حرمهم . ثم احتشد حامة من وجدة سائر قبائل مغراوة وزناتة وبعث الحاشدين في قياطينهم لجميع بلاد المغرب الأوسط ، ووصل إلى تنس صريحاً لزعمائهم . وكاتب من بعد عنه من رجالاتهم ، وزحف إلى فاس سنة تسع وعشرين وأربعمائة فأفرج عنها أبو الكمال تميم ولحق ببلده ومقر ملكه من شالة ، وأقام بمكان عمله وموطن إمارته منها إلى أن هلك سنة ست وأربعين وأربعمائة وولي ابنه حماد إلى أن هلك سنة تسع وأربعين وأربعمائة . وولي بعده ابنه يوسف إلى أن توفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة ، فولي بعده عمه محمد ابن الأمير أبي تميم إلى أن هلك في حروب لمتونة حين غلبوهم على المغرب أجمع حسبما نذكره ، والملك لله يؤتبه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

(وأما) أبو يداس بن دوناس قاتل حبوس بن زيري بن يعلى بن محمد فإنه لما اختلف عليه بنو يفرن وأخفق أمله في اجتماعهم له ، أجاز البحر إلى الأندلس سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة فرفعه إخوانه أبو قرّة وأبو زيد وعطاف ، فحلّ كلهم من المنصور محل التكرمة والإيثار ونظمه في جملة الرؤساء والأمراء واسنى له الجراية والأقطاع ، وأثبت رجاله في الديوان ، ومن أجاز من قومه فبعد صيته وعلا في الدولة كعبه .

(ولما) افترقت الجماعة وانتثر سلك الخلافة كان له في حروب البربر مع جند الأندلس آثار بعيدة وأخبار غريبة ، ولما ملك المستعين قرطبة سنة أربعمائة واجتمع إليه من كان بالأندلس من البرابرة لحق المهدي بالثغور واستجاش طاغية الجلالقة ، فزحف معه إلى غرناطة وخرج المستعين في جموعه من البرابرة إلى الساحل واتبعهم المهدي في جموعه فتواقعوا بوادي أبرة^(١) فكانت بين الفريقين جولة عظم بلاء البرابرة ، وطار لأبي يداس فيما ذكر ، وانهزم المهدي والطاغية وجموعهم بعد أن تضايقت المعركة وأصاب أبا يداس بن دوناس جراحة كان فيها مهلكه ، ودفن هناك . وكان لابنه خلوف وحافده تميم بن خلوف من رجالات زناتة بالأندلس شجاعة ورياسة ، وكان يحيى بن عبد الرحمن ابن أخيه عطاف من رجالاتهم ، وكان له اختصاص ببني حمود ، ثم بالقاسم منهم ، ولآه على قرطبة أيام خلافته والبقاء لله وحده .

(١) وفي النسخة البارسية : أبرة .

* (الخبر عن أبي نور بن أبي قرّة وما كان له من الملك
بالأندلس أيام الطوائف) *

هذا الرجل اسمه أبو نور بن أبي قرّة بن أبي يفرن من رجالات البربر الذين استظهر
بهم قومهم أيام الفتنة ، تغلب على رندة أزمان تلك الفتنة ، وأخرج منها عامر بن
فتوح من موالي الأموية سنة خمس وأربعمائة فملكها واستحدث بها لنفسه سلطاناً . ولما
استفحل أمر ابن عبّاد بأشبيلية وأسف إلى تملك ما جاوره من الأعمال والثغور ،
نشأت الفتنة بينه وبين أبي نور هذا . واختلف حاله معه في الولاية والانحراف ،
وسجل له سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة برنده وأعمالها فيمن سجل له من البربر .
واستدعاه بعدها سنة خمسين وأربعمائة لبعض ولائمه وكاده بكتاب أوقفه عليه على
لسان جارية بقصره تشكو إليه ما نال منها ابنه من الحرّم ، فانطلق إلى بلده وقتل ابنه .
وشعر بالمكيدة فمات أسفاً ووليّ ابنه الآخر أبو نصر إلى سنة سبع وخمسين وأربعمائة
فغدر به بعض جنده ، وخرج هارلاً فسقط من السور ومات . وتسلم المعتمد رنده
من بعد ذلك ويقال إنّ ذلك كان عند كائنة الحمام سنة خمس وأربعين وأربعمائة وإنّ
أبا نور هلك فيها . ولما بلغ الخبر ابنه أبا نصر وقع ما وقع والله أعلم .

* (الخبر عن مرجيصة من بطون بني يفرن وشرح أحوالهم) *

كان هذا البطن من بني يفرن بضواحي أفريقية وكانت لهم كثرة وقوة . ولما خرج أبو
يزيد على الشيعة وكان من أحوالهم بنو واركوا ظاهروه على أمره بما كان له معهم من
العصية . ثم انقضى أمره وأخذتهم دولة الشيعة وأولياؤهم صنهاجة وولاتهم على
أفريقية بالسطوة والقهر ، وانزال العقوبات بالأنفس والأموال إلى أن تلاشوا وأصبحوا
في عداد القبائل الغارمة . وبقيت منهم أحياء نزلوا ما بين القيروان وتونس أهل شاء
وبقر وخيام يظعنون في نواحيها ، ويتحلون الفلح في معاشهم ، وملك الموحدون
أفريقية وهم بهذا الحال ، وضربت عليهم المغارم والضرائب والعسكرة مع السلطان في
غزواته بعدة مفروضة يحضرون بها متى استقروا .

(ولما تغلب) الكعوب من بني سُليم على ضواحي أفريقية وأخرجوا منها الزواودة من الرياح أعداء الدولة لذلك العهد ، واستظهر بهم السلطان عليهم ، اتخذوا أفريقية وطناً من قابس إلى باجة . ثم اشتدت ولايتهم للدولة وعظم الاستظهار بهم وأقطمهم ملك الدولة ما شاؤه من الأعمال والخراج فكان في أقطاعهم خراج مرغیصة هؤلاء . ولما كانت وقعة بنو مزین على القيروان وكان بعدها في الفترة ما كان من طغيان الفتنة التي اعتز فيها العرب على السلطان والدولة ، كان هؤلاء الكعوب المتغلبين مدد قوي من أحياء مرغیصة هؤلاء من الخيل للحملان ، والخيالة للاستظهار بأعدادهم في الحروب فصاروا لهم لحمه وخولاً ، وتملكوهم تملك العبيد ، حتى إذا اذهب الله بحمى الفتنة وأقام مائل الخلافة والدولة وصارت تراث هذا الملك الحفصي إلى الأحق به مولانا السلطان أبي العباس أحمد ، فانقشع الجوا وأضاء الأفق ودفع المتغلبين من العرب عن أعماله ، وقبض أيديهم عن رعاياه وأصار مرغیصة هؤلاء من صفايه بعد إنزال العقوبة بهم على لياذهم بالعرب وظعنهم معهم ، فراجعوا الحق وأخلصوا في الانحياش ورجعوا إلى ما ألفوه من الغرامة وقوانين الخراج ، وهم على ذلك لهذا العهد والله وارث الأرض ومن عليها .

* (الخبر عن مغراوة من أهل الطبقة الأولى من زناتة وما كان لهم من الدول بالمغرب ومبدأ ذلك وتصاريقه) *

هؤلاء القبائل من مغراوة كانوا أوسع بطون زناتة وأهل الباس والغلب منهم ، ونسبهم إلى مغراو بن بصلتين بن مسر بن زاكيا بن ورسيك بن ألدبرت بن جانا إخوة بني يفرن وبني يرنان ، وقد تقدم الخلاف في نسبهم عند ذكر بني يفرن ، ولما شعوبهم ويطونهم فكثير مثل بني يلس^(١) وبني زنداك وبني رواو^(٢) ورتير وبني أبي سعيد وبني ورميغان والأغواط وبني ريغة وغيرهم ممن لم يحضرني أسماؤهم . وكانت محلاتهم بأرض المغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان إلى جبل مدبولة^(٣) وما إليها

(١) وفي نسخة أخرى : بني يلس .

(٢) وفي نسخة أخرى : بني وراق .

(٣) وفي نسخة أخرى : جبل مدبولة .

ولهم مع إخوانهم بني يفرن اجتماع وافتراق ومناغاة في أحوال البدو . وكان لمغراوة هؤلاء في بدوهم ملك كبير أدركهم عليه الإسلام فأقره لهم وحسن إسلامهم . وهاجر أميرهم صولات بن وزمار إلى المدينة ، ووفد على أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فلقاه برأ وقبولاً لهجرته ، وعقد له على قومه ووطنه . وانصرف إلى بلاده محبوباً محبوباً مغتبطاً بالدين مظاهراً لقبائل مُضَر ، فلم يزل هذا دأبه . وقيل إنه تقبّض عليه أسيراً لأول الفتح في بعض حروب العرب مع البربر قبل أن يدينوا بالدين فأشخصوه إلى عثمان لمكانه من قومه فنّ عليه وأسلم فحسن إسلامه ، وعقد له على عمله فاختصّ صولات هذا وسائر الأحياء من مغراوة بولاء عثمان وأهل بيته من بني أمية ، وكانوا خاصة لهم دون قريش ، وظاهروا دعوة الروانية بالأندلس رعيّاً لهذا الولاء على ما تراه بعد في أخبارهم .

ولما هلك صولات قام بأمره في مغراوة وسائر زناتة من بعده ابنه حفص وكان من أعظم ملوكهم ، ثم لما هلك قام بأمره ابنه خَزَر وعندما تقلّص ظلّ الخلافة عن المغرب الأقصى بعض الشيء ، وأظلت فتنة ميسرة الحقيّر ومظفره^(١) فاعتزّ خزر وقومه على أمر المضربة بالقيروان ، واستفحل ملكهم وعظم شأن سلطانهم على البدو من زناتة بالمغرب الأوسط . ثم انتقض أمر بني أمية بالشرق فكانت الفتنة بالمغرب فازدادوا اعتزازاً وعتوّاً ، وهلك خلال ذلك خَزَر وقام بملكه ابنه محمد وخلص إلى المغرب إدريس الأكبر بن عبد الله بن حسن بن الحسن سنة سبعين ومائة في خلافة الهادي . وقام ببرايرة المغرب من أَوْرَبَة ومدينة ومغيلة بأمره ، واستوثق له الملك واقتطع المغرب عن طاعة بني العباس سائر الأيام .

ثم نهض إلى المغرب الأوسط سنة أربع وسبعين ومائة فتلّقاه محمد بن خزر هذا وألقى إليه المقادة ، وباع له عن قومه وأمكنه من تلمسان بعد أن غلب عليها بني يفرن أهلها . وانتظم لإدريس بن إدريس الأمر وغلب على جميع أعمال أبيه ، وملك تلمسان وقام بنو خزر هؤلاء بدعوته كما كانوا لأبيه . وكان قد نزل تلمسان لعهد إدريس الأكبر أخوه سليمان بن عبد الله بن حسن بن الحسن القادم إليه من المشرق ، وسجّل له بولاية تلمسان من سجل ابنه إدريس لمحمد ابن عمّه سليمان من بعده ،

(١) وفي نسخة أخرى : مطخرة .

فكانت ولاية تلمسان وأمصارها في عقبه ، واقتسموا ولاية ثغورها الساحلية فكانت تلمسان لولد إدريس بن محمد بن سليمان ، وأرشكول لولد عيسى بن محمد ، وتنس لولد ابراهيم بن محمد ، وسائر الضواحي من أعمال تلمسان لبني يفرن ومغراوة . ولم يزل الملك بضواحي المغرب الأوسط لمحمد بن خزر كما قلناه إلى أن كانت دولة الشيعة واستوثق لهم ملك أفريقية . وسرح عبيدالله المهدي إلى المغرب عروبة بن يوسف الكتامي في عساكر كتامة سنة ثمان وتسعين ومائتين ، فدوخ المغرب الأدنى ورجع . ثم سرح بعده مصالة بن حبّوس إلى المغرب في عساكر كتامة ، فاستولى على أعمال الأدارسة واقتضى طاعتهم لعبيدالله . وعقد على فاس ليحيى بن إدريس بن عمر آخر ملوك الأدارسة . وخلع نفسه ودان بطاعتهم ، وعقد له مصالة على فاس ، وعقد لموسى بن أبي العالية أمير مكناسة وصاحب تازة^(١) ، واستولى على ضواحي المغرب ، وقفل إلى القيروان . وانتقض عمر بن خزر من أعقاب محمد بن خزر الداعية لإدريس الأكبر ، وحمل زناتة وأهل المغرب الأوسط على البرابرة من الشيعة وسرح عبيدالله المهدي مصالة قائد المغرب في عساكر كتامة سنة تسع وثلثمائة ، ولقيه محمد ابن خزر في جموع مغراوة وسائر زناتة فقتل عساكر مصالة وخلص إليه فقتله ، وسرح عبيد الله ابنه أبا القاسم في العساكر إلى المغرب سنة عشر وثلثمائة ، وعقد له على حرب محمد بن خزر وقومه ، فأجفلوا إلى الصحراء ، واتبع آثارهم إلى ملوية فلاحقوا بسجلماسة وعطف أبو القاسم على المغرب فدوخ أقطاره وجال في نواحيه وجدّد لابن أبي العافية على عمله ورجع ولم يلق كيداً .

(ثم إنّ الناصر) صاحب قرطبة سمّاه أمل في ملك العدو ، فخطب ملوك الأدارسة وزناتة ، وبعث إليهم خالسته محمد بن عبيدالله بن أبي عيسى سنة ستة عشر وثلثمائة فبادر محمد بن خزر إلى إجابته وطرّد أولياء الشيعة من الزاب . وملك شلب وتنس من أيديهم ، وملك وهران ووّلّى عليها ابنه المنير^(٢) ، وبثّ دعوة الأموية في أعمال المغرب الأوسط ما عدا تاهرت . وبدأ في القيام بدعوة الأموية إدريس بن ابراهيم

(١) تازة : مدينة متوسطة من أقدم المدن المغربية ، تقع وسط قبيلة غياثة في منتصف الطريق بين مكناس ووجدة في موقع جبلي ممتاز بين الأطلس المتوسط وجبال الريف في ممر استراتيجي عظيم بين الغرب الشرقي وسهول فاس (كتاب المغرب ص ٧٤) .

(٢) وفي نسخة ثانية : الخير .

بن عيسى بن محمد بن سليمان صاحب أرشكول . ثم فتح الناصر سبعة سنة سبع عشرة
وثلاثمائة من يد الأدارسة وأجار موسى بن أبي العالية على طاعته ، واتصلت يده
بمحمد بن خزر وتظاهروا على الشيعة وخالف فلفول بن خزر أخاه محمد إلى طاعة
الشيعة ، وعقد له عبدالله على مغراوة .

وزحف إلى المغرب حميد بن يَصَل^(١) سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة في عساكر كتامة
إلى عبدالله على تاهرت فأنتهى إلى فاس وأجفلت أمامه ظواعن زناتة ومكناسة ودوخ
المغرب . وزحف من بعده ميسور الخصي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة فحاصر فاس
وامتنعت عليه ورجع . ثم انتفض حميد بن يصل سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة وتحيز إلى
محمد بن خزر . ثم أجاز إلى الناصر وولاه على المغرب الأوسط . ثم شغل الشيعة بفتنة
أبي يزيد وعظمت آثار محمد بن خزر وقومه من مغراوة ، وزحفوا إلى تاهرت مع
حميد بن يصل قائد الأموية سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة . وزحف معه الخير بن محمد
وأخوه حمزة وعمه عبدالله بن خزر ، ومعهم يعلى بن محمد في قومه بني يفرن ،
وأخذوا تاهرت عنوة وقتلوا عبدالله بن بكار ، وأسروا قائدها ميسور الخصي بعد أن
قتل حمزة بن محمد بن محمد بن خزر في حروبها .

وكان محمد بن خزر وقومه زحفوا قبل ذلك إلى بَسْكَرَة ففتحوا وقتلوا زيدان
الخصي . ولما خرج إسماعيل من حصار أبي يزيد وزحف إلى المغرب في اتباعه خشية
محمد بن خزر على نفسه لما سلف منه في نقض دعوتهم وقتل أتباعهم ، فبعث إليه
بطاعة معروفة وأوعز إليه إسماعيل بطلب أبي يزيد ووعده في ذلك بعشرين حملاً من
المال . وكان أخوه معبد بن خزر في موالة أبي يزيد إلى أن هلك . وتقبض إسماعيل
بعد ذلك على علي معبد سنة أربعين وثلاثمائة وقتله ، ونصب رأسه بالقَيْرَوَان . ولم يزل
محمد بن خزر وابنه الخير متغلباً على المغرب الأوسط ، ومقاسماً فيها ليعلى بن محمد .
ووفد فتوح بن الخير سنة أربعين وثلاثمائة على الناصر مع مشيخة تاهرت ووهْران
فأجازهم وصرفهم إلى أعمالهم .

ثم حدثت الفتنة بين مغراوة وصنهاجة وشغل محمد بن الخير وابنه خزر بحروبهم ،
وتغلب يعلى بن محمد على وْهْرَان وخَرْبِهَا وعقد الناصر ل محمد بن يَصَل على تلمسان

(١) هو حميد بن يصلين الكتامي وقد زحف في عشرين ألف فارس (قبائل المغرب ١٢٠) .

وأعمالها ، وليعلی بن محمد على المغرب وأعماله ، فراجع محمد بن خزر طاعة الشيعة من أجل قريعة يعلى بن محمد . ووفد على المعز بعد مهلك أبيه إسماعيل سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة فأولاه تكرمة وتمّ على طاعتهم إلى أن حضر مع جوهر في غزاته إلى المغرب بأعوام سبع أو ثمان وأربعين وثلثمائة ثم وفد على المعز بعد ذلك سنة خمسين وثلثمائة ، وهلك بالقيروان ، وقد نيف على المائة من السنين . وهلك الناصر المرواني عامئذ على حين انتشرت دعوة الشيعة بالمغرب وانقبض أولياء الأموية إلى أعمال سبتة وطنجة فقام بعده ابنه الحكم المستنصر ، واستأنف مخاطبة ملوك العدو فأجابه محمد بن الخير ابن محمد بن خزر بما كان من أبيه الخير وجدّه محمد في ولاية الناصر ، والولاية التي لبني أمية على آل خزر بوصية عثمان بن عفان لصولات بن وزمار جدّهم كما ذكرناه . فأتحن في الشيعة ودوّخ بلادهم . ورماه معبدّ بقرينه^(١) زيري بن مناد أمير صنهاجة فعقد له على حرب زناته وسوّغه ما غلب عليه من أعمالهم ، وجمعوا للحرب سنة ستين ومائتين فلقى بلكين بن زيري جموعهم بدسياسة من بعض أولياء محمد بن الخير قبل أن يستكمل تعبيتهم ، فأبلى منهم ثباتاً وصبراً واشتدّت الحرب بينهم وانهزمت زناته ، حتى إذا رأى محمد بن الخير أن قد أحيط به انتبذ إلى ناحية من العسكر وذبح نفسه . واستمرّت الهزيمة على قومه ووجد منهم في المعركة سبعة عشر أميراً سوى الأتباع . وتحيز كلّ إلى فريقه .

وولى بعد محمد في مغراوة ابنه الخير وأغرى بلكين بن زيري الخليفة معدّ وجندل بن جعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة والزاب بموالاة محمد^(٢) بن الخير فاستراب جعفر وبعث عنه معدّ لولاية أفريقية حتى اعترم على الرحيل إلى القاهرة ، فاشتدّت استراتبه ولحق بالخير بن محمد وقومه . وزحفوا إلى صنهاجة فأتاحت لهم الكرة وأصيب زيري بن مناد كبير العصابة ، وبعثوا برأسه إلى قرطبة في وفد من وجوه بني خزر مع يحيى بن عليّ أخي جعفر . ثم استراب بعدها جعفر من زناته ولحق بأخيه يحيى ، ونزلوا على الحكم وعقد معه لبلكين بن زيري على حرب زناته وأمدّه بالأموال والعساكر ، وسوّغه ما تغلب عليه من أعمالهم ، فنهض إلى المغرب سنة إحدى وستين ومائتين وأوغر بالبرابرة منهم وتقرى أعمال طبنة وباغاية والمسيلة وبسكرة

(١) وفي نسخة ثانية : قريعة .

(٢) وفي نسخة ثانية : حمد بن الخير .

* (الخبر عن آل زيري بن عطية ملوك فاس وأعمالها من الطبقة الأولى من مغراوة وما كان لهم بالمغرب الأقصى من الملك والدولة ومبادئ ذلك وتصاريفه) *

كان زيري هذا أمير آل خَزَرِيّ وقته ، ووارث ملكهم البدوي ، وهو الذي مهد الدولة بفاس والمغرب الأقصى وأورثها بنيه إلى عهد لمتونة حسباً نستوفي في شرحه . وإسمه زيري بن عطية بن عبد الرحمن بن خَزَرٍ وجدّه عبدالله أخو محمد داعية الناصر الذي هلك بالقيروان كما ذكرناه . وكانوا أربعة إخوة محمد ومعبد الذي قتله إسماعيل وفلفول الذي خالف محمداً إلى ولاية الشيعة وعبدالله هذا وكان يعرف بأمه وإسمها تبدلت . وقد قيل إنّ عبدالله هذا هو ابن محمد بن خزر ، وأخوه حمزة بن محمد الهالك في حربه مع ميسور عند فتح تاهرت . ولما هلك الخير بن محمد كما قلناه بيد بلكين سنة إحدى وستين وثلاثمائة وارتحلت زناته إلى ما وراء ملوية من المغرب الأقصى ، وصار المغرب الأوسط كلّهُ لصنهاجة ، واجتمع مغراوة إلى بقية آل خَزَرٍ وأمرأؤهم يومئذ محمد بن خير المذكور ومقاتل وزيري ابنا مقاتل بن عطية بن عبدالله وخَزَرُون بن فلفول .

ثم كان ما ذكرناه من ولاية بلكين بن زيري على أفريقية ، وزحف إلى المغرب الأقصى زحفه المشهور سنة تسع وستين وثلاثمائة وأجفلت أمامه ملوك زناته من بني خزرو بني محمد بن صالح ، وانحازوا جميعاً إلى سبته . وأجاز محمد بن الخير البحر إلى المنصور بن أبي عامر صريحاً ، فخرج المنصور في عساكره إلى الجزيرة ممدداً لهم بنفسه . وعقد لجعفر بن علي على حرب بلكين ، وأجازه البحر وأمدّه بمائة حمل من المال ، فاجتمعت إليه ملوك زناته وضربوا مصافهم بساحة سبته . وأطلّ عليهم بلكين من جبل تطاون^(١) فرأى ما لا قبل له به فارتحل عنهم ، وأشغل نفسه بجهاد برغواطة إلى أن هلك منصرفاً من المغرب سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة كما ذكرناه . وعاد جعفر بن علي إلى مكانه من الحضرة ، وسأله المنصور في حمل الرياسة وبقي

(١) تطاون : قبائل المغرب / ١٤٠ . وفي نسخة أخرى تيطاوين .

المغرب غفلاً من الولاية ، واقتصر المنصور على ضبط سبّنة ووكل إلى ملوك زنّانة دفاع صنهاجة وسائر أولياء الشيعة . وقام يبلوطاعنتهم إلى أن قام بالمغرب الحسن بن كنون من الأدارسة ، بعثه العزيز نزار من مِصرَ لاسترجاع ملكه بالمغرب ، وأمّده بلكين بعسكر من صنهاجة وهلك على تقيّة ذلك بلكّين ، ودعا الحسن إلى أمره بالمغرب ، وانضمّ إليه بدوي^(١) بن يعلى بن محمد اليفرنّي وأخوه زيري وابن عمه أبو يداس فيمن إليهم من بني يفرن ، فسرح المنصور لحربه ابن عمّه أبا الحكم عمرو بن عبدالله بن أبي عامر الملقّب عسكلاجه ، وبعثه بالعساكر والأموال فأجاز البحر وانحاش إليه ملوك آل خزر محمد بن الخير ، ومقاتل وزيري إبنا عطية ، وخزرون بن فلفول في جميع مغراوة ، وظاهره على شأنه .

وزحف بهم أبو الحكم بن أبي عامر إلى الحسن بن كنون حتى الجوّه إلى الطاعة ، وسأل الأمان على نفسه فعقد له عمرو بن أبي عامر مريضه من ذلك ، وأمّكن به من قياده ، وأشخصه إلى الحضرة فكان من قتله وإخفار ذمّة أبي الحكم بن أبي عامر وقتله بعده ما تقدّم حسبنا ذكرنا ذلك من قبل .

وكان مقاتل وزيري إبنا عطية من بين ملوك زنّانة أشدّ الناس انحياشاً للمنصور قياماً بطاعة المروانية . وكان بدوي بن يعلى وقومه بنو يفرن منحرفين عن طاعتهم . ولما انصرف أبو الحكم بن أبي عامر من المغرب عقد المنصور عليه للوزير حسن بن أحمد ابن عبد الودود السلمي وأطلق يده في انتقاء الرجال والأموال فأنفذه إلى عمله سنة ست وسبعين وثلثائة وأوصاه بملوك مغراوة من زنّانة ، واستبلغ بمقاتل وزيري من بينهم لحسن انحياشهم وطاعتهم ، وأغراه ببدي بن يعلى المضطرب الطاعة الشديد المراوغة ، فنفذ لعمله ونزل بفاس ، وضبط أعمال المغرب ، واجتمعت إليه ملوك زنّانة .

وهلك مقاتل بن عطية سنة ثمان وسبعين وثلثائة واستقلّ برياسة الطواعن البدو من مغراوة إخوة زيري بن عطية ، وحسنت محالته لابن عبد الودود صاحب المغرب وانحياشه بقومه إليه . واستدعاه المنصور من محله بفاس سنة إحدى وثمانين وثلثائة إشادةً بتكريمه وأغراه ببدي بن يعلى بمنافسته في الحظ وإيثار الطاعة فبادر

(١) بدوين يعلى اليفرنّي : قبائل المغرب/ ١٢١ .

إلى إجابته بعد أن استخلف على المغرب. ابنه المعز ، وأنزله بتلمسان ثغر المغرب وولّى على عدوة القرويين من فاس علي بن محمود بن أبي عليّ قشوش ، وعلى عدوة الأندلسيين عبد الرحمن بن عبد الكريم بن ثعلبة . وقدم بين يديه هدية إلى المنصور ، ووفد عليه فاستقبله بالجيوش والعُدّة واحتفل للقائه ، وأوسع نزله وجرايته ونوّه بإسمه في الوزارة وأقطعه رزقها . وأثبت رجاله في الديوان ووصله بقيمة هديته وأسنى فيها . وأعظم جائزته وجائزة وفده وعجّل تسريحه إلى عمله فقفّل إلى إمارته من المغرب . ونمي عنه خلاف ما احتسب فيه من غمط ^(١) المعروف وإنكار الصنيع ، والاستنكاف من لقب الوزارة الذي نوّه به ، حتى أنه قال لبعض حشمه ، وقد دعاه بالوزير : وزير من بالكع ^(٢) فما والله إلا أمير ابن أمير ، وأعجبا من ابن أبي عامر ومخرقة ^(٣) ، والله لو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله ، وإن له منا ليوماً ، والله لقد تأجّرني فيما أهديت إليه حطا للقيم ، ثم غالطني بما بذله تبيّناً للكرم ، إلا أن يحتسب بشمن الوزارة التي حظّني بها عن رتبتي .

ونمي ذلك إلى ابن أبي عامر فصرّ عليها أذنه وزاد في اصطناعه ، وبعث بدوي بن يعلى اليفرنى قريعه في ملك زنّانة يدعوه إلى الوفاة فأساء إجابته وقال : متى عهد المنصور حمر الوحش تنقاد للبيطرة . وأخذ في إفساد السابلة والاجلاب على الأحياء والعيث في العمالة ، فأوعز المنصور إلى عامله بالمغرب الوزير حسن بن عبد الودود بنبذ العهد إليه ، ومظاهرة عدوّه زيري بن عطية عليه ، فجمعوا له سنة إحدى وثمانين وثلثمائة ولقوه فكانت الدائرة عليهم ، وتحرم العسكر وأثبت ^(٤) الوزير ابن عبد الودود جراحة كان فيها حتفه . وبلغ الخبر إلى المنصور فشقّ عليه وأهمه شأن المغرب ، وعقد عليه لوقته لزيري بن عطية ، وكتب إليه بعهدده وأمر بضبط المغرب ومكافئة ^(٥) جند السلطان وأصحاب حسن بن عبد الودود ، فاطلع بأعبائه وأحسن الغناء في عمله .

(١) غمط : احتقره وازدرى به .

(٢) بمعنى أحق .

(٣) لعله ينوي خرقه : أي حمقه وسوء تصرّفه .

(٤) وفي نسخة أخرى : أثبت . ويقال طعنه فأنبت فيه الرمح أي أنفذه ، وضربوه حتى أثبتوه : أي اثخنوه (القاموس) .

(٥) بمعنى المحافظة على جند السلطان وفي نسخة أخرى : مكاتبة .

واستفحل شأن بدوي بن يعلى وبني يفرن ، واستغلظوا على زيري بن عطية وأصلوه نار الفتنة ، وكانت حروبهم سجلاً ، وسُمت الرعايا بفاس كثرة تعاقبهم عليها وانتراؤهم على عملها . وبعث الله لزييري بن عطية ومغراوة مدداً من أبي البهار بن زيري بن مناد بما كان انتقض على ابن أخيه منصور بن بلكين صاحب القيروان وأفريقية ، ونزع عن دعوة الشيعة إلى المروانية . واقتفى أثره في ذلك خلّوف بن أبي بكر صاحب تاهرت وأخوه عطية لصهر كان بينهما وبين زيري ، فاقتسما^(١) أعمال المغرب الأوسط ما بين الزاب وأنشريس^(٢) ووهران ، وخطبوا في سائر منابرهما باسم هشام المؤيد ، وخطب أبو البهار من وراء البحر محمد بن أبي عامر ، وأوفد عليه أبا بكر بن أخيه حبّوس بن زيري في طائفة من أهل بيته ووجوه قومه ، فاستقبلوا بالجيّش ولقاه رحباً وتسهلاً ، وأعظم موصله وأسنى جوائز وفده وصلاتهم ، وأنفذ معه إلى عمه أبي البهار بخمسمائة قطعة من صنوف الثياب الخز والعبيد ، وما قيمته عشرة آلاف درهم من الآنية والحلي ، وبخمسة وعشرين ألفاً من الدنانير ، ودعاه إلى مظاهرة زيري بن عطية على بدوي بن يعلى ، وقسم بينهما أعمال المغرب شق الأبلّمة حتى لقد اقتسما مدينة فاس عدوة بعد عدوة ، فلم يرع ذلك بدوي ولا وزعه عن شأنه من الفتنة والاجلاب على البدو والحاضرة ، وشق عصا الجماعة . وانتقض خلّوف بن أبي بكر على المنصور لوقته ، وراجع ولاية المنصور بن بلكين .

ومرض أبو البهار في المظاهرة عليه للوصلة التي بينهما ، وقعد عمّا قام له زيري بن عطية من حرب خلّوف بن أبي بكر ، وأوقع به زيري في رمضان سنة إحدى وثمانين وثلثمائة واستلحمه وكثيراً من أوليائه ، واستولى على عسكره ، وانحاش إليه عامّة أصحابه . وفرّ عطية شريداً إلى الصحراء ، ثم نهض على أثرها لبدوي بن يعلى وقومه فكانت بينهم لقاءات انكشف فيها أصحاب بدوي واستلحم منهم زهاء ثلاثة آلاف ، واكتسح معسكره وسبيت حرمه التي كانت منهنّ أمّه وأخته ، وتخيّر سائر أصحابه إلى فئة زيري وخرج شريداً إلى الصحراء إلى أن اغتاله ابن عمّه أبو يدّاس بن دوناس كما ذكرناه ، وورد خبر الفتحين متعاقبين على المنصور فعظم موقعها لديه . وقد قيل إنّ مقتل بدوي إنّما كان عند إياب زيري من الوفاة ، وذلك أنه لما استقدمه المنصور

(١) وفي نسخة أخرى : فاقتطعوا .

(٢) جبال ونشريس : قبائل المغرب ١٢١ .

ووفد عليه كما ذكرناه ، خالفه بدوي إلى فاس فلكها وقتل من مغراوة خلقاً واستمكن بها أمره . فلماً رجع زيري من وفادته امتنع بها بدوي فنأزله زيري وطال الحصار وهلك من الفريقين خلق . ثم اقتحمها عليه عنوة وبعث برأسه إلى سدّة الخلافة بقرطبة . إلا أن راوي هذا الخبر يجعل وفادة زيري على المنصور وقتله لبدوي سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة^(١) فالله أعلم أيّ ذلك كان .

(ثم إن زيري) فسد ما بينه وبين أبي البهار الصنهاجي وتراحفا فأوقع به زيري وانهمز أبو البهار إلى سبّنة موريا بالعبور إلى المنصور فبادر بكتابه عيسى بن سعيد بن القطاع في قطعة من الجند إلى تلقّيه فحاد عن لقائه . وصاعد إلى قلعة جراوة ، وقد قدم الرسل إلى ابن أخيه المنصور صاحب القيروان مستملاً إلى أن التحم ذات بينهما . ثم تحيّر إليه وعاد إلى مكانه من عمله ، وخلع ما تمسك به من طاعة الأموية وراجع طاعة الشيعة فجمع المنصور لزيري بن عطية أعمال المغرب . واستكفى به في سدّ الثغر وعوّل عليه من بين ملوك المغرب في الذبّ عن الدعوة ، وعهد إليه بمناجزة أبي البهار وزحف إليه زيري في أمم عديدة من قبائل زناتة وحشود البربر وقرّ أمامه ، ولحق بالقيروان . واستولى زيري على تلمسان وسائر أعمال أبي البهار . وملك ما بين السوس الأقصى والزاب فاتسع ملكه وانبسط سلطانه واشتدّت شوكته ، وكتب بالفتح إلى المنصور بمائتين من الخيل وخمسين جملأً من المهاري السبق ، وألف درقة من جلود اللمط وأحمال من قسي الزان وقطوط الغالية والزرافة وأصناف الوحوش الصحراوية كاللمط وغيره ، وألف حمل من التمر وأحمال من ثياب الصوف الرفيعة كثيرة ، فجدد له عهده على المغرب سنة إحدى وثمانين وثلثمائة وأنزل أحياءه بأنحاء فاس في قياطينهم .

واستفحل أمر زيري بالمغرب ودفع بني يفرن عن فاس إلى نواحي سلا ، واختط مدينة وجدة سنة أربع وثمانين وثلثمائة وأنزلها عساكره وحشمه ، واستعمل عليها ذويه ، ونقل إليها ذخيرته ، وأعدّها معتصماً ، وكانت ثغراً للبعالتين المغرب الأقصى والأوسط .

(تم فسد) ما بينه وبين المنصور بما نمي عنه من التآلف لهشام باستبداد المنصور عليه

(١) كذا في قبائل المغرب سنة ٣٨٣هـ . / ص ١٢١ .

فسامه المنصور الهضيمة . وأبى منها ، وبعث كاتبه ابن القطاع في العساكر ، فاستعصى عليه وأمكنه صاحب قلعة حجر النسر منها ، فأشخصه إلى الحضرة . وأحسن إليه المنصور وسماه الناصح ، وكشف زيري وجهه في عداوة ابن أبي عامر والإغراء به والتشجيع لهشام المؤيد والامتعاض له من هضيمة وحجره ، فسخطه عند ابن أبي عامر وقطع عنه رزق الوزارة ، وعفى اسمه من ديوانه ونادى بالبراءة منه .

وعقد لواضح مولاه على المغرب وعلى حرب زيري بن عطية ، وانتقى له الحماة من سائر الطبقات ، وأزاح عنهم وأمكنه من الأموال للنفقات وأحبال السلاح والكسي ، وأصبحه طائفة من ملوك العدو كانوا بالحضرة ، منهم : محمد بن الخير ابن محمد بن الخير وزيري بن حرروا بن عمها بكساس بن سيّد الناس . ومن بني يفرن أبو بخت ^(١) بن عبدالله بن بكار . ومن مكناسة اسماعيل بن البوري ومحمد بن عبدالله بن مدين ، ومن أزداجة خزرّون بن محمد وأمدّه بوجوه الجند . وفصل من الحضرة سنة سبع وثمانين وثلثمائة وسار في التعبئة وأجاز البحر إلى طنجة فعسكر بوادي رداث ^(٢) وزحف زيري بن عطية في قومه ، فعسكر إزاءه وتواقفا ثلاثة أشهر ، واتهم واضح رجالات بني مرزال بالادهان فأشخصهم إلى الحضرة وأغرى بهم المنصور فوبخهم وتنصّلوا فصفح عنهم ، وبعثهم في غير ذلك الوجه . ثم تناول واضح حصن أصيلا ونكّور فضبطها واتصلت الوقائع بينه وبين زيري ، وبيّت واضح معسكر زيري بنواحي أصيلا وهم غارّون ^(٣) فأوقع بهم وخرج ابن أبي عامر من الحضرة لاستشراف أحوال واضح وإمداده ، فسار في التعبئة واحتلّ بالجزيرة عند فرضة المجاز ، ثم بعث عن ابنه المظفر من مكان استخلافه بالزاهرة ، وأجاز إلى العدو واستكمل معه أكابر أهل الخدمة وجلة القواد . وقفل المنصور إلى قرطبة واستراع ^(٤) خبر عبد الملك بالمغرب ورجع إليه عامّة أصحاب زيري من ملوك البربر وتناولهم من إحسانه وبرّه ما لم يعهدوا مثله .

وزحف عبد الملك إلى طنجة واجتمع مع واضح ، وتلوم هناك مزيجاً لعل العسكر، فلما

(١) وفي نسخة أخرى : ابو بخت .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : وادي ركاب .

(٣) بمعنى (مغيرون) .

(٤) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : استداع بمعنى ذاع وهذه من التعابير التي يستعملها ابن خلدون .

استم تدبيره زحف في جمع لا كفاء له . فلقبه زيري بوادي منى من أحواز طَنْجَة في شوال سنة ثمان وثمانين وثلثمائة فدارت بينهم حروب شديدة . وهم^(١) فيها أصحاب عهد الملك وثبت هو . وبينما هم في حومة الحرب إذ طعن زيري بعض المؤثرين من أتباعه اهتبل الفرّة في ذلك الموقف فطعنه ثلاثاً في نحره أشواه بها ، ومَرَّ يشتدّ نحو المظفر ، وبشره فاستكذبه لثبوت رايته ثم سقط إليه الصحيح فشدّ عليهم فاستوت الهزيمة وأثنى فيه بالقتل ، واستولى على ما كان في عسكرهم مما يذهب فيه الوصف . ولحق زيري بفاس جريحاً في قلّة ، فامتنع عليه أهلها ودافعوه بحرمه ، فاحتملهم وقرّ أمام العساكر إلى الصحراء ، وأسلم جميع أعماله . وطير عبد الملك بالفتح إلى أبيه فعظم موقعه عنده وأعلن بالشكر لله والدعاء وبثّ الصّدقات وأعتق الموالي ، وكتب إلى ابنه عبد الملك بعهدده على المغرب فأصلح نواحيه وسدّ ثغوره ، وبعث العمّال في جهاته : فأنفذ محمد بن الحسن بن عبد الودود في جند كثيف إلى تادلا^(٢) واستعمل حميد بن يصل المكناسي^(٣) على سجلماسة فخرج كل لوجهه ، واقتضوا الطاعة وحملوا إليه الخراج ، وأقل المنصور ابنه عبد الملك في جهادى من سنة تسع وثمانين وثلثمائة وعقد على المغرب لواضح فضبطه واستقام على تدبيره . ثم عزله في رمضان من سنته بعبيد الله ابن أخيه يحيى ، ثم ولّى عليه من بعده اسمعيل بن البوري ، ثم من بعده أبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبيّ إلى أن هلك المنصور .

وأعاد المظفر بن المعز بن زيري من متنبذه بالمغرب الأوسط لولاية أبيه بالمغرب فتزل فاس ، وكان من خبر زيري أنه لما استقل من نكبته وهزيمة عبد الملك إياه ، واجتمع إليه بالصحراء فلّ مغراوة ، وبلغه اضطراب صنهاجة واختلافهم على باديس بن المنصور بعد مهلك أبيه ، وأنه خرج عليه بعد عمومته مع ماكسن بن زيري ، فصرف وجهه حينئذ إلى أعمال صنهاجة ينتهز فيها الفرصة . واقتحم المغرب الأوسط ونازل تاهرت وحاصرها يطوّفت بن بلكين . وخرج باديس من القيروان صريحاً له . فلما مرّ بطبنة امتنع عليه فلفول بن خزرون وخالفه إلى أفريقية فشغل بحربه . وكان

(١) هم بالشيء : عزم عليه وقصد فعله ولم يعمله .

(٢) تادلا : مركز فلاحي عسكري يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ٥٠٠ م على الضفة اليمنى لوادي ام الربيع يقع وسط ناحية اشتهرت بتربية الاغنام ويجودة الاصناف (كتاب الغرب/٧٢) .

(٣) هو حميد بن يصلتين الكتامي (قبائل الغرب ١٢٠) .

أبو سعيد بن خزرون لحق بأفريقية وولاه المنصور على طينة كما تذكره ، فلما انتقض سار إليه باديس ودفع حماد بن بلكين في عساكر صنهاجة إلى مدافعة زيري بن عطية فالتقيا بوادي میناس قرب تاهرت ، فكانت الديرة على صنهاجة ، واحتوى زيري على معسكرهم واستلحم ألوفاً منهم . وفتح مدينة تاهرت وتلمسان وشلف وتنس والمسيلة ، وأقام الدعوة فيها كلها للمؤيد هشام ولحاجبه المنصور من بعده . ثم اتبع آثار صنهاجة إلى أشير قاعدة ملكهم ، فأناخ عليها واستأمن إليه زاوي بن زيري ومن معه من أكابر أهل بيته المنازعين لباديس فأعطاه منه ما سأل ، وكتب إلى المنصور بذلك يسترضيه ويشرط على نفسه الرهن والاستقامة إن أعيد إلى الولاية ، ويستأذنه في قدوم زاوي وأخيه خلّال ، فأذن لها وقدما سنة تسعين وثلثمائة ، وسأل أخوها أبو البهار مثل ذلك ، وأنفذ رسله يذكر تقديمه فسوّفه المنصور لما سبق من نكته . واعتلّ زيري بن عطية وهو بمكانه من حصار أشير فأفرج عنها . وهلك في منصرفه سنة إحدى وتسعين وثلثمائة واجتمع آل خزر وكافة مغراوة من بعده على ابنه السعز بن زيري فبايعوه ، وضبط أمرهم وأقصر عن محاربة صنهاجة ثم استجدى للمنصور واعتلق بالدعوة العامرية وصلحت حاله عندهم ، وهلك المنصور خلال ذلك ورغب المعز من ابنه عبد الملك المظفر أن يعيده إلى عمله على مال يحمله إليه وعلى أن يكون ولده معنصر رهينة بقرطبة فأجابه إلى ذلك وكتب له عهده وأنفذ به وزيره أبا علي بن خديم^(١) (ونسخته) : بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله من الحاجب المظفر سيف الدولة دولة الامام الخليفة هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر إلى كافة مدنيي فاس وكافة أهل المغرب سلّمهم الله أمّا بعد أصلح الله شأنكم وسلّم أنفسكم وأديانكم ، فالحمد لله علام الغيوب وغفار الذنوب ومقلب القلوب ذي البطش الشديد المبدي المعيد الفعّال لما يريد ، لا رادّ لأمره ، ولا معقب لحكمه ، بل له الملك والأمر ، وبيده الخير والشرّ ، إياه نعبد وإياه نستعين ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . وصلى الله على سيدنا محمد سيّد المرسلين وعلى آله الطيبين ، وجميع الأنبياء والمرسلين والسلام عليكم أجمعين .

(١) كذا في النسخة البارسية وفي نسخة أخرى : علي بن جدلم .

وإن المعز بن زيري بن عطية أكرمه الله تابع رسله لدينا وكتبه متنصلاً من هنات دفعته إليها ضرورات ، ومستغفراً من سيآت حطتها من توبته حسنات ، والتوبة محاء الذنب ، والاستغفار منقذ من العيب^(١) . وإذا أذن الله بشيء يسره ، وعسى أن تكرهوا شيئاً ولكم فيه خير . وقد وعد من نفسه استشعار الطاعة ، ولزوم الجادة ، واعتقاد الاستقامة وحسن المعونة وخفة المؤنة ، فولّيناه ما قبلكم ، وعهدنا إليه أن يعمل بالعدل فيكم ، وأن يرفع أعمال الجور عنكم . وأن يعمر سبلكم ، وأن يقبل من محسنكم ويتجاوز عن مسيئكم إلا في حدود الله تبارك وتعالى . وأشهدنا الله عليه بذلك وكفى بالله شهيداً . وقد وجّهنا الوزير أبا علي بن خديم أكرمه الله وهو من ثقاتنا ووجوه رجالنا ليأخذ بشأنه ويؤكد العهد فيه عليه بذلك ، وأمرناه بإشراككم فيه ونحن بأمركم معتنون وأحوالكم مطالعون ، وأن يقضي على الأعلى للأدنى ، ولا يرتضي فيكم بشيء من الأدنى فتقوا بذلك وأسكنوا إليه ولمحض القاضي أبو عبد الله أحكامه مشدوداً ظهره بنا ، معقوداً سلطانه بسلطاننا ، ولا تأخذه في الله لومة لائم ، فذلك طنبنا به إذ ولّيناه ، وأملنا فيه إذ قلّدناه ، والله المستعان ، وعليه التكلان ، لا إله إلا هو ، وتبلغوا منا سلاماً طيباً جزيلاً ورحمة الله وبركاته كتب في ذي القعدة من سنة ست وتسعين وثلاثمائة .

(ولما وصل) إلى المعز بن زيري عهد المظفر بولايته على المغرب ما عدا كورة سجلماسة ، فإنّ واضحاً مولى المنصور عهد في ولايته على المغرب بها لوانديين بن خزرّون بن فلفول حسباً نذكره ، فلم تدخل في ولاية المعز هذه . فلمّا وصله عهد المظفر ضمّ نشره^(٢) وثاب إليه نشاطه ، وبثّ عمّاله في جميع كور المغرب وجبي خراجها ، ولم تزل ولايته متسقة ، وطاعة رعاياه منتظمة .

(ولما) افترق أمر الجماعة بالأندلس واختلّ رسم الخلافة وصار الأمر فيها طوائف إستحدث المعز في التغلب على سجلماسة وانتراعها من أيدي بني وأندين بن خزرّون فأجمع لذلك ، ونهض إليه سنة سبع وأربعائة وبرزوا إليه في جموعهم فهزموه ، ورجع إلى فاس في قلّ من قومه وأقام على الاضطراب من أمره إلى أن هلك سنة سبع عشرة وأربعائة وولي من بعده ابن عمه حمامة بن المعز بن عطية ، وليس كما يزعم

(١) وفي نسخة ثانية : العتب .

(٢) النشر : القوم المتفرقون لا يجمعهم رئيس .

بعض المؤرخين انه ابنه وإنما هو اتفاق في الأسماء أوجب هذا الغلط ، فاستولى حماسة هذا على عملهم واستفحل ملكه ، وقصده الامراء والعلماء وأتته الوفود ومدحه الشعراء ثم نازعه الأمر أبو الكمال تميم بن زيري بن يعلى اليفرنى سنة أربع وعشرين وأربعمائة من بني يدوي بن يعلى المتغلبين على نواحي سلا ، وزحف إلى فاس في قبائل بني يفرن ومن انضاف إليهم من زناتة .

وبرز إليه حماسة في جموع مغراوة ومن إليهم فكانت بينهم حروب شديدة أجلت عن هزيمة حماسة . ومات من مغراوة أمم واستولى تميم على فاس وأمال المغرب ، ولما دخل فاس استباح يهود وسبى حرهم واصطلم نعمتهم ، ولحق حماسة بوجدة فامتد من هنالك من قبائل مغراوة من أنجاد مديونة وملوية . وزحف إلى فاس فدخلها سنة تسع وعشرين وأربعمائة وتخيّر تميم إلى موضع إمارته من سلا وأقام حماسة في سلطان المغرب . وزحف إليه سنة ثلاثين وأربعمائة القائد ابن حمّاد صاحب القلعة في جموع صنهاجة ، وخرج إليه مجعاً حربه ، وبثّ القائد عطاءه في زناتة واستعبدهم^(١) على صاحبهم حماسة ، فأقصر عن لقائه ولاذ منه بالسلم والطاعة ، رجع القائد عنه ورجع هو إلى فاس . وهلك سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة فوليّ بعده ابنه دوناس ويكنى أبا العطف ، واستولى على فاس وسائر عمل أبيه ، وخرج عليه لأوّل أمره حمّاد ابن عمه معنصر بن المعز فكانت له معه حروب ووقائع ، وكثرت جموع حمّاد فغلب دوناس على الضواحي وأحجره بمدينة فاس وخندق دوناس على نفسه الخندق المعروف بسياج حماد ، وقطع حمّاد جرية الوادي عن عدوة القرويين إلى أن هلك محاصراً لها سنة خمس وثلاثين وأربعمائة فاستقامت دولة دوناس ، وانفسحت أيامه ، وكثر العمران ببلده ، واحتفل في تشييد المصانع وأدار السور على أرباضها ، وبنى بها الحمامات والفنادق فاستبحر عمرانها ورحل التجار إليها بالبضائع ، وهلك دوناس سنة إحدى وخمسين وأربعمائة فوليّ بعده ابنه الفتوح ونزل بعدوة الأندلس ونازعه الأمر أخوه الأصغر عجيسة وامتنع بعدوة القرويين ، وافترق أمره بافتراقها وكانت الحرب بينهما سجلاً ، ومحالها بين المدينتين حيث يفضي باب النقبة بعدوة القرويين لهذا العهد ، وشيّد الفتوح باب عدوة الأندلس وهو مسمّى به إلى الآن ، واختطّ عجيسة

(١) وفي نسخة ثانية : واستفهمهم .

باب الجيسة وهو أيضا مسمى به وإنما حذفت عينه لكثرة الاستعمال ^(١) وأقاموا على ذلك إلى أن غدر الفتوح بعجيسة أخيه سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وبيته فظفر به وقتله ، ودهم المغرب أثر ذلك على ما دهمه من أمر المرابطين من لمتونة ، وخشي الفتوح مغبة أحوالهم فأفرج عن فاس .

وزحف صاحب القلعة بلكنين بن محمد بن حماد إلى المغرب سنة أربع وخمسين وأربعمائة على عادتهم في غزوه ، ودخل فاس واحتل من أكابرهم وأشرفهم رهناً على الطاعة ، وقفل إلى قلعة . وولى على المغرب بعد الفتوح معنصر بن حماد بن معنصر ^(٢) ، وشغل بحروب لمتونة . وكانت له عليهم الواقعة المشهورة سنة خمس وخمسين وأربعمائة ولحق بضربة ^(٣) وملك يوسف بن تاشفين والمرابطون ، فاس وخلف عليها عامله وارتحل إلى غمارة فخالفه معنصر إلى فاس وملكها وقتل العامل ومن معه من لمتونة ، ومثل بهم بالحرق والصلب . ثم زحف إلى مهدي ابن يوسف الكرنائي ^(٤) صاحب مدينة مكناسة ، وقد كان دخل في دعوة المرابطين فهزمه وقتله وبعث برأسه إلى سكوت البرغواطي الحاجب صاحب سبتة . وقد بلغ الخبر إلى يوسف بن تاشفين فسرح عساكر المرابطين لحصار فاس فأخذوا بمخنفها ، وقطعوا المرافق عنها حتى اشتد بأهلها الحصار ومستهم الجهد . وبرز معنصر لإحدى الراحتين فكانت الدبرة عليه ، وفقد في الملحمة ذلك اليوم سنة ستين وأربعمائة وباع أهل فاس من بعده لابنه تميم بن معنصر فكانت أيامه أيام حصار وفتنة وجهد وغلاء . وشغل يوسف بن تاشفين عنهم بفتح بلاد غمارة حتى إذا كان سنة إثنين وستين وأربعمائة وفرغ من فتح غمارة صمد إلى فاس فحاصرها أياماً ، ثم اقتحمها عنوة وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من مغراوة وبنو يفرن ومكناسة وقبائل زنانة . وهلك تميم في جملتهم حتى أعوزت مواراتهم فرادى ، فاتخذت لهم الأخاديد وقبروا جماعات . وخلص من نجا من القتل منهم إلى تلمسان ، وأمر يوسف بن تاشفين بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين العدوتين وصيرهما مصرأ ، وأدار عليهما سوراً واحداً ، وانقرض أمر مغراوة من فاس والبقاء لله سبحانه وتعالى .

(١) وفي نسخة ثانية : لكثرة الدوران في استعمالهم .

(٢) وفي نسخة ثانية : بن منصور .

(٣) وفي نسخة ثانية : ولحق بصدية .

(٤) وفي نسخة ثانية : الكرنائي .

بن منصور بن حماد بن المنصور بن العز بن زيري بن عطية بن عبدالله بن خزر

بن — أولاه القديد بن حماد صاحب القلعة

المنتصر —

— منصور بن مصال

الفتوح بن دوناس حمارة بن المعز —

بن جسة

* (الخبر عن بني خزرون ملوك سجلماسة من الطبقة الاولى من
مغراوة وأولية ملكهم ومصائره) *

كان خزرون بن فلفول من أمراء مغراوة وأعيان بني خَزَر ، ولما غلبهم بلكين بن زيري
على المغرب الأوسط تَحَيَّزُوا إلى المغرب الأقصى وراء ملوثة . وكان بنو خَزَر يدبنون
بالدعوة المروانية كما ذكرناه . وكان المنصور بن أبي عامر القائم بدولة المؤيد قد اقتصر
لأول حجابته من أحوال العدو على ضبط سبته برجال الدولة ووجوه القواد وطبقات
العسكر ، ودفع ما وراءها إلى أمراء زناتة من مغراوة وبني يفرن ومكناسة . وعول في
ضبط كوره وسداد ثغوره عليهم وتعهدهم بالعطاء وأفاض فيهم الإحسان فازدلفوا إليه
بوجوه التقربات وأسباب الوصائل . وكان خَزَرُون بن فلفول هذا زحف يومئذ إلى
سجلماسة وبها المعتر من أعقاب آل مدرار ، فانترى بها أخوه المنتصر بعد قفول جَوْهَر

إلى المغرب وظفر بأميرهم الشاكر لله محمد بن الفتح ، فوثب المنتصر من أعقابهم بعده على سجلماسة وتملكها . ثم وثب به أخوه أبو محمد سنة إثنين وخمسين وثلثمائة فقتله وقام بأمر سجلماسة ، وأعاد بها ملك بني مدرار وتلقب المعتر بالله فرحف إليه خزرون ابن فلفول سنة سبع وستين وثلثمائة في جموع مغراوة ويرز إليه المعتر فهزمه خزرون واستولى على مدينة سجلماسة ومحا دولة آل مدرار والخوارج منها آخر الدهر ، وأقام الدعوة بها للمؤيد هشام ، فكانت أول دولة أقيمت للمروانيين بذلك الصقع ، ووجد للمعتر مالا وسلاحا فاحتقنها وكتب بالفتح إلى هشام وأنفذ رأس المعتر فنصب بباب سدته ونسب الأثر في ذلك الفتح لصحابة محمد بن أبي عامر ويؤمن طائره ، وعقد لخزرون على سجلماسة وأعمالها ، وجاءه عهد الخليفة بذلك فضبطها وقام بأمرها إلى أن هلك ، فولى أمر سجلماسة من بعده ابنه وانودين .

ثم كان زحف زيري بن مناد إلى المغرب الأقصى سنة تسع وستين وثلثمائة وفرت زناته أمامه إلى سبتة . وملك أعمال المغرب وولى عليها من قبله وحاصر سبتة . ثم أفرج عنها وشغل بجهاد برغواطة ، وبلغه أن وانودين بن خزرون أغار على نواحي سجلماسة ، وأنه دخلها عنوة وأخذ عامله وما كان معه من الأموال والذخيرة ، فدخل إليها سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة وفصل عنها فهلك في طريقه ، ورجع وانودين بن خزون إلى سجلماسة . وفي أثناء ذلك كان استيلاء زيري بن عطية بن عبد الله بن خزر على المغرب وملك فاس بعهد هشام . ثم انتقض على المنصور آخرأ وأجاز ابنه عبد الملك في العساكر إلى العدو سنة ثمان وثمانين وأربعمائة فغلب عليها بني خزر ونزل فاس ، وبث العمال في سائر نواحي المغرب لسد الثغور وجباية الخراج ، وعقد فيما عقد على سجلماسة لحמיד بن يصل المكناسي^(١) النازع إليهم من أولياء الشيعة فعقد له على سجلماسة حين فر عنها بنو خزرون فملكها وأقام فيها الدعوة . ولما قفل عبد الملك إلى العدو وأعاد واضحا إلى عمله بفاس ، استأمن إليه كثير من بني خزر كان منهم وانودين بن خزر وصاحب سجلماسة وابن عمه فلفول بن سعيد فأمنهم ، ثم رجع وانودين إلى علمه بسجلماسة بعد أن تضامن أمرها وانودين وفلفول بن سعيد على مال مفروض ، وعدة من الخيل والدرك^(٢) يحملان إليه ذلك كل سنة . وأعطيا في ذلك

(١) حميد بن يصيلت الكنامي وقد مر معنا من قبل .

(٢) الدرك : ج درقة وهي الترس من الجلد ليس فيه خشب ولا عقب .

أبناءهما رهناً فعقد لهما واضح بذلك ، واستقل وانودين بعد ذلك بملك سجلماسة منذ أول سنة تسعين وأربعمائة مقيماً فيها للدعوة المروانية . ورجع المعز بن زيري إلى ولاية المغرب بعهد المظفر بن أبي عامر سنة ست وتسعين وأربعمائة واستثنى عليه فيها أمر سجلماسة لمكان وانودين بها . ولما انتثر سلك الخلافة بقرطبة ، وكان أمر الجماعة والطوائف واستبدّ أمراء الأمصار والثغور وولاة الأعمال بما في أيديهم ، استبدّ وانودين هذا بأعمال سجلماسة وتغلّب على عمل درعة واستضافه إليه .

ونهب المعز بن زيري صاحب فاس سنة سبع وأربعمائة مع جموع من مغراوة يحاول انتزاع هذه الأعمال من يد وانودين ، فبرز إليه في جموعه وهزمه ، وكان ذلك سبباً في اضطراب أمر المعز إلى أن هلك ، واستفحل ملك وانودين واستولى على صبرون^(١) من أعمال فاس وعلى جميع قصور ملوية ، وولّى عليها من أهل بيته . ثم هلك وولّى أمره من بعده ابنه مسعود بن وانودين ، ولم أقف على تاريخ ولايته ومهلك أبيه .

(ولمّا) ظهر عبدالله بن ياسين واجتمع إليه المرابطون من لتونة ومسوفة وسائر المتلّثمين ، وافتتحوا أمرهم بغزو درعة سنة خمس وأربعين وأربعمائة فأغاروا على إبل كانت هناك في حمى لمسعود بن وانودين وقتل كما ذكرناه في أخبار لتونة . ثم عاودوا الغزو إلى سجلماسة فدخلوها من العام المقبل مدخلوها ، وقتلوا من كان بها من فلّ مغراوة . ثم تّبّعوا من بعد ذلك أعمال المغرب وبلاد سوس وجبال المصامدة ، وافتتحوا صفروي سنة خمس وخمسين وأربعمائة وقتلوا من كان بها من أولاد وانودين وبقية مغراوة . ثم افتتحوا حصون ملوية سنة ثلاث وستين وأربعمائة وانقرض أمر بني وانودين كأن لم يكن ، والبقاء لله وحده وكل شيء هالك إلا وجهه ، سبحانه وتعالى لا ربّ سواه ، ولا معبود إلاّ آياه ، وهو على كل شيء قدير .

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : صفروي .

مسلود بن وانددين بن خزرون بن فلفول بن خزر	قتله عبدالله بن ياسين والمرابطون
	ملك سجلماسة من يد المعتز بن محمد بن مدرار وعقد له عليها هشام المؤيد
	فلفول بن سعيد —

* (الخبر عن ملوك طرابلس من بني خزرون بن فلفول من الطبقة الأولى وأولية أمرهم وتصارييف أحوالهم) *

كان مغراوة وبنو خزر ملوكهم قد تحيزوا إلى المغرب الأقصى أمام بلكنين ، ثم اتبعهم سنة تسع وستين وثلثمائة في زحفه المشهور ، وأحجرهم بساحل^(١) سبتة حتى بعثوا صريخهم إلى المنصور . وجاءهم إلى الجزيرة مشارفاً لأحوالهم وأمدّهم بجعفر بن يحيى ومن كان معه من ملوك البربر وزناته ، فامتنعوا على بلكنين ، ورجع عنهم فتقرى أعمال المغرب ، وهلك في منصرفه سنة إثنين وسبعين وثلثمائة ورجع أحياء مغراوة وبنو يفرن إلى مكانهم منه . وبعث المنصور الوزير حسن بن عبد الودود عاملاً

(١) وفي نسخة أخرى : بساحة .

على المغرب ، وقدم سنة ست وسبعين وثلثمائة واختص مقاتلاً وزيري إبن عطيّة بن عبد الله بن خَزَر بمزيد التكرمة ، ولحق نظراؤهما من أهل بيتها الغيرة من ذلك ، فترع سعيد بن خزون بن فلفول بن خزر إلى صنهاجة سنة سبع وسبعين وثلثمائة منحرفاً عن طاعة الأموية . ووافى المنصور بن بلكين بأشير منصرفه من إحدى غزواته ، فلتقاه بالقبول والمساهمة ، وبالع في تكرمته^(١) وعقد له على عمل طبنة سنة إحدى وثمانين وثلثمائة وخرج للقاءه ، واحتفل في تكرمته ونزله . وأدركه الموت بالقيروان فهلك لسته . ووفد إليه فلفول من مكان عمله ، فعقد له على عمل أبيه وخلع عليه ، وزف إليه ابنته ، وسوّغه ثلاثين حملاً من المال ، وثلاثين تحتاً من الثياب ، وقرب إليه مراكب بسروج مثقلة وأعطاه عشرة من البنود مذهبة ، وانصرف إلى عمله .

وهلك المنصور بن بلكين سنة خمس وثمانين وثلثمائة وولي ابنه باديس فعقد لفلفول على عمله بطبنة ، ولما انتقض زيري بن عطية على المنصور بن أبي عامر ، وسرح إليه ابنه المظفر كما قلناه ، فغلبه على أعمال المغرب . ولحق زيري بالقفر ، ثم عاج على المغرب الأوسط ، ونازل ثغور صنهاجة ، وحاصر تيهرت ، وبها يطوّف بن بلكين . وزحف إليه حماد بن بلكين من أشير في العساكر من ثلثمائة ، ومعه محمد بن أبي العرب قائد باديس ، بعثه في عساكر صنهاجة من القيروان مدداً ليطوّف . وأوغر إلى فلفول وهو بأشير أن يكون معهم . ولقيهم زيري بن عطية ففصّ جموعهم ، واستولى على معسكرهم ، واضطربت أفريقية فتنة وتكررت صنهاجة لمن كان يجهاتها من قبائل زناتة . وخرج باديس بن المنصور من رقادة في العساكر إلى المغرب . ولما مرّ بطبنة استقدم فلفول بن سعيد بن خزون ليستظهر به على حربه ، فاستراب واعتذر عن الوصول . وسأل تجديد العهد إلى مقدّم السلطان فأسعف . ثم اشتدت استراتبه ومن كان معه من مغاوة فارتحلوا عن طبنة وتركوها . ولما أبعد باديس رجع فلفول إلى طبنة فعاث في نواحيها ، ثم فعل في تيجس^(٢) كذلك ، ثم حاصر باغاية . وانتهى باديس

(١) بياض بالأصل وفي نسخة ثانية : واستبلغ في ترك الأحن .

(٢) مدينة قديمة عتيقة كانت تسكنها قبيلة ورغومة من القبائل البربرية ولعلها تيجيساس التي وصفها موليراس بأنها مدينة صغيرة جميلة ومرسى بحري وأنها محاطة بالحدائق الغناء (قبائل المغرب/ص ٣٠٧)

(المغرب المجهول ج ٢/٢٥٦)

إلى أشير وفرّ زيري بن عطية إلى صحراء المغرب ورجع على باديس بعد أن ولى على تاهرت وأشير عمّه يطوفت بن بلكين وانتهى إلى المسيلة فبلغه خروج عمومته ما كسن وزاوي وغرم ومغنين فخاف أبو البهار إحنّ زيري ولحق بهم من معسكره ، وبعث باديس في أثرهم عمّه حماد بن بلكين ، ورحل هو إلى فلفول بن سعيد بعد أن كان سرح عساكره إليه ، وهو محاصر باغاية ، فهزمهم وقتل قائدهم أبارعيل^(١) . ثم بلغه وصول باديس فأفرج عنها ، واتبعه باديس إلى مرماجنة ، فتراحفوا وقد اجتمع لفلفول من قبائل زناتة والبربر أمم ، فلم يثبتوا للقاء وانكشفوا عنه . وانهمز إلى جبل الحناش ، ونزل القيطنون بما فيه . وكتب باديس بالفتح إلى القيروان ، وقد كان الارجاف أخذ منهم المأخذ ، وفر كثير منهم إلى المهديّة وشرعوا في عمل الدروب بما كانوا يتوقعون من فلفول بن سعيد حين قتل أبا رعبل ، وهزم جيوش صنهاجة ، وكانت الواقعة آخر سنة تسع وثمانين وثلثمائة وانصرف باديس إلى القيروان ، ثم بلغه ان أولاد زيري اجتمعوا مع فلفول بن سعيد وعاقدوه ، ونزلوا جميعاً فحضرُوا تبسة فخرج باديس من القيروان إليهم ، فافترقوا ولحق العمومة بزيري بن عطية ما خلا ما كسن وابنه حسنا^(٢) ، فإنها أقاما مع فلفول . ورجع باديس في أثره سنة إحدى وتسعين وثلثمائة وانتهى إلى بسكرة ففرّ فلفول إلى الرمال . وكان زيري بن عطية محاصراً لأشير أثناء هذه الفتنة ، فأفرج عنها ، ورجع عنها أبو البهار إلى باديس ، وقفل معه إلى القيروان وتقدّم فلفول بن سعيد إلى نواحي قابس وطرابلس فاجتمع إليه من هنالك من زناتة ، وملك طرابلس على ما نذكره .

(وذلك) أنّ طرابلس كانت من أعمال مِصرَ وكان العامل عليها بعد رحيل معدّ إلى القاهرة عبدالله بن يخلف الكتامي . ولما هلك معدّ رغب بلكين من نزال العزيز إضافتها إلى عمله ، فأسعفه بها ، وولّى عليها تمصولة بن بكار من خواصّ مواليه . نقله إليها من ولاية بونة ، فلم يزل عليها إلى أن أرسل إلى الحاكم^(٣) بمصر يرغب الكون في حضرته ، وأن يتسلّم منه عمل طرابلس . وكان برّجوان الصّقلّي يستبد على

(١) وفي نسخة ثانية : أبا زعيل .

(٢) وفي نسخة ثانية : محسن .

(٣) وفي نسخة ثانية : فأقام عليها عشرين سنة إلى أيام باديس ، فتتكرّرت له الأحوال عما عهد ، وبعث الى الحاكم .

الدولة ، وكان يغصّ بمكان يأنس الصِّقْلِي منها ، فأبعده عن الحضرة لولاية برقه
ثم لما تتابعت رغبة تمصولة صاحب طرابلس ، أشار برجوان ببعث يأنس إليها ،
فعمد له الحاكم عليها ، وأمره بالنهوض إلى عملها فوصلها سنة تسعين وثلثمائة ولحق
تمصولة بمصر وبلغ الخبر إلى باديس ، فسرح القائد جعفر بن حبيب في العساكر
ليصده عنها . وزحف إليه يأنس فكانت عليه الهزيمة وقتل . ولحق فتوح بن علي من
قواده بطرابلس ، فامتنع بها ونازله جعفر بن حبيب وأقام عليها مدة . وبينما هو محاصر
له إذ وصله كتاب يوسف بن عامر عامل قابس يذكر أن فلفول بن سعيد نزل على
قابس ، وأنه قاصد إلى طرابلس ، فرحل جعفر عن البلد إلى ناحية الجبل ، وجاء
فلفول بن سعيد فنزل بمكانه ، وضاعت الحال بجعفر وأصحابه فارتحلوا مصممين
على المناجزة وقاصدين قابس ، فتخلى فلفول عن طريقهم وانصرفوا إلى قابس .
وقدم فلفول مدينة طرابلس فتلقاه أهلها ، ونزل له فتوح بن علي عن إمارتها فملكها ،
وأوطنها من يومئذ وذلك سنة إحدى وتسعين وثلثمائة وبعث بطاعته إلى الحاكم فسرح
الحاكم يحيى بن علي بن حمدون ، وعقد له على أعمال طرابلس وقابس ، فوصل
إلى طرابلس ، وارتحل معه فلفول وفتوح بن علي بن غفيا نان في عساكر زناته إلى
حصار قابس ، فحاصروها مدة ورجعوا إلى طرابلس . ثم رجع يحيى بن علي إلى
مِصْرَ واستبدّ فلفول بعمل طرابلس ، وطالت الفتنة بينه وبين باديس ، ونش من
صريخ مصر فبعث بطاعته إلى المهدي محمد بن عبد الجبار بقرطبة ، وأوفد إليه رسله
في الصريخ والمدد ، وهلك فلفول قبل رجوعهم إليه سنة أربعمائة ، واجتمعت زناته
إلى أخيه ورّوا بن سعيد .

وزحف باديس إلى طرابلس وأجفل ورّوا ومن معه من زناته عنها ، ولحق بباديس من
كان بها من الجند ، فلقوه في طريقه ، وتماذى إلى طرابلس فدخلها ونزل قصر
فلفول ، وبعث إليه ورّوا بن سعيد يسأل الأمان له ولقومه ، فبعث إليه محمد بن
حسن من صنائعه ، فاستقدم وفدهم بأمانه فوصلهم ، وولّى ورّوا على نفزاوة والنعيم
ابن كنون على قسطنطية وشرط عليهم أن يرحلوا بقومهم عن أعمال طرابلس ، فرجعوا إلى
أصحابهم . وارتحل باديس إلى القيروان ، وولّى على طرابلس محمد بن الحسن . ونزل
ورّوا بنفزاوة والنعيم بقسطنطية .

(ثم انتقض) ورّوا سنة إحدى وأربعمائة ، ولحق بسجبال ايدمر فتعاقدوا على

الخلاف ، واستضاف النعيم بن كنون نفزاوة إلى عمله . ورجع خزرون بن سعيد عن أخيه وروّا إلى السلطان باديس ، وقدم عليه بالقيروان سنة اثنتين وأربعمائة فتقبّله ووصله ، وولّاه عمل أخيه نفزاوة ، وولّى بني مجلية من قومه على قفصه ، وصارت مدن الماء كلّها لزنانة ، وزحف وروّا بن سعيد فيمن معه من زنانة إلى طرابلس ، وبرز إليه عاملها محمد بن حسن فتواقعوا ودارت بينهم حروب شديدة انهزم فيها وروّا ، وهلك الكثير من قومه . ثم راجع حصارها وضيق على أهلها فبعث باديس إلى خزرون وأخيه وإلى النعيم بن كنون وأمراء الجريد من زنانة بأن يخرجوا للحرب صاحبهم ، فخرجوا إليه وتواقعوا بعبرة^(١) ما بين قابس وطرابلس ، ثم اتفقوا ولحق أصحاب خزرون بأخيه وروّا . ورجع خزرون إلى عمله وأتهمه السلطان بالمداينة في شأن أخيه وروّا . فاستقدمه من نفزاوة فاستراب وأظهر الخلاف وسرّح السلطان إليه فتوح بن أحمد في العساكر فأجفل عن عمله ، واتبعه النعيم وسائر زنانة ، ولحقوا جميعاً بورّا بن سعيد سنة أربع وأربعمائة وتظاهروا على الخلاف ونصبوا الحرب على مدينة طرابلس .

واشتدّ فساد زنانة فقتل السلطان من كان عنده من رهن زنانة ، واتفق وصول مقاتل ابن سعيد نازعاً عن أخيه وروّا في طائفة من أبنائه وأخواله^(٢) فقتلوا معهم جميعاً ، وشغل السلطان بحرب عمّه حمّاد . ولما غلبه بشلب سته وانصرف إلى القيروان بعث إليه وروّا بطاعته ، ثم كان مهلك وروّا سنة خمس وأربعمائة وانقسم قومه على ابنه خليفة وأخيه خزرون بن سعيد ، واختلفت كلمتهم ودسّ حسن بن محمد عامل طرابلس في التصريف^(٣) بينهم . ثم صار أكثر زنانة إلى خليفة ، وناجز عمّه خزرون الحرب فغلبه على القيطون وضبط زنانة ، وقام فيهم بأمر أبيه وبعث بطاعته إلى السلطان باديس بمكانه من حصار القلعة فتقبّلها . ثم هلك باديس وولي ابنه المعزّ سنة ست وأربعمائة وانتقض خليفة بن وروّا عليه ، وكان أخوه حماد بن وروّا يضرب على أعمال طرابلس وقابس ، ويواصل عليه الغارة والنهب إلى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة فانقضّ عبدالله بن حسن صاحب طرابلس على السلطان وأمكنه من طرابلس . وكان

(١) وفي نسخة ثانية : بصيرة .

(٢) وفي نسخة ثانية : أخوانه .

(٣) وفي نسخة ثانية : التضريب .

سبب ذلك أن المعز بن باديس لأول ولايته استقدم محمد بن حسن من عمله ، واستخلف عليه أخاه عبدالله بن حسن وقدم على المعز وفوض اليه أمر^(١) مملكته ، وأقام على ذلك سبعاً ، وتمكّنت حاله عند السلطان ، وكثرت السعاية فيه فنكبه وقتله ، وبلغ الخبر إلى أخيه فانتقض كما قلناه ، وامكن خليفة بن وروا وقومه من مدينة طرابلس ، فقتلوا الصنهاجيين واستولوا عليها . ونزل خليفة بقصر عبدالله وأخرجه عنه ، واستصفى أمواله وحرمه . واتصل ملك خليفة بن وروا وقومه بني خزرون بطرابلس . وخاطب الخليفة بالقاهرة الظاهر بن الحكم سنة سبع عشرة وأربعمائة بالطاعة وضمان السابلة وتشيع الرّفاق ، ويحفظ عهده على طرابلس فأجابه إلى ذلك ، وانتظم في عمله . وأوفد في هذه السنة أخاه حمّاداً على المعز بهديته فتقبلها وكافأه عليها .

(هذا آخر ما حدث به) ابن الرقيق من أخبارهم ، ونقل ابن حمّاد وغيره أن المعز زحف أعوام ثلاثين وأربعمائة إلى زنّانة يجهات طرابلس ، فبرزوا إليه وهزموه . وقتلوا عبدالله بن حمّاد وسبوا أخته أم العلوبنت باديس ، ومثّوا عليها بعد حين وأطلقوها إلى أخيه . ثم زحف إليهم ثانية فهزموه . ثم أتيت له الكرة عليهم فغلبهم وأذعنوا لسلطانهم ، وأتقوه بالمهادنة ، فاستقام أمرهم على ذلك . وكان خزرون بن سعيد لما غلبه خليفة بن وروا على إمارة زنّانة لحق بمصر ، فأقام فيها بدار الخلافة ونشأ بنوه بها ، وكان منهم المنتصر بن خزرون وأخوه سعيد . ولما وقعت الفتنة بين الترك والمغاربة بمصر وغلبهم الترك وأجلوهم عنها ، لحق المنتصر وسعيد بطرابلس وأقاما في نواحيها . ثم ولي سعيد أمر طرابلس ولم يزل والياً عليها إلى أن هلك سنة تسع وعشرين وأربعمائة . (وقال أبو محمد) التيجاني في رحلته عند ذكر طرابلس : ولما قتلت زغبة سعيد بن خزرون سنة تسع وعشرين وأربعمائة قدم خليفة بن خزرون من القيطنون بقومه إلى ولايتها ، فأمكنه منها رئيس الشورى وبها يومئذ من الفقهاء أبو الحسن بن المنتصر المشتهر بعلم الفرائض ، وباع له ، وقام بها خزرون إلى سنة ثلاثين وأربعمائة بعدها فقام المنتصر بن خزرون في ربيع الأول منها ، ومعه عساكر زنّانة ، ففرّ خزرون بن خليفة من طرابلس مخفياً ، وملكها المنتصر بن خزرون ، وأوقع بابن المنتصر ونفاه ،

(١) وفي نسخة ثانية : تدبير .

واتصلت بها إمارته انتهى ما نقله التيجاني .

(وهذا الخبر) مشكل من جهة أن زغبة من العرب الهلالين وإنما جاؤا إلى أفريقية من مِصْرَ بعد الأربعين من تلك المائة ، فلا يكون وجودهم بطرابلس سنة تسع وعشرين وأربعمائة إلا إن كان تقدّم بعض أحيائهم إلى أفريقية من قبل ذلك .
فقد كان بنو مرة بركة ، بعثهم الحاكم مع يحيى بن علي بن حمدون . إلا أن ذلك لم ينقله أحد .

ولم تزل طرابلس بأيدي بني خزرون الزناتيين ولما وصل العرب الهلاليون وغلبوا المعز بن باديس على أعمال أفريقية واقتسموها كانت قابس وطرابلس في قسمة زغبة ، والبلد لبني خزرون . ثم استولى بنو سليم على الضاحية وغلبوا عليها زغبة ورحلهم عن تلك المواطن . ولم تزل البلد لبني خزرون . وزحف المتصّر بن خزرون مع بني عدي من قبائل هلال مجلباً على بني حماد حتى نزل المسيلة ونزل أشير . ثم خرج إليهم الناصر ، ففرّ أمامه إلى الصحراء ، ورجع إلى القلعة ، فرجعوا إلى الاحلاف على أعماله ، فراسله الناصر على الصلح وأقطعهم ضواحي الزاب وريغة ، وأوعز إلى عروس بن سندي رئيس بسكرة لعهدده أن يمكّره ، فلما وصل المتصّر إلى بسكرة أنزله عروس ثم قتله غيلة أعوام ستين وأربعمائة ، وولي طرابلس آخر من بني خزرون لم يحضرني إسمه واختلّ ملك صنهاجة واتصل فيهم ملك تلك الأعمال إلى سنة أربعين وخمسمائة .
ثم نزل بطرابلس ونواحيها في هذا العام مجاعة ، وأصابهم منه شدة هلك فيها الناس ، وفروا عنها وظهر اختلال أحوالها وفناء حاميتها ، فوجّه إليها رجار طاغية صقلية أسطولاً لحصارها بعد استيلائه على المهديّة وصفاقس واستقرار ولايته فيها ، ووقع بين أهل طرابلس الخلاف فغلب عليهم جرجي بن ميخايل قائد الأسطول وملكها ، وأخرج منها بني خزرون وولّى على البلد شيخهم أبا يحيى بن مطروح التميمي ، فانقرض أمر بني خزرون منها . وبقي منهم من بقي بالضاحية إلى أن افتتح الموحدون أفريقية آخر الدولة الصنهاجية . والملك لله وحده يؤتیه من يشاء من عباده سبحانه لا إله غيره .

خزرون بن خليفة بن وروا بن سعيد بن خزرون بن فلقول بن خزر

— سعيد بن خزرون —

— زروطن —

— كسنت —

الخبر عن بني يعلى ملوك تلمسان من آل خزر من أهل الطبقة الاولى والامام ببعض دولهم ومصاثرها

قد ذكرنا في أخبار محمد بن خَزَر وبنيه أنَّ محمد بن الخير الذي قتل نفسه في معركة بلَكَيْن كان من ولده الخير ويعلى . وأنها اللذان ثارا منه بأبيهما زيري فقتلوه واتبعهم بلَكَيْن من بعد ذلك وأجلاهم إلى المغرب الأقصى حتى قتل منهم محمد صبيرا أعوام ستين وثلثمائة بنواحي سجلماسة قبل وصول معدة إلى القاهرة ، وولاية بلَكَيْن على أفريقية وقام بأمر زناته بعد الخير ابنه محمد ، وعمه يعلى بن محمد . وتكررت إجازة محمد بن الخير هذا وعمه يعلى إلى المنصور بن أبي عامر كما ذكرنا ذلك من قبل . وغلبهم إبننا عطية بن عبدالله بن خزر وهما مقاتل وزيري على رياسة مغراوة . وهلك مقاتل واختص المنصور زيري بن عطية باثرته ، وولاه على المغرب كما ذكرناه ، وقارن ذلك مهلك بلَكَيْن وانتفاض أبي البهار بن زيري صاحب المغرب الأوسط على باديس ،

فكان من شأنه مع زيري ويدوي^(١) بن يعلى ما قدّمناه . ثم استقلّ زيري وغلّبهم جميعاً على المغرب ، ثم انتقض على المنصور فأجاز إليه ابنه المظفر وأخرج زناته من المغرب الأوسط ، فتوغّل زيري في المغرب الأوسط ونازل أمصاره وانتهى إلى المسيلة وأشير . وكان سعيد بن خزرون قد نزع إلى زناته وملك طبة . واجتمع زناته بأفريقية عليه وعلى ابنه فلقول من بعده . وانتقض فلقول على باديس عند زحف زيري إلى المسيلة وأشير ، وشغل باديس ثم ابنه المنصور على المغرب الأوسط بحروب فلقول وقومه ، ودفعوا إليه حمّاد بن بلكين فكانت بينه وبين زناته حروب سجال ، وهلك زيري بن عطية واستقل المغز وابنه بملك المغرب سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، وغلب صنهاجة على تلمسان وما إليها ، واختط مدينة وجدة كما ذكرنا ذلك كله من قبل . ونزل يعلى بن محمد مدينة تلمسان فكانت خالصة له ، وبقي ملكها وسائر ضواحيها في عقبه . ثم هلك حمّاد بعد استبداده ببلاد صنهاجة على آل بلكين وشغل بنوه بحرب بني باديس ، فاستوسق ملك بني يعلى خلال ذلك بتلمسان ، واختلفت أيامهم مع آل حمّاد سلماً وحرباً . ولما دخل العرب الهلاليون أفريقية وغلّبوا المغز وقومه عليها واقتسموا سائر أعمالها ، ثم تخطوا إلى أعمال بني حمّاد فأحجروهم بالقلعة . وغلّبهم على الضواحي فرجعوا إلى استئلافهم واستخلصوا الأثبج منهم وزغبة . فاستظهروا بهم على زناته المغرب الأوسط وأنزلوهم بالزاب ، وأقطعوهم الكثير من أعماله . فكانت بينهم وبين بني يعلى أمراء تلمسان حروب ووقائع . وكان زغب أقرب إليهم بالمواطن . وكان أمير تلمسان لعهدهم بختي من ولد يعلى . وكان وزيره وقائد حروبه أبو سعيد ابن خليفة بن^(٢) اليفري ، فكان كثيراً ما يخرج بالعساكر من تلمسان لقتال عرب الأثبج وزغبة ، ويحتشد من إليها من زناته من أهل المغرب الأوسط مثل . مغراوة وبني يفرن وبني يلومو وبني عبد الواد وتوجين وبني مرين ، وهلك في بعض تلك الملاحم هذا الوزير أبو سعيد أعوام خمسين وأربعمائة .

(ثم ملك) المرابطون أعمال المغرب الأقصى بعد مهلك يحيى^(٣) وولاية ابنه العباس ابن يحيى بتلمسان . وسرح يوسف بن تاشفين قائده مزدلي بن^(٤) في عساكر

(١) هو يدوي بن يعلى كما في قبائل المغرب وفي أماكن من بعض نسخ ابن خلدون وقد مرّ معنا من قبل .

(٢) بياض بالأصل وفي نسخة أخرى أبو سعدى مكان أبو سعيد .

(٣) وفي نسخة ثانية : بختي .

(٤) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد اسم والد هذا القائد في المراجع التي بين أيدينا .

لمتونة لحرب من بقي بتلمسان من مغراوة ، ومن لحق بهم من فلّ بني زيري وقومهم ، فدوّخ المغرب الأوسط وظفر بمعلي بن العباس بن بختي ، وبرز لمدافعتهم ، فهزمه وقتله وانكفّ راجعاً إلى المغرب . ثم نهض يوسف بن تاشفين بنفسه في جموع المرابطين سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة فافتتح تلمسان واستلحم بني يعلى ومن كان بها من مغراوة وقتل العباس بن بختي أميرها من بني يعلى . ثم افتتح وهران وتنس وملك جبل وانشريس وشلف إلى الجزائر وانكفّ راجعاً وقد محى أثر مغراوة من المغرب الأوسط وأنزل محمد بن تينعمر المسوفي في عسكر من المرابطين بتلمسان ، واختط مدينة تآكرارت بمكان معكسره وهو اسم الحلة بلسان البربر ، وهي التي صارت اليوم مع تلمسان القديمة التي تسمى أكادير بلداً واحداً ، وانقرض أمر مغراوة من جميع المغرب كان لم يكن والبقاء لله وحده سبحانه .

معلي بن العباس بن بختي بن (١)

بن يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر

* (الخبر عن أمراء أغمات من مغراوة) *

لم أقف على أسماء هؤلاء إلا أنهم أمراء بأغمات آخر دولة بني زيري بفاس ، وبني يعلى اليفرني بسلا وتادلا في جوار المصامدة وبرّ غواطة . وكان لقوط بن يوسف بن علي آخرهم في سني الخمسين وأربعمائة ، وكانت امرأته زينب بنت اسحق النفزاوية من إحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة . ولما غلب المرابطون على أغمات سنة تسع وأربعين وأربعمائة قرّ لقوط هذا إلى تادلا سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ، وقتل الأمير محمد واستلحم بني يفرن ، فكان فيمن استلحم وخلفه أبو بكر بن عمر أمير المرابطين على زينب بنت اسحق حتى اذا ارتحل إلى الصحراء سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة واستعمل ابن عمّه يوسف بن تاشفين على المغرب ، نزل له عن زوجه زينب هذه فكان لها رياسة أمره وسلطانه ، وما أشارت إليه عند مرجع أبي بكر من الصحراء في إظهار الاستبداد حتى تجافى عن منازعته ، وخلص ليوسف بن تاشفين

(١) بياض في جميع النسخ ولم نجد والد نجتي هذا في المراجع التي بين أيدينا .

ملكه كما ذكرناه في أخبارهم . ولم نقف من لقوط بن يوسف وقومه على غير هذا الذي كتبناه ، والله وليّ العون سبحانه .

الخبر عن بني سنجاس وريغة والاغواط وبني ورا من قبائل مغراوة من أهل الطبقة الاولى وتصاريق أحوالهم

هذه البطون الأربعة من بطون مغراوة وقد زعم بعض الناس أنهم من بطون زناتة غير مغراوة . أخبرني بذلك الثقة عن إبراهيم بن عبدالله التمر وغني^(١) قال وهو نسابه زناتة لعهدده : ولم تزل هذه البطون الأربعة من أوسع بطون مغراوة . (فأما) بنو سنجاس فلهم مواطن في كل عمل من أفريقية والمغربين ، فمنهم قبلة المغرب الأوسط بجبل راشد وجبل كريكرة^(٢) ويعمل الزاب ويعمل شلف ، ومن بطونهم بنو عيار^(٣) ببلاد شلف أيضاً ، وبنو عيار بأعمال قسنطينة . وكان بنو سنجاس هؤلاء من أوسع القبائل وأكثرهم عدداً ، وكان لهم في فتنة زناتة وصنهاجة آثار بأفريقية والمغرب ، وأكثرها في إفساد السبيل والعيث في المدن ، ونازلوا قفصة سنة أربع عشرة وخمسمائة بعد أن عاثوا يجهات القصر ، وقتلوا من وجدوا هنالك من عسكر تلكاتة^(٤) . وخرجت إليهم حامية قفصة فأثخنوا فيهم ، ثم كثر فسادهم ، وسرح السلطان قائده محمد بن أبي العرب في العساكر إلى بلاد الجريد فشردهم عنها وأصلح السابلة . ثم عادوا إلى مثلها سنة خمس عشرة وخمسمائة فأوقع بهم قائد بلاد الجريد وأثخن فيهم بالقتل ، وحمل رؤوسهم إلى القيروان فعظم الفتح فيهم ، ولم تزل الدولة تتبعهم بالقتل والاثخان إلى أن كسروا^(٥) من شوكتهم .

وجاء العرب الهلاليون وغلبوا على الضواحي كل من كان بها من صنهاجة وزناتة ، وتخيّر فلهم إلى الحصون والمعقل ، وضربت عليهم المغارم إلا ما كان ببلاد المغرب

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : التيمز وغني .

(٢) وفي النسخة الباريسية : كركرة .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : عيار وفي نسخة ثانية عئان .

(٤) وفي نسخة ثانية : ملكاتة .

(٥) وفي نسخة ثانية : خضدوا .

القفر مثل جبل راشد ، فإنهم لبعدهم عن منازل الملك لا يعطون مغرمًا ، إلا أنه غلب عليهم هنالك العمور من بطون الهلاليين ، ونزلوا معهم . وملكوا عليهم أمرهم وصاروا لهم فينه ومن بني سنجاس من نزل الزاب ، وهم لهذا العهد أهل مغارم لمن غلب على ثغورهم من مشايخهم ، وأما من نزل منهم ببلاد شلف ونواحي قسنطينة فهم لهذا العهد أهل مغارم للدول . وكان دينهم جميعاً الخارجية على سنن زناتة في الطبقة الأولى ، ومن بقي منهم اليوم بالزاب فعلى ذلك . ومن بني سنجاس هؤلاء بأرض المشيل^(١) من جبل بني راشد وطنوا جبلاً في جوار غمرة وصاروا عند تغلب الهلاليين في ملكهم يقبضون الأتاوة منهم . ونزل منهم لهذا العهد الصحاري من بطون عروة من زغبة ، وغلبوهم على أمرهم وأصاروهم خولاً .

(وأما بنو ريغة) فكانوا أحياء متعدّدة ولما افترق أمر زناتة تحيّر منهم إلى جبل عيّاض وما إليه من البسيط إلى نقاوس وأقاموا في قياطينهم ، فمن كان بجبل عيّاض منهم أهل مغارم لأمراء عيّاض يقبضونها للدولة الغالبة ببجاية ، وأما من كان ببسيط نقاوس فهم في أقطاع العرب لهذا العهد . ونزل أيضاً الكثير منهم ما بين قصور الزاب وواركلا ، فاختطوا قصوراً^(٢) كثيرة في عدوة واد ينحدر من المغرب إلى المشرق يشتمل على المصر الكبير والقرية المتوسطة ، والأطم قد رُفّ عليها الشجر ونضدت حفافها النخيل ، وانساحت خلالها المياه ، وزهت ينابيعها الصحراء ، وكثر في قصورها العمران من ريغة هؤلاء ، وبهم تعرف لهذا العهد ، وهم أكثرها . ومن بني سنجاس وبني يفرن وغيرهم من قبائل زناتة . وتفرّقت جماعتهم للتنازع في الرياسة فاستقلت كل طائفة منهم بقصور منها أو بواحد . ولقد كانت فيما يقال أكثر من هذا العدد أضعافاً وإنّ ابن غانية المسوفي حين كان يجلب على بلاد أفريقية والمغرب في فتته مع الموحدين خرّب عمرانها ، واجتث شجرها ، وغوّر مياهها ، ويشهد لذلك آثار العمران بها في أطلال الديار ورسوم البناء وأعجاز النخل المنقر ، وكان هذا العمل يرجع في أول الدولة الحفصية لعامل الزاب ، وكان من الموحدين ، ونزل بسكرة ما بينها وبين مغرة ، وكان من أعماله قصور واركلا أيضاً . ولما فتك المنتصر بمشيخة الزاودة كما قلناه في أخباره ، وقتلوا بعد ذلك عامل الزاب ابن عتوا من مشيخة

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : المشتل .

(٢) وفي نسخة ثانية : قرى .

الموحدين ، وغلبوا على ضواحي الزاب وواركلا . وأقطعهم إياها الدول بعد ذلك فصارت في أقطاعهم . ثم عقد صاحب بجاية بعد ذلك على العمل كله لمنصور بن مزني واستقرّ في عقبه . فربما يسمون بعض الأحيان أهل تلك القصور المغرم للسلطان بما كان من الأمر القديم ، ويعسكر عليهم في ذلك كئاثب من رجالة الزاب وخيالة العرب ، ويبرز عليها بأمر الزاودة . ثم يقاسمهم فيما يمتريه منهم . وأكبر هذه الأمصار يسمّى تُقَرّت ، مصر مستبحر العمران بدويّ الأحوال ، كثير المياه والنخل ، ورياسته في بني يوسف بن عبدالله كانت لعبيدالله بن يوسف ، ثم لابنه داود ، ثم لأخيه يوسف بن عبيدالله . وتغلّب على واركلا من يد أبي بكر بن موسى أزمان حدائته ، وأضافها إلى عمله . ثم هلك وصار أمر تُقَرّت لأخيه مسعود بن عبيدالله ، ثم لابنه حسن بن مسعود ، ثم لابنه أحمد بن حسن شيخها لهذا العهد . وبنو يوسف بن عبدالله هؤلاء من ريغة ، ويقال إنهم من سِنْجَاس ، وفي أهل تلك الأمصار من مذاهب الخوارج وفرقهم كثير ، وأكثرهم على دين الغزابية^(١) ومنهم النكارية ، وأقاموا على انتحال هذه الخارجية لبعدهم عن منال الأحكام . ثم بعد مدينة تُقَرّت بلد تماسين وهي دونها في العمران والخطّة ورياسته لبني ابراهيم بن^(٢) من ريغة وسائر أمصارهم كذلك ، كل مصر منها مستبد بأمره وحرب لجاره .

(وأما لقواط) وهم فخذ من مغراوة أيضا فهم في نواحي الصحراء ما بين الزاب وجبل راشد ، ولهم هنالك قصر مشهور بهم ، فيه فريق من أعقابهم على سغب من العيش لتوغّله في القفر ، وهم مشهورون بالنجدة والامتناع من العرب ، وبينهم وبين الدوسن أقصى عمل الزاب مزحلتان ، وتختلف قصودهم إليهم لتحصيل المرافق منهم . والله يخلق ما يشاء ويختار .

وأما بنو ورا) فهم فخذ من مغراوة أيضاً ، ويقال من زناتة وهم متشعبون ومفترقون بنواحي المغرب : منهم بناحية مراکش والسوس ومنهم ببلاد شلف ومنهم بناحية قسنطينة ولم يزلوا على حالهم منذ انقراض زناتة الأولين ، وهم لهذا العهد أهل مغارم وعسكرة مع الدول ، وأكثر الذين كانوا بمراكش قد انتقل رؤسائهم إلى ناحية شلف نقلهم يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين في أول هذه المائة الثامنة ، لما

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : الغزابة وفي نسخة ثانية : القرابة .

(٢) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة اسم والده في المراجع التي بين أيدينا .

ارتاب بأمرهم في تلك الناحية ، وخشي من إفسادهم وعيبتهم ، فنقلهم في عسكر الى موطن شلف لحمايته ، فترلوا به . ولما ارتحل بنومرين من بعد مهلك يوسف بن يعقوب أقاموا ببلاد شلف فأعقابهم بها لهذا العهد ، وأحوالهم جميعاً في كل قطر متقاربة في المغرم والعسكرة مع السلطان ولله الخلق والأمر جميعاً . سبحانه لا إله إلا هو الملك العظيم .

*** (الخبر عن بني يرنيان اخوة مغراوة وتصارييف أحوالهم) ***

قد ذكرنا بني يرنيان هؤلاء ، وأنهم إخوة مغراوة وبني يفرن ، والكل ولد يصلتين . ونسبهم جميعاً إلى جانا مذكور هنالك ، وهم مبثوثون كثيراً بين زناته في المواطن . وأمّا الجمهور منهم فموطنهم بملوثة من المغرب الأقصى ما بين سجلماسة وكرسيف ، كانوا هناك مجاورين لمكناسة في مواطنهم ، واختلطوا حقافي وادي ملوثة قصوراً كثيرة متقاربة الخطّة ، ونزلوها وتعدّدت بطونهم وأفخاذهم في تلك الجهات . ومنهم بنو وطاط متوطنون لهذا العهد بالجبال المطلة على وادي ملوية من جهة القبلة ، ما بينه وبين تازي وفاس ، وهم تعرف تلك القصور لهذا العهد ، وكان لبني يرنيان هؤلاء صولة واعتزاز ، وأجاز الحكيم بن المستنصر منهم ، والمنصور بن أبي عامر من بعده فيمن أجازوه من زناته في المائة الرابعة ، وكانوا من أفحل جند الأندلس وأشدّهم شوكة . وبقي أهل المواطن منهم في مواطنهم مع مكناسة أيام ملكهم ، ويجمعهم معهم عصبية يحبى . ثم كانوا مع مغراوة أيضاً أيام ملكهم المغرب الأقصى ولما ملك لمتونة والموحّدون من بعدهم لحق الظواغن منهم بالقفر ، فاختلطوا بأحياء بني مرين الموالين لتلول المغرب من زناته ، أقاموا معهم في أحيائهم ، وبقي من عجز عن الظعن منهم بمواطنهم : مثل بني وطاط وغيرهم ، ففرضت عليهم المغارم والجبايات . ولما دخل بنومرين للمغرب ساهموهم في اقتسام أعماله ، وأقطعوهم البلد الطيب من ضواحي سلا والمعمورة ، زيادة إلى وطنهم الأول بملوية ، وأنزلوهم بنواحي سلا بعد أن كان منهم انحراف عنهم في سبيل المدافعة عن أوطانهم الأولى . ثم

اصطلحوا^(١) ورعى لهم بنو عبد الحق سابقتهم معهم فاصطفوهم للوزارة والتقدم في الحرب ، ودفعوهم الى المهات وخلطوهم بأنفسهم . وكان من أكابر رجالاتهم لعهد السلطان أبي يعقوب وأخيه أبي سعيد الوزير ابراهيم بن عيسى ، استخلصوه للوزارة مرة بعد أخرى ، واستعمله السلطان أبو سعيد على وزارة ابنه أبي علي ، ثم لوزارته . واستعمل ابنه السلطان أبو الحسن أبناء ابراهيم هذا في أكابر الخدام فعقد لمسعود بن ابراهيم على أعمال السوس عندما فتحها أعوام الثلاثين والسبعائة ، ثم عزله بأخيه حسون ، وعقد لحسون على بلاد الجريد من أفريقية عند فتحه إياها سنة ثمان وأربعين وسبعائة وكان فيها مهلكه . ونظم أخاها موسى في طبقة الوزارة ، ثم أفرد بها أيام نكبته وإحاقه بجبل هتاته ، واستعمله السلطان أبو عنان بعد في العظيمات ، وعقد له على أعمال سدويكش بنواحي قسنطينة . ورشح ابنه محمد السبيع لوزارته إلى أن هلك ، وتقلبت بهم الأيام بعده . وقلد عبد الحميد^(٢) المعروف بحلى ابن السلطان أبي علي وزارته محمد بن السبيع بعد هذا أيام حصاره لدار ملكهم سنة اثنتين وستين [وسبعائة كما نذكره في أخبارهم ، فلم يقدّر لهم الظفر . ثم رجع السبيع بعدها إلى محله من دار السلطان وطبقة الوزارة ، وما زال يتصرف في الخدم الجليلة والأعمال الواسعة ما بين سجلماسة ومراكش وأعمال تازى وتادلا وغمارة ، وهو على ذلك لهذا العهد . والله وراث الأرض ومن عليها سبحانه لا إله غيره .

* (الخبر عن وجديين وأوغمرت من قبائل زناتة ومبادىء
أحوالهم وتصاريقهم) *

قد تقدم أن هذين البطين من بطون زناتة من ولد ورتييص بن جانا ، وكان لهم عدد وقوة ، ومواطنهم مفترقة في بلاد زناتة . فأما وجديين فكان جمهورهم بالمغرب الأوسط ، ومواطنهم منه منداس ما بين بني يفرن من جانب المغرب ، ولوالة من جانب القبلة في السرسو ، ومطاطة في جانب الشرق في وانشريس ، وكان أميرهم

(١) وفي نسخة ثانية : ثم اصطلحوا .

(٢) وفي نسخة ثانية : عبد الحليم .

لعهد يحيى بن محمد اليفرنى رجلاً منهم اسمه عَنان ، وكان بينهم وبين لواتة المواطنين بالسرسو فتنة متصلة ، يذكر أنها بسبب امرأة من وجديجن نكحت في لواتة وتلا ، جامعها نساء قيطونهم فغيرنها بالفقر ، فكتب بذلك إلى عَنان تدمره^(١) ، فغضب واستجاش بأهل عصبته من زناتة وجيرانه ، فزحف معه يعلى في بني يفرن وكلام بن حياتي^(٢) في مغيلة وغرابة في مطاطة ، ودارت الحرب بينهم وبين لواتة ملياً . ثم غلبوا لواتة على بلاد السرسو وانتها بهم إلى كدية العابد من آخرها وهلك عَنان شيخ وجديجن في بعض تلك الوقائع بملاكوا من جهات السرسو . ثم لجأت زناتة إلى جبل كريكرة قبله السرسو ، وكان يسكنه أحياء من مغراوة يعرف شيخهم لذلك العهد علاهم ربيب لشيخهم عمر بن تامصا الهالك قبله ، ومعنى تامصا بلسان البربر الغول . ولما لجأت لواتة إليه غدر بهم وأغرى قومه ، فوضعوا أيديهم فيهم قتلاً وسلباً فلاذوا بالفرار ولحقوا بجبل معود^(٣) وجبل دراك فاستقروا هناك آخر الدهر . وورثت وجديجن مواطنهم بمنداس إلى أن غلبهم عليها بنو يلومين^(٤) ، وبنو ومانوكل من جهته ، ثم غلب الآخريين عليها بنو عبد الواد ، وبنو توجين إلى هذا العهد . والله وارث الأرض ومن عليها .

(وَأَمَّا أُوغَمَرْت^(٥)) ويسمى لهذا العهد غمرت ، وهم إخوة وجديجن من ولد ورتنيص بن جانا كما قلناه . فكانوا من أوفر القبائل عدداً ، ومواطنهم متفرقة ، وجمهورهم بالجبال إلى قبله بلاد صنهاجة من المشتل إلى اللوسن وكان لهم مع أبي يزيد صاحب الحمار في الشيعة آثار ، وأوقع بهم اسمعيل القائم عند ظهوره على أبي يزيد وأثنخ فيهم ، وكذلك بلكين وصنهاجة من بعده . ولما افترق أمر صنهاجة لحمّاد وبنيه كانوا شيعاً لهم على بني بلكين . ونزع عن حمّاد أيام فتنته ابن أبي جلى من مشيختهم ، وكان مختصاً بهم ، إلى باديس ، فوصله وحمل أصحابه ، وعقد له على طينة وأعمالها . حتى إذا جاء العرب الهلاليون وغلبوهم على الضواحي اعتصموا بتلك الجبال قبله المسيلة وبلاد صنهاجة ، وقعدوا بها عن الظعن ، وتركوا القيطون إلى

(١) تدمره : هدهد ، وذمره على الأمر : حضه مع لوم ليجد فيه .

(٢) وفي نسخة ثانية : كلام بن حيات .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة بولاق : العود ، وفي نسخة أخرى : يعود .

(٤) وفي نسخة أخرى : يلومي .

(٥) وفي نسخة أخرى : واغمرت .

سكنى المدن . ولما تغلب الزاودة على ضواحي الزاب وما إليها ، أقطعتهم الدولة مغارم هذه الجبال التي لغمرت . وهم لهذا العهد في سهان أولاد يحيى بن علي بن سباع من بطونهم وكان في القديم من غمرت هؤلاء كاهن زناتة موسى بن صالح مشهور عندهم حتى الآن ، ويتناقلون بينهم كلماته برطانتهم على طريق الرجز ، فيها أخبار بالحدثان فيما يكون لهذا الجيل الزناتي من الملك والدولة ، والتغلب على الأحياء والقبائل والبلدان . شهد كثير من الواقعات على وفقها بصحتها ، حتى لقد نقلوا من بعض كلماته ما معناه باللسان العربي أن تلمسان مآلها الخراب ، وتصير دورها فُدناً حتى يثير أرضها حرّاث أسود بثور أسود أعور . وذكر الثقات أنهم عاينوا ذلك بعد انتشار كلماته هذه أيام لحقها الخراب في دولة بني مرين الثانية سنة ستين وسبعائة ، وأفرط الخلاف بين هذا الجيل الزناتي في التشيع له والحمل عليه ، فمنهم من يزعم أنه نبي أو وليّ ، وآخرون يقولون كاهن شيطان ، ولم تقفنا الأخبار الصحيحة على الجلي من أمره . والله سبحانه وتعالى أعلم لا ربّ غيره .

* (الخبر عن بني واركلا من بطون زناتة والمصر المنسوب إليهم
بصحراء افريقية وتصارييف أحوالهم) *

بنو واركلا هؤلاء إحدى بطون زناتة كما تقدّم ، من ولد فرني^(١) بن جانا ، وقد مرّ ذكرهم . وأنّ أخوتهم الدبرت ومرنجيصة وسبرترة ونمالة^(٢) والمعروفون لهذا العهد ، منهم بنو واركلا وكانت فثتهم قليلة ، وكانت مواطنهم قبلة الزاب ، واختلطوا المصر المعروف بهم لهذا العهد على ثمان مراحل من بسكرة في القبلة عنها ميامنة إلى المغرب ، بنوها قصوراً متقابلة متقاربة الخطة . ثم استبحر عمرانها فنا تَلَفَتْ وصارت مصرأً واحداً . وكان معهم هناك جماعة من بني زنداك من مغراوة ، واليهيم كان هرب أبي زيد النكاري^(٣) عند فراره من الاعتقال سنة خمس وعشرين وثلثمائة ، وكان مقامه بينهم سنة يختلف إلى بني برزال قبلة المسيلة بسالات ، وإلى

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى فريني .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : يزمرتن ومنجصة وغالته .

(٣) وفي نسخة ثانية : ابن أبي يزيد النكاري .

قبائل البربر يجبل أوراس ، يدعوهم جميعاً إلى مذهب النكارية ، إلى أن ارتحل إلى أوراس ، واستبحر عمران هذا المصر واعتصم به بنو واركلا ههؤلاء ، والكثير من ظواغن زناتة عند غلب الهلالين إياهم على الضواحي ، واختصاص الأثبج بضواحي القلعة والزاب وما إليها .

ولما استبد الأمير أبو زكريا بن أبي حفص بملك أفريقية وجال في نواحيها في اتباع بن غانية ، مرّ بهذا المصر فأعجبه وكلف بالزيادة في تمصيره ، فاخترط مسجده العتيق ومأذنته المرتفعة ، وكتب عليها اسمه وتاريخ وضعه نقشاً في الحجر . وهذا البلد لهذا العهد باب لولوج السفر^(١) من الزاب إلى المفازة الصحراوية المفضية إلى بلاد السودان يسكنها التجار الداخلون لها بالبضائع وسكانه لهذا العهد من بني واركلا وأعقاب إخوانهم من بني يفرن ومغراوة ، ويعرف رئيسه باسم السلطان ، شهرة غير نكيرة بينهم ، ورياسته هذه الأعصار مخصوصه ببني أبي عبدل^(٢) ، ويزعمون أنهم من بني واكين إحدى بيوت بني واركلا ، وهو لهذا العهد أبو بكر بن موسى بن سليمان من بني أبي عبدل ، ورياستهم متصلة في عمود هذا النسب وعلى عشرين مرحلة من هذا في القبلة منحرفاً إلى المغرب ييسر بلد تكرت^(٣) قاعدة وطن المثلثين وركاب الحجاج من السودان اختطه المثلثون من صنهاجة وهم سكانه لهذا العهد ، وصاحبه أمير من بيوتهم يعرفونه باسم السلطان ، وبينه وبين أمير الزاب مراسلة ومهاداة . (ولقد) قدمت على بسكرة سنة أربع وخمسين أيام السلطان أبي عنان في بعض الأغراض السلطانية ولقيت رسول صاحب تكرت عند يوسف بن مزني أمير بسكرة ، وأخبرني عن استبحار هذا المصر في العمارة ومرور السابلة ، وقال لي : اجتاز بنا هذا العام سفر من تجار المشرق إلى بلد مالي كانت ركا بهم إثني عشر ألف راحلة . وذكر لي غيره أنّ ذلك هو الشأن في كل سنة . وهذا البلد في طاعة سلطان مالي من السودان كما في سائر تلك البلاد الصحراوية المعروفة بالمثلثين^(٤) لهذا العهد ، والله غالب على أمره سبحانه .

(١) بمعنى المسافرين .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : أبي غبول .

(٣) وفي نسخة ثانية : تكدرت .

(٤) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : باطلستين .

* (الخبر عن دمر من بطون زناتة ومن ولي منهم بالاندلس
وأولية ذلك ومصائره) *

بنو دمر هؤلاء من زناتة وقد تقدّم أنهم من ولد ورسيك بن الديرت بن جانا ،
وشعوبهم كثيرة ، وكانت مواطنهم بأفريقية في نواحي طرابلس وجبالها وكان منهم
آخرون ظلوا من عرب أفريقية . ومن بطون بني دمر هؤلاء بنو ورغمة ، وهم لهذا
العهد مع قومهم بجبال طرابلس . ومن بطونهم أيضاً بطن متسع كثير الشعوب وهم :
بنو وريندين بن وانت بن واردين بن دمر ، وأن من شعوبهم بني ورتاتين وبني عزرول
وبني تغورت ، وربما يقال إن هؤلاء الشعوب لا ينتسبون إلى بني وريندين كما تقدّم ،
وبقايا بني وريندين لهذا العهد بالجبل المطل على تلمسان ، بعد أن كانوا في البسيط
قبلته ، فزاحمهم بنو راشد حين أجلوهم من بلادهم بالصحراء إلى التل ، وغلبوهم
على تلك البسائط فإتزاحوا إلى الجبل المعروف بهم لهذا العهد ، وهو المطل على
تلمسان وكان قد أجاز إلى الأندلس من بني دمر هؤلاء أعيان ورجالات حرب فيمن
أجاز إليها من زناتة وسائر البربر ، أيام أخذهم بدعوة المنتصر^(١) فضمّهم السلطان إلى
عسكره ، واستظهر بهم المنصور بن أبي عامر من بعد ذلك على شأنه ، وقوى بهم
المستعين أديم دولته ، ولما اعصوب البربر على المستعين وبني حمود من بعده وغالبوا
جنود الأندلس من العرب ، وكانت الفتنة الطويلة بينهم التي نثرت سلك الخلافة
وفرقت شمل الجماعة ، واقتسموا خطط الملك وولايات الأعمال ، وكان من رجالاتهم
نوح الدمري ، وكان من عظماء أصحاب المنصور ، وولاه المستعين أعمال مورور^(٢)
وأركش فاستبدّ بها سنة أربع في غمار الفتنة ، وأقام بها سلطاناً لنفسه إلى أن هلك سنة
ثلاث وثلاثين ، فولى ابنه أبا مناد محمد بن نوح وتلقّب بالحاجب عز الدولة لقبين في
قرن شأن ملوك الطوائف . وكانت بينه وبين ابن عبّاد شأن غرب الأندلس . خطوب
ومرّ المعتضد في بعض أسفاره بخصن أركش ، وتطوّف به مخفياً فقبض عليه بعض
أصحاب ابن نوح ، وساقه إليه ، فخلّى سبيله وأولاه كرامة احتسبها عنده يداً ،

(١) وفي نسخة ثانية : بدعوة الحكم المنتصر .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : مودور وفي نسخة ثانية : مدور .

وذلك سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة ، فانطلق إلى دار ملكه ورجع بعدها إلى ولاية الملوك الذين حوله من البربر . وأسجل لابن نوح هذا على عَمَلِيْ أركش ومورور فيمن أسجل له منهم ، فصاروا إلى مخالصته إلى أن استدعاهم سنة خمس وأربعين وثلثمائة بعدها إلى صنع ودعا إليه الجفلى من أهل أعماله ، واختصه بدخول حمام أعدّه لهم استبلاغاً في تكريمهم . وتحلّف ابن نوح عنده من بينهم ، فلما حصلوا داخل الحمام أطبقه عليهم ، وسدّ المنافس للهوى دونهم إلى أن هلكوا . ونجا منهم ابن نوح لسالفه يده ، وطير في الحين من تسلّم معاقلمهم وحصونهم ، فانتظمهم في أعماله . وكان منها رَنْدَة^(١) وشريش وسائر أعمالها ، وهلك من بعد ذلك الحاجب أبو مناد بن نوح سنة^(٢) ، ووليّ ابنه أبو عبدالله ، ولم يزل المعتضد يضايقه إلى أن انخلع سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، فانتظمها في أعماله وسار إليه محمد بن أبي مناد إلى أن هلك سنة ثمان وستين وانقرض ملك بني نوح والبقاء لله وحده سبحانه .
أبو عبدالله بن الحاجب أبي مناد بن نوح الدمري .

* (الخبر عن بني برزال إحدى بطون دمر وما كان لهم من الحال بقرموثة وأعمالها من الأندلس أيام الطوائف وأولية ذلك ومصائرهم) *

قد تقدّم لنا أنّ بني برزال هؤلاء من ولد ورنيدين^(٣) بن وانتن بن واردير بن دمر ، كما ذكره ابن حزم ، وأنّ إخوتهم بنو يصدرين وبنو صمغان^(٤) وبنو يطوف . وكان بنو برزال هؤلاء بأفريقية ، وكانت مواطنهم منها جبل سالات وما إليها من أعمال المسيلة . وكان لهم ظهور ووفور عدد ، وكانوا نكارية من فرق الخوارج . ولما قرّ أبو زيد أمام اسمعيل المنصور ، وبلغه أنّ محمد بن خزر يترصد له ، أجمع الاعتصام بسالات وصعد إليه ، وأرهقته عساكر المنصور فانتقل عنه إلى كتامة . وكان من أمره

(١) وفي نسخة أخرى : وفدة .

(٢) بياض في الأصل ولم نستطع تحديد سنة مهلكه في المراجع التي بين أيدينا .

(٣) وفي نسخة ثانية : ورنيد .

(٤) وفي نسخة ثانية : بنو صغار .

ما قدّمناه . ثم استقام بنو برزال على طاعة الشيعة وموالاة جعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة والزاب ، حتى صاروا له شيعاً .

(ولما انتقض) جعفر بن معد سنة ستين وثلثمائة كان بنو برزال هؤلاء في جملته من أهل خصوصيته ، فأجازوا معه البحر إلى الأندلس أيام الحكم المستنصر ، فاستخدمهم ونظمهم في طبقات جنده إلى من كان به من قبائل زناتة وسائر البربر أيام أخذهم بالدعوة الأموية ، ومحاربتهم عليها للادارسة ، فاستقروا جميعاً بالأندلس . وكان لبني برزال من بينهم ظهور وغنى مشهور .

(ولما أراد) المنصور بن أبي عامر الاستبداد على خليفته هشام ، وتوقع النكير من رجالات الدولة وموالي الحكم ، استكثر بني برزال وغيرهم من البربر وأفاض فيهم الإحسان ، فاعتر أمره واشتدّ أزره حتى أسقط رجال الدولة وعي رسومها ، وأثبت أركان سلطانه . ثم قتل صاحبهم جعفر بن يحيى كما ذكرناه خشية عصبية بهم . واستألمهم من بعده فأصبحوا له عصبية . وكان يستعملهم في الولايات النبية والأعمال الرفيعة . وكان من أعيان بني برزال هؤلاء اسحق بن ^(١) فولاه قرمونة وأعمالها ، فلم يزل عليها أيام بني عامر وجدّد له العقد عليها المستعين في فتنة البرابرة ووليها من بعده ابنه عبدالله .

(ولما انقرض) ملك بني حمود من قرطبة ودفع أهلها القاسم المأمون عنهم سنة أربع عشرة وأربعمائة أراد اللحاق بأشبيلية ، وبها نائبه محمد بن أبي زيري من وجوه البربر ، بقرمونة عبدالله بن اسحق البرزالي فدخلها القاضي ابن عبّاد في خلع طاعة القاسم ، وصدّه عن العملين فأجابا إلى ذلك . ثم دسّ للقاسم بالتحذير من عبدالله بن إسحق فعدل القاسم عنها جميعاً إلى شريش ، واستبدّ كل منهم بعمله . ثم هلك عبدالله من بعد ذلك ، وولي ابنه محمد سنة ^(٢) وكانت بينه وبين المعتمد بن عبّاد حرب ، وظاهر عليه يحيى بن علي بن حمود في منازل أشبيلية سنة ثمان عشرة وأربعمائة ثم اتفق مع ابن عبّاد بعدها وظهره على عبدالله الأفطس . وكانت بينهما حرب كانت الدائرة فيها على ابن الأفطس . وحصل ابنه المظفر قائد العسكر في قبضة محمد بن عبدالله بن اسحق إلى أن منّ عليه ذلك وأطلقه . ثم كانت الفتنة بين محمد

(١) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة والد اسحق هذا في المراجع التي بين أيدينا .

(٢) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة سنة ولايته في المراجع التي بين أيدينا .

ابن اسحق وبين المعتضد وأغار اسمعيل بن المعتضد على قرمونة في بعض الأيام بعد أن كمن الكمان من الخيالة والرجل ، وركب إليه محمد في قومه فأستطرد له اسمعيل إلى أن بلغوا الكمان فثاروا بهم وقتلوا محمداً البرزالي وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة وولي ابنه العزيز بن محمد وتلقب بالمستظهر مناعياً للملك الطوائف لعهدده . ولم يزل المعتضد يستولى على غرب الأندلس شيئاً فشيئاً إلى أن ضايقه في عمل قرمونة ، واقتطع منه أسجده والمورو^(١) ثم انخلع له العزيز عن قرمونة سنة تسع وخمسين وأربعمائة ونظمها المعتضد في ممالكه ، وانقرض ملك بني برزال من الأندلس ثم انقرض من بعد ذلك حميم من جبل سالات ، وأصبحوا في الغابرين . والبقاء لله وحده سبحانه .

العزيز محمد بن عبدالله بن اسحق البرزالي

* (الخبر عن بني وماتوا وبني يلومي من الطبقة الأولى من زناة وما كان لهم من الملك والدولة بأعمال المغرب الأوسط ومبدأ ذلك وتصاريفه) *

هاتان القبيلتان من قبائل زناة ومن توابع الطبقة الأولى ، ولم نقف على نسبهما إلى جانا ، إلا أن نسأبتهم متفقون على أن يلومي وورثاجن الذي هو أبو مرين أخوان ، وأن مديون أخوهما للأم ، ذكر ذلك غير واحد من نسأبتهم . وبنو مرين لهذا العهد يعرفون لهم هذا النسب ، ويوجبون لهم العصبية له . وكانت هاتان القبيلتان من أوفر بطون زناة وأشدّهم شوكة ، ومواطنهم جميعاً بالمغرب الأوسط . وبنو وماتوا منهم إلى جهة المشرق عن وادي میناس ومرات وما إليها من أسافل شلف وبنو يلومي بالعدوة الغربية منه بالجعبات والبطحاء وسيد^(٢) وسيرات وجبل هواره وبني راشد .

(وكان لمغراوة) وبني يفرن التقدّم عليهم في الكثرة والقوة . ولما غلب بلكنين بن زيري

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : أسيجة والمدور .

(٢) وفي نسخة ثانية : سيك .

مغراوة وبني يفرن على المغرب الأوسط ، وأزاحهم إلى المغرب الأقصى بقيت هاتان القبيلتان بمواطنهما ، واستعملهم صنهاجة في حروبهم ، حتى إذا تقلص ملك صنهاجة عن المغرب الأوسط واعتروا عليهم . واختصّ الناصر بن علناس صاحب القلعة ومغناطة بجاية بني وماتوا هؤلاء بالولاية ، فكانوا شيعاً لقومه دون يلومي . وكانت رياسة بني وماتوا في بيت منهم يعرفون ببني ماخوخ . وأصهر المنصور بن الناصر إلى ماخوخ منهم في أخته ، فزوّجها إليه فكان لهم بذلك مزيد ولاية في الدولة .

ولمّا ملك المرابطون تلمسان أعوام سبعين وأربعمائة وأنزل يوسف بن تاشفين بها عامله محمد بن تينعر المسوفي ، ودوّخ أعمال المنصور وملك أمصارها إلى أن نازل الجزائر . وهلك فولي أخوه تاشفين على عمله ، ففزا أشير وافتتحها وخرّبها وكان لهذين الحيين في مظاهرتهم وإمداده أحقد عليهم المنصور بعدها وأغرى بني وماتوا في عساكر صنهاجة ، وجَمَعَ له ماخوخ فهزمه وأتبعه منهزماً إلى بجاية ، وقتل لمدخله إلى قصره قتله زوجته أخت ماخوخ تشفياً وضغناً . ثم نهض إلى تلمسان في العساكر واحتشد العرب من الأثبيج ورياح وزغبة ومن لحق به من زناتة وكانت الغزاة المشهورة سنة ست وثمانين وأربعمائة أبقى فيها ابن تينعر المسوفي بعد استمكانه من البلد كما ذكرناه في أخبار صنهاجة . ثم هلك المنصور وولي ابنه العزيز ، وراجع ماخوخ ولايته وأصهر إليه العزيز أيضاً في ابنته فزوّجها إياه . واعتز البدو في نواحي المغرب الأوسط ، واشتعلت نار الفتنة بين هذين الحيين من بني وماتوا وبني يلومي فكانت بينهم حروب ومشاهد . وهلك ماخوخ وقام بأمره في قومه بنوه تاشفين وعلي وأبوبكر ، وكان أحياء زناتة الثانية من بني عبد الواد وتوجين وبني راشد وبني ورسفان من مغراوة مدداً للفرقيين ، وربّما مادّ بنو مرين إخوانهم بني يلومي لقرب مواطنهم منهم ، إلا أنّ زناتة الثانية لذلك العهد مغلوبون لهذين الحيين ، وأمرهم تبع لهم إلى أن ظهر أمر الموحدين . وزحف عبد المؤمن إلى المغرب الأوسط في اتباع تاشفين بن علي ، وتقَدَّمَ أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن زيد من بني وماتوا إلى طاعته ، ولحقوه بمكانه من أرض الريف ، فسرّح معهم عسكر الموحدين لنظر يوسف بن وأندلين وابن يغمور ، فأثخنوا في بلاد بني يلومي وبني عبد الواد ، ولحق صريخهم بتاشفين بن علي بن يغمور ، فأثخنوا في بلاد بني يلومي وبني عبد الواد ، ولحق صريخهم بتاشفين بن علي ابن يوسف ، فأمدّهم بالعساكر ونزلوا منداس . واجتمع لبني يلومي بنو ورسفان من

مغراوة وبني توجين من بني بادين وبنو عبد الواد منهم أيضاً ، وشيخهم حمادة بن مظهر ، وبنو يكتاسن من بني مرين وأوقعوا ببني وماتوا وقتلوا أبا بكر في ستائة منهم واستنفذوا غنائمهم . وتحصّن الموحدون . وفلّ بني وماتوا بجبل سيرات ، ولحق تاشفين بن ماخوخ صريخاً بعبد المؤمن . وجاء في جملة حتى نزل تاشفين بن علي بتلمسان . ولما ارتحل في أثره إلى وهّران كما قدّمناه سرح الشيخ أبو حفص في عساكر الموحدين إلى بلاد زنّانة فترّلوا منداس وسط بلادهم ، وأثخنوا فيهم حتى أذعنوا لطاعته ودخلوا في الدعوة . ووفد على عبد المؤمن بمكانه من حصار وهّران مقدمهم سيّد الناس بن أمير الناس شيخ بني يلومي وحمادة بن مظهر شيخ بني عبد الواد . وعطية الخير شيخ بني توجين وغيرهم ، فتلقاهم بالقبول .

ثم انتقضت زنّانة بعدها وامتنع بنو يلومي بحصنهم الجعبات ومعهم شيخهم سيّد الناس ومدرج^(١) إينا سيّد الناس . فحاصرتهم عساكر الموحدين وغلّبوهم عليها وأشخصوهم إلى المغرب . ونزل سيّد الناس بمراكش ، وبها كان مهلكه أيام عبد المؤمن . وهلك بعد ذلك بنو ماخوخ .

(ولما) أخذ أمير هذين الحيين في الانتقال جاذب بنو يلومي في تلك الأعمال بنو توجين ، وشاجروهم في أحواله ثم واقعهم الحرب في جوانبه وتولّى ذلك فيهم عطية الخير شيخ بني توجين ، وصلى بناها معه منهم بنو منكوش^(٢) من قومه حتى غلبوهم على مواطنهم وأذلّوهم وأصاروهم جيراناً لهم في قياطينهم . واستعلى بنو عبد الواد وتوجين على هذين الحيين وغيرهم بولايتهم للموحدين ومخالطتهم إياهم ، فذهب شأنهم وافترق قيطونهم أوزاعاً في زنّانة الوارثين أوطانهم من عبد الواد وتوجين والبقاء لله سبحانه . (ومن بطون بني وماتوا هؤلاء بنو يامدس^(٣)) وقد يزعم زاعمون أنهم من مغراوة ومواطنهم متصلة بقلّة المغرب الأقصى والأوسط وراء العرق المحيط بعمراها المذكور قبل . واختلطوا في المواطن القصور والأطم ، واتخذوا بها الجنات من النخيل والأعنان وسائر الفواكه ، فمنها على ثلاثة مراحل بقلّة سجلماسة ، ويسمى وطن توات ، وفيه قصور متعدّدة تناهز المائتين ، آخذة من المشرق إلى المغرب وآخرها

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة بولاق : بدرج وفي نسخة أخرى : مضرج .

(٢) وفي نسخة ثانية : بنو منكوس .

(٣) وفي نسخة ثانية : ومن بطون بني وماتوا هؤلاء قبائل بني يالدس .

من جانب المشرق يسمّى تمنطيت ، وهو بلد مستجر في العمران ، وهو محط ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد ، ومن بلد مالي إليه ، وبينه وبين ثغر بلاد مالي المسمّى غار ، المفازة المجهلة لا يهتدي فيها للسبل ، ولا يمر الوارد إلّا بالدليل الخبير^(١) من المثلثين الطواعن بذلك القفز ، يستأجره التجار على الدربة بهم فيها بأوفر الشروط ، وكانت بلد بودي^(٢) وهي أعلى تلك القصور بناحية المغرب من بادية السوس هي الركاب إلى والاتن الثغر الآخر من أعمال مالي . ثم أهملت لما صارت الأعراب بادية السوس يغيرون على سابلتها ويعترضون رفاقها ، فتركوا تلك ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعلى تمنطيت .

ومن هذه القصور قبلّة تلمسان ، وعلى عشر مراحل منها قصور تيكارين^(٣) وهي كثيرة تقارب المائة في بسيط وادٍ منحدر من المغرب إلى المشرق ، واستبحرت في العمران وغصت بالسكن . وأكثر سكان هذه القصور الغربية في الصحراء بنو يامدس هؤلاء ومعهم من سائر قبائل البربر مثل ورتطغير ومصاب وبنو عبد الواد وبنو مرين ، وهم أهل عدد وعدة وبعد عن هضمة الأحكام وذلّ المغارم ، وفيهم الرّجال والخيّالة وأكثر معاشهم من بلح النخل^(٤) ، وفيهم التجار إلى بلاد السودان وضواحيهم كلّها مشتاة للعرب ، ومختصة بعبيد الله من المعقل ، عيّنتها لهم قسمة الرحلة . وربما شاركهم بنو عامر بن زغبة في تيكارين فتصل إليها ناجعتهم بعض السنين .

وأما عبيد الله فلا بدّ لهم في كل سنة من رحلة الشتاء إلى قصور توات وبلد تمنطيت ، ومع ناجعتهم تخرج قفول التجار من الأمصار والتلول حتى يحطوا بتمنطيت . ثم يذرقون منها إلى بلاد السودان . وفي هذه البلاد الصحراوية غريبة في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب ، وذلك أنّ البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة ، فتنتح بالمعاول والفؤس إلى أن يرقّ جرمها ، ثم تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقها على الماء ،

(١) وفي نسخة ثانية : المخريث .

(٢) وفي النسخة الباريسية : هودي .

(٣) وفي نسخة ثانية : تيكوارين .

(٤) وفي نسخة ثانية : من فلح النخل .

فنبعث صاعداً فيعمّ البثر ثم يجري على وجه الأرض وادياً ، ويزعمون أن الماء ربّما أعجل بسرّعه عن كل شيء . وهذه الغريبة موجودة في قصورتوات وتكرارين وواركلا وريغ . والعالم أبو العجائب والله الخلاق والعليم . وهذا آخر الكلام في الطبقة الأولى من زنّاة فلترجع إلى أخبار الطبقة الثانية . وهم الذين اتصلت دولتهم إلى هذا العهد .

* (أخبار الطبقة الثانية من زنّاة وذكر أنسابهم وشعوبهم وأوليتهم ومصائر ذلك) *

قد تقدّم لنا في أضعاف الكلام قبل انقراض الملك من الطبقة من زنّاة ما كان على يد صنهاجة والمرابطين من بعدهم ، وأنّ عصية أجيالهم افترقت بانقراض ملكهم ودولهم ، وبقي منهم بطون لم يمارسوا الملك ، ولا أخلقهم ترفه ، فأقاموا في قياطينهم بأطراف المغربين يتتبعون جانبي القفر والتلّ ، ويعطون الدول حق الطاعة . وغلبوا على بقايا الأجيال الأولى من زنّاة بعد أن كانوا مغلوبين لهم فأصبحت لهم السورة والعزة وصارت الحاجة من الدول إلى مظاهرتهم ومسالمتهم ، حتى انقضت دولة الموحيدين فتناولوا إلى الملك وضربوا فيه مع أهلهم بسهم . وكانت لهم دول نذكرها إن شاء الله تعالى . وكان أكثر هذه الطبقة من بني واسين بن يصلتن إخوة مغراوة وبني يفرن ، ويقال إنهم من بني وانت بن ورسيك بن جانا إخوة مسارة وتاجرت ، وقد تقدّم ذكر هذه الأنساب . وكان من بني واسين هؤلاء ببلد قسطلية . وذكر ابن الرقيق أنّ أبا يزيد النكاري لما ظهر يجبل أوراس كتب إليهم بمكانهم حول توزر يأمرهم بحصارها فحاصروها سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة . وربما كان منهم ببلد الحامة لهذا العهد ، ويعرفون ببني ورتاجن إحدى بطونهم . وأمّا جمهورهم فلم يزلوا بالمغرب الأقصى بين ملوية إلى جبل راشد .

(وذكر موسى) بن أبي العافية في كتابه إلى الناصر الأموي يعرفه بحربه مع ميسور مولى أبي القاسم الشيعي ، ومن صار إليه من قبائل زنّاة ، فذكر فيمن ذكر ملوية ، وسار من قبائل بني واسين وبني يفرن وبني یرناتن وبني ورنمت^(١) ومطاطة ، فذكر

(١) وفي نسخة أخرى : بني ورتاسن وبني وريمت ، وبني يزاسن في قبائل المغرب/١٣٧ .

منهم بني واسين لأنّ تلك المواطن من مواطنهم قبل الملك .
 (وفي هذه الطبقة منهم بطون) : ففهم بنو مرين ، وهم أكثرهم عدداً وأقواهم
 سلطاناً وملكاً وأعظمهم دولة . (ومنهم) : بنو عبد الواد تلوهم في الكثرة والقوّة ،
 وبنو توجين من بعدهم كذلك هؤلاء أهل الملك من هذه الطبقة . وفيها غير أهل
 الملك بنو راشد إخوة بني يادين كما نذكره ، وفيها أهل الملك أيضاً من غير نسبهم بقية
 من مغراوة بمواطنهم الأولى من وادي شلف نبضت فيهم عروق الملك بعد انقراض
 جيلهم الأوّل ، فتجاذبوا حبله مع أهل هذا الجليل وكانت لهم في مواطنهم دولة كما
 نذكره .

(ومن أهل هذه الطبقة) كثير من بطونهم ليس لهم ملك نذكرهم الآن عند تفصيل
 شعوبهم . وذلك أنّ أحياءهم جميعاً تشعبت من زرجيك بن واسين فكان منهم بنو
 يادين بن محمد ، وبنو مرين بن ورتاجن ، فأما بنو ورتاجن فهم من ولد ورتاجن بن
 ماخوخ بن جريح^(١) بن فاتن بن بدر بن يخفت بن عبدالله ورتيد بن المعز بن
 ابراهيم بن زحيك . (وأما بنو مرين) بن ورتاجن فتعددت أفخاذهم وبطونهم كما
 نذكر بعد ، حتى كثروا سائر شعوب بني ورتاجن ، وصار بنو ورتاجن معدودين في
 جملة أفخاذهم وشعوبهم . (وأما بنو يادين) بن محمد فمن ولد زرجيك ولا أذكر
 الآن كيف يتصل نسبهم به . وتشعبوا إلى شعوب كثيرة ، فكان منهم : بنو عبد الواد
 بنو توجين وبنو مصاب وبنو زردال^(٢) يجمعهم كلّهم نسب يادين بن محمد . وفي
 محمد هذا يجتمع يادين وبنو راشد ، ثم يجتمع محمد مع ورتاجن في زرجيك^(٣) بن
 واسين ، وكانوا كلّهم معروفين بين زناتة الأولى ببني واسين قبل أن تعظم هذه البطون
 والأفخاذ ، وتشعب مع الأيام . وبأرض أفريقية وصحراء برقة وبلاد الزاب منهم
 طوائف من بقايا زناتة الأولى قبل انسياحهم إلى المغرب ، فمنهم بقصور غدامس على
 عشرة مراحل قبلة سرت ، وكانت محتطّة منذ عهد الإسلام ، وهي خطة مشتملة
 على قصور وآطام عديدة ، وبعضها لبني ورتاجن وبعضها لبني واطاس من أحياء بني
 مرين ، يزعمون أنّ أوليتهم اختطّوها ، وهي لهذا العهد قد استبحرت في العمارة ،

(١) وفي نسخة أخرى : بن وجديج .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : زردان وفي نسخة ثانية : ازردال .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : زحيك وفي نسخة ثانية : زجيك .

واتسعت في التمدّن بما صارت محطاً لركاب الحاج من السودان ، وقفل التجّار إلى مصر والاسكندرية عند اراحته من قطع المفازة ذات الرمال المعترضة أمام طريقهم دون الأرياف والتلول ، وباباً لولوج تلك المفازة والحاج والتجر في مرجعهم ومنهم ببلد الحامة^(١) غربيّ قابس أمة عظيمة من بني ورتاجن . وفرت منهم حاميتها ، واشتدت شوكتها ورحل إليها التجر بالبضائع لنفاق أسواقها ، وتبحر عمرانها ، وامتنعت لهذا العهد على من يرومها من يحاورها ، فهم لا يؤدّون خراجاً ولا يسامون بمغرم ، حتى كأنهم لا يعرفونه عزة جناب ، وفضل بأس ومنعة . ويزعمون أنّ سلفهم من بني ورتاجن اختطّوها ، ورياستهم في بيت منهم يعرفون ببني وشاح ، ولربّما طال على رؤسائهم عهد الخلافة ووطاة الدولة فيتطاولون إلى التي تنكر على السوق من اتخاذ الآلة ، ويبرزون في زيّ السلطان أيام الزينة تهاوناً بشعار الملك ، ونسياناً لمألوف الانقياد شأن جيرانهم رؤساء غوزر ونقطة . وسابق الغاية في هذه الضحكة هو يملول مقدّم توزر .

(ومن بني واسين) هؤلاء بقصور مصاب على خمس مراحل من جبل قيطري في القبلة لما دون الرمال على ثلاث مراحل من قصور بني ريغة في المغرب ، وهذا الاسم للقوم الذين اختطّوها ونزلوها من شعوب بني يادين^(٢) حسبما ذكرناهم الآن . وضعوها في أرض حرّة على أحكام^(٣) وضراب ممتنعة في قننها . وبينها وبين الأرض المحجرة المعروفة بالجمادة في سمت العرق متوسطة فيه قبالة تلك البلاد على فراسخ في ناحية القبلة ، وسكانها لهذا العهد شعوب بني يادين من بني عبد الواد وبني توجيز ومصاب وبني زردال فيمن انضاف إليهم من شعوب زناتة ، وإن كانت شهرتها مختصة بمصاب ، وحالها في المباني والاغتراس وتفرّق الجماعات بتفرّق الرياسة شبيهة بحال بني ريغة والزاب . ومنهم يجبل أوراس بأفريقية طائفة من بني عبد الواد موطنه منذ العهد القديم لأوّل الفتح ، معروفون بين ساكنيه .

(وقد ذكر) بعض الأخباريين أنّ بني عبد الواد حضروا مع عقبة بن نافع في فتح المغرب عند ايغاله في ديار المغرب ، وانتهائه إلى البحر المحيط بالسوس في ولايته

(١) وفي نسخة ثانية : ومنهم ببلاد الحمة .

(٢) وفي نسخة ثانية : بني يادين .

(٣) وفي نسخة ثانية : آكام .

الثانية . وهي الغزاة التي هلك فيها في منصرفه منها ، وأنهم أبلوا البلاء الحسن فدعا لهم وأذن في رجوعهم قبل استتمام الغزاة . ولما تحيزت زنادة أمام كتامة وصنهاجة اجتمع شعوب بني واسين هؤلاء كلهم ما بين ملوية كما ذكرناه . وتشعبت أحيائهم وبطونهم ، وانبسطوا في صحراء المغرب الأقصى والأوسط إلى بلاد الزاب وما إليها من صحارى أفريقية إذ لم يكن للعرب في تلك المجالات كلها مذهب ولا مسلك إلى المائة الخامسة كما سبق ذكره . ولم يزالوا بتلك البلاد مشتملين لبوس العز مشمرين للأنفة ، وكانت مكاسبهم^(١) الأنعام والماشية ، وابتغاؤهم الرزق من تحيف السابلة ، وفي ظل الرماح المشرعة ، وكانت لهم في محاربة الأحياء والقبائل ومنافسة الأمم والدول ومغالبة الملوك أيام ووقائع ، نلم بها ولم تعظم العناية باستيعابها ، فنأتي به . والسبب في ذلك أن اللسان العربي كان غالباً لغلبة دولة العرب وظهور الملة العربية ، فالكتاب والخط بلغة الدولة ولسان الملك ، واللسان العجمي مستتر بجناحه مندرج في غماده ، ولم يكن لهذا الجيل من زنادة في الأحقاب القديمة ملك يحمل أهل الكتاب على العناية بتقييد أيامهم وتدوين أخبارهم ، ولم تكن مخالطة بينهم وبين أهل الأرياف والحضر ، حتى يشهدوا آثارهم لإبعادهم في القفار كما رأيت في مواطنهم ، وتوحشهم عن الانقياد ، فبقوا غفلاً إلى أن درس منها الكثير ، ولم يصل إلينا بعد ملكهم إلا الشارد القليل يتبعه المؤرخ المضطلع في مسالكه ، ويتقراه في شعابه ويثيره من مكانه ، وأقاموا بتلك القفار إلى أن تسنموا منها هضبات الملك على ما تصفه .

(١) وفي نسخة ثانية : وكان جل مكاسبهم .

— نعم انما الله ربكم

— عادم الله
— ربحتم
— ربحتم

مصباح بس ————— بن محمد بن رزجيك بن واسين بن يعلتي بن مسر بن زاكيا بن ورسيك بن اديدت بن جانا

* (الخبر عن أحوال هذه الطبقة قبل الملك وكيف كانت
تصاريف أحوالهم الى أن غلبوا على الملك والدول) *

وذلك أن أهل هذه الطبقة من بني واسين وشعوبهم التي سمّيناها كانوا تبعاً لزنانة الأولى . ولما انزاحت زنانة إلى المغرب الأقصى أمام كتامة وصنهاجة ، خرج بنو واسين هؤلاء إلى القفر ما بين ملوية وصا ، فكانوا يرجعون إلى ملك المغرب لذلك العهد . مكناسة أولاً ثم مغراوة من بعدهم . ثم حسر تيار بني صنهاجة عن المغرب وتقلص ملكهم ، بعض الشيء وصاروا إلى الاستجاشة على القاصية بقبائل زنانة ، فأومضت بروقهم ، ورفت في ممالك زنانة منابهم كما قدّمناه . واقتسم أعمالها بنو ومانو وبني يلومي ناحيتين ، وكانت ملوك صنهاجة أهل القلعة اذا عسكروا للغرب يستفروهم لغزوه ، ويجمعون حشدهم للتوغّل فيه ، وكان بنو واسين هؤلاء ومن تشعب معهم من القبائل الشهيرة الذكر مثل بني مرين وبني عبد الواد وبني توجين ومصاب قد ملكوا القفر ما بين ملوية وأرض الزاب ، وامتنعت عليهم المغربان ممن ملكها من زنانة الذين ذكرناهم .

(وكان) أهل الرياسة بتلك الأرياف والضواحي من زنانة مثل بني ومانو وبني يلومي بالمغرب الأوسط ، وبني يفرن ومغراوة بتلمسان يستجيشون بني واسين هؤلاء وشعوبهم ، ويستظهرون بجمعهم على من زاحمهم أو نازعهم من ملوك صنهاجة وزنانة وغيرهم ، يحاجون^(١) بهم عن مواطنهم لذلك ، ويقرضونهم القرض الحسن من المال والسلاح والحبوب المعوزة لديهم بالقفار ، فيتأثلون منهم ويرتاشون . وعظمت حاجة بني حمّاد إليهم في ذلك عندما عصفت بهم ريح العرب الضوالع من بني هلال بن عامر ، وصرعوا دولة المعزّ وصنهاجة بالقَيسَرَوَان والمهدية والايواء عن مدّهم^(٢) ، وزحفوا إلى المغرب الأوسط فدافعوا بني حمّاد عن حوزته وأوعزوا إلى زنانة بمدافعهم أيضاً ، فاجتمع لذلك بنو يعلى ملوك تلمسان من مغراوة وجمعوا من كان إليهم من بني واسين هؤلاء من بني مرين وعبد الواد وتوجين وبني راشد . وعقدوا

(١) وفي نسخة ثانية : يحاجئون بهم من مواطنهم لذلك .

(٢) وفي نسخة ثانية : والانواء من حدهم .

على حرب الهلالين لوزيرهم أبي سعدى خليفة بن^(١) اليفرنى ، فكان له مقامات في حروبهم ودفاعهم عن ضواحي الزاب وما إليه من بلاد أفريقية والمغرب الأوسط إلى أن هلك في بعض أيامه معهم ، وغلب الهلاليون قبائل زناتة على جميع الضواحي وأزاحوهم عن الزاب وما إليه من بلاد أفريقية ، وانشمر بنو واسين هؤلاء من بني مرين وعبد الواد وتوجين عن الزاب إلى مواطنهم بصحراء المغرب الأوسط من مصاب وجبل راشد إلى ملوية فيكيك . ثم إلى سجلماسة ولاذوا ببني ومانوا وبني يلومي ملوك الضواحي بالمغرب الأوسط ، وتفقيوا ظلهم واقتسموا ذلك القفر بالمواطن ، فكان لبني مرين الناحية الغربية منها قبلة المغرب الأقصى بتيكورارين ودبروا إلى ملوية وسجلماسة ، وبعثوا عن بني يلومي إلا في الأحايين وعند الصريخ ، وكان لبني يادين منها الناحية الشرقية قبلة المغرب الأوسط ما بين فيكيك ومديونة إلى جبل راشد ومصاب . وكان بينهم وبين بني مرين فتن متصلة باتصال أيامهم في تلك المواضع^(٢) بسيل القبائل الجحيران في مواطنهم ، وكان الغلب في حروبهم أكثر ما يكون لبني يادين لما كانت شعوبهم أكثر وعددهم أوفر ، فإنهم كانوا أربعة : شعوب بني عبد الواد وبني توجين وبني زردال وبني مصاب ، كان معهم شعب آخر وهم إخوانهم بنو راشد ، لأننا قدّمنا أن راشداً أخو يادين . وكان موطن بني راشد الجبل المشهور بهم بالصحراء ، ولم يزلوا على هذه الحال إلى أن ظهر أمر الموحدين ، فكان لبني عبد الواد وتوجين ومغراوة من المظاهرة لبني يلومي على الموحدين ما هو مذكور في أخبارهم .

ثم غلب الموحدون على المغرب الأوسط وقبائله من زناتة فأطاعوا وانقادوا ، وتحيز بنو عبد الواد وبنو توجين إلى الموحدين وازدلفوا إليهم بأحاض النصيحة ومشايعة الدعوة ، وكان التقدم لبني عبد الواد دون الشعوب الآخر ، وأحضوا النصيحة للموحدين فاصطنعوهم دون بني مرين كما نذكر في أخبارهم وترك^(٣) الموحدون ضواحي المغرب الأوسط كما كانت لبني يلومي وبني ومانوا فلكوها . وتفرّد بنو مرين بعد دخول بني يادين إلى المغرب الأوسط بتلك الصحراء ، لما اختار الله لهم

(١) يياض بالأصل ولم نستطع تحديد اسم والده في المراجع التي بين أيدينا .

(٢) وفي نسخة أخرى : المواطن .

(٣) وفي نسخة أخرى : واقطعهم .

من وفور قسمهم في الملك ، واستيلائهم على سلطان المغرب الذي غلبوا به الدول ، واشتملوا الأقطار ونظّموا المشرق إلى المغرب ، واقتعدوا كراسي الدول المسامته لهم بأجمعها ما بين السوس الأقصى إلى أفريقية . والملك لله يؤتية من يشاء من عباده . فأخذ بنو مرين وبنو عبد الواد من شعوب بني واسين بحظ من الملك أعادوا فيه لزناطة دولةً وسلطاناً في الأرض ، واقتادوا الأمم برسّ الغلب ، وناغاهم في ذلك الملك البدوي إخوانهم بنو توجين ، وكان في هذه الطبقة الثانية بقية أخرى مما ترك آل خَزَر من قبائل مغراوة الأولى ، كانوا موطنين بقرار عزّهم ومنشأ جيلهم بوادي شلف ، فجاذبوا هؤلاء القبائل جبل الملك وناغوه في أطوار الرياسة ، واستطالوا بمن وصل جناحهم من هذه العشائر فتناولوا إلى مقاسمتهم في الماء^(١) ومساهمتهم في الأمر ، وما زال بنو عبد الواد في الغصّ من عنانهم وجدع أنوف عصبيتهم حتى أوهنوا من بأسهم ، وخصّصت الدولة العبد الوادية ثم المرينية بسمة الملك المخلفة من جناح تطاولهم ، وتمحض ذلك كله عن استبداد بني مرين واستتباعهم لجميع هؤلاء العصائب كما نذكر لك الآن دولهم واحدة بعد أخرى ، ومصائر هؤلاء القبائل الأربعة التي هي رؤوس هذه الطبقة الثانية من زناطة . والملك لله يؤتية من يشاء والعاقبة للمتقين .

(ولنبداً منها بذكر مغراوة) بقية الطبقة الأولى وما كان لرؤسائهم أولاد منديل من الملك في هذه الطبقة الثانية ، كما ستراه إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن أولاد منديل من الطبقة الثانية وما أعادوا لقومهم مغراوة من الملك بموطنهم الأول من شلب وما إليه من نواحي المغرب الأوسط) *

لما ذهب الملك من مغراوة بانقراض ملوكهم آل خزر ، واضمحلت دولتهم بتلمسان وسجلماسة وفاس وطرابلس ، وبقيت قبائل مغراوة متفرقة في مواطنها الأولى نواحي المغربين وأفريقية بالصحراء والتلول ، والكثير منهم بعنصرهم ومركزهم الأول بوطن

(١) وفي نسخة أخرى : الملك .

شلف وما إليه ، فكان به بنو ورسيفان وبنو يرنا وبنو نيلت^(١) . ويقال إنهم من وترمار وبنو سعيد وبنو زحاك^(٢) وبنو سنجاس ، وربما يقال إنهم من زناتة وليسوا من مغراوة ، وكان بنو خزرون الملوك بطرابلس لما انقضى أمرهم ، وافترقوا في البلاد ، ولحق منهم عبد الصمد بن محمد بن خزرون يجبل أوراس فراراً من أهل بيته هنالك الذين استولوا على الأمر وجده خزرون بن خليفة السادس من ملوكهم بطرابلس ، فأقام بينهم أعواماً . ثم ارتحل عنهم فترل على بقايا قومه مغراوة بشلف من بني ورسيفان وبني ورتزمين وبني بوسعيد وغيرهم ، فتلقوهم بالمبرة والكرامة ، وأوجبوا له حق البيت الذي ينسب إليه فيهم ، وأصهر إليهم فأنكحوه وكثر ولده وعرفوا بينهم ببني محمد ، ثم بالخزريّة نسبة إلى سلفه الأول . وكان من ولده الملقب أبو ناس بن عبد الصمد بن ورجيع بن عبد الصمد . وكان متحلاً للعبادة والخيرية ، وأصهر إليه بعض ولد ماخوخ ملوك بني وماتوا بابتته ، فأنكحه إياها ، فعظم أمره عندهم بقومه ونسبه وصهره . وجاءت دولة الموحدين على أثر ذلك فرمقوه بعين التجلّة لما كان عليه من طرق الخير ، فأقطعوه بوادي شلف وأقام على ذلك . وكان له من الولد ورجيع وهو كبيرهم ، وغربي ولغريات^(٣) وماكور ، ومن بنت ماخوخ عبد الرحمن ، وكان أجّلهم شأناً عنده وعند قومه عبد الرحمن هذا ، لما يوجبون له بولادة ماخوخ لأمه ، ويتفرسون فيه أن له ولعقبه ملكاً .

وزعموا أنه لما ولد خرجت به أمه إلى الصحراء فألقته إلى شجرة وذهبت في بعض حاجاتها ، فأطاف به يعسوب من النحل متوابعين عليه ، وبصرت به على البعد فجاءت تعدو لما أدركها من الشفقة ، فقال لها بعض العارفين : خفني عنك فوالله ليكوننّ لهذا شأن . ونشأ عبد الرحمن هذا في جوّ هذه التجلّة مدلاً بنسبه وبأسه ، وكثرت عشيرته من بني أبيه ، واعصوصب عليه قبائل مغراوة ، فكان له بذلك شوكة . وفي دولة الموحدين تقدمة ، لما كان يوجب لهم على نفسه من الانحياش والمخالطة والتقدّم في مذاهب الطاعة . وكان السادة منهم يَمرون به غزواتهم إلى أفريقية ذاهبين وجائين^(٤) ، فينزلون منه خير نزل ، وينقلبون بحمده والشكر لمذهبه ،

(١) وفي النسخة الباريّة : بنو وترمار وبنو نيلت وفي نسخة ثانية : بنو ووترمان وبنو ايليت .

(٢) وفي نسخة ثانية : زحاك .

(٣) وفي نسخة ثانية : عزيز ويغريان .

(٤) وفي نسخة ثانية : راجعين .

فيزيد خلفاؤهم اغتباطاً به . وأدرك بعض السادة وهو بأرض قومه الخبر بمهلك الخليفة بمراكش ، فخلف الذخيرة والظهر ، وأسلمها لعبد الرحمن هذا ، ونجا بدمائه بعد أن صحبه إلى تخوم وطنه ، فكانت له بها ثروة أكسبته قوة وكثرة فاستركب من قومه ، واستكثر من عصابته وعشيرته . وهلك خلال ذلك وقد فشل ربح بني عبد المؤمن وضعف أمر الخليفة بمراكش .

(وكان له من الولد) منديل وتميم ، وكان أكبرهما منديل ، فقام بأمر قومه على حين عصفت رياح الفتنة ، وسما لمنديل أمل في التغلب على ما يليه ، فاستأسد في عرينه وحامى عن أشباله . ثم فسح خطوته إلى ما جاوره من البلاد فللك جبل وانشرس والمرية وما إلى ذلك واختط قسبة مرات . وكان بسيط متبعة لهذا العهد في العمران أهلاً بالقرى والأمصار .

(ونقل الأخباريون) أن أهل متبعة لذلك العهد يجمعون في ثلاثين مصراً فجاس خلالها وأوطأ الغارات ساحتها وخرّب عمرانها حتى تركها خاوية على عروشها . وهو في ذلك يومهم التمسك بطاعة الموحدين ، وأنه سلم لمن سالمهم حرب لمن عاداهم . وكان ابن غانية منذ غلبه الموحدون عن أفريقية قد أراحوه إلى قابس وما إليها ، فنزل الشيخ أبو محمد بن أبي حفص بتونس ودفعه إلى أفريقية إلى أن هلك سنة ثمان عشرة وستائة فطمع يحيى بن غانية في استرجاع أمره وسبق إلى الثغور والأمصاريع فيها ويخرّبها ، ثم تجاوز أفريقية إلى بلاد زناتة وشنّ عليها الغارات واكتسح البسائط ، وتكرّرت الوقائع بينه وبينهم ، فجمع له منديل بن عبد الرحمن ولقيه بمتبعة ، وكانت الدبرة عليه وانفضت عنه مغراوة ، فقتله ابن غانية صبراً سنة اثنتين أو ثلاث وعشرين وستائة وتغلب على الجزائر أثر نكبته ، فصلب شلوه بها وصيره مثلاً للآخرين . وقام بأمره في قومه بنوه ، وكان منجبا فكان لهم العدد والشرف ، وكانوا يرجعون في أمرهم إلى كبيرهم العباس ، فتقلّد^(١) مذاهب أبيه واقتصر على بلاد متبعة . ثم غلبهم بنو توجين على جبل وانشرس وضواحي المرية وما إلى ذلك . وانقبضوا إلى مركزهم الأول شلف ، وأقاموا فيها ملكاً بدوياً لم يفارقوا فيه الظعن والخيام والضواحي والبسائط . واستولى على مدينة مليانة وتنس وبرشك وشرشال

(١) وفي نسخة ثانية : فتقلّد مذاهب أبيه واقتصر على بلاد متبعة .

مقيمين فيها للدعوة الحفصية واختطوا قرية مازونة .

(ولما استوسق) الملك بتلمسان ليغمراسن بن زيان ، واستفحل سلطانه بها وعقد له عليها ولأخيه من قبله عبد المؤمن ، سما على التغلب على أعمال المغرب الأوسط ، وزاحم بني توجين وبني مندبل هؤلاء بمكناسة فلفقتوا وجوههم جميعاً إلى الأمير أبي زكريا بن أبي حفص مدبل الدولة بأفريقية من بني عبد المؤمن ، وبعثوا إليه الصريخ على يغمراسن ، فاحتشد لهم جميع الموحدن والعرب ، وغزا تلمسان وافتتحها كما ذكرناه .

ولما قفل إلى الحضرة عقد في مرجعه لأمرأى زناتة كل على قومه ووطنه ، فعقد للعباس ابن مندبل على مغراوة ، ولعبد القوي على توجين ولأولاد حورة^(١) على ملكيش ، وسوّج لهم اتخاذ الآلة فاتخذوها بمشهد منه . وعقد العباس السلم مع يغمراسن ، ووفد عليه بتلمسان فلقاه مبرّة وتكريماً ، وذهب عنه بعدها مغاضباً . يقال إنه تحدّث بمجلسه يوماً فزعم أنه رأى فارساً واحداً يقاتل مائتين من الفرسان ، فنكر ذلك من سمعه من بني عبد الواد وعرضوا بتكذيبه ، فخرج العباس لها مغاضباً حتى أتى بقومه ، وأتى يغمراسن مصداق قوله ، فانه كان يعنى بذلك الفارس نفسه .

وهلك العباس لخمس وعشرين سنة بعد أبيه سنة سبع وأربعين وستائة وقام بالأمر بعده أخوه محمد بن مندبل وصلحت الحال بينه وبين يغمراسن وصاروا إلى الاتفاق والمهادنة ، ونفر معه بقومه مغراوة إلى غزو المغرب سنة كلومان^(٢) وهي سنة سبع وأربعين وستائة ، هزمهم فيها يعقوب بن عبد الحق فرجعوا إلى أوطانهم وعادوا شأنهم في العداوة . وانتقض عليهم أهل مليانة وخلعوا الطاعة الحفصية .

(وكان من خبر) هذا الانتقاض أن أبا العباس أحمد الملياني كان كبير وقته علماً ودينياً وروايةً ، وكان عالي السند في الحديث فرحل إليه الأعلام ، وأخذ عنه الأئمة وأوفت به الشهرة على ثنايا السيادة ، فانتبت إليه رياسة بلده على عهد يعقوب المنصور وبنيه . ونشأ ابنه أبو عليّ في جوّ هذه العناية وكان جموحاً للرياسة طامحاً للاستبداد ، وهو مع ذلك خلوص المغارم . فلما هلك أبوه جرى في شأو رياسته طلقاً ، ثم رأى ما بين مغراوة وبني عبد الواد من الفتنة ، فحدثته نفسه بالاستبداد ببلده ، فجمع لها

(١) وفي النسخة الباريسية : حتورة وفي نسخة ثانية : حبورة .

(٢) وفي نسخة أخرى : كلدمان .

جراميزه ، وقطع الدعاء للخليفة المستنصر سنة تسع وخمسين وستمائة ، وبلغ الخبر إلى تونس فسرح الخليفة أخاه في عسكر من الموحدين في جملته «دون الديك بن هرزة»^(١) من آل أدفونش ملوك الجلالقة ، كان نازعاً إليه عن أبيه في طائفة من قومه ، فنازلوا مليانة أياماً . وداخل السلطان طائفة من مشيخة البلد المنحرفين عن ابن الملياني ، فسرب إليهم جنوداً بالليل واقتحموها من بعض المداخل ، وفر أبو علي الملياني تحت الليل . وخرج من بعض قنوات البلد ، فلاحق بأحياء العرب ، ونزل على يعقوب بن موسى بن العطاف من بطون زغبة ، فأجاره إلى أن لحق بعدها بيعقوب بن عبد الحق ، فكان من أمره ما ذكرناه في أخبارهم . وانصرف عسكر الموحدين والأمير أبو حفص إلى الحضرة ، وعقد محمد بن منديل على مليانة ، فأقام بها الدعوة الحفصية على سنن قومه . ثم هلك محمد بن منديل سنة اثنتين وستين وستمائة لخمس عشرة من ولايته ، قتله أخواه ثابت وعابد بمترل ظواعنهم بالخيس^(٢) من بسيط بلادهم ، وقتل معه عطية ابن أخيه منيف وتولى عابد وشاركه ثابت في الأمر ، واجتمع إليه قومه وتقطع ما بين أولاد منديل وخشنت صدورهم . واستغلظ يغمراسن بن زيان عليهم ، وداخله عمر بن منديل في أن يملكه من مليانة ، ويشد عضده على رئاسة قومه ، فشارطه على ذلك وأمكنه من أزمة البلد سنة ثمان وستين وستمائة ونادى بعزل ثابت وموازرة عمر على الأمر فتم لها ما أحكامه من أمرهما في مغراوة . واستمكن بها يغمراسن من قيادة قومه . ثم تناهى أولاد منديل في الازدلاف إلى يغمراسن بمثلها نكاية لعمر ، فاتفق ثابت وعابد أولاد منديل أن يحكماه من تونس^(٣) فأمكناه منها سنة اثنتين وسبعين وستمائة على إثني عشر ألفاً من الذهب .

واستمرت ولاية عمر إلى أن هلك سنة ست وسبعين وستمائة ، فاستقل ثابت بن منديل برئاسة مغراوة ، وأجاز عابد أخوه إلى الأندلس للرباط والجهاد مع صاحبيه زيان بن محمد بن عبد القوي وعبد الملك بن يغمراسن فحول زناته واسترجع ثابت بلاد تونس ومليانة من يد يغمراسن ، ونبذ إليه العهد ، ثم استغلظ يغمراسن عليهم واستردّ تونس سنة إحدى وثمانين وستمائة بين يدي مهلكه .

(١) وفي نسخة أخرى : دون الريك بن هرادة .

(٢) وفي نسخة أخرى : بالخيس .

(٣) وفي نسخة ثانية : في تنس .

(ولما) هلك يغمراسن وقام بالأمر بعده ابنه عثمان انتقضت عليه تونس ، ثم ردّ الغزو إلى بلاد توجين ومغراوة حتى غلبهم آخرأ على ما بأيديهم ، وملك المرية بمداخلة بني لمدية أهلها سنة سبع وثمانين وستائة وغلب ثابت بن منديل على مازونة ، فاستولى عليها ثم نزل له عن تونس أيضاً فللكها . ولم يزل عثمان مراغماً لهم إلى أن زحف إليهم سنة ثلاث وتسعين وستائة فاستولى على أمصارهم وضواحيهم ، وأخرجهم عنها وألجأهم إلى الجبال . ودخل ثابت بن منديل إلى برشك ممانعاً دونها ، فزحف إليهم عثمان وحاصره بها حتى إذا استيقن أنه محاط به^(١) ، ركب البحر إلى المغرب ، ونزل على يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين صريحاً سنة أربع وتسعين وستائة فأكرمه ووعده بالنصرة من عدوه ، وأقام بفاس وكانت بينه وبين ابن الأشهب من رجالات بني عسكر صحبة ومداخلة ، فجاءه بعض الأيام إلى منزله ، ودخل عليه من غير استئذان وكان ابن الأشهب ثملاً ، فسطا به وقتله وثار السلطان به منه ، وانفجع لموته . وكان ثابت بن منديل قد أقام ابنه محمد الأمير في قومه ، وولاه عليهم لعهد واستبدّ بملك مغراوة دونه .

(ولما انصرف) أبوه ثابت إلى قومه أقام هو في إمارته على مغراوة . وهلك قريباً من مهلك أبيه ، فقام بأمرهم من بعده شقيقه عليّ ، ونازعه الأمر أخواه رحمون ومنيف ، فقتله منيف ونكر ذلك قومها وأبوا من إمارتها عليهم ، فلحقا بعثمان بن يغمراسن فأجازهما إلى الأندلس .

(وكان) أخوهما معمر بن ثابت قائداً على الغزاة بالجزء^(٢) فترل لمنيف عنها ، فكانت أول ولاية وليها بالأندلس . ولحق بهم أخوهم عبد المؤمن فكانوا جميعاً هنالك ومن أعقاب عبد المؤمن يعقوب بن زيان بن عبد المؤمن ، ومن أعقاب منيف^(٣) بن عمر بن منيف وجماعة منهم لهذا العهد بالأندلس .

(ولما هلك) ثابت بن منديل سنة أربع وتسعين وستائة كما قلناه ، كفل السلطان ولده وأهله ، وكان فيهم حافده راشد بن محمد ، فأصهر إليه في أخته فأنكحه إياها . ونهض إلى تلمسان سنة ثمان وتسعين وستائة فأناخ عليها ، واختطّ مدينته لحصارها

(١) وفي نسخة ثانية : انه محيط به .

(٢) كذا في النسخة البارسية وفي نسخة أخرى : بالبقيرة ، وفي نسخة ثانية بالبقيرة .

(٣) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة اسم ابن عمر هذا في المراجع التي بين أيدينا .

وسرح عساكره في نواحيها ، وعقد على مغراوة وشلف لعمر بن يعزن^(١) بن منديل ، وبعث معه جيشاً ففتح مليانة وتونس ومازونة سنة تسع وتسعين وسمائة ووجد راشد في نفسه إذ لم يوله على قومه ، وكان يرى أنه الأحق لنسبه وظهره ، فترع عن السلطان ولحق بجبال متيجة ودس إلى أوليائه من مغراوة حتى وجد فيهم الدخلة ، فأجد^(٢) السير ولحق بهم ، فافترق أمر مغراوة ، وداخل أهل مازونة فانتقضوا على السلطان وبيت عمر بن ويعزن بأزمور^(٣) من ضواحي بلادهم فقتله ، واجتمع عليه قومه وسرح السلطان إليه الكتائب من بني عسكر لنظر الحسن بن علي بن أبي الطلاق ، ومن بني ورتاجن لنظر علي بن محمد الخير ، ومن بني توجين لنظر أبي بكر بن ابراهيم بن عبد القوي . ومن الجند لنظر علي بن حسان الصبحي من صنائعه ، وعقد على مغراوة لمحمد بن عمر بن منديل ، وزحفوا إلى مازونة وقد ضبطها راشد ، وخلف عليها علياً وحمو إبن عمه يحيى بن ثابت . ولحق هو ببني بو سعيد مطلقاً عليهم وأناخت العساكر على مازونة ، ووالوا عليها الحصار سنين حتى أجهدوهم . وبعث علي بن يحيى أخاه حمو إلى السلطان من غير عهد فتقبض عليه . ثم اضطره الجهد إلى مركب الغرور فخرج إليهم ملقياً بيده سنة ثلاث وسبعائة وأشخصوه إلى السلطان فعفا عنه واستبقاه ، واحتسبها تأنيساً واستمالة لراشد ثم سرح العساكر إلى قاصية الشرق لنظر أخيه أبي يحيى بن يعقوب ، فنازل راشد بن محمد في معقل بني بوسعيد ، وطال حصاره إياه ، وأمكنته الغرة بعض الأيام في العساكر ، وقد تعلقوا بأوعار البلد زاحفين إليه فهزمهم . وهلك في تلك الواقعة خلق من بني مرين وعساكر السلطان ، وذلك سنة أربع وسبعائة . وبلغ الخبر إلى السلطان فأحفظه ذلك عليهم ، وأمر بآبن عمه علي بن يحيى وأخيه حمو ومن معهم من قومهم ، فقتلوا رشقاً بالسهم واستلحمهم .

(١) كذا في النسخة البارسية ويعزن وفي نسخة ثانية : ويعزن .

(٢) كذا في النسخة البارسية وفي نسخة ثانية : فأغذ .

(٣) سمّاها ياقوت في معجم البلدان أزمورة بثلاث ضمات وكذلك ابن حوقل . وأزمور مدينة صغيرة على شاطئ المحيط الأطلنطي بين الدار البيضاء والجديدة على ضفة وادي أم الربيع ، تعتبر مركزاً مهماً لقنائل الحوزية وشتوكه بدكاله . ويرجع تاريخها إلى العصور القديمة حيث عرفها الفينيقيون . (تقع المدينة على بعد ٢ كلم من الشاطئ و ١٧ كلم من الجديدة و ٨٠ كلم من البيضاء) . (المعجم التاريخي ٣ — كتاب المغرب/ ٤٢) .

ثم سرح أخاه أبا يحيى بن يعقوب ثانية سنة أربع وسبعائة فاستولى على بلاد مغراوة ،
ولحق راشد بجبال صنهاجة من متيجة ، ومعه عمه منيف بن ثابت ومن اجتمع إليهم
من قومهم ، فنازلهم أبو يحيى بن يعقوب . وراسل راشد يوسف بن يعقوب فانعقدت
بينهما السلم ، ورجعت العساكر عنهم . وأجاز منيف بن ثابت معه بنيه وعشيرته إلى
الأندلس ، فاستقروا هنالك آخر الأيام .

(ولمّا هلك) يوسف بن يعقوب بمناخه على تلمسان آخر سنة ست وسبعائة انعقدت
السلم بين حافده أبي ثابت وبين أبي زيّان بن عثمان سلطان بني عبد الواد على أن
يخلي له بنو مرين عن جميع ما ملكوه من أمصارهم وأعمالهم وثغورهم ، وبعثوا في
حاميتهم وعمّالهم وأسلموها لعمّال أبي زيّان . وكان راشد قد طمع في استرجاع
بلاده ، وزحف إلى مليانة فأحاط بها . فلما نزل عنها بنو مرين لأبي زيّان وصارت
مليانة وتونس له ، أخفق سعي راشد وأفرج عن البلد . ثم كان مهلك أبي زيّان
قريباً ، وولّى أخوه أبو حمّو موسى بن عثمان واستولى على المغرب الأوسط فهلك
تافريك^(١) سنة سبع وسبعائة وملك بعدها مليانة والمرية ، ثم ملك تونس وعقد
عليها لمولاه مسامح ، وقارن ذلك حركة صاحب بجاية السلطان أبي البقاء خالد
ابن مولانا الأمير أبي زكريا ابن السلطان أبي اسحق إلى متيجة لاسترجاع الجزائر
من يد ابن علان الثائر بها عليهم ، فلقيه هنالك راشد بن محمد وصار في جملته
وظاهره على شأنه . ولقاه السلطان تكربة وبرا ، وعقد له ولقومه حلفاً مع صنهاجة
أولياء الدولة والمتغلبين على ضاحية بجاية وجبال زواوة ، فاتصلت يد راشد بيد
زعيمهم يعقوب بن خلوف أحد زعماء الدولة .

ولما نهض السلطان للاستيثار بملك الحضرة بتونس ، استعمل يعقوب بن خلوف على
بجاية وعسكر معه راشد بقومه ، وأبلى في الحروب بين يديه وأغنى في مظاهرة أوليائه
حتى إذا ملك حضرتهم واستولى على تراث سلفهم ، أسف حاجب الدولة راشد هذا
وقومه بامضاء الحكم في بعض حشمه ، وتعرّض للحراة في السابلة ، فتقبّض عليه
ورفع إلى سدّة السلطان فأمضى فيه حكم الله . وذهب راشد مغاضباً ولحق بوليّه ابن
خلوف ومضطربه من زواوة . وكان يعقوب بن خلوف قد هلك وولّى السلطان مكانه

(١)، وفي نسخة أخرى : تافريكيت .

ابنه عبد الرحمن ، فلم يرع حق أبيه في إكرام صديقه راشد . وتشاجر معه في بعض الأيام مشاجرة نكر عبد الرحمن فيها ملاحاة راشد له ، وأنف منها ، وأدلّ فيها راشد بمكانه من الدولة وبيأس قومه ، فلدغه بالقول وتناوله عبد الرحمن وحشمه وخزاً بالرماح إلى أن أقعصوه^(١) وانذعر جمع مغراوة ولحقوا بالثغور القاصية ، وأقفر منهم شلف وما إليه كأن لم يكونوا به فأجاز منهم بنو منيف وبنو يعزن إلى الأندلس للمرابطة بثغور المسلمين ، فكانت منهم عصابة موطنّة هناك أعقابهم لهذا العهد . وأقام في جوار الموحّدين فلّ آخر من أوساط قومهم كانوا شوكة في عساكر الدولة إلى أن انقرضوا ولحق علي بن راشد بعمته في قصر بني يعقوب بن عبد الحق فكفلته ، وصار أولاد منديل عُصباً إلى وطن بني مرين فتولّوهم وأحسنوا جوارهم ، وأصهروا إليهم سائر الدولة ، إلى أن تغلب السلطان أبو الحسن على المغرب الأوسط ومحا دولة آل زيّان ، وجمع كلمة زناتة ، وانتظم مع بلادهم بلاد أفريقية وعمل الموحّدين وكانت نكبته على القيروان سنة تسع وأربعين وسبعائة كما شرحناه قبل . فانتقضت العائلات والأطراف وانتري أعياص الملك بمواطنهم الأولى ، فتوتّب عليّ بن راشد بن محمد ابن ثابت بن منديل على بلاد شلف وتملكها وتغلب على أمصارها مليانة وتنس وبرشك وشرشال ، وأعاد ما كان لسلفه بها من الملك على طريقته البدوية ، وأرهفوا حدّهم لمن طالهم من القبائل .

وخلص السلطان أبو الحسن من ورطته إلى أفريقية ، ثم من ورطة البحر من مرسى الجزائر إلى بجاية يحاول استرجاع ملكه المفرّق ، فبعث إلى عليّ بن راشد وذكره ذمّهم فتذكر وحنّ ، واشترط لنفسه التجافي له عن ملك قومه بشلف على أن يظاّهره على بني عبد الواد فأبى السلطان أبو الحسن من اشتراط ذلك له ، فتحيّز عنه إلى فينة بني عبد الواد الناجمين بتلمسان كما ذكرناه قبل ، وظاّهرهم عليه وبرز إليهم السلطان أبو الحسن من الجزائر والتقى الجمعان بشربونة^(٢) سنة إحدى وخمسين وسبعائة فاختلف مصافّ السلطان أبي الحسن وانهزم جمعه ، وهلك ابنه الناصر ، طاح دمه في مغراوة وهؤلاء . وخرج إلى الصحراء ولحق منها بالمغرب الأقصى كما نذكره بعد . وتطاول الناجمون بتلمسان من آل يغمراسن الى انتظام بلاد مغراوة في ملكهم كما كان

(١) قال الجوهري : يقال ضربه فاقعصه أي قتله مكانه .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : شربونة وفي نسخة ثانية : شذبونة .

لسلفهم ، فنهض إليهم بعساكر بني عبد الواد رديف سلطانهم وأخوه أبو ثابت الزعيم ابن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن ، فأوطأ قومه بلاد مغراوة سنة إثنيتين وخمسين وسبعمائة وقلّ جموعهم وغلّهم على الضاحية والأمصار . وأحجر عليّ بن راشد بتنس في شردمة من قومه ، وأناخ بعساكره عليه وطال الحصار ووقع الغلب ولما رأى عليّ بن راشد أن قد أحيط به دخل إلى زاوية من زوايا قصره انتبذ فيها عن الناس وذبح نفسه بحدّ حسامه ، وصار مثلاً وحديثاً للآخرين . واقتحم البلد لحينه ، واستلحم من عثر عليه من مغراوة ، ونجا الآخرون إلى أطراف الأرض ، ولحقوا بأهل الدول فاستركبوا واستلحقوا وصاروا جنداً للدول وحشماً وأتباعاً ، وانقرض أمرهم من بلاد شلف .

ثم كانت لبني مرين الكرة الثانية إلى تلمسان ، وغلبوا آل زيان ومحو آثارهم . ثم فاء ظلّهم بملك السلطان أبي عئان ، وحسر تيارهم ، وجدّد الناجمون من آل يغمراسن دولة ثانية بمكان عملهم على يد أبي حمو الأخير ابن موسى بن يوسف كما نذكره في أخبارهم . ثم كانت لبني مرين الكرة الثالثة إلى بلاد تلمسان ، ونهض السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن إليها فدخلها فاتح سنة إثنيتين وسبعين وسبعمائة وسرح عساكره في اتباع أبي حمو الناجم بها من آل يغمراسن حين قرأ أمامه في قومه وأشياعه من العرب كما يأتي ذلك كله . ولما انتهت العساكر إلى البطحاء تلوموا هنالك أياماً لإزاحة غلّهم . وكان في جملتهم صبيّ من ولد عليّ بن راشد الذبيح اسمه حمزة ، ربّي يتيماً في حجر دولتهم لدمام الصهر الذي لقومه فيهم ، فكفلته نعمهم وكفّه جوهم ، حتى شبّ واستوى وسخط رزقه في ديوانهم وحاله بين ولدانهم ، واعترض بعض الأيام قائد الجيوش الوزير أبا بكر بن غازي شاكياً ، فجبهه وأساء رده ، فركب الليل ولحق بمعقل بني بوسعيد من بلاد شلف فأجاروه ومنعوه ، ونادى بدعوة قومه فأجابوه ، وسرح إليه السلطان وزيره عبد العزيز عمر بن مسعود بن منديل بن حماسة كبير يترعين^(١) في جيش كثيف من بني مرين والجند فترل بساحة ذلك الجبل حولاً كريئاً^(٢) فحاصروهم ينال منهم ويتألون منه ، وامتنعوا عليه واتهم السلطان وزيره بالمداهنة ، وسعى به منافسوه ، فتقبّض عليه ، وسرّ وزيره الآخر أبا بكر بن غازي ، فنهض يجرّ العساكر الضخمة والجيوش الكثيفة إلى أن نزل

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : تير ييعين .

(٢) قال الجوهري : سنة كريت أي سنة تامة ..

بهم وصباحهم القتال ، فكدف الله في قلوبهم الرعب وأنزلهم من معقلهم . وفر حمزة بن عليّ في فلّ من قومه ، فترل ببلاد حصين المتقضين كانوا على الدولة مع أبي زيّان بن أبي سعيد الناجم من آل يغمراسن حسبما ذكره . وأتى بنو أبي سعيد طاعتهم ، وأخلصوا الضمائر في مغبتها فحسن موقعهم وبدأ حمزة في الرجوع إليهم فأغذّ السير في لمة من قومه ، حتى إذا ألمّ بهم نكروه لمكان ما اعتقلوا به من جبل الطاعة ، فتساهل إلى البسائط وقصد تيمروغت^(١) يظنّ بها غرة ينتهزها ، فبرز إليه حاميتها ففلّوا حدّة وردّوه على عقبه ، وتسابقوا في اتباعه إلى أن تقبّضوا عليه ، وقادوه إلى الوزير ابن غازي بن الكاس . فأوعز إليه السلطان بقتله مع جملة أصحابه ، فضربت أعناقهم ، وبعث بها إلى سدّة السلطان وصلب أشلاؤهم على خشب مسندة نصبها لهم ظاهر مليانة ، ومحيّ أثر مغراوة ، وانقرض أمرهم وأصبحوا خولاً للأمراء ، وجنداً في الدول ، وأوزاعاً في الأقطار كما كانوا قبل هذه الدولة الأخيرة لهم . والبقاء لله وحده ، وكل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون لا ربّ غيره ولا معبود سواه وهو على كل شيء قدير .

(١) كذا في النسخة الباريية ، وفي نسخة أخرى : تيمروغت .

حمزة بن علي بن راشد بن محمد بن محمد بن ثابت بن منديل بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الصمد بن ورجيع بن عبد الصمد بن محمد بن خزرون

عمر

— عطاء بن منديل

— محمد بن عبد الله بن زيد بن زينة بن عتيق

— العباس

— محمد بن منيف بن زيد بن حمزة

— عمر بن منديل

— عمر بن حسي

— محمد

— محمد

— يحيى

— زيد بن زينة

علي بن حارون

حمزة بن يحيى

عابد

محمّد

ورجيع

غربة

الخبر عن بني عبد الواد من هذه الطبقة الثانية وما كان لهم بتلمسان وبلاد المغرب الأوسط من الملك والسلطان وكيف كان مبدأ أمرهم ومصائر أحوالهم

قد تقدّم لنا في أول هذه الطبقة الثانية من زناتة ذكر بني عبد الواد هؤلاء وأنهم من ولد يادين بن محمد إخوة توجين ومصاب وزردال وبني راشد ، وأن نسبهم يرتفع إلى رزجيك بن واسين بن ورسيك بن جانا ، وذكرنا كيف كانت حالهم قبل الملك في مواطنهم تلك . وكان إخوانهم بمصاب وجبل راشد وفيكيك وملوية . ووصفنا من حال فتنهم مع بني مرين إخوانهم المجتمعين معهم بالنسب في رزجيك بن واسين . ولم يزل بنو عبد الواد هؤلاء بمواطنهم تلك وبنو راشد بنو زردال ومصاب منجدين إليهم بالنسب والحلف ، وبنو توجين منابذين لهم أكثر أزمانهم . ولم يزلوا جميعاً متغلبين على ضاحية المغرب الأوسط عامة الأزمان ، وكانوا تبعاً فيه لبني ومانوا وبني يلومي حين كان لهم التغلب فيهم . وربما يقال : كان شيخهم لذلك العهد يعرف بيوسف بن تكفا ، حتى إذا نزل عبد المؤمن والموحّدون نواحي تلمسان ، وسارت عساكرهم إلى بلاد زناتة تحت راية الشيخ أبي حفص ، فأوقعوا بهم كما ذكرناه ، وحسنت بعد ذلك طاعة بني عبد الواد وانحياشهم إلى الموحّدين . وكانت بطونهم وشعوبهم كثيرة أظهرها فيما يذكرون ستة : بنو ياتكين وبنو ولّوا وبنو ورسطف ومصوصة وبنو تومرت وبنو القاسم . ويقولون بلسانهم آيت القاسم وايت حرف الإضافة النسبية عندهم . ويزعم بنو القاسم هؤلاء أنهم من أولاد القاسم بن إدريس . وربما قالوا في هذا القاسم إنه ابن محمد بن إدريس ، أو ابن محمد بن عبد الله ، أو ابن محمد بن القاسم وكلهم من أعقاب إدريس ، زعماً لا مستند له إلا اتفاق بني القاسم هؤلاء عليه ، مع أن البادية بعدهاء عن معرفة هذه الأنساب . والله أعلم بصحة ذلك .

(وقد قال يغمراسن) بن زيان أبو ملوكهم لهذا العهد لما رفع نسبه إلى إدريس كما يذكرون فقال برطانتهم ما معناه : إن كان هذا صحيحاً فينفعنا عند الله . وأما الدنيا فإنما لناها بسيوفنا . ولم تزل رئاسة بني عبد الواد في بني القاسم لشدة شوكتهم واعتزاز

عصبيتهم ، وكانوا بطوناً كثيرة فمنهم : بنو يكمثين^(١) بن القاسم . وكان منهم ويعزن ابن مسعود بن يكمثين وأخواه يكمثين وعمر ، وكان أيضاً منهم أغدوي^(٢) بن يكمثين الأكبر ، ويقال الأصغر . ومنهم أيضاً عبد الحق بن منغقاد من ولد ويعزن ، وكانت الرياسة عليهم لعهد عبد المؤمن لعبد الحق بن منغقاد وأغدوي بن يكمثين وعبد الحق ابن منغقاد هو الذي استنقذ الغنائم من يدي بني مرين ، وقتل المخضب المستوف حين بعثه عبد المؤمن مع الموحدين لذلك ، والمؤرخون يقولون : عبد الحق بن معاد بميم وعين مهملة مفتوحتين وألف بعدها دال ، وهو غلط ، وليس هذا اللفظ بهذا الضبط من لغة زناته ، وإنما هو تصحيف منغقاد بميم ونون مفتوحتين وغين بعدهما معجمة ساكنة وفاء مفتوحة ، والله أعلم .

(ومن بطون) بني القاسم أيضاً : بنو مطهر بن يمل بن يزكين^(٣) بن القاسم وكان حمامة ابن مطهر من شيوخهم لعهد عبد المؤمن ، وأبلى في حروب زناته مع الموحدين ، ثم حسنت طاعته وانحياشه . (ومن بطون) بني القاسم أيضاً : بنو علي ، وإليهم انتهت رياستهم وهم أشدّ عصبيّة وأكثر جمعا ، وهم أربعة أفخاذ : بنو طاع الله ، وبنو دلول وبنو كمين^(٤) وبنو معطي بن جوهر ، والأربعة بنو علي . ونصاب الرياسة في بني طاع الله لبني محمد بن زكراز^(٥) بن تيدوكسن بن طاع الله ، هذا ملخص الكلام في نسبهم .

(ولما) ملك الموحدون بلاد المغرب الأوسط وأبلوا من طاعتهم وانحياشهم ما كان سبباً لاستخلاصهم ، فأقطعوهم عامّة بلاد بني ومانوا ، وأقاموا بتلك المواطن ، وحدثت الفتنة بين بني طاع الله وبني كمين إلى أن قتل كندوز بن^(٦) من بني كمين زيان بن ثابت كبير بني محمد بن زكراز^(٧) وشيوخهم وقام بأمرهم بعده جابر ابن عمه يوسف بن محمد ، فثار كندوز بزيان ابن عمه وقتله في بعض أيامهم وحروبهم .

(١) وفي نسخة ثانية : مكنيمن .

(٢) وفي نسخة ثانية : أعدي .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : يزكن وفي نسخة ثانية بني مزكن .

(٤) وفي نسخة ثانية : بنو كمي .

(٥) وفي نسخة ثانية : ابن زكران .

(٦) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة والد كندوز هذا في المراجع التي بين أيدينا .

(٧) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : زكدان وفي نسخة ثانية : زكدار وفي أخرى أيضاً : زكداز

ويقال قتله غيلة ، وبعث برأسه ورؤوس أصحابه إلى يغمراسن بن زيان بن ثابت ، فنصبت عليها القدور أتا في شفاية لنفوسهم من شأن أبيه زيان .

وافترق بنو كمين ، وفرّ بهم كبيرهم عبدالله بن كندوز ، فلحقوا بتونس . ونزل على الأمير أبي زكريا كما نذكره بعد . واستبدّ جابر بن يوسف بن محمد برياسة بني عبد الواد . وأقام هذا الحيّ من بني عبد الواد بضواحي المغرب الأوسط ، حتى إذا فشل ريع بني عبد المؤمن ، وانترى يحيى بن غانية على جهات قابس وطرابلس ، وردّد الغزو والغارات على بسائط أفريقية والمغرب الأوسط فاكتمسحها وعاث فيها . وكبس الأمصار فأقتحمها بالغارة وإفساد السابلة وانتساف الزرع ، وحطّم النعم إلى أن خربت ، وعفا رسمها لسني الثلاثين من المائة السابعة . وكانت تلمسان نزلاً للحامية ومناخاً للسيد من القرابة الذي يضمّ نشرها ، ويدبّ عن أنحائها وكان المأمون قد استعمل على تلمسان أخاه السيد أبا سعيد ، وكان مغفلاً ضعيف التدبير . وغلب عليه الحسن بن حيون من مشيخة قومه كومية ، وكان عاملاً على الوطن . وكانت في نفسه ضغائن من بني عبد الواد جرّها ما كان حدث لهم من التغلب على الضاحية وأهلها ، فأغرى السيد أبا سعيد بجماعة مشيخة منهم وفدوا عليه فتقبّض عليهم واعتقلهم .

وكان في حامية تلمسان لمة من بقايا لمتونة تجافت الدولة عنهم ، وأثبتهم عبد المؤمن في الديوان وجعلهم مع الحامية . وكان زعيمهم لذلك العهد ابراهيم بن اسمعيل بن علان ، فشفع عندهم في المشيخة المعتقلين من بني عبد الواد فردّوه ، فغضب وحمى أنفه وأجمع الانتقاص والقيام بدعوة ابن غانية ، فجدد ملك المرابطين من قومه بقاصية المشرق ، فاغتال الحسن بن حيون لحينه ، وتقبّض على السيد أبي سعيد وأطلق المشيخة من بني عبد الواد ، ونقض طاعة المأمون وذلك سنة أربع وعشرين وسبعمائة فطير الخبر إلى ابن غانية فأجدّ إليه السير . ثم بدا له في أمر بني عبد الواد ، ورأى أنّ ملاك أمره في خضد شكوتهم^(١) وقصّ جناحهم ، فحدث نفسه بالفتك بمشيختهم ، ومكر بهم في دعوة وأعدّهم لها ، وفطن لتدبيره ذلك جابر بن يوسف شيخ بني عبد الواد ، فواعده اللقاء والمؤازرة ، وطوى له على النث^(٢) ، وخرج ابراهيم بن علان إلى لقائه ففتك به جابر . وبادر إلى البلد فنادى بدعوة المأمون

(١) خضد الشجر : قطع شوكه : (قاموس) .

(٢) النث : نثا الخبر : أفشاه (قاموس) .

وطاعته ، وكشف لأهلها القناع عن مكر ابن علان بهم ، وما أوقعهم فيه من ورطة ابن غانية ، فحمدوا رأيهم وشكروا جابراً على صنيعه ، وجدّدوا البيعة للمأمون . واجتمع إلى جابر في أمره هنا كافة بني عبد الواد وأحلافهم من بني راشد ، وبعث إلى المأمون بطاعته واعماله في القيام بدعوته فخطبه بالشكر ، وكتب له بالعهد على تلمسان وسائر بلاد زناتة على رسم السادات الذين كانوا يلون ذلك من القرابة ، فاضطلع بأمر المغرب الأوسط .

(وكانت) هذه الولاية ركوباً إلى صهوة الملك الذي اقتعدوه من بعد . ثم انتقض عليه أهل اربونة^(١) بعد ذلك فنازلهم وهلك في حصارها بسهم غرب سنة تسع وعشرين وسبعمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه الحسن وجدّد له المأمون عهده بالولاية ، ثم ضعف عن الأمر وتخلّى عنه لسته أشهر من ولايته . ودفع إليه عمّه عثمان بن يوسف ، وكان سيء الملكة كثير العسف والجور فثارت به الرعايا بتلمسان وأخرجوه سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة وارتضوا لمكانه ابن عمه زكراز^(٢) بن زيّان بن ثابت الملقّب بأبي عزة فاستدعوه لها ، وولّوه على أنفسهم وبلدهم ، وسلّموا له أمرهم وكان مضطلعاً بأمر زناتة ومستبداً برياستهم ومستولياً على سائر الضواحي ، فنفس بنو مطهر عليه وعلى قومه بني عليّ إخوانهم ما آتاهم الله من الملك ، وأكرمهم الله به من السلطان وحسدوا زكراز وسلفه فيما صار لهم من الملك ، فشاقوه ودعوا إلى الخروج عليه ، واتبعهم بنو راشد أحلافهم منذ عهد الصحراء ، وجمع لهم أبو عزة سائر قبائل بني عبد الواد ، فكانت بينه وبينهم حرب سجال هلك في بعض أيامها سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة وقام بالأمر بعده أخوه يغمراسن بن زيّان ، فوقع التسليم والرضى به وسائر القبائل ، ودان له بالطاعة جميع الأمصار . وكتب له الخليفة الرشيد بالعهد على عمله وكان له ذلك سلماً إلى الملك الذي أورثه بنيه سائر الأيام . والملك لله يؤتیه من يشاء .

(١) وفي نسخة ثانية : ندرومه وهو الصحيح كما في قبائل المغرب/٤٢٦ .

(٢) وفي نسخة ثانية : زكران .

يغمراسن —

زكراز بن زيان بن ثابت بن محمد بن زكراز بن تيدوكس بن طاع الله بن علي بن عبد الواد

— بن محمد بن علي بن عبد الواد
عنان —

— بن محمد بن علي بن عبد الواد
تحمي بن محمد بن علي بن عبد الواد

دلول —

معطى بن جوهر —

— بن محمد بن علي بن عبد الواد
— بن محمد بن علي بن عبد الواد
— بن محمد بن علي بن عبد الواد

منغفاد بن ويعزن بن مسعود بن سيمكس —

عمر —
بن محمد بن علي بن عبد الواد

عبد الحق بن

— بن محمد بن علي بن عبد الواد
بن محمد بن علي بن عبد الواد

بنو ورصطف —

مصوه وللدا —

الخبر عن تلمسان وما تأدّي إلينا من أحوالها من الفتح إلى أن تأثّل بها سلطان بني عبد الواد ودولتهم

هذه المدينة قاعدة المغرب الأوسط ، وأمّ بلاد زناتة اختطّها بنو يفرن بها كانت في مواطنهم ، ولم نقف على أخبارها فيما قبل ذلك . وما يزعم بعض العامة من ساكنها أنها أزلّة البناء ، وأنّ الجدار الذي ذكر في القرآن في قصّة الخضر وموسى عليها السلام هو بناحية أكادير منها ، فأمر بعيد عن التحصيل لأنّ موسى عليه السلام لم يفارق المشرق إلى المغرب ، وبني إسرائيل لم يبلغ ملكهم لأفريقية ، فضلاً عمّا وراءها . وإنما هي من مقالات التشيع المبحول عليه أهل العالم في تفضيل ما ينسب إليهم أو ينسبون إليه من بلد أو أرض أو أعلم أو صناعة . ولم أقف لها على خبر أقدم من خبر ابن الرقيق بأنّ أبا المهاجر الذي وليّ أفريقية بين ولايتي عُقْبَة بن نافع الأولى والثانية ، توغّل في ديار المغرب ووصل إلى تلمسان ، وبه سمّيت عيون أبي المهاجر قريباً منها . وذكرها الطبري عند ذكر أبي قرّة وإجلاته مع أبي حاتم والخوارج على عمر بن حفص . ثم قال : فأفروا عنه وانصرف أبو قرّة إلى مواطنه بنواحي تلمسان . وذكرها ابن الرقيق أيضاً في أخبار إبراهيم بن الأغلب قبل استبداده بأفريقية ، وأنه توغّل في غزوه إلى المغرب ونزلها ، واسمها في لغة زناتة مركّب من كلمتين : تلم سان^(١) ومعناها تجمع إثنين يعنون البرّ والبحر .

(ولما خلاص) إدريس الأكبر بن عبد الله بن الحسن إلى المغرب الأقصى واستولى عليه ، نهض إلى المغرب الأوسط سنة أربع وسبعين ومائة فتلّقاه محمد بن خزر بن صولات أمير زناتة وتلمسان ، فدخل في طاعته وحمل عليها مغراوة وبني يفرن وأمكنته من تلمسان فملكها ، واختطّ مسجدها^(٢) وصعد منبره وأقام بها أشهراً وانكفأ راجعاً إلى المغرب . وجاء على أثره من المشرق أخوه سليمان بن عبد الله فزها وولّاه أمرها . ثم هلك إدريس وضعف أمرهم . ولما يبيع لابنه إدريس من بعده واجتمع إليه برابرة

(١) كذا في النسخة البارسية وفي نسخ أخرى : تلم سين وتلم سن وتم سين وهذا كله تحريف .

(٢) أبرز ابن مرزوق اتفاق الرحالين . واجماع المتجولين على أنهم لم يرو ثانياً لجامع تلمسان (المعجم التاريخي/٢٠) .

المغرب نهض إلى تلمسان سنة تسع وتسعين ومائة ، فجدّد مسجدها وأصلح منبرها ، وأقام بها ثلاث سنين دوّخ فيها بلاد زنّانة . واستوسقت له طاعتهم . وعقد عليها لبني محمد ابن عمه سليمان .

(ولما هلك إدريس) الأصغر واقتسم بنوه أعمال المَغْرِبَيْن بإشارة أمّه كثره ، كانت تلمسان في سهان عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان وأعمالها لبني أبيه محمد بن سليمان . فلما انقرضت دولة الأدارسة من المغرب ، وولي أمره موسى بن أبي العافية بدعوة الشيعة ، نهض إلى تلمسان سنة تسع عشرة ومائتين وغلب عليها أميرها لذلك العهد الحسن بن أبي العيش بن عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان ، ففرّ عنها إلى مليلة ، وبنى حصناً لامتناعه بناحية نكور ، فحاصره مدّة ، ثم عقد له سلماً على حصنه .

ولما تغلب الشيعة على المغرب الأوسط أخرجوا أعقاب محمد بن سليمان من سائر أعمال تلمسان ، فأخذوا بدعوة بني أميّة من وراء البحر وأجازوا إليهم . وتغلب يعلى بن محمد اليفرني على بلاد زنّانة والمغرب الأوسط ، فعقد له الناصر الأموي عليها وعلى تلمسان أعوام أربعين وثلاثمائة . ولما هلك يعلى وأقام بأمر زنّانة بعده محمد بن الخير بن محمد بن خزر داعية الحكم المستنصر فملك تلمسان أعوام ستين وثلاثمائة . وهلك في حروب صنهاجة وغلبوهم على بلادهم ، وانجلوا إلى المغرب الأقصى ودخلت تلمسان في عمالة صَنَهَاجَة إلى أن انقسمت دولتهم ، وافترق أمرهم . واستقلّ بإمارة زنّانة وولاية المغرب زيري بن عطية ، وطرده المنصور عن المغرب أعوام^(١) ، فصار إلى بلاد صَنَهَاجَة وأجلب عليها ، ونازل معاقلمهم وأمصارهم مثل تلمسان وهرارة^(٢) وتنس وأشير والمسيلة . ثم عقد المظفر بعد حين لابنه المعز بن زيري على أعمال المغرب سنة ست وتسعين وثلاثمائة فاستعمل على تلمسان ابنه يعلى بن زيري واستقرّت ولايتها في عقبه إلى أن انقرض أمرهم على يد لمتونة . وعقد يوسف بن تاشفين عليها لمحمد بن تَيْنَعْمَر المسوفي وأخيه تاشفين من بعده ، واستحكمت الفتنة بينه وبين المنصور بن الناصر صاحب القلعة من ملوك بني حمّاد ، ونهض إلى تلمسان وأخذ بمخنقها ، وكاد أن يغلب عليها كما ذكرنا ذلك كله في مواضعه .

(١) بياض بالاصل ولم نستطع معرفة هذه السنة في المراجع التي بين أيدينا .

(٢) وفي نسخة ثانية : وهدان .

(ولما غلب) عبد المؤمن لمتونة وقتل تاشفين بن علي بوهْران خربها وخرب تلمسان بعد أن قتل الموحدون عامّة أهلها ، وذلك أعوام أربعين من المائة السادسة . ثم راجع رأيه فيها وندب الناس إلى عمرانها ، وجمع الأيدي على رمّ ما تثلم من أسوارها ، وعقد عليها لسليمان بن واندين من مشايخ هنتاتة وآخر^(١) بين الموحدّين بين هذا الحيّ من بني عبد الواد بما أبلى من طاعتهم وانحياشهم . ثم عقد عليها لابنه السيّد أبي حفص ، ولم يزل آل عبد المؤمن بعد ذلك يستعملون عليها من قرابتهم وأهل بيتهم ويرجعون إليه أمر المغرب كلّ وزناتة أجمع إهتماماً بأمرها واستعظماً لعملها .

وكان هؤلاء الأحياء من زناتة بنو عبد الواد وبنو توجين وبنو راشد غلبوا على ضواحي تلمسان والمغرب الأوسط وملكوها . وتقلّبوا في بسائطها ، واحتازوا باقطاع الدولة الكثير من أرضها والطيب من بلادها والوافر للجباية من قبائلها ، فاذا خرجوا إلى مشاتهم بالصحرَاء خلّفوا أتباعهم وحاشيتهم بالتلول لاعتّار أرضهم وازدراع فدنهم وجباية الخراج من رعاياهم . وكان بنو عبد الواد من ذلك فيها بين البطحاء وملوية ، ساحله وريفه وصحرائه . وصرف ولاية الموحدّين بتلمسان من السادة نظرهم واهتمامهم بشأنها إلى تحصينها وتشيد أسوارها ، وحشد الناس إلى عمرانها والتناغي في تمصيرها واتخاذ الصروح والقصور بها ، والاحتفال في مقاصر الملك واتساع خطّة الدور . وكان من أعظمهم اهتماً بذلك وأوسعهم فيه نظراً السيّد أبو عمران موسى ابن أمير المؤمنين يوسف العشري ووليا سنة ست وخمسين وستائة على عهد أبيه يوسف ابن عبد المؤمن . واتصلت أيام ولايته فيها ، فشيد بناءها وأوسع خطتها وأدار سياج الأسوار عليها ، ووليا من بعد السيد ابو الحسن ابن السيّد أبي حفص بن عبد المؤمن ، وتقبّل فيها مذهبه .

(ولما كان) من أمر بني غانية وخروجهم من ميورقة سنة إحدى وثمانين ما قدّمناه وكبسوا بجاية فلكوها ، وتخطّوا إلى الجزائر ومليانة فغلبوا عليها ، تلافي السيد أبو الحسن أمره بانعام النظر في تشيد أسوارها والاستبلاغ في تحصينها وسدّ فروجها ، واعماق الحفائر نطاقا عليها ، حتى صيرها من أعز معاقل المغرب وأحصن أمصاره ، وتقبّل ولايتها هذا المذهب من بعده في المعتصم بها . (واتفق من الغرائب) . أن أخاه

(١) وفي نسخة ثانية : وآخى .

السيد أبا زيد هو الذي دفع لحرب بني غانية فكان لها في رقع الخرق والمدافعة عن الدولة آثار. وكان ابن غانية قد اجتمع إليه ذؤبان العرب من الهلالين بأفريقية ، وخالفتهم زغبة إحدى بطونهم إلى الموحدّين ، وتحيزوا إلى زنّانة المغرب الأوسط ، وكان مفزعهم جميعاً ومرجع نقضهم وإبرامهم إلى العامل بتلمسان من السادة في مثاهم وحامي حقيقتهم . وكان ابن غانية كثيراً ما يجلب على ضواحي تلمسان وبلاد زنّانة ويطرّقها معه من ناعق الفتنة إلى أن خرّب كثيراً من أمصارها مثل تاهرت وغيرها ، فأصبحت تلمسان قاعدة المغرب الأوسط ، وأمّ هؤلاء الأحياء من زنّانة والمغرب الكافية لهم المهيّئة في حجرها مهادنومهم لما خرّبت المدينتان اللتان كانتا من قبل قواعد في الدول السالفة والعصور الماضية ، وهما أرشكول بسيف البحر وتاهرت فيما بين الريف والصحراء من قبلة البطحاء وكان خراب هاتين المدينتين فيما خرّب من أمصار المغرب الأوسط فتنة ابن غانية وباجلاب هؤلاء الأحياء من زنّانة وطلوعهم على أهلها بسوم الخسف والعيث والنهب ، وتخطّف الناس من السابلة وتخريب العمران ومغالبتهم حاميتها من عساكر الموحدّين ، مثل : قصر عجيسة وزرقة والخضراء وشلف ومتيجة وحمزة ومرسى الدجاج والجعبات ، ولم يزل عمران تلمسان يترايد وخطّتها تتسع الصروح بها بالآجر والفهر^(١) تعلّى وتشاد إلى أن نزها آل زيان واتخذوها داراً لملكهم ، وكرسيّاً لسلطانهم ، فاخطوا بها القصور المؤنقة والمنازل الحافلة واغترسوا الرياض والبساتين وأجروا خلالها المياه ، فأصبحت أعظم أمصار المغرب . ورحل إليها الناس من القاصية ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع ، فنشأ بها العلماء واشتهر فيها الأعلام . وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية . والله وارث الأرض ومن عليها

* (الخبر عن استقلال يغمراسن بن زيان بالملك والدولة بتلمسان وما إليها وكيف مهّد الامر لقومه وأصاره تراثاً لبنيه) *

كان يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد من أشدّ هذا الحيّ بأساً ، وأعظمهم في

(١) الفهر : حجر رقيق تسحق به الادوية ، وفي نسخة ثانية القرميد .

النفوس مهابة وإجلالاً وأعرفهم بمصالح قبيله ، وأقواهم كاهلاً على حمل الملك واضطلاعاً بالتدبير والرياسة ، شهدت له بذلك آثاره قبل الملك وبعده . وكان مرموقاً بعين التجلّة مؤملاً للأمر عند المشيخة وتعظمه من أمره عند الخاصّة ، ويفزع إليه في نوائها العامّة . فلما ولي هذا الأمر بعد أخيه أبي عزّة زكرا بن زيّان سنة ثلاث وثلاثين قام به أحسن قيام ، واضطلع بأعبائه وظهر على بني مطهر وبني راشد الخارجين على أخيه ، وأصارهم في جملته وتحت سلطانه . وأحسن السيرة في الرعيّة ، واستمال عشيرته وقومه وأحلافهم من زغبة بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجوار ، واتخذ الآلة ورتّب الجنود والمسالح ، واستلحق العساكر من الروم والغز راحمة وناشئة . وفرض العطاء واتخذ الوزراء والكتّاب ، وبعث في الأعمال ولبس شارة الملك والسلطان ، واقتعد الكرسي ومحا آثار الدولة المؤمّنية ، وعطلّ من الأمر والنهي دستها ، ولم يترك من رسوم دولتهم وألقاب ملكهم إلّا الدعاء على منابره للخليفة بمراكش ، وتقلّد^(١) العهد من يده تأنيساً للكافة ومرضاة للأكفّاء من قومه . ووفد عليه لأوّل دولته ابن وضّاح إثر الموحدين ، أجاز البحر مع جالية المسلمين من شرق الأندلس ، فأثّر وقرب مجلسه وأكرم نزله ، وأحلّه من الخلّة والشورى بمكان اصطفاه له . ووفد في جملته أبو بكر بن خطّاب المبايع لأخيه بمرسية ، وكان مرسلأً بليغاً ، وكتاباً مجيداً ، وشاعراً محسناً ، فاستكتبه وصدر عنه من الرسائل في خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس في عهود بيعاتهم ما تنوّل وحفظ . ولم يزل يغمراسن محامياً عن غيلة محارباً لعدوّه . وكانت له مع ملوك الموحدين من آل عبد المؤمن ومديلهم آل أبي حفص مواطن في التمرّس به ومنازلة بلده ، نحن ذاكرها كذلك . وبينه وبين أقاتاله بني مرين قبل ملكهم المغرب وبعد ملكه وقائع متعدّدة . وله على زناة الشرف من توجين ومغراوة في فلّ جموعهم وانتساف بلادهم وتخريب أوطانهم أيام مذكورة وآثار معروفة ، نشير إلى جميعها إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن استيلاء الأمير أبي زكريا على تلمسان ودخول

يغمراسن في دعوته) *

لما استقلّ يغمراسن بن زيّان بأمر تلمسان والمغرب الأوسط ، وظفر بالسلطان وعلا

(١) وفي نسخة ثانية : وتناول .

كعبه على سائر أحياء زناته ، نفسوا عليه ما آتاه الله من العز ، وكرمه به من الملك ، فناذوه العهد وشاقوه الطاعة ، وركبوا له ظهر الخلاف والعداوة ، فشمّر لحربهم ونازلهم في ديارهم وأحجرهم في أمصارهم ومعتصماتهم من شواحق الجبال ومتمنع الأمصار . وكانت له عليهم أيام مشهورة ووقائع معروفة . وكان متولي كبر هذه المشاقة عبد القوي بن عباس شيخ بني توجين أقاتلهم من بني يادين ، والعباس بن مندبل بن عبد الرحمن وإخوته أمراء مغراوة . وكان المولى الأمير أبو زكريا بن أبي حفص منذ استقلّ بأمر أفريقية واقتطعها من الإيالة المؤمنية سنة خمس وعشرين وستائة كما ذكرناه متطاولاً إلى إحتياز المغرب والاستيلاء على كرسيّ الدعوة بمراكش ، وكان يرى أنّ بمظاهرة زناته له على شأنه يتمّ له ما يسمو إليه من ذلك ، فكان يداخل أمراء زناته فيرغبهم ويراسلهم بذلك على الأحياء من بني مرين وبني عبد الواد وتوجين ومغراوة . وكان يغمراسن منذ تقلّد طاعة بني عبد المؤمن أقام دعوتهم بعمله متحيزاً إليهم سلماً لوليهم وحرباً على عدوّهم . وكان الرشيد منهم قد ضاعف له البرّ والخلوص ، وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة ، وعأوده الاتحاف بأنواع الألطاف والهدايا عام سبع وثلاثين وستائة تقمنا لمسرّاته ، وميلاً إليه عن جانب أقتال بني مرين المجلبين على المغرب والدولة . وأحفظ الأمير أبا زكريا بن عبد الواحد صاحب أفريقية ما كان من اتصال يغمراسن بالرشيد ، وهو من جواره بالحلّ القريب ، واستكره ذلك . وبينما هو على ذلك إذ وفد عليه عبد القويّ بن عباس ، وولد مندبل بن محمد صريخين على يغمراسن وسهّلوا له أمره وسوّلوا له الاستيلاء على تلمسان ، وجمع كلمة زناته واعتدّا ذلك ركاباً لما يرومه من امتطاء ملك الموحّدين وانتظامه في أمره ، وسلماً لارتقاء ما يسمو إليه من ملكه ، وباباً للولوج على أهله ، فحرّكه املاؤهم وهزه إلى النعرة صريخهم ، وأهّبّ بالموحّدين وسائر الأولياء والعساكر إلى الحركة على تلمسان ، واستنفر لذلك سائر البدو من الأعراب الذين في عمله من بني سلّيم ورياح بظعنهم فأهبطوا لداعيه ، ونهض سنة تسع وثلاثين وستائة في عساكر ضخمة وجيوش وافرة ، وسرّح أمام حركته عبد القويّ بن العباس وأولاد مندبل بن محمد لحشد منْ بأوطانهم من أحياء زناته ، وأتباعهم وذوئان قبائلهم ، وأحياء زغبة أحلافهم من العرب ، وضرب لهم موعداً لموافاتهم في تخوم بلادهم . ولما نزل زاغر قبلة تيطري منتهى مجالات رياح وبني سلّيم في المغرب ، وافته هنالك أحياء زغبة

من بني عامر وسويد ، وارتحلوا معه حتى نازل تلمسان ، فجمع عساكر الموحدين وحشد زناته وظهرن المغرب ، بعد أن قدم إلى يغمراسن الرسل من مليانة والأعذار والبراءة والدعاء والطاعة فرجعهم بالخيبة .

(ولما حلت) عساكر الموحدين بساحة البلد وبرز يغمراسن وجموعه فضحتهم ناشبة السلطان بالنبل ، فانكشفوا ولاذوا بالجدران ، وعجزوا عن حماية الأسوار ، فاستمكنت المقاتلة من الصعود . ورأى يغمراسن أن قد أحيط بالبلد فقصد باب العقبة من أبواب تلمسان ملتفأ على ذويه وخاصته ، واعترضه عساكر الموحدين فصمد نحوهم وجندل بعض أبطالهم ، فافرجوا له ، ولحق بالصحراء . وانسلت الجيوش إلى البلد من كل حذب ، فاقتحموه وعاثوا فيه بقتل النساء والصبيان ،

واكتساح الأموال . ولما تجلّى عشاء تلك الهيبة وحسر تيار الصدمة ، وخمدت نازر الحرب ، راجع الموحدون بصائرهم ، وأمعن الأمير نظره فيمن يقلّده أمر تلمسان والمغرب الأوسط ، وبرزه بثغرها لإقامة دعوته الدائلة من دعوة المؤمن والمدافعة عنها . واستكبر ذلك أشرافهم وتدافعوه وتبرأ أمراء زناته منه ضعفاً عن مقاومة يغمراسن ، وعلماً بأنه الفحل الذي لا يجدد أنفه ، ولا يطرق غيله ، ولا يصدّ عن فريسته ، وسرح يغمراسن الغارات في نواحي العسكر فاخطفوا الناس من حوله ، وأطلوا من المراقب عليه . وخاطب يغمراسن خلال ذلك الأمير أبا زكريا راغباً في القيام بدعوته بتلمسان ، فراجع بالأسعاف واتصال اليد على صاحب مراکش ، وسوّغه على ذلك جباية اقتطعها له ، وأطلق أيدي العمّال ليغمراسن على جبايتها . ووفدت أمّه سوط النساء للاشتراط والقبول فأكرم وصلها وأسنى جاثرتها وأحسن وفادتها ومنقلبها ، وارتحل إلى حضرته لسبع عشرة ليلة من نزوله وفي أثناء طريقه وسّوس إليه بعض الحاشية باستبداد يغمراسن عليه ، وأشاروا بإقامة منافسيه من زناته ، فأجابهم وقّلد عبد القويّ بن عطية التوجيني ، والعبّاس بن منديل المغراوي ، وعليّ بن منصور الملكيشي^(١) على قومهم ووطنهم ، وعهد إليهم بذلك ، وأذن لهم في اتخاذ الآلة والمراسم السلطانية على سنن يغمراسن قريعهم ، فاتخذوها بحضرته وبمشهد من ملك الموحدين ، وأقاموا مراسمها ببابه ، وأغذ السير لتونس قرير العين بامتداد ملكه ،

(١) وفي نسخة ثانية : الملكيشي .

وبلوغ وطره ، والإشراف على أذعان المغرب لطاعته وانقياده وحكمه ، وإدالة عبد المؤمن فيه بدعوته . ودخل يغمراسن بن زيان ووفى للأمر أبي زكريا بعهدده ، وأقام بها الدعوة له على سائر منابره ، وصرف إلى مشاقه من زناته وجوه عزائمهم ، فأذاق عبد القوي وأولاد عباس وأولاد مندبل نكال الحرب ، وسامهم سوء العذاب والفتنة ، وجاس خلال ديارهم وتوغل في بلادهم وغلبهم على الكثير من ممالكهم ، وشرد عن الأمصار والقواعد ولاتهم وأشياهم ودعاتهم ، ورفع عن الرعية ما نالهم من عدوانهم وسوء ملكتهم وثقل عسفهم وجورهم . ولم يزل على تلك الحال إلى أن كان من حركة صاحب مراکش بسبب أخذ يغمراسن بالدعوة الحفصية ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن نهوض السعيد صاحب مراکش ومنازلته
يغمراسن بجبل تامزردكت ومهلكه هنالك) *

لما انقضت دولة بني عبد المؤمن . وانتزى الثوار والدعاة بقاصية أعمالهم . وقطعوها عن ممالكهم ، فاقتطع ابن هود ما وراء البحر من جزيرة الأندلس واستبد بها ، وورى بالدعاء للمستنصر بن الظاهر خليفة بغداد من العباسيين لعهدده ، ودعا الأمير أبو زكريا بن أبي حفص بأفريقية لنفسه ، وسما إلى جمع كلمة زناته والتغلب على كرسي الدعوة بمراكش ، فنازل تلمسان وغلب سنة أربعين وستمائة وقارن ذلك ولاية السعيد علي بن المأمون إدريس بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، وكان شهماً حازماً يقطاً بعيد الهمة ، فنظر في أعطاف دولته ، وفاوض الملأ في تثقيف أطرافها وتقويم مائلها ، وأثار حفاظهم ما وقع من بني مرين في ضواحي المغرب . ثم في أمصاره وأستيلاتهم على مكناسة ، وإقامتهم الدعوة الحفصية فيها كما نذكره . فجهز الملوك والعساكر وأزاح عنهم ، واستنفر عرب المغرب وما يليه ^(١) ، واحتشد كافة المصامدة . ونهض من مراکش آخر سنة خمس وأربعين وستمائة يريد القاصية ، ويشرد بني مرين عن الأمصار الدانية . واعترض العساكر والحشود بوادي بهت ،

(١) وفي نسخة ثانية : وقبائله .

وأغذ السير إلى تازى ، فوصلته هناك طاعة بني مرين كما نذكره . ونفر معه عسكرٌ منهم ، ونهض إلى تلمسان وما وراءها ونجا يغمراسن بن زيّان وبنو عبد الواد بأهلهم وأولادهم إلى قلعة تامزردكت قبله وجدة ، فاعتصموا بها .

ووفد على السعيد الفقيه عبدون وزير يغمراسن مؤدياً للطاعة ثابتاً في مذاهب الخدمة ، ومتولياً من حاجات الخليفة بتلمسان ما يدعوه إليه ويصرفه في سبيله ، ومعتذراً عن وصول يغمراسن ، فلجّ الخليفة في شأنه ولم يعذره . وأبى إلا مباشرة طاعته بنفسه ، وساعده في ذلك كانون بن جرمون السفياني صاحب الشورى بمجلسه ومن حضر من الملاء^(١) ورجعوا عبدونا لإستقدامه ، فتناقل خشية على نفسه . واعتمد السعيد الجبل في عساكره وأناخ بها في ساحة^(٢) وأخذ بمخنتهم ثلاثاً ، ولرابعها ركب مهجراً على حين غفلة من الناس في قافلة ليتطوّف على المعتصم ، ويتقرّى مكانه ، فبصر به فارس من القوم يعرف بيوسف بن عبد المؤمن الشيطان ، كان أسفل الجبل للاحتراس وقريباً منه يغمراسن بن زيّان وابن عمّه يعقوب بن جابر فانقضوا عليه من بعض الشباب ، وطعنه يوسف فأكبّه عن فرسه ، وقتل يعقوب بن جابر وزيره يحيى بن عطوش . ثم استلحموا لوقتهم مواليه ناصحاً من العلوج وغنبراً من الخصيان ، وقائد جند النصارى أخو القمط ، ووليداً يافعاً من ولد السعيد .

(ونقال) إنما كان ذلك يوم عبّى العساكر وصعد الجبل للقتال ، وتقدّم أمام الناس فأقتطعه بعض الشباب المتوغّرة في طريقه ، فتواثب به هؤلاء الفرسان وكان ما ذكرناه ، وذلك في صفر سنة ست وأربعين وسبعمائة . ووقعت النفرة في العساكر لطائر الخبر فأجفلوا ، وبادر يغمراسن إلى السعيد وهو صريع بالأرض فترل إليه وحيّاه وفدّاه وأقسم له على البراءة من هلكته ، والخليفة واجم بمصرعه يجود بنفسه إلى أن فاض وانتهب المعسكر بجملته ، وأخذ بنو عبد الواد ما كان به من الأخبية والغازات . واختصّ يغمراسن بفسطاط السلطان فكان له خالصة دون قومه ، واستولى على الذخيرة التي كانت فيه ، منها مصحف عثمان بن عفّان رضي الله عنه يزعمون أنه أخذ المصاحف التي انتسخت لعهد خلافته ، وأنه كان في خزائن قرطبة عند ولد عبد

(١) وفي نسخة ثانية : الجلة .

(٢) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة اسم هذه الساحة في المراجع التي بين أيدينا .

رحمن الداخل ، ثم صار في ذخائر لمتونة فيما صار إليهم من ذخائر ملوك الطوائف بالأندلس ، ثم إلى خزائن الموحّدين من خزائن لمتونة ، وهو لهذا العهد في خزائن بني مرين فيما استولوا عليه من ذخيرة آل زيان حين غلبهم إياهم على تلمسان ، واقتحامها عنوة على ملكها منهم عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن فريسة السلطان أبي الحسن ، مقتحمها غالباً سنة سبع وثلاثين وسبعائة كما نذكره . ومنها العقد المنتظم من خرزات الياقوت الفاخرة والدرر ، المشتمل على مئين متعدّدة من حصائبه يسمى بالثعبان ، وصار في خزائن بني مرين بعد ذلك الغلاب فيما اشتملوا عليه من ذخيرتهم إلى أن تلف في البحر عند غزو الأسطول بالسلطان أبي الحسن بمرسى بجاية مرجعه من تونس حسبما نذكره بعد إلى ذخائر من أمثاله وطرف من أشباهه مما يستخلصه الملوك لخزائنها ويعنون به من ذخائرهم . ولما سكنت النفرة وركد عاصف تلك الهبة نظر يغمراسن في شأن مواراة الخليفة ، فجهّز ورفع على الأعواد إلى مدفنه بالعباد بمقبرة الشيخ أبي مدين عفا الله عنه . ثم نظر في شأن حرمه وأخته تاعزونت الشهيرة الذكر ، بعد أن جاءها واعتذر إليها مما وقع ، وأصبحهنّ جملة من مشيخة بني عبد الواد إلى مأمهنّ وأحقوهنّ بدرعة من تخوم طاعتهم ، فكان له بذلك حديث جميل في الإبقاء على الحرم ورعى حقوق الملك ورجع إلى تلمسان . وقد خضدت شوكة بني عبد المؤمن وأمّتهم على سلطانه والله أعلم .

* (الخبر عما كان بينه وبين بني مرين من الاحداث

سائر أيامه) *

قد ذكرنا ما كان بين هذين الحيين من المناغاة والمنافسة منذ الآماد المتطاولة بما كانت بحالات الفريقين بالصحراء متجاورة ، وكان التخم بين الفريقين واديا إلى فيكيك . وكان بنو عبد المؤمن عند فشل الدولة وتعلّب بني مرين على صاحبة المغرب يستجيشون بني عبد الواد مع عساكر الموحّدين على بني مرين فيجوسون خلال المغرب ما بين تازي إلى فاس إلى القصر في سبيل المظاهرة للموحّدين والطاعة لهم . وسنذكر أخبار بني مرين كثيراً من ذلك . فلما هلك السعيد وأسف بنو مرين إلى ملك المغرب

يغمراسن أمل في مزاحمتهم . وكان أهل فاس بعد تغلب أبو يحيى بن عبد الحق عليهم قد نعموا على قومه سوء السيرة ، وتمشت رجالاتهم في اللياذ بطاعة الخليفة المرتضى ففعلوا فعلتهم في الفتك بعامل أبي يحيى بن عبد الحق ، والرجوع إلى طاعة الخليفة . وأغد أبو يحيى المسير إلى منازلهم ، فحاصرهم شهوراً وفي أثناء هذا الحصار اتصلت المخاطبة بين الخليفة المرتضى ويغمراسن بن زيان في الأخذ بحجزة أبي يحيى بن عبد الحق بفاس ، فأجاب يغمراسن داعيه ، واستنفر لها إخوانه من زناته فنفر معه عبد القوي بن عطية بقومه من توجين وكافة القبائل من زناته والمغرب ، ونهضوا جميعاً إلى المغرب . وبلغ خبرهم إلى أبي يحيى بن عبد الحق بمكانه من حصار فاس ، فجهز كتابه عليها ونهض للقائهم في بقية العساكر ، والتقى الجمعان بایسلي من ناحية وجدة ، وكانت هناك الواقعة المشهورة بذلك المكان انكشف فيها جموع يغمراسن ، وهلك منهم يغمراسن وغيره ، ورجعوا في فلهم إلى تلمسان ، واتصلت بعد ذلك بينهم الحروب والفتنات سائر أيامه ، وربما تخللتها المهادنات قليلاً . وكان بينه وبين يعقوب بن عبد الحق ذمة مواصلة أوجب له رعيها ، وكثيراً ما كان يثني عليه أخوه أبو يحيى من أجلها . ونهض أبو يحيى بن عبد الحق سنة خمس وخمسين وستائة إلى قتاله وبرز إليه يغمراسن ، وتزاحف جموعهم بأبي سليط ، فانهمز يغمراسن واعترم أبو يحيى على اتباعه ، فردّه أخوه يعقوب بن عبد الحق . (ولما) قفل إلى المغرب صمد يغمراسن إلى سجلماسة ، لمداخلة كانت بينه وبين المنبات من عرب المعقل ، أهل بمجالاتها وذئاب فلاتها ، حدثته نفسه باهتبال الغرة في سجلماسة من أجلها ، وكانت قد صارت إلى إيالة أبي يحيى بن عبد الحق منذ ثلاث كما ذكرناه في أخبارهم . ونذر بذلك أبو يحيى ، فسابق إليها يغمراسن بمن حضره من قومه فنقفها وسد فرجها . ووصل يغمراسن عقيب ذلك بعساكره ، وأتاح بها وامتنعت عليه فأفرج عنها قافلاً إلى تلمسان . وهلك أبو يحيى بن عبد الحق إثر ذلك منقلبه إلى فاس ، فاستنفر يغمراسن أوليائه من زناته وأحياء زغبة ، ونهض إلى المغرب سنة سبع وخمسين وستائة وانتهى إلى كلدامان . ولقيه يعقوب بن عبد الحق في قومه فأوقع به . وولى يغمراسن منهزماً ، ومّر في طريقه بتافرسيت فانتسفها وعاث في نواحيها . ثم تداعوا للسلم ووضع أوزار الحرب ، وبعث يعقوب بن عبد الحق ابنه أبا مالك بذلك ، فتولى عقده وإبرامه . ثم كان التقاؤهما سنة تسع وخمسين وستائة

بواجر^(١) قبالة بني يزناسن ، واستحكم عقد الوفاق بينهما بذلك ، واتصلت المهادنة إلى أن كان بينهما ما ذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن كائنة النصارى وايقاع يغمراسن بهم) *

كان يغمراسن بن زيان بعد مهلك السعيد وانفضاض عساكر الموحدين قد استخدم طائفة من جند النصارى الذين كانوا في جملة مستكثراً بهم معتدّاً بمكانهم مباهاياً بهم في المواقف والمشاهد . وناولهم طرفاً من جبل عنايته ، فاعتزوا به واستفحل أمرهم بتلمسان حتى إذا كان سنة إثنين وخمسين وستمائة بعد مرجعه من بلاد توجين في إحدى حركاته إليها ، كانت قصة غدرهم الشنعاء التي أحسن الله في دفاعها عن المسلمين . وذلك أنه ركب في بعض أيامه لاعتراض الجنود بباب القرمادين^(٢) من أبواب تلمسان . وبينما هو واقف في موكبه عند قافلة الضحّا عدا عليه قائدهم ، وبادر النصارى إلى محمد بن زيان أخي يغمراسن فقتلوه ، وأشار له بالنجوى فبرز من الصف لاسراره وأمكنه من أذنه ، فتنكبه النصراي^(٣) وقد خالطه روعة أحس منها يغمراسن بمكره فأنحاص منه ، وركض النصراي أمامه يطلب النجاة ، وتبين الغدر ، وثارت بهم الدهماء من الحامية والرعايا ، فأحيط بهم من كل جانب وتناولتهم أيدي الهلاك بكل مهلك قعصاً بالرماح وهرباً بالسيوف وشدخاً بالعصي والحجارة حتى استلحموا ، وكان يوماً مشهوداً . ولم يستخدم من بعدها جند النصارى بتلمسان حذراً من غائلتهم . ويقال إن محمد بن زيان هو الذي داخل القائد في الفتك بأخيه يغمراسن ، وأنه إنما قتله عندما لم يتم لهم الأمر تبرّأ من مداخلته ، فلم يمهله غاشي الهيعة للثبّت في شأنها والله أعلم .

(١) كذا في النسخة البارسية وفي نسخة أخرى : براجر .

(٢) كذا في النسخة البارسية وفي نسخة أخرى : المفرادين وفي نسخة ثانية الغزمادين وأخرى : الترمادين .

(٣) الضمير هنا يعود الى قائدهم .

* (الخبر عن تغلب يغمراسن على سجلماسة ثم مصيرها بعد
إلى إيالة بني مرين) *

كان عرب المعقل منذ دخول العرب الهلاليين إلى صحراء المغرب الأقصى أحلافاً
وشيعةً لزنانة ، وأكثر انخياشهم إلى بني مرين إلا ذوي عبيد الله منهم لما كانت مجالاتهم
لصق بمجالات بني عبد الواد ومشاركة لها . ولما استفحل شأن بني عبد الواد بين يدي
ملكهم زاحموهم عنها بالمناكب ، ونبذوا إليهم العهد واستخلصوا دونهم المنبات من
ذوي منصور أقاتلهم ، فكانوا حلفاء وشيعة ليغمراسن ولقومه . وكانت سجلماسة في
مجالاتهم ومنقلب رحلتهم ، وكانت قد صارت إلى ملك بني مرين ، ثم استبد بها
القطراني ، ثم ثاروا به ورجعوا إلى طاعة المرتضى . وتولّى كبر ذلك علي بن عمر كما
ذكرناه في أخبار بني مرين . ثم تغلب المنبات على سجلماسة وقتلوا عاملها علي بن عمر
سنة اثنتين وستين وستمائة وآثروا يغمراسن بملكها ، ودخل أهل البلد في القيام بدعوته
وحملوهم عليها . فجاءوا يغمراسن فنهض إليها في قومه ، وأمكنوه من قيادها
فضبطها ، وعقد عليها لولده يحيى . وأنزل معه ابن أخته حنينة ، واسمه عبد الملك
ابن محمد بن علي بن قاسم بن درم^(١) من ولد محمد ، وأنزل معها يغمراسن بن حمادة
فيمن معهم من عشائرتهم وحشمهم فأقام ابنه يحيى أميراً عليها إلى أن غلب يعقوب
ابن عبد الحق الموحد بن علي دار خلافتهم . واطاعته طنجة وعامة بلاد المغرب ،
فوجه عزمه إلى انتزاع سجلماسة من طاعة يغمراسن وزحف إليها في العساكر والحشود
من زنانة والعرب والبربر ، ونصب عليها آلات الحصار إلى أن سقط جانب من سورها
فاقتحموها منه عنوة في صفر سنة ثلاث وسبعين وستمائة واستباحوها وقتل القائدان
عبد الملك بن حنينة ويغمراسن بن حمادة ومن معهم من بني عبد الواد أمراء المنبات ،
وصارت إلى طاعة بني مرين آخر الأيام : والملك بيد الله يؤتیه من يشاء من عباده .

(١) وفي نسخة ثانية : درع .

* (الخبر عن حروب يغمراسن مع يعقوب بن عبد الحق) *

قد ذكرنا ما كان من شأن بني عبد المؤمن عند فشل دولتهم ، واستطالة بني مرين عليهم في الاستظهار ببني عبد الواد واتصال اليد بهم في الأخذ بحجزة عدوهم من بني مرين عليهم . ولما هلك المرتضى وولى أبو دبوس سنة خمس وستين وستمائة وحمي وطيس فتتته مع يعقوب بن عبد الحق ، فراسل يغمراسن في مدافعته ، وأكد العهد وأسنى الهدية ، وأجلب إليه يغمراسن وشن الغارات على ثغور المغرب وأضررها ناراً . وكان يعقوب بن عبد الحق محاصراً لمراكش فأفرج عنها ورجع إلى المغرب . واحتشد جموعه ، ونهض إلى لقائه وتراحف الفريقان بوادي تلاغ ، وقد استكمل كل تعبيته ، وكانت الواقعة على يغمراسن استبيحت فيها حرمه واستلحم قومه ، وهلك ابنه أبو حفص عمر أعزّ ولده عليه في أتراب له من عشيرته مثل : ابن أخته عبد الملك بن حنينة ، وابن يحيى بن مكّي ، وعمر بن ابراهيم بن هشام ، ورجع عنه يعقوب بن عبد الحق إلى مراكش حتى انقضى شأنه في التغلب عليها ، وحى أثر بني عبد المؤمن منها ، ونزع لمحاربة بني عبد الواد وحشد كافة أهل المغرب من المصامدة والجموع والقبائل ، ونهض إلى بني عبد الواد سنة سبعين وستمائة فبرز إليه يغمراسن في قومه وأوليائه من مغراوة والعرب ، وتراحفوا بایسلى من نواحي وجدة ، فكانت الدبرة على يغمراسن انكشفت جموعه ، وقتل ابنه فارس ، ونجا بأهله بعد أن أضرم معسكره ناراً تفادياً من معرة اكتساحه ، ونجا إلى تلمسان فانحجر بها ، وهدم يعقوب بن عبد الحق وجدة ، ثم نازله بتلمسان ، واجتمع إليه هنالك بنو توجين مع أميرهم محمد ابن عبد القوي ، وصل يده بيد السلطان على يغمراسن وقومه ، وحاصروا تلمسان أياماً فامتنعت عليهم ، وأفرجوا عنها . وولّى كل إلى عمله ومكان ملكه حسبما ذكره في أخبارهم . وانعقدت بينهما المهادنة من بعد ذلك وفرغ يعقوب بن عبد الحق للجهاد ، ويغمراسن لمغالبة توجين ومغراوة على بلادهم إلى أن كان من شأنهم ما ذكره والله أعلم .

* (الخبر عن شأن يغمراسن مع مغراوة وبني توجين وما كان بينهم من الأحداث) *

كانت مغراوة في مواطنهم الأولى من نواحي شلف قد سالمتهم الدول عند تلاشي ملكهم ، وساموهم الجباية فرضوا بها مثل : بني ورسفين وبني يلث وبني ورتزمير ، وكان فيهم سلطان لبني مندیل بن عبد الرحمن من أعقاب آل خَزَر ملوكهم الأولى منذ عهد الفتح وما بعده على ما ذكرناه في خبرهم . فلما انثر عقد الخلافة بمراكش وتشظت عصاها وكثر الثوار والخوارج بالجهات ، استقل مندیل بن عبد الرحمن وبنوه بتلك الناحية وملكوا مليانة وتنس وشرشال وما إليها ، وتطاولوا إلى متيجة فتغلبوا عليها . ثم مدّوا أيديهم إلى جبل وانشریش وما إليه ، فتناولوا الكثير من بلاده ثم أراحهم عنها بنو عطية الحيو وقومه من بني توجين المجاورون لهم في مواطنهم بأعالي شلف شرقي أرض السوس^(١) وكان ذلك لأوّل دخول أحياء زناتة الناجعة بأرض القبلة إلى التلول ، فتغلب بنو عبد الواد على نواحي تلمسان إلى وادي صا . وتغلب بنو توجين على ما بين الصحراء والتل من بلد المریة إلى جبل وانشریس ، إلى مرات الجعبات ، وصار التحم للملك بني عبد الواد سبك والبطحاء ، فن قبلها مواطن بني توجين ومن شرقيها مواطن مغراوة . وكانت الفتنة بين بني عبد الواد وبين هذين الحيين من أوّل دخولهم إلى التلول .

(وكان المولى) الأمير أبو زكريا بن أبي حفص يستظهر بهذين الحيين على بني عبد الواد ويراعمهم بهم ، حتى كان من فتح تلمسان ما قدّمناه ، وألبس جميعهم شارة الملك على ما ذكرناه ونذكره في أخبارهم ، فزاحموا يغمراسن بعدها بالمناكب وصرف هو إليهم وجه النعمة والحروب . ولم يزل الشأن ذلك حتى انقرض ملك هذين الحيين لعهد ابنه عثمان بن يغمراسن وعلى يده ، ثم على يد بني مرين من بعدهم كما يأتي ذكره .

(ولما رجع) يغمراسن بن زيان من لقاء بني مرين بايسلي من نواحي وجدة التي كانت سنة سبع وأربعين وسمائة ، وكان معه فيها عبد القوي بن عطية بقومه من بني

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : السرسو .

توجين ، وهلك مرجعه منها ، أنفذ^(١) يغمراسن العهد لابنه محمد الأمير بعده ، وزحف إلى بلاده فجاس خلالها ، ونازل حصونها فامتنعت عليه . وأحسن محمد بن عبد القوي في دفاعه ، ثم زحف ثانية سنة خمسين وستائة إليهم فنازل حصن تافركينت من حصونهم . وكان به علي بن أبي زيّان حافد محمد بن عبد القوي فامتنع به في طائفة من قومه . ورحل يغمراسن كظيماً ، ولم يزل يغمراسن بعدها يثير الغارات على بلادهم ، ويجمع الكتائب على حصونهم . وكان بتافركينت صنيعه من صنائع بني عبد القوي ونسبه في صنهاجة أهل ضاحية بجاية ، اختصّ بهذا الحصن ورسخت قدمه فيه ، واعتزّ بكثرة ماله وولده فأحسن الدفاع عنه ، وكان له مع يغمراسن في الامتناع عليه أخبار مذكورة حتى سطا به بنو محمد بن عبد القوي حين شرهوا إلى نعمته ، وأنفوا من استبداده فأتلفوا نفسه وتخطفوا نعمته ، فكان حتف ذلك الحصن في حتفه كما يأتي ذكره .

(وعند) ما شبتّ نار الفتنة بين يغمراسن ومحمد بن عبد القوي وصل محمد يده بيعقوب بن عبد الحق . فلمّا نازل يعقوب تلمسان سنة سبعين وستائة بعد أن هدم وجدة ، وهزم يغمراسن بايسلي ، جاءه محمد بن عبد القوي بقومه من بني توجين ، وأقام معه على حصارها ورحلوا بعد الامتناع عليهم ، فرجع محمد إلى مكانه . ثم عاود يعقوب بن عبد الحق منازلة تلمسان سنة ثمانين وستائة بعد إيقاعه بيهغمراسن في خرزوزة ، فلقيه محمد بن عبد القوي بالقصبات واتصلت أيديهم على تخريب بلاد يغمراسن ملياً ، ونازلوا تلمسان أياماً ثم افترقوا ورجع كل إلى بلده .

(ولما) خلص يغمراسن بن زيّان من حصاره زحف إلى بلادهم وأوطأ عسكره أرضهم ، فغلب على الضاحية وخرّب عمرانها إلى أن تملكها بعده ابنه عثمان كما نذكره .

(وأما) خبره مع مغراوة فكان عماد رأيه فيهم التغريب^(٢) بين بني منديل بن عبد الرحمن للمنافسة التي كانت بينهم في رئاسة قومهم . ولما رجع من واقعة تلاغ سنة ست وستين وستائة وهي الواقعة التي هلك فيها ولده عمر زحف بعدها إلى بلاد مغراوة ، فتوغّل فيها وتجاوزها إلى من وراءهم من مليكش والثعالبة ، وأمكنه عمر

(١) وفي نسخة ثانية : فنبذ .

(٢) وفي نسخة ثانية : التضريب .

من مليانة سنة ثمان وستين وستائة على شرط المؤازرة ، والمظاهرة على إخوته ، فلكها يغمراسن يومئذ وصار الكثير من مغراوة إلى ولايته ، وزحفوا معه إلى المغرب سنة سبعين وستائة ثم زحف بعدها إلى بلادهم سنة اثنتين وسبعين وستائة فتجافى له ثابت ابن منديل عن تنس بعد أن أثنى في بلادهم ورجع عنها ، فاسترجعها ثابت ، ثم نزل له عنها ثانياً سنة إحدى وثمانين وستائة بين يدي مهلكه عندما تم له الغلب عليهم والإثخان في بلادهم إلى أن كان الاستيلاء عليها لابنه عثمان على ما ذكره إن شاء الله .

* (الخبر عن انتراء الزعيم بن مكن ببلد مستغانم) *

كان بنو مكن هؤلاء من علية القرابة من بني زيان يشاركونهم في نسب محمد بن زكراى ابن تيدوكس^(١) بن طاع الله ، وكان لمحمد هذا أربعة من الولد كبيرهم يوسف ومن ولده جابر بن يوسف أول ملوكهم وثابت بن محمد ومن ولده زيان بن ثابت أبو الملوك من بني عبد الواد ، ودرع بن محمد ومن ولده عبد الملك بن محمد بن علي بن قاسم ابن درع المشتهر بأمه حنينة أخت يغمراسن بن زيان ومكن بن محمد . وكان له من الولد يحيى وعمرس ، وكان من ولد يحيى الزعيم وعلي ، وكان يغمراسن بن زيان كثيراً ما يستعمل قرابته في الممالك ويولّهم على العائلات ، وكان قد استوحش من يحيى بن مكن وابنه الزعيم وغربهما إلى الأندلس ، فأجازا من هنالك إلى يعقوب بن عبد الحق سنة ثمانين وستائة ولقياه بطنجة في إحدى حركات جهاده . وزحف يعقوب بن عبد الحق إلى تلمسان عامئذ وهما في جملته فأدركتها النغرة على قومها وآثرا مفارقة السلطان إليهم ، فأذن لهم في الانطلاق ولحقا بيغمراسن بن زيان حتى اذا كانت الواقعة عليه بخرزوزة سنة ثمانين كما قدّمناه ، وزحف بعدها إلى بلاد مغراوة وتجافى له ثابت بن منديل عن مليانة وانكفّ راجعاً إلى تلمسان ، استعمل على ثغر مستغانم الزعيم بن يحيى بن مكن . فلما وصل إلى تلمسان انتقص عليه . ودعا إلى الخلاف ومالاً عدوه من مغراوة على المظاهرة عليه ، فصمد إليه يغمراسن وحجزه بها حتى لاذ منه بالسلم على شرط الإجازة إلى العدو ، فعقد له وأجازه . ثم أثره أباه

(١) وفي نسخة أخرى : زكدان بن تيدوكس وفي شجرة النسب تيدوكس وكذلك في النسخة البارسية .

يحيى واستقرّ بالأندلس إلى أن هلك يحيى سنة اثنتين وتسعين وستمائة ووفد الزعيم بعد ذلك على يوسف بن يعقوب وسخطه لبعض التزعات ، فاعتقله وفرّ من محبسه . ولم يزل الاغتراب مطوّحاً به إلى أن هلك والبقاء لله وحده . ونشأ ابنه الناصر بالأندلس فكانت مثواه وموقف جهاده إلى أن هلك .

(وأما) أخوه عليّ بن يحيى فأقام بتلمسان وكان من ولده داود بن علي كبير مشيخة بني عبد الواد صاحب شورا هم وكان منهم أيضاً ابراهيم بن عليّ عقد له أبو حمو الأوسط على ابنته ، فكان منها ولد ذكر ، وكان لداود ابن اسمه يحيى بن داود استعمله أبو سعيد بن عبد الرحمن في دولتهم الثانية على وزارته فكان من شأنه ما نذكره في أخبارهم والأمر لله .

* (الخبر عن شأن يغمراسن في معاقده مع ابن الأحمر والطاغية على فتنة يعقوب بن عبد الحق والاخذ بحجزته) *

كان يعقوب بن عبد الحق لما أجاز إلى الجهاد وأوقع بالعدوّ وخرّب حصونهم ، ونازل أشبيلية وقرطبة ، وزلزل قواعد كفرهم . ثم أجاز ثانية ، وتوغّل في دار الحرب وأثنى فيها ، وتخلّى له ابن اشقيلولة عن مالقة فلكها . وكان سلطان الأندلس يومئذ الأمير محمد المدعو بالفقيه ثاني ملوك بني الأحمر ملكهم ، هو الذي استدعى يعقوب بن عبد الحق للجهاد بما عهد له أبو الشيخ بذلك . فلما استفحل أمر يعقوب بالأندلس وتعاقب الثوار إلى اللياذ به خشيه ابن الأحمر على نفسه ، وتوقع منه مثل فعل يوسف بن تاشفين بابن عبّاد ، فاعتمل في أسباب الخلاص مما توهم وداخل الطاغية في اتصال اليد والمظاهرة عليه ، وكانت عاقلة لعمر يحيى بن علي^(١) ، استعمله عليها يعقوب بن عبد الحق حين ملكها من يد أشقيلولة ، فاستماله ابن الأحمر وخاطبه مقارنة وعداً وأداله بشلوبانية من مالقة طعمة خالصة له فتخلّى عن مالقة إليها . وأرسل الطاغية أساطيله في البحر لمنع الزقاق من إجازة السلطان وعساكره ، وراسلوا يغمراسن من وراء البحر في الأخذ بحجزة يعقوب وشنّ الغارات على ثغوره ليكون

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : بن علي .

ذلك شاغلاً له عنهم . فبادر يغمراسن باجابتهم وترددت الرسل إليه من الطاغية ومنه إلى الطاغية كما نذكره . وبث السرايا والبعوث في نواحي المغرب ، فشغل يعقوب عن شأن الجهاد حتى لقد سأله المهادنة وأن يفرغ للجهاد العدو فأبى عليه . وكان ذلك مما دعا يعقوب إلى الصمود إليه ومواقفته بخروزة كما ذكرناه . ولم يزل شأنهم ذلك مع يعقوب بن عبد الحق وأيديهم متصلة عليه من كل جهة ، وهو ينتهز الفرص في كل واحد منهم متى أمكنه حتى هلك وهلكوا . والله وارث الأرض ومن عليها سبحانه .

* (الخبر عن شأن يغمراسن مع الخلفاء من بني أبي حفص الذي كان يقيم بتلمسان دعوتهم ويأخذ قومه بطاعتهم) *

كان زناتة يدينون بطاعة خلفاء الموحدين من بني عبد المؤمن أيام كونهم بالقفار ، وبعد دخولهم إلى التلول . فلما فشل أمر بني عبد المؤمن ودعا الأمير أبو زكريا بن أبي حفص بأفريقية لنفسه ، ونصب كرسي الخلاف للموحدين بتونس انصرفت إليه الوجوه من سائر الآفاق بالعدوتين ، وأملوه الكرة ، وأوفد زناتة عليه رسلهم من كل حي بالطاعة ، ولاذ مغراوة وبنو توجين بظل دعوته ودخلوا في طاعته ، واستنهضوه لتلمسان ، فنهض إليها وافتتحها سنة أربعين وستائة ورجع إليها يغمراسن واستعمله عليها وعلى سائر ممالكها ، فلم يزل مقيماً لدعوته واتبع أثره بنو مرين في إقامة الدعوة له فما غلبوا عليه من بلاد المغرب ، وبعثوا إليه بيعة مكناسة وتازى والقصر كما نذكره في أخبارهم إلى ما دانوا به ولابنه المستنصر من بعده من خطاب التمويل والإشارة بالطاعة والانقياد حتى غلبوا على مراکش ، وخطبوا باسم المستنصر على منابرها حيناً من الدهر . ثم تبين لهم بعد تناول تلك القاصية عليه ، فعطّلوا منابرهم من أسماء أولئك وأقطعوهم جانب الوداد والموالاة . ثم سمو إلى اللقب والتفنن في الشارة الملوكة كما تقتضيه طبيعة الدول ، وأما يغمراسن وبنوه فلم يزالوا آخذين بدعوتهم واحداً يعد واحد متجافين عن اللقب أدباً معهم ، مجددين البيعة لكل من يتجدد قيامه بالخلافة ، منهم يوفدون بها كبار أبنائهم وأولى الرأي من قومهم ولم يزل الشأن ذلك . ولما هلك الأمير أبو زكريا وقام ابنه محمد المستنصر بالأمر من بعده ، وخرج عليه أخوه

الأمير أبو إسحق في أحياء الزواودة من رياح ، ثم غلبهم المستنصر جميعاً . ولحق
الأمير أبو إسحق بتلمسان في أهله فأكرم يغمراسن نزلهم وأجاز إلى الأندلس للمرابطة
بها ، والجهاد حتى إذا هلك المستنصر سنة سبع وسبعين وستائة واتصل به خبر مهلكه
ورأى انه أحق بالأمر فأجاز البحر من حينه ونزل بمرسى هني^(١) سنة سبع وسبعين
وستائة ولقاه يغمراسن مبرة وتوقيراً ، واحتفل لقدمه وأركب الناس لتلقيه ، وأتاه
بييعته على عادته مع سلفه ، ووعد النصره على عدوه والموازرة على أمره . وأصهر إليه
يغمراسن في إحدى بناته المقصورة . في أيام الخلافة بابنه عثمان ولي عهده . وأسعفه
وأجمل في ذلك وعده . وانتقض محمد بن أبي هلال عامل بجاية على الواثق ،
وخلع طاعته ودعا للأمير أبي إسحق واستحثه للقدوم ، فأغذ إليه السير من تلمسان
وكان من شأنه ما قدّمناه في أخباره فلما كانت سنة إحدى وثمانين وستائة وزحف
يغمراسن إلى بلاد مغراوة ، وغلبهم على الضواحي والأمصار ، بعث من هنالك ابنه
ابراهيم وتسميه زناته برهوم ، ويكنى أبا عامر أوفده في رجال من قومه على الخليفة
أبي إسحق لإحكام الصهر بينهما ، فترلوا منه على خير نزل من اساء الجراية ،
ومضاعفة الكرامة والمبرة ، وظهر من آثاره في حروب ابن أبي عمارة ما مدّ الأعناق
إليه وقصر الشيم الزناتية على بيته . ثم انقلب آخراً بظيعته محبواً محبوراً ، وابتنى بها
عثمان لحين وصولها وأصبحت عقيلة قصره ، فكان ذلك مفخراً لدولته وذكرأ له
ولقومه . ولحق الأمير أبو زكريا ابن الأمير أبي إسحق بتلمسان بعد خلوصه من مهلك
قومه في واقعة الدعيّ ابن أبي عمارة عليهم بمرما جنة سنة اثنتين وثمانين وستائة فترل
من عثمان بن يغمراسن صهره خير نزل برأ واحتفاء وتكريماً وملاطفة . وسرّبت إليه
أخته من القصر أنواع التحف والإنس ، ولحق به أولياؤهم من صنائع دولتهم وكبيرهم
أبو الحسن محمد بن الفقيه المحدث أبي بكر بن سيّد الناس اليغمريّ ، فتفيؤا من
كرامة الدولة بهم ظلاً وارفاً واستنصوه إلى ثراث ملكه . وفاوض أبا مثواه عثمان بن
يغمراسن في ذلك ، فنكره لما كان قد أخذه بدعوة الحضرة . أوفد عليه رجال دولته
بالبیعة على العادة في ذلك ، فحدّث الأمير أبو زكريا نفسه بالفرار عنه . ولحق بداود
ابن هلال بن عطاف أمير البدو من بني عامر إحدى بطون زغبة ، فأجاره وأبلغه مأمنه

(١) وفي نسخة ثانية : هنين .

بحي الزواودة أمراء البدو يعمل الموحدين . ونزل منهم على عطية بن سليمان بن سباع كما قدّمناه ، واستولى على بجاية سنة أربع وثمانين وستائة بعد خطوط ذكرناها ، واقتطعها عن ملك عمه صاحب الدولة بتونس أبي حفص ، ووفى لداود بن عطف وأقطعه بوطن بجاية عملاً كبيراً أفرده لبجايته ، كان فيه إيقداران بالخميس من وادي بجاية . واشتغل الأمير أبو زكريا بملكة بونة وقسنطينة وبجاية والجزائر والزاب وما وراءها وكان هذا الصهر وصلة له مع عثمان بن يغمراسن وبنيه .

(ولما نازل) يوسف بن يعقوب تلمسان سنة ثمان وتسعين وستائة ، وبعث الأمير أبو زكريا المدد من جيوشه إلى عثمان بن يغمراسن ، وبلغ الخبر بذلك إلى يوسف بن يعقوب ، فبعث أخاه أبا يحيى في العساكر لاعتراضهم ، والتقوا بجبل الزاب ، فكانت الدبرة على عسكر الموحدين واستلحموا هناك . وتسمى المعركة لهذا العهد بمرسى الرؤوس . واستحكمت من أجل ذلك صاغية الخليفة بتونس إلى بني مرين ، وأوفد عليهم مشيخة من الموحدين يدعوهم إلى حصار بجاية ، وبعث معهم الهدية الفاخرة وبلغ خبرهم إلى عثمان بن يغمراسن من وراء جدرانها فتنكر لها وأسقط ذكر الخليفة من منابره ، ومجاه من عمله ، فنسي لهذا العهد . والله مالك الأمر سبحانه .

* (الخبر عن مهلك يغمراسن بن زيان وولاية ابنه عثمان وما كان في دولته من الأحداث) *

كان السلطان يغمراسن قد خرج من تلمسان سنة إحدى وثمانين وستائة واستعمل عليها ابنه عثمان ، وتوغل في بلاد مغراوة وملك ضواحيهم . ونزل له ثابت بن منديل عن مدينة تنس ، فتناولها من يده . ثم بلغه الخبر بإقبال ابنه أبي عامر برهوم من تونس بابنة السلطان أبي إسحق عرس ابنه عثمان ، فتلّوم هنالك إلى أن لحقه بظاهر مليانة ، فارتحل إلى تلمسان وأصابه الوجع في طريقه . وعندما أحل سريره اشتدّ به وجعه فهلك هنالك آخر ذي القعدة من سنته ، والبقاء لله وحده . فحمله ابنه أبو عامر على أعواد وواراه في خدر مورياً لمرضه إلى أن تجاوز بلاد مغراوة إلى سيك . ثم أغدّ السير إلى تلمسان ، فلقبه أخوه عثمان بن يغمراسن ولي عهد أبيه في قومه ، فبايعه الناس وأعطوه صفقة أيمانهم . ثم دخل تلمسان فبايعه العامة والخاصة ، وخاطب

لحينه الخليفة بتونس أبا اسحق وبعث إليه ببيعته ، فراجعه بالقبول وعقد له على عمله على الرسم . ثم خاطب يعقوب بن عبد الحق يخطب منه السلم ، لما كان أبوه يغمراسن أوصاه به .

(حدثنا) شيخنا العلامة أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الآلي قال : سمعت من السلطان أبي حمّو موسى بن عثمان ، وكان قهرماناً بداره ، قال : أوصى دادا يغمراسن لدادا عثمان (ودادا حرف كناية عن غاية التعظيم بلغتهم) فقال له : يا بني إنّ بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على الأعمال الغربية وعلى حضرة الخلافة بمراكش ، لا طاقة لنا بلقائهم اذا جمعوا الوفور مددهم ، ولا يمكنني أنا القعود عن لقائهم لمعرة النكوص عن القرن التي أنت بعيد عنها . فإياك واعتماد لقائهم ، وعليك باللياذ بالجدران متى دلفوا إليك ، وحاول ما استطعت الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحّدين وممالكهم يستفحل به ملكك ، وتكافىء حشد العدو بحشدك . ولعلك تصيّر بعض الثغور الشرقية معقلاً لذخيرتك . فعلقت وصية الشيخ بقلبه ، وعقدا عليها ضمائره ، وجنح إلى السلم مع بني مرين ليفرغ عزمه لذلك . وأوفد أخاه محمد بن يغمراسن على يعقوب بن عبد الحق بمكانه من العدو الأندلسية في إجازته الرابعة إليها فخاض إليه البحر ووصله بأركش ، فلقيه براً وكرامة ، وعقد له على السلم ما أحب وانكفّ راجعاً إلى أخيه ، فطابت نفسه وفرغ لإفتتاح البلاد الشرقية ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن شأن عثمان بن يغمراسن مع مغراوة وبني توجين وغلبه على معاقلهم والكثير من أعمالهم) *

لما عقد عثمان بن يغمراسن السلم مع يعقوب بن عبد الحق صرف وجهه إلى الأعمال الشرقية من بلاد توجين ومغراوة وما وراءها من أعمال الموحّدين ، فتغلّب أولاً على ضواحي بني توجين ومغراوة وما وراءها ، ودوّخ قاصيتها ، وسار إلى بلاد مغراوة كذلك ، ثم إلى متيجة فانتسب نعمها وخطم زرعها . ثم تجاوزها إلى بجاية فحاصرها كما نذكره بعد . وامتنعت عليه فانكفّ راجعاً ومّر في طريقه بمازونة ، فحاصرها وأطاعته ، وذلك سنة ست وثمانين وستائة ونزل له ثابت بن منديل أمير مغراوة عن

تنس فاستولى عليها وانتظم سائر بلاد مغراوة في إبالته . ثم عطف في سسته على بلاد توجين فاكسح حبوبها واحتكرها بمازونة استعداداً لما يتوقع من حصار مغراوة إياها . ثم دلف إلى تافركنيت فعاصرها وأخذ بمخنقتها . وداخل قائدها غالباً الخصي من موالي بني محمد بن عبد القوي ، كان مولى سيد الناس منهم ، فترل له غالب عنها واستولى عليها ، وانكفاً إلى تلمسان . ثم نهض إلى بني توجين سنة سبع وثمانين وستائة فغلبهم على وانشريس مثنى ملكهم ومنبت عزهم ، وفرأمامه أميرهم مولى بني زرارمة من ولد محمد بن عبد القوي . وأخذ الحلف منهم فلحق بضواحي المرية في الأعشار وأولاد عزيز من قومه . واتبع عثمان بن يغمراسن آثارهم وشردهم من تلك القاصية ، وهلك مولى زرارمة في مغرة . وكان عثمان قبل ذلك قد دّوخ بلاد بني يدللتين من بني توجين ، ونازل رؤساءهم أولاد سلامة بالقلعة المنسوبة إليهم مرّات فامتنعوا عليه ، ثم أعطوه أيديهم على الطاعة ومفارقة قومهم بني توجين إلى سلطان بني يغمراسن ، فنبذوا العهد إلى بني محمد بن عبد القوي أمرائهم منذ العهد الأول . ووصلوا أيديهم بعثمان وألزموا رعاياهم وعماهم المغارم له إلى أن ملك وانشريس من بعدها كما نذكر ذلك في أخبارهم . وصارت بلاد توجين كلها من عمله ، واستعمل الحشم يجبل وانشريس . ثم نهض بعدها إلى المرية وبها أولاد عزيز من توجين فنازلها ، وقام بدعوته فيها قبائل من صنهاجة يعرفون بلمدية وإليهم ينسب ، فأمكنوه منها سنة ثمان وثمانين وستائة وبقيت في إبالته سبعة أشهر ثم انتقضت عليه ورجعت إلى ولاية أولاد عزيز^(١) وصالحوه عليها ، وأعطوه من الطاعة ما كانوا يعطونه محمد بن عبد القوي وبنيه . فاستقام أمره في بني توجين ودانت له سائر أعمالهم . ثم خرج سنة تسع وثمانين وستائة إلى بلاد مغراوة لما كانوا عليه لبني مرين في إحدى حركاتهم على تلمسان ، فدّوخها وأنزل ابنه أبا حمّو بشلف^(٢) مركز عملهم ، فأقام به وقفل هو إلى الحضرة . وتحيز فلّ مغراوة إلى نواحي متيجة ، وعليهم ثابت بن منديل أميرهم ، فلم يزالوا به . ونهض عثمان إليهم سنة ثلاث وتسعين وستائة بعدها فأنحجزوا بمدينة برشك ، وحاصروهم بها أربعين يوماً ثم افتتحها . وخاض ثابت البحر إلى المغرب فترل على يوسف بن يعقوب كما ذكرناه ونذكره . واستولى عثمان على سائر عمل مغراوة كما

(١) وفي نسخة ثانية : وزحف إلى إبالة أولاد عزيز .

(٢) وفي النسخة الباريسية : شلب وفي قبائل الغرب : شلف .

استولى على عمل بني توجين ، فانتظم بلاد المغرب الأوسط كلها وبلاد زناتة الأولى .
ثم اشغل بفتنة بنين مريين كما نذكر بعد إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن منازلة بجاية وما دعا إليها) *

قد ذكرنا أن المولى أبا زكريا الأوسط ابن المولى أبي اسحق بن أبي حفص لحق بتلمسان عند فراره من بجاية أمام شيعة الدعي ابن أبي عمارة ، ونزل على عثمان بن يغمراسن خير نزل . ثم هلك الدعي ابن أبي عمارة واستقل عمه الأمير أبو حفص بالخلافة ، وبعث إليه عثمان بن يغمراسن بطاعته على العادة ، وأوفد عليه وجوه قومه ، ودس الكثير من أهل بجاية إلى الأمير أبي زكريا يستحثونه للقدوم ، ويعدونه إسلام البلد إليه . وفاوض عثمان بن يغمراسن في ذلك فأبى عليه وفاء بحق البيعة لعمه الخليفة بالحضرة فطوى عنه الخبر وتردد في النقض أياً ما . ثم لحق بأحياء زغبة في مجالاتهم بالقفر ، ونزل على داود بن هلال بن عطف وطلب عثمان بن يغمراسن إسلامه فأبى عليه وارتحل معه إلى أعمال بجاية ، ونزلوا على أحياء الزواودة كما قدمناه . ثم استولى المولى أبو زكريا بعد ذلك على بجاية في خبر طويل ذكرناه في أخباره . واستحكمت القطيعة بينه وبين عثمان ، وكانت سبباً لاستحكام الموالاة بين عثمان وبين الخليفة بتونس . فلما زحف إليه عثمان سنة ست وثمانين وستمائة وتوغّل في قاصية المشرق ، أعمل الرحلة إلى عمل بجاية ، ودوّخ سائر أقطارها . ثم نازلها بعد ذلك يروم كيداً بالاعتمال في مرضاة خليفته بتونس ، ويسر بذلك حسواً في ارتقاء ، فأناخ عليها بعساكره سبعاً ، ثم أفرج عنها منقلباً إلى المغرب الأوسط ، فكان من فتح تافركنيت ومازونة ما قدمناه .

* (الخبر عن معاودة الفتنة مع بني مريين وشأن تلمسان في الحصار الطويل) *

لما هلك يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مريين على السلم المنعقد بينه وبين بني عبد الواد لشغله بالجهاد ، وقام بالأمر من بعده في قومه ابنه يوسف كبير ولده على حين

اتبعهم أنفسهم شأن الجهاد . واسفهم يغمراسن وابنه بمالأة الطاغية وابن الأحمر فعقد يوسف بن يعقوب السلم مع الطاغية لحينه ، ونزل لابن الأحمر عن ثغور الأندلس التي كانت لهم ، وفرغ لحرب بني عبد الواد ، واستتب له ذلك لأربع من مهلك أبيه ، دلف إلى تلمسان سنة تسع وثمانين وستائة ولاذ منه عثمان بالأسوار فنازها صباحاً ، وقطع شجرها ونصب عليها المجانيق والآلات ثم أحس بامتناعها فأفرج عنها وانكفاً راجعاً . وتقبل عثمان بن يغمراسن مذهب أبيه في مداخلته ابن الأحمر والطاغية ، وأوفد رسله عليها فلم يغن ذلك عنه شيئاً . وكان مغراوة قد لحقوا بيوسف بن يعقوب بتلمسان فنالوا منه أعظم النيل . فلما أفرجوا عن تلمسان نهض عثمان إلى بلادهم فدوخوا وغلبهم عليها ، وأنزل ابنه أبا حمّوها كما قدّمناه . فلما كانت سنة خمس وتسعين وستائة نهض يوسف بن يعقوب إلى حركته الثانية فنازل ندرومة ، ثم ارتحل عنها إلى ناحية وهّران وأطاعه جبل كيدر و تاسكدلت رباط عبد الحميد ابن الفقيه أبي زيد اليرناسي^(١) . ثم كرّ راجعاً إلى المغرب . وخرج عثمان بن يغمراسن فألتحن في تلك الجبال لطاعتهم عدوّه واعتراضهم جنده ، واستباح رباط تاسكدلت . ثم أغزاه يعقوب بن يوسف ثلاثة سنة ست وتسعين وستائة ثم رجع إلى المغرب . ثم أغزاه رابعة سنة سبع وتسعين وستائة فتأثّل^(٢) تلمسان وأحاط بها معسكره وشرعوا في البناء . ثم أفرج عنها لثلاثة أشهر ، ومّر في طريقه بوجدة ، فأمر بتجديد بنائها وجمع الفعلة عليها . واستعمل أخاه أبا يحيى بن يعقوب على ذلك ، وأقام لشأنه ، ولحق يوسف بالمغرب . وكان بنو توجين قد نازلوا تلمسان مع يوسف بن يعقوب ، وتولّى كبر ذلك منهم أولاد سلامة أمراء بني يد للتين ، وأصحاب القلعة المنسوبة إليهم . فلما أفرج عنها خرج إليهم عثمان بن يغمراسن فدوخوا بلادهم وحاصروهم بالقلعة ونال منهم أضعاف مانالوا منه ، وطال مغيبه في بلادهم ، فخالفه أبو يحيى بن يعقوب إلى ندرومة فاقتحمها عنوة بعسكره بمداخلته من قائدها زكريا بن يخلف بن المطغرى صاحب توقت^(٣) . فاستولى بنو مرين على ندرومة وتوقت ، وجاء يوسف بن يعقوب على أثرها فوافاهم ودلفوا جميعاً إلى تلمسان . وبلغ الخبر إلى عثمان بمكانه من

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : اليرناسي .

(٢) وفي نسخة ثانية : فنازل .

(٣) وفي نسخة ثانية : ثاوت .

حصار القلعة فطوى المراحل إلى تلمسان ، فسبق إليها يوسف بن يعقوب بعض يوم . ثم أشرفت طلائع بني مرين عشيّ ذلك اليوم ، فأناخوا بها في شعبان سنة ثمان وتسعين وستائة وأحاط العسكر بها من جميع جهاتها . وضرب يوسف بن يعقوب عليها سياجاً من الأسوار محيطاً بها ، وفتح فيه أبواباً مداخل الحربها ، واختط لنزله إلى جانب الأسوار مدينة سمّاها المنصورة . وأقام على ذلك سنين يغاديا القتال ويراوحها . وسرح عسكره لافتتاح المغرب الأوسط وثغوره ، فملك بلاد مغراوة وبلاد توجين كما ذكرناه في أخباره وجثم هو بمكانه من حصار تلمسان لا يعدوها كالأسد الضاري على فريسته إلى أن هلك عثمان وهلك هو من بعده كما نذكره . وإلى الله المصير سبحانه وتعالى لا رب غيره .

* (الخبر عن مهلك عثمان بن يغمراسن وولاية ابنه أبي زيان
وانتهاء الحصار من بعده إلى غايته) *

لما أناخ يوسف بن يعقوب بعساكره على تلمسان ، انحجز بها عثمان وقومه واستسلموا ، والحصار أخذ بمخفقهم . وهلك عثمان لخامسة السنين من حصارهم سنة ثلاث وسبعائة ، وقام بالأمر من بعده ابنه أبو زيان محمد . (أخبرني) شيخنا العلامة محمد بن ابراهيم الايلي ، وكان في صباه قهرمان دارهم قال : هلك عثمان بن يغمراسن بالديماس ، وكان قد أعدّ لشربه لبناً ، فلما أخذ منه الديماس وعطش ، دعا بالقدح فشرب اللبن ونام فلم يكن بأوشك أن فاضت نفسه . وكنا نرى معشر الصنائع أنه داف فيه السم تفادياً من معرفة غلب عدوهم إياهم . قال : وجاء الخادم إلى قعيقة بيته زوجه بنت السلطان أبي اسحق ابن الأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص صاحب تونس ، وخبرها الخبر فجاءت ووقعت عليه واسترجعت وخيّمّت على الأبواب بسدادها . ثم بعثت إلى أبيه محمد أبي زيان وموسى أبي حمو فعزّتهما عن أبيهما . وأحضرا مشيخة بني عبد الواد وعرضوا لهم بمرض السلطان فقال أحدهم مستفهماً عن الشأن مترجماً عن القوم : السلطان معنا آنفاً ، ولم يمتدّ الزمن لوقوع المرض ، فإن يكن هلك فخبّرنا ، فقال له أبوحمو : وإذا هلك فما أنت صانع ؟ فقال : إنما نخشى من مخالفتك ، وإلا فسلطاننا

أخوك الأكبر أبو زيان . فقام أبو حمّو من مكانه وأكبّ على يد أخيه يقبلها ، وأعطاه صفقة يمينه واقتدى به المشيخة ، فانعقدت بيعته لوقته واشتمل بنو عبد الواد على سلطانهم واجتمعوا إليه ، وبرزوا إلى قتال عدوّهم على العادة فكان عثمان لم يمت . (وبلغ الخبر) إلى يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارهم فتجعّج له ، وعجب من صرامة قومه من بعده . واستمرّ حصاره إيّاهم إلى ثمانية سنين وثلاثة أشهر من يوم نزوله ، نالهم فيها من الجهد ما لم ينله أمة من الأمم ، واضطروا إلى أكل الجيف والقطوط والفيران حتى أنهم زعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس ، وخربوا السقف للوقود ، وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد . وعجز وجدّهم عنه فكان ثمن مكيال القمح الذي يسمونه البرشالة ويتبايعون به ، مقداره اثنا عشر رطلاً ونصف مثقالين ونصفاً من الذهب العين . وثمن الشخص الواحد من البقر ستين مثقالاً ، ومن الضان سبعة مثاقيل ونصفاً ، وأثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمير بثمان المثقال ، ومن الخيل بعشرة دراهم صغار من سكّتهم ، تكون عشر المثقال والرطل من الجلد البقري مئة أو مذكى بثلاثين درهماً ، والهرّ الداجن بمثقال ونصف ، والكلب بمثله والفار بعشرة دراهم . والحية بمثله ، والدجاجة بثلاثين درهماً ، والبيض واحدة بستة دراهم ، والعصافير كذلك . والأوقية من الزيت بإثني عشر درهماً ، ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين ، ومن الفول بمثلها ، ومن الملح بعشرة ، ومن الحطب كذلك . والأصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال . ومن الخس بعشرين درهماً ومن اللفت بخمسة عشر درهماً ، والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهماً ، والخيار بثلاثة أثمان الدينار ، والبطيخ بثلاثين درهماً ، والحبة من التين والإجاص بدرهمين . واستهلك الناس أموالهم وموجودهم ، وضائق أحوالهم .

واستفحل ملك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارها ، واتسعت خطة مدينة المنصور المشيدة عليها . ورحل إليها التجّار بالبضائع من الآفاق ، واستبحرت في العمران بما لم تبلغه مدينة ، وخطب الملوك سلمه ووده ، ووفدت عليه رسل الموحّدين وهداياهم من تونس وبجاية ، وكذلك رسل صاحب مصر والشام وهديتهم ، واعتزّوا لا كفاء له كما يأتي في أخباره وهلك الجند حامية بني يغمراسن وقبيلتهم وأشرفوا على الهلاك فاعتزموا على الإلقاء باليد والخروج بهم للاستماتة ، فكيف الله لهم الصنيع

الغريب . ونفس عن مخنفهم بمهلك السلطان يوسف بن يعقوب على يد خصمي من العبيد ، فأسخطته بعض النزعات الملكية فاعتمده في كسر بيته ومخدع نومه ، وطعنه بخنجر قطع أمعاءه ، وأدرك فسيق إلى وزرائه فزقوه أشلاء . ولم يبق شيء من بقايا عهدهم كما ذكرناه والأمر لله وحده . وأذهب الله العناء عن آل زيان وقومهم وساكني مدينتهم كأنما نشروا من الأجداث . وكتبوا لها في سكتهم ما أقرب فرج الله استغراباً لحادثها .

(وحدثني) شيخنا محمد بن ابراهيم الآيلي قال : جلس السلطان أبو زيان صبيحة يوم الفرج وهو يوم الأربعاء في خلوة زوايا قصره ، واستدعى ابن حجاج خازن الزرع فسأله كم بقي من الأهراء والمطامير المختومة ؟ فقال له : إنما بقي عولة اليوم وغد فاستوصاه بكتانها . وبينما هم في ذلك دخل عليه أخوه أبو حمو فأخبروه فوجم لها ، وجلسوا سكوتاً لا ينطقون . وإذا بالخادم دعد قهرمانه القصر من وصائف بنت السلطان أبي اسحق وحظية أبيهم خرجت من القصر إليهم ، فوقفت وحيثهم تحيتها وقالت : تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم ما لنا وللبقاء ، وقد أحيط بكم وأسف عدوكم لانتهاكم ، ولم يبق إلا فواق بكينة لمصارعكم . فأريحونا من معرة السبي ، وأريحوا فينا أنفسكم وقربوا إلى مهالكنا فالحياة في الذل عذاب والوجود بعدكم عدم . فالتفت أبو حمو إلى أخيه وكان من الشفقة بمكان وقال : قد صدقتك الخبر فما تنظر بهن ؟ فقال : يا موسى أرجئني ثلاثاً لعل الله يجعل بعد عسر يسراً ، ولا تشاورني بعدها فيهن ، بل سرح اليهود والنصارى إلى قتلهن وتعال إليّ نخرج مع قومنا إلى عدونا فنستमित ، ويقضي الله ما يشاء . فغضب أبو حمو وأنكر الأرجاء في ذلك ، وقال : إنما نحن والله نرتبص المعرة بهن وبأنفسنا ، وقام عنه مغضباً وجهش السلطان أبو زيان بالبكاء . قال ابن حجاج : وأنا بمكاني بين يديه لا أملك متأخراً ولا متقدماً إلى أن غلب عليه النوم فما راعني إلا حرسى الباب يشير إليّ أن اذن السلطان بمكان رسول من معسكر بني مرين لسيدة القصر ، فلم أطق رجع جوابه إلا بإشارة وانبه السلطان من خفيف إشارتنا فرعاً ، فأذنته واستدعاه . فلما وقف بين يديه قال له : إن يوسف بن يعقوب هلك الساعة ، وأنا رسول حافده أبي ثابت إليكم ، فاستبشر السلطان واستدعى أخاه وقومه حتى أبلغ الرسول رسالته

بسمع منهم ، وكانت إحدى المغربات في الأيام ^(١) .

(وكان من خبر هذه الرسالة) أن يعقوب بن يوسف لما هلك تطاول للأمر الأعياص من إخوته وولده وحفدته ، وتخيّر أبو ثابت حافده إلى بني ورتاجن لخولة كانت له فيهم ، فاستجاش بهم واعصوصبوا عليه وبعث إلى أولاد عثمان بن يغمراسن أن يعطوه الآلة ويكونوا مفزعاً له ومأمناً إن أخفق مسعاه على أنه إن تمّ أمره قوّض عنهم معسكر بني مرين فعاقدوه عليها . ووفّي لهم لما تمّ أمره ونزل لهم عن جميع الأعمال التي كان يوسف بن يعقوب استولى عليها من بلادهم ، وجاء بجميع الكتائب التي أنزلها في ثغورهم وقفلوا إلى أعمالهم بالمغرب الأوسط كلّها إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن شأن السلطان أبي زيان من بعد الحصار إلى حين مهلكه) *

كان من أول ما افتتح به السلطان أبو زيان أمره بعد الخروج من هون الحصار وتناوله الأعمال من يد بني مرين ، أن نهض من تلمسان ومعه أخوه أبو حمو آخرذي الحجة من سنة ست وسبعائة ، فقصد بلاد مغراوة وشرّد من كان هنالك منهم في طاعة بني مرين ، واحتاز الثغور من يد عمّالهم . ودوّخ قاصيتها . ثم عقد عليها المسامح مولاه ، ورجع عنها ، فنهض إلى السرسو ، وكان العرب قد تملكوه أيام الحصار ، وغلبوا زناتة عليه من سويد والديالم ومن إليهم من بني يعقوب بن عامر فأجفلوا أمامه . واتبعوا آثارهم إلى أن أوقع بهم وانكفأ راجعاً ومّرّ ببلاد بني توجين ، فاقتضى طاعة من كان بقي بالجبل من بني عبد القوي والحشم فأطاعوه ، ورياستهم يومئذ لمحمد بن عطية الأصمّ من بني عبد القوي . وقفل إلى تلمسان لتسعة أشهر من خروجه ، وقد ثقف أطراف ملكه ، ومسح أعطاف دولته . فنظر في إصلاح قصوره ورياضه ، ورّم ما تثلم من بلده ، وأصابه المرض خلال ذلك فاشتدّ وجعه سبعاً ، ثم هلك أخريات شوال من سنة سبع وسبعائة والبقاء لله وحده .

(١) وفي نسخة ثانية : إحدى المقربات في الأنام .

* « الخبر عن محو الدعوة الحفصية من منابر تلمسان » *

كانت الدعوة الحفصية بأفريقية قد انقسمت بين أعياصهم في تونس وبجاية وأعمالها ، وكان التخم بينهما بلد عجيسة ووشتاتة . وكان الخليفة بتونس الأمير أبو حفص ابن الأمير أبي زكريا الأول منهم ، وله الشفوف على صاحب بجاية والثغور الغربية بالحضرة . فكانت بيعة بني زيان له والدعاء على منابرهم باسمه ، وكانت لهم مع المولى الأمير أبي زكريا الأوسط صاحب بجاية وصلة لمكان الصهر بينهم وبينه ، وكانت الوحشة قد اعترضت ذلك عندما نزل عثمان بجاية كما قدّمناه . ثم تراجعوا إلى وصلتهم واستمروا عليها إلى أن نازل يوسف بن يعقوب تلمسان ، والبيعة يومئذ للخليفة بتونس السلطان أبي عصيدة بن الواصل ، والدعوة على منابر تلمسان باسمه ، وهو حاقده عليهم ولايتهم للأمير أبي زكريا الأوسط صاحب الثغر ، فلما نزل يوسف بن يعقوب بأعلى تلمسان وبعث عساكره في قاصية الشرق استجاش عثمان بن يغمراسن بصاحب بجاية ، فسرّح عسكرياً من الموحدين لمدافعتهم عن تلك القاصية ، والتقوا معهم بجبل الزاب فانكشف الموحّدون بعد معترك صعب واستلحمهم بنو مرين ، ويسمى المعترك لهذا العهد بمرسي الرؤوس لكثرة ما تساقط في ذلك المجال من الرؤوس . واستحكمت المنافرة بين يوسف بن يعقوب وصاحب بجاية فأوفد الخليفة بتونس على يوسف بن يعقوب مشيخة من الموحّدين تجديداً لوصلة سلفهم مع سلفه وأغراء بصاحب بجاية وعمله ، فجاء موقع ذلك من عثمان بن يغمراسن وأحفظه ممالأة^(١) خليفته لعدوّه ، فعطلّ منابرهم من ذكره ، وأخرج قومه وإيالته عن دعوته ، وكان ذلك آخر المائة السابعة . والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن دولة أبي حمو الاوسط وما كان فيها من الاحداث) *

لما هلك الأمير أبو زيان قام بالأمر بعده أخوه أبو حمّو في أخريات سنة سبع كما

(١) وفي نسخة ثانية : موالاة الخليفة لعدوه .

قدّمناه ، وكان صارماً يقطّأ حازماً داهيةً ، قويّ الشكيمة صعب العريكة ، شرس الاخلاق مفرط الدهاء ^(١) والحدة . وهو أوّل ملوك زناتة ، ربّ مراسم الملك وهذب قواعده ، وأرهف في ذلك لأهل ملكه حدّه ، وقلب لهم مجنّ بأسه حتى ذلّوا لِعِزِّ ملكه وتادّبوا بآداب السلطان .

(سمعت) عريف بن يحيى أمير سويد من زغبة وشيخ المجالس الملوكية يقول ويعنيه : موسى بن عثمان هو معلّم السياسة الملوكية لزناتة ، وإنما كانوا رؤساء بادية حتى قام فيهم موسى بن عثمان ، فحدّد حدودها ، وهذب مراسمها فنقل عنه ذلك أمثاله وأنظاره ، فتقبّلوا مذهبه واقتدوا بتعليمه انتهى كلامه .

(ولما استقلّ) بالأمر افتتح شأنه بعقد السلم مع سلطان بني مرين لأوّل دولته فأوفد كبراء دولته على السلطان أبي ثابت ، وعقد له السلم كما رضي . ثم صرف وجهه إلى بني توجين ومغراوة ، فردّد إليهم العساكر حتى دّوخ بلادهم وذلّل صعاibهم ، وشرّد محمد بن عطية الأصمّ عن نواحي وانشريس ، وراشد بن محمد عن نواحي شلف ، وكان قد لحق بها بعد مهلك يوسف بن يعقوب فأزاحه عنها ، واستولى على العاملين ، واستعمل عليهما ، وقفل إلى تلمسان ، ثم خرج سنة عشر وسبعائة في عساكره إلى بلاد بني توجين ، ونزل تافر كينت وسط بلادهم فشرّد الفلّ من أعقاب محمد بن عبد القوي عن وانشريس ، واحتاز رياستهم في بني توجين دونهم . وأدام منهم بالحشم وبني تيغزين ^(٢) . وعقد لكبيرهم يحيى بن عطية على رئاسة قومه في جبل وانشريس ، وعقد ليوسف بن حسن من أولاد عزيز على المدينة وأعمالها ، وعقد لسعد من بني سلامة على قومه من بني يد لتين إحدى بطون بني توجين وأهل الناحية الغربية من عملهم . وأخذ من سائر بطون بني توجين الرهن على الطاعة والجبابة ، واستعمال عليهم جميعاً من صنائعه قائده يوسف بن حيون الهوّاري ، وأذن له في اتخاذ الآلة . وعقد لمولاه مسامح على بلاد مغراوة وأذن له أيضاً في اتخاذ الآلة . وعقد لمحمد بن عمه يوسف على مليانة ، وأنزله بها وقفل إلى تلمسان . والله أعلم .

(١) وفي نسخة ثانية : مفرط الذكاء

(٢) وفي نسخة ثانية : بني تيغرين .

* (الخبر عن استتزال زيرم بن حماد من ثغر برشك وما

كان قبله ^(١)) *

كان هذا الغمر من مشيخة هذا القصر لوفور عشيرته من مكالاته داخله وخارجه ، وإسمه زيري بالياء ، فتصرف فيه العامة وصار زيرم بالميم . ولما غلب يغمراسن على بلاد مغراوة دخل أهل هذا القصر في طاعته . حتى اذا هلك حدثت هذا الغمر نفسه بالانتراء والاستبداد بملك برشك ما بين مغراوة وبني عبد الواد ، ومدافعة بعضهم ببعض . فاعتزم على ذلك وأمضاه وضبط برشك لنفسه سنة ثلاث وثمانين وستمائة ونهض إليه عثمان بن يغمراسن سنة أربع وثمانين وستمائة بعدها ، ونازله فامتنع . ثم زحف سنة ثلاث وتسعين إلى مغراوة ، فلجأ ثابت بن منديل إلى برشك وحاصره عثمان بها أربعين يوماً . ثم ركب البحر إلى المغرب كما قلناه . وأخذ زيري بعدها بطاعة عثمان بن يغمراسن دافعه بها ، وانتقض عليه ، مرجعه إلى تلمسان ، وشغل بنوزيان بعدها بما دهمهم من شأن الحصار ، فاستبدّ زيري هذا ببرشك واستفحل شأنه بها . واتقى بني مرين عند غلبهم على بلاد ^(٢) مغراوة وتردد عساكرهم فيها باخلاص الطاعة والانقياد ، فلما انقشع إيالة بني مرين بمهلك يوسف بن يعقوب ، وخرج بنو يغمراسن من الحصار رجع إلى ديدنه من التمريض في الطاعة ، ومناولة طرفها على البعد حتى اذا غلب أبو حمّو على بلاد مغراوة وتجاوزت طاعته هذا المصر إلى ما وراءه ، خشيه زيري على نفسه ، وخطب منه الأمان على أن يتزل له عن المصر ، فبعث إليه رئيس الفتيا بدولته أبا زيد عبد الرحمن بن محمد الإمام ، كان أبوه من أهل برشك ، وكان زيري قد قتله لأوّل ثورته غيلة . وفرّ ابنه عبد الرحمن هذا وأخوه عيسى ، ولحقا بتونس فقرا بها ، ورجعا إلى الجزائر فأوطناها . ثم انتقلا إلى مليانة واستعملها بنو مرين في خطة القضاء بمليانة . ثم وفدا بعد مهلك يوسف بن يعقوب على أبي زيان وأبي حموم عمّال بني مرين وقوادهم بمليانة ، وكان فيهم منديل بن محمد الكناني صاحب أشغالهم المذكور في أخبارهم . وكانا يقرآن ولده محمداً فأشادا

(١) وفي نسخة ثانية : وما كان من قتله .

(٢) وفي نسخة ثانية : أعمال .

عند أبي زيان وأبي حو بمكانهما من العلم ، ووقع ذلك من أبي حمو أبلغ المواقع حتى اذا استقلّ بالأمر ابنتى المدرسة بناحية المطهر من تلمسان لطلبة العلم . وابتنى لها دارين على جانبها وجعل لها التدريس فيها في إيوانين معدّين لذلك . واختصّها بالفتيا والشورى ، فكانت لها في دولته قدم عالية فلما خطب زيري هذا الأمان من أبي حمو وأن يبعث إليه من يأمن معه في الوصول إلى بابه ، بعث إليه أبا زيد عبد الرحمن الأكبر منها ، فنهض لذلك بعد أن استأذنه في أن يثأر منه بأبيه إن قدر عليه ، فأذن له . فلما احتلّ ببرشك أقام بها أياماً يغاديه فيها زيري ويرأوجه بمكان نزله ، وهو يعمل الحيلة في اغتياله حتى اذا أمكنته فقتله في بعض تلك الأيام سنة ثمان وسبعائة ، وصار أمر برشك إلى السلطان أبي حمو وانمحي منه أثر المشيخة والاستبداد والأمور بيد الله سبحانه .

* (الخبر عن طاعة الجزائر واستئصال ابن علان منها وذكر أوليته) *

كانت مدينة الجزائر هذه من أعمال صنهاجة ، ومخططها بلكين بن زيري وتزها بنوه من بعده . ثم صارت للموحدين وانتظمها بنو عبد المؤمن في أمصار المغربين وأفريقية ، ولما استبدّ بنو أبي حفص بأمر الموحدين وبلغت دولتهم بلاد زناتة . وكانت تلمسان ثغراً لهم ، واستعملوا عليها يغمراسن وبنيه من بعده ، وعلى ضواحي مغراوة بني مندبل بن عبد الرحمن ، وعلى وانشريس وما إليها من عمل توجين محمد بن عبد القوى وبنيه . وبقي ما وراء هذه الأعمال إلى الحضرة لولاية الموحدين أهل دولته ، فكان العامل على الجزائر من الموحدين أهل الحضرة .

وفي سنة أربع وستين وستائة انتقضوا على المستنصر ومكثوا في ذلك الانتقاض سبعا . ثم أوعز إلى أبي هلال صاحب بجاية بالنهوض إليها في سنة إحدى وسبعين وستائة فحاصرها شهراً وأفرج عنها . ثم عاودها بالحصار سنة أربع وسبعين وستائة أبو الحسن ابن ياسين بعساكر الموحدين فاقتحمها عليهم عنوة واستباحها . وتقبّض على مشيختها فلم يزلوا معتقلين إلى أن هلك المستنصر . ولما انقسم أمر بني أبي حفص واستقل الأمير أو زكريا الأوسط بالثغور الغربية وأبوه ، بعثوا إليه بالبيعة ، وولّى عليهم ابن أكمازير ،

وكانت ولايتها^(١) من قبل ، فلم يزل هو والياً عليها إلى أن أسنّ وهرم . كان ابن علان من مشيخة الجزائر مختصاً به ، ومنتصباً في أوامره ونواهيه ، ومصدراً لإمارته وحصل له بذلك الرياسة على أهل الجزائر سائر أيامه . فلما هلك ابن أكمازير حدثته نفسه بالاستبداد والانتزاع بمدنيته ، فبعث عن أهل الشوكة من نظائره ليله هلاك أميره . وضرب أعناقهم وأصبح منادياً بالاستبداد ، واتخذ الآلة واستركب واستلحق من الغرباء والشعالبه عرب متبعة ، واستكثر من الرجال والرماة . ونازلته عساكر بجاية مراراً فامتنع عليهم . وغلب مليكش على جباية الكثير من بلاد متبعة ، ونازله أبو يحيى بن يعقوب بعساكر بني مرين عند استيلائهم على البلاد الشرقية ، وتوغلهم في القاصية ، فأخذ بمخنفها وضيق عليها ، ومرّ بابن علان القاضي أبو العباس الغاري رسول الأمير خالد إلى يوسف بن يعقوب ، فأودعه الطاعة للسلطان والضراعة إليه في الإبقاء ، فأبلغ ذلك عنه وشفع له ، فأوعز إلى أبيه يحيى بمسالمة^(٢) . ثم نازله الأمير خالد بعد ذلك فامتنع عليه وأقام على ذلك أربع عشرة سنة وعيون الخطوب تحدده^(٣) ، والأيام تستجمع لحربه . فلما غلب السلطان أبو حمو على بلاد توجين واستعمل يوسف بن حبون الهواري على وانشريس ، ومولاه مساحاً على بلاد مغراوة ، ورجع إلى تلمسان . ثم نهض سنة إثنتي عشرة وسبعمئة إلى بلاد شلف فترل بها ، وقدم مولاه مساحاً في العساكر فدوخ متبعة من سائر نواحيها ، وترس بالجزائر ، وضيق حصارها حتى مسهم الجهد وسأل ابن علان التزول على أن يشترط لنفسه ، فتقبل السلطان اشتراطه ، وملك السلطان أبو حمو الجزائر وانتظمها في أعماله . وارتحل ابن علان في جملة مسامح ، ولحقوا بالسلطان بمكانه من شلف فانكفأ إلى تلمسان وابن علان في ركابه ، فأسكنه هنالك ووفى له بشرطه إلى أن هلك والبقاء لله سبحانه .

* (الخبر عن حركة صاحب المغرب الى تلمسان وأولية ذلك) *

لما خرج عبد الحق بن عثمان من أعياص الملك على السلطان أبي الربيع بفاس ،

(١) بياض بالاصل وفي نسخة اخرى : لبطة ، وفي ثانية : لبطة .

(٢) وفي نسخة ثانية : بمصالحته .

(٣) وفي نسخة ثانية : تحرزه .

وبايع له الحسن بن عليّ بن أبي الطلاق صاحب بني مرين بمداخلة الوزير رحوّ بن يعقوب كما قدّمناه في أخبارهم . وملكوا تازى ، زحف إليهم السلطان أبو الربيع فبعثوا وفدهم إلى السلطان أبي حمو صريحاً . ثم أعجلهم أبو الربيع وأجهضهم على تازى ، فلحقوا بالسلطان أبي حمو ودعوه إلى المظاهرة على المغرب ليكونوا يداء له دون قومهم . وهلك السلطان أبو الربيع خلال ذلك واستقلّ بملك المغرب أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ، فطالب السلطان أبا حمو بإسلام أولئك النازعين إليه ، فأبى من إسلامهم وإخفار زمته فيهم وأجازهم البحر إلى العدو ، فأغضى له السلطان أبو سعيد عنها ، وعقد له السلم . ثم استراب يعيش بن يعقوب بن عبد الحق بمكانه عند أخيه السلطان أبي سعيد لما سعى فيه عنده ، فترع عنه إلى تلمسان وأجاره السلطان أبو حمو على أخيه فأحفظه ذلك ، ونهض إلى تلمسان سنة أربع عشرة نوسبعمائة وعقد لابنه الأمير أبي عليّ وبعثه في مقدّمته ، وسار هو في الساقة . ودخل أعمال تلمسان على هذه التعيية فاكتسح بسائطها ، ونازل وجدة فقاتلها وضيق عليها . ثم تخطّأها إلى تلمسان فترل بساحتها وانحجر موسى بن عثمان من وراء أسوارها ، وغلب على ضواحيها ورعاياها ، وسار السلطان أبو سعيد في عساكره يتقرّى شعارها وبلادها بالحطم والانتساف والعيث . فلما أحيط به وثقلت وطأة السلطان عليه وحذر المغبة منه ألطف الحيلة في خطاب الوزراء الذين كان يسرّب أمواله فيهم ويخادعهم من نصائح سلطانهم حتى اقتضى مراجعتهم في جاره يعيش بن يعقوب وإدالته من أخته . ثم بعث خطوطهم بذلك إلى السلطان أبي سعيد فامتلاء قلبه منها خشية ورهبة ، واستراب بالخاصّة والأولياء ونهض إلى المغرب على تعيينه . ثم كان خروج ابنه عمر عليه بعد مرجعه ، وشغلوا عن تلمسان وأهلها برهة من الدهر حتى جاء أمر الله في ذلك عند وقته ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن مبدأ حصار بجاية وشرح الداعية إليه) *

لما رجع السلطان أبو سعيد إلى المغرب وشغل عن تلمسان ، فرع أبو حمو لأهل

القاصية من عمله . وكان راشد بن محمد بن ثابت بن مندیل قد جاء من بلاد زواوة أثناء هذه الغمرة ، فاحتل بوطن شلف واجتمع إليه أوشاب قومه ، وحين تجملت الغمرة عن السلطان أبي حمو نهض إليه بعد أن استعمل ابنه أبا تاشفين على تلمسان ، وجمع له الجموع فقرأ أمامه ناجياً إلى مثنوى اغترابه ببجاية . وأقام بنو سعيد بمعاقلهم من جبال شلف على دعوته ، فاحتل السلطان أبو حمو بوادي تمل^(١) فخيم به . وجمع أهل أعماله لحصار بني أبي سعيد شيعة راشد بن محمد ، واتخذ هنالك قصره المعروف باسمه . وسرح العساكر لتدويخ القاصية ولحق به هنالك الحاجب ابن أبي^(٢) حين مرجعه من الحج سنة إحدى عشرة وسبعائة ، فأغراه بملك بجاية ورغبه فيه . وكان قد تاب له طمع منذ رسالة السلطان مولانا أبي يحيى إليه . وذلك أنه لما انتقض على أخيه خالد ودعا لنفسه بقسنطينة ، ونهض إلى بجاية فانهزم عنها كما قدمنا في أخباره . وأوفد على السلطان أبي حمو بعض رجال دولته مغرياً له بآبن خلوف وبجاية ثم بعث إليه ابن خلوف أيضاً يسأله المظاهرة والمدد فأطمعه ذلك في ملك بجاية .

(ولما هلك) ابن خلوف كما قدمناه ، لحق به كاتبه عبدالله بن هلال ، فأغراه واستحثه ، وشغله عن ذلك شأن الجزائر . فلما استولى على الجزائر ، بعث مولاه مساحاً في عسكر مع ابن أبي حي ، فبلغوا إلى جبل الزاب وهلك ابن أبي حي ورجع مسامح . ثم شغله عن شأنها زحف ، وفرغ من أمر عدوه ، ونزل بلد شلف كما ذكرناه آنفاً ولحق به عثمان بن سباع بن يحيى بن سباع بن سهل أمير الزواودة ، يستحثه لملك الثغور الغربية من عمل الموحدين ، فاهتر لذلك وجمع له الجموع ، وعقد لمسعود ابن عمه أبي عامر برهوم على عسكر وأمره بحصار بجاية ، وعقد لمحمد ابن عمه يوسف قائد مليانة على عسكر ، ولولاه مسامح على عسكر آخر ، وسرحهم إلى بجاية وما وراءها لتدويخ البلاد . وعقد لموسى بن علي الكردي على عسكر ضخيم ، وسرحه مع العرب من الزواودة وزغبة على طريق الصحراء . فانطلقوا إلى وجههم ذلك ، وفعلوا الأفاعيل كل فيما يليه وتوغّلوا في البلاد الشرقية ، حتى انتهوا إلى بلاد بونة . ثم انقلبوا من هنالك ومروا في طريقهم بقسنطينة ، ونازلوها أياماً .

(١) وفي نسخة ثانية : نهل .

(٢) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة الاسم الكامل لهذا الحاجب في المراجع التي بين أيدينا .

وصعدوا جبل ابن ثابت المطلّ عليها فاستباحوه . ثم مرّوا ببني باورار فاستباحوها وأضرموها ، واكتسحوا سائر ما مرّوا عليه . وحدثت بينهم المناكرة حسداً ومنافسةً ، فافترقوا ولحقوا بالسلطان ولحق مسعود بن برهوم محاصراً لبجاية وبني حصناً بأصفون لمقامه . وكان يسرّح الجيوش لقتالها فتجول في ساحتها ، ثم تراجع إلى الحصن . ولم يزل كذلك حتى بلغه خبر خروج محمد بن يوسف فأجفل عنها على ما نذكره الآن فلم يرجعوا لحصارها إلا بعد مدّة والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن خروج محمد بن يوسف ببلاد بني توجين وحروب السلطان معه) *

لما رجع محمد بن يوسف من قاصية الشرق كما قدّمناه ، وسابقه إلى السلطان موسى بن علي الكرديّ ، وجوانحه تلتهب غيظاً وحقداً عليه . وسعى به عند السلطان فغزله عن مليانة ، فوجم لها وسأله زيارة ابنه الأمير أبي تاشفين بتلمسان ، وهو ابن أخته فأذن له . وأوعز إلى ابنه بالقبض عليه ، فأبى من ذلك ، وأراد هو الرجوع إلى معسكر السلطان فحلى سبيله . ولما وصل إليه تنكّر له وحجبه ، فاستراب وملاء قلبه الرعب ، وفرّ من المعسكر ولحق بالمرية^(١) ، ونزل على يوسف بن حسن بن عزيز عاملها للسلطان من بني توجين . فيقال انه أوثقه اعتقالاً حتى غلبه قومه على بغيته من الخروج معه ، لما كان السلطان أبو حمو يوسفهم به من نزاعته ، فأخذ له البيعة على قومه ومن إليهم من العرب . وزحفوا إلى السلطان بمعسكره من نهل ، فلقاهم في عساكره ، فكانت الدبرة على السلطان ، ولحق بتلمسان وغلب محمد بن يوسف على بني توجين ومغراوة ونزل مليانة . وخرج السلطان من تلمسان لأيام من دخولها ، وقد جمع الجموع وأزاح العلل وأوعز إلى مسعود بن برهوم بمكانه من حصار بجاية بالوصول إليه بالعساكر ، ليأخذ بحجزتهم من ورائهم ، وخرج محمد بن يوسف على مليانة لاعتراضه ، واستعمل على مليانة يوسف بن حسن بن عزيز ، فلقاه ببلاد مليكش وانهزم محمد بن يوسف . ولجأ إلى جبل مرصالة^(٢) وحاصره بها مسعود بن

(١) وفي نسخة ثانية : بالمدية .

(٢) وفي نسخة ثانية : موصاية .

برهوم أياًماً ، ثم أفرج عنه . ولحق بالسلطان فنازلوا جميعاً مليانة . وافتتحها السلطان
عنوة وجيء بيوسف بن حسن أسيراً من ممكنه ببعض المسارب فعفا عنه وأطلقه ، ثم
زحف إلى المرية فملكها وأخذ الرهن من أهل تلك النواحي ، وقفل إلى تلمسان .
واستطال محمد بن يوسف على النواحي ففشفت دعوته في تلك القاصية . وخاطب
مولانا السلطان أبا يحيى بالطاعة فبعث إليه بالهدية والآلة ، وسوّغه سهام يغمراسن
ابن زيان بأفريقية ، ووعد بالمظاهرة وغلب سائر بلاد بني توجين . وباع له بنو
تيفرين أهل جبل وانثريس ، فاستولى عليه . ثم نهض السلطان إلى الشرق سنة سبع
عشرة وسبعمئة وملك المرية واستعمل عليها يوسف بن حسن المدافعة محمد بن
يوسف ، واستبلغ في أخذ الرهن منه ومن أهل العائلات وقبائل زناتة والعرب ، حتى
من قومه بني عبد الواد . ورجع إلى تلمسان وأنزله بالقصبة وهي الغور الفسيح الخطّة
تمائل بعض الأمصار العظيمة ، اتخذها للرهن . وكان يبالغ في ذلك حتى يأخذ
الرهن المتعددة من البطن الواحد والفخذ الواحد والرهط . وتجاوز ذلك إلى أهل
الأمصار والثغور والمشخة والسوق فلاء تلك القصبة من أبنائهم وإخوانهم ، وشحنها
بالأثم بعد الأثم ، وأذن لهم في ابتناء المنازل واتخاذ النساء . واختط لهم المساجد
فجمعوا بها لصلاة الجمعة ، ونفقت بها الأسواق والصنائع وكان حال هذه البنية من
أغرب ما حكى في العصور عن سجن . ولم يزل محمد بن يوسف بمكان خروجه من
بلاد توجين إلى أن هلك السلطان ، والبقاء لله .

* (الخبر عن مقتل السلطان أبي حمو وولاية ابنه أبي تاشفين

من بعده) *

كان السلطان أبو حمو قد اصطفى ابن عمه برهوم وتبناه من بين عشيرته وأولي قريبه
لمكان صرامته ودهائه ، واختصاص أبيه برهوم المكتى أبا عامر بعثمان بن يغمراسن
شقيقه من بين إخوته^(١) ، فكان يؤثره على بنيه ويفاوضه في شؤونه ، ويصله إلى
خلواته . وكان دفع إلى ابنه عبد الرحمن أبا تاشفين أتراباً له من العلوجين^(٢) يقومون

(١) وفي نسخة ثانية : من بين سائر الاخوة .

(٢) وفي نسخة ثانية : العلوجي .

بخدمته في مرباه ومنتشه ، كان منهم : هلال المعروف بالقطاني ^(١) ، ومسامح المسمّى بالصغير ، وفرج بن عبدالله وظافر ومهدي وعليّ بن تاكرت وفرج الملّقب شقّورة ، وكان ألصقهم وأعلقهم بنفسه تلاد له منهم يسمّى هلالاً ، وكان أبو حمو أبوه كثيراً ما يقرّعه ويوبّخه إرهاباً في اكتساب الخلال ، وربما يقذع في تقرّيعه لما كان عفا الله عنه فحاشاً فيحفظه لذلك . وكان مع ذلك شديد السطوة متجاوزاً بالعقاب وحدوده في الزجر والأدب ، فكان أولئك العلوجين تحت رهب منه ، وكانوا يغرون لذلك مولاهم أبا تاشفين بأبيه ، ويبعثون غيرته لما يذكرون له من اصطفاء ابن أبي عامر دونه . وقارن ذلك أن مسعود بن أبي عامر أبلّ في لقاء محمد ابن يوسف الخارج على أبي حمو البلاء الحسن عندما رجع من حصار بجاية ، فاستحمد له السلطان ذلك ، وعيّر ابنه عبد الرحمن بمكان ابن عمّه هذا من النجاة والصرامة يستجد له بذلك خلالاً ويغريه بالكمال . وكان عمّه أبو عامر ابراهيم بن يغمراسن ثري بما نال من جوائز الملوك في وفاداته ، وما أقطع له أبوه وأخوه سائر أيامها .

ولما هلك سنة ست وتسعين وستائة أوصى أخاه عثمان بولده فضمهم إليه ، ووضع تراثهم بموضع ماله ، حتى يأنس منهم الرشد في أحوالهم ، حتى اذا كانت غزاة ابنه أبي سرحان هذه ، وعلا فيها ذكره وبعدّ صيته ، رأى السلطان أبو حمو أن يدفع إليه تراث أبيه لاستجماع خلاله ، فاحتمل إليه من المودع . ونمي الخبر إلى ولده أبي تاشفين وباطنته السوء من العلوجين ، فحسبوه مال الدولة قد حمل إليه لبعده عهدهم بما وقع في تراث أبي عامر أبيه ، واتهموا السلطان بابتثاره بولاية العهد دون ابنه ، فأغروا أبا تاشفين بالتؤبّب على الأمر وحملوه على الفتك بمشتويه مسعود بن أبي عامر ، واعتقال السلطان أبي حمو ليتمّ له الاستبداد . وتحيّنوا لذلك قائلة الهاجرة عند منصرف السلطان من مجلسه ، وقد اجتمع إليه ببعض حجر القصر خاصته من البطانة وفيهم مسعود بن أبي عامر والوزراء من بني الملاح . وكان بنو الملاح هؤلاء قد استخصهم السلطان بحجابته سائر أيامه ، وكان مسمّى الحجابة عنده قهرمة الدار والنظر في الدخل والخرج ، وهم أهل بيت من قرطبة كانوا يحترفون فيها بسكّة الدنانير

(١) وفي نسخة ثانية : القطلاني .

والدراهم ، وربما دفعوا إلى النظر في ذلك ثقة بأماناتهم ، نزل أولهم بتلمسان مع جالية قرطبة فاحترفوا بحرفتهم الأولى. وزادوا إليها الفلاحة وتحلوا بخدمة عثمان بن يغمراسن وابنه ، وكان لهم في دولة أبي حمو مزيد حظوة وعناية ، فولّى على حجابته منهم لأوّل دولته محمد بن ميمون بن الملاح . ثم ابنه محمد الأشقر من بعده . ثم ابنه ابراهيم بن محمد من بعدهما ، واشترك معه من قرابته علي بن عبدالله بن الملاح ، فكانا يتوليان مهمه بداره ويحضران خلوته مع خاصته ، فحضروا يومئذ مع السلطان بعد انفضاض مجلسه كما قلناه ، ومعه من القرابة مسعود القليل وحموش بن عبد الملك بن حنينة . ومن الموالي معروف الكبير ابن أبي الفتوح بن عنتر من ولد نصر بن عليّ أمير بني يزيد^(١) بن توجين ، وكان السلطان قد استوزره .

(فلما علم) أبو تاشفين باجتماعهم هجم ببطانته عليهم وغلبوا الحاجب على بابيه حتى ولجوه متسايلين بعد أن استمسكوا من اغلاقه ، حتى إذا توسّطوا الدار اعتوروا السلطان بأسيا فهم فقتلوه . وحام أبو تاشفين عنها ، فلم يفرجوا عليه ولاذ أبو سرحان منهم ببعض زوايا الدار ، واستمكن من غلقها دونهم ، فكسروا الباب وقتلوه ، واستلحموا من كان هنالك من البطانة ، فلم يفلت إلا الأقل . وهلك الوزراء بنو الملاح واستبيحت منازلهم . وطاف الهاتف بسكك المدينة بأنّ أبا سرحان غدر بالسلطان ، وأنّ ابنه أبا تاشفين ثأر منه ، فلم يخف على الناس الشأن . وكان موسى ابن عليّ الكرديّ قائد العساكر قد سمع الصيحة فركب إلى القصر ، فوجده مغلقاً دونه ، فظنّ الظنون فخشي استيلاء مسعود على الأمر فبعث إلى العباس بن يغمراسن كبير القرابة ، فأحضره عند باب القصر حتى إذا مرّ بهم الهاتف واستيقن مهلك أبي سرحان ، ردّ العباس على عقبه إلى منزله . ودخل إلى السلطان أبي تاشفين ، وقد أدركه الدهش من الواقعة فثبته ونشطه فحفه ، وأجلسه بمجلس أبيه وتولى له عقد البيعة على قومه خاصة وعلى الناس عامّة ، وذلك آخر جمادى الأولى من تلك السنة . وجهز السلطان إلى مدفنه بمقبرة سلفه من القصر القديم ، وأصبح مثلاً في الآخرين والبقاء لله .

وأشخص السلطان لأوّل ولايته سائر القرابة الذين كانوا بتلمسان من ولد يغمراسن ،

(١) وفي نسخة اخرى : يزنانن .

وأجازهم إلى العدو حذراً من مغبة ترشيحهم ، وما يتوقع من الفتن على الدولة من قبلهم ولقد حجابته مولاه هلالاً فاضطلع بأعبائها ، واستبد بال عقد والحل والابرام والنقض صدرأ من دولته ، إلى أن نكبه حسبا نذكره . وعقد ليحيى بن موسى السنوسي من صنائع دولتهم على شلف وسائر أعمال مغراوة ، وعقد لمحمد بن سلامة بن عليّ على عمله من بلاد بني يدللتن من توجين ، وعزل أخاه سعداً ، فلحق بالمغرب . وعقد لموسى بن عليّ الكردي على قاصية المشرق ، وجعل إليه حصار بجاية ، وأغرى دولته بتشيد القصور واتخاذ الرياض والبساتين ، فاستكمل ما شرع فيه أبوه من ذلك أربى عليه ، فاحتفلت القصور والمصانع في الحسن ما شاءت ، واتسعت أخباره على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن نهوض السلطان أبي تاشفين لمحمد بن يوسف بجبل وانشريس واستيلاؤه عليه

كان محمد بن يوسف بعد مرجع السلطان أبي حموكما ذكرناه قد تغلب على جبل وانشريس ونواحيه واجتمع إليه الفلّ من مغراوة فاستفحل أمره ، واشتدت في تلك النواحي شوكته . وأهمّ أبا تاشفين أمره فاعترم على النهوض إليه ، وجمع لذلك وأزاح العلل . وخرج من تلمسان سنة تسع عشرة وسبعائة واحتشد سائر القبائل من زناتة والعرب ، وأناخ على وانشريس وقد اجتمع به بنو توجين ومغراوة مع محمد بن يوسف . وكان تيغرين من بني توجين بطانة ابن عبد القويّ يرجعون في رياستهم إلى عمر بن عثمان بن عطية حسبا نذكره : وكان قد استخلص سواه من بني توجين دونه فأسفه بذلك ، وداخل السلطان أبا تاشفين وواعده أن يتحرك^(١) عنه ، فاقترح السلطان عليهم الجبل وانحجزوا جميعاً إلى حصن توكال ، فخالفهم عمر بن عثمان في قومه إلى السلطان بعد أن حاصرهم ثمانياً ، فتخرّم الجمع واختل الأمر وانفضّ الناس فاقترح الحصن ، وتقبّض على محمد بن يوسف وجيء به إلى السلطان أسيراً وهو في مركبه فعدّد عليه ، ثم وخزه برمح ، وتناوله الموالي برماحهم فأقعصوه ، وحمل رأسه

(١) وفي نسخة ثانية : ان ينحرف عنه .

على القناة إلى تلمسان ، فنصب بشرفات البلد ، وعقد لعمر بن عثمان على جبل وانشرس وأعمال بني عبد القوي ، ولسعيد العربي من مواليه على عمل المرية . وزحف إلى الشرق فأغار على أحياء رياح وهم بوادي الجنان حيث الثنية المفضية من بلاد حمزة إلى القبلة ، وصبح أحياءهم فاكتسح أموالهم ومضى في وجهه إلى بجاية ، فعرس بساحتها ثلاثاً وبها يومئذ الحاجب يعقوب بن عمر فامتنعت عليه ، فظهر له وجه المعذرة لأوليائهم في استحسانها لهم . وقفل إلى تلمسان إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن حصار بجاية والفتنة الطويلة مع الموحدين التي كان فيها حتفه وذهاب سلطانه وانقراض الامر عن قومه برهة من الدهر

لما رجع السلطان أبو تاشفين من حصار بجاية سنة تسع عشرة وسبعائة اعتمل في ترديد البعوث إلى قاصية الشرق ، والإلحاح بالغزو إلى بلاد الموحدين ، فأغزاها جيوشه سنة عشرين وسبعائة فدوخوا ضواحي بجاية وقفلوا . ثم غزاها ثانية سنة إحدى وعشرين وسبعائة وعليهم موسى بن عليّ الكردي فأنتهى إلى قُسْطَيْنَة وحاصرها فامتنعت عليه فأفرج عنها ، وابتنى حصن بكر لأوّل مضيق الوادي ، وادي بجاية ، وأنزل به العساكر لنظر يحيى بن موسى قائد شلف وقفل إلى تلمسان . ثم نهض موسى بن عليّ الثالثة سنة اثنتين وعشرين وسبعائة فدوخوا نواحي بجاية ونازلها أياماً وامتنعت عليه فأفرج عنها . ووفد سنة ثلاث وعشرين وسبعائة على السلطان حمزة بن عمر بن أبي الليل كبير البدو بأفريقية صريحاً على صاحب أفريقية مولانا السلطان أبي يحيى ، فبعث معهم العساكر من زناتة وعامتهم من بني توجين وبني راشد ، وأمر عليهم القواد وجعلهم لنظر قائده موسى بن عليّ الكردي ، ففصلوا إلى أفريقية ، وخرج السلطان للقائهم ، فانهزموا بنواحي مَرْمَاجَنَة ، وتحطّفتهم الأيدي فاستلحموا ، وقتل مسامح مولاه ، ورجع موسى بن عليّ ، فاتهمه السلطان بالادهان وكان من نكبته ما نذكره في أخباره وسرح العساكر سنة أربع وعشرين وسبعائة فدوخت نواحي بجاية ، ولقيهم ابن سيّد الناس فهزموهم ، ونجا إلى البلد .

ووفد على السلطان سنة خمس وعشرين وسبعائة مشيخة سُليْم حمزة بن عمر بن

أبي الليل وطالب بن مهلهل ، الغملان المتزاحمان في رئاسة الكعوب . ومحمد بن مسكين من بني القوس كبراء حكيم ، فاستحثوه للحركة واستصرخوه على أفريقية ، وبعث معهم العساكر لنظر قائده موسى بن علي ونصب لهم ابراهيم بن أبي بكر الشهيد من أعياص الحفصيين . وخرج مولانا السلطان أبو يحيى من تونس للقائهم وخشيمهم على قُسْنَطِينَة فسابقهم إليها ، فأقام موسى بن علي بعساكره على قسنطينة ، وتقدم ابراهيم بن أبي بكر الشهيد في أحياء سُليْم إلى تونس فملكها كما ذكرناه في أخبارهم . وامتنعت قسنطينة على موسى بن علي فأقلع^(١) عنها لخمس عشرة ليلة من حصارها وعاد إلى تلمسان . ثم أغزاه السلطان سنة ست وعشرين وسبعمائة في الجيوش وعهد إليه بتدوين الضاحية ومحاصرة الثغور ، فنازل قُسْنَطِينَة وأفسد نواحيها . ثم رجع إلى بجاية فحاصرها ، ثم عزم على الإقلاع ورأى أن حصن بكر غير صالح لتجهيز الكتائب إليها لبعده ، وارتاد للبناء عليها ما هو أقرب منه ، فاخطت بمكان سوق الخميس بوادي بجاية مدينة لتجهيز الكتائب لها على بجاية ، وجمع الأيدي على بنائها من الفعلة والعساكر ، فتمت لأربعين يوماً وسموها تامريزدكت باسم الحصن القديم الذي كان لبني عبد الواد قبل الملك بالجل قبله وَجْدَة ، وأنزل بها عساكر تناهز ثلاثة آلاف ، وأوعز السلطان إلى جميع عماله ببلاد المغرب الأوسط بنقل الحبوب إليها حيث كانت ، والأدم وسائر المرافق حتى الملح ، وأخذ الرهن من سائر القبائل على الطاعة واستوفوا جبايتهم . فثقلت وطأتهم على بجاية واشتد حصارها وغلت أسعارها .

(وبعث) مولانا السلطان أبو يحيى جيوشه وقواده سنة سبع وعشرين وسبعمائة فسلخوا إلى بجاية على جبل بني عبد الجبار ، وخرج بهم قائدها أبو عبدالله بن سيد الناس إلى ذلك الحصن . وقد كان موسى بن علي عند بلوغ خبرهم إليه استنفر الجنود من ورائه ، وبعث إلى القواد قبله بالبراز فالتقى الجمعان بضاحية تامريزدكت ، فانكشف ابن سيد الناس ومات ظافر الكبير مقدم الموالي من العلوجين بباب السلطان واستبيح معسكرهم . ولما سخط السلطان قائده موسى بن علي ونكبه كما ذكره في أخباره أغزى يحيى بن موسى السنوسي في العساكر إلى أفريقية ومعه القواد ، فعاثوا في

(١) وفي نسخة ثانية : فأفرج عنها .

نواحي قُسَنْطِينَة وانتهوا إلى بلد بونة ورجعوا . وفي سنة تسع وعشرين وسبعمائة بعدها وفد حمزة بن عمر على السلطان أبي تاشفين صريحاً ، ووفد معه أو بعده عبد الحق ابن عثمان ، فحلّ الشول من بني مرين . وكان قد نزل على مولانا السلطان أبي يحيى منذ سنين ، فسخط بعض أحواله ولحق بتلمسان ، فبعث السلطان معهم جميع قوّاده يحيوشه لنظر يحيى بن موسى . ونصب عليهم محمد بن أبي بكر بن عمران من أعياص الحفصيّين ، ولقيهم مولانا السلطان أبو يحيى بالدياس^(١) من نواحي بلاد هوّارة ، وانخزل عنه أحياء العرب من أولاد مهلهل الذين كانوا معه ، وانكشفت جموعه واستولى على ظعائنه بما فيها من الحرم ، وعلى ولديه أحمد وعمر ، فبعثوا بهم إلى تلمسان ، ولحق مولانا المنصور أبو يحيى بقُسَنْطِينَة وقد أصابه بعض الجراحة في حومة الحرب ، وسار يحيى بن موسى وابن أبي عمران إلى تونس ، واستولوا عليها ورجع يحيى بن موسى عنهم يجمعون زناة لأربعين يوماً من دخولها ، ففقل إلى تلمسان وبلغ الخبر إلى مولانا السلطان أبي يحيى بقول زناة عنهم ، فنهض إلى تونس وأجهض عنها ابن أبي عمران بعد أن كان أوفد من بجاية ابنه أبا زكريا يحيى ومعه محمد بن تافراكين من مشيخة الموحدين صريحاً على أبي تاشفين ، فكان ذلك داعية إلى انتفاض ملكه كما ذكره بعد . ودخل السلطان أبا تاشفين بعض أهل بجاية ، ودلّوه على عورتها ، واستقدموه فنهض إليها وحذر بذلك الحاجب ابن سيّد الناس فسابقه إليها ، ودخل يوم نزوله عليها ، وقتل من اتهمه بالمدخلة فانحسم الداء . وأقلع السلطان أبو تاشفين عنها ، وولّى عيسى بن مزروع من مشيخة بني عبد الواد على الجيش الذي بتامز يزدكت ، وأوعز إليه ببناء حصن أقرب إلى بجاية من تامز يزدكت فبناه بالياقونه من أعلى واد قبالة بجاية . فأخذ بمخنقها واشتدّ الحصار إلى أن أخذ السلطان أبو الحسن بحجزتهم ، فأجفلوا جميعاً إلى تلمسان ، ونفس مخنق الحصار عن بجاية . ونهض مولانا السلطان أبو يحيى يحيوشه من تونس إلى تامز يزدكت سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة فخرّبها في ساعة من نهار كأن لم تغن بالأمس ، حسباً ذكرنا ذلك في أخباره . والله تعالى أعلم .

(١) وفي نسخة ثانية : الرياس .

* (الخبر عن معاودة الفتنة بين بني مرين وحصارهم تلمسان ومقتل السلطان أبي تاشفين ومصائر ذلك) *

كان السلطان أبو تاشفين قد عقد السلم لأوّل دولته مع السلطان أبي سعيد ملك المغرب ، فلما انتقض عليه ابنه أبو عليّ سنة إثنين وعشرين وسبعائة بعد المهادنة الطويلة من لدن استبداده بسجلماسة ، بعث ابنه القعقاع إلى أبي تاشفين في الأخذ بحجزة أبيه عنه ، ونهض هو إلى مراکش فدخلها . وزحف إليه السلطان أبو سعيد فبعث أبو تاشفين قائده موسى بن عليّ في العساكر إلى نواحي تازي ، فاستباح عمل كارث ، واكتسح زرّوعه وقفل . واعتدّها عليه السلطان أبو سعيد ، وبعث أبو تاشفين وزيره داود بن علي بن مكن رسولاً إلى السلطان أبي عليّ بسجلماسة ، فرجع عنه مغاضباً وجنح أبو تاشفين بعدها إلى التمسك بسلم السلطان أبي سعيد ، فعقد لهم ذلك وأقاموا عليها مدّة . فلما نفر ابن مولانا السلطان أبي يحيى على السلطان أبي سعيد ملك المغرب ، وانعقد الصهر بينهم كما ذكرناه في أخبارهم ، وهلك السلطان أبو سعيد ، نهض السلطان أبو الحسن إلى تلمسان بعد أن قدّم رسله إلى السلطان أبي تاشفين في أن يقلع بجيوشه عن حصار بجاية ، ويتجافى للموحدين عن عمل تنس^(١) فأبى وأساء الردّ ، وأسمع الرسل بمجلسه هجر القول . وأفرغ لهم الموالي في الشتم لمرسلهم بمسمع من أبي تاشفين ، فأحفظ ذلك السلطان أبو الحسن ونهض في جيوشه سنة إثنين وثلاثين إلى تلمسان فتخطّأها إلى تاسالت وضرب بها معسكره ، وأطال المقام وبعث المدد إلى بجاية مع الحسن البطوي من صنائعه ، وركبوا في أساطيله من سواحل وهران ووافاهم مولانا السلطان أبو يحيى ببجاية وقد جمع لحرب بني عبد الواد وهدم تامز يزدكت وجاء لموعد السلطان أبي الحسن معه أن يجتمعا بعساكرهما لحصار تلمسان ، فنهض من بجاية إلى تامز يزدكت وقد أجفل منها عساكر بني عبد الواد وتركوها قفراً^(٢) . ولحقت بها عساكر الموحدين ، فعاثوا فيها تخريباً ونهباً . وألصقت جدرانها بالأرض وتنفس منحق بجاية من الحصار ، وانكش بنو عبد الواد

(١) وفي نسخة ثانية : تدلس .

(٢) وفي نسخة ثانية : قواء .

إلى ما وراء نخومهم .

وفي خلال ذلك انتقض أبو عليّ ابن السلطان أبي سعيد على أخيه ، وصمد من مقرّه بسجلماسة إلى درعة ، وفتك بالعامل وأقام فيها دعوته كما نذكر ذلك بعد . وطار الخبر إلى السلطان أبي الحسن بمحلّته بتاسالت ، فنهض^(١) راجعاً إلى المغرب لحسم دائه ، وراجع السلطان أبو تاشفين عزّه وانبسطت عساكره في ضواحي عمله ، وكتب الكتاب وبعث بها مدداً للسلطان أبي عليّ . ثم استنفر قبائل زنّانة وزحف إلى نخوم المغرب سنة ثلاث وثلاثين وسبعائة ليأخذ بحجزه السلطان أبي الحسن عن أخيه ، وانتهى إلى الثغر من تاوريرت ولقيه هناك تاشفين ابن السلطان أبي الحسن في كتيبة جهّزها أبوه معه هنالك لسدّ الثغور ، ومعه منديل بن حمامة شيخ بني تيريفين من بني مرين في قومه . فلما برزوا إليه انكشف ورجع إلى تلمسان . ولما تغلب السلطان أبو الحسن على أخيه وقتله سنة أربع وثلاثين وسبعائة جمع لغزو تلمسان وحصارها ونهض إليها سنة خمس وثلاثين وسبعائة وقد استنفذ وسعه في الاحتفال لذلك واضطربت بها عساكره وضرب عليها سياج الأسوار وسرادقات الحفائر أطيقت^(٢) عليهم ، حتى لا يكاد الطيف يخلص منهم ولا إليهم . وسرّح كتائبه إلى القاصية من كل جهة ، فتغلب على الضواحي وافتتح الأمصار جميعاً ، وخرب وجدة كما يأتي ذكر ذلك كله . وألح عليها بالقتال يغاديا ويراوحتها ، ونصب الخنايق وانحجز بها مع السلطان أبي تاشفين زعماء زنّانة من بني توجين وبني عبد الواد وكان عليهم في بعض أيامها اليوم المشهور الذي استلحمت فيه أبطالهم وهلك أمراؤهم . وذلك أنّ السلطان أبا الحسن كان يباكرهم في الاسحار فيطوف من وراء أسواره التي ضربها عليهم شوطاً يرتّب المقاتلة ويثقف الأطراف ويسدّ الفروج ويصلح الخلل ، وأبو تاشفين يبعث العيون في ارتصاد فرصه فيه ، وأطاف في بعض الأيام متنبذاً عن الحملة فكمنوا له حتى اذا سلك ما بين الجبل والبلد انقضوا عليه يحسبونها فرصة قد وجدوها ، وضايقوه حتى كاد السرعة من الناس أن يصلوا إليه ، وأحسن أهل المعسكر بذلك فركبوا زرافات ووحداناً ، وركب ابنه الأميران أبو عبد الرحمن وأبو مالك جناحا عسكره ، وعقبا جحافله وتهاوت إليهم صقور بني مرين من كل جوّ ، فانكشفت عساكر البلد ورجعوا

(١) وفي نسخة ثانية : فنكص .

(٢) وفي نسخة ثانية : اطبقت .

القهقري ، ثم ولّوا الأدبار منهزمين لا يلوي أحدٌ منهم على أحد ، واعترضهم مهوى الخندق فتطارحوا فيه وتهافتوا على ردمه ، فكان الهالك يومئذ بالردم أكثر من الهالك بالقتل . وهلك من بني توجين يومئذ كبير الحشم وعامل جبل وانشريس ، ومحمد بن سلامة بن علي أمير بني يَدْلِلَتين وصاحب قلعة تاوغزوت^(١) وما إليها من عملهم ، وهما ما هما في زناة إلى أشباههما وأمثال استلحموا في هذه الوقعة فحط^(٢) هذا اليوم جناح الدولة وحطّم منها ، واستمرّت منازل السلطان أبي الحسن إياها إلى آخر رمضان من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة فاقتحمها يوم السابع والعشرين منه غلاباً . ولحق السلطان أبو تاشفين إلى باب قصره في لمة من أصحابه ، ومعه ولداه عثمان ومسعود ووزيره موسى بن عليّ وعبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من أعياص بني مرين ، وهو الذي لحق بهم من تونس كما ذكرناه ، وسيأتي ذكره وخبره . ومعه يومئذ ابن أخيه أبو زيّان وأبو ثابت فمانعوا دون القصر مستميتين إلى أن استلحموا ورفعت رؤسهم على عصيّ الرماح ، فطيف بها ، وغصت سكك البلد من خارجها وداخلها بالعساكر ، وكظّت أبوابها بالزحام ، حتى لقد كبّ الناس على أذقانهم وتواقعوا فوطئوا بالخوافر وتراكت أشلاؤهم ما بين البابين حتى ضاق المذهب ما بين السقف ومسلك الباب وانطلقت الأيدي على المنازل نهياً واكتساحاً ، وخلص السلطان إلى المسجد الجامع ، واستدعى رؤساء الفتيا والشورى أبا زيد عبد الرحمن وأبا موسى عيسى ابني الإمام ، قدمهما من أعماله لمكان معتقده في أهل العلم ، فحضره ورفعوا إليه أمر الناس وما نالهم من معرة العسكر ووعظوه فأناّب ونادى مناديه برفع الأيدي عن ذلك ، فسكن الاضطراب وأقصر العيث . وانتظم السلطان أبو الحسن أمصار المغرب الأوسط وعمله إلى سائر أعماله . وتاخم الموحدين بثغوره وطمس رسم الملك لآل زيّان ومعلمه ، واستتبع زناة عصباً تحت لوائه من بني عبد الواد وتوجين ومغراوة وأقطعهم ببلاد المغرب سهاماً أدا لهم بها من تراثهم من أعمال تلمسان ، فانقرض ملك آل يغمراسن برهة من الدهر إلى أن أعاده منهم أعياص سموا إليه بعد حين عند نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان كما نذكره ، فأومض بارقه ، وهبّت ريجه ، والله يؤتي ملكه من يشاء .

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : تاوعزوت .

(٢) وفي نسخة ثانية : في هذه الوقائع . فقصّ هذا اليوم .

* (الخبر عن رجال دولته وهم موسى بن علي ويحيى بن موسى ومولاه هلال وأوليتهم ومصاير أمورهم واختصاصهم بالذكر لما صار من شهرتهم وارتفاع صيتهم) *

فأما موسى بن علي الحاجب الهالك مع السلطان ، فأصله من قبيلة الكرد من أعاجم المشرق ، وقد أشرنا الى الخلاف في نسبهم بين الأمم . وذكر المسعودي منهم أصنافاً سُمّاهم في كتابه من الشاهيجان والبرسان والكيكان إلى آخرين منهم ، وأنّ مواطنهم ببلاد أذربيجان والشام والموصل ، وأنّ منهم نصارى على رأي اليعقوبية وخوارج على رأي البراءة من عثمان وعلي انتهى كلامه .

(وكان) منهم طوائف يجبل شهرزور من عراق العجم وعامّتهم يتقلّبون في الرحلة . ويتّجعون لسائماتهم مواقع الغيث ، ويتّخذون الخيام لسكناهم من اللبود ، وجل مكاسبهم الشاء والبقر من الأنعام ، وكانت لهم عزة وامتناع بالكثرة ورياسات ببغداد أيام تغلب الأعاجم على الدولة واستبدادهم بالرياسة . ولما طمس ملك بني العباس وغلب التتر على بغداد سنة ست وخمسين وسبعمائة ، وقتل ملكهم هلاون آخر خلفاء العباسيين ، وهو المستعصم . ثم ساروا في ممالك العراق وأعماله ، فاستولوا عليها وعبر الكثير من الكرد نهر الفرات فراراً أمام التتر لما كانوا يدينون بدين الجوسية وصاروا في إيالة الترك ، فاستنكف أشرافهم وبيوتاتهم من المقام تحت سلطانهم . وجاز منهم إلى المغرب عشيرتان تعرفان ببني لوين وبني بابير^(١) فيمن إليهم من الأتباع ودخلوا المغرب لآخر دولة الموحدين ونزلوا على المرتضى بمراكش فأحسن تلقّيمهم وأكرم مثواهم ، وأسنى لهم الجراية والأقطاع وأحلّهم بالحل الرفيع من الدولة .

(ولما انتقض) أمر الموحدين بجدثان وصولهم صاروا إلى ملكة بني مرين ، ولحق بعضهم بيغمراسن بن زيان ، ونزع المستنصر إلى أفريقية يومئذ بيت من بني بابير لا أعرفهم ، كان منهم محمد بن عبد العزيز المعروف بالمزوار ، صاحب مولانا السلطان أبي يحيى وآخرون غيره منهم ركان^(٢) من أشهر من بقي في إيالة بني مرين منهم . ثم

(١) وفي نسخة ثانية : بني تابير .

(٢) وفي نسخة ثانية : وكان .

من بني بابر علي بن حسن بن صاف وأخوه سلمان ، ومن بني لوين الخضر بن محمد ،
ثم بنو حمّور ، ثم بنو بوصة . وكانت رياسة بني بابر لسلمان وعليّ ، ورياسة لوين
لخضر بن محمد . وكادت تكون الفتنة بينهم كما كانت في مواطنهم الاولى ، فاذا
اتعدوا للحرب توافت إليهم أشياعهم من تلمسان ، وكان نضالهم بالسهام وكانت
القيسيّ سلاحهم . وكان من أشهر الوقائع بينهم وقيعه بفاس سنة أربع وسبعين
وسمائة ، جمع لها خضر رئيس بني لوين وسلمان وعليّ رئيسا بني بابر ، واقتتلوا خارج
باب الفتوح . وتركهم يعقوب بن عبد الحق لشأنهم من الفتنة حياء منهم ، فلم يعرض
لهم . وكان مهلك سلمان منهم بعد ذلك مرابطاً بثغر طريف عام تسعين وسمائة ، وكان
لعليّ بن حسن ابنه موسى اصطفاه السلطان يوسف بن يعقوب ، وكشف له الحجاب
عن داره ، وربى بين حرمة فتمكّنت له دالة سخط بسببها بعض الأحوال مما لم
يرضه ، فذهب مغاضباً ودخل إلى تلمسان أيام كان يوسف بن يعقوب محاصراً لها ،
فتلقاه عثمان بن يغمراسن من التكرمة والترحيب بما يناسب محلّه من قومه ومنزلة من
اصطناع السلطان . وأشار يوسف بن يعقوب على أبيه باستمالة فلقبه في حومة القتال
وحادثه واعتذر له بكرامة القوم إياه ، فحضّه على الوفاء لهم ، ورجع إلى السلطان
فخبره الخبر فلم ينكر عليه . وأقام هو بتلمسان وهلك أبوه عليّ بالمغرب سنة سبع
وسبعمائة .

ولما هلك عثمان بن يغمراسن بن زيّان زاده بنوه اصطناعاً ومداخلَةً ، وخلطوه
بأنفسهم وعقدوا له على العساكر لمحاربة أعدائهم . وولّوه الأعمال الجليلة والرتب
الرفيعة من الوزارة والحجابه . ولما هلك السلطان أبو حمو وقام بأمره ابنه أبو تاشفين ،
وكان هو الذي تولّى له أخذ البيعة على الناس ، وغصّ بمكانه مولاه هلال فلما استبدّ
عليه وكان كثيراً ما ينافس موسى بن علي ويناquشه ، فخشيّه على نفسه ، وأجمع على
إجازة البحر للمرابطة بالأندلس ، فبادره هلال وتقبّض عليه وغرّبه إلى العدو ونزل
بغرناطة ، وانتظم في الغزاة المجاهدين وأمسك عن جرایة السلطان فلم يمدّ إليها يوماً
مقامه ، وكانت من أئزّه ما جاء به وتحذّث به الناس فأغربوا ، واتقدت لها جوانح
هلال حسداً وعداوةً ، فأغرى سلطانه فخاطب ابن الأحمر في استقدامه ، فأسلمه
إليه . واستعمله السلطان في حروبه على قاصيته حتى كان من نهوضه بالعساكر إلى
أفريقية للقاء مولانا السلطان أبي يحيى سنة سبع وعشرين وسبعمائة . وكانت الدبرة

عليه واستلحمت زناة ، ورجع في الفلّ فأغرى هلال السلطان وألقى في نفسه التهمة به . ونمي ذلك إليه فلحق بالعرب الزواودة ، وعقد مكانه على محاصرة بجاية ليحيى ابن موسى صاحب شلف ، ونزل هو على سليمان ويحيى بن علي بن سباع بن يحيى من أمراء الزواودة في أحيائهم^(١) فلقوقه مبرة وتعظيماً ، وأقام بين أحيائهم مدة ، ثم استقدمه السلطان ورجع إلى محلّه من مجلسه . ثم تقبّض عليه لأشهر ، وأشخصه إلى الجزائر فاعتقله بها وضيق عليه محبسه ذهاباً مع أغراض منافسة هلال ، حتى إذا أسخط هلالاً استدعاه من محبسه أضيّق ما كان ، فانطلق إليه . فلما تقبّض على هلال قلّد موسى بن عليّ حجابته ، فلم يزل مقيماً لرسمها إلى يوم اقتحم السلطان أبو الحسن تلمسان ، فهلك مع أبي تاشفين وبنيه في ساحة قصرهم كما قلناه . وانقضى أمره والبقاء لله .

وانتظم بنوه بعد مهلكه في جملة السلطان أبي الحسن وكان كبيرهم سعيد قد خلاص من بين القتلى في تلك الملحمة بباب القصر بعد هدوء من الليل مثخناً بالجراح ، وكانت حياته بعدها تعدّ من الغرائب ، ودخل في عفو السلطان إلى أن عادت دولة بني عبد الواد ، فكان له في سوقها نفاق حسبما ذكره والله غالب على أمره .
(وأما يحيى بن موسى) فأصله من بني سنّوس إحدى بطون كومية ، ولهم ولاء في بني كمين^(٢) بالاصطناع والتربة . ولما فصل بنو كمين إلى المغرب قعدوا عنهم واتصلوا ببني يغمراسن واصطنعواهم ، ونشأ يحيى بن موسى في خدمة عثمان وبنيه واصطناعهم . (ولما كان) الحصار ولآه أبو حمو مهمة من التطواف بالليل على الحرس بمقاعدهم من الأسوار ، وقسم القوت على المقاتلة بالمقدار ، وضبط الأبواب والتقدّم في حومة الميدان^(٣) ، وكان له أعوان على ذلك من خدّامه قد لزموا الكون معه في البكر والآصال . والليل والنهار ، وكان يحيى هذا منهم فعرفوا له خدمته وذهبوا إلى اصطناعه وكان من أول ترشيحه ترديد أبي يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارهم : فيما يدور بينهم من المضاربة ، فكان يحلي في ذلك ويوفي من عرض مرسله^(٤) ، ولما خرجوا من الحصار أربوا به على رتب الاصطناع والتنويه .

(١) وفي نسخة ثانية : المذكورين في أخبارهم .

(٢) وفي نسخة ثانية : بني كمي .

(٣) وفي نسخة ثانية : في حومة القتال .

(٤) وفي نسخة ثانية : ويؤتي غرض مرسله .

(ولما ملك أبو تاشفين) استعمله بشلف مستبدًا بها وأذن له في اتخاذ الآلة . ثم لما عزل موسى بن علي عن حرب الموحدين وقاصية الشرق عزله به ، وكانت المرية وتنس من عمله . فلما نازل السلطان أبو الحسن تلمسان راسله بالطاعة والكون معه ، فقبله وجاء به ^(١) من مكان عمله ، فقدم عليه بمخيمه على تلمسان ، فاخصه باقباله ورفع مجلسه من بساط ، ولم يزل عنده بتلك الحال إلى أن هلك بعد افتتاح تلمسان والله مصرف الأقدار .

(وأما هلال) فأصله من سبي النصارى القطلونيين أهداه السلطان ابن الأحمر الى عثمان بن يغمراسن ، وصار إلى السلطان أبي حمو فأعطاه إلى ولده أبي تاشفين فيما أعطاه من الموالي المعلوجين ، ونشأ عنده وتربى ، وكان مختصًا عنده بالراحلة والدالة ، وتولى كبر تلك الفعلة التي فعلوا بالسلطان أبي حمو . ولما ولي بعده ابنه أبو تاشفين ولّاه على حجابته ، وكان مهيباً فظاً غليظاً ، فبعد مقعد الفصل ببابه وأرف للناس سطوه ^(٢) ، وزحزح المرشحين عن رتب الماثلة إلى التعلق بأهدابه ، فاستولى على الأمر واستبدّ على السلطان . ثم حذر مغبة الملك وسوء العواقب ، فاستأذن السلطان في الحج وركب إليه من هُنين بعض السفن اشتراها بئاله وشحنها بالعديد والعدة والأقوات والمقاتلة ، وأقام كاتبه الحاج محمد بن حوالة ^(٣) بباب السلطان على رسم النيابة عنه ، وأقلع سنة أربع وعشرين وسبعمائة فنزل بالاسكندرية وصحب الحاج من مصرفي جملة الأمير عليهم ، ولقي في طريقه سلطان السودان من آل منسى موسى ، واستحكت بينهما المودة . ثم رجع بعد قضاء فرضه إلى تلمسان . فلم يجد مكانه من السلطان ولم يزل من بعد ذلك يشكر له وهو يسايسه بالمدارة والاستجداء إلى أن سخطه ، فتقبّض عليه سنة تسع وعشرين وسبعمائة وأودعه سجنه ، فلم يزل معتقلاً إلى أن هلك من وجع أصابه قبيل فتح تلمسان ، ومهلك السلطان بأيام ، فكانت آية عجباً في تقارب مهلكها واقتران سعادتها ونحوسها . وقد كان السلطان أبو الحسن يتبع الموالي الذين شهدوا مقتل السلطان أبي حمو ، وأفلت هلال هذا من عقابه بموته . والله بالغ حكمه .

(١) وفي نسخة ثانية : وجأجأ .

(٢) وفي نسخة ثانية : وأرهب الناس سطوته .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : حوته .

الخبر عن انتراء عثمان بن جرار على ملك تلمسان بعد نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان وعود الملك بذلك لبني زيان

كان بنو جرار هؤلاء من فضائل نيدوكسن^(١) بن طاع الله وهم بنو جرار بن يعلى بن نيدوكسن ، وكان بنو محمد بن زكرازيقون إليهم من أول الأمر ، حتى صار الملك إليهم واستبدوا به ، فجزّوا على جميع الفصائل من عشائهم ذيل الاحتقار . ونشأ عثمان بن يحيى بن محمد بن جرّار هذا من بينهم مرموقاً بعين التجلّة والرياسة ، وسعى عند السلطان أبي تاشفين بأن في نفسه تطاولاً للرياسة فاعتقله مدّة . وفرّ من محبسه فلحق بملك المغرب السلطان سعيد فأثر محله وأكرم منزله ، واستقرّ بمشواه فنسك وزهد . واستأذن السلطان عند تغلبه على تلمسان في الحج بالناس فأذن له . وكان قائد الركب من المغرب إلى مكة سائر أيامه حتى استولى السلطان أبو الحسن على أعمال الموحّدين ، وحشد أهل المغرب من زنّاة والعرب لدخول أفريقية اندرج عثمان هذا في جملته ، واستأذنه قبيل القيروان في الرجوع إلى المغرب فأذن له ولحق بتلمسان فترّل على أميرها من ولد الأمير أبي عنان ، كان قد عقد له على عملها ، ورشّحه لولاية العهد بولايّتها ، فازدلف إليه بما بثّه من الخبر عن أحوال أبيه ، وتلطّف فيما أودع سمعه من تورّط أبيه في مهالك أفريقية ، وإيأسه من خلاصه ، ووعدّه بمصير الأمر إليه على ألسنة الخبراء والكهّان . وكان يظنّ فيه أنّ لديه من ذلك علماً ، وعلى تفيّته ذلك كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان . وظهر مصداق ظنّه وإصابته قياسه فأغراه بالتوتّب على ملك أبيه بتلمسان ، والبدار إلى فاس لغلب منصور ابن أخيه أبي مالك عليها ، كان استعمله جدّه أبو الحسن هنالك وأراه آية سلطانه وشواهد ملكه ، وتحيل عليه في إشاعة مهلك السلطان أبي الحسن والقائه على الألسنة حتى أوهم صدقه . وتصدّى الأمير أبو عنان للأمر ، وتسايّل إليه الفلّ من عساكر بني مرين ، فاستلحق وبث العطاء وأعلن بابا لدعاء نفسه في ربيع سنة تسع وأربعين وسبعمائة وعسكر خارج تلمسان للنهوض إلى المغرب كما نذكّره في أخبارهم ولما فصل دعا عثمان لنفسه وانتزى على كرسيه واتخذ الآلة وأعاد من ملك بني عبد الواد رسماً لم

(١) كذا في النسخة الباريسية نيدوكسن وفي نسخة أخرى : تيدوكسن .

يكن لآل جرار ، واستبدَّ أشهراً قلائل إلى أن خلاص إليه من آل زيان من ولد عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن من طمس معاملة ، وخسف به وبداره ، وأعاد أمر بني عبد الواد في نصابه حسبما ذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

* (الخبر عن دولة أبي سعيد وأبي ثابت من آل يغمراسن وما فيها من الأحداث) *

كان الأمير أبو يحيى جدّهما من أكبر ولد يغمراسن بن زيان ، وكان ولي عهده بعد مهلك أخيه عمر الأكبر . ولما تغلب يغمراسن على سجلماسة سنة إحدى وستين وستمائة استعمله عليها ، فأقام بها حولاً وولد له هناك ابنه عبد الرحمن . ثم رجع إلى تلمسان فهلك بها ونشأ عبد الرحمن بسجلماسة ، ولحق بتلمسان بعد أمه ^(١) ، فأقام مع بني أبيه إلى أن غصّ السلطان بمكانه وغرّبه إلى الأندلس ، فمكث بها حيناً ، وهلك في مرابطته بثر قَرْمُونَة في بعض أيام الجهاد . وكان له بنون أربعة يوسف وعثمان والزعيم وإبراهيم ، فرجعوا إلى تلمسان وأوطنوها أعواماً حتى إذا استولى السلطان أبو الحسن على ملكهم ، وأضاف إلى دولته دولتهم نقلهم من تلمسان إلى المغرب في جملة أعيانهم . ثم سألوا إذنه في المراقبة بثرغور الأندلس التي في عمله ، فأذن لهم وفرض لهم العطاء وأنزلهم بالجزيرة فكانت لهم بالجهاد مواقف مذكورة ومواطن معروفة . ولما استنفر السلطان أبو الحسن زناتة لغزو أفريقية سنة ثمان وأربعين وسبعائة كانوا في جملة مع قومهم بني عبد الواد وفي رأيهم ، ومكانهم معلوم بينهم . فلما اضطرب أمر السلطان أبي الحسن وتآلب عليه الكعوب من بني سلّيم أعراب أفريقية ، وواضعوه الحرب بالقيروان ، كان بنو عبد الواد أوّل النازعين عنه إليهم . فكانت النكبة وانحجز بالقيروان وانطلقت أيدي الأعراب على الضواحي وانتقض المغرب من سائر أعماله ، أذنوا لبني عبد الواد في اللحاق بقطرهم ومكان عملهم ، فروا بتونس وأقاموا بها أياماً ، وخلص الملاء منهم نجياً في شأن أمرهم ومن يقدّمون عليهم فأصفقوا بعد الشورى على عثمان بن عبد الرحمن واجتمعوا إليه لعهد بهم يومئذ ، وقد خرجوا به

(١) وفي نسخة ثانية : بعد أبيه .

إلى الصحراء وأجلسوه بباب مصلى العيد من تونس على درقة . ثم ازدحموا عليه بحيث توارى شخصه عن الناس ، يسلّمون عليه بالإمارة ويعطونه الصفقة على الطاعة والبيعة حتى استهلوا^(١) جميعاً . ثم انطلقوا به إلى رحالهم . واجتمع مغراوة أيضاً إلى أميرهم عليّ بن راشد بن محمد بن ثابت بن مندبل الذي ذكرناه من قبل ، وتعاهدوا على الصحابة إلى أعمالهم والمهادنة آخر الأيام واستثار كل بسلطانه وتراث سلفه ، وارتحلوا على تفيئة ذلك إلى المغرب . وشنت البوادي عليهم الغارات في كل وجه ، فلم يظفروا منهم بقلامة ظفر : مثل ونيفن ونونة وأهل جبل بني ثابت . ولما مروا ببجاية وكان بها فلّ من مغراوة وتوجين ، نزلوا بها منذ غلبوا على أعمالهم ، وصاروا في جند السلطان فارتحلوا معهم . واعترضهم بجبل الزاب برابرة زواوة ، فأوقعوا بهم وظهر من نجبتهم وبلائهم في الحروب ما هو معروف لأوليهم . ثم لحقوا بشلف فتلقتهم قبائل مغراوة ، وبايعوا لسلطانهم عليّ بن راشد فاستوسق ملكه .

وانصرف بنو عبد الواد والأميران أبو سعيد وأبو ثابت بعد أن أحكموا العقد^(٢) وأبرموا الوثاق مع عليّ بن راشد وقومه . وكان في طريقهم بالبطحاء أحياء سويد ومن معهم من أحلافهم قد نزلوا هناك مع شيخهم وترمار بن عريف ، منهمهم من تاسالت أمام جيوش السلطان أبي عثان فأجفلوا من هنالك ، ونزل بنو عبد الواد مكانهم ، وكان في جملتهم جماعة من بني جرار بن نيدوكسن كبيرهم عمران بن موسى ، ففرّ ابن عثمان بن يحيى بن جرار إلى تلمسان فعقد له على حرب أبي سعيد وأصحابه ، فترل الجند الذين خرجوا معه إلى السلطان أبي سعيد . وانقلب هو إلى تلمسان والقوم في أثره ، فأدرك بطريقه وقتل . ومّر السلطان إلى البلد فثارت العامة بعثان بن جرار فاستأمن لنفسه من السلطان فأمنه ودخل إلى قصر الملك آخر جمادى الأخيرة من سنة تسع وأربعين وستائة فاقعد أريكته وأصدر أوامره واستوزر واستكتب ، وعقد لأخيه أبي ثابت الزعيم على ما وراء بابه من متون^(٣) ملكها ، وعلى القبيل والحروب ، واقتصر هو على ألقاب الملك وأسمائه ولزم الدعة . وتقبّض لأوّل دخوله على عثمان بن يحيى بن جرار فأودعه المطبق إلى أن مات في رمضان من سته ، ويقال قتيلاً . وكان

(١) وفي نسخة ثانية : حتى استكملوا جميعاً .

(٢) وفي نسخة ثانية : العهد .

(٣) وفي نسخة ثانية : شؤون .

من أول غزوات السلطان أبي ثابت غزاته إلى كومية ، وذلك أن كبيرهم ابراهيم بن عبد الملك كان شيخاً عليهم منذ حين من الدهر ، وكان يتسب في بني عابد ، وهم قوم عبد المؤمن بن عليّ من بطون كومية . فلما وقع المهرج بتلمسان حسب أنه لا ينجلي غمامه^(١) وحديثه نفسه بالانتراء فدعا لنفسه ، وأضرَم بلاد كومية وما إليها من السواحل ناراً وفتنة . فجمع له السلطان أبو ثابت ونهض إلى كومية فاستباحهم قتلاً وسبياً واقتحم هُنيئاً ، ثم ندرومة بعدها . وتقبض على ابراهيم بن عبد الملك الخارج فجاء به معتقلاً إلى تلمسان وأودعه السجن ، فلم يزل به إلى أن قتل بعد أشهر . وكانت أمصار المغرب الأوسط وثغوره لم تزل على طاعة السلطان أبي الحسن والقيام بدعوته ، وبها حاميته وعمّاله وأقر بها إلى تلمسان مدينة وهران ، كان بها القائد عبد بن سعيد بن جانا من صنائع بني مَرين ، وقد ضبطها وثقفها وملأها أقواتاً ورجلاً وسلاحاً ، وملأ مرساها أساطيل ، فكان أول ما قدّموه من أعمالهم النهوض إليه فنهض السلطان أبو ثابت بعد أن جمع قبائل زنّانة والعرب ونزل على وهران وحاصرها أياماً . وكان في قلوب بني راشد أحلافهم مرض فدخلوا قائد البلد في الانقضاض على السلطان أبي ثابت ووعدوه الوفاء بذلك عند المناجزة ، فبرز وناجزهم الحرب فانهمز بنو راشد وجروا الهزيمة على من معهم وقتل محمد بن يوسف بن عَنان بن فارس أخي يغمراسن بن زِيّان من أكابر القرابة ، وانتهب المعسكر ونجا السلطان أبو ثابت إلى تلمسان إلى أن كان ما ذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن لقاء أبي ثابت مع الناصر ابن السلطان أبي الحسن وفتح وهران بعدها) *

كان السلطان أبو الحسن بعد وقعة القيروان قد لحق بتونس ، فأقام بها والعرب محاصرون له ينصبون الأعياص من الموحدين لطلب تونس واحداً بعد آخر كما ذكرناه في أخبارهم . وبينما هو مؤمّل الكربة ووصول المدد من المغرب الأقصى إذ بلغه الخبر بانتشار السكك أجمع ، وبانتقاض ابنه وحافده ، ثم استيلاء بني عَنان على المغرب

(١) وفي نسخة ثانية : لا تتجلى غيابه .

كله ، ورجوع بني عبد الواد ومغراوة وتوجين إلى ملكهم بالمغرب الأوسط ووفد عليه يعقوب بن علي أمير الزاودة ، فاتفق مع عريف بن يحيى ، أمير سويد وكبير مجلس السلطان ، على أن يغرياه بيعث ابنه الناصر إلى المغرب الأوسط . للدعوة التي كانت قائمة بأمصاره في الجزائر ووهْران وجبل وانشريس ، وكان به نصر بن عمر بن عثمان ابن عطية قائماً بدعوته ، وأن يكون عريف بن يحيى في جملة الناصر لمكانه من السلطان ومكان قومه من الولاية . وكان ذلك من عريف تفادياً من المقام بتونس فأجاب إليه السلطان وبعثهم جميعاً ، ولحق الناصر ببلاد حصين فأعطوه الطاعة وارتحلوا معه ، ولقيه آلاف والديالم وسويد فاجتمعوا إليه وتآلبوا معه ، وارتحلوا يريدون منداس . وبينما الأمير أبو ثابت يريد معاودة الغزو إلى وْهران إذ فجأه الخبر بذلك ، فطير به إلى السلطان أبي عَنان وجاءه العسكر من بني مرين مدداً صحبة أبي زيان ابن أخيه أبي سعيد ، كان مستقراً^(١) بالمغرب منذ نهوضهم إلى القيروان وبعث عنه أبوه فجاء مع المدد من العساكر والمال ، وهض أبو ثابت من تلمسان أول المحرم سنة خمسين وسبعمائة وبعث إلى مغراوة بالخبر فقعدها عن مناصرته ، ولحق ببلاد العطاف فلقية الناصر هنالك في جموعه بوادي ورك آخر شهر ربيع الأول ، فأنكشفت جموع العرب وانهموا ، ولحق الناصر بالزاب فترل على أبي مزني ببسكرة إلى أن أصبح به من رجالات سُلَيْم من أوصله إلى أبيه بتونس . ولحق عريف بن يحيى بالمغرب الأقصى ، واحتل عند السلطان أبي عَنان بمكانه من مجلسهم ، فحصل على البغية ورجع العرب كلهم إلى طاعة أبي ثابت وخدمته ، واستراب بصغير بن عامر بن ابراهيم فتقبض عليه وأشخصه معتقلاً مع البريد إلى تلمسان ، فاعتقل بها إلى أن أطلق بعد حين . وقفل أبو ثابت إلى تلمسان فتلوم بها أياماً ، ثم نهض إلى وْهران في جمادى من سته ، فحاصرها أياماً ، ثم افتتحها عنوة وعفا عن عليّ بن جانا^(٢) القائم بعد مهلك أخيه عبوا وعلى من معه ، وأطلق سبيلهم واستولى على ضواحي وْهران وما إليها ، ورجع إلى تلمسان وقد استحكت العداوة بينه وبين مغراوة ، وكان قد استجرها ما قدمناه من قعودهم عن نصره ، فنهض إليهم في شوال

(١) وفي نسخة ثانية : مستقراً .

(٢) وفي نسخة ثانية : علي بن أجانا .

من سسته والتقوا في عدوة وادي زهير^(١) فاقتتلوا ملياً . ثم انكشفت مغاوة ولحقوا بمعاقلهم واستولى أبو ثابت على معسكرهم وملك مازونة ، وبعث ببيعتها إلى أخيه السلطان أبي سعيد . وكان على أثر ذلك وصول السلطان أبي الحسن من تونس ، كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

الخبر عن وصول السلطان أبي الحسن من تونس ونزوله بالجزائر وما دار بينه وبين أبي ثابت من الحروب ولحقه بعد الهزيمة بالمغرب

كان السلطان أبو الحسن بعد واقعة القيروان طال مقامه بتونس وحصار العرب إياه ، واستدعاه أهل المغرب الأقصى وانتقض عليه أهل الجريد وبايعوا للفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى ، فأجمع الرحلة إلى المغرب وركب السفن من تونس أيام الفطر من سنة خمسين وسبعمائة فعصفت به الرياح وأدركه الغرق ، فغرق أسطوله على ساحل بجاية ونجا بدائه إلى بعض الجزائر هنالك ، حتى لحقه أسطول من أساطيله ، فنجا فيه إلى الجزائر وبها حمو بن يحيى بن العسري قائده وصنيعة أبيه ، فترل عليه . وبادر إليه أهل ضاحيتها من مليكشن والثعالبية ، فاستخدمهم وبث فيهم العطاء . واتصل خبره بونزمار بن عريف وهو في أحياء سويد ، فوفد عليه في مشيخة من قومه ، ووفد معه نصر بن عمر بن عثمان صاحب جبل وانشريس من بني تيغرين ، وعدي بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي الثائر بنواحي المرية من ولد عبد القوي ، فأعطوه الطاعة واستحثوه للخروج معهم ، فردّهم للحشد ، فجمعوا من إليهم من قبائل العرب وزناتة . وبينما الأمير أبو ثابت ببلاد مغاوة محاصراً لهم في معاقلهم إذ بلغه الخبر بذلك في ربيع سنة إحدى وخمسين وسبعمائة فعقد السلم معهم ورجع إلى قتال هؤلاء ، فأخذ على منداس وخرج إلى السرسو قبلة وانشريس . وأجفل أمامه ونزمار وجموع العرب الذين معه ، ولحق به هنالك مدد السلطان أبي عنان قائدهم يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطى ، فاتبع آثار العرب وشرّدهم . ولحقت أحياء حصين بمعاقلهم من جبل تيطرى ، ثم عطف على المرية ففتحها وعقد

(١) وفي نسخة ثانية : وادي رهيو .

عليها لعمر بن موسى الجلولي من صنائعهم . ثم نهض إلى حصين فاقتحم عليهم الجبل فلاذوا بالطاعة وأعطوا أبناءهم رهناً عليها ، فتجاوزهم إلى وطاء حمزة فدوّخها ، واستخدم قبائلها من العرب والبربر ، والسلطان أثناء ذلك مقيم بالجزائر . ثم قفل أبو ثابت إلى تلمسان وقد كان استراب بيحيى بن رحو وعسكره من بني مرين . وأنهم داخلوا السلطان أبا الحسن وبعث فيه إلى السلطان أبي عثان ، فأداله بعيسى بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب فبعثه قائداً على الحصنة المرينية ، فتقبّض على يحيى بن رحو ولحقوا مع أبي ثابت بتلمسان . ثم أجاز إلى المغرب وأوعز السلطان أبو الحسن إلى ابنه الناصر مع أوليائه من زنّاة والعرب فاستولى على المرية وقتل عثمان بن موسى الجلولي . ثم تقدّم إلى مليانة فملكها ، وإلى تيمزوغت كذلك . وجاء على أثره السلطان أبو الحسن أبوه ، وقد اجتمعت إليه الجموع من زغبة ومن زنّاة ومن عرب أفريقية سلّيم ورياح مثل : محمد بن طالب بن مهلهل ، ورجال من عشيرته ، وعمر بن عليّ بن أحمد الزواودي ، وأخيه أبي دينار ، ورجالات من قومها . وزحف على هذه التعبئة وابنه الناصر أمامه ، فأجفل عليه بن راشد وقومه مغراوة عن بلادهم إلى البطحاء ، وطير الخبر إلى أبي ثابت فوافاه في قومه وحشوده ، وزحفوا جميعاً إلى السلطان أبي الحسن وقومه ، فالتقى الجمعان بتيمغزين من شلف . وصابروا ملياً ، ثم انكشف السلطان أبو الحسن وقومه ، وطعن ولده الناصر بعض فرسان مغراوة وهلك آخر يومه . وقتل محمد بن عليّ بن العربي قائد أساطيله وابن البواق والقبائلي كاتباه . واستيبح معسكره وما فيه من متاع وحرم ، وخلص بناته إلى وانشريس ، وبعث بهن أبو ثابت إلى السلطان أبي عثان بعد استيلائه على الجبل . وخلص السلطان أبو الحسن إلى أحياء سويد ، بالصحراء فنجا به ونزمار بن عريف إلى سجلماسة كما يأتي ذكره في أخباره ، ودوّخ أبو ثابت بلاد بني توجين وقفل إلى تلمسان والله تعالى أعلم .

الخبر عن حروبهم مع مغراوة واستيلاء أبي ثابت على بلادهم
ثم على الجزائر ومقتل عليّ بن راشد بتنس على أثر ذلك

كان بين هذين الحيين من عبد الواد ومغراوة فتن قديمة سائر أيامهم ، قد ذكرنا الكثير

منها في أخبارهم . وكان بنو عبد الواد قد غلبوهم على أوطانهم حتى قتل راشد بن محمد في جلالة أمامهم بين زواوة . ولما اجتمعوا بعد نكبة القيروان على أميرهم علي بن راشد وجاؤه من أفريقية إلى أوطانهم مع بني عبد الواد ، ولم يطيعوهم حينئذ أن يغلبوهم رجعوا حينئذ إلى توثيق العهد وتأكيد العقد^(١) فأبرموه وقاموا على المواعدة والتظاهر على عدوهم ، وعروق الفتنة تنبسط من كل منهم^(٢) . ولما جاء الناصر من أفريقية وزحف إليه أبو ثابت ، قعد عنه علي بن راشد وقومه ، فاعتدّها عليهم وأسرها في نفسه . ثم اجتمع بعد ذلك للقاء السلطان أبي الحسن حتى انهزم ومضى إلى المغرب . فلما رأى أبو ثابت أنه قد كفى عدوّه الأكبر وفرغ إلى عدوّه الأصغر نظر في الانتقاض عليهم . فبينما هو يروم أسباب ذلك إذ بلغه الخبر أن بعض رجالات بني كمين^(٣) من مغراوة جاء إلى تلمسان فاغتالوه فحمى له أنفه وأجمع لحربهم . وخرج من تلمسان فاتحة إثنين وخمسين وسبعائة وبعث في أحياء زغبة من بني عامر وسويد ، فجاءه بفارسهم وراجلهم وظعائهم ، وزحف إلى مغراوة فخافوا من لقائه ، وتحصّنا بالجبل المطل على تنس ، فحاصروهم فيه أياماً اتصلت فيها الحروب وتعدّدت الوقائع . ثم ارتحل عنهم فجاء في نواحي البلد ، ودوّخ أقطارها ، وأطاعته مليانة والمرية وبرشك وشرشال . ثم تقدّم بجموعه إلى الجزائر فأحاط بها وفيها فلّ بني مرين وعبد الله بن السلطان أبي الحسن ، تركه هناك صغيراً في كفالة علي بن سعيد ابن جانا ، فغلبهم على البلد وأشخصهم في البحر إلى المغرب ، وأطاعته الثعالب ومليكش وقبائل حصّين . وعقد على الجزائر لسعيد بن موسى بن علي الكردي ، ورجع إلى مغراوة فحاصروهم بمعقلهم الأوّل بعد أن انصرف العرب إلى مشاتها ، فاشتدّ الحصار على مغراوة وأصاب مواشيهم العطش ، فانحطت دفعة واحدة من الجبل تطلب المورد فأصابهم الدهش . ونجا ساعتئذ علي بن راشد إلى تنس ، فأحاط به أبو ثابت أياماً . ثم اقتحمها عليه غلاباً متصف شعبان من سته ، فاستعجل المنية وتحامل على نفسه فذبح نفسه ، وافترقت مغراوة من بعده وصارت أوزاعاً في القبائل

(١) وفي نسخة بولاق المصرية : توثيق العقد وتأكيد العهد .

(٢) وفي نسخة أخرى : تنبض في كل منهم

(٣) وفي نسخة أخرى : بني كمي .

وقفل أبو ثابت إلى تلمسان إلى أن كان من حركة السلطان أبي عَنان ما ذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن استيلاء السلطان أبي عَنان على تلمسان وانقراض أمر بني عبد الواد ثانية

لما لحق السلطان أبو الحسن بالمغرب ، وكان من شأنه مع ابنه أبي عَنان إلى أن هلك بجبل هتانة على ما ذكره في أخبارهم . فاستوسق ملك المغرب للسلطان أبي عَنان وفرغ لعدوه وسما لاسترجاع المالک التي ابتزها أبوه وانترعها ممن توثب عليه ، وكان قد بعث إليه عليّ بن راشد من مكان امتناعه من جبل تنس يسأل منه الشفاعة ، ونذر بذلك أبو سعيد وأخوه ، فخرج أبو ثابت وحشد القبائل من زناتة والعرب منتصف ذي القعدة ، ونزل بوادي شلف . واجتمع الناس إليه وواصلته هناك بيعة تدلس في ربيع من سنة ثلاث وخمسين وسبعائة . غلب عليها الموحدون جانا الخراساني^(١) من صنائعه ، وبلغه من مكانه ذلك زحف السلطان أبي عَنان فرجع إلى تلمسان ، ثم خرج إلى المغرب . وجاء على أثره أخوه السلطان أبو سعيد في العساكر من زناتة ومعه بنو عامر من زغبة والفل من سويد ، إذ كان جمهورهم قد لحقوا بالمغرب لمكان عريف بن يحيى وابنه من ولاية بني مرين ، فرحفوا على هذه التعبية وزحف السلطان أبو عَنان في أمم المغرب من زناتة والعرب المعقل والمصامدة وسائر طبقات الجنود والحشد ، وانتهوا جميعاً إلى انكاد من بسيط وَجْدَة ، فكان اللقاء هنالك آخر ربيع الثاني من سنة ثلاث وخمسين وسبعائة واجتمع بنو عبد الواد على صدمة العساكر وقت القائلة ، وبعد ضرب الأبنية وسقاء الركاب وافترق أهل المعسكر في حاجاتهم ، فأعجلوهم عن ترتيب المصاف . وركب السلطان أبو الحسن لتلافي الأمر ، فاجتمع إليه أوشاب من الناس وانفض^(٢) سائر المعسكر ثم زحف إليهم فيمن حضره وصدقوهم القتال ، فاختلّ مصافهم ومنحوا أكتافهم وخاضوا بحر الظلماء . واتبع بنو مرين آثارهم وتقبّض على أبي سعيد ليلتشدّ مقيداً أسيراً إلى السلطان أبي

(١) وفي نسخة أخرى : غلب عليها الموحدون جابر الخراساني .

(٢) وفي نسخة بولاق المصرية : وانتقض .

عنان ، فأحضره بمشهد الملاء ووبخه . ثم نقل إلى محبسه وقتل لتاسعة من ليالي اعتقاله . وارتحل السلطان أبو عنان إلى تلمسان ، ونجا الزعيم أبو ثابت بمن معه من فل بني عبد الواد ومن خلص إليه منهم ذاهباً إلى بجاية ليجد في إيالة الموحدین وليجة من عدوه ، فبيته زواوة في طريقه والد عن أصحابه وأرجل عن فرسه^(١) وذهب راجلاً عارياً ومعه رفقاء من قومه منهم أبو زيان محمد ابن أخيه السلطان أبي سعيد ، وأبو حمو وموسى ابن أخيه يوسف ابن أخيه ، ووزيرهم يحيى بن داود بن فكن^(٢) وكان السلطان أبو عنان أوعز إلى صاحب بجاية يومئذ المولى أبي عبيدالله حافد مولانا السلطان أبي بكر بأن يأخذ عليهم الطرق ، ويذكي في طلبهم العيون ، فعثر عليهم بساحة البلد وتقبض على الأمير أبي ثابت الزعيم وابن أخيه محمد بن أبي سعيد ووزيرهم يحيى بن داود وأدخلوا إلى بجاية . ثم خرج صاحبها الأمير أبو عبدالله إلى لقاء السلطان أبي عنان ، واقتادهم في قبضة أسره فلقبه بمعسكره من ظاهر المرية^(٣) ، فأكرم وفادته وشكر صنيعه ، وانكفاً راجعاً إلى تلمسان فدخلها في يوم مشهود . وحمل يومئذ أبو ثابت ووزيره يحيى على جملين يتهاديان بهما بين سماطي ذلك المحمل ، فكان شأنهما عجباً . ثم سيقا ثاني يومهما إلى مصرعها بصحراء البلد ، فقتلا قعصاً بالرماح وانقرض ملك آل زيان ، وذهب ما أعاده لهم بنو عبد الرحمن هؤلاء من الدولة بتلمسان إلى أن كانت لهم الكرة الثالثة على يد أبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن المتوليها لهذا العهد على ما سذكروه ونستوفي من أخباره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن دولة السلطان أبي حمو الأخير مدبل الدولة بتلمسان في الكرة الثالثة لقومه وشرح ما كان فيها من الأحداث لهذا العهد

كان يوسف بن عبد الرحمن هذا في إيالة أخيه السلطان أبي سعيد بتلمسان هو

(١) وفي نسخة بولاق المصرية : فبيته زواوة في طريقه ، وأبعد عن صحبه وأرجل عن فرسه .

(٢) وفي نسخة ثانية : مكن .

(٣) وفي نسخة ثانية : المدية .

أخوه^(١) أبو حمو موسى ، وكان متكاسلاً عن طلب الظهور ، متجافياً عن التهاك في طلب الغزّ جانحاً إلى السكون ومذاهب أهل الخير ، حتى إذا عصفت بدولتهم رياح بني مرين ، وتغلّب السلطان أبو عنان عليهم وابترّهم ما كان بيدهم من الملك ، وخلص ابنه أبو حمو موسى مع عمه أبي ثابت إلى الشرق ، وقذفت النوى بيوسف مع أشراف قومه إلى المغرب فاستقرّ به . ولما تقبّض على أبي ثابت بوطن بجاية أغفل أمر أبي حمو من بينهم ونبت عنه العيون ، فنجا إلى تونس ونزل بها على الحاجب أبي محمد بن تافراكين ، فأكرم نزله وأحلّه بمكان أعياص الملك من مجلس سلطانه ، ووفّر جريته ، ونظم معه آخرين من فل قومه ، وأوعز السلطان أبو عنان إليه بإزعاجهم عن قرارهم في دولته ، فحمى لها أنفه وأبى عن الهزيمة لسلطانه ، فأغرى ذلك أبا عنان بمطالبة ، وكانت حركته إلى بلاد أفريقية ومناذرة العرب من رياح وسكّيم لعهدده ونقضهم لطاعته كما نستوفي أخباره .

ولما كانت سنة تسع وخمسين وسبعائة قبل مهلكه اجتمع أمر الزاودة من رياح إلى الحاجب أبي محمد بن تافراكين ، ورغبوه في لحاق أبي حمو موسى بن يوسف بالعرب من زغبة ، وأنهم ركابه لذلك ليحلب على نواحي تلمسان ، ويجعل السلطان أبي عنان شغلاً عنهم . وسألوه أن يجهّز عليه بعض آلة السلطان . ووافق ذلك رغبة صغير بن عامر أمير زغبة في هذا الشأن ، وكان يومئذ في أحياء يعقوب بن عليّ وجواره ، فأصلح الموحدون شأنه بما قدروا عليه ودفعوه إلى مصاحبة صغير وقومه من بني عامر ، وارتحل معهم من الزاودة عثمان بن سباع ومن أحلافهم بنو سعيد دعار بن عيسى بن رحاب وقومه ونهضوا بجمعهم يريدون تلمسان وأخذوا على القفر ولقيهم أثناء طريقهم الخبر عن مهلك السلطان أبي عنان فقويت عزائمهم على ارتجاع ملكهم ، ورجع عنهم صولة بن يعقوب . وأغذّ السير إلى تلمسان وبها الكتابات المحمّرة من بني مرين ، واتصل خبر أبي حمو بالوزير الحسن بن عمر القائم بالدولة من بعد مهلك السلطان أبي عنان ، والمتغلّب على ولده السعيد من بعده ، فجهّز المدد إلى تلمسان من الحامية والأموال ، ونهض أولياء الدولة من أولاد عريف بن يحيى أمراء البدو من المغرب في قومهم من سويد ومن إليهم من العرب لموافقة

١٠ وفي نسخة ثانية : هو وولده أبو حمو .

السلطان أبي حمو وأشياعه ، فانفضّ جمعهم وغلبوا على تلك المواطن واحتل
السلطان أبو حمو وجموعه بساحة تلمسان ، وأناخوا ركا بهم عليها ، ونازلوها ثلاثاً ،
ثم اقتحموها في صبيحة الرابع ، وخرج ابن السلطان أبي عنان الذي كان أميراً عليها
في لمة من قومه ، فترل على صغير بن عامر أمير القوم ، فأحسن تجلّته وأصبحه من
عشيرته إلى حضرة أخيه^(١) ، ودخل السلطان أبو حمو تلمسان لثمان خلون من الربيع
الأول سنة ستين وسبعائة واحتلّ منها بقصر ملكه ، واقتعد أريكه ، وبويع بيعة
الخلافة ، ورجع إلى النظر في تمهيد قواعد ملكه واخراج بني مرين من أمصار
مملكته . والله أعلم .

* (الخبر عن اجفال أبي حمو عن تلمسان أمام عساكر
المغرب ثم عوده إليها) *

كان القائم بأمر المغرب بعد السلطان أبي عنان وزيره الحسن بن عمر كافل ابنه
السعيد الذي أخذ له البيعة على الناس ، فاستبدّ عليه وملك أمره ، وجرى على
سياسة السلطان الهالك واقتفى أثره في الممالك الدانية والقاصية في الحماية والنظر لهم
وعليهم . ولما اتصل به خبر تلمسان وتغلّب أبي حمو عليها قام في ركائبه وشاور الملائ في
النهوض إليه ، فأشاروا عليه بالقعود وتسريح الجنود والعساكر ، فسرح لها ابن عمه
مسعود بن رحو بن علي بن عيسى بن ماساي بن فودود^(٢) وحكمه في اختيار الرجال
واستجادة السلاح وبذل الأموال واتخاذ الآلة ، فزحف إلى تلمسان واتصل الخبر
بالسلطان أبي حمو وأشياعه من بني عامر ، فأفرج عنها ولحق بالصحراء . ودخل
الوزير مسعود بن رحو تلمسان وخالفه السلطان أبي حمو إلى المغرب ، فترل بسيط
أنكاد . وسرح إليهم الوزير مسعود بن رحو ابن عمه عامر بن عبد بن ماساي في
عسكر من كتائبه ووجوه قومه ، فأوقع بهم العرب وأبو حمو ومن معهم واستباحوهم .
وطار الخبر إلى تلمسان واختلفت أهواء من كان بها من بني مرين ، وبدا ما كان في
قلوبهم من المرض لتغلّب الحسن بن عمر على سلطانهم ، ودولتهم فتحيزوا زرافات

(١) وفي نسخة ثانية : ابيه .

(٢) وفي نسخة ثانية : فردود .

لمبايعة بعض الأعياص من آل عبد الحق . وفطن الوزير مسعود بن رحو لما دبّره ، وكان في قلبه مرض من ذلك فاغتنمها وباع لمنصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق كبير الأعياص المنفرد بالتجلة . وارتحل به وبقومه من بني مرين إلى المغرب ، وتجاوى عن تلمسان وشأنها واعترضه عرب المعقل في طريقهم إلى المغرب ، فأوقع بهم بنو مرين وصمّموا لصلبهم ، ورجع السلطان أبو حمّو إلى تلمسان ، واستقرّ بحضرته ودار ملكه ، ولحق به عبدالله بن مسلم فاستوزره وأسام إليه فاشتدّ به أزره وغلب على دولته كما نذكره إلى أن هلك ، والبقاء لله وحده .

الخبر عن مقدم عبدالله بن مسلم من مكان عمله بدرعة ونزوله من ايالة بني مرين إلى أبي حمو وتقليده إياه الوزارة وذكر أوليته ومصاير أموره

كان عبدالله بن مسلم من وجوه بني زردال من بني بادين إخوة بني عبد الواد وتوجين ومصاب ، إلا أن بني زردال أندرجوا في بني عبد الواد لقلّتهم واختلطوا بنسبهم ، ونشأ عبدالله بن مسلم في كفالة موسى بن علي لعهد السلطان أبي تاشفين مشهوراً بالبسالة والإقدام ، طار له بها ذكر وحسن بلاؤه في حصار تلمسان . ولما تغلب السلطان أبو الحسن على بني عبد الواد وابترهم ملكهم استخدمهم ، وكان يتقي أولي الشجاعة والإقدام منهم ، فيرمي بهم ثغور المغرب ، ولما اعتراض بنو عبد الواد ومرّ به عبدالله هذا ذكر له شأنه ونعت بياسه ، فبعثه إلى درعة واستوصى عامله به ، فكان له عنه غناء في مواقفه مع خوارج العرب وبلاء حسن ، جذب ذلك بضبعه ، ورقى عند السلطان منزلته ، وعرفه على قومه .

ولما كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان ومرج أمر المغرب ، وتوثّب أبو عنّان على الأمر ، وبويع بتلمسان واستجمع حافده منصور بن أبي مالك عبد الواحد لدفاعته ، وحشد حامية الثغور للقاءه ، وانفضّت جموعه بتأزى وخلص إلى البلد الجديد ونازله ، وكان عبدالله بن مسلم في جملته . ولما نازله السلطان أبو عنّان واتصلت الحرب بينهم أياماً ، كان له فيها ذكر . ولما رأى أنه أحيط بهم ، سابق لناس إلى السلطان أبي عنّان فرأى سابقيته وقلّده عمل درعة ، فاضطلع بها مدّة

خلافته وتأكدت له أيام ولايته مع عرب المعقل وصلة وعهد ضرب بهما في مواخاتهم بسهم . وكان السلطان أبو عَنان عند خروج أخيه أبي الفضل عليه لحقه بسجل ابن حميدي من معاقل درعة ، أوغز إليه بأن يعمل الحيلة في القبض عليه ، فداخل ابن حميدي ووعده وبذل له فأجاب وأسلمه . وقاده عبدالله بن مسلم أسيراً إلى أخيه السلطان أبي عَنان فقتله . ولما استولى السلطان أبو سالم رفيق أبي الفضل في منوى اغترابهما بالأندلس على بلاد المغرب من بعد مهلك السلطان أبي عَنان ، وما كان أثره من الخطوب ، وذلك آخر سنة ستين وسبعائة خشيته ابن مسلم على نفسه ، ففارق ولايته ومكان عمله وداخل أولاد حسين أمراء المعقل في النجاة به إلى تلمسان فأجابوه ، ولحق بالسلطان أبي حموي ثروة من المال وعصبة من العشيرة وأولياء من العرب ، فسرّ بمقدمه وقلّده لحينه وزارته وشدّ به أواخيه سلطانه ، وفوّض إليه تدبير ملكه ، فاستقام أمره وجمع القلوب على طاعته وجاء بالمعقل من مواطنهم الغريبة ، فأقبلوا عليه وعكفوا على خدمته . وأقطعهم مواطن تلمسان وآخى بينهم وبين زغبة ، فعلا كعبه واستفحل أمره ، واستقامت رياسته إلى أن كان من أموره ما نذكره إن شاء الله تعالى والله تعالى أعلم .

الخبر عن استيلاء السلطان أبي سالم على تلمسان ورجوعه الى المغرب بعد أن ولي عليها أبو زيان حافد السلطان أبي تاشفين وما آل أمره

لما استوسق للسلطان أبي سالم ملك المغرب ومحا أثر الخوارج على الدولة ، سما إلى امتداد ظلّه إلى أقصى تخوم زناتة كما كان لأبيه وأخيه ، وحركه إلى ذلك ما كان من فرار عبدالله بن مسلم إلى تلمسان بحيلة^(١) عمله ، فأجمع أمره على النهوض إلى تلمسان وعسكر بظاهر فاس منتصف إحدى وستين وسبعائة وبعث في الحشود فتوافت ببابه واكتملت . ثم ارتحل إليها ، وبلغ الخبر الى السلطان أبي حمو ووزيره عبدالله ابن مسلم فنادوا في العرب من زغبة والمعقل كافة فأجابوهم إلاّ شرذمة قليلة من

(١) وفي نسخة ثانية : بجاية .

الأحلاف ، وخرجوا بهم إلى الصحراء ونازل حللهم بعسكره . ولما دخل السلطان أبو سالم وبنو مرين تلمسان خالفوهم إلى المغرب فنازلوا وطّاط وبلاد مَلْوِيَّة وكرسيف ، وحطّموا زروعها وانتسفوا أبقواتها وخرّبوا عمرانها . وبلغ السلطان أبا سالم ما كان من صنيعهم ، فأهمّه أمر المغرب وأجلاب المفسدين عليه . وكان في جملته من آل يغمراسن محمد بن عثمان ابن السلطان أبي تاشفين ويكنى بأبي زيّان ، ويعرف بالفتّر^(١) ومعناه العظيم الرأس فدفعه للأمر وأعطاه الآلة وكتب له كتيبة من توجين ومغراوة كانوا في جملته ، ودفع إليه أعطياتهم وأنزله بقصر أبيه بتلمسان وانكفأ راجعاً إلى حضرته ، فأجفلت العرب والسلطان أبو حمو أمامه وخالفوه إلى تلمسان فأجفل عنها أبو زيّان وتحيز إلى بني مرين بأمصار الشرق من البطحاء ومليانة ووهران وأولياتهم من بني توجين وسويد من قبائل زغبة . ودخل السلطان أبو حمو ووزيره عبدالله بن مسلم إلى تلمسان ، وكان مقير^(٢) بن عامر هلك في مذهبيهم ذلك . ثم خرجوا فيمن إليهم من كافة عرب المعقل وزغبة في أتباع أبي زيّان ونازلوه بجبل وانشرس فيمن معه إلى أن غلبوا عليه وانقضّ جمعه ، ولحق بمكانه من إيالة بني مرين بفاس . ورجع السلطان أبو حمو إلى معاقل وطنه يستنقذها من ملكة بني مرين ، فافتتح كثيرها وغلب على مليانة والبطحاء . ثم نهض إلى وهران ونازلها أياما واقتحمها غلاباً ، واستلحم بها من بني مرين عدداً . ثم غلب على المرية والجزائر ، وأزعج عنها بني مرين فلحقوا بأوطانهم . وبعث رسله إلى السلطان أبي سالم فعقد معه المهادنة^(٣) ووضعوا أوزار الحرب . ثم كان مهلك السلطان أبي سالم سنة إثنين وستين وسبعائة ، وقام بالأمر من بعده عمر بن عبدالله بن علي من أبناء وزرائهم مبايعاً لولد السلطان أبي الحسن واحداً بعد آخر كما نذكره عند ذكر أخبارهم إن شاء الله تعالى .

الخبر عن قدوم أبي زيّان ابن السلطان أبي سعيد من المغرب لطلب ملكه وما كان من أحواله

كان أبو زيّان هذا ، وهو محمد ابن السلطان أبي سعيد عثمان بن عبد

(١) وفي نسخة أخرى : القبي وفي نسخة ثانية الفتى .

(٢) وفي نسخة أخرى : صغير .

(٣) وفي نسخة أخرى : السلم .

الرحمن بن يحيى بن يغمراسن ، لما تقبّض عليه مع عمه أبي ثابت ووزيرهم يحيى بن داود بجاية من أعمال الموحدّين ، وسيقوا إلى السلطان أبي عتّان ، فقتل أبا ثابت ووزيره واستبقى محمداً هذا وأودعه السجن سائر أيامه ، حتى إذا هلك واستوسق أمر المغرب لأخيه أبي سالم من بعد خطوط وأهوال يأتي ذكرها ، امتنّ عليه السلطان أبو سالم وأطلقه من الاعتقال ونظمه بمجلس ملكه في مراتب الأعياص وأعدّه لمزاحمة ابن عمه . وجرت بينه وبين السلطان أبي حموسة إثنتين وستين وسبعمائة بين يدي مهلكه نكراء بعد مرجعه من تلمسان ، ومرجع أبي زيّان حافد السلطان أبي تاشفين من بعده ، تحقق السعي فيما نصبه له ، فسمّا له أمل في أبي زيّان هذا أن يستأثر بملك أبيه ، ورأى أن يحسن الصنيع فيه فيكون فيثّة له ، فأعطاه الآلة ونصبه للملك ، وبعثه إلى وطن تلمسان ، وأتى إلى تازي ولحقه هنالك الخبر بمهلك السلطان أبي سالم . ثم كانت فتن وأحداث نذكرها في محلّها وأجلب عبد الحلّيم ابن السلطان أبي علي ابن السلطان أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق على فاس ، واجتمع إليه بنو مرين ونازلوا البلد الجديد . ثم انفضّ جمعهم ولحق عبد الحلّيم بتازي كما نذكره في موضعه إن شاء الله تعالى . ورجا من السلطان أبي حمو المظاهرة على أمره فراسله في ذلك واشترط عليه كبح ابن عمه أبي زيّان فاعتقله مرضاة له ، ثم ارتحل إلى سجلماسة كما نذكره بعد ونازله في طريقه أولاد حسين من المعقل بحلّهم وأجياهم فاستغفل أبو زيّان ذات يوم الموكّلين به ، ووئب على فرس قائم حذاءه وركضه من معسكر عبد الحلّيم إلى حلة أولاد حسين مستجيراً بهم ، فأجاروه . ولحق بيني عامر على حين غفلة ، وجفوة كانت بين السلطان أبي حمو وبين خالد بن عامر أميرهم ذهب لها مغاضباً ، فأجلب به على تلمسان . وسرّح إليهم السلطان أبو حمو عسكرياً فشردهم عن تلمسان . ثم بذل المال لخالد بن عامر على أن يقصيه إلى بلاد رياح ، ففعل وأوصله إلى الزواودة فأقام فيهم . ثم دعاه أبو الليل بن موسى شيخ بني يزيد وصاحب وطن حمزة وبني حسن وما إليه ، ونصبه للأمر مشاقة^(١) وعناداً للسلطان أبي حمو . ونهض إليه الوزير عبد الله بن مسلم في عساكر بني عبد الواد وحشود العرب وزناة فأيقن أبو الليل بالغلب

(١) وفي نسخة ثانية : مشافهة .

وبذل له الوزير المال وشرط له التجافي عن وطنه على أن يرجع عن طاعة أبي زيّان ففعل ، وانصرف إلى بجاية ونزل بها على المولى أبي اسحق ابن مولانا السلطان أبي يحيى أكرم نزل ، ثم وقعت المراسلة بينه وبين السلطان أبي حمو وتمت المهادنة وانعقد السلم على إقصاء أبي زيّان عن بجاية المتاخمة لوطنه ، فارتحل إلى حضرة تونس . وتلقاه الحاجب أبو محمد بن تافراكين ، قيوم دولة الحفصيين لذلك العهد من المبرّة والترحيب واسناء الجراية له ، وترفع المنزلة بما لم يعهد لمثله من الأعياص . ثم لم تزل حاله على ذلك إلى أن كان من أمره ما ذكره ان شاء الله تعالى .

الخبر عن قدوم أبي زيّان حافد السلطان أبي تاشفين ثانية من المغرب الى تلمسان لطلب ملكها وما كان من أحواله

كان العرب من سويد إحدى بطون زغبة فيئة لبني مرين وشيعة من عهد عريف بن يحيى مع السلطان أبي الحسن وابنه أبي عئان ، فكانوا عند بني عبد الواد في عداد عدوهم من بني مرين مع طاغية^(١) الدولة لبني عامر أقاتلهم ، فكانوا منابذين لبني عبد الواد آخر الأيام ، وكان كبيرهم وتزمار بن عريف أوطن كرسيف في جوار بني مرين ، مذ مهلك السلطان أبي عئان ، وكان مرموقاً بعين التجلّة يرجعون إلى رأيه ويستمعون إلى قوله . وأهمه شأن إخوانه في موطنهم ومع أقاتلهم بني عامر ، فاعترم على نقض الدولة من قواعدها ، وحمل صاحب المغرب عمر بن عبدالله على أن يسرح محمد بن عثمان حافد أبي تاشفين لمعاودة الطلب للملكه ، ووافق ذلك نفرة استحكت بين السلطان أبي حمو وأحمد بن رحو بن غانم كبير أولاد حسن من المعقل بعد أن كانوا فيئة له ولوزيره عبدالله بن مسلم ، فاغتنمها عمر بن عبدالله وخرج أبو زيّان محمد بن عثمان سنة خمس وستين وسبعائة فتزل في حلال المعقل بملوية . ثم نهضوا به إلى وطن تلمسان وارتاب السلطان أبو حمو بخالد بن عمر أمير بني عامر فتقبّض عليه وأودعه المطبق^(٢) ، ثم سرح وزيره عبدالله بن مسلم في عساكر بني عبد الواد

(١) وفي نسخة ثانية : صاغية .

(٢) سجن تحت الأرض .

والعرب ، فأحسن دفاعهم وانفضت جموعهم ورحلهم إلى ناحية الشرق ، وهو في اتباعهم إلى أن نزلوا المسيلة من وطن رياح ، وصاروا في جوار الزواودة . ثم نزل بالوزير عبدالله بن مسلم داء الطاعون الذي عاود أهل العمران عامئذ من بعدما أهلكهم سنة تسع وأربعين وسبعمائة قبلها ، فانكفأ به ولده وعشيرته راجعين ، وهلك في طريقه وأرسلوا شلوه إلى تلمسان فدفن بها . وخرج السلطان أبو حمو إلى مدافعة عدوّه وقد فت مهلك عبدالله في عضده . ولما انتهى إلى البطحاء وعسكر بها ، ناجزته جموع السلطان أبي زيان الحرب وأطلت راياته على المعسكر فدخلهم الرعب وانفضوا ، وأعجلهم الأمر عن أبينتهم وأزوادهم ، فتركوها وانفضوا وتسلسل أبو حمو ينبغي النجاة إلى تلمسان واضطرب أبو زيان فسطاطه بمكان معسكره ، وسابقه أحمد بن رحو أمير المعقل إلى منجاته فلققه بسيك وكرّ إليه السلطان أبو حمو فيمن معه من خاصته ، وصدقوه الدفاع فكبا به فرسه وقطع رأسه . ولحق السلطان أبو حمو بحضرته وارتحل أبو زيان والعرب في اتباعه إلى أن نازلوه بتلمسان أياماً . وحدثت المنافسة بين أهل المعقل وزغبة ، واسف زغبة استبداد المعقل عليهم وانفراد أولاد حسين برأي السلطان دونهم ، فاغتنمها أبو حمو وأطلق أميرهم عامر بن خالد من محبسه ، وأخذ عليه الموثق من الله ليخذلّ الناس عنه ما استطاع ، وليرجعنّ بقومه عن طاعة أبي زيان وليفرقنّ جموعه ، فوقى له بذلك العهد ونفس عليه المخنق وتفرقت أحزابهم ورجع أبو زيان إلى مكانه من إيالة بني مرين واستقام أمر السلطان أبي حمو وصلحت دولته بعد الالتياث ، إلى أن كان من أمره ما تذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن حركة السلطان أبي حمو على ثغور المغرب) *

كان ونزمار بن عريف متولي كبر هذه الفتن على أبي حمو ، وبعث الأعياص عليه واحداً بعد واحد ، لما كان بينهم من العداوة المتصلة كما قدّمناه . وكان منزله كرسيف من ثغور المغرب . وكان جاره محمد بن زكرازا^(١) كبير بني علي من بني ونكاسن

(١) وفي نسخة ثانية : زكدان .

الموطنين بجبل دبدو ، وكانت أيديهما عليه واحدة فلما سكن غرّب الثوار عنه وأزاحهم عن وطنه إلى المغرب ، وانعقد سلمه معهم ، رأى أن يعتور هذين الأميرين في ثغورهما ، فاعتمل الحركة إلى المغرب فاتح سنة ست وستين وسبعائة ونهى إلى دبدو وكرسيف ، وأجفل ونزمار وامتنع بمعاقل الجبال ، فانتهب أبو حمّو الزروع وشمل بالتخريب والعيث سائر النواحي . وقصد محمد بن زكراز أيضاً في معقل دبدو فامتنع بحصنه الذي اتخذته هناك ، وعاج عليه أبو حمّو بركابه ، وجاس خلال وطنه ، وشمل بالتخريب والعيث نواحي بلده ، وانكفأ راجعاً إلى حضرته ، وقد عظمت في تخوم بني مرين وثغورهم نكايته ، وثقلت عليهم وطأته ، وانعقدت بينها بعد بدء المهادنة والسلم . فانصرفت عزائمها إلى بلاد أفريقية ، فكانت حركته إلى بجاية من العام المقبل ونكبتة عليها كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن حركة السلطان أبي حمّو إلى بجاية ونكبتة عليها) *

كان صاحب بجاية المولى الأمير أبو عبدالله لما استولى عليها وعادت إليه العودة الثانية سنة خمس وستين وسبعائة كما ذكرناه في أخباره ، زحف إلى تدلس ، فغلب عليها بني عبد الواد ، وأنزل بها عامله وحاميته . ثم أظلم الجوّ بينه وبين صاحب قسنطينة السلطان أبي العباس ابن عمّه الأمير أبي عبدالله لما جرّته بينهما المتاخمة في العائلات ، فنشأت بينهما فتن وحروب شغل بها عن حماية تدلس ، وألحت عليها عسكر بني عبد الواد بالحصار . وأحيط بها فأوفد رسله على السلطان أبي حمّو صاحب تلمسان في المهادنة على النزول له عن تدلس ، فتسلّمها أبو حمّو وأنزل بها حاميته . وعقد معه السلم وأصهر إليه في ابنته فأجابها ، وزقّها إليه فتلقّاها قبلة زاوية بآخر عملهم من حدود بجاية . وفرغ صاحب بجاية لشأنه ، وكان أثناء الفتنة معه قد بعث إلى تونس عن أبي زيان ابن عمّه السلطان أبي سعيد لينزله بتدلس ، ويشغل به السلطان أبا حمّو عن فتنته .

وكان من خبر أبي زيان هذا أنه أقام بتونس بعد مهلك الحاجب أبي محمد بن تافراكين كما ذكرناه إلى أن دسّ إليه مرضى القلوب من مشيخة بني عبد الواد

بتلمسان بالإجلاب على السلطان أبي حمو. ووعده عن أنفسهم الجنوح معه ، فصنى إليها واعتدّها وارتحل يريد تخوم تلمسان وعمل بجاية . ومرّ بقسنطينة فتجافى عن الدخول إليها ، وتنكّر لصاحبها ، وبلغ خبره السلطان أبا العباس صاحبها يومئذ فأجمع أمره على صدّه عن وجهه ، وحبسه بقسنطينة واتصلت الفتنة بينه وبين ابن عمه صاحب بجاية ، وكان شديد الوطأة على أهل بلده مرهف الحدّ لهم بالعقاب الشديد ، حتى لقد ضرب أعناق خمسين منهم قبل أن يبلغ ستين في ملكه ، فاستحكمت النفرة وساءت الملكة ، وعضل الداء وفزع أهل البلد إلى مداخلة السلطان أبي العباس باستفادهم من ملكة العسف والهلاك ، بما كان أتيح له من الظهور على أميرهم ، فنهض إليها آخر سنة سبع وستين وسبعائة وبرز الأمير أبو عبدالله للقائه وعسكر بنا مروا^(١) الجبل المطل على تآكردت^(٢) وصبحه السلطان أبو العباس بمعسكره هنالك ، فاستولى عليه وركّض هو فرسه ناجياً بنفسه . ومَرّت الخيل^(٣) تعادي في أثره حتى أدركوه ، فأحاطوا به وقتلوه قعصاً بالرماح عفا الله عنه . وأجاز السلطان أبو العباس إلى البلد فدخلها منتصف يوم العشرين من شعبان ، ولاذ الناس به من دهش الواقعة وتمسّكوا بدعوته ، وآتوه طاعتهم ، فأنجلت القيامة واستقام الأمر ، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي حمو فأظهر الامتناع لمهلكه والقيام بثأره وسير من ذلك حشوده في ارتقاء ونهض يجرّ الأمم إلى بجاية من العرب وزناته والحشد حتى أناخ بها وملأت مخيماته^(٤) الجهات بساحتها ، وجنح السلطان إلى مبارزته ، فتمهّد به أهل البلد ولاذوا بمقامه فأسعفهم وطير البريد إلى قسنطينة ، فأطلق أبا زيّان من الاعتقال وسوّغه الملابس والمراكب والآلة ، وزحف به موله بشير في عسكر إلى أن نزل حذاء معسكر أبي حمو واضطربوا محلهم بسفح جبل بني عبد الجبار وشنوا الغارات على معسكر أبي حمو صباحاً ومساءً لما كان نمي إليهم من مرض قلوب جنده والعرب الذين معه . وبدا للسلطان أبي حمو ما لم يحتسب من امتناعها ، وكان تقدّم إليه بعض سماسرة الفتن بوعد على لسان المشيخة من أهل البلد أطمعه فيها ، ووثق بأن ذلك يغنيه عن الاستعداد ، فاستبق إليها وأغفل الحزم فيما دونها ، فلما امتنعت عليه

(١) وفي نسخة ثانية : بليزو .

(٢) وفي نسخة ثانية : تآكررت .

(٣) وفي نسخة ثانية : الجنود .

(٤) وفي نسخة ثانية : وملأ بخيامه .

انطبق الجوّ على معسكره وفسدت السابلة على العير للميرة ، واستجم الزبون في احياء معسكره بظهور العدو المساهم في الملك . وتفاوت رجالات العرب من سوء المغبة وسطوة السلطان ، فتمشوا بينهم في الانفضاض وتحنوا لذلك وقت المناوشة ، وكان السلطان لما كذبه وعد المشيخة أجمع قتالهم ، واضطرب الفساطيط مضايقة للأسوار ، متسمة وعراً من الجبل لم يرضه أهل الرأي . وخرج رجل الجبل على حين غفلة فجاولوا من كان بتلك الأخبية من المقاتلة فانهزموا أمامهم وتركوها بأيديهم فزقوها بالسيوف . وابتدأ العرب على البعد انتهاب الفساطيط فأجفلوا وانفضّ المعسكر بأجمعه . وحمل السلطان أبو حمو أثقاله للرحلة فأجهضوه عنها فتركها ، وانتهب مخلفه أجمع . وتصايح الناس بهم من كل حدب ، وضائق المسالك من ورائهم وأمامهم ، وكظّت بزحامهم ، وتواقعوا لجنوحهم ، فهلك الكثير منهم وكانت من غرائب الوقائع ، تحدث الناس بها زماناً وسيقت حظاياه إلى بجاية ، واستأثر الأمير أبو زيان منهنّ بحظيته الشهيرة ابنة يحيى الزابي ، ينسب إلى عبد المؤمن بن علي . وكان أصهر فيها إلى أبيها أيام تقلبه في سبيل الاغتراب ببلاد الموحدين كما سبق ، وكانت أعلق بقلبه من سواها ، فخرجت في مغنم الأمير أبي زيان . وتخرج عن موافقتها حتى أوجده أهل الفتيا السبيل إلى ذلك لحث زعموا وقع من السلطان أبي حمو في نسائه . وخلص السلطان أبو حمو من هوة ذلك العصب بعد غصة الريق ، ونجا إلى الجزائر لا يكاد يردّ النفس من شناعة ذلك الهول . ثم خرج منها ولحق بتلمسان ، واقتعد سرير ملكه واشتدّت شوكة أبي زيان ابن عمّه ، وتغلب على القاصية واجتمعت إليه العرب ، وكثر تابعه . وزاحم السلطان أبا حمو بتلك الناحية الشرقية سنين تبعاً نذكر الآن أخبارها ، إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن خروج أبي زيان بالقاصية الشرقية من

بلاد حصين وتغلبه على المرية والجزائر ومليانة وما كان

من الحروب معه) *

لما انهزم السلطان أبو حمو بساحة بجاية عشيّ يومه من أوائل ذي الحجة ، خاتم سنة سبع وستين وسبعائة قرع الأمير أبو زيان طبوله واتبع أثره ، وانتهى إلى بلاد حصين

من زغبة . وكانوا سائمين من الهزيمة والعسف اذا كانت الدول تجرهم
بحرى الرعايا المعبدة في المغرب ، وتعذل بهم عن سبيل إخوانهم من زغبة أمامهم
ووراءهم لبغية الغزو فبايعوه على الموت الأحمر ووقفوا بمعتصم^(١) من جبل تيطري إلى
أن دهمتهم عساكر السلطان . ثم أجلبوا على المرية^(٢) وكان بها عسكر ضخم للسلطان
أبي حمو لنظر وزرائه : عمران بن موسى بن يوسف ، وموسى بن برغوث ، ووادفل
ابن عيوب بن حماد ، ونازلوهم أياماً ثم غلبوهم على البلد . وملكها الأمير أبو زيان ومنّ
على الوزراء ومشیخة بني عبد الواد وترك سبيلهم إلى سلطانهم ، وسلك سبيلهم
الثعالبية في التجافي عن ذلّ المغرب ، فأعطوه يد الطاعة والانقياد للأمير أبي زيان ،
وكانت في نفوس أهل الجزائر نفرة من جور العمال عليهم ، فاستألمهم بها سالم بن
ابراهيم بن نصر أمير الثعالبية إلى طاعة الأمير أبي زيان . ثم دعا أبو زيان أهل مليانة
إلى مثلها فأجابوه . واعتمل السلطان أبو حمو نظره في الحركة الحاسمة لدائمهم^(٣) ،
فبعث في العرب وبذل المال ، وأقطع البلاد على أشطاط منهم في الطلب . وتحرك إلى
بلاد توجين ونزل قلعة بني سلامة سنة ثمان وستين وسبعمائة يحاول طاعة أبي بكر بن
عريف أمير سويد . فلم يلبث عنه خالد بن عامر ولحق بأبي بكر بن عريف ،
 واجتمعا على الخلاف عليه ونقض طاعته . وشنوا الغارة على معسكره ، فاضطرب
وأجفلوا وانتهبت محلاته وأثقاله ، ورجع إلى تلمسان . ثم نهض إلى مليانة فافتتحها ،
وبعث إلى رياح على حين صاغية^(٤) إليه من يعقوب بن علي بن أحمد وعثمان بن
يوسف بن سليمان بن علي أميرى الزواودة لما كان وقع بينهما وبين السلطان مولانا أبي
العباس من النفرة ، فاستنظره للحركة على الأمير أبي زيان وبعدها إلى بجاية .
وضممنوا له طاعة البدو من رياح ، وبعثوا إليه رهنهم على ذلك فردّها وثوقاً بهم ،
ونهب من تلمسان وقد اجتمع إليه الكثير من عرب زغبة . ولم يزل أولاد عريف بن
يحيى وخالد بن عامر في أحيائهما منحرفين عنه بالصحراء . وصمّم إليهم فاجفلوا
أمامه ، وقصد المخالفين من حصين والأمير أبا زيان إلى معتصمهم بجبل تيطري .

(١) وفي نسخة ثانية : ووثقوا بمعتصمهم .

(٢) المرية : مدينة كبيرة من بلاد الأندلس وليست هي المقصودة في بحثنا هذا والمقصود المدينة وهي بلدة من
بلاد توجين في المغرب الأوسط .

(٣) وفي نسخة بولاق المصرية : لرأيهم .

(٤) وفي نسخة ثانية : على حين طاعتهم إليه .

وأغذَّ إليه السير يعقوب بن علي وعمَّان بن يوسف بمن معهم من جموع رياح حتى نزلوا بالقلعة حذاءهم. وبدر أولاد عريف وخالد بن عامر إلى الزواودة ليشردوهم عن البلاد قبل أن تتصل يد السلطان بيدهم ، فصبحوهم يوم الخميس أخريات ذي القعدة من سنة تسع وستين وسبعائة ودارت بينهم حرب شديدة ، وأجفلت الزواودة أولاً ، ثم كان الظهور لهم آخرأ . وقتل في المعركة من زغبة عدد ، ويشوا من صدَّهم عما جاؤا إليه ، فانعطفوا إلى حُصَيْن والأمير أبي زِيان ، وصعدوا إليهم بناجعتهم ، وصاروا لهم مدداً على السلطان أبي حَمُو ، وشنوا الغارة على معسكره ، فصمدوا نحوه وصدقوه القتال ، فاختلَّ مصافه ، وانهزمت عساكره ، ونجا بنفسه إلى تلمسان على طريق الصحراء . وأجفل الزواودة إلى وطنهم ، وتحيز كافة العرب من زغبة إلى الأمير أبي زيان ، واتبع آثار المنهزمين ، ونزل بسيرات . وخرج السلطان أبو حمو في قومه ومن بقي معه من بني عامر . وتقدَّم خالد إلى مصادمته فقلَّه السلطان وأجفل القوم من ورائه . ثم تلطَّف في مراسلته وبذل المال له وأوسع له في الاشتراط فترع إليه والتبس بخدمته ، ورجع الأمير أبو زيان إلى أوليائه من حصين متمسكاً بولاية أولاد عريف . ثم نزع محمد بن عريف إلى طاعة السلطان ، وضمن له العدول بأخيه عن مذاهب الخلاف عليه ، وطال سعيه في ذلك فاتهمه السلطان وحمله خالد بن عامر عدوّه على نكبته ، فتقبَّض عليه وأودعه السجن . واستحكمت نفرة أخيه أبي بكر ، ونهض السلطان بقومه وكافة بني عامر إليه سنة سبعين وسبعائة واستغلظ أمر أبي بكر فجمع الحرث بن أبي مالك ومن وراءهم من حصين ، واعتصموا بالجبال من دراك وتيطري ، ونزل السلطان بجموعه لعود بلاد الديالة من الحرث ، فانتسفها والتعمها وحطَّم زروعها ونهب مداثرها . وامتنع عليه أبو بكر ومن معه من الحرث وحصين والأمير أبي زيان بينهم ، فارتحل عنهم وعطف على بلاد أولاد عريف وقومهم من سويد فلأها عيثاً ، وخرب قلعة ابن سلامة لما كانت أحسن أوطانهم . ورجع عليهم إلى تلمسان وهو يرى ان كان قد شفا نفسه في أولاد عريف ، وغلبهم على أوطانهم ، ورجع عليهم منزلة عدوهم ، فكان من لحاق أبي بكر بالمغرب وحركة بني مرين ما نذكره .

* (الخبر عن حركة السلطان عبد العزيز على تلمسان واستيلائه عليها ونكبة أبي حمو وبني عامر بالدوس من بلاد الزاب وخروج أبي زيان من تيطري الى أحياء رياح) *

لما تقبض أبو حمو على محمد بن عريف وفرق شمل قومه سويد ، وعاث في بلادهم أجمع ، رأى أخيه الأكبر الصريح بملك المغرب . فارتحل إليه بناجته من بني مالك أجمع من أحياء سويد والديالم والعطاف حتى احتل بسائط ملوية من تخوم المغرب . وسار إلى أخيه الأكبر ونزمار بمقره من قصر مرادة الذي اختطه بارجاع وادي ملوية في ظل دولة بني مرين وتحت جوارهم لما كان ملاك أمرهم بيده ، ومصادرهم عن آرائه خطه ورثها عن أبيه عريف بن يحيى مع السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن وابنه أبي عنان . فتقبل ملوك المغرب مذاهب سلفهم فيه ، وتيمنوا برأيه واستأمنوا إلى نصيحته . فلما قدم عليه أخوه أبو بكر مستحفاً بملك المغرب ، وأخبر باعتقال أخيه الآخر محمد ، قدح عزائمهم ، وأوفد أخاه أبا بكر ومشيخة قومهم من بني مالك على السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن منصرفه من افتتاح جبل هنتاة ، وظفر بعامر بن محمد بن علي النازع إلى الشقاق في معتصمه ، فلقوه في طريقه ولقاهم مبرة وتكرمة واستصرخوه لاستنقاذ أخيم فأجاب صريخهم ، ورغبوه في ملك تلمسان وما وراءها ، فوافق صاغيته لذلك بما كان في نفسه من المودة على السلطان أبي حمو لقبوله كل من يتزع إليه من عربان المَعْقِل أشياع الدولة وبدوها ، وما كان بعث إليه في ذلك ، وصرف عن استماعه ، فاعترم على الحركة إلى تلمسان ، وألقى زمامه بيد ونزمار وعسكر بساحة فاس . وبعث الحاشدين في الثغور والنواحي من المغرب ، فتواقف الحاشدون ببابه ، وارتحل بعد قضاء النسك من الأضحى سنة إحدى وسبعين وسبعمائة واتصل الخبر بالسلطان أبي حمو وكان معسكراً بالبطحاء ، فأنكفأ راجعاً إلى تلمسان ، وبعث في أوليائه عبيد الله والأحلاف من عرب المعقل ، فصموا عن إجابته ونزعوا إلى ملك المغرب ، فأجمع رأيه إلى التحيز إلى بني عامر وأجفل غرة المحرم سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة واحتل السلطان عبد العزيز تلمسان في يوم عاشوراء بعدها . وأشار ونزمار بن عريف بتسريح العساكر في اتباعه ، فسرّح السلطان وزيره أبا بكر بن

غازي بن السكّاء^(١) حتى انتهى إلى البطحاء . ثم لحق به هنالك ونزمار وقد حشد العرب كافة ، وأغذّ السير في اتباع السلطان أبي حمو وبني عامر ، وكانوا قد أبعدها المذهب ، ونزلوا على الزاودة وسرح إليهم السلطان يومئذ عبد العزيز يحملهم على طاعته ، والعدول بهم عن صحابة بني عامر وسلطانهم . وسرح فرج بن عيسى بن عريف إلى حصين لاقتضاء طاعتهم واستدعاء أبي زيان إلى حضرته ، ونبذهم عهده ، وانتهيا جميعاً إلى أبي زيان مقدمة أوليائه^(٢) ، ولحق بأولاد يحيى بن عليّ ابن سباع من الزاودة ، وانتهيت أنا إليهم فحفظت عليهم الشأن في جواره لما كانت مرضاة السلطان ، وحذرتهم شأن أبي حمو وبني عامر ، وأوفدت مشيختهم على ونزمار والوزير أبي بكر بن غازي فدلّوهما على طريقه ، فأغذّوا السير وبيتوهم بمزلهم على الدوس آخر عمل الزاب من جانب المغرب ففضوا جموعهم ، وانتهبوا جميع معسكر السلطان أبي حمو بأموالهم وأمتعته وظهره . ولحق فلّهم بمصاب ورجعت العساكر من هنالك ، فسلكت على قصور بني عامر بالصحراء قبله جبل راشد التي منها ربا ولون ساعون^(٣) إليها فأنتهبوها وخربوها وعاثوا فيها وانكفؤا راجعين إلى تلمسان . وفرّق السلطان عمّاله في بلاد المغرب الأوسط من وهران ومليانة والجزائر والمرية وجبل وانشريس . واستوسق به ملكه ونزع عنه عدوّه ، ولم يبق به يومئذ إلاّ ضربة من نار الفتنة ببلاد مغراوة بوعد من ولد عليّ بن راشد ، سخط خالد في الديوان ولحق بجبل بني سعيد . واعتصم به فجهّز السلطان الكتائب لحصاره ، وسرح وزيره عمر بن مسعود لذلك كما ذكرناه في أخبار مغراوة . واحتقر شأنه . وأوفدت أنا عليه يومئذ مشيخة الزاودة ، فأوسعهم حياءً وكرامةً ، وصدروا مملوءة حقائبهم خالصة قلوبهم منطلقة بالشكر السنّتهم . واستمرّ الحال إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى والله تعالى أعلم .

(١) وفي نسخة ثانية : بن الكاس .

(٢) وفي نسخة ثانية : ففارقه أولياؤه .

(٣) وفي نسخة أخرى : التي منها ربا ولون سمعون ، وفي نسخة ثانية : التي منها ربا بن سمعون .

* (الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط ورجوع أبي زيان
إلى تيطري واجلاب أبي حمو على تلمسان ثم انهزامها
وتشريد هما على سائر النواحي) *

كان بنو عامر من زغبة شعبة خالصة لبني عبد الواد من أول أمرهم ، وخلص سويد
لبني مرين كما قدمناه ، فكان من شأن عريف وبنه عند السلطان أبي الحسن وبنه ما
هو معروف . فلما استبيحت أحيائهم بالدوس مع أبي حمو ، ذهبوا في القفر إشفاقاً
ويأساً من قبول بني مرين عليهم لما كان ونزمار بن عريف وإخوانه من الدولة ، فحذبوا
على سلطانهم أبي حمو يتقلبون معه في القفار . ثم نزع إليهم رحو بن منصور فيمن
أطاعه من قومه عبيد الله من المعقل ، وأجلبوا على وجدة فاضطرم النفاق على الدولة
ناراً ، وخشي حصين مغبة أمرهم من السلطان بما تسموا به من الشقاق والعناد ، فذوا
أيديهم إلى سلطانهم أبي زيان ، وأوفد مشيختهم لاستدعائه من حلة أولاد يحيى بن
علي فاحتلّ بينهم وأجلبوا به على المرية فملكوا نواحيها ، وامتنع عليهم مصرها ، واستمرّ
الحال على ذلك واضطرب المغرب الأوسط على السلطان ، وانتقضت به طاعته
وسرح الجيوش والعساكر إلى قتال مغراوة وحصين ، فأجمع أبو حمو وبنو عامر على
قصده بتلمسان حتى إذا احتلوا قريباً منها دس السلطان عبد العزيز بعض شيعته إلى
خالد بن عامر وزغبة في المال والحظ منه ، وكان أبو حمو قد آسفه بمخالطة بعض
عشيرته وتعقب رأيه برأي من لم يسم إلى خطته . ولم يرتض كفاءته فجئح إلى ملك
المغرب ، ونزع يده من عهد أبي حمو ، وسرح السلطان عبد العزيز عسكره إلى خالد
فأوقع بأبي حمو ومن كان من العرب عبيد الله وبنو عامر ، وانتهب معسكره وأمواله ،
واحتقتب حرمة وحظاياه إلى قصر السلطان ، وتقبّض على مولاه عطية ، فنّ عليه
السلطان وأصاره في حاشيته ووزرائه ، وأصفقت زغبة على خدمة ملك المغرب وافق
هذا الفتح عند السلطان فتح بلاد مغراوة ، وتغلّب وزيره أبو بكر بن غازي على جبل
بني سعيد ، وتقبّض على حمزة بن علي بن راشد في لمة من أصحابه ، فضرب
أعناقهم وبعث بها إلى سدة السلطان ، وصلب أشلاءهم بساحة مليانة معظم الفتح
واكتمل الظهور . وأوعز السلطان إلى وزيره أبي بكر بن غازي بالنهوض إلى

حُصَيْن ، فنهض إليهم وخاطبني وأنا مقيم بسكرة في دعايته بأن احتشد أوليائه من الزواودة ورياح ، والتقى الوزير والعساكر على حصن تيطري ، فنازلناه شهراً . ثم انفض جمعهم وفروا من حصنهم ، وتمزقوا كل ممزق ، وذهب أبو زيان على وجهه ، فلحق ببلد واركلا قبله الزاب لبعدها عن منال الجيوش والعساكر ، فأجاروه وأكرموا نزله . وضرب الوزير على قبائل حُصَيْن والثعالب المغارم الثقيلة ، فأعطوها عن يد وجهضهم باقتضائها ، ودوخ قاصية الثغور ورجع إلى تلمسان عالي الكعب عزيز السلطان ظاهر اليد . وقعد له السلطان بمجلسه يوم وصوله قعوداً فخماً ، وصل فيه إليه ، وأوصل من صحبه من وفود العرب والقبائل فقسّم فيهم برّه وعنايته وقبوله على شاكلته . واقتضى من أمراء العرب زغبة أبناءهم الأعزة رهناً على الطاعة ، وسرّحهم لغزو أبي حمو بمبتدئه من تيكورارين فانطلقوا لذلك ، وهلك السلطان عبد العزيز لليال قلائل من مقدم وزيره ، وعساكره أواخر شهر ربيع الآخر من سنة أربع وسبعين وسبعائة لمرض مزمن كان يتفادى بالكتمان والصبر من ظهوره . وانكفأ بنو مرين راجعين إلى ممالكهم بالمغرب بعد أن بايعوا لولده دراجاً حماسياً ، ولقبوه بالسعيد وجعلوا أمره إلى الوزير أبي بكر بن غازي ، فلك أمرهم عليهم واستمرت حاله كما نذكره في أخباره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن عود السلطان أبي حمو الاخير الى تلمسان الكرّة الثالثة لبني عبد الواد في الملك) *

لما هلك السلطان عبد العزيز ورجع بنو مرين إلى المغرب ، نصبوا من أعياص بني يغمراسن لمداغة أبي حمو من بعدهم عن تلمسان ، ابراهيم بن السلطان أبي تاشفين ، كان ناشئاً بدولتهم مذهباً (١) أبوه . وتسَلَّل من جملتهم عطية بن موسى مولى السلطان أبي حمو وخالفهم إلى البلد غداة رحيلهم ، فقام بدعوة مولاه ودافع ابراهيم بن تاشفين عن مرامه ، وبلغ الخبر أولياء السلطان أبي حمو من عرب المعقل أولاد يغمور بن عبيدالله ، فطُيروا إليه النحيب على حين غلب عليه اليأس . وأجمع الرحلة إلى بلاد السودان لما بلغه من اجتماع العرب للحركة عليه كما قلناه ، فأغذ السير

(١) وفي نسخة ثانية : منذ مهلك أبيه .

من مطرح اغترابه . وسابقه ابنه ولي عهده في قومه عبد الرحمن أبو تاشفين مع
ظهيرهم عبدالله بن صغير فدخلوا البلد ، وتلاههم السلطان لرابعة دخولهم ، وعاود
سلطانه واقتعد أريكته ، وكانت إحدى الغرائب وتقَبَّض ساعته على وزرائه ،
اتهمهم بمداخلة خالد بن عامر فيما نقض من عهده وظاهر عليه عدوه ، فأودعهم
السجن وذبحهم ليومهم حقاً عليهم . واستحكم لها نفرة خالد وعشيرته ، وحصلت
ولاية أولاد عريف بن يحيى لمنافرة بني عامر إياه ، وإقبال السلطان عبد العزيز عليه ،
ووثق بمكان ونزمار كبيرهم في تسكين عادية ملوك المغرب عليه^(١) . ورجع إلى تمهيد
وطنه ، وكان بنو مرين عند انفضاضهم إلى مغربهم قد نصبوا من اقتال مغراوة ، ثم
بني منديل علي بن هرون بن ثابت بن منديل وبعثوه إلى شلف مزاحمة للسلطان أبي
حمو ، ونقضاً لأطراف ملكه . وأجلب أبو زيان ابن عمه على بلاد حصين ، فكان
من خبره معها ما ذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن رجوع أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد الى
بلاد حصين ثم خروجه عنها) *

كان الأمير أبو زيان ابن السلطان أبي سعيد ، لما هلك السلطان عبد العزيز وبلغه
الخبر بمنجاته من واركلا ، نهض منها إلى التلول ، واسف إلى الناحية التي كان منترباً
بها مساهماً لأبي حمو فيها ، فاقتطعت لدعوته كما كانت ، ورجع أهلها إلى ما عُرِفوا
من طاعته ، فنهض السلطان أبو حمو لتمهيد نواحيه وتثقيف أطراف ملكه ، ودفع
الخوارج عن ممالكه ، وظهره على ذلك أمير البدو من زغبة أبو بكر ومحمد ابنا
عريف بن يحيى ، دس إليهما بذلك كبيرهما ونزمار ، وأخذهما بمناصحة السلطان
ومخالصته ، فركبا من ذلك أوضح طريق وأسهل مركب . ونبذ السلطان العهد إلى
خالد وعشيرته ، فضاقت عليهم الأرض ولحقوا بالمغرب لسابقة نزوعهم إلى السلطان
عبد العزيز . وابتدأ السلطان بما يليه ، فأزعج بمظاهرتيها علي بن هرون عن أرض
شلف سنة خمس وسبعين وسبعائة بعد حروب هلك في بعضها أخوه رحمون بن

(١) وفي نسخة ثانية : تسكين عادية ملوك العرب عنه .

هرون . وخلص إلى بجاية ، فركب منها السفن إلى المغرب ، ثم تخطى السلطان أبو حمو إلى ما وراء شلف . وسفر محمد بن عريف بينه وبين ابن عمه بعد أن نزع إليه الكثير من أوليائه حصين والثعالب بما بذل لهم من الأموال ، وبما سثموا من طول الفتنة ، فشارطه على الخروج من وطنه إلى جيرانهم من رياح على أتاوة وتحمل اليه ، فقبل ووضع أوزار الحرب ، وفارق مكان ثورته ، وكان لمحمد بن عريف فيها أثر محمود ، واستألف سالم بن ابراهيم كبير الثعالب المتغلب على بسيط متيجة وبلد الجزائر ، بعد أن كان خباً في الفتنة ، وأوضع فاقتضى له من السلطان عهده من الأمان والولاية على قومه وعمله . وقلد السلطان أبناءه ثغور أعماله . فأنزل ابنه بالجزائر لنظر سالم بن ابراهيم من تحت استبداده ، وابنه أبا زيّان بالمدية ، وانقلب السلطان إلى حضرته بتلمسان بعد أن دَوّخ قاصيته ، وثقف أطراف عمله ، وأصلح قلوب أوليائه واستألف شيعة عدوه ، فكان فتحاً لا كفاء له من بعد ما خلع من ريقة الملك ، ونزع من شرع^(١) السلطان وانتبذ من قومه وممالكه إلى قاصية الأرض ، ونزل في جوار من لا ينفذ أمره ولا يقوم بطاعته . والله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ويعز من يشاء ويدل من يشاء .

* (الخبر عن اجلاب عبدالله بن صغير

وانتقاض أبي بكر بن عريف وبيعتهما للأمير أبي زيان

ورجوع أبي بكر الى الطاعة) *

كانت خالد بن عامر وابن أخيه عبدالله بن صغير وسائر إخوانهم من ولد عامر بن ابراهيم قد لحقوا بالمغرب صرخی بيني مرين لما وقع بينهم وبين أبي حمو من الفعلة التي فعل خالد معه . ويش عبدالله بن صغير من صريخهم بما عقد ونزمار بن عريف من السلم بين صاحب المغرب وصاحب تلمسان ، فخاض القفر بمن معه من قومه ولحق بوطن زغبة ، وأجلب على جبل راشد وبه العمور أحلاف سويد من بني هلال . فاعترضتهم سويد ودارت بينهم حرب شديدة ، كان الظهور فيها لسويد عليهم . وفي خلال ذلك فسد ما بين السلطان وبين أبي بكر بن عريف بسبب صاحب جبل

(١) وفي نسخة ثانية : من لبوس .

وانشريس يوسف بن عمر^(١) بن عثمان ، أراداه السلطان على التزول عن عمله ، فغضب له أبو بكر لتقديم الصداقة بين سلفها ، ووصل يده بعبدالله بن صغير بعد الواقعة . ودعاه إلى بيعة أبي زيان فأجابوه وأوفدوا رجالهم عليه بمكانه من مجالات رياح ، فوصلوه معهم ونصبوه للأمر ، وتخيّر محمد بن عريف إلى السلطان في جموع سويد . ونهض السلطان من تلمسان سنة سبع وسبعين وسبعائة فيمن معه من قبائل بني عبد الواد وعرب المعقل وزغبة ، ودس إلى أولياء أبي زيان يرغبهم في المواعد . وحكم أبا بكر في الاشتراط عليه ففاء إلى الطاعة والمخالصة . ورجع أبو زيان إلى مكانه من حلال الزواودة ، وأغذّ السلطان السير إلى حضرته فتملّى أريكته ، وحدث بعد ذلك ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن وصول خالد بن عامر من المغرب والحرب التي دارت بينه وبين سويد وأبي تاشفين هلك فيها عبدالله بن صغير واخوانه) *

لما بلغ خالد بن عامر بمكانه من المغرب خبر عبدالله ابن أخيه صغير ، قفل من المغرب يشأ من مظاهرة بني مرين فحقق السعي في صريخه بهم لما كانوا عليه من افتراق الأمر كما ذكرناه قبل . ووصل معه ساسي بن سليم في قومه بني يعقوب ، وتظاهر الحيان على العيث في بلاد أبي حمّو . واجتمع إليهم أبناء الفتنة من كل أوب ، فأجلبوا على الأطراف وشنوا الغارة في البلاد ، وجمع أولاد عريف لحربهم قومهم من سويد وأحلافهم من العطاف ، وبعثوا بالصريخ إلى السلطان فسير لحرب عدوّه وعدوّهم ابنه أبا تاشفين وليّ عهده في قومه ، وبرز لذلك في العساكر والجنود . ولما انتهى إلى بلاد هوّارة ، واضطرب عسكره بها ، أعجله صريخ أوليائه عن مناخ الركاب ، فاستعجل الرحلة ولحق بأوليائه أولاد عريف ومن معهم من أشياع الدولة من زغبة . وأغذّوا السير إلى واد هناك شرقي القلعة ، فتلاقى^(٢) الجمعان وتواقفوا للقاء سائر

(١) وفي نسخة ثانية : يوسف بن عاجر .

(٢) وفي نسخة ثانية : فترأى .

يومهم . واستضاؤا بإضرام النيران مخافة البيات ، وأصبحوا على التعية . وتمشت
الرجالات في مواضع الحرب ، فأعجبهم مناشبة القوم ، وتراحفت الصفوف ، وأعلم
الكماة ، وكشفت الحرب عن ساقها ، وحمي الوطيس ، وهبت الريح المباشرة ،
فخفقت لها رايات الأمير وهدرت طبوله ، ودارت رحي الحرب وصمدت إليها
كتائب العرب ، فبرى^(١) فيها الأبطال منهم وانكشفوا ، وأجلت المعركة عن عبدالله
ابن صغير صريعاً ، فأمر أبو تاشفين فاحتر رأسه وطير به البريد إلى أبيه . ثم عثرت
المواكب بأخيه ملوك بن صغير مع العباس ابن عمه موسى بن عامر ، ومحمد بن زيّان
من وجوه عشيرتهم متواقعين بجنودهم متضاجعين في مراقدهم كأنما أقعدوا للردى ،
فوطأتهم سنايك الخيل وغشيم قتام المراكب . وأطلقت العساكر أعنتها في اتباع
القوم فاستاقوا نعمهم وأموالهم . وكثرت يومئذ الأنفال ، وغشيم الليل فتستروا
بجناحه . ولحقهم فلهم يجبل راشد ، وأطرب أبو تاشفين أباه بمشهى ظهوره وأملاه
السرور بما صنع الله على يده ، وما كان له ولقومه من الأثر في مظاهرة أوليائه . وطار
له بها ذكر على الأيام ، ورجع إلى أبيه بالحضرة مملوء الحقائق بالأنفال والجوانح
بالسرور والأيام بالذكر عنه وعن قومه ، ومضى خالد لوجهه في فلّ من قومه . ولحق
يجبل راشد إلى أن كان من أمره ما ذكره إن شاء الله ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن انتقاض سالم بن ابراهيم ومظاهرتة خالد بن عامر
على الخلاف وبيعتهما للأمير أبي زيّان ثم مهلك خالد ومراجعة
سالم الطاعة وخروج أبي زيّان إلى بلاد الجريد) *

كان سالم بن ابراهيم هذا كبير الثعالب المتغلبين على حصن متيجة منذ انقراض
مليكش ، وكانت الرياسة فيهم لأهل نيته حسباً ذكرناه في أخبارهم عند ذكر
المعقل . ولما كانت فتنة أبي زيّان بعد نكبة أبي حمّو على بجاية ، وهبت ريح العرب
واستغلظ أمرهم ، وكان سالم هذا أول من غمس يده في تلك الفتنة ، ومكر بعليّ بن
غالب من بيوتات الجزائر ، كان مغرباً عنها منذ تغلب بني مرين على المغرب الأوسط

(١) وفي نسخة ثانية : فتردى .

أيام بني عثمان^(١) ولحق بها عندما أظلم الجوّ بالفتنة ، واستبدت نفرة أهل الجزائر عن أبي حمو ، فأظهر بها الاستبداد واجتمع بها إليه الأوثاب والطغام . ونكره سالم أمير الضاحية أطمعه في الاستيلاء على الجزائر ، فداخل في شأنه الملاء من أهل المدينة ، وحذّره من أنه يروم الدعوة للسلطان أبي حمو ، فاستشاطوا نفرة وثاروا به ، حتى إذا رأى سالم أنه قد أحيط به خلّصه من أيديهم وأخرجه إلى حيّه . وأبلغه^(٢) هنالك . وحوّل دعوة الجزائر إلى الأمير أبي زيّان تحت استبداده ، حتى إذا كان من أمر بني مرين وحلول السلطان عبد العزيز بتلمسان كما قدّمناه ، أقام دعوتهم في الجزائر إلى حين مهلكه ورجوع أبي حمو إلى تلمسان . وأقبل جيش أبي زيّان إلى تيطري ، فأقام سالم هذا دعوته في أحيائه وفي بلد الجزائر ، خشية على نفسه من السلطان أبي حمو ، لما كان يعتمد عليه في الادالة من أمره بالجزائر بأمر ابن عمّه . ولما كان من خروج أبي زيّان إلى أحياء رياح على يد محمد بن عريف ما قدّمناه . واقتضى سالم عهده من السلطان ، وولي سالم على الجزائر ، أقام سالم على أمره من الاستبداد بتلك الاعمال واستضافة جبايتها لنفسه ، وأوعز السلطان إلى سائر عمّاله باستيفاء جبايتها ، فاستراب وبقي في أمره على المداينة .

وحدثت إثر ذلك فتنة خالد بن عامر ، فتربّص دوائرها رجاء أن يكون الغلب له ، فيشغل السلطان عنه . ثم بدا له ما لم يحتسب ، وكان الغلب للسلطان ولأوليائه . وكان قد حدثت بينه وبين بني عريف عداوة خشي أن يحمل السلطان على النهوض إليه ، فبادر إلى الإنتفاض على أبي حمو ، واستقدم الأمير أبو زيّان فقدم عليه وجأجأ بخالد بن عامر من المخالفين معه من العرب ، فوصلوا إليه أوّل سنة ثمان وسبعين وسبعائة ، وعقد بينهم حلفاً مؤكّداً ، وأقام الدعوة للأمير أبي زيّان بالجزائر . ثم زحفوا إلى حصار مليانة وبها حامية السلطان فامتنعت عليهم ، ورجعوا إلى الجزائر فهلك خالد بن عامر على فراشه ودفن بها ، وولي أمر قومه من بعده المسعود ابن أخيه صغير ، ونهض إليهم السلطان أبو حمو من تلمسان في قومه وأوليائه من العرب ، فامتنعوا بحبال حصّين وناوشتهم جيوش السلطان القتال بأسافل الجبل فغلبوهم عليها ، وانفضّت الناجعة عنهم من الديالم والعطاف وبني عامر ، فلحقوا بالقفر .

(١) وفي نسخة ثانية : أيام أبي عثمان .

(٢) وفي نسخة ثانية : واتلفه هنالك .

ورأى سالم أصحابه أن قد أحيط بهم فلاذ بالطاعة ، وحمل عليها أصحابه . وعقد لهم السلطان من ذلك ما أرادوه على أن يفارقوا الأمير أبا زيان ففعلوا . وارتحل عنهم فلحق ببلاد المغرب ريغ ، ثم أجازها إلى نَفْطَة من بلاد الجريد ، ثم إلى تَوَزَّر ، فترل على مقدمها يحيى بن يملول ، فأكرم نزله وأوسع قراره إلى أن كان من أمره ما نذكر .

ورجع السلطان أبو حمو إلى تلمسان وفي نفسه من سالم حرارة لكثرة اضطرابه ومراجعته الفتن ، حتى توسَّط فصل الشتاء ، وأبعدت العرب في مشاتها ، فنهض من تلمسان في جيوش زناته ، وأغذَّ السير فصبح بحصن متيجة بالغايرة الشعواء . وأجفلت الثعالبه فلحقوا برؤوس الجبال وامتنع سالم بجبل بني خليل . وبعثوا ابنه وأولياءه إلى الجزائر فامتنعوا بها وحاصروه أياماً . ثم غلبوه على مكانه . فانتقل إلى بني مَيْسَرَة من جبال صنهاجة . وخلف أهله ومتاعه ، وصار الكثير من الثعالبه إلى الطاعة ، وابتهلوا بأمان السلطان وعهده إلى فحوص متيجة ، وبعث هو أخاه ثانياً إلى السلطان بانتقاضه العهد^(١) ، ونزل من رأس ذلك الشاهق إلى ابنه أبي تاشفين فأوصله إلى السلطان إحدى ليالي العشر الأواخر من رمضان ، فأخفر عهده وذمة ابنه ، وتقبَّض عليه صبيحة ليلته . وبعث قائده إلى الجزائر فاستولى عليها وأقام دعوته بها ، وأوفد عليه مشيختها فتقبَّض عليهم ، وعقد على الجزائر لوزيره موسى بن مرعوت^(٢) ، ورجع إلى تلمسان فقضى بها عيد النحر ، ثم أخرج سالم بن إبراهيم من محبسه إلى خارج البلد ، وقتل قعصاً بالرماح ، ونصب شلوه وأصبح مثلاً للآخرين ، ولله البقاء . وعهد السلطان لابنه المنتصر على مليانة وأعمالها ، ولابنه أبي زيان على وَهْرَان . وراسله ابن يملول صاحب توزر ، وصهره ابن قرى صاحب بسكرة وأولياؤهما من الكعوب والزواودة لما أهمهم أمر السلطان أبي العباس ، وخافوه على أمصارهم فراسلوا أبا حمو يضمنون له مسألة أبي زيان على أن يوفي لهم بما اشترط له من المال ، وعلى أن يشبَّ نار الفتنة من قبله على بلاد الموحدنين ليشغل السلطان أبا العباس عنهم على حين عجزه^(٣) وضعف الدولة عنه . فأوهمهم من نفسه القدرة وأطمعهم في ذلك .

(١) وفي نسخة ثانية العبارة مختلفة تماماً : وبعث هو أخاه ثابتاً إلى السلطان ، فاقتضى له العهد .

(٢) وفي نسخة ثانية : موسى بن برغوث وقد مرَّ معنا من قبل في غير هذا المكان .

(٣) الضمير هنا يعود إلى أبي حمو .

وما زال يراجعهم ويراجعونه بالمقاربة والوعد إلى أن أحيط بابن يملول ، واستولى السلطان على بلده فلحق ببسكرة وهلك بها لسنة من خروجه آخر سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وبقي ابن مزني من بعده متعللاً بتلك الأمانى الكاذبة إلى أن ظهر أمره وتبين عجزه ، فراجع طاعة السلطان أبي العباس واستقام على المواعدة ، ولحق الأمير أبو زيان بحضرة السلطان بتونس فترل بها أكرم نزل مؤملاً منه المظاهرة على عدوه .
والحال بالمغرب الأوسط لهذا العهد على ما شرحناه مراراً من تغلب العرب على الضواحي والكثير من الأمصار . وتقلص ظل الدولة عن القاصية وارتدادها على عقبها إلى مراكزها بسيف البحر ، وتضاؤل قدرتها على قدرتهم ، وإعطاء اليد في مغالبتهم ببذل رغائب الأموال . وإقطاع البلاد والتزول عن الكثير من الأمصار ، والقنوع بالتغريب بينهم وإغراء بعضهم ببعض والله ولي الأمور .

* (قسمة السلطان للأعمال بين ولده وما حدث بينهم من التنافس) *

كان لهذا السلطان أبي حمّو جماعة من الولد كبيرهم أبو تاشفين عبد الرحمن . ثم بعده أربعة لأم واحدة ، كان تزوّجها بمسيلة من أعمال قُسْطَيْنَة أيام جولته في بلاد الموحدين ، كبيرهم المتصر . ثم أبو زيان محمد ، عمر ويلقب عميرا ، ثم بعد ولد كثير من أبناء علّات . وكان أبو تاشفين ولي عهده ، وقد رفعه على الباقيين وأشركه في رأيه ^(١) ، وأوجب له الحق على وزراء دولته ، فكان لذلك رديفه في ملكه ومظهر سلطانه . وكان مع ذلك يتعاهد أولئك الإخوة الأشقاء بجنوه ، ويقسم لهم من ترشيحه والنجاء في خلوته ، فتغنص أبو تاشفين منهم ، فلما استفحل أمر السلطان وانمحت من دولته آثار الخوارج ^(٢) ، أعمل نظره في قسمة الأعمال بين ولده وترشيحهم للإمارة والبعد بهم عن أخيم أبي تاشفين ، أن يصيبهم بمكره عند إيناس الغيرة منهم ، فولّى المتصر كبيرهم على مليانة وأعمالها ، وأنفذه إليها ومعه أخوه عمر الأصغر في كفالته ، وولّى أخاها الأوسط أبا زيان على المرية وما إليها من بلاد

(١) وفي نسخة ثانية : اشركه في أمره .

(٢) وفي نسخة ثانية : آثار الخلاف .

حصين . وولى ابنه يوسف ابن الزاوية على تدلس وما إليها من آخر أعماله . واستقر أمرهم على ذلك . ثم كان من انتقاض سالم الثعلبي بالجزائر ما قدّمناه ، فمني إلى السلطان أن ابنه أبا زيّان داخله في الخلاف ، فلما فرغ من أمر سالم كما مرّ وطرّد أبا زيّان ابن عمه عن أعماله إلى الجريد ، أعمل نظره في نقل ابنه أبي زيّان من المربة إلى ولاية وَهْران وأعمالها بعداً له عن العرب المحليين في الفتن ، وأنزل معه بعض وزرائه عيناً عليه ، وأقام والياً عليها والله أعلم .

* (وثبة أبي تاشفين بيحيى بن خلدون كاتب أبيه) *

كان أول شيء حدث من منافسة أبي تاشفين لإخوته ، أن السلطان لما ولى ابنه أبا زيّان على وَهْران وأعمالها طلبه أبو تاشفين في ولايتها لنفسه فأسعفه ظاهراً ، وعهد إلى كاتبه بيحيى بن خلدون بمباطلته في كتابها حتى يرى المخلص من ذلك ، فأقام الكاتب يطاوله . وكان في الدولة لثيم من سفلة الشرط يدعى بموسى بن يخلف ، صحبهم أيام الاغتراب بتيكورارين أيام ملك تلمسان عليهم السلطان عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن كما مرّ . وخلال له وجه السلطان أبي حمو وإبنه ، فتقرّب إليه بخدمته ورعاها له . فلما رجع السلطان إلى تلمسان بعد مهلك عبد العزيز قدّمه وآثره واستخلصه ، فكان من أخلص بطانته . وكان أبو تاشفين أيضاً استخلصه وجعله عيناً على أبيه . وكان هو أيضاً يغص بآبن خلدون كاتب السلطان ، ويغار من تقدّمه عنده ويغري به أبا تاشفين جهده ، فدسّ إليه أثناء هذه المطاولة أن الكاتب ابن خلدون إنما مطله بالكتاب خدمة لأبي زيّان أخيه وإثارة له عليه ، فاستشاط له أبو تاشفين ، وترصد له منصرفه من القصر إلى بيته بعد التراويح في إحدى ليالي رمضان سنة ثمانين وسبعائة في رهط من الأوغاد ، كان يطوف بهم في سكك المدينة ، ويطرق معهم بيوت أهل السرّ والحشمة في سبيل الفساد ، فعرضوا له وطعنوه بالخناجر حتى سقط عن دابته ميتاً . وغدا الخبر على السلطان صبيحة تلك الليلة فقام في ركائبه وبثّ الطلب عن أولئك الرهط في جوانب المدينة . ثم بلغه أن ابنه أبا تاشفين صاحب الفعلة ، فأغضى وطوى عليها جونغه ، وأقطع أبا تاشفين مدينة وَهْران كما وعده . وبعث ابنه أبا زيّان

على بلاد حُصَيْنَ والمرية كما كان . ثم طلب أبو تاشفين من أبيه أن تكون الجزائر خالصة له فأقطعه إياها ، وأنزل بها من إخوته يوسف ابن الزاوية بما كان شيعة له من بينهم وفيئة في صحبته ومخالصته ، فأقام والياً عليها ، والله أعلم .

* (حركة أبي حمو على ثغور المغرب الأوسط ودخول ابنه أبي تاشفين الى جهات مكناسة) *

كان أبو العبّاس بن السلطان أبي سالم ملك بني مرين بالمغرب الأقصى قد نهض في عساكره سنة ثلاث وثمانين وسبعائة^(١) الى مراكش ، وبها الأمير عبد الرحمن بن يفلوس ابن السلطان أبي عليّ مقاسمه في نسبه وملكه . وكان قد سوّغ له مراكش وأعمالها عند ما أجلب معه على البلد الجريد سنة خمس وسبعين وسبعائة كما في أخبارهم . واستقرّ الأمير عبد الرحمن بمراكش . ثم حدثت الفتنة بينه وبين السلطان أحمد ، ونهض إليه من فاس فحاصره أولاً وثانياً يفرج فيهما عنه . ثم نهض إليه سنة أربع وثمانين وسبعائة فحاصره وأخذ بمخنقه وأطال حصاره . وكان يوسف بن علي بن غانم أمير المعقل من العرب منتقضاً على السلطان وقد بعث السلطان العساكر إلى أحيائه ، فهزموه وخرّبوا بيوته وبساتينه بسجلماسة ورجعوا . وأقام هو بصحرائه منتقضاً . فلما جهد الحصار الأمير عبد الرحمن بمراكش ، بعث أبا العشائر ابن عمّه منصور بن السلطان أبي عليّ إلى يوسف بن علي بن غانم ، ليجلب به على فاس وبلاد المغرب ، فيأخذ بحجزة السلطان عنه وينفس من مخنقه ، فسار يوسف بن علي مع أبي العشائر إلى السلطان أبي حمو بتلمسان يستنجده على هذا الغرض لقدرته عليه دون العرب ، بما له من العساكر والأبهة ، فأنجده على ذلك . وقدم ابنه أبا تاشفين معهم ، وخرج هو في أثرهم ، فساروا إلى المغرب . ونزل يوسف بن علي بقومه قريباً من مكناسة ، ومعه الأميران أبو العشائر وأبو تاشفين . وجاء أبو حمو من خلفهم فحصر تازي سبعاً ، وخرّب قصر تازروت المعدّة هنالك لترل السلطان . وكان السلطان قد استخلف على فاس في مغيبه علي بن مهدي العسكري من عمّال

(١) وفي نسخة ثانية : إحدى وثمانين .

دولته ووجوه قبيله ، وكان هنالك عرب المنبأة^(١) من المعقل قد أخذوا الميرة ، فأهاب بهم ونزمار بن عريف وليّ الدولة من عرب سويد ، وهو نازل بقصر مرادة من جوار^(٢) تازى ، فاستألفهم لمداغة أبي حمو وابنه . وخرج بهم علي بن مهدي . ثم وصل الخبر باستيلاء السلطان على مراكش منتصف خمس وثمانين وسبعمائة فأجفل أبو تاشفين وأبو العشائر ومن معها من العرب ، واتبعهم علي بن مهدي بمن معه من المنبأة . وأجفل أبو حمو على تازى ومرّ بمرادة على قصر ونزمار فهدمه وعاث فيه ، وانكفاً راجعاً إلى تلمسان . وفارق ابنه أبو تاشفين أصحابه أبا العشائر والعرب ولحق بأبيه إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (نهوض السلطان أبي العباس صاحب المغرب إلى تلمسان واستيلاؤه عليها واعتصام أبي حمو بجبل تاجموت^(٣)) *

لما استولى السلطان أبو العباس على مراكش كما قلناه ، رجع إلى دار ملكه بفاس وقد أسفه السلطان أبو حمو باجلاجه على وطنه هو وابنه أبو تاشفين مع العرب أيام مغيبه بمراكش ، فأجمع الرحلة إلى تلمسان ، وخرج في عساكره . وراجع يوسف بن علي الطاعة ورحل معه في جموعه . وبلغ الخبر إلى السلطان أبي حمو فتردد بين الحصار بتلمسان أو مفارقتها . وكان بينه وبين ابن الأحمر صاحب الأندلس مواصلة ، ولابن الأحمر دالة على السلطان أبي العباس كما مرّ . فكان يحفظ له الشأن في قصد تلمسان ويلبثه عنها فيعطيه المقادة في ذلك ، فيعلّل هو السلطان أبا حمو بأن السلطان أبا العباس لا يصل إليه . ثم أجمع السلطان أبو العباس أمره ، ونهض على حين غفلة مغزاً إلى تلمسان . وتقدّم الخبر إلى أبي حمو فأجمع مفارقة تلمسان بعد أن أظهر لأولياته وأهل دولته أنه على الحصار . ثم خرج حين غشية الليل الى معسكره بالصفيف ، وافتقده أهل بلده من صبيحتهم ، فتبادر أكثرهم إليه متعلقين بأذياله خوفاً من معرة العدو ، ثم ارتحل يطوي المراحل إلى البطحاء ، ودخل السلطان أبو

(١) وفي نسخة ثانية : المنبات .

(٢) وفي نسخة ثانية : من أحواز .

(٣) وفي نسخة ثانية : بحصن تاجمومت .

العبّاس تلمسان واستولى عليها ، وجَهّز العساكر لاتباع أبي حمو وقومه ، فأجفل من البطحاء ولحق بتاحجموت فاعتصم بمقلها ولحق به ابنه المتصر من مليانة بما كان معه من الذخيرة ، فاستمدّها وأقام هناك عازماً على الامتناع والله تعالى أعلم .

* (رجوع السلطان أبي العباس الى المغرب واختلال دولته ورجوع السلطان أبي حمو الى ملكه بتلمسان) *

كان السلطان أبو العباس لما استولى على مملكة تلمسان ، طيّر كتيبه ورسله بفتحها إلى ابن الأحمر صاحب الأندلس ، ويعتذر إليه من مخالفة رأيه في الحركة إليها . وقد كان ابن الأحمر آسفه ذلك إلى ما انتظم إليه من الترعات الملوكية التي يؤسف بها بعضهم بعضاً ، وهو يطوي جوانحه عليها ، واطلع على فساد طاقة السلطان أبي العباس في أهل دولته وفقد^(١) ضمائرهم له ، فأزعج لوقته موسى ابن السلطان أبي عنان من أعياص ملكهم ، كان عنده بالأندلس ، وجَهّزه بما يحتاج إليه وبعث في خدمته مسعود بن رحو بن ماساي^(٢) وزيرهم المشهور ، وأركبه السفن إلى سبتة ، فترلوا بساحتها أول ربيع سنة ست وثمانين وسبعائة واستولوا عليها . ثم تقدّموا إلى فاس فنزلوا دار الملك أياماً وبها محمد بن حسن كاتب محمد بن عنان القائم بدولة السلطان أبي العباس والمستبدّ عليه ، واشتدوا في حصارها وتوافت إليهم الأمداد والحشود فدخله الخور وألقي بيده ، وداخل السلطان موسى إلى دار الملك تاسع عشر ربيع الأول من السنة ، وجلس على أريكته ، وآتاه الناس طاعتهم . وطار الخبر إلى السلطان أبي العباس بتلمسان وقد تجهّز لاتباع أبي حمو ، ونزل على مرحلة من تلمسان بعد أن أغراه ونزمار بن عريف أمير سويد بتخريب قصور الملك بتلمسان ، وكانت لا يعبر عن حسنّها ، اختطّها السلطان أبو حمو الأول وابنه أبو تاشفين ، واستدعى لها الصنّاع والفعلة من الأندلس لحضارتها وبدواة دولتهم يومئذ بتلمسان ، فبعث إليهما السلطان أبو الوليد صاحب الأندلس بالمهرة والحدّاق من أهل صناعة البناء بالأندلس ، فاستجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعيّا على الناس بعدهم أن يأتوا بمثله ،

(١) وفي نسخة ثانية : ونغل .

(٢) وفي نسخة ثانية : ماساي .

فأشار ونزمار على السلطان أبي العباس بتخريب هذه القصور وأسوار تلمسان انتقاماً
بزعمه من أبي حمو ، وأخذاً بالثأر منه فيما اعتمده من تخريب قصر الملك بتازي ،
وتخريب قصره هو بمرادة ، فأتى عليها الخراب أسرع من لمح البصر . وبينما هو في
ذلك وهو يروم السفر لاتباع أبي حمو ، إذ جاءه الخبر بأن السلطان موسى ابن عمه
السلطان أبي عنان قد استولى على دار ملكهم بفاس ، واقتعد أريكتهم ، ففكر راجعاً
إلى المغرب لا يلوي على شيء ، وترك تلمسان لشأنها ، وكان من أمره ما يأتي ذكره في
أخبارهم ، وطار الخبر إلى السلطان أبي حمو بمكانه من تاحجموت ، فاغذ السير إلى
تلمسان ودخلها ، وعاد إلى ملكه بها ، وتفجّع لتلك القصور بما ذهب من رونق
حسنها ، وراجع دولته بني عبد الواد وسلطانهم بتلمسان والله سبحانه وتعالى أعلم .

* (تجدد المنافسة بين أولاد السلطان أبي حمو ومحاهرة أبي
تاشفين بذلك لهم ولأبيه) *

كان التنافس بين هؤلاء الأولاد خفياً على الناس بما كان السلطان أبوهم يؤمل بينهم
ويداري بعضهم عن بعض . فلما خرجوا أمام بني مزين وعادوا إلى تلمسان صار
تنافسهم إلى العداوة . واتهم أبو تاشفين أباه بمالأة إخوته عليه ، فشمر لعقوقه
وعداوته ! وشعر السلطان بذلك فأعمل الحركة إلى ناحية البطحاء مورياً بإصلاح
العرب ، ومعتزماً على لقاء ابنه المنتصر بمليانة جناحه ، ويتخطى إلى الجزائر فيجعلها
دار ملكه بعد أن استخلف بتلمسان ابنه أبا تاشفين وحالفه على المناصحة . واطلع
موسى بن يخلف على خبيثة السلطان بذلك ، فدس بها إلى أبي تاشفين على عادته ،
فطاربه الأسف كل مطار وأغذ السير من تلمسان فيمن معه من العسكر ، وصبح أباه
بأسافل البطحاء قبل أن يتصل بالمنتصر ، وكشف القناع عن التكبر والتسخط على ما
بلغه ، فحلف له السلطان على ذلك وأرضاه بالرجوع معه إلى تلمسان فرجعا جميعاً .

* (خلع السلطان أبي حمو واستبداد ابنه أبي تاشفين بالملك
واعتقاله إياه) *

ولما رجع السلطان من البطحاء وبطل ما كان يؤمله من الاتصال بالمنتصر ، دس إليه

مع خالصة من أهل دولته يعرف بعلي بن عبد الرحمن بن الكليب بأحمال من المال يودعها إلى أن يجد السبيل لحاجة نفسه . وكتب له بولاية الجزائر ليقم بها حتى يخلص إليه . واطلع موسى على ذلك فأطلع أبا تاشفين على الخبر ، فبعث في أثره من حاشيته من اغتال ابن الكليب وجاء إليه بالمال والكتب ، فاطلع منها على حقيقة أمرهم وأنهم متربصون به ، فاستشاط وجاهر أباه وغدا عليه بالقصر ، فأوقفه على الكتاب وبالغ في عدله . وتخيّر موسى بن يخلف إلى أبي تاشفين ، وهجر باب السلطان وأغرى به ابنه فغدا على أبيه بالقصر بعد أيام وخلعه ، وأسكنه بعض حجر القصر ، ووكل به ، واستخلص ما كان معه من الأموال والذخيرة . ثم بعث به إلى قصبة وَهْرَان فاعتقله بها ، واعتقل من حضر بتلمسان من إخوته ، وذلك آخر ثمان وثمانين وسبعائة وبلغ الخبر إلى المنتصر بمليانة وأبي زيان وعُمَيْر ، فلحقوا بقبائل حُصَيْن واستدّموا بهم ، فأذمّوهم وأنزلوهم عندهم بجبل تيطري . وجمع أبو تاشفين العساكر واستألف العرب من سويد وبني عامر ، وخرج في طلب المنتصر وإخوته ، ومّر بمليانة فللكها . ثم تقدّم إلى جبل تيطري وأقام في حصارهم به ، وهم ممتنعون عليه . والله تعالى أعلم .

* (خروج السلطان أبي حمو من الاعتقال ثم القبض عليه وتغريبه الى المشرق) *

لما طال مقام أبي تاشفين على تيطري لحصار إخوته ، ارتاب بأمر أبيه وطول مغيبه عنه . وشاور أصحابه في شأنه ، فأشاروا بقتله واتفقوا على ذلك ، فبعث أبو تاشفين ابنه أبا زيان في لمة من حاشيته فيهم ابن الوزير عمران بن موسى ، وعبدالله ابن الخراساني ، فقتلوا من كان معتقلاً بتلمسان من أبناء السلطان ، وتقدّموا إلى وَهْرَان وسمع أبو حمو بقدمهم ، فأوجس الخيفة منهم واطلع من جدران القصبة ينادي بالصريخ في أهل البلد ، فبادروا إليه من كل جهة ، وتدلّ لهم بجبل وصله من عمامته التي كان متعمماً بها ، فشالوه حتى استقرّ بالأرض واجتمعوا إليه . وكان الرهط الذين جاؤا والقتلة بباب القصر ، وقد أغلقه دونهم . فلما سمعوا الهيعة واستيقنوا الأمر ، طلبوا

النجاة بدمائهم . واجتمع أهل البلد على السلطان ، وتولى كبر ذلك خطيبهم ، وجدّدوا له البيعة وارتحل من حينه إلى تلمسان ، فدخلها أوائل تسع وثمانين وسبعائة وهي يومئذ عورة بما كان بنو مرين هدموا من أسوارها وأزالوا حصنها . وبعث فيمن كان مخلفاً بأحياء بني عامر من أكابرهم ووجوههم ، فقدموا عليه . وطار الخبر إلى أبي تاشفين بمكانه من حصار تيطري ، فانكفاً راجعاً إلى تلمسان فيمن معه من العساكر والعرب ، وبادره قبل أن يستكمل أمره فأحيط به . ونجا إلى مأذنة الجامع فاعتصم بها ، ودخل أبو تاشفين القصر ، وبعث في طلبه . وأخبر بمكانه فجاء إليه بنفسه واستترله من المأذنة ، وأدركته الرقة ، فجهش بالبكاء وقبّل يده ، وغدا به إلى القصر واعتقله ببعض الحجر هنالك ، ورغب إليه أبوه في تسريحه إلى المشرق لقضاء فرضه ، فشارط بعض تجّار النصارى المتردّدين إلى تلمسان من القيطلان على حمله إلى الإسكندرية ، وأركبه السفن معهم بأهله من فرضة وهرّان ذاهباً لطيبة موكلاً به ، وأقبل أبو تاشفين على القيام بدولته ، والله تعالى أعلم .

* (نزول السلطان أبي حمو ببجاية من السفين واستيلاؤه على تلمسان ولحاق أبي تاشفين بالمغرب) *

لما ركب السلطان أبو حمو السفين ذاهباً إلى الإسكندرية ، وفارق أعمال تلمسان وحاذى بجاية ، داخل صاحب السفينة في أن ينزله ببجاية ، فأسعفه بذلك . فخرج من الطارمة التي كان بها معتقلاً ، وصار الموكّلون به في طاعته . وبعث إلى محمد بن أبي مهدي قائم الأسطول ببجاية المستبدّ على أميرها من ولد السلطان أبي العباس بن أبي حفص . وكان محمد خالصة المستنصر بن أبي حمو من ناحية دولتهم . قد خلص إلى بجاية من تيطري بعدما تنفس لحصار عنهم فبعثه ابن أبي مهدي إلى السلطان أبي حمو بالإجابة إلى ما سأل . وأنزله ببجاية آخر تسع وثمانين وسبعائة وأسكنه بستان الملك المسمّى بالرفيع ، وطير بالخبر إلى السلطان بتونس ، فشكر له ما آتاه من ذلك ، وأمره بالاستبلاغ في تكريمه ، وأن يخرج عساكر بجاية في خدمته إلى حدود عمله متى احتاج إليها . ثم خرج السلطان أبو حمو من بجاية ونزل متيجة واستنفر طوائف العرب من كل ناحية فاجتمعوا إليه ونهض يريد تلمسان واعصوب

بنو عبد الواد على أبي تاشفين بما بذل فيهم من العطاء وقسم من الأموال ،
فنابدوا السلطان أبا حمّو واستصعب عليه أمرهم . وخرج إلى الصحراء وخلف ابنه أبا
زيّان في جبال شلف مقيماً لدعوته . وبلغ إلى تاسة^(١) من ناحية المغرب . وبلغ الخبر
إلى أبي تاشفين فبعث عسكرياً إلى شلف مع ابنه أبي زيّان ووزيره محمد بن عبد الله
ابن مسلم ، فتواقفوا مع أبي زيّان ابن السلطان أبي حمّو فهزمهم . وقتل أبو زيّان بن
أبي تاشفين ووزيره ابن مسلم ، وجماعة من بني عبد الواد . وكان أبو تاشفين لما بلغه
وصول أبيه إلى تاسة ، سار إليه من تلمسان في جموعه ، فأجفل أبو حمّو إلى وادي
صا^(٢) واستجاش بالأحلاف من عرب المعقل هنالك ، فجاءوا لنصره ، ورعوا زمامه
فترها ، وأقام أبو تاشفين قبائله وبلغه هنالك هزيمة ابنه ومقتله ، فولّى منهزماً إلى
تلمسان وأبو حمّو في اتباعه . ثم سرّح أبو تاشفين مولاة سعادة في طائفة من العسكر
لمحاولة العرب في التخلّي عن أبي حمّو ، فانتزفه الفرصة وهزمه وقبض عليه ، وبلغ
الخبر إلى أبي تاشفين بتلمسان ، وكان يؤمل النجاح عند سعادة فيما توجه فيه ،
فأخفق سعيه ، وانفض عنه بنو عبد الواد والعرب الذين معه ، وخرج هارباً من
تلمسان مع أوليائه من سويد إلى مشاتهم بالصحراء . ودخل السلطان أبو حمّو
تلمسان في رجب سنة تسعين وسبعائة وقدم عليه أبنائه فأقاموا معه بتلمسان ، فطرق
المتصر ابنه المرض فهلك بها لأيام من دخوله تلمسان ، واستقرّ الأمر على ذلك ،
والله أعلم .

* (نهوض أبي تاشفين بعساكر بني مرين ومقتل السلطان

أبي حمّو) *

لما خرج أبو تاشفين من تلمسان أمام أبيه ، واتصل بأحياء سويد ، أجمعوا رأيهم على
الاستنجاد بصاحب المغرب ، فوفد أبو تاشفين ومعه محمد بن عريف شيخ سويد على
السلطان أبي العباس صاحب فاس ، وسلطان بني مرين صريخين على شأنهما ،
فقبل وفادتهما ووعدهما بالنصر من عدوهما . وأقام أبو تاشفين عنده ينتظر إنجاز وعده ،

(١) وفي نسخة أخرى : تامة .

(٢) ويدعى وادي (ز ا) وهو إلى يمين وادي ملوية . ونطقه عند أهل المغرب بين الصاد والزاي .

وكان بين أبي حمو وابن الأحمر صاحب الأندلس وشيعة ودّ وعقيدة وصلة ، ولابن الأحمر دالة وتحكّم في دولة أبي العباس صاحب المغرب بما سلف من مظاهرتة على أمره منذ أول دولته ، فبعث أبو حمو في الدفاع عنه من إجازة أبي تاشفين من المغرب إليه ، فلم يجبه صاحب المغرب وفاء بدمته وعلّله بالقعود عن نصره . وألح عليه ابن الأحمر في ذلك ، فتعلّل بالمعاذير . وكان أبو تاشفين قد عقد لأوّل قدومه مع وزير الدولة محمد بن يوسف بن علّال حلفاً اعتقد الوفاء به ، فكان هواه في إنجاده ونصره من عدوّه ، فلم يزل يقتل لسلطانة في الذروة والغارب ، ويلوي عن ابن الأحمر المواعيد حتى أجابه السلطان إلى غرضه .

وسرح ابنه الأمير أبا فارس والوزير محمد بن يوسف بن علّال في العساكر لمصارخة أبي تاشفين . وفصلوا عن فاس أواخر إحدى وتسعين وسبعائة وانتهوا إلى تازي . وبلغ خبرهم إلى السلطان أبي حمو فخرج من تلمسان وجمع أشياء من بني عامر والمخراج^(١) بن عبيد الله وقطع جبل بني ورند المطل على تلمسان ، وأقام بالغيران من جهاته . وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين فقدم إلى تلمسان فجدد المكر والخديعة وشيطان الفتنة والشر موسى بن يخلف ، فاستولى عليها وأقام دعوة أبي تاشفين فيها ، فطير الخبر إلى أبي حمو ابنه عمير ، فصبحه بها ليلة من مسيرة ، فأسلمه أهل البلد . وتقبّض عليه ، وجاء به أسيراً إلى أبيه بمكانه من الغيران ، فوبّخه أبو حمو على فعله . ثم أذاقه ألم عقابه ونكاله ، وأمر به فقتل أشنع قتلة . وجاءت العيون إلى أبي فارس ابن صاحب المغرب ووزيره ابن علّال بمكان أبي حمو واغرابه بالغيران ، فنهض الوزير ابن علّال في عساكر بني مرين لغزوه ، وسار أمامهم سليمان بن ناجي من الأحلاف إحدى بطون المعقل ، يدل بهم طريق القفر حتى صبحوه ومن معه من أحياء المخراج في مكان مقامتهم بالغيران . وناوشوهم القتال فلم يطيقوهم لكثرتهم ، وولّوا منهزمين ، وكبا بالسلطان أبي حمو فرسه فسقط وأدركه بعض فرسانهم وعرفه فقتله قعصاً بالرماح ، وجاؤا برأسه إلى الوزير ابن علّال وأبي تاشفين ، وجيء بابنه عمير أسيراً . وهم أبو تاشفين أخوه بقتله فنعه أياماً ، ثم أمكنوه منه فقتله ، ودخل أبو تاشفين تلمسان أواخر إحدى وتسعين وسبعائة وخيّم الوزير وعساكر بني مرين

(١) وفي نسخة أخرى : المخرج .

بظاهر البلد حتى دفع إليهم ما شارطهم عليه من المال . ثم قفلوا إلى المغرب وأقام هو بتلمسان يقيم دعوة السلطان أبي العباس صاحب المغرب ويخطب له على منابرهِ ، ويبعث إليه بالضريبة كل سنة كما اشترط على نفسه إلى أن كان ما ذكره إن شاء الله تعالى .

* (مسير أبي زيان بن أبي حمو لحصار تلمسان ثم اجفاله عنها ولحاقه بصاحب المغرب) *

كان السلطان أبو حمو قد ولّى على الجزائر ابنه أبا زيان لما عاد إلى ملكه بتلمسان ، وأخرج منها أبا تاشفين . فلما قتل أبو حمو بالغيران كما قلناه ، وخرج أبو زيان من الجزائر ناجياً إلى أحياء حُصْنين يؤمّل الكرّة بهم والأخذ بثأر أبيه وأخيه ، فاشتملوا عليه وأجابوا صريخه . ثم وفد عليه أمراء بني عامر من زغبة يدعونه للملكه ، فسار إليهم وقام بدعوته وطاعته شيخهم المسعود بن صغير ، ونهضوا جميعاً إلى تلمسان في رجب سنة اثنتين وتسعين وسبعائة فحاصروها أياماً ، وسرّب أبو تاشفين المال في العرب ، فافترقوا على أبي زيان ، وخرج إليه أبو تاشفين فهزمه في شعبان من السنة . ولحق بالصحراء واستألف أحياء المعقل ، وعاود حصار تلمسان في شوال ، وبعث أبو تاشفين ابنه صريحاً إلى المغرب ، فجاءه بمدد من العسكر . ولما انتهى إلى تاوريرت أفرج أبو زيان عن تلمسان ، وأجفل إلى الصحراء . ثم أجمع رأيهُ على الوفاة إلى صاحب المغرب فوفد عليه صريحاً ، فتلّقاه ويرّ مقدمه ، ووعدّه النصر من عدوّه ، وأقام عنده إلى حين مهلك أبي تاشفين والله تعالى أعلم .

* (وفاة أبي تاشفين واستيلاء صاحب المغرب على تلمسان) *

لم يزل هذا الأمير أبو تاشفين مملكاً على تلمسان ومقيماً فيها لدعوة صاحب المغرب أبي العباس ابن السلطان أبي سالم ، ومؤدياً للضريبة التي فرضها عليه منذ أوّل ملكه ، وأخوه الأمير أبو زيان مقيم عند صاحب المغرب ينتظر وعده في النصر عليه

حتى تغيّر السلطان أبو العباس على أبي تاشفين في بعض التمرّغات الملوكية ، فأجاب داعي أبي زيّان وجهّزه بالعساكر لملك تلمسان ، فسار لذلك منتصف سنة خمس وتسعين وسبعائة وانتهى إلى تازي وكان أبو تاشفين قد طرّقه مرض أزمّن به . ثم هلك منه في رمضان من السنة . وكان القائم بدولته أحمد بن العزّ من صنائعهم ، وكان يمت إليه بخولة ، فولّى بعده مكانه صبيّاً من أبنائه وقام بكفّالته ، وكان يوسف بن أبي حمّو وهو ابن الزاوية والياً على الجزائر من قبل أبي تاشفين ، فلما بلغه الخبر أغدّ السير مع العرب ، ودخل تلمسان فقتل أحمد بن العزّ والصبيّ المكفول ابن أخيه تاشفين . فلما بلغ الخبر إلى السلطان أبي العباس صاحب المغرب ، خرج إلى تازي وبعث من هناك ابنه أبا فارس في العساكر ، ورد أبا زيّان بن أبي حمّو إلى فاس ووكلّ به . وسار ابنه أبو فارس إلى تلمسان فملكها ، وأقام فيها دعوة أبيه ، وتقدّم وزير أبيه صالح بن حمّو إلى مليانة فملكها ، وما بعدها من الجزائر وتدلّس إلى حدود بجاية . واعتصم يوسف ابن الزاوية بحصن تاحجّموت . وأقام الوزير صالح يحاصره ، وانقرضت دعوة بني عبد الواد من المغرب الأوسط ، والله غالب على أمره .

* (وفاة أبي العباس صاحب المغرب واستيلاء أبي زيّان بن أبي حمّو على تلمسان والمغرب الأوسط) *

كان السلطان أبو العباس بن أبي سالم لما وصل إلى تازي ، وبعث ابنه أبا فارس إلى تلمسان فملكها ، وأقام هو بتازي يشارف أحوال ابنه ووزيره صالح الذي تقدّم لفتح البلاد الشرقية . وكان يوسف بن علي بن غانم أمير أولاد حسين من المعقل قد حجّ سنة ثلاث وتسعين وسبعائة واتصل بملك مصر من الترك . الملك الظاهر بربّوق ، وتقدّمت إلى السلطان فته وأخبرته بمحلّه من قومه ، فأكرم تلقّيه وحمله بعد قضاء حجّة هدية إلى صاحب المغرب ، بطوقه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة الملوك . فلما قدم بها يوسف على السلطان أبي العباس عظم موقعها ، وجلس في مجلس جعله لعرضها والمباهاة بها ، وشرع في المكافأة عنها بتخيّر الجياد والبضائع والثياب ، حتى استكمل من ذلك مراضيه ، واعتزم على انفاذها مع يوسف بن علي حاملها الأول . وأنه يرسله من تازي أيام مقامته هناك ، فطرّقه هنالك مرض كان فيه حتفه في محرم

سنة ست وتسعين وسبعائة واستدعوا ابنه أبا فارس من تلمسان فبايعوه بتأزي ، وولّوه مكانه ، ورجعوا به إلى فاس ، وأطلقوا أبا زيان بن أبي حمو من الاعتقال ، وبعثوا به إلى تلمسان أميراً عليها ، وقاماً بعد السلطان أبي فارس فيها ، فسار إليها وملكها ، وكان أخوه يوسف بن الزاوية قد اتصل بأحياء بني عامر يروم ملك تلمسان والاجلاب عليها ، فبعث إليهم أبوزيان عندما بلغه ذلك وبذل لهم عطاء جزيلاً على أن يبعثوا به إليه ، فأجابوه إلى ذلك وأسلموه إلى ثقات أبي زيان ، وساروا به فاعترضهم بعض أحياء العرب ليستنقذوه منهم ، فبادروا بقتله ، وحملوا رأسه إلى أخيه أبي زيان فسكنت أحواله ، وذهبت الفتنة بذهابه ، واستقامت أمور دولته ، وهم على ذلك لهذا العهد والله غالب على أمره .

وقد انتهى بنا القول في دولة بني عبد الواد من زناتة الثانية ، (وبني) علينا خبر الرهط الذين تحيَّزوا منهم إلى بني مرين منذ أول الدولة ، وهم بنوكمي من فصائل علي بن القاسم إخوة طاع الله بن علي ، وخبر بني كندور أمراءهم بمراكش ، فلنرجع إلى ذكر أخبارهم ، وبها نستوفي الكلام في أخبار بني عبد الواد . والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

أبو تاشفين —
عمر —

يوسف بن

السلطان أبي

حمو موسى بن يوسف

بن عبد الرحمن بن يحيى

بن يوسف بن محمد بن عثمان

بن عثمان بن فارس

بن فارس بن فارس

بن فارس بن فارس

بن فارس بن فارس

بن فارس بن فارس

بن فارس بن فارس

أبو زيان محمد بن عثمان —
أبو ثابت —

أبو تاشفين بن أبي حمو موسى بن عثمان —
فارس —

زكرار —

الحسن بن جابر بن يوسف —
عبد الملك بن محمد بن قاسم بن درع —

عثمان بن يحيى بن محمد بن أحمد بن يعلى —

يوسف بن محمد

لحمية بن محمد بن فارس —
محمود بن محمد بن فارس —

الحسن بن جابر بن يوسف —
عبد الملك بن محمد بن قاسم بن درع —

الناصر —
الحسين بن محمد بن فارس —
الحسين بن محمد بن فارس —
الحسين بن محمد بن فارس —

* (الخبر عن بني كميّ احد بطون بني القاسم بن عبد الواد وكيف نزعوا الى بني مرين وما صار لهم بنواحي مراکش وأرض السوس من الرياسة) *

قد تقدّم لنا أوّل الكلام في بني عبد الواد أنّ بني كمي هؤلاء من شعوب القاسم ، وأنهم بنو كمي بن يمل بن يزكن بن القاسم إخوة طاع الله وبني دلول وبني معطي دلول . وبني معطي بن جوهر بن علي ^(١) . وذكرنا ما كان بين طاع الله وبين إخوانهم بني كمي من الفتنة ، وكيف قتل كندوز بن عبد الله كبير بني كمي زيان بن ثابت بن محمد كبير بني طاع الله ، وأنّ جابر بن يوسف بن محمد القائم بالأمر من بعده ثار منهم بزيان ، وقتل كندوزاً غيلة أو حرباً ، وبعث برأسه إلى يغمراسن بن زيان فنصب عليها أهل . بيته القدور شفاية لنفوسهم . واستمرّ الغلب بعدها على بني كمي ، فلحقوا بحضرة تونس وكبيرهم إذ ذاك عبد الله بن كندوز . ونزلوا على الأمير أبي زكريا حتى كان من استيلائه على تلمسان ما قدّمنا ذكره . وطمع عبد الله في الاستبداد بتلمسان ، فلم يتفق ذلك . ولما هلك مولانا الأمير أبو زكريا ، وولي ابنه المتصر ، أقام عبد الله صدرأ من دولته . ثم ارتحل هو وقومه إلى المغرب ونزل على يعقوب بن عبد الحق قبل فتح مراکش ، فاهتز يعقوب لقدمه وأحلّه بالمكان الرفيع من دولته . وأنزل قومه بجهات مراکش ، وأقطعهم البلاد التي كفتهم مهاتهم . وجعل السلطان انتجاع إبله وراحلته في أحيائهم . وقدم على رعايتها حسن بن أبي سعيد الصيحي وأخاه موسى ، وصلا في لفيفه من بلاد المشرق ، وكانا عارفين برعاية الإبل والقيام عليها ، وأقاموا يتقلّبون في تلك البلاد ، ويتعدّون في نجعتها إلى أرض السوس . وأوفد يعقوب بن عبد الحق عبد الله بن كندوز هذا على المتصر صاحب أفريقية سنة خمس وستين وستائة مع عامر ابن أخيه إدريس كما قدّمناه . والتحم بنو كمي ببني مرين وأصبحوا إحدى بطونهم . وهلك عبد الله بن كندوز ، وصارت رياستهم من بعده لابنه عمر بن عبد الله . فلمّا نهض يوسف بن يعقوب بن عبد الحق

(١) وفي نسخة أخرى : وبني دلول وبني موطي بن جوهر بن علي .

إلى المغرب الأوسط وشغل بحصار تلمسان ، وتحدث الناس بما نزل بعبد الواد من بني مرين ، أخذت بني كمي الحمية وامتعضوا لقومهم ، وأجمعوا الخلاف والخروج على السلطان . ولحقوا بحاجة^(١) سنة ثلاث وسبعائة ، واستولوا على بلاد السوس ، فخرج إليهم أخو السلطان الأمير بمراكش يعيش بن يعقوب ، فناجزوه الحرب بتادارت وغلبوه ، واستمرّوا على خلافهم . ثم عاود محاربتهم بتامطولت سنة أربع وسبعائة بعدها ، فهزمهم الهزيمة الكبرى التي قصّت جناحهم . وقتل عمر بن عبد الله وجماعة من كبارهم ، وفروا أمامه إلى الصحراء ، ولحقوا بتلمسان وهدم يعيش بن يعقوب تارودنت قاعدة أرض السوس ، وأقام بنوكندوز بعدها بتلمسان نحواً من ستة أشهر . ثم توجّسوا الغدر من ولد عثمان بن يغمراسن فرجعوا إلى مراكش . واتبعهم عساكر السلطان وأبلى منهم في القتال عنهم محمد بن أبي بكر بن حمّامة بن كندوز ، وخلصوا إلى منجاتهم مشرّدين بصحراء السوس إلى أن هلك السلطان يوسف بن يعقوب . وراجعوا طاعة الملوك بالمغرب ففعلوا لهم عما سلف من هذه الجزيرة وأعادوهم إلى مكانهم من الولاية ، فأحضوا النصيحة والمخالصة . وكان أميرهم من بعد عمر ابنه محمد ، وأقام في إمارتهم سنين^(٢) ثم ابنه موسى بن محمد من بعده كذلك . واستخلصه السلطان أبو الحسن أيام الفتنة بينه وبين أخيه أبي عليّ ، لعهد أبيهما السلطان أبي سعيد ومن بعده ، فكانت له في المدافعة عن نواحي مراكش آثار وأيام . ثم هلك موسى بن محمد فولّى السلطان أبو الحسن مكانه ابنه يعقوب بن موسى . ولما غلب على تلمسان وأصار بني عبد الواد في خوله وجنوده ، تمشت رجالاتهم وساموا أشجانهم حتى إذا كانت واقعة القيروان وتواقف السلطان وبني سُليّم داخلهم يعقوب بن موسى في أن ينخذل عن السلطان إليهم ببني عبد الواد ومن إليهم من مغراوة وتوجين ، وأوعدهم لذلك ، ثم مشى في قومه وكافة بني عبد الواد فأجابوه الى ذلك . ولحقوا جميعاً ببني سُليّم ، فجزّوا بذلك الهزيمة على السلطان وكانت نكبة القيروان المشهورة . ولحقوا^(٣) بعدها بتلمسان ، وولّوا أمرهم في

(١) وفي نسخة أخرى : ولحقوا بالحاجة . ولم يذكر صاحب معجم البلدان هذه ولا تلك وإنما ذكر حاجة : موضع في قول لييد : فذكرها مناهل أجناد بحاجة ، لا تترج بالدوالي .

(٢) كذا في النسخة البارسية وفي نسخة أخرى : ستين .

(٣) الضمير يعود الى بني عبد الواد .

بني يغمراسن . وهلك يعقوب بن موسى بأفريقية ، ولحق أخوه رحو بالمغرب . وكان السلطان أبو عئان قد استعمل على جماعتهم وعملهم عبو بن يوسف بن محمد . وهو ابن عمهم دنيا ، فأقام فيهم كذلك حتى هلك ، فولي من بعده إبنه محمد بن عبو وهم على ذلك لهذا العهد ، يعسكرون للأمير بمراكش ، ويتولون من خدمة السلطان هنالك ما لهم فيه الغناء والكفاية . فكأنتهم بمعزل عن بني عبد الواد لاستحكام العداوة بمقتل زيان بن ثابت . والله وارث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين ، لا رب غيره ولا معبود سواه .

يعقوب
 رحو — بن
 موسى بن
 محمد بن
 عمر بن
 عبد الله بن
 محمد بن أبي بكر بن حمادة —
 كنذوز

* (الخبر عن بني راشد بن محمد بن يادين وذكر أوليتهم
وتصاريف أحوالهم) *

وإنما قدّمنا ذكرهم قبل استتمام بطون بني يادين لأنهم لم يزلوا أحلافاً لبني عبد الواد ومن جملتهم ، فكانت أخبارهم من أخبارهم ، وأمّا راشد أبوهم فهو أخو يادين . واختصّ بنوه كما قلنا ببني عبد الواد ، وكانت مواطنهم بالصحراء بالجبل المعروف براسد اسم أبيهم . وكانت مواطن مديونة من قبائل البربر قبلة تاسالت وبنو ورنيد من بطون دمر قبلة تلمسان إلى قصر سعيد . وكان جبل هوّارة موطناً لبني يلوما الذين كان لهم الملك كما قدّمنا . ولما اضمحل أمر بني يلوما وذهبت دولتهم ، زحف بنو راشد هؤلاء من بطونهم بجبل راشد إلى بسائط مديونة وبني ورنيد ، فشنوا عليهم الغارات ، وطالت بينهم الحرب إلى أن غلبوهم على مواطنهم وأجّوهم إلى الأوعار ، فاستوطن بنو ورنيد الجبل المطل على تلمسان ، واستوطن مديونة جبل تاسالت . وملك بنو راشد بسائطهم القبلية . ثم استوطنوا جبلهم المعروف بهم لهذا العهد ، وهو بلد بني يفرن الذين كانوا ملوك تلمسان لأول الاسلام ، وكان منهم أبو قرّة الصفري كما قدّمناه . وكان منهم بعد ذلك يعلى بن محمد الأمير الذي قتله جوهر الصقلي قائد الشيعة كما ذكرناه في أخبارهم . ويعلى هذا هو الذي اختط بهذا الجبل مدينة ايفكان التي هدمها جوهر يوم قتله . فلما ملك بنو راشد هذا الجبل استوطنوه وصار حصناً لهم ، ومحالّاتهم في ساحة القبلة إلى أن غلبهم العرب عليها لهذا العهد ، وأجّوهم إلى الجبل . وكان غلب بني راشد على هذه الأوطان بين دخول بني عبد الواد إلى المغرب الأوسط ، وكانوا شيعة لهم وأحلافاً في فنتهم مع بني توجين وبني مرين ، وكانت رياستهم في بيت منهم يعرفون ببني عمّران ، وكان القائم بها لأول دخولهم ابراهيم بن عمران واستبدّ عليه إخوه وترمار^(١) وقام بأمرهم إلى أن هلك ، فولى ابنه مقاتل بن وترمار وقتل عمه ابراهيم وافترقت رياسة بني عمران من يومئذ بين بني ابراهيم وبني وترمار إلا أن رياسة بني ابراهيم أظهر ، فولى بعد ابراهيم بن عمران ابنه وترمار وكان معاصراً ليغمراسن بن زيان وطال عمره ، ولما هلك لتسعين من المائة السابعة ولي

(١) هكذا في الجدول المرقق وترمار وفي نسخة أخرى : وترمار .

أمرهم غانم ابن أخيه محمد بن ابراهيم . ثم كان فيهم من موسى بن يحيى بن وترمار ، لا أدري معاقباً لغانم أو توسطها أحد . ولما زحف بنو مريـن إلى تلمسان آخر زحفهم ، صار بنو راشد هؤلاء إلى طاعة السلطان أبي الحسن ، وشيخهم لذلك العهد أبو يحيى موسى بن عبد الرحمن بن وترمار بن ابراهيم . وانحصر بتلمسان بنو عمه كرجون بن وترمار وانقرض أمر بني عبد الواد وأشياهم . ونقل بنو مريـن رؤوس زناتة أجمع إلى المغرب الأقصى ، فكان بنو وترمار هؤلاء ممن صار إلى المغرب وأوطنوه إلى أن صار الأمر لبني عبد الواد الكرة الثالثة على يد أبي حمو الأخير موسى بن يوسف . وكان شيخ بني راشد لعهد ابن أبي يحيى بن موسى المذكور أقبل إليهم من المغرب من إيالة بني مريـن ، فاتهمه أبو حمو بمدخلتهم ، فتقبّض عليه واعتقله مدة بوهـران . وفر من معتقله فلحق بالمغرب وارتحل بين أحيائهم مدة . ثم رجع إلى الطاعة واقتضى العهد من السلطان أبي حمو ، وولاه على قومه . ثم تقبّض عليه واعتقله إلى أن قتله بمحبسه سنة ثمان وستين وسبعائة ، وانقرض أمر بني وترمار بن ابراهيم ، وأمّا بنو وترمار بن عمران فقام بأمرهم بعد مقاتل بن وترمار أخوه أبو زركن^(١) بن وترمار ، ثم ابنه يوسف بن أبي زركن ، ثم آخرون من بعدهم لم تحضرنى أسماؤهم إلى أن غلب عليهم بنو وترمار بن ابراهيم . وقد ذهبت لهذا العهد رئاسة أولاد عمران جميعاً ، وصار بنو راشد هؤلاء خولا للسلطان وجباية ، وبقيتهم يجبلهم على الحال التي ذكرناها ، والله وارث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

(١) وفي نسخة ثانية : تورزكن .

زيان بن أبي يحيى بن موسى بن عبد الرحمن —

موسى بن يحيى —
كرجون —

— سحر بن العبد

مفان

يوسف بن زركن — بن وترمار

بن عمران

* (الخبر عن بني توجين من شعوب بني يادين من أهل هذه الطبقة الثالثة من زناتة وما كان لهم من الدولة والسلطان بالمغرب الأوسط وأولية ذلك ومصايره) *

كان هذا الحي من أعظم أحياء بني يادين وأوفرهم عدداً . وكانت مواطنهم حفافي وادي شلف قبلة جبل وانشرس من أرض السرسو ، وهو المسمى لهذا العهد نهر صا^(١) وكان بأرض السرسو بجهة الغرب منه بطون من لواتة ، وغلبهم عليها بنو وجديجن

(١) وفي نسخة ثانية : نهر واصل واما صاحب معجم البلدان فقد ذكر صا : بالقصر كورة بمصر . وصا مساة بصا بن مصر بن بيسر بن حام بن نوح .

ومطاطة . ثم صارت أرض السرسو لبني توجين هؤلاء واستضافوها الى مواطنهم الأولى وصارت مواطنهم ما بين موطن بني راشد وجبل دراك في جانب القبلة . وكانت لهم رئاسة أيام صنهاجة لعطية بن دافلتن ، وابن عمه لقمان بن المعتر كما ذكره ابن الرقيق . ولما كانت فتنة حمّاد بن بلكين مع عمه باديس ، ونهض إليه باديس من القيروان حتى احتل بوادي شلف ، تحيّر إليه بنو توجين هؤلاء ، وكان لهم في حروب حمّاد آثار مذكورة . وكان لقمان بن المعتر أظهر من عطية بن دافلتن ، وكان قومهم يومئذ زهاء ثلاثة آلاف . وأوفد لقمان ابنه بدرأ على باديس قبل اللقاء طاعة له وانحياشاً . فلما انهزم حمّاد رعى لهم باديس انحياشهم إليه ، وسوّغ لهم ما غنموه ، وعقد للقمان على قومه ومواطنه ، وعلى ما يفتح من البلاد بدعوته . ثم انفرد برياستهم بعد حين بنو دافلتن . ويقال إنه دافلتن بن أبي بكر بن الغلب . وكانت رياستهم لعهد الموحدين لعطية بن مناد بن العباس بن دافلتن ، وكان يلقب عطية الحيو . وكانت بينهم لعهد وبين بني عبد الواد حروب ، كان متولي كبرها من بني عبد الواد شيخهم لذلك العهدا عدوى بن يكنيجن^(١) بن القاسم ، فلم تزل تلك الفتنة بينهم إلى أن غلبهم بنو عبد الواد آخرأ على مواطنهم كما نذكره .

ولما هلك عطية الحيو قام بأمرهم أبو العباس ، وكانت له آثار في الإجلاب على ضواحي المغرب الأوسط . ونقض طاعة الموحدين إلى أن هلك سنة سبع وستائة ، دس عامل تلمسان يومئذ أبو زيد بن لوحان^(٢) من اغتاله فقتله . وقام بأمرهم من بعده ابنه عبد القوي ، فانفرد برياستهم وتوارثها عقبه من بعده كما نذكره . وكان من أشهر بطون بني توجين هؤلاء يومئذ بنو يدللتن وبنو قري^(٣) وبنو مادون وبنو زنداك وبنو وسيل وبنو قاضي وبنو مامت ، ويجمع هؤلاء الستة بنو مدن . ثم بنو تيغرين وبنو يرناتن وبنو منكوش ، ويجمع هؤلاء الثلاثة بنو سرغين^(٤) ، ونسب بني زنداك دخيل فيهم ، وإنما هم من بطون مغراوة . وبنو منكوش هؤلاء منهم عبد القوي بن العباس ابن عطية الحيو ، هكذا رأيت نسبه لبعض مؤرخي زناتة المنكوشي . وكانت رئاسة بني

(١) وفي نسخة ثانية : يكنمن .

(٢) وفي نسخة ثانية : بوجان .

(٣) وفي نسخة ثانية : تمزي .

(٤) وفي نسخة ثانية : رسوغين .

توجين جميعاً عبد انقراض أمر بني عبد المؤمن لعبد القويّ بن العباس بن عطية الحيو ، وأحيائهم جميعاً بتلك المحالات القبلية .

فلما وهن أمر بني عبد المؤمن وتغلب مغراوة على بسائط متيجة ، ثم على جبل وانشرس ، نازعهم عبد القوي هذا وقومه أمر وانشرس ، وغالبوهم إلى أن غلبوهم عليه ، واستقرّ في ملكهم وأوطنه بنو تيغرين وبنو منكوش من أحيائهم . ثم تغلبوا على منداس وأوطنها أحياء بني مدن جميعاً . وكان الظهور منهم لبني يدلتن ، ورياسة بني يدلتن لبني سلامة . وبقي بنو يرانان من بطونهم بمواطنهم الأولى قبله وانشرس . وكان من أحلاف بني عطية الحيو بنو تيغرين منهم خاصة ، وأولاد عزيز بن يعقوب ، ويعرفون جميعاً بالوزراء^(١) ولما تغلبوا على الأوطان والتلول ، وأزاحوا مغراوة عن المدينة ووانشرس وتافر كينت ، واستأثروا بملكها وملك الأوطان عن غريبها مثل : منداس والجعبات وتاوغزوت ، ورئيسهم لذلك العهد عبد القويّ بن العباس ، والكل لأمره . فصار له ملك بدوي ولم يفارق فيه سكنى الخيام ولا أبعاد النجعة ولا ائتلاف الرحلتين . يتتابون في مشاتهم إلى مصاب والزاب ، ويتزلون في المصايف بلادهم هذه من التل ولم يزل هذا شأن عبد القوي وابنه محمدا ، إلى أن تنازع بنوه الأمر من بعده ، وقتل بعضهم بعضاً . وتغلب بنو عبد الواد على عامّة أوطانهم وأحيائهم ، واستبدّ عليهم بنو يرانان وبنو يدلتن فصاروا إلى بني عبد الواد . وبقي أعقابهم بجبل وانشرس إلى أن انقضوا على ما ذكره بعد .

وكان عبد القويّ لما غلب مغراوة على جبل وانشرس ، اختطّ حصن مرات ، بعد أن كان منديل المغراوي شرع في اختطاطه ، فبنى منه القصبة ولم يكمله ، فأكمّله محمد بن عبد القوي من بعده . ولما استبدّ بنو أبي حفص بأمر أفريقية ، وصارت لهم خلافة الموحدين نهض الأمير أبو زكريا إلى المغرب الأوسط ، ودخلت في طاعته قبائل صنهاجة ، وفرت زناتة أمامه . وردّد إليهم الغزو فأصاب منهم . وتقبّض في بعض غزواته على عبد القوي بن العباس أمير بني توجين فاعتقله بالحضرة . ثم منّ عليه وأطلقه على أن يستألف له قومه ، فصاروا شيعة له ولقومه آخر الدهر . ونهض الأمير أبو زكريا بعدها إلى تلمسان ، فكان عبد القوي وقومه في جملة حتى إذا ملك

(١) وفي نسخة ثانية : بالحشم .

تلمسان ، ورجع إلى الحضرة عقد لعبد القويّ هذا على قومه ووطنه ، وأذن له في اتخاذ الآلة ، فكانت أول مراسم الملك لبني توجين هؤلاء . وكانت حالهم مع بني عبد الواد تختلف في السلم والحروب . ولما هلك السعيد على يد يغمراسن وقومه كما ذكرناه ، استنفر يغمراسن سائر أحياء زناتة لغزو المغرب ، ومسابقة بني مرين إليه ، فنفر معه عبد القوي في قومه سنة سبع وأربعين وستائة وانتهوا إلى تازي ، واعترضهم أبو يحيى بن عبد الحق أمير بني مرين في قومه ، فنكصوا واتبعهم إلى انكاد فكان اللقاء ، وانكشفت جموع بني يادين وكانت الهزيمة التي ذكرناها في أخبار بني عبد الواد . وهلك عبد القوي مرجعه منها في سنته بالموضع المعروف باحمون^(١) من مواطنهم . وتصدى للقيام بعده بأمرهم ابنه يوسف ، فكث في تلك الإمارة أسبوعاً ، ثم قتله على حدث أبيه أخوه محمد بن عبد القويّ ، وولي عهد أبيه سابع مواراته . وقرّ ابنه صالح بن يوسف إلى بلاد صنهاجة بجبال المدية ، فأقام بها هو وبنوه . واستقلّ محمد برياسة بني توجين ، واستغلظ ملكه ، وكان الفحل الذي لا يقرع أنفه . ونازعه يغمراسن أمره ونهض إلى حربه سنة تسع وأربعين وستائة وعمد إلى حصن تافركينت فنازله ، وبه يومئذ حافده عليّ بن زيان بن محمد في عصابة من قومه ، فحاصره أياماً وامتنعت عليه فارتحل عنها ، ثم تواضعوا أوزار الحرب ودعاه يغمراسن إلى مثل ما دعا إليه أباه من غزو بني مرين في بلادهم فأجاب . ونهضوا سنة سبع وخمسين وستائة ومعهم مغراوة فانتهاوا إلى كلدمان ما بين تازي وأرض الريف . ولقيهم يعقوب بن عبد الحق في جموعه فانكشفوا ورجعوا منهزمين إلى بلادهم كما ذكرناه . وكانت بينه وبين يغمراسن بعد ذلك فتن وحروب ، فنازله فيها بجبل وانشرس مرّات ، وجاس خلال وطنه . ولم يقع بعدها بينها مراجعة لاستبداد يغمراسن بالملك ، وسوّه إلى التغلب على زناتة أجمع وبلادهم ، وكانوا جميعاً منحاشين إلى الدولة^(٢) الحفصيّة . وكان محمد بن عبد القوي كثير الطاعة للسلطان المستنصر .

(ولما نزل) النصارى الإفريقية بساحل تونس سنة ثمان وستين وستائة وطعموا في ملك الحضرة ، بعث المستنصر إلى ملوك زناتة بالصريح فصرفوا وجوههم إليه ، وخفّ من بينهم محمد بن عبد القويّ في قومه ومن احتشد من أهل وطنه ، ونزل على السلطان

(١) وفي نسخة ثانية : ماحنون ، وفي نسخة أخرى : ماحيون .

(٢) وفي نسخة ثانية : الدعوة الحفصيّة .

بتونس وأبلى في جهاد العدو أحسن البلاء ، وكانت له في أيامه معهم مقام
مذكورة ، ومواقف مشهورة ، وعند الله محتسبة معدودة . ولما ارتحل العدو عن الحضرة
وأخذ محمد بن عبد القوي في الانصراف إلى وطنه ، أسنى السلطان جائزته ، وعمّ
بالإحسان وجوه قومه وعساكره ، وأقطعه بلاد مغراوة وأوماش من وطن الزاب ،
وأحسن منقلبه . ولم يزل بعد ذلك معتقلاً بطاعته مستظهِراً على عدوه بالانحياش
إليه . ولما استغلظ بنو مرين على يغمراسن بعد استيلائهم على أمصار المغرب
واستبدادهم بملكه ، وصل محمد يده بهم في الاستظهار على يغمراسن ، وأوفد ابنه
زيّان بن محمد عليهم .

ولما نهض يعقوب بن عبد الحق إلى تلمسان سنة سبعين وستمائة وأوقع بيغمراسن في
الوقعة التي هلك فيها ابنه فارس . نهض محمد بن عبد القوي للقائه ومرّ في طريقه
بالبطحاء ، وهي يومئذ ثغر لأعمال يغمراسن فهدمها . ولقي يعقوب بن عبد الحق في
ساحة تلمسان مباحياً بآلته فأكرم يعقوب وفادته وبرّ مقدمه . ونازلوها أياماً فامتنعت
عليهم ، وأجمعوا على الإفراج وتأذن لهم يعقوب بن عبد الحق متلوماً عليها إلى أن
يلحق محمد وقومه ببلادهم ، حذراً عليهم من غائلة يغمراسن ففعل ، وملأ حقائبهم
بأنحافه ، وجنّب لهم مائة من الجياد العتاق بالمرائب الثقيلة ، وأراح عليهم ألف ناقة
حلوب ، وعمّمهم بالصلوات والخلع الفاخرة ، واستكثر لهم من السلاح والغازات
والأخبية والحملان وارتحلوا ، ولحق محمد بن عبد القوي بمكانه من جبل وانشريس ،
واتصلت حروبه مع يغمراسن ، وكثر اجلابه على وطنه وعيثه في بلاده . وهو مع ذلك
مقيم على موالة يعقوب وأنحافه بالعتاق من الخيل والمستجاد من الطرف . حتى أن
يعقوب إذا اشترط على يغمراسن في مهادنته جعل سلمهم من سلمه ، وحربهم من
حربه ، وبسببهم كان نهوض يعقوب بن عبد الحق سنة ثمانين وستمائة لما اشترط عليه
ذلك ، ولجّ في قبوله ، فنهض إليه وأوقع به بخرزوزة . ثم أناخ عليه بتلمسان ،
ووافاه هنالك محمد بن عبد القوي فلقية بالقصاب^(١) ، وعاثوا في نواحي تلمسان نبهاً
وتخريباً . ثم أذن يعقوب لمحمد وقومه في الانطلاق إلى بلادهم ، وتلوم هو بمكانه من
ضواحي تلمسان مدة منجاتهم إلى مكانهم من وانشريس حذراً عليهم من اعتراض

(١) وهي القصبات : مدينة بالمغرب من بلاد البربر : معجم البلدان .

يغمراسن . ولم يزل شأنها ذلك إلى أن هلك يغمراسن بسد لونة^(١) من بلاد مغراوة خاتمة إحدى وثمانين وستائة وفي خلال ذلك استغاث بنو مرين على بني عبد الواد ، واستوسق لمحمد هذا ملكه ، فتغلب على أوطان صنهاجة بجبال المدية ، وأخرج الثعالب من جبل تيطري بعد أن غدر بمشيختهم وقتلهم ، فانزاحوا عنه إلى بسائط متيجة وأوطنوها . واستولى محمد على حصن المدية وهو المسمى بأهله لَمْدِيَّة (بفتح اللام والميم وكسر الدال وتشديد الياء بعدها وهاء النسب في آخرها) . وهم بطن من بطون صنهاجة وكان المخطط لها بلدكين بن زيري . ولما استولى محمد عليها وعلى ضواحيها انزل أولاد عزيز بن يعقوب من حشمه بها ، وجعلها لهم موطناً وولاية . وقر بنو صالح ابن أخيه يوسف بن عبد القوي من مكانهم بين صنهاجة منذ مقتل أبيه يوسف كما ذكرناه . ولحقوا ببلاد الموحدين بأفريقية ، فلقوهم مبرةً وتكريماً . وأقطعوا لهم بضواحي قُسْطَينَة ، وكانوا يقولون عليهم أيام حروبهم وفي مواطن قتالهم . وكان من أظهرهم عمر بن صالح وابناه صالح ويحيى بن عمر ، وحافده يحيى بن صالح بن عمر في آخرين مشاهير .

وأعقابهم لهذا العهد بنواحي قستطينة وفي إيالة الملك من آل أبي حفص ، يعسكرون معهم في غزواتهم ويبلون في حروبهم ، ويقومون بوظائف خدمتهم . وكان الوالي من أولاد عزيز على المدية حسن بن يعقوب ، وبنوه من بعده يوسف وعلي ، وكانت مواطنهم ما بين المدية وموطنهم الأول ماخنون . وكان بنو يدلتن أيضاً من بني توجين قد استولوا على حصن الجعبات وقلعة تاوغزوت . ونزل القلعة كبيرهم سلامة بن علي مقيماً على طاعة محمد بن عبد القوي وقومه ، فاتصل ملك محمد بن عبد القوي في ضواحي المغرب الأوسط ما بين مواطن بني راشد إلى جبال صنهاجة بنواحي المدية ، وما في قبلة ذلك من بلاد السرسو وجباله إلى أرض الزاب . وكان يبعد للرحلة في مشناه فينزل الروسن ومغرة^(٢) والمسيلة . ولم يزل دأبه ذلك . ولما هلك يغمراسن سنة إحدى وثمانين وستائة كما ذكرناه استجدت الفتنة بين عثمان ابنه وبين محمد بن عبد القوي على أثر ذلك لسنة أربع وثمانين وستائة وولي من بعده ابنه سيّد الناس ، فلم تطل مدّة ملكه . وقتله أخوه موسى لسنة أو نحوها من بعده مهلك أبيه . وقام موسى بن

(١) وفي نسخة أخرى : شدبوية ولم يذكرها ياقوت الحموي في معجمه .

(٢) وفي نسخة ثانية : الدوسن والمقرة .

محمد في إمارة بني توجين نحواً من عامين . وكان أهل مرات من أشد أهل وطنه شوكة وأقواهم غائلة ، فحدثته نفسه أن يستلحم مشيختهم ويريح نفسه من محاذرتهم ، فأجمع لذلك ونزلها ، ونذروا بشأنه ورأيه فيهم فاستأثروا جميعاً وثاروا به فقاتلهم . ثم انهزم مشحناً بالجراحة والجأؤه إلى مهاوي الحصن فتردى منها وهلك . وولي من بعده عمر ابن أخيه اسمعيل بن محمد مدة أربعة أعوام ، ثم غدر به أولاد عمه زيان بن محمد فقتلوه وولّوا كبيرهم ابراهيم بن زيان وكان حسن الولاية عليهم ، يقال : ما ولي بعد محمد فيهم مثله . وفي خلال هذه الولايات استغلظ عليهم بنو عبد الواد واشتدت وطأة عثمان بن يغمراسن عليهم بعد مهلك أبيهم محمد ، فنهض إليهم سنة ست وثمانين وستائة وحاصرهم بجبل وانشريس وعاث في أوطانهم ونقل زروعها إلى مازونة حين غلب عليها مغراوة . ثم نازل حصن تافركينت وملكها بمدخله القائد بها غالب الخصي مولى سيّد الناس بن محمد ، وقفل إلى تلمسان . ثم نهض إلى أولاد سلامة بقلعة تاوغزوت ، وامتنعوا عليه مراراً ، ثم أعطوه اليد على الطاعة ومفارقة بني محمد بن عبد القوي فنبذوا لهم العهد ، وصاروا إلى إيالة عثمان بن يغمراسن . وفرضوا لهم المغارم على بني يدلتن . وسلك عثمان بن يغمراسن مسلك التضريب بين قبائل بني توجين وتخريبهم على ابراهيم بن زيان أميرهم ، فعدا عليه زكار^(١) بن أعجمي شيخ بني مادون وقتله بالبطحاء في إحدى غزواته لسبعة أشهر من ملكه . وولي بعده موسى بن زرارة بن محمد بن عبد القوي ، بايع له بنو تيغرين واختلف سائر بني توجين فأقام بعض سنة . وعثمان بن يغمراسن في خلال هذا يستألف بني توجين شعباً فشعباً إلى أن نهض إلى جبل وانشريس فملكه . وفرّ أمامه موسى بن زرارة إلى نواحي المدينة وهلك في مفرّه ذلك . ثم نهض عثمان إلى المدينة سنة ثمان وثمانين وستائة بعدها فملكها بمدخله المدينة من قبائل صنهاجة ، غدروا بأولاد عزيز وأمكنوه منها . ثم انتقصوا عليه لسبعة أشهر ورجعوا إلى إيالة أولاد عزيز ، فصالحوا عثمان بن يوسف على الأتاوة والطاعة كما كانوا مع محمد بن عبد القوي وبنيه ، فملك عثمان بن يغمراسن عامّة بلاد توجين . ثم شغل بما دهمه من مطالبة بني مرين أيام يوسف بن يعقوب ، فولّى على بني توجين من بني محمد بن عبد القوي أبو بكر بن ابراهيم بن محمد مدة

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : زكدان .

عامين ، أخاف فيها الناس وأساء السيرة . ثم هلك فنصب بنو تيغرين بعده أخاه عطية المعروف بالأصم ، وخالفهم أولاد عزيز وجميع قبائل توجين فبايعوا ليوسف ابن زيان بن محمد . وزحفوا إلى جبل وانشرس فحاصروا به عطية وبني تيغرين عاماً أوزيد . وكان يحيى بن عطية كبير بني تيغرين هو الذي تولّى البيعة لعطية الأصم . فلما اشتدّ بهم الحصار واستفحل ملك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصار تلمسان ورغبه في ملك جبل وانشرس فبعث معه الجيوش لنظر أخيه أبي سرحان ، ثم أخيه أبي يحيى . وكان نهوض أبي يحيى سنة إحدى وسبعائة ، فتوغّل في ناحية الشرق ، ولما رجع صمد إلى جبل وانشرس ، فهدم حصونه ، وقفل ونهض ثانية إلى بلاد بني توجين فشرّدهم عنها ، وأطاعه أهل تافر كينت ، ثم انتهى إلى المدينة فافتتحها صلحاً ، واختطّ قصبتها ورجع إلى أخيه يوسف بن يعقوب ، فانتقض أهل تافر كينت بعد صدوره عنهم . ثم راجع بنو عبد القوي بصائرهم في التمسك بالطاعة . ووفدوا على يوسف بن يعقوب فتقبّل طاعتهم وأعادهم إلى بلادهم ، وأقطعهم . وولّى عليهم علي بن الناصر بن عبد القوي ، وجعل وزارته ليحيى بن عطية فغلبه على دولته ، واستقام ملكه . وهلك خلال ذلك فعقد يوسف بن بن يعقوب مكانه لمحمد بن عطية الأصم ، واستقام على طاعته وقتاً ، ثم انتقض بين يدي مهلكه سنة ست وسبعائة وحمل قومه على الخلاف . ولما هلك يوسف بن يعقوب وتجاوى بنو مرين من بعدها لبني يغمراسن عن جميع الأمصار التي تملكوها بالمغرب الأوسط ، استمكن بنو يغمراسن منها ودفعوا المتغلبين عنها . ولحق الفلّ من أولاد عبد القوي ببلاد الموحدين ، فحلّوا من دولتهم محل الإيثار والتكرمة . وكان للعبّاس بن محمد بن عبد القوي مع الملوك من آل أبي حفص مقام الخلة والمصافاة إلى أن هلك ، وبقي عقبه في جند السلطان . ولما خلا الجوّ من هؤلاء المرشحين تغلّب على جبل وانشرس من بعدهم كبير بني تيغرين أحمد بن محمد من أعقاب يعلى بن محمد سلطان بني يفرن . فأقام يحيى بن عطية هذا في رياستهم أياماً ، ثم هلك ، وقام بأمره من بعده أخوه عثمان بن عطية . ثم هلك وولي من بعده ابنه عمر بن عثمان ، واستقل مع قومه بجبل وانشرس ، واستقلّ أولاد عزيز بالمدينة ونواحيها ورياستهم ليوسف وعليّ ابنيّ حسن ابن يعقوب ، والكل في طاعة أبي حموس سلطان بني عبد الواد لما غلبهم على أمرهم ،

وانتزع الرياسة من بني عبد القوي^(١) أمرائهم إلى أن خرج على السلطان أبي حمو ابن عمه يوسف بن يغمراسن ، ولحق بأولاد عزيز فبايعوه وداخلوا في كشانة عمر بن عثمان كبير بني تيغرين وصاحب جبل وانشريس ، فأجابهم وأصفق معهم سائر الأعشار ويكوشة^(٢) وبنو يرانان . وزحفوا مع محمد بن يوسف إلى السلطان أبي حمو في عسكره بتهل ففضّوه ، وكان من شأن فتنته معهم ما ذكرناه في أخبار بني عبد الواد إلى أن هلك السلطان أبو حمو وولي ابنه أبو تاشفين ، فنهض إليهم في العساكر ، وكان عمر بن عثمان قد لحقته الغيرة من مخالصة محمد بن يوسف لأولاد عزيز دون قومه ، فداخل السلطان أبا تاشفين في الإنحراف عنه ، فلما نزل بالجبل ، ولحق محمد بن يوسف بحصن توكال ليمتنع له ، نزع عنه عمر بن عثمان ولحق بأبي تاشفين ودلّه على مكان الحصن ، فدلف إليه أبو تاشفين وأخذ بمخفته . وافترق عن محمد بن يوسف أولياؤه وأشياعه فتقبّض عليه ، وقيد أسيراً إلى السلطان أبي تاشفين فقتل بين يديه قعصاً بالرماح سنة تسع عشرة وسبعائة وبعث برأسه إلى تلمسان ، وصلب شلوه بالحصن الذي امتنع فيه أيام انتزاعه . ورجع أمر وانشريس إلى عمر بن عثمان هذا ، وحصلت ولايته لأبي تاشفين إلى أن هلك بتلمسان في بعض أيامهم مع بني مرين ، أعوام نازها السلطان أبو الحسن كما ذكرنا في أخبار الحصار .

ثم لما تغلب بنو مرين على المغرب الأوسط استعمل السلطان أبو الحسن ابنه نصر بن عمر على الجبل ، وكان خير والٍ وفاء بالذمة والطاعة^(٣) وخلصاً في الولاية ، وصدقاً في الانحياش ، وإحساناً للمملكة ، وتوفيراً للجباية . ولما كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان ، وتطاول الأعياص من زناتة إلى استرجاع ملكهم ، انتزى بضواحي المدينة من آل عبد القوي عدي بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي ، وناغى الخوارج في دعوتهم ، واشتمل عليه بنو عزيز هؤلاء وبنو يرانان جيرانهم ، وزحف إلى جبل وانشريس لينال مع الحشم من يلي أمرهم والمداخلين لعدوهم في قطع دابرهم ، وكبيرهم يومئذ نصر بن عمر بن عثمان . وبائع نصر المسعود ابن أبي زبد بن خالد بن محمد بن عبد القوي من أعقابهم ، ثم خلص إليهم من

(١) وفي نسخة ثانية : من بني عبد الواد .

(٢) وفي نسخة ثانية : منكوشة .

(٣) وفي نسخة ثانية : وفاء بأزمة الطاعة .

جملة عدي بن يوسف حذراً على نفسه من أصحابه . وقاتلهم عدي وقومه فامتنعوا عليه ، ودارت بينهم حروب كانت العاقبة فيها والظهور لنصر بن عمر وقومه . ثم دخل عدي في جملة السلطان أبي الحسن لما خلص من تونس إلى الجزائر ، وبقي مسعود بينهم ومملكه أبو سعيد بن عبد الرحمن لما ملك تلمسان هو وقومه . فلم يزل هنالك إلى أن غلبهم السلطان أبو عنان ، فسار في جملته بعد أن قرّ إلى زواوة . واستترله منها ونقله إلى فاس ، وانقضى ملكهم ودولتهم ، وانقطع أثر بني محمد بن عبد القوي . وأقام نصر بن عمر في ولاية جبل وانشريس وعقد له السلطان أبو عنان عليه سائر دولته . ولم يزل قائماً بدعوة بني مرين من بعده إلى أن غلبهم السلطان أبو حمو الأخير ، وهو ابن موسى بن يوسف على الأمر ، فأعطاه نصر الطاعة . ثم اضطربت نار الفتنة بين العرب وبين بني عبد الواد أعوام سبعين وسبعائة ، وقاموا بدعوة أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد عمّ أبي حمو ، فأنحاش نصر بن عمر إليهم ، وأخذ بدعوة الأمير أبي زيان حيناً . ثم هلك أيام تلك الفتنة وقام بأمرهم من بعده أخوه يوسف بن عمر متقبلاً مذهبهم . وهو لهذا العهد وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعائة صاحب جبل وانشريس ، وحاله مع أبي حمو مختلف في الطاعة والخلاف ، والله مالك الأمور ، لا رب غيره ولا معبود سواه .

فللوا

محمد بن عيسى بن موسى بن محمد

عمر

عدي بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي بن العباس بن عطية الحيو بن مناد بن العباس بن دافتن بن أبي بكر بن الغلب

تقريباً

مسعود بن بوزيد بن خالد

محمد بن عطية بن ابراهيم

زبان بن كسبه

سيد الناس

محمود بن عمرو

موسى

يحيى بن صالح بن عمر بن صالح بن يوسف

زيان بن يوسف بن موسى

بن
بن
بن

* (الخبر عن بني سلامة أصحاب قلعة تاوغزوت رؤساء
بني يدللتن من بطون توجين من هذه الطبقة الثانية
وأوليتهم ومصايرهم) *

كان بنو يدللتن هؤلاء من شعوب بني توجين وأشدّهم شوكة وأوفرهم عدداً ، وكان
لهم ظهور من بين سائر تلك البطون . وكان بنو عبد القويّ ملوك بني توجين يعرفون لهم
ذلك ، ويوجبون لهم حقّه . ولما دخلوا إلى التلول بعد انقراض بني يلومي وبني ومانوا
نزل بنو قاضي وبنو مادون بأرض منداس ، فأوطنوها . وجاء بنو يدللتن على أثرهم ،
فأوطنوا الجعبات وتاوغزوت ورياستهم يومئذ لنصر بن سلطان بن عيسى . ثم هلك
فقام بأمرهم ابنه مناد بن نصر ، ثم أخوه عليّ بن نصر من بعده ثم ابنه ابراهيم بن
عليّ من بعده . ثم هلك وقام بأمرهم أخوه سلامة بن عليّ على حين استفحل ملك
عبد القويّ وبنيه ، فاستفحل أمره هو في قومه واختطّ القلعة بتاوغزوت المنسوبة إليه
والى بنيه ، وكانت من قبل رباطاً لبعض المنقطعين من عرب سويد . ويزعم بنو
سلامة هؤلاء أنهم دخلاء في نسب توجين ، وأنهم من العرب من بني سُلَيْم بن
منصور . وجاء جدّهم عيسى أو سلطان نازعاً عن قومه لدم أصابه فيهم ، فخلطه
شيخ بني يدللتن من بني توجين بنسبه ، وكفل بنيه من بعده فكانت له سبباً في رياسته
على بني يدللتن وبنيه من بعده .

ولما هلك سلامة بن علي قام بأمرهم من بعده ابنه يغمراسن بن سلامة ، على حين
استغلظ بنو عبد الواد على بني توجين من بعد مهلك محمد بن عبد القوي سلطانهم
الأكبر . فكان عثمان بن يغمراسن يتردّد إلى بلادهم بالغزو ، ويطلق فيها العيث .
ونازل في بعض غزواته قلعتهم هذه ، وبها يغمراسن فامتنع عليه . وخالفه يوسف بن
يعقوب وبنو مرين إلى تلمسان ، فأجفل على القلعة وسابق بني مرين إلى دار ملكه .
واتبعه يغمراسن بن سلامة مغيراً في أعقابهم ، فكّر عليه بالمكان المعروف بتليوان .
ودارت بينهم هناك حروب هلك فيها يغمراسن بن سلامة ، وقام بالأمر من بعده أخو
محمد بن سلامة ، فأذعن لطاعة عثمان بن يغمراسن ، وخالف بنو عبد القوي وجعل
الأتاوة على قومه ووطنه للملك بني عبد الواد ، فلم تزل عليهم للملك تلمسان . ولحق

أخوه سعد بالمغرب ، وجاء في جملة السلطان يوسف بن يعقوب في غزوته التي حاصر فيها تلمسان حصاره الطويل ، فرعى لسعد بن سلامة هجرته إليه وولاه على بني يدلتن والقلعة . وفر أخوه محمد بن سلامة فلحق بجبل راشد وأقام هنالك إلى أن هلك يوسف بن يعقوب ورجع أمر المغرب الأوسط لبني عبد الواد فوضعوا الأتاوة على بني توجين وأصاروهم إلى الجباية . ولم يزل سعد على ولايته إلى أن هلك أبو حمو وولي تاشفين ، فسخط سعداً وبعث عن أخيه محمد من جبل راشد ، فولاه مكانه .

ولحق سعد بالمغرب ، وجاء في جملة السلطان أبي الحسن ، ودخل أخوه محمد مع أبي تاشفين فأنحصر بتلمسان ، وولي سعد بن سلامة مكانه . ثم هلك محمد في بعض أيام الحصار وحروبه . ولما انقرض أمر بني عبد الواد رغب سعد من السلطان تخليه سبيله لقضاء فرضه ، فحجّ وهلك مرجعه من الحج في طريقه . وعهد إلى السلطان أبي الحسن واستوصاه بينه على لسان ولية عريف بن يحيى كبير بني سويد . فولّى السلطان أبو الحسن ابنه سليمان بن سعد على بني يدلتن والقلعة ، وانتقض أمر السلطان أبي الحسن وعاد الأمر إلى أبي سعيد وأبي ثابت ابني عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن ، فكانت بينه وبينهم ولاية انحراف . وكان أولياؤهم من العرب بني سويد من زغبة لما كانوا جيرانهم في مواطنهم من ناحية القبلة ، فطمع وترمار بن عريف شيخهم في التغلب على وطن بني يدلتن ، ومانعه دونه سليمان هذا ، وبالع في دفاعه إلى أن ملك السلطان أبو عتّان بلاد المغرب الأوسط ، ورعى لوترما وابنه عريف حق انخياشهم إليه وهجرتهم إلى قومه ، فأقطع وترمار بن عريف القلعة وما إليها وجباية بني يدلتن أجمع . وألحق سليمان بن سعد بن سلامة في جنده ووجوه عسكره إلى أن هلك السلطان ، وعاد الأمر لبني عبد الواد على يد أبي حمو الأخير ، فولّى سليمان على القلعة وعلى قومه . واستغلظ أمر العرب عليه فاستراب سليمان هذا ونذر بالشر منه ، فلحق بأولاد عريف ، ثم راجع الطاعة فتقبّض عليه واغتاله ، وذهب دمه هدرأ . ثم غلبه العرب على عامّة المغرب الأوسط ، وأقطع القلعة وبني يدلتن لأولاد عريف استئلافاً لهم . ثم أقطعهم بني مادون ثم منداس ، فأصبحت بطون بني توجين كلّها خولاً لسويد وعبد الجباية إلاً لجبل وانشريس فإنه لم يزل لبني تيغرين والوالي عليهم يوسف بن عمر منهم كما قلناه . ونظّم أبو حمو أولاد سلامة في جنده وأثبتهم في ديوانه وأقطعهم القصبات من نواحي تلمسان في عطايتهم .

وهم على ذلك لهذا العهد . والله الخلق والأمر ، لا ربّ سواه ولا معبود إلاّ إيّاه ، له
 احكم وإليه ترجعون ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، وهو على كل شيء قدير ، ولا
 حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم .

بنو
 يغمراسن — بن — جسم
 سعد
 يغمراسن — بن —
 سلامة بن —
 علي بن —
 بن —
 نصر بن سلطان بن
 عيسى

الخبر عن بني يرناتن إحدى بطون توجين من هذه الطبقة الثانية
 وما كان لهم من الثقل والامارة وذكر أوليتهم ومصايرهم

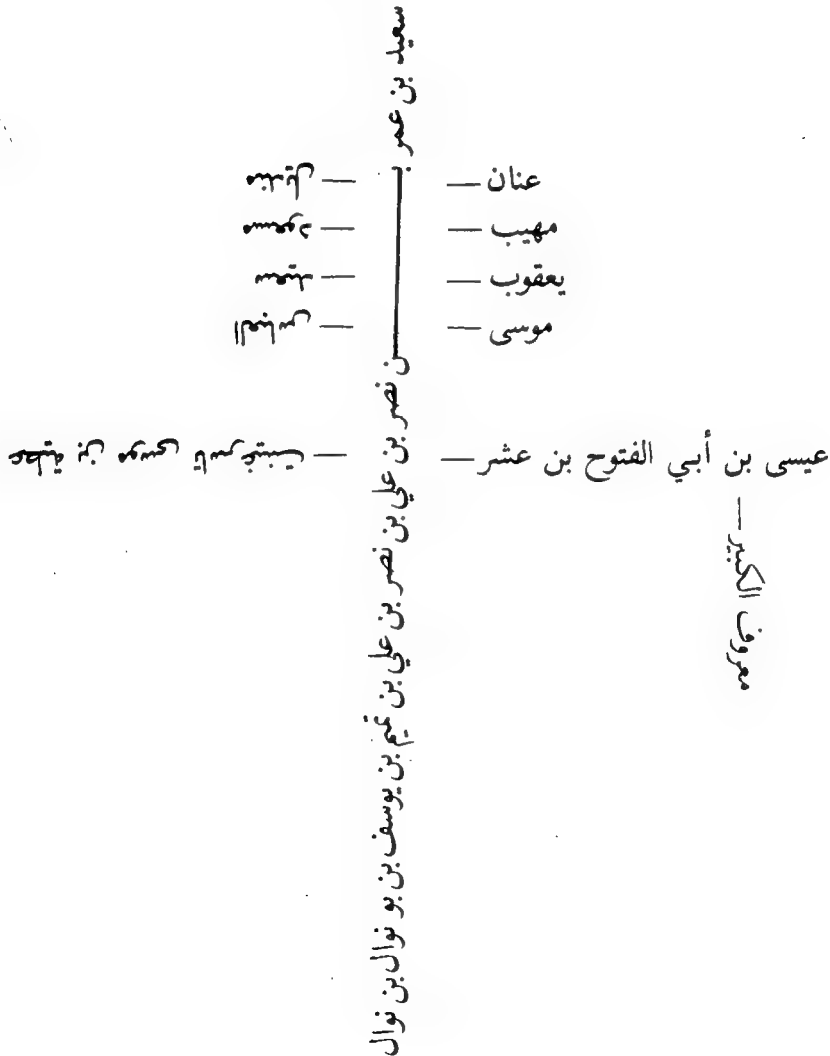
كان بنو يرناتن هؤلاء من أوفر قبائل بني توجين وأعزهم جانباً وأكبرهم صيتاً . ولما
 دخل بنو توجين إلى تلّول المغرب الأوسط ، أقاموا بمواطنهم الأولى ما بين واذون
 وزمّة^(١) . ثم يعودون من القبلة يحولون جانبي نهر واصل من أعلى وادي شلف .

(١) وفي نسخة ثانية : رينه .

وكانت رياستهم في نصر بن عليّ بن تميم بن يوسف بن بنو نوال ، وكان شيخهم مهيب ابن نصر منهم ، وكان عبد القوي بن العباس وابنه محمد أمراء بني توجيين يختصونهم بالإنثرة والتجلة لمكانهم من قومهم ، وما يؤنسون من عظيم عنايتهم . وكان محمد بن عبد القوي في سلطانه يؤثر عليهم من الحشم أولاد عزيز ، وكان واليهم لهدهد وعهد بنيه عبوب بن حسن بن عزيز . وقد كان أصهر مهيب بن نصر إلى عبد القوي في ابنته ، فأنكحه إياها وولدت له نصر بن مهيب ، فشرفت خولته لمحمد بن عبد القوي وعلا كعبه في إمارته . ثم ولي بعده ابنه عليّ بن نصر ، وكان له من الولد نصر وعنتر وآخرون يعرفون بأمتهم ، واسمها تاسرغينت . وولي بعده ابنه نصر بن علي فظال أمد إمارته في قومه . واختلف بنو عبد القوي وغلبيهم بنو عبد الواد على ما بأيديهم ، فصرفت ملوك زناتة وجه العناية إليه ، فبعد صيته وعرف بنوه من بعده بشهرته ، وكان ولوداً فيقال : إنه خلف ثلاثة عشر من البنين ، ما منهم إلا صاحب حرب أو مقنب . ومن مشاهيرهم عمر الذي قتله السلطان أبو الحسن بمرات حين سعى به أنه داخل في اغتياله ، ففرّ وأدرك فقتل بمرات . ومنهم منديل الذي قتله بنو تيغرين أيام ولّوا عليّ ابن الناصر وقتلوا معه عبوب بن حسن بن عزيز ، ومنهم عثان ومات قتيلاً في حصار تلمسان أيام أبي تاشفين ، ومنهم مسعود ومهيب وسعدو وداود وموسى ويعقوب والعبّاس ويوسف في آخرين معروفين عندهم . هذا شأن أولاد نصر بن علي بن نصر ابن مهيب .

وأما ولد عنتر أخيه فكان منهم أبو الفتوح بن عنتر . ثم من ولده عيسى بن أبي الفتوح ، فكان رئيساً على بني أبيه ، وكانت إحدى وصائفهم سقطت بدار عثمان بن يغمراسن ، وادّعت الحمل من سيدها أبي الفتوح ، وجاءت بأخ لعيسى يسمى معروفاً ، ربيّ بدارهم . واستوزره أبو حمو وابنه من بعده ، وبلغ المبالغ في دولتهم وكان يدعى معروفاً الكبير . ولحق به أيام رياسته في دولة أبي حمو الأول أخوه عيسى ابن أبي الفتوح مغاضباً لقومه ، فسعى له في الولاية على بني راشد وجباية أوطانهم ، وأنزله بلد سعيدة ، فكانت له بها إمارة ، وكان له من الولد أبو بكر وعبو وطاهر ووترمار ، وعندما غلب بنو مرين على بني عبد الواد ولأهم السلطان أبو الحسن على بني يرنا تن متداولين وأما ولد تاسرغينت من بني علي بن نصر بن مهيب ، فلم يكن لهم ذكر في رياسة قومهم ، إلا أن بعض وصائفهم سقطت أيضاً إلى دار أبي تاشفين

فولدت غلاماً يعرف بعطية بن موسى نشأ في دارهم ينسب إلى بني تاسرغينت هؤلاء .
وتناولته النجاة في خدمتهم ، فولّوه الأعمال النبيلة ، وهو لهذا العهد عامل أبي حمو
الأخير على شلف وما إليها . وقد غلب العرب لهذا العهد على وطن بني يرنا تن ،
وملكوا عليهم يعود ماحنون . وبقيت صبابتهم بجبل ورنيد^(١) . وعليهم لهذا العهد
سعيد بن عمر من ولد نصر بن علي بن نصر بن مهيّب ، يعطون المغرم للسلطان
ويصانعون العرب بالأتاوة . ويبد الله تصاريّف الأمور سبحانه لا رب غيره .



(١) وفي نسخة ثانية : جبل وريّة .

الخبر عن بني مرين وأنسابهم وشعوبهم وما تأثلوا بالمغرب من السلطان والدولة التي استعملت سائر زناته وانتظمت كراسي الملك بالعدوتين وأولية ذلك ومصايره

قد ذكرنا أن بني مرين هؤلاء من شعوب بني واسين ، وذكرنا نسب واسين في زناته ،
وذكرنا أنهم بنو مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن جديج بن فائن بن يدر بن يخفت
ابن عبدالله بن ورتنيص بن المعز بن ابراهيم بن سجيك بن واسين ، وأنهم إخوة بني
يلومي ومدبونة . وربما يشهد بذلك جوار مواطنهم قبل الملك ما بين صا^(١) وملوثة .
وذكرنا كيف اقتسموا الضاحية والقفر مع إخوانهم بني بادين^(٢) بن محمد ، وكيف
اتصلت فتنهم معهم سائر أيامهم . وكان الغلب أولاً لبني بادين بن محمد لكثرة
عددهم ؛ فإنهم كما ذكرنا خمسة بطون : بنو عبد الواد وتوجين ومصاب ، وبنو
زردال وإخوانهم بنو راشد بن محمد . وكانوا أهل تلول المغرب الأوسط دونهم . وبقي
هذا الحلي من بني مرين بمجالات القفر من فيكيك إلى سجلماة إلى ملوثة . وربما
يتخطون في ظعنهم إلى بلاد الزاب . ويذكر نسابهم أن الرياسة فيهم قبل تلك
العصور كانت لمحمد بن ورزين^(٣) بن فكوس بن كوماط بن مرين ، وأنه كان لمحمد
إخوة آخرون يعرفون بأهمهم تنالفت . وكان بنو عمه ونكاسن بن فكوس . وكان لمحمد
من الولد سبعة : شقيقان وهما حمامة وعسكر . وأبناء علات أمهات أولاد ، وهم
سنگمان وسكميان وسكم ووراغ وقزونت^(٤) وتسمى هذه الخمسة في لسانهم تيريغين ،
ومعناه عندهم الجماعة .

يزعمون أن محمداً لما هلك قام بأمره في قومه ابنه حمامة ، وكان الأكبر . ثم من بعده
أخوه عسكر ، وكان له من الولد ثلاثة : نكوم وأبويكني ، ويلقب المخضب ، وعلي
ويلقب لاغدر . ولما هلك قام برياسته فيهم ابنه المخضب ؛ فلم يزل أميراً عليهم إلى
أن كان أمر الموحددين . وزحف عبد المؤمن إلى تاشفين بن علي بن يوسف ؛ فحاصره

(١) كذا ، وهو وادي (زا) . (وقد مر معنا من قبل ولم نجد له ذكر في معجم البلدان) .

(٢) وفي نسخة ثانية : بني يادين .

(٣) كذا ، وفي نسخة : ورزير .

(٤) كذا ، وفي نسخة : فرونت .

بتلمسان . وسرح الشيخ أبا حفص في العساكر لحرب زناتة بالمغرب الأوسط ، وجمع له بنو بادين كلهم وبنو يلومي وبنو مرين ومغراوة ؛ ففضّ الموحدون جموعهم واستلحموا أكثرهم . ثم راجع بنو يلومي وبنو بادين طاعتهم ، وأخلص بنو عبد الواد في خدمتهم ونصيحتهم . ولحق بنو مرين بالقفر ؛ فلما غلب عبد المؤمن على وهران واستولى على أموال لمتونة وبعث ذخيرتهم بتلك الغنائم إلى جبل تينملل حيث داره ، ومن أين كان منبعث الدعوة . وبلغ الخبر إلى بني مرين بمكانهم من الزاب ، وشيخهم يومئذ المخضّب بن عسكر ، فأجمع اعتراضها بقومه . ولحق العير بوادي تلاغ ؛ فاحتازها من أيدي الموحدين . واستنفر عبد المؤمن لاستنقاذها أوليائه من زناتة ، وسرحهم مع الموحدين لذلك ؛ فأبلى بنو عبد الواد فيها بلاءً حسناً . وكان اللقاء في فحص مسون ، وانكشف بنو مرين ، وقتل المخضّب بن عسكر ، واكتسح بنو عبد الواد حللهم ، وذلك سنة أربعين وخمسمائة . فلحق بنو مرين بعدها بصحرائهم ومحالات قفرهم ، وقام بأمرهم من بعد المخضّب أبو بكر ابن عمّه حمّامة ابن محمد إلى أن هلك ، فقام بأمره ابنه محبو ؛ ولم يزل مطاعاً فيهم إلى أن استنفرهم المنصور لغزاة الأركة ، فشهدوها وأبلوا البلاء الحسن . وأصاب محبو يومئذ جراحة انتقضت عليه مرجعه منها ؛ فهلك بصحراء الزاب سنة إحدى وتسعين وخمسمائة . وكان من رياسة عبد الحق ابنه من بعده ، وبقائها في عقبه ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن إمارة عبد الحق بن محيو المستقرة في بنيه وإمارة
ابنه عثمان من بعده ثم أخيه محمد بن عبد الحق بعدهما وما
كان فيها من الأحداث

لما هلك محيو بن أبي بكر بن حمادة من جراحته كما قلناه ، وكان له من الولد عبد
الحق ووسناف ويحياتن . وكان عبد الحق أكبرهم ؛ فقام بأمر بني مرين ، وكان خير
أمير عليهم قياماً بمصالحهم وتعفوفاً عما في أيديهم ، وتقويماً لهم على الجادة ونظراً في
العواقب ، واستمرت أيامهم . ولما هلك الناصر رابع خلفاء الموحدين بالمغرب سنة
عشر وستماية مرجعه من غزاة العقاب ، وقام بأمر الموحدين من بعده ابنه يوسف
المستنصر ، نصبه الموحدون للأمر غلاماً لم يبلغ الحلم . وشغلته أحوال الصبا وجنونه
عن القيام بالسياسة وتدبير الملك ؛ فأضاع الحزم وأغفل الأمور . وتواكل الموحدون بما
أرخصي لهم من طيل الدالة عليه . ونفس عن مخنقهم من قبضة الاستبداد والقهر ؛
فضاعت الثغور وضعفت الحامية . وتهاونوا بأمرهم ؛ وفشلت ريجهم . وكان هذا
الحي لذلك العهد بمجالات القفار ، من فيكيك الى صا وملوية كما قدمناه من
شأنهم . وكانوا يطرقون في صعودهم الى التلول والأرياف منذ أول دولة الموحدين وما
قبلها جهات كرسيف الى وطاق ، ويأنسون بمن هنالك من بقايا زناتة الأولى : مثل
مكناسة بجبال تازي ، وبني يرنيان من مغراوة المواطنين قصور وطاق من أعالي
ملوية . فيتقلبون بتلك الجهات عام المربع والمصيف ، وينحدرون الى مشاتهم بما
امتاروه من الحبوب لأقواتهم . فلما رأوا من اختلال بلاد المغرب ما رأوا انتهزوا فيها
الفرصة ، وتخطوا إليها القفر ، ودخلوا ثناياه ، وتفرقوا في جهاته ؛
وأرجفوا بخيلهم وركابهم على ساكنه ، واكتسحوا بالغارة والنهب عامة
بسائطهم . ولحأت الرعايا الى معتصماتهم ومعاملهم ، وكثر شاكيم . واطلم الجوينهم
وبين السلطان والدولة ، فأذنوهم بالحرب وأجمعوا لغزوهم وقطع دابرهم . وأغرى
الخليفة المستنصر عظيم الموحدين أبا علي بن وانودين بجميع العساكر والحشود من
مراكش ، وسرّحه الى السيد أبي ابراهيم ابن أمير الموحدين يوسف بن عبد المؤمن
بمكانه من إمارة فاس . وأوعز إليه أن يخرج لغزوبي مرين ، وأمره أن يشحن ولا

يستقي . واتصل الخبر ببني مرين وهم في جهات الريف وبلاد بطوية ؛ فتركوا أنقاء بحصن تازوطا ، وصمدوا إليهم . والتقى الجمعان بوادي نكور ؛ فكان الظهور لبني مرين والدبرة على الموحدين . وامتلات الأيدي من أسلأهم وأمتعتهم ، ورجعوا إلى تازي وفاس عراة يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف عند أهل المغرب بالمشغلة . يوارون به سوءاتهم لكثرة الخصب عامثذ ، واعتار الفدن بالزرع وأصناف الباقلا . حتى لقد سميت الواقعة يومئذ بعام المشغلة .

وصمد بنو مرين بعدها إلى تازي ، فقلوا حاميتها أخرى . ثم اختلفت بنو محمد رؤسأهم وانبتذ عنهم من عشائهم بنو عسكر بن محمد ، لمنافسة وجدوها في أنفسهم من استقلال بني عمهم حماسة بن محمد بالرياسة دونهم ، بعد أن كان أومض عندهم منها في عسكر ، وابنه المخضب إيماض من أخلف بارقه . فحالفوا عبد الحق أميرهم وقومه إلى مظاهرة أولياء الموحدين ، وحامية المغرب من قبائل رياح الوطنين بالهبط وأزغار لحديث عهدهم بالتوحش والعزم منذ إنزال المنصور إياهم بذلك القطر من أفريقية ؛ فتحيزوا إليهم وكاثروهم على قومهم .

وصمدوا جميعاً للقاء بني مرين سنة أربع عشرة وستائة ، ودارت بينهم حرب تولّى الصبر مقامها . وهلك فيها أميرهم عبد الحق وكبير بنيه إدريس . وتذامر لمهلكها بنو مرين . وجلّى في تلك الحومة حماسة بن يصليتن من بني عسكر ، والأمير ابن محيو السكبي . فأنكشفت رياح آخرأ ، وقتل منهم أبطال . وولّى بنو مرين عليهم بعد مهلك عبد الحق ابنه عثمان تلو إدريس ، وشهرته بينهم أدرغال ، ومعناه برطانتهم الأعور . وكان لعبد الحق من الولد عشرة ، تسعة ذكور وأختهم ورتطليم : فإدريس وعبدالله ورحو لامرأة من بني علي إسمها سوط النساء ، وعثمان ومحمد لامرأة من بني ونكاسن إسمها التوار بنت تصاليت ، وأبوبكر لامرأة من بني تنالفت وهي تاغزونت بنت أبي بكر بن حفص ، وزيان لامرأة من بني ورتاجن ، وأبو عياد لامرأة من بني وللولى إحدى بطون عبد الواد وإسمها أم الفرج ، ويعقوب لأم اليمن بنت محلي من بطوية . وكان أكبرهم إدريس الهالك مع أبيه عبد الحق ؛ فقام بأمر بني مرين من بعد عبد الحق ابنه عثمان ؛ بايعه لوقته حماسة بن يصليتن ولمير بن محيو ومن إليهما من مشيخة قومها . واتبعوا منهزمة رياح وأنحنوا فيهم . وثار عثمان بأبيه وأخيه حتى شفا نفسه منهم ولاذوا بالسلم ، فسالمهم على أتاوة يؤدونها إليه وإلى قومه كل سنة . ثم

استشرى من بعد ذلك داء بني مرين واعضل خطيهم ، وكثر الثوار بالمغرب ، وامتنع عامة الرعايا عن المغرب ، وفسدت السابلة . وأعتصم الأمراء والعمال من السلطان فن دونه بالأمصار والمدن ، وغلبوا أولئك على الضاحية . وتقلص ظل الحكام عن البدو جملة . وافتقد بنو مرين الحامية دون الوطن والدفاع ؛ فمدوا إلى البلاد يداً . وسار بهم أميرهم أبو سعيد عثمان بن عبد الحق في نواحي المغرب يتقرى مسالكه وشعوبه ، ويضع المغارم على أهله حتى دخل أكثرهم في أمره ؛ فبايعه من الطوائع الشاوية والقبائل الآهلة : هواره وزكارة ، ثم تسول ومكناسة ، ثم بطوية وقشتالة ، ثم سدراتة وبهلولة ومديونة . ففرض عليهم الخراج وألزمهم المغارم ، وفرق فيهم العمال . ثم فرض على أمصار المغرب مثل فاس وتازي ومكناسة وقصر كتامة ضريبة معلومة يؤدونها إليه على رأس كل حول ، على أن يكف الغارة عنهم ويصلح سابلتهم . ثم غزا طوائع زناتة سنة عشرين وستائة ، وأثنى فيهم حتى اذعنوا ، وقبض أيديهم عما امتدت إليه من الفساد والنهب . وعطف بعدها على رياح أهل أزغار والهبط وأثار به بأبيه ؛ فأثنى فيهم وأبادهم . ولم يزل دأبه ذلك إلى أن هلك باغتيال علجة سنة سبع وثلاثين وستائة .

وقام بأمر بني مرين من بعده أخوه محمد بن عبد الحق ؛ فتقبل سنن أخيه في تدويخ بلاد المغرب وأخذ الضريبة من أمصاره وجباية المغارم والوضائع من طوائعه وبدوه وسائر رعاياه . وبعث الرشيد أبا محمد بن وانودين لحربهم . وعقد له على مكناسة ، فدخلها وأجحف بأهلها في المغارم . ثم نزل بنو مرين بمتيجة وغيرها من ضواحيها ؛ فنادى في عساكره وخرج إليهم ؛ فدارت بينهم حرب شديدة هلك فيها خلق من الجانبين . وبارز محمد بن إدريس بن عبد الحق قائداً من الروم ، واختلعا ضربتين هلك العليج بإحداهما ، وانجرح محمد في وجهه بالأخرى . واندمل جرحه ؛ فصار أثر في وجهه لقب من أجله أبا ضربة . ثم شد بنو مرين على الموحدين ؛ فانكشفوا ورجع ابن وانودين إلى مكناسة مفلولاً . وبقي بنو عبد المؤمن أثناء ذلك في مرض من الأيام ، وتناقل عن الحماية . ثم أومضت دولتهم آخرأ إيباض الخمرود . وذلك أنه لما هلك الرشيد بن المأمون سنة أربعين وستاية ، وولي أخوه علي وتلقب بالسعيد ، وبايعه أهل المغرب ، انصرفت عزائمهم إلى غزو بني مرين ، وقطع أطاعهم عما سميت إليه من تملك الوطن ؛ فأغزى عسكر الموحدين لقتالهم ، ومعهم قبائل العرب والمصامدة

وجمّوع الروم . فنهضوا سنة إثنين وأربعين وستائة في جيش كثيف يناهز عشرين ألفاً فيما زعموا . وزحف إليهم بنو مرين بوادي ياباش ؛ وصبر الفريقان ، وهلك الأمير محمد بن عبد الحق في الجولة بيد زعيم من زعماء الروم . وانكشفت بنو مرين واتباعهم الموحدون ، ودخلوا تحت الليل ؛ فلحقوا بجبال غياثة من نواحي تازي واعتصموا بها أياماً . ثم خرجوا إلى بلاد الصحراء ؛ وولّوا عليهم أبا يحيى بن عبد الحق ؛ فقام بأمرهم على ما ذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن دولة الأمير أبي يحيى بن عبد الحق مدبل الأمر لقومه بني مرين وفاتح الامصار ومقيم الرسوم الملوكية من الآلة وغيرها لمن بعده من امراءهم

لما ولي أبو يحيى بن عبد الحق أمر بني مرين سنة إثنين وأربعين وستائة ، كان من أول ما ذهب إليه ورآه من النظر لقومه ، أن قسم بلاد المغرب وقبائل جبايته بين عشائر بني مرين . وأنزل كلاً منهم في ناحية تسوّغها سائر الأيام طعمة . فاستركبوا الرجل أتباعهم ، واستلحقوا من غاشيتهم ، وتوفّرت عساكرهم . ثم نبضت نار المنافسة بين أحيائهم ، وخالف بنو عسكر جاعتهم ، وصاروا إلى الموحدين ؛ فحرّضوهم على أبي يحيى بن عبد الحق وبني حمامة وأغروهم بهم . وبعثوا الصريح إلى يغمراسن بن زيان ، فوصل في قومه إلى فاس . واجتمعوا جميعاً إلى قائد الموحدين . وأعطوا الرهن على صدق البلاء في الأمير أبي يحيى وأتباعه . وصمدوا إليه حتى انتهوا إلى ورغة ، ثم إلى كرت^(١) . وأعجزهم فانكفّوا راجعين إلى فاس . ونذر يغمراسن بغدر الموحدين ؛ فخرج في قومه مع أوليائه بني عسكر . وعارضهم الأمير أبو يحيى بوادي سبو ؛ فلم يطق حربهم . ورجع عنهم عسكر الموحدين بما صرخ في معسكرهم من موت الخليفة السعيد . ثم بعثوا إليهم لملاطفتهم في الفئدة إلى الطاعة ومذاهب الخدمة ، القائد عنبر الخصي مولى الخليفة في حصّة من الروم والناشبة ؛ فتقبّض عليهم بنو عسكر وتمسّكوا بهم في رهنهم . وقتلوا كافة النصاري ؛ فأطلق أبناءهم ولحق

هي كُرت : مدينة في أقصى بلاد المغرب قرب بلاد السودان وربما قبلت بالثناء . (معجم البلدان) .

يغمراسن وقومه بتلمسان . ثم رجع بنو عسكر إلى ولاية أميرهم أبي يحيى . واجتمع بنو مرين لشأنهم وتملكوا الأعمال . ثم مدوا عينهم إلى تملك الأمصار ؛ فترل أبو يحيى يجملته جبل زرهون . ودعا أهل مكناسة إلى بيعة الأمير أبي زكرياء بن أبي حفص صاحب أفريقية ، لما كان يومئذ على دعوته وفي ولايته ؛ فحاصرها وضيق عليها بقطع المرافق وترديد الغارات ومعاودة الحرب ؛ إلى أن أذعنوا لطاعته ، فافتتحها صلحاً بمداخلة أخيه يعقوب بن عبد الحق لزعيمها أبي الحسن بن أبي العافية .

وبعثوا بيعتهم إلى الأمير أبي زكرياء ، وكانت من إنشاء أبي المطرف بن عُميرة ، كان قاضياً فيهم يومئذ ؛ فأقطع السلطان ليعقوب ثلث جبايتها ، ثم أحس الأمير أبو يحيى بن عبد الحق من نفسه الاستبداد ، ومن قبيله الاستيلاء فاتخذ الآلة . وبلغ الخبر إلى السعيد بتغلبه على مكناسة وصرفها إلى دعوة ابن أبي حفص ؛ فوجم لها وفاوض الملاء من أهل دولته في أمره ، وأراهم كيف اقتطع الأمر عنهم شيئاً فشيئاً : فابن أبي حفص اقتطع أفريقية . ثم يغمراسن بن زيان وبنو عبد الواد اقتطعوا تلمسان والمغرب الأوسط ، وأقاموا فيها دعوة ابن أبي حفص ، وأطمعوه في الحركة إلى مراکش بمظاهرتهم . وابن هود اقتطع عدوة الأندلس ، وأقام فيها دعوة بني العباس ، وابن الأحمر في الجانب الآخر مقيم للدعوة ابن أبي حفص . وهؤلاء بنو مرين تغلبوا على ضواحي المغرب ، ثم سموا إلى تملك الأمصار . ثم افتتح أميرهم أبو يحيى مكناسة وأظهر فيها دعوة ابن أبي حفص ، وجاهر بالاستبداد . ويوشك إن رضينا هذه الدنية ، وأغضينا عن هذه الوقعات ، أن يختل الأمر أو تنقرض الدعوة . فتذا مروا وامتعضوا وتداعوا للصمود إليهم ؛ فجهز السعيد عساكره . واحتشد عرب المغرب وقبائله ، واستنفر الموحدين والمصامدة ، ونهض من مراکش سنة خمس وأربعين وستائة يريد مكناسة : وبني مرين أولاً ، ثم تلمسان ويغمراسن ثانياً ، ثم أفريقية وابن أبي حفص آخراً . واعترض العساكر والحشود بوادي بهت . ووصل الأمير أبو يحيى إلى معسكره متوارياً عنهم عيناً لقومه ، حتى صدقهم كنه الخبر . وعلم أن لا طاقة له بهم ؛ فأفرج عن البلاد . وتناذر بنو مرين بذلك من أماكنهم ؛ فتلاحقوا به واجتمعوا إليه بتازوطا من بلاد الريف . ونزل سعيد مكناسة ، ولاذ أهلها بالطاعة ، وسألوا العفو عن الحرية . واستشفعوا بالمصاحف ، برز بها الأولاد على رؤوسهم ، وانتظموا مع النساء في صعيد حاسرات منكسرات الطرف من

الخشوع ووجوم الذنب والتوسّل . فعفا عنهم وتقبّل فيهم ، وارتحل إلى تازى في اتباع بني مَرين . وأجمع بنو أوطاس الفتك بأبي يحيى بن عبد الحق غيرة ومناسفة ، ودس إليه بذلك مهيب من مشيختهم ؛ فترحّل عنهم إلى بلاد بني يزناسن ، ونزل بعين الصفا .

ثم راجع نظره في مسالمة الموحّدين والفيئة إلى أمرهم ومظاهرتهم على عدوّهم يَغْمُرَاسِن وقومه من بني عبد الواد ، ليكون فيها شفاء نفسه منهم ؛ فأوفد مشيخة قومه عليه بتازى ؛ فأدوا طاعته وفيئته ؛ فتقبّلها وصفح لهم عن الجرائر التي أتوها . وسألوه أن يستكفي بالأمير أبي يحيى في أمر تلمسان ويغمراسن ، على أن يمدّه بالعساكر راحمة وناشبة ؛ فاتهمهم الموحّدون وحذروا منهم غائلة العَصَبِيَّة ، فأمرهم السعيد بالعسكرة معه ؛ فأمدّه الأمير أبو يحيى بخمسمائة من قبائل بني مَرين . وعقد عليهم لابن عمه أبي عياد بن يحيى بن أبي بكر بن حمامة ، وخرجوا تحت رايات السلطان . ونهض من تازى يريد تلمسان وما وراءها ، وكان من خبر مهلكه على جبل تامززدكت بيد بني عبد الواد ما ذكرناه في أخبارهم .

ولما هلك وانفضت عساكره متسابقين إلى مراکش ، وجمهورهم مجتمعون إلى عبدالله ابن الخليفة السعيد ولي عهده ، وتحت رايات أبيه . وطار الخبر بذلك إلى الأمير أبي يحيى بن عبد الحق ، وهو بجبهات بني يزناسن . وقد خلص إليه هنالك ابن عمه أبو عياد . وبعث بني مَرين من تيار تلك الصدمة ، فانتَهز الفرصة وأرصد لعسكر الموحّدين وفلّهم بكرسيف ؛ فأوقع بهم وامتلاّت أيدي بني مَرين من أسلابهم ، وانتزعوا الآلة من أيديهم . وأصار إليه كتيبة الروم والناشبة من الغزو ، واتخذ الموكب الملوكي . وهلك الأمير عبدالله بن السعيد في جوانب تلك الملحمة ، ويشسوا للموحّدين بعدها من الكُرّة . ونهض الأمير أبو يحيى وقومه إلى بلاد المغرب مسابقين إليه يَغْمُرَاسِن بن زيان بما كان ملوك الموحّدين ، أوجدوهم السبيل إلى ذلك باستجاشة على بني مَرين أيام فتنهم معهم ؛ فكانوا يبيحونه حرم المغرب ويوظّثونه عساكر قومه ما بين تازى إلى فاس ، إلى القصر مع عساكر الموحّدين ؛ فكان ليغمراسن وقومه بذلك طمع فيها لولا ما كبّحهم فأس بن مَرين وجدّع من أنوفهم .

وكان أول ما بدأ به أبو يحيى بن عبد الحق أعمال وطااط ؛ فافتتح حصونهم بملوية

ودوّخ جبلهم . ثم رحل إلى فاس ، وقد أجمع أمره على انتزاعها من ملكة بني عبد المؤمن ، وإقامة الدعوة لابن أبي حفص بها وبسائر نواحيها . والعامل بها يومئذ السيد أبو العباس ، فأناخ عليها بركابه . وتلطّف في مداخلة أهلها ، وضمن لهم جميل النظر وحميد السياسة . وكفّ الأيدي عنهم ، والحماية لهم بحسن المغبّة ، وصالح العائدة ؛ فأجابوه ووثقوا بعهده وعنائه . وآووا إلى ظلّه وركنوا إلى طاعته ، وانتحال الدعوة الحفصيّة بأمره . ونبذوا طاعة بني عبد المؤمن يأساً من صريخهم وكثرتهم . وحضر أبو محمد القشتالي ، وأشهده الله على الوفاء بما اشترط على نفسه من النظر لهم والذبّ عنهم ، وحسن الملكة والكفالة . وتقبّل مذاهب العدل فيهم ؛ فكان حضوره ملاك تلك العقدة والبركة التي يعرف أثرها خلفهم في تلك البيعة . وكانت البيعة بالرابطة خارج باب الفتوح . ودخل إلى قصبة فاس لشهرين إثنيّن من مهلك السعيد ، فاتح ست وأربعين وستاية . وأخرج السيد أبا العباس من القصبة ، وبعث معه خمسين فارساً أجازوه أم ربيع ورجعوا . ثم نهض إلى منازل تازي ، وبها السيد أبو علي ، فنازلها أربعة أشهر . ثم نزلوا على حكمه ، فقتلهم ومنّ على آخرين منهم . وسدّ ثغرها ، وثقف أطرافها ، وأقطع رباط تازي وحصون ملويّة لأخيه يعقوب بن عبد الحق . ورجع إلى فاس ، فوفد عليه بها مشيخة أهل مكناسة ، وجددوا بيعتهم وعادوا طاعتهم . ولحق بهم على أثرهم أهل سلا ورباط الفتح ، فتملّك الأمير أبو يحيى هذه البلاد الأربعة أمّهات أمصار المغرب . واستولى على نواحيها إلى وادي أم ربيع ، فأقام فيها دعوة ابن أبي حفص ، وبعث بها إليه . واستبدّ بنو مرين بملك المغرب الأقصى ، وبنو عبد الواد بملك المغرب الأوسط ، وبنو أبي حفص بأفريقية . وخمد ذبال آل عبد المؤمن ، وركدت ريحهم ، وأذنت بالانقراض دولتهم ، وأشرف على الفناء أمرهم . وإلى الله عاقبة الأمور .

الخبر عن انتقاض أهل فاس على أبي يحيى بن عبد الحق
وظفره بهم بعد إيقاعه بيغمراسن وقومه بايسلي

لما ملك الأمر أبو يحيى بن عبد الحق بمدينة فاس سنة ست وأربعين وستائة ، استولى على بلاد المغرب بعد مهلك السعيد . وقام بأمر الموحّدين بمراكش أبو حفص عمر

لمرتضى ابن السيد أبي ابراهيم إسحاق الذي كان قائد عسكر الموحدين في حربهم مع بني مرين عام المشغلة ، ابن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن . كان السعيد تركه والياً بقصبة رباط الفتح من سلا ؛ فاستدعاه الموحدون وبايعوه بيعة الخلافة . وقام بأمرهم ؛ فلما تغلب الأمير أبو يحيى على بلاد المغرب وملك مدينة فاس كما ذكرناه ؛ خرج إلى بلاد فازاز والمعدن لفتح بلاد زناتة وتساويخ نواحيها . واستعمل على فاس مولاة السعود بن خرباش ، من جماعة الحشم أخلاف بني مرين وصنائعهم . وكان الأمير أبي يحيى استبقى بها من كان فيها من عسكر الموحدين من غير عيصهم في السبيل التي كانوا عليها من الخدمة . وكان فيهم طائفة من الروم ، استخدمهم إلى نظر قائدهم شأنه ، وكانوا من حصّة السعود هنالك . ووقعت بينهم وبين شيع الموحدين من أهل البلد مداخلة ، وفتكوا بالسعود عاملهم وقلبوا الدعوة للمرتضى الخليفة بمراكش سكيت الحلبة ومخلف المضمار . وكان المتولي لكبر تلك الثورة ابن حشّار المشرف وأخوه وابن أبي طاهر^(١) وإبنه ، اجتمعوا إلى القاضي أبي عبد الرحمن المغيّلي ، زعيم فئة الشورى بينهم يومئذٍ وتوامروا فيها . وأغروا قائد الروم بقتل السعود ، وعدوا عليه بمقعد حكمه من القصبة ، وهاجوه ببعض المحاورات فغضب . ووثب عليه الرومي ؛ فقتله وطاف برأسه الهاتف بسكك المدينة في شوال سنة سبع وأربعين وستائة . وانتهت داره ، واستبيحت حرمة . ونصبوا قائد الروم لضبط البلد ، وبعثوا بيعتهم إلى المرتضى . واتصل الخبر بالأمير أبي يحيى ، وهو منازل بلد فازاز ؛ فأفرج عنها . وأغذّ السير إلى فاس ؛ فأناخ بعساكره عليها . وشمر لحصارها ، وقطع السابلة عنها . وبعثوا إلى المرتضى بالصريخ ، فلم يرجع إليهم قولاً ؛ ولا ملك لهم ضرراً ولا نفعاً ؛ ولا وجه لما نزل بهم وجهاً . حاشا إنه استجاش بالأمير أبي يحيى يغمّراسن بن زيان على أمره ، وأغراه بعدوه ، وأمله لكشف هذه النازلة عن انحاش إلى طاعته .

وتعلّقت أطلاع يغمّراسن بطروق بلاد المغرب ؛ فاحتشد لحركته . ونهض من تلمسان للأخذ بحجزة الأمير أبي يحيى عن فاس ، وإجابة صريخ الخليفة لذلك . وبلغ الأمير أبا يحيى خبر نهوضه إليه لتسعة أشهر من منازلته البلد ؛ فجمّر الكتاب عليها .

(١) كذا ، في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : طاطو .

صمد إليه قبل وصوله من تخوم بلاده ، والتقى الجمعان بايسلى من بسائط وَجْدَة ؛ فتزاحف القوم وأبلوا . وكانوا ملحمة عظيمة ، هلك فيها عبد الحق بن محمد بن عبد الحق بيد ابراهيم بن هشام من بني عبد الواد . ثم انكشف بنو عبد الواد ، وهلك يغمراسن بن تاشفين من أكابر مشيختهم ، ونجا يغمراسن بن زيان إلى تلمسان . وانكفاً الأمير أبو يحيى إلى معسكره للأخذ بمختق فاس ، فسقط في أيدي أهلها ؛ ولم يجدوا وليجة من دون طاعته ، فسألوا الأمان ؛ وبذله لهم على غرم ما تلف له من المال بداره يوم الثورة ؛ وقدره مائة ألف دينار ؛ فتحملوها . وأمكنوه من قياد البلد ؛ فدخلها في جمادى من سنة ثمان وأربعين وستائة . وطالبهم بالمال ؛ فعجزوا ونقضوا شرطه ؛ فحق عليهم القول . وتقبض على القاضي أبي عبد الرحمن وابن أبي طاطو وابنه ، وابن حشار وأخيه المتولين كبر الفعلة فقتلهم ، ورفع على الشرفات رؤوسهم . وأخذ الباقين بغرم المال طوعاً أو كرهاً ؛ فكان ذلك مما عبّد رعية فاس وقادهم لأحكام بني مرين . وضرب الرهب على قلوبهم لهذا العهد ؛ فخشعت منهم الأصوات وانقادت الهمم ؛ ولم يحدثوا بعدها أنفسهم بغمس يد في فتنه . والله مالك الأرض ومن عليها .

الخبر عن تغلب الأمير أبي يحيى على مدينة سلا وارتجاعها من يده وهزيمة المرتضى بعدها

لما كمل للأمير أبي يحيى فتح مدينة فاس ، واستوسق أمر بني مرين بها ، رجع إلى ما كان فيه من منازل بلاد فازاز فافتتحها . ودوّخ أوطان زناته ، واقتضى مغارمهم وحسم علل الثائرين فيها . ثم تخطى إلى مدينة سلا ورباط الفتح سنة تسع وأربعين وستائة ؛ فملكها وتاخم الموحدين بثغرها . واستعمل عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله ابن عبد الحق ، وعقد له على ذلك الثغر ، وضم إليه الأعمال . وبلغ الخبر بذلك إلى المرتضى ، فأهّمه الشأن . وأحضر الملائ من الموحدين وفأوضهم ، واعتزم على حرب بني مرين . وسرح العساكر سنة خمسين وستائة ؛ فأحاطت بسلا ؛ فافتتحوها وعادت إلى طاعة المرتضى . وعقد عليها لأبي عبد الله بن أبي يعلو من مشيخة الموحدين . وكان المرتضى قد صمد بنفسه سنة تسع وأربعين وستائة إلى محاربة بني

مرين في جموع الموحدين وعساكر الدولة ، صمد بنو مرين للقاءه . والتقى الجمعان بايملولين ؛ ففَضُّوا جموعه ؛ وكانت الدبرة عليه والظهور لهم . ثم كان بعدها فتح سلا ، وغلب الموحدين عليها . وأجمع المرتضى بعدها على احتشاد أهل سلطانه ، ومعاودة الخروج بنفسه إلى غزوهم لما خشي من امتداد أمرهم . وتقلَّص ملك الموحدين ؛ فعسكر خارج حضرته سنة ثلاث وخمسين وستائة وبعث الحاشرين في الجهات ؛ فاجتمع إليه أُمُّ الموحدين والعرب والمصامدة . وأغذَّ السير تلقاءهم ، حتى إذا انتهى إلى جبال بهلوله من نواحي فاس ، وصمد إليه الأمير أبو يحيى في عساكر بني مرين ، ومن اجتمع إليهم من دونهم . والتقى الجمعان هنالك . وصدقهم بنو مرين القتال ؛ فاختلَّ مصاف السلطان ؛ وانهزمت عساكره وأسلمه قومه . ورجع إلى مراکش مفلولاً . واستولى القوم على معسكره واستباحوا سرادقه وفساطيطه ، وانهبوا جميع ما وجدوا بها من المال والذخيرة ، واستاقوا سائر الكراع والظهر ، وامتلاَّت أيديهم من الغنائم . واعتَرَّ أمرهم ، وانبسط سلطانهم ، وكان يوماً له ما بعده . وأغرى أثر هذه الحركة عساكر بني مرين تادلاً^(١) واستباح بني جابر حاميتها من جشم بيلد أبي نفيس ، واستلحم أبطالهم ، وألان من حَدِّهم ، وخضد من شوكتهم . وفي أثناء هذه الحروب كان مقتل علي بن عثمان بن عبد الحق ، وهو ابن أخي الأمير أبي يحيى . شعر منه بفساد الدخلة والاجتماع للتوثب به ؛ فدنَّ لابنه أبي حديد مفتاح بقلته ؛ يجهات مكناسة سنة إحدى وخمسين وستائة . والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن فتح سجلماسة وبلاد القبلة وما كان في ذلك

من الاحداث) *

لما يش بنو عبد المؤمن من غلبهم بني مرين على ما صار في أيديهم من بلاد المغرب وعادوا إلى مدافعتهم عن صامة الدولة التي تحملت إياها شفافهم لو أطاقوا المدافعة عنها وملك بنو مرين عامة بلاد التلول ، اعترم الأمير أبو يحيى بعدها على الحركة إلى بلاد القبلة ففتح سجلماسة ودرعة وما إليها سنة ثلاث وخمسين وستائة وافتتحها بمداخلة من ابن القطراني ، غدر بعامل الموحدين فتقبَّض عليه ، وأمكن منها الأمير

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ ، وفي معجم البلدان : تادلة .

أبا يحيى فملكها ، وما إليها من درعة سائر بلاد القبلة . وعقد لابنه أبي حديد . وبلغ الخبر إلى المرتضى فسرح العساكر سنة أربع وخمسين وستائة لاستنفاذها ، وعقد عليهم لابن عطوش ، ففرّ راجعاً إلى مراکش ، ثم نهض سنة خمس وخمسين وستائة إلى محاربة يغمراس وبنه بأبي سليط ، فأوقع بهم واعتزم على اتباعه ، فثناه عن رأيه في ذلك أخوه يعقوب بن عبد الحق لعهد تأكد بينه وبين يغمراس فرجع . ولما انتهى إلى المقرمة هذه ، بلغه أن يغمراسن قصد سجلماسة ودرعة لمداخلة من بعض أهلها أطعمته في ملكها ، فأغذ السير إليها بجموعه ، ودخلها ولصبيحة دخوله وصل يغمراسن لشأنه ، فلما علم بمكان أبي يحيى من البلد سقط في يده ويثس من غلابه ، ودارت بينهم حرب تكافؤاً فيها وهلك سليمان بن عثمان بن عبد الحق ابن أخي الأمير أبي يحيى ، وانقلب يغمراسن إلى بلده ، وعقد الأمير أبو يحيى على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة ليوسف بن يزكاسن ، واستعمل على الجباية عبد السلام الأوربي وداد بن يوسف ، وانكفأ راجعاً إلى فاس . والله تعالى أعلم .

الخبر عن مهلك أبي يحيى وما كان اثر ذلك من الاحداث التي تمحضت عن استبداد أخيه يعقوب بن عبد الحق بالأمر

لما رجع الأمير أبو يحيى من حرب يغمراسن بسجلماسة ، أقام أياماً بفاس . ثم نهض إلى سجلماسة متفقداً لثغورها ، فانقلب منها عليلاً . وهلك حتف أنفه على سرير ملكه في رجب سنة ست وخمسين وستائة أمضى ما كان عزمًا ، وأطول إلى تناول الملك يدًا . اختطفته المنون عن شأنه ودفن بمقبرة باب الفتوح من فاس ، ضجيعاً للمولى أبي محمد الفشتالي كما عهد لأهل بيته . وتصدى للقيام بأمره ابنه عمر واشتمل عليه عامة قومه . ومالت المشيخة وأهل الحل والعقد إلى عمه يعقوب بن عبد الحق ، وكان غائباً عن مهلك أخيه بتازي ، فلما بلغه الخبر أسرع اللحاق بفاس وتوجهت إليه وجوه الأكابر . وأحس عمر بصاغية الناس إليه ، وحرّضه أتباعه على الفتك بعمه ^(١) ، فاعتصم بالقصبة ، وسعى الناس في إصلاح ذات بينهما ، فتفادى يعقوب عن الأمر ، ودفعه لابن أخيه ، على أن تكون له بلاد تازي وبطوية وملوية ، ولما لحق

(١) وفي نسخة ثانية : به .

بتأزى واجتمع إليه كافة بني مرين ، عذلوهم فيما كان منه فاستلأم ، وحملوه على العودة في الأمر ، ووعدوه من أنفسهم المظاهرة والموازرة فأجاب ، وبأيعوه وصمد إلى فاس ، وبرز عمر للقائه فأنتهى إلى المسجدين ، ولما تراءى الجمعان خذ له جنوده وأسلموه ، فرجع إلى فاس مغلولاً ، ووجه الرغبة إلى عمه أن يقطعه مكناسة ويتزل له عن الأمر ، فأجابه إلى ذلك ، ودخل السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق مدينة فاس فملكها سنة سبع وخمسين وستائة وتمشت طاعته في بلاد المغرب ما بين ملوية وأم الربيع وسجلماسة وقصر كتامة . واقتصر عمر على إمارة مكناسة فتولاها أياماً ، ثم اغتاله من عشيره عمر وإبراهيم إبن عمه عثمان بن عبد الحق والعباس ابن عمه محمد بن عبد الحق فقتلوه وثأروا منه بدم كانوا يعتدونه عليه . وهلك لعام أو بعد عام من إمارته ، فكفى يعقوب شأنه واستقام سلطانه ، وذهب التنازع والمشاق عن أمره . وكان يغمراسن بعد مهلك قرنه الأمير أبي يحيى سماله أمل في الاجلاب على المغرب ، فجمع لذلك قومه واستجاش بني توجين ومغراوة وأظمعههم في غيل الأسود ونهضوا إلى المغرب حتى انتهوا إلى كلد امان وصمد السلطان يعقوب بن عبد الحق إلى لقائهم فغلبهم ورجعوا إلى تفيثته^(١) ، ومّر يغمراسن ببلاد بطوية فأحرق وانتسف واستباح وأعظم فيها النكاية . ورجع السلطان إلى فاس وتقبل مذهب أخيه الأمير أبي يحيى في فتح أمصار المغرب وتدويخ أقطاره . وكان مما أكرمه الله به أن فتح أمره باستنقاذ مدينة سلا من أيدي النصارى ، فكان له بها أثر جميل وذكر خالد ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن فجأة العدو مدينة سلا واستنقاذها

من أيديهم) *

كان يعقوب بن عبد الله^(٢) قد استعمله عمه الأمير أبو يحيى على مدينة سلا لما ملكها كما ذكرناه . ولما استرجعها الموحدون من يده أقام يتغلب في جهاتها مراصداً لأهلها وحاميتها . ولما بويغ عمه يعقوب بن عبد الحق اسقته بعض الأحوال . فذهب

(١) وفي نسخة ثانية : ورجعوا على تعبئة .

(٢) وفي نسخة ثانية : بن عبد الحق .

مغاضباً حتى نزل غبولة ، وألطف الحيلة في تملك رباط الفتح وسلا ليعتدّها ذريعة لما أسّر في نفسه ، فتمت له الحيلة ، وركب عاملها ابن يعلو البحر فاراً إلى أزمور . وخلف أمواله وحرمة فتملك يعقوب بن عبد الله البلد وجاهر بالخلع ، وصرف إلى منازعة عمه السلطان أبي يوسف وجوه العزم ، ودخل تجار الحرب في الامداد بالسلاح . فتماروا في ذلك وكثر سفر المترددين بينهم ، حتى كثروا أهلها وأسلموا فيها غرة عيد الفطر من سنة ثمان وخمسين وستائة عند شغل الناس بعيدهم . وثاروا بسلا ، وسبوا الحرم وانتهبوا الأموال ، وضبطوا البلد وامتنع يعقوب بن عبد الله برباط الفتح ، وطار الصريخ إلى السلطان أبي يوسف ، وكان بتازى مستشرفاً لأحوال يغمراسن ، فنادي في قومه ، وطار بأجنحة الخيول ووصلها ليوم ليلة ، وتلاحقت به أمداد المسلمين من أهل الديوان والمطوعة . ونازلها أربع عشرة ليلة ، ثم اقتحمها عليهم عنوة ، وأنخن فيهم بالقتل . ثم رمّ بالبناء ما كان مثلاً بسورها الغربي حيث أمكنت منه الفرصة في البلد وتناول البناء فيه بيده والله لا يضيع عمل عامل .

وخشي يعقوب بن عبد الله بادرة السلطان ، فخرج من رباط الفتح وأسلمه فضبطه السلطان وثقفه . ثم نهض إلى بلاد تامسنا وأنفى ، فلكها وضبطها ولحق يعقوب بن عبد الله بحصن علودان من جبال غمارة ، فامتنع به وسرح السلطان ابنه أبا مالك عبد الواحد وعليّ بن زيّان لمنازلته . وسار إلى لقاء يغمراسن لقاء المهادنة ، فلقية يحو حرمان^(١) وافترقا على السلم ووضع أوزار الحرب ، ورجع السلطان إلى المغرب فخرج عليه أبناء أخيه أولاد إدريس . ولحقوا بقصر كتامة . شايعوا يعقوب ابن عمهم عبد الله على رأيه . واجتمعوا إلى أكبرهم محمد بن إدريس فيمن إليهم من العشير والصنائع ، فنهض إليهم واعتصموا بجبال غمارة ، ثم استترهم واسترضاهم وعقد لعامر ابن إدريس سنة ستين وستائة على عسكر من ثلاثة آلاف فارس أو يزيدون من المطوعة من بني مرين ، وأغزاهم إلى العدو للجهاد العدو وحملهم ، وفرض لهم . وشفع بها عمله في واقعة سلا وهو أول جيش أجاز من بني مرين ، فكان لهم في الجهاد والمرابطة مقامات محمودة وذكر خالد تقبل سلفهم فيها خلفهم من بعدهم حسبا نذكره . وأقام يعقوب بن عبد الله خارجا بالنواحي مثقلاً في الجهات إلى أن قتله طلحة بن علي

(١) وفي نسخة ثانية : فلقية بوادي حرمان .

بساقيه غبولة من ناحية سلا سنة ثمان وستين وستائة فكفى السلطان شأنه . وكان المرتضى مذ توالى عليهم الوقائع واستمر الظهور لبني مرين انحجر في جدرانهم وتوارى بالأسوار عن عدوه ، فلم يسم إلى لقاء زحف ولا حدث نفسه بشهود حرب ، واستأسد بنو مرين على الدولة وشرهوا إلى التهام البقية ، وأسفوا إلى منازلة مراکش دار الخلافة ، كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

الخبر عن منازلة السلطان أبي يوسف حضرة مراکش دار
الخلافة وعنصر الدولة وما كان أثر ذلك من نزوع أبي دبوس
إليه وكيف نصبه للامر وكان مهلك المرتضى على يده
ثم انتقض عليه

لما فرغ السلطان من شأن الخوارج عليه من عشيره ، استجمع لمنازلة المرتضى والموحدين في دارهم ، ورأى أنه أوهن لدولتهم وأقوى لأمره عليهم . وبعث قومه واحتشد أهل ممالكه ، واستكمل تعيينه وسار حتى انتهى إلى ايكليز^(١) واعتزم على ذلك سنة ستين وستائة وشارف دار الخلافة . ثم نزل بقعرها وأخذ بمخنفها . وعقد المرتضى لحربهم للسيد أبي العلاء إدريس المكنى بأبي دبوس ابن السيد أبي عبدالله ابن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن ، فعبى كتابه ورتب مصافه ، وبرز لدافعهم ظاهر الحضرة ، فكانت بينهم حروب بعد العهد بمثلها ، استشهد فيها الأمير عبدالله بن يعقوب بن عبد الحق ، وكانوا يسمونه برطانتهم المعجوب^(٢) ففت مهلكه في عضدهم ، وارتحلوا عنها إلى أعماهم ، واعترضهم عساكر الموحدين بوادي أم الربيع ، وعليهم يحيى بن عبدالله بن وانودين ، فاقتلوا في بطن الوادي وانهزمت عساكر الموحدين . وكان في مسيل الوادي كدي تحسر عنها غمر الماء تبدو كأنها أرجل ، فسميت الواقعة بها أم الرجلين . ثم سعى سيطرة الفتن عند الخليفة المرتضى في ابن عمه وقائد حربه السيد أبي دبوس بطلبه الأمر لنفسه ، وشعر بالسعاية فخشي

(١) وفي نسخة أخرى : ايكلين .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : ايعجوب .

بادرة المرتضى ولحق بالسلطان أبي يوسف مدخله إلى فاس من منازلته آخر سنة إحدى وستين وستائة نازعاً إليه ، فأقام عنده ملياً . ثم سأل منه الإعانة على أمره بعسكر يمدّه وآلة يتخذها للملكه ، ومال يصرفه في ضروراته على أن يشركه في القسمة والفتح والسلطان ، فأمدّه بخمسة آلاف من بني مرين ، وبالكفاية من المال والمستجاد من الآلة وأهاب له بالعرب والقبائل من أهل مملكته ومن سواهم أن يكونوا يداً معه . وسار في الكتائب حتى شارب الحضرة ، ودس إلى أشياعه ومن يداخله من الموحدّين في أمره ، فثاروا بالمرتضى وأخفضوه^(١) عنها ، فلحق بأزمور مستجيشاً بصهره ابن عطوش . ودخل أبو دبوس الحضرة في المحرم فاتح خمس وستين وستائة وثقبض ابن عطوش عامل أزمور على المرتضى واقتاده أسيراً إلى أبي دبوس ، فبعث مولاه مزاحماً فاحترّ رأسه في طريقه ، واستقلّ بالخلافة صباه آل عبد المؤمن . ثم بعث إليه السلطان في الوفاء بالمشارطة ، فاستكف ، وعثا ونقض العهد وأساء الخطاب ، فنهض إليه في جموع بني مرين وعساكر المغرب ، فخام عن اللقاء وانحجز بمراكش . ونازله السلطان أياماً تباعاً ثم سار في الجهات والنواحي يحطم الزرع وينسف الأقوات . وعجز أبو دبوس عن دفاعه ، فاستجاش عليه بيغمراسن بن زيان ليفت في عضده ويشغله عما وراءه ، ويأخذ بحجزته عن التهامه على ما نذكر لو أمهلته الأيام ، وانفسح له الأجل .

الخبر عن وقعة تلاغ بين السلطان يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن بن زيان باغراء أبي دبوس وتضريبه

لما نازل السلطان أبو يوسف حضرة مراكش وقعد على ترائبه للتوئب عليها ، لم يجد أبو دبوس وليجة من دون قصده إلاّ استجاشته بيغمراسن وقومه عليه ، ليأخذوا بحجزته عنه ، ويشغلوه من ورائه . فبعث إليه الصريح في كشف بلواه ومدافعة عدوّه . وأكد العهد وأسنى الهدية ، فشمّر يغمراسن لاستنقاذه وجذب عدوّه من ورائه ، وشنّ الغارات على ثغور المغرب وأضرم نازاً فأهاج عليه وعلى قومه من السلطان يعقوب ليثاً عادياً ، وأزهف منه عزماً ماضياً ، وأفرج يعقوب على مراكش بعزم النهوض إلى

(١) وفي نسخة ثانية : اجهضوه .

تلمسان ، ونزل بفاس ، فتلوم بها أياماً حتى أخذ أهبة الحرب ، وأكمل استعدادها ورحل فاتح ست وستين وستائة وسلك على كرسيف ، ثم على تافرطا ، وتراحف الفريقان بوادي تلاغ. ، وعبى كل منهم كتابه ورتب مصافه ، وبرز النساء سافرات الوجوه على سبيل التحريض لحسن وسعد بن ويرغين^(١) ولما قاء الفى ومال النهار ، وكثرت حشود المغرب وجموع بني عبد الواد ومن إليهم ، انكشفوا ومنحوا العدو أكتافهم . وهلك أبو حفص عمر كبير ولد يغمراسن وولي عهده في جماعة من عشيرة ، ذكرناهم في أخباره . وأخذ يغمراسن بأعقاب قومه ، فكان لهم رداءً إلى أن خلصوا من المعترك ووصلوا إلى بلادهم في جمادى من سنتهم ، وعاد السلطان أبو يوسف إلى مكانه من حصار مراکش والله أعلم .

الخبر عن السفارة والمهاداة التي وقعت بين السلطان يعقوب ابن عبد الحق وبين المستنصر الخليفة بتونس لن آل ابي حفص

كان الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص منذ دعا لنفسه بتونس سنة خمس وعشرين وستائة طموحاً إلى ملك مراکش مقر الدعوة ومنبث الدولة وأصل الخلافة . وكان يؤمل لذلك زنادة ، وإلا فادونه من خضد شوكة آل عبد المؤمن ، وتقليم أظافر بأسهم ، وردهم على أعقابهم أن يخلصوا إليه ، وتغلب على تلمسان سنة أربعين وستائة ودخل يغمراسن بن زيان في دعوته وصار فيئة له وتبعه على عدوه كما ذكرناه ، فوصل به جناحة للمدافعة . وناغاه بنو مرين في مراسلة ابن أبي حفص ومخاطبته ، والتخفيض عليه فيما يهيمه من شأن عدوه ، وحمل ما يفتحون من بلاد المغرب على البيعة له والطاعة مثل : فاس ومكناسة والقصر . وكان هو يلاطفهم بالتحف والهدايا ، ويريم البر في الكتاب والخطاب والمعاملة والتكريم للوفد غير سبيل آل عبد المؤمن ، فكانوا يفتحون بذلك إلى مراسلته ، وإيفاد قرابتهم عليه . وولي ابنه المستنصر بعده سنة سبع وأربعين وستائة فتقبل مذاهب أبيه وأوفي عليه بالإيعاز إليهم بمنزلة مراکش ، وضمان الاتفاق عليهم فيها ، فكان يث لذلك أحلاماً

(١) وفي نسخة ثانية : على سبيل التحريض ، يحيين ويعدين ويرغين .

من المال والسلاح وأعداداً وافرة من الخيل بمراكبها للحملان ، ولم يزل ذلك دأب معهم . ولما فعل أبو ذؤبوس فعلته في نقض العهد واستجمع السلطان لمنازلته ، قدم بين يدي عمله مراسلة الخليفة المستنصر يخبره الخبر ويتلطف له في استئزال المدد ، فأوفد عليه ابن أخيه عامر بن إدريس بن عبد الحق ، وأصبحه عبدالله بن كندوز لعبد الواد كبير بني كمي ، وقرع يغمراسن الذي ثار يغمراسن من أبيه كندوز بأبيه زيان كما ذكرناه في أخبارهم . وكان خلص إليه من حضرة المستنصر فلقاه مبرةً وتكريماً ، وأوفد معهم الكاتب أبا عبدالله محمد الكناني من صنائع دولة آل عبد المؤمن ، كان نزع إلى أخيه الأمير أبي يحيى لما رأى من اختلال الدولة ، وأنزله مكناسة وآثره بالصحة والخلة ، فجمع له يعقوب بن عبد الحق في هذا الوفد من الأشراف من يحسن الرياسة ، ويعرب عما في ضمائر الناس ، ويدله على شرف مرسله . فوفدوا على المستنصر سنة خمس وستين وستائة وأدوا رسالتهم وحركوا له جوار المظاهرة على صاحب مراکش وكبح عنانه ، فحنّ واهتر سروراً من أعواده ، ولقاهم مبرةً التكريم وإحسان التزل ، وردّ الأمير عامر بن إدريس وعبدالله بن كندوز لوقتها . وتمسك بالكناني من بينهم لمصاحبة وفده ، فطال مقامه عنده إلى أن كان من فتح مراکش ما نذكره . ثم أوفد المستنصر على السلطان يعقوب بن عبد الحق آخر سنة تسع وستين وستائة بعدها شيخ الجماعة من الموحّدين لعهد أبا زكريا يحيى بن صالح الهنتاني مع جماعة من مشيخة الموحّدين في مرافقة محمد الكناني ، وبعث معهم إلى السلطان هدية سنّة يلاطفه بها ويتاحفه ، انتخب فيها من الجياد والسلاح وأصناف الثياب الغريبة العمل ما انتقاه . ووفق رضاه وهمنته على الاستكثار منه ، فحسن موقعها وتحذّث وانقلب وفده أحسن منقلب بعد أن تلتطف محمد الكناني في ذكر الخليفة المستنصر على منبر مراکش ، فتم له ، وشهد له وفد الموحّدين فعظم سرورهم وانقلبوا محبورين مسرورين ، واتصلت بعد ذلك مهادة المستنصر ليعقوب بن عبد الحق إلى أن هلك ، وحذا ابنه الواثق من بعده على سننه ، فبعث إليه سنة سبع وسبعين وستائة هدية حافلة ، بعث بها القاضي أبا العباس الغماري قاضي بجاية فعظم موقعها ، وكان لأبي العباس الغماري بالمغرب ذكر تحدّث به الناس والله أعلم .

* (الخبر عن فتح مراکش ومهلك أبي دبوس وانقراض دولة
الموحدين من المغرب) *

لما رجع السلطان أبو يوسف من حرب يغمراسن ورأى أن قد كفى عدوّه وكف غربه وردّ من كيدته وكيد أبي دبوس صريحه ، صرف حينئذ عزائمهم إلى غزو مراکش ، والعودة إلى مضايقتها كما كان لأول أمره ، ونهض لغزاته من فاس في شعبان من سنته . ولما جاوزوا أمّ الربيع ، بثّ السرايا وسرّح الغارات ، وأطلق الأيدي والأعنة للنهب والعيث ، فحطّموا زروعها وانتسفوا آثارها ، وتقرى نواحيها كذلك بقية عامة . ثم غزا عرب الخلط من جشم بتادلا ، فأثنى فيهم واستباحهم . ثم نزل وادي العبيد ، ثم غزا بلاد صنهاجة ، ولم يزل ينقل ركابه بأنحاء البلاد المراكشية وأحوازها حتى حضرت صدور بني عبد المؤمن وقومه ، وأغزاهم أولياء الدولة من عرب جشم بنهوض الخليفة لمدافعة عدوّه ، فجمع لذلك وبرز في جيوش ضخمة وجموع وافرة ، واستجرّه أبو يوسف بالفرار أمامه ليبعد عن مدد الصريح ، فيستمكن منه حتى نزل عفو . ثم كرّ إليه والتحم القتال فاختلف مصافه وفرت عساكره . وانهمز يريد مراکش فأدركوه دون أمله . واعتاقه أجله ، فطعن في مفرّ وخرّ صريعاً لليدين وللقم واجترّ رأسه . وهلك بمهلكه وزيره عمران وكتبه عليّ بن عبد الله المغيلي . وارتحل السلطان أبو يوسف إلى مراکش وفرّ من كان بها من الموحدين ، فلحقوا بجبل تينملل ، وبايعوا اسحق أخا المرتضى ، فبقي ذبالة هنالك سنين . ثم تقبّض عليه سنة أربع وسبعين وستائة ، وسيق إلى السلطان هو وأبو سعيد ابن عمّه السيد أبي الربيع والقبائلي وأولاده فقتلوا جميعاً . وانقرض أمر بني عبد المؤمن . والله وارث الأرض ومن عليها .

وخرج الملاء وأهل الشورى من الحضرة إلى السلطان فأمنهم ووصلهم . ودخل مراکش في بروز فخم فاتح سنة ثمان وستين وستائة وورث ملك آل عبد المؤمن وتولّاه . واستوسق أمره بالمغرب ، وتطامن الناس لبأسه ، وسكنوا الظلّ سلطانه . وأقام بمراكش إلى رمضان من سنته ، وأغزى ابنه الأمير أبا مالك إلى بلاد السوس فافتتحها وأوغل في ديارها ودوّخ أقطارها ، ثم خرج بنفسه إلى بلاد درعة فأوقع بهم

الوقعة المشهورة التي خضدت من شوكتهم ، ورجع لشهرين من غزاته ، ثم أجمع الرحلة إلى داره بفاس فعقد على مراكش وأعمالها لمحمد بن عليّ بن يحيى من كبار أوليائهم ومن أهل خؤلته ، وكان من طبقة الوزراء حسباً يأتي التعريف به وبعشيرته ، وأنزله بقصبة مراكش ، وجعل المسالح في أعمالها لنظره ، وعهد إليه بتدويخ الأقطار ومحو آثار بني عبد المؤمن ، وفصل إلى حضرته في شّوال وأراح بسلا ، فكان من خبر عهده لابنه ما نذكره ان شاء الله تعالى .

الخبر عن عهد السلطان لابنه أبي مالك وما كان عقب ذلك
من

خروج القراية عليه أولاد أخيه إدريس واجازتهم الى الاندلس

لما تلوم السلطان بسلا منصرفه من رباط الفتح وأراح بها ركائبه عرض له طائف من المرض ووعك وعكاً شديداً . فلماً أبلّ جمع قومه وعهد لابنه فيهم أبي مالك عبد الواحد كبير ولده ، لما علم من أهليته لذلك . وأخذ له البيعة عليهم ، فأعطوها طواعية ، وأسف القراية من ولد أخويه عبدالله وإدريس لأُمّهما سوط النساء ، ووجدوا في أنفسهم لما يرون أنّ عبدالله وإدريس أكابر ولد عبد الحق ، ولهما التقدّم على من بعدهما من ولده ، وأنها أحق بالأمر ، فرجعت هنت إلى أذنانها (١) ، ونفسوا عن ابن السلطان لما أخذ له من البيعة والعهد . ونزعوا عنه إلى جبل علودان من جبال غمارة عشّ خلافتهم . ومدرج فتنهم ، وذلك سنة تسع وستين وستائة ورياستهم يومئذ لمحمد بن إدريس وموسى بن رحوّ بن عبدالله ، وخرج معهم ولد أبي عياد بن عبد الحق وأغزاهم السلطان ولده أبا يعقوب يوسف في خمسة آلاف من عسكريه ، فأحاط بهم وأخذ بمخنتهم ، ولحق به أخوه أبو مالك في عسكريه ، ومعه مسعود بن كانون شيخ سفيان . ثم خرج في أثرهم السلطان أبو يوسف واجتمع معسكرهم بتافركا ونازلهم ثلاثاً . وهلك في حروبهم منديل بن ورتظليم . ولما رأوا أن أحيط بهم سألوا الأمان ، فبذله وأنزلهم . واستلّ سخائمهم ومسح ما في صدورهم ، ووصل بهم إلى

(١) وفي نسخة ثانية : فعادت هيف الى أديانها .

حضرته . وسألوا منه الاذن في اللحاق بتلمسان حياءً من كبر ما ارتكبهوه ، فأذن لهم ، وأجازوا البحر إلى الأندلس ، وخالفهم عامربن إدريس لما أنس من صاغية السلطان إليه ، فتخلف عنهم بتلمسان حتى توثق لنفسه بالعهد وعاد الى قومه بعد منازلة السلطان بتلمسان كما نذكره الآن .

واحتلّ بنو إدريس وعبدالله وابن عمهم أبو عياد باندلس على حين أقفر من الحامية جوها ، واستأسد العدو على ثغرها . وغلبت شفاههم فاحتلّوها أسوداً ضارية ، وسيوفاً ماضية ، معوّدين لقاء الأبطال وقراع الختوف والتزال . مستغلّطين بخشونة البداوة وصرامة العز وبسالة التوحّش فعظمت نكايتهم في العدو واعترضوا شجبي في صدره دون الوطن الذي كان طعمه له في ظنّه ، وارتدّوه على عقبه ، ونشطوا من همم المسلمين المستضعفين وراء البحر وبسطوا من آمالهم لمدافعة طاغيتهم . وزاحموا أمير الأندلس في رياستها بمنكب ، فتجافى لهم عن خطة الحرب ورياسة الغزاة من أهل العدو من أعياصهم وقبائلهم ومن سواهم من أمم البرابرة ، وتناقلوه وساهموا في الجباية لفرط العطاء والديوان ، فبذله لهم واستمدّوا على العدو^(١) وحسن أثرهم فيها كما نذكره بعد في أخبار القرابة . ثم أعمل السلطان نظره في غزو تلمسان على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن حركة السلطان أبي يوسف الى تلمسان وواقعيته على يغمراسن وقومه بايسيلي

لما غلب السلطان أبو يوسف على بني عبد المؤمن وفتح مراکش واستولى على ملكهم سنة ثمان وستين وستائة وعاد إلى فاس كما ذكرناه ، تحرّك ما كان في نفسه من ضغائن يغمراسن وبني عبد الواد ، وما أسفوا به من تخذيل عزائمهم ومجادلتهم^(٢) عن قصده . ورأى أنّ واقعة تلاغ لم تشف صدره ، ولا أطفأت نار موجدته ، فأجمع أمره على غزوهم . واقتدر بما صار إليه من الملك والسلطان على حشد أهل المغرب لحربهم وقطع دابرهم ، فعسكر بفاس ، وسرّح ولده ووّلّى عهده أبا مالك إلى مراکش في

(١) وفي نسخة ثانية : واستمروا على ذلك لهذا العهد .

(٢) وفي نسخة اخرى : مجادبته .

خواصه ووزرائه حاشدين في مدائنهما وضواحيهما وقبائل العرب والمصامدة وبني ورا وغمرة وصنهاجة ، وبقايا عساكر الموحدين بالحضرة ، وحامية الأمصار من جند الروم وناشبة الغزو فاستكثر من أعدادهم واستوفى حشدهم . واحتفل السلطان بحركته وارتحل عن فاس سنة سبعين وستائة وتلوم بملوية إلى أن لحقته الحشود وتوافت إليه أمداد العرب من قبائل جشم أهل تامسنا الذين هم سُفْيَان والخُلُط والعاصم ، وبنو جابر ومن معهم من الأثبيج ، وقبائل ذوي حَسَّان والشبانان من المعقل أهل السوس الأقصى ، وقبائل رياح أهل أزغار والهبط . فاعترض هنالك عساكر وعبي مواكبه ، فيقال بلغت ثلاثين ألفاً . وارتحل يريد تلمسان ، ولما انتهى إلى أنكاد^(١) وافته رسل ابن الأحمر هنالك ووفد المسلمين بالأندلس صريحاً على العدو ويستجيشون باخوانهم المسلمين ويسألونهم الإعانة ، فتحركت همته للجهاد ونصر المسلمين من عدوهم . ونظر في صرف الشواغل عن ذلك ، وجنح إلى السلم مع يغمراسن ، وصوب الملاء في ذلك رأيه لما كانوا عليه من إثارة الجهاد . وانتدب جماعة من المشيخة إلى السعي في صلاح ذات بينهما ، وانكفاً من غرب عدوتها .

وساروا إلى يغمراسن فوافوه بظاهر تلمسان وقد أخذ أهفته واستعد للقاء . واحتشد زناتة أهل ممالكه بالشرق من بني عبد الواد وبني راشد ومغراوة وأحلافهم من العرب زغبة . فلج في ذلك واستكبر وصم عن إسعافهم . وزحف في جموعه ، والتقى الجمعان بوادي ايسلي من بسائط وجدة ، والسلطان أبو يوسف قد عصى كتابه ، ورتب مصافه وجعل ولديه الأميرين أبا مالك وأبا يعقوب في الجناحين ، وسار في القلب ، فدارت بينهم حرب شديدة أنجلت عن هلاك فارس بن يغمراسن ، وجماعة من بني عبد الواد . وكاثرهم حشود المغرب الأقصى وقبائله ، وعساكر الموحدين والبلاد المراكشية ، فولوا الأدبار . وهلك عامة عسكر الروم لثباتهم بثبات السلطان فطحتهم رحي الحرب . وتقبض على قائدهم بيرنيس . ونجا يغمراسن بن زيان في قلعه مدافعاً دون أهله إلى تلمسان . ومَرَّ بفساطيطه ، فأضرها ناراً ، وانتهب معسكره ، واستبيحت حرمة . وأقام السلطان أبو يوسف على وجدة حتى خربها وأصرع بالتراب

(١) أنكاد : مدينة قرب تلمسان من بلاد البربر من أرض المغرب ، كانت لعلي بن أحمد قديماً ، ذات سور من تراب في غاية الارتفاع والعرض ، وواديها يشقها نصفين ، منها إلى تاهرت بالعرض مشرقاً ثلاث مراحل (معجم البلدان) .

أسوارها ، وألصق بالرغام جدرانها . ثم نهض إلى تلمسان فحاصرها أياماً وأطلق الأيدي في ساحتها بالنهب والعيث ، وشن الغارات على البسائط ، فاكسحها سبياً ونسفها نسفاً .

وهلك في طريقه إلى تلمسان وزيره عيسى بن ماساي ، وكان من عليّة وزرائه وحماة ميدانه له في ذلك أخبار مذكورة . وكان مهلكه في شوال من هذه السنة . ووصله بمشواه من حصارها محمد بن عبد القوي أمير بني توجين ، ومستصرخه على بني عبد الواد لما نال منه يغمراسن من طبع القهر وذلّ الغلب والتحيف في كافة قبيلة مهابياً بآلته ، فأكرم السلطان أبو يوسف وفادته واستركب الناس للقائه وبرور مقدمه . واتخاذ رتبة السلاح لمباهاته ، وأقام محاصراً لتلمسان معه أياماً حتى وقع اليأس وامتنع البلد ، واشتدّ شوكة حاميته ثم أجمع السلطان أبو يوسف على الإفراج عنها وأشار على الأمير محمد بن عبد القوي وقومه بالقول قبل قفوله ، وإن يغذّوا السير إلى بلادهم . وملاء حقائبهم باتخافه وجنب لهم من المائة من المقرّبات بمراكبها ، وأراح عليهم ألف ناقة حلوب . وعمهم بالخلع مع الصلات والخلع الفاخرة . واستكثر لهم من السلاح والغازات والفساطيط ، وحملهم على الظهر ، وارتحلوا وتلّوم السلطان أياماً لمنجاتهم إلى مقرّهم من جبل وانشريس حذراً من غائلة يغمراسن من انتهاز الفرصة فيهم . ثم دخل إلى فاس ودخلها مفتتح إحدى وسبعين وستائة وهلك ولده الأمير أبو مالك وليّ عهده لأيام من مقدمه ، فأسف لمهلكه . ثم تعزّى بالصبر الجميل عن فقدّه ، ورجع إلى حاله في افتتاح بلاد المغرب . وكان في غزوته هذه ملك حصن تاونت ، وهو معقل مطفّرة ، وشحنه بالأقوات لما رآه ثغراً مجاوراً لعدوّه . وأسلمه لنظر هرون ابن شيخ مطفّرة . ثم ملك حصن مليلة بساحل الريف مرجعه من غزاته هذه . وأقام هرون بحصن تاونت ، ودعا لنفسه . ولم يزل يغمراسن يرّدّ الغزو إليه حتى فرّ من الحصن واستلمه سنة خمس وسبعين وستائة ولحق بالسلطان أبي يوسف كما ذكرناه في أخباره ، عند ذكر قبيلة مطفّرة وكان من شأنه ما ذكرناه .

الخبر عن افتتاح مدينة طنجة وطاعة اهل سبتة
وفرض الاتاوة عليهم وما قارن ذلك من الاحداث

كانت هاتان المدينتان سبتة وطنجة من أوّل دولة الموحّدين من أعظم عمالاتهم وأكبر

ممالكهم بما كانت ثغر العدو ومرقاً الأساطيل ، وداراً لإنشاء الآلات التجرية ^(١) ، وفرضة الجواز إلى الجهاد . فكانت ولايتها مختصة بالقرابة من السادة بني عبد المؤمن . وقد ذكرنا أن الرشيد كان عقد علي أعمالها لأبي علي بن خلاص من أهل بلنسية ، وأنه بعد استفحال الأمير أبي زكريا بأفريقية ومهلك الرشيد ، صرف الدعوة إليه سنة أربعين وستمائة وبعث إليه بالمال والبيعة مع ابنه أبي القاسم . وتولى على طنجة يوسف ابن محمد بن عبد الله بن أحمد الحمداني المعروف بابن الأمير قائداً على الرجل الأندلسيين ، وضابطاً للقصة . وعقد الأمير أبو زكريا على سبتة لأبي يحيى بن أبي زكريا ، ابن عمه أبي يحيى الشهيد ابن الشيخ أبي حفص فترل بها واستراب أبو علي ابن خلاص من العواقب عند مهلك ابنه الوافد على السلطان غريقاً في البحر ، فرحل بحملته إلى تونس في السفن ، وأراح ببجاية ، فكان فيها هلاكه سنة ست وأربعين وستمائة ويقال هلك في سفينته ودفن بجاية ، ولما هلك الأمير أبو زكريا سنة سبع وأربعين وستمائة بعدها انتقض أهل سبتة على ابنه المستنصر وطرّدوا ابن الشهيد ، وقتلوا العمّال الذين كانوا معه ، وصرفوا الدعوة للمرتضى . وتولى ذلك حجفون ^(٢) الرنداحي بمداخلة أبي القاسم العزفي كبير المشيخة بسبتة ، وأعظمهم تجلّة ، نشأ في حجر أبيه الفقيه الصالح أبي العبّاس أحمد مكنوفاً بالجلالة مغدّواً بالعلم والدين ، لما كان له فيها قدم إلى أن هلك ، فأوجب أهل البلد لابنه ما عرفوه من حقّه وحق أبيه من قبله ، وكانوا يفرعون إليه في المهمّات ويسلمون له في الشورى ، فأغرى الرنداحي بهذه الفعلة ففعلها وعقد المرتضى لأبي القاسم العزفي على سبتة مستقلاً من غير إشراف أحد من السادة ، ولا من الموحّدين . واكتفى بغنائه في ذلك الثغر وعقد لحجفون الرنداحي على قيادة الأساطيل بالمغرب ، فورثها عنه بنوه إلى أن زاحمهم العزفي بمناكب رياسته ، فقوضوا عن سبتة فمنهم من نزل بمالقة على ابن الأحمر ومنهم من نزل بجاية على أبي حفص ، ولهم في الدولتين آثار تشهد برياستهم . واستقل الفقيه أبو القاسم العزفي برياسة سبتة ، وأورثها بنيه من بعده على ما ذكره بعد . وكانت طنجة تالية سبتة في سائر الأحوال وتبعاً لها ، فاتبع ابن الأمير صاحبها إمارة

(١) وفي نسخة ثانية : البحرية .

(٢) وفي نسخة أخرى : حجّون الرنداحي وفي نسخة ثانية : حجّون الرنداحي .

الفقيه أبي القاسم . ثم انتقض عليه لسنة واستبدّ وخطب لابن أبي حفص ، ثم للعباسي ، ثم لنفسه ، وسلك فيها مسلك العزفي في سبته ، ولبثوا كذلك ما شاء الله ، حتى اذا ملك بنو مرين المغرب وانبثوا في شعابه ، ومدّوا اليد في ممالكه فقتلوا ولوها ، ونزلوا معاقله وحصونه فافتتحوها ، وهلك الأمير أبو يحيى عبد الحق وابنه عمر من بعده . وتخيّر بنوه في ذويهم وأتباعهم وحشهم إلى ناحية طنجة وأصيلا ، فأوطنوا ضاحيتها وأفسدوا سابقتها وضيقوا على ساكنها ، واكتسحوا ما حوالها ، وشارطهم ابن الأمير على خراج معلوم على أن يكفوا الأذية ويحموا الحوزة ويصلحوا السابلة . فاتصلت يده بيدهم ، وتردّدوا إلى البلد لاقتضاء حاجاتهم . ثم مكروا وأضمرؤا الغدر ودخلوا في بعض أيامهم متأبطين السلاح ، وقتكوا بابن الأمير غيلة ، فثارت بهم العامة حينهم واستلحموا في مصرع واحد سنة خمس وستين وستائة واجتمعوا إلى ولده وبقيت في ملكته خمسة أشهر . ثم استولى عليها العزفي فنهض إليها بعساكره من الرجل برّاً وبحراً ، واستولى عليها ، وقرّ ابن الأمير ولحق بتونس ونزل على المستنصر واستقرّت طنجة في إيالة العزفي فضبطها وقام بأمرها ، وولّى عليها من قبله . وأشرك الملاء من أشرافها في الشورى . ونازلها الأمير أبو مالك سنة ست وستين وستائة فامتنعت عليه وأقامت على ذلك ستاً ، حتى اذا انتظم السلطان أبو يوسف ببلاد المغرب في ملكته ، واستولى على حضرة مراکش ومحا دولة بني عبد المؤمن ، وفرغ من أمر عدوه يغمراسن ، وهم بتلك الناحية واستضافة عملها ، فأجمع الحركة إليها ونازل طنجة مفتتح سنة إثنين وسبعين بما كانت في البسيط من دون سبته ، وأقام عليها أياماً . ثم اعترم على الإفراج عنها ، فقذف الله في قلوبهم الرعب ، واقترب بينهم . وتنادى في بعض الناشية من السور بشعاب بني مرين ، فبادر سرعان أناس إلى تسوّر حيطانها فلكوها عليهم ، وقتلوا أهل البلد ظلام ليلتهم ، ثم دخلوا البلد من صبيحتها عنوة ، ونادى منادي السلطان في الناس بالأمان والعفو عن أهل البلد ، فسكن روعهم ومهد وفرغ من شأن طنجة . ثم بعث ولده الأمير أبا يعقوب في عساكر ضخمة للمنازلة العزفي في سبته وارغامه على الطاعة ، فنازلها أياماً ، ثم لاذ بالطاعة على المنعة . واشترط على نفسه خراجاً يؤدّيه كل سنة ، فتقبّل السلطان منه ، وأفرجت عساكره عنهم ، وقفل إلى حضرته . وصرف نظره إلى فتح سجلماسة وإزعاج بني عبد الواد المتغلبين عليها ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن فتح سجلماسة الثاني ودخولها عنوة على بني عبد الواد والمنبات من عرب المعقل

قد ذكرنا ما كان من تغلب الأمير أبي يحيى بن عبد الحق على سجلماسة وبلاد درعة ، وأنه عقد عليها وعلى سائر بلاد القبلة ليوسف بن يزكاسن ، وأنزل معه ابنه مفتاحا المكتى بأبي حديد في مشيخته لحياطتها . وأن المرتضى سرح وزيره ابن عطوش سنة أربع وخمسين وستائة في العساكر لارتجاعها ، فنهض الأمير أبو يحيى إليه وشرده عنها ورجعه على عقبه . وأن يغمراسن بن زيان من بعد واقعة أبي سليط سنة خمس وخمسين وستائة ، قصدها لمورة دلّ عليها ، وغرة أمل إصابتها ، فسابقه إليها الأمير أبو يحيى ومالقه من دونها ورجع عنها خائب المسعى مفلول الحامية . وكان الأمير أبو يحيى من بعد أن عقد عليها ليوسف بن يزكاسن عقد عليها من بعده لسنة ونصف من ولايته ليحيى بن أبي منديل كبير بني عسكراً قتالهم ، ومقاسمهم نسب محمد بن وطيس^(١) ثم عقد عليها لشهرين لمحمد بن عمران ابن عبلة من بني يربنان صنائع دولتهم . واستعمل معه على الجباية أبا طالب الحبشي^(٢) وجعل مسلحة الجند بها لنظر أبي يحيى القطراني ، وملكه قيادتهم . وأقاموا على ذلك ستين إثنتين . ولما هلك الأمير أبو يحيى وشغل السلطان أبو يوسف بحرب يغمراسن ومنازلة مراکش ، سما للقطراني أمل في الاستبداد بها ، وداخل في ذلك بعض أهل الفتن وظاهره يوسف بن الغزي^(٣) وفتكوا بعمار الورد غزاني شيخ الجماعة بالبلد . واثمروا بمحمد بن عمران بن عبلة ، فخرج ولحق بالسلطان ، واستبد القطراني بها . ثم ثار به أهل البلد سنة ثمان وخمسين وستائة لسنة ونصف من لدن استبداده وقتلوه . وصرفوا بيعتهم إلى الخليفة المرتضى بمراكش . وتولى كبر ذلك القاضي ابن حجّاج وعليّ بن عمر ، فعقد له المرتضى عليها وأقام بها أميراً . ونازلتهم عساكر بني مرين والسلطان أبو يوسف سنة ستين وستائة ونصب عليها آلات الحصار فأحرقوها وامتنعوا ،

(١) وفي نسخة ثانية : ورصيص .

(٢) وفي نسخة ثانية : أبا طالب بن الحبسي .

(٣) وفي نسخة أخرى : يوسف بن فرج الغزي .

وأفرج عنهم . وأقام عليّ بن عمر في سلطانه ذلك ثلاث سنين ، ثم هلك . وكان الأمير يغمراسن بن زيان منذ غلب الموحدون على تلمسان والمغرب الأوسط ، وصار في ملكته ، تحيّر إليه من عرب المعقل قبيل المنبات من ذوي منصور ، بما كانت مجالات المعقل مجاورة لمجالات بني يادين في القفر . وإنما ارتحلوا عنها من بعد ما جأجأ يغمراسن من بني عامر بمجالاتهم من مصاب ببلاد بني يزيد ، فراحموا المعقل بالمناكب عن مجالاتهم ببلاد فيكيك وصا . ورخلوهم إلى ملوّة وما وراءها من بلاد سجلماسة ، فلكوا تلك المجالات .

وبنذ يغمراسن العهد إلى ذوي عبيدالله منهم واستخلص المنبات هؤلاء ، فكانوا له حلفاء وشيعة ولقومه ودعوته خالصة . وكانت سجلماسة في مجالاتهم منقلب ظعنهم وناجعهم ، ولهم فيها طاعة معروفة . فلما هلك عليّ بن عمر آثروا يغمراسن بملكها ، فحملوا أهل البلد على القيام بطاعته ، وخاطبوه وجأجؤا به ، فغشها بعساكره وملكها وضبطها . وعقد عليها لعبد الملك بن محمد بن علي بن قاسم بن درع من ولد محمد بن زكرز بن يندوكس^(١) ويعرف بابن حنينة نسبه إلى أم أبيه أخت يغمراسن ومعه يغمراسن بن حامة . وأنزل معها ولده الأمير يحيى لاقامة الرسم الملوكي . ثم أداله بأخيه من السنة الأخرى ، وكذا كان شأنه في كل سنة . ولما فتح السلطان أبو يوسف بلاد المغرب وانتظم أمصاره ومعاقله في طاعته ، وغلب بني عبد المؤمن على دار خلافتهم ، ومحا رسمهم ، وافتتح طنجة وطوع سبتة مرفأ الجواز إلى العدو ، وثغر المغرب ، سما أمله إلى بلاد القبلة فوجه عزمه إلى افتتاح سجلماسة من أيدي بني عبد الواد المتغلبين عليها وأداله دعوته فيها من دعوتهم ، فنهض إليها في العساكر والحشود في رجب من سنة إثنين وسبعين وستائة فنازلها وقد حشد إليها أهل المغرب أجمع ، من زناتة والعرب والبربر وكافة الجنود والعساكر ، ونصب عليها آلات الحصار من الجانيق والعرادات ، وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانه أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة تردّ الأفعال إلى قدرة باريها . فأقام عليها حولا كريتا يغاديا القتال ويراوحها ، إلى أن سقطت ذات يوم على حين غفلة طائفة من سورها بالحاح الحجارة من المنجنيق عليها ، فبادروا إلى اقتحام البلد ، فدخلوها عنوة من

(١) وفي نسخة أخرى : زكدان بن تيدوكسن .

تلك الفرجة في صفر من سنة ثلاث وسبعين وستائة فقتلوا المقاتلة والحامية وسبوا الذرية^(١) ، وقتل القائدان عبد الملك بن حنينة ويغمراسن بن حمامة ، ومن كان معهم من بني عبد الواد وأمرء المنبات ، وكمل فتح بلاد المغرب للسلطان أبي يوسف ، وتمشت طاعته في أقطاره . فلم يبق فيه معقل يدين بغير دعوته ، ولا جماعة تحيّر إلى غير فيثته ولا أمل ينصرف إلى سواه ، ولما كملت له نعم الله في استيساق ملكه وتمهيد أمره ، انصرف أمله إلى الغزو وإيثار طاعة الله بجهاد أعدائه ، واستنقاذ المستضعفين من وراء البحر من عباده على ما نذكره إن شاء الله تعالى . ولما انكفاً راجعاً من سجلماسة ، قصد مراکش من حيث جاء ، ثم وقف إلى سلا فأراح بها أياماً ونظر في شؤونها ، وسدّ ثغورها . وبلغه الخبر بوفادة أبي طالب صاحب سبتة الفقيه أبي القاسم الغزفي على فاس ، فأغذّ السير إلى حضرته ، وأكرم وفادته وأحسن منقلبه إلى أبيه مملوء الحقايب ببرّه ، رطب اللسان بشكره . ثم شرع في إجازة ولده كما نذكره الآن إن شاء الله تعالى .

الخبر عن شأن الجهاد وظهور السلطان أبي يوسف على النصارى وقتل زعيمهم ذننة وما قارن ذلك

كانت عدوة الأندلس منذ أول الفتح ثغراً للمسلمين ، فيه جهادهم ورباطهم ومدارج شهادتهم وسبيل سعادتهم . وكانت مواطنهم فيه على مثل الرضف ، وبين الظفر والتاب من اسود الكفر لتوفر أمهم جوارها^(٢) وإحاطتهم بها من جميع جهاتها ، وحجز البحر بينهم وبين إخوانهم المسلمين وقد كان عمر بن عبد العزيز رأى أن يخرج المسلمين منها لانقطاعهم عن قومهم وأهل دينهم ، وبعدهم عن الصريخ . وشاور في ذلك كبار التابعين وأشرف العرب فرأوه رأياً . واعتزم عليه لولا ما عاقه من المنية وعلى ذلك ، فكان للإسلام فيه اعتزاز على من جاورهم من أهل الكفر ، بطول دولة العرب من قریش ومضر واليمن . وكانت نهاية عزهم وسورة غلبهم أيام بني أمية

(١) وفي نسخة ثانية : سبوا الرعية .

(٢) وفي نسخة ثانية : لتوفر أمهم في جوارها .

بها ، الطائفة الذكر الباسطة جناحها على العدوتين منذ ثلاث مئات من السنين أو ما يقاربها .

حتى انتثر سلكها بعد المائة الرابعة من الهجرة ، وافترقت الجماعة طوائف وفشلت ربح المسلمين وراء البحر بفناء دولة العرب . واعتز البربر بالمغرب واستفحل شأنهم وجاءت دولة المرابطين فجمعت ما كان مفترقاً بالمغرب من كلمة الإسلام . وتمسكوا بالسنة وتشوقوا إلى الجهاد ، واستدعاهم إخوانهم من وراء البحر للمدافعة عنهم ، فأجازوا إليهم وأبلوا في جهاد العدو أحسن البلاء ، وأوقعوا بالطاغية ابن أدفوش يوم الزلاقة وغيرها . وفتحوا حصوناً واسترجعوا أخرى واستزلوا الثوار ملوك الطوائف ، وجمعوا الكلمة بالعدوتين . وجاء على أثرهم الموحدون سالكين أحسن مذهبهم ، فكان لهم في الجهاد آثار على الطاغية أيام ، منها يوم الأرك ليعقوب بن المنصور وغيره من الأيام ، حتى إذا فشلت ربح الموحدين وافترقت كلمتهم وتنازع الأمر سادة بني عبد المؤمن الأمراء بالأندلس ، وتحاربوا على الخلافة واستجاشوا بالطاغية وأمكنوه من كثير من حصون المسلمين طعمة على الاستظهار ، فغشي أهل الأندلس على أنفسهم وثاروا بالموحدين وأخرجوهم وتولى ذلك ابن هود بمرسية وشرق الأندلس ، وعم بدعوته سائر أقطارها ، وأقام الدعوة فيها للعباسيين ، وخاطبهم ببغداد كما ذكرناه في أخبارهم . واستوفينا كلا بما وضعناه في مكانه . ثم انحجز ابن هود على الغربية^(١) لبعدها عنه ، وفقده للعصاة المتناولة لها ، وأنه لم تكن صنعته في الملك مستحكمة وتكالب الطاغية على الأندلس من كل جهة ، وكثر اختلاف المسلمين بينهم . وشغل بنو عبد المؤمن بما دهمهم من المغرب من شأن بني مرين وزناتة . فتلافي محمد بن يوسف بن الأحمر أمر الغربية ، وثار بحصنه أرجونة وكان شجاعاً قدماً ثبتاً في الحروب ، فتلقى الكرّة من يد ابن هود خلع الدعوة العباسية ، ودعا للأمير أبي زكريا بن أبي حفص سنة تسع وعشرين وستائة فلم يزل في فتنة ابن هود يحاذيه الحبل ويقارعه على عمالات الأندلس واحدة بعد أخرى إلى أن هلك ابن هود سنة خمس وثلاثين وستائة .

وتكالب العدو خلال ذلك على جزيرة الأندلس من كل جانب ووفر له ابن هود

(١) وفي نسخة ثانية : ثم عجز ابن هود عن الغربية .

الجزية وبلغ بها أربعمائة ألف من الدنانير في كل سنة . ونزل له على اثنتين^(١) من حصون المسلمين . وخشي ابن الأحمر أن يستغلظ عليه بالطاغية فجنح هو إليه وتمسك بعروته ، ونفر في جملته إلى منازل أشيلية نكاية لأهلها . ولما هلك الأمير أبو زكريا نبذ الدعوة الحفصية ، واستبد لنفسه ، وتسمى بأمير المسلمين ، ونازعه بالشرق أعقاب ابن هود وبني مردنيش ، ودعاه الأمر إلى التزول للطاغية من بلاد الفرنتيرة ، فترل عليها بأسرها . وكانت هذه المدة من سنة اثنتين وعشرين إلى سنة سبعين ، فترة ضاعت فيها ثغور المسلمين واستبيح حماهم ، والتم العدو بلادهم وأموالهم نهبا في الحروب ، ووضيعة ومدارة في السلم . واستولى طواغيت الكفر على أمصارها وقواعدها فلك ابن أدفوش قرطبة سنة ست وثلاثين ، وجيان سنة أربع وأربعين ، وأشبيلية سنة ست وأربعين .

وتملك قط برشلونة مدينة بلنسية سنة سبع وثلاثين إلى ما بينها من الحصون والمعقل التي لا تعد ولا تحصى ، وانقرض أمر الثوار بالشرق وتفرّد ابن الأحمر بغرب الأندلس ، وضاق نطاقه على الممانعة دون البسائط الفيج من الفرنتيرة وما قاربها ، ورأى أن التمسك بها مع قلة العدد وضعف الشوكة مما يوهن أمره ويطمع فيه عدوّه ، فعقد السلم مع الطاغية على التزول عنها أجمع . ولحق بالمسلمين إلى سيف البحر معتصمين بأوعاره من عدوّهم . واختار لتزله مدينة غرناطة ، وابتنى بها لسكانه حصن الحمراء حسبما شرحنا ذلك كله في مواضعه . وفي أثناء هذا كله لم يزل صريخه ينادي بالمسلمين من وراء البحر والملا من أهل الأندلس يقدون على أمير المسلمين أبي يوسف للإعانة ونصر الملة ، واستنقاذ الحرم والولدان من أنياب العدو فلا يجد مفزعا إلى ذلك بما كان فيه من مجاذبة الحبل مع الموحدين ، ثم مع يغمراسن . ثم شغله بفتح بلاد المغرب وتدويخ أقطاره إلى أن هلك السلطان أبو عبدالله محمد بن يوسف ابن الأحمر المعروف بالشيخ ، وأبي دبوس ، لقبين كانا له على حين استكمال أمير المسلمين فتح المغرب وفراغه من شأن عدوّه سنة إحدى وسبعين وستائة على أن بني مرين كانوا يؤثرون الجهاد ويسمون إليه وفي نفوسهم جنوح إليه وصاغية .

ولما استوحش بنو إدريس بن عبد الحق وخرجوا سنة إحدى وستين وستائة على

(١) وفي نسخة ثانية : ثلاثين .

السلطان يعقوب بن عبد الحق واسترضاهم واستصلحهم انتدب الكثير منهم للغزو وإجازة البحر لصريخ المسلمين بالأندلس ، واجتمع إليهم من مطوعة بني مرين عسكر ضخّم من الغزاة ثلاثة آلاف أوزيدون وعقد السلطان على ذلك العسكر لعامر بن إدريس فوصلوا إلى الأندلس فكان لهم فيها ذكر ونكاية في العدو ، وكان الشيخ ابن الأحمر عهد إلى ولده القائم بالأمر بعده محمد ، الشهير بالفقيه ، لانتحاله طلب العلم أيام أبيه . وأوصاه أن يتمسك بغروة أمير المسلمين ويخطب نصره ، ويدرباه ويقدمه عن نفسه وعن المسلمين تكالب الطاغية . فبادر لذلك حين مواراة أبيه وأوفد مشيخة الأندلس كافة عليه ، ولقيه وفدهم منصرفاً من فتح سجلماسة خاتم الفتوح بالثغور المغربية وملاذ الغز ومقاد الملك . وتبادروا للإسلام^(١) وألقوا إليه كنه الخبر عن كلب العدو على المسلمين ، وثقل وطأته ، فحيا وفدهم ورؤوساهم ، وبادر لإجابة داعي الله واستئثار الجنة . وكان أمير المسلمين منذ أول أمره مؤثراً أفعال الجهاد كلفاً به مختاراً له حتى أعطي الخيار سائر آماله ، حتى لقد كان اعترزم على الغزو إلى الأندلس أيام أخيه الأمير أبي يحيى وطلب إذنه في ذلك عندما ملكوا مكناسة سنة ثلاث وأربعين وستائة فلم يأذن له وفصل إلى الغزو في حشمه وذويه ومن أطاعه من عشيرته . وأوعز الأمير أبو يحيى لصاحب الأمر بسبته لذلك العهد أبي علي بن خلاص بأن يمنعه الإجازة ، ويقطع عنه أسبابها . ولما انتهى إلى قصر الجواز ، ثنى عزمه عن ذلك الولي يعقوب بن هرون الخبيري ، ووعده بالجهاد أميراً مستنفراً للمسلمين ظاهراً على العدو ، فكان في نفسه من ذلك شغل وإليه صاغية .

فلما قدم عليه هذا الوفد نبهوا عزائمهم وذكروا همته ، فأعمل في الاحتشاد وبعث في النفير . ونهض من فاس شهر شوال من سنة ثلاث وسبعين وستائة إلى فرضة المحاز من طنجة . وجهز خمسة آلاف من قومه أزاح عليهم واستوفى أعطياتهم وعقد عليهم لابنه منديل وأعطاه الراية . واستدعى من الغد صاحب سبته في السفن لأجازتهم فوافاه بقصر الجواز عشرون من الأساطيل ، فأجاز العسكر ونزل بطريف ، وأراح ثلاثاً ، ودخل دار الحرب وتوغّل فيها ، وأجلب على ثغورها وبسائها . وامتلات أيديهم من المغانم وأنحنوا بالقتل والأسر وتخريب العمران ونسف الآثار ، حتى نزل

(١) وفي نسخة أخرى : وتنادوا للإسلام بالنار .

بساحة شريس ، فحام حاميتها عن اللقاء وانحجروا في البلد ، وقفل عنها إلى الجزيرة وقد امتلأت أيديهم من الأموال وحقاتهم من السبي وركائبهم من الكراع والسلاح . ورأى أهل الأندلس قد ثاروا بعام العقاب حتى جاءت بعدها الطاعة الكبرى على أهل الكفر ، واتصل الخبر بأمير المسلمين فاعترم على الغزو بنفسه ، وخشي على ثغور بلاده من عادية يغمراسن في الفتنة ، فبعث حافده تاشفين بن عبد الواحد في وفد من بني مرين لعقد السلم مع يغمراسن والرجوع للاتفاق والموادة . ووضع أوزار الحرب بين المسلمين للقيام بوظيفة الجهاد فأكرم موصله وموصل قومه . وبادر إلى الإجابة والألفة ، وأوفد مشيخة بني عبد الواد على السلطان لعقد السلم . وبعث معهم الرسل وأسنى الهدية وجمع الله كلمة الإسلام ، وعظم موقع هذا السلم من أمير المسلمين لما كان في نفسه من الصاغية إلى الجهاد ، وإيثاره مبرورات الأعمال . وبث الصدقات يشكر الله على ما منحه من التفرغ لذلك . ثم استنفر الكافة واحتشد القبائل والجموع ، ودعا المسلمين إلى الجهاد . وخاطب في ذلك كافة أهل المغرب من زناتة والعرب والموحدين والمصامدة وصنهاجة وغمارة وأوربة ومكناسة وجميع قبائل البرابرة وأهل المغرب من المرتقة والمطوعة . وأهاب بهم وشرع في إجازة البحر ، فأجازه من فرضة طنجة لصفر من سنة أربع وسبعين وستائة واحتل بساحة طريف . وكان لما استصرخه السلطان ابن الأحمر وأوفد عليه مشايخ الأندلس اشترط عليه النزول عن بعض الثغور بساحل الفرضة لاحتلال عساكره ، فتجافى له عن رندة وطريف . ولما احتل بطنجة بادر إليه ابن هشام الناصر بالجزيرة الخضراء ، وأجاز البحر إليه . ولقيه بظاهر طنجة فأدى له طاعته وأمكنه من قياد بلده . وكان الرئيس أبو محمد بن أشقيلولة وأخوه أبو اسحق صهر السلطان ابن الأحمر تبعاً له في أمره ومؤازراً له على شأنه كله . وأبوهما أبو الحسن هو الذي تولى كبر الثورة على ابن هود ومداخلة أهل أشبيلية في الفتك بابن الباجي . فلما استوت قدمه في ملكه وغلب الثوار على أمره فسد ما بينهما بعد أن كان ولياً أبا محمد على مقاله وأبا اسحق على وادي آش^(١) ، فامتنع أبو محمد بن أشقيلولة بمالقة واستأثر بها وبغريبتها دونه . ومع ذلك فكانوا على

(١) آش : بالفتح والشين مخففة ، وربما مدت همزته : مدينة الأشات بالأندلس من كورة البيرة وتعرف بوادي آش ، والغالب على شجرها الشاهبلوط ، وتنحدر إليها أنهار من جبال الثلج ، بينها وبين غرناطة أربعون ميلاً ، وهي بين غرناطة وبجّانة (معجم البلدان) .

الصاغية فيئة ولحمة . ولما أحس أبو محمد بإجازة السلطان يعقوب بن عبد الحق ، قدم إليه الوفد من أهل مالقة يبيعهم وصرخهم ، وانحاش إلى جانب السلطان وولايته ، وأحضره المخالصة والنصيحة . فلما احتل السلطان بناحية طريف ملأت كتابه ساحة الأرض ما بينها وبين الجزيرة وتسابق السلطان ابن الأحمر ، وهو الفقيه أبو محمد ابن الشيخ أبي دُبوس صاحب غرناطة والرئيس أبو محمد بن أشقيلولة صاحب مالقة والغريبة ، وأخوه أبو اسحق صاحب وادي آش إلى لقاء السلطان وتناغوا في برور مقدمه والإذعان له ، ففاوضهما في أمور الجهاد ، وأرجعها لحينه إلى بلديهما . وانصرف ابن الأحمر مغاضباً لبعض التزعات أحفظته وأغذ السير إلى الفرنتيرة ، وعقد لولده الأمير أبي يعقوب على خمسة آلاف من عسكره . وسرح كتابه في البسائط وخلال المعازل تنسف الزرع وتحطم الغروس وتحرب العمران وتنهب الأموال وتكتسح السرح وتقتل المقاتلة وتسبي النساء والذرية ، حتى انتهى إلى المدور وتالسة ^(١) وأبدة ^(٢) واقتحم حصن بلمة عنوة . وأتى على سائر الحصون في طريقه فطمس معالمها واكتسح أموالها . وقتل والأرض تموج سبياً إلى أن عرس بأستجة من تخوم دار الحرب . وجاء النذير باتباع العدو وآثارهم لاستنقاذ أسراهم وارتجاع أموالهم . وأن زعيم الروم وعظيمهم ذننه ^(٣) خرج في طلبهم بأثم بلاد النصرانية من المحتلم فما فوقه . فقدّم السلطان الغنائم بين يديه وسرح ألفا من الفرسان أمامها ، وسار يقتفئها ، حتى إذا طلّت رايات العدو من ورائهم كان الزحف ، وربّ المصاف وحرّض وذكّر . وراجعت زنانة بصائرهما وعزائمهما وتحركت همهما ، وأبلى في طاعة ربّها والذبّ عن دينها . وجاءت بما يعرف من بأسها وبلائها في مقاماتها ومواقفها . ولم يكن إلاّ كلاّولا ، حتى هبت زيج النصر وظهر أمر الله وانكشفت جموع النصرانية ، وقتل الزعيم ذننه والكثير من جموع الكفرة . ومنح الله المسلمين اكتافهم ، واستمرّ القتل فيهم . وأحصي القتلى في المعركة فكانوا ستة آلاف ، واستشهد من المسلمين ما يناهز الثلاثين أكرمهم الله بالشهادة وآثرهم بما عنده . ونصر الله حزيه

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : بايسة .

(٢) أُبْدَة : بالضم ثم الفتح والتشديد : اسم مدينة بالأندلس من كورة جيّان تعرف بأبدة العرب ، اختطها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك وتمّمها ابنه محمد . (معجم البلدان) .

(٣) وفي نسخة أخرى ذننه ، وكذا في نفح الطيب ج ١ ص ٤٤٩ وقد ذكر أيضاً ذننّه ودونته .

وأعزّ أوليائه ونصر دينه . وبدأ للعدو ما لم يحتسبه بمحاربة هذه العصابة عن الملة وقيامها بنصر الكلمة . وبعث أمير المسلمين برأس الزعيم ذنّه إلى ابن الأحمر فردّه زعموا سرّاً إلى قومه بعد أن طيّبه وأكرمه ، ولاية أخلصها لهم ، مداراة وانحرافاً عن أمير المسلمين ، ظهرت شواهد عليه بعد حين كما نذكره ، وقفل أمير المسلمين من غزاته إلى الجزيرة منتصف ربيع من سنته ، فقسّم في المجاهدين الغنائم وما نفلوه من أموال عدوّهم وسباياهم وأسراهم وكراعهم ، بعد الاستئثار بالخمسة لبيت المال على موجب الكتاب والسنة ليصرفه في مصارفه . ويقال : كان مبلغ الغنائم في هذه الغزاة مائة ألف من البقر وأربعة وعشرين ألفاً ، ومن الأسارى سبعة آلاف وثمان مائة وثلاثين ، ومن الكراع أربعة عشر ألفاً وستائة ، وأمّا الغنم فاتسعت عن الحصر كثرة ، حتى لقد زعموا بيعت الشاة في الجزيرة بدرهم واحد ، وكذلك السلاح . وأقام أمير المسلمين بالجزيرة أياماً ثم خرج للجهادى غازياً إلى أشبيلية فجاس خلالها وتقرّى نواحيها وأقطارها ، وأثنى بالقتل والنهب في جهاتها وعمرانها . وارتحل إلى شريش فأذاقها وبال العيث والاكتساح . ورجع إلى الجزيرة لشهرين من غزاته ، ونظر في اختطاط مدينة بفرضة المجاز من العدو لتزل عسكره متبذراً عن الرعية لما يلحقهم من ضرر العسكر وجفائهم . وتخيّر لها مكاناً لصق الجزيرة ، فأوعز ببناء المدينة المشهورة بالبنية وجعل ذلك لنظر من يثق به من ذويه^(١) . ثم أجاز البحر إلى المغرب في رجب من سنة أربع وسبعين وستائة فكان مغيبه وراء البحر ستة أشهر ، واحتل بقصر مصمودة وأمر ببناء السور على بادس مرفأ الجواز ببلاد غمارة . وتولى ذلك ابراهيم بن عيسى كبير بني وسناف بن محبو . ثم رحل إلى فاس فدخلها في شعبان ، وصرف النظر إلى أحوال دولته ، واختطاط البلد الحديد لتزله ونزل جاشيته ، واستتزال الثوار عليه بالمغرب على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن اختطاط البلد الحديد بفاس وما كان على بقية ذلك من الأحداث) *

لما قفل السلطان أمير المسلمين من غزاة الجهادية ، وتمّ صنع الله لديه في ظهور

(١) وفي نسخة ثانية : دونه .

الإسلام على يديه ، واعتزاز أهل الأندلس بقيته ، راح بالمغرب إلى نعمة أخرى من ظهور أوليائه وحسم أدواء الفساد في دولته ، شفت مواهب السعادة ، واجملت^(١) عوائد الصنع ، وذلك أن صباية بني عبد المؤمن وفلهم ، لما قروا من مراکش عند الفتح لحقوا بجبل تنملل جرثومة أمرهم ، ومنبعث دعوتهم . وملاحد خلفائهم ، وحضرة سلفهم ، ودار إمامهم ، ومسجد مهديهم . كانوا يعكفون عليه متيمين بطيره ، ملتسمين بركة زيارته ، ويقدمون ذلك أمام غزواتهم قرية بين يدي أعمالهم يعتدونها من صالح مساعيهم . فلما خلص الفلّ إليه اعتصموا بمعقله وآووا إلى ركونه ، ونصبوا للقيام بأمرهم عيصاً من أعياص خلفاء بني عبد المؤمن ضعيف المنبه^(٢) خاسر الصفقة من مواهب الحظ ، وهو اسحق أخو المرتضى . وبايعوه سنة تسع وستين وستائة يرجون منه رجع الكرة ، وأدالة الدولة ، وكان المتولى لكبر ذلك وزير دولتهم ابن عطوش .

ولما عقد السلطان يعقوب بن عبد الحق لمحمد بن علي بن محلي على أعمال مراکش ، لم يقدم عملاً على محاربتهم ، وتحذيل الناس عنهم ، واستأله أشياعهم . وجمعوا له سنة أربع وسبعين وستائة على غرة ظنوها ، فأوقع بهم وفلّ من غربهم . ثم صمد إلى الجبل لشهر ربيع من سنته فافتضّ عذرتة وفضّ ختامه ، واقتحمه عليهم عنوة بعد مطاولة التزال والحرب . وهلك الوزير ابن عطوش في جوانب الملحمة ، وتقبض على خليفته المستضعف . وابن عمّه أبي سعيد ابن السيّد أبي الربيع ومن معها من الأولياء . وجنبوا إلى مصارعهم بباب الشريعة بمراكش ، فضربت أعناقهم وصلبت أشلائهم . وكان فيمن قتل منهم كاتبه القبائلي وأولاده ، وعائت العساكر في جبل تينا^(٣) واكتسحت أمواله . وبعثت قبور خلفاء بني عبد المؤمن . واستخرج شلو يوسف وابنه يعقوب المنصور ، فقطعت رؤوسهم . وتولى كبر ذلك أبو علي الملياني النازع إلى السلطان أبي يوسف من مليانة عش غاياته ومواطن انتزائه كما قدّمناه وكان السلطان أقطعه بلاد أغوات إكراماً لوفادته ، فحضر هذه الغزاة في جملة العساكر

(١) وفي نسخة ثانية : وأكملت .

(٢) وفي نسخة ثانية : ضعيف المنية .

(٣) تين ملل : جبال بالمغرب بها قرى ومزارع يسكنها البرابرة ، بين أولها ومراكش ، سرير ملك بني عبد المؤمن ، نحو ثلاثة فراسخ ، بها كان أول خروج محمد بن تومرت المسمّى بالمهدي الذي أقام الدولة .

ورأى ان قد شفى نفسه بإخراج هؤلاء الخلائق من أرماسهم ، والعيث بأشلائهم لما
نقم منه الموحدون . وأزعجوه من قراره ، فنكرها السلطان لجلاله . وتجاوز عنها
للملياني تأنيساً لقربته وجواره ، وعدّها من هناته .

ولما وصل أمير المسلمين إلى حضرته من غزاة الجهاد ، ترادفت عليه أخبار هذه
الملحمة ، وقطع دابر بني عبد المؤمن ، فتظاهر السرور لديه ، وارتفعت إلى الله كلمات
الشكر طيبة منه . ولما سكن غُرب الثوار ، وتمهّد أمر المغرب ، ورأى أمير المسلمين أنّ
أمره قد استفحل ، وملكه قد استوسق ، واتسع نطاق دولته ، وعظمت غاشيته وكثر
وافده ، رأى أن يخطط بلداً يتميز بسكنائه في حاشيته وأهل خدمته وأوليائه الحاملين
سرير ملكه . فأمر ببناء البلد الجديد لصق فاس ، بساحة الوادي المخترق وسطها من
أعلاه ، وشرع في تأسيسها لثالث من شوال في سنة أربع وسبعين وستائة هذه .
وجمع الأيدي عليها ، وحشد الصناع والفعلة لبنائها . وأحضر لها الحزى والمعدلين
لحركات الكواكب ، فاعتاموا في الطوالع النجومية مما يرضون أثره ، ورصدوا أوانه .
وكان فيهم الإمامان أبو الحسن بن القطان وأبو عبدالله بن الحباك ، المقدمان في
الصناعة ، فكمّل تشييد هذه المدينة على ما رسم وكما رضي . ونزلها بحاشيته ، وذويه
سنة أربع وسبعين وستائة كما ذكرناه . واختطّوا بها الدور والمنازل ، وأجرى فيها المياه
إلى قصوره ، وكانت من أعظم آثار هذه الدولة وأبقاها على الأيام . ثم أوعز بعد
ذلك ببناء قسبة مدينة مكناسة ، فشرع في بنائها من سسته ، وكان لحين إجازته البحر
قافلاً من غزاته لحق طلحة بن محلى بجبل أزرو^(١) نازعاً إلى قبائل زناتة من صنهاجة ،
فاغذ إليه السلطان بعساكره وأناخ عليه . واستنزله لشهر على ما سأل من الأمان
والرتبة . وحسم الداء من خروجه . واستوزر صنيعته فتح الله السدراتي ، وأجرى له
رزق الوزارة على عوائدهم . ثم بعث إلى يغمراسن كفاء هديته التي اتحفه بها بين يدي
غزاته . وكان شغله عنها أمر الجهاد ، فبعث له فسطاطاً رائعاً كان صنع له
بمراكش ، وحكمات مموهة بالذهب والفضة ، وثلاثين من البغال الفارغة ذكوراً
وإناثاً بمراكبها الفارسية من السروج ، والنسوانية من الولايات ، وأحبالاً من الأديم
المعروف دباغة بالشركسي ، إلى غير ذلك مما يباهي به ملوك المغرب وينافسون فيه .

(١) وفي نسخة ثانية : أزور .

وفي سنة خمس وسبعين وستائة من بعدها أهدى له محمد بن عبد القوي أمير بني توجين ، وصاحب جبل وانشريش أربعة من الجياد انتقاها من خيل المغرب كافة ، ورأى أنها على قلة عددها أحفل هدية . وفي نفسه اثناء هذا كله من الجهاد شغل شاغل يتخطى إليه سائر أعماله حسبما نذكر .

* (الخبر عن إجازة أمير المسلمين ثانية وما كان فيها

من الغزوات) *

لما قفل أمير المسلمين من غزاته الأولى ، واستترل الخوارج وثقف الثغور ، وهادى الملوك واختط المدينة لترله كما ذكرنا ذلك كله . ثم خرج فاتح سنة ست وسبعين وستائة إلى جهة مراکش لسد ثغوره ، وثقيف أطرافه . وتوغل في أرض السوس ، وبعث وزيره فتح اللہ السدراتي بالعساكر فجاس خلاله ، ثم انكفأ راجعاً . وخاطب قبائل المغرب كافة بالنفير إلى الجهاد ، فتابطوا واستمرّ على تحريضهم ، ونهض إلى رباط الفتح وتلوم بها في انتظار الغزاة فثبطوا ، فحفّ هو واحتل بطريف آخر عزم . ثم ارتحل إلى الجزيرة ، ثم إلى رندة . ووافاه هنالك الرئيسان أبو اسحق بن أشقيلولة صاحب قمارش ، وأبو محمد صاحب مالقة للغزو معه . وارتحلوا إلى منازل أشبيلية فعرسوا عليها يوم المولد النبوي . وكان بها ملك الجلالقة ابن أدفونش ، فخام عن اللقاء وبرز إلى ساحة البلد محامياً عن أهلها . ورّب أمير المسلمين مصافه وجعل ولده الأمير أبا يعقوب في المقدّمة ، وزحف في التعبئة فأحجروا العدو في البلد ، واقتحموا أثرهم الوادي وأنخنوا فيهم . وباتت العساكر ليلتهم يحادون في متون الخيل وقد أضرموا النيران بساحتها . وارتحل من الغد إلى أرض الشرط ، وبثّ السرايا والغوازي في سائر النواحي . وأناخ بجمهور العسكر عليها ، فلم يزل يتقرّى تلك الجهات حتى أباد عمرانها وطمس معالمها . ودخل حصن قطيانة وحصن جليانة وحصن القليعة عنوة . وأنخن في القتل والسبي . ثم ارتحل بالغنائم والأنفال^(١) إلى الجزيرة لسرار شهره ، فأراح وقسم الغنائم في المجاهدين . ثم خرج غازياً إلى شريش متصف ربيع الآخر

(١) وفي نسخة ثانية : تم قفل بالغنائم والأنفال .

فنازلها وأذاقها نكال الحرب . وأقفر نواحيها ، وقطع أشجارها وأباد خضرها وحرقت ديارها ، ونسف آثارها ، وأثنى فيها بالقتل والأسر . وبعث ولده الأمير أبي يعقوب في سرية من مسعركه للغوار على اشبيلية وحصون الواد^(١) ، فبالغ في النكاية واكتسح حصن روطه وشلوقة وغليانة والقناطير^(٢) . ثم صبح إشبيلية بمقارها فاكتمسحها وانفكأ إلى أمير المسلمين ، فقفلوا جميعاً إلى الجزيرة . وأراح وقسم في المجاهدين غنائمهم . ثم ندب إلى غزو قرطبة ، ورغبهم في عمرانها وثروة مساكنها ، وخطب بلادها ، فانعطفوا إلى إجابته ، وخاطب ابن الأحمر يستغفره . وخرج لأول جمادى من الجزيرة ، ووافاهم ابن الأحمر بناحية أرشدونة ، فأكرم وصوله وشكر حفوفه إلى الجهاد وبادره . ونازلوا حصن بني بشير فدخلته عنوة ، وقتلت المقاتلة وسبيت النساء ، ونفلت الأموال وخرب الحصن . ثم بث السرايا والغارات في البسائط فاكتمسحها وامتلات الأيدي وأثرى العسكر . وتقروا المنازل والعمران في طريقهم حتى احتلوا بساحة قرطبة فنازلوها ، وانحجرت حامية العدو من وراء الأسوار وانبثت بعوث المسلمين وسرايهم في نواحيها ، فنسفوا آثارها وخربوا عمرانها واكتسحوا قراها وضياعها . وترددوا على جهاتها ، ودخل حصن بركونة عنوة ، ثم أرجونه كذلك ، وقدم بعثاً إلى حيانة^(٣) قاسمها حظها من الخسف والدمار . وخام الطاغية عن اللقاء وأيقن بخراب عمرانها . واتلاف بلده . فجنح إلى السلم وخطبه من أمير المسلمين ، فدفعه إلى ابن الأحمر وجعل الأمر في ذلك إليه تكريماً لمشهده ووفاء بحقه ، وأجابهم ابن الأحمر إليه بعد عرضه على أمير المسلمين والتماس إذنه فيه لما فيه من المصلحة وجنوح أهل الأندلس إليه منذ المدد الطويلة ، فانهقد السلم . وقفل أمير المسلمين من غزاته وجعل طريقه على غرناطة احتفاء بالسلطان ابن الأحمر وخرج له عن الغنائم كلها ، فاحتوى عليها . ودخل أمير المسلمين إلى الجزيرة في أول رجب من عامئذ ، فأراح ونظر في ترتيب المسالح على الثغور ، وتملك مالقة كما ذكره .

(١) وفي نسخة ثانية : حصون الوادي .

(٢) وفي نسخة ثانية : القناطير .

(٣) حيانة : لا وجود لحيانة وإنما حيانة وهي في أرض دمشق والمقصود جيان كما في نسخة أخرى .

* (الخبر عن تملك السلطان مدينة مالقة من يد ابن اشقيلولة) *

كان بنو اشقيلولة هؤلاء من رؤساء الأندلس المؤمنين لمداغة العدو ، وكانوا نظراء لابن الأحمر في الرياسة ، وهما أبو محمد عبدالله وأبو اسحق ابراهيم ابنا أبي الحسن بن أشقيلولة . وكان أبو محمد منهم صهراً له على ابنته فكانوا له بذلك خاصة فأشركهم في أمره واعتضد بعصابتهم وبأبيهم من قبل على مقاومة ابن هود وسائر الثوار حتى إذا استمكن من فرصته واستوى على كرسيه استبدّ دونهم وأنزلهم الى مقامات الوزراء . وعقد لأبي محمد صهره على ابنته على مدينة مالقة والغريّة ، وعقد لأبي الحسن صهره على أخته على وادي آش وما إليها ، وعقد لابنه أبي اسحق ابراهيم بن عليّ على قمارش وما إلى ذلك . ووجدوا في أنفسهم ، واستمرّ الحال على ذلك . ولما هلك الشيخ ابن الأحمر سنة إحدى وسبعين وستمائة وولي ابنه الفقيه محمد ، سمو إلى منازعته . وأوفد أبو محمد صاحب مالقة ابنه أبا سعيد على السلطان يعقوب بن عبد الحق ، وهو منازل طنجة . ووفد معه أبو محمد إلى السلطان بطاعته وبيعته أهل مالقة سنة ثلاث وسبعين وستمائة وعقد له عليها . ونزع ابنه أبو سعيد فرج إلى دار الحرب ، ثم رجع لسنته فقتل بمالقة . ولما أجاز السلطان إلى الأندلس إجازته الأولى سنة أربع وسبعين وستمائة تلقاه أبو محمد بالجزيرة مع ابن الأحمر وفاوضها السلطان في أمر الجهاد وردّها إلى أعمالها . ولما أجاز إجازته الثانية سنة ست وسبعين وستمائة لقيه بالجزيرة الرئيسان ابنا أشقيلولة : أبو محمد صاحب مالقة ، وأخوه أبو اسحق صاحب وادي آش وقمارش ، فشهدا معه الغزاة . ولما قفل اعتلّ أبو محمد صاحب مالقة ، ثم هلك غرة جمادى من سنته فلحق ابنه محمد بالسلطان آخر شهر رمضان . وهو متلوم بالجزيرة ، منصرفه عن الغزوكما ذكرناه ، فنزل له عن البلد ودعاه إلى احتيازها ، فعقد عليها لابنه أبي زيّان منديل ، فسار إليها في بعث ، وكان ابن أشقيلولة حين فصوله إلى لقاء السلطان ، أمر ابن عمّه محمد الأزرق بن أبي الحجاج يوسف بن الزرقاء باخلاء منازل السلطان بالقصبة واعدادها ، فتمّ ذلك ثلاث ليال ، واضطرب الأمير أبو زيّان معسكره بخارجها ، وأنفذ محمد بن عمران بن عيلة في

رَهط من رجال بني مَرِين إلى القصبة فترها وملك أمر البلد . وكان السلطان ابن الأحمر لما بلغه وفاة أبي محمد بن أشقيلولة ساء أمره إلى الاستيلاء على مالقة وأن ابن أخته شيعه له . وبعث لذلك وزيره أبا سلطان عزيز الداني ، فوافى معسكر الأمير أبي زيان بساحتها . ورجا أن يتجافى عنها لسلطانه ، فأعرض عن ذلك وتجهّم له . ودخل إليها لثلاث بقين من رمضان . وانقلب الداني عنها بخفي حنين ، ولما قضى السلطان بالجزيرة صومه ونسكه ، خرج إلى مالقة فوافاها سادس شوال ، وبرز إليه أهلها في يوم مشهود ، واحتفلوا له احتفال أيام الزينة سروراً بمقدم السلطان ، ودخولهم في إيالته . وأقام فيهم إلى خاتم سنته . ثم عقد عليها لعمر بن يحيى بن محلى من صنائع دولتهم . وأُنزل معه المسالحي وزيان بن أبي عياد بن عبد الحق في طائفة لنظره من أبطال بني مَرِين . واستوصاه بمحمد بن أشقيلولة وارتحل إلى الجزيرة . ثم أجاز إلى المغرب سنة سبع وسبعين وستمائة وقد اهترت الدنيا لقدومه وامتلات القلوب سروراً بما كيّفه الله من نصر المسلمين بالعدوة ، وعلو راية السلطان على كل راية . وعظمت لذلك موجدة ابن الأحمر ، ونشأت الفتنة كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن تظاهر ابن الأحمر والطاغية على منع السلطان أبي يوسف من إجازة ابن الأحمر واصفاق يغمراسن بن زيان معهم من وراء البحر على الأخذ بحجزته عنهم وواقعة السلطان على يغمراسن بخرزورة

لما أجاز أمير المسلمين إلى العدوة إجازته الأولى ، ولقي العدو بأستجة ، وقتل الله ذنّه بأيدي عسكره . وصنع له من الظهور والعز ما لا كفاء له ، ارتاب ابن الأحمر بمكانه ، فبدا له ما لم يكن يحتسب ، وظنّ بأمر المسلمين الظنون ، واعترض ذكره شأن يوسف بن تاشفين والمرابطين مع ابن عباد سلطان الأندلس . وأكد ذلك عنده جنوح الرؤساء من بني أشقيلولة وغيرهم إليه وانقيادهم لأمره ، فشرق بمكانه وحذر غوائله . وتكدر الجوابين وأجاز الإجازة الثانية ، فانقبض ابن الأحمر عن لقائه ، ودارت بينهما محادثات شعريّة في معنى العتاب على ألسنة كتابهما نسردها الآن ،

(فن ذلك قصيدة كتبها إليه ابن الأحمر سنة أربع وسبعين وستائة بعد واقعة ذننه واعتزاه على الرجوع إلى المغرب ، فخطابه بها ليلة الإقامة بالجزيرة حذراً من غائلة العدو ، وينحرف فيها منحى الاستعطاف وهي من نظم كاتبه أبي عمر بن المرباط :

من مُتَّهِمٍ فِي الْأَرْضِ أَوْ مِنْ مُنْجِدٍ
بِإِجَابَةٍ وَإِنَابَةٍ أَوْ مُسَيِّدٍ
بِالْعُدُوِّ تَيْنِ مِنْ أَمْرٍ مُسْتَرْشِدٍ
يَخْشَى الْمَصِيرَ إِلَى الْجَحِيمِ الْمَوْقِدِ
أَجِبِ الْهُدَى تَسْعُدْ بِهِ وَتَوَيْدِ
إِنَّ الْهُدَى هُوَ النِّجَاةُ لِمَنْ هُدِيَ
أَلَدِيكَ عِلْمٌ أَنْ تَعِيشَ إِلَى غَدِ
إِنْ لَمْ يَحِنْ لَكَ نَقْدُهُ فَكَأَنَّ قَدِ
لَمْ تَسْتَعِدَّ لَطَوْلِهِ فَاسْتَعْدِدِ
زَادَ لِكُلِّ مَسَافِرٍ فَتَرَوْدِ
خُذْ مِنْهُ زَادَكَ لَارْتِحَالِكَ تُسْعِدِ
مِنْهُ لِمَا يُرْضِي إِلَهَكَ وَاغْتَدِي
وَجْهًا لِلْقِيَا لِلَّهِ غَيْرَ مُسَوِّدِ
مَحْتِ الدَّمْعِ خَطِيئَةَ الْمُتَعَمِّدِ
أَوْ يَفْتَدِي بَنِيَّهِ أَوْ يَهْتَدِي
مُسْتَكْبِرٍ قَدْ كَانَ لَمْ يَتَشَهَّدِ
فَكِلَاهُمَا يَبْغِي الْفِدَاءَ فَا فُدِي
فِيهِمْ تَوَدُّ لَوْ أَنَّهَا فِي مَلْحَدِ
وَلَدَاهُ وَدَا أَنَّهُ لَمْ يُوَلَّدِ
يَبْكِي لِآخِرِ فِي الْكُبُولِ مُقْبَدِ
مَا بَيْنَ حَيِّ ذَابِلٍ وَمُهَنْدِ
وَرَأَى لَهُمْ مِنْ قَلْبِهِ كَالْجَلْمَدِ
مَا دَهَانَا مِنْ رَدَى أَوْ مِنْ رَدِي

هَلْ مِنْ مُعِينٍ فِي الْهَوَى أَوْ مُنْجِدِي
هَذَا الْهَوَى دَاعٍ فَهَلْ مِنْ مُسْعِفِ
هَذَا سَبِيلُ الرُّشْدِ قَدْ وَضَحَتْ فَهَلْ
يَرْجُو النِّجَاةَ بِجَنَّةِ الْفَرْدُوسِ أَوْ
يَا آمِلَ النَّصْرِ الْعَزِيزِ عَلَى الْعِدَا
سِرِّ النِّجَاةِ إِلَى النِّجَاةِ مَشِيرَا
يَا مَنْ يَقُولُ غَدًا أَتُوبُ وَلَا غَدُ
لَا تَغْتَرَّرْ بِنِسْيَةِ الْأَجَلِ الَّذِي
سَفَرٌ عَلَيْكَ طَوِيلَةٌ أَيَّامُهُ
أَوْ مَا عَلِمْتَ بَأَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ
هَذَا الْجِهَادِ رَيْسُ أَعْمَالِ التَّقَى
هَذَا الرِّبَاطُ بِأَرْضِ أُنْدَلُسٍ فَرُحُ
سَوَدَتْ وَجْهَكَ بِالْمَعَاصِي فَالْتِمِسْ
وَامْحُ الْخَطَايَا بِالدَّمْعِ فَرَبَّمَا
مَنْ ذَا يَتُوبُ لِرَبِّهِ مِنْ ذَنْبِهِ
وَتَعَوَّضَتْ مِنْهُمْ بِكُلِّ مُعَانِدِ
كَمْ مِنْ أَسِيرٍ عَنْدهُمْ وَأَسِيرَةٍ
كَمْ مِنْ عَقِيلَةٍ مَعَشَرٍ مَعْقُولَةٍ
كَمْ مِنْ وَلِيدٍ بَيْنَهُمْ قَدُودٍ مِنْ
كَمْ مِنْ تَقِيٍّ فِي السَّلَاسِلِ مَوْتِي
وَشَهِيدٍ مُعْتَرِكٍ تَوَزَّعَهُ الرَّدَى
ضَجَّتْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ لِحَالِهِمْ
أَفَلَا تَذُوبُ قُلُوبُكُمْ إِخْوَانَنَا

أَفَلَا تَرَاغُونَ الْأَذِمَّةَ يَتَنَنَّا
أَكْثَا يَعِثُ الرُّومُ فِي إِخْوَانِكُمْ
يَا حَسْرَتِي لِحَمِيَّةِ الْإِسْلَامِ قَدْ
أَبِنَ الْعَزَائِمُ مَا لَهَا لَا تَقْضِي (١)
أَبْنِي مَرِينَ أَنْتُمْ جِيرَانُنَا
فَالْجَارُ كَانَ بِهِ يُوصِّي الْمُصْطَفَى
أَبْنِي مَرِينَ وَالْقَبَائِلُ كُلُّهَا
كُتِبَ الْجِهَادُ عَلَيْكُمْ فَتَبَادَرُوا
وَارْضُوا بِإِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَأَقْرَضُوا
هَذَا الْجِنَانُ فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا
هَلْ مِنْ بَايَعٍ (٢) مِنْ رَبِّهِ مِنْ مُشْتَرٍ
لِلَّهِ فِي نَصْرِ الْخَلِيفَةِ (٣) مَوْعِدٌ
هَذَا الثُّغُورُ بِكُمْ إِلَيْكُمْ تَشْتَكِي
مَا بِالْشَمْلِ الْمُسْلِمِينَ مُبَدَّدٌ
أَنْتُمْ جِيُوشُ اللَّهِ مَلَأْ فُضَائِهِ
مَاذَا اعْتَذَرُكُمْ غَدًا لِنَبِيِّكُمْ
إِنْ قَالِ لِمَ قَرِطْتُمْ فِي أُمَّتِي ؟
تَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْعُقُوبَةَ لَمْ تُخَفْ
إِخْوَانَنَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا
وَاسْعُوا لِنَصْرَةِ دِينِهِ يُسْقِيكُمْ

مِنْ حُرْمَةٍ وَمَحَبَّةٍ وَتَوَدُّدٍ
وَسَيُوفِكُمْ لِلشَّارِ لَمْ تَتَقَلَّدِ
خَمَدَتْ وَكَانَتْ قَبْلُ ذَا تَتَوَقَّدِ
هَلْ يَقْطَعُ الْهِنْدِيُّ غَيْرَ مَجْرَدِ
وَأَحَقُّ مِنْ فِي صَرْخَةٍ بِهِمْ ابْتَدِي
جَبْرِيلُ حَقًّا فِي الصَّحِيحِ الْمُسْنَدِ
فِي الْمَغْرِبِ الْأَدْنَى لَنَا وَالْأَبْعَدِ
مِنْهُ إِلَى الْفَرَضِ الْأَحَقِّ الْأَوْكَدِ
حَسَنًا تَفُوزُوا بِالْحَسَنِ الْعُزْدِ
وَالْحَوْرُ قَاعِدَةٌ لَكُمْ بِالْمَرْصَدِ
مِنْهُ الْحَصُولُ عَلَى النِّعَمِ السَّرْمَدِ
صِدْقُ فُتُورُوا لَا تَنْجَازَ الْمَوْعِدِ
شَكَايَ الْعَدِيمِ إِلَى الْغَنِيِّ الْأَوْجَدِ
فِيهَا وَشَمْلُ الْكَفْرِ غَيْرُ مُبَدَّدِ
تَأْسُونَ لِلذَّيْنِ الْغَرِيبِ الْمُفْرَدِ
وَطَرِيقُ هَذَا الْعُذْرِ غَيْرُ مُمَهَّدِ
وَتَرَكْتُمُوهُمْ لِلْعَدُوِّ الْمُعْتَدِي ؟
لَكَفَى الْحَيَاءُ مِنْ وَجْهِ ذَاكَ السَّيِّدِ
وَسَلُّوا الشَّفَاعَةَ مِنْهُ يَوْمَ الْمَشْهَدِ
مِنْ حَوْضِهِ فِي الْحَشْرِ أَعَذِبَ مَوْرَدِ

وَصَدَرَ جَوَابُهَا مِنْ نَظْمِ عَبْدِ الْغَزِيرِ شَاعِرِ السُّلْطَانِ يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ الْحَقِّ بِمَا نَصَّه :
لِيَلَيْكَ لَا تَخْشَ اعْتِدَاءَ الْمُعْتَدِي الْخَ وَكَذَلِكَ أَجَابَ عَنْهَا أَيْضًا مَالِكُ بْنُ الْمَرْحَلِ
بِقَوْلِهِ :

(١) وفي نسخة ثانية : لَا تَقْضِي . .

(٢) وفي نسخة ثانية : مِنْ بَائِعٍ .

(٣) وفي نسخة ثانية : الْخَلِيفَةُ .

شَهِدَ الإِلهَ وَأَنْتَ يَا أَرْضُ اشْهَدِي الخ فَأَجَابَهَا أَبُو عمرو بن المرباط كاتب ابر
الأحمر بقوله :

قل للبغاة وللعداة الحُسَدِ الخ ولما أجاز السلطان يعقوب بن عبد الحق الإجازة الثانية
سنة ست وسبعين وستمائة كما نذكره ، صار ابن الأحمر إلى الاستعتاب والرضا ولقي
يعقوب بن عبد الحق فأنشد كاتبه أبو عمرو بن المرباط يوم اجتماعها قوله * بشرى
لحزب الله والإيمان الخ ولما انقضى المجلس أمر السلطان شاعره عبد العزيز بمساجلة
قصيدته ، وأنشدها ثاني المجلس بحضرة ابن الأحمر ونصّها * اليوم كن في غبطة
وأمان * الخ ثم كان أثناء ذلك ما وقع من استيلاء السلطان يعقوب بن عبد الحق على
مدينة مالقة والغريّة ، جلّ عمله بعد مهلك صاحبها أبي محمد عبدالله بن أشقيلولة ،
فبرم لذلك وخيل عليه ، ففرغ الى مداخله الطاغية في شأنه واتصال يده بيده ، وان يعود
إلى مكان أبيه من ولايته ليدافع به السلطان وقومه عن أرضه ، ويأمن معه من زوال
سلطانه ، لما كانت كلمة الإسلام حجزاً دونه . فاهتبل الطاغية غرّها ، ونكث عهد
أمير المسلمين ، ونقض السلم ، ونبذ إليه العهد . واغزى أساطيله الجزيرة الخضراء
حيث مسالح السلطان وعساكره . وأرست بالزقاق حيث فراض الجواز. هنا وانقطع
المسلمون من جنود السلطان وقومه وراء البحر ويشوا من صربخه . وانتبذ عمر ابن
يحيى بن محلى عن قومه بمكان إمارته مالقة ، وكان بنو محلى هؤلاء من كبار قومهم
بَطَوِيَّةً وكانوا حلفاء لبني حمامة بن محمد منذ دخولهم المغرب . وأصهر عبد الحق أبو
الأملاك إلى أبيهم محلى في ابنته أم اليُمن ، فكان من ولدها السلطان يعقوب بن عبد
الحق . وكانت امرأة صالحة خرجت إلى الحجّ سنة ثلاث وأربعين وستمائة فقضت
فريضة الله عليها وعادت إلى المغرب رابعة من السنين سنة سبع وأربعين وستمائة ثم
خرجت ثانية سنة اثنتين وخمسين وستمائة فتطوّعت بحجة أخرى وهلكت بمصر
منصرفها من تلك السنة سنة ثلاث وخمسين وستمائة فكان لبني محلى أبيها مكان من
الدولة ودالة على السلطان لخلولتهم وشايخ قرابتهم وغنائهم في قومهم ولما استولى
السلطان على حضرة الموحّدين مراكش ، عقد لمحمد بن علي بن محلى على جميع
أعمالها ، فكانت له بالاضطلاع بها مقاماً محموداً . واتصلت ولايته عليها من لدن سنة
ثمان وستين إلى سنة سبع وثمانين وستمائة ثم كان مهلكه أيام يوسف بن يعقوب كما
نذكر . ولما نزع محمد بن أشقيلولة إلى السلطان بالجزيرة سنة ست وسبعين وستمائة

متجافياً له عن ولاية مالقة بعد وفاة أبيه الرئيس أبي محمد ، واستولى السلطان عليها ، واعتزم على الإجازة كما قدّمناه ، وعقد على مالقة والغريبة وسائر ثغورها وأعمالها لعمر بن يحيى بن محلى . وكان أخوه طلحة بن يحيى ذا بأس وصرامة وقوة شكيمة ، واعتراز على السلطان بمكان الخولة ، وهو الذي قتل يعقوب بن عبد الحق بغبولة سنة ثمان وستين وستمائة كما قلناه ، وظاهر فتح الله الهدراي^(١) مولى السلطان ووزيره على قتال أبي العلاء بن أبي طلحة بن أبي قريش ، عامل المغرب بكدية العرايش بظاهر فاس سنة اثنتين وستين وستمائة ونزع سنة أربع وسبعين وستمائة إلى جبل آزرأ عند مرجع السلطان من إجازته الأولى ، فاستتره ورجّعه إلى مجلسه من جملته . ثم نزع من الجزيرة إلى غرناطة سنة ست وسبعين وستمائة عند مرجع السلطان من أمر مالقة ، وأجاز البحر إلى بلاد الريف . ثم رجع إلى القبلية وأقام بين بني توجين . ثم أجازا إلى الأندلس سنة سبع وسبعين وستمائة عندما أضرم نار هذه الفتنة بين هذا السلطان وبين ابن الأحمر والطاغية ، واحتل أسطول النصارى بالزقاق ، وانقطعت عساكر السلطان وراء البحر . وأحس أخوه عمر صاحب مالقة باظلام الجوّ بينه وبين السلطان بما كان من أمر أخيه طلحة من قبل فلاتفه ابن الأحمر عند استقراره بغرناطة في مداخلة أخيه عمر في التزول عن مالقة ، والاعتياض عنها بشلوبانية^(٢) والمنكب طعمة . وخاطبه في ذلك أخوه طلحة فأجاب وخرج ابن الأحمر بعساكره إلى مالقة ، وتقبّض عمر بن محلى على زيّان بن بو عياد قائد بني مرين ومحمد بن أشقيلولة . وأمكن ابن الأحمر من البلد فدخلها آخر رمضان من سنته .

وأُنزل ابن محلى بشلوبانية واحتمل ذخيره وما كان السلطان ائتمنه عليه من المال والعدد الجهادية . واتصلت يد ابن الأحمر بيد الطاغية على منع أمير المسلمين من الإجازة ، وراسلوا يغمراسن بن زيّان من وراء البحر وراسلهم في أمشاقة السلطان وإفساد ثغوره وإثزال العوائق به المانعة من حركته ، والأخذ بأذياله عن النهوض إلى الجهاد . وأسئوا فيما بينهما الاتحاف والمهاداة . وجنب يغمراسن إلى ابن الأحمر ثلاثين

(١) وفي نسخة ثانية : السدراتي وقد مرّ معنا من قبل السدراتي .

(٢) هي شلوبينية حصن بالأندلس من أعمال كورة البيرة على شاطئ البحر كثير الموز وقصب السكر والشاه بلوط (معجم البلدان) .

من عتاق الخيل مع ثياب من عمل الصوف ، وبعث إليه ابن الأحمر صحبة ابن مروان التجاني كفاء ذلك عشرة آلاف دينار ، فلم يرض بالمال في هديته وردّه . وأصفقت أيديهم جميعاً على السلطان ، ورأوا أن قد بلغوا في إحكام أمرهم وسدّ مذهبهم إليهم ، واتصل الخبر بأمير المسلمين وهو بمراكش . كان صمد إليها مرجعه من الغزو في شهر المحرم فاتح سبع وسبعين وستائة لما كان من عيث العرب جشم بتامسنا وإفسادهم السابلة . فتقف أطرافها وحسم أدواءها . ولما بلغه خبر ابن محلي ومالقة ومنازلة الطاغية للجزيرة ، نهض لثلاثة من شوال يريد طنجة . ولما انتهى إلى تامسنا ، وافاه الخبر بنزول الطاغية على الجزيرة ، وإحاطة عساكره بها سادس شوال ، بعد أن كانت أساطيله مُنازِلَتَها منذ ربيع ، وأنه مشرف على التهامها . وبعثوا إليه يستعدونه فاعتزم على الرحيل .

ثم اتصل به الخبر بخروج مسعود بن كانون أمير سفيان من جشم ببلاد نفيس من المصامدة خامس ذي القعدة . وأنّ الناس اجتمعوا إليه من قومه وغيرهم . ففكر إليه راجعاً وقدم بين يديه حافده تاشفين بن أبي مالك ، ووزيره يحيى حازم ، وجاء على ساقتهم وفرّوا أمام جيوشه ، وانتهب معسكرهم وحلّ لهم ، واستباح عرب الحرث ابن سفيان . ولحق مسعود بمعقل السكسيوي ، ونازله السلطان بعساكره أياماً . وسرح ابنه الأمير أبا زيّان مندبل إلى بلاد السوس لتمهيداً وتدوين أقطارها ، فأوغل في ديارها وقفل إلى أبيه خاتم سته . واتصل بالسلطان ما نال أهل الجزيرة من ضيق الحصار وشدة القتال وأعواز الأقوات ، وأنهم قتلوا الأصاغر من أولادهم خشية عليهم من معرة الكفر ، فأهمه ذلك وأعمل النظر فيه ، وعقد لولي عهده ابنه الأمير أبي يعقوب من مراكش على الغزو إليها . وأغزى الأساطيل في البحر إلى جهاد عدوهم ، فوصل إلى طنجة لصفر من سنة ثمان وسبعين وستائة وأوغز إلى البلاد البحرية لأعداد الأساطيل بسبّة وطنجة وسلا ، وقسم الأعطيات وتوفرت همم المسلمين على الجهاد ، وصدقت عزائمهم على الموت . وأبلى الفقيه أبو حاتم العزفي صاحب سبّة لما بلغه خطاب أمير المسلمين في ذلك البلاء الحسن ، وقام فيه المقام المحمود . واستقرّ كافة أهل بلده فركبوا البحر أجمعين من المحتلم فما فوقه .

ورأى ابن الأحمر ما نزل بالمسلمين في الجزيرة ، وإشراف الطاغية على أخذها ، فندم في مملأته ونبذ عهده ، وأعدّ أساطيل سواحله من المنكب والمرية ومالقة مدداً

للمسلمين . واجتمعت الأساطيل بمرقا سبتة تناهز السبعين ، قد أخذت بطرفي الزقاق في أحفل زبي وأحسن قوة وأكمل عدة وأوفر عدد ، وعقد عليهم الأمير أبو يعقوب رايته ، وأقلعوا عن طنجة ثامن ربيع الأول . وانتشرت قلوبهم في البحر فأجازوه ، وباتوا ليلة المولد الكريم بمرقي الجبل ، وصباحوا العدو وأساطيلهم تناهز أربعائة ، فتظاهروا في دروعهم وأسبغوا من شكّتهم ، وأخلصوا لله عزائمهم ، وصدقوا مع الله نياتهم ، وتنادوا بالجنة شعارهم . ووعظ وذكر خطبائهم ، والتحم القتال ونزل الصبر . ولم يكن إلا كلاًّ ولا حتى نضحوا العدو بالنبل ، فانكشفوا وتساقطوا في العباب . فاستلحمهم السيف وغشيم اليم ، وملك المسلمون أساطيلهم ودخلوا مرقى الجزيرة وفرضتها عنوة ، فاختل معسكر الطاغية . وداخلهم الرعب من إجازة الأمير أبي يعقوب ومن معه من الحامية ، فأفرج لحينه عن البلد ، وانتشرت النساء والصبيان بساحته ، وغلبت المقاتلة كثيراً من العسكر على مخلفهم ، فغنموا من الحنطة والأدم والفواكه ما ملأ أسواق البلد أياماً ، حتى وصلتها الميرة من النواحي . وأجاز الأمير أبو يعقوب من حينه فأرهب العدو في كل ناحية ، وصدّه عن الغزو شأن الفتنة مع ابن الأحمر ، فرأى أن يعقد مع الطاغية سلماً ، ويصل به لمنازلة غرناطة يداً . وأجابه إلى ذلك الطاغية رهبة من بأسه ، وموجدة على ابن الأحمر في مدد أهل الجزيرة . وبعث أساقفته لعقد ذلك فأجازهم الأمير أبو يعقوب إلى أبيه أمير المسلمين فغضب لها ، ونكر على ابنه . وزوى عنه وجهه رضاه ، ورجعهم إلى طاغيتهم مخفي السعي . وأجاز أبو يعقوب ابن السلطان إلى أبيه ومعه وفد أهل الجزيرة ، فلقوا السلطان بمكانه من بلاد السوس . وولى عليهم ابنه أبا زيّان فترل بالجزيرة ، وأحكم العقدة مع الطاغية ، ونازل المريّة^(١) من طاعة ابن الأحمر براً وبحراً فامتنعت عليه . وانضوى إليه أهل الحصون الغربية بطاعتهم حذراً من الطاغية فتقبّلهم . ثم جاءه المدد من المغرب ، ونازل رندة فامتنعت . والطاغية أثناء ذلك يحوس خلال الأندلس . ونازل ابن الأحمر بغرناطة مع بني أشقيلولة وابن الدليل . ثم راجع ابن الأحمر مسألة بني مرين ، وبعث لأبي زيّان ابن السلطان بالصلح ، واجتمع معه بأحواز مريّة كما نذكر بعد .

(١) وفي نسخة أخرى : مرتلة وفي نسخة ثانية : مديلة .

ولما ارتحل السلطان من معسكره إلى جبل السكسيوي يريد السوس ، ثم أغزى العساكر ورجع من طريقه إلى مراكش حتى إذا انقضت غزاة البربر رجع إلى فاس ، وبعث خطابه إلى الآفاق مستنفرًا للجهاد . وفصل في رجب من سنة ثمان وسبعين وستمائة حتى انتهى إلى طنجة وعاین ما اختلّ من أحوال المسلمين في تلك الفترة ، وما جرت إليه فتنة ابن الأحمر من اعتزاز الطاغية ، وما حدّثته نفسه من التهام الجزيرة الأندلسية ومن فيها . وظهره على ابن الأحمر منافسوه في رياسته بنو أشقيلولة ، فاستجّر الرئيس أبو الحسن بن أبي إسحق صاحب وادي آش ، ونازل معه غرناطة سنة تسع وسبعين وستمائة خمسة عشر يوماً ثم أفرجوا ، ولقيتهم عساكر غرناطة من زناتة بعد ذلك من سنتهم . وغلبيهم ^(١) طلحة بن محلى وتاشفين بن معطى كبير تيريغين بحصن المسلى ، فأظهرهم الله عليهم . وهلك من النصارى ما يناهز سبعمائة من فرسانهم . واستشهد فيها من أعياص بني مرين عثمان بن محمد بن عبد الحق . واستجر الطاغية سنة ثمانين وستمائة بعدها الرئيس أبو محمد عبدالله أخو صاحب وادي آش إلى منازل غرناطة ، فنازلها الطاغية وأقام عليها أياماً . ثم ارتحل وقد اعتز عليهم ، وأشفق السلطان على المسلمين وعلى ما نال ابن الأحمر من خسف الطاغية ، فراسله في المودعة واتفاق الكلمة وشرط عليه التزول عن مألقة ، فرجع السلطان إلى إزالة العوائق عن شأنه من الجهاد ، وكان من أعظمها فتنة يغمراسن . واستيقن ما دار بينه وبين ابن الأحمر والطاغية ابن أخي أدفونش من الاتصال والاصفاق في تجديد الصلح والاتفاق ، فليجّ وكشف الوجه في العناد وأعلن بما وقع بينه وبين أهل العدو مسلمهم وكافرهم من الوصلة ، وأنه معترم على طي ^(١) بلاد المغرب . فصرف أمير المسلمين عزمه إلى غزو يغمراسن . وقفل إلى فاس لثلاثة أشهر من نزوله طنجة ، فدخلها آخر شوال وأعاد الرسل إلى يغمراسن لإقامة الحجّة عليه ، والتجأ بمسألة بني توجين والتجافي عنهم لمولاتهم أمير المسلمين . فقام يغمراسن في ركائبه وقعد ولج في طغيانه . وارتحل أمير المسلمين من فاس سنة تسع وسبعين وستمائة وقدم ابنه أبا يعقوب في العساكر وأدركه بتازى . ولما انتهى إلى ملوية تلّوم في انتظار

(١) وفي نسخة أخرى : وعليهم .

(٢) وفي نسخة ثانية : وصلي .

العساكر ثم ارتحل إلى تاسة ثم تاقيا^(١) وصمد إليه يغمراسن بحشود زناته والعرب بحللهم وكافة ناجعتهم ، والتقت عيون القوم ، فكانت بينهم حرب . وركب على آثارهما العسكران والتحم القتال ، وكان الزحف بخرزوزة من ملعب تيفني^(٢) ، ورتب أمير المسلمين مصافه وجعل كتيفته وكتيبة ابنه الأمير أبي يعقوب جناحين للعسكر . واشتد القتال سائر النهار ، وانكشف بنو عبد الواد عندما أراح القوم ، وانتهب جميع مخلفهم وما كان في معسكرهم من المتاع والكراع والسلاح والفساطيط ، وبات عسكر أمير المسلمين ليلتهم في صهوات خيلهم ، واتبعوا من الغد آثار عدوهم . واكتسحت أموال العرب الناجعة الذين كانوا مع يغمراسن ، وامتألت أيدي بني مرين من نعمهم وشأنهم . ودخلوا بلاد يغمراسن وزناته . ووافاه هنالك محمد بن عبد القوي أمير بني توجين ، لقيه بناحية القصبات ، وعاثوا جميعاً في بلاده نبهاً وتخريباً ثم أذن لبني توجين في اللحاق ببلادهم وأخذ هو بمخنق تلمسان متلوماً لوصول محمد بن عبد القوي وقومه إلى منجاتهم من جبل ونشريس حذراً عليهم من غائلة يغمراسن . ثم أفرج عنها وقفل إلى المغرب ودخل فاس شهر رمضان من سنة ثمانين وستمائة ثم نهض إلى مراکش فاحتل بها فاتح إحدى وثمانين وستمائة بعدها ، وسرح ابنه الأمير أبا يعقوب إلى السوس لتدويخ أقطاره ، ووافاه بمراكش صريخ الطاغية علي ابنه شانجة الخارج عليه ، فاغتنم الفرصة في فساد بينهم لقضاء أربه من الجهاد ، وارتحل مبادراً بالاجازة إلى الأندلس . والله تعالى أعلم .

الخبر عن اجازة السلطان أبي يوسف صريخا للطاغية لخروج ابنه شانجة عليه وافتراق كلمة النصرانية وما كان في هذه الأخبار من الغزوات

لما رجع السلطان من غزاة تلمسان إلى فاس ، وارتحل إلى مراکش وافاه بها وفد الطاغية من بطارقه وزعماء دولته ، وقواميس ملته صريخاً على ابنه شانجة . خرج عليه في طائفة من النصاري وغلبوه على أمره ، فانتصر أمير المسلمين ودعاه لحربهم

(١) كذا في النسخة الباريسية ونسخة أخرى ، وفي نسخة ثانية : ثم ارتحل الى نامه ثم إلى تافنا .

(٢) وفي نسخة ثانية : منقي .

وأمله لاسترجاع ملكه من أيديهم ، فأجاب أمير المسلمين داعية رجاء للكرة بافتراقهم ، وارتحل حتى انتهى إلى قصر الحجاز ، وأوعز إلى الناس بالنفير إلى الجهاد ، وأجاز إلى الخضراء فاحتل به الربيع الثاني من سنة إحدى وثمانين وستمائة واجتمعت عليه مسالحي الثغور بالأندلس وسار حتى نزل صخرة عباد^(١) ، فوافاه بها الطاغية ذليلاً لعز الإسلام مؤملاً صريح السلطان ، فأكبر وفادته وأكرم موصله وعظم قدره وأمدّه لنفقاته بمائة ألف من مال المسلمين استرهن فيها التاج الذخيرة عند سلفه ، وبقي بدارهم فخراً للأعقاب لهذا العهد . ودخل معه دار الحرب غازياً حتى ينزل قرطبة ، وبها شانجة ابن الطاغية الخارج عليه مع طائفة ، فقاتلها أياماً ثم أفرج عنها . وتنقل في جهاتها ونواحيها وارتحل إلى طليطلة فعاث في جهاتها ، لوخرّب عمرانها حتى انتهى إلى حصن مجريط من أقصى الثغر ، فامتلات أيدي المسلمين وضاق معسكرهم بالغنائم التي استاقوها . وقفل إلى الجزيرة فاحتلّ بها لشعبان من سنته ، وكان عمر بن محلى نزع إلى طاعة السلطان فهمّ به ابن الأحمر ، ونبذ إليه عهده . وارتجع المنكب من يده ونازله بعساكره فاتح هذه السنة ، فجهّز السلطان إليه لوصوله الجزيرة أسطوله . وأفرج ابن الأحمر عنه ، فبادر إلى السلطان بطاعته ، ووصل بيعة شلوبانية فأبقاه فيها بدعوته . ثم راجع طاعة ابن الأحمر في شوال من سنته ، فتقبّل فيثته وأعاضه عنها بالمنكب^(٢) إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

الخبر عن شأن السلم مع ابن الأحمر وتجايف السلطان له عن مالقة ثم تجدد الغزو بعد ذلك

لما اتصلت يد السلطان بيد الطاغية ، خشي ابن الأحمر غائلته ، فجنح إلى موالاة شانجة الخارج عن أبيه . ووصل يده بيده ، وأكد له العقد على نفسه وأضمرت له الأندلس ناراً وفتنة . ولم تغن شانجة عن ابن الأحمر شيئاً ورجع السلطان من غزاته مع الطاغية ، وقد ظهر على ابنه فأجمع على منازل مالقة ، ونهض إليها من الجزيرة فاتح إثنين وثمانين وستمائة فتغلب على الحصون الغربية كلّها . ثم أسعف إلى مالقة

(١) وفي نسخة أخرى : عباد .

(٢) المنكب : كان حصناً قوياً ، وهو اليوم فرضة صغيرة على البحر تابعة لمركز مطريل في مديرية غرناطة .

فأنّاه عليها بعساكره . وضاق النطاق على ابن الأحمر وبدأ له سوء المغبة في شأن مالقة ومداخله ابن محلي في الغدر بها ، وأعمل نظره في الخلاص من ورطتها . ولم ير لها إلاّ وليّ عهد السلطان ابنه أبا يوسف ، فخاطبه بمكانه من المغرب مستصرخاً لرفع هذا الخرق ، وجمع كلمة المسلمين على عدوّهم ، فأجابه واغتم المثوبة في مسعاه . وأجاز لشهر صفر ، فوافى أمير المسلمين بمعسكره على مالقة . ورغب منه السلم لابن الأحمر عن شأن مالقة والتجاني له عنها ، فأسعف رغبة ابنه لما يؤمل في ذلك من رضى الله في جهاد عدوّه وإعلاء كلمته . وانعقد السلم وأنبسط أمل ابن الأحمر ، وتجددت عزائم المسلمين ، وقفل السلطان إلى الجزيرة وبثّ السرايا في دار الحرب فأوغلوا وأنحنوا . ثم استأنف الغزو بنفسه إلى طليطلة فخرج من الجزيرة غازياً غرة ربيع الثاني من سنة إثنين وثمانين وستمائة حتى انتهى إلى قرطبة ، فأثنى وغنم وخرب العمران وافتتح الحصون . ثم ارتحل نحو البرت وخلف معسكره بظاهر بياسة^(١) وأغذ السير في أرض قفر الليلتين انتهى إلى البرت من نواحي طليطلة^(٢) ، فسرح الخيل في البسائط حتى تقرى جميع ما فيها . ولم يته إلى طليطلة لتثاقل الناس بكثرة الغنائم ، وأثنى في القتل ، وقفل على غير طريقه فأثنى وخرب وانتهى إلى أبدة . ووقف بساحتها والعدوّ منعجزون ، ثم رجع إلى معسكره بساسة وأراح ثلاثاً ينسف آثارها ويقتلع أشجارها . وقفل إلى الجزيرة فاحتلّ بها شهر رجب وقسم الغنائم ونقل من الخمس . وولّى على الجزيرة حافده عيسى ابن الأمير أبي مالك ابنه ، فهلك شهيداً بالمعترك لشهرين من ولايته ، وأجاز السلطان غرة شعبان إلى المغرب ، ومعه ابنه أبو زيّان منديل ، وأراح بطنجة ثلاثاً . وأغذّ السير إلى فاس فاحتلّ بها آخر شعبان ، ولما قضى صيامه ونسكه ، ارتحل إلى مراكش لتمهيدها . وتفقد أحوالها . وقسم من نظره لنواحي سلا وأزدرد^(٣) فأقام برباط الفتح شهرين إثنين ، واحتل مراكش فاتح ثلاث وثمانين وستمائة وبلغه مهلك الطاغية ابن أدفونش واجتماع النصرانية على ابنه شانجة الخارج عليه ، فتحرّكت إلى الجهاد عزائمه وسرح الأمير أبا يعقوب وليّ عهده

(١) بياسة : بينها وبين جيّان عشرون ميلاً وتطل على النهر الكبير ، استولى عليها الروم سنة ٦٣٢ هجرية .

(٢) طليطلة : كانت عاصمة الأندلس قبل دخول طارق بن زياد ، وهي مشرفة على ما يليها من الأندلس

إلى الجنوب ، وكانت من أول المدن التي انتزعت من يد العرب إذ استولى عليها الفونش السادس عام

٤٧٨ هـ وجز ذلك إلى معركة الزلاقة .

(٣) وفي نسخة ثانية : أزور .

بالعسكر إلى بلاد السوس لغزو العرب ، وكفّ عاديّتهم ، ومحو آثار الخوارج المنتزين على الدولة ، فأجفلوا أمامه ، واتبع آثارهم إلى الساقية الحمراء آخر العمران من بلاد السوس ، فهلك أكثر العرب في تلك القفار مسغبة وعطشاً ، وقفل لما بلغه من اعتلال أمير المؤمنين ، ووصل إلى مراکش وقد أبلّ ، وقد اعترم على الجهاد والغزو وشكر الله ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن إجازة السلطان أبي يوسف الرابعة ومحاصرة شريش وما تخلل ذلك من الغزوات

لما اعترم أمير المسلمين على الإجازة واعترض جنوده وحاشيته ، وأزاح عنهم ، وبعث في قبائل المغرب بالنفير ، ونهض من مراکش في جمادى الآخرة لثلاث وثمانين وستمائة واحتل رباط الفتح منتصف شعبان فقضى به صومه ونسكه ، ثم ارتحل إلى قصر مصمودة وشرع في إجازة العساكر والحشود من المرتقة والمطوعة خاتم سته . ثم أجاز البحر بنفسه غرة صفر من سنة أربع وثمانين وستمائة بعدها واحتلّ بظاهرها^(١) . ثم سار منها إلى الخضراء وأراح أياماً . ثم خرج غازياً حتى انتهى إلى وادلك^(٢) ، وسرح الخيول في بلاد العدو وبسائطها يحرق وينسف . فلما خرب بلاد النصرانية ودمر أرضهم قصد مدينة شريش^(٣) ، فترل بساحتها وأناخ عليها ، وبث السرايا والغارات في جميع نواحيها ، وبعث المسالح التي كانت بالثغور ، فتوافت لديه . ولحقه حافده عمر بن أبي مالك بجمع وافر من المجاهدين من أهل المغرب فرساناً ورجالاً ، ووافته حصّة الغزي من سبته غزاة ناشبة تناهز خمسمائة من الرجل . وأوعز إلى وليّ عهده الأمير أبي يعقوب باستنفار من بقي بالعدوة من المسلمين إلى الجهاد ، وعقد لحافده الآخر منصور بن عبد الواحد على الف فارس من الغزاة . وأعطاه الراية

(١) وفي نسخة ثانية : واحتل بطريق .

(٢) وفي نسخة ثانية : وادي لك وفي نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٩ وادي لك .

(٣) شريش : قال الحجاري : ان مدينة شريش بنت أشيلية — تقع إلى الجنوب الشرقي من بطليوس وتشتهر اليوم بالنبيذ الجيد — وواديها ابن واديها . وهي مدينة جليّة ضخمة الأسواق ، لأهلها هم ، وظرف في اللباس واطهار الرفاهية وتخلّق بالآداب . ولا تكاد ترى فيها إلا عاشقاً ومعشوقاً . تشتهر بالمجنبات وهي نوع من القطائف يضاف إليها الحين في عجينها (نفح الطيب ج ١ ص ١٨٤) .

وسرّحه لغزو إشبيلية لآخر صفر من سنته ، فغنموا ومروا بقرمونة^(١) في منصرفهم فاستباحوها وأُخِنُوا بالقتل والأسر ورجعوا وقد امتلأت أيديهم من الغنائم . وبعث وزيره محمد بن عطوا^(٢) ومحمد بن عمران بن عبلة عيوناً ، فوافوا حصن القناطر وروطه ، واستكشفوا ضعف الحامية واختلال الثغور ، فعقد ثانية لحافده عمر بن عبد الواحد على مثلها من الفرسان لثلاثة من ربيع وأعطاه الراية ، وسرّحه إلى بسائط وادلك ، فرجعوا من الغنائم بما ملأ العساكر بعد أن أُخِنُوا فيها بالقتل والتخريب وتحريق الزروع واقتلاع الثمار ، وأبادوا عمرانها . ثم سرّح ثامن ربيع عسكرياً للإغارة على حصن أركش ، ووافوه على غرة فاكسحوا أموالهم . ثم عقد تاسع ربيع لابنه أبي معروف على ألف من الفرسان . وسرّحه لغزو إشبيلية فساروا حتى توقف عليها . وانحجرت منه حاميتها ، فخرّب عمرانها وحرق زروعها وقطع شجرها . وامتلات أيدي عسكريه سبياً وأموالاً ، ورجع إلى معسكر السلطان مملوء الحقائب . ثم عقد ثالثة لحافده عمر منتصف ربيع لغزو حصن كان بالقرب من معسكره ، وسرّح الرجل من الناشبة والفعلة بالآلات . وأمدّه بالرجل من المصامدة . وغزاة سبتة فاقنحموه عنوة على أهله ، وقتلوا المقاتلة وسبوا النساء والذرية ، وأرغموا خده بالتراب .

ولسبع عشرة من الشهر ركب السلطان إلى حصن سقوط قريباً من معسكره ، فخرّبه وحرّقه بالنار ، واستباحه . وقتل المقاتلة وسبى أهله . ولعشرين من شهره وصل وليّ عهده ، الأمير أبو يعقوب من العدو بنفير أهل المغرب وكافة القبائل في جيوش ضخمة ، وعساكر موفورة ، وركب أمير المسلمين للقائهم وبرور مقدمهم . واعترض العساكر الموافية يومئذ فكانت ثلاثة عشر ألفاً من المصامدة ، وثمانية آلاف من برايرة المغرب متطوعون كلّهم بالجهاد ، فعقد السلطان له على خمسة آلاف من المرتزقة وألفين من المتطوعة وثلاثة عشر ألفاً من الرجل والفين من الناشبة وسرّحه لغزو إشبيلية والإثخان في نواحيها ، فعبّى كتائبه ونهض لوجهه . وبث الغارات بين يديه ، فأُخِنُوا وسبوا وقتلوا واقنحموا الحصون واكتسحوا الأموال . وعاج على الشرق والغابة من بسيط إشبيلية فنسف قراها واقنحم من حصونها عدة ، وقفل إلى معسكر أمير المسلمين

(١) قرمونة : مدينة الى الشمال الشرقي من إشبيلية على بعد ٣٥ كلم وكانت كورة واسعة تضم عدة مدن وحصون .

(٢) وفي نسخة ثانية : محمد بن عتو .

ظاهراً عزيزاً غانماً . ولسادس ربيع الثاني وصل الأمير أبو زيان منديل بن طريف بعسكر وافر من المسلمين فعقد له غداة وصوله وأمدّه بعسكر آخر وأغراه قرمونة والوادي الكبير ، فأغار على قرمونة . وطمعت حاميتها في المدافعة فبرزوا له وصدقهم القتال فانكشفوا حتى احجزوهم في البلد . ثم أحاطوا ببرج كان قريباً من البلد ، فقاتلوه ساعة من نهار واقتحموه عنوة ، ولم يزل يتقرى المنازل وال عمران حتى وقف بساحة إشبيلية ، فأغار واقتحم برجاً كان هنالك عيناً على المسلمين ، وأضرمه ناراً . وامتلأت أيدي عساكره ، وقفل إلى معسكر أمير المسلمين .

ولثلاث عشرة من ربيع الثاني عقد للأمير أبي يعقوب لمنازلة جزيرة كيوتر^(١) ، فصمد إليها وقاتلها واقتحمها عنوة . وفي ثاني جمادى عقد لطلحة بن يحيى بن محلى ، وكان بعد مداخلته أخاه عمر في شأن مالقة سنة خمس وسبعين وسمائة خرج إلى الحج ، ففضي فرضه ورجع ، ومّر في طريقه بتونس واتهمه الدعي ابن أبي عمارة كان بها يومئذ فاعتقله سنة إثنين وثمانين ، ثم سرحه ولحق بقومه بالمغرب . ثم أجاز الأندلس غازياً في ركاب السلطان ، فعقد له في هذه الغزاة على مائتين من الفرسان وسرحه إلى إشبيلية ليكون رتبة^(٢) للمعسكر وبعث معه لذلك عيوناً من اليهود والمعاهدين من النصارى ، يتعرفون له أخبار الطاغية شانجة وأمير المسلمين أثناء ذلك يغادي شريش ويراوحها بالقتال والتخريب ، ونسف الآثار ، وبث السرايا كل يوم وليلة في بلاد العدو ، فلا يخلو يوماً عن تجهيز عسكر أو اغراء جيش أو عقد راية أو بعث سرية ، حتى انتسف العمران في جميع بلاد النصرانية ، وخرب بسائط إشبيلية وليلة^(٣) وقرمونة واستجة وجبال الشرق وجميع بسائط الفرنترة . وأبلى في هذه الغزوات عياد العاصمي من شيوخ جشم ، وخضر الغزي أمير الأكراد بلاءً عظيماً . وكان لهم فيها ذكر . وكذلك غزاة سبتة وسائر المجاهدين والعرب من جشم وغيرهم . فلما دمرها تدميراً ونسفها تخريباً واكتسحها غارة ونهباً ، وزحم فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن العسكر ، اعترم على القفول وأفرج عن شريش لآخر رجب ، ووافاه مدد غرناطة من عساكر الغزاة وقائدهم يعلى بن أبي عياد بن عبد الحق بوادي بردة ،

(١) وفي نسخة ثانية : جزيرة كيوتر .

(٢) بمعنى قائد وفي نسخة ثانية : ربيبة وليس لها أي معنى حسب مقتضى السياق .

(٣) وفي نسخة ثانية : ليلة كما في فتح الطيب ١٤١/١ .

فلقاهم ميرة ، وتكريماً وانقلبوا إلى أهلهم . واتصل به أنّ العدو أوعز إلى أساطيله باحتلال الزقاق والاعتراض دون الفراض فأوعز أمير المسلمين الى جميع سواحله من سبتة وطنجة والمنكب وجزيرة وطيف وبلاد الريف ورباط الفتح . واستدعى أساطيله فتوافت منها ستة وثلاثون أسطولاً متكاملة في عدتها وعديدها ، فأحجمت أساطيل العدو عنها وارتدت على أعقابها . واحتلّ بالجزيرة غرة رمضان . واستيقن الطاغية شانجة وأهل ملته أنّ بلادهم قد فئت وأرضهم خربت وتبينوا العجز عن المدافعة والحماية ، فجنحوا إلى السلم وضرعوا إلى أمير المسلمين في كفّ عاديته عنهم على ما يذكر ووصل إلى السلطان بمكانه من منازلة شريش عمر بن أبي يحيى بن محلى نازعاً إلى طاعته ، فاتهمه لما سبق من تلاعبه وأمر أخاه طلحة فنكبه . واحتمل إلى طريف فاعتقل بها ، وسار طلحة إلى المنكب فاستصفى أموال أخيه عمر وذخائره وسار إلى السلطان . وأقرّ ثانية أخاه موسى على عمله بالمنكب ، وأمدّه بعسكر من الرجل . ثم أطلق عمر لليال من اعتقاله . وأجاز طلحة وعمر في ركاب السلطان . ونزع منصور بن أبي مالك حافد السلطان إلى غرناطة ، ثم لحق منها بالمنكب وأقام مع موسى بن أبي يحيى بن محلى ، فأقره السلطان ورضي بمقامه والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن وفادة الطاغية شانجة وانعقاد السلم ومهلك السلطان على تفيئة ذلك) *

لما نزل ببلاد النصرانية بلاد ابن أدفونش من أمير المسلمين ما نزل من تدمير قراهم واكتساح أموالهم وسبي نساءهم وإبادة مقاتلتهم وتخريب معاقلهم وانتساف عمرانهم ، زاغت منهم الأبصار وبلغت القلوب الحناجر واستيقنوا أن لا عاصم من أمير المسلمين ، فاجتمعوا إلى طاغيتهم شانجة ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، متوجعين مما أذاقهم جنود الله من سوء العذاب وأليم النكال . وحملوه على الضراعة لأمير المسلمين في السلم وإيقاد الملأ من كبار النصرانية عليه في ذلك . وإلا فلا تزال تصيبهم منه قارعة ، وتحل قريباً من دارهم فأجاب إلى ما دعوه إليه من الخسف والهزيمة لدينه . وأوفد على أمير المسلمين من بطارقتهم وشامستهم وأساقفهم يخطبون السلم ويضرعون في المهادنة والإبقاء ووضع أوزار الحرب ، فردّهم أمير المسلمين

اعتزازاً عليهم . ثم أعادهم الطاغية بترديد الرغبة على أن يشترط ما شاء من عزّ دينه وقومه . فأسعفهم أمير المسلمين وجنح إلى السلم لما تيقن من صاغيتهم إليه وذلهم لعزّ الاسلام . وأجابهم إلى ما سألوه واشترط عليهم ما تقبلوه من مسألة المسلمين كافة من قومه وغير قومه ، والوقوف عند مرضاته في ولاية جيرانه من الملوك أو عداوتهم ، ورفع الضريبة عن تجار المسلمين بدار الحرب من بلاده ، وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنه . وبعث لعمّه عبد الحق ابن الترجمان باشرط ذلك وأحكام عقده . فاستبلف وأكد في الوفاء . ووفدت رسل ابن الأحمر على الطاغية وهو عنده لعقد السلم معه دون أمير المسلمين على قومه ، ومدافعتهم عنهم ، فأحضرهم بمشهد ابن الترجمان وأسمعهم ما عقد أمير المسلمين على قومه وأهل ملّته . وقال لهم إنما أنتم عبيد آبائي فلستم معي في مقام السلم والحرب ، وهذا أمير المسلمين ولست أطيع مقاومته ولا دفاعه عنكم فانصرفوا . ولما رأى عبد الحق صاغيته إلى مرضاة السلطان وسوس إليه بالوفادة لتتمكن الألفة وتستحكم العقدة ، وأراه مغبة ذلك في سل السخيمة وتسكين الحفيظة وتمكين الألفة ، فصغى إلى وفاته . وسأل لقيّ الأمير أبي يعقوب ولي عهده من قبل ليطمئن عليه ، فوصل إليه ولقيه على فراسخ من شريش . وباتا بمعسكر المسلمين هنالك . ثم ارتحلا من الغد للقاء أمير المسلمين وقد أمر الناس بالاحتفال للقاء الطاغية وقومه وإظهار شعار الإسلام أبهته ، فاحتفلوا وتأهبوا وأظهروا عزّ الملّة وشدة الشوكة وبوفور الحامية .

ولقيه أمير المسلمين بأحسن مبرة وأتم كرامة يلقي بها مثله من عطاء الملل . وقدم الطاغية بين يديه هديّة أتخف بها أمير المسلمين وابنه من ظرف بلاده ، كان فيها زوج من الحيوان الوحشي المسمّى بالفيل ، وحجارة من حمر الوحش إلى غير ذلك من الظرف . فقبلها السلطان وابنه وقابلوه بكفائهم ومضاعفتها ، وكمل عقد السلم ، وتقبل الطاغية سائر الشروط ورضي بعزّ الاسلام عنه . وانقلب إلى قومه بملء صدره من الرضا والمسرّة وسأل منه أمير المسلمين أن يبعث من كتب العلم التي بأيدي النصاري منذ استيلائهم على مدن الإسلام ، فاستكثر من أصنافها في ثلاثة عشر حملاً بعث بها إليه ، فوقفها السلطان بالمدرسة التي أسسها بفاس لطلب العلم .

وقفل أمير المسلمين إلى الجزيرة لليلتين بقيتا لرمضان ، فقصى صومه ونسكه . وجعل من قيام ليله جزءاً لمحاضرة أهل العلم . وأعدّ الشعراء كلمات أنشدوها يوم الفطر بمشهد

الملاّ في مجلس أمير المسلمين . وكان من أسبقهم في ذلك الميدان شاعر الدولة عزّوز المكناسي . ذكر فيها سير أمير المسلمين وغزواته على نسق .

ثم أعمل أمير المسلمين نظره في الثغور فرتب بها المسالحي وعقد عليها لإبنه الأمير أبي زيان منديل ، وأنزله بركوان مقربة مالقة ، واستوصاه بأن لا يحدث في بلاد ابن الأحمر حدثاً . وعقد لعيّاد بن أبي عيّاض العاصمي على مسلحة أخرى ، وأنزله بأصطبونة . وأجاز ابنه الأمير أبا يعقوب لتفقد أحوال المغرب ومباشرة أموره ، فأجاز في أسطول القائد محمد بن القاسم الرنداحي قائد سبّنة . وأوعز إليه بالبناء على قبر أبيه أبي الملوك عبد الحق ، ولقيه إدريس بتافرطست ، فاخطّ هنالك رباطاً وبنى على قبورهم أسمنة من الرخام ، ونقشها بالكتابة ، ورتب عليها قراءاً لتلاوة القرآن ، ووقف على ذلك ضياعاً وفدناً . وهلك خلال ذلك وزيرد يحيى بن أبي منديل العسكري لمتتصف رمضان . ثم اعتلّ بعد ذلك أمير المسلمين لشهر ذي الحجة واشتدّ وجعه وهلك لآخر محرّم سنة خمس وثمانين وستمائة والله أعلم .

* (الخبر عن دولة السلطان وما كان فيها من الاحداث وشأن الخوارج لأوّل دولته) *

لما اعتل أمير المسلمين أبو يوسف بالجزيرة ، مرضه نساؤه ، وطيرن الخبر إلى ولي العهد الأمير أبي يعقوب وهو بمكانه من المغرب ، فأغذّ السير ، وقضى أمير المسلمين قبل وصوله ، فأخذ له البيعة على الناس وزراء أبيه وعظماء قومه ، وأجاز إليهم البحر ، فجدّوا بيعته غرّة صفر سنة خمس وثمانين وستمائة وأخذوها على الكافة . وانعقد أمر السلطان يومئذ ففرّق الأموال وأجزل الصلوات ، وسرح السجون ورفع عن الناس الأخذ بزكاة الفطر ، ووكلهم فيها إلى أمانتهم . وقبض أيدي العمّال عن الظلم والاعتداء والجور على الرعايا ، ورفع المكوس ومحارسم الرتب ، وصرف اعتناءه إلى إصلاح السابلة . وكان أوّل شيء أحدث من أمره إلى أن بعث ابن الأحمر وضرب موعداً للقائه ، فبدر إليه ولقيه بظاهر مربالة^(١) لأوّل ربيع . ولقاه مبرة وتكريماً

(١) وفي نفع الطيب ج ٥ ص ٨٥ : مربلة .

ونجأ إلى له عن جميع الثغور الأندلسية التي كانت لمملكته ما عدا الجزيرة وطريف .
وتفرقا من مكانهما على أكمل حالات المصافاة والوصلة ، ورجع السلطان إلى الجزيرة
ووفاه بها وفد الطاغية شانجة مجددين عقد السلم الذي عقد له أمير المسلمين عفا الله
عنه فأجابهم . ولما تمهد أمر الأندلس ومرّ عن النظر فيها ، عهد لأخيه أبي عطية
العبّاس على الثغور الغربية والإمارة عليها . وعقد لعلي بن يوسف بن يزكاسن على
مساحها ، وأمدّه بثلاثة آلاف من عساكره . وأجاز إلى المغرب فاحتلّ بقصر مصمودة
سابع ربيع الثاني . ثم ارتحل إلى فاس ، واحتلّ بها لإثنتي عشرة خلت من جمادى ،
ولحين استقراره بدار مملكه ، خرج عليه محمد بن إدريس بن عبد الحق في إخوته
وبنيه وذويهم ، ولحق بجبل ورغة^(١) . ودعا لنفسه ، وسرح إليه السلطان أخاه أبا
معروف ، فبدأ له في التزوع إليهم ، ولحق بهم . فأغزاهم السلطان عساكره وردّد
إليهم البعوث والكتائب ، وتلطّف في استئصال أخيه ، فنزل عن الخلاف وعاد إلى
حسن طاعته . وفرّ أولاد إدريس إلى تلمسان ، وتقبّض عليهم أثناء طريقهم ، وسرح
السلطان أخاه أبا زيّان إلى تازي ، وأوعز إليه بقتلهم بملي خارج
تازي لرجب من سنة خمس وثمانين وستائة ورهب الأعياص عند ذلك
من بادرة السلطان ففرقوا ولحق بغرناطة أولاد أبي العلاء إدريس بن
عبد الحق ، وأولاد يحيى بن عبد الحق ، وأولاد عثمان بن يزول .
ورجع أولاد أبي يحيى إلى السلطان بعد اقتضاء عهده وأمانه . وهلك
أخوه محمد بن يعقوب بن عبد الحق لشعبان من مسته . وهلك عمر ابن أخيه أبي
مالك بطنجة . ثم خرج على السلطان عمر بن عثمان بن يوسف العسكري بقلعة
قندلاوة ، ونبذ الطاعة وأذن بالحرب . وأوعز السلطان إلى بني عسكر ومن إليهم من
القبائل المجاورين لها ، فاحتشدوا له ونازلوه . ثم نهض بركابه وعساكره إلى منازلته ،
واحتل بسدورة^(٢) ، وخافه عمر على نفسه ، وأيقن أنه أحيط به ، فسأل الأمان .
وبذله السلطان على شريطة اللحاق بتلمسان ، فبعث من يوثق به من الخيرة فترل .
فوفّى له السلطان بعهده ، ولحق بتلمسان بأهله وولده .
ثم ارتحل السلطان في رمضان من سنته إلى مراکش لتمهيد أنحائها ، وتثقيف أطرافها ،

(١) وفي نسخة ثانية : جبل درعة .

(٢) وفي نسخة ثانية : بنيدورة .

واحتل بها في شوال ، واعتمل النظر في مصالحها ، ونزع خلال ذلك طلحة بن محلى البطوي إلى بني حسّان من المعقل ، وخرج على السلطان ودعا لنفسه . وعقد السلطان لمنصور ابن أخيه أبي مالك على العساكر ، وعهد له بولاية السوس وسرحه لاستئصال الخوارج ، ومحو آثار الفساد . وارتاب بمكان أخيه عمر فغربه إلى غرناطة ، فقتله أولاد أبي العلاء يوم وصوله إليها ، فسار الأمير منصور في الجيوش والكتائب ، وغزا عرب المعقل وأثنى فيهم . وقتل طلحة بن محلى في بعض حروبهم لثلاث عشرة في جمادى سنة ست وثمانين وستمائة وبعث برأسه إلى سدّة السلطان فعلق بتأزي . ثم نهض في رمضان لغزو المعقل بصحراء درعة لما أضروا العمران وأفسدوا السابلة . وسار إليهم في اثني عشر ألفاً من الفرسان ، ومرّ على بلاد هسكورة معترضاً جبل درن . وأدركهم بالفقر نواجع ، فأثنى فيهم بالقتل والسبي . واستكثر من رؤسهم فعُلقت بشرافات مراكش وسجلماسة وفاس . وعاد من غزوه إلى مراكش آخر شوال ، فنكب محمد بن علي بن محلى عاملها القديم الولاية عليها من لدن غلب الموحدين ، لما وقع من الارتباب بأولاد محلى لما آتاهم كبيرهم طلحة ، فنكب غرة المحرم من سنة سبع وثمانين وستمائة . وهلك في محبسه لشهر صفر بعده . وهلك على ذلك المزوار قاسم بن عتوّ^(١) . وعقد السلطان على مراكش وأعمالها لمحمد بن عطو الجاناني من موالي دولتهم ولاء الحلف . وترك معه ابنه أبا عامر . ثم ارتحل إلى حضرة فاس ، فاحتل بها منتصف ربيع ، ووافته بها عرسه بنت موسى بن رحو بن عبدالله بن عبد الحق من غرناطة في وفد من وزراء ابن الأحمر وأهل دولته ، فأعرس بها وكان بعث إلى أبيها من قبل في الاصحار بها . ووافت معها رسل ابن الأحمر يسألونه التجاني عن وادي آش ، فأسغفهم بها ، كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

* (الخبر عن دخول وادي آش في طاعة السلطان ثم رجوعها
إلى طاعة ابن الأحمر) *

كان أبو الحسن بن أشقيلولة ظهير السلطان ابن الأحمر على ملكه ، ومعينه على شأنه ، وكان له في الدولة بذلك مكان . ولما هلك خلف من الولد أبا محمد عبدالله وأبا

(١) وفي نسخة ثانية : قاسم بن غبّو .

اسحق ابراهيم ، فعقد ابن الأحمر لأبي محمد على مالقة ولأبي اسحق على قاراش ووادي آش . ولما هلك السلطان ابن الأحمر حدثت مغاضبات ومنافسات بينها وبينه ، وتآدى ذلك إلى الفتنة كما قلناه ودخل أبو محمد في طاعة السلطان أبي يوسف . ثم هلك فلحق ابنه محمد بالسلطان ، ونزل له عن البلد سنة ست وسبعين وستائة ثم هلك أبو اسحق سنة إثنين وثمانين وستائة وغلب ابن الأحمر على حصن قاراش وصار إليه . وكان الرئيس أبو اسحق قد عقد لابنه أبي الحسن على وادي آش وحصونها ، واتصلت الفتنة بينه وبين ابن الأحمر ، وظاهر أبو الحسن عليه الطاغية وأجلب أخوه أبو محمد معه على غرناطة هو وابن الدليل . وطال أمر الفتنة بينهما وبين ابن الأحمر . ثم انعقد السلم بين المسلمين والنصارى ، وخشي أبو محمد بن أشقيلولة على نفسه عادية ابن الأحمر ، فتقدم بطاعة صاحب المغرب ، وأقام دعوته بوادي آش سنة ست وثمانين وستائة فلم يعرض لها ابن الأحمر حتى اذا وقعت المواصلتة بينه وبين ابن السلطان أبي يعقوب ، وكان شأن هذا الصهر على يده ، بعث رسله إلى السلطان يسأله التجافي عن وادي آش ، فتجافى له عنها وبعث إلى أبي الحسن بن أشقيلولة بذلك فتركها . وارتحل إليه سنة سبع وثمانين وستائة ولقيه بسلا ، فأعطاه القصر الكبير وأعماله طعمة سوَّغه إياها . ثم نزل لبنيه آخر دولتهم . واستمكن ابن الأحمر من وادي آش وحصونها ، ولم يبق له بالأندلس منازع من قرابته . والله يؤتي ملكه من يشاء ، والله أعلم .

* (الخبر عن خروج الامير أبي عامر ونزوعه الى مراکش ثم
فيئته الى الطاعة) *

لما احتل السلطان بفاس وأقام بها خرج عليه ابنه أبو عامر ، ولحق بمراكش ، ودعا لنفسه أخريات شوال من سنة سبع وثمانين وستائة وساعده على الخلاف والانتراء عاملها محمد بن عطو . وخرج السلطان في أثره إلى مراکش ، فبرز إلى لقائه ، فكانت الدائرة عليهم وحاصروهم السلطان بمراكش أياماً . ثم خلص أبو عامر إلى بيت المال فاستصفى ما فيه وقتل المشرف ابن أبي البركات ، ولحق بجبال المصامدة ، ودخل السلطان من غده إلى البلد يوم عرفة ، فعفا وسكن ونهض منصور ابن أخيه

لامير أبو مالك من السوس إلى حاجة فدوخ انحاءها . ثم سرح إليه المدد من
مراكش ، فأوقعوا بوكنة^(١) من برابرة السوس ، وقتل منهم ما يناهز أربعين من
سرواتهم . وكان فيمن قتل منهم شيخهم حيون^(٢) بن ابراهيم . ثم إن ابنه أبا عامر
ضاق ذرعه بسخط أبيه وإجلاله في الخلاف ، فلحق بتلمسان ومعه وزيره ابن عطو
فاتح سنة ثمان وثمانين وستائة فأواهم عثمان بن يغمراسن ، ومهد لهم المكان ولبثوا
عنده أياماً . ثم عطف السلطان على ابنه رحم لما عطفت ابنته عليه ، فرضي عنه وأعادته
إلى مكانه ، وطالب عثمان بن يغمراسن أن يسلم إليه ابن عطو الناجم في النفاق مع
ابنه ، فأبى من إضاعة جواره وإخفار ذمته ، وأغلظ له الرسول في القول فسطا به
واعتقله ، فثارت من السلطان الحفاظ الكامنة ، وتحركت الأحن القديمة ،
والتزلات المتوارثة . واعتزم على غزو تلمسان والله أعلم .

* (الخبر عن تجدد الفتنة مع عثمان بن يغمراسن وغزو السلطان
مدينة تلمسان ومنازلته إياها) *

كانت الفتنة بين هذين الحيين قديمة من لدن بحالاتهم بالفقر من حمراء ملوثة إلى
صا ، إلى فيكيك ، ولما انتقلوا إلى التلول وتغلبوا على الضواحي بالمغرب الأقصى
والأوسط ، لم تزل فتنهم متصلة وأيام حروبهم فيها مذكورة . وكانت دولة الموحدين
عند اختلالها والقيامها تستنصر منهم بالتضريب بينهم والفتنة ، فتأكدت لذلك أحوالها
وانصلت أيامها . وكان بين يغمراسن بن زيان وأبي يحيى بن عبد الحق فيها وقائع
ومشاهد ، نقلنا منها بعضاً من كل . واستظهر الموحدون بيغمراسن عليه في بعضها .
وكان الغلب أكثر ما يكون لأبي يحيى بن عبد الحق لوفور قبيلة . إلا أن يغمراسن
كان يتصدى لمقاومته في سائر وقائعه . ولما طمس أثر بني عبد المؤمن واستولى يعقوب
ابن عبد الحق على ملكهم ، وصارت في جملته عساكرهم ، وتضاعف عليه ،
وأسف على ملك يغمراسن ملكه . وجمع له فأوقع به في تلاغ الواقعة المعروفة . ثم
أوقع به ثانية وثالثة . ولما استوت قدم يعقوب بن عبد الحق في ملكه ، واستكمل فتح

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : زكنة .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخ أخرى : حيون — حيور — حنون .

المغرب وسائر أمصاره ، وكبح يغمراسن عن التطاول إلى مقاومته ، وأوهن قواه بفلّ جموعه ومنازلته في داره ، ومظاهرة أقتاله من زناته بني توجين ومغراوة عليه . فانصرف بعد ذلك إلى الجهاد ، فكان له فيه شغل عمّا سواه كما نقلناه في أخباره . ولما انصرف ارتاب ابن الأحمر بمكان السلطان يعقوب بن عبد الحق من الأندلس ، وحذّره على ملكه ، وتظاهر مع الطاغية على منعه من الإجازة إلى عدوتهم ، ثم خشوا أن لا يستقلوا بمدافعته ، فراسلوا يغمراسن في الأخذ بحجزته . وأجابهم إليها وجرّد عزائمه لها ، واتصلت أيديهم في التظاهر عليه . ثم فسد ما بين ابن الأحمر والطاغية ولم يكن له بدّ من ولاية يعقوب بن عبد الحق ، فتولى^(١) بواسطة ابنه يوسف بن يعقوب كما ذكرناه وأطلعوه على خباء يغمراسن في مظاهرتهم ، فأغراه سنة تسع وسبعين وستائة وهزمه بخرزونة^(٢) . ونازله بتلمسان ووطأ عدوّه من بني توجين بساحته كما ذكرناه . ثم انصرف إلى شأنه من الجهاد ، وهلك يغمراسن بن زيان على تفيثة ذلك سنة إحدى وثمانين وستائة ، وأوصى ابنه عثمان ولي عهده ، زعموا أن لا يحدث نفسه بمقاومة بني مرين ومساماتهم في الغلب ، وأن لا يبرز إلى لقاءهم بالصحراء ، وأن يلوذ منهم بالجدران متى سموا إليه . وألقى إليه ، زعموا أن بني مرين بعد تغلبهم على مراکش ، وانضياف سلطان الموحدين إلى سلطانهم ، ازدادت قوتهم وتضاعف غلبهم . وقال له زعموا فيما أوصاه . ولا يغرنك أني رجعت إليهم بعدها ، وبرزت إلى لقاءهم ، فإني أنفت أن أرجع عن مقاومتهم بعد اعتيادها ، وأترك مبارزتهم وقد عرفها الناس . وأنت لا يضرك العجز عن مبارزتهم والنكول عن لقاءهم ، فليس لك في ذلك مقام معلوم ، ولا عادة سالفة ، واجهد جهدك في التغلب على أفريقية وراءك ، فإن فعلت كانت المناهضة . وهذه الوصاة زعموا هي التي حملت عثمان وبنيه من بعده على طلب ملك أفريقية ، ومنازلة بجاية وحربهم مع الموحدين . ولما هلك يغمراسن ذهب ابنه إلى مسالة بني مرين ، فبعث أخاه محمداً إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق ، وأجاز البحر إليه بالأندلس . ووافاه بأركش في إجازته الرابعة سنة أربع وثمانين وستائة فعقد له ما جاء إليه من السلم والمهادنة ، ورجّعه إلى أخيه وقومه ممتلئاً كرامةً وسروراً . وهلك يعقوب بن عبد الحق أثر ذلك سنة خمس وثمانين

(١) وفي نسخة ثانية : فتلاه .

(٢) وفي نسخة ثانية : خرزونة .

وستائة وقلم بالأمر إبنه يوسف بن يعقوب . وانتري الخوارج عليه بكل جهة ، فشمر لهم واستتر لهم وحسم أدواءهم . ثم خرج عليه ابنه آخرأ كما ذكرناه بمالأة وزير السلطان محمد بن عطفو . ثم فاء إلى طاعة أبيه ورضي عنه ، وأعادته إلى مكانه من حضرته . وطالب عثمان بن يغمراسن كما ذكرناه في ابن عطفو المنتري عليه مع ابنه ، فأبى عثمان من تسليمه وتحركت حفيظة السلطان واعتزم على غزوهم ، فارتحل من مراکش لصفر من سنة سبع وثمانين ^(١) وعقد عليها لإبنه الأمير أبي عبد الرحمن . ثم نهض لغزاته من فاس آخر ربيع من سنته في عساكره وجنوده ، وحشد القبائل وكافة أهل المغرب ، وسار حتى نزل تلمسان فانحجز عثمان وقومه بها ، ولاذوا منه بجدرانها . فسار في نواحيها ينسف الآثار ويخرب العمران ويحطم الزرع . ثم نزل بذراع الصابون بساحتها . ثم انتقل منه إلى تامة ^(٢) وحاصرها أربعين يوماً ، وقطع أشجارها ، وأباد خضرأها . ولما امتنعت عليه أفرج عنها وانكفأ راجعاً إلى المغرب . وقضى نسك الفطر بعين الصفا من بلاد بني يرناتن ، ونسك الأضحى وقربانه بتازي ، وتلبث بها ، ومنها كان فصوله للغزو عند انتقاض الطاغية كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن انتقاض الطاغية واجازة السلطان لغزوه) *

لما رجع السلطان من غزو تلمسان وافاه الخبر بأن الطاغية شانجة انتقض ونبذ العهد ، وتجاوز التخوم وأغار على الثغور ، فأوعز إلى قائد المسالحي علي بن يوسف بن يزكاسن بالدخول إلى دار الحرب ومنازلة شريش . وشن الغارات على بلاد الطاغية ، فنهض لذلك في ربيع الآخر من سنة تسعين وستائة وجاس خلالها ، وتوغل في أقطارها ، وأبلغ في النكاية . وفصل السلطان من تازي غازياً على أثره في جمادى ، واحتل قصر مصمودة ، واستنفر أهل المغرب وقبائله . ونفروا وشرع في إجازتهم البحر . وبعث الطاغية أساطيله إلى الزقاق حجزاً دون الإجازة ، فأوعز السلطان إلى قواد أساطيله بالسواحل فأغزاهم . والتقت الأساطيل ببحر الزقاق في شعبان فاقتتلوا وانكشف

(١) وفي نسخة ثانية : تسع وثمانين .

(٢) وفي نسخة ثانية : ثمانية .

المسلمون ومحصهم الله . ثم أغزاهم ثانية وخامت أساطيل العدو عن اللقاء ، وصاعدوا عن الزقاق . وملكه أساطيل السلطان فأجاز أخريات رمضان واحتل بطريف . ثم دخل دار الحرب غازياً ، فنازل حصن بجزيرة ثلاثه أشهر ، وضيق عليهم . وبث السرايا في أرض العدو ، وردد الغارات على شريش وإشبيلية ونواحيها إلى أن بلغ في النكاية والإثخان . وقضى من الجهاد وطراً ، وزاحمه فصل الشتاء وانقطع الميرة عن العسكر ، فأفرج عن الحصن ورجع إلى الجزيرة . ثم أجاز إلى المغرب فاتح إحدى وتسعين وستائة فتظاهر ابن الأحمر والطاغية على منعه كما ذكره إن شاء الله تعالى ، والله أعلم .

* (الخبر عن انتفاض ابن الأحمر ومظاهرتة للطاغية على طريف اعادها الله للمسلمين) *

لما قفل السلطان من غزاة فاتح إحدى وتسعين وستائة كرا ذكرناه ، وقد أبلغ في نكاية العدو وأثنى في بلاده ، فأهم الطاغية أمره ، وثقلت عليه وطأته ، واتمس الوليجة من دونه . وحذر ابن الأحمر غائلته ، ورأى أن مغبة حاله الاستيلاء على الأندلس وغلبه على أمره ، ففاوض الطاغية وخلصوا نجياً . وتحدثوا أن استمكانه من الإجازة إليهم إنما هو لقرب مسافة بحر الزقاق ، وانتظام ثغور المسلمين حفافيه لتصرف شوانهم وسفنهم متى أرادوا فضلاً عن الأساطيل وأن أم تلك الثغور طريف ، وأنهم اذا استمكنوا منها كانت ربيثة لهم على بحر الزقاق . وكان أسطولهم بمرقاها بمرصد الأساطيل صاحب المغرب الخائضين لجة ذلك البحر ، فاعترم الطاغية على منازل طريف . وزعم له ابن الأحمر بمظاهرتة على ذلك ، وشرط له المدد والميرة لأقوات العسكر أيام منازلها ، على أن تكون له إن خلصت . وتعاونوا على ذلك وأناخ الطاغية بعساكر النصرانية على طريف . وألح عليها بالقتال ونصب الآلات وانقطع عنها المدد والميرة . واحتلت أساطيله ببحر الزقاق ، فحالفوا دون الصريخ من السلطان وإخوانهم المسلمين . وضرب ابن الأحمر معسكره بمالقة قريباً منه ، وسرب إليه المدد من السلاح والرجال والميرة من الأقوات ، وبعث عسكرياً لمنازلة حصن أصطبونة ، وتغلب عليه بعد مدة من الحصار . واتصلت هذه الحال أربعة أشهر حتى أصاب

أهل طريف الجهد ، ونال منهم الحصار ، فراسلوا الطاغية في الصلح والتزول عن البلد ، فصالحهم واستترهم سنة إحدى وتسعين وستمائة ووفى لهم بعهده . واستشرف ابن الأحمر إلى تجافي الطاغية عنها لما عقدوا عليه ، فأعرض عن ذلك واستأثر بها بعد أن كان نزل له عن ستة من الحصون عوضاً منها ، ففسد ذات بينهما ، ورجع ابن الأحمر إلى تمسكه بالسلطان واستعانت به لأهل ملته على الطاغية . وأوفد ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن اسمعيل بن يوسف ووزيره أبا سلطان عزيز الداني في وفد من أهل حضرته لتجديد العهد وتأكيد المودة وتقرير المَعْدرة عن شأن طريف . فوافوه بمكانه من منازل تازوطا كما يذكر بعد . فأبرموا العقد وأحكموا الصلح وانصرفوا إلى ابن الأحمر سنة اثنتين وتسعين وستمائة بأسعاف غرضه من المواخاة واتصال اليد . وهلك خلال ذلك قائد المسالحي بالأندلس علي بن يزكاسن في ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وستمائة وعقد السلطان لابنه ولي عهده ، الأمير أبي عامر على ثغور الأندلس التي في طاعته ، وعهد له بالنظر في مصالحها . وأنفذه إلى قصر الحجاز بعسكره فوافاه هنالك السلطان ابن الأحمر كما يذكر إن شاء الله تعالى ، والله أعلم .

* (الخبر عن وفادة ابن الأحمر على السلطان

والتقائهما بطنجة) *

لما رجعت الرسل إلى ابن الأحمر ، وقد كرمّت وفادتهم وقضيت حاجتهم ، وأحكمت في المواخاة مقاصدهم ، وقع ذلك من ابن الأحمر أجمل موقع ، وطار سروراً من أعواده . وأجمع الرحلة إلى السلطان لإحكام الود والاستبلاغ في العذر عن واقعة طريف وشأنها ، واستعدادهم لإغاثة المسلمين ونصرهم من عدوهم . فاعترم على ذلك وأجاز البحر ذا القعدة سنة اثنتين وتسعين وستمائة واحتل بنيونش من ساحة سبتة . ثم ارتحل إلى طنجة ، وقدم بين يدي نجواه هدية سنّية أتحف بها السلطان ، كان من أحفلها وأحسنها موقعاً لديه فيما زعموا المصحف الكبير ، أحد مصاحف عثمان ابن عفان أحد الأربعة المنبثة إلى الآفاق ، المختص هذا منها بالمغرب ، كما نقله السلف . كان بنو أمية يتوارثونه بقرطبة ، فتلّقاها الأمير أبو عامر هنالك ، وأخوه الأمير

أبو عبد الرحمن ابنا السلطان واحتفلا في مبرّته . ثم جاء السلطان على أثرهما من حضرته لتلقّيه وبرور مقدمه ، ووافاه بطنجة ، وبلغ في تكرمته وبرّ وفادته ما يكرّم به مثله . وبسط ابن الأحمر العذر عن شأن طريف فتجافى السلطان عن العذل وأعرض عنه وقبل منه . وبرّ واحتفى ووصل وأجزل ، ونزل له ابن الأحمر عن الجزيرة ورندة والغريّة وعشرين حصناً من ثغور الأندلس كانت من قبل لطاعة صاحب المغرب ونزل عساكره . وعاد ابن الأحمر إلى الأندلس خاتم إثنين وتسعين وستائة محبباً محبوراً . وأجازت عساكر السلطان معه لحصار طريف وعقد على حربها ومنازلتها لوزيره الطائر الذكر عمر بن السعود بن الخرباش الجشمي ، فنازلها مدّة ، وامتنعت فأفرج عنها . وصرف السلطان همّته إلى غزو تلمسان وحصارها . كما يذكر إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن انتراء الوزير الوساطي بحصن تازوطا من جهات الريف واستئزال السلطان اياه) *

كان بنو الوزير هؤلاء رؤساء بني واطاس من قبل بني مرين ، ويرون أن نسبهم دخيل في بني مرين . وآتهم من أعقاب علي بن يوسف بن تاشفين لحقوا بالبدو ونزلوا على بني واطاس ، ورسخت فيهم عروقهم حتى لبسوا جلدتهم . ولم يزل السرو متربعا بين أعينهم لذلك ، والرياسة شاحخة بأنوفهم . وكانوا يرومون الفتك بالأمراء من أولاد عبد الحق ، فلم يطيقوه . ولما احتلّ السعيد بقازي غازياً إلى تلمسان كما ذكرناه ، ولحق ببلدهم الأمير أبو يحيى بن عبد الحق ائتمروا في الفتك به . ونذر بشأنهم فارتحل ، ففرّوا إلى غبولة وعين الصفا من بلاد بني يزناسن ، وهناك بلغه خبر مهلك السعيد . وكانت بلاد الريف لبني واطاس من لدن دخول بني مرين المغرب واقتسامهم لأعماله فكانت ضواحيها لترهّم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم . وكان حصن تازوطاها من أمنع المعاقل بالمغرب وكان الملوك من أولاد عبد الحق يعتنون بشأنه ، ويتزولونه من أوليائهم من يثقون بغنائه واطلاعه ، ليكون آخذاً بناصية هؤلاء الرهط . وشجبا في صدورهم عمّا يسيمون إليه . وكان السلطان قد عقد عليه لمنصور ابن أخيه الأمير أبي مالك بعد مهلك ابنه أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق . وكان عمر بن يحيى ابن الوزير وأخوه

عامر رئيسين على بني واطاس لذلك العهد ، فاستوهنوا أمر السلطان بعد مهلك أبيه ، وحدثوا أنفسهم بالانتراء بتازوطا والاستبداد بتلك الناحية ، فوثب عمر منهم بمنصور ابن أخي السلطان شهر شوال من سنة إحدى وتسعين وستمائة وفتك برجاله وذويه وأزعجه عنها ، وغلبه على مال الجباية الذي كان بقصره ، فاستصفاه واستأثر به . واستبدت وشحن الحصن برجاله وحاشيته ووجوه قومه . ووصل منصور إلى السلطان وهلك الليال من منجاته أسفاً لما أصابه . وسرح السلطان وزيره الطائر الذكر عمر بن السعود بن خرباش بالعساكر لمنازلته فأناخ عليه . ثم نهض السلطان على أثره ووافاه واضطرب معسكره بساحته . وخالف عامر أخاه عمر إلى السلطان بقومه حذراً من مغبة الأمر ، وأشفق عمر لشدة الحصار ويش من الخلاص ، وظن أن قد أحيط به ودس إلى أخيه عامر ، فاستأذن السلطان في مداخلته في الدخول على الحصن فأذن له . واحتمل ذخيره وفر إلى تلمسان . وبدا لعامر في رأيه عندما خلص إلى الحصن وخلاله من أخيه عمر الجور . وحذر غائلة السلطان وخشي أن يثار منه بابن أخيه ، فامتنع بالحصن . ثم ندم وسقط في يده ، وفي خلال ذلك كان وصول وفد الأندلس ، وأرسلوا أساطيلهم بمرسى غساسة ، فبعث إليهم عامر أن يشفعوا له عند السلطان لوجهتهم لديه ، فتقبلت شفاعتهم على شريطة إجازته إلى الأندلس ، وكره ذلك وقدم بين يديه بعض حاشيته إلى الأسطول مكرراً بهم ، وخاض الليل إلى تلمسان ، وتقبض السلطان على ولده وقتل . وأسلم أهل الأسطول من كان من حاشيته لديهم ، وتجاؤا عن إجازتهم على السلطان لما مكر بهم عامر فامر فاستلحموا مع من كان بالحصن من أتباعهم وقرابتهم وذرياتهم^(١) وتملك السلطان حصن تازوطا وأنزل به عماله ، ومسلحته وقفل إلى حضرته بفاس آخر جمادى من سنة اثنتين وتسعين وستمائة والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن نزوع أبي عامر ابن السلطان الى بلاد الريف
وجهات غمارة) *

كان الأمير أبو عامر بعد إجازة ابن الأحمر إلى السلطان أبيه ورضاه عنه ، وتأكيده

(١) وفي نسخة ثانية : ذويهم .

مؤاخاته وإغراء وزيره بمنازلة طريف ، واستتراله أولاد الوزير المنترين بحصن تازو: رجع من قصر مصمودة إلى بلاد الريف بإيعاز أبيه إليه بذلك لتسكين أحوالها . وكان أولاد الأمير أبي يحيى بن عبد الحق قد نزعوا إلى تلمسان لسعاية فيهم ، وقرت في صدر السلطان ، فأقاموا بها أياماً ، ثم استعطفوا السلطان واسترضوه ، فرضي وأذن لهم في الرجوع في محلهم من قومهم ودولتهم . وبلغ الخبر الأمير أبا عامر وهو بمعسكره من الريف ، فأجمع على اغتيالهم في طريقهم فظن أنه يرضي بذلك أباه . واعترضهم بوادي القطف من ملوثة سنة خمس وتسعين وستائة فاستلحمهم وانتهى الخبر إلى السلطان فقام في ركائبه وقعد ، وتبرأ إلى ابنه^(١) من إخفار ذمته . ومن صنع ابنه . وسخطه وأقصاه ، فذهب مغاضباً ولحق ببلاد الريف . ثم صعد إلى جبل غمارة ، فلم يزل طريداً بينهم . ونازلته عساكر أبيه لنظر ميمون بن وردار^(٢) الجشمي ، ثم لنظر يرزيكن بن المولاة تاميمونت . وأوقع بهم مراراً آخرها بيزيكن سنة سبع وتسعين وستائة ، وذكر الرجي^(٣) مؤرخ دولتهم أن خروجه يجبل غمارة كان سنة أربع وتسعين وستائة وقتله لأولاد الأمير أبي يحيى كان سنة خمس وتسعين وستائة بعدها أغزاهم^(٤) من مثوى انترائه ، وقتلهم كما ذكرناه والله أعلم . ولم يزل هذا دأبه إلى أن هلك ببني سعيد من جبال غمارة سنة ثمان وتسعين وستائة ونقل شلوه إلى فاس فووري بباب الفتوح ملحد قومهم هنالك . وأعقب ولدين نقلها السلطان جدّهما ، فكانا الخليفتين من بعده ملّى ما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

* (الخبر عن حصار تلمسان الكبير وما تخلل ذلك

من الاحداث) *

كان عثمان بن يغمراسن بعد إفراج السلطان سنة تسع وثمانين وستائة وانتقاض الطاغية

(١) وفي نسخة ثانية : إلى الله .

(٢) كذا في النسخة البارسية وفي نسخة أخرى : وردان .

(٣) وفي نسخة ثانية : الزليخي .

(٤) كذا في النسخة البارسية وفي نسخة أخرى : أغزاهم من مثوى انترائه .

وابن الأحمر عليه كما قلناه ، صرف إلى ولايتها وجه تدبيره وأوفد على الطاغية ابن بريدي من صنائع دولته سنة اثنتين وتسعين وستائة ووجه الطاغية مع الريبك ريكسن رسول من كبار قومه . ثم عاد إليه الحاج مسعود من حاشيته ، ووصل يده بيده يظن ذلك دافعاً عنه . واعتدّها السلطان عليه وطوى له على النث . حتى اذا فرغ من شأن الأندلس وهلك الطاغية شانجة سنة ثلاث وتسعين وستائة لإحدى عشرة من سني ملكه ، وارتحل السلطان إلى طنجة لمشاركة أحوال الأندلس سنة أربع وتسعين وستائة فأجاز إليه السلطان ابن الأحمر ولقيه بطنجة ، وأحكم معه المؤاخاة . ولما استيقن سكون أحوالها ، نزل لابن الأحمر عن جميع الثغور التي بها الطاغية ، وأجمع غزو تلمسان ، ولحق به بين يدي ذلك ثابت بن منديل المغراوي صريحاً على ابن يغمراسن ومستجيشاً بقومه فتقبله وأجاره .

وكان أصاب الناس أعوام اثنتين وتسعين وستائة قحط ، ونالهم سنة وهنواها . ثم أن الله رحم خلقه وأدرّ نعمته ، وأعاد الناس إلى ما عهدوه من سبوغ نعمهم وخصب عيشهم . ووفد عليه سنة أربع وتسعين وستائة ثابت بن منديل أمير مغراوة مستصرخاً به من عثمان بن يغمراسن ، فبعث من كبار قومه موسى بن أبي حمو إلى تلمسان شغيعاً في ثابت بن منديل فردّه عثمان أقبح ردّ وأساء في إجابته ، فعاود الرسالة إليهم في شأنه ، فلم يزداهم إلا إصراراً^(١) فاعترم على غزو بلادهم واستعدّ لذلك ، ونهض سنة أربع وتسعين وستائة حتى انتهى إلى بلاد تاوريرت ، وكانت تخماً لعمل بني مرين وبني عبد الواد في جانبها عامل السلطان أبي يعقوب ، وفي جانبها الآخر عامل عثمان بن يغمراسن . فطرد السلطان عامل ابن يغمراسن وتميز بها ، واختطّ الحصن الذي هنالك لهذا العهد . تولاه بنفسه يغادي الفعلة ويراوحهم ، وأكمل بناءه في شهر رمضان من سته . واتخذة ثغراً للملكه ، وأنزل بني عسكر لحياطته وسدّ فروجه . وعقد عليهم لأخيه أبي يحيى بن يعقوب ، وانكفاً راجعاً إلى الحضرة .

ثم خرج من فاس سنة خمس وتسعين وستائة غازياً إلى تلمسان ، ومرّ بوجدة ، فهدم أسوارها وتغلب على مسيفة والزغاوة^(٢) . وانتهى إلى ندرومة ، ونازلها أربعين يوماً ورمّاها بالمنجنيق . وضيق عليها وامتنعت عليه فأفرج عنها ثاني الفطر . ثم أغزى

(١) وفي نسخة ثانية : فلم ترداهم إلا ضراراً .

(٢) وفي نسخة ثانية : الزغارة .

تلمسان سنة ست وتسعين وستائة وبرز لمدافعته عثمان بن يغمراسن ، فهزمه وحجزه بتلمسان ، ونزل بساحتها وقتل خلقاً من أهلها ، ونازلها أياماً . ثم أقفل عنها وقفل إلى المغرب وقضى منسك الأضحى من سنته بتازي . فأعرس هنالك لحفادة أبي ثابت ابن منديل ، كان أصهر فيها إلى جدّها قبل مهلكه سنة ست وتسعين وستائة قتيلاً ببحيرة الزيتون من ظاهر فاس . قتله بعض بني ورتاجن في دم كان لهم في قومه ، فنأر السلطان به من قاتله وأعرس بجافدته . وأوعز ببناء القصر بتازي ، وقفل إلى فاس فاتح سنة سبع وتسعين وستائة . ثم ارتحل إلى مكناسة وانكفاً إلى فاس . ثم نهض جمادى غازياً لتلمسان ومّر بوجدة فأوعز بينائها وتحصين أسوارها ، واتخذ بها قصبة وداراً لسكناه ومسجداً وأغزى إلى تلمسان ، ونزل بساحتها ، وأحاطت عساكره إحاطة الهالة بها ، ونصب عليها القوس البعيدة الترع العظيمة الهيكل المسماة بقوس الزيار ازدلف إليه الصنّاع والمهندسون بعملها ، وكانت توقر على أحد عشر بغلاً . ثم لما امتنعت عليه تلمسان أفرج عنها فاتح سنة ثمان وتسعين وستائة ومّر بوجدة ، فأنزل بها الكتائب من بني عسكر لنظر أخيه أبي يحيى بن يعقوب كما كانوا بتاوريرت ، وأوعز إليهم بتريد الغزاة على أعمال ابن يغمراسن وإفساد سابلتها. وضافت أحوالهم ويشوا من صريخ صاحبهم ، فأوفدوا على الأمير أبي يحيى وفداً منهم يسألون الأمان بمن وراءهم من قومهم ، على أن يمكّنوه من قياد بلدهم ، ويدينوا بطاعة السلطان ، فبذل لهم من ذلك ما أرضاهم ، ودخل البلد بعساكره ، واتبعهم أهل تاوونت وأوفد مشيختهم جميعاً على السلطان آخر جمادى ، فقدموا عليه لحضرته وأدّوا طاعتهم ، فقبلها . ورغبوا إليه في الحركة إلى بلادهم ليريحهم من ملكة عدوّه وعدوّهم ابن يغمراسن ، ووصفوا من عسفه وجوره وضعفه عن الحماية ، ما استنهض السلطان لذلك على ما يذكر إن شاء الله تعالى ، والله أعلم .

* (الخبر عن الحصار الكبير لتلمسان وما تخلل ذلك

من الأحداث) *

لما توفّرت عزائم السلطان عن النهوض إلى تلمسان ، ومطاوله حصارها إلى أن يظفر بها ويقومها ، واستيقن أنه لا مدافع له عن ذلك ، نهض من فاس شهر رجب من سنة

ثمان وتسعين وستائة بعد أن استكمل حشده . ونادى في قومه ، واعترض عساكره وأجزل أعطياتهم وأزاح عنهم . وارتجل في التعبئة واحتل بساحة تلمسان ثاني شعبان وأناخ عليها وضرب معسكره بفنائها . وحجز عثمان بن يغمراسن وحاميتها من قومه ، وأدار الأسوار سياجاً على عمرانها كله ، ومن ورائها نطاق الحفير البعيد المهوى . ورتب المسالحي على أبوابها وفرجها ، وسرح عساكره لمحاصرتها فاقتحموها^(١) وآتوا طاعتهم ، وأوفد مشيختهم وسط شعبان . ثم سرح عساكره لمحاصرة وهران وتقرى البسائط ومنازلة الأمصار ، فأخذت مازونة في جمادى الآخرة من سنة تسع وتسعين وستائة وتنس في شعبان بعده ، وتالموت^(٢) والقصبات وتامزردكت في رمضان منه ، وفيه كان فتح مدينة وهران . وسارت عساكره في الجهات إلى أن بلغت بجاية كما نذكره . وأخذ الرعب بقلوب الأمم بالنواحي ، وتغلب على ضواحي مغراوة وتوجين ، وسارت فيها عساكره ودوّختها كتابه ، واقتحمت أمصارها مثل مليانة ومستغانم وشرشال والبطحاء ووانشريس والمرية^(٣) وتافركينت ، وأطاعه زيري المتري ببرشك . وأتى بيعته ، وابن علان المتري بالجزائر . وأزعج الناكثين منهم عن طاعته ، واستألف أهل الطاعة^(٤) كما نذكره . وحذره الموحدون من ورائهم بأفريقية ملوك بجاية وملوك تونس ، فدّوا إليه يد المواصله ولاطفوه بالمتاحفة والمهاداة كما نذكره ، وخاطب صاحب الديار المصرية ملك الترك وهاداه وراجعته كما نذكره ، ووفد عليه شرفاء مكة بني أبي نمي كما نذكره . وهو في خلال ذلك مستجمع للمطاوله بالحصار والتضييق ، متجافٍ عن القتال إلا في بعض الأيام ، ولم تبلغ أربعة أو خمسة يتزل شديد العقاب والسطوة بمن يديرها ويأخذ بالمرصاد على من يتسلل بالأقوات إليها . قد جعل سرداق الأسوار المحيطة ملاكاً لأمره في ذلك ، فلا يخلص إليهم الطيف ولا يكاد يصل إليهم العيث مدّة مقامه عليها ، إلى أن هلك بعد مائة شهر كما نذكره . واختطّ بمكان فسطاط المعسكر قصراً لسكناه ، واتخذ به مسجداً لمصلّاه وأدار عليها السور ، وأمر الناس بالبناء فبنوا الدور الواسعة والمنازل الرحبة

(١) وفي نسخة ثانية : وسرح عساكره الى هنين فاقتحمها .

(٢) وفي نسخة ثانية : تالوت .

(٣) وفي نسخة ثانية : المدية .

(٤) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخ أخرى : أهل الطاعة . وأهل الصاغية وأهل الطاغية .

والقصور الأنيقة ، واتخذوا البساتين وأجروا المياه . ثم أمر بادارة السور سياجاً على ذلك سنة إثنين وسبعائة ، وصيرها مصرّاً ، فكانت من أعظم الأمصار والمدن وأحفلها اتساع خطة وكثرة عمران ونفاق أسواق ، واحتفال بناء وتشيد منعة . وأمر باتخاذ الحمامات والمارستان ، وابتنى مسجداً جامعاً ، وشيد له مأذنة رفيعة ، فكان من أحفل مساجد الأمصار وأعظمها ، وسماها المنصورة ، واستبحر عمرانها ونفقت أسواقها^(١) ، ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق فكانت إحدى مدائن المغرب . وخرّبها آل يغمراسن عند مهلكه ، وارتحال كتائبه عنها ، بعد أن كان بنو عبد الواد أشرفوا على الهلاك ، وأذنوا بالانفراض كما نذكركه ، فتداركهم من لطف الله ما شأنه أن يتدارك المتورطين في المهالك ، والله غالب على أمره .

* (الخبر عن افتتاح بلاد مغراوة وما تخلل ذلك من الأحداث) *

لما أناخ السلطان على تلمسان وتغلب على ضواحي بني عبد الواد ، وافتتح أمصارهم ، سما إلى التغلب على ممالك مغراوة وبني توجين . وكان ثابت بن منديل قد وفد على السلطان بمقرّ ملكه من فاس سنة أربع وتسعين وستائة وأصهر إليه في حافدته ، فعقد له عليها . وهلك ثابت بمكان وفادته من دولتهم ، وأعرس السلطان بحافدته سنة ست وتسعين وستائة كما ذكرنا ذلك من قبل ، فلما تغلب السلطان على مال بني عبد الواد جهّز عساكره إلى بلاد مغراوة ، وعقد عليها لعلي بن محمد من عظماء بني ورتاجن ، فتغلبوا على الضواحي وشرّدوا مغراوة إلى رؤوس المعازل . واعتصم راشد بن محمد بن ثابت بن منديل صهر السلطان بمليانة فنازلوه بها . ثم استزلوه على الأمان تسع وتسعين وستائة فأوفدوه على السلطان ، فلقاه مبرّة وتكرمة ، وخلطه بجملته (لمكان) صهره معه . ثم افتتحوا مدينة تدلس^(٢) ومازونة وشرشال . وأعطى زيري بن حمّاد المتري على برشك من بلادهم يد الطاعة . وأوفد على السلطان للبيعة ، واستولوا على ضواحي شلف كلّها . ولاذت مغراوة بطاعة السلطان .

(١) وفي نسخة ثانية : وهالت اسواقها .

(٢) وفي نسخة ثانية : تنس .

وعقد عليهم وعلى جميع بلادهم لعمر بن وفرن بن منديل فأسف ذلك راشد بن محمد لما كان يراه لنفسه من الاختصاص . ولما كانت أخته حظية السلطان وكريمته ، وبافس عمر بن وفرن في إمارة قومه ، فلحق بجبال متيجة ، وأجلب على من هنالك من عمال السلطان وعساكره وانحاش إليه مرضى القلوب من قومه ، فاعصوبوا عليه . وداخلوا أهل مازونة فانتقضوا على السلطان وملكوه أمرهم في ربيع من المائة السابعة . ثم بئت عمر بن وفرن بمعسكره من أزمو ، فقتله واستباح المعسكر . وبلغ الخبر إلى السلطان ، فسرح العساكر من بني مرين وعقد لعلبي بن الحسن بن أبي الطلاق على قومه من بني عسكر ، ولعلبي بن محمد الخيري على قومه من بني ورتاجن ، وجعل الأمر شورى بينهما ، وأشرك معها علياً الحسائي من صنائع دولته ، وأبا بكر بن ابراهيم بن عبد القوي من أعياص بني توجين . وعقد على مغراوة محمد بن عمر بن منديل ، وأشركه معهم ، وزحفوا إلى راشد . ولما أحس بالعساكر لجأ إلى معقل بني بوسعيد فيمن معه من شيعة مغراوة . وأنزل بما زونة علياً وحموي بني عمه يحيى بن ثابت ، واستوصاهم بضبط البلد ، وأنه مشرف عليهم من الجبل . وجاءت عساكر السلطان إلى بلاد مغراوة فتغلبوا على البسائط وأناخوا بمازونة ، وضربوا معسكرهم بساحتها ، وأخذوا بمخنقتها ، واهتبل علي وقومه غرة في معسكر بني مرين فبيتهم سنة إحدى وسبعائة . وانفض المعسكر وتقبض على علي بن محمد الخيري ، ثم امتنعوا عليه وعاد المعسكر إلى مكانهم من حصارهم ، وجهدهم حالهم فترل إليهم حموي بن يحيى على حكم السلطان . وأنفذه إليه فتقبض عليه . ثم نزل علي ثانية من غير عهد ، فأشخصوه إلى السلطان فلقيه مبرةً وتكريماً ، تأنيساً الراشد المنتري بمقله . واقتحمت على أهلها عنوة سنة ثلاث وسبعائة فمات منهم عالم واحتملت رؤوسهم إلى سدة السلطان ، رؤسهم إلى سدة السلطان ، فرميت في حفائر البلد المحصور إرهاباً لهم وتخديلاً ، ولما عقد السلطان لأخيه أبي يحيى على بلاد الشرق وسرّحه لتدوين التخوم ، نازل راشد بمقله من بني بوسعيد ، فبيت راشد معسكرهم إحدى ليايله ، فانفضوا وقتل طائفة من بني مرين . ووجد السلطان لها قامر بقتل علي وحموي بني عمه يحيى ، ومن كان معتقلاً معها من قومها . ورفعوا على الجذوع وأثبتوهم بالسهام ، ونزل راشد بعدها عن مقله ولحق بمتيجة ، وانحاش إليه منيف بن ثابت ، وأوشاب من مغراوة وتحيز الآخرون إلى أميرهم محمد بن عمر بن منديل الذي عقد له السلطان

عليهم . ثم تأشبت على راشد ومنيف خوارج الثعالبه ومليكش ، وصمد إليهم الأمير
ابويحيى في عساكره ثانية ، ونازلهم بمعاقلهم ورجبوا في السلم ، فبذله السلطان لهم ،
وأجاز منيف بن ثابت إلى الأندلس فيمن إليه من بنيه وعشيرته ، فاستقروا بها آخر
الأيام . ولحق راشد ببلاد الموحدين ووفد محمد بن منديل سنة خمس وسبعائة على
السلطان ، فأوسعته حباً وتكريماً . وتمهدت بلاد مغراوة واستبدت بملكها السلطان ،
وصرف إليها العمال ، ولم يزل كذلك إلى أن هلك سنة ست وسبعائة والله تعالى
أعلم .

* (الخبر عن افتتاح بلاد توجين وما تخلل ذلك) *

لما نازل يوسف بن يعقوب تلمسان وأحاط بها ، وتغلب على بني عبد الواد ، وسما إلى
تملك بلاد توجين . وكان عثمان بن يغمراسن قد غلبهم على مواطنهم ، وملك جبل
وانشريس وتصرف في بني عبد القوي بالولاية والعزل وأخذ الأتاوة سنة إحدى
وسبعائة ، وأوعز إليه السلطان ببناء البطحاء التي هدمها محمد بن عبد القوي ، فبناها
وتوغل في قاصية المشرق ، ثم انكفاً راجعاً إلى حضرة أخيه وعطف على بلاد بني
توجين سنة اثنتين وسبعائة وفر بنو عبد القوي إلى ضواحيهم بالفقر ، ودخل إلى جبل
وانشريس وهدم حصونهم به ، ورجع إلى الحضرة . ثم بادر أهل تافركينت سنة
ثلاث وسبعائة بإيتاء طاعتهم^(١) . وانتقضوا طاعتهم بعدها . ثم بعث أهل المرية
بطاعتهم السلطان ، فتقبلها وأوعز ببناء قصبتها . وراجع بنو عبد القوي بعد ذلك
بصائرهم فدخلوا في طاعة السلطان ، ووفدوا عليه بمكانه من المنصورة مدينته المحيطة
على تلمسان سنة ثلاث وسبعائة فتقبل طاعتهم ورعى سابقتهم ، وأعادهم إلى
بلادهم وأقطعهم ، وولى عليهم علي بن الناصر بن عبد القوي ، وأوعز ببناء قصبة
المرية سنة أربع وكملت سنة خمس وسبعائة وهلك علي بن الناصر خلال ذلك ،
ففقدهم عليهم محمد بن عطية الأصم كما ذكرناه . فاستمر على الطاعة ، ثم انتقض سنة
ست وسبعائة وحمل قومه على الخلاف ، وانتبذوا عن الوطن إلى أن هلك يوسف بن
يعقوب كما نذكره إن شاء الله تعالى ، والله تعالى أعلم .

(١) وفي نسخة ثانية : باتيان الطاعة .

* (الخبر عن مراسلة الموحدين ملوك افريقية بتونس وبجاية
لزناتة وأحوالهم معهم) *

كان لبني أبي حفص ملوك أفريقية مع زناتة هؤلاء أهل المغرب من بني مرين وبني عبد الواد سوابق مذكورة ، فكان لهم على يغمراسن وبنيه طاعة معروفة يؤدّون بيعتها ويخطبون على منابرهم بدعوتها مذ تغلب الأمير أبني زكريا بن عبد الواحد على تلمسان . وعقده عليها ليغمراسن ، واستمرّ حالهم على ذلك . وكانت لهم أيضاً مع بني مرين ولاية وسابقة بما كان بنو مرين مذ أول أمرهم يخاطبون الأمير أبا زكريا ، وبيعثون له بيعة البلاد التي يتغلبون عليها ، مثل مكناسة والقصر ومراكش آخرأ . ثم صارت مخالصته من لدن عهد المستنصر ويعقوب بن عبد الحق . وكانوا يتحفونهم بالمال والهدايا في سبيل المدد على صاحب مراكش ، وقد ذكرنا السفارة التي وقعت بينهما سنة خمس وستين وستائة وأن يعقوب أوفد عامر بن إدريس وعبدالله بن كندوز ومحمد الكتاني ، وأوفد عليه المستنصر سنة سبع وستين وستائة بعدها كبير الموحدين يحيى بن صالح الهنتاتي في وفد من مشيخة الموحدين ، ومعهم هدية سنّية . ثم أوفد الواثق ابنه سنة تسع وسبعين قاضي بجاية المذكور أبا العباس أحمد الغماري ، وأسنى الهدية معه . ولم يزل الشأن بينهم هذا إلى أن افترق أمر آل أبي حفص . وطار الأمير أبو زكريا بابن الأمير أبي اسحق بن يحيى بن عبد الواحد من عشه بتلمسان في وكر عثمان بن يغمراسن ، وأسف إلى بجاية فاستولى عليها سنة ثلاث وثمانين وستائة ، واستضاف إليها قُسْنَطِينَة وبونة ، وصيرهما عملاً للملكه ، ونصب لها كرسيّاً لأمره ، وأسف عثمان بن يغمراسن لفراره من بلده لما كان عليه من التمسك بدعوة عمّه أبي حفص صاحب تونس ، فشقّ ذلك عليه ونكره ، واستمرّت الحال على ذلك . ولما نزل السلطان يوسف بن يعقوب بمخفق تلمسان وأرسي قواعد ملكه بساحتها ، وسرح عساكره لالتحام الأمصار والجهات ، وتوجّس الموحّدون الخيفة منه على أوطانهم . وكان الأمير أبو زكريا في جهات تدلس محامياً عن حوزته وعمله . ووصله هنالك راشد بن محمد نازعاً عن السلطان أبي يعقوب . ثم طلعت العساكر على تلك الجهات في اتباعه ، فرحف إليه عسكر الموحدين سنة تسع وتسعين وستائة بناحية

جبل الزاب ، ففضّوا جمعه وأوقعوا به واستلحموا جنوده ، واستمرّ القتل فيهم ، وبقيت عظامهم ماثلة بمصارعهم سنين .

ورجع الأمير أبو زكريا إلى بجاية فانحصر بها وهلك على تفيئة ذلك على رأس المائة السابعة . وقارن ذلك مغاضبة بينه وبين أمير الزاودة لعهد عثمان بن سباع بن يحيى ابن دُرَيْد بن مسعود البلط ، فوفد على السلطان أخريات إحدى وسبعائة ، ورغبه في ملك بجاية . واستمدّه للسير إليها ، فأوعز إلى أخيه الأمير أبي يحيى بمكانه من منازل مغراوة ومليكش والثعالب ، بأن ينهض إلى أعمال الموحدّين . وسار عثمان بن سباع وقومه بين يدي العساكر يتقصّون الطريق إلى أن تجاوز الأمير أبو يحيى بعساكره بجاية ، واحتل بتكرارات من أوطان سدويكش من أعمال بجاية . وأطلّ على بلاد سدويكش وانكفأ راجعاً ، فأوطأ عساكره ساحة بجاية وبها الأمير خالد بن يحيى ، وناشبهم القتال بعض أيام ، جلا فيها أولياء السلطان أبي البقاء عن أنفسهم وسلطانهم . وأمر بروض السلطان المسمّى بالبديع فخرّبه ، وكان من آتق الرياض وأحفلها . وقفل إلى مكانه من تدويخ البلاد ، وأعرض عن أعمال الموحدّين . وكان صاحب تونس لذلك العهد محمد بن المستنصر الملقّب بأبي عصيدة بن يحيى 'لوائق' ، فأوفد على السلطان شيخ الموحدّين بدولته محمد بن أكمازير عاقداً أسباب الولاية ، ومحكماً مذاهب الوصلة ، ومقرراً سوابق السلف . فوفد في مشيخة من قومه لشعبان سنة ثلاث وسبعائة . وناغاه الأمير أبو البقاء خالد صاحب بجاية ، وأوفد مشيخة من أهل دولته كذلك . وبرّ السلطان وفادتهم وأحسن منقلبهم .

ثم عاد ابن أكمازير سنة أربع وسبعائة ، ومعه شيخ الموحدّين وصاحب السلطان أبو عبدالله بن يزريكن في وفد من عطاء الموحدّين ، وأوفد صاحب بجاية حاجبه أبا محمد الرخامي ، وشيخ الموحدّين بدولته عياد بن سعيد بن عثيمين . ووفدوا جميعاً على السلطان ثالث جمادى ، فأحسن السلطان في تكريمهم ما شاء ، ووصلهم إلى نفسه بمساكن داره واراهاهم أريكة^(١) ملكه وأطافهم قصوره ورياضه بعد أن فرشت ونمّقت ، فلاّ قلوبهم جلالاً وعظمةً ، ثم بعثهم إلى المغرب ليظفروا على قصور الملك بفاس ومراكش ، ويشاهدوا آثار سلفهم ، وأوعز إلى عمّال المغرب بالاستبلاغ في .

(١) وفي نسخة ثانية : أبهة .

تكرمتهم واتحافهم ، فانتهاوا من ذلك إلى الغاية ، وانقلبوا إلى حضرته آخر جهادى ، وانصرفوا إلى ملكهم^(١) بالحديث عن شأن رسالتهم وكرامة وفدهم .

ثم أعاد ملوكهم مراسلة السلطان سنة خمس وسبعائة بعدها ، فوفد أبو عبدالله بن أكازير من تونس وعياد بن سعيد من بجاية . وأوفد السلطان على صاحب تونس مع رسوله صاحب الفتيا بحضرته الفقيه أبا الحسن التونسي^(٢) وعليّ بن يحيى البركشي رسولين يسألان المدد بأسطوله ، فقضوا رسالتهم وانقلبوا سنة خمس وسبعائة . ووصل بخبرها أبو عبدالله المزدوري من مشيخة الموحدين ، واقرن بذلك وصول حسّون بن محمد بن حسّون المكناسي من صنائع السلطان . كما أوفده مع ابن عثيمين على مراسلة الأمير أبي البقاء خالد صاحب بجاية في طلب الأسطول أيضاً ، فرجعوه بالمعاذير . وأوفدوا معه عبدالله بن عبد الحق بن سليمان فتلّقاهم السلطان بالمبرة ، وأوعز إلى عامله بوهّران أن يستبلغ في تكريم عمرة الأسطول ، فجرى في ذلك على مذهبه وانقلبوا جميعاً أحسن منقلب . وغنى السلطان عن أسطولهم لفوات وقت الحاجة إليه من منازل بلاد السواحل إذ كان قد تملكها أيام مما طلبتهم ببيعته . واتصل الخبر بصاحب تلمسان الأمير أبي زيان بن عثمان الملباع أيام الحصار عند مهلك أبيه عثمان بن يغمراسن آخر سنة ثلاث وسبعائة فبلغه صنع الموحدين في موالاة عدوه السلطان يوسف بن يعقوب ومظاهرته بأساطيلهم عليه ، فأسفهم ذلك وأخرسوا منابرهم عما كانت تنطق به من الدعاء من عهد يغمراسن ، فلم يراجعوا دعوتهم من بعد ، وهلك السلطان على نفيثة ذلك ، والبقاء لله وحده .

الخبر عن مراسلة ملوك المشرق الأقصى ومهاداتهم ووقادة أمراء الترك على السلطان وما تخلل ذلك

لما استولى السلطان على المغرب الأوسط بمالكة وأعماله ، وهنأته ملوك الأقطار وأعراب الضواحي والقفار ، وصلحت السابلة ومشيت الرفاق إلى الآفاق ، واستجد أهل المغرب عزماً في قضاء فرضهم ، ورغبوا من السلطان إذنه لركب الحاج في السفر إلى

(١) وفي نسخة ثانية : ملوكهم .

(٢) وفي نسخة ثانية : التنسي .

مكة ، فقد كان عهدهم يمثلها الفساد السالبة واستهجان الدول . فبينما السلطان في ذلك آمل اذ داخله الحرم الله وروضة نبيه صلى الله عليه وسلم شوق ، فأمر بانتساخ مصحف رائق الصنعة ، كتبه ونمقه أحمد بن الحسن الكاتب المحسن ، واستوسع في جرمه وعمل غشاه من بديع الصنعة ، واستكثر فيه من معالق الذهب المنظم بخرزات الدر والياقوت ، وجعلت منها حصاة وسط المعلق تفوق الحصيات مقداراً وشكلاً وحسناً ، واستكثر من الأصونة عليه ووقفه على الحرم الشريف ، وبعث به مع الحاج سنة ثلاث وسبعائة وعني بشأن هذا الركب ، فسرّح معهم حامية من زناة تناهز خمسمائة من الأبطال ، وقلّد القضاء عليهم محمد بن رغبوش من أعلام أهل المغرب ، وخطب صاحب الديار المصرية واستوصاه بحاج المغرب من أهل مملكته ، وأتحفه بهدية من طرف بلاده استكثر فيها من الخيل العراب والمطايا الفارهة ، يقال إنّ المطايا كانت منها أربعمائة حدثني بذلك من لقيته إلى ما يناسب ذلك من طرف المغرب وما عونه . ونهجه بها السبيل للحاج من أهل المغرب ، فأجمعوا الحج سنة أربع وسبعائة بعدها وعقد السلطان على دلالتهم لأبي زيد الغفاريّ ، وفصلوا من تلمسان لشهر ربيع الأول .

وفي شهر ربيع الآخر بعده كان مقدم الحاج الأولين حملة المصحف ووفد معهم على السلطان الشريف لبيدة بن أبي نمي نازعا عن سلطان الترك لما كان تقبض على اخويه حميضة ورميثة اثر مهلك أبيهم أبي نمي صاحب مكة سنة إحدى وسبعائة ، فاستبلغ السلطان في تكريمه وسرّحه إلى المغرب ليجول في أقطاره ، ويطوف على معالم الملك وقصوره ، وأوعز إلى العمال بتكريمه واتحافه على شاكلته . ورجع إلى حضرة السلطان سنة خمس وسبعائة وفصل منها إلى المشرق ، وصحبه من أعلام المغرب أبو عبدالله موري^(١) حاجاً ، ولشعبان من سنة خمس وسبعائة وصل أبو زيد الغفاري دليل ركب الحاج الآخرين ، ومعه بيعة الشرفاء أهل مكة للسلطان ، لما اسفهم صاحب مصر بالتقبض على إخوانهم ، وكان شأنهم ذلك متى غاظهم السلطان . فقد سبق في أخبار المستنصر بن أبي حفص مثلها ، وأهدوا إلى السلطان ثوباً من كسوة البيت شغف به ، واتخذ منه ثوباً للباسه في الجمع والأعياد يستبطنه بين ثيابه تبركاً

(١) وفي نسخة ثانية : أبو عبدالله فوزي .

به ، ولما وصلت هدية السلطان إلى صاحب مصر لعهدده الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى حسن موقعها لديه ، وذهب إلى المكافأة ، فجمع من طرف بلاده من الثياب والحيوان ما يستغرب جنسه وشكله ، من نوع الفيل والزرافة ، وأوفد بها من عظماء دولته الأمير اليليلى^(١) وفصل من القاهرة أخريات سنة خمس وسبعائة ووصلت إلى تونس في ربيع من سنة ست وسبعائة بعدها . ثم كان وصولها إلى سدة السلطان بالمنصورة من البلد الحديد في جمادى الآخرة ، واهتز السلطان لقدموها وأركب الناس إلى لقاءها ، واحتفل للقاء هذا الأمير اليليلى ومن معه من أمراء الترك ، وبر وفادتهم ، واستبلى في تكريمهم نزلاً وقرى ، وبعثهم إلى المغرب على العادة في مبرة أمثالهم ، وهلك السلطان خلال ذلك وتقبل أبو ثابت سنة من بعده في تكريمهم ، فأحسن منقلبهم وملاء حقائبهم صلة ، وفصلوا من المغرب لذي الحجة سنة سبع وسبعائة ولما انتهوا إلى بلاد بني حسن في ربيع من سنة ثمان وسبعائة اعترضهم الأعراب بالقفر فانتبهوهم وخلصوا إلى مصر بجزيرة الزمن^(٢) . فلم يعاودوا بعدها إلى المغرب سفيراً ولا لفتوا إليه وجهاً . وطالما أوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يؤبه له ، ويهادونهم ويكافئون ولا يزيدون في ذلك كله على الخطاب شيئاً ، وكان الناس لعهدهم ذلك يتهمون أن الذين نهوهم أعراب حصين بدسيسة من صاحب تلمسان أبي حمو لعهدهم ، منافسة لصاحب المغرب لما بينهم من العداوات والأحن القديمة .

(أخبرني) شيخنا محمد بن ابراهيم الأبلّي قال : حضرت بين يدي السلطان وقد فصله بعض الحاج من أهل بلده مستصحباً كتاب الملك الناصر بالعتاب عن شأن هؤلاء الأمراء ، وما أصابهم في طريقهم من بلاده ، وأهدى له مع ذلك كوبين من دهن البلسان المختص ببلدهم ، وخمسة ممالك من الترك رماة بخمسة أقواس من قسي الغز المؤنقة الصنعة من العرى والعقب ، فاستقل السلطان هديته تلك بالنسبة إلى ما أهدوا إلى ملك المغرب ، ثم استدعى القاضي محمد بن هدية ، وكان يكتب عنه فقال له : اكتب الآن إلى الملك الناصر كما أقول لك ، ولا تحرف كلمة عن موضعها إلا ما تقتضيه صناعة الإعراب ، وقل له : أما عتابك عن شأن الرسل وما أصابهم

(١) وفي نسخة أخرى : التليلي .

(٢) وفي نسخة أخرى : بجزيرة الذقن .

في طريقهم فقد حضروا عندي وأبنت لهم الاستعجال حذراً مما أصابهم ، وأريتهم مخاوف بلادنا وما فيها من غوائل الأعراب ، فكان جوابهم أننا جئنا من عند ملك المغرب فكيف نخاف مغترين بشأنهم يحسبون أن أمره نافذ في أعراب قلاتنا^(١) . وأما الهدية فتردّ عليك ، أمّا دهن البلسان فنحن قوم بادية لا نعرف إلا الزيت وحسبنا به دهنًا . وأمّا الممالك الرماة فقد افتتحنا بهم إشبيلية وصرفناهم إليك لتستفتح بهم بغداد والسلام . قال لي شيخنا وكان الناس إذ ذاك لا يشكّون أن انتهاهم كان باذن منه . وكان هذا الكتاب دليلاً على ما في نفسه . وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون .

الخبر عن انتقاض ابن الأحمر واستيلاء الرئيس سعيد على سبتة وخروج عثمان بن العلاء في غمارة

لما أحكم السلطان عقد المهادنة والولاية مع السلطان ابن الأحمر المعروف بالفقيه ، عند إجازته إليه بطنجة سنة إثنين وتسعين وسبعمائة كما ذكرناه ، وفرغ لعدوّه تمسك ابن الأحمر بولايته تلك إلى أن هلك سنة إحدى وسبعمائة في شهر شعبان منه . وقام بالأمر الأندلسي من بعده ابنه محمد المعروف بالمخلوع . واستبدّ عليه كاتبه أبو عبدالله بن الحكيم من مشايخ رندة ، كان اصطفاه لكتابته أيام أبيه . فاقطع بأموره وغلب عليه . وكان هذا السلطان المخلوع ضرير البصر ويقال إنه ابن الحكيم ، فغلب عليه واستبدّ إلى أن قتلها أخوه أبو الجيوش نصر سنة ثمان وسبعمائة كما نذكره ، وكان من أوّل آرائه عند استيلائه على الأمر من بعد أبيه المبادرة إلى إحكام ولاية السلطان ، واتصال يده بيده ، فأوفد إليه لحن ولايته وزير أبيه السلطان أبي عزيز الداني ، ووزيره الكاتب أبا عبدالله بن الحكيم ، فوصلا إلى^(٢) السلطان بمعسكره من حصار تلمسان وتلقّاهما بالقبول والمبرة ، وجلّدت له أحكام الودّ والولاية ، وانقلبا إلى مرسلها خير منقلب . وتقدّم السلطان إليهم في المدد برجل الأندلس وناشبتهم المعودين منازل الحصون والمناغرة بالرباط ، فتبادروا إلى إسعافه ، وبعثوا حصّتهم لحن مرجعهم إلى سلطانهم ، فوصلت سنة إثنين وسبعمائة . وكانت لهم نكاية في العدو وأثر

(١) وفي نسخة أخرى : في أعراب قبالنا .

(٢) وفي نسخة ثانية : فوفدوا على السلطان .

البلد المخروب. ثم بدا لمحمد بن الأحمر المخلوع في ولاية السلطان لمنافسات جرت إلى ذلك. وبعث إلى أدفونش هرائدة بن شانجة، وأحكم له عقد السلم ولاطفة في الولاية، فانعقد ذلك بينهما سنة ثلاث وسبعائة واتصل خبره بالسلطان فسخطه ورجع إليهم حصتهم آخر سنة ثلاث وسبعائة، واتصل خبره بالسلطان لسنة من مقدمهم بعد أن أبلوا وأنحنوا، وطوى لهم على النث واعتمل ابن الأحمر وشيعته في الاستعداد لمداغة السلطان والارصاد لسطوته بهم. وأوعز إلى صاحب مالقة ابن عمه الرئيس أبي سعيد فرج بن اسمعيل بن محمد بن نصر، وليه من دون القرابة بما كان له من الصهر على أخته، والمضطلع له بثغر الغريبة، فأوعز إليه بمداخلة أهل سبتة في خلع طاعة السلطان والقبض على ابن العزفي، والرجوع إلى ولاية ابن الأحمر. وكان أهل سبتة منذ هلك إبراهيم الفقيه أبو القاسم العزفي سنة سبع وسبعين وستائة قام بأمرهم ولده أبو حاتم. وكان أبو طالب رديفاً له في الأمر إلا أنه استبد عليه بصاغيته إلى الرياسة، وإيثار أبي حاتم للخموم مع إيجابه حق أخيه الأكبر، واجابته الداعي من دون دفع^(١) إليه فاستقام أمرهما مدة. وكان من سياستهما من أول أمرهما، الأخذ بدعوة السلطان فيما لنظرهما، والعمل بطاعته والتجافي عن السكني بقصور الملك والتحرّج من أئمة السلطان لمكانهم، فأنزلوا بالقصبة عبدالله بن مخلص قائداً من البيوتات اصطنعوه وجعلوا إليه أحكام البلد، وضبط الحامية له فاضطلع بذلك سنين. ثم اسفه يحيى بن أبي طالب ببعض التمرغات الرياسية وحجر عليه الأحكام في ذويه. ثم أغرى به أباه وطالبه، بحساب الخرج لعطاء الحامية وغفلوا عما وراءها من التظن فيه والريبة به ثقة بمكانه واستنامة إليه. وهم مع ذلك على أولهم في موالاة السلطان والأخذ بدعوته والوفود عليه في أوقاته. ولما فسدت ولاية ابن الأحمر للسلطان وعقد على محاولة سبتة وجدّ السبيل إلى ذلك بما طوى صاحب الأحكام بالقصبة على النث، فداخله الرئيس أبو سعيد صاحب الثغر بمالقة جاره بسبتة، ووعده الغدر ببني العزفي وأن يصحبهم في أساطيله، فشرع الرئيس أبو سعيد في إنشاء الأساطيل البحرية، واستتفر الناس للمثاغرة، وأنّ العدو لمالقة بالمرصاد، وشحنها بالفرسان والرجل والناشبة والأقوات، وأخفى وجه قصده عن الناس، حتى إذا

(١) وفي نسخة ثانية: متى روقع إليه.

فلعت أساطيله بيت سبتة لسبع وعشرين من شوال سنة خمس وسبعائة وأرسي بساحتها الموعد صاحب القصبة ، فأدخله إلى حصنه فلكه ، ونشر راياته بأسوارها ، وسرب جيوشه إلى البلد فتسايولوا وركب إلى دور بني العزفي فتقبض عليهم ، وعلى والدهم وحاشيتهم . وطير الخبر إلى السلطان بغرناطة ، فوصل الوزير أبو عبدالله بن الحكيم ، ونادى في الناس بالأمان ، وبسط المعدلة ، وأركب ابن العزفي السفن إلى مالقة . ثم أجازوا غرناطة وقدموا على ابن الأحمر ، فأجل قدمهم وأركب الناس إلى لقائهم ، وجلس لهم جلوساً فخماً حتى أدوا بيعتهم وقضوا وفادتهم ، وأنزلوا بالقصور وأجريت عليهم سنية الأرزاق . واستقروا بالأندلس إلى أن صاروا بعد إلى المغرب كما نذكر واستبد الرئيس أبو سعيد بامر سبتة وثقف أطرافها وسد ثغورها ، وأقام دعوة ابن عمه صاحب الأندلس بأنحائها . وكان عثمان بن أبي العلاء بن عبدالله بن عبد الحق من أعياص الملك المريني أجاز معه البحر إليها أميراً على الغزاة بمالقة ، وقائداً لعصبتهم تحت لوائه . فوّه بنصبه للملك بالمغرب . وخاطب قبائل غمارة في ذلك ، فوقفوا بين الإقدام والإحجام واتصل ذلك كله بالسلطان وهو بمعسكره من حصار تلمسان ، فاستشاط لها غيظاً وحمي أنفه نفرةً ، واستنفره الصريح ، فبعث ابنه الأمير أبا سالم لسد تلك الفرجة ، وجمع إليه العساكر وتقدم إليه باحتشاد قبائل الريف وبلاد تازي ، فأغذ السير إليها وأحاطت عساكره بها ، فحاصرها مدة . ثم بيته عثمان بن أبي العلاء فاختل معسكره ، وأفرج عنها منهزماً ، فسخطه السلطان وذوى عنه وجهه رضاه ، وسار عثمان بن أبي العلاء في نواحي سبتة ، وبلاد غمارة ، وتغلب على تكيساس ، وانتهى إلى قصر ابن عبد الكريم في آخر سنة ست وسبعائة لسنة من استيلائهم على سبتة ، مقيماً رسم السلطان منادياً بالدعاء لنفسه ، فاعتزم السلطان على النهوض إليه من أمر تلمسان ، لما كانت على شفا هلكة ومحايينة انفضاض ، لولا عوائق الأقدار بمهلكه ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن انتقاض بني كمي من بني عبد الواد وخروجهم بأرض السوس) *

كان هؤلاء الرهط من بني عبد الواد من بطون بني علي من شعب أبي القاسم ،

وكانوا يرجعون في رياستهم إلى كندوز بن^(١) بن كمي ولما استقل زيان برياسة أولاد علي بن ثابت بن محمد من أولاد طاع الله ، ونفس عليه كندوز هذا ما آناه الله من الرياسة ، وجاذبه حبها ، واحتقر زيان شأنه فلم يحفل به . ثم تأشب عليه أخلاط من قومه وواضعه الحرب^(٢) . وهلك زيان بيد كندوز ، وقام بأمر أولاد علي جابر بن يوسف بن محمد . ثم تناقلت الرياسة فيهم إلى أن عادت لولد ثابت بن محمد ، واستقل بها أبو عزة زكرار^(٣) بن زيان ولم تطل أيامه . والتحم بين أولاد كمي وبين أولاد طاع الله ، وتناسوا الإحن ، وصارت رياسة طاع الله لولد يغمراسن بن زيان ، واستتبعا قبائل عبد الواد كافة ، واعتمل يغمراسن في الثار بأبيه زيان من قتله كندوز ، فاغتاله بيته ، دعاه لمأدبة جميع لها بني أبيه ، حتى اذا اطمأن المجلس تعاوروه بأسيا فهم واحتروا رأسه ، وبعثوا به إلى أمهم ، فنصبت عليه القدر ثالث أئافها تشفياً منه وحفيظة . وطالب يغمراسن بقيّة بني كندوز ففرّوا أمام مطالبته ، وأبعدوا المذهب ولحقوا بالأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص ، فأقاموا بسدّته أحوالاً ، وكانوا يرجعون في رياستهم لعبد الله بن كندوز ، ثم تذكروا عهد البداوة وحنّوا إلى عشير زنّانة ، فراجعوا المغرب ولحقوا ببني مريّن أقتلهم . ونزل عبد الله بن كندوز على يعقوب بن عبد الحق خير نزل ، فلقاه من البرّ والترحيب بماء صدره وأكد اغتباطه ، وأقطعته بناحية مراکش الكفاية له ولقومه ، وأنزلهم هنالك . وجعل انتجاع إبله وراحلته لحسان بن أبي سعيد الصبيحي وأخيه موسى من ذويهم وحاشيتهم ، وألطف منزلة عبد الله ورفع مكانه بمجلسه ، واكتفى به في كثير من أموره ، وأوفده على المستنصر صاحب أفريقية سنة خمس وستين وستائة مع عامر ابن أخيه إدريس كما قدّمناه . واستقرّ بنو كندوز هؤلاء بالمغرب الأقصى ، واستمرت الأيام على ذلك ، وصاروا من جملة قبائل بني مريّن وفي عدادهم . وهلك عبد الله بن كندوز وصارت رياستهم لعمر ابنه من بعده .

ولما لفت السلطان يوسف بن يعقوب عزائمّه إلى بني عبد الواد ونازل تلمسان ، وطاول حصارها ، واستطال بنو مريّن وذوهم على بني عبد الواد ، وأحسّوا بهم أخذتهم

(١) بياض بالأصل ولم نجد في المراجع التي بين أيدينا أي ذكر لوالد كندوز هذا .

(٢) وفي نسخة ثانية : ناشب عليه أخلاط من قومهم . وواضعهم الحرب .

(٣) وفي نسخة ثانية : زكدان .

العزة بالإثم ، وأدركتهم النعرة ، فأجمع بنو كندوز هؤلاء الخلاف والخروج على السلطان ولحقوا بحاجة سنة ثلاث وسبعائة . واحتفل الأمير بمراكش يعيش بن يعقوب لغزوهم سنة أربع وسبعائة ، فناجزوه الحرب بتادرت ، واستمروا على خلافهم . ثم قاتلهم يعيش وعساكره ثانية بتامطريت سنة أربع وسبعائة فهزمهم الهزيمة الكبرى التي قصّت جناحهم وأوهت من رياستهم ^(١) . وقتل جماعة من بني عبد الواد بأزعار وتاكما ^(٢) ، وأثنى يعيش بن يعقوب في بلاد السوس ، وهدم تارودانت قاعدة أرضها وأمّ قراها ، كان بها عبد الرحمن بن الحسن بن يدرّ من بقية الأمراء على السوس من قبل بني عبد المؤمن ، وقد مرّ ذكرهم . وكانت بينه وبين عرب المعقل من الشبانات وبني حسان منذ انقضت دولة الموحّدين حرب سجال هلك في بعضها عمه عليّ بن يدرّ سنة ثمان وستين وستائة وصارت إمارته بعد حين إلى عبد الرحمن هذا ، ولم يزلوا في حربه إلى أن تملك السوس يعيش بن يعقوب ، وهدم تارودانت قاعدة أرضها . ثم راجع عبد الرحمن أمره وبنى بلده تارودانت هذه سنة ست بعدها . ويزعم بنو يدرّ هؤلاء أنهم مستقرونّ بذلك القصر من لدن عهد الطوالع من العرب ، وأنهم لم يزلوا أمراء به تعقد لهم ولايته كابراً عن كابر ، ولقد أدركت على عهد السلطان أبي عنان وأخيه أبي سالم من بعده شيخاً كبيراً من ولد عبد الرحمن ، فحدثني بمثل ذلك ، وأنهم من ولد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، والله أعلم . ولم يزل بنو كندوز مشرّدين بصحراء السوس إلى أن هلك السلطان ، وراجعوا طاعة الملوك من بني مرين من بعده وعفوا لهم عما سلف من هذه الجريمة ، وأعادوهم إلى مكانهم من الولاية ، فأمحضوا النصيحة والمخالصة إلى هذا العهد كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن مهلك المشيخة من المصامدة بتلبليس
أبي الملياني) *

قد ذكرنا شأن أبي علي الملياني وأوليته في أخبار مغراوة الثانية ، وما كان من ثورته

(١) وفي نسخة ثانية : وأوهنت بأسهم

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : بارعارن بامكا .

بمليانة وانتزائه عليها . ثم إزعاج العسكر إياه منها ولحاقه بـيعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين ، وما أحله من مراتب التكرمة والمبرة . وأقطعه بلد أغمات طعمة ، فاستقر بها ، وما كان منه في العبث بأشلاء الموحدين ونبش أجداثهم ، وموجدة السلطان والناس عليه لذلك . وأرصد له المصامدة الغوائل لما كان منه في ذلك ، ولما هلك يعقوب بن عبد الحق استعمله يوسف بن يعقوب على جباية المصامدة ، فلم يضطلع بها وسعى به مشيختهم عند السلطان أنه احتجز المال لنفسه ، وحاسبوه فصدقوه السعاية ، فاعتقله السلطان وأقصاه ، وهلك سنة ست وثمانين وستائة واصطنع السلطان أحمد ابن أخيه واستعمله في كتابته ، وأقام على ذلك بياحه وفي جملته . وكان السلطان سخط على مشيخة المصامدة علي بن محمد كبير هتاتة ، وعبد الكريم بن عيسى كبير كدموية ، وأوعز إلى ابنه الأمير علي بمراكش باعتقالهما ، فاعتقلهما فيمن لهما من الولد والجاشية . وأحسن بذلك أحمد بن الملياني فاستعجل الثأر . وكانت العلامة السلطانية على الكتاب في الدولة لم تختص بكتاب واحد ، بل كل منهم يضع العلامة بخطه على كتابه إذا أكمله ، لِمَا كانوا كلهم ثقاتاً أمناء ، وكانوا عند السلطان كأسنان المشط . فكتب أحمد بن الملياني إلى ابن السلطان الأمير بمراكش سنة سبع وتسعين وستائة كتاباً عن أمر أبيه ، يأمره فيه بقتل مشيخة المصامدة ولا يمهلهم طرفة عين . ووضع عليها العلامة التي تنفذ بها الأوامر ، وختم الكتاب . وبعث به مع البريد ونجا بنفسه إلى البلد الجديد . وعجب الناس بشأنه . ولما وصل الكتاب إلى ابن السلطان بمراكش أخرج أولئك الرهط المعتقلين من المصامدة إلى مصارعهم ، وقتل علي بن محمد وولده ، وعبد الكريم بن عيسى وولده عيسى ، وعلي ومنصور وابن أخيه عبد العزيز . وطير الأمير وزيره إلى أبيه بالخبر فقتله لحينه حنقاً عليه ، وأنفذ البريد باعتقال ابنه ، وجرد على ابن الملياني ففقد ولحق بـتلمسان . ونزل على آل زيّان . ثم لحق من بعدها بالأندلس عند إفراج السلطان عنها في تلك السنة كما ذكرناه . وبها هلك . واقتصر السلطان من يومئذ في علامته على من يختاره من صناعته وثق بآمانته . وجعلها لذلك العهد لعبدالله بن أبي مدين خالسته المضطلع بأمور مملكته ، فاختصت من بعده لهذا العهد ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن رياسة اليهود بني رقاصة ومقتلهم) *

كان السلطان يعقوب^(١) في صباه مؤثراً للذاته ومستتراً بها عن أبيه يعقوب بن عبد الحق لمكانه من الدين والوقار. وكان يشرب الخمر ويعاقر بها الندمان. وكان خليفة بن رقاصة من اليهود المعاهدين بفاس قهرماناً لداره على عادة الأمراء في مثله من المعاهدين ، فكان يزدلف إليه بوجوه الخدم ومذاهبها ، فاستعمله هذا الأمير في اعتصارها والقيام على شؤونها ، فكانت له بذلك خلوة منه أوجبت له الحظّ عنده ، حتى إذا هلك يعقوب بن عبد الحق واستقلّ ابنه يوسف بأعباء ملكه ، واتصلت خلواته في معاقره الندمان ، وانفرد ابن رقاصة بخلوته ذلك مع ما كان من القهرمة ، عظمت رياسته وعلا كعبه في الدولة . وتلقى الخاصة الأوامر منه ، فصار له الوجه بينهم وعظم قدره بعظم الدولة .

(أخبرني) شيخني الأبلّي قال : وكان لخليفة هذا أخ يسمى ابراهيم ، وابن عم يسمى خليفة ، لقبوه بالصغيرة لمكانه هو من هذا الإسم . وكان له صهر يعرفون ببني السبتي ، كبيرهم موسى ، وكان رديفه في قهرمته ، فلم يفق السلطان من نشوة صباه وملهاه حتى وجدهم على حال استتبّعوا فيها العلية من القبيل والوزراء والشرفاء والعلماء . وأوجده السبيل عليهم ، فسطا بهم سطوة واحدة واعتقلوا في شعبان من سنة إحدى وسبعمئة بمعسكره من حصار تلمسان . وقتل خليفة الكبير وأخوه ابراهيم وموسى بن السبتي وإخوته بعد أن امتحنوا ومثّل بهم ، وأتت النكبة على حاشيتهم وذويهم وأقاربهم ، فلم تبق منهم باقية . واستبقى منهم خليفة الأصغر احتقاراً لشأنه ، حتى كان من قتله بعدما نذكر ، وعبث بسائرهم ، وطهرت الدولة من رجسهم ، وأزيل منها معرة رياستهم ، والأمور بيد الله سبحانه .

* (الخبر عن مهلك السلطان أبي يعقوب) *

كان في جملة السلطان وحاشيته مولى من العبيد الخصيان من موالى ابن الملياني يسمى

(١) حسب مقتضى السياق السلطان يوسف .

سعادة ، صار إلى السلطان من لدن استعماله إياه بمراكش ، وكان على ثبج من الجهل والغباوة . بمكان ، وكان السلطان يخلط الخصيان بأهله ويكشف لهم الحجاب عن ذوات محارمه ، ولما كانت واقعة العزّ مولاه ، واتهم بمدخلة بعض الحرم ، وقتل بالظنّة ، واستراب السلطان بكثير من حاشيته الملايسين لداره ، اعتقل جملة من الخصيان كان فيهم عنبر الكبير عريفهم . وحجب سائرهم فارتاعوا لذلك وسوّلت لهذا الخصيّ الخبيث نفسه الشيطانية الفتك بالسلطان ، فعمد إليه وهو في بعض الحجر من قصره ، وأذنه فأذن له فألفاه مستلقياً على فراشه مخضباً بالحناء ، فوثب عليه وطعنه طعنات قطع بها أمعاءه وخرج هارباً . وانطلق بعض الأولياء في أثره ، فأدرك من العشيّ بناحية تاسالة فتقبّض عليه ، وسيق إلى القصر فقتله العبيد والحاشية . وصابر السلطان ميتته إلى آخر النهار ، ثم قضى رحمه الله يوم الأربعاء سابع ذي القعدة من سنة ست وسبعائة وقبر هنالك . ثم نقل بعدما سكنت الهيعة إلى مقبرتهم بشالة ، فدفن بها مع سلفه والبقاء لله وحده .

* (الخبر عن ولاية السلطان أبي ثابت) *

واستلحاهم المرشحين وما تخلل ذلك من الاحداث

كان الأمير أبو عامر ابن السلطان أبي يعقوب وولي عهده لما هلك طريداً ببلاد بني سعيد بغارة والريف سنة ثمان وتسعين وستائة كما ذكرنا ، خلف ولديه عامراً وسليمان في كفالة السلطان جدّهما ، فكان لهما بعينه حلاوة وفي قلبه لوعة ، لمكان حبه لأبيهما واغترابه عنه ، فحذب عليهما وآثرهما من نفسه بمكان . وكان الأمير أبو ثابت عامر أصغر قومه ، إقداماً وشجاعةً وجراءةً ، وكانت له في بني ورتاجن خولة . فلحين مهلك السلطان عرضوا له ودعوه للبيعة فبايعوه ، وحضر لها الأمير أبو يحيى بن يعقوب عمّ أبيه ، عز بمجتمعهم^(١) اتفاقاً ، وحملوه على الطاعة ، وكان أقرب للأمر منه لو حضره رجال ، فأعطى القياد في المساعدة ، وطوى على النث . وبادر الحاشية والوزراء بالبلد الجديد عند مهلك السلطان ، فبايعوا ابنه الأمير أبا سالم . وكاد أمر بني

(١) وفي نسخة ثانية : عثر بمجتمعهم .

مرين أن يفترق وكلمتهم أن تفسد ، فبعث الأمير أبو ثابت لحينه إلى تلمسان للأمير أبي زيان وأبي حموي بني عثمان بن يغمراسن . وعقد لها حلفاً على الإفراج عنهم . ثم أمره أن يمدّه بالآلة ويرفعاً له كسر البيت إن كان غير ما أمل . وحضر للعقد أبو حمو فأحكمه ومال أكثر بني مرين وأهل الحل والعقد إلى الأمير أبي ثابت . وتفرّد ببيعة أبي سالم البطانة والوزراء والحاشية والأجناد ومن إليهم ، وكان بالبلد الحديد مسكنه ، وأشاروا عليه بالمناجزة فخرج وقد عبّى كتابه ، فوقف وتهبّب^(١) وخام عن اللقاء ووعدهم الإقدام بالغداة ، وكرّ راجعاً إلى قصره ، فيشسوا منه ، وتسَلَّلوا إذا إلى الأمير أبي ثابت ، وهو بمرقب من الجبل مطل عليهم حتى إذا انحجر أبو سالم بالبلد ، انحاش إليه الحملة دفعة واحدة . فلما استوفت القبائل والعساكر لديه ، زحف إلى البلد الحديد مثنى السلطان وسياج قصوره ومخطط عزمه ، وانتهى إلى ساحتها مغتتماً الفرصة . وخرج إليه أبو زيد^(٢) يخلف بن عمران الفودودي ، فأرجل عن فرسه بأمر أبي يحيى ، وقتل بين يديه قعصاً بالرمح . وكان قريب عهد بالوزارة ، استوزره السلطان قبيل مهلكه في شعبان من سنة ست وسبعائة .

وفّر أبو سالم إلى جهة المغرب وصحبه من عشيره من أولاد رحو بن عبدالله بن عبد الحق العباسي وعيسى وعلي إبن رحو وابن أخيه جمال الدين بن موسى . وأتبعهم الأمير أبو ثابت شرذمة من عسكره أدركوهم بندرومة ، فتقبضوا عليهم ونفذ أمر السلطان بقتل أبي سالم وجمال الدين ، واستبقى الآخرين . وأمر باحراق باب البلد ليفتحها العسكر ، فأطلّ عليهم قهرمان دارهم عبدالله بن أبي مدين الكاتب ، وأخبره بفرار أبي سالم ، وباتفاق الناس على طاعته . ورغب إليه في المسألة ليلتهم حتى ينفجر الصباح خشية على دارهم من معرة العساكر وهجومها ففعل . وأمره الأمير أبو يحيى باعتقال أبي الحجاج بن اشيقلولة ، فاعتقله لقديم من العداوة كانت بينهما ، ثم أمر بقتله ، وانفاذ رأسه فقتل . وأمر السلطان ليلتشد بإضرام النيران حتى إذا أضاء الظلام وبات راكباً ، ودخل القصر لصبحه فوارى جده بعد أن صلى عليه . وغصّ بمكان الأمير أبي يحيى لما تعدّد فيه الترشيح وفاوض في شأنه كبير القرابة يومئذ

(١) وفي نسخة ثانية : وهبت .

(٢) وفي نسخة ثانية : الوزير .

عبد الحق بن عثمان ابن الأمير أبي يفرن^(١) ، محمد بن عبد الحق ومن حضره من الوزراء مثل ابراهيم بن عبد الجليل الونكاسي و ابراهيم بن عيسى اليرنياني وغيرهما من الخاصة ، فأشاروا بقتله ، ونميت عنه كلمات في معنى التبرّص بالسلطان ودولته ، وابتغاء العصابة لأمره . وركب الأمير أبو يحيى إلى القصر ثالث البيعة ، فأخذ السلطان بيده ودخل معه إلى الحرم لغزائهنّ عن أخيه السلطان . ثم خرج على الخاصّة وتخلّف عنه السلطان وقد دسّ إلى عبد الحق بن عثمان أن يتقبّض عليه ففعل . ثم برز السلطان إليهم وهو موثق فأمر بالإجهاز عليه ، ولم يمهل ، وألحق به يومئذ وزيره عيسى بن موسى الفودودي ، وفشا الخبر بمهلك هؤلاء الرهط ، فرهب منه القرابة ، وفرّ يعيش بن يعقوب أخو السلطان وابنه عثمان المعروف بأُمّه قضينت^(٢) ومسعود بن الأمير أبي مالك ، والعبّاس بن رحوبن عبدالله بن عبد الحق ولحقوا جميعاً بعثمان بن أبي العلاء بمكانه من غمارة ، وخلا الجو من المرشحين ، واستبدّ السلطان بملك قومه ، وأمن غوائل المنازعين .

ولما تمّ له الأمر واستوسق أمر الملك ، وفيّ لبني عثمان بن يغمراسن بالإفراج عنهم ، ونزل لهم عن جميع البلاد التي صارت إلى طاعته من بلاد المغرب الأوسط من أعمالهم ، وأعمال بني توجين ومغراوة . ودعاه إلى بدار المغرب ، ما كان من اختلال عثمان بن أبي العلاء بن عبدالله بن عبد الحق بسبته ، ودعائه لنفسه بين يدي مهلك السلطان ، وخروجه إلى بلاد غمارة ، واستيلائه على قصر كتامة ، فاعتزم على الرحلة إلى المغرب وقوّض الأمر في الرحلة بأهل المدينة الجديدة للوزير ابراهيم بن عبد السلام لما كانت حينئذ غاصّة بالسّاكن مستبحرة في الاعتمار ، ممتلئة من الخرثي^(٣) والآلة ، فأحسن السياسة في أمرهم وضرب لهم الآجال والمواعيد إلى أن استوقوا الرحلة ، وتركوها قواء ، خرّبها بنو عثمان بن يغمراسن عند رحلة بني مرين إلى المغرب ، وتحيّنوا لذلك فترات الفتن ، فطمسوا معالمها طمساً ونسفوها نسفاً . وقُدّم السلطان بين يديه من قرابته الحسن بن عامر بن عبد الحق انعجون^(٤) في العساكر

(١) وفي نسخة ثانية : ابي معرّف .

(٢) وفي نسخة ثانية : قضيب .

(٣) وفي نسخة بولاق المصرية : من الخزائن .

(٤) وفي نسخة بولاق المصرية : انعجوب .

والجنود ، وعقد له على حرب ابن أبي العلاء . وتلّوم بالبلد الحديد لموافاة المسالّح التي كانت بثغور المشرق ، ولما نزل عنها جميعاً لبني عثمان بن يغمراسن ارتحل غرة ذي الحجة ، ودخل فاس فاتح سبع وسبعائة والله أعلم .

* (الخبر عن انتراء يوسف بن أبي عياد بمراكش وتغلّب السلطان عليه) *

لما فصل أبو ثابت عن معسكرهم بتلمسان إلى المغرب ، قدّم بين يديه من قرابته الحسن بن عامر بن عبد الحق انعجون ابن السلطان أبي يوسف في العساكر والجنود ، وعقد له على حرب عثمان بن أبي العلاء كما ذكرناه . وعقد على بلاد مراكش ونواحيها لابن عمه الآخر يوسف بن محمد بن أبي عياد بن عبد الحق ، وعهد له بالنظر في أحوالها ، فسار إليها واحتل بها . ثم حدّثته نفسه بالانتراء ، فقتل الوالي بمراكش ، واستركب واستلحق ، واتخذ الآلة ، وجاهر بالخلعان . وتقبّض على والي البلد فقتله بالسوط في جمادى سنة سبع وسبعائة ، ودعا لنفسه . واتصل الخبر بالسلطان لأوّل قدومه ، فسرح إليه وزيره يوسف بن عيسى بن السعود الجشميّ ، ويعقوب بن أصناك ، في خمسة آلاف من عساكره ، ودفعهم إلى حربته . وخرج في أثرهم بكتائبه . وبرز يوسف بن أبي عياد ، وأجازوا أم الربيع فانهزم أمام الوزير وعساكره واتبعه الوزير ففرّ إلى أغات . ثم فرّ إلى جبال هسكورة ، ولحق به موسى بن سعيد الصبيحي من أغات ، تدلّى من سورها ، ودخل الوزير يوسف إلى مراكش . ثم خرج إثره ولحقه ، فكانت بينهما جولة ، وقتل منهم خلق ، ولحق بهسكورة . ودخل السلطان أبو ثابت مراكش منتصف رجب من سنة سبع وسبعائة وأمر بقتل أوربة المداخلة كانوا له في انتراءه فاستلحموا . ولما لحق يوسف بن أبي عياد بجبال هسكورة ، ونزل على مخلوف بن عبّو ، وتذمّم بجواره ، فلم يجره على السلطان . وتقبّض عليه ، واقتاده إلى مراكش مع ثمانية من أصحابه تولوا كبر ذلك الأمر ، فقتلوا في مصرع واحد بعد أن مثل بهم السلطان بالسياط . وبعث برأس يوسف إلى فاس ، فنصب بسورها وأثنى القتل فيمن سواهم ممن داخله في الانتراء ، فاستلحم منهم أم بمراكش وأغات . وسخط خلال ذلك وزيره ابراهيم بن عبد الجليل

فاعتقله واعتقل عشيره من بني دولين ومن بني ونكاسن ، وقتل الحسن بن دولير منهم ، ثم عفا عنهم . وخرج منتصف شعبان إلى منازل السكسيوي وتدويخ جهات مراکش ، فتلّقاه السكسيوي بطاعته المعروفة . وأسنى الهدية فتقبل طاعته وخدمته . ثم سرح قائده يعقوب بن آصناد في اتباع زكّة حتى توغل في بلاد السوس ففرّوا أمامه إلى الرمال . وانقطع أثرهم ورجع إلى معسكر السلطان . وانكفأ السلطان بعساكره إلى مراکش ، فاحتل بها غرة رمضان . ثم قفل إلى فاس بعد أن قتل جماعة من شيوخ بني ورا . وجعل طريقه في بلاد صنهاجة ، وسار في بلاد تامسنا ، وتلقاه عرب جشم من قبائل الخلط وسفيان وبني جابر والعاصم ، فاستصحبهم إلى آفّى وتقبّض على ستين من أشياخهم ، فاستلحم منهم عشرين ممن نمي عنهم افساد السابلة . ودخل رباط الفتح أخريات رمضان فقتل هنالك من الأعراب أمة ممن يؤثر عنه الخرابة . ثم ارتحل منتصف شوال الغز ورياح أهل آزغار والهبط . واثار بالإحن القديمة ، فأثخن فيهم بالقتل والسبي وقفل إلى فاس ، فاحتلّ بها منتصف ذي القعدة . وفجأه الخبر بهزيمة عبد الحق بن عثمان ، واستلحام الروم من عساكره ، ومهلك عبد الواحد الفودودي من رجالات دولته . وأن عثمان بن أبي العلاء قد استفحل أمره بجهات غمارة ، فأجمع لغزوه ، والله أعلم

* (الخبر عن غزاة السلطان لمدافعة عثمان بن أبي العلاء ببلاد الهبط ومهلكه بطنجة بعد ظهوره) *

لما ملك الرئيس أبو سعيد فرج بن اسمعيل بن يوسف بن نصر سبنة سنة خمس وسبعمئة ، وأقام بها الدعوة لابن عمّه المخلوع محمد بن محمد الفقيه ابن محمد الشيخ ابن يوسف بن نصر كما ذكرناه ، وأجاز معه رئيس الغزاة المجاهدين بمحل إمارته من مالقة عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق من أعياص هذا البيت ، كان مرشحاً للملك فيهم . واستقدمه معه ليفرق به الكلمة في المغرب بفتنة الدولة مدافعة عن سبنة لما كان هاج السلطان قومه فأخذها^(١) واستقام ملكها . وطمع

(١) وفي نسخة بولاق المصرية : لما كانوا اهاجوا السلطان وقدمه بأخذها .

عثمان في ملك المغرب بامدادهم ومظاهرتهم ، وسوّلت له نفسه ذلك ، فخرج سبعة وولّى على جيش الغزاة بعده عمر ابن عمّه رحو بن عبدالله . ونجم هو ببلاد غمارة ، فدعا لنفسه وإجابته القبائل منهم . واحتلّ بحصن علودان من أمنع معاقلهم ، وبابعوه على الموت . ثم نهض إلى أصيلا والعريش فغلب عليها . واتصل ذلك كلّ بالسلطان الهالك أبي يعقوب فلم يحركه استهانة بأمرهم . وبعث ابنه أبا سالم بالعساكر ، فنازل سبعة أياماً . ثم أقلع عنها . وبعث بعده أخاه يعيش بن يعقوب وأنزله طنجة ، وجمّر معه الكتائب وجعلها ثغراً . وزحف إليه عثمان بن أبي العلاء فتأخّر عن طنجة إلى القصر . ثم اتبعه فخرج إليه أهل القصر فرساناً ورجالاً ورماة مع يعيش ، فوصلوا إلى وادي وراء ، ثم انهزموا إلى البلد . ومات عمر بن ياسين ، ونزل عثمان عليهم القصر يوماً ، ثم دخله من غده . ثم كان مهلك السلطان ، وفرّ يعيش بن يعقوب خيفة من أبي ثابت ، فلحق بعثمان بن أبي العلاء واستقام أمره بتلك الجهات برهة . وكان السلطان أبو ثابت لمّا احتل بالمغرب شغله ما كان من انتراء يوسف بن أبي عياد بمراكش كما قدّمناه ، فعقد على حرب عثمان بن أبي العلاء مكان عمّه يعيش بن يعقوب لعبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من رجال بيته ، فزحف إليه . ونهض عثمان إلى لقائه منتصف ذي الحجة سنة سبع وسبعائة فهزمه واستلحم من كان معه من جند الروم . وهلك في تلك الوقعة عبد الواحد الفودودي من رجالات السلطان المرشحين ردفاء الوزارة . وسار عثمان إلى قصر كتامة فنزله ، واستولى على جهاته . وعلى تفيئة ذلك كان رجوع السلطان من غمارة مراكش وقد حسم الداء ومحا أثر النفاق ، فاعتزم على الحركة إلى بلاد غمارة يمحونها أثر دعوة ابن أبي العلاء التي كادت تلج عليه ممالكه بالمغرب ، ويردّه على عقبه ويستخلص سبعة من يد ابن الأحمر لما صارت ركاباً لمن يروم الانتراء والخروج من القرابة والأعياص المستنفرين وراء البحر غزاة في سبيل الله ، فنهض من فاس منتصف ذي الحجة من سنة سبع وسبعائة ولما انتهى إلى قصر كتامة تلوم به ثلاثاً حتى توافت عساكره وحشوده ، وكمل اعتراضها وفرّ عثمان بن أبي العلاء أمامه ، وارتحل السلطان في اتباعه فنازل حصن علودان واقتحمه عنوة . واستلحم به زهاء أربعائة . ثم نازل بلد الدمنة ، واقتحمها وأثنى فيها قتلاً وسبيّاً لتسكهم بطاعة ابن أبي العلاء ومظاهرتهم له . ثم كبس القصر واستباحه . ثم ارتحل إلى طنجة واحتلّ بها غرة ثمان

وسبعائة وانحجر ابن أبي العلاء بسببة مع أوليائه وسرح السلطان عساكره ، ففترقت نواحي سببة بالاكتساح والغارة . وأمر باختطاط بلد تيطاوين لتزول معسكره والأخذ بمخنق سببة . وأوفد كبير الفقهاء بمجلسه أبا يحيى بن أبي الصبر إليهم في شأن التزول عن البلد . وفي خلال ذلك اعتل السلطان فرض وقضى أياماً قلائل وهلك في ثامن صفر من سنته ، ودفن بظاهر طنجة . ثم حمل شلوه بعد أيام إلى مدفن آبائه بشالة فووري هنالك . رحمة الله عليه وعليهم .

* (الخبر عن دولة السلطان أبي الربيع وما كان فيها من الاحداث) *

لما ملك السلطان أبو ثابت تصدى للقيام بالأمر عمه علي ابن السلطان أبي يعقوب المعروف بأمه رزيكة ، وخلص الملا من بني مرين أهل الحل والعقد إلى أخيه أبي الربيع فبايعوه . وتقبض على عمه علي بن رزيكة المستام للإمرة ، فاعتقله بطنجة إلى أن هلك بها سنة عشر وسبعائة لجمادى . وبث العطاء في الناس وأجزل وارتحل نحو فاس . واتبعه عثمان بن أبي العلاء في جيش كثيف ، وبيته وقد نذر به العسكر فأيقظوا ليلتهم ووافاهم على الظهر بساحة علودان ، فناجزهم الحرب . وكانت الدائرة على عثمان وقومه . وتقبض على ولده وكثير من عساكره . وأثنى أولياء السلطان فيهم بالقتل والسبي ، وكان الظهور الذي لا كفاء له . ووصل أبو يحيى بن أبي الصبر إلى الأندلس ، وقد أحكم عقدة الصلح . وقد كان ابن الأحمر جاء للقاء السلطان أبي ثابت ، ووصل إلى الجزيرة الخضراء فأدركه خبر مهلكه ، فتوقف عن الجواز ، وأجاز ابن أبي الصبر بأحكام المؤاخاة . واجتاز عثمان بن أبي العلاء إلى العدو فيمن معه من القراية . فلحق بغرناطة . وأغذ السلطان السير إلى حضرته ، فدخل فاس آخر ربيع من سنة ثمان وسبعائة واستقامت الأمور وتمهد الملك ، وعقد السلم مع صاحب تلمسان موسى بن عثمان بن يغمراسن ، وأقام وادعاً بحضرته . وكانت أيامه خير أيام ، هدنة وسكوناً وترفاً لأهل الدولة . وفي أيامه تغالى الناس في أثمان العقار ، فبلغت قيمتها فوق المعتاد . حتى لقد بيع كثير من الدور بفاس بألف دينار من الذهب العين . تنافس الناس في البناء فعالوا الصروح ، واتخذوا القصور المشيدة بالصخر والرخام

وزخرفوها بالزليج والنقوش . وتناغوا في لبس الحرير وركوب الفاره . وأكل الطيب واقتناء الحلى من الذهب والفضة . واستبحر العمران ، وظهرت الزينة والترف ، والسلطان وادع بداره متملى أريكته إلى أن هلك كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

* (الخبر عن مقتل عبدالله بن أبي مدين) *

كان أبو شعيب بن مخلوف من بني أبي عثمان من قبائل كتامة المجاورين للقصر الكبير ، وكان متحلاً للدين ومشتهراً به . ولما أجلب بنو مرين على المغرب وجالوا في بساطه ، وتغلبوا على ضواحيه ، سحب البر منهم البر والفاجر من أهله مثله . وكان بنو عبد الحق قد تميزوا لأبي شعيب هذا فيمن تميزوه للصحابة من أهل الدين ، فكان إمام صلاتهم . وكان يعقوب بن عبد الحق أشدهم صحابة له ، وأوفاهم به ذماماً فاتصل به حبله ، واتصلت^(١) صحابته ، وعظم في الدولة قدره وانبسط بين الناس جاه ولده وأقاربه وحاشيته . وربى بنو شعيب هذا عبدالله ومحمد المعروف بالحاج ، وأبو القاسم ومن بعدهم من إخوتهم بقصر كتامة في جو ذلك الجاه . وهلك السلطان يعقوب بن عبد الحق فاستخلصهم يوسف بن عبد الحق لخدمته ، واستعملهم على مختصات . ثم ترقى بهم في رتب خدمته وأخصائه ، درجة بعد أخرى إلى أن هلك أبوهم أبو مدين شعيب سنة سبع وتسعين وستائة وكان المقدم منهم عند السلطان عبدالله ، فاربى^(٢) على ثنيات الغز والوزارة والخلة والولاية . وتقدم لحظوته في مجلسه كل حظوة ، واختصه بوضع علامته على الرسائل والأوامر الصادرة عنه ، وجعل إليه حسابان الخراج والضرب على أيدي العمال ، وتنفيذ الأوامر بالقبض والبسط فيهم . واستخلصه لمناجاة الخلوات والافضاء بذات الصدور ، فوقف ببابه الإشراف من الخاصة والقبيل والقراية والولد ، وسودوه وخطبوا نائله . وكان عبدالله قد استعمل مع ذلك أخاه محمداً على جباية المصامدة بمراكش ، وهناً أبا القاسم

(١) وفي نسخة ثانية : استمرت .

(٢) وفي نسخة ثانية : فأوفى .

الدعة بفاس ، فأقام بها متملياً راحته عريضاً جاهه ، طاعماً كاسياً ، تَسَرَّب إليه أموال العمال في سبيل الاتحاف ، وتقف ببابه صدور الركائب إلى أن هلك السلطان أبو يوسف . ويقال إنَّ له خاتنة في دمه مع سعاية الملياني . ولما وَلِيَ من بعده أخوه أبو الربيع فتقبَّل فيه مذاهب سلفه . وكان بنو وقاصة اليهود حين نكبوا ، باشر نكبتهم لمكانه من إصدار الأوامر . ويزعمون أنَّ له فيهم سعاية . وكان خليفة الأصغر منهم قد استبقى كما ذكرناه ، فلما أفضى الأمر إلى السلطان أبي الربيع استعمل خليفة بداره في بعض المهن ، وبأشر^(١) الخدم حتى اتصل بمباشرة السلطان ، فجعل غايته السعاية بعبدالله بن أبي مَدِين . وكان يؤثر عن السلطان أبي الربيع بأنه لا تؤمن بوائقه مع حرم ذويه ، وتعرف خليفة ذلك من مقالات الناس ، فدنَّس إلى السلطان أنَّ عبدالله بن أبي مدين يعرض باتهام السلطان في ابنته ، وأن صدره وغر بذلك ، وأنه مترصد بالدولة . وكان يخشى العائلة بما كان عليه من مداخله القبيل ، ولما كان داعيته من دواعي آل يعقوب ، فتعجَّل السلطان دفع غائلته واستدعاه صبيحة زفاف ابنته ، زعموا عن زوجها فاستحثَّ قائد الروم من داره بفاس . ونذر بالشر ، فلم يغنه النذر ، ومرَّ في طريقه إلى دار السلطان بمقبرة أبي يحيى بن العربي ، فطعنه القائد هنالك من ورائه طعنة أكبته على ذقنه . واحترَّ رأسه وألقاه بين يدي السلطان . ودخل الوزير سلمان بن يرزيكن فوجده بين يديه ، فذهبت نفسه عليه وعلى مكانه من الدولة حسرةً واسفاً ، وأيقظ السلطان لمكر اليهودي ، فوقفه على براءة كان ابن أبي مَدِين بعثها للسلطان معه بالتنصّل والحلف ، فتيقَّظ وعلم مكر اليهودي به ، فندم وفتك لحينه بخليفة بن وقاصة وذويه من اليهود المتصدين للخدمة ، وسطا بهم سطوة الهلكة ، فأصبحوا مثلاً للآخرين ، والله أعلم .

* (الخبر عن ثورة أهل سبتة بالأندلسيين ومراجعتهم طاعة

السلطان) *

لما قفل السلطان أبو الربيع من غزاة سبتة بعد أن شرَّد عثمان بن أبي العلاء وأحجره

(١) وفي نسخة ثانية : ولايس .

بسبته ، وأجاز منها إلى العدو ومن كان معه من القرابة كما قلناه ، بلغه الخبر بضجر أهل سبته ، ومرض قلوبهم من ولاية الأندلسيين وسوء ملكتهم . ودس إليه بعض أشياعه بالبلد بمثل ذلك ، فأغزى صنيعته تاشفين بن يعقوب الوطاسي أخا وزيره في عساكر ضخمة من بني مرين . وسائر الطبقات من الجند . وأوعز إليه بالتقدم إلى سبته ومنازلتها ، فأغذ إليها السير ونزل بساحتها ، ولما أحس به أهل البلد تمشت رجالاتهم^(١) وتنادوا بشعارهم ، وثاروا على من كان بينهم من قواد ابن الأحمر وعماله وأخرجوا منها حاميته وجنوده . واقتحمها العساكر واحتل بقصبتها تاشفين بن يعقوب عاشر صفر من سنة تسع وسبعائة . وطير الفوائق بالخبر إلى السلطان فعم السرور وعظم شأن الفرح . وتقبض على قائد القصة أبي زكريا يحيى بن مليلة ، وعلى قائد البحر أبي الحسن بن كماشة ، وعلى قائد الحروب بها من الأعياص عمر بن رحو بن عبدالله بن عبد الحق . كان صاحب الأندلس عقد له مكان ابن عمه عثمان بن أبي العلاء عند إجازته البحر إلى الجهاد كما ذكرناه . وكتب إلى السلطان بالفتح ، وأوفد عليه الملا من مشيخة أهل سبته وأهل الشورى . وبلغ الخبر إلى ابن الأحمر فارتاع لذلك وخشي عادية السلطان ، وجيوش المغرب حين انتهوا إلى الفرضة . وقد كان الطاغية في تلك الأيام نازل الجزيرة الخضراء ، وأقلع عنها على الصلح بعد أن أذاقها من الحصار شدة ، وبعد أن نازل جبل الفتح ، فتغلب عليه وملكه . وانهمز زعيم من زعمائه يعرف بالفُشنش بيرس ، هزمه أبو يحيى بن عبدالله بن أبي العلاء صاحب الجيش بمالقة ، لقيه وهو يحوس خلال البلاد بعد تملك الجبل ، فهزم النصارى وقتلوا أبرح قتل . وأهم المسلمين شأن الجبل فبادر السلطان أبو الجيوش . بانفاذ رسله راغبين في السلم خاطبين للولاية . وتبرع بالتزول عن الجزيرة ورندة وحصونها ، ترغيباً للسلطان في الجهاد ، فتقبل منه السلطان وعقد له الصلح على ما رغب ، وأصهر إليه في أخته ، فأنكحه إياها . وبعث بالمدد للجهاد ، أموالاً وخيولاً وجنائب مع عثمان بن عيسى اليزنياني . واتصلت بينها الولاية إلى مهلك السلطان والبقاء لله وحده .

(١) وفي نسخة أخرى : بهشت . وتبهش القوم : اجتمعوا (قاموس) .

* (الخبر عن بيعة عبد الحق بن عثمان بمالأة الوزير والمشيخة
وظهور السلطان عليهم ثم مهلكه باثر ذلك) *

كانت رسل ابن الأحمر خلال هذه المهادنة والمكاتبات تختلف إلى باب السلطان ،
ووصل منهم في بعض أحيائها خلف من مترفيهم ، فجاهر بالكبائر ، فكشف صفحة
وجهه في معاقرة الخمر والإدمان عليه . وكان السلطان منذ شهر جمادى الأولى سنة
تسع وسبعمائة قد عزل القاضي بفاس أبا غالب المغيلي ، وعهد بأحكام القضاء لشيخ
الفتيا المذكور بها أبي الحسن الملقب بالصغير . وكان على نهج ^(١) من تغيير المنكرات
والتعسف فيها ، حتى لقد كان مطاوعاً في ذلك وسواس النسك الأعجمي ،
ومتجاوزاً به الحدود المتعارفة بين أهل الشريعة في سائر الأمصار . وأحضر عنده ذات
يوم هذا الرسول ثلثاً ، وحضر العدول فاستروحوه ، ثم أمضى حكم الله فيه ، وأقام
عليه الحد . وأضرمت هذه الموجدة ، فاضطرم غيظاً وتعرض للوزير رحو بن يعقوب
الوطاسي منصرفه من دار السلطان في موكبه ، وكشف عن ظهر يريه السياط وينعي
عليهم سوء هذا المرتكب مع الرسل . فبترم لذلك الوزير وأدركته الحفيظة ، وسرح
وزعته ^(٢) وحشمه في إحضار القاضي على أسوأ الحالات من التكيل والتلّ لذقته ،
ففضوا لتلك الوجهة ، واعتصم القاضي بالمسجد الجامع ، ونادى المسلمين ، فثارت
العامّة فيهم ، ومرج أمر الناس . واتصل الخبر بالسلطان فتلافاه بالبعث في أولئك
النفر من وزعة الوزير ، وضرب أعناقهم ، وجعلهم عظة لمن وراءهم ، فأسرّها
الوزير في نفسه ، وداخل الحسن بن عليّ بن أبي الطلاق من بني عسكر بن محمد
شيخ بني مرين ، والمسلم له في شوارهم . وقائد الروم غنصالة المنفرد برياسة العسكر
وشوكته ، وكان لهم بالوزير اختصاص آثروه له على سلطانه ، فدعاهم لبيعة ^(٣) عبد
الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق كبير القرابة وأسد الأعياص ، وخلع طاعة
السلطان فأجابوه وباعوا له ، وتمّ أمرهم نجياً . ثم خرج عاشر جمادى من سنة عشر

(١) وفي نسخة أخرى : ثبج .

(٢) الوزعة : ج وازع وهو الذي يدير أمر الجيوش (قاموس) .

(٣) وفي نسخة ثانية : فدعاهم إلى بيعة .

وسبعائة إلى ظاهر البلد الحديد بمكان الرمكة ، وجأهروا بالخلعان وأقاموا الآلة وبايعوا سلطانهم عبد الحق على عيون الملاء . وعسكروا بالعدوة القصوى من سبّو تخم بلاد العسكر ، وأزاء نبدورة من معاقل الحسن بن علي زعيم تلك الثورة . ثم ارتحلوا من الغد الى تازى وخرج السلطان في أثرهم فعسكر بسبّو وتلّوم لاعتراض العساكر ، وإزاحة العلل ، واحتل القوم برباط تازى ، وأوفدوا على موسى بن عثمان بن يغمراسن سلطان بني عبد الواد يدعونه إلى المظاهرة واتصال اليد ، والمدد بالعساكر والأموال جنوباً إلى التي هي أثر لديه من تفريق كلمة عدوّه ، فتناقل عن ذلك لمكان السلم الذي عقد له السلطان مذ أول الدولة ، وليستبين سبيل القوم . وقدم السلطان بين يديه يوسف بن عيسى الجشمي ، وعمر بن موسى الفودودي في جموع كتيبة من بني مرين . وسار في ساقتهم ، فانكشف القوم عن تازى ولحقوا بتلمسان صرخاً . وحمد السلطان مغبة تناقله عن نصرهم ووجد بها الحجة عليهم ، إذ غاية مظاهرتهم إياهم أن يملكهم تازى ، وقد انكشفوا عنها فيسوا من صريخه . وأجاز عبد الحق بن عثمان ورحو بن يعقوب إلى الأندلس ، فأقام رحو بها إلى أن قتله أولاد ابن أبي العلاء ، ورجع الحسن بن علي إلى مكانه من قبيله ومحلّه من مجلس السلطان بعد أن اقتضى عهده بالأمان على ذلك . ولما احتلّ السلطان بتازى حسم الداء ومحا أثر الشقاق ، وأثخن في حاشية الخوارج وذويهم بالقتل والسبي . ثم اعتلّ أثناء ذلك وهلك لليال من اعتلاله سلخ جادى الأخيرة من سنة عشر وسبعائة ووري بصحن الجامع الأعظم من تازى ، وبويع السلطان أبو سعيد ، كما نذكره إن شاء الله .

* (الخبر عن دولة السلطان أبي سعيد وما كان فيها
من الأحداث) *

لما هلك السلطان أبو الربيع بتازى تطاول للأمر عمّه عثمان ابن السلطان أبي يعقوب المعروف بأمّه قضيت^(١) . واستام المنصب وأسدى في ذلك وألحم . وحضر الوزراء والمشيغة بالقصر بعد هده من الليل ، واثاروا شيخ القراية يومئذ وكبير الأعياص

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي النسخة المصرية : قضيب .

المرشحين ، وسرّبت إليهم الأموال . وجاءهم عثمان ابن السلطان أبي يعقوب مستاماً ، فزجروه واستدعوا السلطان أبا سعيد ، فحضر وبايعوه ليلتذّر وأنفذ كتبه إلى النواحي والجهات باقتضاء البيعة . وسرّح ابنه الأكبر الأمير أبا الحسن إلى فاس ، فدخلها غرة رجب من سنة عشر وسبعمئة . ودخل القصر واطلع على أمواله وذخيرته ، وفي غد ليلته أخذت البيعة للسلطان بظاهر تازي على بني مرين ، وسائر زناتة والعرب والقبائل والعساكر والحاشية والموالي والصنائع والعلماء والصلحاء ونقباء الناس وعرفائهم والخاصة والدهماء . فقام بالأمر واستوسق له الملك . وقرق الأعطيات وأسنى الجوائز ، وتفقّد الدواوين ورفع الظلامات ، وحطّ المغارم والمكوس . وسرّح أهل السجون ، ورفع عن أهل فاس وظيفة الرابع^(١) وارتحل لعشرين من رجب إلى حضرته ، فاحتلّ بفاس . وقدم عليه وفود التهئة من جميع بلاد المغرب . ثم خرج لذي القعدة بعدها إلى رباط الفتح لتفقّد الأحوال والنظر في أحوال الرعايا ، واهتمّ بالجهاد ، وأنشأ الأساطيل للغزو في سبيل الله . ولما قضى منسك الأضحى بعده ، رجع إلى حضرته بفاس . ثم عقد سنة إحدى عشرة وسبعمئة لأخيه الأمير أبي البقاء يعيش على ثغور الأندلس : الجزيرة ورندة وما إليها من الحصون . ثم نهض من الحصون سنة ثلاث عشرة وسبعمئة إلى مراكش لما كان بها من اختلال الأحوال ، وخروج عدي بن هنيو المسكوري ، ونقضه للطاعة ، فنازله وحاصره مدة ، واقتحم حصنه عنوة عليه ، وحمله إلى دار ملكه عنوة ، فأودعه المطبق . ثم رجع إلى غزو تلمسان ، والله أعلم .

* (الخبر عن حركة السلطان أبي سعيد الى تلمسان أولى حركاته إليها) *

لما خرج عبد الحق بن عثمان على السلطان أبي الربيع ، وتغلّب على تازي بمظاهرة الحسن بن عليّ بن أبي الطلاق كبير بني عسكر ، واختلف رسلهم إلى أبي جمّو موسى بن عثمان سلطان بني عبد الواد ، اسف ذلك بني مرين وحرك من

(١) يعني أنه رفع عنهم ضريبة الربع التي كانوا يدفعونها للحاكم .

إحهم^(١) ، ولما لحق الخارجون على الدولة بالسلطان أبي حمّو وأقبل عليهم أضرم ذلك حقد بني مرين . وولى السلطان أبو سعيد الأمر وفي أنفسهم من بني عبد الواد غصة . فلما استوسق أمر السلطان ، ودوّخ الجهات المراكشية ، وعقد على البلاد الأندلسية وفرغ من شأن المغرب ، اعترم على غزوتلمسان فنهض إليه سنة أربع عشرة وسبعمائة ولما انتهى إلى وادي ملوية قدّم إبنه أبا الحسن وأبا عليّ في عسكرين عظيمين في الجناحين ، وسار في ساقتهما ، ودخل بلاد بني عبد الواد على هذه التعبية ، فاكسح نواحيها واصطلم نعمها . ونازل وجدة ، فقاتلها قتالاً شديداً وامتنعت عليه ثم نهض إلى تلمسان فترّل بالملاعب من ساحتها . وانحجر موسى بن عثمان من وراء أسوارها ، وغلب على معاقلها ورعاياها وسائر ضواحيها ، فحطّمها حطماً ، ونسف جهاتها نسفاً ، ودوّخ جبال بني يرانسن وفتح معاقلها وأثنخ فيها وانتهى إلى وجدة . وكان معه في معسكره أخوه يعيش بن يعقوب ، وقد أدركته بعض استرابة بأمره ففرّ إلى تلمسان ، ونزل على أبي حمّو ورجع السلطان على تعيينه إلى تازي ، فأقام بها . وبعث ابنه الأمير أبا عليّ إلى فاس فكان من خروجه على أبيه ما نذكر إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن انتقاض الأمير أبي علي وما كان بينه وبين أبيه من الوقعات) *

كان للسلطان أبي سعيد إثنان من الولد أكبرهما لأُمته الحبشية ، وهو عليّ ، والأصغر لمملوكة من سبي النصاري وهو عمر . وكان هذا الأصغر آثرهما لديه ، وأعلقها بقلبه منذ نشأ ، فكان عليه حديباً وبه مشغوقاً . ولما استولى على ملك المغرب ، رشّحه بولاية عهده ، وهو شاب لم يطرّ شاربه . ووضع له ألقاب الإمارة ، وصيّر معه المجلساء والخاصّة والكتّاب وأمره باتخاذ العلامة في كتبه . وعقد على وزارته لآبراهيم بن عيسى اليرنياني من صنائع دولتهم وكبار المرشحين بها . ولما رآه أخوه الأكبر أبو الحسن صاغية أبيه إليه ، وكان شديد البرور بوالديه ، انحاش إليه وصار في جملته ، وخلط نفسه بحاشيته طاعة لأبيه واستمرت حال الأمير أبي عليّ على هذا ، وخاطبه الملوك من

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي النسخة المصرية : وحرك مزاجهم .

النواحي وخاطبهم ، وهادوه وعقد الرايات ، واثبت في الديوان ومحا وزاد في العطه ونقص ، وكاد أن يستبدّ . ولما قفل السلطان أبو سعيد من غزاته إلى تلمسان سنة أربع عشرة وسبعائة أقام بتازى وبعث ولديه إلى فاس ، فلما استقرّ الأمير أبو عليّ بفاس حدّثته نفسه بالاستبداد على أبيه ، وخلعه وراوضه المداخلون له في المكر بالسلطان حتى يتقبّض عليه ، فأبى وركب الخلاف وجاهر بالخلعان ودعا لنفسه ، فأطاعه الناس لما كان السلطان جعل إليه من أمرهم . وعسكر بساحة البلد الحديد يريد غزو السلطان ، فبرز من تازى بعسكره يقدّم رجلاً ويؤخر أخرى .

ثم بدا للأمير أبي عليّ في شأن وزيره ، وحدّثته نفسه بالتقبّض عليه استرابة به لما كان بلغه من المكاتبه بينه وبين السلطان ، فبعث لذلك عمر بن يخلف الفردودي ، وتفقّن الوزير لما حاوله من المكر ، فتقبّض عليه ونزع إلى السلطان أبي سعيد فتقبّله ورضي عنه . وارتحل إلى لقاء ابنه ، ولما تراءى الجمعان بالقرمدة ما بين فاس وتازى ، واختل مصاف السلطان وانهزم عسكره وأفلت بعد أن أصابته جراحه في يده وهن لها ، ولحق بتازى قليلاً جريحاً . ولحق به ابنه الأمير أبو الحسن نازعاً إليه من جملة أخيه أبي علي بعد المحنة وفاء لحق أبيه ، فاستبشر السلطان بالظهور والفتح ، وحمد المغبة ، وأناخ الأمير أبو علي بعساكره على تازى ، وسعى الخواص بين السلطان وابنه في الصلح على أن يخرج له السلطان عن الأمر ويقتصر على تازى وجهاتها ، فتمّ ذلك بينهما وانعقد . وشهد الملا من مشيخة العرب وزناة وأهل الأمصار ، واستحيكم عقده وانكفاً الأمير أبو عليّ إلى حضرة فاس مملّكاً . وتوافت إليه بيعات الأمصار بالمغرب ووفودهم ، واستوسق أمره .

ثم اعتلّ على أثر ذلك واشتدّ وجعه ، وصار إلى حال الموت وخشي الناس على أنفسهم تلاشى الأمر بمهلكه ، فسايلوا إلى السلطان بتازى ، ثم نزع على الأمير أبي عليّ وزيره أبو بكر بن النوار^(١) وكاتبه منديل بن محمد الكتاني ، وسائر خواصه . ولحقوا بالسلطان وحملوه على تلافي الأمر ، فنهض من تازى واجتمع إليه كافة بني مرين والجند . وعسكر على البلد الحديد وأقام محاصراً لها ، وابتنى داراً لسكنائه وجعل لابنه الأمير أبي الحسن ما كان لأخيه أبي علي من ولاية العهد وتفويض الأمر .

(١) وفي النسخة المصرية : أبو بكر بن النوان .

وتفرد أبو عليّ بطائفة من النصارى المستخدمين بدولتهم ، كان قائدهم يمتّ إليه بخوالة ، وضبط البلد مدّة مرضه حتى اذا أفاق وتبين اختلال أمره ، بعث إلى أبيه في الصفح والرضى ، وان ينزل له عما انتزى عليه من الأمر على أن يقطعه سجالمة وما إليها ، ويسوغه ما احتمل من المال والذخيرة من دراهم ، فأجابه لذلك ، وانعقد بينهما سنة خمس عشرة وسبعمئة وخرج الأمير أبو عليّ بخاصّته وحشمه ، وعسكر بالزيتون من ظاهر البلد . ووفى له السلطان بما اشترط وارتحل إلى سجالمة ، ودخل السلطان إلى البلد الجديد ونزل بقصره ، وأصلح شئون ملكه ، وأنزل ابنه الأمير أبا الحسن بالدار البيضاء من قصوره ، وفوض إليه في سلطانه تفويض الاستقلال . وأذن له في اتخاذ الوزراء والكتّاب ، ووضع العلامة على كتبه وسائر ما كان لأخيه . ووفدت إليه بيعات الأمصار بالمغرب ، ورجعوا إلى طاعته .

ونزل الأمير أبو عليّ بسجالمة فأقام بها ملكاً ، ودوّن الدواوين ، واستلحق واستركب ، وفرض العطاء واستخدم ظواغن العرب من المعقل ، وافتتح معاقل الصحراء وقصور تاورت^(١) وتيكورارين وتمنطيت ، وغزا بلاد السوس فافتتحها وتغلب على ضواحيها ، وأثخن في أعرابها من ذوي حسنّ والشبانات وزكنة ، حتى استقاموا على طاعته .

وبيّ عبد الرحمن بن يدر أمير الأنصار بالسوس في تارودانت مقرّه ، فافتتحها عليه عنوة وقتله ، واصطلم نعمته وأباد سلطانه . وأقام لبني مرين في بلاد القبلة ملكاً وسلطاناً ، وانتقض على السلطان سنة عشرين وسبعمئة وتغلب على درعة ، وسما إلى طلب مراکش ، فعقد السلطان على حربيه لأخيه الأمير أبي الحسن ، وجعله إليه ، وأغزاه ونهض على أثره ، واعتلّ^(٢) بمراكش ، وثقف أطرافها وحسم عللها . وعقد عليها لكندوز بن عثمان من صنائع دولتهم ، وقفل بعساكره إلى الحضرة . ثم نهض الأمير أبو عليّ سنة إثنين وعشرين وسبعمئة يجموعه من سجالمة وأغدّ السير إلى مراکش ، فاختلفت عساكره بها قبل أن يجتمع لكندوز أمره . فتقبّض عليه وضرب عنقه ورفع على القناة وملك مراکش وسائر ضواحيها . وبلغ الخبر إلى السلطان ، فخرج من حضرته في عساكره بعد أن احتشد . وأزاح العلل ، واستوفى

(١) وفي النسخة المصرية : توات .

(٢) وفي النسخة المصرية : فاحتلوا .

الأعطيات ، وقدّم بين يديه ابنه الأمير أبا الحسن ولي عهده الغالب على أمره في
عساكره وجموعه . وجاء في ساقته ، وسار على هذه التعبية . ولما انتهى إلى بويو^(١)
من وادي ملوثة نذروا بالبيات من أبي علي وجنوده ، فحذروهم وأيقظوا ليلتهم .
وبيّتهم بمعسكرهم ذلك ، فكانت الدبرة عليه . وفلّ عسكره . وارتحلوا من الغد في
أثره . وسلك على جبال درن ، وافترقت جنوده في أوعاره ، ولحقهم من معراتها
شناعات ، حتى ترجّل الأمير أبو عليّ عن فرسه ، وسعى على قدميه ، وخلص من
ورطة ذلك الجبل بعد عصب الريق ، ولحق بسجلامة ، ومهد السلطان نواحي
مراكش ، وعقد عليها لموسى بن علي بن محمد الهتائي ، فعظم غناؤه في ذلك
واضطلاعه وامتدت أيام ولايته وارتحل السلطان إلى سجلامة ، فدافعه الأمير أبو علي
بالخضوع في الصفح والرضا والعودة إلى السلم ، فأجابه السلطان لما كان شغفه من
حبّه ، فقد كان يؤثر عنه من ذلك غرائب . ورجع إلى الحضرة وأقام الأمير أبو علي
بمكانه من ملك القبلة إلى أن هلك السلطان ، وتغلب عليه أخوه السلطان أبو الحسن
كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن نكبة منديل الكتاني ومقتله) *

كان أبوه محمد بن محمد الكتاني^(٢) من عليّة الكتاب بدولة الموحّدين ، ونزع من
مراكش عندما انحل نظام بني عبد المؤمن وانفض جمعهم إلى مكناسة ، فأوطنها في
إيالة بني مرين . واتصل بالسلطان يعقوب بن عبد الحق فصحبه فيمن كان يثائر على
صحابته من أعلام المغرب . وسفر عنه إلى الملوك كما ذكرناه في سفارته إلى المستنصر
سنة خمس وستين وستائة وهلك السلطان يعقوب بن عبد الحق فازداد الكتاني عند
إبنه يوسف بن يعقوب حظوة ومكانة إلى أن سخطه ونكبه سنة سبع وستين وستائة
وأقصاه من يومئذ وهلك في حال سخطه . وبقي من بعده ابنه منديل هذا في جملة
السلطان أبي يعقوب متبرماً بمقام عبدالله بن أبي مدين المستولي على قهرمة دار

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي النسخة المصرية توتو وفي نسخة أخرى نونو .

(٢) وفي النسخة المصرية : الكتاني .

السلطان ومخالصته في خلواته مغضياً لذلك . متوقفاً النكبة في أكثر أيامه مضطربة له بالحسد جوانحه ، مع ما كان عليه من القيام على حسابان الديوان عرف فيه بسبقه وتشابه صديقه وعدوه . ولما تغلب السلطان على ضواحي شلف ومغراوة واستعمل على حسابان الجباية ، وجعل إليه ديوان العسكر هنالك ، وإلى نظره اعتراضهم وتمحيصهم ، فترز على مليانة مع من كان هنالك من الأمراء مثل علي بن محمد الخيري والحسن بن علي بن أبي الطلاق العسكري إلى أن هلك السلطان أبو يعقوب ، ورجع أبو ثابت البلاد إلى أبي زيّان وأخيه أبي حمّو فحفّ عليهما ، وحلا بعيونهما ، واستبغا في تكريمه وانصرف إلى مغربه . وكان معسكر السلطان يوسف بن يعقوب على تلمسان قد صحب أخاه أبا سعيد عثمان بن يعقوب في حال خموله ، وتأكدت بينهما الخلة التي رعاها له السلطان أبو سعيد . فلما ولي أمر المغرب متّ بذلك إليه ، فعرفه له واختصّه وخالصه ، وجعل إليه وضع علامته وحسابان جبايته ، ومستخلص أحواله ، والمفاوضة بذات صدره . ورفع مجلسه في بسائطه ، وقدمه على خاصته . وكان كثير الطاعة للأمير أبي علي ابنه المتغلب على أبيه قبل أول أمره ^(١) . ولما استبدّ وخلع أباه انحاش منديل هذا إليه . ثم نزع عنه حين تبين اختلال أمره ، وكان الأمير أبو الحسن يحقد عليه ولاية أخيه أبي عليّ لما كان بينهما من المنافسة . وكان كثيراً ما يوغر صدره بإيجاب حق عمر عليه ، وامتهانه في خدمته . وطوى له على النث حتى اذا انفرد بمجلس أبيه وفصل عمر إلى سجداسة أحكم السعاية فيه والخاص ^(٢) في الهلكة التي أحكم ^(٣) السلطان عليها أذنّاً واعية ، حتى تأذن الله بإهلاكه . وكان منديل هذا كثيراً ما يغضب السلطان في المحاورة والخطاب دالة عليه وكبراً ، فاعتدّ عليه من ذلك كلمات وأحوالاً ، وسخطه سنة ثمان عشرة وسبعائة واذن لابنه الأمير أبي الحسن في نكبته ، فاعتقله واستصفى أمواله ، وطوى ديوانه وامتحنه أياماً ، ثم قتله بمحبسه خنقاً ، ويقال جوعاً . وذهب مثلاً في الغابرين ، والله خير الوارثين .

(١) وفي النسخة المصرية : المتغلب على أبيه أول مرة .

(٢) وفي النسخة المصرية : الآلاء .

(٣) وفي النسخة المصرية : صرّ .

* (الخبر عن انتقاض العزفي بسبته ومنازلته ثم مصيرها الى طاعة السلطان بعد مهلكه) *

كان بنو العزفي لما تغلب عليهم الرئيس أبو سعيد ونقلهم إلى غرناطة سنة خمس وسبعمئة استقروا بها في إباله المخلوع ثالث ملوك بني الأحمر ، حتى اذا استولى السلطان أبو الربيع على سبته سنة تسع وسبعمئة أذنوه في الإجازة إلى المغرب ، فأجازوا إلى فاس ، فاستقروا بها . وكان يحيى وعبد الرحمن ابنا أبي طالب من سراتهم وكبارهم ، وكانوا يغشون مجالس أهل العلم ، لِمَا كانوا عليه من انتحال الطلب^(١) . وكان أبوسعيد أيام إمارة بني أبيه يجالس بالمسجد الجامع القرويين شيخ الفتيا أبا الحسن الصغير . وكان يحيى بن أبي طالب يلزمه ، فاتصل به وصارت له وسيلة يحتسبها عنده . فلَمَّا وَلِيَ الأمر واستقلَّ به ، رعى لهم زمام صحابتهم ، ووفى لهم مقاصدهم . وعقد ليحيى على سبته ، ورجعهم إلى مقرِّ إمارتهم منها ومحل رياستهم ، فارتحلوا إليها سنة عشر وسبعمئة وأقاموا دعوة السلطان أبي سعيد والترموا طاعته . ثم تغلَّب الأمير أبو علي على أمر أبيه ، واستبدَّ عليه فعقد على سبته لأبي زكريا حيَّون بن أبي العلاء القرشي ، وعزل يحيى بن أبي طالب عنها . واستقدمه إلى فاس فقدمها هو وأبوه أبو طالب وعمّه حاتم ، واستقروا في جملة السلطان . وهلك أبو طالب بفاس خلال ذلك حتى إذا كان من خروج الأمير أبي علي على أبيه ما قدّمناه ، لحق يحيى بن أبي طالب وأخوه بالسلطان نازعين من جملة الأمير أبي علي . فلما اعتلَّ بالبلد الجديد ونازله السلطان بها فحينئذ عقد السلطان ليحيى بن أبي طالب على سبته ، وبعثه إليها ليقم دعوته بتلك الجهات . وتمسَّك بابنه محمد رهنا على طاعته ، فاستقلَّ بإمارتها ، وأقام دعوة السلطان وطاعته بها . وأخذ بيعته على الناس ، واتصل ذلك سنتين^(٢) . وهلك عمّه أبو حاتم هنالك بعد مرجعه معه من المغرب سنة ست عشرة وسبعمئة . ثم انتقض على طاعة السلطان ونبذ طاعة الأمراء ، ورجع إلى حال سلفه من أمر الشورى في البلد . واستقدم من الأندلس عبد الحق بن

(١) وفي النسخة المصرية : الطب .

(٢) وفي نسخة ثانية : سنين .

عثمان فقدم عليه وعقد له على الحرب ليفرق الكلمة به ، ويوهن بيأسه عزائم السلطان في مطالبته . وجهز السلطان إليه العساكر من بني مرين وعقد على حربته للوزير ابراهيم بن عيسى ، فزحف إليه وحاصره ، وتعلل عليهم بطلب ابنه ، فبعث به السلطان إلى وزيره ابراهيم ليعطي طاعته ، فيسلمه ، وجاءه الخبر من عيون كانت بالعسكر وأن ابنه كائن بفسطاط الوزير بساحة البحر ، بحيث تتأق الفرصة في أخذه ، فبيت المعسكر ، وهجم عبد الحق بن عثمان بحشمه وذويه على فسطاط الوزير ، فاحتمله إلى أبيه وركبت العساكر للهيعة ، فلم يقفوا على خبر حتى تفقد الوزير ابن العزفي . واتهموا قائدهم ابراهيم بن عيسى الوزير بمالأة العدو على ذلك ، فاجتمعت مشيختهم وتقبضوا عليه ، وحملوه إلى السلطان ابتلاء للطاعة واستبصاراً في نصيح السلطان ، فشكرهم وأطلق وزيره لابتلاء نصيحته . ورغب يحيى بن العزفي بعدها في رضى السلطان وولايته . ونهض السلطان سنة تسع عشرة وسبعائة إلى طنجة لاختبار طاعته ، فعقد له على سبته واشترط هو على نفسه الوفاء لجباية السلطان ، وأسنى هديته في كل سنة . واستمرت الحال على ذلك إلى أن هلك يحيى العزفي سنة عشرين وسبعائة . وقام بالأمر بعده ابنه محمد إلى نظر عمه محمد بن علي بن الفقيه أبي القاسم شيخ قرابتهم . وكان قائد الأساطيل بسبته ووليّ النظر فيها بعد أن نزع القائد يحيى الرنداحي إلى الأندلس ، واختلف الغوغاء بسبته ، وانتهز السلطان الفرصة فأجمع على النهوض إليها سنة ثمان وعشرين وسبعائة وبادروا بإيتاء طاعتهم . وعجز محمد ابن يحيى عن المناهضة ، وظنّها محمد بن عيسى من نفسه ، فتعرض للأمر في أوغاد من اللقيف ، فاجتمعوا إليه ودافعهم الملا عن ذلك ، وحملوهم على الطاعة ، واقتادوا بني العزفي إلى السلطان فانقادوا ، واحتل السلطان بقصبة سبته ، وثقف جهاتها ورمّ مثلما وأصلح خللها . واستعمل كبار رجالاته وخوَصّ مجلسه في أعلامها ، فعقد لحاجبه عامر بن فتح الله الصدراتي على حاميته ، وعقد لأبي القاسم بن أبي مدين على جبايتها والنظر في مبانها ، وإخراج الأموال للنفقات فيها . وأسنى جوائز الملا من مشيختها ، وورق أقطاعاتهم وجراياتهم . وأوعز ببناء البلد المسمّى أفراك على سبته ، فشرعوا في بنائها سنة تسع وعشرين وسبعائة وانكفأ راجعاً إلى حضرته ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن استقدام عبد المهيمن للكتابة والعلامة) *

كان بنو عبد المهيمن من بيوتات سَبْتَة ، ونسبهم في حضرموت . وكانوا أهل تجلّة ووقار ، متحلّين للعلم . وكان أبو محمد قاضياً بسبّته أيام أبي طالب وأبي حاتم ، وكان له معهم صهر . ونشأ ابنه عبد المهيمن هذا في حجر الطلب والجلالة ، وقرأ صناعة العربيّة على الاستاذ الغافقي وحذق فيها . ولما نزلت بهم نكبة الرئيس أبي سعيد سنة خمس وسبعائة واحتملوا إلى غرناطة ، احتمل فيهم القاضي محمد بن عبد المهيمن وابنه . وقرأ عبد المهيمن بغرناطة على مشيختها ، وازداد علماً وبصراً باللسان والحديث . واستكتب بدار السلطان محمد المخلوع ، واختصّ بوزيره المتغلب على دولته محمد بن الحكيم الرُنْدِيّ فيمن اختص به من رؤساء بني العزفي . ثم رجع بعد نكبة ابن الحكيم إلى سبّته ، وكتب عن قائدها ابن مسلمة مدّة . ولما استخلص بنو مرين سبّته سنة تسع وسبعائة اقتصر على الكتابة ، وأقام منتحلاً مذاهب سلفه في انتحال العلم ونزول المرؤة . ولما استولى السلطان أبو سعيد على المغرب واستقل بولاية العهد ، وتغلب على الأمر ابنه أبو علي ، وكان محباً للعلم مولعاً بأهله منتحلاً لفنونه . وكانت دولته خلواً من صناعة التراسل منذ عهد الموحدّين للبدواة الموجودة في أولهم^(١) . وحصل للأمير أبي عليّ بعض البصر بالبلاغة واللسان تفتّن به لشأن ذلك ، وخلو دولتهم من الكتاب المرسلين ، وأنهم إنما يحكمون الخطّ الذي حدّقوا فيه . ورأى الأصابع تشير إلى عبد المهيمن في رئاسة تلك الصناعة ، فولع به . وكان كثير الوفادة مع أهل بلده أوقات وفادتهم ، فيختصه الأمير أبو عليّ بمزيد برّه وكرامته ، ويرفع مجلسه ، ويخطبه للكتابة وهو يمتنع عليه . حتى إذا أمضى عزيمته في ذلك أوعز إلى عامله بسبّته سنة إثنتي عشرة وسبعائة أن يشخصه إلى بابهم فقلده كتابته وعلامته حتى إذا خرج أبو عليّ على أبيه تحيز عبد المهيمن إلى الأمير أبي الحسن ، فلما صولح أبو عليّ على التزول عن البلد الجديد وكتب شرطه على السلطان كان من جملة ما كون عبد المهيمن معه ، وأمضى له السلطان ذلك وأنف الأمير أبو

(١) وفي طبعة بولاق : الموجودة في دولتهم .

الحسن منها ، فأقسم ليقْتلَنَّهُ إن عمل بذلك ، فرفع عبد المُهَيْمِن أمره إلى السلطان ولاذبه ، وألقى نفسه بين يديه ، فرقَ لشكواه وأمره باعتراها معاً والرجوع إلى خدمته . وأنزله بمعسكره وأقام على ذلك ، واختصه منديل الكتاني كبير الدولة وزعيم الخاصة ، وأنكحه ابنته ، ولما نكب منديل جعل السلطان علامته لأبي القاسم بن أبي مَدِين ، وكان غفلاً خلواً من الآداب ، فكان يرجع إلى عبد السلطان علامته لأبي القاسم بن أبي مَدِين ، وكان غفلاً خلواً من الآداب ، فكان يرجع إلى عبد المهيمِن في قراءة الكتب وإصلاحها ، وإنشائها حتى عرف السلطان له ذلك ، فاقصر عليه وجعل وضع العلامة إليه سنة ثمان عشرة وسبعمائة فاضطلع بها ورسخت قدمه في مجلس السلطان ، وارتفع صيته . واستمرَّ على ذلك أيام السلطان وابنه أبي الحسن من بعده إلى أن هلك بتونس في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة والله سبحانه وتعالى خير الوارثين .

* (الخبر عن صريخ أهل الاندلس ومهلك بطرة على غرناطة) *

كان الطاغية شانجة بن أدفونش قد تكالب على أهل الاندلس من بعد أبيه هراندة الهالك سنة اثنتين وثمانين وستائة . ومنذ غلب على طريف شغل السلطان يوسف بن يعقوب بعده ببني يغمراسن ، ثم تشاغل حفدته من بعده بأمرهم وتقاصرت مددهم ، وهلك شانجة سنة ثلاث وسبعين^(١) وولى ابنه هراندة ونازل الجزيرة الخضراء فرضة الجهاد لبني مرين حولاً كاملاً ، ونازلت أساطيله جبل الفتح واشتدَّ الحصار على المسلمين . وراسل هراندة بن أدفونش صاحب برشلونة أن يشغل أهل الأندلس من ورائهم ، ويأخذ بحجزتهم ، فنازل ألمرية وحاصرها الحصار المشهور سنة تسع وسبعمائة ونصب عليها الآلات . وكان منها برج العود المشهور بطول الأسوار بمقدار ثلاث قامات ، وتميّل المسلمون على إحراقه فأحرق . وحفر العدو تحت الأرض مسرباً مقدار ما يسير فيه عشرون راكباً . وتفطّن المسلمون واحتفر قبالتهم مثله إلى أن نفذ بعضهم

(١) الصحيح ثلاث وتسعين وستائة .

لبعض ، واقتتلوا من تحت الأرض وعقد ابن الأحمر لعثمان بن أبي العلاء زعيم الأعياص على عسكر بعثه مدداً لأهل المريّة ، فلقية جمع من النصاري كان الطاغية بعثهم لحصار مَرَشَانَة^(١) ، فهزمهم عثمان واستلحمهم ، ونزل قريباً من معسكر الطاغية وألحّ بمغادتهم ومراوحتهم الى أن رغبوا إليه في السلم وأفرج عن البلد . وتغلّب الطاغية ، خلال ذلك على جبل الفتح ، وأقامت عساكره على سماء^(٢) واسطبونة^(٣) ، وزحف العباس بن رحو بن عبدالله وعثمان بن أبي العلاء في العساكر لاغاة البلدين ، فأوقع عثمان بعسكر اسطبونة ، وقتل قائدهم ألفنش بيرش^(٤) في نحو ثلاثة آلاف فارس واستلحموا . ثم زحف عثمان لاغاة العباس وكان دخل عوجين فحاصرت جموع النصاري به ، فانقضوا الخبر زحفه ، وبلغ الخبر إلى الطاغية بمكانه من ظاهر الجزيرة بفتكة عثمان في قومه ، فسرح جموع النصرانية ، ولقيهم عثمان فأوقع بهم ، وقتل زعماءهم . وارتحل الطاغية يريد لقاءهم فخالف أهل البلد إلى معسكره ، وانتهوا محلاته وفساطيطه ، وأتيحت للمسلمين عليهم الكرة ، وامتلأت الأيدي من غنائمهم وأسراهم . ثم هلك الطاغية أثر هذه الهزائم سنة اثني عشرة وسبعائة وهو هراندة بن شانجة . وولي بعده ابنه الهنشة طفلاً صغيراً ، جعلوه لنظر عمّه دون بطرة ابن شانجة ، وزعيم النصرانية جوان فكفلاه . واستقام أمرهم على ذلك ، وشغل السلطان أبو سعيد ملك المغرب بشأن ابنه وخروجه ، فاهتبل النصرانية الغرة في الأندلس وزحفوا إلى غرناطة سنة ثمان عشرة وسبعائة وأناخوا عليها بعسكرهم وأمهمهم . وبعث أهل الأندلس صريخهم إلى السلطان واعتذر لهم بمكان أبي العلاء من دولتهم ، ومحلّه من رياستهم ، وأنه مرشح للأمر في قومه بني مرين ، يخشى معه تفريق الكلمة . وشرط عليهم أن يدفعوه إليه برمته حتى يتم أمر الجهاد ، ويعيده إليهم حوطة على المسلمين . ولم يمكنهم ذلك لمكان عثمان بن أبي العلاء لصرامته وعصابته

(١) مرشانة : مدينة من أعمال قرونة بالاندلس (معجم البلدان) .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي طبعة بولاق شماعة وفي نسخة أخرى : سماء وفي معجم البلدان ذكر سماء وهو اسم موضع ولم يزد على ذلك .

(٣) اسطبونة : لم يذكرها صاحب معجم البلدان ولعلها اسطبة المذكورة في نفع الطيب ج ١ ص ١٦٥ وتبعد عن قرطبة ٣٦ ميلاً .

(٤) وفي نسخة ثانية : ألفنش بترس .

من قومه ، فأخفق سعيهم واستلحموا . وأطالت أُم النصرانية بفِرناطة ، وطمعوا في التهامها . ثم إنَّ الله نفسُ مخفقهم ، ودافع قدرته عنهم ، وكيف لعُثمان بن أبي العلاء وعصبته واقعة فيهم كانت أغرب الوقائع . صمدوا إلى موقف الطاغية بجملتهم ، وكانوا زهاء مائتين أو أكثر ، وصابروهم حتى خالطوهم في مراكزهم ، فصرعوا بِطَرة وجوان ، وولوهم الأدبار . واعترضتهم من ورائهم مسارب الماء للشرب من شقيل^(١) فطارحوا فيها . وهلك أكثرهم ، واكتسحت أموالهم ، وأعزَّ الله دينه ، وأهلك عدوه . ونصب رأسِ بِطَرة بسور البلد عبرةً لمن يذكر ، وهو باق هنالك لهذا العهد . والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن صهر الموحدين والحركة الى تلمسان على اثره وما
تخلل ذلك من الاحداث) *

لما انفرج الحصار عن ولد يغمراسن بن زيان أحد ملوك بني عبد الواد سنة ست وسبعائة وتحافى أبو ثابت عن بلادهم ، ونزل لهم عما كان بنو مزين ملكوه منها بسيوفهم . واستقل أبو حمّو بملك بني عبد الواد على رأس الحول منها ، صرف نظره واهتمامه إلى بلاد المشرق ، فتغلّب على بلاد مغراوة ، ثم على بلاد بني توجين ، ومحا منها أثر سلطانهم . ولحق أعياصهم من ولد عبد القوي بن عطية ولد منديل بن عبد الرحمن بالموحدين بني أبي حفص مع من تبعهم من رؤوس قبائلهم ، وصاروا في جملة عساكرهم . واستلحق مولانا السلطان أبو يحيى وحاجبه يعقوب بن عمر منهم جنداً كثيراً أثبتهم في الديوان ، وغالب بهم الخوارج والمنازعين للدولة . ثم زحف أبو حمّو إلى الجزائر وغلب ابن علان عليها سنة^(٢) ونقله إلى تلمسان ووفى له .

وفر بنو منصور أمراء ملكيش أهل بسيط متيجة من صنهاجة ، فلاحقوا بالموحدين واصطنعوهم . وتملك قاصية المغرب الأوسط وتاخم عمل الموحدين بعمله . ثم تغلّب على تدلس سنة إثنتي عشرة وسبعائة وتجنّى على مولانا السلطان أبي يحيى بما وقع بينهم من المراسلة أيام انترى ابن مخلوف ببجاية كما ذكرناه في أخباره . فحثّ عزائمه

(١) وفي نسخة ثانية : شقيل .

(٢) يياض بالأصل ولم نستطع تحديد هذه السنة في المراجع التي بين أيدينا .

لمترلتها وطلب بلاد الموحدين ، وأوطأ عساكره أرضهم ، ونازل أمصارهم بجاية وقُسْطَينَة . واختص بجاية بشوكته من ذلك ، وجهز العساكر مع مسعود ابن عمه أبي عامر ابراهيم لمضايقتها . وكان خلال ذلك ما قدّمناه من خروج محمد بن يوسف ابن يغمراسن عليه سنة (١) وقيام بني توجين بأمره ، واقتطاع جبل وانشرس من عمالة ملكه .

واستمرت الحال على ذلك حتى هلك السلطان أبو حمو سنة ثمان عشرة وسبعائة وقام بأمرهم ابنه أبو تاشفين عبد الرحمن فصنع له في ابن عمه محمد بن يوسف . ونهض إليه بعساكر بني عبد الواد حتى نازله بمعتصمه من جبل وانشرس وداخله عمر بن عثمان كبير بني تيفرين في المكربه ، فتقبّض عليه وقتله سنة تسع عشرة وسبعائة وارتحل إلى بجاية حتى احتل بساحتها ، وامتنع عليه الحاجب ابن عمر فأقام يوماً أو بعضه . ثم انكفأ راجعاً إلى تلمسان ، وردّد البعوث إلى أوطان بجاية ، وابتنى الحصون لتجبير الكتائب ، فابتنى بوادي بجاية من أعلاه حصن بكر ، ثم حصن تامز يزدكت . ثم اختط بتيكلات على مرحلة منها بلداً سماها تامز يزدكت على اسم المعقل الذي كان لأولهم بالجليل قبالة وجدة . وامتنع يغمراسن به على السعيد كما قدّمناه ، فاخطط بلد تيكالات هذه ، وشحنها بالأقوات والعساكر ، وصيرها ثغراً للملكه ، وأنزل بها جنده . وعقد عليها لموسى بن علي الكردي كبير دولته ، ودولة أبيه (٢) . واستحثه أمراء الكعوب من بني سُليم ملك أفريقية حين مغاضبتهم لمولانا السلطان أبي يحيى اللحياني ، وأبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن أبي عمران ، وأبي اسحق بن أبي يحيى الشهيد ، مرة بعد أخرى كما ذكرناه في أخبارهم جميعاً . وكانت حروبهم سجلاً إلى أن كان بين جيوش زناته والموحدين الزحف المشهور بالرياش من نواحي مرماجنة سنة تسع وعشرين وسبعائة زحفت فيه إلى السلطان أبي يحيى عساكر زناته مع حمزة بن عمر أمير بني كعب . ومن إليه من البدو ، وعليهم يحيى بن موسى من صنائع دولة آل يغمراسن . وقد نصبوا للملك محمد بن أبي عمران بن أبي حفص ، ومعهم عبد الحق بن عثمان من أعياص بني عبد الحق في بنيه وذويه . وكان نزاع إليهم من عند الموحدين كما ذكرناه ، فاختل مصاف مولانا السلطان أبي يحيى

(١) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد هذه السنة في المراجع التي بين أيدينا .

(٢) وفي نسخة ثانية : لموسى بن علي العزفي كبير دولته ودولة إبنه .

وانهزم ، واستولوا على فساطيطه بما فيها من الذخيرة والحرم ، وانتهبوا معسكره وتقبضوا على ولديه الموليين أحمد وعمر ، وأشخصوهما إلى تلمسان . وأصيب السلطان في بدنه بجراحات أوهشته ، وخلص إلى بونة ناجياً برمقه . وركب السفين منها إلى بجاية ، فأقام بها يد مل جراحه ، واستولت زناته على تونس . ودخلها محمد بن أبي عمران وسّمّوه باسم السلطان ومقاداته في يد يحيى بن موسى أمير زناته . واعتزم مولانا السلطان أبو يحيى على الوفاة على ملك المغرب السلطان أبي سعيد صريحاً على آل يغمراسن . وأشار حاجبه محمد بن سيّد الناس بإنفاذ ابنه الأمير أبي زكريا صاحب الثغر استنكافاً له عن مثلها ، فتقبّل إشارته وأركب ابنه البحر لذلك . وبعث إليه معه أبا محمد عبدالله بن تاشفين من مشيخة الموحدين نافضاً أمامه طرف المقاصد والمحاورات ، ونزلوا بغساسة من سواحل المغرب ، وقدموا على السلطان أبي سعيد بحضرته ، وأبلغوه صريح مولانا السلطان أبي يحيى ، فاهتز لذلك هو وابنه الأمير أبو الحسن ، وقال لابنه الأمير في ذلك المحفل : يا بني لقد قصدك أكبر أقوامنا وموصلك ، ووالله لأبذلنّ في مظاهرتكم مالي وقومي ونفسي ، ولأسيرنّ بعساكري إلى تلمسان فأنزلها مع أيك ، فانصرفوا إلى منازلهم مسرورين . وكان فيما شرطه عليهم السلطان أبو سعيد مسير مولانا السلطان أبي يحيى بعساكره إلى منزلة تلمسان معه فقبلوا . ونهض السلطان أبو سعيد إلى تلمسان سنة ثلاثين وسبعائة ولما انتهوا إلى وادي ملوّة وعسكر بصره ، جاءهم الخبر اليقين باستيلاء السلطان أبي يحيى على حضرة تونس وإجهاضه زناته وسلطانهم عنها . فاستدعى مولانا السلطان الأمير أبا زكريا يحيى ابنه ووزيره أبا محمد عبدالله بن تافراكين وأمرهم بالإنصراف إلى صاحبهم وأسنى جوائزهم وحاجاتهم ^(١) . وركبوا أساطيلهم من غساسة وأرسل معهم للخطبة الصهر ابراهيم بن أبي حاتم العزفي والقاضي بحضرته أبي عبدالله بن عبد الرزاق ، وانكفاً على عقبه راجعاً إلى حضرته . ولما انعقد الصهر بين الأمير أبي الحسن ، والسلطان أبي يحيى في ابنته شقيقة الأمير يحيى ، زفّها إليهم في أساطيله مع مشيخة من الموحدين ، كبيرهم أبو القاسم بن عبّو ^(٢) . ووصلوا بها إلى مرسى غساسة سنة إحدى وثلاثين بين يدي مهلك السلطان أبي سعيد ، فقاموا لها على أقدام البرّ

(١) وفي النسخة المصرية : وحباؤهم .

(٢) وفي النسخة المصرية : بن عقّور .

والتكرمة ، وبعثوا الظهر إلى غساسة لركوبها وحمل أثقالها ، وصيغت حكمت الذهب والفضة ومدّت ولايا الحرير المغشاة بالذهب ، واحتفل لوافدها وأعراسها غاية الاحتفال بما لم يسمع مثله في دولتهم . وتولت قهارمة الدار من عجز النساء ما يتولاه مثلهم من ذلك فطم الصنيع ، وتحدّث الناس به . وهلك السلطان أبو سعيد بين يدي موصلها ، والبقاء لله وحده .

* (الخبر عن مهلك السلطان أبي سعيد عفا الله عنه وولاية السلطان أبي الحسن وما تخلل ذلك من الاحداث) *

كان السلطان لما بلغه وصول العروس بنت مولانا السلطان أبي يحيى سنة إحدى وثلاثين وسبعائة واهتزّت الدولة لقدومها عليهم تعظيماً لحق أبيها وقومها واحتفاء بها ، ارتحل السلطان أبو سعيد إلى تازى ليشارف أحوالها بنفسه احتفاء^(١) في تكرمتها وسروراً بعرس ابنه . واعتلّ هنالك ومرض حتى اذا أشفى على الهلكة ، ارتحل به وليّ العهد الأمير أبو الحسن إلى الحضرة ، وحمله في فراشه على أكتاف الحاشية والخول ، حتى نزل بسبو ، ثم أدخله كذلك ليلاً إلى داره . وأدركته المنية في طريقه ، فقضى رحمة الله عليه ، فوضعه بمكانه من البيت . واستدعى الصالحين لمواراته ، فووري لشهر ذي الحجة سنة إحدى وثلاثين وستائة والبقاء لله وحده ، وكل شيء هالك إلا وجهه .

ولما هلك السلطان أبو سعيد اجتمع الخاصّة من المشيخة ورجالات الدولة لوليّ عهده الأمير أبي الحسن ، وعقدوا له على أنفسهم ، وآتوه طاعتهم وبيعتهم . وأمر بنقل معسكره من سبو ، وأضرب بالزيتون من ساحة فاس . ولما ووري السلطان ، خرج إلى معسكره بالتعبية ، واجتمع إليه الناس على طبقاتهم لاداء البيعة ، وجلس بفسطاطه ، وتولى أخذ البيعة له يومئذ على الناس المزوار عبّو بن قاسم رئيس الوزعة^(٢) ، والمتصرّفين وحاجب الباب القديم الولاية بذلك في دارهم منذ عهد السلطان يوسف بن يعقوب . وزفّت إليه يومئذ عروسه بنت السلطان أبي يحيى ،

(١) وفي النسخة المصرية : استبلاغاً .

(٢) ج وازع وهو الذي يتولى أمر الجيوش . (قاموس) .

فأعرس بها بمكانه من المعسكر ، وأجمع أمره على الانتقام لأبيها من عدوه . وبدأ باستكشاف حال أخيه أبي علي ، وكان السلطان أبوهما يستوصيه به لما كان له بقلبه من العلاقة . وكان ولي العهد هذا يؤثر لرضاه جهده ، فاعترم على الحركة إلى سجلامة لمشاركة أحواله ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن حركة السلطان أبي الحسن إلى سجلامة وانكفائه عنها إلى تلمسان بعد الصلح مع أخيه والاتفاق) *

لما هلك السلطان أبو سعيد وكملت بيعة السلطان أبي الحسن ، وكان كثيراً ما يستوصيه بأخيه أبي علي لما كان كلفاً به شفوفاً عليه ، فأراد مشاركة أحواله قبل النهوض إلى تلمسان ، فارتحل من معسكره بالزيتون قاصداً سجلامة ، وتلقته في طريقه وفود الأمير أبي علي أخيه مؤدياً حقه ، موجباً مبرته ، مهنتاً له بما آتاه الله من الملك ، متجافياً عن المنازعة فيه ، قانعاً من تراث أبيه بما حصل في يده ، طالباً العقد له بذلك من أخيه . فأجابه السلطان أبو الحسن إلى ما سأل ، وعقد له على سجلامة وما إليها من بلاد القبلة كما كان لعهد أبيهما . وشهد الملأ من القبيل وسائر زنازة والعرب ، وانكفأ راجعاً إلى تلمسان لإجابة صريح الموحدين ، وأغذ السير إليها . ولما انتهى إلى تلمسان تنكّب عنها متجاوزاً إلى جهة المشرق لوعده مولانا السلطان أبي يحيى بالتزول معه على تلمسان ، كما كان عليه وفاقهم ومشارطتهم مع الأمير أبي زكريا الرسول إليهم . فاحتل بتاسالت في شعبان من سنة إثنين وثلاثين وسبعائة وتلّوم بها وأوعز إلى أساطيله بمراسي المغرب فأغزاها إلى سواحل تلمسان . وجّهز لمولانا السلطان أبي يحيى مدداً من عسكره أركبهم الأساطيل من سواحل وهران ، وعقد عليهم لمحمد البطوي من صنائع دولته . ونزلوا بجاية ، ووافوا بها مولانا السلطان أبا يحيى فصاروا في جملته . ونهضوا معه إلى تيكلات ثغر بني عبد الواد المحمرة بها الكتائب لحصار بجاية ، وبها يومئذ ابن هزرع من قوادهم ، وأجفل من كان بها من العسكر قبل وصوله إليهم ، فلحقوا بآخر عملهم من المغرب الأوسط . وأناخ مولانا السلطان أبو يحيى عليها بعساكر من الموحدين والعرب والبربر وسائر الحشود ، فخرّبوا عمرانها وانتهبوا ما كان من الأقوات مخترناً بها ، وكان بحراً لا يدرك ساحله ، لِمَا كان

السلطان أبو حمو من لدن اختطها قد أوعز إلى العمّال بسائر البلاد الشرقية ، من عمل البطحاء أن ينقلوا أعشار الحبوب إليها وسائر الأقوات . وتقبّل ابنه السلطان أبو تاشفين مذهبه في ذلك . ولم يزل دأبهم إلى حين حلّت بها هذه الفاقة فانتهب الناس من تلك الأقوات ما لا كفاء له . وأضرعوا محتطّها بالأرض فنسفوها نسفاً ، وذروها قاعاً صفيصفاً . والسلطان أبو الحسن خلال ذلك متشوّفاً لأحوالهم منتظرٌ قدوم مولانا السلطان أبي يحيى عليه لمنازلة تلمسان ، حتى وافاه الخبر بانتقاض أخيه كما نذكره ، فانكفاً راجعاً ، واتصل الخبر بمولانا السلطان أبي يحيى فقفّل إلى حضرته . وحمل البطوي معه وأسنى جائزته وجوائز عسكره ، وانصرفوا إلى السلطان مرسلهم في سفنهم من ساعتها . وانقبض عنان السلطان أبي تاشفين عن غزو بلاد الموحدّين إلى أن انقرض أمره ، والبقاء لله وحده .

* (الخبر عن انتقاض الأمير أبي علي ونهوض السلطان أبي الحسن اليه وظفره به) *

لما توغل السلطان أبو الحسن في غزاة تلمسان وتجاوزها إلى تاسالت لوعده مولانا السلطان أبي يحيى ، دسّ أبو تاشفين إلى الأمير أبي علي في اتصال اليد والاتفاق على السلطان أبي الحسن ، وأن يأخذ كل واحد منهما بحجزته عن صاحبه متى همّ به ، وانعقد بينهما على ذلك . وانتقض الأمير أبو علي على أخيه السلطان أبي الحسن ، ونهض من سجلماسة إلى درعة فقتل بها عامل السلطان ، واستعمل عليه من ذويه ، وسرح العسكر إلى بلاد مراکش . واتصل الخبر بالسلطان وهو بمعسكره بتاسالت ، فأحفظه شأنه ، وأجمع على الانتقام منه ، فانكفاً راجعاً إلى الحضرة . وأنزل بغيرتا وريرت تخم عمله معسكراً ، وعقد عليه لإينه تاشفين ، وجعله إلى نظر وزيره منديل بن حمّامة بن تيريفين ، وأغذّ السير إلى سجلماسة ، فنزل عليها وأحاطت عساكره بها ، وأخذ بمخنقها وحشد الفعلة والصنّاع لعمل الآلات لحصارها ، والبناء ساحتها . وأقام يغاديا القتال ويراوحها حولاً كريئاً . ونهض أبو تاشفين في عساكره وقومه إلى ثغر المغرب ليوطئه عساكره ، ويحث في نواحيه يجاذب السلطان عن مكانه من حصاره . ولما انتهى إلى تاويرير برز إليه ابن السلطان في وزرائه وعساكره ،

وزحفوا إليه في التعبية ، فاختلف مصافه وانهمز ولم يلق أحداً ، وعاد إلى منحجره وبادر إلى إمداد الأمير أبي علي بعسكره ، فعقد على حصّة من جنده وبعث بهم إليه ، ففسّروا إلى البلد زرافات ووحدانا حتى استكملوا عنده ، وطاولهم السلطان الحصار وأنزل بهم أنواع الحرب والنكال حتى تغلب عليهم ، واقتحم البلد عنوة ، وتقبّض على الأمير أبي علي عند باب قصره . وسيق إلى السلطان فأمهله واعتقله ، واستولى على ملكه . وعقد على سجالسة واستعمل عليها ، ورحل منكفئاً إلى الحضرة ، فاحتل بها سنة ثلاث وثلاثين وسبعائة واعتقل أخاه في إحدى حجر القصر إلى أن قتله لأشهر من اعتقاله خنقاً بمحبسه . وعدد له هذا الفتح بفتح الجبل واسترجاعه من يد العدّ ودمره الله بأيدي عسكره ، وتحت راية ابنه أبي مالك ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن منازلة جبل الفتح واستئثار الامير أبي مالك
والمسلمين به) *

لما هلك السلطان أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد المتغلب على ملك الأندلس من يد ابن عمه أبي الجيوش ، قام بالأمر بعده ابنه محمد طفلاً صغيراً لنظر وزيره محمد بن المحروق من بيوت الأندلس وصنائع الدولة . واستبدّ عليه . فلما شب وناهر أنف من الاستبداد عليه ، وأغراه المعلوجي من حشمة بالوزير ، فاغتاله وقتله سنة تسع وعشرين وسبعائة وشرّ للاستبداد وشدّ أواخي الملك . وكان الطاغية قد أخذ جبل الفتح سنة تسع ، وجاورت النصرانية به ثغور الفرضة ، وكان شجى في صدرها ، وأهمّ المسلمين شأنه . وشغل عنهم صاحب المغرب بما كان فيه من فتنة ابنه ، فرجّعوا الجزيرة وحصونها إلى ابن الأحمر منذ سنة إثنتي عشرة وسبعائة لأوّل المائة الثامنة . واستغلظ الطاغية عليهم بعد ذلك فرجّعوا الجزيرة إلى صاحب المغرب سنة تسع وعشرين وسبعائة وولّى عليها السلطان أبو سعيد من أهل دولته سلطان بن مهلهل من عرب الخلط أخواله . وأسفّ الطاغية إلى حصونها عند مهلك السلطان أبي سعيد فلك أكثرها ، ومنع البحر من الإجازة . وقارن ذلك استبداد صاحب الأندلس ، وقتله لوزيره ابن المحروق . وأهمّه شأن الطاغية ، فبادر لإجازة البحر . ووفد على

السلطان أبي الحسن بدار ملكه من فاس سنة اثنتين وثلاثين وسبعائة فأكبر موصله وأركب الناس للقاءه ، وأنزله برّوض المصارّة لصق داره ، واستبلغ في تكريمه . وفاوضه ابن الأحمر في شأن المسلمين وراء البحر ، وما أهمّهم من عدوهم ، وشكا إليه حال الجبل واعتراضه شجى في صدر الثغور ، فأشكاه السلطان . وعامل الله في أسباب الجهاد ، وكان مشغولاً به متقبلاً مذهب جدّه يعقوب فيه . وعقد لابنه الأمير أبي مالك على خمسة آلاف من بني مرين ، وأنفذه مع السلطان محمد بن إسماعيل لمنازلة الجبل ، فاحتل بالجزيرة ، وتتابع إليه الأسطول بالمدد . وأرسل ابن الأحمر حاشرين في الأندلس ، فتسايلاوا إليه ، وأضربوا معسكرهم جميعاً بساحة الجبل . وأبلوا في حربه ومنازلته البلاء الحسن ، إلى أن تغلبوا عليه سنة ثلاث وثلاثين وسبعائة واقتحمه المسلمون عنوة ، ونفلهم الله من كان به من النصرانية بما معهم ، ووافاه الطاغية بأمم الكفر لثالثه فتحه ، وقد شحنته المسلمون بالأقوات ، نقلوها من الجزيرة على خيولهم . وباشروا نقلها الأمير أبو مالك وابن الأحمر ، فنقلها الناس عامّة . ونحيز الأمير أبو مالك إلى الجزيرة وترك بالجبل يحيى بن طلحة بن محلى من وزراء أبيه . ووصل الطاغية بعد ثلاث فأناخ عليه . وبرز أبو مالك بعساكره ، فترّل بجذائه^(١) . وبعث إلى الأمير أبي عبد الله صاحب الأندلس . فوصل بحشد المسلمين بعد أن دّوخ أرض النصرانية . وخرج فترّل بازاء عسكر الطاغية ، وتحصّن العدو في محلتهم . وقاموا كذلك عادية لقرب العهد بارتجاعه ، وخفّة ما به من الحامية والسلاح ، فبادر السلطان ابن الأحمر إلى لقاء الطاغية . وسبق الناس إلى فسطاطه عجلأً بائعاً نفسه من الله في رضى المسلمين ، وسدّ فرجتهم ، فتلقاه الطاغية راجلاً حاسراً إمحظماً لموصله ، وأجابه إلى ما سأل من الإفراج عن هذا المعقل ، وأنحفه بذخائر مما لديه ، وارتحل لفوره . وأخذ الأمير أبو مالك في تثقيف أطراف الثغر ، وسدّ فروجه ، وأنزل الحامية به ، ونقل الأقوات إليه ، وكان فتحاً طوّق دولة السلطان أبي الحسن قلادة الفخر إلى آخر الأيام . ثم رجع بعدها إلى شأنه من منازلة تلمسان ، والله تعالى أعلم .

(١) وفي النسخة المصرية : قبائله .

* (الخبر عن حصار تلمسان وتغلب السلطان أبي الحسن عليها وانقراض أمر بني عبد الواد بمهلك أبي تاشفين) *

لما تغلب السلطان على أخيه وحسم علة انتزائه ومنازعته وسد ثغور المغرب ، وعظمت لديه نعمة الله بظهور عسكره على النصرانية ، وارتجاع جبل الفتح من أيديهم بعد أن أقام في ملكة الطاغية نحواً من عشرين سنة . فرغ لعدوه وأجمع على غزو تلمسان . ووفد عليه رسل السلطان أبي يحيى في سبيل التهئة بالفتح والأخذ بحجزة أبي تاشفين على الثغور . وأوفد السلطان إلى أبي تاشفين شفعاء في أن يتخلى عن عمل الموحدين جملة ، ويتراجع لهم عن تدلس ، ويرجع إلى تخوم عمله منذ أول الأمر ، ولو عامئذٍ ليعلم الناس جاه السلطان عند الملوك ، ويقدره حق قدره ، واستنكف أبو تاشفين مع ذلك وأغلظ للرسل في القول ، وأفحش بمجلسه بعض السفهاء من العبيد في الرد عليهم والنيل من مرسلهم ، فانقلبوا إليه بما أحفظه ، فانبعثت عزائم السلطان للصمود إليهم . وعسكر بساحة البلد الجديد ، وبعث وزراءه إلى قاصية البلاد المراكشية لحشد القبائل والعساكر . ثم تعجل فاعترض جنوده وأزاح عنهم وعبى مواكبه ، وسار في التعبئة . وفصل بمعسكره من فاس أواسط خمس وثلاثين وسبعائة وسار يحرق الشوك والمدر من أمم المغرب وجنوده . ومرّ بوجدة ، فجمّر الكتاب لحصارها . ثم مرّ برك رومة فقاتلها بعض يوم واقتحمها ، فقتل حاميتها واستولى عليها آخر سنة خمس وثلاثين وسبعائة ثم سار على تعبته حتى أناخ على تلمسان ، وبلغه الخبر بتغلب عساكره على وجدة سنة ست وثلاثين وسبعائة فأوعز إليه بتخريب أسوارها ، فأضرعوها بالأرض .

وتوافت إليه إمداد النواحي وجهاتها وحشودها ، وريض على فريسته . ووفدت إليه قبائل مغراوة وبني توجين فآتوه طاعتهم . ثم سرح عساكره إلى الجهات فتغلب على وهران وهنّين ، ثم على مليانة وتنس والجزائر كذلك سنة ست وثلاثين وسبعائة ونزع إليه يحيى بن موسى صاحب القاصية الشرقية من عمله ، والمتاخم كان لعمل الموحدين ، والقائم بحصار بجاية بعد نكبة موسى بن علي فلقاه مبرة وتكريماً ، ورفع بساطه ونظمه في طبقات وزرائه وجلسائه . وعقد على فتح البلاد الشرقية ليحيى

ابن سليمان العسكري كبير بني عسكر بن محمد وشيخ بني مرين ، وصاحب شورا هم بمجلس السلطان ، والمخصوص بصهر من السلطان . عقد له على ابنته فسار في الألوية والجنود وطوّع ضاحية الشرق وقبائله ، وافتتح أمصاره حتى انتهى إلى المريّة^(١) . ونظّم البلاد في طاعة السلطان ، وأحشد مقاتلتها إلى معسكره فلحقوا له وكاثروا جنوده . واستعمل السلطان على وانشرش وعمل الحشم من بني توجين . وعقد لسعد بن سلامة بن علي بن علي بن يدرلتن . وجعل الوالي بالقلعة إلى نظره . وكان خلص إليه بالمغرب قبل فصوله نازعاً عن أبي تاشفين لمكان أخيه قريعه محمد من الدولة .

واستعمل السلطان أيضاً على شلف وسائر أعمال المغرب الأوسط . واختطّ السلطان بغربي^(٢) تلمسان البلد الجديد لسكنائه ، ونزل عساكره وسماه المنصورية^(٢) . وأدار على البلد المخروب سياجاً من السور ونطاقاً من الخندق . ونصب المجانيق والآلات من وراء خندقه وشيّد قبالة كل برج من أبراج البلد برجاً على ساقه خندقه ينضح رماته بالنبل رماتهم ، ويشغلونهم بأنفسهم حتى شيّد برجاً آخر أقرب منه ، وترتفع شرفاته فوق خندقهم . ولم يزل يتقرّب بوضع الأبراج من حدّ إلى ما بعده ، حتى اختطها من قرب على ساقه خندقهم . وتماصع المقاتلة بالسيوف من أعيالها ، ورتّب المجانيق إلى رجمها ودكّها ، فنالت من ذلك فوق الغاية . واشتدّ الحرب وضاق نطاق الحصار . وكان السلطان يصحبهم كل يوم بالبكور والتطواف على البلد من جميع جهاته لتفقد المقاتلة في مراكزهم ، وربما ينفرّد في طوافه بعض الأيام عن حاشيته ، فاهتبلوا الأمر بحسبونه غرة . وصفقوا جيوشهم من وراء السور مما يلي الجبل المطلّ على البلد ، حتى اذا حاذاه السلطان في تطوافه فتحوا أبوابهم ، وأرسلوا عليه عقبان جنودهم ، واضطّروه إلى سفح الجبل حتى لحق بأوعاره ، وكاد أن يترل عن فرسه هو ووليّه عريف بن يحيى أمير سويد . ووصل الصائح إلى المعسكر فركب الأميران إبناه : ابو عبد الرحمن وأبو مالك ، في جموع بني مرين ، وتهاوت فرسان المعسكر من كلّ جانب ، فشرّ جنود بني عبد الواد إلى مراكزهم . ثم دفعوهم عنها ، وحملوهم على

(١) وفي نسخة ثانية : المدية .

(٢) وفي نسخة ثانية : بقرب تلمسان .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية المنصورة .

هرة الخندق فتطارحوا فيه وترادفوا وهلك بالكظيظ أكثر من هلك بالقتل . واستلحم في ذلك اليوم زعماء ملثم^(١) مثل عمر بن عثمان كبير الحشم من بني توجين ، ومحمد بن سلامة بن عليّ كبير بني يدللت منهم أيضاً وغيرهم . وكان يوماً له ما بعده . واعتز بنو مرين عليهم من يومئذ . ونذر بنو عبد الواد بالتغلب عليهم ، واتصلت الحرب مدة عامين . ثم اقتحمها السلطان غلابا لسبع وعشرين من رمضان سنة سبع وثلاثين وسبعائة . ووقف أبو تاشفين بساحة قصره مع خاصته ، وقاتل هنالك حتى قتل إبنه عثمان ومسعود ووزيره موسى بن عليّ ووليّه عبد الحق بن عثمان من أعياص عبد الحق . نزع إليه من جملة الموحدين كما أشرنا إليه ونستوفي خبره . فهلك هو وإبنه وابن أخيه ، وأثمنت السلطان أبا تاشفين الجراحة ووهن لها ، فتقبّض عليه . واختبئه^(٢) بعض الفرسان إلى السلطان فلقية الأمير أبو عبد الرحمن صالي تلك الحروب وأورد غمرتها بنفسه ، فاعترضه وقد غصّ الطرف بموكبه ، فأمر به في الحين فقتل ، واحتزّ رأسه ، وسخط ذلك السلطان من فعله لحرصه على تويخه وتقريعه ، وذهب مثلاً في الغابرين . واقتحم السلطان بكافة عساكره ، وتواقع الناس بباب كشوط^(٣) لجنوبهم من كظيظ الزحام ، فهلك منهم أمم .

وانطلقت أيدي النهب على البلد فلحقت الكثير من أهله معرات في أموالهم وحرهم . وخلص السلطان إلى المسجد الجامع مع لمة من خواصه وحاشيته . واستدعى شيوخ الفتيا بالبلد أبو زيد وأبو موسى إبن الإمام ، وفاء بحق العلم وأهله ، فخلصوا إليه بعد الجهد ووعظوه وذكره بما نال الناس من النهب ، فركب لذلك بنفسه وسكن وأوزع جنوده وأشياعه من الرعيّة ، وقبض أيديهم عن الفساد وعاد إلى معسكره بالبلد الجديد . وقد كمل الفتح وعزّ النصر ، وشهد ذلك اليوم أبو محمد بن تافراكين ، وافاه رسولاً عن مولانا السلطان أبي يحيى مجدداً للعهد ، فأعجله السلطان إلى مرسله بالخبر وسابق السابقين . ودخل تونس لسبع عشرة ليلة من نوبة الفتح ، فعظم السرور عند السلطان أبي يحيى بمهلك عدوّه والانتقام منه بشاره ، واعتدّها بمساعيه . ورفع السلطان أبو الحسن القتل عن بني عبد الواد أعدائهم ، وشفى نفسه

(١) وفي نسخة ثانية : ملاحمهم .

(٢) اختبئ الشيء : أخذه في خبة ثيابه (قاموس) .

(٣) وفي نسخة ثانية : كشوك .

بقتل سلطانهم ، وعفا عنهم وأثبتهم في الديوان ، وفرض لهم العطاء ، واستتبهم على راياتهم ومراكرهم ، . وجمع كلمة بني واسين من بني مَرِين وبني عبد الواد وتوجين ، وسائر زناتة وأنزلهم ببلاد المغرب وسدّ بكل طائفة منهم ثغراً من أعماله ، وساروا عصباً تحت لوائه ، فأنزل منهم بقاصية السوس وبلاد غمارة ، وأجاز منهم إلى ثغور عمله بالأندلس حامية ومراطين ، واندرجوا في جملته ، واتسع نطاق ملكه . وأصبح ملك زناتة بعد أن كان ملك بني مَرِين وسلطان العدوتين بعد أن كان سلطان المغرب . والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

* (الخبر عن نكبة الأمير عبد الرحمن بمتيجة وتقبض السلطان عليه ثم مهلكه آخر) *

قد قدّمنا ما كان من اشتراط السلطان أبي سعيد على الموحدّين منازلهم تلمسان مع عساكره ، وتلّوم السلطان أبي الحسن بتاسلت لانتظار مولانا السلطان أبي يحيى . ولما نازل تلمسان بعساكره المّرّة الثانية ، لم يطالبهم بذلك . وكان أبو محمد بن تافراكين يتردّد إليه وهو بمعسكره من حصار تلمسان مؤدياً حقه مستخيراً مآل عدوهم . فلما تغلب على تلمسان أسر إليه سفيره أبو محمد بن تافراكين بأنّ سلطانه قادم عليه للقاءه وتهنئته بالظفر بعدوّه . وتشوّف السلطان أبو الحسن إليها لما كان يحب الفخر ويعنى به ، وارتحل من تلمسان سنة ثلاث وثلاثين وسبعائة ، وعسكر ببسيط بمتيجة منتظراً وفادة مولانا السلطان أبي يحيى عليه . وتكاسل السلطان عنها لما أراه سيفه المتحكّم في دولته محمد بن الحكيم من حذر مغبتها ، وقال له : إنّ لقاء سلطانين لا يتفق إلّا في يوم على أحدهما ، فكره ذلك السلطان وتقاعد عنه : وطال مقام السلطان أبي الحسن في انتظار الموعد الذي ألقي إليه أبو محمد بن تافراكين ، واعتل لأشهر من مقامه ومرض بفسطاظه . وتحدّث أهل المعسكر بمهلكه . وكان إبننا الأمير أبو عبد الرحمن وأبو مالك متناغيين في ولاية عهده منذ أيام جدّهما أبي سعيد . وكان السلطان قد جعل لها من أوّل دولته ألقاب الإمارة وأحوالها من اتخاذ الوزراء والكتّاب ووضع العلامة وتدوين الدواوين وإثبات العطاء . واستلحاق الفرسان والإنفراد بالعساكر ، فكانا من ذلك على ثبج . وجعل لها مع ذلك الجلوس لمقعد فصله ،

مناوبة لتنفيذ الأوامر السلطانية ، فكانا لذلك رديفين له في سلطانه .
ولما اشتدّ وجع السلطان تمشتّ سياسة الفتن بين هذين الأميرين وحزب أهل المعسكر
لها أحزاباً ، وبثّ كل واحد منها المال وحمل على المقربات . وصارت شيعاً
وانقسموا فرقاً . وهمّ الأمير أبو عبد الرحمن بالتوثّب على الأمر قبل أن يتبين حال
السلطان باغراء وزرائه وبطانته بذلك . وتفطنّ خاصّة السلطان لها ، فأخبروه الخبر
وحضّوه على الخروج إلى الناس قبل أن يتفاقم الأمر ويتسع الخرق ، فبرز إلى فسطاط
جلوسه وتسامع أهل المعسكر به ، فازدحموا على مجلسه وتقبيل يده . وتقبّض على
أهل الظنّة من العساكر ، فأودعهم السجن وسخط على الأميرين . ورحل الناس من
معسكرهما ، فردّهما إلى معسكره . ثم رجع إلى فسطاطه فارتاب الأميران لذلك
ووجها ، وطفئت نار فتنتهما وسكن سعي المفسدين عندهما وانتبذ الناس عنها .
فاشتدّت روعة الأمير أبي عبد الرحمن ، وركب من فساطيطه وخاض الليل ،
وأصبح بحلّة أولاد علي^(١) أمراء زغبة الموطّنين بأرض حمزة ، فتقبّض عليه أميرهم
موسى بن أبي الفضل . وردّه إلى أبيه ، فاعتقله بوجدة ، وربّ العيون لحراسته من
حشمه إلى أن قتل بعد ذلك سنة اثنتين وأربعين وسبعائة . وثب بالسجّان فقتله . وأنفذ
السلطان حاجبه علّان بن محمد فقضى عليه . ولحق وزيره زيّان بن عمر الوطاسي
بالموحدين فأجاروه . ورضي السلطان صبيحة نزوع أبي عبد الرحمن عن أخيه أبي
مالك ، وعقد له على ثغور عمله بالأندلس ، وصرفه إليها ، وانكفأ إلى تلمسان .
والله أعلم .

* (الخبر عن خروج ابن هيدور وتلبسيه بابي

عبد الرحمن) *

لما تقبّض السلطان على ابنه عبد الرحمن وأودعه السجن ، تفرّق خدمة وحشمه
واندعروا في الجهات . وهمل جازر من مطبخه ، كان يعرف بابن هيدور ، كان شبيهاً
له في الصورة ، فلحق ببني عامر من زغبة ، وكانوا لذلك العهد منحرفين عن

(١) وفي نسخة ثانية : اولاد زغلي .

الطاعة ، خوارج على الدولة لِمَا كَانَ السلطان وأبوه اختصا عريف بن يحيى أمير بني
سويد أقتلهم ، منذ نزع إليهم عن أبي تاشفين . فركبوا سنن الخلاف ولبسوا جلدة
النفاق ، وانتبذوا بالقفار . ورياستهم لذلك العهد لصغير بن عامر وإخوته . وعقد
السلطان على حربهم لَوْنَزَمَار ابن وليه عريف . وكان سيّد البدو يومئذ ، فجمع لهم
وشمر لطلبهم ، وأبعدوا أمامه في المذاهب ، وأوقع بهم مراراً . ولحق بهم هذا
الجازر ، وانتسب لهم إلى السلطان أبي الحسن وأنه أبو عبد الرحمن ابنه النازع عنه ،
فشبه لهم وبايعوه وأجلبوا به على نواحي المرية ^(١) . وبرز إليهم قائدها مجاهد بن ^(٢)
من صنائع الدولة ، ففضّوا جمعه وانهمز أمامهم . ثم جمع لهم ونزمار وفروا
عن تلك النواحي وافترق جمعهم . ونبذوا لذلك الجازر عهده ، فلحق بيني يرناتن
من زواوة ، ونزل على سيّدتهم شمسي فقامت بأمره . وحمل بنوها من بني عبد
الصمد قومهم على طاعته . وشاع في الناس خبره فن مصدق ومن مكذب حتى
تبينت ووقفوا على كذبه في انتسابه ، فنبذوا عهده ولحق بالزواودة أمراء رياح ، ونزل
على سيّدهم يعقوب بن علي ، وانتسب له في مثل ذلك ، فأجاره إن صدق نسبه .
وأوعز السلطان إلى السلطان أبي يحيى صاحب أفريقية في شأنه ، فبعث إلى يعقوب
وأشخصه إلى السلطان مع ذويه ، فلحق به بمكانه من سبتة فامتحنه السلطان وقطعه
من خلاف وانحسم داؤه . وبقي بالمغرب تحت جراية من الدولة إلى أن هلك سنة ثمان
وثمانين وسبعمائة ^(٣) والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن شأن الجهاد واغزاء السلطان ابنه الأمير ابا

مالك واستشهاده) *

لما فرغ السلطان من أمر عدوّه وما تبع من ذلك من الأحوال ، صرف اعترامه إلى
الجهاد لما كان كلفاً به . وكان الطاغية منذ شغل بني مرين عن الجهاد منذ عهد
يعقوب بن عبد الحق قد اعتزوا على المسلمين بالعدوة . ونازلوا معاقلمهم ،

(١) وفي نسخة ثانية المدية .

(٢) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة والد مجاهد هذا في المراجع التي بين أيدينا .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : ثمان وستين .

وتغلبوا على الكثير منها ، وارتجعوا الجبل ونازلوا السلطان أبا الوليد في عقر داره بغرناطة . ووضعوا عليه الجزية فتقبلها وأسفوا إلى التهام المسلمين بالأندلس . فلما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن عدوه وعلت على الأيدي يده ، وانفسح نطاق ملكه ، دعت نفسه إلى الجهاد . وأوعز إلى ابنه الأمير أبي مالك أمير الثغور من عمله بالعدوة سنة أربعين وسبعمائة بالدخول إلى دار الحرب . وجهز إليه العساكر من حضرته وأنفذ إليه الوزراء ، فشخص غازياً في الحفل ، وتوغل في بلاد الطاغية واكتسحها ، وخرج بالسبي والغنائم إلى أدنى صدره من أرضهم وأناخ بها . واتصل به الخبر بأن النصاري جمعوا له ، وأغذوا السير في اتباعه . وأشار عليه الملاء بالخروج من أرضهم وإجازة الوادي الذي كان تحملاً بين أرض الإسلام ودار الحرب . وأن يصير إلى مدن المسلمين فيمتنع بها ، فلج في إبابته وصمم على التعريس . وكان قرماً ثبناً إلا أنه غير بصير بالحروب لمكان سنه ، فصباحهم عساكر النصرانية في مضاجعهم قبل أن يركبوا وخاطبهم في إبابتهم . وأدرك الأمير أبو مالك بالأرض قبل أن يستوي على فرسه فجدلوه واستلحموا الكثير من قومه ، واحتووا على المعسكر بما فيه من أموال المسلمين وأموالهم ، ورجعوا على أعقابهم . واتصل الخبر بالسلطان فتفجّع لهلاك ابنه ، واسترحم له ، واحتسب عند الله أجره وفي سبيله قتله . وشرع في إجازة العساكر للجهاد وتجهيز الأساطيل .

* (الخبر عن واقعة الملند والظفر به وظهور اساطيل المسلمين

على اسطول النصاري) *

لما بلغ الخبر إلى السلطان باستشهاد ابنه ، أخرج وزاره إلى السواحل لتجهيز الأساطيل . وفتح ديوان العطاء ، واعترض الجنود وأزاح عنهم . واستنفر أهل المغرب وارتحل إلى سبتة لياشر أحوال الجهاد . وتسامعت أم النصرانية بذلك ، فاستعدتوا للدفاع . وأخرج الطاغية أسطوله إلى الزقاق ليمنع السلطان من الإجازة . واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مراسي العدو . وبعث إلى الموحدین بتجهيز أسطولهم إليه ، ففقدوا عليه لزيد بن فرحون قائد أسطول بجاية من صنائع دولتهم ، ووافى ستة

في ستة عشر من أساطيل أفريقية ، كان من طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة
وبجاية . وتوافت أساطيل المغربين بمرسى سبتة تناهز المائة . وعقد السلطان عليها
لمحمد بن عليّ العزفي الذي كان صاحب سبتة يوم فتحها ، وأمره بمناجزة أسطول
النصارى بالزقاق . وقد اكتمل عديدهم وعدتهم ، فاستلأموا وتظاهروا في السلاح .
وزحفوا إلى أسطول النصارى وتواقفوا ملياً . ثم قربوا الأساطيل بعضها إلى بعض
وقرنوها للمصاف ، فلم يمحض إلا كلا ولا^(١) حتى هبت ريح النصر ، وأظفر الله
المسلمين بعدوهم ، وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هرباً بالسيوف ، وطعنوا
بالرماح ، وألقوا أشلاءهم في اليم وقتلوا قائدتهم المكنند واستاقوا أساطيلهم مجنوبة إلى
مرسى سبتة ، فبرز الناس لمشاهدتها وطيف بكثير من رؤسهم في جوانب البلد .
ونظمت أصفاد الأسرى بدار الانشاء . وعظم الفتح وجلس السلطان للتهنئة ،
وأنشدت الشعراء بين يديه ، وكان يوماً من أعز الأيام ، والمنة لله .

* (الخبر عن واقعة طريف وتمحيص المسلمين) *

لما ظفر المسلمون بأسطول النصارى وخضدوا شوكتهم عن ممانعة الجواز ، شرع السلطان
في إجازة العساكر الغزاة من المطوعة والمرتزة ، وانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة
من العدو إلى العدو . ولما استكمل إجازة العساكر أجاز هو في أسطوله مع خاصته
وحشمه آخر سنة أربعين وسبعائة ونزل بساحة طريف وأناخ بعساكره عليها ،
واضطرب معسكره بفنائها ، وبدأ بمنازلتها . ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج ابن
السلطان أبي الوليد بعسكر الأندلس من غزاة زنافة وحامية الثغور ورجل البدو ،
فمعسكروا حذاء معسكره وأحاطوا بطريف نطاقاً واحداً ، وأنزلوا بهم أنواع القتال ،
ونصبوا عليها الآلات . وجهاز الطاغية أسطولاً آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن
المعسكر ، وطال ثوابهم^(٢) بمكانهم من حصار البلد ، ففנית أزودتهم وافتقدوا
العلوفات ، فوهن الظهر واختلت أحوال المعسكر . واحتشد الطاغية أم النصرانية

(١) وفي نسخة ثانية : ولم يكن إلا كلا ولا .

(٢) بمعنى مقامهم .

وظاهره البرتقال صاحب أشبونة ، وغرب الأندلس ، فجاء معه في قومه . وزحف إليهم لسته أشهر من نزولهم . ولما قرب معسكرهم سرب إلى طريف جيشاً من النصارى أكمته بها ، فدخلوه ليلاً على حين غفلة من العسس الذي أُرصد لهم . وأحسوا بهم آخر ليلتهم ، فثاروا بهم من مراصدهم وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد ، فقتلوا منهم عدداً ولبسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم حذراً من سطوته . وزحف الطاغية من الغد في جموعه ، وعبى السلطان مواكب المسلمين صفوفاً ، وتراحفوا ولما نشب الحرب برز الجيش الكمين من البلد وخالفوهم إلى المعسكر ، وعمدوا إلى فسطاط السلطان ودافعهم عنه الناشبة الذين أعدوا لحراسته فاستلحموهم . ثم دافعهم النساء عن أنفسهن فقتلوهنّ وخلصوا إلى حظايا السلطان : عائشة بنت عمه أبي يحيى بن يعقوب ، وفاطمة بنت مولانا السلطان أبي يحيى ملك أفريقيا ، وغيرهما من حظاياهنّ فقتلوهنّ واستلبوهنّ . وانتهبوا سائر الفساطيط وأضرموا المعسكر ناراً وأحس المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختلف مضافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان ضمّم في طائفة من قومه وذويه حتى خالطهم في صفوفهم ، فأحاطوا به وتقبضوا عليه ، وولى السلطان متحيزاً إلى فئة المسلمين ، واستشهد كثير من الغزاة ووصل الطاغية إلى فسطاط السلطان من المحلة وأنكر قتل النساء والولدان ، ووقف منه لمنتهى أثره ، وانكفأ راجعاً إلى بلاده ، ولحق ابن الأحمر بغرناطة ، وخلص السلطان إلى الجزيرة ، ثم إلى الجبل . ثم ركب السفين إلى سبتة في ليله ومحصّ الله المسلمين وأجزل ثراهم . وأرجأ لهم الكرة على عدوهم .

* (الخبر عن منازلة الطاغية الجزيرة ، ثم تغلبه عليها بعد أن غلب على القلعة من ثغور ابن الأحمر) *

لما رجع الطاغية من طريف استأسد على المسلمين بالاندلس ، وطمع في التهامهم ، وجمع عساكر النصرانية ، ونازل قلعة بني سعيد ثغر غرناطة . وعلى مرحلة منها وجمع الآلات والأيدي على حصارها ، واشتدّ منحنقها وأصابهم الجهد من العطش ، فترلوا على حكمه سنة اثنتين وأربعين وسبعائة وأدال الله الطيب منها بالخيث ، وانصرف إلى بلده . وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز إلى سبتة أخذ نفسه بالعودة إلى الجهاد لرجعه

الكرّة وبعث في الأمصار للاستنفار ، وأخرج قوّاده إلى سواحل البحر لتجهيز الأساطيل حتى اكتمل له منها عدد . ثم ارتحل إلى سبتة لمشارفتها ، وقدم عساكره إلى العدو مع وزيره عسكر بن تاحضريت . وبعث على الجزيرة محمد بن العباس بن تاحضريت من قرابة الوزير ، وبعث إليهما مدداً من العسكر مع موسى بن ابراهيم اليريناني من المرشحين للوزارة ببابه ، وبلغ الطاغية خبره فجهّز أسطولاً وأجراه إلى بحر الزقاق لمدافعته . وتلاقت الأساطيل ومحصّ الله المسلمين واستشهد منهم أعاد وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق وملكوه دون المسلمين وأقبل الطاغية من إشبيلية في عساكر النصرانية حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء مرفأ أساطيل المسلمين وفرضة المجاز . وأمّل أن ينظمها في مملكته مع جارتها طريف ، وحشد الفعلة والصنّاع للآلات ، وجمع الأيدي عليها وطاولها الحصار . واتخذ أهل المعسكر بيوتاً من الخشب للمطاوله . وجاء السلطان أبو الحجاج بعساكر الأندلس فتزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح في سبيل المانعة . وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة ليسرّب عليها المدد من الفرسان والمال والزرع في أحياء الفعلة من أساطيلهم ، وتحت جناح الليل ، فلم يغنهم ذلك ، واشتدّ عليهم الحصار وأصابهم الجهد . وأجاز إليه السلطان أبو الحجاج يفوضه في شأن السلم مع الطاغية ، بعد إذن الطاغية له في الإجازة مكرراً به . وترصد له بعض الأساطيل في طريقه فصدقهم المسلمون القتال وخلصوا إلى الساحل بعد غصّ الريق ، وضاق أحوال الجزيرة ومن كان بها من عساكر السلطان . وسألوا من الطاغية الأمان على أن ينزلوا عن البلد فبذله وخرجوا فوقى لهم . وأجازوا إلى المغرب سنة ثلاث وأربعين وسبعائة فأنزلهم السلطان ببلاد على خير نزل ، ولقاهم من الميرة والكرامة ما أعاضهم ممّا فاتهم ، وخلع عليهم وحملهم وأجازهم بما تحدّث به الناس . وتقبّض على وزيره عسكر بن تاحضريت عقوبة على تقصيره في المدافعة ، مع تمكّنه منها بما كان لديه من العساكر . وانكفأ السلطان إلى حضرته موقناً بظهور أمر الله ، وإنجاز وعده في رجوع الكرّة وعلوّ الدين . والله متمّ نوره ولو كره الكافرون .

* (الخبر عن شفاعة صاحب تونس في اولاد أبي العلاء ووصولهم الى السلطان) *

كان عثمان بن أبي العلاء من أعياص آل عبد الحق ، شيخ الغزاة المجاهدين من زناتة والبربر بالأندلس . وكان له فيها مقام معلوم في حماية الثغور ومدافعة العدو ، وغزو دار الحرب ، ومساهمة صاحب الأندلس الجهاد كما نستوفي أخباره . وكان السلطان أبو سعيد لما استصرخ بأهل الأندلس اعتذر بمكانه بينهم . واشترط عليهم أن يمكّنوه من قيادته حتى يقضي نوبة الجهاد ، فلم يسعفه بذلك . ولمّا هلك عثمان بن أبي العلاء ، قام بالأمر من بعده في مراسم الجهاد بنوه وكانوا يرجعون في رياستهم إلى كبيرهم أبي ثابت عامر . وقويت عصابتهم بالموالي والأبناء ، وغلبت على يد السلطان يَدُهُمْ ، واستبدّوا عليه في أكثر الأحوال ، واستنكف لها ، وكان ذلك مما دعاه إلى القدوم على السلطان أبي الحسن . وارتاب بنو أبي العلاء في إجازته إليه ، واتهموه على أنفسهم ، وأسعدهم إلى منازلة جبل الفتح على كرهه . فلمّا تغلب المسلمون عليه ، وقضى ابن الأحمر من مدافعة الطاغية عنه بالرغبة ما قضى كما ذكرناه ، واعتزم على القفول إلى حضرته ، أجمعوا الفتك به في طريقه . وداخلوا في ذلك مولاة ابن الملعوجي لما أسفهم به من إرهاف حدّه والتضييق عليهم في جاههم ، فبرموا وطلّوا على البث^(١) ، حتى اذا وجدوا من أبي العلاء صاغية إلى ذلك ، خفّوا إلى إجابتها . ونذرهم محمد بن الأحمر فبعث عن السفن تعرضه في طريقه^(٢) وساحل إليهم ، وتسبقوا لشأنهم قبل فوته ، فأدركوه دون حصن أصطبونة . وعتبوه فاستعتب ، وأغلظوا له في القول ، وقتلوا مولاة عاصماً صاحب ديوان العطاء تجنّياً عليه . ونكر ذلك السلطان فتناولوه بالرماح قعصاً وطعنأ حتى أقعصوه . ورجعوا إلى المعسكر فاستدعوا من كان داخلهم من الموالي . وجاؤا بأخيه أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد ، فبايعوا له وأصفقوا على تقديمه . وسرّح لحينه قائده ابن عزّون ، فاستولى له على دار ملكه ، وتمّ أمره وحجبه رضوان مولى أبيهم ، واستبدّ عليه ، وسكن بين

(١) وفي نسخة ثانية : على النث .

(٢) وفي نسخة ثانية : فبعث على السفين يعترضه في طريقه .

جنبه من بني أبي العلاء وقتلهم لأخيه داء دخیل ، حتى إذا سما السلطان أبو الحسن إلى الجهاد ، وأجاز المدد إلى ثغور عمله بالأندلس ، وعقد لابنه الأمير أبي مالك ، أسر إليهم في شأن بني أبي العلاء بما كان أبوه السلطان أبو سعيد اشترط عليهم في مثلها . ووافق منه داعية لذلك فتقبض عليهم أبو الحجاج وأودعهم المطبق أجمع . ثم أشخصهم في السفين إلى مراسي أفريقية ، فترلوا بتونس على مولانا السلطان أبي يحيى . وبعث فيهم السلطان أبو الحسن إليه فاعتقلهم ، ثم أوعز إليه مع عريف الوزعة ببابه ميمون بن بكرون في إشخاصهم إلى حضرته ، فتوقف عنها . وأبى من إخفار ذمتهم ووسوس إليه وزيره أبو محمد بن تافراكين بأن مقصد السلطان فيهم غير ما ظنوا به من الشر . ورغب بيعتهم إليه والمبالغة في الشفاعة فيهم ، علماً بأن شفاعته لا ترد فأجابته لذلك ، وجنبوهم إليه مع ابن بكرون . واتبعهم أبو محمد بن تافراكين بكتاب الشفاعة فيهم من السلطان . وقدموا على السلطان أبي الحسن مرجعه من الجهاد سنة إثنين وأربعين وسبعائة فتلقاهم بالبر والترحيب إكراماً لشفيعهم . وأنزلهم بمعسكره وجنب لهم المقربات بالمراكب الثقيلة ، وضرب لهم الفساطيط ، وأسنى لهم الخلع والجواهر وفرض لهم أعلى رتب العطاء وصاروا في جملة . ولما احتل بسبته لمشاركة أحوال الجزيرة ، سعى عنده فيهم بأن كثيراً من المفسدين يداخلونهم في الخروج والتوئب على الملك ، فتقبض عليهم وأودعهم في السجن بمكناسة ، إلى أن كان من خبرهم مع ابنه أبي عتّان ما نذكره إن شاء الله تعالى ، والله أعلم .

* (الخبر عن هدية السلطان الى المشرق وبعثه بنسخ المصحف

من خطه الى الحرمين والقدس) *

كان للسلطان أبي الحسن مذهب في ولاية ملوك المشرق ، والكلف بالمعاهد الشريفة تقبله من سلفه . وضاعفه لديه متن ديانته . ولما قضى من أمر تلمسان ما قضى ، وتغلب على المغرب الأوسط ، وصار أهل النواحي تحت ريقه منه ، واستطال بجناح سلطانه ، خاطب لحينه صاحب مصر والشام محمد بن قلاوون الملك الناصر ، وعرفه بالفتح وارتفاع العوائق عن الحاج في سابلتهم . وكان قرأته^(١) في ذلك

(١) الفرائق : البريد وربما سماوا دليل الجيش فرائقا ، فارسي معرب (قاموس) .

فارس بن ميمون بن وردار . وعاد بجواب الكتاب وتقرير المؤدة بين السلف . وأجمع السلطان على كتب نسخة عتيقة من المصحف الكريم بخط يده ليوقفها بالحرم الشريف قربة إلى الله تعالى ، وابتغاء للمثوبة ، فانتسخها وجمع الوراقين لمعانة تذهيبها وتنميقها ، والقراء لضبطها وتهذيبها حتى اكتمل شأنها . وصنع لها وعاء مؤلفاً من خشب الأبنوس والعاج والصندل فائق الصنعة وغشي بصفائح الذهب ونظم الجواهر والياقوت واتخذ له اصوله الجلد المحكم الصنعة وغشي بصفائح الذهب ، ونظم بالجواهر والياقوت ، واتخذت له أضواء الجلد المحكم الصناعة ، المرقوم أديمها بخطوط الذهب من فوقها غلاف الحرير والديباج وأغشية الكتان . وأخرج من خزائنه أموالاً عينها لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفاً على القراء فيها ، وأوفد على الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر والشام ، خواص مجلسه وكبار أهل دولته ، مثل عريف بن يحيى أمير زغبة ، والسابق المقدّم في بساطه على كل خالصة عطية بن مهلهل بن يحيى كبير الخولة . وبعث كاتبه أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين وعريف الوزعة ببابه وصاحب دولته عبو بن قاسم المزوار^(١) ، واحتفل في الهدية للمزوار للسلطان صاحب مصر احتفالاً تحدث الناس به دهراً . ووقفت على برنامج الهدية بخط أبي الفضل بن أبي مدين هذا الرسول ووعيته وأنسيته وذكر لي بعض قهارمة الدار أنه كان فيها خمسمائة من عتاق الخيل المقرّبات ، بسروج الذهب والفضة ولحمها ، خالصاً ومغشي ومموهاً ، وخمسمائة حمل من متاع المغرب وما عونه وأسلحته ، ومن نسج الصوف المحكم ثياباً وأكسية وبرانس وعائم ، وأزراً مُعلّمة وغير معلّمة . ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب ملوناً وغير ملون ، وساذجاً ومنمّقاً . ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة بالدباغ المتعارف ، وتنسب إلى اللط . ومن خرثي المغرب وما عونه وما يستظرف صناعته بالمشرق ، حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجواهر والياقوت . واعتزمت حظية من حظايا أبيه على الحج في ركابه ذلك ، فأذن لها واستبلغ في تكريمها . واستوصى بها وافده وسلطان مصر في كتابه . وفصلوا من تلمسان سنة^(٢) وأدوا رسالتهم إلى الملك الناصر وهديتهم ،

(١) وفي نسخة ثانية : وعريف الوزعة بدولته ، وصاحب الباب عبو بن قاسم المزوار .

(٢) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد هذه السنة في المراجع التي بين أيدينا .

فتقبلها وحسن لديه موقعها . وكان يوم وفادتهم عليه بمصر يوماً مشهوداً ، تحدث به الناس دهرأ ، ولقاهم في طريقهم أنواع البر والتكرمة حتى قضوا فرضهم ، ووضعوا المصحف الكريم حيث أمرهم صاحبهم . وأسنى هدية السلطان من فساطيطهم الغريبة الشكل والصنعة بالمغرب ، ومن ثياب الإسكندرية البديعة النسيج المرقومة بالذهب ، ورجعهم بها إلى مرسلهم وقد استبلغ في تكريمهم ووصلتهم . وبقي حديث هذه الهدية مذكوراً بين الناس لهذا العهد .

ثم انتسخ السلطان نسخة أخرى من المصحف الكريم على القانون الأول ، ووقفها على القراءة بالمدينة ، وبعث بها من تحييره لذلك العهد من أهل دولته . سنة (١) واتصلت الولاية بينه وبين الملك الناصر إلى أن هلك سنة إحدى وأربعين وسبعائة وولي الأمر من بعده ابنه أبو الفداء إسماعيل ، فخاطبه السلطان وأتحفه وعزاه عن أبيه ، وأوفد عليه كاتبه وصاحب ديوان الخراج أبا الفضل بن عبدالله بن أبي مدين فقضى من وفادته ما حمل . وكان شأنه عجباً في إظهار أئبته سلطانه ، والانفاق على المستضعفين من الحاج في طريقه ، واتحاف رجال الدولة التركية بدات يده والتعفف عما في أيديهم . ثم شرع بعد استيلائه على أفريقية كما نذكره في كتاب نسخة أخرى من المصحف الكريم ليوقفها بيت المقدس ، فلم يقدر اتمامها ، وهلك قبل فراغه من نسخها ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن هدية السلطان الى ملك مالي من السودان المجاورين للمغرب) *

كان للسلطان أبي الحسن مذهب في الفخر يتناول به إلى مناغات الملوك الأعظم واقتفاء سننهم في مهادة الأقتال والأمصار (٢) ، وإيفاد الرسل على ملوك النواحي القاصية والتخوم البعيدة . وكان ملك مالي أعظم ملوك السودان لعهد مجاوراً لملكه بالمغرب على مائة مرحلة في القفر من ثغور ممالكه القبليّة . ولما غلب بني عبد الواد على تلمسان وابتزهم ملكهم ، واستولى على ممالك المغرب الأوسط ، وتحدث الناس

(١) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد هذه السنة في المراجع التي بين أيدينا .

(٢) وفي نسخة ثانية : الانظار .

بشأن أبي تاشفين وحصاره ومقتله ، وما كان للسلطان في ذلك من سورة التغلب وآية العز وإهانة العدو وشاعت أخبار ذلك في الآفاق . وسما سلطان مالي منسا موسى المتقدم ذكره في أخبارهم إلى مخاطبته . فأوفد عليه فرانقين من أهل مملكته مع ترجان من المثلثين المجاورين للمالكهم من صنهاجة ، فوفدوا على السلطان في التهته بالغلب والظفر بالعدو ، فأكرم وفادتهم وأحسن مثواهم ومنقلبهم . ونزع إلى طريقته في الفخر ، فأنحف طرفاً من متاع المغرب وماعونه من ذخيرة داره وأسناها ، وعين رجلاً من أهل دولته ، كان فيهم كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبي مدين ومولاه عنبر الخصي . وأوفدهم بها على ملك مالي منسا سليمان بن منسا موسى ، لمهلك أبيه قبل مرجع وفده . وأوغز إلى أعراب الفلاة من المعقل بالسير معهم ذاهبين وجاءين ، فشر لذلك علي بن غانم أمير أولاد جارا الله من المعقل ، وصحبهم في طريقهم امتثالاً لأمر السلطان . وتوغل ذلك الركاب في القفر إلى بلد مالي بعد الجهد وطول المشقة ، فأحسن مبرتهم وأعظم موصلهم وأكرم وفادتهم ومنقلبهم . وعادوا إلى مرسلهم في وفد من كبار مالي يعظمون سلطانه ، ويوجبون حقّه ، ويؤدّون طاعته من خضوع مرسلهم وقيامه بحق السلطان واعتماله في مرضاته ما استوصاهم به ، فأدّوا رسالتهم وبلغ السلطان أرباً من اعترازه على الملوك وخضوعهم لسلطانه ، وقضاء حقّ الشكر لله في صنعه .

* (الخبر عن اصهار السلطان الى صاحب تونس) *

لما هلكت ابنة السلطان أبي يحيى بطريف فيمن هلك من حظايا السلطان أبي الحسن بفساطيطه ، بقي في نفسه منها شيء حينئذٍ إلى ما شغفته به من خلالها وعزة سلطانه ، وقيامها على بيتها ، وظفرها في تصرفها^(١) ، والاستمتاع بأصول الترف ولذاذة العيش في عشيرتها ، فسما أمه إلى الاعتياض عنها ببعض أخواتها . وأوفد في خطبتها وليّه عريف بن يحيى أمير زغبة ، وكاتب الجباية والعساكر بدولته أبا الفضل ابن|عبدالله بن أبي مدين ، وفقه الفتوى بمجلسه أبا عبدالله محمد بن سليمان

(١) وفي نسخة ثانية : تصرفاتها .

السطي ، ومولاه عنبر الخصبي ، فوفدوا يوم مثنى من سنة ست وأربعين وسبعائة وأنزلوا منزل البر ، واستبلغ في تكريمهم ودين الحاجب أبو عبد الله بن تافراكين إلى سلطانه غرض وفادتهم ، فأبى من ذلك صوناً لحرمه عن جولة الأقطار وتحكم الرجال ، واستعظماً لمثل هذا العرس . ولم يزل حاجبه ابن تافراكين يخفض عليه الشأن ويعظم عليه حق السلطان أبي الحسن في رد خطبته مع الأذمة السابقة بينهما من الصهر والمخالصة إلى أن أجاب وأسعف . وجعل ذلك إليه فانعقد الصهر بينهما وأخذ الحاجب في شوار العروس ، وتأنق فيه واحتفل واستكثر وطال ثواء الرسل إلى أن استكمل وارتحلوا من تونس لربيع من سنة تسع^(١) وأربعين وسبعائة وأوعز مولانا السلطان أبو يحيى إلى ابنه الفضل صاحب بونة وشقيق هذا العروس أن يزفها على السلطان أبي الحسن قياماً بحقه ، وبعث من بابيه مشيخة من الموحيدين مقدمهم عبد الواحد بن محمد بن أكمازير ، صحبوا ركبها إليه . ووفدوا جميعاً على السلطان واتصل الخبر أثناء طريقهم بمهلك مولانا السلطان أبي يحيى عفا الله عنه ، فعزاهم السلطان أبو الحسن عنه عندما وصلوا إليه ، واستبلغ في تكريمهم وأجمل موعد أخيهما الفضل بسلطانه ومظاهرتة على تراث أبيه فأطمأنت به الدار إلى أن سار في جملة السلطان وتحت ألويته إلى أفريقية كما نذكر إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن حركة السلطان إلى أفريقية واستيلائه عليها) *

كان السلطان أبو الحسن قد امتدت عينه إلى ملك أفريقية لولا مكان السلطان أبي يحيى من ولايته وصهره ، وأقام يتحين لها الأوقات ، ولما بعث إليه في الصهر وأشيع بتلمسان أن الموحيدين ردوا خطبته ، نهض من المنصورة بتلمسان وأغد السير إلى فاس ففتح ديوان العطاء ، وأزاح علل العسكر ، وعقد على المغرب الأقصى لحافده منصور ابن الأمير أبي مالك ، وفوض إلى الحسن بن سليمان بن يرزيكن في أحكام الشرطة ، وعقد له على الضاحية ، وارتحل إلى تلمسان مضمراً الحركة إلى أفريقية حتى إذا جاء الخبر اليقين بالإسعاف والزفاف سكن عزمه^(٢) وهذا طائرته . فلما هلك السلطان أبو

(١) وفي نسخة ثانية : سنة سبع .

(٢) وفي نسخة ثانية : سكن غربه .

يحيى في رجب من سنة سبع وأربعين وسبعمئة ، وكان من قيام ابنه عمر بالأمر ، ونزوع الحاجب أبي محمد بن تافراكين في رمضان منها ما ذكرناه ، تحركت عزائم السلطان لذلك . ورغبه ابن تافراكين في ملك الموحدين ، فرغب وجاء على أثره الخبر بما كان من قتل عمر لأخيه أحمد وليّ العهد ، وكان يستظهر على عهده بكتاب أبيه ، وما أودعه السلطان بحاشيته من الوفاق على ذلك بخطه ، واقتضاه منه حاجبه أبو القاسم بن عتوّ في سفارته إليه ، فامتعض السلطان لما أضاع عمر من عهد أبيه ، وهدر من دم أخيه . وارتكب مذاهب العقوق فيهم ، وخرق السباج الذي فرضه بخطه عليهم ، فأجمع الحركة إلى أفريقية ولحق به خالد بن حمزة بن عمر نازعاً إليه ومستغذاً مسيره ، ففتح ديوان العطاء ونادى في الناس بالمسير إلى أفريقية ، وأزاح عنهم . وكان صاحب بجاية المولى أبو عبدالله حافد مولانا الأمير أبي يحيى ، وفد على السلطان أبي الحسن إثر مهلك جدّه بقرب المآب^(١) بسفارة أبيه إليه ، ويطلب الإقرار على عمله . فلما استيأس منه واستيقن حركته بنفسه إلى أفريقية ، طلب الرجوع إلى مكانه فأسعف وفصل إلى بجاية .

ولما قضى السلطان منسك الأضحى من سنة تسع وأربعين وسبعمئة عقد لابنه الأمير أبي عتّان على المغرب الأوسط ، وعهد إليه بالنظر في أموره كافة ، وجعل إليه جبايته ، وارتحل يريد أفريقية . وسار في جملته هو وخالد بن حمزة أمير البدو . ولما احتلّ بوهْران ووافاه هنالك وفد قسطنطين وبلاد الجريد ، يقدمهم أحمد بن مكّي أمير حربه^(٢) ورديف أخيه عبد الملك في إمارته ، ويحيى بن محمد بن يملول أمير توزر سقط إليها بعد خروج الأمير أبي عمر العباس ولي العهد عنها ، ومهلكه بتونس ، وأحمد بن عامر بن العابد رئيس نفطة ، رجعاً إليهما كذلك بعد مهلك وليّ العهد ، فلقية هؤلاء الرؤساء بوهْران في ملائِم وجوه بلادهم ، فأتوه بيعتهم وقضوا حق طاعته . وتناقل محمد بن ثابت أمير طرابلس عن اللحاق به ، فبعث بيعته معهم ، فأكرم وفدهم وعقد لهم على أمصارهم ، وصرفهم إلى أعمالهم . وتمسك بأحمد بن مكّي لصحابة ركابه ، وفي جملته ، وأغذّ السير . ولما احتلّ ببني حسن من أعمال بجاية ، وافاه بها منصور بن فضل بن مزني أمير بسكرة وبلاد الزاب في وفد من أهل

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي النسخة المصرية : المتات وفي نسخة ثانية : المتاب وفي أخرى المتاب .

(٢) وفي نسخة أخرى : أمير جربة .

وطنه ، ويعقوب بن علي بن أحمد سيّد الزواودة وأمير البدو بضاحية بجاية وقسنطينة ، فتلقّاهم بالمبرّة والاحتفاء والزمهم ساقته . وسرّح بين يديه قائده حمو بن يحيى العسكري^(١) من صنائع أبيه ، فلما عسكر بساحة بجاية أبو عبدالله وأبى عليه أهل البلد رهبة من السلطان ورغبة فيه ، وانفضوا من حوله ، ولحقت مشيختهم من القضاة وأهل الفتيا والشورى بمجلس السلطان . وسابقهم إليه حاجبه فارج مولى ابن سيد الناس ، فأدّى طاعته ورجّعه إليه للخروج للقاء ركا به . وارتحل حتى اذا أطلّت راياته على البلد ، بادر المولى أبو عبدالله ولقيه بساحة البلد ، واعتذر من تخلّفه فتقبّل عذره وأحله من البرّ والتكرمة محل الولد العزيز . وأقطعه عمل كومية من نواحي هُنَيْن ، وأسنى جريته بتلمسان وأصحبه إلى ابنه أبي عَنان صاحب المغرب الأوسط واستوصاه به . ودخل بجاية فرفع عنهم الظلامات وحطّ عنهم الربع من المغارم . ونظر في أحوال ثغورها فثقفها وسدّ فروجها . وعقد عليها لمحمد بن النوار^(٢) من طبقة الوزراء والمرشحين لها ، وأنزل معه حامية من بني مَرين . وكاتب الخراج ببابه بركات بن حسّون بن البوّاق ، وارتحل مَغْدًا لسيره حتى احتل بقسنطينة . وتلقّاه أميرها أبو يزيد حافد مولانا السلطان أبي يحيى وأخواه أبو العبّاس أحمد وأبو يحيى زكريا وسائر إخوتهم ، فأتوه ببيعتهم ونزلوا له عن عملهم . وأداهم السلطان منه بندرومة من عمل تلمسان ، عقد للمولى أبي زيد على إمارتها ، وجعل له إسوة إخوته في أقطاع جبايتها ، ودخل البلد وعقد عليها لمحمد بن العبّاس ، وأنزل معه العبّاس بن عمر في قومه من بني عسكر . وأمضى أقطاعات الزواودة ووافاه هنالك عمر بن حمزة سيّد الكعوب لعهدده وأمير البدو مستحثًا لركابه . وأخبره برحيل السلطان عمر ابن مولانا السلطان أبي يحيى من تونس فيمن اجتمع إليه من أولاد مهلهل أقتاهم من الكعوب موجهاً إلى ناحية قابس . وأشار على السلطان بتسريح العساكر لاعتراضه قبل أن يخلص إلى طرابلس ، فسرح معه حمّو بن يحيى العسكري قائده في عسكر من بني مَرين والجنّد . وارتحلوا في اتباع السلطان أبي حفص ، وتلّوم السلطان أبو الحسن بقسنطينة ، واعترض عساكره بسطح الجعاب منها . وصرف يوسف بن مزني إلى عمله بالزاب ، بعد أن خلع عليه وحمله .

(١) وفي نسخة أخرى : العشري .

(٢) وفي نسخة ثانية : بن النوار .

ثم عقد للمولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى على مكان عمله ببونة ، وملاً
حقائبه جائزةً وخلعاً نفيسةً وسرّحه ، ثم ارتحل على أثرهم وأوعز حمّو بن يحيى مع
الناجعة من أولاد أبي الليل ، ولحقوا بالأمير أبي حفص بمباركة من ناحية قابس ،
فأوقعوا به وتردّى عن فرسه في حومة القتال هو ومولاه ظافر السنان القائم بدولته من
المعلوجي ، فتقبّض عليها وسيقا إلى أبي حمّو فاعتقلها إلى الليل ، ثم ذبحها وأنفذ
برؤسها إلى السلطان . ولحق الفلّ بقابس ، فتقبّض عبد الملك بن مكّي على أبي
القاسم بن عتّو صاحب الأمير أبي حفص وشيخ الموحدين ، وعلى صخر بن موسى
شيخ بني سكين من سدويكش فيمن تقبّض عليه من ذلك الفلّ ، وأشخصهم
مقرنين في الأصفاد إلى السلطان . وسرّح السلطان عساكره إلى تونس ، وعقد عليهم
ليحيى بن سليمان صهره من بني عسكر على إيبته ، وأنفذ معه أحمد بن مكّي فاحتلوا
بتونس ، واستولوا عليها . وانطلق ابن مكّي إلى مكان عمله من هنالك لما عقد له
السلطان عليه وسرّحه إليه بعد أن خلع عليه وعلى حاشيته وحملهم . ونزل السلطان
بناحية باجة ، فوافاه هنالك البريد برأس الأمير أبي حفص . وعظم الفتح .

ثم ارتحل إلى تونس واحتلّ بها يوم الأربعاء الثامن لجمادى الآخرة من سنة ثمان .
وتلقاه وفد تونس وملؤها من شيوخ الشورى وأرباب الفتيا ، فأتوا طاعتهم وانقلبوا
مسرورين بملكهم . ثم عبّى يوم السبت إلى دخولها مواكبه ، وصفّ جنوده سباطين
من معسكره بسيجوم إلى باب البلد يناهز ثلاثة أميال أو أربعة . وركب بنو مرين إلى
مراكزهم في جموعهم وتحت راياتهم . وركب السلطان من فسطاطه وراكبه من على
يمينه وليّه عريف بن يحيى أمير زغبة ، ويليّه أبو محمد عبدالله بن تافراكين ومن على
يساره الأمير أبو عبدالله محمد أخو مولانا السلطان أبي يحيى ، ويليّه الأمير أبو عبدالله
ابن أخيه خالد ، كانا معتقلين بقسنطينة مع ولدهما منذ خروج أخيه الأمير أبي فارس
فأطلقهم السلطان أبو الحسن وصحبوه إلى تونس ، فكانوا طرازاً في ذلك الموكب
فيمن لا يحصى من أعياص بني مرين وكبرائهم . وهدرت طبوله ، وخفقت راياته ،
وكانت يومئذ مائة . وجاء والمواكب تجتمع عليه صفّاً صفّاً إلى أن وصل إلى البلد ،
وقد ماجت الأرض بالجحوش ، وكان يوماً لم يُر مثله فيما عقلناه . ودخل السلطان إلى
القصر وخلع على أبي محمد بن تافراكين كسوته وقرب إليه فرسه بسرجه ولحامه .
وطعم الناس بين يديه وانتشروا . ودخل السلطان مع أبي محمد بن تافراكين إلى حُجَر

القصر ومساكن الخلفاء ، فطاف عليها ودخل منه إلى الرياض المتصلة به المدعوة برأس الطاية ، فطاف على بساتينه وجوائزه ، وأفضى منه إلى معسكره وأنزل يحيى ابن سليمان بقصبة تونس في عسكر لحايتها . ووصل إليه فلّ الأمير أبي حفص والأسرى بقابس مقرنين في أصفادهم ، فأودعهم السجن بعد أن قطع أبا القاسم بن عتّو وصخر بن موسى من خلاف ، لفتيا الفقهاء بحرايتهم^(١) . وارتحل من الغد إلى القيروان فجال في نواحيها . ووقف على آثار الأولين ومصانع الأقدمين والطلول الماثلة لسنهاجة والعبيدين ، وزار أجداد العلماء والصالحين .

ثم سار إلى المهديّة ووقف على ساحل البحر ، ونظر في عاقبة الذير كانوا من قبل أشدّ قوّة وآثاراً في الأرض ، واعتبر بأحوالهم . ومزّ في طريقه بقصر الأجمل ورباط المنستير ، وانكفاً راجعاً إلى تونس ، واحتل بها غرة رمضان وأنزل المسالحي على ثغور أفريقية ، وأقطع بني مرين البلاد والضواحي ، وأمضى أقطاعات الموحدّين للعرب . واستعمل على الجهات وسكن القصر وقد عظم الفتح وعظمت في الاستيلاء على الممالك والدول المنّة . واتصلت ممالكه ما بين مسراته والسوس الأقصى من هذه العدوّة ، وإلى رندة من عدوة الأندلس . والمملك لله يؤتبه من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين * ودفع إليه الشعراء بتونس يهنّونه بالفتح ، وكان سابقهم في تلك التوبة أبو القاسم الرحوي من ناشئة أهل الأدب فرفع إليه قوله :

أجَابَكَ شَرْقٌ إِذْ دَعَوْتَ وَمَغْرِبٌ
وَنَادَاكَ مِصْرُ وَالْعِرَاقُ وَشَامُهُ
وَحَيْتَكَ أَوْ كَادَتْ تُحْيِي مَنَابِرُ
فَسَارَعَ مِنَّا كُلُّ دَانٍ وَشَاسِعُ
وَتَأَقَّتْ لَكَ الْأَرْوَاحُ حُبًّا وَرَغْبَةً
فَفِي الْبَلَدَةِ الْبَيْضَاءِ مَعَشَرُ
وَوَافَتَكَ مِنْ ذَاتِ النَّخِيلِ وَفُودُهَا
وَلَمْ تَتَلَكَّأْ عَنْ إِبَاءِ بَجَايَةِ
تَابَتْ فَلَمَّا أَنْ أَطَلَّتْ عَسَاكِرُ
فَمَكَّةُ هَشَّتْ لِلِقَاءِ وَيَثْرُبُ
بِدَاراً ، فَصَدْعُ الدِّينِ عِنْدَكَ يُشْعَبُ
عَلَيْهَا دُعَاةُ الْحَقِّ بِاسْمِكَ تَخْطُبُ
إِلَى طَاعَةٍ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ تُحْسَبُ
وَأَنْتَ عَلَى الْآمَالِ تَنَائَى وَتَقْرُبُ
وَأَنْتَ بِأَفْقِ النَّاصِرِيَّةِ تَرْقُبُ
فَلَقَاهُمْ أَهْلُ لَدِيكَ وَمَرْحَبُ
وَلَكِنْ تَرَاضِرُ الصَّعْبَ حِينًا وَتَرْكَبُ
تَرَى الشُّهْبَ مِنْهَا تُسْتَبَاحُ وَتُنْهَبُ

(١) وفي نسخة ثانية : بحرايتهم .

تَبَادَرَ مِنْهُمْ مُذْعِنٌ وَمُسْلِمٌ
وَمِمَّا تَوَنَّسَ إِلَّا بِمَضْرُوعٍ
وَمِمَّا أَهْلُهَا إِلَّا بُغَاثٌ لِصَائِدٍ
وَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ كِهْفَ زَعِيمِهِمْ
فَكُلُّهُ يَرَى أَنَّ الزَّمَانَ أَدَاكُهُ
وَكَذَلِكَ إِبْنٌ طَائِعٌ وَإِنْ اعْتَلَتْ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنْ عَدْلَكَ يَنْتَمِي
تَسَامَيْتَ فِي مُلْكٍ وَنَسْكَ بِحُظَّةٍ
إِذَا لَدَى الْأَمْلَاقِ خَمْرٌ مَدَامَةٌ
وَإِنْ أَذْ مَنْ الْقَوْمِ الصَّبُوحِ فَلِإِنَّا
وَإِنْ حَمَدُوا الشَّرْبَ الْغَبُوقِ فَلِإِنَّا
وَإِنْ خَشُنَتْ أَخْلَاقُهُمْ وَتَحَجَّبُوا
لَقَدْ كَرُمْتَ مِنْكَ السَّجَايَا فَأَصْبَحَتْ
كَمَا شِيدَتْ بَيْتاً فِي ذَوَابَةِ مَعْشَرٍ
هُمْ التَّارِكُو قَلْبَ الْقَسَاوِرِ خَضَعاً
هُمْ النَّاسُ وَالْأَمْلَاقُ تَحْتَ جَوَارِهِمْ
هُمْ الْمَالِكُو الْمَلِكِ الْعَظِيمِ فَيَتَمُّ (٣)
لَقَدْ أَصْبَحَتْ بَغْدَادُ تَحْسِداً بِأَسْهُمٍ
تَجَلَّتْ بَيْت (٥) الْمَجْدِ مِنْهُمْ كَوَاكِبُ
فَاللَّهُ مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ بَغْرِيَّة (٦)
لَقَدْ قَامَ عِيدُ الْحَقِّ لِلْحَقِّ طَالِباً
وَأَعْقَبَ يَعْقُوباً يَوْمُ سَيْلِهِ

وَأَذَعَنَ مِنْهُمْ شَاغِبٌ وَمُؤَلَّبٌ
وَفِي حَرَمٍ أَمَسَتْ لِسَدِكَ تَسْرِبُ
وَبِالْعَزِّ مِنْهَا اسْتَنْصَرُوا وَتَعَقَّبُوا
فَهَا أَنْتَ كِهْفٌ لِلْجَمِيعِ وَمَهْرَبٌ
بِكُمْ فَأَجَابَ الْعَيْشُ وَالْعَيْشُ مَخْصَبُ
بِهِ السَّنُّ أَحْوَالاً وَأَنْتَ لَهُ أَبٌ
إِلَى الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَيُنْسَبُ
حَدِيثُكَ مِخْرَابٌ لِسَدِّهَا وَمَرْكَبُ
فَلِذَلِكَ الْقُرْآنُ يُتْلَى وَيُكْتَبُ
عَلَى رَكَعَاتٍ بِالضُّحَى أَنْتَ تَدَابُ
شَرَابُكَ بِسَالِئِمْ ذِكْرٌ مُرْتَبُ
فَمَا أَنْتَ فَظٌّ بَلْ ، وَلَا مُتَحَجِّبُ (١)
إِذَا مَا أَمَرَ الدَّهْرُ تَحَلُّوْا وَتَعَذَّبُ
يَزِيدُهُمْ قَحْطَانُ فُجْرًا وَيَعْرُبُ
وَعَنْ شَاوِهِمْ كَفَّتْ عَيْسِدُ وَأَغْلَبُ
هُمْ الْعُظْمُ الْأَرْضِ الْعَظِيمَةُ مَغْرَبُ (٢)
عَلَى كَاهِلِ السَّبْعِ الشِّدَادِ مُطَنَّبُ
وَحَلَّةٌ وَدَّتْ أَنْ تَكُونَ مَنَاسِبُ (٤)
لَقَدْ حَلَّ مِنْهَا شَارِقٌ وَمَغْرَبُ
يُرُومُ بِنَاهَا الْأَعْجَمِيُّ فَيَعْرَبُ
فَافَاتِهِ مِنْهُ الَّذِي قَامَ يَطْلُبُ
فَلَمْ يُخْطِهِ وَهُوَ السَّيْلُ الْمُنْجَبُ (٧)

(١) وفي نسخة ثانية : فما انت فظ لا ولا متحجب .

(٢) وفي نسخة ثانية : تغرب .

(٣) وفي نسخة ثانية : ودستهم .

(٤) وفي نسخة ثانية : ودجلة ودَّتْ ان يكون بها سب .

(٥) وفي نسخة ثانية : تحلت سباء .

(٦) وفي نسخة ثانية : « ثلثة يعربية يروم بناها » .

(٧) وفي نسخة ثانية : الملُحِب .

وَحَلَفَ عُمَانًا فَلله صَارمٌ
فَكَمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَنٌّ إِغَارَةٌ
وَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ إِتْمَامَ مَنِّيَّةِ
أَتَى بِكَ لِلدِّينِ الْحَنِيفِيِّ آيَةً
فَجِئْتَ بِمَا يَرْضَى بِهِ اللَّهُ سَالِكًا
وَقُمْتَ بِأَمْرِ اللَّهِ حَقَّ قِيَامِهِ
وَأَصْبَحَ أَهْلُ اللَّهِ أَهْلًا وَشِيعَةً
وَحَلَّ بِأَهْلِ الْفَتْكِ مَا حَلَّ عَزْمُهُمْ
وَجَاهَدْتَ فِي الرَّحْمَنِ حَقَّ جِهَادِهِ
وَأَنْقَذْتَ مِنْ أَيْدِي الْإِغَارَةِ أُمَّةً
فَأَصْبَحَتِ الدُّنْيَا عُرُوسًا يَزُفُهَا
فَلَا مِصْرٌ إِلَّا قَدْ تَمَنَّاهُ أَهْلُهُ
وَمَا الْأَرْضُ إِلَّا مِثْلُ أَنْتَ رَبُّهُ
تَمَلَّكَتْ شَطْرَ الْأَرْضِ كَسْبًا وَشَطْرَهَا
يُحِيشُ عَلَى الْأَلْوَابِ وَالْمَاءِ يَمْتَطِي
وَجِيشٌ مِنَ الْإِحْسَانِ وَالْعَدْلِ وَالتَّقَى
فَلَا مَرْكَبٌ إِلَّا يَزِينُ رَاكِبًا
وَلَا رِمْحٌ إِلَّا وَهُوَ أَهْيَفُ خَاطِرٍ
فَكَمْ كَاتِبٌ خَطِيئَةٌ وَدَوَائِيهِ
يَمُرُّ عَلَى الْأَبْطَالِ وَهُوَ كَأَنَّهُ
وَكَمْ كَاتِبٌ لَا يُنْكِرُ الطَّغْنَ رُمُحُهُ
لَهُ مِنْ عَجِيبِ السَّحَرِ بِالْقَوْلِ أَضْرَبُ
فَهَا هُوَ فِي الْأَقْوَالِ وَاشِ حَبْرٌ

بِهِ بَانَ لِلْإِسْلَامِ شَرَعٌ وَمِزْهَبٌ
لِمَا شَادَ أَهْلُ الْكُفْرِ أُمْسَتْ تُخْرَبُ
تَقْلُدُهَا مَنَا مَطِيعٌ وَمُذْنِبٌ
تَعْرِى بِهَا عَنْ لَامِعِ الْحَقِّ غَيْهَبٌ
سَبِيلًا إِلَى رِضْوَانِهِ بِكَ يَذْهَبُ
يَنَاضِلُ عَنْهُ مِنْكَ نَفْضٌ مَدْرَبٌ
لَكُمْ وَلَهُمْ مِنْكُمْ مَكَانٌ وَمَنْصِبٌ
وَقَامَ لَدَيْهِمْ وَاعْظُمُ مَرْقَبٌ (١)
فَرَاهِبُ أَهْلِ الْكُفْرِ بِأَسْكَ يَرْهَبُ
وَأَوَّلَى جِهَادٍ كَانَ بَلٌّ هُوَ أَوْجَبُ
لَا مَرْكَ مِنْ جَارِي الْمَقَادِيرِ (٢) مَغْرَبُ
وَلَا أَرْضٌ إِلَّا بِأَذْكَارِكَ تُخْصِبُ
وَمَا حَلَّهَا إِلَّا الْوُدُودُ الْمُرْجَبُ
وَرَاثًا (٣) فَطَابَ الْكُلُّ إِرْثًا وَمَكْسَبُ (٣)
وَجِيشٌ عَلَى الضُّمْرِ السَّوَابِقِ يَرْكَبُ
وَذَلِكَ لِعَمَرُ اللَّهِ أَغْلَى وَأَغْلَبُ
وَلَا رَاكِبٌ إِلَّا بِهِ أَزْدَانٌ مَرْكَبُ
وَلَا سَيْفٌ إِلَّا وَهُوَ أَيْضُ فَاضِبُ (٤)
وَلَمْ يَقْرَ خَطَاً يَفْتَدِي وَهُوَ يَكْتَبُ (٥)
هَزَبٌ وَأَبْطَالُ الْفَوَارِسِ رَبْرَبُ
خَبِيرٌ بِأَيَّامِ الْأَعَارِبِ مَغْرَبُ
وَفِي هَامَةِ الْقَوْمِ الْمَضَارِبِ مَضْرَبُ
وَهَا هُوَ فِي الْأَمْثَالِ ثَاوٍ مُجْرَبُ

(١) وفي نسخة ثانية : ومثوب .

(٢) وفي نسخة ثانية : التقادير .

(٣) وفي نسخة ثانية : تراثا فطاب الملك إرثا ومكسب .

(٤) وفي نسخة ثانية : مقضب .

(٥) ولم يقر خطا لا ، ولا هو يكتب .

ومن صاحب بُرداً من العلم والتقى
له صبغة في العلم جاءت بأصبع
فيا عسكرياً قد ضمّ أعلام عالم
هم الفئة العلياء والمعشر الذي
لك الفضل في الدنيا على كل قاطن
ويا مالكا^(٢) عدلاً رضى متورعاً
شرعت من الإحسان فينا شريعة
وأسميت أهل النسك إذ كنت منهم
وأعليت قدر العلم إذ كنت عالماً
فمدحك محتوم على كل قائل
فلله كم تُعطي وتمطي وتجنبي
فلا برحت كفاك في الأرض مزنة
ولا زلت في علياء مجدك راقياً
توافى على أقصى أمانيك آمناً

عليه ذبول الداودية تسحب
وشهبان فهم لم يشمهن أشهب
به طاب في الدنيا لنا متقلب
إذا حلّ شعباً^(١) فهو للحق مشعب
ومرتجل أتى يحيى ويذهب
مناقبه العلياء تتلى وتكتب
تساوى بهاناء ومن يتقرب
فمنك أخو التقوى قريب مقرب
فقيماً وفي طلابه لك مارب
ومن ذا الذي يخصي الرمال ويحسب
فللبخر من كفيك قد صبح منسب
يطيب بها للخلق مرعى ومشرب
وشانك المدحوض ينكى وينكب
فلا ير يستغصى ولا يتعصب

الخبر عن واقعة العرب مع السلطان أبي الحسن بالقيروان وما تخللها من الأحداث

كان هؤلاء الكعوب من بني سُلَيْم رؤساء البدو بأفريقية ، وكان لهم اعتزاز على الدولة
لا يعرفون غيره مذ أولها بل وما قبله ، إذ كان سُلَيْم هؤلاء منذ تغلب العرب من مُضَر
على الدول والممالك أول الإسلام انتبذوا إلى الضواحي والقفار ، وأعطوا من صدقاتهم
عن عزة ، وارتاب الخلفاء بهم لذلك حتى لقد أوصى المنصور ابنه المهدي أن لا
يستعين بأحد منهم كما ذكر الطبري . فلما انثالت الدولة العباسية واستبد الموالي من
العجم عليهم ، اعتر بنو سُلَيْم هؤلاء بالقفر من أرض نجد ، وأجلبوا على الحاج
بالحرمين ، ونالهم منهم معرات ، ولما انقسم ملك الإسلام بين العباسية والشيعة

(١) وفي نسخة ثانية : صعباً .

(٢) وفي نسخة ثانية : يا ملكاً .

واختطوا القاهرة ، نفقت لهم أسواق الفتنة والتعزز ، وساموا الدولتين بالهضيمة وقطع السابلة . ثم أغراهم العُبيدِيُّونَ بالمغرب وأجازوا إلى بَرِّقة على أثر الهلالين فخرَّبوا عمرانها وأجروا في خلائها ، حتى إذا خرج ابن غانية على الموحدِّين وانترى بالشغور الشرقيَّة طرابلس وقابس ، واجتمع معه قراقش الغزيّ مولى بني أيوب ملوك مصر والشام ، وانضاف إليهم أفاريق العرب من بني سُليْم هؤلاء وغيرهم ، أجليبوا معه على الضواحي والأمصار ، وصاروا في جملتهم من ناعق فتنهم . ولَمَّا هلك قراقش وابن غانية واستبدَّ آل أبي حفص بأفريقية وأعزَّ الزواودة على الأمير أبي زكريا يحيى ابن عبد الواحد بن أبي حفص ، استظهر عليهم ببني سُليْم هؤلاء ، وزاحمهم بطواعنهم وأقطعهم بأفريقية ونقلهم عن محاللتهم بطرابلس وأنزلهم بالقيروان ، فكان لهم من الدولة مكان وعليها اعتزاز ، ولما افترق سلطان بني أبي حفص ، واستبدَّ الكعوب برياسة البدو ، وضربوا بين أعياصها وسعوا في شقاقها ، وأصابَت منهم وأصابوا منها ، وكان بين مولانا الأمير أبي يحيى وبين حمزة بن عمر أخِي الأمير منازعة وفتن وحرب سجال أعانه عليها ما كان من زحف بني عبد الواد إلى أفريقية وطمعهم في تملك ثغورها ، فكان يستجِرُّ جيوشهم لذلك ، وينصب الأعياص من بني أبي حفص يزاحم بهم ، ثم غلبه مولانا السلطان أبو بكر آخرًا واستجَرَّه إلى الطاعة ما كان من قطع كلمة الزبُون^(١) عن مولانا السلطان أبي يحيى ، وهلاك عدوّه من آل يغمراسن ، بسيف وليّه وظهيره السلطان أبي الحسن ، فأذعن وسكن غرب اعتزازه . وحمل بني سُليْم على إعطاء صدقاتهم ، فأعطوها بالكراهة . ثم هلك باغتيال الدولة له فيما يزعمون ، وقام بالأمر بنوه ولم يعرفوا عواقب الأمور ولا أبلوا باعتساف الدولة ، ولم يعهدوا ولا سمعوا لسلفهم غير الاعتزاز فحدثتهم أنفسهم بالفتنة والاعتزاز على قائد الدولة . وحاربوه فغلبوه ، وأجليبوا على السلطان في ملكه ، ونازلوه بعقر داره سنة اثنتين وأربعين وسبعائة ولما سامهم الأمير ابن مولانا السلطان أبي يحيى الهضيمة بعد مهلك أبيه ، نزعوا إلى أخيه وليّ العهد ، فجاء إلى تونس وملكها سبعا . ثم اقتحم عليه أخوه الأمير أبو حفص فقتله . وتقَبَّض يوم اقتحامه البلد

(١) الزبن : دفع الشيء عن الشيء ، وجرب زبون . تزين الناس ، أي تصدعهم وتدفعهم ، على التشبيه بالناقعة التي تزين ولدها عن ضرعها وتزين الحالب أي تدفعه بفتناتها وقال الجوهري : أما الزبون للغبي والحريف فليس من كلام أهل البادية (لسان العرب) .

على أبي الهول بن حمزة أخيه ، فقتله صبراً بباب داره بالقصبة ، فأسفهم بها .
ونزعوا الى السلطان أبي الحسن ورغبوه في ملك أفريقية واستعدّوه إليها .

ولما تغلب السلطان على الوطن وكانت حاله في الاعتزاز على من في طاعته غير
حال الموحدين وملكوته للبدو غير ملكتهم ، وحين رأى اعتزازهم على الدولة وكثرة ما
أقطعهم من الضواحي والأمصار ، نكره وأداهم من الأمصار التي أقطعهم الموحدون
بأعطيات فرضها لهم في الديوان . واستكثر جبايتهم ، فنقصهم الكثير منها وشكا إليه
الرعية من البدو وما ينالونهم به من الظلامات والجور بفرض الاتاوة التي يسمونها
الخفارة ، فقبض أيديهم عنها وأوعز إلى الرعايا بمنعهم منها ، فارتابوا لذلك ،
وفسدت نياتهم وثقلت وطأة الدولة عليهم فترصدوا لها . وتسامع ذؤبانهم وبواديهم
بذلك ، فأغاروا على قياطين^(١) بني مرين ومسالحهم بثغور أفريقية وفروجها ،
واستاقوا أموالهم ، وكثر شاكيهم^(٢) وأظلم الجحوم منهم بينهم وبين السلطان والدولة .
ووفد عليه بتونس بعد مرجعه من المهديّة وفد من مشيختهم ، كان فيهم خالد بن
حمزة مستحبة^(٣) إلى أفريقية ، وأخوه أحمد وخليفة بن عبد الله بن مسكين ، وابن
عمه خليفة بن بوزيد من أولاد القوس ، فأنزلهم السلطان وأكرمهم .

ثم رفع إليه الأمير عبد الرحمن ابن السلطان أبي يحيى زكريا بن اللحياني كان
في جملته ، وكان من خبره أنه رجع من المشرق بعد مهلك أبيه بمصر كما قدّمناه سنة
إثنتين وثلاثين وسبعمائة فدعا لنفسه بجهات طرابلس . وتابعه أعراب ذباب ، وباع
له عبد الملك بن مكّي صاحب قابس . ونهض معه إلى تونس في غيبة السلطان
لتخريب تامر يزدكت كما ذكرناه ، فملكها أياما وأحس بمرجع السلطان فأجفل
عنها . ولحق عبد الواحد بن اللحياني إلى تلمسان ، إلى أن دلف إليها السلطان أبو
الحسن بعساكره ، ففارقهم وخرج إليه ، فأحلّه محل التكرمة والمبرة واستقرّ في جملته
إلى أن ملك تونس . ورفع إليه عند مقدم هذا الوفد أنّهم دسّوا إليه مع بعض
حشمه ، وطلبوه في الخروج معهم لينصبّوه للأمر بأفريقية وتبرّأ إلى السلطان من

(١) القيطون : المخدع ، أعجمي ، وقيل : بلغة أهل مصر وبربر : قال ابن بري : القيطون بيت في بيت
(لسان العرب) .

(٢) وفي نسخة ثانية : : كثر شاكيهم .

(٣) كذا في النسخة الباريسية ولا معنى لها هنا وفي نسخة ثانية : مستحبه .

ذلك ، فأحضروا بالقصر ووبخهم الحاجب علال بن محمد بن المصمود ، وأمر بهم ، فسحبوا إلى السجن .

وفتح السلطان ديوان العطاء وعسكر بسيجوم من ساحة البلد بعد قضائه منسك الفطر من سنته . وبعث في المسالح والعساكر فتوافت إليه واتصل الخبر بأولاد أبي الليل وأولاد القوس باعتقال وفدهم وعسكرة السلطان لهم ، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وتفاقدوا على الموت ، وبعثوا إلى أقاتلهم أولاد مهلهل بن قاسم بن أحمد . وكانوا بعد مهلك سلطانهم أبي حفص قد لحقوا بالقفر وانتبدوا عن أفريقية فراراً من مطالبة السلطان بما كانوا شيعاً لعدوهم . فأغذ السير إليهم أبو الليل بن حمزة متطارحاً عليهم بنفسه في الاجتماع على الخروج على السلطان ، فأجابوه وارتحلوا معه . وتوافت أحياء بني كعب وحكيم جميعاً بتوزر من بلاد الجريد ، فهدروا الدماء بينهم وتدامروا وتبايعوا على الموت ، واتمسوا من أعياص الملك من ينصبونه للأمر ، فدلهم بعض سماسرة الفتن على رجل من أعقاب أبي دبوس فريسة بني مرين من خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش ، عندما استولى عليها . وكان من خبره أن أباه عثمان بن إدريس بن أبي دبوس لحق بمهلك أبيه بالأندلس ، وصحب هنالك مرغم بن صابر شيخ بني ذباب وهو أسير ببرشلونة . فلما انطلق من أسره صحبه إلى وطن ذباب بعد أن عقد قص برشلونة بينها حلفاً ، وأمدّهما باسطول على مال الترماء له . ونزل بضواحي طرابلس وجبال البربر بها ، ودعا لنفسه هنالك وقام بدعوته كافة العرب من ذباب ، وقاتل طرابلس ، فامتنعت عليه . ثم بايعه أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب بأفريقية ، وأجلب به على تونس ، فلم يتم أمره لرسوخ دعوة الحفصيين بأفريقية وانقطاع أمر بني عبد المؤمن منها ، وآثارهم منذ الأحوال العديدة والآماد المتقدمة فَنسي أمرهم .

وهلك عثمان بن إدريس هذا بجربة ، ثم ابنه عبد السلام بعده ، وترك من الولد ثلاثة : أصغرهم أحمد ، وكان صناع الدين . ولحقوا بتونس بعدما طوّحت بهم طوائع الاغتراب ، وظنّوا أن قد تنوسي شأن أبيهم ، فتقبّض عليهم مولانا السلطان أبو يحيى وأودعهم السجن إلى أن غرّبهم إلى الاسكندرية سنة أربع وأربعين وسبعائة ورجع أحمد إلى أفريقية ، واحتل بتوزر محترفاً بالخياطة يتعيش منها ، فاستدعاه بنو كعب هؤلاء حين اتفقت أهواؤهم ومن اتبعهم من أحلافهم أولاد القوس ، وسائر

شعوب علاق . وخرج إليهم من توزر فنصبوه للأمر وجمعوا له شيئاً . من الفساطيط والآلة والكسوة الفاخرة والمقربات . وأقاموا له رسم السلطان ، وعسكروا عليه بحلّهم وقياطينهم ، وارتحلوا المناجزة السلطان ، ولما قضى منسك الأضحى من سنة ثمان وأربعين وسبعمئة ارتحل من ساحة تونس يريدهم ، فوافاهم في الفرح بين بسيط تونس وبسيط القيروان المسمى بالثنية ، فأجفلوا أمامه وصدقوه القتال منهزمين ، وهو في اتباعهم إلى أن احتلّ بالقيروان ، ورأوا أن لا ملجأ منه ، فتذامروا واتفقوا على الاستماتة ، ودسّ إليهم من عسكر السلطان بنو عبد الواد ومغراوة وبنو توجين فغلبوا بني مرين ، ووعدوهم بالمناجزة صبيحة يومهم ليتحيزوا إليهم براياتهم ، وصبحوا معسكر السلطان ، وركب إليهم في الآلة والتعبية ، فاحتلّ المصاف ، وتحيز إليهم الكثير ، ونجا السلطان إلى القيروان فدخلها في الفلّ من عساكره ثامن المحرم سنة تسع وأربعين وسبعمئة ، وتدافعت ساقات العرب في أثره وتسابقوا إلى المعسكر ، فأنهبوه ودخلوا فسطاط السلطان ، فاستولوا على ذخيرته والكثير من حرمه ، وأحاطوا بالقيروان ، وأحاطت^(١) حلّهم بها سياجاً ، وتعاوت ذئابهم بأطراف البقاع ، وأجلب ناعق الفتنة من كل مكان . وبلغ الخبر إلى تونس فاستحصن بالقصبة أولياء السلطان وحرمه ، ونزع ابن تافراكين من جملة السلطان بالقيروان إليهم ، ففقدوا له على حجابة سلطانهم أحمد بن أبي دبّوس ودفعوه إلى محاربة من كان بالقصبة بتونس ، وأغذّ إليها السير واجتمع إليه أشياخ الموحّدين وزعانف الغوغاء والجنّد ، وأحاطوا بالقصبة ، وعاودها^(٢) القتال ، ونصب المنجنيق لحصارها . ووصل سلطانه أحمد على أثره ، فامتنعت عليهم ، ولم يغنوا فيها غناء ، وافترق أمر الكعوب وخالف بعضهم بعضاً إلى السلطان ، وتساقطوا إليه ، فتنفّس مخنق الحصار عن القيروان ، واختلفت إليه رسل أولاد مهلهل ، وأحسن بهم أولاد أبي الليل بن حمزة بنفسه ، وعاهد السلطان على الإفراج ، ولم يفوا بعهده . وداخل السلطان أولاد مهلهل في الخروج إلى سوسة ، فعاهدوه على ذلك . وأوعز أسطوله بمرساها وخرج معهم ليلاً على تعبئة ، فلحق بسوسة وبلغ الخبر إلى ابن تافراكين بمكانه من حصار القصبة ، فركب السفين ليلاً إلى الإسكندرية . وارتاب سلطانهم ابن أبي دبّوس ، لما وقف

(١) وفي نسخة ثانية : وأحدثت .

(٢) وفي نسخة ثانية : وغادها .

على خبره فانفضّ جمعهم وأفرجوا عن القصة . وركب السلطان أسطوله من سوسة ، ونزل بتونس آخر جمادى واعتمل في اصلاح أسوارها وإدارة الخندق عليها ، وأقام لها من الامتناع والتحصين رسماً ثبت له من بعده ، ودفع به في نحر عدوّه . واستقلّ من نكبة القيروان وعثرتها ، وخلص من هوّتها والله يفعل ما يشاء . ولحق أولاد أبي الليل وسلطانهم أحمد بن أبي دبّوس بتونس ، فأحاطوا بالسلطان واستبلغوا في حصاره ، وخلصت ولاية أولاد مهلهل للسلطان ، فعول عليهم ثم راجع بنو حمزة رأيهم في طاعة السلطان فدخل كبيرهم عمر إليه في شعبان ، وتقبّضوا على سلطانهم أحمد بن أبي دبّوس وقادوه إلى السلطان استبلاغاً في الطاعة ، واحماضاً للولاية فتقبّل فيثتهم ، وأودع ابن أبي دبّوس السجن ، وأصهر إلى عمر بابنه أبي الفضل ، فعقد له على بنته ، واختلفت أحوالهم في الطاعة والانحراف إلى أن كان ما نذكر . والله غالب على أمره .

* (الخبر عن انتفاض الثغور الغربية ورجوعها إلى دعوة الموحدين) *

كان المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى ، لما قدم على السلطان أبي الحسن بتلمسان في زفاف شقيقته سنة سبع وأربعين وسبعمائة بعدما اتصل به في طريقه مهلك أبيه ، أوسع له السلطان كنفه ، ومهّد له جانب كرامته وبرّه ، وغمز له بوعد في المظاهرة على ملك أبيه تعزى به عن فقدّه . وارتحل السلطان إلى أفريقية . والمولى الفضل يرجو أن يجعل سلطانها إليه ، حتى إذا استولى السلطان على الثغرين بجاية وقسنطينة ، وارتحل إلى تونس ، عقد له على مكان إمارته أيام أبيه ببونة ، فصرفه إليه ، فانقطع أمله وفسد ضميره وطوى على البث^(١) حتى إذا كانت نكبة السلطان بالقيروان ، ساء إلى التوثّب على ملك سلفه . وكان أهل قسنطينة وبجاية قد برموا من الدولة ، واستنقلوا وطأة الإيالة لما اعتادوا من الملك الرفيق^(٢) ، فأشربوا إلى الثورة

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى البث . وثّ الخبر أفشاه . وبثّ الخبر إذا عده ونشره . والأصح البث بمعنى أشدّ الحزن أو الحزن الشديد (قاموس) وقد مرّت معنا هذه الكلمة في مواضع كثيرة من هذا الكتاب .

(٢) وفي نسخة ثانية : لما اعتادوا من الملكة الرقيقة

عندما بلغهم خبر النكبة . وقد كان توافى بقسنطينة ركاب من المغرب في طوائف من الوفود والعساكر ، وكان فيهم ابن صغير من أبناء السلطان ، عقد له على عسكر من أهل المغرب ، وأوعز إليه باللاحق بتونس ، وفيهم عمّال المغرب قدموا عند رأس الحول بجبايتهم وحسابهم ، وفيهم أيضاً وفد من زعماء النصارى بعثهم الطاغية ابن أدفونش مع تاشفين ابن السلطان لما أطلقه من الأسر بعدما عقد السلم والمهادنة ، وكان أسيراً عندهم من لدن واقعة طريف كما ذكرناه . وكان أصابه مسّ من الجنون . فلما خلصت الولاية بين السلطان والطاغية ، وعظم عنه الاتحاف والمهادنة ، وبلغه خبر السلطان وتملكه أفريقية ، أطلق ابنه تاشفين وبعث معه هؤلاء الزعماء للتهنئة ، وفيهم أيضاً وفد من أهل مالي ملوك السودان بالمغرب ، أوفدهم ملكهم منسا سليمان للتهنئة بسلطان أفريقية . وكان معهم أيضاً يوسف بن مزني عامل الزاب وأميره ، قدم بجباية عمله . واتصل به خبر الركّاب بقسنطينة فلاحق بهم مؤثراً أصحابتهم إلى سدة السلطان . وتوافت هؤلاء الوفود جميعاً بقسنطينة ، واعصّوبوا على ولد السلطان . فلما وصل خبر النكبة اشرب الغوغاء من أهل البلد إلى الثورة ، وتحلّبت شفاهم إلى ما بأيديهم من أموال الجباية وأحوال الثورة ، فنقموا عليهم سوء الملكة ، ودسّ مشيختهم إلى المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى بمكانه من بونة ، وقد كشف القناع في الانتراء على عمله والدعاء لنفسه ، فخطبوه للأمر ، واستحثّوه للقدوم ، فأغذّ السير . وتسامع بخبره أولياء السلطان ، فخشي ابن مزني على نفسه ، وخرج إلى معسكره بحلة أولاد يعقوب ابن علي أمير الزاودة ، ولحق ابن السلطان وأولياؤه إلى القصبة . ومكر بهم أهل البلد في الدفاع دونهم حتى إذا أطلت رايات المولى الفضل وثبوا بهم ، وحجزوهم إلى القصبة وأحاطوا بها حتى استرلّوهم على أمان عقدوه لهم . ولحقوا بحلة يعقوب ، فعسكروا بها بعد أن نقض أهل البلاد عهدهم في ذات يدهم ، فاستصفوه وأشار عليهم ابن مزني باللاحق ببسكرة لتكون ركابهم إلى السلطان ، فارتحلوا جميعاً في جوار يعقوب لما له في تلك الضواحي ، حتى لحقوا ببسكرة ، ونزلوا منها على ابن مزني خير نزل ، وكفاهم كل شيء يهيمهم على طبقاتهم ومقاماتهم ، وعناية السلطان بمن كان وافداً منهم ، حتى سار بهم يعقوب بن علي إلى السلطان وأوفدهم عليه في رجب من سته . واتصل الخبر بأهل بجاية بالفعل التي فعل أهل قسنطينة ، فساجلوهم في الثورة . وكنسوا منازل أولياء السلطان وعمّاله ،

فاستباحوها واستلبوهم وأخرجوهم من بين ظهرانيهم عراة ، فلهقوا بالمغرب وطَّروا الخبر إلى المولى الفضل ، واستحثَّوه للقدوم ، فقدم عليهم وعقد على قسنطينة وبونة لمن استكفى به من خاصَّته ورجالات دولته ، واحتل بجاية لشهر ربيع من سنته . وأعاد ملك سلفه . واستوسق أمره بهذه الثغور إلى أن كان من خبره مع السلطان بعد خروجه من بجاية ما نذكره ان شاء الله .

الخبر عن انتراء أولاد السلطان بالمغرب الأوسط والأقصى ثم استقلال أبي عنان بملك المغرب

لما اتصل خبر النكبة بالقيروان بالأمير أبي عنان ابن السلطان ، وكان صاحب تلمسان والمغرب الأوسط ، وتساقط إليه الفلّ من عسكر أبيه عراة زرافات ووحدانا ، وأرجف الناس بمهلك السلطان بالقيروان ، فتناول الأمير أبو عنان للاستئثار بسلطان أبيه دون الأبناء ، لما كان له من الإيثار عند أبيه لصيانتة وعفافه ، واستظهاره القرآن ، فكان محلاً بعين أبيه لأمثالها . وكان عثمان بن يحيى بن جرار من مشيخة بني عبد الواد وأولاد يندوكسن^(١) بن طاع الله منهم ، وكان له محل من الدولة كما ذكرناه عند أخباره ، وكان السلطان أذن له في الرجوع إلى المغرب ، فرجع من معسكره بالمهدية ، ونزل بزاوية العباد من تلمسان ، وكان مسمتاً وقوراً ، جُهينة خبر ممتعاً في حديثه ، وكان مرجماً فيه الوقوف على الحدثنان . وكان الأمير أبو عنان متشوقاً إلى خبر أبيه ، ففرع إلى عثمان بن جرار في تعرفها . واستدعاه وأنس به ، وكان في قلبه مرض من السلطان ، فأودع إذن الأمير أبي عنان ما أراد من الأماني بتورط السلطان في المهلكة ، وبشَّره بمصير الأمر إليه ، فصادف منه إذناً واعية . واشتمل عليه ابن جرار من بعدها . وردَّ الخبر بنكبة السلطان فأغراه ابن جرار بالتؤب على الملك ، وسؤل له الاستئثار به من دون إخوانه يقيناً بمهلك السلطان . ثم أوهمه الصدق بارجاف الناس بحوت السلطان ، فاعترم وشحذ عزيمته في ذلك ما اتصل به من حافد السلطان منصور ابن الأمير أبي مالك صاحب فاس وأعمال المغرب من الانتراء على عمله ، وأنه فتح ديوان العطاء واستلحق واستركب لغيبة بني مرين عن

(١) وفي نسخة ثانية : تيدوكسن .

بلادهم ، وخلاء جوه من عساكرهم ، وأظهر العسكر والحشد لاستنقاذ السلطان من هوة القيروان يسدّ منها حسواً في ارتقاء ، وتفتن لشأنه الحسن بن سليمان بن يرزيكن عامل القصبه بفاس ، وصاحب الشرطة بالضواحي ، فاستأذنه بالالحاق بالسلطان ، فأذن له راحة من مكانه . وأصبحه عمال المصامدة ونواحي مراكش ليستقدمهم على السلطان بجباياتهم ، فلحق بالأمير أبي عنان على حين أمضى عزمته على التوثب والدعاء لنفسه ، فقبض أموالهم وأخرج ما كان بموضع السلطان بالنصورة من المال والذخيرة ، وجاهر بالدعاء لنفسه ، وجلس للبيعة بمجلس السلطان من قصره في ربيع سنة تسع وأربعين وسبعائة فبايعه الملاء . وقرأ كتاب بيعتهم على الإشهاد ، ثم بايعه العامة ، وانفض المجلس وقد عقد سلطانه ورست قواعد ملكه . وركب في التعبية والآلة حتى نزل بقبة الملعب . وطعم الناس وانتشروا وعقد على وزارته للحسن بن يرزيكن ، ثم لفارس بن ميثون بن ورداد وجعله رديفاً له وتبعاً . ورفع مكان ابن جرار عليهم . واختصّ لولايته ومناجاة خلوته كاتبه أبا عبدالله محمد بن محمد بن أبي عمر^(١) وسنذكر خبره . ثم فتح الديوان واستركب من تساقط إليه من فلّ أبيه ، وخلع عليهم ودفع إليهم أعطياتهم وأزاح عنهم . وبينما هو يريد الرحلة إلى المغرب بلغه أن ونزمار بن عريف وليّ السلطان ، وخالسته عريف بن يحيى ، وكان أمير زغبة لعهد ومقدماً على سائر البدو ، وبلغه أنه قد جمع له يريد حربه ، وغلبه على ما صار إليه من الانتزاع والثورة على أبيه . وأنه قصد تلمسان بجموعه من العرب وزناتة المغرب الأوسط ، فعقد للحسن بن سليمان وزيره على حربه وأعطاه الآلة وسرّحه للقاءه ، وسرّح معه من حضر من بني عامر أقتال سويد ، وارتحل في عسكره حتى احتلّ تسالة ، وناجزه ونزمار الحرب ، ففلّت جموعه ومنحوا أكتافهم ، واتبع الوزير عسكرهم^(٢) ، واكتسح أموالهم وحلّهم ، وعاد إلى سلطانه بالفتح والغنائم . وارتحل الأمير أبو عنان إلى المغرب ، وعقد على تلمسان لعثمان بن جرّار وأنزله بالقصر القديم منها ، حتى كان من أمره مع عثمان بن عبد الرحمن ما ذكرناه في أخبارهم . ولما انتهى إلى وادي الزيتون وشى إليه بالوزير الحسن بن سليمان أنه مضمرّ الفتك به بتازي تزلفاً إلى السلطان ووفاء بطاعته ، وأنه داخل في ذلك الحافد منصوراً صاحب

(١) وفي نسخة ثانية : أبا عبدالله بن محمد ابن القاضي عبدالله بن أبي عمر .

(٢) وفي نسخة ثانية : واتبع الوزير وعسكره آثارهم .

أعمال المغرب ، بما كان يظهر من طاعة جدّه ، فارتاب الأمير أبو عَنان به واستظهر واشي على ذلك بكتابه . فلما قرأه تقبّض عليه ، وقتله بالمساء خنقاً ، وأغذ السير إلى المغرب . وبلغ الخبر منصور بن أبي مالك صاحب فاس فرحف للقاءه ، والتقى الجمعان بناحية تازى وبوادي أبي الاجراف ، فاختلّ مصاف منصور وانهزمت جموعه ولحق بفاس . وانحجر بالبلد الحديد وارتحل الأمير أبو عَنان في أثره ، وتسایل الناس على طبقاتهم إليه ، وآتوه الطاعة وأناخ بعساكره على البلد الحديد في ربيع الآخر سنة تسع وأربعين ، وأخذ بمخنفها وجمع الأيدي والفعلة على الآلات لحصارها ، ولحين نزوله على البلد الحديد أوعز إلى الوالي بمكانه ، أن يطلق أولاد أبي العلاء المعتقلين بالقصبة ، فأطلقهم ولحقوا به فأقاموا معه على حصار البلد الحديد ، وطال تمرّسه بها إلى أن ضاقت أحوالهم واختلفت أهواؤهم ، ونزع إليه أهل الشوكة منهم . ونزع إليهم عثمان بن إدريس بن أبي العلاء فيمن إليه من الحاشية بإذنه له في ذلك سرّاً ليتمكن إليه^(١) ، فدرسّ إليه وواعدوه الثورة بالبلد ، فثار بها واقتحمها الأمير أبو عَنان عليهم ، ونزل منصور بن أبي مالك على حكمه ، فاعتقله إلى أن قتله بمحبسه ، واستولى على دار الملك وسائر أعمال المغرب وتسابت إليه وفود الأمصار للتهنئة بالبيعة . وتمسّك أهل سبتة بطاعة السلطان والانقياد لقائدهم عبدالله بن علي بن سعيد من طبقة الوزراء حيناً ، ثم توثّبوا به وعقدوا على أنفسهم للأمير أبي عَنان ، وقادوا عاملهم إليه . وتولى كِبَر الثورة فيهم زعيمهم الشريف أبو العباس أحمد بن محمد بن رافع من بيت أبي الشريف من آل الحسين^(٢) ، كانوا انتقلوا إليها من صقلية ، واستوسق للأمير أبي عَنان ملك المغرب ، واجتمع إليه قومه من بني مرين للأمر ، وأقام مع السلطان بتونس وفاءً بحقّه ، وحصّ جناح أبيه عن الكُرّة على الكعوب الناكثين لعهدّه ، الناكثين عن طاعته ، فأقام بتونس يرجو الأيام ، ويؤمّل الكُرّة . والأطراف تتنقض والخوارج تتجدّد إلى أن ارتحل إلى المغرب بعد اليأس ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

(١) وفي نسخة ثانية : ليكنه منهم .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : آل الحسن .

الخبر عن انتقاض النواحي وانتزاع بني عبد الواد بتلمسان ومغراوة بشلف وتوجين بالمرية

لما كانت نكبة السلطان القيروان وانتثر ملك زناته ، وانتقضت قواعد سلطانهم ، اجتمع كل قوم منهم لابرام أمرهم والنظر في شأن جماعتهم ، وكانوا جميعاً نزعوا إلى الكعوب الخارجين على السلطان ، وبنزوعهم تمت الدبرة عليه . ولحقوا بتونس مع الحاجب أبي محمد بن تافراكين ليلحقوا منها بأعمالهم . وكان في جملة السلطان جماعة من أعيانهم منهم عثمان وإخوته الزعيم ويوسف وإبراهيم أبناء عبد الرحمن بن يحيى ابن يغمراسن بن زيان سلطان بني عبد الواد ، صار في إيالة السلطان منذ فتح تلمسان وإنزالهم بالجزيرة للرباط . ثم رجعوا بعد استئثار الطاغية بها من مكانهم من دولته ، وساروا إلى القيروان تحت لوائه ومنهم علي بن راشد بن محمد بن منديل . وقد ذكرنا أخبار أبيه وأنه ربي في إيالة السلطان وجو الدولة يتيماً ، وكفلته نعمتها منذ نشأته حتى كأنه لا يعرف سواها ، فاجتمع بنو عبد الواد بتونس وعقدوا على أنفسهم لعثمان ابن عبد الرحمن لما كان كبير إخوته ، وأتوه ببيعتهم شرقي المصلى العتيق المطل على سيجوم من ساحة البلد ، لعهد بهم يومئذ . وقد وضعوا له درقة بالأرض من اللط أجلسوه عليها ، ثم ازدحموا مكبين على يده يقبلونها للبيعة . ثم اجتمع من بعدهم مغراوة إلى علي بن راشد وبايعوه وحفوا به . وتعاهد بنو عبد الواد ومغراوة على الألفة وانتظام الكلمة وهدر الدماء . وارتحلوا إلى أعمالهم بالمغرب الأوسط ، فترل علي بن راشد قومه بموضع عملهم من ضواحي شلف ، وتغلبوا على أمصاره وافتتحوا تدلس^(١) وأخرجوا منها أولياء السلطان وعسكره ، وقتلوا القاضي بمازونة سرحان ، كان مقيماً بها لدعوة السلطان ، ثم سولت له نفسه التوثب والانتزاع ، فدعا لنفسه ، وقتله علي بن راشد وقومه .

وأجاز عبد الرحمن وقومه من بني عبد الواد إلى محل ملكهم بتلمسان ، فألفوا عثمان ابن جرار قد انترى بها بعد منصرف الأمير أبي عنان ودعا لنفسه ، فتجهّم له الناس لتوثبه على المنصب الذي ليس لأبيه ، واستمسك بالبلد أياماً يؤمل نزوع قومه إليه . ثم

(١) وفي نسخة ثانية : تنس

زحف إليه بنو عبد الواد وسلطانهم فصدقوه الزحف ، وثارت به الغوغاء ، وكسروا أبواب البلد ، وخرجوا إلى السلطان فأدخلوه القصر ، واحتلّ به في جمادى من سنة تسع وأربعين وسبعمائة وتسابق الناس إلى مجلسه مثنى وفرادى ، وبايعوه البيعة العامة . ثم تفقد ابن جرار ، ثم أغرى به البحث ، فعثر عليه ببعض زوايا القصر ، واحتمل إلى المطبق فأودع به إلى أن سرب إليه الماء فمات غريقاً في هوته . وساهم السلطان أبو سعيد عثمان أخاه أبا ثابت الزعيم في سلطانه ، وأشركه في أمره ، وأردفه في ملكه ، وجعل إليه أمر الحرب والضواحي والبدوكلها . واستوزر قريبه يحيى بن داود بن مكن ، من ولد محمد بن يندوكس بن طاع الله ، واستوسق ملكهم ، وأوفدوا مشيختهم على الأمير أبي عثان صاحب المغرب ، وسلطان بني مرين ، ففقدوا معه السلم والمهادنة ، واشترطوا له عن أنفسهم دفاع السلطان إليه . وزحفوا إلى وهران من ثغور أعمالهم ، ونازلوا بها أولياء السلطان وعساكره ، وعاملها يومئذ عبدالله بن أجانا^(١) من صنائع السلطان أبي الحسن إلى أن غلبوه عليها ، واستترلوه صلحاً لأشهر من حصارها .

واستمسك أهل الجزائر بطاعة السلطان ، واعتصموا بها ، وعقد عليها لقائده محمد ابن يحيى بن العسكري^(٢) من صنائع أبيه ، بعثه إليهم من تونس بعد نكبة القيروان . ونجم بالمدينة علي^(٣) بن يوسف بن زيّان بن محمد بن عبد القوي داعياً لنفسه ، وطالباً سلطان سلفه ، وامتنع عليه معقل ملكهم بجبل وانشرش لمكان ولد عمر بن عثمان وقومهم من بني تيغرين في رياسته ، وانحاش إليه أولاد عزيز من بني توجين أهل صاحبة المدينة فقاموا بأمره ، واعصوبوا عليه ، وكانت بينه وبين أبناء عمر بن عثمان بوانشرش حرب سجال إلى أن هلك ، وخلص أمر بني توجين لابناء عمر بن عثمان ، وهم على مذهبيهم من طاعة السلطان وتمسكهم بدعوته ، وهو مقيم خلال هذا بتونس إلى أن أزمع الرحلة ، واحتل بالجزائر كما نذكره إن شاء الله تعالى .

(١) وفي نسخة ثانية : عبّو بن جانا .

(٢) وفي نسخة ثانية : محمد بن يحيى العشري .

(٣) وفي نسخة ثانية : عدي .

* (الخبر عن رجوع الثغور الغربية لأمراء الموحدين ببجاية وقسنطينة) *

لما توثب الأمير أبو عنان على ملك أبيه وبويع بتلمسان ، وكانت للأمير أبي عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكريا صاحب ببجاية لديه خلّة ومصافاة ، من لدن بعثه إليه السلطان أبوه من ببجاية . وأنزله بتلمسان فدعا له السابقة وآثره بالإمارة ، وعقد له على محل إمارته من ببجاية ، وأمدّه بما يرضيه من المال والسلاح . ودفعه إليها ليكون حجراً دون السلطان بتونس ، وضمن له هذا الأمير صدّه عن الخلوص إليه ، وسدّ المذاهب دونه . وأوعز أبو عنان إلى أساطيله بوهّران ، فركبها الأمير إلى تدلس ودخلها . ونزل إليه صنهاجة أهل ضاحية ببجاية ، عن عمّه الأمير أبي العباس الفضل . واعصوبوا عليه ، وقاموا بأمره لقديم نعمته وسالف إمارة أبيه . ولما ارتحل الأمير أبو عنان إلى المغرب ، رحل في جملته الأمير أبو زيد عبد الرحمن ابن الأمير أبي عبد الله صاحب قسنطينة ومعه إخوته ، فاخصّصهم يومئذ بتغريبه وخططهم بنفسه . فلما غلب الأمير أبو عنان منصور ابن أخيه أبي مالك على البلد الجديد ، واستولى على المغرب . رأى أن يبعث ملوك الموحدين إلى بلادهم ، ويدفع في صدر أبيه بمكانهم . فسرح الأمير أبا زيد وإخوته ، وكان منهم السلطان أبو العباس الذي جبر الله به الصدع . ونظم الشمل ، فوصلوا إلى موطن ملكهم ومحل إمارتهم . وكان مولاهم نبيل حاجب أبيهم قد تقدّم إلى ببجاية ، ولحق بالأمير أبي عبد الله من حصارها . ثم تقدّم إلى قسنطينة وبها مولى من موالي السلطان المتغلب عليها ، وهو الأمير أبو العباس الفضل . فلحين إطلاله على جهاتها وشعور أهلها بمكانه . لفحت منهم عزائر المودّة . وذكروا جميع الإيالة . وأجمعوا التوثب بوالهيم . واحتلّ نبيل بظاهر قسنطينة . فشرهت العامة إلى إمارته . والقيام بدعوة مواله . وتوثب أشياءهم على أولياء عمّهم . فأخرجوهم . واستولى القائد نبيل على قسنطينة وأعمالها . وأقام دعوة الأمير أبي زيد وإخوته كما كانت أول مرّة بها : وجاؤا من المغرب إلى مراكز إمارتهم . ودعوتهم بها قائمة . ورايتهم على أنحائها خافقة . فاحتلوا بها حلول الآساد

بعرانيتها^(١) والكواكب بآفاقها ، ونهض الأمير أبو عبدالله محمد فيمن اجتمع إليه من البطانة والأولياء ، إلى محاصرة بلد بجاية ، فأحجر عمّه بالبلد ، وأخذ بمخنقتها أياماً ، ثم أفرج عنها ، ثم رجع إلى مكانه من حصارها . ودسّ إليه بعض أشياءه بالبلد ، وسرّب إليه المال في الغوغاء ، فواعدوه فتح أبواب الربض في إحدى ليالي رمضان سنة تسع وأربعين وسبعمائة واقتحم البلد وملاء الفضاء بهدير طبوله ، فهبّ الناس من مراقدهم فزعين وقد ولج الأمير وقومه البلد . ونجا الأمير الفضل إلى شعاب الجبل وكواريه المطلّ على القصبّة راجلاً حافياً ، فاختمى به إلى أن عثر عليه ضحى النهار ، وسيق إلى ابن أخيه ، فحنّ عليه وأركبه السفين إلى محل إمارته من بونة . وخلص ملك بجاية للأمير أبي عبدالله هذا واقتعد سرير آبائه بها ، وكتبوا للأمير أبي عنان بالفتح ، وتجديد المخالصة والموالاة ، والعمل عن مدافعة أبيه من جهاته ، والله تعالى أعلم .

الخبر عن نهوض الناصر ابن السلطان ووليه عريف بن يحيى من تونس الى المغرب الأوسط

لما بلغ السلطان خبر ما وقع بالمغرب من انتقاض أطرافه ، وتغلّب الأعياص من قومه وسواهم على أعماله ، ووصل إليه يعقوب بن علي أمير الزاودة بولده وعماله ووفده ، نظر في تلافي أمره بتسريع ولده الناصر إلى المغرب الأوسط لارتجاع ملكه ، ومحو آثار الخوارج من أعمالهم . فنهض مع يعقوب بن علي وأصحابه ووليه عريف بن يحيى أمير زغبة ليستظهر به على ملك المغرب ، وقدمها طليعة بين يديه ، وسار الناصر إلى بسكرة ، واضطرب معسكره بها ، ثم فصل من بلاد رياح إلى بلاد زغبة ، واجتمع إليه أوليائهم من العرب ومن زناتة من بني توجين أهل وانشرش وغيرهم . وزحف إليهم الزعيم أبو ثابت من تلمسان في قومه من بني عبد الواد وغيرهم للمدافعة . والتقى الجمعان بوادي وَرَكْ فأنفضّت جموع الناصر واندعروا ، ورجع على عقبه إلى بسكرة وخلص عريف بن يحيى إلى قومه سويد ، ثم قطع القفر إلى المغرب الأقصى . ولحق

(١) العرانيين ج عرين وهو السيد الشريف والصحيح ان يقول عرائنها : جمع عرين وهو مأوى الاسد (قاموس).

بالأمير أبي عنان فتنزل منه بالطف محل ، ورجع الناصر إلى بسكرة ، وارتحل مع أوليائهم أولاد مهلهل لمداغة أولاد أبي الليل وسلطانهم المولى الفضل عن تونس كما ذكرناه . وأحسّوا به ، فنهض إليهم ، وقرّوا أمامه ، إلى أن خلاص الناصر إلى بسكرة ثانية ، واتخذها مثوى إلى أن لحق بأبيه بالجزائر عند رحلته من تونس إليها كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن رحلة السلطان أبي الحسن إلى المغرب وتغلب المولى الفضل على تونس وما دعا إلى ذلك من الأحوال

لما خلاص المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى من نكبة بجاية ، وامتنّ عليه ابن أخيه ، فلحق بمحل إمارته من بونة . ووافته بها مشيخة أولاد أبي الليل ، أوفدهم عليه بنو حمزة بن عمر يستحثّونه لملك أفريقية ، يرغبونه فيه ، فأجاب داعيتهم ونهض إليهم بعد قضاء نسل الفطر من سنة تسع وأربعين ، ونزل مجملهم وأوجفوا بخيلهم وركابهم على ضواحي أفريقية ، وجبوا ، وصمدوا إلى تونس فنازلوها وأخذوا بمخنقها أياماً ، ثم أخذ بحجزتهم عنها شيعة السلطان وأولياؤه من أولاد مهلهل وابنه الناصر عند قفوله من المغرب الأوسط مفلولاً فرحلوهم وشرّدوهم . ثم رجعوا إلى مكانهم من حصارها ، ثم انفضوا عنها . وتخيّر خالد بن حمزة إلى شيعة السلطان أبي الحسن مع أولاد مهلهل وقومه ، فاعتزّوا به وذهب عمر بن حمزة إلى المشرق لقضاء فرضه ، وأجفل أبو الليل أخوه مع المولى الفضل إلى القفر حتى كان من دخول أهل الجريد في طاعته ما نذكره إن شاء الله تعالى . وكان السلطان لما خلاص من القيروان إلى تونس ، وفد إليه أحمد بن مكّي مهنيّاً ومفاوضاً في شأن الثغر وما مني به من انتقاض الأطراف وفساد الرعية . وتدارك السلطان أمره عند فواته بالتولية على أهل القطر من جنسهم استئلاًفاً للكافة . واستبقاءً لطاعتهم . فعقد على عمل قابس وجربة والحامة ^(١) ، وما إليها لعبد الواحد ابن السلطان زكريا بن أحمد اللحياني ، وأنفذه مع أحمد بن مكّي إلى عمله ، فهلك بجربة لليال من مقدمه في الطاعون

(١) وفي نسخة أخرى : الحمة وهي أصح ، وهي مدينة بافريقية من عمل قسيلية من نواحي بلاد الجريد (معجم البلدان) .

الجارف عامئذ .

وعقد لأبي القاسم بن عتّوش شيخ الموحدين على توزر ونفطة وسائر بلاد الجريد ، بعد أن كان استخلصه بعد مفرّ أبي محمد بن تافراكين قريبه ، وما أضمر^(١) من سوء دخلته ، فنزل بتوزر وجمع أهل الجريد على الولاية والمخالصة ، ولما نازل المولى أبو العباس الفضل تونس مرتين ، وشرّد أولاد مهلهل وامتنعت عليه ، عمد إلى الجريد سنة خمس وأربعين وسبعمائة يحاول فيه ملكاً ، وخطب أبا القاسم بن عتّوش يذكره عهده وعهد سلفه وحقوقهم ، فتذكر وحنّ ، ونظر إلى ما ناله به السلطان من المثلة في أطرافه . واستثار كما من حقه ، فانحرف وحمل الناس على طاعة المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى ، فسارعوا إلى الإجابة وبايعه أهل توزر وقفصة ونفطة والحامة ، ثم دعا ابن مكين إلى طاعته فأجاب إليها وبايعه أهل قابس وجربة أيضاً . وانتهى الخبر إلى السلطان باستيلاء المولى الفضل على أمصار أفريقية ، وأنه ناهض إلى تونس ، فأهمّه الشأن وخشي على أمره ، وكانت بطانته يوسوسون إليه بالرحلة إلى المغرب لاسترجاع نعمتهم باسترجاع ملكه ، فأجابهم إليها وشحن أساطيله بالأقوات ، وأزاح علل المسافرين . ولما قضى منسك الفطر من سنة خمسين وسبعمائة ركب البحر أيام استفحال فصل الشتاء ، وعقد لابنه أبي الفضل على تونس ثقة بما بينه وبين أولاد حمزة من الصهر ، وتفادياً بمكانه من معرة الغوغاء وثورتهم . وأقلع من مرسى تونس ، ولخمس دخل مرسى بجاية ، وقد احتاجوا إلى الماء فمنعهم صاحب بجاية من الورد ، وأوعز إلى سائر سواحله بمنعهم ، فزحفوا إلى الساحل وقاتلوا من صدّهم عن الماء إلى أن غلبوهم واستقوا وأقلعوا ، وعصفت بهم الرياح ليلتئذ وجاءهم الموج من كل مكان ، وألقاهم اليمّ بالساحل بعد أن تكسّرت الأجفان ، وغرق الكثير من بطانته وعامة الناس ، وقذف الموج بالسلطان فألقاه إلى الجزيرة قرب الساحل من بلاد زواوة مع بعض حشمه عراة ، فمكثوا ليلتهم وصباحهم جفن من الأساطيل كان قد سلم من ذلك العاصف ، فقرّبوا إليه حين رأوه وقد تصايح به البربر من الجبال وتواثبوا إليه فاخطفه أولياؤه من أهل الجفن قبل أن يصل إليه البربر ،

(١) وفي نسخة أخرى : وما ظهر .

وقذفوا به إلى الجزائر فترل بها ، ولأم صدعه . وخلع على من وصل من فلّ الأساطيل ومن خرج إليه من أوليائه ، ولحق به ابنه الناصر من بسكرة ، واتصل بالمولى الفضل خبر رحيله من تونس وهو ببلاد الجريد ، فأغذ السير إلى تونس ، ونزل بها على ابنه ومن كان بها من مخلف أوليائه ، فغلبوهم عليها . واتصل أهل البلد بهم وأحاطوا يوم منى بالقصبة . واسترلوا ابن السلطان أبا الفضل الأمير بالقصبة على الأمان ، فخرج إلى بيت أبي الليل بن حمزة ، وأنفذ معه من أبلغه إلى مأمنه ، فلحق بأبيه بالجزائر وبادر إلى السلطان عليّ بن يوسف المنتزى بالمدية من بني عبد القوي ، ففسار في جملته ، وخرج له عن الأمر ، وزعم أنه إنما كان قائماً بدعوته ، فتقبل منه وأقره على عمله .

ووفد عليه أولياؤه من العرب سويد والحرث والحصين ومن إليهم ممن اجتمع إلى وليه ونزمار بن عريف المتمسك بطاعته . ووفد عليه أيضاً علي بن راشد أمير مغراوة ، وأغراه بني عبد الواد^(١) ، واشترط عليه إقراره بوطنه وعمله إذا تم أمره ، فأبى من قبول الاشتراط ظناً بعهده عن النكت ، فترع عنه وصار إلى مظاهرة بني عبد الواد عليه . وبعث أبو سعيد عثمان صاحب تلمسان إلى الأمير أبي عنان في المدد ، فبعث إليه بعسكر من بني مرين عقد عليهم ليحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي من تيريفغن ، وزحف الزعيم أبو ثابت إلى حرب السلطان أبي الحسن فيمن اجتمع له من عسكر بني مرين ومغراوة . وخرج السلطان من الجزائر وعسكر بمتيجة ، واحتشد ونزمار سائر العرب بحلهم ، ووافاه بهم ، وارتحلوا إلى شلف ، ولما التقى الجمعان بشدبونة صدقه مغراوة الحملة وصابروهم ابنه الناصر وطعن في الجولة فهلك واختل مصاف السلطان واستبيح معسكره ، وانتهب فساطيطه ، وخلص مع وليه ونزمار بن عريف وقومه بعد أن استبيحت حلهم ، فخرجوا إلى جبل وانشرش ، ثم لحقوا بجبل راشد ، ورجع القوم عن اتباعهم ، وانكفؤا إلى الجزائر فتغلبوا عليها ، وأخرجوا من كان بها من أولياء السلطان ومحو آثار دعوته من المغرب الأوسط جملة . والأمر بيد الله يؤتیه من يشاء .

(١) وفي نسخة ثانية : وأغراه ببني عبد الواد .

الخبر عن استيلاء السلطان على سجلماسة ثم فراره عنها امام ابنه إلى مراکش واستيلائه عليها وما تخلل ذلك

لما انفضت جموع السلطان بشدبونة وقلّ عساكره ، وهلك الناصر ابنه ، خلص إلى الصحراء مع وليّه ونزمار ولحق بحلل قومه سويد وأوطانهم قبلة جبل وانشرش ، وأنجم أمره على قصد المغرب موطن قومه ومنبت عزّه ودار ملكه . وارتحل معه وليّه ونزمار بالنازعة^(١) من قومه ، وخرجوا إلى جبل راشد . ثم أبعدها المذاهب وقطعوا المفاوز إلى سجلماسة في القفر . فلما أطلوا عليها وعاین أهلها السلطان تهاافتا عليه تهافت الفّراش ، وخرج إليه العذارى من وراء ستورهنّ صاغية إليه ، وإيثاراً لإيالاته . وفرّ العامل بسجلماسة إلى منجاته . وكان الأمير أبو عنان لما بلغه الخبر بقصد سجلماسة ، ارتحل إليها في قومه وكافة عساكره بعد أن أزاح عنهم وأفاض عطاءه فيهم ، وكان ببني مرين نفرة عن السلطان وحذر من غائلته لجنائتهم بالتخاذل في المواقف ، والفرار عنه في الشدائد ، ولما كان يبعد بهم في الأسفار ويتجشم بهم المهالك ، فكانوا لذلك مجتمعين على منابذته ، ومخلصين في مناصحة ابنه منازعة ، فما لبث السلطان أن جاءه الخبر بوصولهم إليه في العساكر الضخمة ، مغذّين السير إلى دفاعه ، وعلم من حاله أنه لا يطيق دفاعهم ، وأجفل عنه ونزمار وليّه في قومه سويد . وكان من خبره أنّ عريف بن يحيى كان نزح إلى الأمير أبي عنان وأحلّه بمحله المعهود من تشریفهم وولايّتهم ، حتى إذا بلغه الخبر بمناصحة ونزمار للسلطان ومظاهرتة وقصده المغرب معه بناجعتة ، زوى عنه وجه رضاه بعض الشيء ، وأقسم له لئن لم تفارق السلطان لأوقعنّ بك وبابنك عشر^(٢) وكان معه في جملة الأمير أبي عنان ، وأمره بأن يكتب له بذلك ، فأثر ونزمار رضى أبيه . وعلم أنّ غناه عن السلطان في وطن المغرب قليل ، فأجفل عنه ولحق بالزّاب وانتبذ عن قومه ، وألقى عصاه ببسكرة ، فكان ثواؤه بها إلى أن لحق بالأمير أبي عنان على ما ذكره .

ولما أجفل السلطان عن سجلماسة ، دخل الأمير أبو عنان إليها وثقف أطرافها وسدّ

(١) وفي نسخة ثانية : بالنازعة .

(٢) وفي نسخة ثانية : عنتر

فزوجها ، وعقد عليها ليحياتن بن عمر بن عبد المؤمن كبير بني ونكاسن ، وبلغه قصد السلطان إلى مراکش ، فاعتزم على الرحلة إليها وأبى عليه قومه ، فرجع بهم إلى فاس إلى أن كان من خبرهم مع السلطان ما ذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن استيلاء السلطان على مراکش ثم انهزامه أمام الأمير أبي عنان ومهلكه بجبل هنتاة عفا الله عنه

لما أجفل السلطان عن سجالسة سنة إحدى وخمسين وسبعائة بين يدي الأمير أبي عنان وعسكر بني مرين ، قصد مراکش ، وركب إليها الأوعار من جبال المصامدة . ولما شارفها تسارع إليه أهل جهاتها بالطاعة من كل أوب ، ونسلوا من كل حذب . ولحق عامل مراکش بالأمير أبي عنان ونزع إلى السلطان صاحب ديوان الجباية أبو محمد^(١) بن محمد بن أبي مدين بما كان في المودع من مال الجباية ، فاختصه واستكتبه وجعل إليه علامته ، واستركب واستلحق وجبى الأموال ، وبثّ العطاء ، ودخل في طاعته قبائل العرب من جشم وسائر المصامدة . وثاب له بمراكش ملك أمّل معه أن يستولي على سلطانه ، ويرتجع فارط أمره من يد مبرّه . وكان الأمير أبو عنان لما رجع إلى فاس عسكر بساحتها ، وشرع في العطاء وإزاحة العلل ، وتقبّض على كاتب الجباية يحيى بن حمزة بن شعيب بن محمد بن أبي مدين ، اتهمه بمالأة بني مرين في الإمالة عليه عن اللحاق بمراكش من سجالسة . وأثار حقه في ذلك ما كان من نزوع عمّه أبي المجد إلى السلطان بأموال الجباية ، ووسوس إليه في السعاية به كاتبه وخالصته أبو عبدالله محمد بن أبي محمد بن أبي عمر^(٢) لما بينهما من المنافسة ، فتقبّض عليه وامتحنه ، ثم قطع لسانه وهلك في ذلك الامتحان ، وارتحل الأمير أبو عنان وجموع بني مرين إلى مراکش ، وبرز السلطان إلى لقاءهم ومدافعتهم ، وانتهى كل واحد من الفريقين إلى وادي أم ربيع ، وتربّص كلٌ بصاحبه إجازة الوادي . ثم أجازاه السلطان أبو الحسن وأصبحوا جميعاً في التعبئة ،

(١) وفي نسخة ثانية : أبو المجد .

(٢) وفي نسخة ثانية : أبو عبدالله محمد بن محمد بن أبي عمرو .

والتقى الجمعان بتامرغوست^(١) في آخر صفر من سنة إحدى وخمسين وسبعائة فاختلّ مصاف السلطان وانهزم عسكره ، ولحق به أبطال بني مرين فرجعوا عنه حياءً وهيبةً . وكبا به فرسه يومئذ في مقرّه ، فسقط إلى الأرض والفرسان تحوم حوله . واعترضهم دونه أبو دينار سليمان بن علي بن أحمد أمير الزواودة ، ورديف أخيه يعقوب ، كان هاجر مع السلطان من الجزائر ، ولم يزل في جملته إلى يومئذ . فدافع عنه حتى ركب وسار من ورائه رداءً له . وتقبّض على حاجبه علال بن محمد ، فصار في يد الأمير أبي عنان وأودعه السجن إلى أن امتن عليه بعد مهلك أبيه .

وخلص السلطان إلى جبل هنتاة ومعه كبيرهم عبد العزيز بن محمد بن علي ، فترل عليه وأجاره واجتمع إليه الملا من قومه هنتاة ومن انضاف إليهم من المصامدة ، وتدامروا وتعاهدوا على الدفاع عنه ، وباعوه على الموت ، وجاء أبو عنان على أثره حتى احتل بمراكش ، وأنزل عساكره على جبل هنتاة ، وربّ المسالحي لحصاره وحرّبه ، وطال عليه ثوابه ، وطلب السلطان من ابنه الإبقاء ، وبعث في حاجبه محمد بن أبي عمر فحضر عنده ، وأحسن العذر عن الأمير أبي عنان والتمس له الرضى منه ، فرضي عنه ، وكتب له بولاية عهده . وأوعز إليه بأن يبعث له مالا وكسى ، فسرّح الحاجب ابن أبي عمر باخراجها من المودع بدار ملكهم ، واعتلّ السلطان خلال ذلك ، فرفضه أولياؤه وخاصّته ، واقتصد لإخراج الدم ، ثم باشر الماء لفصده للطهارة ، فورم وهلك لليال قريبة عفا الله عنه ، لثلاث وعشرين من ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين وسبعائة وبعث أولياؤه الخبر إلى ابنه بمعسكره من ساحة مراكش ، ورفعوه على أعواده إليه فتلّقاه حافياً حاسراً ، وقبّل أعواده وبكى ، واسترجع ورضي عن أوليائه وخاصّته ، وأنزلهم بالحل الذي رضوه من دولته ، وواري أباه بمراكش إلى أن نقله إلى مقبرة سلفهم بشالة في طريقه إلى فاس وتلقى أبا دينار ابن علي بن أحمد بالقبول والكرامة ، وأحلّه محل الرحب والسعة ، وأسنى جائزته ، وخلع عليه وحمّله . وانصرف من فاس إلى قومه يستحثّهم للقاء السلطان أبي عنان بتلمسان لما كان أجمع على الحركة إليها بعد مهلك أبيه ، ورعى لعبد العزيز بن محمد أمير هنتاة إجارته للسلطان واستماتته دونه ، فعقد له على قومه وأحلّه بالحل الرفيع من دولته ومحلسه ، واستبلغ في تكريمه ، والله تعالى أعلم .

(١) وفي نسخة ثانية . تامدغوست .

الخبر عن حركة السلطان أبي عنان إلى تلمسان وإيقاعه بني عبد الواد بانكاد ومهلك سلطانهم سعيد

لما هلك السلطان أبو الحسن وانقضى شأن الحصار ارتحل السلطان أبو عنان إلى فاس ونقل شلوأبيه إلى مقبرتهم بشالة فدفنه مع من هنالك من سلفه . وأغذ السير إلى فاس وقد استبد بالأمر ، وخلت الدولة عن المنازع ، فاحتل بفاس وأجمع أمره على غزو بني عبد الواد لارتجاع ما بأيديهم من الملك الذي سموا لاستخلاصه . ولما كان فاتح سنة ثلاث وخمسين وسبعائة نادى بالعطاء وأزاح العلل ، وعسكر بساحة البلد الجديد ، واعترض العساكر وارتحل يريد تلمسان ، واتصل الخبر بأبي سعيد وأخيه ، فجمعوا قومهم ومن إليهم من الأشياع والأحزاب من زناتة والعرب ، وارتحلوا إلى لقائه ، ونزل السلطان بعساكره وادي ملوية ، وتلوم به أياماً لا اعتراض الحشود والعرب . ثم رحل على التعبية حتى اذا احتل ببسيط أنكاد وتراءى الجمعان ، انفص سرعان المعسكر ولحقوا بالعرب^(١) وركب السلطان في التعبية وخاض بحر القتال ، وقد أظلم الجوبه حتى اذا خلص إليهم من غمره ، وخالطهم في صفوفهم ، ولوا الأدبار ، ومنحوهم الأكتاف ، واتبع بنو مرين آثارهم فاستولوا على معسكرهم واستباحوه واستباحوهم قتلاً وسبياً ، وصفدوهم أسرى ، وغشيم الليل وهم متسايلون في أثرهم ، وتقبض على أبي سعيد سلطانهم ، فساق إلى السلطان فأمر باعتقاله ، وأطلق أيدي بني مرين من الغد على حلل العرب من المعقل ، فاستباحوهم واكتسحوا أموالهم جزاء بما شرهوا إليه من النهب في المحلة في هبة ذلك المجال . ثم ارتحل على تعبيته إلى تلمسان فاحتل بها لربيع من سته ، واستوت في ملكها قدمه ، وأحضر أبا سعيد فقرعه ووبّخه وأراه أعماله حسرة عليها ، وأحضر الفقهاء وأرباب الفتيا ، فأفتوا بحرابته وقتله . فأمضى حكم الله فيه ، فذبح في محبسه لتاسعة من اعتقاله ، وجعله مثلاً للآخرين . وخلص أخوه الزعيم أبو ثابت إلى قاصية الشرق ، فكان من خبره ما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

(١) وفي نسخة ثانية : بالمغرب .

الخبر عن شأن أبي ثابت وإيقاع بني مرين به بوادى شلف وتقبض الموحدین علیه بحجاية

لما أوقع السلطان ببني عبد الواد بأنكاد ، وتقبض على أبي سعيد سلطانهم ، خلص أبو ثابت أخوه في فلّ منهم ، ومرّ بتلمسان ، فاحتمل حرمهم ومخلفهم ، وأجفل إلى الشرق ، فاحتل بشلف من بلاد مغراوة وعسكر هنالك . واجتمع إليه أوشاب من زناتة ، وحدث نفسه باللقاء ، ووعدّها بالصبر والثبات ، وسرّح السلطان وزيره فارس بن ميمون بن ودرار في عساكر بني مرين والجند ، فأغذ السير إليهم وارتحل من تلمسان على أثره ، ولما تراءى الجمعان صدق الفريقان المحاولة ، وخاضوا النهر بالقراع . ثم صدق بنو مرين الحملة واجتازوا النهر إليهم ، فأنكشفوا واتبعوا آثارهم واستلحموهم ، واستباحوا معسكرهم واستاقوا أموالهم ودوابهم ونساءهم ، وارتحلوا في اتباعهم ، وكتب الوزير بالفتح إلى السلطان ، ومرّ أبو ثابت بالجزائر طارقاً ، وأجاز إلى قاصية المشرق ، فاعترضهم قبائل زواوة وأرجلوه عن خيلهم ، وانتهبوا أسلابهم ، ومرّوا حفاة عراة ، واحتل الوزير بالجزائر ، واستولى عليها واقتضى بيعة السلطان منهم فآتوها ، واحتل الوزير بالمدينة وأوعز إلى أمير بحاية المولى أبي عبد الله حافد مولانا الأمير أبي يحيى مع وليّه ونزمار وخالصته يعقوب بن علي بالتقبض على أبي ثابت وأشياعه فأذكوا العيون عليهم وقعدوا لهم بالمرصاد ، وعثر بعض الحشم على أبي ثابت وأبي زيان ابن أخيه أبي سعيد ووزيرهم يحيى بن داود ، فرفعوهم إلى الأمير ببجاية ، فاعتقلهم وارتحل للقاء السلطان بالمدينة وبعثهم مع مقدّمته ، وجاء على أثرهم ونزل على السلطان بمعسكره من المدينة خير نزل ، بعد أن تلقاه بالمبرّة والاحتفاء ، وركب للقاءه ، ونزل عن فرسه للسلطان ، فترّل السلطان برّاً له ، وأودع أبا ثابت السجن . وتوافّت إليه وفود الزواودة بمكانه من المدينة ، فأكرم وفدهم وأسنى أعطياتهم من الخلع والحملان والذهب ، وانقلبوا خير منقلب ، ووافته بمكانه ذلك بيعة ابن مزني عامل الزاب ووفدهم ، فأكرمهم ووصلهم . وفرغ السلطان من شأن المغرب الأوسط ، وبثّ العمّال في نواحيه ، وثقف أطرافه ، وسما إلى ملك أفريقية كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن تملك السلطان أبي عنان بجاية وانتقال صاحبها الى المغرب) *

لما وصل السلطان أبو عبدالله محمد ابن الأمير أبي زكريا يحيى صاحب بجاية إلى السلطان بمكانه من المدينة في شعبان من سنته ، وأقبل السلطان عليه ، وبوّأه كنف ترحيبه وكرامته ، خلص الأمير به نجياً ، وشكا إليه ما يلقاه من أهل عمله من الامتناع من الجباية والسعي في الفساد ، وما يتبع ذلك من زيون الحامية واستبداد البطانة . وكان السلطان متشوقاً لمثلها ، فأشار عليه بالتزول عنها ، وأن يديله عنها بما شاء من بلاده ، فسارع إلى قبول إشارته ، ودسّ إليه مع حاجبه محمد بن أبي عمرو أن يشهد بذلك على رؤوس الملاء ، ففعل ، ونقم عليه بطانته ذلك ، وفرّ بعضهم من معسكره ، فلحق بافريقية ، ومنهم علي ابن القائد محمد بن الحكيم . وأمره السلطان أن يكتب بخطّه إلى عامله على البلد بالتزول عنها وتمكين عمّال السلطان منها ففعل وعقد السلطان عليها لعمر بن علي الوطاسي من أولاد الوزير الذي ذكرنا خبر انتراهم بتازوطا من قبل ، ولما قضى السلطان حاجته من المغرب الأوسط واستولى على بجاية ، انكفأ راجعاً إلى تلمسان لشهود الفطربها ، ودخلها في يوم مشهود ، وحمل أبا ثابت ووزيره يحيى بن داود على جملين يخطوان بهما في ذلك المحفل بين السماطين ، فكانا عبدة لمن حضر وسيقا من الغد إلى مصارعهما ، فقتلا قعصاً بالرماح ، وأنزل السلطان المولى الأمير أبا عبدالله صاحب بجاية خير نزل ، وفرش له في مجلسه تكرمة له إلى أن كان من توثّب صنهاجة وأهل بجاية بعمر بن علي ما نحن ذاكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن ثورة أهل بجاية ونهوض الحاجب اليها في العساكر) *

كان صنهاجة هؤلاء من أعقاب ملكانة^(١) ملوك القلعة وبجاية ، نزل أولوهم بوادي

(١) وفي نسخة ثانية : تكالاته .

بجاية بين القبائل من برابرتها الكتامين في مواطن بني وريا كل منذ أول دولة الموحدين ، وأقطعوهم على العسكرية معهم ، ولما ضعفت جنود الموحدين وقلّ عددهم انفردوا بالعسكرة مع السلطان ، وصار لهم بذلك اعتزاز وزيون على الدولة . وكان الأمير أبو عبدالله هذا قد أصاب منهم لأول أمره ، وقتل محمد بن تميم من أكابر مشيختهم ، وكان صاحبه فارج مولى ابن سيّد الناس عريفا عليه من عهد أبيه الأمير أبي زكريا ، وكان مستبدّاً على المولى أبي عبدالله ، فلما نزل عن إمارته للسلطان أبي عنان سخط ذلك ونقمه عليه ، وأسرها في نفسه ولم ييدها لكمالها ، وسرّحه أميره مع عمر بن علي الوطاسي لينقل حرمه ومتاعه وماعون داره ، فوصل إليها وشكا إليه الصنهاجيون مغبة أمرهم في ثقل الوطأة وسوء الملكة فأشكاهم ودعاهم إلى الثورة ببني مرين ، والقيام بدعوة الموحدين للمولى أبي زيّان صاحب قُسنطينة ، فأجابوه وتواعدوا بالفتك بعمر بن علي بمجلسه من القصبة . وتولى كبرها منصور بن الحاج من مشيختهم ، وباكره بداره على عادة الأمراء ، ولما أكبّ عليه ليلثم أطرافه طعنه بخنجره ، وقرّ إلى بيته جريحاً فولخوا عليه واستلحموه . وثارت الغوغاء من أهل البلد في ذي الحجة من سنة ثلاث وخمسين وسبعائة .

وركب الحاجب فارج وهتف الهاتف بدعوة المولى أبي زيد صاحب قُسنطينة ، وطبخوا بالخبر واستدعوه ، فتناقل عن إجابتهم ، وبعث مولى ابن المعلوجي للقيام بأمرهم . وبلغ الخبر إلى السلطان فاتهم المولى أبا عبدالله بمداخلة حاجبة ، فاعتقله بداره . واعتقل وفداً من ملاء بجاية كان ببابه ، وثبت آراء المشيخة من أهل بجاية ، وتمشّت رجلاتهم وأولو الرأي والشورى منهم في الفتك بصنهاجة والعلج ، وداخلهم القائد هلال مولى ابن سيّد الناس من المعلوجي ، وعلي بن محمد بن ألميت حاجب الأمير أبي زكريا يحيى ، ومحمد ابن الحاجب أبي عبدالله بن سيّد الناس وتواعدوا للفتك بفارج يوم وصول النائب من قبل صاحب قسنطينة ، فجهروا بالنكير على الحاجب ، ودعوه إلى المسجد ليؤامروه . ونذر بأمرهم فاعتدّ دار شيخ الفتيا أحمد بن إدريس فاقتحموا عليه الدار ، وباشره مولاه محمد بن سيّد الناس ، فطعنه وأشواه ، ورمي بشلوه من سقف الدار ، وقطع رأسه ، فبعثوا به إلى السلطان ، وقرّ منصور بن الحاج وقومه صنهاجة من البلد ، وكان بالمرسي أحمد بن سعيد القرموني من خاصّة السلطان ، جاء في السفن لبعض حاجاته من تونس ، ووافى مرسي بجاية يومئذ فأنزلوه

واعصرو صبوا عليه ، وتنادوا بدعوة السلطان وطاعته ، فأشار عليهم أحمد القرموني أن يبعثوا إلى قائد تدلس من مشيخة بني مرين يحياتن^(١) بن عمر بن عبد المؤمن الونكاسي ، فاستدعوه ووصل إليهم في جملة^(٢) من العسكر ، وبعثوا بأخبارهم إلى السلطان وانتظروا . فلما بلغ الخبر إلى السلطان أمر حاجبه محمد بن أبي عمر بالنهوض إلى بجاية ، فعسكر بساحة تلمسان . وانتقى له السلطان من قومه وجنوده خمسة آلاف فارس أزاح عنهم ، واستوفى أعطياتهم وسرّحه فنهض من تلمسان بعد قضاء منسك الأضحى ، وأغد السير إلى بجاية ، ولما نزل ببني حسن جمع له بمعسكرهم من تيكلات ، وخرج إليه المشيخة والوزراء ، فتقبّض على القائد هلال وأشخصه إلى السلطان ودخل البلد على التبعية ، واحتلّ بقصبتها لمحرم فاتح أربع وخمسين وسبعائة وسكن الناس وخلع على المشيخة ، واختص علي بن ألبت^(٣) ومحمد بن سيّد الناس ، واستظهر بهم على أمره ، وتقبّض على جماعة من الغوغاء وعلى من تحت أيديهم ممن يتهم بالمداخلة في الثورة^(٤) يناهزون مائتين ، واعتقلهم وأركبهم السفن إلى المغرب ، فودّع الناس وسكنوا وتوافد وفود الزواودة من كل جهة ، فأجزل صلاتهم واقتضى الطاعة منهم^(٥) . ووصل عامل الزاب يوسف ، وسدّ فروجه وارتحل إلى تلمسان أوّل جمادى لشهرين من مدخله ، وأغدّ السير بمن معه من العرب والوفود ، وكنت يومئذ في جملتهم ، وقد خلع عليّ وحملني وأجزل صلاتي ، وضرب لي الفساطيط ، فوفدت في ركابه ، وقدم تلمسان لأوّل جمادى الأخيرة ، فجلس السلطان للوفد واعترض ما جنب له من الجياد والهدية ، وكان يوماً مشهوداً . ثم أسنى السلطان جوائز الوفد ، واختصّ يوسف بن مزني ويعقوب بن عليّ بمزيد من البرّ والصلة ، وخصوا بجاه من الكرامة ، وأمرهم في شأن أفريقية ومنازلة قسنطينة . ورجع معهم الحاجب ابن أبي عمر على كره منه لما نذّره من أخباره ، وانصرفوا إلى مواطنهم لأوّل شعبان من سنة أربع وخمسين وسبعائة وانقلبت معه بعد

(١) وفي نسخة ثانية : يحيى .

(٢) وفي نسخة ثانية : في لمة .

(٣) وفي نسخة ثانية : المنت .

(٤) وفي نسخة ثانية : التوب .

(٥) وفي نسخة ثانية : واقتضى على الطاعة رهنهم .

إسداء الجائزة والخلع والحملان من السلطان ، والوعد الجميل بتجديد ما إلى قوم
بيلده من الأقطاع والله أعلم .

الخبر عن الحاجب ابن أبي عمرو وما عقد له السلطان على ثغر بجاية وعلى منازل قسنطينة ونهوضه لذلك

سلف هذا الرجل من أهل المهدية من أجواد العرب من بني تميم بأفريقية ، وانتقل
جدّه عليّ إلى تونس باستدعاء السلطان المستنصر ، وكان فقيهاً عارفاً بالفتيا
والأحكام ، وقلّده القضاء بالحضرة واستعمله على كتب علامته في الرسائل والأوامر
الكبرى والصغرى ، فاظطلع بذلك ، وهلك على حالة من التجلّة والمنصب ، وقلّد
ابنه عبد الله من بعده العلامتين أيام أبي حفص عمر ابن الأمير أبي زكريا كما كان
لأبيه ، فاضطلع لذلك وكان أخوه أحمد بن علي مستنّاً^(١) وقوراً متحلاً للعلم .
ونشأ ابنه محمد وقرأ بتونس ، وتفقّه على مشيختها . ولما التأت أمورهم وتلاشت
أحوالهم ، خرج محمد بن أحمد بن علي مبتغيّاً للرزق والمعاش ، وطوّحت
به الطوائح إلى بلد القلّ . وكان متحلاً للطلب^(٢) والكتابة ، فاستعمل شاهداً
بمرسى القلّ أيام رئاسة الحاجب ابن أبي عمرو^(٣) ، وكانت له صحبة مع حسن بن
محمد السبتي المتحل بنسب الشرف . وكانا رفيقين في مطارح اغترابهما ، فسعى له في
مرافقة الشهرة ، فأسعفا واتصلا بابن أبي عمرو فحمد مذهبهما ، ولما نزع الشريف
عبد الوهاب زعيم تدلس إلى طاعة الموحدين أيام التياث أبي حمّو بخروج محمد بن
يوسف عليه ، واعتلال الدولة ، ودخل في أمر ابن أبي عمرو وجملته ، فبعث محمد
ابن أبي عمرو هذا وصاحبه إلى تدلس ، واستعمل حسن الشريف في القضاء ،
ومحمد بن أبي عمرو في شهادة الديوان . فلما برئت الدولة من مرضها ، واستفحل أمر
أبي حمّو وتعلّب على تدلس ، وصار رئيس الفتيا من الإمام لاقتضاء طاعتها ،
وانفاذ أهلها على السلطان في الوفد ، واستقرّا بتلمسان يومئذ واستعملا في خطة

(١) وفي نسخة ثانية : مسمّاً ، واستعملت هنا بمعنى مُرَضِعاً .

(٢) أي لطلب العلم . وريّاً تكون محرفة عن (الطب) .

(٣) وفي نسخة ثانية : الحاجب ابن عمر .

حصاء متعاقبين أيام بني عبد الواد وأيام السلطان أبي الحسن . وتعصّب على بن أبي عمرو أيام قضائه جماعة من مشيخة البلد ، وسعوا به إلى السلطان أبي الحسن ، وتظلموا فأشكاهم على علم براءته ، واختصّه بتأديب ولده فارس هذا وتعليمه ، فأفرغ وسعه في ذلك وربّى ولده محمداً هذا الحاجب مع السلطان أبي غنان توأماً وخليلاً وألقى عليه محبته حتى إذا خلص له الملك رفع رتبة محمد بن أبي عمرو هذا ، ورقاه من منزلة إلى أخرى حتى إذا أربى به على سائر المراتب ، وجعل إليه العلامة والقيادة والحجابه والسفارة وديوان الجند والحساب والقهرمة وسائر ألقاب دولته ، وخصوصيات داره ، فانصرفت إليه الوجوه ، ووقفت ببابه الأشراف من الأعياص والقبائل والشرفاء والعلماء ، وسرّب إليه العمّال أموال الحجابه تزلفاً ، وطال أمره واستيلاؤه على السلطان ونفس عليه رجال الدولة ووزراؤها ما آتاه الله من الحظ ، حتى إذا خلا لهم وجه السلطان منه عند نهوضه إلى بجاية ، حامت أغراض السعاية على مكانه فقرطست وألقى السلطان أذنه إلى استماعها . فلما رجع من بجاية ، وكانت له الدالة على السلطان ، وجدّ عليه في قبول الألاقي . ولقيه مغاضباً فتنكّر له السلطان ، ثم تجنّى بطلب الغيبة عن الدولة ، ويعقد له على بجاية متوهماً أنّ السلطان ضنين به ، فبادر السلطان إلى إسعافه ، وبداله ما لم يحتسب من الأعراض عنه . ورجع إلى الرغبة في الإقالة فلم يسعف . وعقد له على حرب قسنطينة وحكّمه في المال والجيش ، وارتحل في شعبان من سنة أربع وخمسين وسبعائة واحتل ببجاية آخرها وأشتى بها .

ونصب الموحدون تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المعتقل عندهم من لدن عهد المولى الفضل واعتقاله إيّاه ، فنصّبوه للأمر لتفريق كلمة بني مرين وجمعوا له الآلة والفساطيط ، وقام بأمره ميمون بن علي لمنافسته مع أخيه يعقوب ، وسمع بخبره يعقوب ، فأغذّ السير بحاله من بلاد الزاب ، وفرّق جمعهم وردّهم على أعقابهم ، وأحجزهم بالبلد . ولما انصرم الشتاء وقضى منسك الأضحى ، عسكر بساحة البلد ، واعترض العساكر وأزاح عنهم ، وفرّق أعطياتهم ، وارتحل إلى منازل قسنطينة ، واجتمع إليه الزواودة بحلهم ، وجمع المولى أبو زيد صاحب قسنطينة من كان على دعوته من أحياء بونة وميمون بن علي بن أحمد وشيعته من الزواودة ، وعقد عليهم لحاجبه نبيل وسرّحه للقاء ابن أبي عمرو وعساكره ، فأوقع بهم الحاجب

لجأدي من سنة خمس وخمسين وسبعائة واكتسح أموالهم ونازل قسنطينة حتى تفادوا منه بتمكينه من تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المنصوب للأمر ، فاقتاوه إليه وأشخصه إلى أخيه السلطان . وأوفد المولى أبو زيد ابنه على السلطان أبي عنان ، فتقبل وفادته وشكر مراجعته ، وانكفاً الحاجب ابن أبي عمرو إلى بجاية ، وأقام بها إلى أن هلك في المحرم سنة ست وخمسين وسبعائة فذهب حميد السيرة عند أهل البلد ، وتفجعوا لمهلكه ، وبعث السلطان دوابه لارتحال عياله وولده ، ونقل شلوه إلى مقبرة أبيه بتملسان . وسرح ابنه أبا زيان في عساكر بني مرين لمواراته بها . وعقد على بجاية لعبدالله بن علي بن سعيد وزيره ، فنهض إليها في شهر ربيع من سنة ست وخمسين وسبعائة واستقر بها وتقبل ما حمده الناس من مذاهب الحاجب وسيرته فيها على ما نذكره ، وجهز العساكر إلى حصار قسنطينة إلى أن كان من فتحها ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى .

الخبر عن خروج أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن يجبل السكسيوي ومكر عامل درعة به ومهلكه

كان السلطان أبو عنان بعد مهلك أبيه لحق به في جملة أخواه أبو الفضل محمد وأبو سالم ابراهيم ، وتدبر في ترشيحها وحذر عليهما مغبته ، فأشخصهما إلى الأندلس ، واستقرا بها في إيالة أبي الحجاج ابن السلطان أبي الوليد ابن الرئيس أبي سعيد . ثم ندم على ما أتاه من ذلك ، فلما استولى على تلمسان والمغرب الأوسط ، ورأى أن قد استفحل أمره واعتز بسلطانه ، أوعز إلى أبي الحجاج أن يشخصها إليه ليكون مقامها لديه أحوط للكلمة من أن يعتمد على تفريقها سمسرة الفتن . وخشي أبو الحجاج عليهما غائلته فأبى من إسلامهما إليه ، وأجاب الرسل بأنه لا يخفر ذمته وجوار المسلمين المجاهدين ، فأحفظ السلطان كلمته ، وأوعز إلى حاجبه محمد بن أبي عمرو بأن يخاطبه في ذلك بالتوبيخ واللائمة ، فكتب له كتاباً قرعه فيه وقفني عليه الحاجب ببجاية أيام كوني معه ، فقضيت عجباً من فصوله وأغراضه ، ولما قرأه أبو الحجاج دس إلى كبيرهما أبي الفضل باللحاق بالطاغية ، وكانت بينهما ولاية ومخالصة منذ مهلك أبيه الهنشة على جبل الفتح سنة إحدى وخمسين وسبعائة ، فترع إليه أبو

الفضل وأجاره ، وجهزه أسطولاً إلى مراسي المغرب . وأنزله بساحة السوس ، فلحق بالسكسيوي عبدالله ودعا لنفسه . وبلغ الخبر إلى السلطان بين مقدم حاجبه ابن أبي عمرو من فتح بجاية سنة أربع وخمسين وسبعائة فجهّز عساكره إلى المغرب ، وعقد على حرب السكسيوي لوزيره فارس بن ميمون بن وردار وسرّحه إليه ، فنهض من تلمسان لربيع سنة أربع وخمسين وسبعائة وأغذّ السير إلى السكسيوي ونزل بمخنقه ، وأحاط به ، واختطّ مدينة لمعسكره وتجهّز كتابه بسفح جبله ، سماها القاهرة . واستبدّ الحصار على السكسيوي وأرسل إلى الوزير في الرجوع إلى طاعته المعروفة ، وأن ينبذ العهد إلى أبي الفضل ، ففارقه وانتقل إلى جبال المصامدة . ودخل الوزير فارس إلى أرض السوس فدوّخ أقطارها ، ومهّد الحال^(١) ، وسارت الألوية والجيوش في جهاته ، ورّتب المسالح في ثغوره وأمصاره مثل اغري وفوريان وتارودانت ، وثقف أطرافه وسدّ فروجه . وسار أبو الفضل في جبال المصامدة إلى أن انتهى إلى صناكة ، وألقى بنفسه على ابن حميدي منهم مما يلي بلاد درعة ، فأجاره وقام بأمره . ونازله عامل درعة يومئذ عبدالله بن مسلم الزردالي من مشيخة دولة بني عبد الواد ، كان اصطنعه السلطان أبو الحسن منذ تغلبه عليهم ، وفتحته لتلمسان سنة سبع وثلاثين وسبعائة فاستقرّ في دولتهم ، ومن جملة صنائعهم ، فأخذ بمخنق ابن حميدي وأرهبه بوصول العساكر والوزراء إليه ، وداخله في التقبّض على أبي الفضل ، وأن يبذل له في ذلك ما أحبّ من المال ، فأجاب ولاطف عبدالله بن مسلم الأمير أبا الفضل ووعدته من نفسه الدخول في الأمر ، وطلب لقاءه ، فركب إليه أبو الفضل . ولما استمكن منه عبدالله بن مسلم تقبّض عليه ، ودفع لابن الحميدي ما اشترط له من المال ، وأشخصه معتقلاً إلى أخيه السلطان أبي عنان سنة خمس وخمسين وسبعائة فأودعه السجن ، وكتب بالفتح إلى القاصية . ثم قتله لليال من اعتقاله خنقاً بمحبسه . وانقضى أمر الخوارج ، وتمهّدت الدولة إلى أن كان ما ذكره إن شاء الله تعالى .

(١) وفي نسخة ثانية : ومهّد الخاء .

* (الخبر عن انتفاض عيسى بن الحسن بجبل الفتح ومهلكه) *

كان عيسى بن الحسن بن علي بن أبي الطلاق هذا من مشيخة بني مرين ، وكان صاحب شورا هم لعهدده ، وقد كنا قصصنا من أخبار أبيه الحسن عند ذكر دولة أبي الربيع . وكان السلطان أبو الحسن قد عقد له على ثغور عمله بالاندلس ، وأنزله بجبل الفتح عندما أكمل بناءه وجعل إليه النظر في مسالح الثغور وتفريق العطاء على مسالحها ، فطال عهد ولايته ورسخ فيها قدمه ، وكان السلطان أبو الحسن يبعث عنه في الشورى متى عنت . وحضره عند سفره إلى إفريقية وأشار عليه بالاعتصار عنها ، وأراه ان قبائل بني مرين لاتي اعدادهم بمسالح الثغور إذا رتبت شرقاً وغرباً وعدوة البحر وأن إفريقية تحتاج من ذلك إلى أوفر الأعداد وأشد الشوكة ، لتغلب العرب عليها ، وبعد عهدهم بالانقياد ، فأعرض السلطان عن نصيحته لما كان شره إلى تملكها ، وصرفه إلى مكان عمله بالثغور الأندلسية . ولما كانت نكبة القيروان وانتزى الأبناء بفاس وتلمسان ، أجاز البحر لحسم الداء ونزل بغساسة ثم انتقل إلى وطنه بتازي وجمع قومه بني عسكر ، وألقى السلطان أبا عنان قد هزم عساكر ابن أخيه وأخذ بمخنقه ، فأجاب عليه وبيته بمعسكره من ساحة البلد الجديد وعقد السلطان أبو عنان على حربه لصنيعته سعيد بن موسى العجيسي ، وأنزله بثغر بلاد بني عسكر على وادي بوحلوا . وتوافقا كذلك أياماً حتى تغلب السلطان أبو عنان على البلد الجديد ، ثم أرسل عيسى بن الحسن في الرجوع إلى طاعته وأبطأ عنه صريح السلطان أبي الحسن بأفريقية فراجع واشترط عليه ، فتقبل وسار إليه فتلقاه السلطان وامتلاء سروراً بمقدمه ، وأنزله بصدوره^(١) وجعل الشورى إليه في مجلسه ، واستمرت على ذلك حاله .

ولما تمكنت حال ابن أبي عمرو بعد مهلك السلطان أبي الحسن انفرد بخلة السلطان ومناجاته ، وحجبه عن الخاصة والبطانة ، أحفظه ذلك ولم يبدها . واستأذن السلطان في الحج ، فأذن له وقضى فرضه ، ورجع إلى محله من بساط السلطان سنة

(١) وفي نسخة ثانية : وأنزله قصوره .

ست وخمسين وسبعائة ولقي ابن أبي عمرو بجاية ، وتطارح عليه في ان يصلح حاله عند سلطانه ، فوعده في ذلك ، ولما وفد على السلطان وجده قد استبد في الشورى ، وتنكر للخاصة والجلساء ، فاستأذنه في الرجوع إلى محله من الثغر لإقامة رسم الجهاد فأذن له . وأجاز البحر إلى جبل الفتح من سته ، وكان صاحب ديوان العطاء بالجبل يحیی الفرقاجي ، وكان مستظهماً على العمال ، وكان ابنه أبو يحيى قدم برم بمكانه . فلما وصل عيسى إلى الجبل اتبعه السلطان بأعطيات المسالحي مع مسعود بن كندوس^(١) من صنائع دولته ، فسرب الفرقاجي إلى الضرب على يده شأنه مع ابنه أيام مغيبه ، وأنف عيسى من ذلك فتقبض عليه ، وأودعه المطبق ، ورد ابن كندوس على عقبه ، وأركبه السفين من ليلته إلى سبته ، وجاهر بالخلعان ، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي عنان فقلق لذلك ، وقام في ركائبه وقعد ، وأوعز بتجهيز الأساطيل ، وظن أنه قد تدبر من الطاغية وابن الأحمر . وبعث أحمد بن الخطيب قائد البحر بطنجة عيناً على شأنهم ، فوصل إلى مرسى الجبل . وكان عيسى بن الحسن لما جاهر بالخلعان تمشت رجالات الثغر وعرفاء الرجل من غمارة الغزاة الموطنون بالجبل ، وتحدثوا في شأنه ، وامتنعوا من الخروج على السلطان ، وتآمروا في اسلامه يومته . وخلا به سليمان بن داود من عرفاء العسكر^(٢) ، كان من خواصه وأهل شوره ، وكان عيسى قد مكن قومه عند السلطان واستعمله على رنده ، فلما جاهر عيسى بالخلعان ، وركب ظهر الغدر ، خالفه سليمان هذا إلى طاعة السلطان ، وأنفذ كتبه وطاعته ، واشتبه عليه الأمر فندم اذ لم يكن بني أمره على أساس من الرأي ، فلما احتل أسطول أحمد بن الخطيب بمرسى الجبل ، خرج إليه وناشده الله والعهد أن يبلغ السلطان طاعته ، والبراءة مما صنع أهل الجبل ، ونسبها إليهم . فعند ذلك خشي غمارة على أنفسهم ، فثاروا به ، ولجأ إلى الحصن فاقحموه عليه وشدوه وابنه وثاقاً ، وألقوه في أسطول ابن الخطيب ، وأثزله بسبته وطير للسلطان بالخبر ، فخلع عليه وأمر خاصته فخلعوا عليه . وبعث عمر ابن وزيره عبدالله بن علي وعمر بن العجوز قائد جند النصاري ، فأحضرهما بدار السلطان يوم منى من سنة ست وخمسين وسبعائة وجلس لهما السلطان ووقفا بين يديه وتنصلاً واعتذرا ، فلم يقبل منهما وأودعها السجن وشد

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : ابن كندوز
(٢) وفي نسخة ثانية : سليمان بن داود بن اعراب العسكري .

وثاقهما ، حتى قضى منسك الأضحى . ولما كان ختم سسته أمر بها فجنبا إلى مصارعها وقتل عيسى قعصاً بالرماح ، وقطع ابنه أبو يحيى من خلاف ، وأبى من مداواة قطعه ، فلم يزل يتخبط في دمه إلى أن هلك لثالثة^(١) قطعه ، وأصبحت مثلاً في الآخرين ، وعقد على جبل الفتح وسائر ثغور الأندلس لسليمان بن داود إلى أن كان من أمره ما ذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن نهوض السلطان الى فتح قسنطينة وفتحها ثم فتح تونس عقبها) *

لما هلك الحاجب محمد بن أبي عمرو ، عقد السلطان على ثغور بجاية وما وراءها من بلاد أفريقية لوزيره عبدالله بن علي بن سعيد ، وسرّحه إليها وأطلق يده في الجباية والعطاء . وكانت جبال ضواحي قسنطينة قد تملكها السلطان لما كانت الزواودة متغلبة عليها . وكان عامة أهل ذلك الوطن قبائل سدويكش ، وعقد السلطان عليهم لموسى ابن إبراهيم بن عيسى ، وأنزله بتاوريرت آخر عمل بجاية في أقاربه وولده وصنائه . ولما نزل ابن أبي عمرو بجاية وأخذ بمخنة قسنطينة ، ثم ارتحل عنها على ما عقد من السلم مع المولى الأمير أبي زيد ، أنزل موسى بن إبراهيم بميلة ، فاستقر بها . ولما ولي الوزير عبدالله بن علي أمر أفريقية ، أوعز إليه السلطان بمنازلة قسنطينة ، فترها سنة سبع وخمسين وسبعائة وأخذ بمخنتها ، ونصب المنجنيق عليها ، واشتد الحصار بأهلها ، وكادوا أن يلقوا باليد لولا ما بلغ العسكر من الإرجاف بمهلك السلطان فأفرجوا عنها ، ولحق المولى أبو زيد ببونة ، وأسلم البلد إلى أخيه مولانا الأمير أبي العباس أيده الله تعالى ، عندما وصل إليه من أفريقية ، كان بها مع العرب طالباً ملكهم بتونس ، ومحلباً بهم على ابن تافراكين منذ نازلوا تونس سنة ثلاث وخمسين وسبعائة كما مر ، فلما رجع الآن إلى قسنطينة مع خالد بن حمزة ، داخل المولى أبا زيد في خروجه إلى حصار تونس ، وإقامة مولانا أبي العباس بقسنطينة ، فأجاب لذلك وخرج معه ، ودخل مولانا أبو العباس إلى قسنطينة ، ودعا لنفسه ، وضبط قسنطينة وكان مدلاً ببأسه وإقدامه ، وداخله بعض المنحرفين من بني مرين من أولاد

(١) وفي نسخة ثانية : لثالثة

بوسعيد وسدويكش في تثبيت موسى بن ابراهيم بمعسكره من ميلة ، فيبتوه وانتهبوا معسكره وقتلوا أولاده وخلص إلى تاوريرت ، ثم إلى بجاية ، ولحق بمولانا السلطان مفلولاً . ونكر السلطان على وزيره عبدالله بن علي ما وقع بموسى بن ابراهيم ، وأنه قصر في إمداده ، فسرّح شعيب بن ميمون وتقبّض عليه ، وأشخصه إلى السلطان معتقلاً ، وعقد على بجاية مكانه ليحيى بن ميمون بن مصمود من صنائع دولته ، وفي خلال ذلك راسل المولى أبوزيد الحاجب أبا محمد عبدالله بن تافراكين المتغلب على عمّه ابراهيم في التزول لهم عن بونه ، والقدوم عليهم بتونس ، فقبلوه وأحلّوه محل وليّ العهد ، واستعملوا على بونة من صنائعهم ، ولما بلغ خبر موسى بن ابراهيم إلى السلطان أيام التشريق من سنة سبع وخمسين وسبعائة اعتزم على الحركة إلى أفريقية ، واضطرب معسكره بساحة البلد الجديد ، وبعث في الحشد إلى مراکش . وأوعز إلى بني مرين بأخذ الأهبة للسفر ، وجلس للعتاء والاعتراض من لدن وصول الخبر إليه إلى شهر ربيع من سنة ثمان وخمسين وسبعائة . ثم ارتحل من فاس وسرّح في مقدمته وزيره فارس بن ميمون في العساكر ، وسار في ساقته على التعية إلى أن احتل ببجاية ، وتلّوم لإزاحة العلل . ونازل الوزير قسطنطينة . ثم جاء السلطان على أثره ولما أطلّت راياته ، وماجت الأرض بعساكره ، دعر أهل البلد ، وألقوا بأيديهم إلى الإذعان ، وانفضّوا من حول سلطانهم مهطعين إلى السلطان ، وتحيز صاحب البلد في خاصّته إلى القصة . ووصل أخوه المولى الفضل فطلب الأمان ، فبذله السلطان لهم وخرجوا ، وأنزلهم بمعسكره أياماً ، ثم بعث بالسلطان في الاسطول إلى سبتة فاعتقله بها إلى أن كان من أمره ما نذكره بعد .

وعقد على قسطنطينة لمنصور ابن الحاج خلوف الباباني^(١) من مشيخة بني مرين وأهل الشورى منهم ، وأنزله بالقصة في شعبان من سته ، ووصل إليه بمعسكره من ساحة قسطنطينة بيعة يحيى بن يملول صاحب توزر ، وبيعة علي بن الخلف صاحب نفطة . ووفد ابن مكّي مجدداً طاعته . ووصل إليه أولاد مهلهل أمراء الكعوب وأقتال بني أبي الليل يستحثونه لملك تونس ، فسرّح معهم العساكر وعقد عليهم ليحيى بن رحو بن تاشفين ، وبعث أسطوله في البحر مدداً لهم ، وعقد عليه للرئيس محمد بن يوسف

(١) وفي نسخة ثانية : الياباني

الأبكم ، وساروا إلى تونس وأخرج الحاجب أبا محمد بن تافراكين سلطانه أبو اسحق ابن مولانا السلطان أبي يحيى مع أولاد أبي الليل ، وجهّز معه العساكر لما أحسّ بقدوم عساكر السلطان . ووصل الأسطول إلى مرسى تونس فقاتلهم يوماً أو بعض يوم ، وركب الليل إلى المهدية فتحصّن بها . ودخل أولياء السلطان إلى تونس في رمضان من سنة ثمان وخمسين وسبعائة وأقاموا بها دعوته . واحتل يحيى بن رحو بالقصبة ، وأنفذ الأوامر ، وكتبوا إلى السلطان بالفتح . ونظر السلطان بعد ذلك في أحوال ذلك ، وقبض أيدي العرب من رياح عن الأناوة التي يسمونها الخفارة فارتابوا ، وطالبهم بالرهن فأجمعوا على الخلاف . فأرهب لهم حدّه ، وتبيّن يعقوب ابن علي أميرهم مكره ، فخرج معهم ولحقوا جميعاً بالزاب ، وارتحل في أثرهم . وسار يوسف بن مزني عامل الزاب ببعض الطريق أمامه حتى نزل ببسكرة . ثم ارتحل إلى طولقة^(١) فتقبّض على مقدّمها عبد الرحمن بن أحمد بإشارة ابن مزني ، وخرّب حصون يعقوب بن علي ، وأجفلوا إلى القفر أمامه . ورجع عنهم . وحمل له ابن مزني جباية الزاب بعد أن ردّ عامّة معسكره بالقرى من الأدم والحنطة والحملان والعلوفة ثلاث ليال نفذت في ذلك ، وكافاه السلطان على صنيعه ، فخلع عليه وعلى أهله وولده وأسنى جوائزهم ورجع إلى قسنطينة ، واعتزم على الرحلة إلى تونس . وضاق ذرع العساكر بشأن النفقات والأبعاد في المذهب ، وازتكاب الخطر في دخول افريقية ، فتمشّت رجالاتهم في الانفضاض عن السلطان . وداخلوا الوزير فارس بن ميمون فوافقهم على ذلك وأذن المشيخة والتقباء لمن تحت أيديهم من القبائل في اللحاق بالمغرب حتى تفردوا ، وأنهى إلى السلطان أنّهم تأمروا في قتله . ونصب إدريس بن أبي عثمان بن أبي العلاء للأمر ، فأسرّها في نفسه ولم يبدها لهم . ورأى قلّة من معه من العساكر ، وعلم بانفضاضهم ، فكّر راجعاً إلى المغرب بعد أن ارتحل عن قسنطينة مرحلتين إلى الشرق ، وأغذ السير إلى فاس ، واحتل بها غرة ذي الحجة من سنته . وتقبّض يوم دخوله على وزيره فارس بن ميمون ، اتهمه بمداخلة بني مرين في شأنه ، وقتله رابع أيام التشريق قعصاً بالرماح ، وتقبّض على مشيخة بني مرين فاستلحمهم وأودع منهم السجن ، وبلغ إلى الجهات خبر رجوعه من قسنطينة إلى

(١) مدينة بالمغرب من ناحية الزاب الكبير من صقع الجريد (معجم البلدان) .

المغرب فارتحل أبو محمد بن تافراكين من المهدية إلى تونس ، ولما أطل عليها ثار شيعته بالبلد على من كان بها من عساكر السلطان ، وخلصوا إلى السفين ، فنجوا إلى المغرب ، وجاء على أثرهم يحيى بن رحو بن معه من العساكر من أولاد مهلهل ، كان بناحية الجريد لاقتضاء جبايته ، واجتمعوا جميعاً بباب السلطان ، وأرجأ حركته إلى العام^(١) القابل ، فكان ما ذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن وزارة سليمان بن داود ونهوضه بالعساكر إلى أفريقية) *

لما رجع السلطان من أفريقية ولم يستم فتحها ، بقي في نفسه منها شيء . وخشي على ضواحي قسنطينة من يعقوب بن علي ومن معه من الزواودة المخالفين ، فأهمه شأنهم ، واستدعى سليمان بن داود من مكانه بثغور الأندلس ، وعقد له على وزارته ، وسرّحه في العساكر إلى أفريقية ، فارتحل إليها في ربيع من سنة تسع وخمسين وسبعائة وكان يعقوب بن علي لما كشف وجهه في الخلاف ، أقام السلطان مكانه أخاه ميمون بن علي منازعه ، وقدمه على أولاد محمد من الزواودة ، وأحله بمكانه من رئاسة البدو والضواحي ، ونزع إليه عن أخيه يعقوب الكثير من قومهم ، وتمسك بطاعة السلطان طوائف من أولاد سباع بن يحيى وكبيرهم يومئذ عثمان بن يوسف بن سليمان ، فانحاشوا جميعاً للوزير ونزلوا على معسكره بجلهم . وارتحل السلطان في أثره حتى احتل بتلمسان فأقام بها لمشاركة أحواله منها ، واحتل الوزير سليمان بوطن قسنطينة . وأغذ السير إلى عمال الزاب يوسف بن مزني بأن تكون يده معه ، وأن يؤامره في أحوال الزواودة لرسوخه في معرفتها ، فارتحل إليه من بسكرة ، ونازلوا جبل أوراس واقتضوا جبايته ومغارمه . وشرّدوا المخالفين من الزواودة عن العيث في الوطن ، فتمّ غرضهم من ذلك . وانتهى الوزير وعساكر السلطان إلى أول أوطان أفريقية من آخر مجالات رياح ، وانكفأ راجعاً إلى المغرب . ووافى السلطان بتلمسان ، ووصلت معه وفود العرب الذين أبلوا في الخدمة ، فوصلهم السلطان

(١) وفي نسخة ثانية : إلى اليوم القابل .

وخلع عليهم وحملهم ، وفرض لهم العطاء بالزباب وكتب لهم به ، وانقلبوا إلى أهلهم ، ووفد على أثرهم أحمد بن يوسف بن مزني ، أوفده أبوه بهدية السلطان من الخيل والرقيق والرزق^(١) فتقبلها السلطان وأكرم وفادته وأنزله ، واستصحبه إلى فاس ليريه أحوال كرامته ، وليستبلغ في الاحتفاء به ، واحتل بدار ملكه منتصف ذي القعدة من سنة تسع وخمسين وسبعائة والله أعلم .

الخبر عن مهلك السلطان أبي عنان ونصب السعيد للأمر باستبداد الوزير حسن بن عمر في ذلك

لما وصل السلطان إلى دار ملكه بفاس ، احتل بها بين يدي العيد الأكبر حتى اذا قضى الصلاة من يوم الأضحى أدركه المرض ، وأعجله طائف الوجع عن الجلوس يوم العيد على العادة ، فدخل إلى قصره ولزم فراشه ، واستبد به وجعه ، وأطاف به النساء يمرضنه . وكان ابنه أبو زيان ولي عهده ، وكان وزيره يحيى بن موسى القفولي^(٢) من صنائع دولتهم وأبناء وزرائهم ، قد عقد له السلطان على وزارته واستوصاه به ، فتعجل الأمر ، وداخل رؤوس بني مرين في الانخياش إلى أميرهم والفتك بالوزير الحسن بن عمر وداخله في ذلك عمر بن ميمون لعداوة بينهما وبين الوزير فخشيها الحسن بن عمر على نفسه . وفاوض عليه أهل المجلس بذات صدره ، وكانت نفرتهم عن ولي العهد مستحكمة لما أبلوا من سوء خلته وشر ملكته ، فاتفقوا على تحويل الأمر عنه . ثم نمي إليهم أن السلطان مشرف على الهلكة لا محالة ، وأنه موقع بهم من قبل مهلكه ، فأجمعوا أمرهم على الفتك به والبيعة لأخيه السعيد طفلاً خماسياً ، وباكروا دار السلطان فتقبضوا على وزيره موسى بن عيسى وعمر بن ميمون فقتلوهما ، وأجلسوا السعيد للبيعة . وأوعز وزيره مسعود بن رحوبن ماسى بالتقبض على أبي زيان من نواحي القصر ، فدخل إليه وتلطّف في إخراجهم من بين الحرم . وقاده إلى أخيه فباع وتلّ إلى بعض حجر القصر ، فأتلف فيها مهجته . واستقل الحسن بن عمر بالأمر يوم الاربعاء الرابع والعشرين لذي الحجة من سنة تسع

(١) وفي نسخة ثانية : الدرق .

(٢) وفي نسخة ثانية : العقولي .

وخمسين وسبعائة والسلطان أثناء ذلك على فراشه يجود بنفسه . وارتقب الناس دفنه يوم الأربعاء والخميس بعده ، فلم يدفن فارتابوا ، وفشا الكلام وارتاب الجماعة ، فأدخل الوزير زعموا إليه بمكانه من بيته من غطه حتى ألقاه . ودفن يوم السبت ، وحجب الحسن بن عمر الولد المنسوب للأمر ، وأغلق عليه بابه ، وتفرد بالأمر والنهي دونه . ولحق عبد الرحمن ابن السلطان أبي عنان بجبل الكاي يوم بيعة أخيه ، وكان أسنّ منه وإنما آثروه لمكان ابن عمّه مسعود بن ماسي من وزارته ، فبعثوا إليه من لاطفه واستنزله على الأمان ، وجاء به إلى أخيه فاعتقله الحسن بالقصبة من فاس . وبعث على أبناء السلطان الأصاغر الأمراء بالثغور ، فجاء المعتصم من سجلماسة ، وامتنع المعتمد بمراكش ، وكان بها في كفالة عامر بن محمد الهنتاتي استوصاه به السلطان وجعله هنالك لنظرة ، فمنعه من الوصول ، وخرج به من مراكش إلى معقله من جبل هنتاة ، وجهز الوزير العساكر لمحاربته ، ولم يزل هنالك إلى أن استنزله عمّه السلطان أبو سالم عند استيلائه على ملك المغرب ، كما ذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

الخبر عن تجهيز العساكر الى مراكش ونهوض الوزير سليمان بن داود لمحاربة عامر بن محمد

كان عامر بن محمد بن علي شيخ هنتاة من قبائل المصامدة . وكان السلطان يعقوب . قد استعمل أباه محمد بن علي على جبايتهم ، والسلطان أبو سعيد استعمل عمّه موسى بن علي ورّبي عامر هذا في كفالة الدولة ، وسار في جملة السلطان إلى أفريقية ، وولاه السلطان أحكام الشرطة بتونس . ولما ركب البحر إلى المغرب أركب حرمه وحظاياه في السفن ، وجعلهم إلى نظر عامر بن محمد . وأجازوا البحر إلى الأندلس فترّلوا ألمرية وبلغهم غرق السلطان أبي الحسن وعسكره ، فأقام بهم بمكانه من ألمرية ، ودعى للسلطان أبي عنان ، فلم يجب داعية وفاء ببيعة أبيه ، حتى اذا هلك السلطان أبو الحسن بدارهم بالجبل ، ورعى لهم السلطان أبو عنان إجارتهم لأبيه ، حين لفظته البلاد وتحاماه الناس ، أجمع أمره على الوفاة عليه ، فوفد بمن معه من الحرم . وأكرم السلطان أبو عنان وفادته وأحسن نزله ، ثم عقد له على جباية المصامدة سنة أربع وخمسين وسبعائة وبعثه لها من تلمسان ، فاضطلع بهذه الولاية وأحسن

الغناء فيها ، والكفاية عليها ، حتى كان السلطان أبو عنان يقول : وددت لو أصبت رجلاً يكفيني ناحية المشرق من سلطاني كما كفاني عامر بن محمد ناحية المغرب ، وأتورع ، ونافسه الوزراء في مقامه ذلك عند السلطان ورتبته . وانفرد الحسن بن عمر آخر الأمر بوزارة السلطان ، واشتدّت منافسته وانتهت إلى العداوة والسعاية . وكان السلطان بين يدي مهلكه ولّى أبناءه الأصاغر على أعمال ملكه ، فعقد لابنه محمد المعتمد على مراکش ، واستوزر له ، وجعله إلى نظر عامر واستوصاه به . فلمّا هلك السلطان واستقل الحسن بن عمر بالأمر ونصّب السعيد للملك ، استقدم الأبناء من الجهات ، فبعث عن المعتمد من مراکش فأبى عليه عامر من الوفاة عليهم ، وصعد به إلى معقله من جبل هنتاة ، وبلغ الحسن بن عمر خبره ، فجهّز إليه العساكر وأزاح عنهم ، وعقد على حربته للوزير سليمان بن داود مساهمه في القيام بالأمر ، وسرّحه في المحرم سنة ستين وسبعائة ، فأغذ السير إلى مراکش واستولى عليها ، وصعد إلى الجبل فأحاط به ، وضيق على عامر وطاول منازلته . وأشرف على اقتحام معقله إلى أن بلغه خبر افتراق بني مرين ، وخروج منصور بن سليمان من أعياص الملك على الدولة ، وأنه منازل للبلد الجديد ، فانقضّ العسكر من حوله وتسابقوا إلى منصور بن سليمان ، فلحق به الوزير سليمان بن داود وتنقّس الحصار عن عامر ، إلى أن استولى السلطان أبو سالم على ملك المغرب في شعبان من سنة ستين وسبعائة واستقدم عامراً والمعتمد ابن أخيه من مكانهم بالجبل ، فقدم عليه وأسلمه إليه كما ذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن ظهور أبي حمو بنواحي تلمسان وتجهيز العساكر لمدافعته ، ثم تغلبه وما تخلل ذلك من الأحداث

كان ولد عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن هؤلاء أربعة كما ذكرناه في أخبارهم ، وكان يوسف كبيرهم ، وكان سكوتاً متحلاً لطرق الخير لا يريد علواً في الأرض ، ولما هلك أخوه عثمان بتلمسان ، عقد له على هُنيّ (١) ، وكان ابنه يوسف بن موسى (٢)

(١) وفي نسخة ثانية : تنس .

(٢) وفي نسخة ثانية : وكان ابنه موسى .

متقبلاً مذهبه في السكوت والدعة وبجانبه أهل الشر ، ولما تغلب السلطان أبو عنان عليهم سنة ثلاث وخمسين وسبعائة وقرّ أبو ثابت إلى قاصية المشرق ، واستلهم^(١) قبائل زواوة وأرجلهم عن خيلهم سعوا على أقدامهم ، وانتبذ أبو ثابت وأبوزيان ابن أخيه أبي سعيد وموسى ابن أخيه يوسف ووزيرهم يحيى بن داود ناحية عن قومهم ، وسلکوا غير طريقهم ، وتقبّض على أبي ثابت ويحيى بن داود محمد بن عثمان ، وخلص موسى إلى تونس ، فنزل على الحاجب محمد بن تافراكين وسلطانة خير نزل ، وأجارهم مع فلّ من قومه خلصوا إليهم وأسنوا جراتهم . وبعث السلطان أبو عنان فيهم إلى ابن تافراكين فأبى من إسلامهم وجاهر بإجارتهم على السلطان . ولما استولت عساكر السلطان على تونس ، وأجفل عنها سلطانها أبو اسحق ابراهيم ابن مولانا السلطان أبي يحيى ، خرج موسى بن يوسف هذا في جملة ، ولما رجع السلطان إلى المغرب صمد المولى أبو اسحق ابراهيم ابن مولانا السلطان أبي يحيى ، وابن أخيه المولى أبي زيد صاحب قسنطينة مع يعقوب بن علي وقومه من الزواودة إلى منازل قسنطينة وارتجاعها ، وسار في جملتهم موسى بن يوسف هذا فيمن كان عنده من زناة قومه . وكان بنو عامر من زغبة خارجين على السلطان أبي عنان منذ غلبه بنو عبد الواد على تلمسان . وكانت رياستهم إلى صغير بن عامر بن ابراهيم ، لحق بأفريقية في قومه ونزلوا على يعقوب بن علي ، وجاوروه بجللهم وظعنهم ، فلما أفرجوا عن قسنطينة بعد امتناعها ، واعتزم صغير على الرحلة بقومه إلى وطنهم من صحراء المغرب الأوسط ، دعوا موسى بن يوسف هذا إلى الرحلة معهم لينصّبوه للأمر ، ويحبّلو به على تلمسان ، فخلّى الموحّدون سبيله ، وأعانوه بما اقتدروا عليه لوقتهم ، وعلى حال سفرهم من آلة وفسطاط . وارتحل مع بني عامر ، وارتحل مع صولة بن يعقوب بن علي ، وزيان بن عثمان بن سبّاع من أمراء الزواودة ، وصغار^(٢) بن عيسى في حلل من بني سعيد إحدى بطون رياح . وأغدّوا السير إلى المغرب للعيث في نواحيه . وجمع لهم أقاتلهم من سويد أولياء السلطان والدولة ، والتقوا بقبلة تلمسان ، فانهزمت سويد وهلك عثمان بن ونزمار كبيرهم ، وكان مهلك السلطان في خلال ذلك . وكان السلطان حين استعمل الابناء على الجهات ، عقد لمحمد المهدي من اولاده على

(١) وفي نسخة ثانية : واهتبلهم .

(٢) وفي نسخة ثانية : دغار .

تلمسان . ولما اتصل الخبر بوفاة السلطان بالمغرب ، أغذوا السير إلى تلمسان ، وملكوا ضواحيها ، وجَهَّزَ الحسن بن عمر لها عسكرياً عقد عليه وعلى الحامية الذين بها لسعيد ابن موسى العجيسي من صنائع السلطان . وسَرَّحه إليها ، وسار في جملته أحمد بن مزني فاصلاً إلى عمله بعد أن وصله وخلع عليه وحمله ، وسار سعيد بن موسى في العساكر إلى تلمسان ، واحتل بها في صفر من سنة ستين وسبعائة وزحف إليه جموع بني عامر وسلطانهم أبو حمّو موسى بن يوسف ، فغلبوهم على الضاحية وأحجزوهم بالبلد . ثم ناجزوهم الحرب أياماً ، واقتحموها عليهم ليلال خلون من ربيع ، واستباحوا من كان بها من العسكر ، وامتلاءت أيديهم من أسلابهم ونهابهم . وخلص سعيد بن موسى بابن السلطان إلى حلة صغير بن عامر فأجاره ومن جاء على أثره من قومه ، وأوفد برجالاً من بني عامر ينصبون^(١) له الطريق أيامه إلى أن أبلغوه مأمنه من دار ملكهم ، واستولى أبو حمّو على ملك تلمسان ، واستأثر بالهدية التي أُلقي بمودعها ، كان السلطان انتقاها وبعث بها إلى صاحب برشلونة بطرة بن أَلْقَنْط وبعث إليه فيه بفرس أدهم من مقرباته بمركب ولحام مذهبن ثقلين . فاتخذ أبو حمّو ذلك الفرس لركوبه ، وصرف الهدية في مصارفه ووجوه مذهب . والله غالب على أمره .

الخبر عن نهوض الوزير مسعود بن ماسي إلى تلمسان وتغلبه عليها ثم انتقاضه ونصبه سليمان بن منصور للامر

لما بلغ الوزير الحسن بن عمر خبر تلمسان واستيلاء أبي حمو عليها ، جمع مشيخة بني مرين وأمرهم بالنهوض إليها ، فأبوا عليه من النهوض بنفسه ، وأشاروا بتجهيز العساكر ووعدوه مسيرهم كافة ، ففتح ديوان العطاء وفرق الأموال وأسنى الصلات وأزاح العلل ، وعسكر بساحة البلد الجديد . ثم عقد عليهم لمسعود بن رحو بن ماسي وحمل معه المال وأعطاه الآلة وسار في الألوية والعساكر . وكان في جملته منصور بن سليمان بن منصور بن أبي مالك بن يعقوب بن عبد الحق ، وكان الناس يرجفون بأن

(١) وفي نسخة ثانية : ينفضون : نفض المكان واستنفضه اذا نظر جميع ما فيه حتى يعرفه . وعن الليث : النفضة ، بالتحريك ، الجماعة يعثون في الأرض متجسسين لينظروا هل فيها عدو أو خوف (لسان العرب) .

سلطان المغرب صائر إليه بعد مهلك أبي عنان . وشاع ذلك على ألسنة الناس وذاع وتحدث به السُّمَرُ والندمان ، وخشي منصور على نفسه لذلك ، فجاء إلى الوزير الحسن وشكا إليه ذلك ، فأنهره أن يختلج بفكره هذا الوسواس انتهاراً خلا من وجه السياسة ، فانزجر واقتصر . ولقد شهدت هذا الموطن ، ورحمت ذلة انكساره وخضوعه في موقفه . ورحل الوزير مسعود في التعبية وأفرج أبو حمّو عن تلمسان ، ودخلها مسعود في ربيع الثاني واستولى عليها . وخرج أبو حمّو إلى الصحراء ، وقد اجتمعت عليه جموع العرب من زغبة والمعل . ثم خالفوا بني مرين إلى المغرب واحتلوا بانكاد بحلّهم وظواعنهم ، وجهز إليهم مسعود بن رحو عسكراً من جنوده انتقى فيه مشيخة بني مرين وأمراءهم ، وعقد عليهم لعامر ابن عمّه عبّو بن ماسي^(١) ، وسرّحهم فرحفوا إليه بساحة وجدة ، وصدقهم العرب الحملة ، فانكشفوا واستبيح معسكرهم ، واستلبت مشيختهم ، وأرجلوا عن خيلهم ، ودخلوا إلى وجدة عراة . وبلغ الخبر إلى بني مرين بتلمسان ، وكان في قلوبهم مرض من استبداد الوزير عليهم وحجره لسلطانهم ، فكانوا يتربصون بالدولة . فلما بلغ الخبر وحاص الناس لها حيصة الحمر ، خلص بعضهم نجياً بساحة البلد ، واتفقوا على البيعة ليعيش بن علي بن أبي زيّان ابن السلطان أبي يعقوب فبايعوه .

وانتهى الخبر إلى الوزير مسعود بن رحو ، وكان متحياً السلطان منصور بن سليمان فاستدعاه وأكرهه على البيعة ، وبايعه معه الرئيس الأكبر من بني الأحمر ، وقائد جند النصاري القهردور^(٢) ، وتسائل إليه الناس ، وتسامع الملاء من بني مرين بالخبر ، فتهاووا إليه من كل جانب . وذهب يعيش بن أبي زيّان لوجهه ، فركب البحر وخلص إلى الأندلس ، وانعقد الأمر لمنصور بن سليمان . واحتمل بني مرين على كلمته ، وارتحل بهم من تلمسان يريد المغرب . واعترضهم جموع العرب في طريقهم فأوقعوا بهم ، وامتلات أيديهم من أسلابهم وظعنهم . وأغذوا السير إلى المغرب ، واحتلوا بسبوا في منتصف جمادى الأخيرة ، وبلغ الخبر إلى الحسن بن عمر فاضطرب معسكره بساحة البلد . وأخرج السلطان في الآلة والتعبية إلى أن أنزله بفسطاطه . ولما غشيم الليل انفضّ عنه الملاء إلى السلطان منصور بن سليمان ، فأوقد

(١) وفي نسخة ثانية : ماساي .

(٢) وفي نسخة ثانية : القمندوز .

الشموع وأذكى النيران حوالى القسطاط ، وجمع الموالي والجند وأركب السلطان ودخل إلى قصره ، وانحجز بالبلد الجديد ، وأصبح منصور بن سليمان فارتحل في التعبية حتى نزل بكدية العرائس في الثاني والعشرين لجمادى الأخيرة ، واضطرب معسكره بها ، وغدا عليها بالقتال وشدّ عليها الحملات ، وامتنعت يومها . ثم جمع الأيدي على اتخاذ الآلات للحصار . واجتمعت إليه وفود الأمصار بالمغرب للبيعة ، ولحقت به كتائب بني مرين التي كانت مُحجّرة بمراكش لحصار عامر مع الوزير سليمان بن داود فاستوزره ، وأطلق عبدالله بن علي وزير السلطان أبي عنان من معتقله بسبّية ، فخلص منه خلوص الأبريز بعد السبك . وأمر منصور بن سليمان بتسريح السجون ، فخرج من كان بها من دَعّار بجاية وقسنطينة ، وكانوا معتقلين من لدن استيلاء السلطان أبي عنان على بلادهم . وانطلقوا إلى مواطنهم ، وأقام على البلد الجديد يغاديا القتال ويرأوحها ونزع عنه إلى الوزير الحسن بن عمر طائفة من بني مرين . ولحق آخرون ببلادهم ، وانتقضوا عليه ينتظرون مآل أمره . ولبث على هذه الحال إلى غرة شعبان ، فكان من قدوم السلطان أبي سالم لملك سلفه بالمغرب ، واستيلائه عليه ، ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن نزول المولى أبي سالم بجبال غمارة واستيلائه على ملك المغرب ومقتل منصور بن سليمان

كان السلطان أبو سالم بعد مهلك أبيه واستقراره بالأندلس ، وخروج أبي الفضل بالسوس لطلب الأمر ، ثم ظفر السلطان أبي عنان به ومهلكه كما ذكرناه ، قد تورّع وسكن وسالمه السلطان . ثم لما هلك سلطان الأندلس أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمئة يوم الفطر بمصلى العيد طعنه أسود مدسوس كان ينسب إلى أخيه محمد من بعض إماء قصرهم . ونصبوا للأمر ابنه محمداً وحجبه مولاه رضوان^(١) . واستبدّ عليه . وكان للسلطان أبي عنان اعتراض كما ذكرناه ، وكان يؤمّل ملك الأندلس . وأوعز إليهم عندما طرّقه طائف المرض سنة سبع وخمسين وسبعمئة أن

(١) وفي نسخة ثانية : رضوان .

يبعثوا إليه طبيب دارهم ابراهيم بن زرور الذمّي ، وامتنع من ذلك اليهودي ، واعتذر وردّوه فتنكّر لهم السلطان ، ولما وصل إلى فاس من فتح قسنطينة وأفريقية تقبّض على وزيره والمشيخة من قبله ، تجنّياً عليهم إذ لم يبادروا السلطان بنفسه أو حاجبه للتهنئة^(١) . وأظلم الجوّيينهم ، واعتزم على النهوض إليهم وكانوا منحاشين بالجملة إلى الطاغية بطرّة بن أدفونش صاحب قشتالة ، منذ مهلك أبيه الهنشة على جبل الفتح سنة إحدى وخمسين وسبعمائة ثم استبدّ رضوان على الدولة بعد مهلك أبي الحجاج ، فكانت له صاغية إليه ، ظاهرها النظر للمسلمين بمسألة عدوّهم . وكان السلطان أبو عنان يعتدّ ذلك عليهم ، وعلم أنه لا بدّ أن يمدّهم بأساطيله ويدفعوه عن الإجازة إليهم . وكان بين الطاغية بطرّة وبين قص برشلونة فتنة هلك فيها أهل ملتهم ، فصرف السلطان قصده إلى قص برشلونة وخاطبه في اتصال اليد على ابن أدفونش ، واجتمع أسطول المسلمين وأسطول النصارى القمص بالزقاق ، وضربوا لذلك الموعد وأنحفه السلطان بهديّة سنّية من متاع المغرب وماعونه ، ومركب ذهبيّ صنيع ، ومقرب من جياده وأنفذها إليه ، فبلغت تلمسان ، وهلك قبل وصولها إلى محلها ، ولما هلك السلطان أبو عنان أمّل أخوه المولى أبو سالم ملك أخيه ، وطمع في مظاهرة أهل الأندلس له على ذلك لما كان بينهم وبين أخيه ، واستدعاه أشياخ من أهل المغرب ، ووصل البعض منهم إليه بمكانه من غرناطة ، وطلب الاذن من رضوان في الإجازة ، فأبى عليه ، فأحفظه ذلك . ونزع إلى ملك قشتالة متطارحاً بنفسه عليه أن يجهّز له الأسطول للإجازة إلى المغرب ، فاشتراط عليه وتقبّل شرطه . وأجازته في أسطوله إلى مراكش ، فامتنع عامر من قبوله لما كان فيه من التضييق والحصار بحضرة سليمان بن داود كما ذكرناه . فانكفأ راجعاً على عقبه . فلما حاذى طنجة وبلاد غمارة وألقى بنفسه إليهم ، ونزل من الصفيحة من بلادهم . واشتملت عليه قبائلهم ، وتسايلوا إليه من كل جانب وبايعوه على الموت .

وملك سبتة وطنجة ، وبها يومئذ السلطان أبو العباس بن أبي حفص صاحب قسنطينة لحق بها بعد الخروج من اعتقاله بسبتة كما ذكرناه ، فاخصّصه المولى أبو سالم

(١) وفي نسخة ثانية : ابراهيم بن زرور الذمي ، وامتنع من ذلك اليهودي ، واعتذر واعتذر ، فتركهم السلطان قبله ، ولما وصل إلى فاس من فتح قسنطينة وأفريقية وتقبّض على وزيره والمشيخة من قبله ، تجنّياً عليهم ، إن لم يبادر السلطان بنفسه وحاجبه للتهنئة .

بالصحبة والخلة ، والبواء^(١) في اغترابه ذلك ، إلى أن استولى على ملكه ، وألقى بطنجة الحسن بن يوسف الورتاجني ، وكاتب ديوان الجند أبا الحسن بن علي بن السعود ، والشريف أبا القاسم التلمساني . فكان منصور بن سليمان ارتاب بهم واتهمهم بمدخلة الوزير الحسن بن عمر بمكانه من البلد الجديد ، فصرفهم من معسكره إلى الأندلس ، فوافوا الأمير^(٢) أبا سالم عند استيلائه على طنجة ، فصاروا إلى إيلائه ، واستوزر الحسن بن يوسف ، واستكتب لعلامته أبا الحسن علي بن السعود ، واختص الشريف بالجلاسة والمراكمة . ثم قام أهل الثغور الأندلسية بدعوته ، وأجاز يحيى بن عمر صاحب جبل الفتح بمن كان معه من العسكر ، وطالت حصاة المولى أبي سالم واتسع معسكره ، وبلغ الخبر إلى الثائر على البلد الجديد منصور بن سليمان ، فجهّز عسكرياً لدفاعه وعقد عليه لأخويه عيسى وطلحة ، وأنزلها قصر كتامة ، وقاتلوه فهزموه ، واعتصم بالجل وبادر الحسن بن عمر من وراء الجدران فبعث طاعته إليه ، ووعدته بالتمكين من دار ملكه . وداخل بعض أشباع المولى أبي سالم مسعود بن رحو بن ماسي وزير منصور في التزوع إلى السلطان ، وكان قد ارتاب بمنصور وابنه عليّ ، فترع وانفضّ الناس من حول منصور ، وتخاذل أشباعه من بني مرين ، ولحق بياديس من سواحل المغرب . ومشى أهل العسكر بأجمعهم في ساقاتهم ومواكبهم على التعبية ، فلحقوا بالسلطان أبي سالم واستعدوه إلى دار ملكه ، فأغذّ السير وخلع الحسن بن عمر سلطانه السعيد من الأمر لتسعة أشهر من خلافته ، وأسلمه عمّه وخرج إليه فبايعه .

ودخل السلطان إلى البلد الجديد يوم الجمعة منتصف شعبان من سنة ستين وسبعائة واستولى على ملك المغرب ، وتوافت وفود النواحي بالبيعات ، وعقد للحسن بن عمر على مراکش ، وجهّزه إليها بالعساكر رية بمكانه . واستوزر مسعود بن رحو بن ماسي والحسن بن يوسف الورتاجني ، واصطفى من خواصّه خطيب أبيه الفقيه أبا عبدالله محمد بن أحمد بن مرزوق ، وجعل إلى مؤلف هذا الكتاب توقيعه وكتابة سرّه . وكنتُ نزعْتُ إليه من معسكر منصور بن سليمان بكدية العرايس لما رأيت من اختلال أحواله ، ومصير الأمر إلى السلطان ، فأقبل عليّ وأنزلني بمحل التنويه ،

(١) وفي نسخة ثانية : وألفه .

(٢) وفي نسخة ثانية : المولى .

واستخلصني لكتابته . واستوسق أمره بالمغرب وتقبّض شيعة السلطان بباديس على منصور بن سليمان وابنه عليّ وقادوهم مصفّدين إلى سدّته ، وأحضرهم ووبّخهم ، وجنبوا إلى مصارعهم ، فقتلوا قعصاً بالرماح آخر شعبان من سنته . وجمع الأبناء والقراة المرشّحين من ولد أبيه ، وأشخصهم إلى رندة من ثغورهم بالأندلس ، ووكل بهم من يحرسهم ، ونزع محمد ابن أخيه أبو عبد الرحمن منهم إلى غرناطة . ثم لحق منها بالطاغية ، واستقرّ لديه حتى كان من تملكه المغرب ما نقصه إن شاء الله تعالى . وهلك الباقون غرقاً بالبحر بإيعاز السلطان بذلك بعد مدّة من سلطانه ، أركبهم السفن إلى المشرق ، ثم غرقهم . وخلص الملك من الخوارج والمنازعين ، واستوسق له الأمر ، والله غالب على أمره . واحتفل السلطان في كرامة مولانا السلطان أبي العباس ، وأشاد ببره وأوعز باتخاذ دار عامر بن فتح الله وزير أبيه لتزله ، ومهد له المجلس لضيق أريكته ، ووعدّه بالمظاهرة على ملكه إلى أن بعثه من تلمسان عند استيلائه عليها ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن خلع ابن الأحمر صاحب غرناطة ومقتل رضوان ومقدمه على السلطان) *

لما هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعائة ونصّب ابنه محمد للأمر ، واستبدّ عليه رضوان مولى أبيه ، وكان قد رشّح ابنه الأصغر اسمعيل بما ألقى عليه وعلى أمه من محبته . فلما عدلوا بالأمر عنه حجّبه ببعض قصورهم ، وقد كان له صهر من ابن عمّه محمد بن اسمعيل ابن الرئيس أبي سعيد في شقيقته فكان يدعوه سرّاً إلى القيام بأمره متى أمكنته فرصة في الدولة ، فخرج السلطان إلى بعض منتهراته برياضه ، فصعد سور الحمراء ليلة سبع وعشرين من رمضان من سنة ستين وسبعائة في بعض أوشاب ، جمعهم من الطغام لثورته . وعمد إلى دار الحاجب رضوان فاقتحم عليه الدار وقتله بين حرمة وبناته ، وقربوا إلى اسمعيل فرسه فادخلوه القصر وأعلنوا بيعته ، وقرعوا طبولهم بسور الحمراء ، وفرّ السلطان من مكانه بمنترهه إلى وادي آش بعد مقتل حاجبه رضوان ، واتصل الخبر بالسلطان المولى أبي سالم ، فامتعض لمهلك رضوان ، وخلع السلطان رعيّاً لِمَا سلف له في جوارهم ، وأزعج

لحينه أبا القاسم الشريف من أهل مجلسه لاستقلاله ، فوصل إلى الأندلس وعقد مع أهل الدولة على إجازة المخلوع من وادي آش إلى المغرب ، وأطلق اعتقالهم الوزير الكاتب أبا عبدالله بن الخطيب ، كانوا اعتقالوه لأوّل أمرهم لما كان رديفاً للحاجب رضوان وركناً لدولة المخلوع . فأوصى المولى أبو سالم إليهم بإطلاقه ، فأطلقوه . ولحق الرسول أبو القاسم الشريف بسultanه المخلوع بوادي آش للإجازة إلى المغرب ، وأجاز لذي القعدة من سته . وقدم على السلطان بفاس وأجلّ قدومه ، وركب للقائه ، ودخل به إلى مجلس ملكه وقد احتفل ترتيبه^(١) ، وغصّ بالمشيخة والعلية . ووقف وزيره ابن الخطيب فأشاد السلطان قصيدته الرائقة يستصرخه لسلطانه ، ويستحثه لمظاهرة على أمره . واستعطف واسترحم بما أبكى الناس شفقة له ورحمة ، ونصّ القصيدة :

وَهَلْ أَغْشَبَ الْوَادِي وَنَمَّ بِهِ الزَّهْرُ
عَفَتْ آيَهَا إِلَّا التَّوَهُّمُ وَالذِّكْرُ
بَأَكْنَافِهَا وَالْعِيشُ فَيَنَانُ مُخْضَرُ
فَهَا أَنَا ذَا مَالِي جَنَاحٌ وَلَا وَكْرُ
وَلَا نَسْخَ الْوَصَلِ الْهِنِيِّ لَهَا هَجْرُ
وَلَسَذَاتُهَا دَابَّاءُ تَزُورُ وَتَزُورُ
مَدَى طَالَ حَتَّى يَوْمَهُ عِنْدَنَا شَهْرُ
ضِرَامٌ لَهُ فِي كُلِّ جَانِحَةٍ جَمْرُ
وَلِلْبَيْنِ أَشْجَانُ يَضِيقُ لَهَا الصَّدْرُ
فَعَادَ أَجَاجاً بَعْدَنَا ذَلِكَ النَّهْرُ
وَأَنَسَهَا الْحَادِي وَأَوْحَشَهَا الرَّجْرُ
بِأَنْجَازِ وَعْدِ اللَّهِ قَدْ ذَهَبَ الْعُسْرُ
وَإِنْ يُخْذَلُ الْأَقْوَامُ لَمْ يُخْذَلِ الصَّبْرُ
نَقَاباً تَسْوَى عِنْدَهُ الْحُلُو وَالْمُرُ^(٢)

سَلَا هَلْ لَدِيهَا مِنْ مُحَبَّرَةٍ ذِكْرُ
وَهَلْ بَاكِرِ الْوَسْمِيِّ دَاراً عَلَى اللَّوَى
بِلَادِي الَّتِي عَاطَيْتُ مَشْمُولَةَ الْهَوَى
وَجَوِي الَّذِي رَبَّى جَنَاحِي وَكْرَهُ
نَبَتْ بِي لَا عَنْ جَفْوَةٍ وَقَلَاكَةِ
وَلَكِنَّهَا الدُّنْيَا قَلِيلٌ مَتَاعُهَا
فَمَنْ لِي بِنَيْلِ الْقُرْبِ مِنْهَا وَدُونَا
وَلِلَّهِ عَيْنَا مِنْ رَأْيَا وَلِلْأَسَى
وَقَدْ بَدَّدَتْ دُرَّ الدَّمُوعِ يَدُ النَّوَى
بَكَيْنَا عَلَى النَّهْرِ السَّرُورِ عَشِيَّةً
أَقُولُ لِأُظْعَانِي وَقَدْ غَالَهَا السُّرَى
رُوَيْدُكَ بَعْدَ الْعُسْرِ يُسْرُ فَابْشُرِي
وَإِنْ تَجْبُنِ الْأَيَّامُ لَمْ تَجْبُنِ النَّهْيَ
وَإِنْ عَرَّكَتْ مِنِّي الْخُطُوبُ مُجَرَّباً

(١) وفي نسخة ثانية : بزيته .

(٢) وفي نسخة ثانية : نفاقاً تساوي عنده الحلو والمر .

فَقَدْ عَجَمْتَ عوداً صلياً مقوماً (١)
 إِذَا أَنْتَ بِالْيَقِظَاءِ قَدْ زُرْتَ مَنَزِلِي
 زَجَرْنَا بِإِبْرَاهِيمَ مَلءَ (٢) هومنا
 بِمُتَخَبٍ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ كُلَّمَا
 تَنَاقَلَتِ الرُّكْبَانُ طَيْبَ حَدِيثِهِ
 نَدَى لَوْ حَوَاهِ الْبَحْرُ لَذَّ مَذَاقُهُ
 وَبَاسٌ غَدَا يَرْتَاعُ مِنْ خَوْفِهِ الرَّدَى
 أَطَاعَتْهُ حَتَّى الْعُضْمُ فِي قِنَنِ الرُّبَا
 قَصِدْنَاكَ يَا مَوْلَى الْمُلُوكِ عَلَى النُّوَى
 كَفَفْنَا بِكَ الْأَيَّامَ عَنْ غُلُوثِهَا
 وَعُدْنَا بِذَلِكَ الْمَسْجِدِ فَانصَرَفَ الرَّدَى
 وَلَمَّا أَتَيْنَا الْبَحْرَ نَرَهَبُ مَوْجَهُ
 خِلَافَتِكَ الْعُظْمَى وَمَنْ لَمْ يَدِنْ بِهَا
 وَوَضَفَكَ يُهْدِي الْمَدْحَ قَصْدَ صَوَابِهِ
 دَعَتْكَ قُلُوبُ الْمُسْلِمِينَ وَأَخْلَصَتْ
 وَمُدتْ إِلَى اللَّهِ الْأَكْفُ ضَرَاعَةً
 وَالْبَسَهَا النُّعْمَى بِبَيْعَتِكَ الَّتِي
 فَأَصْبَحَ ثَغْرُ الثَّغْرِ يَبْسِمُ ضَاكِحاً
 وَأَمْنَتْ بِالسَّلَامِ الْبِلَادَ وَأَهْلَهَا
 وَقَدْ كَانَ مَوْلَانَا أَبُوكَ مُصْرَحاً
 وَقَدْ كُنْتَ حَقّاً بِالْخِلَافَةِ بَعْدَهُ (٦)

وعزماً كما تمضي المهندة البئر
 فلا اللحم حل ما جيت (٢) ولا الظهر
 فلمّا رأينا وجهه صدق الزجر
 دجا الخطب لم يكذب لعزمته فخر
 فلمّا رآته صدق الخبر الخبر
 ولم يتعقب مده أبداً جزر
 وترقى في أذباله الفتية (٤) البكر
 وهشت إلى تأمله الأنجم الزهر
 لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
 وقد رأينا منها التعسف والكبر
 ولذا بذاك العز فانهمز الشر
 ذكرنا بذاك العز الغمر فاحتقر البحر (٥)
 فإيمانه لغو وعرفانه نكر
 إذا ضل في أوصاف من دونك الشعر
 وقد طاب منها السر لله والجهر
 فقال لهم الله قد قضى الأمر
 لها الطائر الميمون والمحتد الحر
 وقد كان مما نابّه ليس يفتّر
 فلا ضيمة تعدو ولا روعة تعرفو
 بأنك في أولاده الولد البر
 على الفور لكن كل شيء له قدر

(١) وفي نسخة ثانية : فقد عجمت عدداً صلياً على النوى .

(٢) وفي نسخة ثانية : ما حيت .

(٣) وفي نسخة ثانية : برء .

(٤) وفي نسخة ثانية : البتكة .

(٥) وفي نسخة ثانية : ولما اتينا البحر يرهب موجه ذكرنا بذاك الغمر ما احتقر البحر

(٦) وفي نسخة ثانية : وكنت حقيقاً بالخلافة بعده .

فَأَوْحَشْتَ مِنْ دَارِ الْخَلَاةِ أَهْلَهَا (١)
وَرَدَّ عَلَيْكَ اللَّهُ حَقَّكَ إِذْ قَضَى
وَقَادَ إِلَيْكَ الْمَلِكَ رَفِقًا بِخَلْقِهِ
وَزَادَكَ بِاتِّمَاحِصِ عَزًّا وَرِفْعَةً
وَأَنْتَ الَّذِي تُدْعَى إِذَا دَهَمَ الرَّدَى
وَأَنْتَ إِذَا جَارَ الزَّمَانُ بِحُكْمِهِ
وَهَذَا ابْنُ نَصْرٍ قَدْ أَتَى وَجَنَاحَهُ
غَرِيبٌ يُرْجِي مِنْكَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ
فَعُدْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) لِبَيْعَةٍ
وَمِثْلِكَ مَنْ يَرعى الدَّخِيلَ وَمَنْ دَعَا
وَحَذَّ يَا إِمَامَ الْحَقِّ لِلْحَقِّ نَارَهُ
وَأَنْتَ لَهَا يَا نَاصِرَ الْحَقِّ فَلْتَقُمْ
فَإِنْ قِيلَ مَالٌ مَالُكَ الدُّثْرُ وَاقْرَ
يَكْفُ بِكَ الْعَادِي وَيَحْيَا بِكَ الْهُدَى
أَعِدُّهُ إِلَى أَوْطَانِهِ عَنْكَ ثَانِيًا
وَعَاجِلْ قُلُوبَ النَّاسِ فِيهِ بِجَبْرِهَا
وَهُمْ يَرْقُبُونَ الْفِعْلَ مِنْكَ وَصَفَقَةً
مُرَامِكَ سَهْلٌ لَا يُوْذُكَ كَفْلُهُ
وَمَا الْعَمْرُ إِلَّا زِينَةٌ مُسْتَعَارَةٌ
وَمَنْ بَاعَ مَا يَفْنَى بِيَاقٍ مُخَلَّدٍ
وَمِنْ دُونِ مَا تَبْقِيهِ يَا مَالِكَ الْعَلَى
وَرَادُّ وَشَقَرٌ وَاضْحَاتُ شَيْئَانِهَا
وَشَهْبٌ إِذَا مَا ضُمِرَتْ يَوْمَ غَارَةِ

أَقَامَتْ زَمَانًا لَا يُلُوحُ بِهَا الْبَدْرُ
بَانَ تَشْمُلُ النُّعْمَى وَيَنْسَدِلُ السُّرُ
وَقَدْ عَدِمُوا رُكْنَ الْأَمَانَةِ وَاضْطَرُّوا
وَأَجْرًا وَلَوْلَا السَّبْكُ مَا عُرِفَ التَّبَرُّ
وَأَنْتَ الَّذِي تُرْجَى إِذَا أَخْلَفَ الْقَطَرُ
لَكَ النَّقْصُ وَالْإِبْرَامُ وَالنَّهْيُ وَالْأَمْرُ
كَسِيرٌ وَمِنْ عُلْيَاكَ يَلْتَمَسُ النَّصْرُ
فَإِنْ كُنْتَ تَبْغِي الْفَخْرَ قَدْ جَاءَكَ الْفَخْرُ
مُوثَقَةً قَدْ حُلَّ عُقْدَتُهَا الْغَدْرُ
بِآلِ مَرَيْنَ جَاءَهُ الْعِزُّ وَالنَّصْرُ
فَفِي ضِمْنٍ مَا تَأْتِي بِهِ الْعِزُّ وَالْأَجْرُ
بِحَقِّ مَا زِيدُ يُرْجَى وَلَا عَمْرُو
وَإِنْ قِيلَ جَيْشٌ عِنْدَكَ الْعَسْكَرُ الْحَرُّ (٣)
وَيَنْبِي بِكَ الْإِسْلَامُ مَا هَدَمَ الْكُفْرُ
وَقَلْدُهُ نِعْمَاكَ الَّتِي مَالَهَا حَضْرُ
فَقَدْ صَدَّهُمْ عَنْهُ التَّغْلِبُ وَالْقَهْرُ
تَحَاوَلُوا يُمْنَاكَ مَا بَعْدَهَا خُسْرُ
سَوَى أَنَّهُ عَرَضٌ لَهُ فِي الْعَلَى حَظْرٌ (٤)
تُرْدُ وَلَكِنْ الثَّنَاءُ هُوَ الْعُمُرُ
فَقَدْ أَنْجَحَ الْمَسْعَى وَقَدْ رُبَّحَ التَّجَرُّ
جِيَادُ الْمَذَاكِي وَالْمَحَجَّلَةُ الْغُرُ
فَأَجْسَامُهَا تَبَرُّ وَأَرْجُلُهَا دُرُ
مُطَهَّمَةٌ غَارَتْ بِهَا الْأَنْجُمُ الزُّهْرُ

(١) وفي نسخة ثانية : هالة .

(٢) وفي نسخة ثانية : المسلمين .

(٣) وفي نسخة ثانية : البحر .

(٤) وفي نسخة ثانية : سوى عرض ما ان له في العلى خطر .

وأسدٌ رجـالٌ من مرينَ أعزةٍ
 عليهم من الماذي كل مفاضةٍ
 هم القومُ إن هبوا لكشفِ مملّةٍ
 اذا سُئلوا أعطوا ، وإن نُوزعوا سَطوا
 وإن سمعوا العواءَ وافوا بأنفسِ
 وإن مُدحوا هزّوا ارتياحاً كأنهمُ
 وتبسّمُ ما بينَ الوشيجِ فثورهم
 أمولاي غاضتْ فُكُرتي وتبدلتْ
 ولولا حنانٌ منك داركتني به
 فأنجذتْ مني فائتاً أي فائتِ
 بدأتْ بفضلٍ لم أكن لِعَظْمِهِ
 وطوّقتني النعمى المضغفة (٣) التي
 وأنتِ بتتميمِ الصنائعِ كافِلُ
 جزاك الذي أسنى مقامك رحمةً
 إذا نحنُ أثنينا عليك بمَدْحَةٍ
 ولكننا نأتي بها نستطيعه

عَمَائِمُهَا بِيضٌ وَأَمَالُهَا سُمْرٌ
 تُدَافِعُ فِي أَعْطَافِهَا اللَّجَجُ الْخُضْرُ
 فَلَا الْمُلتَقَى صَغْبٌ وَلَا المُرتَقَى وَعرٌ
 وَإِنْ وَعَدُوا أَوْفُوا وَإِنْ عَاهَدُوا بَرُّوا
 كِرَامٌ عَلَى هَامَاتِهَا فِي الْوَرَى الْبِرُّ (١)
 نَشَاوَى تَسَنَّنَتْ فِي مَعَاظِلِهِمْ خَمْرٌ
 وَمَا بَيْنَ مُخَصَّصِ الدَّوْحِ يَتَسَمَّرُ الرِّقْمُ
 طَبَاعِي ، فَلَا طَبِعٌ يَقِينِي (٢) وَلَا فِكْرٌ
 وَأَخْيَيْتَنِي لَمْ يَتَّقَ عَيْنٌ وَلَا أُنْرٌ
 وَأَنْشَرْتَ مَيْتاً ضَمَّ أَشْلَاءَهُ قَبْرٌ
 بِأَهْلِ فَحَلَّ اللَّطْفُ وَأَنْشَرَ الصَّدْرُ
 يَقِلُّ عَلَيْهَا مِنْي الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ
 إِلَى أَنْ يَعُودَ الْعَزُّ وَالْجَاهُ وَالْوَقْرُ
 تَفَكُّ بِهَا الْعَانِي وَيُنْفُسُ (٤) مُضْطَرُّ
 فَهَيْهَاتَ يُحْصَى الرَّمْلُ أَوْ يُحْصَرُ الْقَطْرُ
 وَمَنْ بَذَلَ الْمَجْهُودَ حَقَّ لَهُ الْعُذْرُ

ثم انقضى المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى نزله ، وقد فرشت له القصور وقربت له
 الجياد بالمراكب المذهبة ، وبعث إليه بالكسا الفاخرة ، ورتب الجرايات له ولواليه
 من العلوجي ويطانته من الصنائع ، وانحفظ عليه رسم سلطانه في الركب والرجل ،
 ولم يفقد من ألقاب ملكه إلا الأداة أدباً مع السلطان ، واستقر في حملته إلى أن كان
 من لحاقه بالأندلس ، وارتجاع ملكه سنة ثلاث وستين وسبعائة ما تذكره إن شاء الله
 تعالى .

(١) وفي نسخة ثانية : وإن سمعوا العوراء فروا بانفس

حرام على هلماتها في الوغي الغر

(٢) وفي نسخة ثانية : يعين .

(٣) وفي نسخة ثانية : المضاعفة .

(٤) وفي نسخة ثانية : وينتش .

* (الخبر عن انتقاض الحسن بن عمر وخروجه بتادلا وتغلب
السلطان عليه ومهلكه) *

لما فصل الوزير الحسن بن عمر إلى مراکش واستقرّ بها ، تأثّل له بها سلطان
ورياسة ، نفسها أهل مجلس السلطان^(١) وسعوا في تنكّر السلطان له ، حتى أظلم الجوّ
بينهما ، وشعر الوزير بذلك فارتاب بمكانه ، وخشي بادرة السلطان على نفسه ،
وخرج من مراکش في شهر صفر من سنة إحدى وستين وسبعائة فلهق بتادلاً منحرفاً
عن الطاعة ، مرتبكاً أمره ، وتلقاه بنو جابر من جيش ، واعصوبوا عليه وأجاروه .
وجّه السلطان عساكره إلى حربه ، وعقد عليها لوزيره الحسن بن يوسف وسرّحه إليه
فاحتل بتادلا ، ولحق الحسن بن عمر بالجبل ، واعتصم به مع الحسين بن علي
الورديني كبيرهم . وأحاطت بهم العساكر وأخذوا بمخنتهم ، وداخل الوزير بعض
أهل الجبل من صناكة في الثورة بهم ، وسرّب إليهم المال فثاروا بهم ، وانفض
جمعهم ، وتقبّض على الحسن بن عمر ، وقاده برمته إلى عسكر السلطان فاعتقله
الوزير ، وانكفأ راجعاً إلى الحضرة . وقدم بها على السلطان في يوم مشهود ،
واستركب السلطان فيه العسكر وجلس يبرج الذهب مقعده في ساحة البلد لاعتراض
عساكره . وحمل السلطان الحسن بن عمر على جمل طيف به بين أهل ذلك
المحشر ، وقرب إلى مجلس السلطان فأومأ إلى تقبيل الأرض فوق جملة ، وركب
السلطان إلى قصره ، وانفضّ الجمع وقد شهروا وصاروا عبدة من عبر الدنيا . ودخل
السلطان قصره فاقعد أريكته واستدعى خاصته وجلساءه ، وأحضره فويّخه وقرّر
عليه مرتكبه ، فتلوى بالمعاذير وفرغ إلى الإنكار . وحضرتُ هذا المجلس يومئذ فيمن
حضره من العلّية والخاصّة ، فكان مقاماً تسيل فيه العيون رحمة وعبدة . ثم أمر به
السلطان فسحب على وجهه ، وتفتّ لحيته وضرب بالعصي ، وتلّ إلى محبسه ، وقتل
الليال من اعتقاله قعصاً بالرماح بساحة البلد ، ونصب شلوه بسور البلد عن باب
المهروق ، وأصبح مثلاً في الآخرين .

(١) وفي نسخة ثانية : نفسها عليه الوزراء بمجلس السلطان .

* (الخبر عن وفد السودان وهديتهم وأغرابهم فيها بالزرافة) *

كان السلطان أبو الحسن لما أهدى إلى ملك السودان منسا سليمان بن منسا موسى هديته المذكورة في خبره ، اعتمل في مكافأته وجمع لمهادات من طرف أرضه وغرائب بلاده ، وهلك السلطان أبو الحسن خلال ذلك ، ووصلت الهدية إلى أقصى ثغورهم من الأرس^(١) . وهلك منسا سليمان قبل وصولها . واختلف أهل مالي وافترق أمرهم^(٢) . وتوائب ملوكهم على الأمر وقتل بعضهم بعضاً ، وشغلوا بالفتنة حتى قام فيهم منسا زاطة^(٣) واستوسق له أمرهم ونظر في أعطاف ملكه ، وأخبر بشأن الهدية وأخبر أنها بوالاتن فأمر بإنفاذها إلى ملك المغرب ، وضم إليها حيوان الزرافة الغريب الشكل ، العظيم الهيكل ، المختلف الشبه بالحيوانات . وفصلوا بها من بلادهم فوصلوا إلى فاس في صفر من سنة إثنين وستين وسبعائة وكان يوم وفادتهم يوماً مشهوداً جلس لهم السلطان ببرج الذهب مجلس العرض . ونودي في الناس بالبروز إلى الصحراء ، فبرزوا ينسلون من كل حذب حتى غص بهم الفضاء وركب بعضهم بعضاً في الإزدحام على الزرافة إعجاباً بخلقها وأنشد الشعراء في معرض المدح والتهنئة ، ووصف الحال . وحضر الوفد بين يدي السلطان وأدوا رسالتهم بتأكيد الود والمخالصة ، والعذر عن إبطاء الهدية بما كان من اختلاف أهل مالي وتوائبهم على الأمر ، وتعظيم سلطانهم وما صار إليه . والترجمان يترجم عنهم وهم يصدقونه بالترع في أوتار قسيهم عادة معروفة لهم . وحيوا السلطان يحثون التراب على رؤوسهم على سنة ملوك العجم . ثم ركب السلطان وانفض ذلك الجمع وقد طاربه الذكر . واستقر ذلك الوفد في إيالة السلطان وتحت جرايته ، وهلك السلطان قبل انصرافهم ، فوصلهم القائم بالأمر من بعده ، وانصرفوا إلى مراکش وأجازوا منها إلى ذوي حسان عرب المَعْقِل من السوس المتصلين ببلادهم . ولحقوا من هنالك بسلطانهم ، والأمر لله وحده .

(١) وفي نسخة ثانية : إلى أقصى ثغورهم من والاتن .

(٢) وفي نسخة ثانية : ملكهم .

(٣) وفي نسخة ثانية : منساجاطه .

الخبر عن حركة السلطان الى تلمسان واستيلائه عليها وايثار أبي زيان حافد أبي تاشفين بملكها وما كان من ذلك من صرف أمراء الموحيدين إلى بلادهم

لما استقلَّ السلطان بملك المغرب سنة ستين وسبعمائة كما ذكرناه ، وكان العامل على درعة عبدالله بن مسلم الزردالي من أخلاف بني عبد الواد وشيعة أبي زيان^(١) ، اصطنعه السلطان أبو الحسن عند تغلبه على تلمسان . واستعمله أبو عنان بعد ذلك على بلاد دَرَعَة كما ذكرناه . وتأتى له^(٢) المكر بأبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن حين خروجه على أخيه السلطان أبي عنان بجبل ابن حميدي ، فارتاب عند استقلال المولى أبي سالم بالأمر . وخشي بادرته لما رآه من حقه عليه بسبب أخيه أبي الفضل ، لِمَا كان بينهما من لحة الاعتراب ، فداخل بطانة له من عرب المعقل ، واحتمل ذخائره وأمواله وأهله وقطع القفر إلى تلمسان ، ولحق بالسلطان أبي حمو آخر سنة ستين وسبعمائة فترل منه خير نزل ، وعقد له حين وصوله على وزارته ، وباهى به وبمكانه ، وفوض إليه في التدبير والحلّ والعقد ، فشر عن ساعده في الخدمة ، وجأجأ بعرب المعقل من مواطنهم رغبة في ولايته وايثاراً لمكانته من الدولة ، ورهبة من سلطان المغرب لما كانوا ارتكبوه من موافقة بني مرين مرة بعد أخرى ، فاستقرّوا بتلمسان وانحاشوا جميعاً إلى بني عبد الواد ، وبعث السلطان أبو سالم إلى أبي حمو في شأن عاملهم عبدالله بن مسلم ، فلم يرجع له جواباً عنه ، وحضر عليه ولاية المعقل أهل وطنه ، فليجّ في شأنهم فأجمع السلطان أمره على النهوض إليهم . واضطرب معسكره بساحة البلد وفتح ديوان العطاء ونادى في الناس بالنفير إلى تلمسان . وأزاح العلل .

وبعث الحاشدين من وزرائه إلى مراكز حشود الجهات ببابه ، وفصل من فاس في جمادى من سنة إحدى وستين وسبعمائة وجمع أبو حمو من في إيالته وعلى التشييع لدولته من زناتة والعرب من بني عامر والمعقل كافة ، ما عدا العارنة ، كان

(١) وفي نسخة ثانية : آل زيان .

(٢) وفي نسخة ثانية : وتولى .

أميرهم الزبير بن طلحة متحيزاً إلى السلطان . وأجفلوا عن تلمسان وخرجوا إلى الصحراء . ودخل السلطان إلى تلمسان ثالث رجب ، وخالفه أبو حمّو وأشياعه إلى المغرب ، فترلوا كرسيف بلد ونزمار بن عريف ، وخرّبوه واكتسحوا ما وجدوا فيه حقداً على ونزمار وقومه بولاية بني مرين . وتخطّوا إلى وطاط ، فعاثوا في نواحيه ، وانقلبوا إلى أنكاد ، وبلغ السلطان خبرهم فتلافى أمر المغرب . وعقد على تلمسان الحافد من حفدة السلطان أبي تاشفين ، كان ربّي في حجرهم وتحت كفالة نعمتهم ، وهو أبو زيان محمد بن عثمان ، وشهرته بالفتى ، وأنزله بالقصر القديم من تلمسان وعسكر عليه زناته الشرق كلّهم ، واستوزر له ابن عمّه عمر بن محمد بن ابراهيم بن مكّي^(١) ومن أبناء وزرائهم سعيد بن موسى بن علي ، وأعطاه عشرة أحمال من المال دنانير ودراهم ، ودفع إليه الآلة . وذكر حينئذ لمولانا السلطان أبي العباس سوابقه وإيلافه في المنزل الخشن ، فترل له عن محل إمارته قُسْطُيْنِيَّة . وصرف أيضاً المولى أبا عبدالله صاحب بجاية لاسترجاع بلده بجاية ، فعقد لها بذلك وحملها . وخلع عليها وأعطاهما حملين من المال .

وكانت بجاية لذلك العهد قد تغلب عليها عمّهم المولى أبو اسحق ابراهيم صاحب تونس ، فكتب إلى عاملهم على قُسْطُيْنِيَّة منصور بن الحاج خلوف أن يتزل عن بلدة مولانا السلطان أبي العباس أحمد ، ويمكنه منها ، وودّع هؤلاء الأمراء وانكفاً راجعاً إلى حضرته لصدّ ثغور المغرب ، وحسم داء العدو ، فدخل فاس في شعبان من سنته . ولم يلبث أن رجع أبو زيان على أثره بعد أن أجفل عن تلمسان ولحق بوانشريس . وتغلب عليه أبو حمّو وفضّ جموعه ، فلحق بالسلطان واستقلّ أبو حمّو بملك تلمسان ، وبعث في السلم إلى السلطان فعقد له من ذلك ما رضيه كما ذكرناه .

الخبر عن مهلك السلطان أبي سالم واستيلاء عمر بن عبدالله على ملك المغرب ونصبه للملوك واحداً بعد واحد إلى أن هلك

كان السلطان قد غلب على هواه الخطيب أبو عبدالله بن مرزوق وكان من خبره^١

(١) وفي نسخة : بن مكن .

سلفه من أهل رباط الشيخ أبي مَدِين كان جدّه قِيماً على خدمة قبره ومسجده واتصل القيام على هذا الرباط في عقبه ، وكان جدّه الثالث محمد معروفاً بالولاية ، ولما مات دفنه يغمراسن بالقصر القديم ليجاوره بجدثه تبرّكاً به ، وكان ابنه أحمد أبو محمد هذا قد ارتحل إلى المشرق ، وجاور الحرمين إلى أن هلك ورثي ابنه محمد بالمشرق ما بين الحجاز ومصر . وقفل إلى المغرب بعد أن أسرّ أشياء^(١) في الطلب وتفقه على أولاد الإمام ، ولما ابتنى السلطان أبو الحسن مسجد العباد ولآه الخطابة به ، وسمعه يخطب على المنبر وقد أحسن في ذكره والدعاء له ، فحلا بعينه واستخلصه لنفسه وأحله محل القرب من نفسه^(٢) ، وجعله خطيباً حيث يصلي من مساجد المغرب ، وسفر عنه إلى الملوك ، ولما كانت نكبة القيروان خلص إلى المغرب واستقرّ برباط العباد بجبل سلفه ، بعد أحوال أضربنا عن ذكرها اختصاراً .

ولما خلص السلطان إلى الجزائر داخله أبو سعيد صاحب تلمسان في السفارة عنه إلى السلطان أبي الحسن وصلاح ما بينهما فسار لذلك ونقمه أبو ثابت وبنو عبد الواد ونكروه على سلطانهم . وسرحوا صغير بن عامر في اتباعه ، فتقبّض عليه وأودعوه المطبق . ثم اشخصوه بعد حين إلى الأندلس فاتصل بأبي الحجاج صاحب غرناطة . وولآه خطابته لما اشتهر به من إجادة الخطبة للملوك بزعمهم . وألف السلطان أبا سالم في مثوى اغترابهما من غرناطة ، وشاركه عند أبي الحجاج في مهمّاته . ولما نزل بجبال غمارة داخل بني مرين والوزراء في القيام بدعوته . وكان له في ذلك مقام محمود . فرعى السلطان وسائله وبوآته^(٣) القديمة والحادثة إلى مقامه عند أبيه ، فلما استوسق له ملك المغرب استخصّه بولايته وألقى عليه محبّته وعنايته ، وكان مؤامره ونجّي خلوته والغالب على هواه ، فانصرفت إليه الوجوه وخضعت له الرقاب ووطئ عقبه^(٤) الأشراف والوزراء ، وعطف على بابيه القوّاد والأمراء وصار زمام الدولة بيده . وكان يتجافى عن ذلك أكثر أوقاته حذراً من سوء المغبة ، ويزجر من يتعرّض

(١) وفي نسخة أخرى : بعدان شدا شيئاً .

(٢) وفي نسخة أخرى : من مجلسه .

(٣) وفي نسخة ثانية : وولاته .

(٤) وفي نسخة ثانية : عتبته .

له في الشكاية ويردهم إلى أصحاب المراتب والخطط يباب السلطان ، وهم يعلمون أنه قد ضرب على أيديهم ، فنقموا ذلك وسخطوا الدولة من أجله . ومرضت قلوب أهل الحل والعقد من تقدمه : ونَفَسَ عليه الوزراء ما ثبت له عند السلطان من الحظ ، فترَبَّصوا بالدولة ، وشمل هذا الداء الخاصّة والعامة . وكان عمر بن عبد الله ابن علي لما هلك أبوه الوزير عبد الله بن علي في جمادى سنة ستين وسبعائة عند استيلاء السلطان على ملكه ، تحلّبت شفاه أهل الدولة على تراثه . وكان مثيراً فاستجار منهم بـابن مرزوق ، وسأهم في تراث أبيه بعد أن حملوا السلطان على النيل منه ، والإهانة له ، فأجاره منهم . ورفع عند السلطان رتبته وحمله على الإصهار إليه في أخته ، وقلّده السلطان أمانة البلد الجديد دار ملكه متى عنت له الرحلة عنها . وأصهر عمر إلى وزير الدولة مسعود بن ماسي تسكيناً لروعته^(١) واستخلاصاً لمودّته ، وسفر عن السلطان إلى صاحب تلمسان في شعبان من سنة إثنين وستين وسبعائة ونمي عنه أنه داخل صاحب تلمسان في بعض المكر فهمّ بنكبته وقتله ، ودافع عنه ابن مرزوق وخلص من عقابه ، وطوى على البثّ وترَبَّص بالدولة . وأعيد إلى مكانه من الأمانة على دار الملك أول ذي القعدة مرجعه من تلمسان لما كان السلطان قد تحوّل عنها إلى القصبة بفاس ، واختطّ إيواناً فخماً لجلوسه بها ، لضيق قصوره بها^(٢) . فلما استولى عمر على دار الملك حدثته نفسه بالتوتّب وسوّل له ذلك ما اطلع عليه من مرض القلوب والنكير على الدولة ، لمكان ابن مرزوق من السلطان فداخل قائد الجند غريسة ابن انطول^(٣) وتعدوا لذلك ليلة الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة سنة إثنين وستين وسبعائة وخلصوا إلى تاشفين الموسوس ابن السلطان أبي الحسن بمكانه من البلد الجديد ، فخلعوا عليه وألبسوه شارة الملك ، وقربوا له مركبه وأخرجوه إلى أريكة السلطان فأقعده عليه . وأكرهوا شيخ الحامية والناشبة محمد بن الزرقاء على البيعة له ، وجأهروا بالخلعان وقرعوا الطبول ودخلوا إلى مودع المال ، ففرضوا العطاء من غير تقدير ولا حساب ، وماج أهل البلد الجديد من الجند بعضهم في بعض ،

(١) وفي نسخة ثانية : لغربه .

(٢) وفي النسخة الجزائرية كلمتان زائدتان (متغنياً الايردين) وفي نسخة أخرى : لصق قصوره . وفي النسخة الباريسية الكلمتان غير واضحتين وهما محرفتان .

(٣) وفي نسخة ثانية : انطول .

واختطفوا ما وصلوا إليه من العطاء ، وانتهبوا ما كان بالمخازن الخارجية من السلع والعدة . وأضرمو النار في بيوتها سترأ على ما ضاع منها ، وأصبح السلطان بمكانه من القسبة ، فركب واجتمع إليه من حضر من الأولياء والقبائل ، وغدا على البلد الجديد وطاف بها يروم منها منفذاً ، فاستعصب واضطرب معسكره بكدية العرائس لحصارها ، ونادى في الناس بالاجتماع إليه . ونزل عند قافلة الهاجرة بفسطاطة ، فتسائل الناس عنه إلى البلد الجديد فوجأ بعد فوج بمرأى منه إلى أن سار إليها أهل مجلسه وخاصته ، فطلب النجاة بنفسه وركب في لمة من الفرسان مع وزرائه : مسعود بن رحو وسليمان بن داود ومقدم الموالي والحد ببابه سليمان بن نصار^(١) ، وأذن لابن مرزوق في الدخول إلى داره ، ومضى على وجهه . ولما غشيهم الليل انفضوا عنه ، ورجع الوزير إلى دار الملك فتقبض عليها عمر بن عبد الله ومساهمه غريسة بن أنطول واعتقلاهما متفرقين ، وأشخص علي بن مهدي بن يرزيجن في طلب السلطان ، فعثر عليه نائماً في بعض المحاشر بوادي ورغة ، وقد نزع عنه لباسه اختفاء بشخصه ، وتوارى على العيون بمكانه ، فتقبض عليه وحمله على بغل ، وطير الخبر إلى عمر بن عبد الله فأزعج لتلقيه شبيب بن ميمون بن وردار^(٢) ، وفتح الله بن عامر ابن فتح الله . وأمرهما بقتله وإنفاذ رأسه ، فلقياه بخندق القصب إزاء كدية العرائس ، فأمر بعض جنود النصاري أن يتولى ذبحه وحمل رأسه في مخلاة ، فوضعه بين يدي الوزير والمشixe . واستقلّ عمر بالأمر ونصب الموسوس تاشفين يموه به على الناس ، وذوات الأمور إلى غاياتها ولكل أجل كتاب .

الخبر عن الفتك بابن أنطول قائد العسكر من النصاري ثم خروج يحيى بن رحو وبني مرين عن الطاعة

لما تقبض عمر بن عبد الله على الوزير ، كان معتقل سليمان بن داود بدار غريسة قائد

(١) وفي نسخة ثانية : سليمان بن نصار .

(٢) وفي نسخة ثانية : الجاشر : « قال الاصمعي : بنو فلان جشر إذا كانوا يبيتون مكانهم لا يأوون إلى بيوتهم . وأبل جشر : تذهب حيث شاءت وكذلك الحمر . وأصبحوا جشراً إذا كانوا يبيتون وكأنهم لا يرجعون إلى أهلهم » وكلمة بجاشر عامية بمعنى المراعي ، مأخوذة من معنى جشر (لسان العرب) .

(٣) وفي نسخة ثانية : بن داود .

النصارى . ومعتقل ابن ماسي بداره ضناً به عن الامتحان لمكان صهره . ولما كان يؤمل منه من الاستظهار على أمره بعصابته من الأبناء والأخوة والقراة . وكان غريسة بن أنطول صديقاً لسليمان بن ونصار . فلما رجع عن السلطان ليلة انفضاضهم . نزل عليه وكان يعاقره الخمر . فأتاه سحرًا وتفاوضاً في اعتقال عمرو^(١) وإقامة معتقله سليمان بن داود في الوزارة لما هو عليه من السنّ ورسوخ القدم في الأمر . ونمي إلى عمر الخبر . فارتاب وكان خلواً من العصابة ففرع إلى قائد المركب السلطاني من الرجل الأندلسيين يومئذ ابراهيم البطروجي^(٢) . فباته أمره وبايعه على الاستانة دونه . ثم استقل عصابتهم ففرع إلى يحيى بن رحو شيخ بني مرين وصاحب شورايم فشكا إليه . فأشكاه ووعده الفتك ببن أنطول وأصحابه . وانبرم عقد ابن أنطول وسليمان ابن ونصار على شأنهم وغدوا إلى القصر . وداخل ابن أنطول طائفة من النصارى للاستظهار بهم . ولما توافت بنو مرين بمجلس السلطان على عاداتهم وطعموا . دعا عمر بن عبدالله القائد ابن أنطول بين يدي يحيى بن رحو وقد أحضر البطروجي رجل الأندلسيين . فسأله تحويل سليمان بن داود من داره إلى السجن فأبى وضمن به عن الإهانة حتى سأل مثلها من ابن ماسي صاحبه . فأمر عمر بالتقبض عليه . فكشّر في وجوه الرجال واختلط سكينه للمدافعة . فتواثبت بنو مرين وقتلوه لحينه . واستلحموا من وجد بالدار من جند النصارى عند دخولهم^(٣) . وفرّوا إلى معسكرهم ويعرف بالملاح جوار البلد الجديد .

وأرجف الغوغاء بالمدينة أن ابن أنطول غدر بالوزير فقتل جند النصارى حيث وجدوا من سكك المدينة . وتزاحفوا إلى الملاح لاستلحام من به من الجند . وركب بنو مرين لحماية جندهم من معرة الغوغاء . وانتهب يومئذ الكثير من أموالهم وآنيتهم وأمتعتهم . وقتل النصارى كثيراً من المجان كانوا يعاقرون الخمر بالملاح . واستبدّ عمر بالدار واعتقل سليمان بن ونصار إلى الليل . وبعث من قتله بمحبسه . وحول سليمان بن داود إلى بعض الدور بدار الملك واعتقله بها . واستولى على أمره ورجع في الشورى إلى

(١) وفي نسخة ثانية : فباته شجوه وتفاوض في غتيال عمر .

(٢) وفي نسخة ثانية : البطروجي .

(٣) وفي نسخة ثانية : بعد جولة .

يحيى بن رحو ، واعصوب بنو مرين عليه ، واعتز على الأمراء والدولة ، وكان عدو الخاصة السلطان أبي سالم حريصاً على قتلهم ، وكان عمر يريد استبقاءهم لِمَا أمله في ابن ماسي ، فخشنت صدورهم عليه ، ودبروا في شأنه . وخاطب هو عامر بن محمد في اتصال اليد واقتسام ملك المغرب ، وبعث إليه بأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم ، اعتدّه عنده وليجة لخلاصه من ربة الحصار الذي هم به مشيخة بني مرين . وكان أبو الفضل هذا بالقصبة تحت الرقة والأرصاء ، فتفقّد من مكانه . وأغلظ المشيخة في العتب لعمر في ذلك ، فلم يستعتب ، ونبذ إليهم العهد وامتنع بالبلد الحديد ، ومنعهم من الدخول إليه فاعصوبوا على كبيرهم يحيى بن رحو وعسكروا بباب الفتوح ، وجأجؤاً^(١) بعبد الحليم ابن السلطان أبي علي وكان من خبرهم معه ما نذكره . وأطلق عمر بن عبد الله مسعود بن ماسي من محبسه وسرّحه إلى مراکش ، وأوعده في الاجلاب عليهم إن حاصروه كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن وصول عبد الحليم ابن السلطان من تلمسان وحصار البلد الحديد) *

كان السلطان أبو الحسن لما قتل أخاه السلطان أبا علي وقضى الحق الذي له في ذمته^(٢) عمل بالحق الذي عليه في ولده وحرمة ، فكفلهم وغذاهم بنعمته ، وسأواهم بولده في كافة شؤونهم ، وأنكح ابنته تاحضريت العزيزة عليه علياً منهم المكنى بأبي سلوس^(٣) ونزع عنه وهو بالقيروان أيام النكة ولحق بالعرب . وأجلب معهم على السلطان بالقيروان وتونس . ثم انصرف من أفريقية ولحق بتلمسان ونزل على سلطانها أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن فبّوأه كرامته . ثم شرع في الإجازة إلى الأندلس ، وبعث فيه السلطان أبو عنان قبل فصوله ، فاشخصوه إليه فاعتقله . ثم أحضره ووبّخه على مرتكبه مع السلطان أبي الحسن وجحده حقه . ثم قتله لليلتين من شهور إحدى وخمسين وسبعمائة ، ولما هلك السلطان أبو الحسن ولحقت جملته من

(١) وفي نسخة ثانية : وجأؤوا .

(٢) وفي نسخة ثانية : في دمه .

(٣) وفي نسخة ثانية : بأبي يفلوسن .

الخاصّة والأبناء بالسلطان أبي عنان ، وأشخص إخوته إلى الأندلس ، وأشخص معهم ولد الأمير أبي علي هؤلاء عبد الحلیم وعبد المؤمن والمنصور والناصر وسعيد ابن أخيه أبي زيّان ، فاستقروا بالأندلس في جوار ابن الأحمر . ثم طلب أبو عنان إشخاصهم بعد ، كما طلب إشخاص أخيه ، فأجارهم ابن الأحمر جميعاً وامتنع من إسلامهم إليه . وكان من المغاضبة لذلك ما قدّمناه .

ولما اعتقل السلطان أبو سالم الأبناء المرشّحين برندة ، كما قدّمناه ، نزع منهم عبد الرحمن بن علي بن أبي يفلوسن إلى غرناطة فلحق بأعماله . وكان السلطان أبو سالم بمكانهم مسترياً بشأنهم حتى لقد قتل محمد بن أبي يفلوسن ابن أخته تاحضريت وهو في حجرها وحجره ، استرابه بما نمي عنه . ولما أجاز أبو عبدالله المخلوع ابن أبي الحجاج ، إلى المغرب ونزل عليه وصار إلى إيالته ، ورأى أن قد ملك أمره في هؤلاء المرشّحين بغرناطة ، وأرسل الرئيس محمد بن اسمعيل عند توثّبه على الأمراء واستلحامه أبناء السلطان أبي الحجاج ، فراسله في اعتقالهم ثم فسد ما بين الرئيس والطاغية ، وأخذ منه كثيراً من حصون المسلمين . وبعث إلى السلطان أبي سالم في أن يخلي سبيل المخلوع إليه ، فامتنع وفاء للرئيس . ثم دافع الطاغية عن ثغوره بإسعاف طلبته ، فجهّز المخلوع وملاً حقايبه صلة وأعطاه الآلة ، وأوعز إلى أسطوله بسبّته فجهّز وبعث علال بن محمد ثقة أبيه^(١) فأركبه الأسطول وركب معه إلى الطاغية . وخلص الخبر إلى الرئيس بمكانه من ملك غرناطة ، وكان أبو حمّو صاحب تلمسان يرأسه في أولاد أبي علي ، وأن يحجزهم إليه ليجدهم زبوناً على السلطان أبي سالم ، فبادر لحينه وأطلقهم من مكان اعتقالهم ، وأركب عبد الحلیم وعبد المؤمن وعبد الرحمن ابن أخيهما علي أبي يفلوسن . في الأسطول ، وأجازهم إلى مرسى هُنيّين بين يدي مهلك السلطان أبي سالم ، فترلوا من صاحب تلمسان بأعزّ جوار . ونصّب عبد الحلیم منهم لملك المغرب .

وكان محمد السبيع بن موسى بن ابراهيم نزع عن عمر ولحق بتلمسان ، فتوافى معهم وأخبرهم بمهلك السلطان وبابيع له وأغراه بالرحلة^(٢) إلى المغرب ثم تتابعت وفود بني مرين بمثلها ، فسرحه أبو حمّو وأعطاه الآلة ، واستوزر له محمد السبيع وارتحل معه

(١) وفي نسخة ثانية : ثقة إليه .

(٢) وفي نسخة ثانية : وأغراه بالدخلة .

يغذ السير . ولقي في طريقه محمد بن زكراز من أولاد علي من شيوخ بني ونكاس أهل دبدوا وثمر المغرب منذ دخول بني مرين إليه ، فبايعه وحمل قومه على طاعته ، وأغذ السير وكان يحيى بن رحو والمشيشة لما نبذ عمر بن عبدالله إليهم العهد ، وعسكروا بباب الفتوح ، أوفدوا مشيخة منهم على تلمسان لاستقدام السلطان عبد الحلیم ، فوافوه بتأزي ورجعوا معه ، وتلقته جماعة بني مرين بسبوا ، ونزلوا على البلد الجديد يوم السبت سابع محرم من سنة ثلاث وستين وسبعائة واضطرب معسكرهم بكدية العرائس ، وغادوا البلد القتال وراوحوها سبعة أيام ، وتتابعت وفودهم وبيعات الأمصار توافيهم والحشود تتسائل إليهم ثم إن عمر بن عبدالله برز من السبت القابل في مقدمة السلطان أبي عمر بمن معه من جند المسلمين والنصارى ، راحة وناشبة . ووكل بالسلطان من جاء به في الساقة على التعية المحكمة . وناشبهم الحرب فدلّفوا إليه فاستطرد لهم ليتمكن الناشبة من عقيرهم من الأسوار حتى فشت فيهم الجراحات . ثم صمّ نحوهم وانفرج القلب وانفضت الجموع وزحف السلطان في الساقة فاندعروا في الجهات . وافترق بنو مرين إلى مواطنهم ولحق يحيى بن رحو بمراكش مع مبارك بن ابراهيم شيخ الخلط ، ولحق عبد الحلیم وإخوته بتأزي بعد أن شهد لهم أهل المقام بصدق الجلال وحسن البلاء في ذلك المجال وصابر عمر بن عبدالله قدوم محمد بن أبي عبد الرحمن كما تذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن قدوم الأمير محمد ابن الأمير عبد الرحمن وبيعته بالبلد الجديد في كفالة عمر بن عبدالله

لما نبذ بنو مرين عهدهم واعصوبوا عليه ، ونكروا ما جاء به من البيعة لأبي عمر مع فقد العقل الذي هو شرط الخلافة شرعاً وعادة ، ونقموا عليه ، اتهم نفسه في نظره ، وفرغ إلى التماس المرشحين ، فوقع نظره على حافد السلطان أبي الحسن محمد ابن الأمير أبي عبدالله النازع لأول دولة السلطان أبي سالم من رندة إلى الطاغية . وكان قد نزل منه بخير مثنوى ، فبعث إليه مولاه عتيقاً الخصي ، ثم تلاه بعمان بن الياسمين ، ثم تلاهما بالرئيس الأبكم من بني الأحمر في كل ذلك يستحث قدومه ، وخاطب المخلوع ابن الأحمر وهو في جوار الطاغية كما قدّمناه قريب عهد بجواره ،

فخاطبه في استحثائه واستخلاصه من يد الطاغية . وكان المخلوع يرتاد لنفسه منزلاً من ثغور المسلمين لما فسد بينه وبين الطاغية ورام التزوع عن إيالته ، فاشتراط على الوزير عمر التزول له عن رندة فتقبل شرطه ، وبعث إليه الكتاب بالتزول عنها بعد أن وضع الملاء عليه خطوطهم من بني مرين والخاصة والشرقاء والفقهاء ، فسار ابن الأحمر إلى الطاغية . وسأله تسريح محمد هذا إلى ملكه ، وأن قبيله دعوه إلى ذلك ، فسرحه بعد أن شرط عليه ، وكتب الكتاب بقبوله وفصل من إشبيلية في شهر المحرم فاتح ثلاث وستين وسبعائة ونزل بسبته وبها سعيد بن عثمان من قرابة عمر بن عبد الله . أرصده لقدمه فطير بالخبر إليه فخلع أبا عمر من الملك لعام من بيعته ، وأنزله بداره مع حرمة . وبعث إلى السلطان أبي زيّان محمد بالبيعة والآلة والفساطيط . ثم جهّز عسكرياً للقائه فتلّقوه بطنجة . وأغذّ السير إلى الحضرة فتزل منتصف شهر صفر بكدية العرائس . واضطرب معسكره بها ، وتلقاه الوزير يومئذ وبايعه وأخرج فسطاطه ، فاضطربه بمعسكره وتلّوم السلطان هنالك ثلاثاً . ثم دخل في الرابع إلى قصره واقتعد أريكته وتودّع ملكه وعمر مستبدّ عليه لا بكل إليه أمراً ولا نهياً . واستطال عند ذلك المنازعون أولاد أبي علي كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن تجهيز السلطان عبد الحلیم واخوته الى سجلماسة بعد الواقعة عليهم بمكناسة

لما سمع عبد الحلیم بقدوم محمد بن أبي عبد الرحمن من سبته إلى فاس وهو بمكانه من تازى ، سرح أخاه عبد المؤمن وعبد الرحمن ابن أخيه إلى اعتراضه ، فانتهاوا إلى مكناسة وخاموا عن لقائه ، فلما دخل إلى البلد الجديد أجلبوا بالغارة على النواحي وكثر العيث . وأجمع الوزير عمر على الخروج إليهم بالعساكر ، فبرز بالتعبية والآلة ، وبات بوادي النجاء . ثم أصبح على تعبيته وأغذّ السير إلى مكناسة ، فزحف إليه عبد المؤمن وابن أخيه عبد الرحمن في جموعها فجاولها القتال ساعة ، ثم صمم إليهم فدفعهم عن مكناسة . وانكشفوا فلاحقوا بأخيهم السلطان عبد الحلیم بتازى ، ونزل الوزير عمر بساحة مكناسة ، وأوفد بالفتح على السلطان ، وكنتُ وافده إليه يومئذ ، فعمّت البشرى واتصل السرور . وتنهّا السلطان بملكه وتودّع من يومئذ سلطانه . ولما

وصل عبد المؤمن إلى أخيه عبد الحليم بتأزي مفلولاً انتقض معسكره ونزعوا عنه إلى فاس ، وذهب لوجهه هو وإخوته مع وزيرهم السبيع بن محمد ومن كان معهم من عرب المَعْقِل ، فلحقوا بسجلماسة . وكان أهلها قد دخلوا في بيعتهم ودانوا بطاعتهم فاستعزوا بها . وجدّدوا رسم الملك والسلطان إلى أن كان من خروجهم ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن قدوم عامر بن محمد ومسعود بن ماسي من مراکش وما كان من وزارة ابن ماسي واستبداد عامر بمراكش

كان السلطان أبو سالم لما استقلّ بملك المغرب ، استعمل على جباية المصامدة وولاية مراکش محمد بن أبي العلاء بن أبي طلحة من أبناء العمّال ، وكان مطلعاً بها . وناقش الكبير من ذوي عامر فأحفظه ذلك وربما تكرّرت سعائته في عامر عند السلطان ولم يقبل . ولما بلغ إلى عامر مهلك السلطان أبي سالم وقيام عمر بالأمر ، وكانت بينهما خلة بيت محمد ابن أبي العلاء فتقبّض عليه وامتنحه وقتله ، واستقلّ بأمر مراکش وبعث إليه الوزير عمر بأبي الفضل بن السلطان أبي سالم يعتدّه لما يقع من حصار بني مرين إياه أن يجلب به عامر عليهم ويستنفضه كما ذكرناه . ثم سرح مسعود بن ماسي كما ذكرناه ، ولما أحاط بنو مرين بالبلد الجديد جمع عامر من إليه من الجند والحشود وزحف بأبي الفضل بن السلطان أبي سالم إلى أنفى ، ونزل بوادي أم ربيع ، ولما انفصّ جمعهم من على البلد الجديد ، لحق به يحيى بن رحو ، وكان له صديقاً ملاطفاً ، فتنكر له توفية لعمر بن عبد الله وصاحبه مسعود ، وبعثه إلى الجبل ولم يشهد الجمع ، فذهب مغاضباً . ولحق بسجلماسة بالسلطان عبد الحليم وهلك في بعض حروبه مع العرب . ولما انفصّ عبد المؤمن وأجفل عبد الحليم من تأزي ولحقوا بسجلماسة ، واستوسق الأمر لعمر بن عبد الله وفرغ من شأن المنازعين ومضايقتهم له ، رجع إلى ما كان يؤمّله من الاستظهار على أمره بمسعود بن ماسي وإخوته وأقاربه لمكان الصهر الذي بينهما ، فاستقدمه للوزارة مرضاة لبني مرين لما كانوا عليه من استمالتهم لجميع المذاهب والاغضاء عمّا نالوه به من النكاية . وكان عامر بن محمد مجمعاً القدوم على السلطان فقدم في صحابته ونزلا من الدولة بخير

متزل ، وعقد السلطان لمسعود بن رحو على وزارته بإشارة الوزير عمر فاضطلع بها ، ودفعه عمر إليها استمالة إليه وثقة بمكانه واستظهاراً بعصابته . وعقد مع عامر بن محمد الحلف على مقاسمة المغرب من لحم وأدم رفيع ^(١) وجعل إمارة مراکش لأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم اسعافاً بغرض عامر بن محمد في ذلك وأصهر عامر إليهم في بنت مولانا السلطان أبي يحيى المتوفي عنها السلطان أبو عنان ^(٢) ، فحملوا أولياءها على العقد عليها وانكفأ راجعا إلى مكان عمله بمراكش يجرّ الدنيا وراءه عزا وثروة وتابعا للجهادي من سنة ثلاث وستين وسبعائة وصرف عمر عزيمته إلى تشريد عبد الحليم وأخيه من سجلماسة ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن زحف الوزير عمر بن عبد الله الى سجلماسة) *

لما احتلّ عبد الحليم وإخوته بسجلماسة ، اجتمع إليهم عرب المَعْقِل كافة بجلهم . واقتضوا خراج البلد فوزعوه فيهم ، وانتصوا على الطاعة رهنهم . وأقطعهم جنات المختص ^(٣) بأسرها واعصوبوا عليه . واستحثه يحيى بن رحو ومن هنالك من مشيخة بني مرين إلى النهوض للمغرب ، فأجمع أمره على ذلك . وتدبرّ الوزير عمر أمره وخشي أن يضطرم جمره ، فأجمع إليه الحركة . ونادى في الناس بالعطاء والرحلة فاجتمعوا إليه وبثّ العطاء فيهم . واعترض العساكر وأزاح العلل وارتحل من ظاهر فاس في شعبان من سنة ثلاث وستين وسبعائة وارتحل معه ظهيره مسعود بن ماسي وبرز السلطان عبد الحليم إلى لقائهم . ولما تراءت الفئتان بتاغز وطت عند فرج الجبل المفضي من تلّول المغرب الى الصحراء ، هموا باللقاء . ثم تواقفوا أياماً وتمشّت بينهم رجالات العرب في الصلح والتجاني لعبد الحليم عن سجلماسة تراث أبيه ، فعقد بينهما واقترقا . ورجع كل واحد منها إلى عمله ومكانه من سلطانه . ودخل عمر والوزير مسعود إلى البلد الحديد في رمضان من سته ، وتلقّاهما سلطانهما بأنواع المبرة والكرامة . ونزع الوزير محمد بن السبيع عن السلطان عبد الحليم

(١) وفي نسخة أخرى : تخم وادي أم ربيع وهذا أصح حسب مقتضى السياق .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : ابو الحسن .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : جهات المختص .

إلى الوزير عمر وسلطانة فتقبل وحل محل التكرمة والردافة للوزارة واستقر كل بمكانه .
وتوادعوا أمرهم إلى ما كان من خلع عبد المؤمن لأخيه عبد الحلیم ، ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن بيعة العرب لعبد المؤمن وخروج عبد الحلیم إلى المشرق) *

لما رجع عبد الحلیم بعد عقد السلم مع الوزير عمر إلى سجلماسة واستقر بها وكان عرب
المقل من ذوي منصور فريقين : الأحلاف وأولاد حسين . وكانت سجلماسة وطناً
للأحلاف وفي مجالاتهم منذ أول أمرهم ودخولهم المغرب . وكان من أولاد حسين في
مملأة الوزير عمر ما قدمناه ، فكانت صاغية السلطان عبد الحلیم إلى الأحلاف
بسبب ذلك أكثر ، فأسف ذلك أولاد حسين على الأحلاف وتجددت لذلك الفتنة
وتزاحفوا . وأخرج السلطان عبد الحلیم أخاه عبد المؤمن لرقع ما بينهما من الخرق
ولأمنته ، فلما قدم على أولاد حسين دعوه إلى البيعة والقيام بأمره فأبى فأكرهوه عليها
وباعوه . وزحفوا إلى سجلماسة في صفر من سنة أربع وستين وستمائة وبرز عبد الحلیم
إليهم في أوليائه من الأحلاف وتوافقوا ملياً وعقلوا رواحلهم وانكشف الأحلاف
وانهزموا . وهلك يحيى بن رحو كبير المشيخة من بني مرين يومئذ في حربهم . وتغلبوا
على سجلماسة ، ودخل إليها عبد المؤمن وتخلّى له أخوه عبد الحلیم عن الأمر وخرج إلى
المشرق لقضاء فرضه ، فودّعه وزوّده بما أرادوا وارتحل إلى الحج وقطع المفازة إلى بلد
مالي من السودان . وصحب منها ركّاب الحج إلى مصر ، ونزل على أميرها المتغلب
على سلطانها يومئذ ، وهو مليغا الحاصكي^(١) وأنهى خبره إليه وعرف بمكانه ،
فاستبغ في تكريمه بما يناسب بيته وسلطانة . وقضى حجه وانصرف إلى المغرب ،
فهلك بقرب الإسكندرية سنة ست وستين وسبعماية واستقل عبد المؤمن ، بأمر
سجلماسة حتى كان من نهوض العسكر إليه ما نذكره إن شاء الله تعالى .

(١) وفي نسخة أخرى : يُلبَغَا الحاصكي .

* (الخبر عن نهوض ابن ماسي بالعساكر الى سجلماسة
واستيلائه عليها ولحاق عبد المؤمن بمراكش) *

لما افترقت كلمة أولاد السلطان أبي عنان وخلع عبد المؤمن أخاه تطاول الوزير عمر إلى التغلب عليهم . ونزع إليه الأحلاف عدو أولاد حسين وشيعة عبد الحليم المخلوع ، فجهّز العساكر وبث العطاء وأزاح العلل ، وسرّح ظهيره مسعود بن ماسي إلى سجلماسة ، فنهض إليها في ربيع من سنة أربع وستين وسبعائة . وتلقاه الأحلاف بحلّهم وناجعتهم ، وأغذّ السير ونزع الكثير من أولاد حسين للوزير مسعود . وبعث عامر بن محمد عن عبد المؤمن من سجلماسة ، فتركها ولحق بعامر فتقبّض عليه واعتقله بداره من جبل هنتاة . ودخل الوزير مسعود إلى سجلماسة واستولى عليها . واقتلع منها جرثومة الشقاق بافتراق دعوة أولاد أبي علي منها . وكرّ راجعاً إلى المغرب لشهرين من حركته ، فاحتل بفاس إلى أن كان من خبر انتفاضه على عمر وفساد ذات بينها ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن انتفاض عامر ثم انتفاض الوزير ابن ماسي
على أثره) *

لما استقل عامر بالناحية الغربية من جبال المصامدة ومراكش وما إلى ذلك من الأعمال واستبد بها ، ونصب لأمره أبا الفضل ابن السلطان أبي سالم واستوزر له واستكفأ لأمره^(١) ، وصارت كأنها دولة مستقلة ، فصرف إليه النازعون من بني مرين على الدولة وجوه مفرّهم ولحقوا إليه ، فأجارهم عن الدولة واجتمع إليه منهم ملأ . وأشاروا إليه باستقدام عبد المؤمن وأنه أبلغ ترشيحاً من أبي الفضل بنسبه وقيامه على أمره وصاغية بني مرين إليه ، فاستدعاه وأظهر لعمر أنه يروم بذلك مصلحته والمكر بعبد المؤمن . ونمي ذلك كله إلى عمر فارتاب به ونزع إليه آخر السبيع بن موسى بن

(١) وفي نسخة أخرى : واستكتب .

ابراهيم الوزير . كان لعبد الحليم فكشف القناع في بطانته^(١) وتجهيز العساكر إليه . واستراب بأهل ولايته ، وعثر على كتاب من الوزير مسعود بن ماسي إليه يخالسه ويبدل له النصيحة ، فتقبض على حامله وأودعه السجن ، فتنكر مسعود وأغراه صحابته الملائشون^(٢) له من بني مرين بالخروج ومنازعة عمر في الأمر . ووعدوه النصر منه ، فاضطرب معسكره بالزيتون من خارج فاس مورياً بالترهة أبان الربيع . وزخرف الأرض في شهر رجب من سنة خمس وستين وسبعائة . وبني أصحابه الفساطيط في معسكره حتى اذا استوفى جمعهم واعتزم على الخروج ، ارتحل بجاهراً بالخلاف ، وعسكر بوادي النجا بمن كان يعده الخروج معه من بني مرين . ثم ارتحل إلى مكناسة ، وكتب إلى عبد الرحمن بن علي بن يفلوسن . يستقدمه للبيعة ، وكان يجهاث تادلاً قد خرج بها بعد انصرافهم من سجلماسة ، وتخلف عن أخيه عبد المؤمن . وبعث عامر إليهم بعثاً فهزموه ثم لحق ببني ونكاسن ، فبعث إليه ابن ماسي وأصحابه ، فقدم عليهم وبايعوه . وأخرج عمر سلطانه محمد بن أبي عبد الرحمن وعسكر بكدية العرائس . وبث العطاء وأزاح العلل . ثم ارتحل إلى وادي النجا ، فبيته مسعود وقومه فثبت هو وعسكره في مراكزهم حتى إنجاب الظلام وفروا أمامهم ، فاتبعوا آثارهم وانقض جمعهم وبدأهم ما لم يحتسبوه من اصفاق الناس على السلطان ووزيره عمر واعتصامهم بطاعته ، فاندعروا .

ولحق مسعود بن ماسي بن رحو بتادلاً ، ولحق الأمير عبد الرحمن ببلاد بني ونكاسن . ورجع عمر والسلطان إلى مكانهما من الحضرة . واستمال مشيخة بني مرين فرجعوا إليه وعفا لهم عنها واستصلحهم . وتمسك أبو بكر بن حماسة بدعوة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وأقامها في نواحيه ، وبايعه عليها موسى بن سيد الناس من بني علي أهل جبل دبدو من بني ونكاسن بما كان صهراً له . وخالفه قومه إلى الوزير عمرو وأعدوه بالنهوض إلى أبي بكر بن حماسة ، فنهض وغلبه على بلاده . واقتحم حصنه انكاوان^(٣) وفر هو وصهره موسى وفارقوا سلطانهم عبد الرحمن ونبذوا إليه عهده . ورجعوا إلى طاعة صاحب فاس ، فلحق هو بتلمسان ونزل على السلطان أبي حمو

(١) وفي نسخة أخرى : مطالبته .

(٢) وفي نسخة أخرى : الملائسون .

(٣) وفي نسخة أخرى : ايكولان .

فاستبلغ في تكريمه ولحق وزيره مسعود بن ماسي بدبدة ونزل على أميره محمد بن زكراز^(١) صاحب ذلك الثغر. وبعث إلى الأمير عبد الرحمن من تلمسان ليطارد به لفرصة ظنّها في المغرب ينتهزها. وأبى عليه أبو حمو من ذلك ، فركب مطية الفرار ولحق بابن ماسي وأصحابه ، فنصّبوه للأمر وأجلّبوها على تازى . ونهض الوزير إليهم في العساكر واحتلّ بتازى وتعرّضوا للقائه ، ففضّ جموعهم وردّهم على أعقابهم إلى جبل دبّو وسعى بينهم وتزمار بن عريف ولي الدولة في قبض عنانهم عن المنازعة والتجافي عن طلب الأمر ، وأن يجيزوا إلى الأندلس للجهاد فأجاز عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره ابن ماسي من غساسة فاتح سبع وستين وسبعمائة وخلا الجو من أجلاهم وعنادهم ورجع الوزير إلى فاس واحتشد إلى مراكش كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن نهوض الوزير عمر وسلطانة الى مراكش) *

لما فرغ عمر من شأن مسعود وعبد الرحمن بن أبي يفلوسن صرف نظره إلى ناحية مراكش وانتزى عامر بن محمد بها . وأجمع أمره على الحركة إليه فأفاض العطاء ونادى بالسفر إلى حرب عامر وأزاح العلل ، وارتحل إليه لرجب من سنة سبع وستين وسبعمائة وصعد عامر وسلطانة أبو الفضل إلى الجبل . فاعتصم به وأطلق عبد المؤمن من معتقله ، ونصب له الآلة وأجلسه على سرير حذاء سرير أبي الفضل يومه أنه قد بايع له ، وانه أحكم أمره يحاجي بذلك لبني مرين لما يعلم من صاغيهم إليه . وخشي مغبة ذلك ، فالان له القول ولاطفه في الخطاب ، وسعى بينها في الصلح حسون بن علي الصُبَيْحِي فعقد له عمر من ذلك ما أرضاه وانقلب إلى فاس . ورجع عامر عبد المؤمن إلى معتقله وأمر الأحوال على ما كانت من قبل إلى أن بلغهم قتل الوزير لسلطانة ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

(١) وفي نسخة ثانية : محمد بن زكدان وقد مر معنا في السابق .

* (الخبر عن مهلك السلطان محمد بن أبي عبد الرحمن
وبيعة عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن) *

كان شأن هذا الوزير عمر في الاستبداد على سلطانه هذا عجباً حتى بلغ مبلغ الحجر من الصبيان . وكان جعل عليه العيون والرقباء حتى من حرمة وأهل قصره . وكان السلطان كثيراً ما يتنفس الصعداء مع ندمائه ومن يختصه بذلك من حرمة إلى أن حدث نفسه باغتيال الوزير ، وأمر بذلك طائفة من العبيد كانوا يختصون به ، فمضى القول ، وأرسل به إلى الوزير بعض الحرم كانت عيناً له عليه ، فخشي على نفسه ، وكان من الاستبداد والدولة أن الحجاب مرفوع له عن خلوات السلطان وحرمة ، ومكاشفة رتبته ، فخلص إليه في حشمة وهو معاقر لندمائه ، فطردهم عنه وتناولوه غطا حتى فاض وألقوه في بئر في روض الغزلان . واستدعى الخاصة فأراهم مكانه وأنه سقط عن دابته وهو ثمل في تلك البئر ، وذلك في الحرم فاتح ثمان وستين وسبعائة لست سنين من خلافته . واستدعى من حينئذ عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن وكان في بعض الدور من القصبة بفاس تحت الرقباء والحراسة من الوزير لما كان السلطان محمد يروم الفتك به غيره منه على الملك ، لمكان ترشيحه ، فحضر بالقصر وجلس على سرير الملك . وفتحت الأبواب لبني مرين والخاصة والعامة فازدحموا على تقبيل يده معطين الصفقة بطاعته . وكمل أمره وبادر الوزير من حينه إلى تجهيز العساكر إلى مراكش ونادى بالعطاء وفتح الديوان وكمل الأعراض وارتحل بسلطانه من فاس في شهر شعبان ، وأغذ السير إلى مراكش ونازل عامر بن محمد بمعقله من جبل هنتاتة ومعه الأمير أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم وعبد المؤمن ابن السلطان أبي علي ، أطلقه من الاعتقال أيضاً وأجلسه موازي ابن عمه ، واتخذ له الآلة يمّوه به في شأنه الأول ، ثم سعى بينه وبين عمر في الصلح ، فانعقد بينهما وانكفاً راجعاً بسلطانه إلى فاس في شهر شوال ، فكان حثفه إثر ذلك ، كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

* (الخبر عن مقتل الوزير عمر بن عبد الله واستبداد السلطان
عبد العزيز بأمره) *

كان عمر قد عظم استبداده على السلطان عبد العزيز فحججه ومنعه من التصرف في شيء من أمره . ومنع الناس من النهوض له في شيء من أمورهم . وكانت أمه حذرة عليه إشفاقاً وجباً . وكان عمر لما ملك أمره واستبد عليه ، سما إلى الإصهار إليهم في بنت السلطان أبي عنان ، واشترط لها زعموا تولية أخيها الأمير ونفي ذلك إلى السلطان ، وأن عمر مقتاله لا محالة . وقارن ذلك أن عمر أوعز إلى السلطان بالتحول عن قصره إلى القصبه ، فركب أسنة الغدر لاضطراره واعترم على الفتك به ، وأكمن بزوايا داره جماعة من الرجال وأعدّهم بالتوثب به . ثم استدعاه إلى بيته للمؤامرة معه على ستنه ، فدخل معه وأغلق الموالي من الخصيان باب القصر من ورائه . ثم أغلظ له السلطان بالقول وعته . ودلف الرجال إليه من زوايا الدار فتناولوه بالسيوف هرباً . وصرخ ببطانته بحيث أسمعهم فحملوا على الباب وكسروا أغلاقه فألفوه مضرجاً بدمائه ، فولوا الأدبار وانفضوا من القصر واندعروا وخرج السلطان إلى مجلسه فاقعد أريكته واستدعى خاصته . وعقد لعمر بن مسعود بن منديل بن حامة من بني مرين وشُعَيْب بن ميمون بن وَرْدَان من الجشم ويحيى بن ميمون بن المصمود من الموالي ، وكملت بيعته منتصف ذي القعدة سنة ثمان وستين وسبعائة وتقبّض على عليّ بن الوزير عمر وأخيه وعمّه وحاشيتهم ، وسرّ بهم واعتقلهم حتى أتى القتل عليهم ليلال . واستأصل المكان شأفتهم وسكن وأمن ورد النافرين بأمانه وبسط بشره ثم تقبّض لأيام على سليمان بن داود ومحمد السبيع ، وكانا في مخالصة عمر بمكان فاعتقلها استرابة بهما ولشيء نعى له عنها . وأودعها السجن إلى أن هلكا واعتقل معها علال بن محمد والشريف أبا القاسم ربة بصحابتها . ثم امتنّ عليهما بشفاعه ابن الخطيب وزير ابن الأحمر وأقصاه . ثم أطلق عنانه في الاستبداد وقبض أيدي الخاصة والبطانة عن التصرف في شيء من سلطانه إلاّ بإذنه وعن أمره . وهلك لأشهر من استبداد الوزير شعيب بن ميمون . ثم هلك يحيى بن ميمون على ما ذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن انتراء أبي الفضل بن المولى أبي سالم ثم نهوض السلطان اليه ومهلكه) *

لما فتك السلطان عبد العزيز بعمر بن عبد الله المتغلب عليه ، سوّلت لأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم نفسه مثلها في عامر بن محمد ، لمكان استبداده عليه ، وأغراه بذلك البطانة . وتوجس لها عامر فتمارض بداره . واستأذنه في الصعود إلى معتصمه بالجبل ليمرضه هنالك أقاربه وحرمه ، وارتحل بحملته . ويثس أبو الفضل من الاستمكان منه وأغراه حشمة بالراحة من عبد المؤمن . ولليال من منصرف عامر ثمل أبو الفضل ذات ليلة ، وبعث عن قائد الجند من النصارى ، فأمر بقتل عبد المؤمن بمكان معتقله من قصبة مراکش فجاء برأسه إليه . وطار الخبر إلى عامر فارتاع وحمد الله إذ خلص من غائلته . وبعث ببيعته إلى السلطان عبد العزيز وأغراه بأبي الفضل ورغبه في ملك مراکش . ووعده بالمظاهرة فأجمع السلطان أمره على النهوض إلى مراکش . ونادى في الناس بالعطاء ، وقضى أسباب حركته وارتحل من فاس سنة تسع وستين وسبعائة واستبدّ أبو الفضل من بعد مهلك عبد المؤمن واستوزر طلحة النوري^(١) وجعل علامته لمحمد بن محمد بن مندبل الكناني ، وجعل شوره لمبارك بن ابراهيم بن عطية الخلطي . ثم أشخص طلحة النوري بسعاية الكناني ، فقتله واعتمد منازل عامر بعساكره . ولما فصل لذلك من مراکش جاءه الخبر بحركة السلطان عبد العزيز إليه ، فانفضّ معسكره ولحق بتادلاً ليعتصم بها في معقل بني جابر . وعاج السلطان بعساكره عن مراکش إليها ، فنازله وأخذ بمخنقه وقاتله ، ففلّ عسكره وداخله بعض بني جابر في الاخلال بمصافه يوم الحرب على مال يعطيه لهم ، ففعلوا ، وانهمزت عساكر أبي الفضل وجموعه ، وتقبّض على أشياعه . وسيق

مبارك بن ابراهيم إلى السلطان فاعتقله إلى أن قتله مع عامر عند مهلكه كما ذكره وقرّ الكناني إلى حيث لم يعلم مسقطه . ثم لحق بعامر بن محمد ولحق أبو الفضل بقبائل صناكة من ورائهم . وداخلهم أشياع السلطان من بني جابر وبذلوا لهم المال الدثر في إسلامه . فأسلموه وبعث السلطان إليهم وزيره يحيى بن ميمون ، فجاء به أسيراً

(١) وفي نسخة أخرى : السنوري .

وأحضره السلطان فوثّخه وقرّعه واعتقله بفسطاط في جواره ، ثم غطّ من الليل . وكان مهلكه في رمضان من سنة تسع وستين وسبعائة سنين من إمارته على مراکش ، وبعث السلطان إلى عامر يختبر طاعته بذلك فأبى عليه وجاهر بالخلاف إلى أن كان من شأنها ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن نكبة الوزير يحيى بن ميمون بن مصمود ومقتله) *

كان يحيى بن ميمون هذا من رجالات دولتهم وربى في دولة السلطان أبي الحسن ، وكان عمّه علال عدوّاً له بعداوة أبيه . ولما انترى السلطان أبو عنان على ملك أبيه ، استخلص يحيى هذا سائر أيامه ، وهلك عمر يوم مهلكه كما ذكرناه . واستعمل يحيى هذا ببجاية ، فلم يزل بها إلى أن تقبّض عليه الموحدون ، لما استخلصوا بجاية من يده . وسار إلى تونس واعتقل بها مدّة . ثم صرفوه إلى المغرب أيام عمر ، فاختصّ به . ولما عقد له السلطان عبد العزيز على وزارته وكان قوي الشكيمة شديد الحزم صعب العداوة مرهف الحدّ ، وكان عمّه علال بعد أن أطلقه السلطان من الاعتقال نكبه عن إذنه^(١) وأقامه متصرّفاً بين يديه ، فألقى إلى السلطان استبداد يحيى عليه وحذّره من شأنه ، ورفع إليه أنه يروم تحويل الدعوة لبعض القرابة من آل عبد الحق ، وأنه داخل في ذلك قوّاد الجند من النصارى . وأصاب الوزير وجع قعد به عن مجلس السلطان ، فاختلف الناس إلى زيارته وعكف ببابه قوّاد النصارى ، فاستريب بأمرهم وتيقّن الأمر بعكوفهم ، فأرسل السلطان من حشمه من تقبّض عليه وأودعه السجن . ثم جنب إلى مصرعه من الغد وقتل قعصاً بالرماح ، وقتل المتّهمون من القرابة وقوّاد الجند ، واستلحموا جميعاً وصاروا مثلاً في الآخرين ، والأمر لله .

* (الخبر عن حركة السلطان الى عامر بن محمد ومنازلته بجبله ثم الظفر به) *

لما فرغ السلطان من شأن أبي الفضل عقد على مراکش لعليّ بن محمد بن أجّانا من

(١) وفي نسخة ثانية : مكّنه من اذنه .

صنائع دولتهم . وأوعز إليه بالتضييق على عامر والأخذ بمخنفه وإلجائه إلى الطاعة . وانقلب إلى فاس ، واعتزم على الحركة إلى تلمسان . وبينما هو في الاستنفار لذلك إذ جاءه الخبر بأن علي بن أجانا نهض إلى عامر وحاصره أياماً . وأن عامراً زحف إليه . ففضّ معسكره وتقبّض على ابن أجانا والكثير من العسكر ، فاعتقلهم ، فقام السلطان في ركائبه وقعد ، وأجمع أمره على النهوض إليه بكافة بني مرين وأهل المغرب ، فبعث في الحشود وبث العطاء ، وعسكر بظاهر البلد حتى استوفى الغرض وعقد على وزارته لأبي بكر بن الغازي بن يحيى بن الكاس ، لمكان فيه من مخايل الرياسة والكفاية ، وارتفع محله . وارتحل ستة سبعين وسبعائة فاحتلّ بمراكش ، ثم خرج إلى منازل الجبل ونازله ^(١) ، وكان عامر بن محمد قد نصب بعض الأعياص من آل عبد الحق من ولد أبي ثابت بن يعقوب إسمه تاشفين ، ولحق به علي بن عمر ويعلان من شيوخ بني ورتاجن كبير بني مرين ، وصاحب الشورى فيهم لعده ، فاشتدّ أزره به . وتوافى به كثير من الجند النازعين عن السلطان رهبة من بأسه أو سخطه لحاله ، أو رغبة فيما عند عامر فرتبهم ^(٢) . وأمسك الله يده عن العطاء ، فلم تنس ^(٣) بقطرة . وطال مثوى السلطان بساحته وعلى حصاره . ورتب المقاعد للمقاتلة وغاداه للقتال وراوحوه . وتغلّب على حصونه شيئاً فشيئاً إلى أن تعلّق بأعلى جبل تامسكروط ، وكان لأبي بكر بن غازي غناء مذكور ، ويش أصحاب عامر وأشياعه من عطائه . وفسد ما بينه وبين علي بن عمر هذا ، فدس إلى السلطان يطلب الأمان ، وتوثق لنفسه ثم نزع إليه . وداخله فارس بن عبد العزيز أخي عامر في القيام بدعوة السلطان والخلاف على عمّه ، لما كان يوسق به من إرهاف الحدّ وتفضيل ابنه أبي بكر عليه فبلغ خبره إلى السلطان واقتضى له وثيقة من الأمان والعهد بعث به إليه فثار بعمّه . واستدعى القبائل من الجبل فأجابوه واستحث السلطان للزحف إليهم ، فرحفت العساكر والجنود واستولت على معتصم الجبل . ولما استيقن عامر أن قد أحيط به أوعز إلى ابنه أن يلحق بالسلطان ممّوهاً بالتزوع ، فألقى بنفسه إليه وبذل له

(١) وفي نسخة ثانية : ثم خرج إلى منازلته .

(٢) وفي نسخة ثانية : قريهم .

(٣) وفي نسخة ثانية : لم يسئل .

الأمان وألحقه بجملته . وانتبذ عامر عن الناس وذهب لوجهه ليخلص إلى السوس فردّه الثلج . وقد كانت السماء أرسلت به منذ أيام برداً وثلجاً حتى تراكم بالجلب بعضه على بعض . وسدّ المسالك فاقبحه عامر وهلك فيه بعض حرمه ونفق مركوبه . وعابن الهلكة العاجلة فرجع مخفياً أثره إلى غار أوى إليه مع أدلاء بذل لهم المال يسلكون به ظهر الجبل إلى الصحراء بالسوس . وأقاموا ينتظرون إمساك الثلج . وأقام وأغرى السلطان بالبحث عنه فدلّهم عليه بعض البربر عثروا عليه فسيق إلى السلطان وأحضره بين يديه ووبّخه فاعتذر ونجّع بالطاعة . ورغب في الإقالة واعترف بالذنب ، فحمل إلى مضرب بني له بازاء فسقاط السلطان ، واعتقل هنالك . وتقبّض يومئذ على محمد الكنافي فاعتقل وانطلقت الأيدي على معاقل عامر ودياره ، فانتهب من الأموال والسلاح والذخيرة والزرع والأقوات والخرق ما لا عين رأت ولا خطر على قلب أحد منهم . واستولى السلطان على الجبل ومعاقله في رمضان من سنة إحدى وسبعين وسبعمائة لحول من يوم حصاره . وعقد على هتاتة لفارس بن عبد العزيز بن محمد ابن علي وارثه إلى فاس واحتل بها آخر رمضان ودخلها في يوم مشهود برز فيه الناس . وحمل عامر وسلطاناه تاشفين على جملين وقد أفرغ عليهما الرث وعبثت بهما أيدي الإهانة فكان ذلك عبرة لمن راه ولما قضى منسك الفطر أحضر عامر فقرعه بذنوبه وأوفى بكتابه بخطه يخاطب فيه أبا حمو ويستنجده على السلطان فشهد عليه وأمر به السلطان فامتحن ولم يزل يجلد حتى انتن لحمه ، وضرب بالعصي حتى ورمت أعضاؤه ، وهلك بين يدي الوزعة ، وأحضر الكنافي ففعل به مثله . وجنب تاشفين سلطانه إلى مصرعه فقتل قعصاً بالرماح وجنب مبارك بن ابراهيم من محبسه بعد الاعتقال ، فألحق بهم ولكل أجل كتاب وصفا الجوّ للسلطان من المنازعين . وفرغ لغزو تلمسان كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن ارتجاع الجزيرة الخضراء) *

قد تقدّم لنا ذكر تغلب الطاغية ابن ألهنشة على الجزيرة سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة وأنه نازل بعدها جبل الفتح سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وهلك بالطاعون وهو محاصر له عندما استفحل أمره واشتدّت شوكته . وكفى الله شأنه وولّى أمر الجلالقة بعده ابنه

بطرة ، وعدا على سائر إخوته . وقرأ أخوه القمط ابن حظية أبيه المسمّاة بلغتهم الرّيق (بهمة) إلى قط برشلونة فأجاره وأنزله خير نزل . ولحق به من الزعماء المريكس^(١) ابن خالته وغيره من اقاطهم^(٢) وبعث إليه بطرة ملك قشتالة في إسلام أخيه فأبى من إخفار جواره . وحدثت بينهما بذلك الفتنة الطويلة افتتح بطرة فيها كثيراً من معاقل صاحب برشلونة وأوطأ عساكره نواحي أرضه ، وحاصر بنسبة قاعدة شرق الأندلس مراراً أرحف عليها بعساكره ، وملأ البحر إليها بأساطيله إلى أن ثقلت على النصرانية وطأته وساءت فيها ملكته ، فانتقضوا عليه ودعوا القمط أخاه فزحف إلى قرطبة . وثار على بطرة أهل إشبيلية وتيقن صاغية النصارى إليه ، ففرّ عن ممالكه ولحق بملك الأفرنج وراء جليقية وفي الجوف عنها وهو صاحب انكلطرة ، واسمه ألفنس غالس . ووفد عليه صريحاً سنة سبع وستين وسبعائة فجمع قومه وخرج في صريخه إلى أن استولى على ممالكه . ورجع ملك الأفرنج فعاد النصارى إلى شأنهم مع بطرة . وغلب القمط على سائر الممالك فتحجّز بطرة إلى ثغوره مما يلي بلاد المسلمين . ونادى صريحاً بابن الأحمر فانتهاز فيها الفرصة . ودخل بعساكر المسلمين فأثنى في أرض النصرانية ، وخرب معاقلهم ومدنهم مثل أبدة وجيان وغيرهما من أمهات أمصارهم . ثم رجع إلى غرناطة ، ولم تزل الفتنة قائمة بين بطرة وأخيه القمط إلى أن غلب عليه القمط وقتله . وفي خلال هذه الفتنة بقيت ثغورهم مما يلي أرض المسلمين عورة . وتشوّف المسلمون إلى ارتجاع الجزيرة التي قرب عهدهم بانتظامها في ملكة المسلمين . وكان صاحب المغرب في شغل عن ذلك بما كان فيه من انتقاض أبي الفضل ابن أخيه وعامر بن محمد ، فراسل صاحب الأندلس أن يزحف إليه بعساكره على أن عليه عطاءهم وامداده بالمال والأساطيل على أن يكون مثوبة جهاده خالصة له ، فأجاب إلى ذلك وبعث إليه أحمال المال . وأوعز إلى أساطيله بسبته فعمرت واقلعت من مرسى الجزيرة لحصارها وزحف ابن الأحمر بعساكر المسلمين على أثرها بعد أن قسم فيهم العطاء وأزاح العلل ، واستعدّ الآلات للحصار ، فنازلها أياماً قلائل . ثم أيقن النصارى بالهلك لبعدهم عن الصريح ويأسهم عن مدد ملوكهم ، وألقوا باليد وسألوا النزول على حكم السلم فأجابهم السلطان إليه ، ونزلوا عن البلد وأقيمت فيها شعائر الإسلام

(١) وفي نسخة ثانية : المركش .

(٢) وفي نسخة ثانية : اقاطهم .

ومراسمه ، ومحيت منها كلمة الكفر وطواغيته . وكتب الله أجراها لمن أخلص في معاملته وكان ذلك سنة سبعين وسبعائة وولّى ابن الأحمر عليها من قبله . ولم تزل لنظره إلى أن تمحّض النظر عن هدمها خشية استيلاء النصرانية عليها ، فهدمت أعوام ثمانين وسبعائة وأصبحت خاوية كأن لم تغن بالأمس . والبقاء لله وحده .

* (الخبر عن حركة السلطان الى تلمسان واستيلائه عليها وعلى سائر بلادها وفرار أبي حمو عنها) *

كان عرب المعقل موطنين بصحراء المغرب من لدن السوس ودرعة وتافيلالت وملوية وصا^(١) . وكان بنو منصور منهم أولاد حسين والأحلاف مختصين بطاعة بني مرين وفي وطنهم . وكانوا مغلوبين للدولة تحت قهر من سلطانها . ولما ارتجع بنو عبد الواد ملكهم بتلمسان على يد أبي حمو ، وكان الاحلاف بالمغرب ، عاث هؤلاء المعقل وأكثروا في الوطن الفساد. ولما استقلت الدولة من عثارها تحيَّزوا إلى بني عبد الواد وأقطعوهم في أوطانهم . واستقرّوا هنالك من لدن نزوع عبدالله بن مسلم العامل بدرعة إلى أبي حمو ووزارته له . وفسد ما بين سلطان المغرب وأبي حمو من جرّاء ذلك . ونهض أبو حمو سنة ست وستين وسبعائة إلى المغرب ، وعاث في نواحي دبدو ثغر المغرب فنشأت^(٢) لذلك نار العداوة بينه وبين صاحب الثغر محمد بن زكراز^(٣) فكان داعية لعداء صاحب المغرب على الأيام . ولما استبدّ السلطان عبد العزيز وهلك صاحبهم عبدالله بن مسلم ، وتردّدت الرسل بين أبي حمو وبين السلطان عبد العزيز ، كان فيما اشترط عليه التجاني عن قبول عرب المعقل عرب وطنه ، لما فيه من الاستكثار بهم عليه . وأبى عليهم أبو حمو منها لاستظهاره بهم على زغبة من أهل وطنه وغيرهم . وكثر التلاحى في ذلك وأحفظ السلطان وهمّ بالنهوض إليه سنة سبعين وسبعائة وأقصر لما أخذ بحجزته من خلاف عامر . وصاحب الثغر محمد بن زكراز أثناء ذلك يحرّضه على الحركة إلى أبي حمو ويرغبه في ملك تلمسان . ولما قضى السلطان حركة مراکش

(١) هي قلعة (زا) وال (ز) تلفظ (صاد) عند البربر ، لذلك كتبها ابن خلدون بالصاد .

(٢) وفي نسخة ثانية : نشبت .

(٣) وفي نسخة ثانية : زكدان .

وفرغ من شأن عامر ورجع إلى فاس ، ولقى^(١) بها أبو بكر بن عريف أمير سويد في قومه من بني مالك بحلهم وناجعتهم ، صريحاً على أبي حمّو لما نال منهم . وتقبّض على أخيه محمد ورؤساء بني مالك جزاء بما يعرف لهم ولسلفهم من ولاية صاحب المغرب . ووفد عليه رسل أهل الجزائر يبيعهم يستحثّون السلطان لاستنقاذهم من لهواته . وأمر السلطان بذلك وليه ونزمار ومحمد بن زكراز صاحب دبدو فزعموا له بالغناء في ذلك واعتزم على النهوض إلى تلمسان وبعث الحاشدين إلى مراکش للاحتشاد ، وتوافى الناس ببابه على طبقاتهم أيام منى من سنة إحدى وسبعين وسبعائة وأفاض العطاء وأزاح العلل ، ولما قضى منسك الأضحى اعترض العساكر ورحل إلى تلمسان ، واحتل بتازي . وبلغ خبر نهوضه إلى أبي حمّو ، فجمع من إليه من زنانة الشرق وبني عامر من عرب المعقل وزغبة . وتوافت جموعه بساحة تلمسان واضطرب هنالك معسكره واعترض جنوده واعتزم على الزحف للقاء بني مرين ثقة بمكان المعقل . وتخيّر من كان معه من عرب المعقل الأحلاف وعبيد الله إلى السلطان عبد العزيز بمدخله وليّهم ونزمار . واجتمعوا إليه وسرّح معهم صنائعه فارتحلوا بين يديه وسلكوا طريق الصحراء . وبلغ خبر تخيّرهم وإقبالهم إلى أبي حمّو فأجفل هو وجنوده وأشياعه من بني عامر وسلكوا على البطحاء . ثم ارتحلوا عنها وعاجوا على منداس ، وخرجوا إلى بلاد الديالم . ثم لحقوا بوطن رياح فتلّوا على أولاد سباع بن علي بن يحيى .

وارتحل السلطان عبد العزيز من تازي وقدم بين يديه وزيره أبا بكر بن غازي ، فدخل تلمسان وملكها . ورحل السلطان على أثره واحتل بتلمسان يوم عاشوراء من سنة إثنين وسبعين وسبعائة ، فدخلها في يوم مشهود واستولى عليها وعقد لوزيره أبي بكر ابن غازي على العساكر من بني مرين والجنود والعرب من المعقل وسويد ، وسرّحه في اتباعه وجعل شوره إلى وليّه ونزمار وفوّض إليه في ذلك . فارتحلوا من تلمسان آخر الحرم وكنت وافداً على أبي حمّو ، فلما أجفل عن تلمسان ودّعته وانصرفت إلى هُنين للإجازة إلى الأندلس . ووشى بعض المفسدين إلى السلطان بأنّي احتملت مالا للأندلس ، فبعث جريدة من معسكره للقبض عليّ ، ووافوني بوادي الزيتون قبل

(١) وفي نسخة ثانية : وافاه .

مدخلي إلى تلمسان فأحضرني وسألني ، وتبين كذب الواشي فأطلقني وخلع عليّ وحملني . ولما ارتحل الوزير في اتباع أبي حمّو استدعاني وأمرني بالنهوض إلى رباح والقيام فيهم بدعوته وطاعته ، وصرفهم عن طاعة أبي حمّو وصريخه ، فنهضت لذلك ، ولحقت بالوزير بالبطحاء ، وارتحلت معه إلى وادي ورك من بلاد العطاف ، فودّعته وذهبت لوجهي وجمعت رباح على طاعة السلطان ونكبت بهم عن طاعة أبي حمّو فنكبوا عنها . وخرج أبو زيان من محل نزوله بحُصَيْن ، فلحق بأولاد محمد ابن علي بن سبّاع من الزواودة . وارتحل أبو حمّو من المسيلة فترّل بالدوسن وتلّوم بها . وأوفدت من الزواودة على الوزير ونزمار فكانوا أدلاءهم في النهوض إليه . ووافوه بمكانه من الدوسن في معسكره من زنّانة وحلل بني عامر ، والوزير في التعبية ، وأمّم زنّانة والعرب من المعقل وزغبة ورياح مخيفة^(١) به . فأجهضوه عن ماله ومعسكره ، فانتهب بأسره . واكتسحت أموال العرب الذين معه ، ونجا بدمائه إلى مصاب . وتلاحق به ولده وقومه متفرّقين على كل مفازة ، وتلّوم الوزير بالدوسن أياماً . ووافاه بذلك لحاق بني مرين^(٢) وانقلب إلى المغرب . ومّرّ على قصور بني عامر بالصحراء فاستباحها ، وشردّهم عنها إلى قاصية القفر ومفازة العطش . ولحق بتلمسان في ربيع الثاني .

ووفدتُ أنا بالزواودة على السلطان ورئيسهم أبو دينار بن علي بن أحمد ، فبرّ السلطان مقدمه ورعى له سوابقه عند أخيه^(٣) ، وخلع عليه وحمله وخلع على الوفد كافة وانصرفوا إلى مواطنهم . وبعث السلطان عمّاله على الأمصار ، وعقد لصنائه على النواحي ، وجهّز الكتائب مع وزيره عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة ، لحصار حمزة بن علي بن راشد من آل ثابت بن منديل ، كان ربّي في حجر الدولة ونشأ في جوّ نعمتها وسخط حاله لديهم . فترع إلى وطن سلفه من مغراوة . ونزل بجبل بني بوسعيد فأجاروه وباعوه على الموت دونه . وسرّح السلطان وزيره إلى الأخذ بمخنتهم ، فترّل عليهم وقتلهم وامتنعوا في رأس شاهقهم ، فأوطن الوزير بالخميس من وادي شلف وأحجرهم بمعصمهم . وتوافت لديه الأمداد من تلمسان ، فجهّزها

(١) وفي نسخة ثانية : محدقة به .

(٢) وفي نسخة ثانية : ووافاه هنالك اتخاف ابن مزني .

(٣) وفي نسخة ثانية : عند أبيه .

كثائب وبوأهم المقاعد للحصار ، وأقام هنالك واستولى السلطان على سائر الوطن من الأمصار والأعمال ، وعقد عليها واستوسق له ملك المغرب الأوسط كما كان لسلفه . والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط ورجوع أبي زيان الى تيطرا واجلاب العرب بأبي حمو على تلمسان الى أن غلبهم السلطان جميعا على الأمر واستوسق له الملك) *

لما خلاص أبو حمّو من وقعة الدوسن هو وأحياء بني عامر أشياعه ، لحقوا بالصحراء وأبعدوا فيها عن قصورهم قبلة جبل راشد . وجمع الوزير ونزمار بن عريف بأحياء العرب كافة من زغبة والمعلل . وكان السلطان لما احتل بتلمسان طلب العرب منه إطلاق أيديهم على ما أقطعهم أبو حمّو إياه من الوطن على الزبون والاعتزاز عليه ، فاستنكف من ذلك لعظم سلطانه واستبداد ملكه ، فسخطوا أحوالهم ورجوا أن يكون لأبي حمّو ظهور ينالون به من ذلك ما أمّلوه . فلمّا انهزم وقلّت عساكره ، وظهر السلطان ظهوراً لا كفاء له فيشوا ، أجمع رحو بن منصور أمير الخراج من عبيد الله إحدى بطون المعلل الخروج على السلطان ، ولما خرج العرب إلى مشاتهم لحق بأبي حمّو وأحياء بني عامر وكاثروهم وقادوهم إلى العيث في الأوطان . فأجلبوا على ممالك السلطان ونازلوا وجدة في رجب من سنة إثنين وسبعين وسبعائة وصمدت نحوهم العساكر من تلمسان ، فأجفلوا وعاجوا إلى البطحاء فاكسحوا أوطانها . ونهض إليهم الوزير في العساكر ففرّوا أمامه ، واتبع آثارهم إلى أن أصحروا . واستنسر خلال ذلك حمزة بن علي بن راشد ، فبيّت معسكر الوزير بمكانه من حصار شلف ، ففضّ جموعه ولحق مقلولاً بالبطحاء وبلغ الخبر إلى حصين وكانوا راهبين من السلطان ، لما اشتهر عنهم من الأجلاب على الدول والقيام بأمر الخوارج ، فجأجؤا بأبي زيان الثائر كان عندهم من مكانه بأحياء أولاد يحيى بن عليّ بن سبّاع من الزواودة ، فلحق بهم وأجلبوا على ضواحي المدينة ونازلوا عسكر السلطان بها . واضطرم المغرب الأوسط نازلاً ، واتصل ذلك به مدة . ولمّا كان سنة ثلاث وسبعين

وسبعائة استمال السلطان رَحَّو بن منصور عن أبي حمَّو وبذل له مالا وأقطعه ما أحبَّ من الضواحي ، وفعل ذلك بسائرهم وملاً صدورهم ترغيباً . واعتزم على تجهيز العساكر معهم لحسم أدواء الفساد وإخراج الثَّوار من النواحي . واتهم وزيره عمر بن مسعود بالمداهنة في أمر المغراوي ، فسَّرح من دولته من تقبَّض عليه وأشخصه إلى حضرته مقيداً . واعتقله بفاس وجَهَّز عساكره واعترض جنوده ، وعقد لوزيره أبي بكر بن غازي على حرب الثَّوار والخوارج ، فنهض من تلمسان في رجب سنة ثلاث وسبعين وسبعائة واعتمد حمزة على ابن راشد في معتمصمه بجبل بني بوسعيد ، وألح عليه بالقتال فعضتهم الحرب بناها ، وداخلهم الرعب ، وأوفدوا مشيختهم على الوزير بالطاعة . ونبذ العهد إلى حمزة فعقد لهم ما ابتغوه . ولحق حمزة بأبي زيان بمكانه من حُصَيْن . ثم أثنى عزمه عن ذلك ورجع إلى ضواحي شلف . وبيَّته بعض الحامية فثبَّتوا في مراكزهم وانفضَّ جمعه ، وتقبَّض عليه وسبق إلى الوزير فاعتقله وبعث إلى السلطان في شأنه ، فأمر بقتله ، فاحترَّ رأسه ورؤوس أشياعه وبعث بهم إلى السلطان وعلَّق أشلاءهم بسور مليانة . ثم زحف إلى حُصَيْن فأحجرهم بمقلهم بيطرا ، واجتمعت إليه أحياء زغبة كافة . فأحاط بهم من كل جانب وطاولهم الحصار وعاودوهم الحرب ، وخاطبني السلطان بمكاني من الزاب ، وأوعز إليَّ بنفير رياح كافة إلى معسكر الوزير فاستنزلهم^(١) بأحيائهم وناجعتهم ، ونازلنا الجبل من ناحية الصحراء مما يلي ضواحي رياح ، فأصابهم الجهد وداخلهم الرعب ، وانفضَّوا من المعقل واندعروا في الجهات في المحرم فاتح أربع وسبعين وسبعائة ولحق أبو زيان بواركلي ، واستولى الوزير على المعقل وانتهب ما فيه ، واقتضى رهن حُصَيْن على الطاعة وقرَّر عليهم الوضائع والمغارم ، فأعطوها عن يد . وكان أبو حمَّو في خلال ذلك قد أجلب على تلمسان ينتهز الفرصة في انتباز العسكر عن السلطان . وكان وليّه خالد بن عامر أمير بني عامر من زغبة يريد الطاعة ، لما اتهم أبو حمَّو به من ولاية رديفه عبدالله بن عسكر بن معروف دونه ، فأسخطه ذلك ، وداخل السلطان عبد العزيز في الانحراف إليه عن أبي حمَّو على مال حملة إليه ، فترع عنه . وجَهَّز له السلطان عسكر الحرب أبي حمَّو في ذي القعدة من سنة ثلاث وسبعين وسبعائة من

(١) وفي نسخة ثانية : فاستنفرتهم .

بني عامر وأولاد يغمور من المعقل ، وعقد عليهم لمحمد بن عثمان من قرابة أبي بكر بن غازي وتعرضوا للقائهم ، ففضّ جمعهم ومنحوا أكتافهم وأحيط بمعسكر أبي حمو وحلل العرب فاستسح ما فيها واستولى بنو مرين على أمواله وحرمه وولده ، فاستاقوهم إلى السلطان وأشخصهم إلى فاس فأنزلمهم بقصوره . وتقبّض على مولاه عطية بن موسى صاحب شلف ، فامتّن عليه وألحقه بجملته . ونجا ابو حمو وألقى بنفسه إلى عبدالله بن صغير مستميتاً ، فامتّن عليه وبعث معه الادلاء إلى تيكورارين من بلاد القبلة ، فترها وكان ذلك بين يدي فتح تيطرا بلبال . واستوت قدم السلطان في ملكه واستولى على المغرب الأوسط ، ودفع الثوار والخوارج عنه . واستال كافة العرب إلى طاعته فأتوها راغبين راهبين . ووفد عليه للوزير أبو بكر بن غازي من قاصية الشرق ومعه مشيخة العرب من كل حيّ من أحيائهم فوصلهم واحتفى بقدمهم ، وركب للقاء الوزير وطلب المشيخة في الرهن على الطاعة والاستحاثا لتشريد أبي حمو من تيكورارين ، وأوسع حفايتهم وبرهم وانصرفوا إلى مشائهم معتملين في أسباب الحركة إلى تيكورارين إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن قدوم ابن الخطيب على السلطان بتلمسان نازعا
اليه عن سلطانه ابن الأحمر صاحب الاندلس) *

أصل هذا الرجل من لوشة على مرحلة من غرناطة في الشمال من البسيط الذي فيه ساحتها المسمّى بالمرج على وادي سنجيل ، ويقال شنبيل المنحرف في ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال ، كان له بها سلف معروفون في وزارتها . وانتقل أبو عبدالله إلى غرناطة واستخدم للملك بني الأحمر ، واستعمل على مخازن الطعام ، ونشأ ابنه محمد هذا بغرناطة وقرأ وتآدّب على مشيختها واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل ، وأخذ عنه العلوم الفلسفية وبرز في الطب وانتحل الأدب . وأخذ عن أشياخه وامتلاً حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيّد منه . وبلغ في الشعر والترسيل حيث لا يحاري فيها . وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر وملاً الدولة بمدايحه وانتشرت في الآفاق قدماءه ، فرقاه السلطان إلى خدمته وأثبتته في

ديوان الكتاب ببابه مؤسساً بأبي الحسن بن الحباب^(١) شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية . وكانت السلطان بغرناطة من لدن أيام محمد المخلوع من سلفه ، عندما قتل وزيره محمد بن الحكيم المستبد عليه كما مر في أخبارهم . فاستبد ابن الحباب برياسة الكتاب من يومئذ إلى أن هلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعائة ، فولّى السلطان أبو الحجاج يومئذ محمد بن الخطيب هذا رياسة الكتاب ببابه مثانة بالوزارة . ولقبه بها فاستقلّ بذلك . وصدرت عنه غرائب من الترسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدو . ثم داخله السلطان في تولية العمال على يديه بالمشارطات ، فجمع له بها أموالاً . وبلغ به المخالصة إلى حيث لم يبلغ بأحد من قبله . وسفر عنه إلى السلطان أبي عنان ملك بني مرين بالعدوة مغرباً بأبيه السلطان أبي الحسن فجلى في اغراض سفارته .

ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعائة عدا عليه بعض الزعانف يوم الفطر بالمسجد في سجوده للصلاة ، وطعنه فأشواه وفاض لوقته ، وتعاورت سيوف الموالي الملعوجي هذا القاتل فزقه أشلاء . وبويع ابنه محمد بالأمر لوقته ، وقام بأمره مولاهم رضوان الراسخ القدم في قيادة عساكرهم وكفالة الأصاغر من ملوكهم . واستبد بالدولة ، وأفراد ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه ، واتخذ لكتابته غيره ، وجعل ابن الخطيب رديفاً له في أمره وتشاركافي الاستبداد معاً ، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة . ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيراً إلى السلطان أبي عنان مستمدّين له على عدوهم الطاغية على عادتهم مع سلفه . فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه ، تقدّم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهاها استأذنه في إنشاد شيء من الشعر يقدمه بين يدي نجواه ، فأذن له ، وأنشد وهو قائم :

خليفة الله ساعد القدر	علاك ما لاح في الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته	ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في النائبات بدردجى	لنا وفي المحل كفك المطر
والناس طراً بأرض أندلس	لولاك ما أوطنوا ولا عمروا

(١) وفي نسخة ثانية : الحباب .

وَجُمِّلَةُ الْأَمْرِ أَنَّهُ وَطَنٌ فِي غَيْرِ عَلَيْكَ مَالِهِ وَطَرٌ
وَمَنْ بِهِ مَذْ وَصَلَتْ حَبْلُهُمْ مَا جَحَدُوا نِعْمَةً وَلَا كَفَرُوا
وَقَدْ أَهَمَّتْهُمْ نَفْسُهُمْ فَوَجَّهُونِي إِلَيْكَ وَانْتَظَرُوا .

فاهتزَّ السلطان لهذه الأبيات وأذن له في الجلوس . وقال له قبل أن يجلس : ما ترجع إليهم إلا بجميع عطائهم^(١) . ثم أثقل كاهلهم بالإحسان ، وردَّهم بجميع ما طلبوه . وقال شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف وكان معه في ذلك الوفد : لم يسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا . ومكثت دولتهم هذه بالأندلس خمس سنين . ثم نازلهم^(٢) محمد الرئيس ابن عم السلطان يشاركه في جدِّه الرئيس أبي سعيد . وتخيَّن خروج السلطان إلى منتره خارج الحمراء . وتسوَّر دارالملك المعروفة بالحمراء وكبس رضواناً في بيته ، فقتله . وذهب للملك اسماعيل ابن السلطان أبي الحجاج ، لما كان صهره على شقيقته . وكان معتقلاً بالحمراء ، فأخرجه وباع له وقام بأمره مستبداً عليه . وأحسَّ السلطان محمد بقرع الطبول وهو بالبهستان ، فركب بادياً إلى وادي آش وضبطها . وبعث بالخبر إلى السلطان أبي سالم إثر ما استولى على ملك آبائه بالمغرب . وقد كان مثواه أيام أخيه أبي عنان عندهم بالأندلس . واعتقل الرئيس القائم بالدولة هذا الوزير ابن الخطيب وضيَّق عليه في محبسه . وكانت بينه وبين الخطيب ابن مرزوق مودة استحكمت أيام مقامه بالأندلس كما مرَّ . وكان غالباً على هوى السلطان أبي سالم ، فزيَّن له استدعاء هذا السلطان المخلوع من وادي آش بعده زبوناً على أهل الأندلس ، ويكفَّ به عادية القرابة المرشَّحين هنالك متى طمحوإ إلى ملك المغرب ، فقبل ذلك منه . وخاطب أهل الأندلس في تسهيل طريقه من وادي آش إليه . وبعث من أهل مجلسه الشريف أبا القاسم التلمساني . وحمله مع ذلك الشفاعة في ابن الخطيب . وحل معتقله . فأطلق ، وصحب الشريف أبا القاسم إلى وادي آش ، وسار في ركاب السلطان . وقدموا على السلطان أبي سالم فاهتزَّ لقدم ابن الأحمر . وركب في المواكب لتلقَّيه . وأجلسه أزاء كرسيه ، وأنشد ابن الخطيب قصيدته كما مرَّ يستصرخ السلطان لنصره . فوعده وقد

(١) وفي نسخة ثانية : طلبائهم .

(٢) وفي نسخة ثانية : ثم نازلهم .

نان يوماً مشهوداً وقد مرّ ذكره . ثم أكرم مثواه وأرغد نُزُلَه ، ووفّر أرزاق القادمين في ركابه وانتصر به . وأرغد عيش ابن الخطيب في الجراية والأقطاع . ثم استأنس واستأذن السلطان في التحوّل إلى جهات مراكش والوقوف على آثار الملك بها ، فأذن له وكتب إلى العمّال بالتحافه ، فتبادروا في ذلك وحصل منه على حظّ وعندما مرّ بسلا في قفوله من سفره ، دخل مقبرة الملوك بشالة ووقف على قبر السلطان أبي الحسن وأنشد قصيدته على رويّ الرءاء الموصولة يريثه ويستثير به استرجاع ضياعه بغرناطة مطلعها :

إِنْ بَانَ مَئْزِلُهُ وَشَطَّتْ دَارُهُ قَامَتْ مَقَامَ عَيَانِهِ أَخْبَارُهُ
قَسَمَ زَمَانُكَ عِبْرَةً أَوْ غَيْرَةً^(١) هَذَا ثَرَاهُ وَهَذِهِ آثَارُهُ

فكتب السلطان أبو سالم في ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة ، فشفعوه . واستقرّ هو بسلا منتبذاً عن سلطانه طول مقامه بالعدوة . ثم عاد السلطان محمد المخلوع إلى ملكه بالأندلس سنة ثلاث وستين وسبعائة كما مرّ في أخباره . وبعث عن محلفه بفاس من الأهل والولد والقائم بالدولة يومئذ عمر بن عبدالله بن علي فاستقدم ابن الخطيب من سلا وبعثهم لنظره . فسّر السلطان بمقدمه وردّه إلى منزله كما كان مع رضوان كافله . وكان عثمان بن يحيى عمر شيخ الغزاة وابن أشياخهم قد لحق بالطاغية في ركاب أبيه عندما أحسّ بالشرّ من الرئيس صاحب غرناطة . وأجاز يحيى من هنالك إلى العدوة وأقام عثمان بدار الحرب ، فصحب السلطان في مثنى اغترابه هنالك ، وتغلب في مذاهب خدمته . وانحرفوا عن الطاغية بعد ما يشوا من الفتح على يديه ، فتحولوا عنه إلى ثغور بلاده . وخطبوا عمر بن عبدالله في أن يمكّنهم من بعض الثغور الغربية التي أطاعتهم بالأندلس ، يرتقبون منها الفتح . وخطبني السلطان المخلوع في ذلك ، وكانت بيني وبين عمر بن عبدالله ذمّة مرعية ومخالصة متأكدة ، فوفيت للسلطان بذلك من عمر بن عبدالله . وحملته على أن يردّ عليه مدينة رندة إذ هي من تراث سلفه ، فقبل إشارتي في ذلك . وتسوّرها السلطان المخلوع ، ونزل بها وعثمان بن يحيى في جملته . وهو مقدّم في بطانته .

ثم غزوا منها مالقة ، فكانت ركاباً للفتح . وملكها السلطان واستولى بعدها على دار

^١ وفي نسخة ثانية : غيرة أو عبرة .

ملكها بغرناطة ، وعثمان بن يحيى مقدّم القوم في الدولة عريق في المخالصة ، وله على السلطان دالة واستبداد على هواه . فلما فصل ابن الخطيب بأهل السلطان وولده ، وأعادته السلطان إلى مكانه من الدولة من علّويه وقبول إشارته ، فأدركته الغيرة من عثمان ، ونكر على السلطان الاستكفاء به ، والتخوّف من هؤلاء الأعياص على ملكه ، فحذره السلطان وأخذ في التدبير عليه حتى نكبه وأباه وإخوته في رمضان سنة أربع وستين وسبعمائة وأودعهم المطبق . ثم غرّهم بعد ذلك ، وخلا لابن الخطيب الجوّ وغلب على هوى السلطان ودفع إليه تدبير المملكة ، وخلط بينه بندمائه وأهل خلوته ، وانفرد ابن الخطيب بالحلّ والعقد وانصرفت إليه الوجوه وعلقت عليه الآمال ، وغشي بابه الخاصّة والكافّة . وغصّت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتوافقوا على السعاية فيه^(١) وقد صمّ السلطان عن قبولها . ونمي الخبر بذلك الى ابن الخطيب ، فشمّر عن ساعده في التقويض عنهم . واستخدم للسلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ملك العدو يومئذ في التقبّض على ابن عمّه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي . كانوا قد نصّبوه شيخاً على الغزاة في الأندلس لما أجاز من العدو بعدما جاس خلاها لطلب الملك ، وأضرم بها نار الفتنة في كل ناحية وأحسن دفاعه الوزير عمر بن عبد الله القائم حينئذ بدولة بني مرين ، فاضطرّ إلى الإجازة إلى الأندلس ، فأجاز هو ووزيره مسعود بن ماسي ونزلوا على السلطان على المخلوع أعوام سبع وستين وسبعمائة فأكرم نزلهم ، وتوفي علي بن بدر الدين شيخ الغزاة ، فقدم عبد الرحمن مكانه . وكان السلطان عبد العزيز قد استبدّ بملكه بعد قتله الوزير عمر بن عبد الله ، فغصّ بما فعله السلطان المخلوع من ذلك . وتوقع انتقاض أمره منهم . ووقف على مخاطبات ابن عبد الرحمن يسرّها في بني مرين ، فجزع لذلك . وداخله ابن الخطيب في اعتقال ابن أبي يفلوسن وابن ماسي وراحة نفسه من شغبهم ، على أن يكون له المكان من دولته متى نزع إليه ، فأجابه إلى ذلك وكتب له العهد بخطه ، على يد سفيره إلى الأندلس ، وكتبه أبي يحيى بن أبي مدين . بني مرين وأغرى ابن الخطيب سلطانه بالتقبّض على ابن أبي يفلوسن وابن ماسي فتقبّض عليهما . واعتقلهما وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة من القدح فيه والسعاية . وربّما خيل أن السلطان مال إلى قبولها وأنهم قد

(١) وفي نسخة ثانية : فتفتنوا في السعيات فيه .

أحفظوه عليه ، فأجمع التحول عن الأندلس إلى المغرب . واستأذن السلطان في تفقد الثغور الغربية . وسار إليها في لمة من فرسانه ، ومعه ابنه عليّ الذي كان خالصة السلطان وذهب لطبنة . فلما حاذى جبل الفتح فرضة المجاز إلى العدو ، مال إليه وسرح إذنه بين يديه ، فخرج قائد الخيل لتلقيه . وقد كان السلطان عبد العزيز قد أوعز إليه بذلك ، وجهّز إليه الأسطول من حينه ، فأجاز إلى سبتة وتلقاه بها بأنواع التكرمة وامثال الأوامر^(١) . ثم سار لقصد السلطان ، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعائة بمقامته من تلمسان ، فاهتزت له الدولة . وأركب السلطان خاصته لتلقيه ، وأحلّه بمجلسه بمحل الأمن والغبطة ، ومن دولته بمكان الشرف^(٢) والعزة . وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبي مدين سفيراً إلى الأندلس في طلب أهله وولده ، فجاء بهم على أكمل الحالات من الأمن والتكرمة . ثم لغط المنافسون له في شأنه وأغروا سلطانه بتتبع عثراته ، وأبدى ما كان كامناً في نفسه من سقطات دالته وإحصاء عصابته^(٣) . وشاع على السنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها إليه . ورفعت إلى قاضي الحضرة الحسن بن الحسن ، فاسترداها^(٤) وسجل عليه بالزندقة . وراجع صاحب الأندلس رأيّه فيه . وبعث القاضي أبو الحسن إلى السلطان عبد العزيز في الانتقام منه بتلك السجلات ، وامضاء حكم الله فيه ، فصمّ لذلك وأنف لذمته أن تخفر ولجواره أن يردى^(٥) وقال لهم : هلا انتقمتم وهو عنكم وأنتم عالمون بما كان عليه ؟ وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جوارى . ثم وفر الجراية والإقطاع له ولبنيه ولمن جاء من فرسان الأندلس في جملة . فلما هلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وسبعائة ورجع بنو مرين إلى المغرب وتركوا تلمسان ، سار هو في ركاب الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدولة ، فترل بفاس واستكثر من شراء الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنات ، وحفظ عليه القائم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفي . واتصلت حاله على ذلك إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

(١) وفي نسخة ثانية : المراسم .

(٢) وفي نسخة ثانية : البتوة .

(٣) وفي نسخة ثانية : مغائبه .

(٤) وفي نسخة ثانية : فاسترداها .

(٥) وفي نسخة ثانية : أن يرد .

الخبر عن مهلك السلطان عبد العزيز وبيعة ابنه السعيد واستبداد أبي بكر بن غازي عليه ورجوع بني مرين إلى المغرب

كان السلطان منذ أول نشأته قد أزمّت به الحمى بما أصابه من مرض النحول ،
ولأجل ذلك تجافى السلطان أبو سالم على احتماله مع الأبناء إلى رندة . ولما شبّ أفاق
من مرضه وصلح بدنه . ثم عاوده وجعه في مثواه بتلمسان وتزايد نحوله . ولما كمل
الفتح واستفحل سلطانه واشتدّ به الوجع وصابر المرض وكنتمه عن الناس خشية
الارجاج ، واضطرب معسكره خارج تلمسان للحاق بالمغرب ، ولما كان ليلة الثاني
والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وسبعائة قضى متودّعاً بين أهله وولده
ودسّ الخدم بالخبر إلى الوزير ، فخرج على الناس وقد احتمل محمد السعيد ابن
السلطان على كنفه فغزى الناس عن خليفتهم لسبع سنين من خلافته ، وألقى ابنه بين
أيديهم فازدحموا عليه باكين متفجّعين ، يعطونه الصفقة ويقبلون يديه للبيعة ،
وأخرجوه للمعسكر . ثم أخرج الوزير شلو السلطان على أعواده وأنزله بفساطيطه ،
وأيقظ بالليل بحراسة المعسكر . وأذن للناس بالرحيل ، فخرجوا أفواجا إلى المحلة .
ثم ارتحلوا لثلاث ، وأغذّوا السير إلى المغرب واحتلوا بتازي ثم أغذّوا السير إلى فاس ،
واحتلّ ابن السلطان بدار ملكه وجلس للبيعة العامة بقصره . وتوافت وفود الأمصار
بيعتهم على العادة . واستبدّ عليه الوزير أبو بكر بن غازي ، وحجبه بقصره وحجّره
عن التصرف في شيء من سلطانه ، ولم يكن في سنّ التصرف ، واستعمل على
الجهات وجلس بمجلس النّزل ، واشتغل بأمر المغرب إبراماً ونقضاً إلى أن كان ما
نذكره إن شاء الله تعالى

* (الخبر عن استيلاء أبي حمو على تلمسان
والمغرب الأوسط) *

لما فصل بنو مرين من تلمسان إثر مهلك السلطان عبد العزيز واحتلوا بتازي اجتمع
المشيخة وعقدوا على تلمسان لآبراهيم ابن السلطان أبي تاشفين كان ربيّ في كفالة

دولتهم منذ مهلك أبيه ، فأثروه بذلك لخلوصته . وبعثوه مع رحو بن منصور أمير عبيدالله من المعقل ، وسرحوا معها من كان بالمغرب من مغراوة إلى وطن ملكهم بشلف . وعقدوا عليهم لعلّي بن هرون بن منديل بن عبد الرحمن وأخيه رحمون وانصرفوا إلى بلادهم . وكان عطية بن موسى مولى أبي حمّو قد صار إلى السلطان عبد العزيز وألحقه بجملته وبطانته ، فلما هلك السلطان خرج من القصر واختفى بالبلد حتى إذا فصل بنو مرين من معسكرهم ظاهر البلد ، خرج من مكان اختفائه ، وقام بدعوة مولاه أبي حمّو ، واجتمع إليه شيعة من أهل البلد مع من تأشّب إليه من الغوغاء ، وحملوا الخاصة على البيعة لأبي حمّو ، ووصلهم ابراهيم بن أبي تاشفين مع رحو بن منصور وقومه من عبيدالله ، فنبذوه وامتنعوا عليه ، فرجع عنهم إلى المغرب ، وطير أولاد يعمور أولياء أبي حمّو من عبيدالله بالخبر إليه وهو بمشواه من تيكورارين . واتصل بابنه أبي تاشفين وهو عند يحيى بن عامر^(١) فدخل إلى تلمسان ومن معه من بني عبد الواد ، وتساقط إليه فلّهم من كل جانب ، ووصل السلطان على أثرهم بعد اليأس منه ، فدخلها في جمادى من سنة أربع وسبعين وسبعائة واستقل بملكه ، وتقبّض على بطانته الذين آسفوه في اغترابه ، ونمي له عنهم السعي عليه ، فقتلهم ، ورجع ملك بني عبد الواد وسلطانهم ، ونهض إلى مغراوة أولياء بني مرين بمكانهم من شلف ، فغلّهم عليه بعد مطاولة وحروب سجال هلك فيها رحمون بن هرون ، ومحا دعوة بني مرين من ضواحي المغرب الأوسط وأمصاره ، واستقلّ بالأمر حسبما ذكرناه في أخباره . واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي فهمّ بالنهوض إليه . ثم ثنى عزمه ما كان من خروج الأمير عبد الرحمن بناحية بطوية فشغله شأنه عن ذلك .

الخبر عن إجازة الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن الى المغرب
واجتماع بطوية إليه وقيامهم بشأنه

كان محمد المخلوع ابن الأحمر قد رجع من رندة إلى ملكه بغرناطة في جمادى من سنة

(١) وفي نسخة ثانية : وهو يحيى بن عامر .

ثلاث وستين وسبعائة وقتل له الطاغية عدوه الرئيس المنتري على ملكهم حين هرب من غرناطة إليه وفاء بعهد المخلوع ، واستوى على كرسيه واستقل بملكه ، ولحق به كاتبه وكاتب أبيه محمد بن الخطيب واستخلصه وعقد له على وزارته ، وفوض إليه في القيام بملكه فاستولى عليه وملك هواه . وكانت عينه ممتدة إلى المغرب وسكناه إلى أن نزلت به آفة في رياسته ، فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه ، وكان لابناء السلطان أبي الحسن كلهم غيرة على ولد عمهم السلطان أبي علي ويخشونهم على أمرهم . ولما لحق الأمير عبد الرحمن بالأندلس اصطفاه ابن الخطيب واستخلصه لنجواه ، ورفع في الدولة رتبته وأعلى منزلته ، وحمل السلطان على أن عقد له على الغزاة والمجاهدين من زناتة مكان بني عمه من الأعياص ، فكانت له آثار في الاضطلاع بها ، ولما استبد السلطان عبد العزيز بأمره واستقل بملكه ، وكان ابن الخطيب ساعياً في مرضاته عند سلطانه ، فدرس إليه باعتقال عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره المطارد به مسعود بن ماسي ، وأدار ابن الخطيب في ذلك مكره وحمل السلطان عليهما إلى أن سطا بهما ابن الأحمر واعتقلها سائر أيام السلطان عبد العزيز سلطان المغرب سنة اثنتين وسبعين وسبعائة لما قدّم من الوسائل ومهد من السوابق فقدمه السلطان وأحلّه من مجلسه محل الاصطفاء والقرب . وخاطب ابن الأحمر في أهله وولده ، فبعثهم إليه واستقرّ في جملة السلطان . ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الأحمر فرغب السلطان في ملك الأندلس وحمله عليه وتواعدوا لذلك عند مرجعه من تلمسان إلى المغرب . ونمي ذلك إلى ابن الأحمر فبعث إلى السلطان بهدية لم يسمع بمثلها ، انتقى فيها من متاع الأندلس وماعونها وبغالها الفارهة ومعلوجي السبي وجواريه ، وأوفد بها رسله يطلب إسلام وزيره ابن الخطيب إليه ، فأبى السلطان من ذلك ونكره ، ولما هلك واستبد الوزير ابن غازي بالأمر تحيّر إليه ابن الخطيب وداخله وخاطبه ابن الأحمر فيه بمثل ما خاطب السلطان ، فلم يؤب^(١) واستنكف ذلك وأقبح الرد ، وانصرف رسله إليه ، وقد رهب سطوته ، فأطلق ابن الأحمر لحينه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وأركبه الأسطول وقذف به إلى ساحل بطوية ومعه الوزير مسعود بن ماسي ونهض إلى جبل الفتح فنازله بعساكره

(١) وفي نسخة ثانية : فليج .

ونزل عبد الرحمن ببطوية في ذي القعدة من سنة أربع وسبعين وسبعمائة ، ومعه وزيره مسعود بن ماسي ، فاجتمع قبائل بطوية إليه وبايعوه على القيام بدعوته والموت دونه ، واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي فعقد لابن عمه محمد بن عثمان على سبته وبعثه لسد ثغورها لما خشي عليها من ابن الأحمر ، ونهض من فاس بالآلة والعساكر ونازل عبد الرحمن ببطوية ، فقاتله أياماً ثم رجع إلى تازي ثم إلى فاس ، ودخل الأمير عبد الرحمن تازي واستولى عليها ، ودخل الوزير إلى فاس وقعد بمجلس الفصل ، وهو مجمع العودة إلى تازي لتشريد عدوه إلى أن جاء الخبر ببيعة السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم كما ذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عنبيعة السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم واستقلاله بالملك وما كان خلال ذلك من الأحداث

لما نزل محمد بن عثمان بالثغر من سبته لسد فروجها ، ومدافعة ما يخشى من عادية ابن الأحمر عليها ، وكان قد طاول حصار جبل الفتح وأخذ بمخنقه ، وتكررت المراسلة بينه وبين محمد بن عثمان بالعتاب ، فاستعتب له وقبح ما جاء به ابن عمه من الاستغلاظ له ، فوجد ابن الأحمر بذلك السبيل إلى غرضه ، وداخله في البيعة للسلطان أبي سالم من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الرقبة والحوطة ، وأن يقيمهم للمسلمين سلطاناً يحوط سياجهم^(١) ويدافع عنهم ولا يتركهم فوضى وهملأ . ويجب^(٢) بيعة الصبي الذي لم تنعقد بيعته شرعاً ، واختص هذا بالسلطان من بين أولئك الأبناء وفاء بحقوق أبيه ، ووعدته بالمظاهرة على ذلك ، واشترط عليه أن يتزلوا له عن الجبل اذا انعقد أمرهم ، ويشخصوا إليه بيعة الأبناء والقراة من طنجة ليكونوا في إياله وتحت حوطته ، وأن يبعثوا إليه ابن الخطيب متى قدروا عليه ، وبعثوا إليه بقية الأبناء والقراة فقبل محمد بن عثمان شرطه كان سفيره في ذلك أحمد المرغني^(٣) من طبقات كتاب الأشغال بسبته ، كان السلطان أبو الحسن تزوج أمه

(١) وفي نسخة ثانية : يحول بسياجهم .

(٢) جبه : قطعه ، وهنا تعني يمنح .

(٣) وفي نسخة ثانية : الرعيني .

ليلة إجازته من واقعة طريف وافتقاد حظاياه ، حتى لحق به الحرم من فاس ، فردّها إلى أهلها ونشأ المرغني في توهم هذه الكفالة ، فانتفخ نحره لذلك وبحسبها وصلة إلى أبناء السلطان أبي الحسن ، وكان سفيراً بين محمد بن عثمان وابن الأحمر ، فأمل الرياسة في هذه الدولة ، وركب محمد بن عثمان من سبتة إلى طنجة ، وقصد مكان اعتقالهم . واستدعى أبا العباس أحمد ابن السلطان أبي سالم من مكانه مع الأبناء فبايع له ، وحمل الناس على طاعته ، واستقدم أهل سبتة بكتاب للبيعة ، فقدموا وخاطب أهل الجبل فبايعوا ، وأفرج ابن الأحمر عنهم . وبعث إليه محمد بن عثمان بالتزول عن جبل الفتح ، وخاطبوا أهله بالرجوع إلى طاعته ، فارتحل من مالقة إليه ودخله واستولى عليه ، ومحا دعوة بني مرين مما وراء البحر ، وأهدى للسلطان أبي العباس وأمدّه بعسكر من غزاة الأندلس وحمل إليه مالاً للإعانة على أمره .

وكان محمد بن عثمان عند فصوله من فاس ، وودّعه الوزير ابن عمّه فاوضه في شأن السلطان ، وأن يقدّم للناس إماماً يرجعون إليه ويترك له أمرهم ، وأمره في ذلك ، ولم يفترقا على مبرم من أمرهم . فلما ارتكب هذا المرتكب وجاء بهذا الأمر ، خاطب الوزير يموه عليه بأنه فعل بمقتضى المؤامرة ، وأنه عن إذنه والله أعلم بما دار بينهما ، ولجّ الوزير في تكذيبه والبراءة للناس مما رمى به ولاطفه في نقض ذلك الأمر ، وردّ أبا العباس إلى مكانه مع الأبناء تحت الحوطة ، وأبى محمد بن عثمان من ذلك ودافعه باجتماع الناس عليه وانعقاد الأمر . وبينما الوزير يروم ذلك جاءه الخبر بأنّ محمد بن عثمان أشخص الأبناء المعتقلين كلّهم إلى الأندلس ، وأنهم حصلوا في كفالة ابن الأحمر ، فوجم وأعرض عن ابن عمّه وسلطانه ، ونهض إلى تازي ليفرغ من عدوّه إليهم ، فنازل الأمير عبد الرحمن وأخذ بمخنقه ، واهتبل محمد بن عثمان الغرة في ملك المغرب ، فوصله مدد السلطان ابن الأحمر وعسكره تحت رايته ، عقدها عليهم ليوسف بن سليمان بن عثمان بن أبي العلاء من مشيخة الغزاة المجاهدين ، وعسكر آخر من رجل الأندلس الناشبة يناهزون سبعاثة . وبعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد بابن عمّه السلطان أبي العباس أحمد ، ومظاهرتة على ملك سلفه بفاس واجتماعها لمنازلتها ، وعقد بينهما الاتفاق والمواصلة وأن يختصّ عبد الرحمن بملك سلفه فتراضيا ، وزحف محمد بن عثمان وسلطانه إلى فاس خالفوا إليه

الوزير وانتها إلى قصر ابن عبد الحلیم^(١) ، وبلغ الخبر إلى الوزير بمكانه من حصار تازی فانفضّ معسكره ورجع إلى فاس ونزل بكدية العرائس .

وانتهى السلطان أبو العباس أحمد إلى زرهون ، فصمد إليه الوزير بعساكره ، وصمّم نحوه بمكانه من قنّة الجبل ، فاختلف مصافه وانهمزت ساقة العسكر من ورائه ، ورجع على عقبه مفلولاً وانتهب المعسكر ودخل إلى البلد الجديد . وجأجأ بالعرب أولاد حسين أن يعسكروا له بالزيتون ظاهر فاس ، ويخرج بجموعه إلى حلهم ، فنهض إليهم الأمير عبد الرحمن من تازی بمن كان معه من العرب الأحلاف وشردهم إلى الصحراء ، وشارف السلطان أبا العباس أحمد بجموعه العرب وزناته ، وبعثوا إلى وليّ سلفهم ونزار بن عريف بمكانه من قصر مرادة الذي اختطّه بملوية فجاءهم وأطلعوه على كامن أسرارهم ، فأشار عليهم بالاجتماع والاتفاق فاجتمعوا بوادي النجا . وحضر لعقدهم واتفاقهم وحلفهم على اتصال اليد على عدوهم ومنازلته بالبلد الجديد حتى يمكن الله منه وارتحلوا بجمعهم إلى كدية العرائس في ذي القعدة من سنة خمس وسبعين وسبعائة وبرز إليهم الوزير بعساكره فدارت الحرب وحمى الوطيس واشتدّ القتال ملياً . ثم زحف إليه العسكران بساقتها وآلتها فاختلف مصافه وانهمزت جيوشه وجموعه وأحيط به ، وخلص إلى البلد الجديد بعد غصّ الریق . وأضرب السلطان أبو العباس معسكره بكدية العرائس ، ونزل الأمير عبد الرحمن بأزائه ، وضربوا على البلد الجديد سياجاً بالبناء للحصار وأنزلوا بها أنواع القتال والأرهاب .

ووصلهم مدد السلطان ابن الأحمر من رجال الناشبة ، واحتكموا في ضياع ابن الخطيب بفاس ، فهدموها وعاثوا فيها . ولمّا كان فاتح سنة ست وسبعين وسبعائة داخل محمد بن عثمان ابن عمه أبا بكر في الترول عن البلد الجديد والبيعة للسلطان ، لما كان الحصار قد اشتدّ ويش من الصريخ ، وأعجزه المال فأجاب واشترط عليهم الأمير عبد الرحمن التجافي له في أعمال مراکش ، وأن يدلّوه بها من سجلماسة ففقدوا له على كره ، وطووا على المكر . وخرج الوزير أبو بكر للسلطان أبي العباس أحمد ، ويأبعه واقتضى عهده بالأمان وتخلية سبيله من الوزارة فبذله . ودخل السلطان أبو

(١) وفي نسخة ثانية : عبد الكريم .

العباس أحمد إلى البلد الجديد سابع المحرم . وارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى مراكش واستولى عليها ، وارتحل معه علي بن عمر بن ويغلان شيخ بني مرين والوزير ابن ماسي ، ثم نزع عنه ابن ماسي إلى فاس لعهد كان قد اقتضاه من السلطان أبي العباس ، وأجاز البحر إلى الأندلس فاستقر بها في إيالة ابن الأحمر ، واستقل السلطان أبو العباس ابن السلطان أبي سالم بملك المغرب ووزيره محمد بن عثمان ، وفوض إليه شؤونه وغلب على هواه . وصار أمر الشورى إلى سليمان بن داود ، كان نزع إليه من البلد الجديد من جملة أبي بكر بن غازي بعد أن كان أطلقه من محبسه ، واستخلصه . وجعل إليه مرجع أمره فتركه أحوج ما كان إليه ، ولحق بالسلطان أبي العباس بمكانه من حصار البلد الجديد . فلما استوسق ملكه ألقى الوزير محمد بن عثمان مقاد الدولة له ، وصار إليه أمر الشورى ورياسة المشيخة . واستحكمت المودة بينه وبين ابن الأحمر وتأكدت المداخلة . وجعلوا إليه المرجع في نقضهم وإبرامهم لمكان الأبناء المرشحين من إيالته . ولما ارتحل الأمير عبد الرحمن إلى مراكش نبذوا إليه العهد وتعللوا عليه بأن العقد الأول له ، إنما كان على ملك سلفه ومراكش إنما ألبأهم إلى العقد عليها بلقاء ، واعتزموا على النهوض إليه ثم أقصروا وانعقدت بينهما السلم سنة ست وسبعين وسبعائة وجعلوا التخم بينهما أزمور وعقدوا على ثغرها لحسان الصيحي فلم يزل عليها إلى أن هلك كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن مقتل ابن الخطيب) *

ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه فاتح ست وسبعين وسبعائة واستقل بسلطانه والوزير محمد بن عثمان مستبد عليه ، وسليمان بن داود رديف له ، وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر عندما بويغ بطنجة على نكبة ابن الخطيب وإسلامه إليه لما نمي إليه عنه أنه كان يغري السلطان عبد العزيز لملك الأندلس . فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ولقي الوزير أبا بكر بن غازي بساحة البلد الجديد ، فهزمه السلطان ولاذ منه بالحصار ، آوى معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد خوفاً على نفسه ، فلما استولى السلطان على البلد الجديد أقام أياماً ، ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض عليه فقبضوا عليه وأودعوه السجن ، وطَّيروا بالخبر إلى

السلطان ابن الأحمر وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب لما كان سليمان قد تابع السلطان ابن الأحمر على مشيخة الغزاة بالأندلس ، حتى أعاده الله إلى ملكه . فلما استقر له سلطانه أجاز إليه سليمان سفيراً عن عمر بن عبد الله ومقتضياً عهده من السلطان . فصده ابن الخطيب عن ذلك بأن تلك الرياسة إنما هي لأعياص الملك من آل عبد الحق ، لأنهم يعسوب زناته . فرجع سليمان آيساً^(١) وحقد ذلك لابن الخطيب . ثم جاور الأندلس بمحل إمارته من جبل الفتح ، فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات ينفس كل منهما لصاحبه بها يحفظه لما كمن في صدورهما . وحين بلغ الخبر بالقبض على ابن الخطيب إلى السلطان بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب ، وهو أبو عبد الله بن زمرك ، فقدم على السلطان أبي العباس وأحضر ابن الخطيب بالشورى في مجلس الخاصة وأهل الشورى ، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه ، فعظم عليه التكرير فيها ، فوثق ونكل وامتنح بالعباد بمشهد ذلك الملائم تل إلى محبسه . واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه ، وأفتى بعض الفقهاء فيه ودسّ سليمان بن داود إليه لبعض الأوغاد حاشيته بقتله ، فطرقوا السجن ليلاً ومعهم زعانفة جاؤوا في لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر ، وقتلوه خنقاً في محبسه ، وأخرجوا شلوه من الغد فدفن في مقبرة باب المحروق ، ثم أصبح من الغد على شافة قبره طريحاً وقد جمعت له أعواد واضرمت عليه ناراً ، فاحترق شعره واسودّ بشره ، وأعيد إلى حفرة ، وكان في ذلك انتهاء محبته وعجب الناس من هذه السفاهة التي جاء بها سليمان واعتدوها من هناته ، وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته ، والله الفعال لما يريد وكان عفى الله عنه أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت ، فيتجيش هو ألقه بالشعريكي نفسه (ومما قال في ذلك) :

بَعُدْنَا وَإِنْ جَاوَرَتْنَا الْبُيُوتُ وَجُنَّاسًا بَوَّعُظٍ^(٢) وَنَحْنُ صُمُوتُ
وَأَنْفَاسُنَا سَكَنَتْ دَفْعَةً كَجَهْرِ الصَّلَاتِ تَلَاهُ الْقُنُوتُ

(١) وفي نسخة ثانية : يائساً .

(٢) وفي نسخة ثانية : لوعد .

وَكُنَّا عِظَاماً فَصِرْنَا عِظَاماً
وَكُنَّا شُمُوسَ سَاءِ الْعُلَا
فَكَمْ جَزَلَتْ ذَا الْحُسَامِ الطُّبَا
وَكَمْ سَيَقَ لِلْقَبْرِ فِي خِرْقَةٍ
فَقُلْ لِلْعِيدِ ذَهَبَ ابْنُ الْخَطِيبِ
فَمَنْ كَانَ يَفْرَحُ مِنْكُمْ لَهُ
وَكُنَّا نَقُوتُ فَهَذَا نَحْنُ قُوتُ
عَزِينَ فَنَاحَتْ عَلَيْهَا الْبُيُوتُ (١)
وَذُو الْبَحْثِ كَمْ جَدَلْتَهُ التُّخُوتُ (٢)
فَتَى مُلِئْتُ مِنْ كِسَاهُ التُّخُوتِ
وَفَاتَ وَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَفُوتُ
فَقُلْ يَفْرَحُ الْيَوْمَ مَنْ لَا يَمُوتُ

* (الخبر عن اجازة سليمان بن داود الأندلس ومقامه إلى أن
هلك بها) *

كان سليمان بن داود هذا منذ غزته الخطوب واختلفت عليه النكبات (٣) يروم الفرار
بنفسه إلى الأندلس للمقامة مع غزاة المجاهدين من قومه . ولما استقر السلطان ابن
الأحمر بفاس عند خلعه ووفادته على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعائة
وداخله سليمان بن داود في تأميل الكون عنده ، فعاهده على ذلك وأن يقدمه على
الغزاة المجاهدين من قومه . ولما عاد إلى ملكه وقد عليه سليمان بن داود بغرناطة في
سبيل السفارة عن عمر بن عبد الله سنة ست وستين وسبعائة وأن يؤكد عقده من
السلطان ، فحال دون ذلك ابن الخطيب ومارى (٤) السلطان عن ذلك بأن شياخة
الغزاة مخصوصة بأعياص الملك من بني عبد الحق لمكان عصابتهم بالأندلس ، فأخفق
أمل سليمان حينئذ وحققها على ابن الخطيب ورجع إلى مرسله ، ثم كانت نكبته أيام
السلطان عبد العزيز فلم يخلص منها إلا بعد مهلكه ، أطلقه أبو بكر بن غازي المستبد
بالأمر من بعده ، ليعتضد بمكانه على شأنه . فلما استبد الحصار على ابن غازي خرج
عنه سليمان ولحق بالسلطان أبي العباس ابن المولى أبي سالم بمكانه من ظاهر البلد

(١) وفي نسخة ثانية : زغر بن فباحث علينا السموت .

(٢) وفي نسخة ثانية :

فكم جدلس ذا الحسام الطبا وذو البخت لم خذلتته البخوت

(٣) وفي نسخة ثانية : النكبات .

(٤) وفي نسخة أخرى : وثى رأي السلطان .

الجديد ، فكان ذلك من أسباب الفتح ، ولما دخل السلطان إلى دار ملكه من البلد الجديد فاتح سنة ست وستين وسبعائة واستوسق أمره ، رفع مجلس سليمان وأحلّه محل الشورى ، واعتضد به وزيره محمد بن عثمان واستخلصه كما ذكرناه . وكان يرجع إلى رأيه وهو في خلال ذلك يحاول اللحاق بالأندلس ، فكان من أول عمله التقرب إلى السلطان ابن الأحمر باغراء الوزير محمد بن عثمان بقتل ابن الوزير مسنويه^(١) ، فتمّ ذلك لأول الدولة . وجرت الأمور بعدها على الاعتمال في مرضاته إلى أن حاول السفارة إليه في أغراض سلطانه ، سنة ثمان وستين وسبعائة في صحابة ونزمار بن عريف ، فتلقّاهما السلطان ابن الأحمر بما يتلقّى به أمثاله وأغرب في تكريمها . وأما ونزمار فأنقلب راجعاً لأول تأدية الرسالة ، يتقاضى من السلطان حظّه لقواد أسطوله بتسهيل الإجازة إليه متى رامها . وخرج يتصيد فلحق بمرسى مالقة ودفع أمر السلطان بخطه ، إلى قائد الأسطول ، فأجازه إلى سبته ولحق بمكانه . وأما سليمان فاعتزم على المقام عند ابن الأحمر وأقام هنالك خالصةً ونجياً ومشاوراً ، إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين وسبعائة .

الخبر عن شأن الوزير أبي بكر بن غازي وما كان من تغريبه إلى مايرقة ثم رجوعه وانتقاضه بعد ذلك

لما اشتدّ الحصار بالوزير أبي بكر بن غازي وفنيت أمواله وأموال السلطان ، وظنّ أنه أحيط به ، داخله الوزير محمد بن عثمان من مكانهم بحصاره في التزول عن البلد على الأمان والابقاء فأجاب وخرج إلى السلطان أبي العباس بن أبي سالم ، فعقد له أماناً بخطه ، وتحوّل إلى داره بفاس وأسلم سلطانه المنصوب للأمر ، فسلمه منه الوزير محمد بن عثمان ، واشتدّ في الاحتياط عليه إلى أن بعثه إلى السلطان ابن الأحمر ، فكان في جملة الأبناء عنده ، ودخل السلطان أبو العباس إلى دار ملكه واقتعد سريره ونفذت في الممالك أوامره . وأقام أبو بكر بن غازي على حاله بداره والخاصة بياكرونة والنفوس منطوية على تأميله ، فغصّ به أهل الدولة وتردّدت فيه

(١) وفي نسخة ثانية : بقتل ابن الخطيب مشنوته .

السعاية ، وتقبّض عليه السلطان وأشخصه إلى غسّاسة ، وركب منها السفين إلى ميورقة آخر ست وسبعين وسبعائة فأقام بها شهراً ومخاطباته مترددة إلى الوزير محمد بن عثمان . ثم عطفته عليه رحم ، فأذن له في القدوم ، إلى المغرب والمقامة بغسّاسة فقدمها أوائل سنة سبع وسبعين وسبعائة واستبدّ بامارتها . وبدا له رأي في تأميل الوثبة^(١) وظهر ما كان يخفيه لابن عمّه من المنافسة ، فخطب ابن الأحمر وراء البحر ولاطفه بالتحف والهدايا ، فكتب إلى ابن عمّه محمد بن عثمان يحضّه على إعادته إلى مكانه دفعاً لغوائله ، فأبى من ذلك ، وداخله ونزمار بن عريف في بعضها كذلك ، فلح في الامتناع وحمل سلطانه على نبذ العهد لأبي بكر بن غازي ، فتنكر له وأجمع المسير إليه بعساكر العرب ، فخرج من فاس سنة تسع وسبعين وسبعائة وبلغ الخبر إلى أبي بكر بن غازي فاستجاش بالعرب وأحثهم للوصول ، فوصل إليه الأحلاف من المعقل ، وسرّب فيهم أمواله ، وخرج من غسّاسة فألقى بينهم نفسه ، وعمد إلى بعض العرب الطارئين فنصّبه للأمر مشبّها ببعض أبناء السلطان أبي الحسن . وزحف إليه السلطان حتى نزل بتازي ، فأجفلت أحياء العرب أمام العساكر من بني مرين والجنّد ، ونجا ابن غازي معهم بدماثة . ثم داخله ونزمار بن عريف في الاذعان للسلطان عن شق الخلاف ، فأجاب ووصل به إلى سدّة الملك ، فبعث به السلطان محتاطاً عليه إلى فاس فاعتقل بها . ونزلت مقدّمات العساكر بوادي ملوّة ، وداخل صاحب تلمسان منها رعب ، فأوفد على السلطان من قومه وكبار مجلسه ملاطفاً مدارياً ، فتقبّل منه وعقد السلم ، وأصدر به كتابه وعهده بخطّه ، وانكفاً راجعاً إلى حضرته بعد أن بثّ العمّال في تلك النواحي على جبايتها ، فجمعوا له منها ما رضي . ولما احتلّ بدار ملكه ، أنفذ أمره بقتل أبي بكر بن غازي فقتل بمحبسه طعنًا بالرماح^(٢) وذهب مثلاً في الأيام ، واستوسق للسلطان أمره . وأحكم العقد مع الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن صاحب مراکش ، وتردّت المهاداة بينهما بعض إلى بعض ، وإلى صاحب الأندلس وإليه منها فامتلات المغرب هدنةً وأمنًا ، وانبعثت الآمال بساطاً وغبطةً والحال متصلة على ذلك لهذا العهد آخر سنة إحدى وثمانين وسبعائة أيام إشرافنا على هذا التأليف ، والله مقدر الليل والنهار .

(١) وفي نسخة ثانية : الرتبة .

(٢) وفي نسخة ثانية : طعنًا بالخناجر .

الخبر عن انتقاض الصلح بين الأمير عبد الرحمن صاحب
مراكش والسلطان أبي العباس صاحب فاس واستيلاء عبد
الرحمن على أزموور ومقتل عاملها حسون بن علي

كان علي بن عمر كبير بني ورتاجن وشيخ بني ويغلان منهم ، قد تحيَّز إلى الأمير عبد
الرحمن منذ إجازته إلى الأندلس واستيلائه على تازي ثم زحفه إلى حصار البلد الجديد
مع السلطان أبي العباس كما مرّ. فوصل في جملته إلى مراكش ، وكان صاحب
شواره وكبير دولته . وكان يظعن على خالد بن ابراهيم الهبرحي شيخ جاجة^(١) من
قبائل المصامدة ما بين مراكش وبلاد السوس ، وقد كان علي بن عمر انتقض على
ابن غازي الوزير المستبدّ بعد السلطان عبد العزيز ، ولحق بالسوس . ومرت بخالد بن
ابراهيم هذا فاعترضه في طريقه وأخذ الكثير من أثقاله ورواحله . وخلص هو إلى
منجاته بالسوس ، وقد حقد ذلك لخالد . ثم حثّ^(٢) شيوخ المعقل عندما أجاز
الأمير عبد الرحمن من الأندلس إلى نواحي تازي يروم اللحاق بهم ، فوفدوا عليه .
وسار معهم إلى أحيائهم وأقام معهم وهو في طاعة الأمير عبد الرحمن ودعوته إلى أن
اتصل به بين يدي حصاره البلد الجديد مع السلطان أبي العباس . فلما فتح السلطان
البلد الجديد أوّل سنة ست وسبعين وسبعائة واستولى على ملكهم بها ، وفصل عبد
الرحمن إلى مراكش كما كان الوفاق بينهم ، وسار علي بن عمر في جملة السلطان عبد
الرحمن إلى مراكش ، واستأذنه في قتل خالد صاحبه ، فلم يأذن له ، فأحفظه ذلك
وطوى عليه ، وبعد أيام صعد جبل وريكة في غرض من أغراض الدولة ، وتقدّم إلى
حافده عامر ابن ابنه محمد بقتل خالد ، فقتله بظاهر مراكش ، ولحق بجده علي بن
عمر بوريقة ، فتلطّف له الأمير عبد الرحمن وراسله بالملاينة والاستعطاف . ثم ركب
إليه بنفسه واستصلحه ونزل به إلى مراكش فأقام معه أياماً . ثم ارتاب ولحق بأزموور
وعاملها يومئذ حسون بن علي الصبيحي فأغراه بالإجلاب على عمل مراكش ،
وزحفوا جميعاً إلى عمل صنهاجة .

(١) وفي نسخة ثانية : المبرازي شيخ حاحه . وفي نسخة أخرى المبرازي .

(٢) وفي نسخة ثانية : ثم بعث ..

وسرح الأمير عبد الرحمن لمداغتهم كبير دولته يومئذ وابن عمه عبد الكريم بن عيسى ابن سليمان بن منصور بن أبي مالك ، وهو عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق ، فخرج في العساكر ومعه منصور مولى الأمير عبد الرحمن ، فلقوا علي بن عمر فهزموه وأخذوا سواده ، ولجأ إلى أزموور . ثم وفد هو وحسّون بن علي إلى السلطان بفاس . ووقعت أثناء ذلك المراسلة بين السلطانين ، وانعقد بينهما الصلح . فأقام علي بن عمر بفاس ورجع حسّون بن علي إلى مكان عمله بأزموور ، ثم انتقض ما بين السلطانين ثانياً . وكان عند الأمير عبد الرحمن أخوان من ولد محمد بن يعقوب بن حسّان الصبيحي وهما علي وأحمد ، جرثومتا بغي وفساد ، وعدا على كبيرهما علي بن يعقوب ابن علي بن حسّان فقتله ، واستعدى أخوه موسى عليه السلطان فأعداه . وأذن له في أن يثأر منه بأخيه فيقتله فخرج لذلك أحمد أخو علي ، وهمّ بقتل موسى ، فاستجار موسى بيعقوب بن موسى بن سيّد الناس كبير بني ونكاسن ، وصهر الأمير عبد الرحمن . وأقام أياماً في جواره ، ثم هرب إلى أزموور فلحقه نار الفتنة . ونهض الأمير عبد الرحمن إلى أزموور فلم يطق حسّان بن علي دفاعه فللكها عليه وقلته واستباحها . وبلغ الخبر إلى السلطان بفاس فهض في عساكره وانتهى إلى سلا . ورجع الأمير عبد الرحمن إلى مراكش ، وسار السلطان في اتباعه حتى نزل بحصن أكلميم من مراكش ، وأقام هنالك نحواً من ثلاثة أشهر والقتال يتردّد بينهم . ثم سعى بين السلطانين في الصلح ، فاصطلحوا على حدود العائلات أولاً ، وانكفأ صاحب فاس إلى عمله وبلده . وبعث الحسن بن يحيى بن حسّون الصنهاجي عاملاً على الثغر بأزموور ، فأقام بها ، وكان أصله من صنهاجة أهل وطن أزموور ، وله سلف في خدمة بني مرين منذ أول دولتهم ، وكان أبوه يحيى في دولة السلطان أبي الحسن عاملاً في الجباية بأزموور وغيرها . وهلك في خدمته بتونس أيام مقام السلطان بها ، وترك ولده يستعمل في مثل ذلك ، ونزع الحسن هذا منهم إلى الجندية فلبس شارتها وتصرّف في الولاية المناسبة لها . واتصل بخدمة السلطان أبي العباس لأوّل بيعته بطنجة . وكان يومئذ عاملاً بالقصر الكبير فدخل في دعوته وصار في جملته ، وشهد معه الفتح واستعمله في خطط السيف ، حتى ولّاه أزموور هذه الولاية فقام بها كما نذكره .

(وَأَمَّا الصُّبَيْحِيُّونَ) فالخبر عن أوليتهم أنّ جدّهم حسّان من قبيلة صبيح من أفريق سويد ، جاء مع عبدالله بن كندوز الكمي من بني عبد الواد حين جاء من تونس ،

وأوفد على السلطان ابن عبد الحق ولقيه كما مرّ . وكان حسّان من رعاة إبله . فلما استقرّ عبد الله بن كندوز بناحية مراکش وأقطعه السلطان يعقوب في أعمالها ، وكان الظهر الذي يحمل عليه السلطان متفرّقاً في سارية المغرب ، فجمعه وجعله لنظر عبد الله بن كندوز ، فجمع له الرعاة وكبيرهم يومئذ حسّان الصُبَيْحِيّ ، فكان يباشر السلطان في شأن ذلك الظهر ويطلعه في مهمّاته ، فحصلت له مداخلة أجلبت إليه الحظ ، حتى ارتفع وكبر . ونشئوا في ظلّ الدولة وعزّها وتصرفوا في الولايات فيها ، وانفردوا بالشاوية فلم تزل ولايتها متوارثة فيهم منقسمة بينهم لهذا العهد إلى ما كانوا يتصرفون فيه من غير ذلك من الولايات ، وكان لحسّان من الولد علي ويعقوب وطلحة وغيرهم ، ومن حسّان هذا تفرّعت شعوبهم في ولده ، وهم لهذا العهد متصرفون في الدولة على ما كان سلفهم من ولاية الشاوية والنظر في راحل السلطان والظهر الذي يحمل من الإبل ، ولهم عدد وكثرة ونباهة في الدولة ، والله أعلم .

الانتقاض الثاني بين صاحب فاس وصاحب مراکش ونهوض صاحب فاس إليه وحصاره ثم عودهما إلى الصلح

لما رجع السلطان إلى فاس على ما استقرّ من الصلح ، طلب الأمير عبد الرحمن أن يدخل عمالة صنهاجة ودكالة في أعماله ، وكتب السلطان إلى الحسن بن يحيى عامل أزموور وتلك العمالة بأن يتوجّه إليه ويسدّ المذاهب في ذلك دونه . وكان الحسن بن يحيى مضطغناً على الدولة ، فلما وصل إليه داخله في الخلاف وأن يملكه تلك العمالة ، فازداد الأمير عبد الرحمن بذلك قوّة على أمره ، وتعلّل على صاحب فاس بأن يكون حدّاً بين الدولتين ووادي أم ربيع . واستمرّ صاحب فاس على الاباية من ذلك ، فنهض الأمير عبد الرحمن من مراکش ، ودخل الحسن بن يحيى في طاعته فملكها ، وبعث مولاه منصوراً في العساكر إلى أنفاه^(١) فاستولى عليها وصادر أعيانها وقاضيا ووالياها وبلغ الخبر إلى السلطان ، فنهض من فاس في عساكره ، وانتهى إلى

(١) وفي نسخة ثانية : أنف . وفي أخرى : أنفى . ذكرها ياقوت في شعر هذيل (لأنف بلد) ولم يحدد موقعها .

سلا ، فهرب منصور من أنفائه وتركها . ولحق بمولاه عبد الرحمن فأجفل من أزمور إلى مراكش ، والسلطان في أثره حتى انتهى إلى قنطرة الوادي ، على غلوة من البلد ، وأقام خمسة أشهر يحاصرها ، واتصل الخبر بالسلطان ابن الأحمر صاحب الأندلس ، فبعث خالسته الوزير أبا القاسم الحكيم الرندي ليعقد الصلح بينها ، فعقده على أن يسترهن السلطان أولاد الأمير عبد الرحمن وحافد أبي الحسن . وانكفاً السلطان راجعاً إلى سلا . ولحق به جماعة من جملة الأمير عبد الرحمن من بني مرين وغيرهم ، نزعوا عنه ، وكان محمد بن يعقوب الصبحي لقي في طريقه مولى الأمير عبد الرحمن ، جاء به مكرهاً إلى السلطان . وكان من النازعين أيضاً يعقوب بن موسى بن سيّد الناس كبير بني ونكاسن ، وأبوبكر بن رحو بن الحسن بن علي بن أبي الطلاق ، ومحمد بن مسعود الإدريسي وزيان بن عمر بن علي الوطاسي وغيرهم من المشاهير . وقدموا على السلطان بسلا فتقبلهم وأحسن كرامتهم ، ورحل راجعاً إلى فاس والله أعلم .

انتقاض علي بن زكريا شيخ الهساكرة على الأمير عبد الرحمن وفتكه بمولاه منصور ومقتل الأمير عبد الرحمن

لما رجع السلطان إلى فاس وبدا من الخلل في دولة الأمير عبد الرحمن وانتقاض الناس عليه ما قدّمناه ، نزع يده من التعويل على العساكر ، وشرع في تحصين البلد . وضرب الأسوار على القصبة وحفر الخنادق وتبين بذلك اختلال أمره . وكان علي بن زكريا شيخ هسكورة وكبير المصامدة وكان في دعوته منذ دخل مراكش فتلافى أمره مع صاحب فاس ، ومدّ إليه يداً من طاعته . ثم انتقض على الأمير عبد الرحمن ودخل في دعوة السلطان ، وبعث إليه الأمير عبد الرحمن مولاه منصوراً يستألفه ، فأرصد إليه في طريقه من حاشيته من قتله ، وبعث برأسه إلى فاس ، فنهض السلطان في عساكره إلى مراكش . واعتصم الأمير عبد الرحمن بالقصبة وقد كان أفرداها عن المدينة بالأسوار . وخندق عليها فملك السلطان المدينة وربّ على القصبة المقاتلة من كل جهة ، ونصب الآلة وأدار عليها من جهة المدينة حائطاً وأقام يحاصرها تسعة^(١)

(١) وفي نسخة ثانية : سبعة أشهر .

أشهر يغاديا القتال ويراوحها . وكان أحمد بن محمد الصبيحي من الذين بوؤا المقاعد لقتالها ، فهم بالانتقاض وحدثته نفسه بغدرة السلطان والتوئب به . وسعى بذلك إلى السلطان ، فتقبض عليه وحبسه . وبعث السلطان بالنفير إلى أعماله ، فتوافت الأمداد من كل ناحية ، وبعث إليه صاحب الأندلس مدداً من العسكر . فلما اشتد القتال والحصار بالأمير عبد الرحمن ونفذت الأقوات ، وأيقن أصحابه بالهلكة ، وأهمتهم أنفسهم . وهرب عنه وزيره محمد بن عمر^(١) شيخ المهاجرة والمصامدة لعهد السلطان أبي الحسن وابنه ، وقد مر ذكره . فلما لحق هذا بالسلطان وعلم أنه إنما جاء مضطراً قبض عليه وحبسه . ثم انفض الناس عن الأمير عبد الرحمن ونزلوا من الأسوار ناجين إلى السلطان . وأصبح في قصبته منفرداً ، وقد بات ليلته يراوض ولديه على الاستماتة وهما : أبو عامر وسليم . وركب السلطان من الغد في التعبية وجاء إلى القصبة فاقتحمها بمقدمته ، ولقيهم الأمير عبد الرحمن وولدها مباشراً إلى الميدان بين أبواب دورهم ، فجالوا معهم جولة قتل فيها ولدها ، تولى قتلهم علي بن إدريس وزيان بن عمر الوطاسي وطال ما كان زيان يمتري يدي نعمهم^(٢) ويحذر ذيله خيلاء في جاههم ، فذهب مثلاً في كفران النعمة وسوء الجزاء . والله لا يظلم مثقال ذرة . وكان ذلك خاتم جهادى الأخيرة سنة أربع وثمانين وسبع مائة لعشر سنين من إمارته على مراکش . ثم رحل السلطان متقبلاً إلى فاس ، وقد استولى على سائر أعمال المغرب ، وظفر بعدوه ودفع النازعين عن ملكه . والله أعلم .

* (اجلاب العرب على المغرب في مغيب السلطان بغرية من ولد أبي علي وأبي تاشفين بن أبي حمو صاحب تلمسان ومحبي أبي حمو على أثرهم) *

كان أولاد حسين من عرب المعقل مخالفين على السلطان من قبل مسيره إلى مراکش . وكان شيخهم يوسف بن علي بن غانم قد حدثت بينه وبين الوزير القائم على الدولة

(٢) وفي نسخة ثانية : فهرب عنه وزيره نجو بن العلم من بقية بيت محمد بن عمر . وفي نسخة أخرى نجو .

(٣) وفي نسخة ثانية : كان يمتري ثدي نعمتهم .

محمد بن عثمان منافرة وفتنة . وبعث العساكر إلى سجلماسة ، فخرّب ما كان له بها من العقار والأملاك . وأقام منتقضاً بالقفر . فلما حاصر السلطان الأمير عبد الرحمن بمراكش وأخذ بمخنقه أرسل أبا العشائر ابن عمّه منصور إلى يوسف بن علي وقومه ، ليجلبوا به على المغرب ويأخذوا بحجزة السلطان عن حصاره ، فسار لذلك . ولما قدم على يوسف سار به إلى تلمسان مستجيشاً بالسلطان أبي حمّو لذلك القصد ، لما كان بينه وبين الأمير عبد الرحمن من العهد على ذلك . فبعث أبو حمّو معهم ابنه أبا تاشفين في بعض عساكره ، وسار في الباقيين على أثرهم . وسار أبو تاشفين وأبو العشائر إلى أحياء العرب ، فدخلوا إلى أحواز مكناسة وعاثوا فيها . وكان السلطان عند سفره إلى مراكش استخلف على دار ملكه بفاس علي بن مهدي العسكري في جماعة من الجند . واستنجد بونزمار بن عريف شيخ سويد وولي الدولة المقيم بأحياء ملوّة ، فحالف بين عرب المعقل واستألف منهم العارنة والمنبات وهم الأحلاف . واجتمع مع علي بن مهدي ، وساروا لمداغة العدو بنواحي مكناسة ، فصعدوهم عن مرامهم ومنعوهم من دخول البلاد فأقاموا متواقفين أياماً . وقصد أبو حمّو في عسكره مدينة تازي وحاصرها سبعا ، وخرّب قصر الملك هنالك ومسجده المعروف بقصر تازورت . وبينما هم على ذلك بلغ الخبر اليقين بفتح مراكش وقتل الأمير عبد الرحمن ، فأجفلوا من كل ناحية . وخرج أولاد حسين وأبو العشائر وأبو تاشفين والعرب الأحلاف في اتباعهم ، وأجفل أبو حمّو عن تازي راجعاً إلى تلمسان ومرّ بقصر ونزمار في نواحي بطوية المسمى بمراة ، هدمه ووصل السلطان إلى فاس وقد تمّ له الظهور والفتح إلى أن كان ما ذكره إن شاء الله تعالى .

* (نهوض السلطان الى تلمسان وفتحها وتخريبها) *

كان السلطان لما بلغه ما فعل العرب وأبو حمّو بالمغرب لم يشغله ذلك عن شأنه ، ونقم على أبي حمّو ما أتاه من ذلك ، وأنه نقص عهده من غير داع إلى النقص . فلما احتلّ بدار ملكه بفاس أراح أياماً ، ثم أجمع النهوض إلى تلمسان . وخرج في عساكره على عادتهم وانتهى إلى تاوريرت . وبلغ الخبر إلى أبي حمّو ، فاضطرب أمره واعترم على الحصار ، وجمع أهل البلد عليه واستعدّوا له . ثم خرج في بعض

تلك الليالي بولده وأهله وخاصته ، وأصبح محيماً بالصفصيف^(١) وانفض أهل البلد إليه بعضهم بعياله وولده مستمسكين به ، متفادين من معرة هجوم العساكر فلم يره ذلك عن قصده ، وارتحل ذاهباً إلى البطحاء . ثم قصد بلاد مغراوة فترل في بني بو سعيد قريباً من شلف ، وأنزل أولاده الأصاغر وأهله بحصن تاحجوموت . وجاء السلطان إلى تلمسان فلكها واستقر فيها أياماً . ثم هدم أسوارها وقصور الملك بها ، ياغراء وليه ونزمار جزاء بما فعله أبو حمّو في تخريب قصر تازروت وحصن مرادة . ثم خرج من تلمسان في اتباع أبي حمّو ، ونزل على مرحلة منها . وبلغه الخبر هنالك بإجازة السلطان موسى ابن عمّه أبي عنان من الأندلس إلى المغرب وأنه خالفه إلى دار الملك ، فانكفاً راجعاً وأغذّ السير إلى المغرب كما نذكر . ورجع أبو حمّو إلى تلمسان واستقر في ملكه بها ، كما ذكرناه في أخباره .

إجازة السلطان موسى ابن السلطان أبي عنان من الأندلس الى المغرب واستيلائه على الملك وظفره بابن عمه السلطان أبي العباس وازعاجه الى الأندلس) *

قد تقدم أنّ السلطان محمد بن الأحمر المخلوع ، كان له تحكّم في دولة السلطان أبي العباس بن أبي سالم صاحب المغرب بما كان من إشارته على محمد بن عثمان ببيعته وهو معتقل بطنجة ، ثم بما أمده من مدد العساكر والأموال ، حتى أمره واستولى على البلد الحديد كما قدّمناه في أول خبره . ثم بما كان له من الزبون عليهم بالقرابة المرشّحين الذين كانوا معتقلين بطنجة مع السلطان أبي العباس من أسباط السلطان أبي الحسن من ولد أبي عنان وأبي سالم والفضل وأبي عامر وأبي عبد الرحمن وغيرهم . وكانوا متعاهدين في معتقلهم أنّ من أتاح الله له الملك منهم يخرجهم من الاعتقال ويحيزهم إلى الأندلس . فلما بوع السلطان أبو العباس وقى لهم بهذا العهد وأجازهم إلى الأندلس ، فترلوا على السلطان ابن الأحمر أكرم نزل ، أنزلهم بقصور ملكه بالحمراء وقرب لهم المراكب ، وأفاض عليهم العطاء ووسّع لهم الجرايات والأرزاق . وأقاموا

(١) وفي نسخة ثانية : بالصفصيف .

هنالك في ظلّ ظليل من كنفه فكان لهم به وثوب على ملك المغرب وكان الوزير القائم بها محمد بن عثمان يقدر له قدر ذلك كله فيجري في أغراضه وقصوده ويحكمه في الدولة ما شاء أن يحكمه ، حتى توجهت الوجوه إلى ابن الأحمر وراء البحر من أشياخ بني مرين والعرب ، وأصبح المغرب كأنه من بعض أعمال الأندلس . ولما نهض السلطان إلى تلمسان خاطبوه وأوصوه بالمغرب ، وترك محمد بن عثمان بدار الملك كاتبه محمد بن الحسن ، كان مصطنعاً عنده من بقیة شیع الموحّدين ببجاية ، فاخصّصه ورقاه واستخلفه في سفره هذا على دار الملك . فلما انتهوا إلى تلمسان وحصل له من الفتح ما حصل ، كتبوا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر مع شيطان من ذرية عبّو بن قاسم المرواني^(١) كان بدارهم وهو عبد الواحد بن محمد بن عبّو كان يسمو بنفسه إلى العظائم التي ليس لها بأهل ويتربّص لذلك بالدولة . وكان ابن الأحمر مع كثرة تحكمه فيهم يتنحّى لهم بعض الأوقات بما يأتونه من تقصير في شفاعاة أو مخالفة في الأمر لا يجدون عنها وليجة ، فيصطنع^(٢) لهم ذلك . فلما قدم عليه عبد الواحد هذا بخبر الفتح وقصّ عليه القصص ، دسّ له أن أهل الدولة مضطربون على سلطانهم ومستبدلون به لو وجدوا ، وبلغ من ذلك ما حمل وما لم يحمل . وأشار له بجلاء المغرب من الحامية جملة وأن دار الملك ليس بها إلا كاتب حضري لا يحسن المدافعة ، وهو أعرف به ، فانتهاز الفرصة ابن الأحمر وجهّز موسى ابن السلطان أبي عنان من الأسباط المقيمين عنده . واستوزر له مسعود بن رحو بن ماسي من طبقات الوزراء من بني مرين ومن بني قودر من أحلافهم . وله في ذلك سلف وقد كان بعثه من قبل وزيراً للأمير عبد الرحمن بن أبي يفلسن حين أجاز إلى المغرب أيام استبداد أبي بكر بن غازي . فلم يزل معه حتى كان حصار البلد الجديد واستيلاء السلطان أبي العباس عليها . وذهب عبد الرحمن إلى مراکش فاستأذنه مسعود في الإنصراف إلى الأندلس ، فأذن له ورجع عنه إلى فاس . ثم فارقها وأجاز إلى الأندلس متودّعاً ومتودّداً للكل ومعولاً على ابن الأحمر ، فتلقاه بالقبول وأوسع له النزول والجرابة وخلطه بنفسه وأحضره مع ندمائه . ولم يزل كذلك إلى أن جهّزه وزيراً إلى المغرب مع السلطان أبي عنان وبعث معها عسكرياً . ثم ركب السفين إلى سبتة وكانت بينه وبين

(١) وفي نسخة ثانية : المزوار .

(٢) فيصطنع : كذا في النسخة المصرية .

شرفاتها ورؤساء الشورى بها مداخلة ، فقاموا بدعوة السلطان موسى وأدخلوه وقبضوا على عاملها رحو بن الزعيم المكدوني^(١) وجاؤا به إلى السلطان فلكها غرة صفر من سنة ست وثمانين وسبعائة وسلمها إلى ابن الأحمر ، فدخلت في طاعته . وسار هو إلى فاس ، فوصلها لأيام قريبة ، وأحاط بدار الملك ، واجتمع عليه الفوغاء ، ونزل الدهش بمحمد بن الحسن فبادر بطاعته . ودخل السلطان إلى دار الملك ، وقبض عليه لوقته ، وذلك في عشر ربيع الأول من السنة . وجاء الناس بطاعته من كل جانب ، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي العباس بمكانه من نواحي تلمسان بأن السلطان موسى قد نزل بسبته ، فجهّز عليّ بن منصور وترجمان الجند وجند النصارى ببابه مع طائفة منهم . وبعثهم حامية لدار الملك فانتهوا إلى تازى وبلغهم خبر فتحها فأقاموا هنالك . وأغدّ السلطان أبو العباس السير إلى فاس ، فلقاهم خبر فتحها بتاوريرت ، فتقدّم إلى ملوية وتردّد في رأيه بين المسير إلى سجلماسة مع العرب أو قصد المغرب . ثم استمرّ عزمه ، ونزل بتازى وأقام فيها أربعاً ، وتقدّم إلى الركن ، وأهل دولته خلال ذلك يخوضون في الانتقال عليه تسلاً إلى ابن عمّه السلطان موسى المتولي على فاس ، ويوم أصبح من الركن أرجفوا به . ثم انتقضوا عليه طوائف قاصدين فاس ، ورجع هو إلى تازى بعد أن انتهب معسكره وأضرمت النار في خيامه وخزائنه . ثم أصبح بتازى من ليلته فدخلها ، وعاملها يومئذ الخيّر من موالي السلطان أبي الحسن . وذهب محمد بن عثمان إلى وليّ الدولة ونزار بن عريف وأمراء المغرب من المعقل . ولما دخل السلطان أبو العباس إلى تازى كتب إلى ابن عمّه السلطان موسى يذكره العهد بينهما ، وقد كان السلطان ابن الأحمر عهد إليه أن يبعث به إليه إن ظفر به ، فبادر السلطان موسى باستدعائه مع جماعة من وجوه بني عسكر ، أهل تلك الناحية ، وهم زكريا بن يحيى بن سليمان ومحمد بن داود بن أعراب^(٢) ، ومعهم العباس بن عمر الوساني فجاؤا به وأنزلوه بالزاوية بغدير الحمص بظاهر فاس ، فقيّد هنالك ثم بعثه إلى الأندلس موكلاً به مع عمر بن رحو أخى الوزير مسعود بن ماسي . واستصحب ابنه أبا فارس وترك سائرهم بفاس واجاز البحر من سبته فأنزله السلطان ابن الأحمر بقلعة ملكه الحمراء ، وفكّ قيوده ووكل به ، ووسّع له في الجراية فأقام هنالك

(١) وفي نسخة أخرى : المكدودي .

(٢) وفي النسخة المصرية : بن عراب .

* (نكبة الوزير محمد بن عثمان ومقتله) *

أصل هذا الوزير محمد بن الكاس^(١) إحدى بطون بني ورتاجن ، وكان بنو عبد الحق عندما تأثّلوا ملكهم بالمغرب يستعملون منهم في الوزارة . ورتّما وقعت بينهم هنالك وبين بني إدريس وبني عبد الله منافسة ، قتلوا فيها بعض بني الكاس منهم في دولة السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن . ثم استوزره السلطان أبو الحسن بعد مهلك وزيره يحيى بن طلحة ابن محلى بمكانه من حصار تلمسان ، وقام بوزارته أياماً^(٢) ، وحضر معه وقعة طريف سنة إحدى وأربعين وسبعائة من هذه المائة ، واستشهد فيها ، ونشأ ابنه أبو بكر في ظلّ الدولة ممتعاً بحسن الكفالة وسعة الرزق ، وكانت أمّه أم ولد ، وخلفه عليها ابن عمه محمد بن عثمان هذا الوزير ، فنشأ أبو بكر في حجره . وكان أعلى رتبة منه بأولية أبيه وسلفه ، حتى اذا بلغ أشده واستوى سمى به الحال^(٣) ، وجال أمصار^(٤) الملوك في اختياره وترشيحه ، حتى استوزره السلطان عبد العزيز كما قلناه . وقام بوزارته أحسن قيام ، وأصبح محد بن عثمان هذا رديفه . وهلك السلطان عبد العزيز فنصب أبو بكر ابنه السعيد للملك صبيّاً لم يثغر ، وكان من انتقاض أمره وحصاره بالبلد الجديد واستيلاء السلطان أبي العباس عليه ما قدّمناه ، قام محمد بن عثمان بوزارة السلطان أبي العباس مستبداً عليه . ودفع إليه أمور ملكه ، وشغل بلذاته ، فقام محمد بن عثمان بوزارة السلطان أبي العباس من أمور الدولة ما عاناه حتى كان من استيلاء السلطان موسى على دار ملكهم ما مرّ . وانفضّ بنو مرين عنه للسلطان أبي العباس كما ذكرناه ، ورجع إلى تازى ، فدخلها السلطان أبو العباس وفارقهم محمد بن عثمان إلى وليّ الدولة ونزمار بن عريف وهو مقيم بتازى ، وتذمّم له فتحجّم له ونزمار وأعرض عنه ، فسار معذّاً إلى أحياء المنيات من

(١) وفي النسخة المصرية : أصل هذا الوزير من بني الكاس .

(٢) وفي النسخة المصرية : أعواماً .

(٣) وفي النسخة المصرية : الخلال .

(٤) وفي النسخة المصرية : وجات ابصار .

عرب المعقل . كانوا هنالك قبله تازى لدمّة صحابة كانت بينه وبين شيخهم أحمد ابن عبّو فترل عليه متذمّماً به ، فخادعه وبعث بخبره إلى السلطان ، فجهّز إليه عسكرياً مع المزوار عبد الواحد بن محمد بن عبّو بن قاسم بن ورزوق بن بومريط والحسن العوفي^(١) من الموالي فتبرّأ منه العرب وأسلموه إليه ، فجاؤا به وأشهروه يوم دخوله إلى فاس . واعتقل أياماً وامتنحن في سبيل المصادرة ثم استصفى . ثم قتل ذبحاً بحبسه ، والله وارث الأرض ومن عليها .

الخبر عن خروج الحسن بن الناصر بغماره ونهوض الوزير ابن ماسي اليه بالعساكر

لما استقل السلطان موسى بملك المغرب وقام مسعود بن ماسي بوزارته مستبدّاً عليه ، وكان من تغريبهم السلطان أبا العبّاس إلى الأندلس وقتلهم^(٢) وزيره محمد بن عثمان وافترق أشباع الوزير محمد بن عثمان وقرابته وبطانته ، فطلبوا بطن الأرض ولحق منهم ابن أخيه العبّاس بن المقداد بتونس ، فوجد هنالك الحسن بن الناصر ابن السلطان أبي علي قد لحق بها من مقرّه بالأندلس في سبيل طلب الملك فثاب له رأي في الرجوع به إلى المغرب لطلب الأمر هنالك ، فخرج به من تونس وقطع المفاوز والمشاق إلى أن انتهى إلى جبل غماره ، ونزل على أهل الصفيحة منهم ، فأكرموا مثواه وتلقّيه ، وأعلنوا بالقيام بدعوته . واستوزر العبّاس بن المقداد . وبلغ الخبر إلى مسعود ابن ماسي فجهّز العساكر مع أخيه مهدي بن ماسي ، فحاصره بجبل الصفيحة أياماً ، وامتنع عليهم ، فتجهّز الوزير مسعود بن ماسي بالعساكر من دار الملك وسار لحصاره . ثم رجع من طريقه لِمَا بلغه من وفاة السلطان بعده ، والله أعلم .

* (وفاة السلطان موسى والبيعة للمتصر ابن السلطان أبي العبّاس) *

كان السلطان موسى لما استقل بملك المغرب استنكف من استبداد ابن ماسي عليه

(١) وفي النسخة المصرية : بن ورزوق بن توقريط والحسن اوافو من الموالي .

(٢) وفي النسخة المصرية : وتكبيهم .

وداخل بطانته في الفتك به . وأكثر ما كان يفاوض في ذلك كاتبه وخالصته محمد ابن كاتب أبيه ، وخالصته محمد بن أبي عمر . وكان للسلطان موسى ندمان يطلعهم على الكثير من أموره منهم العباس بن عمر بن عثمان الوسائي ، وكان الوزير مسعود بن ماسي قد خلف أبا عمر على أمته وربى في حجره ، فكان يدلي إليه بذلك ، وينهي إليه ما يدور في مجلس السلطان في شأنه . فحصلت للوزير بذلك نفرة طلب لأجلها البعد عن السلطان . وبادر للخروج لمداغمة الحسن القائم بغارة . واستخلف على دار الملك أخاه يعيش بن رحو بن ماسي . فلما انتهى إلى القصر الكبير لحقه الخبر ب وفاة السلطان موسى ، وكانت وفاته في جمادي الآخرة طرقة المرض فهلك ليوم وليلة لثلاث سنين من خلافته . وكان الناس يرمون يعيش أخا الوزير بأنه سمّه ، وبادر يعيش فنصب ابن عمّه للملك ، وهو المنتصر ابن السلطان أبي العباس ، وانكفاً راجعاً لوزير مسعود من القصر ، وقتل السبيع محمد بن موسى من طبقة الوزراء ، وقد مر ذكره وذكر قومه ، وكان اعتقاله أيام السلطان موسى فقتله بعد وفاته . واستمرت أمور الدولة في استقلاله والله أعلم .

* (إجازة الواثق محمد بن أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن من الأندلس والبيعة له) *

كان الوزير مسعود بن ماسي لما استوحش من السلطان موسى بعث ابنه يحيى وعبد الواحد المزوار إلى السلطان ابن الأحمر يسأل منه إعادة السلطان أبي العباس إلى ملكه فأخرجه ابن الأحمر من الاعتقال وجاء به إلى جبل الفتح يروم إجازته إلى العدو . فلما توفي السلطان موسى بدا للوزير مسعود في أمره ، ودس للسلطان ابن الأحمر في رده ، وأن يبعث إليه بالواثق محمد بن أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن من القرابة المقيمين عنده . ورآه أليق بالاستبداد والحجر ، فأسعفه ابن الأحمر في ذلك ، ورد السلطان أحمد إلى مكانه بالحمراء ، وجاء بالواثق فحضر بجبل الفتح عنده ، وفي خلال ذلك وصل جماعة من أهل الدولة وانتقضوا على الوزير مسعود ، ولحقوا بسبته ، وأجازوا إلى السلطان ابن الأحمر وهم يعيش بن علي بن فارس الياباني

وسَيّور بن يحيى بن عمر الونكاسني وأحمد بن محمد الصُّبيحيّ ، فوفد^(١) إليهم
الواثق ، ورجعوا به إلى المغرب على أنّهم في خدمة الوزير ، حتى اذا انتهوا إلى جبل
زrehon المطل على مكناسة أظهروا الخلاف على الوزير وصعدوا الى قبائل زrehon
واعتصموا بجبلهم . ولحق بهم من كان على مثل دينهم من الخلاف على ابن ماسي
وصاروا معهم يدا مثل طلحة بن الزبير الورتاجني وسَيّور بن يحياتن بن عمر الونكاسني
ومحمد التونسي من بني أبي الطلاق وفارح بن مهدي من معلوجي السلطان ، وأصله
من موالي بني زيان ملوك تلمسان .

وكان أحمد بن محمد الصبيحي حين جاء مع الواثق قد استطال على أصحابه وأصهر
الاستبداد بما كان من طائفة الجند المستخدمين ، فغصّ به أهل الدولة وتبرؤا منه
للسلطان الواثق ، فأظهر لهم البراءة منه ، فوثبوا به وقتلوه عند خيمة السلطان ، وتولّى
كبر ذلك يعيش بن علي بن فارس الياياني كبير بني مرين ، فذهب مثلاً في الغابرين ،
ولم تبك عليه سماء ولا أرض . وكان رزوق بن بوفريط من موالي بني علي بن زيان
من شيوخ بني ونكاسن من أعيان الدولة ومقدّمي الجند ، قد انتقض على الدولة أيام
السلطان موسى ولحق بأحياء أولاد حسين من عرب المعقل المخالفين منذ أيام السلطان
موسى . ونزل على شيخهم يوسف بن علي بن غانم لدمّة صحابة بينهما من جوارهم
في المواطن . وكان معه في ذلك محمد بن يوسف بن علاّ ، كان أبوه يوسف من
صنائع السلطان أبي الحسن ، ونشأة دولته استوحشا من الوزير ، فلحقا بالعرب^(٢)
فلما جاء هذا السلطان الواثق قدما عليه ، فلقبهما بالكرمة وأحلّهما في مقامهما من
الدولة ، وخرج الوزير مسعود بن ماسي في العساكر ، ونزل قبائلهم بجبل مغيلة
وقاتلهم هنالك أياماً وداخل الذين مع الواثق واستألمهم . وبعث عسكرياً إلى مكناسة
فحاصروها ، وكان بها يومئذ عبد الحق بن الحسن بن يوسف الورتاجني ، فاستنفر له
منها وملكها ، وتردّدت المراسلات بينه وبين الواثق وأصحابه على أن ينصبّوه للأمر .
ويبعث بالمنتصر المنصوب عنده إلى أبيه السلطان أبي العباس بالأندلس وانعقد الأمر
بينهم على ذلك . وسار الواثق في أصحابه إلى الوزير ابن ماسي فترل عليه . ومضى
يعيش بن علي بن فارس عنهم ذاهباً لوجهه . وسار الوزير بالواثق إلى دار الملك ،

(١) وفي نسخة ثانية : فدفع .

(٢) وفي النسخة المصرية : بالمغرب .

فبايعه في شوال سنة ثمان وثمانين وسبعائه بعد أن اشترط عليه لنفسه وأصحابه ما شاء . وأجاز سلطانه المنتصر إلى أبيه السلطان أبي العباس بالأندلس وقبض على جماعة ممن كان مع الوراق مثل المزوار عبد الواحد ، وقتله ، وعلى فارح بن مهدي وحبسه ، وعلى الخير مولى الأمير عبد الرحمن وامتنحه ، وعلى آخرين سواهم . ثم قبض على جماعة من بطانة السلطان موسى كانوا يداخلونه في القبض والفتك به ، فحبسهم وقتل بعضهم . وعلى جند الأندلس الذين جاؤا مدداً للوراق ، وعلى قوادهم من معلوجي ابن الأحمر فأودعهم السجن . ثم تقبض على كاتب السلطان موسى بن أبي الفضل بن أبي عمر مرجعه من السفارة عن سلطانه إلى الأندلس ، فاعتقله وصادره . ثم خلّى سبيله . ثم بعث إلى الحسن بن الناصر الثائر بجبل الصفيحة من غمارة مع إدريس بن موسى بن يوسف الياباني ، فخادعه باستدعائه للملك والبيعة له ، فخدعه واستترله وجاء به فاعتقله أياماً . ثم أجازته للأندلس ، واستقرّ الأمر على ذلك ، والله أعلم .

الفتنة بين الوزير ابن ماسي وبين السلطان ابن الأحمر واجازة السلطان أبي العباس إلى سبتة لطلب ملكه واستيلاؤه عليها

لما بلغ الوزير ابن ماسي للوراق ورأى أنه قد استقلّ بالدولة ودفع عنها الشواغب ، وصرف نظره إلى ما قرط من أعمال الدولة ، وافتتح أمره بسبتة . وقد كان السلطان موسى لأول إجازته أعطاها لابن الأحمر كما مرّ . فبعث إليه الآن الوزير ابن ماسي في ارتجاعها منه على سبيل الملاطفة ، فاستشاط لها ابن الأحمر ولجّ في الردّ ، فنشأت الفتنة لذلك ، وجهّز ابن ماسي العساكر لحصار سبتة مع العباس بن عمر بن عثمان الوسناني ويحيى بن علاّ بن أمّصمّود ، والرئيس محمد بن أحمد الأبكم من بني الأحمر . ثم من بيت السلطان الشيخ فاتح أمرهم ومهمّد دولتهم ، وراسل السلطان إشبيلية والجلالقة من بني أدفونش وراء البحر ، بأن يبعث إليهم ابن عمّ السلطان ابن الأحمر محمد بن اسمعيل مع الرئيس الأبكم ليحبّلا من ناحيته على الأندلس . وجاءت عساكر الوزير إلى سبتة فحاصروها ودخلوها عنوة . واعتصم حامية الأندلس الذين كانوا بها بالقصبة ، واتصلت الجولة بين الفريقين وسط البلد ، وأوفد

أهل القصبة النيران بالحبل علامة على أمرهم ليراها ابن الأحمر . وكان مقيماً بالقة ، فبادر بتجهيز الأسطول مشحوناً بالمقاتلة مدداً لهم . ثم استدعى السلطان أبو العباس من مكانه بالحمرء ، وأركبه السفين إلى القصبة في غرة صفر سنة تسع وثمانين وسبعمائة وأشرف عليهم من الغد وناداهم من السور يدعوهم إلى طاعته . فلما رآوه اضطربوا وافترقوا وخرج إليهم ، فنهب سوادهم ودخلوا في طاعته متسايلين ، ورجع جمهور العسكر ومقدموهم إلى طنجة واستولى السلطان على مدينة سبتة . وبعث إليه ابن الأحمر بالتزول عنها ، وردّها إليه فاستقرت في ملكه وكملت بها بيعته ، وكان يوليه أمر الأضياف الواردين والله تعالى أعلم .

مسير السلطان أبي العباس من سبتة لطلب ملكه بفاس ونهوض ابن ماسي لدفاعه ورجوعه منهزماً

ولما استولى السلطان أبو العباس على سبتة وتمّ له ملكها ، واعتزم على المسير لطلب ملكه بفاس ، وأغراه ابن الأحمر بذلك ووعدّه بالمدد لما كان من مداخله ابن ماسي لجماعة من بطانته في أن يقتلوه ويملكوا الرئيس الأبيكم يقال : إنّ الذي داخله في ذلك من بطانة ابن الأحمر يوسف بن مسعود البكشي ، ومحمد ابن الوزير أبي القاسم بن الحكيم الرندي وشعر بهم السلطان ابن الأحمر وهو يومئذ على جبل الفتح يطالع أمور السلطان أبي العباس ، فقتلهم جميعاً وإخوانهم . ويقال : إنّ ذلك كان بسعاية القائم على دولته مولاه خالد ، كان يفصّ بهم ويعاديهم ، فأخفى عليهم هذه ^(١) . وتمت سعايته بهم ، فاستشاط ابن الأحمر غضباً على ابن ماسي ، وبعث إلى السلطان أبي العباس يستنفره للرحلة إلى طلب ملكه ، فاستخلف على سبتة رحو ابن الزعيم المكرودي عاملها من قبل كما مرّ وسار إلى طنجة وعاملها من قبل الواثق صالح بن رحو الياباني ومعه بها الرئيس الأبيكم من قبل العساكر ، فحاصرها أياماً وامتنعت عليه فجمّر عنهم الكتائب وسار عنها إلى أصيلا ، فدخلت في دعوته وملكها . ونهض الوزير من فاس في العساكر بعد أن استخلف أخاه يعيش على دار

(١) وفي نسخة ثانية : فاحتال عليهم بهذه .

الملك وسار . ولحقت مقدّمته بأصيلا ففارقها السلطان أبو العباس ، وصعد إلى جبل الصفيحة ، فاعتصم به وجاء الوزير ابن ماسي فتقدّم الى حصاره بالجبل ، وجمع عليه رماة الرجل من الأندلسيين الذين كانوا بطنجة ، وأقام يحاصره بالصفيحة شهرين . وكان يوسف بن علي بن غانم شيخ أولاد حسين من عرب المعقل ، مخالفاً على الوزير مسعود وداعية إلى السلطان أبي العباس وشيعة له . وكان يرأس ابن الأحمر في شأنه . فلما سمع باستيلائه على سبتة وإقباله إلى فاس ، جمع أشياء من العرب ، ودخل في طاعته إلى بلاد المغرب ما بين فاس ومكناسة . وشن الغارات على البسائط واكتسحها ، وأرجف الرعايا وأجفلوا إلى الحصون ، وكان ونزمار بن عريف وليّ الدولة شيعة للسلطان ، وكان يكاتبه وهو بالأندلس ويكتب ابن الأحمر بشأنه . فلما اشتدّ الحصار بالسلطان في الصفيحة ، بعث ابنه أبا فارس إلى ونزمار بمكانه من نواحي تازى . وبعث معه سيّور بن يحيى بن عمر ، فقام ونزمار بدعوته ، وسار به إلى مدينة تازى ، وعاملها سليمان الغودودي من قرابة الوزير ابن ماسي . فلما نزل بها أبو فارس ابن السلطان بادر إلى طاعته وأمكنه من البلد ، فاستولى عليها واستوزر سليمان هذا . وسار إلى صفيروا^(١) ومعه ونزمار للاجتماع بعرب المعقل وأسفّ بهم إلى حصار فاس . وكان محمد بن الدمغة عاملاً على ورغة ، فبعث إليه السلطان عسكرياً مع العباس بن المقداد ابن أخت الوزير محمد بن عثمان فقتلوه وجاؤا برأسه ، ونجم الخلاف على يعيش بالبلد الجديد من كل جهة ، وطير الخبر بذلك كلّ إلى أخيه بمكانه من حصار السلطان بالصفيحة ، فانفضّت عنه العساكر وأجفل راجعاً إلى فاس . وسار السلطان في اتباعه ودخل في طاعته عامل مكناسة ، وجاء الخير مولى الأمير عبد الرحمن ولقيه يوسف بن علي بن غانم ومن معه من أحياء العرب ، وساروا جميعاً إلى فاس . وكان أبو فارس ابن السلطان قد رحل من تازى إلى صفيروا للقاء أبيه ، فاعترضه ابن ماسي في العساكر رجاء أن يفله . ولقيه ببني بهلول فترع أهل المعسكر إلى أبي فارس ابن السلطان وهو بمكناسة ، فارتحل يغذّ السير إلى فاس . وسار ابنه أبو فارس للقائه على وادي النجا . وصبحوا البلد الجديد فترلوا عليه بجمعهم وقد اعتصم به الوزير في أوليائه وبطانته ، ومعه يغمراسن بن محمد

(١) وفي النسخة المصرية : صفروي وفي نسخة أخرى : صفرون .

السالني^(١) ومراهن بني مرين الذين استرهنهم عند مسيره للقاء السلطان بأصيلا ، والله أعلم .

* (ظهور دعوة السلطان أبي العباس في مراکش واستيلاء أوليائه عليها) *

كان الوزير مسعود بن ماسي قد ولي على مراکش وأعمال المصامدة أخاه عمر بن رحو وكانت منتظمة في طاعته . فلما بلغ الخبر بوصول السلطان إلى سبتة واستيلائه عليها قامت^(٢) رؤوس أوليائه إلى إظهار دعوته بتلك النواحي ، فقام بدعوته بجبل الهاكرة عليّ بن زكريا . وبعث الوزير مسعود من مكانه في حصار السلطان بالصفيحة في أمداه بالعساكر من مراکش ، فزحف إليه مخلوف بن سليمان الوارتيبي^(٣) صاحب الأعمال ما بين مراکش والسوس ، وقعد الباقون عن نصره وتفرقوا . وصعد أبو ثابت حافد عليّ بن عمر إلى جبل الهاكرة ومعه يوسف بن يعقوب بن علي الصبيحي . فاستمد عليّ بن زكريا ورجع إلى مراکش مجلباً عليّ عليّ ابن رحو مناوشة القتال ساعة . ثم غلبه على البلد وملكها من يده ونزل بقصبة الملك . وحبس عمر بن رحو بها . وكتب للسلطان بذلك . وهو بمكناسة متوجهاً إلى فاس ، فكتب إليه بأن يصله بعساكر مراکش لحصار دار الملك فجمع العساكر واستخلف على قصبة مراکش بعض بني عمّه . ولحق بالسلطان . وأقام معه في حصار البلد الجديد . والله أعلم .

* (ولاية المنتصر ابن السلطان أبي علي علي مراکش واستقلاله بها) *

كان السلطان أبو العباس حين ملك المغرب بعث ابنه المنتصر في البحر إلى سلا .

(١) وفي النسخة المصرية : التالقي .

(٢) وفي النسخة المصرية : تطاولت .

(٣) وفي النسخة المصرية : الوارتيبي وفي نسخة أخرى : الواريني .

واستوزر له عبد الحق بن يوسف الورتاجني^(١) فوصل الى سلا وأقام بها ، ومرّ به رزوق بن توفريطت راجعاً من دكالة ، حين نزول السلطان على البلد الجديد ، فتلطّف في استدعائه ، ثم قبض عليه وبعث به لأبيه مقيداً فأودعه السجن وقتل بعد ذلك بمحبسه . ثم بعث السلطان إلى ابنه المنتصر بولاية مراکش وأن يسير إليها . فلما وصل إلى مراکش امتنع النائب بالقصبة ، فدسّ لعبد الحق وزير المنتصر أن النائب قد همّ بقتله ، وحينئذ يمكن المنتصر من القصبة . فأجفل بالمنتصر وصعد إلى جبل هنتاة ، وطير بالخبر إلى السلطان ، فتغيّر لأبي ثابت وأمره أن يكاتب نائبه بتمكين ابنه من القصبة . واستوزر له سعيد بن عبدون وبعثه بالكتاب ، وعزل عبد الحق عن وزارة ابنه ، واستدعاه لفاس ، فوصل سعيد بن عبدون إلى مراکش ، ودفع إلى النائب بالقصبة كتاب مستخلفه إلى الامتثال ، وأمكنه من القصبة واعتزل عنها فدخلها . وبعث عن المنتصر ابن السلطان ، واستولوا عليها ، وقبضوا على نائب عامر الذي كان بها وسائر شيعته وبطانته ، وامتحنوهم واستصفوهم إلى أن كان ما ذكره إن شاء الله تعالى .

* (حصار البلد الجديد وفتحها ونكبة الوزير ابن ماسي ومقتله) *

لما نزل السلطان على البلد الجديد واجتمع إليه سائر قبيلته وأوليائه وبطانته ، داخل الوزير مسعوداً الحق على بني مرين لانتباذهم عنه . فأمر بقتل أبنائهم الذين استرهبوهم على الوفاء له ، فإلقاه يغمراسن السالفي في المنع من ذلك ، فأقصر عنه ، وضيق السلطان مخنقه بالحصار ثلاثة أشهر حتى دعا إلى التزول والطاعة ، فبعث إليه ولي الدولة ونزمار بن عريف وخالسته محمد بن علاّل فعقد لهم الأمان لنفسه ولبن معه على أن يستمرّ على الوزارة ويبعث بسلطانه الواثق إلى الأندلس ، واستحلفهم على ذلك وخرج معهم للسلطان فدخل السلطان البلد الجديد خامس رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة لثلاثة أعوام وأربعة أشهر من خلعه . ولحين دخوله قبض على الواثق

(١) وفي النسخة المصرية : عبد الحق بن الحسن بن يوسف .

وبعث به معتقلاً إلى طنجة وقتل بها بعد ذلك . ولما استولى على أمره قبض على الوزير ابن ماسي ليومين من دخوله . وإخوته وحاشيته . وامتحنهم جميعاً فهلكوا في العذاب . ثم سلط على مسعود من العذاب والانتقام ما لا يعبر عنه . ونقم عليه ما فعله في دور بني مرين النازعين إلى السلطان . فإنه كان متى هرب عند أحد منهم يعمد إلى بيوته فينهبها ويحرقها فأمر السلطان بعقابه في أطلالها . فكان يؤتى به إلى كل بيت منها . فيضرب عشرين سوطاً إلى أن قتله العذاب ^(١) . وتجاوز الحد . ثم أمر به فقطعت أربعته . فهلك عند قطع الثانية . فذهب مثلاً في الآخرين .

* (وزارة محمد بن علال ^(٢)) *

كان أبوه يوسف بن علاّل من رؤساء الدولة ^(٣) وصانعة السلطان أبي الحسن . وربّي في داره . ولما ضخم أمره سما به إلى ولاية الأعمال . فولّاه على درعة فانترى وانتخب أولياء الدولة . ثم ولّاه السلطان أبو عنان أمر طنجة ومائدته وضيوفه واستكفى به في ذلك . وولّاه أخوه أبو سالم بعده كذلك . ثم بعثه إلى سجلماسة فعانى بها من أمور العرب مشقة . وعزلها عنها ، وهلك بفاس . وكان له جماعة من الولد قد نشأوا في ظلّ هذه النعمة ، وحديث النجاة بمحمد المذكور منهم . فلما استولى السلطان أبو العباس استعمله في أمور الضيوف والمائدة كما كانت لأبيه . ثم رقاه إلى المخالصة وخلطه بنفسه ، فلما خلع السلطان واستولى الوزير ابن ماسي على المغرب . وكانت بينه وبين أخيه يعيش بن ماسي إحن قديمة ، فسكن لصولتهم حتى إذا اضطربت نار الفتنة بالمغرب وأجلبت عرب المعقل الخلاف ، فاستوحش محمد هذا . فلحق بأحيائهم مع رزوق بن توفريط كما مرّ ذكره ونزل على يوسف بن علي بن غانم شيخ أولاد حسين ، وأقاما معه في خلافه . حتى إذا أجاز السلطان الواصل إلى الأندلس . ووصل مع أصحابه إلى جبل رزهون ، وأظهروا الخلاف على ابن ماسي بادر محمد هذا ورزوق إلى السلطان ، ودخلا في طاعته متبرّئين من النفاق الذي حملهم عليه

(١) وفي النسخة المصرية : إلى أن أفحش فيه العذاب .

(٢) وفي النسخة المصرية : هلال .

(٣) وفي النسخة المصرية : من نشأة الدولة .

عداوة الوزير ابن ماسي . فما كان إلا أن انعقد الصلح بين الواثق وابن ماسي وسار به وأصحابه إلى فاس ، وحصلوا في قبضة ابن ماسي فعفا لهم عما كان منهم ، واستعملهم في مهود ولايتهم . ثم جاء الخبر باجازه السلطان أبي العباس إلى سبتة ، فاضطرب محمد بن يوسف وذكر مخالصة السلطان ومنافرة ابن ماسي ، فأجمع أمره ولحق بسبتة ، فلتقاه السلطان بالكرامة ، وسرّ بمقدمه ودفعه إلى القيام بأمر دولته ، فلم يزل متصرفاً بين يديه إلى أن نزل إلى البلد الجديد . ولأيام من حصارها خلع عليه الوزارة ودفعه إليها ، فقام بها أحسن قيام . ثم كان الفتح وانتظم أمر الدولة ، ومحمد هذا يصرف الوزارة على أحسن أحوالها إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (ظهور محمد بن السلطان عبد الحلیم بسجلماسة) *

قد تقدّم لنا ذكر السلطان عبد الحلیم ابن السلطان أبي علي ، وكان يدعى بجلي كيف ، بايع له بنو مرين وأجلبوا به على عمر بن عبد الله سنة ثلاث وستين وسبع مائة أيام مبعثه للسلطان أبي عمر ابن السلطان أبي الحسن . وحاصروا معه البلد الجديد حتى خرج لدفاعهم وقتلهم ، فانهزموا واقتربوا . ولحق السلطان عبد الحلیم بتازي وأخوه عبد المؤمن بمكناسة ، ومعه ابن أخيهما عبد الرحمن بن أبي يفلوسن . ثم بايع الوزير عمر بن عبد الله لمحمد بن أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن واستبدل به من أبي عمر لما كان بنو مرين يرمونه بالجنون والوسوسة ، فاستدعى محمد بن أبي عبد الرحمن من مطرح اغترابه بإشبيلية وبايعه وخرج في العساكر لمداغة عبد المؤمن وعبد الرحمن عن مكناسة ، فلقيا وهزما ولحقا بالسلطان عبد الحلیم بتازي وساروا جميعاً إلى سجلماسة ، فاستقرّوا فيها والسلطان عبد الحلیم ، وقد تقدّم خبر ذلك كله في أماكنه . ثم كان الخلاف بين عرب المعقل أولاد حسين والأحلاف . وخرج عبد المؤمن للإصلاح بينهم ، فبايع له أولاد حسين ونصّبوه كرهاً للملك . وخرج السلطان عبد الحق إليهم في جموع الأحلاف فقاتلوه وهزموه ، وقتلوا كبار قومه ، كان منهم يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي شيخ بني ثريبغن وكبير دولة بني مرين ، أجلت المعركة عن قتله . ودخل عبد المؤمن البلد منفرداً بالملك .

وصرف السلطان أخاه عبد الحلیم إلى المشرق لقضاء فرضه برغبته في ذلك ، فسار على

طريق القفر مسلك الحاج من التكرور إلى أن وصل القاهرة ، والمستبد بها يومئذ يلغا الخاصكي ، على الأشرف شعبان بن حسين من أسباط الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فأكرم وفادته ووسّع نزله وجرايته ، وأدّر لحاشيته الأرزاق ، ثم أعانه على طريقه للحج بالأزواد والأبنية والظهر من الكراع والخفّ . ولما انصرف من حجّه زوّده لسفر المغرب . وهلك بضروجة سنة سبع وستين وسبعائة ورجعت حاشيته إلى المغرب بحرمة وولده . وكان ترك محمداً هذا رضيعاً ، فشبّ متقلّباً من الدولة من ملك إلى آخر ، متبذّلاً عن قومه بغيرة السلطان أبي الحسن من بني عمّهم السلطان أبي عليّ . وكان أكثر ما يكون مقامه عند أبي حمّو سلطان بني عبد الواد بتلمسان لما يروم به من الأجلاب على المغرب ، ودفع عادية بني مرين عنه . فلما وقع بالمغرب من انتفاض عرب المعقل على الوزير مسعود بن ماسي سنة تسع وثمانين وسبعائة واستمرّوا على الخلاف ، انتهز أبو حمّو الفرصة ، وبعث محمد بن عبد الحلّيم هذا إلى المعقل ليجلب بهم على المغرب ، ويمزّقوا من الملك ما قدروا عليه ، فلحق بأحيائهم ونزل على الأحلاف الذين هم أمس رحماً بسجلماسة وأقرب موطناً إليها . وكان الوزير ابن ماسي قد ولّى عليها من أقاربه عليّ بن ابراهيم بن عبّو بن ماسي ، فلما ظهر عليه السلطان أبو العبّاس وضيقّ مخنقه بالبلد الجديد ، دسّ إلى الأحلاف وإلى قريبه عليّ ابن ابراهيم أن ينصبّ محمد ابن السلطان أبي العبّاس عنه ، وينقّسوا من حصاره ، ففعلوا ذلك . ودخل محمد إلى سجلماسة فلكنّها ، وقام عليّ بن ابراهيم بوزارته حتى إذا استولى السلطان أبو العبّاس على البلد الجديد ، وفكّ بالوزير مسعود بن ماسي وبإخوته وسائر قرابته ، اضطرب عليّ بن ابراهيم وفسد ما بينه وبين سلطانه محمد ، فخرج عن سجلماسة ودعا إلى أبي حمّو سلطان تلمسان كما كان .

ثم زادت هواجس عليّ بن ابراهيم وارتياحه فخرج عن سجلماسة وتركها ، ولحق بأحياء العرب . وسارت طائفة منهم معه إلى أن أبلغوه مأمنه . ونزل على السلطان أبي حمّو إلى أن هلك ، فسار إلى تونس وحضر وفاة السلطان أبي العبّاس بها سنة تسع وتسعين وسبعائة ولحق محمد ابن السلطان عبد الحلّيم بعد مهلك أبي حمّو بتونس . ثم ارتحل بعد وفاة السلطان أبي العبّاس إلى المشرق لحجة فرضه ^(٢) ، والله تعالى أعلم .

(١) وفي النسخة المصرية : بتوجه وفي نسخة أخرى : بيروجة .

(٢) وفي النسخة المصرية : إلى المشرق في سبيل جولة ووطاوعة واغتراب .

* (نكبة ابن أبي عمر ومهلكه وحركات ابن حسون) *

لما استقل السلطان بملكه واقتعد سريره ، صرف نظره إلى أولياء تلك الدولة ومن يرتاب منه . وكان محمد بن أبي عمر قد تقدّم ذكره وأوليته ، من جملة خواصه وأوليائه وندمائه . وكان السلطان يقسم له من عنايته وجميل نظره ويرفعه عن نظرائه . فلما ولي السلطان موسى نزعت إليه نوازع المخالصة لأبيه من السلطان أبي عنان فقد كان أبوه أعزّ بطانته كما مرّ ، فاستخلصه السلطان موسى للشورى ورفعته على منابر أهل الدولة . وجعل إليه كتاب علامته على المراسم السلطانية ، كما كان لأبيه . وكان يفاوضه في مهمّاته ويرجع إليه في أموره حتى غصّ به أهل الدولة ونمي عنه للوزير مسعود بن ماسي أنه يداخل السلطان في نكبته . وربما سعى عند سلطانه في جماعة من بطانة السلطان أحمد ، فأتى عليهم النكال والقتل لكلمات^(١) كانت تجري بينهم وبينه في مجالسة المنادمة عند السلطان حقدّها لهم . فلما ظفر بالحظ من سلطانه ، سعى بهم فقتلهم . وكان القاضي أبو اسحق الزناسني من بطانة السلطان أحمد وكان يحضر مع ندمانه فحقد له ابن أبي عامر ، وأغرى به سلطانه فضربه وأطافه ، وجاء بها شنعاء غريبة في القبح . وسفر عن سلطانه إلى الأندلس ، وكان يمرّ بمجلس السلطان أحمد ومكان اعتقاله . وربما يلقاه فلا يلمّ إليه ولا يحبّه^(٢) ، ولا يوجب له حقاً ، فأحفظ ذلك السلطان . ولما فرغ من ابن ماسي قبض على ابن أبي عمر هذا وأودعه السجن ، ثم امتحنه بعد ذلك إلى أن هلك بالسياط ، عفا الله عنه . وحمل إلى داره ، وبينما أهله يحضّرونه إلى قبره وإذا بالسلطان قد أمر بأن يسحب بنواحي البلد إبلاغاً في التنكيل ، فحمل من نعشه وقد ربط حبل برجله ، وسحب في سائر أنحاء المدينة . ثم ألقى في بعض المزابل^(٣) . ثم قبض على حركات ابن حسون وكان مجلباً في الفتنة ، وكان العرب المخالفون من المعقل ، لما أجاز السلطان إلى سبته ، وحركات هذا بدلاً ، راودوه على طاعة السلطان فامتنع أولاً . ثم أكرهوه وجاؤا به

(١) وفي النسخة المصرية : لفتلات .

(٢) وفي النسخة المصرية : فلم يلم بتحبه .

(٣) وفي النسخة المصرية : ثم ألقى على بعض الكتيبان من أطرافها وأصبح مثلاً في الآخرين .

إلى السلطان فطوى على ذلك حتى استقام أمره . وملك البلد الحديد فتقبّض عليه وامتحنه ، إلى أن هلك ، والله وارث الأرض ومن عليها .

* (خلاف علي بن زكريا بجبل الهساكرة ونكبته) *

لما ملك السلطان البلد الحديد واستولى على ملكه ، وفد عليه علي بن زكريا شيخ هسكورة مستصفاً^(١) بها قدم من سوابقه . وقد كان حضر معه حصار البلد الحديد واستدعاه ، فجاء بقومه وعساكر المصامدة وأبلى في حصارها ، فرعى السلطان سوابقه وولّاه الولاية الكبرى على المصامدة على عادة الدولة في ذلك . ثم وفد معه محمد بن ابراهيم الميراري^(٢) من شيوخ المصامدة وكانت له ذمة صهر مع الوزير محمد ابن يوسف بن علاّ على أخته ، فولّاه السلطان مكان علي بن زكريا فغضب لها واستشاط وبادر إلى الانتقاض والخلاف . ونصب بعض القرابة من بني عبد الحق ، فجهّز إليه السلطان العساكر مع محمد بن يوسف بن علاّ وصالح بن حمّو الياباني وأمر صاحب درعة وهو يومئذ عمر بن عبد المؤمن بن عمر أن ينهض إليه بعساكر درعة من جهة القبلة ، فساروا إليه وحاصروه في جبله . وجاولوه مرّات ينهزم في جميعها حتى غلبوه على جبله . وسار إلى ابراهيم بن عمران الصناكي المجاور له في جبله فاستدّم به . وخشي ابراهيم معرة الخلاف والغلب ، ورغبه الوزير محمد بن يوسف بما بذل له ، فأمكنه منه ، وقبض على الوزير وجاء به إلى فاس ، فأدخله في يوم مشهود وشهّره ، واعتقل فلم يزل في الاعتقال إلى أن هلك السلطان أبو العباس . وارتاب به أهل الدولة بعده فقتلوه ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

وفادة أبي تاشفين على السلطان أبي العباس صريخا على أبيه
ومسيره بالعساكر ومقتل أبيه السلطان أبي حمو

كان أبو تاشفين ابن السلطان أبي حمو قد وثب على أبيه آخر ثمان وثمانين وسبعائة

(١) وفي النسخة المصرية : مستصفاً

(٢) وفي نسخة ثانية : المبرازي .

بمآلثته لغيره من إخوته واعتقله بوهرا. وخرج بالعساكر لطلب إخوته المنتصر وأبي زيان وعمر^(١) فامتنعوا عند حُصَيْن بجبل تيطرى فحاصروهم أياماً . ثم تذكر غائلة أبيه ، فبعث ابنه أبا زيان في جماعة من بطانته منهم ابن الوزير عمران بن موسى وعبدالله بن جابر الخراساني ، فقتلوا بعض ولده بتلمسان ، ومضوا إليه وهو بمحبسه في وَهْران . فلما شعر بهم أشرف من الحصن ونادى في أهل المدينة متذمماً بهم ، فهرعوا إليه . وتدلى إليهم في عمامته وقد احترق بها فأنزلوه وأحدقوا به وأجلسوه على سريره . وتولى كبر ذلك خطيب البلد ابن جذورة^(٢) ولحق أبو زيان بن أبي تاشفين ناجياً إلى تلمسان . واتبعه السلطان أبو حمّو ففرّ منها إلى أبيه . ودخل أبو حمّو تلمسان وهي طلل وأسوارها خراب ، فأقام فيها رسم دولته . وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين فأجفل من تيطرى وأغذ السير فدخلها . واعتصم أبوه بمئذنة المسجد ، فاستتره منها وتجافى عن قتله . ورغب إليه أبوه في رحلة المشرق لقضاء فرضه ، فأسعفه وأركبه السفين مع بعض تجّار النصارى إلى الإسكندرية موكلاً به . فلما حاذى مرسى بجاية لاطف النصراني في تخلية سبيله فأسعفه وملك أمره . وبعث إلى صاحب الأمر ببجاية يستأذنه في النزول ، فأذن له . وسار منها إلى الجزائر ، واستخدم العرب ، واستصعب عليه أمر تلمسان ، فخرج إلى الصحراء . وجاء إلى تلمسان من جهة المغرب فهزم عساكر ابنه أبي تاشفين وملكها . وخرج أبو تاشفين هارباً منها ، فلحق بأحياء سويد في مشاتهم . ودخل أبو حمّو تلمسان في رجب سنة تسعين وسبعائة . وقد تقدّم شرح هذه الأخبار كلّها مستوعبة . ثم وفد أبو تاشفين مع محمد بن عريف شيخ سويد على السلطان أبي العباس صريحاً على أبيه ، ومؤملاً الكرامة بإمداده . فبعث له السلطان وأجمل عليه المواعيد . وقام أبو تاشفين في انتظارها والوزير محمد بن يوسف بن علاّ يعبده ويمنيه ويحلف له على الوفاء . وبعث السلطان أبو حمّو إلى ابن الأحمر لما يعلم من استطالته على دولة بني مرين كما مرّ ، يتوسّل إليه في أن يصدّهم عن صريح أبي تاشفين وإمداده عليه فجلا ابن الأحمر في ذلك وجعلها من أهمّ حاجاته . وخاطب السلطان أبا العباس في أن يخيّر إليه أبا تاشفين ، فتعلّل عليه في ذلك بأنه استجار بابنه أبي فارس ، واستندّم به . ولم يزل الوزير ابن علاّ يقتل لسلطانه ولا ابن الأحمر في

(١) وفي النسخة المصرية : وعمر (وهي الأصح) .

(٢) وفي النسخة المصرية : خزروت وفي نسخة أخرى : حرزورة .

الذروة والغارب ، حتى تمّ أمره وأنجز له السلطان بالنظر موعده . وبعث ابنه الأمير أبا فارس والوزير ابن علّال في العساكر صريخين له ، وانتها إلى تازى . وبلغ الخبر إلى أبي حمّو فخرج من تلمسان في عساكره ، واستألف أوليائه من عبيد الله . ونزل بالغيران من وراء جبل بني راشد المطلّ على تلمسان ، وأقام هنالك متحصّناً بالجبل ، وجاءت العيون إلى عساكر بني مرين بتازى بمكانه هو وأعرابه من الغيران ، فأجمعوا غزوه . وسار الوزير علّال وأبو تاشفين وسلخوا القفر ودليلهم سليمان بن ناجي من الأحلاف . حتى صَبَحُوا أبا حمّو ومن معه من أحياء الجُرّاح^(١) في مكانهم بالغيران . فجالولهم ساعة ، ثم ولّوا منهزمين ، وكبا بالسلطان أبي حمّو فرسه فسقط ، وأدركه بعض أصحاب أبي تاشفين فقتلوه قعصاً بالرماح ، وجاؤا برأسه إلى ابنه أبي تاشفين والوزير ابن علّال ، فبعثوا به إلى السلطان ، وجيء بابنه عمير أسيراً ، فهمّ أخوه أبو تاشفين بقتله ، فمنعه بنو مرين أياماً . ثم أمكنوه منه فقتله ، ودخل تلمسان آخر إحدى وتسعين وسبعائة وخميس الوزير وعساكر بني مرين بظاهر البلد ، حتى دفع إليهم ما شارطهم عليه من المال . ثم قفلوا إلى المغرب وأقام أبو تاشفين بتلمسان يقيم دعوة السلطان أبي العباس صاحب المغرب ويخطب له على منابر تلمسان وأعمالها ، ويبعث إليه بالضريبة كل سنة ، كما اشترط على نفسه . وكان أبو حمّو لما ملك تلمسان ولّى ابنه أبا زيّان على الجزائر ، فلما بلغه مقتل أبيه امتعض ولحق بأحياء حُصَيْن ناجياً وصريحاً . وجاءه وفد بني عامر من زغبة يدعونه للملك . فسار إليهم . وقام بدعوتهم شيخهم المسعود بن صغير ، ونهضوا جميعاً إلى تلمسان في رجب سنة اثنتين وتسعين وسبعائة فحاصرها أياماً . ثم سَرَبَ أبو تاشفين المال في العرب فافترقوا عن أبي زيّان ، وخرج إليه أبو تاشفين فهزمه في شعبان من السنة . ولحق بالصحراء واستألف أحياء المعقل ، وعاود حصار تلمسان في شوال . وبعث أبو تاشفين ابنه صريحاً إلى المغرب ، فجاءه بمدد من العساكر . ولما انتهى إلى تاوريرت ، أفرج أبو زيّان عن تلمسان وأجفل إلى الصحراء . ثم أجمع رأيّه على الوفادة إلى صاحب المغرب ، فوفد عليه صريحاً فلقاه وبرّ مقدمه ووعدّه النصر من عدوّه . وأقام هنالك إلى حين مهلك أبي تاشفين ، والله أعلم .

(١) وفي نسخة ثانية : الخراج .

* (وفاة أبي تاشفين واستيلاء صاحب المغرب على تلمسان) *

لم يزل هذا الأمير أبو تاشفين مملكاً على تلمسان ومقيماً فيها لدعوة صاحب المغرب أبي العباس ابن السلطان أبي سالم ، ومؤدياً الضريبة التي فرضها عليه منذ ملك ، وأخوه الأمير زيّان عند صاحب المغرب ينتظر وعده بالنصر عليه ، حتى تغيّر السلطان أبو العباس على أبي تاشفين في بعض التزعّات الملوكية ، فأجاب داعي أبي زيّان وجّهه بالعساكر لملك تلمسان . فسار لذلك منتصف سنة خمس وتسعين وسبعائة وانتهى إلى تازي ، وكان أبو تاشفين قد طرّقه مرض أزمّن به ، ثم هلك منه في رمضان من السنة . وكان القائم بدولته أحمد بن العزّ من صنائعهم وكان يمت إليه بخوالة ، فولّى بعده مكانه صبياً من أبنائه ، وأقام بكفّالته . وكان يوسف بن أبي حمّو وهو ابن الزاوية والياً على الجزائر من قبل أبي تاشفين ، فلمّا بلغه الخبر أغدّ السير مع العرب فدخل تلمسان ، وقتل أحمد بن العزّ والصبي المكفول ابن أخيه أبي تاشفين ، فلمّا بلغ الخبر إلى السلطان أبي العباس صاحب المغرب خرج إلى تازي ، وبعث من هنالك ابنه أبا فارس في العساكر وردّ أبا زيّان بن أبي حمّو إلى فاس ، ووكلّ به . وسار ابنه أبو فارس إلى تلمسان فملكها وأقام فيها دعوة أبيه . وتقدّم وزير أبيه صالح بن أبي حمّو إلى مليانة ، فملكها وما بعدها من الجزائر وتدلّس إلى حدود بجاية . واعتصم يوسف بن الزاوية بحصن تاجمعموت وأقام الوزير صالح يحاصره . وانقرضت دعوة بني عبد الواد من المغرب الأوسط ، والله غالب على أمره .

وفاة أبي العباس صاحب المغرب واستيلاء أبي زيّان بن أبي حمو على تلمسان والمغرب الأوسط

كان السلطان أبو العباس بن أبي سالم لما وصل إلى تازي وبعث ابنه أبا فارس إلى تلمسان فملكها ، وأقام هو بتازي يشارف أحوال ابنه ووزيره صالح الذي تقدّم لفتح البلاد الشرقية . وكان يوسف بن علي بن غانم أمير أولاد حسين من المعقل قد حجّ

سنة ثلاث وتسعين وسبعائة واتصل بملك مصر من الترك الملك الظاهر برقوق .
وتقدّمت إلى السلطان فيه وأخبرته بمحلّه من قومه ، فأكرم تلقّيه وحمله بعد قضاء
حجّه هدية إلى صاحب المغرب ، يطرفه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة
الملوك . فلما قدم يوسف بها على السلطان أبي العباس أعظم موقعها وجلس في
مجلس حفل لعرضها والمباهاة بها . وشرع في المكافأة عليها بمتخير الجياد والبضائع
والثياب ، حتى استكمل من ذلك ما رضىه . واعتزم على إنفاذها مع يوسف بن علي
حاملها الأول . وأنه يرسله من تازى أيام مقامته تلك ، فطره هنالك مرض كان فيه
حتفه في محرم سنة ست وتسعين وسبعائة واستدعوا ابنه أبا فارس من تلمسان فبايعوه
بتازى وولّوه مكانه ، ورجعوا به إلى فاس . وأطلقوا أبا زيّان بن أبي حمّو من
الاعتقال ، وبعثوا به إلى تلمسان أميراً عليها ، وقائماً بدعوة السلطان أبي فارس
فيها ، فسار إليها وملكها ، وكان أخوه يوسف بن الزاوية قد اتصل بأحياء بني عامر
يروم ملك تلمسان والاجلاب عليها ، فبعث إليهم أبو زيّان عندما بلغه ذلك وبذل
لهم عطاءً جزيلاً على أن يبعثوا به إليه ، فأجابوه إلى ذلك ، وأسلموه إلى ثقات أبي
زيّان . وساروا به فاعترضهم بعض أحياء العرب ليستنقذوه منهم ، فبادروا بقتله ،
وحملوا رأسه إلى أخيه أبي زيّان فسكنت أحواله وذهبت الفتنة بذهابه ، واستقامت
أمر دولته . وهم على ذلك لهذا العهد ، والله غالب على أمره ، وهو على كل شيء
قدير .

وقد انتهى بنا القول في دولة بني عبد الواد من زناتة الثانية ، وبقي علينا خبر الرهط
الذين تحيّرنا منهم إلى بني مرين من أول الدولة . وهم بنوكمي من فصائل علي بن
القاسم إخوة طاع الله بن علي ، وخبر بني كندوز أمراهم بمراكش . فلنرجع إلى
ذكر أخبارهم ، وبها نستوفي الكلام في أخبار بني عبد الواد . والله وارث الارض ومن
عليها وهو خير الوارثين .

السلطان أبو العباس أحمد بن أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق

المتنصر
أبو الفضل

موسى بن أبي عنان
السعيد بن عبد العزيز
الواثق بن الفضل

محمد بن أحمد
أحمد بن محمد
أحمد بن محمد
أحمد بن محمد
أحمد بن محمد
أحمد بن محمد

عبد الرحمن بن علي بن أبي يفلوس بن أبي عمر
عبد الحليم بن أبي عمر
منصور بن سليمان بن منصور بن أبي مالك عبد الواحد
أبو الربيع

أبو ثابت بن أبي عامر بن أبي يعقوب يوسف
عبد الله العجوب
محمد اجلند
عمر بن مندبل

أحمد بن محمد
أحمد بن محمد
أحمد بن محمد
أحمد بن محمد
أحمد بن محمد
أحمد بن محمد

نجيب
محمد
عثمان
اختهم ورتطين

الخبر عن القرابة المرشحين من آل عبد الحق من الغزاة المجاهدين بالأندلس الذين قاسموا ابن الأحمر في ملكه وانفردوا برياسة جهاده

كانت الجزيرة الأندلسية وراء البحر منذ انقراض^(١) أمر بني عبد المؤمن وقيام ابن الأحمر بأمرها ، قليلة الحامية ، ضعيفة الأحوال إلا من يلهمه الله لعمل الجهاد من قبائل زناتة المؤملين كرهة الملك والمقتسمين ممالك المغرب ، وخصوصاً بني مرين أهل المغرب الأقصى لاتصال عدوة الأندلس ببسائطه ولتعدد الفراض ببحر الزقاق القريب العدوتين . وما زال أهل الزقاق على قديم الزمان لأجل ذلك فرضة دون سواحل المغرب .

(ولما استولى) بنو مرين على مملكه ، وضائق أحوال المسلمين بالأندلس ، وأخذ بمخنتهم الطاغية حتى ألجأهم إلى سيف البحر واستأثر بالقوسرة^(٢) وما وراءها . واستأثر بنو القمص أهل برشلونة وقطلوسة بشرق الأندلس . وانتشر في الأقطار ما كان من أمر قرطبة وأصنيتها إشبيلية وبلنسية ، وامتعض لذلك المسلمون وتنافسوا في الجهاد وإمداد الأندلس بأموالهم وأنفسهم ، وسابق الناس إلى ذلك الأمير أبو زكريا بن أبي حفص بما كان صاحب الوقت والمؤمل للكرّة ، فاستنفذ الكثير من أمواله ومقرباته في إمدادهم بعد أن كانوا آثروا القيام بدعوته ، وأوفدوا عليه المشيخة ببيعتهم . وكان ليعقوب بن عبد الحق أمل في الجهاد وحرص عليه . فاعتزم في سلطان أخيه أبي يحيى على الإجازة لذلك ، ففنه ضنة به عن الاغتراب عنه . وأوعز إلى صاحب سبتة يومئذ أبي علي بن خلاص بمنعه منها ، فوعر له السبيل وسد عليه المذاهب . ولم ينشب يعقوب بن عبد الحق أن قام بسلطان المغرب بعد أخيه أبي يحيى وشغل بشأنه . وأهمه شأن ابن أخيه إدريس منهم في الجهاد بعد العدو ، فاعتنمها منه وعقد له من مطوعة زناتة على ثلاثة آلاف أو يزيدون . وأجاز معه رحو ابن عمه عبدالله بن عبد الحق . وفصلوا إلى الأندلس سنة إحدى وستين وستمائة فحسنت

(١) وفي النسخة المصرية : انقضاء .

(٢) وفي الطبعة المصرية : الفرنتيرة .

آثارهم في الجهاد وكرمت مقاماتهم . ثم رجع عامر بن إدريس إلى المغرب وكثر انتقاض القرابة . ونافسهم أقيال زناتة في مثلها ، فاجتمع أبناء الملوك بالمغرب الأوسط مثل عبد الملك ويغمراسن بن زيان وعامر بن منديل بن عبد الرحمن وزيان بن محمد ابن عبد القوي فتعاقدوا على الإجازة إلى الأندلس إلى الجهاد ، وأجازوا فيمن خفّ معهم من قومهم سنة ست وسبعين وستائة ، فامتلت الأندلس بأقيال زناتة وأعياص الملك منهم . وكان فيمن أجاز من أعياصهم بنو عيسى بن يحيى بن وسناف بن عبّو ابن أبي بكر بن حمّامة . ومنهم سليمان وإبراهيم^(١) وكانت لهما آثار في الجهاد ومقامات محمودة ، وكان موسى بن رحوّ لما نازله السلطان وبني أبيه عبدالله بن عبد الحق بحصن علودان ونزلوا على عهده لحق بتلمسان . وكان بنو عبدالله بن عبد الحق وإدريس بن عبد الحق عصبة من بين سائرهم ، لأنّ عبدالله وإدريس كانا شقيقين لسوط النساء بنت عبد الحق ، فاقتنى أثر يعقوب بن عبد الحق بن عبدالله محمداً ابن عمّه إدريس ، وخرج على السلطان بقصر كتامة سنة ثلاث وستين وستائة ، ثم استرضاه عمّه واستترله . وبقي يعقوب بن عبدالله في انتقاضه يتقل في الجهات إلى أن قتله طلحة بن محلي من أولياء السلطان سنة ثلاث وستين وستائة بجهات سلا ، فكفى السلطان شأنه . ولما كان من عهد السلطان لابنه أبي مالك ما قدّمناه نفّس عليه هؤلاء القرابة هذا الشأن ، فانتفضوا ولحق ابن إدريس بحصن علودان . ولحق موسى بن رحوّ بن عبدالله بجبال غمارة ومعه أولاد عمه أبي عياد بن عبد الحق ، ونازهم السلطان حتى نزلوا على عهده ، وأجازهم إلى الأندلس سنة سبعين وستائة ، فأقاموا بها للجهاد سوقاً ونافسهم أقيال زناتة في مثلها بتلمسان ، وأجاز منها إلى الأندلس سنة سبعين وستائة ، فولاه السلطان ابن الأحمر على جميع الغزاة المجاهدين هنالك ، لِمَا كان كبيرهم ومحلّ شوّهم^(٢) . ولم يلبث أن عاد إلى المغرب ، فولّى السلطان مكانه أخاه عبد الحق . ثم رجع عنه مغاضباً إلى تلمسان ، فولّى مكانه على الغزاة المجاهدين إبراهيم بن عيسى بن يحيى بن وسناف إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

(١) وفي الطبعة المصرية : ومنهم سليمان بن إبراهيم .

(٢) وفي نسخة ثانية : فحل شوّهم .

الخبر عن موسى بن رحو فاتح هذه الرياسة بالأندلس وخبر
أخيه عبد الحق من بعده وابنه حمو بن عبد الحق بعدهما

لما هلك السلطان الشيخ بن الأحمر وولي ابنه السلطان الفقيه ، ووفد على السلطان
يعقوب بن عبد الحق صريحاً للمسلمين ، فأجاز إليه أوّل إجازته سنة ثلاث وسبعين
وسمائه وأوقع بجيوش النصرانية . وقتل الزعيم دُئنه واستولى له الغلب على
الأندلس ، وبدا لابن الأحمر في أمره وخشي مغبته ، وتوقع أن يكون شأنه معه شأن
يوسف بن تاشفين والمرابطين مع ابن عياد . وكان بالأندلس قرابته بنو أشقيلولة قد
قاسموه في ممالكها ، وانفردوا بوادي آش ومالقة وقمارش ، حسبما ذكرناه في أخباره
مع السلطان ، وانتقض عليه أيضاً من رؤساء الأندلس ابن عبد ريل^(١) وابن
الدليل ، فكانوا يجلبون على بلاد المسلمين . وكانوا قد استنجدوا جيوش النصرانية
ونازلوا غرناطة ، وعاثوا في الجهات ، فلما استوت قدم السلطان يعقوب بن عبد الحق
بالأندلس ، وصل هؤلاء الثوّار به أيديهم ، فخشيم ابن الأحمر جميعاً على نفسه .
وقلب السلطان ليوسف ظهر المحن ، واستظهر عليه بالأعياص من قرابته . وكان هؤلاء
القرابة من أولاد رحو بن عبد الله بن عبد الحق وإدريس بن عبد الحق ، وينسبون
جميعاً إلى سوط النساء كما ذكرناه ، ومن أولاد أبي عياد بن عبد الحق لما أوجسوا
الخيفة من السلطان واستشعروا التكبر منه ، لحقوا بالأندلس ثورية بالجهاد ، وانتبدوا
عن الهول^(٢) فراراً من محله . وقد كان السلطان أبو يوسف حين انتقضوا عليه
أشخصهم إلى الأندلس ، فاجتمع منهم عند ابن الأحمر عصابة من أولاد عبد الحق
كما قلناه ، وأولاد وسناف وأولاد نزول وتاشفين بن معطي كبير بني تيريغن من بني
محمد . وتبعهم أولاد محلي أحوال السلطان أبي يوسف ، وكان ابن الأحمر كثيراً ما
يعقد لهم على الغزاة المجاهدين من زناتة لدار الحرب ، فعقد أولاً لموسى بن رحو سنة
ثلاث وسبعين وسمائه ولأخيه عبد الحق بعد انصرافه إلى المغرب ، ثم لابراهيم بن
عيسى بعد انصرافها معا كما قلناه . ثم رجعا فعقد لموسى بن رحو ثانية على أشياخه ،

(١) وفي نسخة ثانية : ابن عبدويل .

(٢) وفي نسخة ثانية : وانتبأذا عن الشول .

أثبت له قدماً في الرياسة ليحسن به دفاع السلطان أبي يوسف عنهم . ثم تداولت
 لامارة فيهم ما بينهم وبين عمومهم . وربما عقد قبل ذلك أزمان الفترة ليعلى بن أبي
 عياد بن عبد الحق في بعض الغزوات ، ولتاشفين بن معطي في أخرى سنة تسع
 وسبعين وستمائة ومعه طلحة بن محلى ، فاعترضوا الطاغية دون حصر المسلمين وربّما
 كان لهم الظهور . ثم حدثت الفتنة بينه وبين السلطان أبي تاشفين وعقد ابن الأحمر
 في بعض حروبه معه ليعلى بن أبي عياد على زناتة جميعاً ، وحاشهم إلى رايته ،
 فانفضت جموع أبي يوسف ، وظهروا عليه ، وتقبضوا في المعركة على ابنه منديل ،
 واستاقوه أسيراً إلى أن أطلقه السلطان ابن الأحمر في سلم عقده بعد مهلكه ، مع أبيه
 يوسف بن يعقوب . واستبدّ موسى بن رحو من بعدها بإمارة الغزاة بالأندلس إلى أن
 هلك ، فوليا من بعده أخوه عبد الحق إلى أن هلك سنة تسع وسبعين وستمائة وكان
 مظفر الراية على عدوّ المسلمين . ولمّا هلك ولي من بعده ابنه حمّو بن عبد الحق
 فكانت هذه الامارة متصلة في بني رحو إلى أن انتقلت منهم إلى إخوانهم من بني أبي
 العلاء وغيرهم . واندرج حمّو في جملة عثمان بن أبي العلاء من بعد حسبما نذكر .
 وأمّا ابراهيم بن عيسى الوسناني فإنه رجع إلى المغرب ، ونزل على يوسف بن يعقوب
 وقتله بمكانه من حصار تلمسان بعد حين من الدهر ، وبعد أن كبر وعمي . والله
 مالك الأمور لا ربّ غيره ، وكان مهلك ابن أبي عياد سنة سبع وثمانين وستمائة
 ومعطي بن أبي تاشفين سنة تسع وثمانين وستمائة وطلحة بن محلى سنة ست وثمانين
 وستمائة والله أعلم .

* (الخبر عن عبد الحق بن عثمان شيخ الغزاة بالأندلس) *

كان عبد الحق هذا من أعياص الملك المريني ويعاسيهم وهو من ولد محمد بن عبد
 الحق ثاني الأمراء على بني مرين بعد أبيهم عبد الحق . وهلك أبوه عثمان بن محمد
 بالأندلس إحدى أيام الجهاد سنة تسع وسبعين وستمائة وربّي عبد الحق هذا في حجر
 السلطان يوسف بن يعقوب إلى أن كان من أمر خروجه مع الوزير رحو بن يعقوب على
 السلطان أبي الربيع ما ذكرناه في أخباره . ولحق بتلمسان وأجاز منها إلى الأندلس ،

وسلطانه يومئذ أبو الجيوش ابن السلطان الفقيه . وشيخ زناته حمّو بن عبد الحق بن رحو . وخاطبهم السلطان أبو سعيد ملك المغرب في اعتقاله ، فأجابوه وقرّ من محبسه ، ولحق بدار الحرب . ولما انتقض أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد وباع لنفسه بمالقة ، وزحف إلى غرناطة فنازلها ، ووقعت الحرب بظاهرها بين الفريقين وأخذ في بعض حروبها^(١) حمّو بن عبد الحق أسيراً ، وسبق إلى السلطان أبي الوليد . وكان معه عمّه أبو العباس بن رحو فأبى من اسار ابن أخيه وخلّى عنه ، فرجع إلى سلطانه فارتاب به لذلك . وعقد على الغزاة مكانه لعبد الحق بن عثمان استدعاه من مكانه بدار الحرب . ثم غلبهم أبو الوليد على غرناطة . وتحول أبو الجيوش على وادي آش على سلم انعقد بينهم ، وسار معه عبد الحق بن عثمان على شأنه . ثم وقعت بينه وبين أبي الجيوش مغاضبة ، لحق لأجلها بالطاغية وأجاز إلى سبتة ، فاستظهر به أبو يحيى بن أبي طالب العزفي أيام حصار السلطان أبي سعيد إياه ، فكان له في حماية ثغره والدفاع عنه آثار مذكورة . ثم عقد السلطان أبو سعيد السلم ليحيى العزفي ، وأفرج عنه ، فارتحل عبد الحق بن عثمان إلى أفريقية . ونزل ببجاية سنة تسع عشرة وسبعائة على أبي عبد الرحمن بن عمر صاحب السلطان أبي يحيى المستبد بالثغور الغربية ، فأكرم نزله ، وأوسع قراره ، وضرب له الفساطيط بالزينة^(٢) من ساحة البلد استبلاغاً في تكريمه وحمله وأصحابه على مائة وخمسين من الخيل ، ثم أقدمهم على السلطان بتونس فبرّ مقدمهم ، وخلط عبد الحق بنفسه وآثره بالخلّة والصحابة ، وأجلّه بمكان الاستظهار به وبعبابته . ولما عقد السلطان لمحمد بن سيّد الناس على حجابته سنة سبع وعشرين وسبعائة واستقدمه لذلك من ثغر بجاية كما ذكرناه ، عظمت رياسته واستغلظ حجّابه ، وحجب عبد الحق ذات يوم عن بابه ، فسخطها وذهب مغاضباً ، وداخل أبا فارس في الخروج على أخيه ، فأجابه وخرج به من تونس ، فكان من خبرهم ومقتل أبي فارس وخلوص عبد الحق إلى تلمسان ونزوله على أبي تاشفين ، وغزوه إلى أفريقية مع عساكر بني عبد الواد سنة سبع وعشرين وسبعائة ما ذكرناه في أخبار الدولة الحفصية .

ثم لما رجع بنو عبد الواد إلى تلمسان صمد مولانا السلطان أبو يحيى إلى تونس في

(١) وفي نسخة ثانية : في بعض أيامها .

(٢) وفي نسخة ثانية : بالرشّة .

أخريات سته . وفرّ ابن أبي عمران السلطان المنصوب بتونس من بني أبي حفص إلى أحياء العرب ، وتقبّض على أبي رزين ^(١) ابن أخي عبد الحق بن عثمان في جملة من أصحابه ، فقتله قعصاً بالرماح . ورجع عبد الحق بن عثمان إلى مكانه من تلمسان ، فأقام بمثواه عند أبي تاشفين متبوّثاً من الكرامة والاعتزاز ما شاء إلى أن هلك بمهلك أبي تاشفين يوم اقتحم السلطان أبو الحسن تلمسان عليهم سنة سبع وثلاثين وسبعائة وقتلوا جميعاً عند قصر الملك أبو تاشفين وأبناء عثمان ومسعود وحاجبه موسى بن علي ، ونزله عبد الحق هذا ، وأبو ثابت ابن أخيه ، فقطعت رؤوسهم وتركت أشلاؤهم بساحة القصر عبرةً للمعتبرين حسبما ذكرناه في أخبار أبي تاشفين ، والله أعلم .

* (الخبر عن عثمان بن أبي العلاء من أمراء الغزاة المجاهدين بالأندلس) *

كان أولاد سوط النساء من ولد عبد الحق ، أهل عصابة واعتزاز على قومهم ، وهم أولاد إدريس وعبدالله ابنهما والشقيقين كما ذكرناه . وكان مهلك إدريس الأكبر يوم مهلك أبيه بتافرط ^(٢) ومهلك عبدالله قبله . وخلف عبدالله ثلاثة من الولد تشعب فيهم نسله ، وهم : يعقوب ورحو وإدريس . واستعمل أبو يحيى بن عبد الحق يعقوباً منهم على سلا عند افتتاحه إياها سنة تسع وأربعين وستائة ثم انترى بها بعد ذلك على عمّه يعقوب سنة ثمان وخمسين وستائة ، وكان من شأن ثورة النصارى به ما ذكرناه ، واستخلصها يعقوب بن عبد الحق ولحق يعقوب بن عبدالله بعلودان من بلاد غمارة ، وامتنع بها ، وخرج على أثره ابنا عمّه إدريس وهما : عامر ومحمد ، وانتزوا بالقصر الكبير ، ولحق بهم كافة أولاد سوط النساء . وطالبهم السلطان فلحقوا بجبال غمارة ونازلهم ، ثم استترهم بعد ذلك على الأمان ، وعقد لعامر على الغزو إلى الأندلس سنة ستين وستائة كما ذكرناه ، وأجاز معه رحو بن عبدالله . ورجع محمد بن عامر ومّر إلى تلمسان سنة ثمانين وستائة وأجاز منها إلى الأندلس .

(١) وفي نسخة ثانية : أبي زيان ، وفي نسخة ثانية : ابن رزين .

(٢) وفي نسخة ثانية : بتافرطيت .

ثم خرجوا على السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة تسع وثمانين وستائة^(١) ومعهم ولد أبي عياد بن عبد الحق واعتصموا بعلودان ، واستترهم السلطان على اللحاق بتلمسان فلحقوا بها . وأجاز أولاد سوط النساء وأولاد أبي عياد كافة إلى الأندلس واستقروا بها يومئذ ، ورجع عامر منهم ومحمد وكان من خبره ما نذكر . وهلك يعقوب بن عبد الله سنة ثمان وستين وستائة في اغترابه بقفوله من رباط الفتح ، قتله طلحة بن محلي . واستقر بنوه من أولاد سوط النساء بالمغرب ، وكان ابنه أبو ثابت أميراً على بلاد السوس أيام السلطان يوسف بن يعقوب وأوقع بالركبة^(٢) سنة تسع وتسعين وستائة ولم يزل بنوه بالمغرب من يومئذ . وكان من إخوانه أبي العلاء ورحوينا عبد الله بن عبد الحق تشعب نسله فيها ، وأجاز رحوينا الأندلس مع عامر ومحمد ابن عمه إدريس . ثم أجاز موسى ابنه سنة تسع وتسعين وستائة^(٣) مع أولاد أبي عياد وأولاد سوط النساء . ثم رجع إلى محله من الدولة وقرّ ثانياً سنة خمس وسبعين وستائة إلى تلمسان ، وأجاز منها إلى الأندلس واستقر بها . وأجاز أولاد أبي العلاء سنة خمس وثمانين وستائة مع أولاد أبي يحيى بن عبد الحق وأولاد عثمان بن عبد الحق واستقروا بالأندلس ، وكانوا يرجعون في رياستهم لكبيرهم عبد الله بن أبي العلاء . وعقد له ابن الأحمر على الغزاة من زناته فيمن كان يعقد لهم من زناته قبل استقرار المنصب ، إلى أن هلك شهيداً في إحدى غزوات سنة ثلاث وتسعين وستائة وعقد المخلوع ابن الأحمر لأخيه عثمان بن أبي العلاء ، على حامية مالقة وغربيها من الغزاة لنظر ابن عمه الرئيس أبي سعيد فرج بن اسمعيل بن يوسف بن نصر . ولما غدر الرئيس أبو سعيد بسببة سنة خمس وسبعائة وتمّت له في مثلها الحيلة ، واضطربت نار العداوة بينه وبين صاحب المغرب ، فنصبوا عثمان هذا للأمر ، وأجازوه إلى غماره ، فثار بها ودعا لنفسه ، وتغلّب على أصيلا والعرائش ، وكان ما ذكرنا إلى أن غلبه أبو الربيع سنة ثمانين وستائة ، ورجع إلى مكانه بالأندلس ولما اعترّم أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد على الخروج على أبي الجيوش صاحب غرناطة ، داخل في ذلك شيخ الغزاة بهالقة عثمان بن أبي العلاء ، فساعدته عليه ، واعتقل أباه الرئيس أبا سعيد ، وزحف

(١) وفي نسخة ثانية : تسع وستين .

(٢) وفي نسخة ثانية : يزكنة .

(٣) وفي نسخة ثانية : تسع وستين .

إلى غرناطة سنة أربع عشرة وسبعمائة فلما استولى عليها عقد لعثمان هذا على إمارة الغزاة المجاهدين من زناته ، وصرف عنها عثمان بن عبد الحق : بن عثمان ، فلحق بوادي آش مع أبي الجيوش . وصار حثوب بن عبد الحق بن رحو في جملة بعد أن كان شيخاً على الغزاة كما قلناه . واستمرت أيام ولاية عثمان هذا ، وبعد فيها صيته ، وغص صاحب المغرب أبو سعيد بمكانه ، ولما استصرخه المسلمون للجهاد سنة ثمان عشرة وسبعمائة اعتذر بمكان عثمان هذا ، واشترط عليهم القبض عليه حتى يرجع عنهم فلم يكن ذلك ، ونازل الطاغية غرناطة وحاصرها ، وكان لعثمان وبنيه في ذلك آثار مذكرة .

وأتاح الله للمسلمين في النصرانية على يد عثمان هذا وبنيه ما لم يخطر على قلب أحد منهم ، فتأكد اغتباط الدولة والمسلمين بمكانهم إلى أن هلك أبو الوليد سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، باغتيال بعض الرؤساء من قرابته بمداخلة عثمان هذا ، زعموا في غدره ، ونصب للأمر ابنه محمد صبيّاً لم يبلغ الحلم . وأقام بأمره وزيره محمد بن المحروق من صنائع دولتهم ، فاستبدّ عليه وألقى زمام الدولة بيد عثمان في النقص والإبرام ، فاعتزّ عليهم وقاسمهم في الأمر ، واستأثر في أعطيات الغزاة بكثير من أموال الجباية ، حتى خشي الوزير على الدولة . وأدار الرأي في كبره^(١) على التغلب ، فجمع وفسد ما بينه وبين الوزير ابن المحروق ، فانتقص عليه وخرج مغاضباً ، فاضطربت فساطيطه بمرج غرناطة . واعصوب جماعة الغزاة من قبائل زناته عليه ، واعتصم الوزير وأهل الدولة بالحمراء وسعى الناس بينها أياماً ، وأدار الوزير الرأي في أن ينصب له كفواً من قرابته ، يجاذبه الجبل ويشغله بشأنه عن الدولة ، فجأجأ بيحيى بن عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق وكان في جملة عثمان وأصهر إليه في ابنته . وعقد له على الغزاة وتسايلاوا إليه . وبرز^(٢) عثمان بمعسكره في عشيره وولده ، وعقد معه السلم في أن يحيز إلى المغرب . وأوفد بطانته على السلطان أبي سعيد سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وارتحل من ساحة غرناطة في ألف فارس من ذويه وأقاربه وحشمه . وقصد تدرش^(٣) ليجعلها فرضة لحازه ، حتى إذا حاذى تدرش^(٤)

(١) وفي نسخة ثانية : في كبحه .

(٢) وفي نسخة ثانية : وتفرّد .

(٣) وفي نسخة ثانية : وقصد المرية .

(٤) وفي نسخة ثانية : اندوس وفي نسخة أخرى : اندوجر .

وكان بينه وبين رؤسائها مداخله ، فخرجوا إليه مؤدّين حق مبرّته ، فغدر بهم وأركب إليها فلكها وضبطها ، وأنزل بها حرمه وأثقاله . ودعا محمد ابن الرئيس أبي سعيد من شلوبانية كان منزلاً بها ، فجاء إليه ونصّبه للأمر ، وشنّ الغارات على غرناطة صباحاً ومساءً ، واضطربت نار الفتنة . واستركب يحيى بن رحو من قدر عليه من زناتة . وطالت الحرب سنين حتى إذا فتك السلطان محمد بن الأحمر بوزيره ابن المحروق ، استدعى عثمان بن أبي العلاء ، وعقد له السلم على أن يحيز عمّه إلى المغرب ويلحق بغرناطة لشأنه من رياسة الغزاة ، فتمّ ذلك سنة تسع وعشرين وسبعائة ورجع إلى مكانه من الدولة . وهلك إثر ذلك لسبع وثلاثين سنة من إمارته على الغزاة . والبقاء لله وحده .

* (الخبر عن رياسة ابنه أبي ثابت من بعده
ومصير أمرهم) *

لما هلك شيخ الغزاة ويعسوب زناتة عثمان بن أبي العلاء ، قام بأمره وقومه ابنه أبو ثابت عامر ، وعقد السلطان أبو عبدالله بن أبي الوليد له على الغزاة المجاهدين كما كان أبوه ، فعظم شأنه قوّة وشكيمة وكثرة عصابة ونفوذ رأي وبسالة . وكان لقومه اعتزاز على الدولة ، بما عجموا من عودها ، وكانوا أولي بأس وقوّة فيها واستبداد عليها ، وكان السلطان محمد بن أبي الوليد مستنكفاً عن الاستبداد عليه في القلّة والكثرة ، فكان كثيراً ما يخرقهم^(١) بتسفيه آرائهم والتضييق عليهم في جاههم . ولما وفد على السلطان أبي الحسن سنة إثنين وثلاثين وسبعائة صريحاً على الطاغية ، واستغذّ ابنه الأمير أبا مالك لمنازلة جبل الفتوح ، اتهموه بمداخله السلطان أبي الحسن في شأنهم ، فتنكروا وأجمعوا الفتك به ، وداخلوا في ذلك بعض صنائعه ممن كان متربصاً بالدولة فساعدهم . ولما افتتح الجبل وكان من شأنه ما قدّمنا ذكره ، وزحف الطاغية فأناخ عليه ، وقصد ابن الأحمر الطاغية في بنيه راغباً أن يرجع إلى الحصن ، فرجع

(١) وفي نسخة ثانية : يحقدّمهم .

وافترقت عساكر المسلمين ، ارتحل السلطان ابن الأحمر إلى غرناطة سنة ثلاث وثلاثين وسبعائة وقد قعدوا له بمرصد من طريقه . ونمي الخبر إليه ، فدعا بأسطوله لركوب البحر إلى مالقة ، واستبق إليهم الخبر بذلك ، فتبادروا إليه ولقوه بطريقه من ساحل اصطبونة ، فلاحوه وعاتبوه في شأن صنيعته عاصم من معلوجيه ، وحاجّهم عنه ، فاعتوروا عاصماً بالرماح فنكر ذلك عليهم ، فألحقوه به ، وخرّ صريعاً عن مركوبه ، وبعثوا إلى أخيه يوسف فأعطوه بيعتهم ، وصفقة أيمانهم ، ورجعوا به إلى غرناطة وهو حذر منهم لفعلتهم التي فعلوا . واستمرت الحال على ذلك . ولما استكمل السلطان أبو الحسن فتح تلمسان وصرف عزائمه إلى الجهاد داخل ابن الأحمر في إزاحتهم عن الأندلس مكان جهاده ، فصادف منه إسعافاً وقبولاً وحرصاً على ذلك ، وتقبّض على أبي ثابت وإخوته إدريس ومنصور وسلطان . وفرّ أخوهم سليمان فلاحق بالطاغية ، وكان له في يوم طريف أثر في الإيقام بالمسلمين ، ولما تقبّض ابن الأحمر على أبي ثابت وإخوته ، أودعهم جميعاً المطبق أياماً ، ثم غرّبهم إلى أفريقية ، فترلوا بتونس على مولانا السلطان أبي يحيى . وأوعز إليه السلطان أبو الحسن بالتوثق منهم أن يتصلوا بنواحي المغرب ، ويخالفوه إليها أيام شغله بالجهاد في الأندلس ، فاعتقلهم وأوفد أبا محمد بن تافراكين إلى سدة السلطان أبي الحسن إليه شفيعاً فيهم ، فقتبل شفاعته وأحسن نزلهم وكرامتهم ، حتى إذا احتلّ بسبته أيام حصار الجزيرة في سنة ثلاث وأربعين وسبعائة سعى بهم عنده ، فتقبّض عليهم واعتقلهم بمكناسة . ولما انتزى ابنه الأمير أبو عنان على الأمر . وهزم منصور ابن أخيه أبي مالك صاحب فاس ، ونازله بالبلد الجديد ، بعث فيهم إلى مكناسة ، فأطلقهم من الاعتقال وأفاض فيهم الإحسان ، واستظهر على شأنه . وأحلّ أبا ثابت محل الشورى من مجلسه ، وداخل إدريس أخاه في المكر بالبلد الجديد ، فترع إليها ومكر بهم ، وثار عليهم إلى أن نزلوا على حكم السلطان أبي عنان ، فعقد لأبي ثابت على سبته وبلاد الريف ليشارف منها الأندلس محل إمارته . وأطلق يده في المال والجيش ، وفصل لذلك ، فهلك بالطاعون يومئذ سنة تسع وأربعين وسبعائة بمعسكره أزاء معسكر السلطان من حصار البلد الجديد . واستقرّ إخوانه في إيالة السلطان أبي عنان بالمغرب الأقصى إلى أن كان من مفرّ أخيه إدريس وولايته على الغزاة بالأندلس ، ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن يحيى بن عمر بن رحو ومارته على الغزاة بالأندلس أولاً وثانياً ومبدأ ذلك وتصاريفه

كان رحو بن عبدالله كبير ولد عبدالله بن عبد الحق ، وكان له بنون كثيرون ، وتشعب نسله فيهم ، منهم : موسى وعبد الحق والعبّاس وعمر ومحمد وعلي ويوسف . أجازوا كلهم إلى الأندلس مع أولاد سوط النساء من تلمسان كما قدّمناه . وأقام عمر بعدهم بتلمسان مدّة واتخذ بها الأهل والولد . ثم لحقهم وولّى موسى إمارة الغزاة بعد ابراهيم ابن عيسى الوسافي ، وبعده أخوه عبد الحق على الغزاة أقام بها مدّة وأجاز إلى سبّنة مع الرئيس أبي سعيد وعثمان بن أبي العلاء سنة خمس وسبعائة وولي بعدها على الغزاة المجاهدين . ثم رجع إلى الأندلس ، ولم يلبث بها أن أجاز إلى المغرب . ونزل على السلطان أبي سعيد ، فأكرم تزلّه ، ثم رجع إلى الأندلس . ولما ولي إمارة الغزاة عثمان بن أبي العلاء ، وكان بينهم من المنافسة ما يكون بين فحول الشول ، أشخص بني رحو جميعاً إلى أفريقية ، فترّلوا على مولانا السلطان أبي يحيى خير نزل ، اصطفاهم واستخلصهم واستظهر جمعهم في حروبه . وهلك عمر بن رحو ببلاد الجريد وقبره ببشرى من نفزاوة معروف ، ونزع ابنه يحيى من بين إخوته عن مولانا السلطان أبي يحيى ، وصار في جملة ابن أبي عمران ، ثم لحق بزواوة وأقام في بني يترائن^(١) سنين ، ثم أجاز إلى الأندلس واستقرّ بمكانه من قومه . واصطفاه عثمان بن أبي العلاء وأصهر إليه بابنته ، وخلطه بنفسه . ولما فسد ما بينه وبين ابن المحروق وزير السلطان بغرناطة سنة سبع وعشرين وسبعائة واعصوب عليه الغزاة بمعسكره من مرج غرناطة دسّ إليه يومئذ ابن المحروق إلى يحيى بن عمر هذا . ودعاه إلى مكان عمله ليضبطه^(٢) بذلك ، فأجاب ونزع عن عثمان وقومه إلى ابن المحروق وسلطانه . وعقد له على الغزاة فسايلوا إليه عن عثمان شيخهم ، وانصرف إلى المدينة وكان من شأنه ما قصصناه في أخباره ، وأقام يحيى بن عمر في رياسته إلى أن هلك ابن المحروق بفتكة سلطانه . واستدعى عثمان بن أبي العلاء للرياسة فرجع إليها .

(١) وفي نسخة ثانية : يراتن .

(٢) وفي نسخة ثانية : إلى مكان عثمان ليغيظه .

وصرف يحيى بن عمر إلى وادي آش ، وعقد له على الغزاة بها فأقام حيناً ، ثم رجع إلى مكانه بين قومه . واصطفاه عثمان بن أبي العلاء وابنه أبا ثابت لما كانت أمه بنت موسى بن رحو ، فكان يتعصب لخولته فيهم ثم هلك عثمان وكان ما قدمناه من شأن ولده وفتكهم بالسلطان المخلوع . وتقبض أخوهم أبو الحجاج عليهم ، وأشخصهم إلى أفريقية وقوض مباني رياستهم . وعقد على الغزاة مكانهم ليحيى بن عمر هذا ، فاضطلع بها أحسن اضطلاع . واستمرت حاله وحضر مشاهد أبي الحجاج مع السلطان أبي الحسن ، فظهرت كفايته وغناؤه . ولما هلك أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة طعيناً بمصلّى العيد ، في آخر سجدة من صلاته ، بيد عبد من عبيد اصطبله مصاب في عقله ، أغري زعموا به ، وقتل لحينه هرباً بالسيوف . وبويع لابنه محمد ، أخذ له البيعة على الناس يومئذ مولاه رضوان من معلوجاتهم ، حاجب أبيه وعمّه . وقام بأمره واستبدّ عليه وحجره ، فقام يحيى بن عمر هذا في شأنه وشاركه في أمره وشدّ أزرسلطانه به ، حتى إذا ثار بالحمراء الرئيس ابن عثمّ محمد ابن اسمعيل بن محمد ابن الرئيس أبي سعيد قائماً بدعوة اسمعيل بن أبي الحجاج أخي السلطان محمد كان ساكناً بالحمراء . وتحبّثوا لذلك مغيب السلطان في منتهزه بروضة خارج الحمراء ، فخالفوه إليها وكبسوها ليلاً فقتلوا الحاجب المستبد رضوان . وأجلس السلطان على سرير ملكه ونادوا بالناس إلى بيعته . ولما أصبح غدا عليهم يحيى بن عمر بعد أن يشؤا منه وخشوا عاديته ، فأتاهم ببيعته وأعطى عليها صفقته وانصرف إلى منزله . وبعد استيلائهم استخلصوا إدريس بن عثمان بن أبي العلاء ، كان وصل إليهم من دار الحرب بأرض برشلونة كما نذكر . وولّوه إمارة الغزاة واثمروا في التقبّض على يحيى بن عمر . ونذر بذلك فركب في حاشيته يؤمّ دار الحرب من أرض الجلالقة ، واتبعه إدريس فيمن إليه من قومه ، فقاتلهم صدر نهاره وفضّ جموعهم . ثم خلص إلى تخوم النصرانية ولحق منها بسدة ملك المغرب أثر سلطانه المخلوع محمد بن أبي الحجاج ، وخلف ابنه أبا سعيد عثمان بدار الحرب . ونزل يومئذ على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعمائة فأكرم مثواه وأحلّه من مجلسه محل الشورى والمؤامرة ، واستقرّ في جملته إلى أن بعث ملك قشتالة في السلطان المخلوع ، بإشارة ابنه أبي سعيد وسعايته في ذلك ، ليجلب به على أهل الأندلس بما نقضوا من عهده . وجهّزه السلطان أبو سالم سنة ثلاث وستين وسبعمائة فصحبه

يحيى بن عمر هذا . ولقيهم ابنه أبو سعيد عثمان وقاموا بأمر سلطانهم ، واستولى على الأندلس بمظاهرتهم ، وكان لهم آثار في ذلك . ولما استولى على غرناطة سنة ثلاث وستين وسبعائة عقد ليحيى بن عمر على إمارة الغزاة كما كان وأعلى يده . واستخلص عثمان لشوراه وخلطه ببطانته . ونافسه الوزير يومئذ محمد بن الخطيب فسعى فيهم ، وأغرى السلطان بهم ، فتقبّض عليهم سنة أربع وستين وسبعائة وأودعهم المطبق . ثم أشخص يحيى سنة ست وستين وسبعائة إلى المشرق وركب السفن من المدينة ^(١) فنزل بالاسكندرية ، ورجع منها إلى المغرب ، ونزل على عمر بن عبدالله أيام استبداده واستقرّ في كرامة وخير مقامة ، ولم يزل بالمغرب على أعز الأحوال إلى أن هلك سنة إثنين وثمانين وسبعائة ثم استخلص ابنه أبا سعيد عثمان من الاعتقال سنة تسع وستين ^(٢) وسبعائة إلى أفريقية ونزل ببجاية على مولانا السلطان أبي العباس حافد مولانا السلطان أبي يحيى واستقرّ في جملته . وحضر معه فتح تونس وأبلى فيه . وأقطع له السلطان وأسنى له الجراية ، وخلطه بنفسه واصطفاه لشوراه وخلّته ، وهو لهذا العهد من عظماء مجلسه وظهرائه في مقامات حروبه ، وإخوته بالأندلس على مراكز عزّهم . وفي ظلال عصبيتهم مع قومهم ، وقد ذهب مواجد السلطان بالأندلس عليهم وصار إلى جميل رأيه فيهم . والله مالك الملك ومقلب القلوب لا ربّ غيره .

* (الخبر عن ادريس بن عثمان بن أبي العلاء وإمارته
بالأندلس ومصاير أمره) *

لما هلك أبو ثابت بن عثمان بن أبي العلاء سنة خمسين وسبعائة ، واستمرّ إخوته في جملة السلطان أبي عنان ملك المغرب وأقطعهم وأسنى جراياتهم ، وكان في إدريس منهم بقية الترشيع يراه الناس به . فلما نهض السلطان إلى فتح قسنطينة سنة ثمان وخمسين وسبعائة توغلّ في ديار أفريقية وحام قومه عن مواقعها ، تحبّلوا عليه في الرجوع به عن قصده منها . وأذنت المشيخة لمن معهم من قومهم في الانطلاق إلى المغرب حتى خفّ المعسكر من أهله وآمروا ، زعموا في اغتيال السلطان والإدالة منه

(١) وفي نسخة ثانية : الرية .

(٢) وفي نسخة ثانية : سبع وستين .

يادريس هذا ، ونذر بذلك فكر راجعاً كما ذكرناه في أخباره . ولما أشيع ذلك ركب إدريس ظهر الغدر وفر من العسكر ليلاً ، ولحق بتونس ، ونزل على القائم بالدولة يومئذ الحاجب أبي محمد بن تافراكين خير نزل وأبرّه . وركب السفين من تونس إلى العدو ، فنزل على ابن القمص صاحب برشلونة في حشمه وذويه . وأقام هنالك إلى أن كان من مهلك رضوان الحاجب المستبد بالأندلس سنة ستين وسبعائة ما قدّمناه فترع إلى منبته من غرناطة . ونزل على اسمعيل ابن السلطان أبي الحجاج والقائم بدولته يومئذ الرئيس محمد ابن عمّه اسمعيل بن محمد الرئيس أبي سعيد فلقوه مبرّة وتكريماً ورجوه بالإدالة به من يحيى بن عمر أمير الغزاة يومئذ ، لما كانوا يتهمونه به من ممالأة المخلوع صاحب الأمر عليهم . ولما نزع يحيى بن عمر إلى الطاغية ، ولحق بدار الحرب سنة إحدى وستين وسبعائة عقدوا لإدريس بن عثمان هذا على الغزاة مكانه . وولّوه خطة أبيه وأخيه بدولتهم ، فاضطلع بها . ومالاً الرئيس محمداً على قتل سلطانه اسمعيل بن الحجاج واستبدّ بالأمر ، ولستين من ولايته غلبه المخلوع أبو عبدالله على الأمر ، وزحف إليه من رندة ، كان نزل بها بعد خروجه من دار الحرب مغاضباً للطاغية . وأذن له وزير المغرب عمر بن عبدالله في نزولها فترها ، ثم زحف إلى الثائر بغرناطة على ملكهم الرئيس وحاشيته فأجفلوا . ولحق الرئيس محمد بن إدريس هذا بقشتالة ، ونزلوا في جملتهم وحاشيتهم على الطاغية ، فتقبّض عليهم . وقتل الرئيس محمد وحاشيته جزاء بما أتوه من غدر رضوان . ثم غدر السلطان اسمعيل من بعده وأودع إدريس ومن معه من الغزاة السجن بإشبيلية ، فلم يزل في أسره إلى أن تحيل في الفرار بمداخلة مسلم من الأسرى^(١) أعد له فرساً أزاء معتقله ، ففكّ قيده ، ونقب البيت ، وامتنطى فرسه ولحق بأرض المسلمين سنة ست وستين وسبعائة واتبعوه فأعجزهم ، وجاء إلى السلطان أبي عبدالله محمد المخلوع فأكرم نزله وأحسن مبرّته ، ثم استأذنه في اللحاق بالمغرب فأذن له وأجاز إلى سبتة ، وبلغ شأنه إلى صاحب الأمر بالمغرب يومئذ عمر بن عبدالله ، فأوعز إى صاحب سبتة بالتقبّض عليه لمكان ما يؤنس من ترشيحه . وأودعه السجن بمكناسة ، ثم نقله السلطان عبد العزيز إلى سجن الغدر^(٢) بفاس ، ثم قتلوه خنقاً سنة سبعين وسبعائة

(١) وفي طبعة بولاق المصرية : الدجن .

(٢) وفي طبعة بولاق المصرية : الغور .

* (الخبر عن إمارة علي بن بدر الدين على الغزاة بالأندلس
ومصاير أمره) *

قد ذكرنا أنّ موسى بن رحو بن عبدالله بن عبد الحق ، كان أجاز إلى الأندلس مع محمد وعامر ابني إدريس بن عبد الحق وقومهم ، أولاد سوط النساء سنة تسع وستين وسبعائة ثم رجع إلى المغرب وفرّ إلى تلمسان وأجاز منها إلى الأندلس . وولي إمارة الغزاة بها إلى أن هلك بعد أن أصهر إليه السلطان يوسف بن يعقوب في إبنته ، فعقد له عليها وزفّها إليه سنة تسع وسبعين وسبعائة مع وفد من قومهم . وكان لموسى بن رحو من الولد جماعة أكبرهم المحمدان جمال الدين وبدر الدين ، وضع عليهما هذين اللقبين على طريقة أهل المشرق الشريف المكّي الوافد على المغرب لذلك العهد من شرفاء مكة . وكان هؤلاء الأعياص من ملوكهم وأقيالهم يعظمون أهل البيت النبوي ويلتمسون الدعاء والبركة منهم فيما تيسّر من أحوالهم ، فحمل موسى بن رحو ولديه هذين عند وضعهما إلى الشريف يحنّكهما ويدعو لهما ، فقال له الشريف خذ إليك جمال الدين ، وقال في الآخر خذ إليك بدر الدين ، فاستحب موسى دعاءهما بهذين اللقبين تبركاً بتسمية الشريف بهما ، فاشتهرا بهذين الاسمين . ولما بلغا الأشد وشاركا أباهما في حمل الرياسة وكان من مهلكه ما ذكرناه ، وانخرفت رياسة الغزاة عنهما إلى عمّهما عبد الحق وابنه ، فلحق جمال الدين منهما بالطاغية سنة ثلاث ثم أجاز البحر من قرطاجنة إلى السلطان يوسف بن يعقوب من معسكره من حصار تلمسان ، واستقرّ في جملته حتى إذا هلك السلطان تصدّى ابنه ابو سالم للقيام بأمره ، وكان مغلباً مضعفاً فلم يثمّ أمره ، وتناول الملك أبو ثابت حافد السلطان واستولى عليه . وفرّ أبو سالم عشيّ مهلكه ومعه من القرابة جمال الدين هذا وأعمامه العباس وعيسى وعلي بنو رحو بن عبدالله ، فتقبّض عليهم في طريقهم بمدينةونة وسبقوا إلى السلطان أبي ثابت ، فقتل عمّه أبا سالم وجمال الدين بن موسى بن رحو ، وامتنّ على الباقيين واستحياهم ، وانصرف السلطان بعدها إلى الأندلس ، فكانت له في الجهاد آثار كما ذكرناه قبل . وأما بدر الدين فلم يزل بالأندلس مع قومه ، ومحلّه من الرياسة والتجلّة

حلّه من النسب إلى أن هلك ، فقام بأمره من بعده ابنه علي بن بدر الدين مزاحماً لقومه في الرياسة ، مباحياً في الترشيح . وكان كثيراً ما يعقد له ملوك بني الأحمر على الغزاة من زناتة المرابطين بالثغور فيما بعد عن الحضرة من قواعد الأندلس ، مثل مالقة والمرية ووادي آش ، سبيل المرشحين من أهل بيته ، وكانت إمارة الغزاة بالأندلس مستأثرة بأمر السيف والحرب ، مقاسمة للسلطان أكثر الجباية في الأعطية والأرزاق لما كانت الحاجة إليهم في مدافعة العدو ومقارعة ملك المغرب إلى ملك الأندلس ، يغضون لهم عن استغلالهم عليهم لمكان حاجتهم إلى دفاع العدوين ، حتى إذا سكن ريح الطاغية بما كان من شغله بفتنة أهل دينه منذ منتصف هذه المائة ، وشغل بنو مرين أيضاً بعد مهلك السلطان أبي الحسن وتناشوا عهد الغلب على أقتالهم وجيرانهم ، وتناشوا عهد ذلك أجمع . فاعتزم صاحب الأندلس على نحو هذه الخطة من دولته . وأغراه بذلك وزيره ابن الخطيب كما ذكرناه حرصاً على خلاء الجوّله ، فتقبّض على يحيى بن عمر وبنه سنة أربع وستين وسبعمائة كما ذكرناه ، وعقد على الغزاة المجاهدين لابنه وليّ عهده الأمير يوسف ، ومحا رسم الخطة لبني مرين بالحملة إلى أن توسّم فناء الحامية منهم بفناء بيوت العصية الكبرى ، فراجع رأيه في ذلك . وكان علي بن بدر الدين خالصة له وكان مقدّماً على الغزاة بوادي آش . ولما لحق السلطان به ناجياً من النكبة ليلة مهلك رضوان ، مانع دونه وظاهره على أمره حتى إذا ارتحل إلى المغرب ارتحل معه . ونزلوا جميعاً على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعمائة كما ذكرناه . ولما رجع إلى الأندلس رجع في جملته فكان له بذلك عهد وذمة رعاها السلطان له ، وكان يستخلصه ويناجيه . فلما تفقد مكان الأمير على الغزاة ونظر من يوليّه عثر اختياره على هذا لسابقته ووسائله وما تولّاه من نصحه ووقوفه عند حدّه ، فعقد له سنة سبع وستين وسبعمائة على الغزاة كما كان أولوه ، فقام بها واضطلع بأمورها ، واستمرت حاله إلى أن هلك حتف أنفه سنة ثمان وستين وسبعمائة ، ويبقى وجه ريك ذو الجلال والإكرام .

الخبر عن إمارة عبد الرحمن بن علي أبي يفلوسن ابن السلطان
أبي علي على الغزاة بالأندلس ومصاير أمره

كان أولاد السلطان أبي علي قد استقروا بالأندلس وأجازوا إلى طلب الأمر بالمغرب .

وكان من أمرهم ما شرحناه ، إلى أن أجاز عبد الرحمن هذا مع وزيره المصادر^(١) به مسعود بن رحو بن ماسي سنة ست وستين وسبعائة من غساسة على سلم عقده لهم وزير المغرب المستبد بأمره يومئذ عمر بن عبد الله . ونزل عبد الرحمن هذا بالمنكب ، وكان السلطان يومئذ معسكراً بها فتلّقاه من البرّ بها يناسبه . وأكرم مثواه وأسنى الجراية له ولوزيره ولحاشيته . واستقرّوا في جملة الغزاة المجاهدين حتى إذا هلك علي بن بدر الدين سنة ثمان وستين وسبعائة نظر السلطان فيمن يوليه أمرهم ، فعفر اختياره على عبد الرحمن هذا لما عرف به من البسالة والإقدام ولقرب الشرائع^(٢) بينه وبين ملك المغرب يومئذ ، التي هي ملاك الترشيح لهذه الخطة بالأندلس كما قدّمناه ، لِمَا كانت رشائع ولد عبد الله بن عبد الحق قد بعدت باتصال الملك في عمود نسب صاحب المغرب دون نسبهم ، فأثّره صاحب الأندلس بها ، وعقد له على الغزاة المجاهدين سنة ثمان وستين وسبعائة وأضفى عليه لبوس الكرامة والتجّلّة وأقعده بمجلس المؤازرة^(٣) كما كان الأمراء قبله ، واتصل الخبر بسلطان المغرب يومئذ عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ، فعصّ بمكانه ، وتوهم أنّ هذه الإمارة زيادة في ترشيحه ووسيلة لملكه ، وكانت لوزير الأندلس محمد بن الخطيب مداخلة مع صاحب المغرب ، بما أمّل أن يجعله فيئة لاعتصامه ، فأوعز إليه بالتحيّل على إفساد ما بينه وبين صاحب الأندلس ، فجهّد في ذلك جهده . ونسب عليه وعلى وزيره مسعود بن ماسي إلى عطاء القبيل وبعض البطانة من أهل الدولة التحسّب^(٤) والدعوة إلى الخروج على صاحب المغرب ، فأحضرهم السلطان ابن الأحمر وأعطاهم كتابهم ، فشهد عليهم وأمر بهم المغرب ، فأحضرهم السلطان ابن الأحمر وأعطاهم كتابهم ، فشهد عليهم وأمر بهم فاعتقلوا في المطبق سنة سبعين وسبعائة واسترضى صاحب المغرب بفعلته فيهم ، ونزع الوزير ابن الخطيب بعد ذلك إلى السلطان عبد العزيز ، وتبيّن للسلطان مكره واحتياله عليه في شأنهم . ولما هلك عبد العزيز وأظلم الجوّ بين صاحب الأندلس وبين

(١) وفي طبعة بولاق المصرية : المطارد به .

(٢) وفي طبعة بولاق المصرية : الوشائج .

(٣) وفي طبعة بولاق المصرية : الوزارة .

(٤) وفي طبعة بولاق المصرية : بالتحبيب .

القائم بالدولة أبي بكر بن غازي كما قدّمناه ، وامتنع ابن الأحمر للمسلمين من
الفوضى ، أطلق عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره مسعود بن ماسي من الاعتقال
وجَهّز لها الأسطول ، فأجازوا فيه إلى المغرب ونزلوا بمرسى غساسة على بطوية داعياً
لنفسه ، فقاموا بأمره وكان من شأنه مع الوزير أبي بكر بن غازي ما قصصناه ،
واستقرّ آخراً بمراكش وتقاسم ممالك المغرب وأعماله مع السلطان أبي العباس أحمد
ابن أبي سالم صاحب المغرب لهذا العهد . وصار التحم بينهما وادي ملوية . ووقف كلُّ
واحد منهما عند حدّه ، وأغفل صاحب الأندلس هذه الخطة من دولته ومحا رسمها
من ملكه . وصار أمر الغزاة المجاهدين إليه ، وباشر أحوالهم بنفسه ، وعَمَّهُم
بنظرة ، وخصّ القراية المرشّحين منهم بمزيد تكرمته وعنايته . والأمر على ذلك لهذا
العهد ، وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة والله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ويتزع
الملك ممن يشاء لا ربّ غيره ولا معبود سواه .

علي بن بدر الدين بن محمد —
حمو بن عبد الحق —

تمّ كتاب أخبار الدول الإسلامية بالمغرب لولي الدين أبي زيد عبد الرحمن بن
خلدون الحضرمي الإشبيلي المالكي .
والحمد لله رب العالمين^(١) .

* (التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب) (٢) *

أصل هذا البيت من إشبيلية انتقل عند الجلاء وغلب ملك الجلالقة ابن أدفونش
عليها إلى تونس في أواسط المائة السابعة * (نسبه) * عبد الرحمن بن محمد بن محمد
بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن
خلدون^(٣) هذا لا أذكر من نسبي إلى خلدون غير هذه العشرة ، ويغلب على الظنّ
أنهم أكثر ، وأنه سقط مثلهم عدداً ، لأنّ خلدون هذا هو الداخل إلى الأندلس ،
فإن كان أول الفتح فالمدة لهذا العهد سبعائة سنة ، فيكونون زهاء العشرين ، ثلاثة
لكل مائة ، كما تقدّم في أول الكتاب الأول . ونسبنا في حضرموت من عرب اليمن
إلى وائل بن حُجر من أقبال العرب ، معروف وله صحبة . قال أبو محمد بن حزم في
كتاب الجمهرة : هو وائل بن حُجر بن سعد بن مسروق بن وائل ، ابن النعمان بن
ربيعة بن الحرث بن عوف بن سعد بن عوف بن عديّ بن مالك بن شُرْحِيل بن
الحرث بن مالك بن مُرّة بن حِمير بن زيد بن الحضرميّ بن عمر بن عبد الله بن

(١) هكذا في النسخة الجزائرية تحقيق البارون دي سلان وفي طبعة بولاق المصرية وغيرها فقد اضيف الى هذا
الكتاب فصل التعريف بابن خلدون .

(٢) هكذا ختم ابن خلدون الجزء الأخير من كتابه بالتعريف عن نفسه و اضاف بخطه في بعض النسخ
« ورحلته غربا وشرقا » .

(٣) بفتح الخاء هكذا اضبطه بخط يده وكما نص عليه السخاوي في الضوء اللامع ج ٤ ص ١٤٥ .

عَوْف بن جُرْدُم بن جُرْسُوم بن عبد شمس بن زيد بن لؤي بن ثبَّت^(١) بن قُدّامة
ابن أَعَجَب بن مالك بن مالك بن لؤي بن قحطان . وابنه عَلَقَمَة بن وائل وعبدُ
الجُبّار بن علقمة بن وائل .

وذكره أبو عمر بن عبد البرّ في حرف الواو من الاستيعاب . وأنه وفد على النبيّ صلى
الله عليه وسلّم ، فبسط له رداءه وأجلسه عليه ، وقال : « اللهمّ بارك في وائل بن
حُجْر وولده وولد ولده إلى يوم القيامة » . وبعث معاوية بن أبي سفيان إلى قومه
يعلمهم الإسلام والقرآن ، فكان له بذلك صحابة مع معاوية . ووفد عليه لأوّل
خلافته فأجازته ، فردّ عليه جائزته ولم يقبلها .

ولما كانت وقعة حجر بن عديّ الكندي بالكوفة ، اجتمع رؤوس أهل اليمن ، فيهم
وائل هذا فكانوا مع زياد بن أبي سفيان^(٢) عليه ، حتى أوثقوه وجاؤا به إلى معاوية
فقتله كما هو معروف .

وقال ابن حزم : ويذكر بنو خلدون الإشبيليّون من ولده ، جدّهم الداخل من
المشرق خالد المعروف بخلدون بن عثمان بن هانيء بن الخطّاب بن كُريّت^(٣) بن
مَعْدٍ يَكُرب بن الحرث بن وائل بن حُجْر قال : ومن عقبه كُريّت بن عثمان بن
خلدون وأخوه خالد ، وكانا من أعظم ثوار الأندلس .

قال ابن حزم : وأخوه محمد ، كان من عقبه أبو العاصي عمرو بن محمد بن خالد بن
محمد بن خلدون . وترك أبو العاصي محمداً وأحمد وعبدالله . قال : وأخوهم عثمان ،
له عقب ومنهم الحكيم المشهور بالأندلس تلميذ مَسْلَمَة المَجْريطي^(٤) . وهو أبو
مسلم عمر بن محمد^(٥) بن تقي بن عبدالله بن أبي بكر بن خالد بن عثمان بن خلدون
الداخل . وابن عمّه أحمد بن محمد بن عبدالله . قال : ولم يبق من ولد كُريّت

(١) قيدها بخطه بفتح الشين وسكون الباء الموحدة بعدها مائة فوفية .

(٢) هو زياد بن أبيه وهو الذي اعترف به معاوية بأنه أخوه .

(٣) وفي نسخة ثانية : كريب وقد قيده بخطه بضم الكاف وفتح الراء .

(٤) المجريطي وهو مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبدالله المجريطي : فيلسوف ، رياض ، فلكي ، كان أمام
الرياضيين بالأندلس وأوسعهم احاطة بعلم الأفلاك وحركات النجوم مولده ووفاته بمجريط (مدريد)
الاعلام للزركلي/ج ٧ ص ٢٢٤ .

(٥) وفي عيون الانباء ج ٢ ص ٤١ : عمر بن أحمد بن خلدون بن تقي ، وابن خلدون هذا من اشراف
إشبيلية ، وكان فيلسوفاً مهندساً طبيباً توفي سنة ٤٤٩ هـ .

الرئيس المذكور إلا أبو الفضل بن محمد بن خلف بن أحمد بن عبد الله بن كريت انتهى . كلام ابن حزم .

(سلفه بالأندلس) ولما دخل خلدون بن عثمان جدنا إلى الأندلس ، نزل بقرمونة في رهط من قومه حضرموت ، ونشأ بيت بنيه بها ، ثم انتقل إلى إشبيلية . وكانوا في جند اليمن ، وكان الكُريت من عقبه وأخيه خالد ، الثورة المعروفة بإشبيلية أيام الأمير عبد الله المرواني ، ثار على أبي عَبْدَةَ وملكها من يده أعواماً . ثم ثار عليه عبد الله بن حجاج بإملاء الأمير عبد الله وقتله ، وذلك في أواخر المائة الثالثة .

(وتلخيص الخبر عن ثورته ^(١)) ما نقله ابن سعيد ^(٢) عن الحجازي ^(٣) وابن حيّان ^(٤) وغيرهما ، وينقلونه عن ابن الأشعث مؤرخ إشبيلية أن الأندلس لما اضطربت بالفتن أيام الأمير عبد الله ، تطاول رؤساء إشبيلية إلى الثورة والاستبداد ، وكان رؤساؤها المتطاولون إلى ذلك في ثلاثة بيوت : بيت أبي عَبْدَةَ ورئيسهم يومئذ ابن عبد الغافر بن أبي عُبَيْدَةَ ، وكان عبد الرحمن الداخل ولّى إشبيلية وأعمالها أبا عبدة ، وكان حافذه أُمَيَّة من أعلام الدولة بقرطبة ، ويولّونه المالك الضخمة . وبيت بني خلدون ورئيسهم كُريت المذكور ، ويردّفه خالد أخوه .

قال ابن حيّان : وبيت بني خلدون إلى الآن في إشبيلية ، نهاية في النباهة ، ولم تزل أعلامه بين رياسة سلطانيّة ورياسة علمية . ثم بيت بني حجاج ورئيسهم يومئذ عبد الله . قال ابن حيّان : هو من لَحْم وبيتهم إلى الآن في إشبيلية ثابت الأصل نابت الفرع موسوم بالرياسة السلطانية والعلمية . فلما عظمت الفتنة بالأندلس أعوام الثمانين ومائتين ، وكان الأمير عبد الله قد ولّى على إشبيلية أُمَيَّة بن عبد الغافر ، وبعث معه ابنه محمداً وجعله في كفاله ، فاجتمع هؤلاء النفر وثاروا بمحمد بن الأمير

(١) راجع أخبار هذه الثورة في المجلد الرابع من هذا الكتاب .

(٢) هو علي بن موسى بن سعيد العنسي الغرناطي (٦١٠ — ٦٧٣) صاحب كتاب « المغرب » و « المشرق » وغيرهما . يعتمد عليه ابن خلدون كثير في النسب والتاريخ .

(٣) هو صاحب كتاب « المسهب في غرائب المغرب » ، وهو أبو محمد عبد الله إبراهيم الحجاري نسبة الى وادي الحجارة وهو من أهل القرن السابع .

(٤) ابن حيّان : هو مؤرخ الأندلس واسمه أبو مروان حيّان بن خلف بن حسين بن حيّان القرطبي (٣٧٧ — ٤٦٩) له كتاب التين في التاريخ ، والمقتبس في تاريخ الأندلس وكتاب معرفة الصحابة .

(وفيات الأعيان ١ ص ٢١٠) .

عبدالله ، وبأمانة صاحبهم ، وهو بمائتهم على ذلك ، ويكيد بابن الأمير عبدالله . وحاصروه حتى طلب منهم اللحاق بأبيه فأخرجوه ، واستبدأمية إشبيلية ، ودس على عبدالله بن حجاج من قتله ، وأقام أخاه ابراهيم مكانه . وضبط إشبيلية واسترهن أولاد بني خلدون وبني حجاج ثم ثاروا به ، وهم بقتل أبنائهم فراجعوا طاعته ، وحلفوا له ، فأطلق أبنائهم فانتقضوا ثانية . وحاربوه فاستمات وقتل حُرمة وعقر خيوله ، وأحرق موجوده . وقاتلهم حتى قتلوه مقبلاً غير مدبر ، وعاثت العامة في رأسه . وكتبوا إلى الأمير عبدالله بأنه خلع فقتلوه ، فقبل منهم مداراة ، وبعث عليهم هشام بن عبد الرحمن من قرابته ، فاستبدوا عليه وفتكوا بابنه ، وتولى كبر ذلك كريت بن خلدون . واستقل بإمارتها .

وكان ابراهيم بن حجاج بعدما قتل أخوه عبدالله على ما ذكره ابن سعيد عن الحجاري سمّت نفسه إلى التفرد ، فظاهر ابن حفصون^(١) أعظم ثوار الأندلس يومئذ ، وكان بمالقة وأعمالها إلى رُنْدَة ، فكان له منه ردة . ثم انصرف إلى مداراة كُريت بن خلدون وملاسته ، فردفه في أمره ، وأشركه في سلطانه ، وكان في كريت تحامل على الرعية وتعصّب ، فكان يتجهّم لهم ويغلظ عليهم ، وابن حجاج يسلك بهم الرفق والتلطّف في الشفقة^(٢) بهم عنده ، فانحرفوا عن كريت إلى ابراهيم . ثم دس إلى الأمير عبدالله يطلب منه الكتاب بولاية إشبيلية ، لتسكن إليه العامة ، فكتب إليه العهد بذلك . وأطلع عليه عرفاء البلد مع ما أشربوا من حبّه ، والنفرة عن كُريت ، ثم أجمع الثورة . وهاجت العامة بكُريت فقتلوه ، وبعث برأسه إلى الأمير عبدالله ، واستقرّ بإمارة إشبيلية .

قال ابن حيّان : وحصّن مدينة قرْمُونَة من أعظم معاقل الأندلس ، وجعلها مرتبطاً لخيوله ، وكان ينتقل بينها وبين إشبيلية . واتخذ الجند ورتبهم طبقات ، وكان يصانِع الأمير عبدالله بالأموال والهدايا ، وبعث إليه المدد في الصوائف^(٣) . وكان مقصوداً

(١) هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميّان بن فرغلوش بن ادفونش القس . وهو أول نائر بالأندلس وهو الذي افتتح الخلاف بها ، وفارق الجماعة أيام محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٧٠ وتوفي سنة ٣٠٦ (راجع أخبار ثورته في المجلد الرابع من هذا الكتاب .

(٢) وفي نسخة ثانية : في الشفاعة .

(٣) الصوائف : جمع صائفة : « وهي غزوات المسلمين الى بلاد الروم . سميت صوائف لأنهم كانوا يَغزَوْنَ صيفاً نقادياً من شدة البرد (تاج العروس) .

مُمدِّحاً ، قصده أهل البيوتات فوصلهم ، ومدحه الشعراء ومدحه أبو عمر بن عبد ربّه صاحب العقد^(١) وقصده من بين سائر الثّوار فعرف حقه وأعظم جائزته .

ولم يزل بين بني خلدون بإشبيلية كما ذكره ابن حيّان وابن حزم وغيرهما ، سائر أيام بني أمية إلى زمان الطوائف^(٢) ، وانمحت عنهم الإمارة بما ذهب لهم من الشوكة .

ولما غلب كعب بن عبّاد^(٣) على إشبيلية ، واستبدّ على أهلها استوزر من بني خلدون هؤلاء واستعملهم في رتب دولته ، وحضروا معه وقعة الجلالقة^(٤) كانت لابن عبّاد وليوسف بن تاشفين على ملوك الجلالقة ، فاستشهد فيها طائفة كبيرة من بني خلدون هؤلاء ثبتوا في الجولة مع ابن عبّاد فاستلحموا في ذلك الموقف . بما كان الظهور للمسلمين ، ونصرهم الله على عدوّهم . ثم تغلّب يوسف بن تاشفين والمرابطون على الأندلس ، واضمحت دولة العرب وفنت قبائلهم .

* (سلفه بأفريقية) * ولما استولى الموحدون^(٥) على الأندلس وملكوها من يد المرابطين ، وكان ملوكهم عبد المؤمن وبنيه . وكان الشيخ أبو حفص^(٦) كبير هنتاة زعيم دولتهم . وولّوه على إشبيلية وغرب الأندلس مراراً ، ثم ولّوا ابنه عبد الواحد عليها في بعض أيامهم ، ثم ابنه أبا زكرياء كذلك ، فكان لسلفنا بإشبيلية اتصال بهم ، وأهدى بعض أجدادنا من قبل الأمّهات ، ويعرف بالمحتسب للأمير أبي زكريا^(٧)

(١) هو أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم أبو عمر (٢٤٦ — ٣٢٨) الأديب الإمام صاحب العقد الفريد من أهل قرطبة (الاعلام ٢٠٧/١) وله ترجمة في وفيات الأعيان ٣٩/١ .

(٢) يتبدأ عصر ملوك الطوائف بالأندلس بنهاية الخلافة الاموية ، وينتهي بغلبة يوسف ابن تاشفين المرابطي عليهم جميعاً ، واستيلائه على الأندلس (راجع المجلد الرابع من هذا الكتاب) .

(٣) هو أبو القاسم المعتمد محمد بن المعتضد بن عبّاد (٤٣١ — ٤٨٨) أكبر ملوك الطوائف بالأندلس (راجع ترجمته في المجلد الرابع من هذا الكتاب) و (وفيات الاعيان) .

(٤) وفي نسخة ثانية : الزلاقة : وهي من المعارك المشهورة في تاريخ الأندلس بل في التاريخ الإسلامي ، وكان لها الأثر البعيد في الحياة الإسلامية في الأندلس وقد أسهب المؤرخون في ذكرها وذكر تفاصيلها .

(٥) نشأت دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت وهو المهدي . وقد ابتدأت دولتهم بالغرب سنة ٥١٤ وانتهت سنة ٦٨٨ هـ ، وامتد سلطانها الى الأندلس من سنة ٥٤٠ — ٦٠٩ هـ . راجع تاريخ أبي الفداء ٢٤٣/٢ .

(٦) هو أول التابعين لدعوة مهدي الموحدين وكان يسمى بالشيخ واسمه عمر بن يحيى بن محمد الهنتائي ولقبه أبو حفص ، واليه تنسب الدولة الحفصية بأفريقية ومنهم من يردهم الى ذرية عمر بن الخطاب وليس هذا بصحيح .

(٧) « هو الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد الحفصي ، ملك جل أفريقية . بايعه أهل الأندلس وأمله أهل =

يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص أيام ولايته عليهم ، جارية من سبي الجلالقة ، اتخذها أم ولد ، وكان له منها ابنه أبو زكريا يحيى وليّ عهده المالك في أيامه ، وأخوه عمر وأبو بكر ، وكانت تلقب أم الخلفاء . ثم انتقل الأمير أبو زكريا إلى ولاية أفريقية سنة عشرين وستمائة . ودعا لنفسه بها وخلع دعوة بني عبد المؤمن سنة خمس وعشرين وستمائة واستبدّ بأفريقية ، وانتقضت دولة الموحدين بالأندلس ، وثار عليهم ابن هود^(١) . ثم هلك واضطربت الأندلس وتكالب الطاغية عليها ، وتردّد الغزو إلى الفرنتيرة بسط قرطبة وإشبيلية إلى جيان . وثار ابن الأحمر من غرب الأندلس من حصن أرجونة يرجو التماسك بما بقي من رمق الأندلس . وفاوض أهل الشورى يومئذ بإشبيلية . وهم بنو الباجي ، وبنو الجند ، وبنو الوزير ، وبنو سيّد الناس ، وبنو خلدون . وداخلهم في الثورة على ابن هود ، وأن يتجافوا للطاغية عن الفرنتيرة ، ويتمسكوا بالجبال الساحلية وأمصارها المتوغّرة ، من مالقة إلى غرناطة إلى المريّة ، فلم يوافقوه على بلادهم . وكان مقدّمهم أبو مروان الباجي ، فنبذهم ابن الأحمر وخلع طاعة الباجي وبايع مرّة لابن هود ومرّة لصاحب مراکش من بني عبد المؤمن ، ومرّة للأمير أبي زكريا صاحب أفريقية . ونزل غرناطة واتخذها دار ملكه ، وبقيت الفرنتيرة وأمصارها ضاحية من ظل المُلْك ، فخشى بنو خلدون سوء العاقبة من الطاغية ، وارتحلوا من إشبيلية إلى العدوّة ، ونزلوا سبتة ، وأجلب الطاغية على تلك الثغور فملك قرطبة وإشبيلية وقرمونة وجيان وما إليها في مدّة عشرين سنة . ولما نزل بنو خلدون بسبتة أصهر إليهم العزفيّ بأبنائه وبناته ، فاختلط بهم ، وكان له معهم صهر مذكور . وكان جدنا الحسن بن محمد ، وهو سبط ابن المحتسب قد أجاز فيمن أجاز إليهم ، فذكروا سوابق سلفه عند الأمير أبي زكريا ، فقصده ، وقدم عليه فأكرم قدومه ، وارتحل إلى المشرق ففضى فرضه . ثم رجع ولحق بالأمير أبي زكريا على بونة ، فأكرمه واستقرّ في ظل دولته ومرعى نعمته ، وفرض له الأرزاق وأقطع الأقطاع . وهلك هنالك فدفن ببونة سنة سبع وأربعين وستمائة وولي ابنه المستنصر

شرق الأندلس لصدهجوم ملكي ارغون وقشتالة ، فأوفدوا إليه كاتب ابن مرديش ابا عبدالله بن الابار فأنشده القصيدة السينية المشهورة :

ادرك بخيلك خيل الله انـدلساً ان السبيل الى منجـاتها درسا

(١) هو محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن هو الجذامي . راجع أخبار ثورته في المجلد الرابع من هذا الكتاب .

محمد ، فأجرى جدنا أبا بكر على ما كان لأبيه . ثم ضرب الدهر ضرباته ، وهلك المستنصر سنة خمس وسبعين وستمائة ، وولي ابنه يحيى ، وجاء أخوه الأمير أبو اسحق من الأندلس بعد أن كان قرّ إليها أمام أخيه المستنصر . فخلع يحيى ، واستقلّ هو بملك أفريقية ، ودفع جدنا أبا بكر محمداً على عمل الأشغال في الدولة على سنن عطاء الدولة الموحدين فيها قبله ، من الانفراد بولاية العمّال وعزلهم وحسبانهم على الجباية ، فاضطلع بتلك الرتبة . ثم عقد السلطان أبو اسحق لابنه محمد ، وهو جدنا الأقرب على حجابة وليّ عهده ابنه أبي فارس أيام أن اقصاه إلى بجاية^(١) . ثم استغفى جدنا من ذلك فأعفاه ورجع إلى الحضرة ، ولما غلب الدعي ابن أبي عمارة^(٢) على ملكهم بتونس ، اعتقل جدنا أبا بكر محمداً ، وصادره على الأموال ثم قتله خنقاً في محبسه . وذهب ابنه محمد جدنا الأقرب مع السلطان أبي اسحق وأبنائه إلى بجاية فتقبّض عليه ابنه أبو فارس ، وخرج مع العساكر هو وإخوته المدافعة الدعي ابن أبي عمارة ، وهو يشبه بالفضل بن المخلوع حتى اذا استلحموا بمرما جنة خلص جدنا محمد مع أبي حفص ابن الأمير أبي زكريا من الملحمة ، ومعها الفازازي وأبو الحسين بن سيّد الناس فلحقوا بمنجاتهم من قلعة سنان . وكان الفازازي من صنائع المولى أبي حفص ، وكان يؤثره عليهم . فأما أبو الحسين بن سيّد الناس ، فاستنكف من إثارة الفازازي عليه ، بما كان أعلى رتبة منه ببلده إشبيلية ، ولحق بالمولى أبي زكريا الأوسط بتلمسان ، وكان من شأنه ما ذكرناه . وأما محمد بن خلدون فأقام مع الأمير أبي حفص وسكن لا يثار الفازازي . ولما استولى أبو حفص على الأمور رعى له سابقته وأقطعه ، ونظّمه في جملة القوّاد ومراتب أهل الحروب ، واستكفى به في الكثير من أمر ملكه ، ورشّحه لحجابه من بعد الفازازي . وهلك فكان من بعده حافد أخيه المستنصر أبو عصيدة ، واصطفى لحجابه محمد بن ابراهيم الدبّاغ كاتب الفازازي وجعل محمد بن خلدون رديفاً له في حجابه . فكان كذلك إلى أن هلك السلطان ، وجاءت دولة الأمير خالد ، فأبقاه على حاله من التجلّة والكرامة ، ولم

(١) بجاية : وتسمى الناصرية نسبة الى بانها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري الصنهاجي ، بناها في حدود سنة ٤٥٧ : — تقع اليوم — على ساحل البحر الأبيض من الجزائر وكانت قاعدة المغرب الاوسط (معجم البلدان) .

(٢) هو أحمد بن روق بن أبي عمارة من بيوتات بجاية الطارئين عليها من المسيلة (الاحاطة في تاريخ غرناطة ١٧٤١) .

يستعمله ولا عقده ، إلى أن كانت دولة أبي يحيى بن اللحياني فاصطنعه ، واستكفى به عندما تنبّضت عروق التغلب من العرب ، ودفعه إلى حماية الجزيرة من لاج^(١) إحدى بطون سُلَيْم الموطنين بنواحيها ، فكانت له في ذلك آثار مذكورة . ولما انقرضت دولة ابن اللحياني خرج إلى الشرق وقضى سنة ثمان عشرة وأظهر التوبة والإقلاع ، وعاد الحج متفلاً سنة ثلاث وعشرين وسبعائة ولزم كسر بيته . وأبقى السلطان أبو يحيى عليه نعمته في كثير مما كان بيده من الاقطاع والجراية ، ودعاه إلى حجابه مراراً فامتنع .

(أخبرني) محمد بن منصور بن مزي قال : لما هلك الحاجب بن محمد بن عبد العزيز الكردي المعروف بالمزوار سنة سبع وعشرين وسبعائة ، استدعى السلطان جدّك محمد بن خلدون وأراد على الحجابة ، وأن يفوض إليه أمره ، فأبى واستعفى فأعفاه وأمره فيمن يوليه حجابه ، فأثار عليه بصاحب ثغر بجاية محمد بن أبي الحسين بن سيّد الناس لاستحقاقه ذلك بكفايته واضطلاعه ، ولتقديم صحابة بين سلفهما بتونس ، وإشيبلية من قبل . وقال له : هو أقدر على ذلك بما هو عليه من الحاشية والدين^(٢) . فعمل السلطان على إشارته واستدعى ابن سيّد الناس وولاه حجابه . وكان السلطان أبو يحيى إذا خرج من تونس يستعمل جدّنا محمداً عليها وثوقاً بنظره واستئماناً إليه إلى أن هلك سنة سبع وثلاثين وسبعائة ونزع ابنه ، وهو والدي محمد بن أبي بكر عن طريقة السيف والخدمة إلى طريقة العلم والرباط ، كما نشأ عليه في حجر أبي عبد الله الرُنْدِي^(٣) الشهير بالفقيه ، كان كبير تونس لعهدده في العلم والفتيا ، وانتحال طرق الولاية التي ورثها عن أبي حسين وعمّه حسن ، الوليين الشهيرين . وكان جدّنا رحمه الله قد لازمه من يوم نزوعه عن طريقه ، وألزمه ابنه وهو والدي رحمه الله فقراً وتفقه ، وكان مقدّماً في صناعة العربية ، وله بصر بالشعر وفنونه ، عهدي بأهل البلد يتحاكمون إليه فيه ، ويعرضون حوكهم عليه ، وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعائة .

(١) وفي نسخة ثانية : دلاج .

(٢) وفي نسخة ثانية : الذوين .

(٣) وفي نسخة ثانية : الرُنْدِي . نسبة إلى قرية ساحل المهدية توفي عام ٧٤٠ هـ وهو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن عبد الله القرشي الزبيدي . والرُنْدِي نسبة إلى (رُنْدَة) .

* (أما نشأتي) * فإني ولدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعائة ، وربيت في حجر والدي رحمه الله إلى أن أيقفتُ وقرأتُ القرآن العظيم على الأستاذ أبي عبدالله محمد بن سعد بن نزال^(١) الأنصاري ، أصله من جالبة الأندلس من أعمال بلنسية ، أخذ عن مشيخة بلنسية وأعمالها ، وكان إماماً في القراءات لا يلحق شأوه ، وكان من أشهر شيوخه في القراءات السبع أبو العباس أحمد بن محمد بن البطوي^(٢) ومشيخته فيها ، وأسانيده معروفة . وبعد أن استظهرت القرآن العظيم عن حفظي ، قرأته عليه بالقراءات السبع المشهورة إفراداً وجمعاً^(٣) في إحدى وعشرين ختمة ، ثم جمعها في ختمة واحدة أخرى ثم قرأت برواية يعقوب^(٤) ختمة واحدة جمعاً بين الروایتين عنه ، وعرضت عليه رحمه الله قصيدة الشاطبي^(٥) اللامية في القراءات والرائية في الرسم . وأخبرني بهما عن الأستاذ أبي عبدالله البطوي وغيره من شيوخه ، وعرضت عليه كتاب التفسير لاحاديث الموطأ لابن عبد البر هذا به حذو كتابه التمهيد على الموطأ ، مقتصراً على الأحاديث فقط .

ودرست عليه كتباً جمّة مثل كتاب التسهيل لابن مالك^(٦) ومختصر ابن الخطيب في الفقه^(٧) ولم أكملها بالحفظ ، وفي خلال ذلك تعلّمت صناعة العربية على والدي

(١) وفي نسخة ثانية برال : بضم الباء الموحدة ، وفتح الراء المشددة ، هكذا قيده ابن خلدون بخط يده .

(٢) وفي نسخة ثانية : البطري : نسبة الى بطرنة من إقليم بلنسية بشرق الأندلس . وقد ضبطها ابن خلدون بخط يده : بفتح الباء والطاء المهملة وراء ساكنة بعدها نون .

(٣) «الإفراد ان يتلى القرآن كله أو جزء منه برواية واحدة لأحد القراء السبع أو العشرة المشهورين ، والجمع أن يجمع القارئ عند قراءته للقرآن كله أو جزء منه بين روايتين فأكثر من الروايات السبع أو العشر المتواترة . ويسمى بالجمع الكبير ان استوفى القارئ سبع قراءات فأكثر . والأسموه بالجمع الصغير .

(٤) هو يعقوب بن اسحق بن زيد بن عبدالله الحضرمي البصري (١١٧ — ٢٠٥) أحد القراء العشرة ، وله قراءة مشهورة عنه ، وهي إحدى القراءات العشر . راجع طبقات القراء (٢٨٥/١) و(٢٣٤/٢) .

(٥) هو أبو القاسم بن خلف بن أحمد الشاطبي الرعيني ، رحل الى الشرق ودخل القاهرة ، حيث مدرسة القاضي الفاضل ، وقد نظم قصيدته اللامية المعروفة بالشاطبية أو حرز الأمان ، والرائية وتعرف بالعقيلة (طبقات القراء ٢٠/٢) .

(٦) هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن مالك الأندلسي الحياي النحوي المشهور (٦٠٠ — ٦٧٢) وكتابه تسهيل الفوائد جمع قواعد النحو بإيجاز .

(٧) وفي نسخة ثانية : ابن الحاجب وهو عثمان بن عمر بن يونس المعروف بابن الحاجب جمال الدين المصري (٥٧٠ — ٦٤٦) له مختصر في الفقه ذكره ابن خلدون في مقدمته راجع (وفيات الاعيان ٣٩٥/١) .

وعلى أستاذي تونس : منهم الشيخ أبو عبدالله محمد العربي الحَصَّاري ، وكان إماماً في النحو وله شرح مستوفى على كتاب التسهيل . ومنهم أبو عبدالله محمد بن الشواش الماززي^(١) . ومنهم أبو العباس أحمد بن القصار ، كان ممتعاً في صناعة النحو ، وله شرح على قصيدة البردة المشهورة في مدح الجنب النبوي وهو حي لهذا العهد بتونس .

ومنهم إمام العربية والأدب بتونس أبو عبدالله محمد بن بحر ، لازمتُ مجلسه وأفدت عليه ، وكان بحراً زاخراً في علوم اللسان . وأشار عليّ بحفظ الشعر فحفظت كتب الأشعار الستة ، والحجاسة للأعلم^(٢) وشعر حبيب^(٣) وطائفة من شعر المتنبي ، ومن أشعار كتاب الأغاني . ولازمت أيضاً مجلس إمام المحدثين بتونس ، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن جابر بن سلطان القيسيّ الوادي ياشي صاحب الرحلتين ، وسمعت عليه كتاب مسلم بن الحجاج إلّا فوتاً يسيراً من كتاب الصيد ، وسمعت عليه كتاب الموطأ من أوله إلى آخره ، وبعضاً من الأمتها الخمس ، وناولني^(٤) كتباً كثيرة في العربية والفقه وأجازني إجازة عامة ، وأخبرني عن مشايخه المذكورين أشهرهم بتونس قاضي الجماعة أبو العباس أحمد بن الغمّاز الخزرجي .

وأخذت الفقه بتونس من جماعة ، منهم أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحياتي ، وأبو القاسم محمد القصير ، وقرأت عليه كتاب التهذيب لأبي سعيد البرادعي ، مختصر المدونة ، وكتاب المالكية ، وتفقهت عليه . وكنت في خلال ذلك انتاب مجلس شيخنا الإمام قاضي الجماعة أبي عبدالله محمد بن عبد السلام مع أخي عمر رحمة الله عليهما ، وأفدت منه وسمعت عليه أثناء ذلك كتاب الموطأ للإمام مالك ، وكانت له طرق عالية عن أبي محمد بن هرون الطائي قبل اختلاطه إلى غير هؤلاء من مشيخة تونس ، وكلّهم سمعت عليه ، وكتب لي وأجازني ، ثم درجوا كلهم في الطاعون الجارف .

(١) وفي نسخة ثانية : الزرزالي .

(٢) هويوسف بن سليمان بن عيسى النحوي الششمري — نسبة الى ششمريّة — المعروف بالأعلم (وفيات الأعيان) ج ٢ ص ٤٦٥ .

(٣) المشاعر المشهور وهو حبيب بن أوس الحارث الطائي أبو تمام (١٩٠ — ٢٢٦) (وفيات الأعيان) .

(٤) المناولة حسب مصطلح الحديث تعني الإجازة لشخص بالرواية عن شخص آخر .

وكان قدم علينا في جملة السلطان أبي الحسن عندما ملك أفريقية سنة ثمان وأربعين جماعة من أهل العلم كان يُلزمهم شهود مَجْلِسِهِ ، ويتجمل بمكانهم فيه ، فمنهم شيخ الفُتيا بالمغرب وإمام مذهب مالك أبو عبدالله محمد بن سليمان السطّي ، فكنت انتاب مجلسه وأفدت عليه . ومنهم كاتب السلطان أبي الحسن وصاحب علامته التي توضع أسفل مکتوباته ، إمام المحدثين أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي ، لازمته . وأخذت عنه سماعاً وإجازة ، الأمّهات الست . وكتاب الموطأ ، والسير لابن اسحق ، وكتاب ابن الصلاح في الحديث ، وكتباً كثيرة سرت^(١) عن حفطي . وكانت بضاعته في الحديث وافرة ، ونخلته في التقييد والحفظ كاملة ، كانت له خزانة من الكتب تزيد على ثلاثة الاف سفر في الحديث والفقه والعربية والأدب والمعقول وسائر الفنون ، مضبوطة كلها مقابلة . ولا يخلو ديوان منها عن ضبط بخط بعض شيوخه المعروفين في سنده إلى مؤلفة ، حتى الفقه والعربية الغربية الإسناد إلى مؤلفها في هذه العصور . ومنهم الشيخ أبو العباس أحمد الزواوي إمام المقرئين بالمغرب . قرأت عليه القرآن العظيم بالجمع الكبير بين القراءات السبع ، من طريق أبي عمر والداني وابن شُريح^(٢) لم أكملها ، وسمعت عليه عدّة كتب ، وأجازني بالاجازة العامّة .

ومنهم شيخ العلوم العقلية أبو عبدالله محمد بن ابراهيم الأيّلي أصله من تلمسان وبها نشأ ، وقرأ كتب التعليم وحذق فيها ، وأظله الحصار الكبير بتلمسان أعوام المائة السابعة ، فخرج منها وحجّ ولقي أعلام المشرق يومئذ ، فلم يأخذ عنهم لأنه كان مختلطاً بعارض عرض في عقله . ثم رجع من المشرق وأفاق وقرأ المنطق والأصليين على الشيخ أبي موسى عيسى ابن الإمام ، وكان قرأ بتونس مع أخيه أبي زيد عبد الرحمن على تلميذ أبي زيتون الشهير الذكر^(٣) وجاء إلى تلمسان بعلم كثير من المنقول والمعقول ، فقرأ الأيّلي على أبي موسى منها كما قلناه ، ثم خرج من تلمسان هارباً إلى المغرب لأن سلطانها أبا حمّو يومئذ من ولد يغمراسن بن زيّان ، كان يكرهه على التصرف في أعماله ، وضبط الجباية بحسبانه ، فقرّ إلى المغرب ، ولحق

(١) وفي نسخة ثانية : شدت .

(٢) هو المقرئ محمد بن شريح بن أحمد بن محمد ابو عبدالله الإشبيلي (٣٨٨ — ٤٧٦) .

(٣) هو ابن زيتون أبو القاسم ، القاسم بن أبي بكر بن مسافر (٦٢١ — ٦٩١) قام برحلة الى الشرق واخذ عن علمائه ، ثم رجع بعدها الى تونس ما سند إليه مهمة القضاء والافتاء ، وهو أول من أظهر تأليف فخر الدين الرازي في تونس .

بمراكش ، ولازم العالم الشهير الذكر أبا العباس بن البناء ، فحصل عنه سائر العلوم العقلية ، وورث مقامه فيها وأرفع ، ثم صعد إلى جبل المسكرة بعد وفاة الشيخ باستدعاء علي بن محمد بن تروميت ليقراً عليه ، فأفاده وبعد أعوام استنزله ملك المغرب ، السلطان أبو سعيد ، وأسكنه بالبلد الجديد والأبلي معه .

ثم اختصه السلطان أبو الحسن ونظمه في جملة العلماء بمجلسه ، وهو في خلال ذلك يعلم العلوم العقلية ، ويبيتها بين أهل المغرب حتى حذق فيها الكثير منهم من سائر أمصاره . وألحق الأصغر بالأكابر في تعليمه . ولما قدم على تونس في جملة السلطان أبي الحسن ، لزمته ، وأخذت عنه العلوم العقلية^(١) ، والمنطق ، وسائر الفنون الحكيمة ، والتعليمية ، وكان رحمه الله تعالى يشهد لي بالتبريز في ذلك .

ومن قدم في جملة السلطان أبي الحسن ، صاحبنا أبو القاسم عبدالله بن يوسف بن رضوان المالقي ، كان يكتب عن السلطان ويلازم خدمة أبي محمد عبد المهيمن رئيس الكتاب يومئذ ، وصاحب العلامة التي توضع عن السلطان أسفل المراسيم والمخاطبات ، وبعضها يضعه السلطان بخطه . وكان ابن رضوان هذا من مفاخر المغرب في براعة خطه ، وكثرة علمه ، وحسن سمته ، وإجادته في فقه الوثائق ، والبلاغة في الترسيل عن السلطان ، وحوك الشعر والخطابة على المنابر ، لأنه كان كثيراً ما يُصَلِّي بالسلطان . فلما قدم علينا بتونس صحبته ، واغبطت به ، وإن لم أُنخذه شيخاً ، لمقاربة السن ، فقد أفدت منه كما أفدت منهم . وقد مدحه صاحبنا أبو القاسم الروحي شاعر تونس في قصيدة على رويّ النون يرغب منه أن يذكره^(٢) لشيخه أبي محمد عبد المهيمن في إيصال مدحه للسلطان أبي الحسن في قصيدة^(٣) على روي الياء ، وقد تقدّم ذكرها في أخبار السلطان . وذكر في مدح ابن رضوان أعلام العلماء القادمين مع السلطان وهي هذه :

عرفتُ زماني حين أفكرتُ عِرْفاني وأيقنتُ أن لا حظَّ في كفِّ كيوان^(٤)
وأن لا اختيارٌ في اختيارٍ مقومٍ وأن لا قِراعٌ بـالْقِرانِ لأقْرانِ

(١) وفي نسخة ثانية : واخذت عنه الاصلين .

(٢) وفي نسخة ثانية : يرغب منه تذكراً .

(٣) وفي نسخة ثانية : في قصيدته .

(٤) اسم لأحد الكواكب السيارة ويدعى زُحَل .

وَأَنَّ نِظَامَ الشَّكْلِ أَكْمَلَ نَظْمِهِ لَأُضْعَفُ قَاضٍ فِي الدَّلِيلِ بُرْجُمَانِ
وَأَنَّ افْتِقَارَ الْمَرْءِ مِنْ فَقَرَاتِهِ وَمِنْ ثَقْلِهِ يُغْنِي اللَّيْبَ بِأَوْزَانِ
إِلَى آخِرِهَا ، ثُمَّ يَقُولُ فِي ذِكْرِ الْعُلَمَاءِ الْقَادِمِينَ :

هُمْ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ أَمَّا حُلُومُهُمْ فَأَرْسَخُ مِنْ طَوْدِي ثَبِيرٍ وَثَهْلَانِ^(١)
فَلَا طَيْشَ يَعْلُوهُمْ^(٢) وَأَمَّا عُلُومُهُمْ فَأَعْلَامُهَا تَهْدِيكَ مِنْ غَيْرِ نِيرَانِ
ثُمَّ يَقُولُ فِي آخِرِهَا

وَهَامَتْ عَلَى عَبْدِ الْمُهَيْمَنِ تُونُسُ وَقَدْ ظَفِرَتْ مِنْهُ بِوَصْلِ وَقُرْبَانِ
وَمَّا عَلِقَتْ مِنِّي الضَّمَائِرُ غَيْرَهُ وَإِنْ هَوَيْتُ كَلًّا بِحَبِّ ابْنِ رَضْوَانِ
وَكَتَبَ هَذَا الشَّاعِرُ صَاحِبُنَا الرَّحْوِيُّ يَذْكُرُ عَبْدَ الْمُهَيْمَنِ بِذَلِكَ .

لَهَا النَّفْسُ فِي اكْتِسَابِ وَسْعِي وَهُوَ الْعَمْرُ فِي انْتِهَابِ وَفِي
وَأَرَى النَّاسَ بَيْنَ سَاعٍ لِرُشْدٍ يَتَوَخَّى الْهُدَى وَسَاعٍ لِغْيٍ
وَأَرَى الْعِلْمَ لِلْبَرِّيَّةِ زِينًا فَتَرَى مِنْهُ بِأَحْسَنِ زِيٍّ
وَأَرَى الْفَضْلَ قَدْ تَجَمَّعَ كَلًّا فِي ابْنِ عَبْدِ الْمُهَيْمَنِ الْحَضْرَمِيِّ
ثُمَّ يَقُولُ فِي آخِرِهَا

يَنْبَغِي الْقَرَبَ مِنْ مِرَاقِي الْأَمَانِي وَالتَّرَقِّيَ لِلجَبَابِ الْعَلَوِيِّ
فَأَنْلَهَا مَرَامَهَا مُسْتَهْلًا^(٣) كُنْ دَانٍ يَسْعَى وَكُلَّ قَصِيٍّ

ثُمَّ كَانَتْ وَاقِعَةُ الْعَرَبِ عَلَى السُّلْطَانِ بِالْقَيْرَوَانِ فَاتَحَتْ تِسْعَ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعًا فَنَظَرُوا عَنْ ذَلِكَ وَلَمْ يَظْفَرْ هَذَا الرَّحْوِيُّ بِطَلْبَتِهِ . ثُمَّ جَاءَ الطَّاعُونَ الْجَارِفُ فَطَوَى الْبَسَاطَ بِهَا فِيهِ ، وَهَلَكَ عَبْدُ الْمُهَيْمَنِ فِيمَنْ هَلَكَ ، وَدُفِنَ بِمَقْبَرَةِ سَلْفِنَا بِتُونُسَ ، لِحَلَّةٍ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَالِدِي رَحِمَهُ اللَّهُ أَيَّامَ قَدُومِهِمْ عَلَيْنَا .

فَلَمَّا كَانَتْ وَقَعَةُ الْقَيْرَوَانِ ثَارَ أَهْلُ تُونُسَ بِمَنْ كَانَ عَنْدهُمْ مِنْ أَشْيَاعِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ ، فَاعْتَصَمُوا بِالْقَصْبَةِ دَارَ الْمَلِكِ ، حَيْثُ كَانَ وَلَدُ السُّلْطَانِ وَأَهْلُهُ ، وَانْتَقَضَ عَلَيْهِ ابْنُ تَافَرَكِينِ ، وَخَرَجَ مِنَ الْقَيْرَوَانِ إِلَى الْعَرَبِ ، وَهُمْ يَحَاصِرُونَ السُّلْطَانَ ، وَقَدْ

(١) ثَبِيرٌ : جَبَلٌ بِظَاهِرِ مَكَّةَ . ثَهْلَانٌ : جَبَلٌ فِي بِلَادِ بَنِي غَيْرِ (تَاجُ الْعُرُوسِ) .

(٢) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةٍ : يَعْرُوهُمْ .

(٣) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةٍ :

فَأَنْلَهَا مَرَامَهَا نَلْتُ سَهْلًا كُنْ دَانٍ بُغْيٍ وَكُلَّ قَصِيٍّ

اجتمعوا على أبي دبّوس وبايعوا له كما مرّ في أخبار السلطان ، فبعثوا ابن تافراكين إلى تونس ، فحاصر القصبه وامتنعت عليه . وكان عبد المهيمن يوم ثورة أهل تونس ، وقد سمع الهيعة^(١) خرج من بيته إلى دارنا فاخفى عند أبي رحمه الله ، وأقام متخفياً عندنا نحواً من ثلاثة أشهر . ثم نجا السلطان من القيروان إلى سوسة ، وركب البحر إلى تونس ، وفرّ ابن تافراكين إلى المشرق ، وخرج عبد المهيمن من الاختفاء ، وأعاد السلطان إلى ما كان عليه من وظيفة الولاية والكتابة^(٢) وكان كثيراً ما يخاطب والذي رحمه الله ويشكره على موالاته ، ومما كتب إليه وحفظته من خطّه :

محمد ذو المكارم قد ثناني^(٣) فَعَالَ شُكْرُهُ أَبَدًا عَنَّا
جزى الله ابنَ خلدونٍ حياةً مُنْعَمَةً وَخُلْدًا فِي الْجَنَانِ
فَكَمْ أَوَّلَى مِنْ جَمِيلٍ وَبَرٍّ بِالْفَعَالِ وَبِاللِّسَانِ
وراعى الحَضْرِيَّةَ فِي الَّذِي قَدْ جَنَى مِنْ وَدِّهِ وَرَدُّ الْحَنَانِ^(٤)
أبا بكرٍ ثَنَاؤُكَ طَوْلَ دَهْرِي أُرِدُّ بِاللِّسَانِ وَبِالْجَنَانِ
وعن عَلَيَّكَ مَا امْتَدَّتْ حَيَاتِي أَكْفِاحُ بِالْحُسَامِ وَبِاللِّسَانِ
فَمِنْكَ أَفْذْتُ خِلَا لَسْتُ دَهْرِي أَرَى عَنْ حَبِّهِ أَثْنِي عَنَّا

وهؤلاء الأعلام الذين ذكرهم الرحوي في شعره ، هم سباق الحلبة في مجلس السلطان أبي الحسن ، اصطفاهم لصحبته من بين أهل المغرب ، فأما ابنا الإمام منهم ، فكانا أخوين من أهل برشك من أعمال تلمسان ، واسم أكبرهم أبو زيد عبد الرحمن ، والأصغر أبو موسى عيسى . وكان أبوهما إماماً ببعض مساجد برشك ، واتهمه المتغلب يومئذ على البلد زيرم بن حمّاد^(٥) بأنّ عنده ودیعة من المال لبعض أعدائه ، فطالبه بها ، ولاذ بالامتناع ، وبيّته زيرم لينتزع المال من يده ، فدافعه وقتل ، وارتحل ابناه هذان الأخوان إلى تونس في آخر المائة

(١) وفي نسخة ثانية : ووقع الهيعة .

(٢) وفي نسخة ثانية : وظيفة العلامة والكتابة .

(٣) وفي نسخة ثانية : لمحمد ذوي المكارم قد ثناني .

(٤) وفي نسخة ثانية :

وراعى الحَضْرِيَّةَ فِي الَّذِي قَدْ جَبَّاهُ مِنْ وَدِّهِ وَمِنْ الْحَنَانِ

(٥) زيري بن حمّاد : وقد ورد في مكان سابق من هذا الكتاب .

السابعة ، وأخذ العلم بها عن تلميذ ابن زيتون ، وتفقهها على أصحاب أبي عبدالله بن شعيب الدُّكَّالي ، وانقلبا إلى المغرب بحظّ وافر من العلم ، وأقاما بالجزائر يبتّان العلم بها لامتناع برشك عليهما من أجل زيرم المتغلب عليها ، والسلطان أبو يعقوب يومئذ صاحب المغرب الأقصى من بني مرين جاثم على تلمسان يحاصرها الحصار الطويل المشهور^(١) ، وبث بها جيوشه في نواحيها ، وغلب على الكثير من أعمالها وأمصارها ، وملك عمر مغراوة بشلف ، وحصر مليانة ، بعث إليها الحسن بن أبي الطلاق من بني عسكر ، وعليّ بن محمد ابن الخير من بني ورتاجن ، ومعهما لضبط الجباية واستخلاص الأموال الكاتب منديل بن محمد الكِنّاني ، فارتحل هذان الأخوان من الجزائر ، وأخذوا عليه^(٢) ، فحليا بعين منديل الكِنّاني^(٣) ، فقرّبهما واصطفاهما ، واتّخذهما لتعليم ولده محمد . فلما هلك يوسف بن يعقوب سلطان المغرب بمكانه من حصار تلمسان سنة خمس وسبعائة^(٤) على يد خصيٍّ من خصيانته طعنه فأشواه ، وهلك . وأقام بالملك بعده حافده أبو ثابت بعد أمور ذكرناها في أخباره ، ووقع بينه وبين صاحب تلمسان من بعده يومئذ ، أبي زيّان محمد بن عثمان بن يغمراسن وأخيه أبي حمّو العهد المتأكد على الإفراج عن تلمسان ، وردّ أعمالها عليه ، فوفّى لهم بذلك وعاد إلى المغرب . وارتحل ابن أبي الطلاق من شلف ، والكِنّاني من مليانة راجعين إلى المغرب . ومروا بتلمسان فأوصى لهما أبو حمّو وأثنى عليهما حلّة بمقامهما في العلم ، واغبط بهما أبو حمّو وبني لهما المدرسة المعروفة بهما بتلمسان . وأقاما عنده على مجرى أهل العلم . وسننهم . وهلك أبو حمّو ، وكانا كذلك مع ابنه أبي تاشفين إلى أن زحف السلطان أبو الحسن المريني إلى تلمسان ، وملكها عنوة سنة سبع وثلاثين وسبعائة وكانت لها شهرة في أقطار المغرب ، أسست لها عقيدة صالحة ، فاستدعاهما لحين دخوله ، وأدنى مجلسها وشاد بمكرمتها ، ورفع جاهها على أهل طبقتها . وصار يحمّل بهما مجلسه متى مرّ بتلمسان ووفدا عليه في الأولى التي نفر فيها أعيان بلادهما . ثم استنفرهما

(١) دام هذا الحصار حوالي ثمان سنوات وثلاث أشهر .

(٢) وفي نسخة ثانية : واحتلّا بمليانة .

(٣) وفي نسخة ثانية : الكِنّاني .

(٤) وفي كتاب العبر والإحاطة انه قتل سنة ٧٠٦ راجع الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٨٠ .

إلى الغزو وحضرا معه واقعة طريف ، وعادا إلى بلدهما . وتوفي أبو زيد منها إثر ذلك ، وبقي أخوه موسى متبوّناً ما شاء من ظلال تلك الكرامة .

ولما سار السلطان أبو الحسن إلى أفريقية سنة ثمان وأربعين وسبعائة كما مرّ في أخباره استصحب أبا موسى ابن الإمام معه مكرّماً موقّراً ، عالي المحل ، قريب المجلس منه . فلما استولى على أفريقية سرّحه إلى بلده ، فأقام بها يسيراً وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعائة وبقي أعقابهما بتلمسان دارجين في مسالك تلك الكرامة موقرين فيها طبقاً على طبق إلى هذا العهد . وأمّا السطّبي ، واسمه محمد بن سليمان من قبيلة سطة ، من بطون أوربة بنواحي فاس ، فترل أبوه سليمان مدينة فاس . ونشأ محمد فيها وأخذ العلم عن الشيخ أبي الحسن الصغير إمام المالكية بالمغرب ، والطائر الذكر وقاضي الجماعة بفاس ، وتفقه وقرأ عليه ، وكان أحفظ الناس لمذهب مالك ، وأفقههم فيه . وكان السلطان أبو الحسن لعظم همته ^(١) وبعد شأوه في الفضل يتشوّف إلى تزيين مجلسه . بالعلماء ، واختار منهم جماعة لصحابه ومحالسته ، كان منهم هذا الإمام محمد بن سليمان . وقدم علينا بتونس في جملة ، وشهدنا وفور فضله ^(٢) ، وكان في الفقه من بينهم لا يجارى حفظاً وفهماً ، عهدي به رحمه الله تعالى ، وأخي موسى ^(٣) يقرأ عليه كتاب التبصرة لأبي الحسن اللخمي ، وهو يصحّحه عليه من إملائه وحفظه في مجالس عديدة ، وكان هذا حاله في أكثر ما يعاني في جملة من الكتب ^(٤) . وحضر مع السلطان أبي الحسن واقعة القيروان وخلص معه إلى تونس ، وأقام بها نحواً من سنتين ، وانتقض المغرب على السلطان واستقلّ به ابنه أبو عنان . ثم ركب السلطان أبو الحسن في أساطيله من تونس آخر سنة خمسين وسبعائة ومرّ ببجاية فأدركه الغرق في سواحلها ، فغرقت أساطيله وغرق أهله ، وأكثر من كان معه من هؤلاء الفضلاء وغيرهم ، ورمى به البحر ببعض الجزر هنالك حتى استنقذه منها بعض أساطيله ، ونجا إلى الجزائر بعد أن تلف موجوده ، وهلك الكثير من عياله وأصحابه ، وكان من أمره ما مرّ في أخباره .

(١) وفي نسخة أخرى : وكان السلطان أبو الحسن لدينه وسرواته .

(٢) وفي نسخة أخرى : فضائله .

(٣) وفي نسخة أخرى : أخي محمد .

(٤) وفي نسخة أخرى : وكذا كان حاله في أكثر ما يعاني حمله من الكتب .

وأما الأيُّلي واسمه محمد بن ابراهيم فنشؤه بتلمسان ، وأصله من جالية الأندلس من أهل أَيْلَة من بلد الجوف^(١) منها ، أجاز بأبيه وعمه أحمد ، فاستخدمهم بغير اسن ابن زيّان وولده في جندهم ، وأصهر ابراهيم منهما إلى القاضي بتلمسان محمد بن غلبون في ابنته ، فولدت له محمداً هذا . ونشأ بتلمسان في كفاالة جدّه القاضي ، فنشأ له بذلك ميل إلى انتحال العلم عن الجندیة التي كانت متحل أبيه وعمّه . فلما أيفع وأدرك سبق إلى ذهنه محبة التعاليم ، فبرز بها واشتهر وعكف الناس عليه في تعلّمها ، وهذا في سنّ البلوغ . ثم أظل السلطان يوسف بن يعقوب وخيم عليها بحاصرها ، وسير العساكر إلى الأعمال ، فافتتح أكثرها . وكان ابراهيم الأيُّلي قائداً بهُنين مرسى تلمسان في لجة من الجند ، فلما ملكها يوسف بن يعقوب اعتقل من وجد بها من أشياخ بني عبد الواد^(٢) واعتقل ابراهيم الأيُّلي ، وشاع الخبر في تلمسان بأن يوسف ابن يعقوب يسترهن أبناءهم ويطلقهم ، فشوّف ابنه محمد إلى اللحاق بهم من أجل ذلك . وأغراه أهله بالعزم عليه ، فتسوّر الأسوار وخرج إلى أبيه فلم يجد خبر الاسترهان صحيحاً . واستخدمه يوسف بن يعقوب قائداً على الجند الأندلسيين بتاوريرت ، فكره المقام على ذلك ، ونزع عن طوره ، ولبس المسوح ، وسارقاصداً إلى الحج . وانتهى إلى رباط العباد^(٣) مختفياً في صحبة الفقراء ، فوجد هنالك رئيساً من أهل كربلاء^(٤) من بني الحسين جاء إلى المغرب يروم إقامة دعوته فيه ، وكان مغفلاً^(٥) ، فلما رأى عساكر يوسف بن يعقوب وشدة غلبه أيس من مرامه ونزع عن ذلك ، واعترم على الرجوع إلى بلده ، فسار شيخنا محمد بن ابراهيم في جملته . قال رحمه الله : وبعد حين انكشف لي حاله وما جاء له ، واندرجت في جملته

(١) المراد بالجوف ، الشمال في لغة المغاربة والأندلسيين .

(٢) وفي نسخة ثانية : من شيع ابن زيّان .

(٣) رباط العباد (مرتفع جميل خارج مدينة تلمسان ، كان مدفن الأولياء والصلحاء والعلماء . وهناك موضعان عرفا باسم « العبارة » أحدهما يسمى (العباد الفوقي والعباد السفلي) وكان بياض الجياد من أبواب تلمسان) .

(٤) كربلاء : بالمدّة : وهو الموضع الذي قتل فيه الحسين بن علي رضي الله عنه ، في طرف البرية عند الكوفة ، فاشتقاقه فالكربلة رخاوة في القدمين ، يقال جاء يمشي مكربلاً ، فيجوز على هذا أن تكون أرض هذا الموضع رخوة فسميت بذلك . (معجم البلدان) ويطلق هذا الاسم اليوم على لواء كامل من ألوية العراق .

(٥) وفي نسخة ثانية : وكان معقلاً .

وأصحابه وتابعيه . قال : وكان يتلقاه في كل بلد من أصحابه وأشياعه وخدمه من يأتيه بالأزواد والنفقات من بلده ، إلى أن ركبنا البحر من تونس إلى الاسكندرية . قال : واشتدَّت عليَّ الغلِّمة في البحر واستحييت من كثرة الاغتسال لمكان هذا الرئيس ، فأشار عليَّ بعض بطانته بشرب الكافور ، فاغترفت منه غرفة فشربتها فاختلطت . وقدم الديار المصرية على تلك الحال ، وبها يومئذ تقيَّ الدين بن دقيق العيد وابن الرِّفعة وصفيَّ الدين الهندي ، والتبريزي وغيرهم من فرسان المعقول والمنقول . فلم يكن قُصاراه إلا تمييز أشخاصهم إذا ذكرهم لنا ، لما كان به من الاختلاط . ثم حجَّ مع ذلك الرئيس وسار في جملته إلى كربلاء فبعث به من أصحابه من أوصله إلى مأمته ببلاد زاوة من أطراف المغرب . وقال لي شيخنا رحمه الله : كان معي دنائير كثيرة تزودتها من المغرب واستبطنتها في جبة كنت ألبسها ، فلما نزل بي ما نزل انتزعها مني ، حتى إذا بعث أصحابه يشيِّعوني إلى المغرب دفعها إليهم ، حتى إذا أوصلوني إلى المأمن أعطوني إياها ، وأشهدوا عليَّ في كتاب حملوه معهم إليه كما أمرهم . ثم قارن وصول شيخنا إلى المغرب مهلك يوسف بن يعقوب وخلاص أهل تلمسان من الحصار ، فعاد إلى تلمسان وقد أفاق من اختلاطه ، وانبعثت همته إلى تعلُّم العلم . وكان مائلاً إلى العقليات فقرأ المنطق على أبي موسى ابن الإمام ، وجملة من الأصولين ، وكان أبو حمّو صاحب تلمسان قد استفحل ملكه ، وكان ضابطاً للأموار ، وبلغه عن شيخنا تقدّمه في علم الحساب ، فدفعه إلى ضبط أمواله ومشارفة أحواله^(١) . وتفادى شيخنا من ذلك فأكرمه عليه ، فأعمل الحيلة في الخلاص منه ، ولحق بفاس أيام السلطان أبي الربيع^(٢) ، وبعث فيه أبو حمّو ، فاختنى بفاس للتعاليم من اليهودي خليفة المغيلي^(٣) ، فاستوفى عليه فنونها ، وحذق وخرج متوارياً من فاس ، فلحق بمرآكش أعوام عشر وسبعائة . ونزل على الإمام أبي العباس بن البناء شيخ المعقول والمنقول ، والمبرز في التصوّف علماً وحالاً ، فلزمه ، وأخذ عنه وتضلّع في علم المعقول

(١) وفي نسخة ثانية : مشارفة عمّال له .

(٢) أبو الربيع : وهو سليمان بن عبد الله بن أبي يعقوب بن يوسف بن عبد الحق المريني المتوفي سنة ٧١٠ هـ .

(٣) وفي نسخة ثانية : واختنى بفاس عند شيخ التعاليم من اليهود ، خلوف المغيلي .

والتعاليم والحكمة. ثم استدعاه شيخ المسكرة علي بن محمد بن تروميت ليقراً عليه ، وكان في طاعة السلطان ، فدخل^(١) إليه شيخنا وأقام عنده مدّة ، قرأ عليه فيها وحصل . واجتمع طلبة العلم هنالك على الشيخ ، فكثرت إفادته ، واستفادته ، وعلي ابن محمد في ذلك على محبته وتعظيمه ، وامثال إشارته ، فغلب على هواه ، وعظمت رياسته في تلك القبائل . ولما استترل السلطان أبو سعيد علي بن تروميت من جبله ، نزل الشيخ معه ، وسكن بفاس . وانثال عليه طلبة العلم من كلّ ناحية ، فانتشر علمه ، واشتهر ذكره ، فلما فتح السلطان أبو الحسن تلمسان ولقي أبا موسى ابن الإمام ، ذكره له بأطيب الذكر ، ووصفه بالتقدّم في العلوم ، وكان السلطان معتياً يجمع العلماء بمجلسه كما ذكرناه . فاستدعاه من مكانه بفاس ونظمه في طبقة العلماء بمجلسه ، وعكف على التدريس والتعليم ، ولزم صحابة السلطان ، وحضر معه واقعة طريف ، وواقعة القيروان بأفريقية . وكانت قد حصلت بينه وبين والذي رحمه الله خلة^(٢) ، كانت وسيلتي إليه في القراءة عليه ، فلزمت مجلسه وأخذت عنه العلوم العقلية بالتعاليم . ثم قرأت المنطق وما بعده من الأصلين ، وعلوم الحكمة . وعرض أثناء ذلك ركوب السلطان أساطيله من تونس إلى المغرب . وكان الشيخ في نزله وكفالتنا ، فأشرنا عليه بالمقام وثبطناه عن السفر ، فقبل وأقام . وطالبنا به السلطان أبو الحسن فأحسنّا له العذر ، فتجافى عنه . وكان من حديث غرقه في البحر ما قدّمناه . وأقام الشيخ بتونس ، ونحن وأهل بلدنا جميعاً نتساجل في غشيان مجلسه ، والأخذ عنه ، فلما هلك السلطان أبو الحسن بجبل هنتانة وفرغ ابنه أبو عنان من شواغله ، وملك تلمسان من بني عبد الواد ، كتب فيه يطلبه من صاحب تونس وسلطانها يومئذ أبو اسحق ابراهيم ابن السلطان أبي يحيى في كفالة شيخ الموحّدين أبي محمد بن تافراكين ، فأسلمه إلى سفيره . وركب معه البحر في أسطول أبي عنان الذي جاء فيه السفير ، ومّر ببجاية ودخلها ، وأقام بها شهراً ، حتى قرأ عليه طلبة العلم بها مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه برغبتهم في ذلك منه ومن صاحب الأسطول . ثم ارتحل ونزل بمرسى هُنيّين وقدم على أبي عنان بتلمسان ، وأحلّه محل التكرمة ، ونظمه في طبقة أشياخه من العلماء . وكان يقرأ عليه ويأخذ عنه إلى أن هلك بفاس سنة سبع

(١) وفي نسخة ثانية : فصعد إليه شيخنا .

(٢) وفي نسخة ثانية : صحابة .

وخمسين وسبعائة . وأخبرني رحمه الله أن مولده بتلمسان سنة إحدى وثمانين وستائة . (وأما عبد المهيم) كاتب السلطان أبي الحسن ، فأصله من سبتة ، ويقيم بها قديم ، ويعرفون ببني عبد المهيمن وكان أبوه محمد قاضيها أيام بني العزفي . ونشأ ابنه عبد المهيم في كفاله وأخذ عن مشيختها واختص بالأستاذ أبي اسحق الغافقي ^(١) ، ولما ملك عليهم الرئيس أبو سعيد صاحب الأندلس سبتة ، ونقل بني العزفي مع جملة أعيانها إلى غرناطة ، ونقل معهم القاضي محمد بن عبد المهيم وابنه عبد المهيم ، فاستكمل قراءة العلم هنالك وقرأ على مشيختها ابن الزبير ونظرائه ^(٢) ، وتقدم في معرفة كتاب سيويه ، وبرز في علو الإسناد ، وكثرة المشيخة . وكتب له أهل المغرب والأندلس والمشرق ، واستكتبه رئيس الأندلس يومئذ الوزير أبو عبدالله ابن الحكيم الرندي ، المستبد على السلطان المخلوع ابن الأحمر ^(٣) فكتب عنه ونظمه في طبقة الفضلاء الذين كانوا يجلسه ، مثل المحدث أبي عبدالله بن سيد الفهري ^(٤) وأبي العباس أحمد العزفي ، والعالم الصوفي المتجرد أبي عبدالله محمد بن خميس التلمساني ، وكانا لايحاريان في البلاغة والشعر إلى غير هؤلاء ممن كان مختصاً به ، وقد ذكرهم ابن الخطيب في تاريخ غرناطة . فلما انكب الوزير الحكيم ^(٥) ، وعادت سبتة إلى طاعة بني مرين ، عاد عبد المهيم إليها واستقر بها . ثم ولي الأمر أبو سعيد وغلب عليه ابنه أبو علي ، واستبد بحمل الدولة . تشوف إلى استدعاء الفضلاء ، وتكمل بمكانهم ، فاستقدم عبد المهيم من سبتة واستكتبه سنة اثنتي عشرة وسبعائة . ثم خالف على أبيه سنة أربع عشرة وسبعائة ، وامتنع بالبلد الجديد ، وخرج منها إلى سجلاسة لصلح عقده مع أبيه ، فتمسك السلطان أبو سعيد بعبد المهيم واتخذة كاتباً إلى أن دفعه إلى رياسة الكتاب ، ورسم علامته في الرسائل

(١) هو ابراهيم بن أحمد بن عيسى الاشيلي ابو اسحق ، عرف بالغافقي ، دخل سبتة وولي القضاء بها . توفي سنة ٧١٦ هـ (الدرر الكامنة ١٣/١) .

(٢) وفي نسخة ثانية : وأخذ عن أبي جعفر بن الزبير ونظرائه .

(٣) وفي نسخة ثانية : السلطان المخلوع من بني الأحمر وهو محمد بن محمد بن محمد بن نصر ، يكنى (أبا عبدالله) ثالث ملوك بني الأحمر (٦٥٥ — ٧١٣) وهو الذي بنى مسجد الحمراء الأعظم بغرناطة .

(٤) وفي نسخة ثانية : المحدث أبي عبدالله بن رشيد الفهري وهو أبو عبدالله محمد بن عمر بن محمد بن رشيد الفهري السبتي ، محدث ورحالة مشهور .

(٥) الوزير ابن الحكيم أو الوزير الشاعر أبو عبدالله الرندي محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم وشهرته ابن الحكيم . راجع : الاحاطة في تاريخ غرناطة ج ٣٧٨/٢ .

والأوامر ، فتقدّم لذلك سنة ثمان عشرة وسبعائة ، ولم يزل عليها سائر أيام السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن . وسار مع أبي الحسن إلى أفريقية ، وتخلّف عن واقعة القيروان بتونس ، لما كان به من علّة التقرّس . فلما كانت الهيعة بتونس ، ووصل خبر الواقعة ، وتحيز أولياء السلطان إلى القسبة مع حرّمه ، تسرّب عبد المهيم في المدينة متنبّذاً عنهم ، وتوارى في بيتنا خشية أن يصاب معهم بمكره . فلما انجلت تلك الغيابة ، ورجع السلطان من القيروان إلى سوسة وركب منها البحر إلى تونس ، أعرض عن عبد المهيم لما سخط غيبته عن قومه بالقسبة ، وجعل العلامة لأبي الفضل ابن الرئيس عبد الله بن أبي مدين^(١) وقد كانت من قبل مقصورة على هذا البيت ، وأقام عبد المهيم عطلاً من العمل شهراً^(٢) . ثم اعتبه السلطان ورضي عنه ، وردّ إليه العلامة كما كان ، ثم توفي لأيام قلائل بتونس بالطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعائة ومولده سنة خمس وسبعين وستمائة من المائة قبلها ، وقد استوعب ابن الخطيب التعريف به في تاريخ غرناطة ، فليطالع هناك من أحبّ الوقوف عليه .

(وأما ابن رضوان) الذي ذكره الرّحويّ في قصيدته ، فهو أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان البخاري^(٣) أصله من الأندلس ، نشأ بمالقة ، وأخذ عن مشيختها ، وحذق في العربية والأدب ، وتفنّن في العلوم ونظم ونثر ، وكان مجيداً في الترسيل ، ومحسناً في كتابة الوثائق . وارتحل بعد واقعة طريف ونزل سبتة ، ولقي بها السلطان أبا الحسن^(٤) ومدحه وأجازه ، واختصّ بالقاضي إبراهيم بن يحيى^(٥) وهو يومئذ قاضي العساكر وخطيب السلطان ، وكان يستنبيه في القضاء والخطابة ، ثم نظمه في جملة الكتاب بباب السلطان . واختصّ بخدمة عبد المهيم رئيس الكتاب

(١) هو عبد الله بن أبي مدين شبيب العثماني كان في خدمة بني مرين فاشتهر ، فقلّده الحجابة ورياسة الكتاب . ولد بقصر كتامة ونشأ بمكناسة وتعلّم بها .

(٢) وفي نسخة ثانية : مدة أشهر .

(٣) او البخاري كما في نسخة أخرى .

(٤) هو السلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد بن يعقوب المريني المتوفى سنة ٧٥٢ هـ (شذرات الذهب) ١٧٢/٦ .

(٥) هو إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التسولي التازي أبو إسحق ، ويعرف بابن أبي يحيى المتوفى بعد سنة ٧٤٨ هـ (الإحاطة في تاريخ غرناطة ٢١٧/١) .

والأخذ عنه ، إلى أن رحل السلطان إلى أفريقية ، وكانت واقعة القيروان ، وانحصر بالقصبة بتونس مع من انحصر بها من أشياعه مع أهله وحرمة . وكان السلطان قد خلف ابن رضوان في بعض خدمته ، فجلا عند الحصار فيما عرض لهم من المكاتبات . وتولى كبر ذلك ، فقام فيه أحسن قيام إلى أن وصل السلطان من القيروان ، فرعى له حق خدمته تائيساً وقرباً ، وكثرة استعمال إلى أن رحل من تونس في الأسطول إلى المغرب سنة خمسين وسبعائة كما مرّ . واستخلف بتونس ابنه أبا الفضل ، وخلف أبا القاسم بن رضوان كاتباً له ، فأقام كذلك أياماً . ثم غلبهم على تونس سلطان الموحدين الفضل ابن السلطان أبي يحيى . ونجا أبو الفضل إلى أبيه ، ولم يطبق ابن رضوان الرحلة معه ، فأقام بتونس حولاً ، ثم ركب البحر إلى الأندلس ، وأقام بالمرية مع جملة من هنالك من أشياع السلطان أبي الحسن ، كان فيهم عامر ابن محمد بن علي شيخ هنتانة كافلاً لحرم السلطان أبي الحسن وابنه . أركبهم السفين معه من تونس عندما ارتحل ، فخلص إلى الأندلس ، ونزلوا بالمرية وأقاموا بها تحت جراية سلطان الأندلس ، فلحق بهم ابن رضوان وأقام معهم . ودعاه أبو الحجاج سلطان الأندلس^(١) إلى أن يستكتبه فامتنع ، ثم هلك السلطان أبو الحسن وارتحل خلفه الذين كانوا بالمرية ، ووفدوا على السلطان أبي عنان ، ووفد معهم ابن رضوان ، فرعى له وسائله في خدمة أبيه ، واستكتبه واختصه بشهود مجلسه مع طلبة العلم بحضرته . وكان محمد بن أبي عمرو يومئذ رئيس الدولة ، ونجى الخلوة وصاحب العلامة ، وحسان الجباية والعساكر ، قد غلب على هوى السلطان ، واختص به ، فاستخدم له ابن رضوان حتى علق منه بدمّة^(٢) ، ولأية وصحبة وانتظام في السمر ، وغشيان المجالس الخاصة ، وهو مع ذلك يدينه من السلطان . وينفق سوقه عنده ، ويستكني به في مواقف خدمته إذا غاب عنها لما هو أهم ، فحلا بعين السلطان ونفقت عنده فضائله . فلما سار أبو عمرو في العساكر إلى بجاية سنة أربع وخمسين وسبعائة انفرد ابن رضوان بعلامة الكتاب عن السلطان ، ثم رجع ابن أبي عمرو وقد سخطه السلطان ، فأقصاه إلى بجاية وولاه

(١) أبو الحجاج هذا . هو يوسف بن اسماعيل ابن الأحمر (٧١٨ — ٧٥٥) هو سابع ملوك بني الأحمر تولى الحكم سنة ٣٣٤ .

(٢) وفي نسخة ثانية : بدمه .

عليها ، وعلى سائر أعمالها ، وعلى حرب الموحّدين بقسنطينة . وأفرد ابن رضوان بالكتابة ، وجعل إليه العلامة كما كانت لابن أبي عمرو ، فاستقلّ بها موقراً الاقطاع والإسهام والجاه . ثم سخطه آخر سبع وخمسين وسبعائة وجعل العلامة لمحمد بن أبي القاسم بن أبي مدين والإنشاء والتوقيع لأبي اسحق ابراهيم بن الحاج الغرناطي ^(١) ، فلما كانت دولة السلطان أبي سالم ^(٢) جعل العلامة لعلي بن محمد بن مسعود ^(٣) صاحب ديوان العساكر والإنشاء والتوقيع والسّر لمؤلف الكتاب عبد الرحمن ابن خلدون . ثم هلك أبو سالم سنة اثنتين وستين وسبعائة واستبدّ الوزير عمر بن عبد الله على من كفله من أبنائه ، فجعل العلامة لابن رضوان سائر أيامه ، وقتله عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ، واستبدّ بملكه ، فلم يزل ابن رضوان على العلامة ، وهلك عبد العزيز وولّي ابنه السعيد في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي بن الكاس وابن رضوان على حاله ، ثم غلب السلطان أحمد على الملك وانتزعه من السعيد ، وأبي بكر بن غازي ، وقام بتدبير دولته محمد بن عثمان بن الكاس ، مستبدّاً عليه ، والعلامة لابن رضوان كما كانت إلى أن هلك بأزمور ^(٤) في حركة السلطان أحمد إلى مراکش ، لحصار عبد الرحمن بن أبي يفلوس ابن السلطان أبي علي .

* وكان في جملة السلطان أبي الحسن جماعة كثيرة من فضلاء المغرب وأعيانه ، هلك كثير منهم في الطاعون الجارف بتونس ، وغرق جماعة منهم في أسطوله لما غرق ، وتخطّت النكبة منهم آخرون إلى أن استوفوا ما قدّر من آجالهم .

(فن حضر معه بأفريقية) الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد الزّواويّ شيخ القراء بالمغرب ، أخذ العلم والعربية عن مشيخة فاس ، وروى عن الرّحالة أبي عبد الله بن رشيد ، وكان إماماً في فن القراءات وصاحب مَلَكَة فيها لا يجاري . وله مع ذلك

(١) النّمري أبو إسحق يعرف بابن الحاج ولد سنة ٧١٣ وهو ابراهيم بن عبد الله بن ابراهيم ... راجع (الإحاطة ١/١٩٣) .

(٢) أبو سالم هو ابراهيم ابن السلطان أبي الحسن وشقيق السلطان أبي عنان فارس .

(٣) كنيته أبو الحسن من الأندلس نشأ في بيت علم وكان فقيهاً أدبياً لغوياً ، قدم مع أبيه الى تلمسان واسمه علي بن محمد بن أحمد بن موسى بن سعود الخزاعي .

(٤) ذكرها ياقوت تحت اسم : أزموّرة : ثلاث ضمات متواليات وتشديد الميم والواو ساكنة وراء مهملة : بلد بالمغرب في جبال البربر (معجم البلدان) .

صوت من مزامير آل داود^(١) وكان يصلي بالسلطان التراويح ويقرأ عليه بعض الأحيان حزبه .

(ومن حضر معه) بأفريقية الفقيه أبو عبدالله محمد بن محمد بن الصبّاغ من أهل مكناسة ، كان مبرزاً في المعقول والمنقول ، وعارفاً بالحديث وبرجاله ، وإماماً في معرفة كتاب الموطأ وإقراءه ، أخذ العلوم عن مشيخة فاس ومكناسة ، ولقي شيخنا أبا عبدالله الأيلي ، ولازمه وأخذ عنه العلوم العقلية ، فاستنفذ بقيّة طلبه عليه ، فبرز آخرًا ، واختاره السلطان لمجلسه واستدعاه ، ولم يزل معه إلى أن هلك غريقاً في ذلك الأسطول .

(ومنهم القاضي أبو عبدالله) محمد بن عبدالله بن عبد النور. من أعمال نذرؤمة ونسبه في صنهاجة كان مبرزاً في الفقه على مذهب الإمام مالك بن أنس ، تفقه فيه على الأخوين أبي زيد وأبي موسى ابني الإمام ، وكان من جملة^(٢) أصحابها .
ولما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان رفع من منزلة ابني الإمام واختصهما بالشورى في بلدهما . وكان يستكثر من أهل العلم في دولته ، ويجري لهم الأرزاق ويغمر بهم مجلسه ، فطلب يومئذ من ابن الإمام أن يختار له من أصحابه من ينظمه في فقهاء المجالس ، فأشار عليه بابن عبد النور هذا ، فأدناه وقرب مجلسه ، وولاه قضاء عسكره ، ولم يزل في جملة إلى أن هلك بالطاعون بتونس سنة تسع وأربعين وسبعائة وكان قد خلف أخاه علياً رفيقه في تدريس ابن الإمام إلا أنه أقصر باعاً منه في الفقه . فلما خلع السلطان أبو عنان طاعة أبيه السلطان أبي الحسن ، ونهض إلى فاس ، استنفره في جملة وولاه قضاء مكناسة ، فلم يزل بها حتى تغلب عمر بن عبدالله على الدولة كما مرّ ، فترع إلى قضاء فرضه فسرّحه . فخرج حاجاً سنة أربع وستين وسبعائة فلما قدم على مكة وكان به بقية مرض ، هلك في طواف القدوم .
وأوصى أمير الحاج على ابنه محمد ، وأن يبلغ وصيته به للأمير المتغلب على الديار المصرية يومئذ يلغا الخاصكي^(٣) فأحسن خلافته فيه وولاه من وظائف الفقهاء ما

(١) يروى ابن أبي موسى الأشعري أنه كان يقرأ القرآن ، فسمعه النبي (صلم) فقال : اعطيت مزماراً من مزامير آل داود يعني بذلك حسن صوته (تاج العروس ٣/٣٤٠) .

(٢) وفي نسخة ثانية : جلة .

(٣) هو يلغا بن عبدالله الخاصكي الناصري الأمير الكبير الشهير . أول ما أمّره الناصر حسن مقدم الف بعد موت تنكره ثم كان يلغا راس من قام على استاذة الناصر حسن حتى قتل وتسلطن المنصور محمد بن

سدّ به خلّته ، وصان عن سؤال الناس وجهه ، وكان له عفا الله عنه كلف بعلم الكيمياء ، طالباً لمن غلط في ذلك وأمثاله^(١) . فلم يزل يعاني من ذلك ما يورّطه مع الناس في دينه وعرضه إلى أن دعت الضرورة للترحّل عن مصر، ولحق ببغداد وناله مثل ذلك . فلحق بماردين^(٢) واستقرّ عند صاحبها ، فأحسن جواره إلى أن بلغنا بعد التسعين أنه هلك هنالك حتف أنفه والبقاء لله وحده .

(ومنهم شيخ التعاليم) أبو عبدالله محمد بن النجّار من أهل تلمسان ، أخذ العلم ببلده عن مشيختها ، وعن شيخنا الأيّلّي وبرّز عليه . ثم ارتحل إلى المغرب فلقي بسبّته إمام التعاليم أبا عبدالله محمد بن هلال شارح الميجسطي في الهيئة ، وأخذ بمراكش عن الإمام أبي العباس بن البناء ، وكان إماماً في علم النجامة وأحكامها ، وما يتعلّق بها ، ورجع إلى تلمسان بعلم كثير ، واستخلصته الدولة . فلمّا هلك أبو تاشفين وملك السلطان أبو الحسن نظمه في جملته وأجرى له رزقه ، فحضر معه بأفريقية وهلك في الطاعون .

(ومنهم) أبو العباس أحمد بن شُعَيْب^(٣) من أهل فاس ، برع في الأدب واللسان والعلوم العقلية ، من الفلسفة والتعاليم والطب وغيرها . ونظمه السلطان أبو سعيد في جملة الكتاب وأجرى عليه رزق الأطباء لتقدّمه فيه ، فكان كاتبه وطيبه ، وكذا مع السلطان أبي الحسن بعده ، فحضر بأفريقية وهلك بها في ذلك الطاعون . وكان له شعر سابق به الفحول من المتقدّمين والمتأخّرين ، وكانت له إمامة في نقد الشعر وبصره ، وما حضرنّي الآن من شعره إلا قوله :

حاجي ... وعندما تسلطن الاشرف شعبان تناهت الى يلغا الرئاسة ولقب نظام الملك وصار إليه الأمر والفهي وهو السلطان في الباطن ... (شذرات الذهب ٢١٢/٦) .

(١) وفي نسخة ثانية : كلف بعمل الكيمياء ، تابعاً لمن غلط في ذلك من أمثاله .

(٢) ماردين : قلعة مشهورة على قنة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر وواراء ونصيبين وذلك الفضاء الواسع مشهورة بمدارسها وخاناتها ودورها وهي كالدرج ، كل دار فوق الأخرى وكل درب منها يشرف على ما تحته من الدور ، ذكرها جرير في قوله :

بنا خزر تغلب إن اللؤم حالفكم
ما دام في ماردين الزيت يعتصر . (معجم البلدان)

ويطلق هذا الاسم اليوم على اقليم واسع من تركيا .

(٣) هو احمد بن شعيب الجزنائي التازي نزيل فاس . كتب للسلطان أبي الحسن المريني وتوفي بتونس سنة ٧٥٠ هـ .

أَقْصَى أَمَانِيَّ النَّفْسِ مِنْ نَجْدٍ
وَاسْتَنْ فِي قَيْمَانِهَا الْجُرْدِ
مُسْتَشْفِيًا بِالْبَانِ وَالرُّنْدِ
قَصْدِي وَإِنْ جَارُوا عَنْ الْقَصْدِ
مِنْهَا وَزُرْقُ مِيَاهِهَا وَرَدِي
أَخَوَى الْمَدَامِيعِ أَهْيَفُ الْقَدِّ
قُتِلَ الْمُحِبُّ بِهَا عَلَى عَمْدٍ
رَبَّ الْخُطُوبِ وَعَوَائِرِ الْجَدِّ
عِشِّي شَفَى إِلَّا عَلَى الْفَقْدِ^(١)
بَطْنُ الثَّرِيِّ وَقَرَارَةُ اللَّحْدِ
قُدْفُ النَّوَى وَتَنْوِفَةُ الْبُعْدِ
أَنِي جَرَعْتُ حَمِيمَهُمْ وَخَدِي^(٢)
أَخْفَيْتُ مِنْهُ فَوْقَ مَا أَبْدِي
مَنْ ذَكَرَهُ سُهْدٌ عَلَى سُهْدٍ
رَزْتُ^(٣) عَنْ الرَّفْدَاءِ وَالرُّفْدِ

دَارُ الْهَوَى نَجْدٌ وَسَاكِنُهَا
هَلْ بَاكَرَ الْوَسْمِيِّ سَاحَتَهَا
أَوْ بَاتَ مِعْتَلَّ النَّسِيمِ بِهَا
يَتْلُو أَحَادِيثَ الَّذِينَ هُمْ
أَيَّامَ سُمْرِ ظِلَالِهَا وَطَنِي
وَمَطَارِحُ النُّظَرَاتِ فِي رِشَاءِ
يَرْنُو إِلَيْكَ بَعِينَ جَارِيَةٍ
حَتَّى أَجَدَّ بِهِمْ عَلَى عَجَلٍ
فَقِدُوا فَمَا وَأَيْبِكُ بَعْدَهُمْ
وَعَدُوا دَفِينًا قَدْ تَضَمَّنَهُ
وَمَشْرَدًا مِنْ دُونِ رُؤْيَتِهِ
أَجْرَى عَلَيَّ الْعَيْشُ بَعْدَهُمْ
لَا تَلْجِنِي بِأَصَاحٍ فِي شَجَنِ
بِالْقَرَبِ لِي سَكَنٌ يُوَوِّ بَنِي
فَرُخَانَ قَدْ تَرُكَا بِمَضْبَعَةٍ

(ومنها) صاحبنا الخطيب أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق من أهل تلمسان ، كان سلفه نزلاء الشيخ أبي مدين بالعباد ، ومتوارثين خدمة تربته من لدن جدّهم خادمه في حياته . وكان جدّه الخامس أو السادس واسمه أبو بكر بن مرزوق معروفاً بالولاية فيهم . ولما هلك دفنه يغمراسن^(٤) بن زيّان السلطان بتلمسان من بني عبد الواد في التربة بقصره ، ليُدفن بإزائه متى قُدِّرَ بوفاته . ونشأ محمد هذا بتلمسان ، ومولده فيما أخبرني سنة عشر وسبعائة^(٥) ، وارتحل مع أبيه إلى المشرق سنة ثمان عشرة

(١) وفي نسخة ثانية : فقدوا فلا وأيبك بعدهم ما عشت لا آسي على الفقد .

(٢) وفي نسخة ثانية : أني فقدت جميعهم وحدي .

(٣) وفي نسخة ثانية : زويت .

(٤) يغمراسن بن زيّان بن ثابت بن محمد السلطان من بني عبد الواد ، كان من اشدّ بني عبد الواد بأساً ، وكانت له في النفوس مهابة ، ولي الملك سنة ٧٣٣ ، ودان له المغرب الأوسط وتلمسان .

(٥) ما ذكره ابن خلدون عن مولد تاريخ ابن مرزوق يختلف عما ذكره ابن الخطيب في الإحاطة حيث يقول أنه ولد سنة ٧١١ هـ بدل ٧١٠ هـ .

وسبعائة ومربىجاية فسمع بها على الشيخ أبي علي ناصر الدين ودخل الشرق . وجاؤ
أبوه بالحرمين الشريفين ، ورجع هو إلى القاهرة وأقام بها . وقرأ على برهان الدين
الصفافصيّ المالكي وأخيه . وبرع في الطلب والرواية ، وكان يجيد الخطّين . ثم رجع
سنة ثلاث وثلاثين وسبعائة إلى المغرب ولقي السلطان أبا الحسن بمكانه من حصار
تلمسان ، وقد شيد بالعباد مسجداً عظيماً ، وكان عمّه ابن مرزوق خطيباً به على
عادتهم في العباد . وتوفي فولاه السلطان خطابة ذلك المسجد مكان عمّه . وسمعه
يخطب على المنبر ويشيد بذكره والثناء عليه ، فحلا بعينه واختصّه وقربه ، وهو مع
ذلك يلازم مجلس الشيخين ابني الإمام ، ويأخذ نفسه بلقاء الفضلاء والأكابر
والأخذ عنهم ، والسلطان كل يوم يزيد ترقّيه ^(١) ، وحضر معه واقعة طريف التي كان
فيها تمحيص المسلمين ، فكان يستعمله في السفارة عنه إلى صاحب الأندلس . ثم
سفر عنه بعد أن ملك أفريقية إلى ابن أدفونش ملك قشتالة في تقرير الصلح ،
واستنقاذ ابنه أبي عمر تاشفين . كان أسر يوم طريف فغاب في تلك السفارة عن
واقعة القيروان . ورجع بتاشفين مع طائفة من زعماء النصرانية جاؤا في السفارة عن
ملكهم ، ولقيهم خبر واقعة القيروان بقسنطينة من بلاد أفريقية ، وبها عامل السلطان
وحاميته ، فثار أهل قسنطينة بهم جميعاً ونهبوهم ، وخطبوا للفضل ابن السلطان أبي
يحيى ، وراجعوا الموحدين ، واستدعوه فجاء إليهم وملك البلد . وانطلق ابن مرزوق
عائداً إلى المغرب مع جماعة من الأعيان ، والعمّال والسفراء عن الملوك . ووفد على
السلطان أبي عنان مع أمة حظية أبي الحسن وأثيرته . كانت راحلة إليه ، فأدركها
الخبر بقسنطينة ، وحضرت الهيعة . فوثب ابنها أبو عنان على ملك أبيه واستيلائه على
فاس ، فرجعت إليه وابن مرزوق في خدمتها . ثم طلب اللحاق بتلمسان فسرّحوه
إليها ، وأقام بالعباد مكان سلفه . وعلى تلمسان يومئذ أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن
بن يغمراسن بن زيان قد بايع له قبيلة بني عبد الواد بعد واقعة القيروان بتونس ، وابن
تافراكين يومئذ محاصر للقصبة كما مرّ في أخبارهم . وانصرفوا إلى تلمسان فوجدا بها أبا
سعيد عثمان بن جرّار اقد استعمله عليها السلطان أبو عنان عند انتقاضه على أبيه ،
ومسيره إلى فاس ، وانتفض ابن جرّار من بعده ، ودعا لنفسه ، وصمد إليه عثمان بن

(١) وفي نسخة ثانية : والسلطان في كل يوم يزيده رتبة .

عبد الرحمن ومعه أخوه أبو ثابت وقومهما ، فملكوا تلمسان من يد ابن جرّار وحبسوه ثم قتلوه . واستبدّ أبو سعيد بملك تلمسان وأخوه أبو ثابت يردفه ، وركب السلطان أبو الحسن البحر من تونس وغرق أسطوله ونجا هو إلى الجزائر فاحتل بها ، وأخذ في الحشد إلى تلمسان ، فرأى أبو سعيد أن يكفّ غربه عنهم ، بمواصلة تقع بينهما ، واختار لذلك الخطيب ابن مرزوق^(١) فاستدعاه وأسرّ إليه بما يليقه عند السلطان أبي الحسن ، وذهب لذلك على طريق الصحراء . وأطلّ أبو ثابت وقومه على الخبر فنكروه على أبي سعيد وعاتبوه فأنكر ، فبعثوا صغير بن عامر في اعتراض ابن مرزوق فجاء به وحبسوه أياماً . ثم أجازوه البحر إلى الأندلس فترّل على السلطان أبي الحجاج بغرناطة ، وله إليه وسيلة منذ اجتماعه به بمجلس السلطان أبي الحسن بسبّة إثر واقعة طريف ، فرعى له أبو الحجاج ذمّة تلك المعرفة ، وأدناه واستعمله في الخطابة بجامعة بالحمراء . فلم يزل خطيبه إلى أن استدعاه السلطان أبو عنان سنة أربع وخمسين وسبعائة بعد مهلك أبيه ، واستيلائه على تلمسان وأعمالها ، فقدم عليه ورعى له وسائله ، ونظمه في أكابر أهل مجلسه . وكان يقرأ الكتب بين يديه في مجلسه العلمي^(٢) ويدرس في نوبته مع من يدرس في مجلسه منهم . ثم بعثه إلى تونس عام ملكها سنة ثمان وخمسين وسبعائة ليخطب له ابنه السلطان أبي يحيى ، فردّت تلك الخطبة واختفت بتونس . ووُشيَ إلى السلطان أبي عنان أنه كان مطلعاً على مكانها ، فسخطه لذلك ورجع السلطان من قسنطينة ، فثار أهل تونس بمن كان بها من عمّاله وحاميته . واستقدموا أبا محمد بن تافراكين من المهدية ، فجاء وملك البلد . وركب القوم الأسطول ونزلوا بمراسي تلمسان . وأوعز السلطان باعتقال ابن مرزوق ، وخرج لذلك يحيى بن شعيب من مقدّمي الحجاب^(٣) ببابه ، فلقيه بتاسالت فقيده . هنالك . وجاء به فأحضره السلطان وقرّعه ، ثم حبسه مدّة وأطلقه بين يدي مهلكه . واضطربت الدولة بعد موت السلطان أبي عنان ، وباع بعض بني مرين لبعض الأعياص من بني يعقوب بن عبد الحق . وحاصروا البلد الجديد ، وبها ابنه السعيد ووزيره المستبدّ عليه الحسن بن عمر ، وكان السلطان أبو سالم بالأندلس غرّبه إليها

(١) وفي نسخة ثانية : ابن مرزوي .

(٢) وفي نسخة ثانية : العلمي .

(٣) وفي نسخة ثانية : الجنادة وهو تعريف .

اخوه السلطان أبو عنان مع بني عمّهم ولد السلطان أبي علي بعد وفاة السلطان أبي الحسن ، وحصولهم جميعاً في قبضته . فلما توفي أراد أبو سالم النهوض للملكة بالمغرب ، فنفعه رضوان القائم يومئذ بملك الأندلس مستبدّاً على ابن السلطان أبي الحجاج ، فلاحق هو بإشبيلية من دار الحرب ، ونزل على بطرّة^(١) ملكهم يومئذ ، فهياً له السفن وأجازه إلى العدو فتزل ، بجبل الصفيحة من بلاد غمارة ، وقام بدعوته بنو مسير^(٢) وبنو منير أهل ذلك الجبل منهم ، ثم أمدّوه واستولى على ملكه في خبر طويل ذكرناه في أخبار دولته . وكان ابن مرزوق يداخله وهو بالأندلس ويستخدم له ، ويفاوضه في أموره وربما كان يكاتبه ، وهو بجبل الصفيحة ، ويدخل زعماء قومه في الأخذ بدعوته . فلما ملك السلطان أبو سالم رعى له تلك الوسائل أجمع ، ورفع على الناس ، وألقى عليه محبته وجعل زمام الأمور بيده ، فوطىء الناس عقبيه وغشى أشراف الدولة بابه ، وصُرِفَت الوجوه إليه ، فَمَرَضَت لذلك قلوب أهل الدولة ونقموه على السلطان ، وتربصوا به حتى وثب عبدالله بن عمر بالبلد الجديد ، وافترق الناس عن السلطان . وقتله عمر بن عبدالله آخر إثنين وستين وسبعائة وحبس ابن مرزوق وأغرى به سلطانه الذي نصبه ، محمد بن أبي عبد الرحمن بن أبي الحسن فامتحنه واستصفاه ، ثم أطلقه بعد أن رام كثير من أهل الدولة قتله فنفعه منهم . ولحق بتونس سنة أربع وستين وسبعائة ونزل على السلطان أبي اسحق وصاحب دولته المستبدّ عليه أبي محمد بن تافراكين ، فأكرموا نزله وولّوه الخطابة بجامع الموحّدين بتونس . وأقام بها إلى أن هلك السلطان أبو اسحق سنة سبعين وسبعائة وولي ابنه خالد . وزحف السلطان أبو العباس حافد السلطان أبي يحيى من مقرّه بقسنطينة إلى تونس فملكها ، وقتل خالد سنة إثنين وسبعين وسبعائة .

وكان ابن مرزوق يستريب منه لما كان يميل وهو بفاس مع ابن عمّه محمد صاحب بجاية ، ويؤثره عند السلطان أبي سالم عليه ، فعزله السلطان أبو العباس عن الخطبة بتونس ، فوجّم لها وأجمع الرحلة إلى المشرق . وسرّحه السلطان فركب السفن ونزل بالإسكندرية ، ثم رحل إلى القاهرة ولقي أهل العلم وأمراء الدولة ، ونفقت بضائعه

(١) بطرة بطاء فوقها نقطتان : إشارة الى أن نطقها بين الطاء والتاء وهذا ما أشار اليه ابن خلدون في مقدمته .
(٢) وفي نسخة ثانية : بنو منى .

عندهم ، وأوصلوه إلى السلطان وهو يومئذ الأشرف^(١) . فكان يحضر يومئذ مجلسه وولاه الوظائف العلمية ، فكان يتتبع منها معاشه . وكان الذي وصل حبله بالسلطان أستاذ داره محمد بن آقبا آص^(٢) لقيه أول قدومه فحلا بعينه ، واستظرف جملة ، فسعى له وأنجح سعائته ، ولم يزل مقيماً بالقاهرة موثقاً بالرتبة معروف الفضيلة ، مرشحاً لقضاء المالكية ملازماً للتدريس في وظائفه إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين وسبعائة هكذا ذكر من حضره من جملة السلطان أبي الحسن من أسيافنا وأصحابنا ، وليس موضوع الكتاب الإطالة ، فلنقتصر على هذا القدر ، ونرجع إلى ما كنا فيه من أخبار المؤلف .

* (ولاية العلامة بتونس ثم الرحلة بعدها الى المغرب والكتابة على السلطان أبي عنان) *

ولم أزل منذ نشأت وناهزت مكباً على تحصيل العلم ، حريصاً على اقتناء الفضائل ، متنقلاً بين دروس العلم وحلقاته ، إلى أن كان الطاعون الجارف ، وذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة ، وهلك أبواي رحمهما الله . ولزمت مجلس شيخنا أبي عبدالله الأيبي ، وعكفتُ على القراءة عليه ثلاث سنين إلى أن شدّتُ بعض الشيء ، واستدعاه السلطان أبو عنان فارتحل إليه ، واستدعاني أبو محمد بن تافراكين المستبدّ على الدولة يومئذ بتونس إلى كتابة العلامة عن السلطان أبي اسحق . مذ نهض إليه من قسنطينة صاحبها أبو زيد حافد السلطان أبي يحيى في عساكره ، ومعه العرب أولاد مهلهل الذين استنجدوه لذلك ، فخرج ابن تافراكين وسلطان أبو اسحق مع العرب أولاد أبي الليل ، وبثّ العطاء في عسكره ، وعمر له المراتب والوظائف . وتعلّل عليه صاحب العالة أبو عبدالله محمد بن علي بن عمر بالاستراحة من العطاء ، فعزله وأداني منه ، فكتبت العلامة عن السلطان ، وهي « الحمد لله والشكر لله » بالقلم الغليظ ما بين البسمة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم . وخرجت

(١) السلطان الأشرف هو أبو المفاخر شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون (٧٥٤ — ٧٧٨) تولى الملك سنة ٧٦٤ هـ .

(٢) هو الأمير ناصر الدين محمد بن آقبا آص المتوفى سنة ٧٩٥ هـ .

معهم أول سنة ثلاث وخمسين وسبعائة وقد كنت منطوياً على الرحلة من أفريقية لما أصابني من الاستيحاش لذهاب أشياخي وعطلاني^(١) عن طلب العلم . فلما رجع بنو مرين إلى مراكزهم بالمغرب وانحسر تيارهم عن أفريقية ، وأكثر من كان معهم من الفضلاء صحابة وأشياخ ، فاعتزمت على اللحاق بهم . وصدّني عن ذلك أخي وكبير محمد رحمه الله ، فلما دُعيتُ إلى هذه الوظيفة سارعت إلى الإجابة لتحصيل غرضي من اللحاق بالمغرب ، وكان كذلك ، فإنّا لمّا خرجنا من تونس نزلنا بلاد هوّارة ، وزحفت العساكر بعضها إلى بعض بفحص مرّما جنةً وانهمز صفّنا ونجوت أنا إلى أبة ، فأقمت بها عند الشيخ عبد الرحمن الوسناني^(٢) من كبراء المرابطين ، ثم تحوّلت إلى سبتة ونزلت بها على محمد بن عبدون صاحبها ، فأقمت عنده ليالي حتى هبّا لي الطريق مع رفيق من المغرب^(٣) ، وسافرت إلى قفصة ، وأقمت بها أياماً حتى قدم علينا بها الفقيه محمد ابن الرئيس منصور بن مزني ، وأخوه يوسف يومئذ صاحب الزاب وكان هو بتونس ، فلما حاصرها الأمير أبو زيد خرج إليه فكان معه . فلما بلغهم الخبر بأنّ السلطان أبا عنان ملك المغرب ، نهض إلى تلمسان فملكها ، وقتل سلطانها عثمان بن عبد الرحمن ، وأخاه أبا ثابت وأنه انتهى الى المدية وملك بجاية من يد صاحبها الأمير أبي عبد الله من حفدة السلطان أبي يحيى ، وراسله عندما أطلّ على بلده ، فسار إليه ، ونزل له عنها . وصار في جملته ، وولي أبو عنان على بجاية عمر ابن علي شيخ بني وطّاس من بني الوزير شيوخهم . فلما بلغهم هذا الخبر أجفل الأمير عبد الرحمن من مكانه عن حصار تونس ، ومرّ بقفصة فدخل إلينا محمد بن مزني ذاهباً إلى الزاب ، فرافقته إلى بسكرة ، ودخلت إلى أخيه هنالك ، ونزل هو بعض قرى الزاب تحت جراية أخيه إلى أن انصرم الشتاء .

وكان أبو عنان لما ملك بجاية ولّى عليها عمر بن علي بن الوزير من شيوخ بني وطّاس فجاء فارح مولى الأمير أبي عبد الله لنقل حرمه وولده ، فداخل بعض السفهاء من صنهاجة في قتل عمر بن علي فقتله في مجلسه ووثب هو على البلد وأرسل إلى الأمير أبي زيد يستدعيه من قسنطينة ، فتمشّت رجالات البلد بينهم خشية من سطوة السلطان .

(١) وفي نسخة ثانية : عطلتي .

(٢) وفي نسخة ثانية : الوشتاني .

(٣) وفي نسخة ثانية : وبذرق لي مع رفيق من العرب ، والبذرق كلمة معرّبه معناها الخفارة او العصمة .

ثم ثاروا بفارح فقتلوه وأعادوا دعوة السلطان كما كانت . وبعثوا عن عامل السلطان بتدلس يَحْيَا بْنَ عمر بن عبد المؤمن من شيوخ بني ونكاسن من بني مرين ، فلكوه قيادهم وبعثوا إلى السلطان بطاعتهم ، فأخرج لوقته حاجبه محمد بن أبي عمرو ، واكتنف^(١) له الجند وصرف معه وجوه دولته وأعيان بطانته . وارتحلت من بسكرة وافداً على السلطان أبي عنان بتلمسان ، فلقيت ابن أبي عمرو بالبطحاء ، وتلقاني من الكرامة بما لم أحسبه ، وردني معه إلى بجاية فشهدت الفتح ، وتسابلت وفود أفريقية إليه . فلما رجع إلى السلطان وفدت معهم فنالني من كرامته وإحسانه ما لم أحسبه ، إذ كنت شاباً لم يطر شاربي . ثم انصرفت مع الوفود ورجع ابن أبي عمرو إلى بجاية ، فأقت عنده حتى انصرم الشتاء وأخر أربع وخمسين وسبعمائة وعاد السلطان أبو عنان إلى فاس وجمع أهل العلم للتحليق بمجلسه ، وجرى ذكره عنده وهو ينتقي طلبة العلم للمذاكرة في ذلك المجلس ، فأخبره الذين لقيتهم بتونس عني ووصفوني له ، فكتب إليّ الحاجب يستقدمني ، فقدمت عليه سنة خمس وخمسين وسبعمائة ونظمي في أهل مجلسه العلمي ، وألزمي شهود الصلوات معه ، ثم استعملني في كتابته والتوقيع بين يديه على كره مني ، إذ كنت لم أعهد مثله لسلمي . وعكفت على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب ومن أهل الأندلس الوافدين في غرض السفارة ، وحصلت من الإفادة منهم على البُغْيَةِ .

وكان في جملته يومئذ الأستاذ أبو عبدالله محمد بن الصقار من أهل مراکش إمام القراءات لوقته ، أخذ عن جماعة من مشيخة المغرب وكبيرهم شيخ المحدثين الرحالة أبو عبدالله محمد بن رشيد الفهريّ سيّد أهل المغرب ، وكان يعارض السلطان القرآن برواياته السبع إلى أن توفي .

(ومنها) قاضي الجماعة بفاس أبو عبدالله محمد المغربي^(٢) صاحبنا ، من أهل تلمسان ، أخذ العلم بها عن أبي عبدالله محمد السكّوي^(٣) ورَدَ عليها من المغرب خلواً من المعارف . ثم دعتهم همته إلى التحلي بالعلم ، فعكف في بيته على مُدَارسة القرآن

(١) وفي نسخة ثانية : واكتنف .

(٢) وفي نسخة ثانية : المَقْرِيّ وهو أبو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر المقرئ بتشديد القاف المفتوحة نسبة إلى مقرّة . أو سكّون الكاف والميم في الحالتين مفتوحة . (الإحاطة ١٣٦/٢) .

(٣) وفي نسخة ثانية : السلاوي نسبة إلى سلاً .

فحفظه ، وقرأه بالسبع . ثم عكف على كتاب التسهيل في العربية فحفظه ، ثم على مختصر ابن الحاجب في الفقه والأصول فحفظها . ثم لزم الفقيه عمران المشدّ الي من تلاميذ أبي علي ناصر الدين ، وتفقه عليه ، وبرز في العلوم إلى حيث لم تلحق غايته . وبنى السلطان أبو تاشفين مدرسة بتلمسان ، فقدمه للتدريس بها ، يضاهاى به أولاد الإمام ، وتفقه عليه بتلمسان جماعة كان من أوفرهم سهماً في العلوم أبو عبد الله المغربي هذا .

ولما جاء شيخا أبو عبد الله الأيلى إلى تلمسان عند استيلاء السلطان أبي الحسن عليها ، وكان أبو عبد الله السلوي قد قتل يوم فتح تلمسان ، قتله بعض أشياع السلطان لذنوب أسلفه في خدمة أخيه أبي علي بسجلماسة قبل انتحاله العلم ، كان السلطان توعدّه عليه ، فقتل بباب المدرسة ، فلزم أبو عبد الله المغربي بعده مجلس شيخنا الأيلى ومحالس إبنى الإمام . واستبحر في العلم وتفنّن . ولما انتقض السلطان أبو عنان سنة تسع وأربعين وسبعائة وخلع أباه ، ندبه إلى كتب البيعة فكتبها وقرأها على الناس في يوم مشهود . وارتحل مع السلطان إلى فاس ، فلما ملكها عزل قاضيا الشيخ المعمر أبا عبد الله بن عبد الرزاق وولاه مكانه ، فلم يزل قاضياً بها إلى أن أسخطه لبعض النزعات الملوكية ، فعزّله وأدال منه بالفقيه أبي عبد الله القشتالي^(١) آخر سنة ست وخمسين وسبعائة ، ثم بعثه في سفارة إلى الأندلس فامتنع من الرجوع . وقام السلطان لها في ركا به ، ونقم^(٢) على صاحب الأندلس تمسكه به ، وبعث إليه فيه يستقدمه ، فلاذ ابن الأحمر بالشفاعة فيه ، واقتضى له كتاب أمان بخط السلطان أبي عنان ، وأوفده في جماعة من شيوخ العلم بغرناطة القاطنين بها^(٣) منهم : شيخنا أبو القاسم الشريف السبتي شيخ الدنيا جلالة وعلماً ووقاراً ورياسة وإمام اللسان فصاحةً وبياناً^(٤) وتقدماً في نظمه ونثره . وترسلاته . وشيخنا الآخر أبو البركات محمد بن محمد بن الحاج البلقيني^(٥) من أهل المرية شيخ المحدثين والفقهاء والأدباء والصوفية والخطباء

(١) القشتالي : هو أبو عبد الله محمد بن أحمد القشتالي القاضي بفاس ، كان بيته معتمراً بالجلود والخير والصلاح ، وكان أبو عبد الله هذا احد اعلام المغرب (الإحاطة ١٣٣/٢) .

(٢) وفي نسخة ثانية : ونكر .

(٣) وفي نسخة ثانية : وأوفده مع الجماعة من شيوخ العلم بغرناطة ومنهم القاصيان بغرناطة .

(٤) وفي نسخة ثانية : وإمام اللسان حوكاً ونقداً .

(٥) وفي نسخة ثانية : البلقيني : وهو محمد بن محمد بن إبراهيم ابن الحاج البلقيني (٧٠٨ — ٧٧٠) طبقات القراء ٢٣٥/٢ .

بالأندلس ، وسيّد أهل العلم باطلاق ، والمتفّن في أساليب المعارف ، وآداب الصحابة للملوك فنّ دونهم ، فوفدوا به على السلطان شفيعين على عظيم تشوّفه للقائهما ، فقبِلَت الشفاعة وأنجحت الوسيلة .

حضرت بمجلس السلطان يوم وفادتها سنة سبع وخمسين وسبعائة وكان يوماً مشهوداً . واستقرّ القاضي المغربي في مكان بباب السلطان عُطْلاً من الولاية والجراية . وجرت عليه بعد ذلك محنة من السلطان وقعت بينه وبين أقاربه ، امتنع من الحضور معهم عند القاضي الفشتالي ، فتقدّم السلطان إلى بعض أكابر الوزعة ببابه أن يسحبّه إلى مجلس القاضي حتى ينفذ فيه حكمه ، فكان الناس يعدّونها محنة ، ثم ولّاه السلطان بعد ذلك قضاء العساكر في دولته ، عند ما ارتحل إلى قُسْطِينَة . فلما افتتحها وعاد إلى دار ملكه بفاس آخر ثمان وخمسين وسبعائة اعتلّ القاضي المغربي في طريقه ، وهلك عند قدومه بفاس .

* (ومنهم صاحبنا) * الإمام العالم القدوة^(١) ، فارس المعقول والمنقول ، وصاحب الفروع والأصول ، أبو عبدالله محمد بن أحمد الشريف الحسني ، ويعرف بالعلوي نسبة إلى قرية من أعمال تلمسان ، تُسمّى العلّوين ، فكان أهل بلده لا يُدافعون في نسبهم . ورثاً يغمز فيه بعض الفجرة ممن لا يروعه دينه ولا معرفته بالأنساب ببعض من اللغو ، لا يلتفت إليه ، نشأ هذا الرجل بتلمسان وأخذ العلم عن مشيختها ، واختص بأولاد الإمام وتفقه عليهما في الفقه والأصول والكلام ، ثم لزم شيخنا أبا عبدالله الأبي وتصلّع من معارفه ، فاستبحر وتفجّرت ينابيع العلوم من مداركه . ثم ارتحل إلى تونس في بعض مزاياه سنة أربعين وسبعائة ولقي شيخنا القاضي أبا عبدالله ابن عبد السلام وحضر مجلسه وأفاد منه ، واستعظم رتبته في العلم . وكان ابن عبد السلام يصغي إليه ويؤثر محله ويعرف حقّه حتى لقد زعموا أنه كان يخلوبه في بيته ، فيقرأ عليه فصل التصوّف من كتاب الإشارات لابن سينا ، لما كان هو أحكم ذلك الكتاب على شيخنا الأبي وقرأ عليه كثيراً من كتاب الشفاء لابن سينا ، ومن تلاخيص كتب أرسطو لابن رشد ، ومن الحساب والهندسة والفرائض علاوة على ما كان يحمله من الفقه والعربية وسائر علوم الشريعة ، وكانت له في كتب الخلافات يدٌ

(١) وفي نسخة ثانية : العالم الفذّ .

طولى ، وقَدَّمُ عالية ، فعرف له ابن عبد السلام ذلك كله وأوجب حقّه ، وانقلب إلى تلمسان ، وانتصب لتدريس العلم وبثّه فلاً المغرب معارف وتلاميذ ، إلى أن اضطرب المغرب بعد واقعة القيروان . ثم هلك السلطان أبو الحسن ، وزحف أبو عنان إلى تلمسان فملكها سنة ثلاث وخمسين وسبعائة فاستخلص الشريف أبا عبدالله واختاره لمجلسه العليّ مع من اختاره من المشيخة ، وزحف به إلى فاس فقبّر الشريف من الاغتراب وردّد الشكوى وعرف السلطان ذلك ^(١) وارتاب به . ثم بلغه أثناء ذلك أنّ عثمان بن عبد الرحمن سلطان تلمسان أوصاه على ولده ، وأودع له مالاّ عند بعض الأعيان من أهل تلمسان ، وأنّ الشريف مطلع على ذلك ، فانزعج الوديعة وسخط الشريف بذلك ونكبه ، وأقام في اعتقاله أشهراً ، ثم أطلقه أول ست وخمسين وسبعائة وأقصاه ، ثم أعتبه بعد فتح قسنطينة وأعادته إلى مجلسه إلى أن هلك السلطان آخر تسع وخمسين وسبعائة .

وملك أبو حمّو بن يوسف بن عبد الرحمن تلمسان من يد بني مرين ، واستدعى الشريف من فاس فسّرحه القائم بالأمر يومئذ الوزير عمر بن عبدالله فانطلق إلى تلمسان . وأطلقه ^(٢) أبو حمو براحتيه ، وأصهر له في ابنته ، فزوّجها إياه ، وبني له مدرسة جعل في بعض جوانبها مدفن أبيه وعمّه ، وأقام الشريف يدرس العلم إلى أن هلك سنة إحدى وسبعين وسبعائة وأخبرني رحمه الله أنّ مولده سنة عشر وسبعائة .

* (ومنهم صاحبنا) * الكاتب القاضي أبو القاسم محمد بن يحيى البرجي من برجة ^(٣) الأندلس . كان كاتب السلطان أبي عنان وصاحب الإنشاء والسرّ في دولته ، وكان مختصّاً به ، وأثراً لديه . وأصله من برجة الأندلس نشأ بها واجتهد في العلم والتحصيل ، وقرأ وسمع وتفقه على مشيخة الأندلس . واستبحر في الأدب وبرز في النظم والنثر ، وكان لا يجاري في كرم الطباع وحسن المعاشرة ، ولين الجانب وبذل البشر والمعروف . وارتحل إلى بجاية في عشر الأربعين وسبعائة ، وبها الأمير أبو زكريا ابن السلطان أبي يحيى منفرداً بملكها على حين أقفر من رسم الكتابة والبلاغة ،

(١) وفي نسخة ثانية : فاحفظ السلطان بذلك .

(٢) وفي نسخة ثانية : وتلقاه أبو حمو براحتيه .

(٣) بَرَجَة : مدينة بالأندلس من أعمال البيرة ، ينسب إليها أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالله الجذامي المقرئ ، هو منسوب إلى برجة بلدة من أعمال المرية (معجم البلدان) .

بدرت أهل الدولة إلى اصطفائه وإيثاره بخطة الإنشاء والكتاب عن السلطان إلى أن هلك الأمير أبو زكريا ، ونصب ابنه محمد مكانه ، فكتب عنه على رسمه ثم هلك السلطان أبو يحيى ، وزحف السلطان أبو الحسن إلى أفريقية واستولى على بجاية ، ونقل الأمير محمداً بأهله وحاشيته إلى تلمسان كما تقدّم في أخباره ، فترل أبو القاسم البرجي تلمسان ، وأقام بها واتصل خبره بأبي عنان ابن السلطان أبي الحسن وهو يومئذ أميرها ، ولقيه ، فوقع من قلبه بمكان إلى أن كانت واقعة القيروان .

وخلع أبو عنان واستبدّ بالأمر فاستكتبه وحمله إلى المغرب ، ولم يسمُ به إلى العلامة لأنه أثر بها محمد بن أبي عمر بما كان أبوه يعلمه القرآن والعلم . وربّي محمد بداره ، فولّاه العلامة ، والبرجي مرادف له في رياسته إلى أن انقرضوا جميعاً . وهلك السلطان أبو عنان واستولى أخوه أبو سالم على ملك المغرب ، وغلب ابن مرزوق على هواه كما قدّمناه ، فنقل البرجيّ من الكتابة واستعمله في قضاء العساكر ، فلم يزل على القضاء إلى أن هلك سنة ست وثمانين وسبعائة وأخبرني رحمه الله أن مولده سنة عشر وسبعائة .

* (ومنهم شيخنا المعرّ الرحالة) * أبو عبدالله محمد بن عبد الرزاق شيخ وقته جلالة وتبرية وعلماً وخبرة بأهل بلده ، وعظمة فيهم . نشأ بفاس وأخذ عن مشيختها ، وارتحل إلى تونس فلقى القاضي أبا اسحق بن عبد الرفيق ، والقاضي أبا عبدالله النّفزّاويّ . وأهل طبقتهم ، وأخذ عنهم وتفقه عليهم ، ورجع إلى المغرب ولازم سنن الأكابر والمشايخ إلى أن ولّاه السلطان أبو الحسن القضاء بمدينة فاس ، فأقام على ذلك إلى أن جاء السلطان أبو عنان من تلمسان بعد واقعة القيروان ، وخلّعه أباه فعزله بالفقيه أبي عبدالله المغربي ، وأقام عطلاً في بيته .

ولما جمع السلطان مشيخة العلم للتخليق بمجلسه ، والإفادة منهم ، واستدعى شيخنا أبا عبدالله بن عبد الرزاق ، فكان يأخذ عنه الحديث ، ويقرأ عليه القرآن برواياته في مجلس خاص إلى أن هلك رحمه الله بين يدي مهلك السلطان أبي عنان ، إلى آخرين وآخرين من أهل المغرب والأندلس ، كلّهم لقيت وذاكرت وأفدت منه ، وأجازني بالإجازة العامّة .

* (حديث النكبة من السلطان أبي عنان) *

كان اتصالي بالسلطان أبي عنان آخر سنة ست وخمسين وسبعائة وقرّ بني وأدناي ، واستعملني في كتابته ، واختصني بمجلسه للمناظرة والتوقيع عنه فكثّر المنافسون وارتفعت السعايات حتى قويت عنده بعد أن كان لا يغير عن صفائه ^(١) . ثم اعتلّ السلطان آخر سبع وخمسين وسبعائة وكان قد حصلت بيني وبين الأمير محمد صاحب بحاية من الموحّدين مداخله ، أحكمها ما كان لسلي في دولتهم . وغفلت عن التحفّظ من مثل ذلك ، من غيرّة السلطان ، فما هو إلا أن شغل بوجعه ، حتى نمي إليه بعض الغواة أن صاحب بحاية معتمل في الفرار ليسترجع بلده ، وبها يومئذ وزيره الكبير عبدالله بني عليّ ، فانبعث السلطان لذلك ، وبادر بالقبض عليه . وكان فيما نمي إليه أني داخلته في ذلك ، فقبض عليّ وامتحنني وحسني . ثم أطلق الأمير محمداً وما زلت أنا في اعتقاله إلى أن هلك ، وخاطبته بين يدي مهلكه مستوطفاً بقصيدة أولها :

على أيّ حالٍ ليليّ أعاتبُ وأيّ صُروفٍ للزمانِ أغالبُ
كفى حزناً أني على القربِ نازحُ وأني على دعوى شهودي غائبُ
وأني على حكم الحوادثِ نازلُ تسلمني طوراً وطوراً تحاربُ

ومنها في الشوق :

سكّوتهم إلا ادّكارَ معاهدٍ لها في الليالي الغاباتِ غرائبُ
وإنّ نسيمَ الريح منهم يشوقي إليهم وتصيني البروق اللواعبُ

وهي طويلة ، نحو مائتين بيتاً ، ذهبت عن حفظي ، فكان لها منه موقع ، وهش لها . وكان بتلمسان ، فوعد بالإفراج عني عند حلوله بفاس ، ولخمس ليالٍ من حلوله طرقه الوجع ، وهلك لخمس عشرة ليلة ، في رابع وعشرين ذي الحجة ، خاتم تسع وخمسين وسبعائة . وبادر القائم بالدولة ، الوزير الحسن بن عُمر إلى إطلاق جماعة من المعتقلين ، كنت فيهم ، فخلع عليّ ، وحملني ، وأعادني إلى ما كنتُ

(١) وفي نسخة ثانية : واستعملني في كتابته ، حتى تكدر جوي عنده ، بعد أن كان لا يغير عن صفائه .

عليه ، وطلبتُ منه الإنصراف إلى بلدي ، فأبى عليّ ، وعاملني بوجه كرامته ، ومذهب إحسانه ، إلى أن اضطرب أمره ، وانتقض عليه بنو مرين ، وكان ما قدّمناه في أخبارهم .

* (الكتابة عن السلطان أبي سالم في السر والانشاء) *

ولما أجاز السلطان أبو سالم من الأندلس لطلب مُلكه ، ونزل بجبل الصفيحة من بلاد غماره . وكان الخطيب ابن مرزوق بفاس ، فبثّ دعوته سراً ، واستعان بي على أمره ، بما كان بيني وبين أشياخ بني مرين من المحبة واثتلاف ، فحملتُ الكثير منهم على ذلك ، وأجابوني إليه ، وأنا يومئذ أكتب عن القائم بأمر بني مرين ، منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق ، وقد نصّبوه للملك ، وحاصروا الوزير الحسن بن عمر ، وسلطانة السعيد ابن أبي عيّان ، بالبلد الجديد . فقصدني ابنُ مرزوق في ذلك ، وأوصل إليّ كتاب السلطان أبي سالم . بالحض على ذلك ، وإجمال الوعد فيه . وألقى عليّ حملة ؛ فنهضتُ به ، وتقدّمتُ إلى شيوخ بني مرين ، وأمرأت الدولة بالتحريض على ذلك ، حتى أجابوا ، وبعث ابنُ مرزوق إلى الحسن بن عمر ، يدعو إلى طاعة السلطان أبي سالم ، وقد ضجّر من الحصار ؛ فبادر إلى الإجابة ، واتفق رأي بني مرين على الانفضاض عن منصور بن سليمان ، والدخول إلى البلد الجديد ؛ فلما تمّ عقدُهم على ذلك نزعَت إلى السلطان أبي سالم في طائفة من وجوه أهل الدولة ، كان منهم محمد بن عثمان بن الكاس ، المستبدّ بعد ذلك بمُلك المغرب على سلطانه ، وكان ذلك التّروع مبدأ حظّه ، وفاتحة رياسته ، بسعياتي له عند السلطان ، فلما قدّمتُ على السلطان بالصفيحة ، بما عندي من أخبار الدولة ، وما أجمعوا عليه من خلع منصور بن سليمان ، وبالموعد الذي ضربوه لذلك ، واستحثّته . فارتحل ، ولقيتنا البشيرُ بإجفال منصور بن سليمان ، وفراره إلى نواحي ياديس ، ودخول بني مرين إلى البلد الجديد ، وإظهار الحسن بن عمر دَعوة السلطان أبي سالم . ثم لقيتنا ، بالقصر الكبير ، قبائلُ السلطان ، وعساكره ، على راياتهم ، ووزيرُ منصور بن سليمان ، وهو مسعود بن رحو بن ماساي ؛ فتلقاه السلطان

بالكرامة كما يجب له ، واستوزره عوضاً نائباً للحسن بن يوسف بن عليّ بن محمد الورتاجني السابق إلى وزارته ، لقيّه بسبته ، وقد غرّ به منصور بن سليمان إلى الأندلس فاستوزره واستكفاه .

ولما اجتمعت العساكر عنده بالقصر صعد إلى فاس ولقيه الحسن بن عمر بظاهرها ، فأعطاه طاعته ، ودخل إلى دار ملكه وأنا في ركابه ، لخمس عشرة ليلة من نزوعي إليه ، منتصف شعبان سنة ستين وسبعائة ، فرعى لي السابقة واستعلمني في كتابة سرّه ، والترسيل عنه ، والإنشاء لمخاطباته ، وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل بدون أن يشاركني أحد ممن يتحل الكتابة في الأسجاع ، لضعف انتحالها ، وخفاء المعاني منها على أكثر الناس ، بخلاف غير المرسل^(١) ، فانفردت به يومئذ ، وكان مستغرباً عند من هم من أهل هذه الصناعة .

ثم أخذت نفسي بالشعر ، واثال عليّ منه بحور ، توسطت بين الإجادة والقصور ، وكان مما أنشدته إياه ليلة المولد النبوي من سنة ثلاث وستين وسبعائة^(٢) .

وأُطْلِنَ مَوْقِفَ عِبْرَتِي وَنَحِيبِي
لِعَوَادٍ^(٤) مَشْغُوفِ الْفَوَادِ كَثِيبِ
قَلْبِي رَهِينَ صَبَابَةٍ وَوَجِيبِ
فَشْرَتِ^(٦) بَعْدَهُمْ بِمَاءِ غُرُوبِ
رُحْمَاكَ فِي عَذْلِي وَفِي تَأْنِيْبِي
مَاءُ الْمُدِّ ام^(٧) لَدَيَّ غَيْرَ شُرُوبِ
لَوْلَا تَذَكُّرُ مَنَزَلِ وَجِيبِ
لِلْبَدْرِ مِنْهُمْ أَوْ كُنَّاسِ رَيْبِ

أَسْرَفَنَ فِي هَجْرِي وَفِي تَفْذِيْبِي
وَأَبَيْنُ يَوْمَ الْبَيْنِ مَوْقِفَ^(٣) سَاعَةِ
لِلَّهِ عَهْدُ الظَّاعِنِينَ وَقَدْ غَدَا^(٥)
غَرَبَتْ رُكْبَاتُهُمْ وَدُمِعِي سَافِحُ
يَا نَاقِعاً بِالْعَتَبِ غُلَّةَ شَوْقِهِمْ
يَسْتَفْزِذُ الصَّبَّ الْمَلَامَ وَإِنِّي
مَاهَا جَنِي طَرْبُ وَلَا اعْتَادَ الْجَوَى
أَصْبُوا إِلَى أَطْلَالٍ^(٨) كَانَتْ مَطْلَعاً

(١) وفي نسخة ثانية : بخلاف المرسل .

(٢) وفي نسخة ثانية : سنة اثنتين وستين وسبعائة .

(٣) وفي نسخة ثانية : وقفة ساعة .

(٤) وفي نسخة ثانية : لوداع .

(٥) وفي نسخة ثانية : وغادروا .

(٦) وفي نسخة ثانية : فشرقت . وماء الغروب : الدموع حين تخرج من العين .

(٧) وفي نسخة ثانية : ماء الملام .

(٨) وفي نسخة ثانية : الاطلال .

عَبَثَ بِهِ أَيْدِي الْبَلَى وَتَرَدَّدَتْ
تَبْلَى مَعَاهِدُهَا وَإِنْ عَهْدُهَا
وَإِذَا السِّدِّارُ تَعَرَّضَتْ لِمُتَيْمٍ
إِيَّاهُ عَلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ فَإِنَّهُ
لَمْ أَنْسَهَا وَالدهرُ يَنْفِي صَرْفَهُ
وَالدَّارُ مُؤَنِّقَةٌ بِمَا لَبَسَتْ مِنَ الْأَ
يَا سَائِقِ الْأَطْعَامِ يَعْثِفُ الْفَلَا
مُتَهَافِتاً عَنْ رَحْلِ كُلِّ مَدْلَلٍ
تَنْجَادِبُ النِّفَحَاتُ فَضْلَ رَدَائِهِ
إِنْ هَامَ مِنْ ظِلْمِ الصَّبَابَةِ ضَحْبُهُ
إِنْ تَعَرَّضَ مَسْرَاهُمْ سُدْفُ الدَّجَى
فِي كُلِّ شَعْبٍ مُنِيَّةٌ مِنْ دُونِهَا
هَلَّا عَطَفَتْ صُدُورُهُنَّ إِلَى الَّتِي
فَتَوْمٌ مِنْ أَكْنَافٍ يَثْرِبُ مَأْمَنُهَا
حَيْثُ النُّبُوَّةُ أَيُّهَا مَجْلُوءَةٌ
سَرٌّ عَجِيبٌ لَيْسَ يَحْجِبُهُ الثَّرَى (٧)

فِي عَطْفِهَا لِلدَّهْرِ أَيُّ خُطُوبٍ
لِيَجْرَهَا (١) وَصْنِي وَحُسْنُ نَسِيْبِي
هَزَتْ لَذِكْرَهَا أَوَّلَى التَّشْيِيبِ (٢)
أَلْوَى بِسِدِّينِ فَوَادِي الْمَنُوبِ
وَيَغْضُ طَرْفِي حَاسِدٍ وَرَقِيبِ
يَا مَ تَجْلُوهَا بِكُلِّ قَشِيبِ (٣)
بِتَوَاصِلِ الْأَسْنَادِ وَالتَّأْوِيبِ (٤)
نَشْوَانٍ مِنْ آنٍ وَمَسٍ لُغُوبِ (٥)
فِي مُلْتَقَاهَا مِنْ صَبَاً وَجَنُوبِ
نَهَلُوا بِمَوْرِدِ دَمْعِهِ الْمَسْكُوبِ
صَدَعُوا الدَّجَى بِغَرَامِهِ الْمَشُوبِ
هَجَرَ الْأُمَانِي أَوْ لِقَاءِ شُعُوبِ
فِيهَا لَغَانِيَّةٌ (٦) أَعْيُنِ وَقُلُوبِ
يَكْفِيكَ مَا تَخْشَاهُ مِنْ تَثْرِيبِ
تَلُومٍ مِنَ الْآثَارِ كُلِّ غَرِيبِ
مَا كَانَ سُرُّ اللَّهِ بِالْمَحْجُوبِ

وَمِنْهَا بَعْدَ تَعْدِيدِ مَعْجَزَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْأَطْنَابِ فِي مَدْحِهِ :

إِنِّي دَعَوْتُكَ وَاثَقَاً بِإِجَابَتِي
قَصَّرْتُ فِي مَدْحِي فَإِنْ يَكُ طَيِّباً
مَاذَا عَسَى يَبْغِي الْمُطِيلُ وَقَدْ حَوَى
يَا خَيْرَ مَدْعُوٍّ وَخَيْرَ مُجِيبِ
فَمَا لَذِكْرُكَ مِنْ أَرِيحِ الطَّيِّبِ
فِي مَدْحِكَ الْقُرْآنُ كُلُّ مَطِيبِ (٨)

(١) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةٍ : لِيَجْدَهَا .

(٢) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةٍ : هَزَتْ ذِكْرَهَا إِلَى التَّشْيِيبِ .

(٣) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةٍ : وَالْدارُ مُؤَنِّقَةٌ مَحَاسِنَهَا بِمَا لَبَسَتْ مِنَ الْيَامِ كُلِّ قَشِيبِ

(٤) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةٍ : وَيَوَاصِلِ الْإِسَادَ بِالتَّأْوِيبِ . وَالْإِسَادُ : سِيرَ اللَّيْلِ كُلَّهُ لَا تَعْرِيسَ فِيهِ . وَالتَّأْوِيبُ : سِيرَ النَّهَارِ لِاتِّعْرِيحٍ فِيهِ (لِسَانُ الْعَرَبِ) .

(٥) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةٍ : نَشْوَانٍ مِنْ أَيْنَ وَمَسَرِّ لُغُوبٍ . وَالْأَيْنُ : الْإِعْيَاءُ وَاللُّغُوبُ التَّعَبُ .

(٦) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةٍ : لِبَانَةٍ .

(٧) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةٍ : سَرٌّ عَجِيبٌ لَمْ يَحْجِبْهُ الثَّرَى .

(٨) هُنَا إِشَارَةٌ إِلَى مَدْحِ الْقُرْآنِ لِلنَّبِيِّ (صَلَعَم) « وَانْكَ لَعَلَى خَلْقٍ يَحْطُمُ » آيَةٌ ٦٨ مِنْ سُورَةِ الْإِنْعَامِ .

تُدْني إليّ الفوز بِالْمَرْغُوبِ
وَأَحْطُ أَوْزَارِي وَأَصِرْ ذَنْوِي
إِنْضَاءَ كُلِّ نَجِيصَةٍ وَنَجِيبِ
مَا شَتَّ مِنْ خَبَبٍ وَمِنْ تَقَرِيبِ
أَنْفَاسٍ مُشْتَاقٍ إِلَيْكَ طَرُوبِي
حَنَوًا لِلْمَقَاهِمَا حَنِينَ النَّيْبِ
إِرْثِ الْخِلَافَةِ فِي بَنِي يَعْقُوبِ
يَغْشَى مُثَارُ النَّقْعِ كُلِّ سَبِيبِ
مِنْ كُلِّ خَوَارِ الْعِنَانِ لَعُوبِ
فِي مَتَدَى الْأَعْدَاءِ غَيْرِ مَعِيبِ
وَالْعَزَّ شِمِيسَةً مُرْتَجَى وَمُهَيْبِ

يَا هَلْ تُبَلِّغُنِي اللَّيَالِي زُورَةً
أَمْحُو خَطِيئَاتِي بِإِخْلَاصِي بِهَا
فِي فِتْنَةٍ هَجَرُوا الْمُنَى وَتَعَوَّدُوا
يَطْوِي صَحَائِفَ لَيْلِهِمْ نَوَقَ الْفَلَا
إِنْ رَنَمَ الْحَادِي بِذِكْرِكَ رَدَّدُوا
أَوْ غَرَّدَ الرِّكْبُ الْخَلِيَّ بِطَيِّبَةِ
وَرَثُوا اعْتِسَافَ الْيَدِ عَنْ آبَائِهِمْ
الظَّاعِنُونَ الْخَيْلَ وَهِيَ عَوَابِسُ
وَالْوَاهِبُونَ الْمُقَرَّبَاتِ صَوَافِسُ
وَالْمَانِعُونَ الْجَارَ حَتَّى عَرْضُهُ
تَحْشَى بِوَادِرِهِمْ وَيُرْجَى حَلْمُهُمْ

ومنها في ذكر إجازته البحر واستيلائه على ملكه :

تُرْجِيهِ رِيحُ الْعَزْمِ ذَاتُ هَيْبِ
يَصْدُ عَنْ لَيْلِ الْحَادِثِ الْمَرْهُوبِ
وَسَطًا الْهُدَى بِفَرِيقِهِ الْمَغْلُوبِ
وَاسْتَأَثَرُوا بِتَاجِهَا الْمَغْصُوبِ (٢)
كَرُمُوا بِهَا فِي مَشْهَدٍ وَمَغِيبِ
فَلَقَدْ شَهِدْنَا مِنْهُ كُلَّ عَجِيبِ
تَقْتَادُ بِالْتَرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ
يَبْدُو الْهُدَى مِنْ أَفْقِهَا الْمَرْغُوبِ
وَحَدِيدُ سَعْدِكَ ضَامِنُ الْمَطْلُوبِ

سَائِلُ بَنِي طَامِي الْعُبَابِ وَقَدْ سَرَى
تَهْدِيهِ شُهْبُ أُسْنَةٍ وَعِزَائِمِ
حَتَّى انْجَلَتْ ظِلُّ الْظَلَامِ (١) بِسَعِيهِ
أَبْنَى الْأَوَّلَى شَادُوا الْخِلَافَةَ بِالتُّقَى
جَمَعُوا لِحِفْظِ الدِّينِ أَيَّ مَنَاقِبِ
لِلَّهِ بِمَجْدِكَ طَارِفًا أَوْ تَالِدًا
كَمْ رَهْبَةٍ أَوْ رَغْبَةٍ لَكَ فِي الْعُلَا
لَا زِلْتَ مَسْرُورًا بِأَشْرَفِ دَوْلَةٍ
تُحْيِي الْمَعَالِي غَادِيًا أَوْ رَائِحًا

ومن قصيدة خاطبته بها عند وصول هدية ملك السودان إليه ، وفيها الحيوان الغريب المسمى بالزرافة :

قَدَحَتْ يَدُ الْأَشْوَاقِ مِنْ زَنْدِي وَهَفَّتْ بَقْلَبِي زَفْرَةُ الْوَجْدِ

(١) وفي نسخة أخرى : حتى انجلت ظلم الضلال بسعيه .

(٢) وفي نسخة أخرى : يا بن الألى شادوا الخلافة بالتقى واستأثروك بتاجها المغصوب .

بالقرب فاستبدلتُ بالبُعْدِ
 فاعتَضْتُ مِنْهُ بِمَوْلِمِ الصَّدِّ
 إِنَّ الغرامَ أَضَاعَ مِنْ عَهْدِي
 وأقولُ ضَلَّ فاستبغني رُشْدِي
 بَرْدَ الجَوَى فترِيدُ في الوَقْدِ
 لِتَعْلَلِي بِضَعِيفٍ مَا تُهْدِي
 طَيَّ القِلَافَةَ لَطِيفَةَ الوَجْدِ
 يُغْنِي عَنِ الْمُسْتَنْبَةِ الجُرْدِ
 عَنْ سَاكِنِي نَجْدٍ وَعَنْ نَجْدِ
 وَهِيَ الَّتِي تَأْبَى سِوَى الحَمْدِ
 بِالمُسْتَعِينِ مَعَالِمِ الرُّشْدِ
 وَبِنِجَاءٍ عَزَّ شَامِخِ الطُّودِ
 كَسَبُ العُلَا بِمَوَاهِبِ الوَجْدِ

رَبَذْتُ سُلُوكِي عَلَى ثِقَةٍ
 وَلَرُبَّ وَضَلٍ كُنْتُ أَمْلُكُهُ
 لَا عَهْدَ عِنْدَ الصَّبْرِ أَطْلُبُهُ
 يَلْحَى العَذُولُ فَمَا أَعْنَفُهُ
 وَأَعَارِضُ النَفَحَاتِ أَسْأَلُهَا
 يَهْدِي الغَرَامُ إِلَى مَسَالِكِهَا
 يَا سَائِقَ الْأَطْعَامِ مُعْتَسِفًا
 أَرِحْ الرِّكَابَ فِي الصَّبَا نَبَأُ
 وَاسِلِ الرُّبُوعِ بِرَامَةِ خَبْرًا
 مَالِي يَلَامُ عَلَى الهَوَى خُلُقِي
 لَا يَأْتِي إِلَّا الرُّشْدُ مُذْ وَضَحَتْ
 نِعَمَ الخَلِيفَةِ فِي هَدْيٍ وَتَقَى
 نَجْلُ السَّرَاةِ الْغُرَّ شَانَهُمْ

ومنها في ذكر خلوصي إليه وما ارتكبه فيه :

ذِكْرَاهُ وَهُوَ بِشَاهِقِي فَرْدٍ
 وَجَمُوعِ أَقْبَالِ أُولِي الْيَدِ
 وَقَضَيْتُ حَقَّ المَجْدِ مِنْ قَصْدِي
 فَرَوَيْتُ عَنْ عَزٍّ وَمِنْ رِفْدِي
 آمَالُهُ بِمَطَالِبِ المَجْدِ
 مَا قَلْتُ هَذَا جَنَّةُ اللَّدِ
 قُذْفُ النُّوَى وَتَنُوقَةُ البُعْدِ
 وَمَلَكَتُ عِزَّ جَمِيعِهِمْ وَحَدِي
 مَوْشِيَّةً بِوشائِحِ البُرْدِ
 فِي مَوْحِشِ البَيْدَاءِ بِالْفَرْدِ^(١)

لِلَّهِ مِنِّي إِذْ تَسَاءَلُونِي
 شَهْمٌ يَقُولُ بَوَاتِرًا قُضِيًّا
 أَوْ رَيْتُ زَنْدَ العِزِّ فِي طَلْبِي
 وَوَرَدْتُ عَنْ ظَمَأٍ مَنَاهِلَهُ
 هِيَ جَنَّةُ المَأْوَى لِمَنْ كَانَتْ
 لَوْ لَمْ أُعْلَلْ بِرَدٍّ^(١) كَوَثْرَهَا
 مَنْ مِثْلُ بَلْعِ قَوْمِي وَدُونَهُمْ
 أَنِّي أَنْفَتُ عَلَى رَجَائِهِمْ
 وَرَقِيمَةَ الْأَعْطَافِ حَالِيَةً
 وَخَشِيَّةَ الْأَنْسَابِ مَا أَنْسَتُ

(١) وفي نسخة ثانية : بورد .

(٢) وفي نسخة ثانية : بالقود .

تسمو بجيدٍ بالغٍ صُعُداً
طالَتْ رؤوسُ الشامحاتِ بهِ
قَطَعَتْ إِلَيْكَ تَنَائِفاً وَصَلَتْ
تَحْدِي عَلَى اسْتَصْفَانِهَا ذُلًّا
يسعودك اللَّاتِي ضَمَنْ لَهَا
جاءتْكَ فِي وَفْدِ الْأَحَابِشِ لَا
وَأَفْوِكَ انْضَاءً تُقَلِّبُهُمْ
كَالطَّيْفِ يَسْتَقْرِى مَضَاجِعَهُ
يَشْنُونَ بِالْحُسْنَى الَّتِي سَبَقَتْ
وَيَرْوْنَ لَحْظَكَ مِنْ وَفَادَتِهِمْ
يَا مُسْتَعِيناً جَلَّ فِي شَرَفِ
جَازَاكَ رَبُّكَ عَنْ خَلِيقَتِهِ
وَبَقِيَتْ لِلدُّنْيَا وَسَاكِنِهَا

شَرَفَ الصُّرُوحِ بِغَيْرِ مَا جُهْدِ
وَلَرُبَّمَا قَصُرَتْ عَنِ الْوَفْدِ
أَسَارَهَا بِالْقَهْدِ وَالْوَحْدِ^(١)
وَبَيَّتْ طُوعَ الْقِنِّ وَالْقَيْدِ^(٢)
طُولَ الْحَيَاةِ بَعِيشَةَ رَغْدِ
يَرْجُونَ غَيْرَكَ مُكْرِمَ الْوَفْدِ
أَيْدِي السُّرَى بِالْغُورِ وَالنَّجْدِ
أَوْ كَالْحُسَامِ يُسَلُّ مَنْ غَمْدِ
مَنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ وَلَا جَحْدِ
فَخَرًّا عَلَى الْأَثَرِ وَالْهَنْدِ
عَنْ رُتْبَةِ الْمَنْصُورِ وَالْمَهْدِ
خَيْرَ الْجَزَاءِ فَنِعْمَ مَنْ يُسْدِي
فِي عِزِّهِ أَبَدًا وَفِي سَعْدِ

وأنشدته في سائر أيامه غير هاتين القصيدتين كثيراً لم يحضرني الآن شيء منه .
ثم غلب ابن مرزوق على هواه وأفرد بخالصته وكبح الشكايم عن قربه ، فانقبضت
وقصرت الخطو ، مع البقاء على ما كنت فيه من كتابة سرّه وإنشاء مخاطباته ومراسمه .
ولأنّي آخر الدولة «خطّة المظالم» فوقيتها حقّها ودفعت للكثير مما أرجو ثوابه . ولم يزل
ابن مرزوق آخذاً في سعائته بي وبأمثالي من أهل الدولة ، غيرةً ومنافسةً إلى أن
انتقض الأمر على السلطان بسببه ، وثار الوزير عمر بن عبد الله بدار الملك فصار إليه
الناس ، ونبذوا السلطان وبيعته ، وكان في ذلك هلاكه على ما ذكرناه في
أخبارهم .

ولما قام الوزير عمر بالأمر أقرني علي ما كنت عليه ، ووفّر أقطاعي وزاد في جرايتي
وكنّت أسمى بطغيان الشباب إلى أرفع مما كنت فيه وأدلّ في ذلك بسابق مودة معه ،

(١) وفي نسخة ثانية : إسأداها بالنص والوحد . والنص : التحريك حتى تستخرج من الناقة أقصى سيرها .
والوحد : ضرب من سير الابل ، وهو سعه المخطوفي المشي (لسان العرب) .

(٢) وفي نسخة ثانية : تحدي على استصعابها ذللاً ، تحدي : تسرع ، والقن : العبد . والعُدّ : سير يصنع من
جلد غير مدبوغ .

منذ أيام السلطان أبي عَنان ، وصحابة استحکم عقدها بيني وبين الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية ، فكان ثالث آثافنا ، ومصقلة فكاھتنا ، واشتدَّت غيرة السلطان لذلك كما مرَّ ، وسطا بنا ، وتغافل عن عمر بن عبد الله لمكان أبيه من ثغر بجاية ، ثم حملني الإذلال عليه أيام سلطانه ، وما ارتكبه في حق من القصور بي عمّا أسمو إليه إلى أن هجرته ، وقعدت عن دار السلطان مغاضباً له ، فتنكر لي وأقطعني جانباً من الإعراض ، فطلبت الرحلة إلى بلدي بأفريقية . وكان بنو عبد الواد قد راجعوا ملكهم بتلمسان والمغرب الأوسط فنعني من ذلك أن يغتبط أبو حمّو صاحب تلمسان بمكاني ، فأقيم عنده ، وألحَّ في المنع من ذلك ، وأبيت أنا إلاّ الرحلة ، واستجرت في ذلك برديفه وصهره الوزير مسعود بن رحو بن ماسي ، ودخلت عليه يوم الفطر سنة ثلاث وستين وسبعمائة فأنشدته :

وَبُشِّرِي لِعَيْدٍ أَنْتَ فِيهِ مُنِيلٌ
تَتَأْبَعُ أَغْوَامَ بِهَا وَفُصُولُ
وَلَامَسَ رَبْعاً فِي حِمَاكَ مُحُولُ
لَهُ غُرُرٌ وَضَاحَةٌ وَحُجُولُ
يَحُومُ عَلَيْهِ عَالَمٌ وَجَهُولُ
فَرَسَمُ الْأَمَانِي مِنْ سَوَاكِ مُحِيلُ
إِذَا لَمْ يَكُنْ لِي فِي ذِرَاكِ مَقِيلُ
فَمِثْلُكَ يُوَلِّي رَاجِياً وَيُنِيلُ
وَلَا سَخَطَةَ لِلْعَيْشِ فَهُوَ جَزِيلُ
لَظِلُّ عَلَى هَذَا الْأَنَامِ ظَلِيلُ
شَجَاهُنَّ خَطْبٌ وَالْفِرَاقُ طَوِيلُ
وَأَنَّ فَوَادِي حَيْثُ هُنَّ حُلُولُ
وَأَنَّ اغْتِرَابِي فِي الْبِلَادِ يَطُولُ
تُخِطِّفُ أَوْ غَالَتْ رِكَابِي غُولُ
فَطَارَتْ لِقَلْبِي أَنَّهْ وَعَوِيلُ

هَنِيئاً لَصُومٍ لَا عَدَاهُ قَبُولُ
وَهُنُتُهُمَا مِنْ عِزَّةٍ وَسَعَادَةٍ
سَقَى اللَّهُ دَهراً أَنْتَ إِنْسَانٌ عَيْنُهُ
فَعَصْرُكَ مَا بَيْنَ اللَّيَالِي مُوَاسِمُ
وَجَانِبُكَ الْمَأْمُولُ لِلْجُودِ مَشْرِعُ
عَسَاكَ وَإِنْ ضَنَّ الزَّمَانُ مَنْوَلِي
أَجْرُنِي فَلَيْسَ السُّدْهُرُ لِي بِمُسَالِمِ
وَأَوْلَيْتَنِي الْحُسْنَى بِمَا أَنَا آمِلُ
وَوَاللَّهِ مَا رُمْتُ التَّرَحُّلَ عَنْ قَلِي
وَلَا رَغْبَةً عَنْ هَذِهِ الدَّارِ إِنَّهَا
وَلَكِنْ نَأَى بِالشَّعْبِ عَنَّا حَبَائِبُ
يَبِيجُ بَيْنَ الْوَجْدِ إِنْ نَازَحُ
عَزِيزٌ عَلَيْهِنَّ الَّذِي قَدْ لَقِيتُهُ
تَوَارَتْ بِأَبْنِي^(١) الْبَقَاعُ كَأَنِّي
ذَكَرْتُكَ يَا مَعْنَى الْأَحْيَةِ وَالْهَوَى

(١) وفي نسخة ثانية : بأبْنِي .

وَحَيِّتُ عَنْ شَوْقِ رَبِّكَ كَأَنَّا
أَحِبَّابُنَا وَالْعَهْدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
إِذَا أَنَا لَمْ تُرْضِ الْحُمُولَ مَدَامِعِي
الْأَمَ مَقَامِي حَيْثُ لَمْ تُرِدِ الْعُلَا
أَجَاذِبُ فَضْلَ الْعُمَرِ يَوْمًا وَلَيْلَةً
وَيَذْهَبُ بِي مَا بَيْنَ يَأْسٍ وَمَطْمَعٍ
تُعَلِّلُنِي مِنْهُ أَمَانٌ خَوَادِعُ
أَمَّا لِلْيَالِي لَا تُرِدُ خَطَوْبَهَا
يُرَوِّعُنِي عَنْ صَرْفِهَا كُلُّ حَادِثٍ
أَدَارِي عَلَى رَغْمِ الْعِدَاةِ بَرِيَّةٌ (٣)
وَأَغْدُو بِأَشْجَانِي عَلِيًّا كَأَنَّا
وَأَنِّي وَإِنْ أَصْبَحْتُ فِي دَارِ غَرْبَةٍ
وَصَدَّتْنِي الْأَيَّامُ عَنْ خَيْرِ مَتَرٍ
لَأَعْلَمُ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ يَنْتَهِي
وَإِنِّي عَزِيزٌ بِأَبَمِ مَاسَايَ مَكْثُرُ

يُمَثِّلُ لِي فِي (١) بِهَا وَطَلُولُ
كَرِيمٌ وَمَا عَهْدُ الْكَرِيمِ يَحُولُ
فَلَا قَرَّبَتْنِي لِلْقَسَاءِ حُمُولُ
مُرَادِي وَلَمْ تُعْطِ الْقِيَادَ ذَلُولُ
وَسَاءَ صَبَاحُ بَيْنَهَا وَأَصِيلُ
زَمَانُ بَنِيْلِ الْمَعْلُوتِ بِخَيْلُ
وَيُؤْنَسِي مِنْهُ أَمَانٌ مَطُولُ (٢)
فَنِي كَبِيدِي مِنْ وَقْعِهِنَّ فُلُولُ
تَكَادُ لَهُ صُمُّ الْبِلَادِ تَزُولُ
يَصَانِعُ وَاشِ خَوْفَهَا وَعَذُولُ
تَجُودُ بِنَفْسِي زَفْرَةً وَغَلِيْلُ
تُحِيلُ اللَّيَالِي سَلُوقِي وَتُدِيلُ
عَهْدْتُ بِهِ أَنْ لَا يُضَامُ نَزِيلُ
مَدَاهُ وَأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يَدِيلُ
وَإِنْ هَانَ أَنْصَارُ وَإِنْ خَلِيلُ

فأعاني الوزير مسعود عليه حتى أذن لي في الانطلاق على شريطة العدول عن تلمسان في أي مذهب أردت ، فاخترت الأندلس وصرفت ولدي وأمهم إلى أخوالهم ، أولاد القائد محمد بن الحكيم بقسنطينة فاتح أربع وستين وسبعمائة وجعلت أنا طريق علي الأندلس ، وكان سلطانها أبو عبدالله المخلوع ، وحين وفد على السلطان أبي سالم بفاس ، وأقام عنده ، حصلت لي معه سابقة وصلة ووسيلة خدمة ، من جهة الوزير أبي عبدالله بن الخطيب ، لما كان بيني وبينه من الصحابة ، فكنت أقوم بخدمته واعتمل في قضاء حاجاته في الدولة ، ولما أجاز باستدعاء الطاغية لاسترجاع ملكه حين فسد ما بين الطاغية وبين الرئيس المتوَّب عليه بالأندلس من قرابته ، خلفته فيما

(١) وفي نسخة ثانية : يمثل لي نوي

(٢) وفي نسخة ثانية :

تعللني عنده أمان خوادِعُ ويؤنسي لي أمان منعه مطول
(٣) وفي نسخة ثانية : أداري على الرغم العدي لا لرية .

ترك من عياله وولده بفاس ، خير خلف في قضاء حاجاتهم وإدراار أرزاقهم ، من المتولين لها ، والاستخدام لهم . ثم فسد ما بين الطاغية وبينه ، قبل ظفره بملكه ، برجوعه عما اشترط له من التجافي عن حصون المسلمين التي تملكها بالإجلاب ، ففارقه إلى بلاد المسلمين باستجة^(١) وكتب إلى عمر بن عبدالله يطلب مَضْرأً ينزله من أمصار الأندلس الغربية التي كانت ركاباً للملك المغرب في جهادهم . وخاطبني أنا في ذلك ، فكنت له نِعَمَ الوسيلة عند عمر ، حتى تمّ قصده من ذلك ، وتجافى له عن رُنْدَة وأعمالها ، فترها وتملكها ، وكانت دار هجرته ، وركاب فتحه ، وملك منها الأندلس أواسط ثلاث وستين وسبعمائة واستوحشت أنا من عمر إثر ذلك كما مرّ ، وارتحلت إليه معولاً على سوابقي عنده ، فقرب في المكافآت كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الرحلة الى الأندلس) *

ولما أجمعت الرحلة إلى الأندلس بعثت بأهلي وولدي إلى أخوالهم بقُسْطَينَة ، وكتبتُ لهم إلى صاحبها السلطان أبي العباس من حفدة السلطان أبي يحيى ، وبأني أمر على الأندلس وأجيز عليه من هنالك . وسرتُ إلى سبتة فُرْصَة المَجَاز ، وكبيرها يومئذ الشريف أبو العباس أحمد بن الشريف الحسني ، ذو النسب الواضح السالم من الريّة عند كافة أهل المغرب ، انتقل سلفه إلى سبتة من صقلية . وأكرمهم بنو العزفي أولاً وصاهروهم . ثم عظم صيتهم في البلد فتنكروا لهم وغرّبهم يحيى العزفي آخرهم إلى الجزيرة ، فاعترضتهم مراكب النصاري في الزقاق^(٢) فأسروهم . وانتدب السلطان أبو سعيد إلى فديتهم رعاية لشرفهم ، فبعث إلى النصاري في ذلك فأجابوه . وفادى هذا الرجل وأباه على ثلاثة آلاف دينار ، ورجعوا إلى سبتة ، وانقرض بنو العزفي

(١) وفي نسخة أخرى اسجه . وقد سجّلها ابن خلدون بخط يده بفتح الهزة وكسر السين المخففة . وفي معجم البلدان إستيجة : بالكسر ثم السكون وكسر الراء وجيم وهاء ، اسم لكورة بالأندلس متصلة بأعمال رية بين القبلية والمغرب من قرطبة . وهي كورة قديمة واسعة الرساتيق والأراضي على نهر سنجل . وهو نهر غرناطة بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ وأعمالها متصلة بأعمال قرطبة (معجم البلدان) .

(٢) هو مضيق يقع بين طنجة وجبل طارق .

ردولتهم ، وهلك والد الشريف وصدر هو إلى رئاسة الشورى . لما كانت واقعة القيروان ، وخلع أبو عنان أباه واستولى على المغرب ، وكان بسبته عبدالله بن علي الوزير والياً من قبل السلطان أبي الحسن ، فتمسك بدعوته ، ومال أهل البلد إلى السلطان أبي عنان وبث فيهم الشريف دعوته ، فثاروا بالوزير وأخرجوه ، ووفدوا على أبي عنان وأمكنوه من بلدهم ، فولّى عليها من عطاء دولته سعيد بن موسى العجيسي ، كان كافل تربيته في صغره . وأفرد هذا الشريف برياسة الشورى في سبته ، فلم يكن يقطع أمراً دونه ، ووفد على السلطان بعض الأيام فتلقاه من المبرة بما لا يشاركه فيه أحد من وفود الملوك والعطاء . ولم يزل على ذلك سائر أيام السلطان وبعد وفاته ، وكان معظماً وقوراً المجلس ، هشّ اللقاء ، كريم الوفادة ، متحلياً بالعلم والأدب ، متحلياً للشعر غاية في الكرم وحسن العهد ، وسذاجة النفس ، ولما مررت به سنة أربع وستين وسبعائة أنزلني ببيته أزاء المسجد الجامع ، ورأيت منه ما لا يقدر مثله من الملوك ، وأركبني الحراقة^(١) ليلة سفري يباشر دحرجتها إلى الماء بيده ، إغراباً في الفضل والمساهمة ، وحططت بجبل الفتح وهو يومئذ لصاحب المغرب ، ثم خرجت منه إلى غرناطة وكتبت للسلطان ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب بشأني ، وليلة بُتُ بقرب غرناطة على بريدٍ منها ، لقيني كتاب ابن الخطيب يهيني بالقدوم ، ويؤنسني ونصّه :

حللت حلول الغيث في البلد المحل
على الطائر الميمون والرحب والسهل
يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه
من الشيخ والطفل المعصب^(٢)
لقد نشأت عندي للقياك غبطة
تنسي اغتباطي بالشيبة والأهل
وودّي لا يحتاج فيه لشاهد
وتقري المعلوم ضرب من الجهل
أقسمت بمن حجت قریش لبيته ، وقبر صرقت أزمة الأحياء لميته ونور ضربت
الأمثال بمشكاته وزيته . لو خيرت أيها المحب الحبيب الذي زيارته الأمانة السنية ،
والعارفة الوارفة ، واللطيفة المطيفة بين رجع الشباب يقطر ماؤه ، ويرف نماؤه ،
ويغازل عيون الكواكب ، فضلاً عن الكواكب ، إشارة وإيماء ، بحيث لا آو في

(١) الحراقة : نوع من السفن الصغيرة فيها مرامي نيران يُرمى بها العدو ، ومنهم من كان يستعملها للزعة .

(٢) وفي نسخة ثانية : المهذاء .

حَظُّيْلَمْ بِسِيَّاح لَمَّتْهُ ، أَوْ يَقْدَح ذَبَالَه فِي ظَلَمْتَه ، أَوْ يَقْدَم حَوَارِيَه فِي مَلَمْتَه ^(١) . من
الأحَابِش وَأَمَّتْهُ . وَزَمَانَه رُوح وَرَاح ، وَمَغْدَى فِي النِّعَم مَرَّاح ، وَخَصْب صَرَاح ،
وَرَنَى وَجَرَاح ^(٢) ، وَانْتِخَاب وَاقْتِرَاح ، وَصَدْرٌ مَا بِهِ إِلَّا انْشِرَاح ، وَمَسَرَّات يَرْدِفُهَا
أَفْرَاح ، وَبَيْن قَدُومِكَ خَلِيع الرِّسَنِ مَمْتَعاً ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ بِالْيَقِظَةِ وَالْوَسَنِ ، مُحْكَمٌ فِي
نَسْكِ الْجُنَيْدِ أَوْفَتْكَ الْحَسَنَ ، مَمْتَعاً بِظَرْفِ الْمَعَارِفِ ، مَالِثاً أَلْفَ الصِّيَارِفِ ، مَاحِياً
بِأَنْوَارِ الْبَرَاهِينِ شَبَهَ الزَّخَارِفِ ، لَمَّا اخْتَرْتَ الشَّبَابَ وَإِنْ شَاقَنِي زَمْنَه ، وَأَعْيَانِي ثَمْنَه ،
وَأَجَرْتَ سَحَابَ دَمْعِي دَمْنَه . فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَفَأَ حَنْوَه اغْتِرَابِي ^(٣) وَمَلَكَنِي أَزْمَه
أَرَابِي ، وَغَبَطَنِي بِهَالِي وَتَرَابِي ، وَمَأْلَفَ أَتْرَابِي ، وَقَدْ أَغْصَنِي بِلَذِيذِ شَرَابِي ، وَوَقَعَ
عَلَى سَطُورِهِ الْمَعْتَبَرَةَ إِضْرَابِي . وَعَجَّلْتَ هَذِهِ مُغَبَّطَةً بِمِنَاحِ الْمَطِيَّةِ ، وَمَلْتَقَى لِلْسَعُودِ
غَيْرِ الْبَطِيَّةِ ، وَتَهَنَّى الْأَمَالَ الْوَثِيرَةَ الْوُطِيَّةَ ، فَمَا شَتَّ مِنْ نَفُوسٍ عَاطِشَةً إِلَى رَيْكِ ،
مَتَجَمِّلَةً بِزَيْكِ ، عَاقِلَةً خَطِيَّ سَمْهَرِيكِ ^(٤) ، وَمَوْلَى مَكَارِمِهِ ، مُشِيدَةً لِأَمْثَالِكَ ،
وَمُضَانَ مَنَالِكَ ، وَسَيَصْدُقُ الْخَبْرُ مَا هُنَالِكَ ، وَسِعَ فَضْلُ مَجْدِكَ فِي التَّخَلُّفِ عَنْ
الْإِصْحَارِ لَا بَلَّ الْلِقَاءِ مِنْ وَرَاءِ الْبَحَارِ وَالسَّلَامِ .

ثُمَّ أَصْبَحْتُ مِنَ الْغَدِ قَادِماً عَلَى الْبَلَدِ وَذَلِكَ ثَامِنُ رَبِيعِ الْأَوَّلِ عَامِ أَرْبَعَةٍ وَسِتِّينَ
وَسَبْعِمِائَةٍ وَقَدْ اهْتَرَّ السُّلْطَانُ لِقَدُومِي ، وَهَيَّأَ لِي الْمَنْزِلَ مِنْ قُصُورِهِ بِفَرْشِهِ وَمَا عُونَهُ ،
وَأَرْكَبَ خَاصَّتَهُ لِلْقَائِي تَحْفِياً وَبِراً وَمَحَازَاةً بِالْحُسْنَى . ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقَابَلَنِي بِهَا يَنَاسِبَ
ذَلِكَ ، وَخَلَعَ عَلَيَّ وَانْصَرَفْتُ . وَخَرَجَ الْوَزِيرُ ابْنُ الْخَطِيبِ فَشَبَّعَنِي إِلَى مَكَانِ نَزْلِي ،
ثُمَّ نَظَّمَنِي فِي عُلْيَا أَهْلِ مَجْلِسِهِ ، وَاخْتَصَّنَنِي بِالنِّجَاءِ فِي خُلُوتِهِ ، وَالْمَوَاقِبَةِ فِي رُكُوبِهِ
وَالْمَوَاقِلَةِ وَالْمُطَايَبَةِ وَالْمَفَاكِهِهِ فِي خُلُوتِ أَنْسِهِ ، وَأَقْتَتُ عَنْدَهُ ، وَسَفَرْتُ عَنْهُ سَنَةً
خَمْسَ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمِائَةٍ إِلَى الطَّاعِيَةِ مَلِكِ قِشَالَةِ يَوْمُئِذٍ ، بِطَرَةِ بْنِ الْهَنْشَةِ بْنِ أَدْفُونِشَ
لِإِتْمَامِ عَقْدِ الصَّلَاحِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَلُوكِ الْعُدُوَّةِ بِهَدِيَّةٍ فَاخِرَةٍ مِنْ ثِيَابِ الْحَرِيرِ وَالْجِيَادِ
وَالْمَقَرَّبَاتِ بِمَرَكَبِ الذَّهَبِ الثَّقِيلَةِ ، فَلَقِيتُ الطَّاعِيَةَ بِأَشْيِيلِيَّةٍ وَعَايَنْتُ آثَارَ سُلْطَانِي
بِهَا ، وَعَامَلَنِي مِنَ الْكِرَامَةِ بِهَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ ، وَأَظْهَرَ الْإِغْتِبَاطَ بِمَكَانِي ، وَعَلِمَ أَوْلِيَّةَ

(١) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةِ : مَلَمَّتْهُ .

(٢) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةِ : وَفَصَفَ صَرَاحَ ، وَدُقْنَى وَجَرَاحَ .

(٣) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةِ : الَّذِي رَفَى جُنُونَ اغْتِرَابِي .

(٤) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةِ : عَامَلَهُ خَطَا مَهْرِيكِ .

سلفنا بإشيلية وأثنى عليّ عنده طيبه إبراهيم ابن زرور^(١) اليهودي المقدم في الطب
والنجامة ، وكان لقيني بمجلس السلطان أبي عنان وقد استدعاه يستطبه ، وهو
يومئذ بدار ابن الأحمر بالأندلس . ثم نزع بعد مهلك رضوان بن القائم بدولتهم إلى
الطاغية ، فأقام عنده ونظمه في أطبائه ، فلما قدمتُ أنا عليه أثنى عليّ عنده ،
فطلب الطاغية حينئذ المقام عنده ، وأن يردّ عليّ تراث سلفي بإشيلية ، وكان بيد
زعماء دولته ، فتفاديت من ذلك بما قبله . ولم يزل على اغتباطه إلى أن انصرفتُ
عنه ، فزوّدني وحملني^(٢) واختصني ببغلة فارهة ، بمركب ثقیل ولحام ذهبيين ،
أهديتهما إلى السلطان فأقطعني قرية البيرة من أراضي السقي بمرج غرناطة ، وكتب لي
بها منشوراً كان نصّه^(٣)

ثم حضرت ليلة المولد النبوي لخامسة قديمي ، وكان يحتفل في الصنيع فيها والدعوة
وإنشاد الشعر اقتداء بملوك المغرب ، فأنشدته ليلئذ :

<p>بواكفِ الدمع يُرويه ويظميني تحملوا القلبَ في آثارهم دوني فيهم وأسألُ رسماً لا ينـاجيني وكيفَ والفكرُ يدنيه ويُقصيني ما زال قلبي عليها غيرَ مأمونٍ بالدمعِ وقفَ على أطلاله الجوني^(٤)</p>	<p>حيّ المعاهدَ كانت قبلُ تحيني إنّ الألى نزحت داري ودارهمُ وقفتُ أنشدُ صبراً ضاعَ بعدهمُ أمّيلُ الرّبعَ من شوقي فآلثمهُ وينهبُ الوجدُ مني كلَ لؤلؤةٍ سقتُ جفوني مغاني الرّبعَ بعدهمُ</p>
---	---

(١) وفي نسخة ثانية : زرور .

(٢) بمعنى اعطاني ظهوراً لأركبه .

(٣) بياض بالأصل في جميع النسخ لعلّ ابن خلدون ترك هذا الفراغ عن قصد ليثبت نصّ هذا المنشور

ولكن الموت عاجله قبل إتمام عمله هذا .

(٤) الجون : السود .

لو أن قلبي إلى السلوان يدعوني
منكم وهل نسمة عنكم تحييني
وللنسيم عيلاً لا يُـدَاوِينِي
حُسناً سِوَى جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ وَالْعَيْنِ
إِلَّا ائْتَيْتُ كـَـأَنَّ الرَّاحَ تُثْنِي
شوقاً ولولاكم ما كان يُصْبِي
حتى لأحسبُه قُرباً يُنَاجِي
سِوَاكَ يَوْمَـاً بِحَالٍ عَنكَ يُسَلِّني
من لَمْ تَكُنْ ذِكْرُه الأيَّامُ تُنْسِي

ومنها في وصف الإيوان الذي بناه لجلوسه بين قصوره :

لا يَطْرُقُ الدَّهْرُ مَبْنَاهُ بَتَوَهِينِ
فَمَا يَرُوقُكَ مِنْ شَكْلٍ وَتَلَوِينِ
السَّامِي لِأَعْظَمَ مِنْ تِلْكَ الْأَوَاوِينِ
« أَشْهَى إِلَى الْقَلْبِ مِنْ أَبْوَابِ جَيْرُونِ » (٣)

وَدَيَّ وَضَاعٌ حَاهِمٌ إِذْ أَضَاعُونِي
كَادَتْ مَغَانِيهِ بِالْبُشْرَى تُحْيِي
دَهْرًا أَشَاكِي وَلَا خَصْماً يُشَاكِي
أَقْلِبُ الطَّرْفَ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالْهُونِ
يَسْدَايَ مِنْهَا بِحِطٍّ غَيْرِ مَغْبُونِ
وَعَدًّا وَأَرْجُو كَرِيماً لَا يُعْغِي
مِثْلَ الْأَزَاهِرِ فِي طَيِّ الرِّيحَاتِينِ

قد كان للقلب عن داعي الهوى شغل
أحبابنا هل لعهدِ الوصلِ مُدَكَّرُ
مالي وللطيفِ لا يَعْتَادُ زَائِرُهُ
يا أهلَ نَجْدٍ وما نَجْدٌ وساكنها
أعندكم أني ما مرَّ ذِكْرُكُمْ
أصبو إلى البرقِ من أنحاءِ أَرْضِكُمْ
يا نازحاً والمُنَى تُدْنِيهِ مِنْ خَلْدِي (١)
أسلى هِوَاكَ فَوَادِي عَنْ سِوَاكَ وَمَا
تَرَى اللَّيَالِي أَنْتَكَ ادِّكَارِي يَا

يا مَصْنَعاً شَيْدَتْ مِنْهُ السَّعُودُ حَمِيَّ
صَرْحٌ يَحَارُ لَدَيْهِ الطَّرْفُ مُفْتِنًا
بُعْدًا لِإِيْوَانٍ كَيْسَرِي إِنْ مَشُورَكَ (٢)
وَدَعِ دِمَشْقَ وَمَغْنَاهَا فَقَضْرَكَ ذَا

ومنها في التَّعْرِيزِ بِمُنْصَرَفِي مِنَ الْعُدُوةِ :
مَنْ مُبْلَغٌ عَنِّي الصَّحْبَ الْأَلَى تَرَكُوا
أَنِي أَوَيْتُ مِنَ الْعَلِيَا إِلَى حُرْمِ
وَأَنِّي ظَاعِنًا لَمْ أَلَقَ بَعْدَهُمْ
لَا كَالْتِي أَخْفَرْتُ عَهْدِي لِيَالِي إِذْ
سَقِيًّا وَرَعِيًّا لِأَيَّامِي الَّتِي ظَفَرْتُ
أَرْتَادُ مِنْهَا مَلِيًّا لَا يَمَّا طَلَّنِي
وَهَاكَ مِنْهَا قَوَافٍ طِيَّهَا حِكْمُ

(١) الخلد : البال .

(٢) مشورك : كلمة مغربية تعني مكان جلوس السلطان ومن دونه الحكام ولا ترال تستعمل في مثل هذا المعنى بالمغرب .

(٣) جيرون : عند باب دمشق من بناء سليمان بن داود عليه السلام . يقال إن الشياطين بنته وهي حقيقة مستطيلة على عمد وسقائف وحولها مدينة تطيف بها . يقال واسم الشيطان الذي بناه جيرون فسَمِي به . . . (معجم البلدان)

تثني عليك بأنفاس البساتين
لولا سعودك ما كانت تواتيني
من كل حزن بطي الصدر مكنون
فرضت منها بتجبر وتزين
ودام ملكك في نصر وتمكين
بقيت دهرك في أمن وفي دعة

وأشدته سنة خمس وستين وسبعائة في إغذار ولده ، والصنيع الذي احتفل لهم فيه ،
ودعا إليه الجفلي^(١) من نواحي الاندلس ولم يحضرني منها إلا ما أذكره :

صحبا الشوق لولا عبرة ونحيب
وقلب أبى إلا الوفاء بعهد
ولله مني بعد حادثة النوى
يؤرقه طيف الخيال إذا سرى
خليلي لا تستعديا قد دعا الأسى^(٢)
ألمّا على الأطلال نقض حقوقها
ولا تعدّ لاني في البكاء فإنها

ومنها في تقدّم ولده للاغذار من غير نكول :

فيمم منه الحفل لا متعاس
وراح كما راح الحسام من الوغى
شواهر^(٦) أهدتن منك شمائل

ومنها في الثناء على ولديه :

هما النيران الطالعان على الهدى
بآيات فتح شأنهنّ عجيب

(١) الجفلي : هي أن تدعو الناس الى طعامك دعوة عامة من غير اختصاص . يقال « دعي فلان في القرى لا في الجفلي » أي في الدعوة الخاصة لا العامة (قاموس) .

(٢) النحيب : البكاء وفي النسخة الباريسية تنوب وكذلك تنوب يحمان نفس المعنى أي ترجع وتعود .

(٣) وفي نسخة ثانية : لتذكار .

(٤) وفي نسخة ثانية : خليلي إلا تسعدا فدعا الأسى ...

(٥) وفي نسخة ثانية : لخطب ولا نكس ، والنكس : الرجل الضعيف والمقصر عن غاية النجدة والكرم .

(٦) وفي نسخة ثانية : شواهد .

شهابان في الهيجاء نعامان في الثوى^(١)

يدان لبسط المكرمات نماهما

تسح المعالي منها وتصب
إلى المجد قياض اليدين وهوب

وأنشده ليلة المولد الكريم من هذه السنة :

أبى الطيف أن يعتاد إلا توهماً
وقد كنت أستهديه لو كان نافعي
ولكن خيال كاذب وطاعة
أيا صاحبي نجواي والحب لوعة
خذاً لفؤادي العهد من نفس الصبا
الأصنع الشوق الذي هو صانع
وإني ليد عوني السلو تعللاً
لمن دمن أقرن إلا هواتف
عرفت بها سما الهوى وتنكرت
وذو الشوق يعتاد الربوع دوارساً
تؤوبني والليل بيني وبينه
أجدلي العهد القديم كأنه
عجبت لمرتاع الجوائح خافق
وبت أرويه كؤوس مدامعي
وصافحته عن رسم دار بذى الغضي
لعهدي بها تدني الطبء أو أنسا
أحن إليها حيث سار بي الهوى

فمن لي ألقى الخيال المسلماً
واستمطر الأجفان لو تخطر الظما^(٢)
تعلل قلباً بالأمان متبها
يبسح بشكواها الضمير المكتما
وطي النقا^(٣) والبان من أجرع الحمى
فجبي مقم أقصر الشوق أوسما
وتنهاني الأشجان أن أتقدما
تردد في أطلالهن الترنما
فعجت على آياتها متوسماً
ويعرف آثار الديار توهماً
وميض بأطراف الثنايا تضرماً
أشار بتذكار العهد فأفهما
بكيت له خلف الدجا وتبسماً
وبات يعاطيني الحديث عن الحمى
لست بها ثوب الشيبسة معلماً
وتطلع في آفاقها الغيد أنجماً
وأنجد رجلي في البلاد وأثماً

ولما استقر القرار ، وإطمأنت الدار ، وكان من السلطان الاغتيال والاستبشار ، وكثر
الحنين إلى الأهل والتذكار ، أمر لاستقدام^(٤) أهلي من مطرح اغتربهم من

(١) وفي نسخة ثانية : شهابان في الهيجا غامان في الندى .

(٢) وفي نسخة ثانية : لو تنقع الظأ أي لو تروي العطشان .

(٣) وفي نسخة ثانية : طبي النقا ، والنقا : الكتيب من الرمل .

(٤) وفي نسخة ثانية : استقدام .

سَنْطِينَةَ ، بعث إليهم من جاء بهم إلى تلمسان . وأمر قائد الأسطول بالمرّة ، فسار في إجازتهم في أسطوله ، واحتلّوا بالمرّة . واستأذنت السلطان في تلقّيهم ، وقدمتُ بهم على الحضرة بعد أن هيأتُ لهم المنزل والبستان وديمّة الفلّح ، وسائر ضروريات المعاش .

وكتبْتُ الى الوزير ابن الخطيب عندما قاربتُ الحضرة ، وقد كتبتُ إليه أستاذته في القدوم ، وما اعتمدته في أحواله .

سيّدي ، قدمت بالطّير اليمانيّ ، على البلد الأمين ، واستضفتُ الرفاء إلى البنين ، ومُتعتُ بطول السنين . وصلّني البراءة المعرّبة عن كتب اللقاء ، ودنوّ المزار ، وذهابُ البُعد ، وقرب الديار ، وأستفهمُ سيدي عمّا عندي في القدوم على المخدوم ، وأُحِبُّ أن يستقدمني سيدي إلى الباب الكريم^(١) في الوقت الذي يجد المجلس الجمهوري لم يقض حجيجه ، ولم يُصخ^(٢) بهيجه ، ويصل الأهل بعده إلى المحل الذي هيأته السعادة لاستقرارهم ، واختاره اليُمن قبل اختيارهم والسلام .

ثم لم يلبث الأعداء وأهل السعايات أن حملوا الوزير ابن الخطيب من ملاستي للسلطان ، واشتأله عليّ ، وحركوا له جواد الغيرة فتنكّر . وشممت منه رائحة الانقباض مع استبداده بالدولة ، وتحكّمه في سائر أحوالها ، وجاءني كتب السلطان أبي عبدالله صاحب بجاية بأنّه استولى عليها في رمضان سنة خمس وستين وسبعائة واستدعاني إليه ، فاستأذنت السلطان ابن الأحمر في الارتحال إليه . وعميت عليه شأن ابن الخطيب إبقاءً للمودّة ، فارتخص^(٣) لذلك ، ولم يسعه إلاّ الاسعاف ، فودّع وزود وكتب لي مرسوماً بالتشجيع من إملاء الوزير ابن الخطيب نصّه :

هذا ظهير كريم ، تضمّن تشجيعاً وترفعاً وإكراماً وإعظاماً ، وكان لعمل الصنيع ختاماً ، وعلى الذي أحسن تماماً ، وأشاد به للمعتمد به بالاغتيال الذي راق قساماً^(٤) ، وتوفّر إقساماً ، وأعلّق بالقبول أن نوى بعد القوى رجوعاً وآثر على الظعن المزمع مقاماً .

(١) وفي نسخة ثانية : والحق ان يتقدّم سيدي الى الباب الكريم .

(٢) وفي نسخة ثانية : ولا صوّح بهيجه .

(٣) بمعنى اشتدّ قلقه .

(٤) القسام : الجمال والحسن .

أمر به ، وأمضى العمل بمقتضاه ، وحبسه الأمير أبو عبد الله ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر أيد الله أمره ، وأعز نصره ، وأعلى ذكره ، للوليّ الجليس ، الحظيّ المكين ، المقرّب الأوّد الابن الفقيه الجليل الصدر الأوحد ، الرئيس العالم الفاضل الكامل ، الموقع الأمين الأظهر الأرضي ، الأخلص الأصفى ، أبي زيد عبد الرحمن ابن الشيخ الجليل ، الحسيب الأصيل ، المرفّع المعظم ، الصدر الأوحد ، الأسمى الأفضل الموقر المبرور أبي يحيى ابن الشيخ الجليل الكبير ، الرفيع الماجد ، القائد الحظيّ ، المعظم الموقر ، المبرور المرحوم أبي عبد الله بن خلدون . وصله الله أسباب السعادة ، وبلغه من فضله أقصى الإرادة ، أعلن بما عنده ، أيدّه الله من الاعتقاد الجميل في جانبه المرفّع ، وإن كان غنياً عن الإعلان ، وأعرب عن معرفة مقداره في الحسبان ، العلماء الرؤساء الأعيان ، وأشاد باتّصال رضاه عن مقاصده البرّة وشيخه الحسان ، من لدنّ وقد على بابه ، وفادة العزّ الراسخ البنيان ، وأقام المقام الذي عيّن له رفعة المكان ، وإجلال الشان ، إلى أن عزم على قصد وطنه ، أبلغه الله في ظل الأمن^(١) والأمان ، وكفالة الرحمن بعد الاغتياب المُرّبي على الخير بالعيان ، والتمسك بجواره بجهد الإمكان ، ثم قبول عُذره بما جبلت الأنفس عليه من الحنين إلى المعاهد والأوطان . بعد أن لم يدخر عنه كرامة رفيعة ، ولم يحجب عنه وجه صنيعه ، فولّاه القيادة والسيادة^(٢) وأحلّه جليساً معتمداً بالاستشارة ، ثم أصبحه تشييعاً يشهد بالفضانة بفراقه ، ويجمع له برّ الوجاهة من جميع آفاقه ، ويجعله بيده رثيمة خنصر^(٣) ووثيقة سامع أو مُبصّر ، فهما لوى أخدعه إلى هذه البلاد بعد قضاء وطره ، وتملّيه من نهمة سفره ، أو نزع به حسن العهد وحنين الودّ ، فصدّر العناية به مشروح ، وباب الرضا والقبول مفتوح ، وما عهده من الحظوة والبرّ ممنوح . فما كان القصد في مثله من أبحاد الأولياء التحول ، ولا الاعتقاد الكريم التبدّل ، ولا الزمن الأخير أن ينسخ الأوّل . على هذا فليطو ضميره ، وليردّ ما شاء نغيره ، ومن وقف عليه من القوّاد والأشياخ والخذّام برّاً وبحراً على اختلاف الخطط والرتب ، وتباين الأحوال والنسب ، أن يعرفوا حق

(١) وفي نسخة ثانية : اليمن .

(٢) وفي نسخة ثانية : السفارة .

(٣) رثيمة خنصر : الخيط الذي يشد في الاصبع لتستذكر به الحاجة .

هذا الاعتقال في كلّ ما يحتاج إليه من تشييع ونزول ، وإعانة وقبول ، واعتناء
موصول إلى أن يكمل الغرض ، ويؤدّي من امتثال هذا الأمر الواجب المفترض بحول
الله وقوّته .

وكتب في التاسع عشر من جمادي الأولى عام ست وستين وسبعائة .

وبعد التاريخ العلامة بخط السلطان ، ونصّها «صح هذا» .

* (الرحلة من الأندلس الى بجاية وولاية الحجابة بها على الاستبداد) *

كانت بجاية ثغراً لأفريقية في دولة بني أبي حفص من الموحدين . ولما صار أمرهم
للسلطان أبي يحيى منهم ، واستقلّ بملك أفريقية ، ولّى في ثغر بجاية ابنه الأمير
أبو زكريا ، وفي ثغر قسنطينة ابنه الأمير أبا عبدالله . وكان بنو عبد الواد ملوك تلمسان
والمغرب الأوسط ينازعونه في أعماله ، ويحجرون الكتاب على بجاية^(١) ، ويحلبون
على قسنطينة إلى أن تمسك السلطان أبو بكر بدمّة من السلطان أبي الحسن ملك
المغرب الأوسط والأقصى من بني مرين ، وله الشّوف على سائر ملوكهم . وزحف
السلطان أبو الحسن إلى تلمسان فأخذ بمخنقتها ستين أو أزيد ، وملكها عنوة وقتل
سلطانها أبا تاشفين وذلك سنة سبع وثلاثين وسبعائة . وخفّ ما كان على الموحدين من
أمر بني عبد الواد ، واستقامت دولتهم . ثم هلك أبو عبدالله ابن السلطان أبي يحيى
بقسنطينة سنة أربعين وسبعائة ، وخلف سبعة من الأولاد ، كبيرهم أبو زيد عبد
الرحمن ، ثم أبو العباس أحمد ، فولّى الأمير أبو زيد مكان أبيه في كفالة نبيل
مولاهم . ثم توفي الأمير أبو زكريا ببجاية سنة ست وأربعين وسبعائة ، وخلف ثلاثة
من الأولاد ، كبيرهم أبو عبدالله محمد ، وبعث السلطان أبو بكر ابنه الأمير أبا حفص
عليها ، فال أهل بجاية إلى الأمير أبي عبدالله بن زكريا ، وانحرفوا عن الأمير عمّر
وأخرجوه . وبادر السلطان فرقع هذا الخرق بولاية أبي عبدالله عليهم كما طلبوه . ثم
توفي السلطان أبو بكر منتصف سبع وأربعين وسبعائة وزحف أبو الحسن إلى أفريقية

(١) وفي نسخة ثانية : ويحجرون العساكر على بجاية .

فلنكها ، ونقل الأمراء من بجاية وقسنطينة إلى المغرب . وأقطع لهم هنالك إلى أن كانت حادثة القيروان ، وخلع السلطان أبو عنان أباه . وارتحل من تلمسان إلى فاس ، فنقل معه هؤلاء الأمراء أهل بجاية وقسنطينة ، وخلطهم بنفسه ، وبالع في تكريمهم . ثم صرفهم إلى ثغورهم الأمير أبا عبدالله أولاً ، وإخوته من تلمسان ، وأبا زيد وإخوته من فاس ليستبدوا بثغورهم ، ويؤخذوا الناس عن السلطان أبي الحسن ، فوصلوا إلى بلادهم وملكوها بعد أن كان الفضل ابن السلطان أبي بكر قد استولى عليها من يد بني مرين ، فانتزعوها منه . واستقر أبو عبدالله ببجاية حتى إذا هلك السلطان أبو الحسن بجبال المصامدة ، وزحف أبو عنان إلى تلمسان سنة ثلاث وخمسين وسبعائة فهزم ملوكها من بني عبد الواد وأبادهم ، ونزل المدينة وأطل على بجاية ، وبادر الأمير أبو عبدالله للقائه ، وشكا إليه ما يلقاه من زبون^(١) الجند والعرب ، وقلة الجباية . وخرج له عن ثغر بجاية فلنكها ، وأنزل عماله بها ، ونقل الأمير أبا عبدالله معه إلى المغرب ، فلم يزل عنده في كفاية^(٢) وكرامة . ولما قدمت على السلطان أبي عنان سنة خمس وخمسين وسبعائة واستخلصني منه ، نبضت عروق السابق بين سلفي وسلف الأمير أبي عبدالله ، واستدعاني لصحبته ، فأسرعت وكان السلطان أبو عنان شديد الغيرة من مثل ذلك . ثم كثر المنافسون ورفعوا إلى السلطان وقد طرده مرض أرجف له الناس ، فرفعوا له أن الأمير أبا عبدالله اعترم على الفرار إلى بجاية ، وأني عاقده على ذلك ، على أن يولياني حجابته ، فانبعث له السلطان وسطا بنا واعتقلني نحواً من سنتين إلى أن هلك . وجاء السلطان أبو سالم واستولى على المغرب ، ووليت كتابة سرّه ، ثم نهض إلى تلمسان وملكها من يد بني عبد الواد ، وأخرج منها أبا حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يغمراسن ، ثم اعترم على الرجوع إلى فاس ، وولي على تلمسان أبا زيان محمد بن أبي سعيد عثمان ابن السلطان أبي تاشفين وأمدّه بالأموال والعساكر من أهل وطنه ليدافع أبا حمو عن تلمسان ويكون خالصة له ، وكان الأمير أبو عبدالله صاحب بجاية كما ذكرناه ، والأمير أبو العباس صاحب قسنطينة بعد أن كان بنو مرين حاصروا أخاه أبا زيد بقسنطينة أعواماً تبعاً .

(١) زبون : بمعنى الحرب .

(٢) وفي نسخة ثانية : حفاية والحفاية المبالغة في الإكرام .

ثم خرج لبعض مذهبهِ إلى بونة ، وترك أخاه أبا العباس بها فخلعه ، واستبدَّ بالأمر وخرج إلى العساكر المحمّرة عليها من بني مَرين ، فهزمهم وأُخِنَ فيهم . ونهض السلطان إليه من فاس سنة ثمان وخمسين وسبعائة فتبرّأ منه أهل البلد وأسلموه ، فبعثه إلى سبتة في البحر ، واعتقله بها حتى إذا ملك السلطان أبو سالم سبتة عند إجازته من الأندلس سنة ستين وسبعائة أطلقه من الاعتقال وصحبه إلى دار ملكه ووعدَه برَدِّ بلده عليه .

فلَمَّا وَلَّى أبو زِيَّان على تلمسان أشار عليه خاصّته ونصحاؤه بأن يبعث هؤلاء الموحّدين إلى ثغورهم ، فبعث أبا عبد الله إلى بجاية وقد كان ملكها عمّه أبو اسحق صاحب تلمسان^(١) ، ومكحول بن تافراكين من يد بني مَرين . وبعث أبا العباس إلى قُسْطُيْنَة وبها زعيم من زعماء بني مَرين . وكتب إليه السلطان أبو سالم أن يفرج له عنها فملكها لوقته ، وسار الأمير أبو عبد الله إلى بجاية فطال إجلاله عليها ، ومعاودته حصارها . وألحَّ أهلها في الامتناع منه مع السلطان أبي اسحق . وقد كان لي المقام المحمود في بعث هؤلاء الأمراء إلى بلادهم . وتولّيتُ كبر ذلك مع خاصّة السلطان أبي سالم وكتاب أهل مجلسه ، حتى تمَّ القصد من ذلك ، وكتب لي الأمير أبو عبد الله بخطّه عهداً بولاية الحجابة متى حصل على سلطانه ، ومعنى الحجابة في دولنا بالمغرب الاستقلال بالدولة ، والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته ، لا يشاركه في ذلك أحد . وكان لي أخ صغير اسمه يحيى^(٢) ، أصغر مني ، فبعثه مع الأمير أبي عبد الله حافظاً للرسم ، ورجعت مع السلطان إلى فاس . ثم كان ما قدّمته من إنصرافي إلى الأندلس والمقام بها إلى أن تنكّر الوزير ابن الخطيب وأظلم الجوّ بيني وبينه .

وبينما نحن في ذلك ، وصل الخبر باستيلاء الأمير أبي عبد الله على بجاية من يدعمه في رمضان سنة خمس وستين وسبعائة وكتب لي الأمير أبو عبد الله يستقدمني ، فاعتزمت على ذلك ، ونكر السلطان أبو عبد الله ابن الأحمر ذلك مني ، لا لظنّه سوى ذلك^(٣) ، إذ لم يطلع على ما كان بيني وبين الوزير ابن الخطيب ، فأُمضيتُ

(١) وفي نسخة ثنية : صاحب تونس وهي أصح لأنه كان على تلمسان يومئذ أبو زيان محمد بن أبي سعيد .

(٢) هو يحيى بن خلدون وقد قتل سنة ٧٨٠ بأمر من أبي تاشفين بن أبي زيان . كان مؤرخاً وأديباً ، له كتاب « بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد » .

(٣) وفي نسخة ثانية : لا يظنه لسوى ذلك .

حرم ، ووقع منه الإسعاف والبرّ والألطف . وركبت البحر من مرسى المريّة ،
منتصف ست وستين وسبعائة ونزلت بجاية لخامسة من الإقلاع ، فاحتفل السلطان
صاحب بجاية لقדومي ، وأركب للقائي ، وتهافت أهل البلد عليّ من كل أوب
يمسحون أعطافي ، ويقبلون يديّ ، وكان يوماً مشهوداً .

ثم وصلتُ إلى السلطان فحيّاً وفدّى ، وخلع وحمل ، وأصبحتُ من الغد ، وقد أمر
السلطان أهل الدولة بمباكرة بابي ، واستقللت بحمل ملكه ، واستفرغت جهدي
في سياسة أموره وتدبير سلطانه ، وقدّمني للخطابة بجامع القصبة وأنا مع ذلك ،
عاكفٌ بعد انصرافي من تدبير الملك غدوةً ، إلى تدريس العلم أثناء النهار بجامع
القصبة ، لا أنفكُ عن ذلك .

ووجدتُ بينه وبين ابن عمّه السلطان أبي العباس صاحب قُسْطَيْنَة فتنة ، أحدثها
المشاحة في حدود الأعمال من الرعايا والعمّال ، وشبّت نار هذه الفتنة بعرب أوطانهم
من الزواودة من رياح ، تنفيقاً لسوق الزبون يميرون^(١) به أموالهم ، فكانوا في أهمّ
شقة بجمع بعضهم لبعض فالتقوسنة ست وستين وسبعائة بفدحيوه^(٢) ، وانقسم
العرب عليهما ، وكان يعقوب بن عليّ مع السلطان أبي العباس ، فانهزم السلطان أبو
عبدالله ورجع إلى بجاية مفلولاً بعد أن كنتُ جمعت له أموالاً كثيرة أنفق جميعها في
العرب ، ولما رجع وأعوزته النفقة ، خرجت بنفسي إلى قبائل البربر بالجبّال^(٣)
المتنعين من المغارم منذ سنين ، فدخلت بلادهم واستبحتُ حماهم ، وأخذت رهنهم
على الطاعة ، حتى استوفيت منهم الجباية ، وكان لنا في ذلك مددٌ وإعانة . ثم بعث
صاحب تلمسان إلى السلطان يطلب منه الصّهر ، فأسعهف بذلك ليصل يده به على
ابن عمّه ، وزوّجه إبنته ، ثم نهض السلطان أبو العباس سنة سبع وستين وسبعائة
وجاس أوطان بجاية ، وكاتب أهل البلد ، وكانوا وجلين من السلطان أبي عبدالله
لما كان يرهف الحدّ لهم ، ويشدّ وطأته عليهم ، فأجابوه إلى الانحراف عنه . وخرج
الشيخ أبو عبدالله يروم مدافعته ، ونزل جبل إيزو معتصماً به ، فبيّته السلطان أبو
العبّاس في عساكره وجموع الأعراب من أولاد محمد من رياح بمكانه ذلك ،

(١) وفي نسخة ثانية : يميرون به أموالهم : أي يستخرجونها .

(٢) وفي نسخة ثانية : بفرجية .

(٣) وفي نسخة ثانية : إلى قبائل البربر بجبّال بجاية .

بإغراء ابن صخر وقبائل سدويكش ، وكبسه في محبسه وركض هارباً ، فلحقه وقتله ، وسار إلى البلد بمواعدة أهلها . وجاءني الخبر بذلك ، وأنا مقيم بقصبة السلطان بقصوره ، وطلب مني جماعة من أهل البلد القيام بالأمر والبيعة لبعض أبناء السلطان ، فتفاديتُ من ذلك ، وخرجت إلى السلطان أبي العباس فأكرمني وحياني^(١) ، وأمكنته من بلده ، وأجرى أحوالها^(٢) كلها على معهودها . وكثرت السعاية عنده في التحذير من مكاني ، وشعرت بذلك ، فطلبت الإذن في الإنصراف بعهد كان منه في ذلك ، فأذن لي بعدما أبى ، وخرجت إلى العرب ، ونزلت على يعقوب بن علي . ثم بدا له الشأن في أمري ، وقبض على أخي واعتقله ببيوتة . وكبس بيوتنا ، فظن بها ذخيرة وأموالاً فأخفق ظنه . ثم ارتحلت من أحياء يعقوب بن علي وقصدت بَسْكُرَةَ^(٣) لصحابة بيني وبين شيخها أحمد بن يوسف بن مزني ، وبين أبيه ، فأكرم وبرّ وساهم في الحادث بماله وجهه والله أعلم .

* (مشايعة أبي حمو صاحب تلمسان) *

كان السلطان أبو حمو قد التحم ما بينه وبين السلطان أبي عبدالله صاحب بجاية بالصّهر في إبته ، وكانت عنده بتلمسان . فلما بلغه مقتل أبيها واستيلاء السلطان أبي العباس ابن عمّه صاحب قُسْنَطِينَة على بجاية ، أظهر الامتعاض لذلك ، وكان أهل بجاية قد توجّسوا الخيفة من سلطانهم بإرهاق حدّه ، وشدة بطشه . وسطوته فانحرفوا عنه باطناً وكاتبوا ابن عمّه بقسطنطينة كما ذكرناه .

ودسّوا للسلطان أبي حمو بمثلها يرجون الخلاص من صاحبهم بأحدهما . فلما استولى السلطان أبو العباس وقتل ابن عمّه رأوا أن جرحهم قد اندمل ، وحاجتهم قد قضيت ، فاعصوبوا عليه ، وأظهر السلطان أبو حمو الامتعاض للواقعة يسرّ منها

(١) وفي نسخة ثانية : حياني .

(٢) وفي نسخة ثانية : احوالي .

(٣) بَسْكُرَة : بلد بالجزائر كانت قاعدة بلاد الزاب (معجم البلدان) .

حسواً في ارتقاء^(١) ، ويجعله ذريعة للاستيلاء على بجاية ، لِمَا كان يرى نفسه كفؤها بعدده وعديده ، وما سلف من قومه في حصارها ، فسار من تلمسان يجرّ الشوك والمدر^(٢) ، خيّم بالرشّة من ساحتها ، ومعه أحياء زغبة بجموعهم وظعائهم من لدن تلمسان إلى بلاد حُصَيْن من بني عامر وبني يعقوب وسُوَيْد والديالم والعطاف وحُصَيْن .

وانحجر أبو العباس بالبلد في شردمة من الجند أعجله السلطان أبو حمّو عن استكمال الحشد ، ودافع أهل البلد أحسن الدفاع ، وبعث السلطان أبو العباس عن أبي زيّان ابن السلطان أبي سعيد عمّ أبي حمّو من قُسْطَيْنَة ، كان معتقلاً بها ، وأمر مولاه وقائد عسكره بشيراً أن يخرج معه في العساكر ، وساروا حتى نزلوا بني عبد الجبار قبالة معسكر أبي حمّو ، وكانت رجالات زغبة قد وجموا من السلطان ، وأبلغهم النذير أنّه إنّ مَلَك بجاية اعتقلهم بها ، فراسلوا أبا زيّان وركبوا إليه ، واعتقدوا معه وخرج رجل البلد بعض الأيام من أعلى الحصن ، ودفعوا شردمة كانت بمجرّة يازائهم ، فاقتلوا خيآءهم ، وأسهلوا من تلك العقبة إلى بسيط الرشّة ، وعابنهم العرب بأقصى مكانهم من المعسكر فأجفلوا ، وتتابع الناس في الإنجفال حتى أفردوا السلطان في محيّمه فحمل رواحله وسار ، وغصّت الطرق بزحامهم ، وتراكم بعضهم على بعض ، فهلك منهم عوالم . وأخذهم سكّان الجبال من البربر بالنهب من كل ناحية ، وقد غشيهم الليل ، فتركوا أزوادهم ورحالهم . وخلص السلطان ومن خلص منهم بعد غصّ الريق ، وأصبحوا على منجاة . وقذفت بهم الطرق من كل ناحية إلى تلمسان ، وكان السلطان أبو حمّو قد بلغه خبر خروجي من بجاية ، وما أحدثه السلطان بعدي في أهلي ومخلفي ، فكتب إليّ يستقدمني قبل هذه الواقعة ، وكانت الأمور قد اشتبهت ، فتفاديت بالأعدار ، وأقمت بأحياء يعقوب بن عليّ . ثم ارتحلت إلى بسكرة فأقمت بها عند أميرها أحمد بن يوسف بن مرزني . فلمّا وصل السلطان أبو حمّو إلى تلمسان وقد جزع للواقعة ، أخذ في استئلاف قبائل رياح لي جلب بهم مع عساكره على أوطان بجاية ، وخاطبني في ذلك لقرب عهدي باستباعتهم ، ومُلِك

(١) الأصح حسواً في ارتقاء : أي يشرب اللبن خفية ، ويتظاهر بأنه يأخذ الرغبة ، وهو مثل يضرب بمن يظهر أمراً وهو يريد غيره .

(٢) مثل عام ويعني به كثرة جيشه .

زمامهم ، ورأى أن يعول عليّ في ذلك ، واستدعاني لحجابه وعلامته ، وكتب بخطّه مدرجة في الكتاب نصّها :

الحمد لله على ما أنعم ، والشكر لله على ما وهب ، ليعلم الفقيه المكرّم أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ، حفظه الله ، انك تصل إلى مقامنا الكريم بما خصصناكم به من الرتبة المنيعة ، والمنزلة المنيفة ، وهو قلم خلافتنا ، والانتظام في سلك أوليائنا ، وقد أعلمناكم بذلك ، وكتب بخطّ يده عبد الله المتوكل على الله ، موسى بن يوسف لطف الله به وخار له .

وبعده بخطّ الكاتب ما نصّه : بتاريخ السابع عشر من شهر رجب الفرد الذي من عام تسع وستين وسبعائة ، عرفنا الله خير . ونصّ الكتاب الذي هذه مُدرّجته ، وهو بخطّ الكاتب : «أكرمكم الله يا فقيه أبا زيد ووالى رعايتكم ، إنا قد ثبت عندنا ، وصحّ لدينا ما انطوئتم عليه من المحبة في مقامنا ، والانقطاع إلى جنابنا ، والتشيع قديماً وحديثاً لنا ، مع ما نعلمه من محاسن اشتملت عليها أوصافكم ، ومعارف فُقُتُم فيها نظراءكم ، ورسوخ القَدَم في الفنون العلميّة والآداب العربيّة .

وكانت خطّة الحجابة بابنا العلميّ أسماه الله إلى درجات أمثالكم ، وأرفع الخطط لنظرائكم ، قُرباً مِنّا ، واختصاصاً بمقامنا ، وإطلاعا على خفايا أسرارنا ، آثرناكم بها إثارة ، وقدّمناكم لها اصطفاً واختياراً ، فاعملوا على الوصول إلى بابنا العلميّ أسماه الله لما لكم فيه من التنويه ، والقدر النبیه ، حاجباً لعلميّ بابنا ، ومستودعاً لأسرارنا ، وصاحباً لكریم علامتنا ، إلى ما شاكل ذلك من الانعام العمیم ، والخیر الجسیم ، والاعتناء والتكریم . لا يشارككم مشارك في ذلك ، ولا يزاحمكم أحد ، وإن وجد من أمثالكم فاعملوه وعولوا عليه ، والله تعالى يتولّاكم ، ويصل سراءكم ، ويوالي احتفاءكم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وتأدّت إليّ هذه الكتب السلطانيّة على يد سفير من وزرائه جاء إلى أشياخ الزواودة في هذا الغرض ، فقامت له في ذلك أحسن قيام وشايعة أحسن مشايعة ، وحملتهم على إجابة داعي السلطان والبدار إلى خدمته . وانحرف كبراؤهم عن السلطان أبي العباس إلى خدمته ، والاعتمال في مذهبه ، واستقام غرضه من ذلك ، وكان أخي يحيى قد خلص من اعتقاله ، وقَدِم عليّ ببسكرة ، فبعثته إلى السلطان أبي حمّو كالنائب عنيّ في الوظيفة ، متفادياً عن تجسّم أهوالها بما كنت

نزعت عن غواية الرتب . وطالَ عليّ إغفال العلم ، فأعرضتُ عن الخوض في أحوال الملوك ، وبعثتُ الهمة على المطالعة والتدريس ، فوصل إليه الأخ فاستكفى به في ذلك ، ودفعه إليه .

ووصلني مع هذه الكتب السلطانية كتاب رسالة من الوزير أبي عبدالله بن الخطيب من غرناطة يتشوق إليّ ، وتأذى إلى تلمسان على يد سفراء السلطان ابن الأحمر ، فبعث إليّ من هنالك ونصّه :

فَيُتْرَكُنِي عَنْهَا الْعِيَّاسُ بِأَثْمَانٍ	بنفسي وما نفسي عليّ رخيصة ^(١)
وَرَأْسُ سَهَامِ الْبَيْنِ عَمْدًا فَأُضْغِنَانِي ^(٢)	حبيبٌ نأى عني وصمّ لا أنثني
فَقَدْ آدَنِي مَا تَرَحَّلَ هَمَّان	وقد كان همُّ الشَّيبِ لا كان كائنًا ^(٣)
فَكَدَّرَ شَرْبِي بِالْفِرَاقِ وَأَظْمَأَنِي	شرعتُ له من دمع عينيّ مورداً
فَأَجْدَبَ آمَالِي وَأَوْحَشَ أَرْمَانِي	وأرعيتُهُ من حُسْنِ عَهْدِي حمية ^(٤)
قِيَاسًا بِمَا عِنْدِي فَأَحْنَتْ أَيْمَانِي	حلفتُ على ما عنده لي من رضى
لَأَشْتَاقُ مِنْ لُقْبَاهِ نُجْبَةً ظَمَانٍ	وإني على ما نالني منه من قلى
فَقَسَتْ بِحَرِّ الشَّوْقِ جَنُّ سُلْمَانٍ	سألت جنوني فيه بقريب عرسه
وَوَثِبْتُ وَمَا اسْتَبَتَ شَيْمَةَ هَيْمَانٍ	إذا ما دعا داعٍ من القوم بإسمه
نَحَامِيَّتُهُ حَتَّى ارْعَوَى وَنَحَامَانِي	وتالله ما أصغيتُ فيه لعاذلي
تَغْلَلُ يَوْمًا مِثْلَهُ عَبْدٌ رَحْمَنِ	ولا استشعرتُ نفسي برحمة عابدي
تَخَلَّلَ مِنْهَا بَيْنَ رُوحٍ وَجُثْمَانٍ	ولا شعرتُ من قبله بتشوقٍ

أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج ، وأما الصبر فسل به أية درج ، بعد أن تجاوز اللوى ^(٥) والمنعرج ، لكن الشدة تعشق الفرج ، والمؤمن ينشق من روح الله الأرج ، وأني بالصبر على إبر الزبر ^(٦) لا بل الضرب الهبر ، ومطاوله اليوم والشهر ، تحت حكم

(١) وفي نسخة ثانية : بهينة .

(٢) وفي نسخة ثانية : فأحمني وأحمي الصيد : رماه فقتله في مكانه .

(٣) وفي نسخة ثانية : كافيا .

(٤) وفي نسخة ثانية : جسيمه .

(٥) اللوى : ما التوى من الرمل .

(٦) وفي نسخة ثانية : الدبر أي الزنانير .

القهر ، وَمَنْ للعين أن تسلو سُلُو القصر عن إنسانها المُبْصِر ، أو تذهل ذهول الزاهد عن سرّها الرائي والمُشاهد ، وفي الجسد مضغة يصلح إذا صَلُحَتْ ، فكيف حاله إن رَحَلَتْ عنه أو تَرَحَّتْ ، وإذا كان الفراق هو الحِمَامُ الأوّل ، فعلام المَعُولُ أُعِيَتْ مُراوِضَةُ الفراق على الرواق^(١) ، وكادت لوعة الاشتياق أن تفضي إلى السياق^(٢) .

تَرْكُتُمُونِي بَعْدَ تَشْيِيعِكُمْ أَوْسَعُ أَمَرَ الصَّبْرِ عَصِيَانَا
أَقْرَعُ سِنِّي نَدْمًا تَارَةً وَأُسْتَمِيعُ الدَّمْعَ أَحْيَانَا

وربما تعللت بغشيان المعاهد الخالية ، وجدّدت رسوم الأسى بمبأكرة الرسوم البالية ، أسائل نون النوى^(٣) عن أهليه ، وهيامُ المرقد المهجور عن مصطلبيه ، وثاء الأثافي المثلثة من منازل الموحّدين ، وأحارُ بين تلك الأطلال حيرة الملّحين . لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين ، كَلِفْتُ لعمر الله بسائل عن جفوني المورقة ، ونائم عن شجوني^(٤) المجتمعمة المتفرقة ، ظَنَنْ عن ملال ، لا متبرّماً بشرّ حال^(٥) وكدر الوصل بعد صفائه ، وضرّح النَّصْل بعد عهدٍ وفائه .

أَقِلْ اشْتِياقاً أَيُّهَا الْقَلْبُ إِنَّمَا رَأَيْتُكَ تُضْفِي الْوُدَّ مِنْ لَيْسَ جَازِيَا
فَهَا أَنَا أَبْكِي عَلَيْهِ بَدَمَ أَسْأَلِهِ ، وَأَنْدُبُ فِي رِيعِ الْفِرَاقِ آسَى لَهُ ، وَأَشْكُو إِلَيْهِ حَالِ
قَلْبٍ صَدَعَهُ ، وَأَوْدَعَهُ مِنَ الْوَجْدِ مَا أَوْدَعَهُ ، لَمَّا خَدَعَهُ ، ثُمَّ قَلَاهُ وَوَدَّعَهُ ، وَأَنْشَقُ
رَيَّاه أَنْفَ ارْتِيَا حَقْدَهُ ، وَاسْتَعْدِيهِ عَلَى ظَلَمِ ابْتَدَعَهُ .

«خَلِيلِي فِيمَا عَشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا قَتِيلًا بَكَى مِنْ حُبٍّ قَاتِلَهُ قَبْلِي»^(٦)

فلولا عسى الرجاء ولعلّه ، لا بل شفاعة المحلّ الذي حلّه ، لنشرت ألوية العتب ، وبثت كُتائبها كميناً في شعاب الكتب ، تهزّ من الألفات رماحاً هزّ الأسنّة^(٧) وتوتّر من النونات أمثال القسيّ المُرِنّة ، وتقود من مجموع الطّرس والنّيقس بُلقاً تُرْدي في

(١) وفي نسخة ثانية : عمل الرّاق .

(٢) السياق : بداية مفارقة الروح .

(٣) النوى : الحفير حول الخيمة يمنع عنها المسيل .

(٤) وفي نسخة ثانية : عن همومي .

(٥) وفي نسخة ثانية : لا متبرّماً منا بشرّ خلال .

(٦) هذا البيت « لجميل بثينة » وهو جميل بن عبد الله بن معمر العُدْري .

(٧) وفي نسخة ثانية خزر الأسنّة .

الأعنة ، ولكنه أوى إلى الحرم الأمين ، وتقياً ظلال الجوار المؤمنين من معرة الغوار
عن الشمال واليمين ، حرم الخلال المزنية ، والظلال اليزنية ، والهيم السنية ،
والشيم التي لا ترضى بالدون ولا بالدنية ، حيث الرفد الممنوح ، والطير الميامن يزجر
لها السنوح والمثوى الذي إليه مها تقارع الكرام على الضيفان ، حول جوابي الجفان ،
فهو الجنوح .

نسب كأن عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصبح عمودا
ومن حل بتلك المثابة فقد اطمأن جنبه ، وتغمد بالعفو ذنبه ، (والله در القائل) :
فوحقه لقد انتدبت لوصفه بالبخل لولا أن حمصاً داره
بلد متى أذكره هيج^(١) لوعي وإذا قدحت الرند طار شراره

اللهم غفراً ، وأين قراره النخيل ، من مثوى الألف البخيل ، ومكذبة المخیل ،
وأين نائية هجر ، من متبرء ممن ألحد وفجر^(٢)

من أنكر غيث مسودة^(٣) في الأرض ينوء بمخلفه
فبنان بني مزني مزن تنهل بلطف مصرفها
مزن مذل بيسكرة يوماً نطق بمصحفها
شكرت حتى ببارتها وبمعناها وبأحرفها
ضحكت بأبي العباس من الأيام ثايباً زخرفها
وشكرت الدنيا متى عرفت مزن فيها بمعرفها^(٤)

بل نقول لا محل للولد^(٥) ، لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، لقد حل
بينك عرى الجلد ، وخلد الشوق بعدك يا ابن خلدون في الصميم من الخلد ، فحياً
الله زمانا شفيت في قربك زمانته^(٦) ، واحتليت في ذروة مجدك ججانه ، ويا من
لمشوق لم يفيض من طول خلتك لبانته^(٧) ، وأهلاً بروض أضلت شباب معارفك

(١) وفي نسخة ثانية : تهيج .

(٢) وفي نسخة ثانية : وابن نائية هجر ، من متبرء من ألحد وفجر .

(٣) وفي نسخة ثانية : من أنكر غيثاً منشؤه .

(٤) وفي نسخة ثانية : وتنكرت الدنيا حتى عرفت منه بمعرفها .

(٥) وفي نسخة ثانية : يا محل الولد .

(٦) بمعنى العامة .

(٧) وفي نسخة ثانية : وقصيت في مرعى خلتك لبانته .

بانته ، فحماؤه بعدك تندبُ فيساعدوها الجُنْدُبُ ، ونواسمه ترقّ فتغاشي ، وعشبانه تنهافت وتتلأشي ، وأدواحه في ارتباك ، وحماؤه في مأثم ذي اشتباك ، كأن لم تكن قرهالات قبابه ، ولم يكن أنسك شارع بابيه ، إلى صفوة الظرف ولبابه ، ولم يسبح إنسانُ عينك^(١) في ماء شبابه ، فلهفًا عليك من درّة اختلستها يدُ النوى ، ومطل بردّها الدّهر وَلَوَى ، ونفق غراب بينها في ربوع الهوى ، ونطق بالزّجر فما نطق عن الهوى ، وبأيّ شيء يُعتاض منك أيتها الرّياض ، بعد أن طما نهرك الفيّاض ، وفهقت^(٢) الحياض ، ولا كان الشانيء المشنوء والحرب المهنوء من قطع ليل أغار على الصبح فاحتمل ، وشارك في الأمر الناقة والجمل ، واستأثر جنحه ببدر النادي لما كمل ، فشرّع^(٣) الشراع فراع ، وواصل الإسراع ، فكأنّها هو تمساح النيل ضايقَ الأحباب في البرهة ، واختطف بهم من الشطّ نزهة العين ، وعين التزهة ، ولجّجَ بها ، والعيون تنظر ، والعبر عن الاتباع^(٤) تخطر ، فلم يقدر إلا على الأسف ، والتماح الأثر المتسّف ، والرجوع بملء العيبة من الخيبة ، ووفر الحبرة^(٥) من الحسرة ، إنّما نشكو إلى الله البثّ والحزن ، ونستمطر منه المُرْنُ^(٦) ، وبسيف الرجاء نصول ، اذا شرّعت لليأس أسنّة ونُصول .

ما أقدر الله أن يبدني على شَحَطٍ مَنْ دَارَهُ الحزنُ مِمَّنْ دَارُهُ صُولُ

فإن كان كلام^(٧) الفراق رغبياً ، لما نَوَيْتَ مغيباً ، وجلّت الوقت الهنيّ تشغيلاً ، فلعلّ الملتقى يكون قريباً ، وحديثه يروى صحيحاً غريباً . إيه سيدي كيف حالُ تلك الشمايل المزهرة المخايل ، والشيم الهامية الديم ؟ هل يمرّ ببالها من راعت بالبعد باله ، وأخمدت بعاصف البين ذُبَالَه ؟ أو ترثي لمَوْقٍ^(٨) شأنها سَكْب لا يَفْتَرُ ، وشوق

(١) بؤبؤ العين .

(٢) امتلأت .

(٣) وفي نسخة ثانية : نشر الشراع فراع .

(٤) وفي نسخة ثانية : الغمر عن الاتباع يحظر . والغمر : الماء الكثير .

(٥) وفي نسخة ثانية : الجسرة أي الناقة .

(٦) المزن : السحاب .

(٧) وفي نسخة ثانية : كَلَم وهو الجرح .

(٨) وفي نسخة ثانية : لشئون .

يُبْتُ حَبَالُ الْمَشُوقِ^(١) وَيُبْتُرُ وَضْنِي تَقْصُرُ عَنْ حَلِّهِ الْفَائِقَةُ صَنْعَاءَ وَتُسْتَرُ^(٢) وَالْأَمْرُ
أَعْظَمُ وَاللَّهُ يَسْتُرُ ، وَمَا الَّذِي يَضِيرُكَ صِيرَ مِنْ بَلْفَحِ السَّمُومِ يَضِيرُكَ^(٣) ، بَعْدَ أَنْ
أَضْرَمْتَ وَأَشْعَلْتَ وَأَوْقَدْتَ ، وَجَعَلْتَ ، وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ ، إِنْ تَتَرَفَقَ
بِذِمَاءٍ ، أَوْ تَرُدَّ بِنُغْبَةِ مَاءٍ ، أَرْمَاقَ ظِمَاءٍ ، وَتَتَعَاهَدَ الْمَعَاهِدَ بِتَحِيَّةٍ عَلَيْهَا شَذُ
أَنْفَاسِكَ ، أَوْ تَنْظُرَ إِلَيْنَا مِنَ الْبَعْدِ بِمُقْلَةٍ حَوْرَاءَ مِنْ بَيَاضِ قِرْطَاسِكَ وَسَوَادِ
أَنْفَاسِكَ ، فَرِيًّا قَنَعْتَ الْأَنْفَسَ الْحَبَّةَ بِخِيَالٍ يَزُورُ ، وَتَعَلَّلْتَ بِنَوَالٍ مَنْدُورٍ ، وَرَضِيْتَ
لَمَّا لَمْ تَصِدْ الْعَنْقَاءَ بَزَزُورُ .

يَا مَنْ تَرَحَّلَ وَالرِّيحُ لِأَجْلِهِ تَشْتَاقُ أَنْ يَبْقَى شَذَارِيَّاهَا^(٤)
نَحْيَا النُّفُوسُ إِذَا بَعَثَتْ تَحِيَّةً وَإِذَا قَرَأَتْ تَرَى وَمَنْ أَحْيَاهَا^(٥)
وَلَكِنْ أَحْيَيْتَ بِهَا فَمَا سَكَفَ نَفُوسُنَا تَقْدِيرِكَ ، وَاللَّهُ إِلَى الْخَيْرِ يَهْدِيكَ ، فَنَحْنُ نَقُولُ مَعْشَرَ
مُؤَدِّكَ «ثَنٍّ وَلَا تَجْعَلْهَا بَيِضَةَ الدَّبِكِ»^(٦) وَعِذْرًا فَإِنِّي لَمْ أَجْتَرِي عَلَى خَطَابِكَ بِالْفَقْرَةِ
الْفَقِيرَةِ ، وَأَدَلَّتْ لَدَيَّ مَحْرَابُكَ بَرَفِ الْعَقِيرَةِ ، عَنْ نَشَاطٍ بَعَثَ مَرْسُومُهُ^(٧) وَلَا
اغْتِبَاطُ بِالْأَدَبِ إِلَّا بِسِيَاسَةِ تَسْوِسِهِ ، أَوْ فِي عَلَى الْفَتْرِ نَامُوسُهُ وَإِنَّمَا هُوَ نِفَاقُ نَفْثَةِ
الْمُصْدُورِ^(٨) ، وَهَذَا الْجَرْبُ الْمَجْدُورُ ، وَإِنْ تَعَلَّلَ بِهِ مُخَارِقُ ، فَتَمَّ قِيَاسُ فَارِقُ ،
وَالَّذِي هِيَ هَذَا الْقَدْرُ وَسَبَبُهُ ، وَسَهْلُ الْمَكْرُوهِ إِلَيَّ مِنْهُ وَحَبِيْبُهُ ، مَا اقْتَضَاهُ الصَّنُوعُ
يُحْيِي ، أَمَدَ اللَّهِ حَيَاتِهِ ، وَحَرَسَ مِنَ الْخَوَادِثِ جِهَاتِهِ^(٩) ، مِنْ خَطَابِ ارْتُشِفَ لِهَذِهِ
الْقَرِيحَةِ الْعَدِيمَةِ بِلَالَتِهَا ، بَعْدَ أَنْ رَضِيَ غَلَالَتِهَا ، وَرَسَخَ إِلَى الصَّهْرِ الْخَضْرَمِيِّ
سَلَالَتِهَا ، فَلَمْ يَسَعْ إِلَّا إِسْعَافُهُ ، بِمَا أَعَافَهُ ، فَأَمَلَيْتُ مَجِيئًا مَا لَا يَعْدُنِي يَوْمَ الرِّهَانِ

(١) وفي نسخة ثانية : حبال الصبر .

(٢) صنعاء : اليمن وتستر مدينة بخوزستا وقد ضبطها ابن خلدون تستر وقد ضبطها ياقوت الحموي تستر
(معجم البلدان) .

(٣) وفي نسخة ثانية : صين من لفح السموم نصيرك .

(٤) وفي نسخة ثانية : يشتاق إن هبت شذا رباها .

(٥) وفي نسخة ثانية : وإذا عزمت اقرأ «ومن أحيها» (الآية ٣٢ من سورته المائدة) .

(٦) وفي نسخة ثانية : «ثني ولا تجعلها بيضه لكديك» وهو عجز بيت لبشار بن بر وهو : قد زرتنا زوره في
النوم واحدة ثني ولا تجعلها بيضه لكديك .

(٧) وفي نسخة ثانية : مرموسة والمرموس : المدفون .

(٨) وفي نسخة ثانية : (ولا اعتبار بالآدب تغري بسياسته سوسة ، وانسباط أوحى إلي على الفترة
ناموسه ، وإنما هو اتفاق جرته نفثه المصدور) .

(٩) وفي نسخة ثانية : ذاته .

يباً ، وأسمعته وجيباً لما ساجلت بهذه الترهات سحراً عجيباً ، حتى إذا ألف القلم
العريان فسحه ^(١) ، وجمع برذون الغزارة فلم أطق كبّحه ، لم أفق من غمرة غلوه
وموقف شلوه ^(٢) ، إلا وقد تحيز إلى فتك مغترّاً بل معتراً ، واستقبلها ضاحكاً
مفتراً ، وهش لها برّاً ، وإن كان من الخجل مُضفراً ، وليس بأول من هجر ، في
التماس الوصل ممن هجر ، أو بعث التمر إلى هجر ^(٣) ، وأي نسب بيني اليوم وبين
زخرف الكلام ، وإجالة جياذ الأقلام ، في محاورة الأعلام ، بعد أن حال الجريض
دون القريض ^(٤) ، وشغل المريض عن التعريض ، وغلب الشوق الكسل ،
ونشرت ^(٥) الشعرات البيض كأنها الأسل ، تروع برُقَطِ الحيات ، سيرب الحياة ،
وتطرق بذوات الغرر ، والشباب ^(٦) عند البيات ، والشيب الموت العاجل ، وإذا
ابيض زرع صَبَحَتُهُ المناجل ، والمعتبر الآجل ، وإذا اشتغل الشيخ بغير معادِهِ ،
حكم في الظاهر بإبعاده ، وأسرّه في ملكة عاده ، فأغض أَبْقاكَ الله ، وأسمع لمن
قَصَرَ عن المَطْمَح ، وبالعين الكليلة فالْمَح ، واغْتَنِمَ لباس ثوب الثوب ، واشفِ
بعض الجوى بالجواب .

تولّك الله فيما استضفت وملكت ، ولا بَعُدَتَ ولا هلكت ، وكان لك أية
سلكت ، ووسمك من السعادة بأوضح السمات ، وأتاح لقاءك من قبل المات ،
والسلام الكريم يعتمد جلال ^(٧) ولدي وساكن خلدي ، بل أخي وإن اتّقيت عُتْبَهُ
وسيّدي ، ورحمة الله وبركاته ، من محبة المشتاق إليه محمد بن عبدالله بن الخطيب
في الرابع عشر من شهر ربيع الثاني من عام سبعين وسبعائة .
وكان تقدّم منه قبل هذه الرسالة كتاب آخر إليّ ، بعث به إلى تلمسان فتأخّر وصوله ،
حتى بعث به أخي يحيى عند وفادته على السلطان ، ونصّ الكتاب .
يا سيدي إجلالاً واعتداداً ، وأخي ودّاً واعتقاداً ، ومحلّ ولدي شفقةً حلت مني

(١) وفي نسخة ثانية : سَبَّحه والسبح : الجري .

(٢) وفي نسخة ثانية : مثلوه .

(٣) الهجر : الهندي في الكلام والهجر الثانية الفراق ، والحجر الثالثة : بلد بالهجرين .

(٤) الجريض : الغصّة بالريق ، والقريض : الشعر .

(٥) وفي نسخة ثانية : ونصّلت .

(٦) وفي نسخة ثانية : الشيات والشيآت ج . شية ، وهي سواد في بياض أو بياض في سواد .

(٧) حلال : ج حلة : بيت .

فؤاداً . طال عليّ انقطاع أنباتك ، واختفاء أخبارك ، فرجوت أن أبلغ المُنيّة بهذا المكتوب إليك ، وتخرق الموانع دونك ، وإن كنت في مولاتك كالعاطش الذي لا يروى ، والآكل الذي لا يشبع ، شأن من تجاوز الحدود الطبيعية ، والعوائد المألوفة ، فأنا بعد إنهاء التحية المطلوبة الروض بماء الدموع ، وتقرير الشوق القديم اللزيم ، وشكوى البُعَاد الأليم ، والابتهاال في إتاحة القرب^(١) قبل الفؤت من الله ميسر العسير ، ومقرب البعيد ، أسألُ عن أحوالك سؤال أبعد الناس مجالاً^(٢) في مجال الخلوص لك ، وأشدّهم حرصاً على اتّصال سعادتك ، بمقد اتّصل بي في هذه الأيام ما جرى به القدر من تنوع الحال لديك ، واستقرارك ببسكرة على الغبطة بك باللجا إلى تلك الرياسة الزكية ، الكريمة الأب ، الشهيرة الفضل ، المعروفة القدر على البعد ، حرسها الله ملجأ للفضلاء ، ومحيماً لرجال العلياء ، ومهباً لطيب الثناء ، بحوله وقوته ، وقاربت كلّ ساج السلامة^(٣) فاحمدوا الله على الخلاص ، وقاربوا في معاملة الآمال ، وضنوا بتلك الذات الفاضلة عن المشاق ، وأبخلوا بها عن المتالف ، فطلوب الحريص على الدنيا خسيس ، والموانع الحافة جمّة ، والحاصل حسرة ، وما قلّ سعيٌ يحمّد حاله العاقبة^(٤) ، والعافل لا يستنكحه الاستغراق فيما آخره الموت ، إنّما ينال منه الضروري ، ومثلك لا يعجزه مع الناس^(٥) العافية ، إضعاف ما يُرجى به العمر من المأكل والمشرب ، وحسبنا الله .

وإن تشوّفت لحال المحبّ تلك السيادة الغدّة والبنوة البرّة ، فالحال حال من جعل الزّمام بيد القدر ، والسير في مهيع الغفلة ، والسبح في تيار الشواغل ، ومن وراء الأمور غيبٌ محجوبٌ ، وأجلٌ مكتوبٌ ، يؤمل فيه عادة الستر من الله ، إلا أنّ الضجر الذي تعلمونه حفظه الناس لما عجزت الحيلة ، وأعوز الناصر^(٦) وسدّت المذاهب ، والشأن اليوم شأن الناس فيما يقرب من الاعتدال .

(١) وفي نسخة ثانية : وسؤال إتاحة القرب .

(٢) وفي نسخة ثانية : وفي نسخة ثانية محالاً والمِحَال : التدبير . وال « مجال الاولى تكون مصدرا والمجال الثانية : مكان الجولان .

(٣) وفي نسخة ثانية : وما كل وقت تتاح فيه السلامة .

(٤) وفي نسخة ثانية : وبأقل السعي تحصل حالة العاقبة .

(٥) وفي نسخة ثانية : مع التماس العاقبة .

(٦) وفي نسخة ثانية : المناص : الملجأ .

وفيا يرجع إلى السلطان تولاه الله على إضعاف ما باشر سيدي من الأغياء في البر ،
ووصل سبب الالتحام والاشتغال مع الإقبال^(١) وما يُنتجُه متعود الظهور ،
والحمد لله .

وفيا يرجع إلى الأحباب والأولاد فعلى ما علمت الآن الشوق يخامر القلوب ، وتصوّر
اللقاء مما يزهد في الوطن ، وحاضر النعم سنى الله ذلك على أفضل حال ، ويسره قبل
الارتحال من دار المِحَال .

وفيا يرجع إلى الوطن فأحوال النائم خصباً ، وهذنة وظهوراً على العدو ، وحسبك
فافتاح حصن آش وبرغة^(٢) القاطعة بين بلاد الإسلام ، ووبرة^(٣) والعارين
وبيغة^(٤) وحصن السهلة في عام . ثم دخل بلد إطريرة بنت إشبيلية عنوة ،
والاستيلاء على ما يناهز خمسة آلاف من السبي من فتح دار الملك ، وبلدة
قُرطبة ، ومدينة جيان عنوة في اليوم الأغر المحجل ، وقتل المقاتلة ، وسبي الذرية ،
وتعفية الآثار حتى لا يُلَمَّ بها العمران ، ثم افتتاح مدينة رُنْدَة التي تلف جيان في
ملاءتها ، دار التجر ، والرفاهية والبنات الحافلة ، والنعم الشرة ، نسأل الله جلّ وعلا
أن يصل عوائد نصره ، ولا يقطع عنا سيب رحمته ، وأن ينفع بما أعان عليه من
السعي في ذلك والإعانة عليه .

ولم يتريد من الحوادث إلا ما علمتم من أخذ الله لنسب^(٥) السوء ، وخبث الأرض ،
المسلوب من أثر الخير ، عمر بن عبدالله ، وتحكم شر الميته في نفسه ، وإتيان النكال
على حاشيته ، والاستئصال على نفسه^(٦) ، والاضطراب مُستولٍ على الوطن بعده ،
إلا أن القرب على علالته^(٧) لا يرّجّحه غيره .

(١) وفي نسخة ثانية : الاستقلال .

(٢) وفي نسخة ثانية حض آشر وبرغه وهو أصحّ وحصص آشر (Iznajar) في الجنوب الشرقي لحص
روطة (Rute) على ضفة رافد من روافد شنيل ، وقد حرّف فكتب في بعض النسخ (أشب) أما برغه
(Burgo) فتقع بين مالقة ورندة (نفع الطيب ٣٦٧/٦ — ٣٦٨) .

(٣) وفي نسخة ثانية : وبِذَة وهي الأصح لأن وبرة من قرى اليمامة وهي بعيدة عن بحثنا هذا أما وبذة
فهي مدينة من أعمال شنت برة بالأندلس (معجم البلدان) .

(٤) يجمع التلمساني في نفع الطيب بيغة وباغة باسم واحد ، «وباغة مدينة بالأندلس من كورة البيرة بين
المغرب والقبلة منها» . وربما تكون بيغو : «بلد بالأندلس من أعمال جيان» (معجم البلدان) .

(٥) وفي نسخة ثانية : لنسمة .

(٦) وفي نسخة ثانية : على ذاته .

(٧) وفي نسخة ثانية : إلا أن الغرب على علّاته .

والأندلس اليوم شيخ غزاتها عبد الرحمن بن علي ابن السلطان أبي علي ، بعد وفاة الشيخ أبي الحسن علي بن بدر الدين رحمه الله . وقد استقر بها بعد انصراف سيدي الأمير المذكور ، والوزير مسعود بن رحو ، وعمر بن عثمان بن سلمان .

والسلطان ملك النصارى بطرّة قد عاد إلى مُلْكِهِ بإشيلية ، وأخوه مُجَلَّبٌ عليه بقتالة وقرطبة مخالفة عليه ، قائمة بطائفة من كبار النصارى الخائفين على أنفسهم ، داعين لأخيه ، والمسلمون قد اغتنموا هبوب هذه الرياح . وخرقَ الله لهم عوائد في باب الظهور والخير ، لم تكن تخطر في الآمال . وقد تلقب السلطان أيده الله بعقب هذه المكتفات بالغني بالله وصدرت عنه مخاطبات بمجمل الفتوح ومفصلها يعظم الحرص على إيصالها إلى تلك الفضائل لو أمكن .

وأما ما يرجع إلى ما يتشوّف إليه ذلك الكمال من شغل الوقت ، فصدرت تقاييده ، وتفاصيل^(١) يقال فيها بعد ما اعتملت تلك السيادة بالانصراف يا ابراهيم ولا ابراهيم اليوم .

منها أن كتاباً رفع إلى السلطان في المحبة^(٢) من تصنيف ابن أبي حجلة من المشاركة فعارضته ، وجعلت الموضوع أشرف ، وهو محبة الله^(٣) ، فجاء كتاباً ادعى الأصحاب غرابته . وقد وُجّه إلى الشرق وصحبته كتاب « تاريخ غرناطة » وغيره من تألّفي . وتعرّف تحببته بخانقاه سعيد السعداء من مصر ، وانتال الناس عليه ، وهو في لطافة الإعراض ، متكلّف أغراض المشاركة من مُلَحِهِ :

سَلَّمْتُ لمصر في الهوى من بَلَدٍ يهديه هَوَاؤُهَا لَدَى استنشاقيه
من يُنَكِّرُ دعوتي فَقُلْ عني لَهُ تكفي امرأة العزيز من عُشَّاقِهِ

والله يرزق الإعانة في انتساخه وتوجيهه . وصدر عني جزء سمّيته « الغيرة على أهل الحيرة » وجزء سمّيته « حمد الجمهور على السنن المشهور » . والإكباب على اختصار كتاب « التاج »^(٤) للجوهرى وردّ حجمه إلى مقدار الخمس ، مع حفظ ترتيبه

(١) وفي نسخة ثانية : تصانيف .

(٢) هودبوان الصبابة . طبع بمصر سنة ١٣٠٢ هـ .

(٣) يعني كتابه « روضة التعريف بالحب الشريف وهو من كتب التصوف قلّ ان نجد مثله في المكتبة الإسلامية . راجع نفح الطيب ج ١١٧/٥ وما بعدها .

(٤) هو كتاب « تاج اللغة وصحاح العربية . وفي مخطوط قديم كتب سنة ٨٥١ ذكر اسمه تاج اللغة وسرّ العربية ويعرف بالصحاح أو كتاب الصحيح في اللغة (معجم المطبوعات العربية ١/٧٢٣) .

السَّهْل ، والله المعين على مشغلةٍ نَقَطُ بها هذه البرهة القريية البِدَاءَ من التَّمتة ، ولا حَوْل ولا قُوَّةَ إِلَّا بالله .

والمطلوب المثابرة على تعريف يصل من تلك السَّيَادَةِ والنبوَّة ، إذ لا يتعذَّر وجود قافل من حَجٍّ ، أو لاحقٍ بتلمسان يُعَبِّثُ السَّيِّدَ الشريف منها ، فالنفس شديدة التعطُّش ، والقلوب قد بلغت من الشوق والاستطلاع الحناجر . والله أسألُ أن يصونَ في البُعْدِ وديعتي مِنْكَ لَدَيْهِ ، وَيُلْسِكَ العافية ، ويخَلِّصَكَ وإياي من الورطة ، ويحمِلنا أجمعين على الجادَّة . ويختم لنا بالسعادة . والسلام الكريم عَوْداً على بدءٍ ، ورحمة الله وبركاته من المحبِّ المشوقِ الذاكر الداعي ابن الخطيب ، في الثاني من جمادى الأولى من عام تسعة وستين وسبعمائة انتهى .

(فأجبتُه) عن هذه المخاطبات ، وتفاديت من السجع خشية القصور عن مساجلته فلم يكن شأوه يُلْحَقُ . ونصَّ الجواب : سيَّدي مجدداً وعلبواً ، وواحدٍ ذُخْراً مَرَجُجاً وَمَحَلّاً والدي برّاً وحنواً . ما زال الشوق مَذْنَاتُ بي وبك الدار ، واستَحْكَمَ بيننا البُعَاد ، يُرْعِي سمعي أنباءك ، وَيُخَيِّلُ إليَّ من أيدي الرياح تناول رسائلِك ، حتى ورد كتابك العزيز على استطلاع ، وعهدٍ غير مُضَاعٍ ووَدَّ ذي أجناس وأنواع ، فنشر بقلبي ميت السلو وحشر أنواع المسرَّات ، وَقَدَحَ للقائك زنادُ الأمل ، والله أسأل الامتناع^(١) بك قبل الفوت على ما يرضيك ، ويسني أمانِيَّ وأمانيك . وحيثه تحية الهائم ، لِمَوَاقِعِ الغائم ، والمُدْلِجُ للصَّباحِ المتبلِّج ، وأملِي على معترج الأولياء^(٢) خصوصاً فيك ، من اطمئنان الحال ، وحسن القرار ، وذهاب الهواجس ، وسكون النفرة ، وعموماً في الدولة من رسوخ القدم ، وهبوب ريح النصر ، والظهور على عدوِّ الله باسترجاع الحصون التي استنقذوها في اعتلال الدولة ، وتخريب المعازل التي هي قواعد النصرانيَّة ، غريبةٌ لا تثبت إلا في الحلم وآية من آيات الله . وإن خبيثة هذا الفتح في طيء العصور السالفة إلى هذه المدَّة الكريمة ، لدليلٌ على عناية الله بتلك الذات الشريفة ، حيث أظهر على يدها خوارق العادة ، وما تجد آخر الأيام من معجزات

(١) وفي نسخة ثانية : الامتناع .

(٢) وفي نسخة ثانية : وأملِي على مقترح الأولياء .

الملة ، وكمل فيها والحمد لله بِحُسْنِ التدبير وَيُسْنِ التعبية^(١) ، من حميد الأثر ،
وخَالِدِ الذَّكْر ، طراز في حُلَّةِ الخلافة النَّصْرِيَّة ، وتاجٌ في مفرق الوزارة . كتبه الله
لك فما يرضاه الله من عباده .

ووقفت عليه الأشراف من أهل هذا العصر المحروس ، وأذعته في الملاء سروراً لغز
الإسلام وإظهاراً للنعمة ، واستطراداً لذكر الدولة المَمْلُوكِيَّة بما تستحقّه من طيب
الثناء والتماس الدعاء ، والتحديث بنعمتها ، والإشادة بفضلها على الدول السالفة
والخالفة وتقدّمها ، فانشرحت الصدورُ حياءً ، وامتلأت القلوب إجلالاً وتعظيماً ،
وحسّنت الآثار اعتقاداً ودعاءً .

وكان كتاب سيدي لشرف تلك الدولة عنواناً ، ولما عساه يستعجم من نعتي في
مناقبها ترجيحاً ، زاده الله من فضله ، وأمتع المسلمين سكون الغريب من الشوق
المزعج^(٢) ، والحيرة التي تكاد تذهب بالنفس أسفاً لتجاني عُرمها عن الأمن^(٣)
والتقويض عن دار العزيز المولى المنعم ، والسيد الكريم ، والبلد الطيب ، والإخوان
البررة ، « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير » وإن تشوّفت السيادة الكريمة
إلى الحال ، فعلى ما علمتم سيراً مع الأمل ، ومغالبةً للأيام على الحظّ ، وإقطاعاً
للغفلة جانب العمر .

هل ناعمي والجَدُّ في صَبَبٍ مَدَى مع الآمال في صُعْدٍ

رجع الله بنا إليه ، ولعلّ في عظمتكم النافعة شفاء من هذا الداء ، العيَاءُ إن شاء
الله ، وأنّ لطفَ الله مصاحب من هذه الرياسة المُزْنِيَّة ، وحسبك بها عليه عصمة
وافية^(٤) ، صرفت وجه القصد إلى ذخيري التي كنت أعتدّها منهم كما علمتم ، حين
تفاقم الخطب ، وتلّون الدهر ، والإفلات من مظانّ النكبة ، وقد رنّقت^(٥) حولها
بعدما جرّته الحادثة بمهلك السلطان المرحوم على يد ابن عمّه ، قريعة في الملك
وقسيمه في النسب ، والتياث الجاه ، وتغيّر السلطان ، واعتقال الأخ المُخَلَّف ،

(١) وفي نسخة ثانية : وعن النقية . ويقال رجل ميمون النقية أي مظفر المطالب ناجح الفعال .

(٢) وفي نسخة ثانية : وأمتع المسلمين ببقائه ، ويثته شكوى الغريب من السوق المزعج .

(٣) وفي نسخة ثانية : للتجاني عن مهاد الأمن .

(٤) وفي نسخة ثانية : وحسبك بها علمته عصمة وافية .

(٥) رنّقت حولها : أي توقفت . وفي نسخة ثانية : رتعت .

والْيَأْس منه لو لا تَكْيِيف الله في نَجَائِهِ ، والْعَيْث بعده في المَنْزِل والوَلَد ، واغْتِصَاب الضياع المَقْتَنَة من بَقَايا ما مَتَّعَ به الدَّوْلَة النَّصْرِيَّة أَبْقَاهَا اللهُ مِنَ النِّعْمَةِ ، فَآوَى إِلَى الْوَكْرِ ، وسَاهَم في الحَادِثِ وَأَشْرَكَ في الْجَاهِ وَالْمَالِ ، وَأَعَانَ عَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ وَطَلَب الْوُثْرَ^(١) حِينَ رَأَى الدَّهْرَ قَلَانِي وَأَمَلِ الْمُلُوكِ اسْتِخْلَاصِي ، وَتَجَاوَزُوا فِي إِتْحَافِي وَاللَّهِ الْمَخْلَصُ مِنْ عِقَالِ الْآمَالِ ، وَالْمُرْشِدُ إِلَى نَبْذِ هَذِهِ الْحُظُوظِ الْمَوْرُطَةِ .

وَأَنْبَأَنِي سَيِّدِي بِمَا صَدَرَ عَنْهُ مِنَ التَّصَانِيفِ الْغَرِيبَةِ فِي هَذِهِ الْفَتْوحَاتِ الْجَلِيلَةِ ، وَبَوَدِّي لَوْ وَقَعَ الْإِتْحَافُ بِهَا أَوْ بَعْضُهَا ، فَلَقَدْ عَاوَدَنِي النَّدَمُ عَلَى مَا قَرُطْتُ .

وَأَمَّا أَخْبَارُ هَذَا الْقَطْرِ فَلَا زِيَادَةَ عَلَى مَا عَلِمْتُمْ مِنْ اسْتِقْرَارِ السُّلْطَانِ أَبِي اسْحَقَ ابْنِ السُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى بَتُونَسَ مُسْتَبَدًّا بِأَمْرِهِ بِالْحَضْرَةِ بَعْدَ مَهْلِكِ شَيْخِ الْمُوَحِّدِينَ أَبِي مُحَمَّدَ بْنِ تَافَرَائِينَ الْقَائِمَ بِأَمْرِهِ ، رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِ مَضَائِقًا فِي حَيَاتِهِ الْوَطَنِ وَاحْكَامَهُ بِالْعَرَبِ ، الْمُسْتَظْهِرِينَ بِدَعْوَتِهِ ، مُصَانِعًا لَهُمْ بِوَفْرَةٍ عَلَى أَمَانِ الرِّعَايَا وَالسَّابِلَةِ . لَوْ أَمَكَّنَ حَسَنَ السِّيَاسَةِ جَهْدَ الْوَقْتِ ، وَمِنْ انْتِظَامِ بِحَايَةِ مَحَلِّ دَوْلَتِنَا فِي أَمْرِ صَاحِبِ قَسَنْطِينَةِ وَبُونَةِ خِلَافًا كَمَا عَلِمْتُمْ ، مَحْمَلًا الدَّوْلَةَ بِصِرَامَتِهِ وَقُوَّةِ شَكِيمَتِهِ فَوْقَ طَوْقِهَا ، مِنْ الْاسْتِبْدَادِ وَالضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي الْمُسْتَقِلِّينَ مِنَ الْأَعْرَابِ ، مُتَّقِضِ الطَّاعَةِ أَكْثَرَ أَوْقَاتِهِ لِذَلِكَ إِلَّا مَا شَمَلَ الْبِلَادَ مِنْ تَغَلَّبِ الْعَرَبِ وَنَقْصِ الْأَرْضِ مِنَ الْأَطْرَافِ وَالْوَسْطِ ، وَخُمُودِ دُبَالٍ^(٢) الدَّوْلِ فِي كُلِّ جِهَةٍ وَكُلِّ بَدَايَةِ إِلَى تَمَامِ .

وَأَمَّا أَخْبَارُ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَالْأَدْنَى فَلَدَيْكُمْ طَلْعُهُ^(٣) . وَأَمَّا الْمَشْرِقُ فَأَخْبَارُ الْحَاجِّ هَذِهِ السَّنَةِ مِنْ اخْتِلَالِهِ ، وَانْتِقَاضِ سُلْطَانِهِ ، وَاتِّزَاعِ الْجُفَاءِ عَلَى كَرْسِيَّةِ ، وَفَسَادِ الْمَصَانِعِ وَالسَّقَايَاتِ الْمَعْدَّةِ لَوْفَدِ اللهِ وَحَاجِّ بَيْتِهِ ، مَا يَسْخُنُ الْعَيْنَ وَيَطِيلُ الْبَثَّ ، حَتَّى زَعَمُوا أَنَّ الْهَيْعَةَ اتَّصَلَتْ بِالْقَاهِرَةِ أَيَّامًا . وَكَثُرَ الْمَهْرَجُ فِي أَزْقَتِهَا وَأَسْوَاقِهَا لَمَّا وَقَعَ بَيْنَ سَنْدَمِ^(٤) الْمُتَغَلَّبِ بَعْدَ يَلْبَغَا الْخَاصِكِيِّ ، وَبَيْنَ سُلْطَانِهِ ظَاهِرِ الْقَلْعَةِ ، مِنْ الْجَوْلَةِ الَّتِي كَانَتْ دَاثَرَتْهَا عَلَيْهِ ، أَجَلَتْ عَنْ زَهَاءِ الْخُمْسَائَةِ قَتْلِي ، مِنْ حَاشِيَتِهِ ، وَمَوَالِي يَلْبَغَا ،

(١) الْوُثْرُ : الثَّوْبُ الَّذِي تَجَلَّلَ بِهِ الثِّيَابُ فَيَعْمَلُوهَا . وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةِ طَلَبِ الْوُثْرِ : أَيِ الثَّأْرِ .

(٢) دُبَالٌ ج ذَبِيلَةٌ : الْفَتِيلَةُ .

(٣) سَرُهُ .

(٤) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةٍ : أَسَنْدَمَرُ وَهُوَ الْأَمِيرُ الدَّوَادَارُ الْكَبِيرُ فِي دَوْلَةِ الْأَشْرَفِ وَكَانَ دَوِيدَارًا عَنْ يَلْبَغَا النَّاصِرِيِّ ثُمَّ تَارَعَ عَلَيْهِ . مَاتَ بِالْأَسْكَندَرِيَّةِ سَنَةَ ٧٦٩ هـ .

وتقبّض على الباقيين ، فأودع منهم السجون ، وصلب الكثير ، وقتل سندمر في محبسه ، وألقى زمام الدولة بيد كبير من موالي السلطان فقام بها مستبدّاً وقادها مستقلاً ، وبيد الله تصارييف الأمور ومظاهر الغيوب جلّ وعلا .

ورغبني من سيّدي أبقاه الله أن لا يُغَبَّ خطابه عني متى أمكن ، أن يصلَ منّته الجمّة ، وأن يقبَل عني أقدام تلك الذات المولويّة ، ويعرّفه بما عندي من التشيع لسلطانه ، والشكر لنعمته ، وأن ينهي عني لحاشيته وأهل اختصاصه التحيّة المختلصة من أنفاس الرياض ، كبيرهم وصغيرهم .

وقد تأدّى مني إلى حضرته الكريمة خطاب على يد الحاجّ نافع سلّمه الله تناوله من الأخ يحيى عند لقائه إيّاه بتلمسان بحضرة السلطان أبي حمّو أيّده الله ، فربّما يصل وسيّدي يوضح من ثنائي ودعائي ما عجز عنه الكتاب ، والله يبيّكم ذخراً للمسلمين وملاً ذاك للآملين بفضلّه ، والسلام الكريم عليكم ، وعلى من لاذبكم من السادة الأولاد المناجيب ، والأهل والحاشية والأصحاب ، من المحبّ فيكم المعتدّ بكم شيعة فضلكم ابن خلدون ورحمة الله وبركاته .

عنوانه سيّدي وعمادي وربّ الصائغ والأبادي والفضائل الكريمة الخواتم والمبادي إمام الأئمّة ، علم الأئمّة ، تاج الملة فخر العلماء عماد الإسلام ، مصطفى الملوك الكرام ، كافل الإمامة ، تاج الدول أثير الله ، ولي أمير المؤمنين ، الغنيّ بالله أيّده الله ، الوزير أبو عبدالله بن الخطيب أبقاه الله ، وتولّى عن المسلمين جزاه .

(وكتب) إليّ من غرناطة : يا سيّدي ووليّ وأخي ومحلّ ولدي ، كان الله لكم حيث كنتم ولا أعدمكم لطفه وعنايته ، لو كان مستقرّكم بحيث يتأتّى إليه ترديد رسول ، وإنفاذ مقتطع^(١) أو توجيه نائب ، لرجعتُ على نفسي باللائمة في إغفال حقّكم ، ولكن العذر ما علمتم ، واحمدوا الله على الاستقرار في كنف ذلك الفاضل الذي وسعكم كنفه ، وشملكم فضله ، شكراً لله حسبه الذي لم يُخلف شهرته التي لم تكدر .

وإني اغتنمت سَفَر هذا الشيخ وَافِدِ الحرمين بمجموع الفتوح^(٢) في إيصال كتابي

(١) وفي نسخة ثانية : أو إيفاد متّطلع .

(٢) كانت العادة عندهم أن يبعثوا بأخبار فتوحهم وتوسعاتهم التي تحصل كل سنة ، يرسلونها الى الملوك والسلطين والى الحرم النبوي بوجه خاص ، وهذا ما اشار إليه ابن الخطيب .

هذا ، وبودّي لو وقفتم على ما لديه من البضاعة التي أنتم رَأْسُها وصدرها ، فيكون لكم في ذلك بعض أنس ، وربما تأدّى ذلك في بعضه ممّا لم يُختم عليه وظواهر الأمور نُحِيلُ عليه في تعريفكم بها ، وأما البواطن فمّا لا تتأتّى كثرة وجماعة ، وأخصّ ما أظنّ تشوّفكم إليه حالي ، فاعلموا أنّي قد بلغ بي الماء الزبي (١) واستولى عليّ سوء المزاج المنحرف ، وتوالى الأمراض ، وأعوز الشفاء (٢) لبقاء السبب ، والعجز عن دفعه ، وهي هذه المداخلة جعل الله عاقبتها إلى خير ، ولم أترك وجهاً من وجوه الحيلة إلّا بذلته ، فما أغنى عني شيئاً ، ولولا أنّي بعدكم شغلت الفكر بهذا التأليف مع الزهد ، وبُعْدُ العهد ، وعدم الإلماع بمطالعة الكتب ، لم تتمشّ من طريق فساد الفكر إلى هذا الحدّ ، وآخر ما صدر عني كناش (٣) سمّيته باستئزال اللطف الموجود في أسر الوجود . أُمليته في هذه الأيام التي أقيم فيها رسم النياحة عن السلطان في سفره إلى الجهاد بودّي لو وقفتم عليه ، وعلى كتابي في المحبة ، وعسى الله أن ييسر ذلك .

ومع هذا كله والله ما قصّرت في الحرص على إيصال مكتوب إليكم إمّا من جهة أخيكيم أو من جهة السيد الشريف أبي عبدالله ، حتى من المغرب إذا سمعت الركب متوجّهاً منه ، فلا أدري هل بلغكم شيء من ذلك أم لا ؛ والأحوال كلها على ما تركتموها عليه ، وأحبابكم بخير على ما علمتم من الشوق والتشوّف . والارتماض على مفارقتكم ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله .

والله يحفظكم ، ويتولّى أموركم ، والسلام عليكم ورحمة الله . من المحبّ الواحش ابن الخطيب في ربيع الثاني من عام إحدى وسبعين وسبعائة .
وباطنه مدرجة نصّها :

سيدي رضي الله عنكم إستقرّ بلمسان في سبيل تقلّب ومسارة مزاج تعرفونه . صاحبنا المقدّم في الطب أبو عبدالله الشقُوري . فإذا اتصل بكم فأعينوه على ما يقف عليه اختياره ، وهذا لا يحتاج معه إلى مثلكم .

عنوانه سيدي ومحلّ أخي الفقيه الجليل الصدر الكبير المعظّم الرئيس الحاجب العالم

(١) مثل يضرب للشيء الذي تجاوز الحد .

(٢) وفي نسخة ثانية : أعوز العلاج .

(٣) كناش : دفتر تنقيح فيه الفوائد والشوارد للضبط ، يستعمله المغاربة كثيراً إلى اليوم . وقد ذكره التلمساني في نفح الطيب باسم « استئزال اللطف الموجود في سر الوجود » . تاج العروس ٤/٣٤٧ .

الفاضل الوزير ابن خلدون . وصل الله سعده وحرس مجده بمنه .
وإنما طوّلت بذكر هذه المخاطبات ، وإن كانت فيما يظهر خارجة عن غرض الكتاب
لأن فيها كثيراً من أخباري وشرح حالي فيستوفي ذلك منها ما يتشوّف إليه من المطالعين
للكتاب .

ثم إن السلطان أبا حمّو لم يزل معتملاً في الإجلاب على بجاية واستثلاف قبائل رياح
لذلك ، ومعولاً علي مشايعتي فيه ، ووصل يده مع ذلك بالسلطان أبي اسحق ابن
السلطان أبي بكر صاحب تونس من بني أبي حفص ، لما كان بينه وبين أخيه
صاحب بجاية وقسنطينة من العداوة التي تقتضيها مقاسمة النسب والملك ، فكان يوفد
رسله عليه في كل وقت ، ويمرّون بي وأنا ببسكرة . فأكدّ الوصلة بمخاطبة كل منهما ،
وكان أبو زيان ابن عمّ السلطان أبي حمّو بعد إجفاله عن بجاية واختلال معسكره قد
سار في أثره إلى تلمسان ، وأجلب على نواحيها فلم يظفر بشيء ، وعاد إلى حصن
فأقام بينهم ، واشتملوا عليه ، ونجم النفاق في سائر أعمال المغرب الأوسط . ولم يزل
يستألفهم حتى اجتمع له الكثير منهم ، فخرج في عساكره منتصف تسع وستين
وسبعمائة إلى حصن وأبي زيان ، واعتصموا بجبل تيطري ، وبعث إليّ في استنفار
الزواودة للأخذ بحجزتهم من جهة الصحراء ، وكتب يستدعي أشياخهم يعقوب بن
علي كبير أولاد محمد ، وعثمان بن يوسف كبير أولاد سباع بن يحيى . وكتب إلى ابن
مزنّى قعيدة وطنهم بامدادهم في ذلك ، فأمدّهم ، وسرنا مغرّبين إليه حتى نزلنا
القطفا بتل تيطري ، وقد أحاط السلطان به من جهة التل ، على أنه إذا افرغ من
شأنهم سار معنا إلى بجاية ، وبلغ الخبر إلى صاحب بجاية أبي العباس فعسكر بمن
استألف من بقايا قبائل رياح ، وعسكر بطرف ثنية القطفا المفضية إلى المسيلة . وبينما
نحن على ذلك اجتمع المخالفون من زغبة ، وهم خالد بن عامر كبير بني عامر ،
وأولاد عريف كبراء سويد ، ونهضوا إلينا بمكاننا من القطفا ، فأجفلت أحياء
الزواودة ، وتأخّرنا إلى المسيلة . ثم إلى الزاب ، وسارت زغبة إلى تيطري واجتمعوا مع
أبي زيان وحصن وهجموا على معسكر أبي حمّو فقلّوه ورجع منهزماً إلى تلمسان .
ولم يزل من بعد ذلك على استثلاف زغبة ورياح يؤمّل الظفر بوطنه وابن عمّه ،
والكزة على بجاية عاماً فعاماً ، وأنا على حالي في مشايعته ، وإيلاف ما بينه وبين
الزواودة ، والسلطان أبي اسحق صاحب تونس وابنه خالد من بعده . ثم دخلت

زغبة في طاعته واجتمعوا على خدمته ونهض من تلمسان لشفاء نفسه من حصين
وبجاية ، وذلك في أخريات إحدى وسبعين وسبعائة فوفدت عليه بطائفة من الزواودة
أولاد عثمان بن يوسف بن سليمان لنشارف أحواله ، ونطالعه بما يرسم له في خدمته ،
فلقيناه بالبطحاء ، وضرب لنا موعداً بالجزائر ، انصرف به العرب إلى أهلهم ،
وتخلّفت بعدهم لقضاء بعض الأغراض والحقاق بهم ، وصليت به عيد الفطر على
البطحاء ، وخطبت به وأنشدته عند انصرافه من المصلى تهنئة بالعيد وغرضه^(١) :

هذي الديار فحيهنّ صباحا وقف المطايا بينهنّ طلاحا
لا تسأل الأطلال إن لم تروها عبرت عينك واكفاً ممتاحا
فلقد أخذن على جفونك موثقاً أن لا يُرينَ مع البعادِ شحاحا
إيه على الحيّ الجميع ورّياً طرب الفؤاد لذكرهم فارتاحا
ومنازل للظاعنين استعجمت حزناً وكانت بالسرور فصاحا

وهي طويلة ، ولم يبق في حفظي منها إلا هذا .

وبينا نحن في ذلك إذ بلغ الخبر بأن السلطان عبد العزيز صاحب المغرب الأقصى من
بني مرين قد استولى على جبل عامر بن محمد الهنتاتي بمراكش ، وكان أخذ
بمخنقه منذ حوّل ، وساقه إلى فاس ، فقتله بالعذاب ، وأنه عازم على النهوض إلى
تلمسان لما سلف من السلطان أبي حمو إثناء حصار السلطان عبد العزيز لعامر في
جبله ، من الإجلاب على ثغور المغرب ، ولحين وصول هذا الخبر ، أضرب السلطان
أبوحمو على ذلك الذي كان فيه ، وكرّ راجعاً إلى تلمسان . وأخذ في أسباب الخروج
إلى الصحراء مع شيعة بني عامر من أحياء زغبة ، فاستألف وجمع وسدّد الرجال
وقضى عيد الأضحى ، وطلبت منه الإذن في الانصراف إلى الأندلس لتعذر الوجهة
إلى بلاد رياح ، وقد أظلم الجو بالفتنة ، وانقطعت السبل ، فأذن لي وحمّلني رسالة
إلى السلطان ابن الأحمر . وانصرفت إلى المرمى بهنّين ، وجاءه الخبر بتزول
صاحب المغرب تازا في عساكره ، فأجفل بعدي من تلمسان ذاهباً إلى الصحراء على
طريق البطحاء . وتعذّر عليّ ركوب البحر من هُنّين فأقصرت ، وتأدّى الخبر إلى
السلطان عبد العزيز بأنّي مقيم بهنّين ، وأنّ معي ودیعة احتملتها إلى صاحب

(١) وفي نسخة ثانية : أهنيه بالعيد ، وأحرّضه .

الأندلس ، تحيّل ذلك بعض الغواة ، وكتب به إلى السلطان عبد العزيز فأنفذ من وقته سرية من تازا تعترضني لاسترجاع تلك الوديعة ، واستمرّ هو إلى تلمسان ، ووافني السرية بهنّين وكشفوا الخبر ، فلم يقفوا على صحّته ، وحملوني إلى السلطان فلقيته قريباً من تلمسان ، واستكشفتني عن ذلك الخبر فأعلمته بنفيه ، وعفّني على مفارقة دارهم ، فاعتذرت له لِمَا كان من عمر بن عبد الله المعتبّد عليهم ، وشهد لي كبير مجلسه ، ووليّ أبيه وابن وليه ونزمار بن عريف ، ووزيره عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة ، واحتفّت الألفاف ، وسألني في ذلك المجلس عن أمر بجاية ، وأفهمني أنه يروم تملكها ، فهوّنت عليه السبيل في ذلك فسرّ به ، وأقمت تلك الليلة في الاعتقال . ثم أطلّقتني من الغد فعمدت إلى رباط الشيخ الوليّ أبي مدين ونزلت بجواره مؤثراً للتخلي والانقطاع للعلم ، لو تركت له .

* (مشايعة السلطان عبد العزيز صاحب المغرب على بني عبد الواد) *

ولما دخل السلطان عبد العزيز إلى تلمسان واستولى عليها ، وبلغ خبره إلى أبي حمّو وهو بالبطحاء ، فأجفل من هنالك ، وخرج في قومه وشيعته من بني عامر ذاهباً ، إلى بلاد رياح ، فسرح السلطان وزيره أبا بكر بن غازي في العساكر لاتباعه . وجمع عليه أحياء زغبة والمعقل باستئلاف وليّه ونزمار وتدبيره . ثم أعمل السلطان نظره ورأى أن يقدمني أمامه إلى بلاد رياح لأوطيء^(١) أمره ، وأحملهم على مناصرته وشفاء نفسه من عدوّه بما كان السلطان آيس^(٢) من استتباع رياح وتصريفهم فيما يريد من مذاهب الطاعة . فاستدعاني من خلوتي بالعبادة عند رباط الوليّ أبي مدين . وأنا قد أخذت في تدريس العلم واعتزمت على الانقطاع ، فأسنني وقربني ، ودعاني لما ذهب إليه من ذلك ، فلم يسعني إلّا إجابته ، وخلع عليّ وحملني ، وكتب إلى شيوخ الزاودة بامثال أمري وما ألقىه إليهم من أوامره ، وكتب إلى يعقوب بن علي وابن

(١) وفي نسخة ثانية : لأوطد .

(٢) وفي نسخة ثانية : آنس .

مَزْنَى بمساعدتي على ذلك . وأن يحاولوا على استخلاص أبي حمّو من بين أحياء بني عامر ، وتحولوه إلى حيّ يعقوب بن علي ، فودّعته وانصرفت في عاشوراء سنة اثنتين وسبعين وسبعائة فلحقت الوزير في عساكره وأحياء العرب من المعقل وزغبة على البطحاء ، ولقيته ودفعت إليه كتاب السلطان ، وتقدّمت أمامه وشيخني ونزمار يومئذ وأوصاني بأخيه محمد ، وقد كان أبو حمّو قبض عليه عندما أحس منهم بالخلاف ، وأنهم يرومون الرحلة إلى المغرب . وأخرجه معه من تلمسان مقيّداً واحتمله في معسكره ، فأكدّ على ونزمار في المحاولة على استخلاصه بها أمكن ، وبعث معي ابن أخيه عيسى في جماعة من سويد ييدروني^(١) وتقدّم إلى أحياء حصّين بإخراج أبي زيّان من بينهم ، فسرنا جميعاً وانتهينا إلى أحياء حصّين وأخبرهم فرج بن عيسى بوصيّة عمه ونزمار إليهم فنبذوا إلى أبي زيّان عهده ، وبعثوا معه من أوصله إلى بلاد رياح . ونزل على أولاد يحيى بن علي بن سبّاع ، وتوغّلوا به في القفر ، واستمرّيت ذاهباً إلى بلاد رياح ، فلمّا انتهيت إلى المسيلة ألفت السلطان أبا حمّو وأحياء رياح مسكرين قريباً منها في وطن أولاد سبّاع بن يحيى من الزواودة ، وقد تسايّلوا^(٢) إليه ، وبذل فيهم العطاء ليجمعوا إليه ، فلما سمعوا بمكاني من المسيلة ، جاؤا إليّ فحملتهم على طاعة السلطان عبد العزيز ، وأوفدت أعيانهم وأشياخهم على الوزير أبي بكر بن غازي ، فلقوه ببلاد الديالم عند نهر واصل ، فأتوه طاعتهم ، ودعوه إلى دخول بلادهم في اتباع عدوّه . ونهض معهم وتقدّمت أنا من المسيلة إلى بسكرة ، فلقيت بها يعقوب بن علي ، واتفق هو وابن مَزْنَى على طاعة السلطان ، وبعث ابنه محمداً للقاء أبي حمّو ، وأمر بني عامر خالد بن عامر يدعوهم إلى نزول وطنه ، والبعد به عن بلاد السلطان عبد العزيز ، فوجده متديلاً من المسيلة إلى الصحراء . ولقيه على الدّوسن وبات ليلتهم يعرض عليهم التحوّل من وطن أولاد بني سبّاع إلى وطنهم بشرقي الزاب . وأصبح يومه كذلك ، فما راعهم آخر النهار إلّا انتشار العجاج خارجاً إليهم من أفواه الثّنية ، فركبوا يستشرفون ، وإذا بهوادي الخيل طالعة من الثّنية ، وعساكر بني مرين والمعقل وزغبة مثالة أمام الوزير أبي بكر بن غازي قد دلّ بهم الطريق

(١) البذرقة الخفارة . والمبذرق : الخفير .

(٢) تسايّل القوم : توافدوا من جهة وفي نسخة ثانية تساتلوا وتساثل القوم أي خرجوا متتابعين الواحد تلو الآخر .

وفد أولاد سباع الذين بعثهم من المسيلة ، فلما أشرفوا على المخيم أغاروا عليه مع غروب الشمس . فأجفل بنو عامر وانتهب مخيم السلطان أبي حمّو ورحاله وأمواله . ونجا بنفسه تحت الليل ، وتمزّق شمل ولده وحرمه حتى خلصوا إليه بعد أيام ، واجتمعوا بقصور مصاف من بلاد الصحراء وامتلات أيدي العساكر والعرب من نهايهم ، وانطلق محمد بن عريف في تلك الهيعة وأطلق الموكلون به وجاء إلى الوزير وأخيه ونزمار وتلقّوه بما يجب له ، وأقام الوزير أبو بكر بن غازي بالدوسن أياماً أراح فيها . وبعث إليه ابن مَزْنَى بطاعته وأرغد له من الزاد والعلوفة ، وارتحل راجعاً إلى المغرب ، وتخلّفت بعده أياماً عند أهلي ببسكرة ، ثم ارتحلت إلى السلطان في وفد عظيم من الزواودة ، يقدّمهم أبو دينار أخو يعقوب بن علي وجماعة من أعيانهم . فسابقنا الوزير إلى تلمسان وقدمنا على السلطان فوسعنا من حباه وتكرّمته ، ونزله ما بعد العهد بمثله . ثم جاء من بعدنا الوزير أبو بكر بن غازي على الصحراء بعد أن مرّ بقصور بني عامر هنالك ، فخرّبها وكان يوم قدومه على السلطان يوماً مشهوداً ، وأذن بعدها لوفود الزواودة في الانصراف إلى بلادهم . وقد كان ينتظر بهم قدوم الوزير وولّيه ونزمار بن عريف ، فودّعوه وبالغ في الإحسان وانصرفوا إلى بلادهم . ثم أعمل نظره في إخراج أبي زيان من بين أحياء الزواودة لما خشي من رجوعه إلى حصّين ، فأمرني في ذلك ، وأطلقني إليهم في محاولة انصرافه عنهم ، فانطلقت لذلك . وكان أحياء حصّين قد توجّسوا الخيفة من السلطان ، وتنكّروا له ، وانصرفوا إلى أهلهم بعد مرجعهم من غزاتهم مع الوزير ، وبادروا باستدعاء أبي زيان من مكانه عند أولاد يحيى بن علي ، وأنزلوه بينهم ، واشتملوا عليه ، وعادوا إلى الخلاف الذي كانوا عليه أيام أبي حمّو واشتعل المغرب الأوسط ناراً . ونَجَمَ^(١) صبي من بيت الملك في مغراوة وهو حمزة بن علي بن راشد ، قرّ من معسكر الوزير ابن غازي أيام مقامه عليها ، فاستولى على شلّف وبلاد قومه ، وبعث السلطان وزيره عمر بن مسعود في العساكر لمنازلته ، وأعياء داؤه وانقطعتُ أنا ببسكرة ، وحال ذلك ما بيني وبين السلطان إلّا بالكتاب والرسالة . وبلغني في تلك الأيام وأنا ببسكرة مفّر الوزير ابن الخطيب من الأندلس وقدومه على السلطان بتلمسان حين توجّس الخيفة من

(١) نجم : ظهر

سلطانه ، بما كان له من الاستبداد عليه ، وكثرة السعاية من البطانة فيه ، فأعمل الرحلة إلى الثغور الغربية لمطالعتها بإذن سلطانه ، فلما حاذى جبل الفتح قبل الفُرْصَة دخل إلى الجبل ويده عهد السلطان عبد العزيز إلى القائد بقبوله . وأجاز البحر من حينه إلى سبته ، وسار إلى السلطان بتلمسان ، وقَدِم عليه بها في يوم مشهود ، وتلقاه السلطان من الحظوة والتقريب وإدراار النعم بما لا يعهد بمثله . وكتب إليّ من تلمسان يعرفني بسخره ، ويلمّ ببعض العتاب على ما بلغه من حديثي الأول بالأندلس ، ولم يحضرني الآن كتابه فكان جوابي عنه ما نصّه :

الحمد لله ولا قوّة إلاّ بالله ، ولا رادّ لما قضى الله .

يا سيدي ونعم الذخر الأبدي ، والعروة الوثقى التي أعلقتها^(١) يدي أسلم عليك سلام القدوم على المخدم ، والخضوع للملك المتبوع ، لا بل أحبيكم تحية المشوق للمعشوق ، والمدلج للصباح المتبّج ، وأقرّر ما أنتم أعلم بصحيح عقدي فيه من حبي لكم ، ومعرفتي بمقداركم ، وذهابي إلى أبعد الغايات في تعظيمكم ، والثناء عليكم ، والإشادة في الآفاق بمناقبكم ديدنا^(٢) معروفاً ، وسجية راسخة يعلم الله وكفى بالله شهيداً . وهذا كما في علمكم أسنى ما اختلف أولاً ولا آخرأ ، ولا شاهداً ولا غائباً ، وأنتم أعلم بما تعني نفسه وأكبر شهادة بما في خفايا ضميري ، ولو كنت ذلك فقد سلف من حقوقكم ، وجميل أخذكم ، واجتلاب الحظّ لوهيأه القدر ، لمسايعكم وإيثاري بالمكان من سلطانكم ودولتكم ، ما يستلن معاطف القلوب ، ويستل سخائم الهواجس ، فأنا أحاشيكم من استشعار نبوة^(٣) أو إخفار وطن^(٤) ، ولو تعلّق بقلب ساق حررزور^(٥) فحاش لله أن يقدح في الخلوص لكم ، أو يرجح سوائبكم^(٦) ، إنما هي خبيثة الفؤاد إلى الحشر أو اللقاء . ووالله وجميع ما يُقسَم به ، ما اطلع على مستكنه مني غير صديقي ، وصديقكم الملابس ، كان لي ولكم ، الحكيم الفاضل أبي عبدالله الشُّقُوري أعزّه الله . نفثة مصدور ، ومبائة خلوص ، إذ

(١) وفي نسخة ثانية : اعتقلتها .

(٢) الديدن : العادة .

(٣) بمعنى الجفوة .

(٤) وفي نسخة ثانية : أو إحقاق ظن .

(٥) وفي نسخة ثانية : ولو تعلّق بقلب ساق حرّ ذرّة وذرّة . وبلغني ذرّة من خير أي قليل منه .

(٦) وفي نسخة ثانية : سوابقكم : ج سابقة ويَعني : إيايديكم البيضاء التي اسديتموها إليّ .

أنا أعلم الناس بمكانه منكم ، وقد علم ما كان مني حين مفارقة صاحب تلمسان واضمحلال أمره من إجماع الأمر على الرحلة إليكم ، والخفوق إلى حاضرة البحر للإجازة إلى عدوتكم تعرّضت فيهم للتم ، ووقفت بمجال الظنون ، حتى تورّطت في الهلكة بما ارتفع عني مما لم آت ، ولا طويت العقد عليه ، لولا حلم مولانا الخليفة ولولا حسن رأيه في وثبات بصيرته ، لكنت في الهالكين الأولين ، كل ذلك شوقاً إلى لقائكم ، وتمثلاً لأنسكم ، فلا تظنّوا بي الظنون ، ولا تصدّقوا التوهّمات ، فأنا من قد عملتم صداقة وسداجة وخلوصاً ، واتفاق ظاهر وباطن ، أثبت الناس عهداً وأحفظهم غيباً ، وأعرفهم بوزان الإخوان ، ومزايا الفضلاء ، ولأمر ما تأخر كتابي من تلمسان ، فأني كنت استشعر من استضافني ريباً بخطاب سواه ، خصوصاً جهتكم ، لتقديم ما بين الدولتين من الاتحاد والمظاهرة ، واتصال اليد مع أن الرسول تردّد إليّ وأعلمني اهتمامكم واهتمام السلطان تولاه الله باستكشاف ما أهبهم^(١) من حالي ، فلم أترك شيئاً مما أعلم تشوّقكم إليه إلّا وكشفت له قناعة ، وآمته على إبلاغه ، ولم أزل بعد إيناس المولى الخليفة لدماي وجذبه بضبعي ، سابحاً في تيار الشواغل كما علمتم القاطعة حتى عن الفكر .

وسقّطت إلي محل مجد خدمتي من هذه القاصية ، أخبار خلوصكم إلى المغرب قبل فصول راحلي إلى الحضرة ، غير خلية^(٢) ولا ملتزمة ، ولم يتعيّن ملقي العصا ، ولا مستقر النوى ، فأرجأت الخطاب إلى استجلائها ، وأفدت من كتابكم العزيز الجاري على سنن الفضل ، ومذاهب المجد ، غريب ما كيّفه القدر من بديع^(٣) الحال لديكم ، وعجيب تأتي أملككم الشارد فيه كما كنّا نستبعده عند المفاوضة ، فحمدت الله لكم على الخلاص من ورطة الدول على أحسن الوجوه ، وأجمل المخارج الحميدة العواقب في الدنيا والدين ، العائدة بحسن المآل في المخلف ، من أهل وولد ومتاع وأثر بعد أن رضتم جموح الأيام وتوقّلتُم قُلل الغز^(٤) وقد تمّ الدنيا بحذافيرها وأخذتم بآفاق السماء على أهلها . وهنيئاً فقد نالت نفسكم التّوّاقة أبعد أمانها ، ثم

(١) وفي نسخة ثانية : انهم والأصح استبهم .

(٢) وفي نسخة ثانية : غير جليلة .

(٣) وفي نسخة ثانية : من تنويع .

(٤) أي صعدتم قم الغز .

ناقت إلى ما عند الله ، وأشهد لما ألهمتم للإعراض عن الدنيا ، ونزع اليد من حطامها عند الأصحاب والأقوال ، ونهى الآمال إلا جذباً وعناية من الله وحباً ، وإذا أراد الله أمراً يسّر أسبابه .

واتصل بي ما كان من تحفي السيادة المولوية بكم واهتزاز الدولة لقدمكم ، ومثل هذه الخلافة ، أيدها الله من يثابر على المفاخر ، ويستأثر بالأخيار ، وليت ذلك عند إقبالكم على الحظ ، وأنسكم باجتلاء الآمال ، حتى يحسن المتاع ، ويتجمل السرير الملوكي بمكانكم ، فالظن أن هذا الباعث الذي هزم الآمال ونبذ الحظوظ ، وهون المفارق العزيز سؤمكم الله حتى يأخذ بيدكم إلى قضاء المجاهدة ، ويستوي بكم على جدد^(١) الرياضة ، «والله يهدي للتي هي أقوم» . كأنني بالأقدام نُقلت والبصائر بإلهام الحق صُقلت والمقامات خلقت ، بعد أن استقبلت ، والعرفان شيمة^(٢) أنواره وبوارقه ، والوصول انكشفت حقائقه لما ارتفعت عوائقه . وأما حالي والظن بكم الاهتمام بها ، والبحث عنها فغير خفية بالباب المولوي أعلاه الله ، ومظهرها في طاعته ، ومصدرها عن أمره ، وتصاريدها في خدمته ، والزعم أنني قت المقام المحمود في التشيع والإنجياش ، واستالة الكافة إلى المناصحة ، ومخالصة القلوب للولاية ، وما يتشوقه مجدكم ، ويتطلع إليه فضلكم ، وأما اهتمامكم في خاصتها من النفس والولد ، فجبهة خيره مؤدي كتابي إليكم ، ناشيء تأديبي وثمره ترتيبي ، فسهلوا له الإذن ، وألينوا له جانب النجوى حتى يؤدي ما عندكم وما عندي ، وخذوه بأعقاب الأحاديث إن يقف عند مبادئها ، واثنمونه على ما تحدثون ، فليس بضنين^(٣) على السر .

وتشوقي بما يرجع به إليكم سيدي وصديقي وصديقكم المقرب في الحمد والفضل ، المساهم في الشدائد ، كبير المغرب ، وظهير الدولة ، أبو يحيى بن أبي مدين ، كان

(١) وفي نسخة ثانية : على جودي : والجودي : جبل مطل على جزيرة ابن عمر ، ولعل ابن خلدون توصل قوله تعالى «واستوت على الجودي» أي رسو سفينة نوح عليه السلام على جبل الجودي عند الطوفان (معجم البلدان) .

(٢) شيمة : ج شيم : الخلق والطبيعة ، العادة . وفي نسخة ثانية : شيمت ، من شام ، شيماً السيف : استله . وشيا وشيوما الرجل : حقق الحملة في الحرب .

(٣) وفي نسخة ثانية : بظنين : ورجل ظنين : متهم . وهو ينظر الى قوله تعالى : «وما هو على الغيب بضنين» الآية ٢٤ من سورة التكوين .

الله له في شأن الولد والمخلف تشوق الصديق لكم ، الضنين على الأيام بقلامة الظفر من ذات يديكم ، فأطلعوه^(١) طلع ذلك ، ولا يهْمُكُمْ بالفراق الواقع حسن ، فالسلطان كبير ، والأثر جميل ، والعدو الساعي قليل حقير ، والنّية صالحة ، والعمل خالص ، ومن كان لله كان الله له .

واستطلاع الرياسة المرتبة^(٢) الكافلة كافاً الله يده البيضاء عني وعنكم إلى مثله من أحوالكم استطلاع من يسترجح وزانكم ، ويشكر الزمان على ولائه بمثلكم^(٣) . وقد قرّرت من علو^(٤) مناقبكم ، وبُعْد شأوكُم وغريب منحاكم ، ما شهدت به آثاركم الشائعة الخالدة في الرياسة ، المتأدية على السّنة المتبادر والوارد من الكافة ، من حمل الدولة ، واستقامة السياسة ، ووقفته على سلامكم ، وهو يراجعكم بالتحية ، ويساهمكم بالدعاء .

وسلامي على سيّدي ، وفلذة كبدي ومحلّ ولدي ، الفقيه الزكي الصدر أبي الحسن نجلكم ، أعزه الله وقد وقع مني موقع البشرى حلوله من الدّولة بالمكان العزيز والرتبة النّابهة ، والله يلحفكم جميعاً رداء العافية ، والستر ويمهّد لكم محل الغبطة والأمن ، ويحفظ عليكم ما أسبغ من نعمته ، ويجريكم على عوائد لطفه وعنايته ، والسلام الكريم يخصّصكم من المحبّ الشاكر الداعي الشائق شيعة فضلكم ، عبد الرحمن بن خلدون ورحمة الله وبركاته . في يوم الفطر عام اثنين وسبعين وسبعائة .

وكان بعث إليّ مع كتابه نسخة كتابه إلى سلطانه ابن الأحمر صاحب الأندلس عندما دخل جبل الفتح ، وصار إلى إيالة بني مرين ، فخاطبه من هنالك بهذا الكتاب ، فرأيت أن أثبته هنا ، وإن لم يكن من غرض التأليف لغرابته ، ونهايته في الجوده ، وأن مثله لا يهمل من مثل هذا الكتاب ، مع ما فيه من زيادة الاطلاع على أخبار الدول في تفاصيل أحوالها ونصّ الكتاب .

بانوا فن كان باكياً يكي هَذي ركبُ السرى بلا شكٍ
فمن ظهور الرّكاب مُعمّلة إلى بطون الرّبى إلى الفُلكِ

(١) وفي نسخة ثانية : فأطلعوني .

(٢) وفي نسخة ثانية : الرياسة المزنية .

(٣) وفي نسخة ثانية : على ولادة لمثلكم .

(٤) وفي نسخة ثانية : وقد قرّرت لعلومه من مناقبكم .

تصدّع الشَّمْلُ مثل ما انحدَرَتْ إلى صُبوب جواهر السِّلْكِ
من التَّوى قبلُ لم أزلُ حذرًا هذا التَّوى جلَّ مالك المُلْكِ

مولاي كان الله لكم ، وتولَّى أمركم . أسلِّم عليكم سلام الوداع ، وأدعو الله في تيسير
اللقاء والاجتماع ، من بعد التفرُّق والانصداع ، وأقرِّر لديكم أنَّ الإنسان أسير
الأقدار ، مسلوب الاختيار ، متقلِّب في حكم الخواطر والأفكار ، وأن لا بدَّ لكل
أول من آخر ، وأن التفرُّق لما لزم كلَّ إثنين بموتٍ أو حياة ، ولم يكن منه بدَّ ، كان
خير أنواعه الواقعة بين الأحباب ، ما وقع على الوجوه الجميلة البريئة من الشرور .

ويعلم مولاي حال عبده منذ وصل إليكم من المغرب بولدكم ، ومقامه لديكم بحال
قلق ، ولولا تعليلكم ووعدكم وارتقاب اللطائف في تقليب قلبكم ، وقطع نواحل
الأيام حربصاً على استكمال سنِّكم . ونهوض ولدكم واضطلاعكم بأمركم ، وتمكن
هدنة وطنكم ، وما تحمَّل في ذلك من ترك غرضه لغرضكم ، وما استقرَّ بيده من
عهودكم ، وأنَّ العبد الآن تسبَّب لكم في الهدنة من بعد الظهور والعزِّ ، ونجح السعي
وتأتى لسنين ، كثيرة الصلح ، ومن بعد أن لم يبق لكم بالأندلس مُشغَبٌ من
القراية ، وتحرك لمطالعة الثغور الغربيَّة ، وقربٌ من فرضة الجحاز واتصال الأرض ببلاد
المشرق ، لطرقته الأفكار وزعزعت صبره رياح الخواطر ، وتذكَّر أشراف العمر على
التمام ، وعواقب الاستغراق ، وسيرة الفضلاء عند شمول البياض ، فغلبته حالٌ
شديدة هَزَمَتْ التعشُّق بالشمل الجميع ، والوطن المليح ، والجاه الكبير ، والسلطان
القليل النظير ، وعمل بمقتضى قوله « موتوا قبل أن تموتوا ^(١) » فإن صحَّت الحال
المرجوة من إمداد الله ، تنقَّلت الأقدام إلى أمام ، وقوى التعلُّق بعروة الله الوثقي ،
وإن وقع العجز ، أو افتضح العزم ، فالله يعاملنا بلطفه ، وهذا المرتكب مُرامٌ
صعبٌ ، لكن سهله عليَّ أمور : منها أنَّ الإنصراف لما لم يكن منه بدُّ ، لم يتعيَّن عليَّ
غير هذه الصورة ، إذ كان عندكم من باب المُحال ، ومنها أنَّ مولاي لو سمح لي
بغرض الإنصراف لم تكن لي قدرة على موقف وداعه ، لا والله ! ولكان الموت أسبق
إليَّ ، وكفى بهذه الوسيلة الحسنة التي يعرفها وسيلة . ومنها حرصي على أن يظهر صدق
دعواي فيما كنت أهتمُّ به ، وأظنُّ أنَّي لا أَصدِّقُ ، ومنها اغتنام المغارقة في زمن

(١) يعني : موتوا اختياراً قبل أن تموتوا اضطراراً ، وذلك بترك الشهوات .

الأمان والهدنة الطويلة والاستغناء إذا كان الإنصراف المفروض ضرورياً قبيحاً في غير هذه الحال . ومنها وهو أقوى الأعذار أني مهما لم أطق تمام هذا الأمر أو ضاق ذرعي به ، لمعجز أو مرض أو خوف طريقي ، أو نفاد زاد أو شوق غالب ، رجعت رجوع الأب الشفيق إلى الولد البرّ الرضي ، إذ لم أخلف ورأي مانعاً من الرجوع من قول قبيح ولا فعل ، بل خلّفت الوسائل المريعة ، والآثار الخالدة ، والسير الجميلة ، وانصرفت بقصد شريف فقت به أشياخي وكبار وطني وأهل طوّري ، وتركتم على أتمّ ما أَرْضَاه ، مُثْنِياً عليكم داعياً لكم ، وإن فسح الله في الأمد ، وقضي الحاجة ، فأملى العودة إلى ولدي وتربتي ، وإن قطع الأجل فأرجو أن أكون ممّن وقع أجره على الله .

فإن كان تصرّفِي صواباً وجارياً على السّداد ، فلا يلام من أصاب ، وإن كان عن حقد ، وفساد عقل ، فلا يلام من اختلّ عقله ، وفسد مزاجه ، بل يُعذّر ويشفق عليه ، ويرحم ، وإن لم يعط مولاي أمري حقه من العدل ، وجُلبت الذنوب ، ونشرت^(١) بعدي العيوب ، فحياؤه وتناصفه يُنكرُ ذلك ، ويستحضر الحساب^(٢) من التربية والتعليم وخدمة السّلف ، وتخليد الآثار وتسمية الولد وتلقيب السلطان ، والإرشاد إلى الأعمال الصالحة ، والمداخلة والملابسة ، لم يتخلّل ذلك قط خيانة في مال ولا سرّ ، ولا غش في تدبير ولا تعلق به محار^(٣) ، ولا كدره نقص ، ولا حمل عليه خوف منكم ، ولا طمع فيما بيدكم ، وإن لم تكن هذه دواعي الرّعي والوصلة والإبقاء ، فقيم تكون بين بني آدم ؟

وأنا قد رحلت فلا أوصيتكم بمال ، فهو عندي أهون متروك ، ولا بولد فهم رجالكم ، وخذامكم ، ومن يحرص مثلكم على الاستكثار منهم ، ولا بعيال ، فهي من مزيّات بيتكم ، وخواصّ داركم ، إنّما أوصيكم بحظّي العزيز ، كان علي بوطلكم ، وهو أنتم ، فأنا أوصيكم بكم ، فارعوني فيكم خاصّة . أوصيكم بتقوى الله والعمل لغدٍ ، وقبض عَنان اللّهُ في موطن الجَدّ ، والحياء من الله الذي محصّ وأقال ، وأعاد النعمة بعد زوالها لينظر كيف تعملون ، وأطلب منكم عوض ما وفرته

(١) وفي نسخة ثانية : حشرت .

(٢) وفي نسخة ثانية : الحسنات .

(٣) وفي نسخة ثانية : ولا تعلق به عار .

عليكم من زاد طريق ومكافأة وإعانة ، زاداً سهلاً عليكم ، وهو أن تقولوا لي : غفر الله لك ما ضيَّعت من حقِّي خطأ أو عمداً ، وإذا فعلتم ذلك فقد رضيت .
واعلموا أيضاً على جهة النصيحة أن ابن الخطيب مشهور في كل قطر ، وعند كل ملك ، واعتقاده وبرّه والسؤال عنه وذكره بالجميل ، والاذن في زيارته حنانة منكم^(١) وسعه ذرع ، ودها ، فإنما كان ابن الخطيب بوطنكم سحابة رحمة نزلت ، ثم أقشعت وترك الأزاهر تفوح والمحاسن تلوح ، ومثاله معكم مثل المرضعة ، أرضعت السياسة ، والتدبير الميمون ، ثم رقدتكم في مهد الصلح والأمان ، وغطتكم بقناع العافية ، وانصرفت إلى الحمام تغسل اللبن والوضر ، وتعود فإن وجدت الرضيع نائماً فحسن ، أو قد انتبه فلم تتركه إلا في حد الانقطاع . ونختم هذه العزارة بالحلف الأكيد أنني ما تركت لكم وجه نصيحة في دين ولا في دنيا إلا وقد وفيت لكم ، ولا فارقتكم إلا عن عجز ، ومن ظنّ خلاف هذا فقد ظلمني وظلمكم ، والله يرشدكم ويتولّى أمركم . ويعول^(٢) خاطركم في ركوب البحر .

انتهت نسخة الكتاب وفي طيها هذه الأبيات :

صَابَ مَزْنُ الدَّمُوعِ مِنْ جَفْنِ صَبِّكَ	عندما استروَحَ الصِّيا مِنْ مَهَبِّكَ
كَيْفَ يَسْلُويا جَنَّتِي عَنْكَ وَقَدْ ^(٣)	كَانَ قَبْلَ الْوُجُودِ جُنَّ بِحُبِّكَ
ثُمَّ قُلْ كَيْفَ كَانَ قَبْلَ انْتِشاءِ الرِّ	وَح مِنْ أَنْسِكَ الشَّهْيِ وَقُرْبِكَ
لَمْ يَدْعَ بَيْتَكَ الْمَنِيْعَ حَمَاهُ	لِسِوَاهُ إِلَّا بَيْتَ رَبِّكَ
أَوَّلَ عُدْرِي الرِّضَى فَمَا جِثْتُ بُدْعاً	دُمْتُ وَالْفَضْلُ وَالرِّضَى مِنْ دَابِّكَ
وَإِذَا مَا أَدْعَيْتَ كَرْباً لِفَقْدِي	أَيْنَ كَرْبِي وَوَحْشِي مِنْ كَرْبِكَ
وَلِسْدي فِي ذُرَاكَ وَكِرِي فِي دُو	حِكَ لِحْدِي وَتُرْبِي فِي تُرْبِكَ
يَا زَمَانَا أَغْرَى الْفِرَاقَ بِشْمْلِي	لَيْتَنِي أَهْبَتِي أَخْذَتَ لِحْرَبِكَ
أُرْكِبْتَنِي صُرُوفُكَ الصَّعْبَ حَتَّى	جِثْتُ بِالْبَيْنِ وَهُوَ أَصْعَبُ صَعْبِكَ

وكتب آخر النسخة يخاطبني .

(١) وفي نسخة ثانية : نجاية منكم .

(٢) وفي نسخة ثانية : ونقول .

(٣) وفي نسخة ثانية : كيف يسْلُويا جَنَّتِي عَنْكَ ، وقد .

هذا ما تيسّر ، والله وليّ الخيرة لي ولكم من هذا الخطاب ^(١) الذي لا نسبة بينه وبين أولى الكمال ، ردّنا الله إليه ، وأخلص توكلنا عليه ، وصرف الرغبة على ما لديه . وفي طيّ النسخة مدرجة نصّها .

رضي الله عن سيادتكم ، أونسُكم بما صدر مني أثناء هذا الواقع ، مما استحضره الولد في الوقت ، وهو يسلم عليكم بما يجب لكم ، وقد حصل من حظوة هذا المقام الكريم على حظّ وافر ، وأجزل إحسانه ونوّه بجزائره ، وأثبت الفرسان خلفه ، والحمد لله .

ثم أتصل بمقامي بيسكرة والمغرب الأوسط ، مضطرباً بالفتنة المانعة من الاتصال بالسلطان عبد العزيز وحمزة بن راشد ببلاد مغراوة والوزير عمر بن مسعود في العساكر يحاصره بحصن تاجحُمومت وأبوزيان العبد الوادي ببلاد حصّين وهم مشتملون عليه وقائمون بدعوته .

ثم سخط السلطان وزيره عمر بن مسعود ونكر منه تقصيره في أمر حمزة وأصحابه ، فاستدعاه إلى تلمسان وقبض عليه ، وبعث به إلى فاس معتقلاً ، فحبس هنالك ، وجهّز العساكر مع الوزير ابن غازي ، فنهض إليه ، وحاصره فقرّ من الحصن ولحق بمليانة مجتازاً عليها ، فأندربه عاملها فتقبّض عليه ، وسبق إلى الوزير في جماعة من أصحابه ، فضربت أعناقهم ، وصلبهم عظةً ومزدجر الأهل الفتنة .

ثم أوعز السلطان بالمسير إلى حصّين وأبي زيان ، فسار في العساكر واستنفر أحياء العرب من زُغبة فأوعبهم ونهض إلى حصّين فامتنعوا بجبل تيطري ، ونزل الوزير بعساكره ومن معه من أحياء زُغبة على جبل تيطري من جهة التل ، فأخذ بمخنقهم ، وكاتب السلطان أشياخ الزواودة من رياح بالمسير إلى حصار تيطري من جهة القبلة . وكاتب أحمد بن مَزني صاحب بسكرة بإمدادهم بأعطياتهم ، وكتب إليّ بأمرني بالمسير بهم لذلك ، فاجتمعوا عليّ ، وسرت بهم أول سنة أربع وسبعين وسبعمئة حتى نزلنا بالقطفة ^(٢) ، في جماعة منهم على الوزير بمكانه من حصار تيطري ، فحدّ لهم حدود الخدمة ، وشارطهم على الجزاء . ورجعت إلى أحيائهم بالقطفة ، فاشتدوا في

(١) الخطاب : داء كالجئون .

(٢) القطفة : تقع شرقي مدينة مليانة .

حصار الجبل وألجؤهم بسواتهم وظهرهم إلى قُنته ، فهلك لهم الخفّ والحافر^(١) ، وضاق ذرعهم بالحصار من كل جانب ، وراسل بعضهم في الطاعة خفيةً فارتاب بعضهم من بعض وانفضّوا ليلاً من الجبل ، وأبوزيان معهم ذاهبين إلى الصحراء ، واستولى الوزير على الجبل بما فيه من مخلفهم ، ولما بلغوا مأمنهم من الفقر نبذوا إلى أبي زيان عهده ، فلاحق بجبال غمرة ، ووفد أعيانهم على السلطان عبد العزيز بتلمسان ، وفاؤا إلى طاعته فتقبل طاعتهم ، وأعادهم إلى أوطانهم ، وتقدّم الوزير عن أمر السلطان بالمسير مع أولاد يحيى بن علي بن سبّاع للقبض على أبي زيان في جبل غمرة ، وفاء بحق الطاعة لأنّ غمرة من رعاياهم ، ففضينا لذلك ، فلم نجده عندهم ، وأخبرونا أنه ارتحل عنهم إلى بلد واركلا من مدن الصحراء ، فترل على صاحبها أبي بكر بن سليمان ، فانصرفنا من هنالك ، ومضى أولاد يحيى بن علي إلى أحيائهم ، ورجعت أنا إلى أهلي ببسكرة ، وخاطبت السلطان بما وقع في ذلك ، وأقت منتظراً أوامره حتى جاءني استدعاؤه إلى حضرته فرحلت إليه .

* (فضل الوزير ابن الخطيب^(٢)) *

وكان الوزير ابن الخطيب آيةً من آيات الله في النظم والنثر ، والمعارف والأدب ؛ لا يُساجَل مداه^(٣) ، ولا يُهتدى فيها بمثل هُده .
فيمّا كتب عن سلطانه إلى سلطان تونس جواباً عن كتاب وصل إليه مضحوباً بهديّة من الخيل والرقيق ، فراجعهم عنه بما نصّه إلى آخره :
الخلافة التي ارتفع في عقائد فضّلها الأصيل القواعد الخلاف ، واستقلّت مباني فخرها الشائع ، وعزّها الذائع ، على ما أسّسه الأسلاف ووجب لحقّها الجازم ، وفرضها اللازم الاعتراف ، ووسّعت الآملين لها الجوانب الرحية والأكتاف ؛ فامتراجنا بعلامها^(٤) المنيّف ، وولائها الشريف ، كما امترج الماء والسلاف ، وثناؤنا

(١) يعني : الجمال والخيول .

(٢) هذا الفصل غير موجود في نسختنا وقد أضفناه من نسخة بولاق المصرية ، طبعة دار الكتاب اللبناني حتى لا يفوت شيء عن القارئ من هذا الكتاب النفيس .

(٣) المدّ : مصدر المدي ، يقال بيني وبينه قدر مدّ البصر « أي مداه » .

(٤) العلاء والعلی : الرفعة والشرف .

على مجدها الكريم ، وفضلها العميم ، كما تآرجت الرياض الافواف^(١) ، لما زارها الغمام الوكاف^(٢) ؛ ودعاؤنا بطول بقائها ، واتصال علائها ، يسمو به إلى قرع أبواب السموات العلا الاستشراق^(٣) ، وحرصنا على توفية حقوقها العظيمة ، وفواضلها^(٤) العميمة ، لا تحصره الحدود ، ولا تدركه الأوصاف ، وإن عذر في التقصير عن نيل ذلك المرام الكبير الحق والإنصاف . خلافة وجهه تعظيمنا إذ توجهت الوجوه ومن نورته إذا أهمنا ما نرجوه ، ونفديته ونبديته^(٥) إذا استمنح المحقوب واستدفع المكروه السلطان الكذا^(٦) بن أبي إسحق بن السلطان الكذا ، أبي يحيى بن أبي بكر بن السلطان الكذا ، أبي زكرياء بن السلطان الكذا ، أبي اسحق ابن الأمير الكذا ، أبي زكرياء ابن الشيخ الكذا ، أبي محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص ، أبقاه الله ومقامه مقام إبراهيم رزقاً وأماناً . لا يخص جلب الثمرات إليه وقتاً ولا يعين زماناً ؛ وكان على من يتخطف الناس من حوله^(٧) مؤيداً بالله معنا . معظم قدره العالي على الاقدار ، ومقابل داعي حقه بالابتدار ، المثني على معاليه المخدلة الآثار ، في اصونة^(٨) النظام والنثار^(٩) ، ثناء الروضة المعطار ، على الامطار ، الداعي الى الله بطول بقائه في عصمة منسدلة الاستار ، وعزة ثابتة المركز مستقيمة المدار ، وإن يختم له بعد بلوغ غايات الحال ، ونهاية الاعمال ، بالزلزلي وعقبي الدار .

عبدالله الغني بالله امير المسلمين ، محمد بن مولانا امير المسلمين ، أبي الوليد اسماعيل ابن فرج بن نصر .

(١) كذا بالاصول ؛ ولعل أصل الكلام : «الرياض بالافواف» ؛ والفوف ، بالضم : الزهر والجمع أفواف .

(٢) وكف الماء : سال .

(٣) الاستشراق : التطلع الى الشيء .

(٤) الفواضل : الايادي الجميلة .

(٥) فداءه : قال له فداك ؛ ونبديه : نبرزه . ولعل المعنى : نضحه في مكان ممتاز .

(٦) ادخل ابن الخطيب «ل» على «كذا» الموضوع للكناية عما لم يرد المتكلم ذكره وقد شاع في رسائله هذا الاستعمال .

(٧) اشارته الى الايات ٣٥ — ٣٧ من سورة ابراهيم واضحة .

(٨) جمع صوان ، وهو ما صنعت به الشيء .

(٩) النثار : النثر .

سلام كريم كما حملت احاديث الازهار نسمات الاسحار ، وروت ثغور الاقاحي
والبهار ، عن مُسلسلات الانهار ، وتجلى على منصة الاشتهار ، وجه عروس النهار ؛
يَخُصُّ خلافتكم الكريمة النجار ، العزيزة الجار ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي أخفى حكمته البالغة عن اذهان البشر ، ففجرت عن
قياسها ، وجعل الارواح «اجناداً مجتدة» — كما ورد في الخبر^(١) — تحن الى
أجناسها ، مُنجدة هذه الملة من أوليائه الجلة بمن يروض الآمال بعد شماسها^(٢) ،
ويُسِرُّ الأغراض قبل التماسها ، ويُعنى بتجديد المودات في ذاته وابتغاء مرضاته على
حين أخلاف لباسها ؛ الملك الحق ، وأصل الأسباب بحوله بعد انتهاك امراسها^(٣)
ومغني النفوس بطوله ، بعد إفلاسها — حمداً يُدرُّ أخلاف^(٤) النعم بعد
إبساسها^(٥) ، وينشر رمم الأموال من أرماسها^(٦) ، ويقدس النفوس بصفات
ملائكة السموات بعد إبلاسها^(٧) .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسولهِ سراج الهداية ونبراسها^(٨) عند اقتناء
الأنوار واقتباسها ، مُطهر الأرض من أوضارها^(٩) وأدناسها ، ومُصطفى الله من بين
ناسها ، وسيد الرسل الكرام ما بين شيشها وإلياسها ، الآتي مُهيمناً على آثارها ، في
حين فترتها^(١٠) ومن بعد نصرتها واستيثاسها^(١١) ، مُرغم الضراغم في أخياسها^(١٢) ،
بعد افترارها وافتراسها^(١٣) ، ومُعفر أجرام الأصنام ومُصميت أجراسها .

(١) يشير الى الحديث : «الارواح جنود مجتدة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف» .

(٢) شملت الدابة شماسا . شردت وجمحت .

(٣) جمع مرض ؛ وهو الحبل . وانتكث الحبل . انتقض بعد ان كان مبرما .

(٤) الاختلاف ، جمع خيلف (بالكسر) ؛ وهو الضرع .

(٥) ابس بالناقة . دعا ولدها لتدر على حالها .

(٦) جمع رمس ؛ وهو القبر .

(٧) الإبلاس : القنوط ، وقطع الرجاء .

(٨) النبراس (بالكسر) : المصباح .

(٩) اوضارها : ج وضر : وسخ .

(١٠) الفترة : ما بين كل نبين ، أو رسولين من زمان انقطعت فيه الرسالة .

(١١) استيأس : يش ؛ وابن الخطيب ينظر الى الآية : «حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا
جاءهم نصرنا ... الخ» .

(١٢) جمع خيس ؛ وهو موضع الأسد .

(١٣) افتر الأسد : أبدى أسنانه ؛ يريد بعد أن كانت تفت عن أسنانها وتفترس .

والرُّضا عن آلِه وأصحابه وعِثْرته وأحزابه ، حَمَاة شِرْعَتِهِ الْبَيْضَاءُ وَحِرَاسِهَا ، وَمُلقِي غِرَاسِهَا ، لِيُوثَّ الْوَعْيُ عِنْدَ احْتِدَامِ ^(١) مِرَاسِهَا ^(٢) ، وَرُهْبَانُ الدُّجَى تَتَكَفَّلُ مُنَاجَاةَ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ ، فِي وَحْشَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ بِإِيْنِاسِهَا ، وَتُفَاوِحُ نَسِيمَ الْأَسْحَارِ ، عِنْدَ الْاسْتِغْفَارِ ، بِطِيبِ أَنْفَاسِهَا .

وَالدُّعَاءُ لِحِلَاظِكُمُ الْعَلِيَّةِ الْمُسْتَنْصِرَةِ بِالصَّنَائِعِ الَّتِي تُشْعِشِعُ أَيْدِي الْعِزَّةِ الْقَعَسَاءِ ^(٣) مِنْ أَكْوَاسِهَا ، وَلَا زَالَتِ الْعَصْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ كَفِيلَةً بِاحْتِرَامِهَا وَاحْتِرَاسِهَا ، وَأَنْبَاءُ الْفَتْوحِ ، الْمُؤَيَّدَةِ بِالْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ ، رِيحَانُ جُلَاسِهَا وَآيَاتُ الْمَفَاخِرِ الَّتِي تَرَكَ الْأَوَّلُ لِلْآخِرِ ، مُكْتَتَبَةُ الْأَسْطَارِ بِأَطْرَاسِهَا ، وَمِيَادِينُ الْوُجُودِ مَجَالًا لِجَيَادُ جُودِهَا وَبُأْسِهَا ، وَالْعِزُّ وَالْعَدْلُ مَنْسُوبَيْنِ لِفُسْطَاطِهَا ^(٤) وَقُسْطَاسِهَا ، وَصَفِيحَةُ ^(٥) النَّصْرِ الْعَزِيزِ تَقْبِضُ كَفُّهَا ، الْمُؤَيَّدَةِ بِاللَّهِ ، عَلَى رِيَاسِهَا ^(٦) ، عِنْدَ اهْتِيَاجِ أَضْدَادِهَا ، وَشَرِّهِ ^(٧) أَنْكَاسِهَا ^(٨) ، لِانْتِهَابِ الْبِلَادِ وَانْتِهَاسِهَا ^(٩) وَهَبُوبِ رِيَاكِ رِيَاكِهَا وَتَمَرُّدِ مِرْدَاسِهَا ^(١٠) .

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ — كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ كِتَابِ نَصْرِهِ أَمْدَادًا تُدْعَنُ أَعْنَاقُ الْأَنَامِ ، لِبَطَاعَةِ مَلِكِكُمْ الْمَنْصُورِ الْأَعْلَامِ ، عِنْدَ إِحْسَاسِهَا ^(١١) ، وَآتَاكُمْ مِنْ آيَاتِ الْعَنَائَاتِ ، آيَةً تُضْرِبُ الصَّخْرَةَ الصَّمَاءَ ، مِمَّنْ عَصَاهَا بِعَصَاهَا ، فَتُبَادِرُ بِإِنْبِجَاسِهَا ^(١٢) ، — مِنْ

(١) الاحتدام : شدة الحر ، واحتدمت النار : التهمت .

(٢) المراس : المارس .

(٣) عزة قعساء : ثابتة .

(٤) الفسطاط : المدينة ، ومجتمع أهل المصر حول جامعهم .

(٥) الصفيحة : السيف العريض .

(٦) رئاس السيف ، ورياسه : مقبضه ، وقاعه .

(٧) الشرة : شدة الحرص ، وأسوؤه .

(٨) الأنكاس : جمع نكس ؛ وهو الرجل الضعيف .

(٩) انتهس اللحم : أخذه بمقدم أسنانه . والمراد الاستيلاء على الأراضي وانتقاصها من الأطراف ، فعل من يتنقص قطعة اللحم بالأكل .

(١٠) رياح من أكثر القبائل الهلالية جمعاً ، وأوفرهم عدداً . وأبوهم : رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر . والرياسة على رياح في عهد ابن خلدون لأبناء داود بن مرداس بن رياح ؛ وإلى داود هذا تنتسب « الدواودة » .

(١١) الإحساس : الرؤية والعلم .

(١٢) انبجس الماء : تفجر ؛ وفي الكلام معنى الآية :

« ... وَأَوْحِنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا الْخ »

آية ١٦٠ من سورة الأعراف .

حراء غرناطة ، حرسها الله ، وأيام الإسلام ، بعناية الملك العلام تحتفل وفود
الملائكة الكرام ، لولائها وأعراسها ، وطاعين الطعان ، في غدو الدين المعان ،
تجدد عهدا بعام عمواسها^(١) .

والحمد لله حمداً مُعاداً يُقيّدُ شوارد النعم ، ويستدرّ مواهب الجود والكرم ويؤمنُ
من انتكاث الجدود^(٢) وانتكاسها^(٣) ، ولي الآمال ومكاسها^(٤) ؛ وخلافتكم هي
المثابة التي يُزهي الوجود بمحاسن مجدها ، زهو الرياض بوزدها وآسها ، وتستمد
أضواء الفضائل من مقباسها^(٥) ، وتروى رُواة الإفادة ، والإجادة غريب
الوجادة^(٦) ، عن ضحاكها وعباسها^(٧) . وإلى هذا أعلى الله معارج قدركم ، وقد
فعل ، وأنطق بحجج فخركم من احتفى وانتعل ، فإنه وصلنا كتابكم الذي
حسبناه ، على صنائع الله لنا ، تميمة^(٨) لا تلقع^(٩) بعدها عين ، وجعلناه — على
حلل مواهبه — قلادة لا يُحتاج معها زين ، ودعوانه من جيب الكنانة^(١٠) آية
بيضاء الكتابة ، لم يبق معها شك ولا مَين ، وقرأنا منه وثيقة ود هُضم فيها عن
غريم الزمان دَين ، ورأينا منه إنشاء ، خدَم اليراع بين يديه وشاء ، واحترَم
بهَميان^(١١) عُقدته مشاء ، وسُئِلَ عن معانيه الاختراع فقال : « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ

(١) عمواس ، بفتح العين والميم ، وبسكون الميم مع فتح العين أوكسرها : قرية بفلسطين بين الرملة وبيت المقدس . وفيها وقع الطاعون الذي كان في سنة ١٨ هـ ، مات فيه كثير من الناس ، ويقال انه أول طاعون كان في الإسلام . تاريخ الطبري ٢٠١/٤ — ٢٠٣ ، معجم البلدان ، تاج العروس (عمس) .

(٢) انتكث : انصرف . والجد : الحظ والبخت ، والجمع : الجدد .

(٣) انتكس : انقلب على رأسه ، وخاب وخسر .

(٤) المكاس : المشاحة ، والمشاكسة .

(٥) أقبس فلان : أعطى ناراً ، والمقباس : ما قبست به النار .

(٦) الوجادة (بالكسر) : أن تجد بخط غيرك شيئاً ، فتقول عند الرواية : وجدت بخط فلان كذا ؛ وحينذاك يقال : « هذه رواية بالوجادة » .

وللمحدثين في كيفية التحديث عن طريق الوجادة ، ودرجة الثقة بها ، وشروطها ؛ تفصيل تجده في « فتح المغيب » للعراقي ١٥/٣ وما بعدها .

(٧) المسمون بـ « الضحاك » ، و « عباس » من المحدثين كثير ، وليس يريد ابن الخطيب أحداً منهم بعينه ، وإنما يقصد الى « الطباقي » بين ضحاك ، وعباس .

(٨) التميمة : عوذة تعلق على الانسان يتعود بها .

(٩) لقععه بعينه : أصابه بها ، ويقول أبو عبيدة : ان اللقع لم يسمع الا في الإصابة بالعين .

(١٠) الكنانة : جعبة الشهام تتخذ من جلود لا خشب فيها .

(١١) الهميان (بالكسر) : المنطقة ، والكلام على تشبيه القلم المتخذ من القصب ، وفي وسطه عقدة ، بالرجل قد اتخذ منطقة في وسطه .

إِنْشَاءً ؛ فَأَهْلًا بِهِ مِنْ عَرَبِيٍّ أَبِي يَصِفُ السَّانِحَ وَالْبَانَةَ ^(١) ، وَيُبَيِّنُ فَيُحْسِنُ
 الْإِبَانَةَ ، أَدَّى الْأَمَانَةَ ، وَسُئِلَ عَنْ حَبِّهِ فَاتَّصَى إِلَى كِنَانَةٍ ^(٢) ، وَأَفْصَحَ وَهُوَ لَا
 يَنْبِسُ ^(٣) ، وَتَهَلَّلَتْ قَسَمَاتُهُ وَلَيْلُ حَبْرِهِ يَغِيْسُ ؛ وَكَأَنَّ خَاتَمَهُ الْمُقْفَلَ عَلَى
 صَوَانِهِ ^(٤) ، الْمُتَحِفَ بِبَاكِرِ الْوَرْدِ فِي غَيْرِ أَوَانِهِ ، رَعَفَ مِنْ مِسْكٍ عُنْوَانِهِ ؛ وَلِلَّهِ مِنْ
 قَلَمٍ دَبَّجَ تِلْكَ الْحُلْلَ ، وَنَقَعَ بِمُجَاجٍ ^(٥) الدَّوَاةَ الْمُسْتَمِدَّةَ مِنْ عَيْنِ الْحَيَاةِ
 الْغُلْلَ ^(٦) ؛ فَلَقَدْ تَخَارَقَ فِي الْجُودِ ، مُقْتَدِيًا بِالْخِلَافَةِ الَّتِي خَلَدَ فَخْرُهَا فِي الْوُجُودِ ،
 فَجَادَ بِسِرِّ الْبَيَانِ وَلُبَّابِهِ ، وَسَمَحَ فِي سَبِيلِ الْكَرَمِ حَتَّى بَمَاءِ شَبَابِهِ ، وَجَمَعَ لِفَرْطِ
 بَشَاشَتِهِ وَفَهَامَتِهِ ، بَعْدَ شَهَادَةِ السَّيْفِ بِشَهَامَتِهِ ، فَمَشَى مِنَ التَّرْحِيبِ ، فِي الطَّرْسِ
 الرَّحِيبِ ، عَلَى أُمِّ هَامَتِهِ .

وَأَكْرَمَ بِهِ مِنْ حَكِيمٍ ، أَفْصَحَ بِمَلْفُوزٍ ^(٧) الْإِكْسِيرِ ^(٨) ، فِي اللَّفْظِ الْيَسِيرِ ، وَشَرَحَ
 بِلِسَانِ الْخَبِيرِ ، سِرَّ صِنَاعَةِ التَّنْدِيرِ ^(٩) ، كَأَنَّمَا خَدَمَ الْمَلِكَةَ السَّاحِرَةَ ^(١٠) بِتِلْكَ الْبِلَادِ ،
 قَبْلَ اسْتِحْجَارِ الْجِلَادِ ^(١١) ، فَآثَرَتْهُ بِالطَّارِفِ مِنْ سِحْرِهَا وَالتَّلَادِ ، أَوْ عَثَرَ بِالمُعَلَّقَةِ ،
 وَتَبَكَ الْقَدِيمَةَ الْمُطْلَقَةَ ، بِدَفِيَةِ دَارِ ، أَوْ كُنْزٍ تَحْتَ جِدَارِ ، أَوْ ظَفِرِ لِبَانِي

(١) السانح : ما أتاك من عن يمينك من ظبي أو طير ؛ وهو ما يتيمنون به . والبانة واحدة البان ؛ وهو شجر
 يسمو ويطول في استواء مثل نبات الأثل ، ويتخذ منه دهن .

(٢) كنانة بن خزيمه بن مدركة بن الياس بن مضر ، أبو القبيلة ؛ وهو الجد الرابع للرسول صلى الله عليه
 وسلم .

(٣) التنبس : أقل الكلام ؛ وما ينبس بكلمة : أي ما تكلم .

(٤) الصوان : ما تصون به الشيء .

(٥) مجاج الدواة : ما تمجه .

(٦) نقع الماء غلته : أروي عطشه .

(٧) كذا في الأصول . والصواب «ملغز» ، لأن فعله رباعي .

(٨) الإكسیر : الكيمياء وهي كلمة مولدة . ولأهل الصنعة في الإكسیر كلام مغلق طويل فيه العجب .
 ويطلقون الإكسیر أيضا على «الحجر المكرم» ؛ وهو المادة التي تلقى على المواد حال ذوبانها ، فتحولها إلى
 ذهب أوفضة بزعمهم . وانظر تاج العروس (كسر) .

(٩) صناعة التندير : يعني بها تحويل المعادن إلى الذهب أو الفضة ؛ وتلك كانت ، ولا تزال ، مشكلة
 المشتغلين بعلم الكيمياء القديم .

(١٠) يعني بالملكة الساحرة الكاهنة البربرية ، من قبيلة جراوة إحدى قبائل زناتة .

(١١) اشتجر القوم : تشابكوا ، وتشاجروا بالرماح : تطاعنوا . والجلاذ : الضرب بالسيف .

الحنّايا^(١) ، قبل أن تقطع به عن أمانيه المَنّايا ، ببديعة ، أو خلف جرجير^(٢) الرُّوم ، قبل مُنازلة القُروم ، على وديعة ، أو أسلمه ابنُ أبي سرح^(٣) ، في نَسَبٍ للفتح وسرح^(٤) ، أو حتم له رُوح بن حاتم^(٥) ببلوغ المَطْلَب ، أو غلبَ الحظوظَ بخدمة آل الأغلب^(٦) ، أو خصّه زيادةُ الله بمزيد^(٧) ، أو شارك الشيعة في أمر أبي يزيد^(٨) ، أو سار على منهاج ، في مُناصحة بني صنهاج ، وفَضَحَ بتخليد أمداحهم كُلِّ هاج .

وأعجب به ، وقد عَزَزَ منه مَشْنَى البيانِ بثالث ، فجَلَبَ سحرَ الأسماع ، واسترقاقَ الطُّباع ، بين مَثانٍ للإبداع ومثالث ، كيف اقتدر على هذا المَعيد ، وناصح مع التثليث مقامَ التوحيد ؛ نستغفر الله وَلِيَّ العَوْن ، على الصَّمتِ والصُّون ، فالقلم هو المُوَحِّد قبل الكَوْن ، والمتَّصِفُ من صفات السَّادة ، أولي العبادَة ، بضُمور الجسم

(١) الحنايا : جمع حنية ، وهي القوس . ويريد بها : بحرى الماء الذي اجتلب الى «قرطاجنة» ووضع على أعمدة عالية ، عقدت بأقواس وصلت بين عدة جبال منحازة من بعض ، ثم أجرى الماء فوق هذه «الحنايا» العالية . وكانت المسافة بين قرطاجنة ، وبين منبع الماء ثلاثة أيام ؛ ولا تزال بقايا هذه موضع العبارة من مشاهدتها . انظر ياقوت — (معجم البلدان) .

(٢) هو الطريق الذي كانت له الولاية على المغرب من قبل الإمبراطور البيزنطي . وقد انفصل عن بيزنطة ، واستقل بالمغرب عند الفتح الاسلامي ؛ والعرب يسمونه جرجير . وابن الخطيب يشير اليّ ما كان من الحوادث بين الجيش الاسلامي ، وبين جرجير أيام الفتح .

(٣) هو عبدالله بن سعد بن أبي سرح ؛ كان كتاب الوحي للرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد ، وأهدر دمه يوم فتح مكة ؛ وكان محمد بن أبي بكر الصديق يقول عنه حين ولي مصر : انه لم يعد الى الاسلام بعد رده . ابن الأثير ٥٧/٣ ، ٨٢ .

(٤) النشب : المال والعقار ؛ والسرح : المال يسام في المرعى ، يغدى به ويراح . وقد صالح أهل افريقية عبدالله بن أبي سرح على مليونين وخمسمائة ألف ديناراً ، وبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار ، وسهم الراجل ألفاً ، وقد أصبح هذا المبلغ مضرب المثل ، والى ذلك ينظر ابن الخطيب . انظر العبرم ٢ .

(٥) هو روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة ؛ كان من الكرماء الأجواد . ولي الكوفة ، ثم السند ، ثم البصرة أيام المهدي ؛ وولي أفريقية أيام الرشيد ، وبها توفي سنة ١٧٤ . وفيات الأعيان ٢٣٥/١ .

(٦) هو الأغلب بن سالم ، أحد الذين قاموا مع أبي مسلم الخراساني بالدعوة العباسية ، وتولى الأغلب أيام المنصور ولاية القيروان ؛ وابنه ابراهيم بن الأغلب ، هو رأس دولة الأغالبة بتونس ، التي تبتدىء سنة ١٨٤ هـ ، وتنتهي سنة ٢٩٦ هـ .

(٧) زيادة الله هو ثاني ملوك بني الأغلب ، (٢٠١ — ٢٢٣) قلده الخليفة المأمون العباسي .

(٨) هو أبو يزيد : مخلد بن كيداد (أو كنداد) بن سعدالله بن مغيث اليفرنى ، وقد عرف أيضاً بصاحب الحجار .

وَصُفْرَةُ اللَّوْنِ ؛ إِنَّمَا هِيَ كِرَامَةٌ فَارُوقِيَّةٌ ، وَأَثَارَةٌ^(١) مِنْ حَدِيثِ سَارِيَّةَ^(٢) وَبَقِيَّةٌ ؛ سَفَرٌ وَجْهَهَا فِي الْأَعْقَابِ ، بَعْدَ طَوْلِ الْإِنْتِقَابِ ، وَتَدَاوُلِ الْأَحْقَابِ ؛ وَلِسَانٌ مُنَابٌ ، عَنْ كَرِيمِ جَنَابٍ ؛ وَإِصَابَةٌ السَّهْمِ لِسَوَاهِ مَحْسُوبَةٍ ، وَإِلَى الرَّامِي الَّذِي سَدَّدَهُ مَسُوبَةٌ ؛ وَلَا تُتَكْرَرُ عَلَى الْغَمَامِ بَارِقَةٌ ، وَلَا عَلَى الْمُتَحَقِّقِينَ بِمَقَامِ التَّوْحِيدِ كِرَامَةٌ خَارِقَةٌ ، فَمَا شَاءَ الْفَضْلُ مِنْ غَرَائِبٍ بَرُّ وَجَدَ ، وَمَحَارِبٍ خُلِقَ كَرِيمٌ رَكَعَ الشُّكْرَ فِيهَا وَسَجَدَ ؛ حَدِيقَةٌ بَيَانٍ اسْتَثَارَتْ نَوَاسِمَ الْإِبْدَاعِ مِنْ مَهَبِّهَا ، وَاسْتَرَارَتْ غَنَائِمَ الطَّبَاعِ مِنْ مَصَبِّهَا ، فَاتَتْ أَكْلَهَا مَرَّتَيْنِ بِإِذْنِ رَبِّهَا ؛ لَا . بَلْ كَتَبَتْهُ عِزُّ طَاعِنَتٍ بِقَنَّا^(٣) الْأَلْفَاتِ سَطُورُهَا ، فَلَا يَرُونَهَا النَّقْدُ وَلَا يَطُورُهَا^(٤) ، وَنَزَعَتْ عَنْ قِسِيَّ النُّونَاتِ خَطُوطُهَا ، وَاضْطَفَّتْ مِنْ بَيَاضِ الطَّرْسِ^(٥) ، وَسَوَادِ النَّفْسِ ، بُلْقُ^(٥) تَحَوُّطُهَا .

فَمَا كَأْسُ الْمُدِيرِ ، عَلَى الْغَدِيرِ^(٦) ، بَيْنَ الْخَوَرْتِ^(٧) وَالسَّدِيرِ^(٨) ، تَقَامِيرُ بَنَرْدٍ^(٩) الْحَبَابِ ، عُقُولَ ذَوِي الْأَلْبَابِ ، وَتُغْرَقُ كِسْرَى فِي الْعُبَابِ^(١٠) ، وَتُهْدِي ، — وَهِيَ الشَّمْطَاءُ^(١١) — نَشَاطُ الشَّبَابِ ؛ وَقَدْ أَسْرَجَ ابْنُ سُرَيْجٍ^(١٢) وَالْجَمَّ ، وَأَفْصَحَ

(١) الأثارة البقية .

(٢) يشير إلى قصة سارية بن زينب بن عمر بن عبد الله بن جابر الكناني أمير الجيش الإسلامي في وقعة «نهوند» ؛ فقد كمن له العدو في جبل ، ولم يكن قد علم به ، فناداه عمر رضي الله عنه من فوق المنبر بالمدينة يحذره «يا سارية ! الجبل !» فسمع سارية صوت عمر . وهي كرامة ذكروها للفاروق رضي الله عنه . تاج العروس (سري) .

(٣) جمع قنأة ؛ وهي الرمح .

(٤) لا يطورها : لا يقرب إليها .

(٥) الطرس : الصحيفة التي محيت ثم كتبت . والنفس : الخبر . وبلق : جمع أبلق ، أو بلقاء ؛ وهي الخيول التي في لونها سواد وبياض .

(٦) يشير إلى قصة امرئ القيس يوم الغدير ، وهو يوم دارة جلجل .

(٧) الخورتق : قصر النعمان بن المنذر بظاهر الحيرة .

(٨) السدير قصر للنعمان أيضاً بالحيرة ، قريب من الخورتق .

(٩) الزرد : أعجمي معرب ، وورد في الحديث : «نردشير» ؛ وهو نوع مما يقامر به .

(١٠) بنى كسرى أبرويز — فوق دجلة — بناء اتخذته لمجالس أنسه ، ففاضت دجلة وأغرقت مراراً ، أنقذ

كسرى فيها من الغرق — وإلى ذلك يشير ابن الخطيب . انظر الطبري ١٤٤/٢ — ١٤٥ .

(١١) امرأة شمطاء : بيضاء الشعر ؛ ويكنى بذلك عن قدم الخمر .

(١٢) أبو يحيى عبيد الله بن سريج المغني المعروف .

الغَرِيضُ^(١) بعدَ ما جَمَعَمَ ، وأَعْرَبَ النَّائِي^(٢) الأَعْجَمَ ، وَوَقَّعَ مَعْبَدَ^(٣) بالقَضِيبِ ، وَشَرَعَتْ فِي حِسَابِ الْعَقْدِ^(٤) بَنَانُ الْكَفِّ الْخَضِيبِ ؛ وَكَأَنَّ الْأَنَامِلَ فَوْقَ مِثَالِ الْعُودِ وَمِثَانِيهِ ، وَعِنْدَ إِغْرَاءِ الثَّقِيلِ بَثَانِيهِ^(٥) ، وَاجَابَةُ صَدَى الْغِنَاءِ بَيْنَ مَغَانِيهِ ، الْمَرَاوِدُ تَشَرَّعَ فِي الْوَشْيِ ، أَوْ الْعَنَاكِبُ تُسْرِعُ فِي الْمَشْيِ ؛ وَمَا الْمُخْبِرُ بَنِيْلَ الرَّغَائِبِ ، أَوْ قُدُومَ الْحَبِيبِ الْغَائِبِ ؛ لَا . بَلْ إِشَارَةُ الْبَشِيرِ ، بِكُمِّ الْمُسِيرِ ، عَلَى الْعَشِيرِ ، بِأَجْلَبَ لِلْسُرُورِ ، مِنْ زَائِرِهِ الْمَتَلَقَّى بِالْبُرُورِ ، وَأَدْعَى لِلْحُبُورِ ، مِنْ سَفِيرِهِ الْمُبْهَجِ السَّفُورِ ؛ فَلَمْ نَرِ مِثْلَهُ مِنْ كَتِيبَةٍ كِتَابَ تَجَنَّبَ^(٦) الْجُرْدَ ، تَمَرَحُ فِي الْأُرْسَانِ^(٧) ، وَتَتَشَوَّفُ مَجَالِي ظَهُورِهَا إِلَى عَرَائِسِ الْفُرْسَانِ ، وَتَهْزُ مُعَاطِفَ^(٨) الْارْتِيَاكِ ، مِنْ صَهْلِيلِهَا الصَّرَاحِ ، بِالنَّغَمَاتِ الْحِسَانِ ؛ إِذَا أَوْجَسَتْ الصَّرِيخَ نَازَعَتْ أَفْنََاءَ الْأَعْنَةِ ، وَكَاثَرَتْ بِأَسِنَّةِ آذَانِهَا مُبْشِرَةَ الْأَسِنَّةِ ؛ فَإِنْ أَدَّعَى الظَّلِيمُ^(٩) أَشْكَالَهَا فَهُوَ ظَالِمٌ ، أَوْ نَازَعَهَا الظُّبْيُ هَوَادِيَهَا^(١٠) وَأَكْفَلَهَا فَهُوَ هَاذٍ أَوْ حَالِمٌ ، وَإِنْ سُئِلَ الْأَصْمَعِيُّ^(١١) عَنْ عَيُوبِ الْغُرَرِ وَالْأَوْضَاحِ^(١٢) ، قَالَ مُشِيرًا إِلَى وَجُوهِهَا الصَّبَاحِ^(١٣) :

- (١) أَبُو يَزِيدَ ، وَأَبُو مَرْوَانَ : عَبْدُ الْمَلِكِ . وَلَقِبَ بِالْغَرِيضِ لِأَنَّهُ كَانَ طَرِيَّ الْوَجْهِ غَضَّ الشَّبَابِ ؛ وَهُوَ مِنْ مَوْلَدِي الْبَرِيرِ . أَخَذَ الْغِنَاءَ عَنْ ابْنِ سَرِيحَ ، وَعَارَضَهُ فِي كُلِّ أَصَوَاتِهِ .
- (٢) النَّائِي : الْمَزْمَارُ .
- (٣) هُوَ مَعْبَدُ بْنُ وَهْبٍ الْمَغْنِي الْمَعْرُوفُ . غَنَّى فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ ، مَهَاتَ فِي أَيَّامِ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ بِدِمَشْقَ .
- (٤) حِسَابُ الْعَقْدِ ، وَيُسَمَّى حِسَابُ الْعُقُودِ أَيْضًا : نَوْعٌ مِنَ الْحِسَابِ يَكُونُ بِأَصَابِعِ الْيَدَيْنِ ، وَيُقَالُ لَهُ حِسَابُ الْيَدِ ؛ وَفِي الْحَدِيثِ : « وَعَقْدُ عَقْدَ تَسْعِينَ » . وَقَدْ أَلْفَا فِيهِ رِسَائِلُ وَأَرَاغِيزُ ، مِنْهَا أَرْجُوزَةُ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ الشَّهْرِيبَانِيِّ الْمَغْرِبِيِّ ، وَشَرَحَهَا عَبْدُ الْقَادِرِ بْنِ عَلِيٍّ بْنُ شُعْبَانَ الْعُوفِيُّ .
- (٥) كَذَا فِي الْأَصُولِ ؛ وَمَقْتَضَى السِّيَاقُ : « الثَّقِيلُ الْأَوَّلُ بَثَانِيهِ » .
- (٦) مِنَ الْجَنْبِ : وَهُوَ أَنْ تَجَنَّبَ فَرَسًا عَرِيَا عِنْدَ الرِّهَانِ إِلَى الْفَرَسِ الَّذِي تَسَابِقُ عَلَيْهِ ، فَإِذَا فُتِرَ الْمَرْكُوبُ ، تَحَوَّلَ إِلَى الْمَجْتَنِبِ . وَيُرِيدُ أَنَّ هَذِهِ الرِّسَالَةَ بِمَنْزِلَةِ خَيُْولِ احْتِيَاطِيَّةٍ .
- (٧) جَمَعَ رَسَنَ ؛ وَهُوَ الْحَبْلُ يَتَخَذُ زَمَانًا لِلدَّابَّةِ وَغَيْرِهَا .
- (٨) الْمُعَاطِفُ : الْأَرْدِيَّةُ ؛ وَالْعَرَبُ تَضَعُ الرِّدَاءَ مَوْضِعَ الْبَهْجَةِ ، وَالْحَسَنُ ، وَالْبَهَاءُ ، وَالنِّعْمَةُ .
- (٩) الظَّلِيمُ : فَرَسٌ فَضَالَةٌ بَنَ هَنْدُ بْنُ شَرِيكَ الْأَسَدِيِّ . وَالظَّلِيمُ ذَكَرُ النِّعَامِ .
- (١٠) هَوَادِي الْخَيْلِ : أَعْنَاقُهَا .
- (١١) عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ قَرِيبَ ، اللَّغْوِيُّ الْمَشْهُورُ (١٢٢ — ٢١٦) ، عَلَى خِلَافٍ فِي الْمَوْلَدِ وَالْوَفَاةِ . وَابْنُ الْخَطِيبِ يُشِيرُ إِلَى مَا عَرَفَ عَنْ الْأَصْمَعِيِّ مِنْ خَبْرَتِهِ الْوَاسِعَةِ بِالْخَيْلِ ؛ وَلَهُ فِي ذَلِكَ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى قِصَّةٌ طَرِيفَةٌ . انْظُرْهَا فِي تَرْجُمَةِ الْأَصْمَعِيِّ فِي وَفَايَاتِ ابْنِ خُلِكَانَ ٣٦٢/١ .
- (١٢) جَمَعَ غُرَّةً : وَهِيَ الْبَيَاضُ ؛ وَالْوَضْعُ : الْبَيَاضُ أَيْضًا . وَيَكْنَى بِهِ فِي الْفَرَسِ عَنِ الْبَرَصِ ، وَالْجَمْعُ أَوْضَاحٌ .
- (١٣) وَجْهٌ صَبِيحٌ : جَمِيلٌ ، وَالْجَمْعُ صَبَاحٌ .

« جَلْدَةُ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْأَنْفِ سَالِمٌ »^(١)

من كلِّ عَبلٍ الشَّوَى^(٢) ، مُسَابِقٌ لِلنَّجْمِ إِذَا هَوَى ، سَامِي التَّلِيلِ^(٣) ، عَرِيضٌ مَا
تَحْتَ التَّلِيلِ^(٤) ، مَمْسُوحَةٌ أَعْطَافُهُ بِمَنْدِيلِ النَّسِيمِ الْبَلِيلِ .
من أَحْمَرَ كَالْمُدَامِ ، تُجَلِّي عَلَى النَّدَامِ^(٥) ، عَقَبَ الْفِدَامِ^(٦) ، أَنْخَفَ لَوْنُهُ بِالْوَرْدِ ،
فِي زَمَنِ الْبَرْدِ ، وَحَيَّيْ أَفَقَ مُحْيَاهُ بِكُوكَبِ السَّعْدِ ، وَتَشَوَّفُ الْوَاصِفُونَ إِلَى عَدِّ
مَحَاسِنِهِ فَأَعْيَتْ عَلَى الْعَدِّ ؛ بَحْرٌ يُسَاجِلُ الْبَحْرَ عِنْدَ الْمَدِّ ، وَرِيحٌ تُبَارِي الرِّيحَ عِنْدَ
الشَّدِّ^(٧) ، بِالذَّرَاعِ الْأَشَدِّ^(٨) ؛ حَكَمٌ لَهُ مُدِيرٌ فَلَكَ الْكَفَلُ بِاعْتِدَالِ فَضْلِ الْقَدِّ ،
وَمِيزُهُ قَدْرُهُ الْمُمِيزَ عِنْدَ الْاسْتِبَاقِ ، بِقَصَبِ السَّبَاقِ^(٩) ، عِنْدَ اعْتِبَارِ الْحَدِّ ، وَوُلْدٌ
مُخْتَطٌّ غُرَّتُهُ أَشْكَالَ الْجَمَالِ ، عَلَى الْكَمَالِ ، بَيْنَ الْبَيَاضِ وَالْحُمْرَةِ وَنَقَاءِ الْخَدِّ ؛
وَحَفِظَ رَوَايَةَ الْخَلْقِ الْوَجِيهَ^(١٠) ، عَنْ جَدِّهِ الْوَجِيهَ^(١١) ، وَلَا تُنْكَرُ الرِّوَايَةُ عَلَى الْحَافِظِ
ابْنِ الْجَدِّ^(١٢) .

(١) شَطْرَ بَيْتٍ قَالَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو لَامَهُ النَّاسُ فِي حُبِّ ابْنِهِ سَالِمٍ ، وَأَوَّلُهُ :

يَدِيرُونَنِي عَنْ سَالِمٍ وَأَرِيغُهُمْ * وَجَلْدَةُ الْخِ

وَجَعَلَهُ لِحَبْتِهِ بِمَنْزِلَةِ جَلْدَةِ بَيْنَ عَيْنِهِ وَأَنْفِهِ . وَفِي الْحَدِيثِ : « لَا تُؤْذُوا عِمَارًا ، فَإِنَّمَا عِمَارٌ جَلْدَةُ مَا بَيْنَ
عَيْنَيْ » .

وسَالِمٌ هَذَا ، يَكْنَى أَبَا عَمْرٍ ، وَأَبَا الْمَذَرِ ، مِنْ خِيَارِ النَّاسِ ، وَفَقَهَاةِهِمْ . مَاتَ بِالْمَدِينَةِ سَنَةَ ١٠٦ .
لِسَانَ الْعَرَبِ (سَلَمٌ) .

(٢) شَوَى الْفَرَسُ : قَوَائِمُهُ ؛ وَعَبْلُ الشَّوَى : غَلِيظُ الْقَوَائِمِ .

(٣) التَّلِيلُ الْعُنُقُ .

(٤) التَّلِيلُ الْحُلْسُ ، وَالْكَسَاءُ الَّذِي يَحْمِلُ تَحْتَ الرَّحْلِ .

(٥) جَمْعُ نَدِيمٍ وَهُوَ الشَّرِبُ الَّذِي يَنَادِمُكَ .

(٦) الْفِدَامُ الْخَرْقَةُ الَّتِي يَضَعُهَا السَّاقِي مِنَ الْأَعَاجِمِ ، وَالْجَوْسُ عَلَى فَمِهِ عِنْدَ السَّقْيِ . وَكَانَتْ عَادَتُهُمْ ، إِذَا
سَقَوْا ، أَنْ يَفْدُمُوا أَفْوَاهَهُمْ . وَفِدَامُ الْإِبْرِيْقِ ، وَالْكُوزُ : الْمَصْفَاةُ الَّتِي تَوْضَعُ عَلَيْهِ .

(٧) الشَّدُّ : الْعَدُوُّ .

(٨) الْأَشَدُّ الْأَقْوَى ؛ يُقَالُ حَلَبْتُهَا بِالسَّاعِدِ الْأَشَدِّ ، أَيْ حِينَ لَمْ أَقْدِرْ عَلَى الرِّفْقِ ، أَخَذْتُ الْأَمْرَ بِالشَّدَّةِ
وَالْقُوَّةِ .

(٩) كَانَتْ الْغَايَةُ الَّتِي يَحْدِدُونَهَا لِلْسَّبَاقِ تَدْرِعُ بِالْقَصَبِ ، ثُمَّ تَرْكُزُ الْقَصْبَةُ فِي مَنَهَى الْغَايَةِ ؛ فَمِنْ سَبَقِ اقْتَلَعَهَا
وَأَخَذَهَا ، لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ السَّابِقُ مِنْ غَيْرِ نِزَاعٍ ، وَيُقَالُ حَازَ أَوْ أَحْرَزَ قَصْبَةَ السَّبَقِ . تَاجُ (قَصَبٌ) .

(١٠) الْوَجِيهَ : ذُو الْجَاهِ .

(١١) الْوَجِيهَ : فَرَسٌ مِنْ خَيْلِ الْعَرَبِ نَجِيبٌ .

(١٢) يَوْمِي ابْنُ الْخَطِيبِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ فَرْجٍ الْفَهْرِيِّ الْمَعْرُوفِ بِأَبْنِ الْجَدِّ
(٤٩٦ — ٥٨٦) . أَصْلُهُ مِنْ «لُبْلَةٍ» ، وَاسْتَوْتُنَ إِشْبِيلِيَّةٌ ، وَعَاصِرُ ابْنِ رَشْدٍ الْفَقِيهَ ، وَأَبَا بَكْرَ بْنَ
الْعَرَبِيِّ .

وَأَشَقَرَّ ، أَبِي الْخَلْقُ ، وَالْوَجْهُ الطَّلُقُ أَنْ يُحْفَرَ ، كَأَنَّمَا صَبِغَ مِنَ الْعَسَجَدِ ، وَطُرِفَ بِالْدُرِّ وَأُنْعِلَ بِالزَّبْرِ جَدٌ ، وَوُسِمَ فِي الْحَدِيثِ بِسِمَةِ الْيَمْنِ وَالْبِرْكََةِ ^(١) ، وَاخْتَصَّ بِفُلْجٍ ^(٢) الْخِصَامُ ، عِنْدَ اشْتِجَارِ الْمُعْرَكَةِ ، وَانْفَرَدَ بِمُضَاعَفِ السَّهَامِ ، الْمُنْكَسِرَةِ عَلَى الْهَامِ ، فِي الْفَرَائِضِ الْمُشْتَرَكَةِ ^(٣) ؛ وَاتَّصَفَ فَلَكُ كَفْلِهِ بِحَرَكَتِي الْإِرَادَةِ وَالطَّبِيعِ مِنْ أَصْنَافِ الْحَرَكَةِ ، أَصَغَى إِلَى السَّمَاءِ بِأُذُنِ مُلْهِمٍ ؛ وَأَغْرَى لِسَانَ الصَّهِيلِ — عِنْدَ التَّبَاسِ مَعَانِي الْهَمَزِ وَالتَّسْهِيلِ — بَيَانَ الْمُبْنِهِمْ ؛ وَفَتَنَتِ الْعُيُونُ مِنْ ذَهَبِ جِسْمِهِ ، وَلُجِّينَ نَجْمِهِ ، بِالْدِّينَارِ وَالذَّرْهِمِ ؛ فَإِنْ انْقَضَ فَرَجُهُمْ ، أَوْ رِيحَ لَهَا حَجْمُ ، وَإِنْ اعْتَرَضَ فَشَقُّ لَاحَ بِهِ لِلنَّجْمِ نَجْمٌ .

وَأَصْفَرَ قَيْدَ الْأَوَابِدِ الْحُرَّةَ ، وَأَمْسَكَ الْمَحَاسِنَ وَأَطْلَقَ الْغُرَّةَ ، وَسُئِلَ مِنْ أَنْتَ فِي قُرَوَادِ الْكُتَابِ ، وَأَوَّلِي الْأَخْبَارِ الْعَجَائِبِ ؟ فَقَالَ : أَنَا الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ ^(٤) ؛ نَزَجَسُ هَذِهِ الْأَلْوَانِ ، فِي رِيَاضِ الْأَكْوَانِ ، تُحْتَى بِهِ وَجُوهُ الْحَرْبِ الْعَوَانِ ^(٥) ؛ أَغَارَ بَنَخُوهَ الصَّائِلِ ^(٦) ، عَلَى مُعْضَفَرَاتِ الْأَصَائِلِ ^(٧) ، فَارْتَدَاهَا ، وَعَمِدَ إِلَيَّ خَيْطُ شُعَاعِ الشَّمْسِ ، عِنْدَ جَانِحَةِ الْأَمْسِ ، فَأَلْحَمَ مِنْهَا حُلَّتَهُ وَاسْتَعَدَّتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْمَحَاسِنِ فَمَا أَعْدَاهَا ؛ فَهُوَ أَصِيلٌ تَمْسُكُ بِذَيْلِ اللَّيْلِ عَرْفُهُ وَذَيْلُهُ ، وَكَوْكَبٌ يُطْلِعُهُ مِنَ الْفَتَامِ لَيْلُهُ ، فَيَحْسُدُهُ فَرَقْدُ ^(٨) الْأَفْقِ وَسُهِيلُهُ ^(٩) .

(١) يشير إلى حديث : « ان يمين الخيل في شقرتها » ، رواه الإمام أحمد في المسند ٢٧٢/٢ .

(٢) الفلج : الظفر والفوز .

(٣) يومي إلى المعاني التي تعارفها الفقهاء بينهم في باب « التوارث » من الفقه الإسلامي ؛ فالسهم : النصيب الذي فرضه الشارع للوارث ، وانكسار السهام يكون حيث تضيق التركة عن استيفاء الفرائض كاملة ، ويتقرر العول .

(٤) أبو سعيد المهلب بن أبي صفرة الأزدي . له مع الخوارج حروب ومواقع ظهرت فيها شجاعته . وفيات الأعيان ١٩١/٢ — ١٩٥ .

(٥) الحرب العوان : الحرب التي سبقها حرب أخرى .

(٦) النخوة : العظمة ، والكبر ؛ والصائل : المستطيل المتوثب .

(٧) الأصيل : العشي ، والجمع الأصائل .

(٨) الفرقد : واحد الفرقدين ؛ وهما كوكبان من صورة بنات نعش الصغرى . ويقال الفرقد على الكوكبين معا .

(٩) سهيل : كوكب من الكواكب الجنوبية ؛ ولذلك لا يراه سكان البلدان الشمالية مثل خراسان ، وأرمينية .

وأشهبَ تَغَشَّى من لونه مُقَاضَة ، وتسربل منه لَأَمَة فَضْفَاضَة ، قد احتفل زَيْنُهُ ، لَمَّا رُقِمَ بالنِّبَالِ لجينه ، فهو الأَشْمَطُ ، الذي حقه لا يُغْمَطُ ، والدَّارِعُ ^(١) المسارع ، والأَعَزَلُ الدَّارِعُ ^(٢) ، وراقي الهِضَابِ الفارِع ، ومكتوبُ الكِتيبة البارِع ^(٣) . وأَكْرَمَ به من مُرتاض سَالِك ، ومُجتهد على غايات السَّابِقِينَ الأولين مُتَهَالِك ، وأشهبَ ^(٤) يروي من الخليفة ، ذي الشَّيْمِ المُنيفة ، عن مالك .

وحُبَارِي ^(٥) كَلَّمَا سَابَقَ وِبَارَى ، استعار جَنَاحَ الحُبَارَى ؛ فإذا أَعْمَلَتِ الحِسْبَة ، قِيلَ مِن هُنَا جَاءَتِ النِّسْبَة ، طَرَدَ النَّمِرُ ، لما عَظُمَ أمره وأَمِر ^(٦) ، فَنَسَخَ وجُودَهُ بَعْدَهُ ، وابْتَرَهُ الفَرَوَة مُلَطَّخَةً بِدَمِهِ ؛ وَكَأَنَّ مُضَاعَفَ الوَرْدِ نَثَرَ عَلَيْهِ من طَبَقِهِ ، أو الفَلَكَ ، لَمَّا ذَهَبَ الحَلَكُ ، مُزِجَ فِيهِ بَيَاضُ صَبْغِهِ بِحُمْرَةِ شَفَقِهِ

وَقِرْطَاسِي حَقُّهُ لَا يُجْهَلُ ، «مَتَى مَا تَرَقَّى الْعَيْنُ فِيهِ تَسْقُلُ» ^(٧) ؛ إِنْ نُزِعَ عَنْهُ جُلُّهُ ^(٨) ، فَهُوَ نَجْمٌ كُلُّهُ ؛ انْفَرَدَ بِمَادَّةِ الْأَلْوَانِ ، قَبْلَ أَنْ تَشُوْبَهَا يَدُ الْأَكْوَانِ ، أَوْ تَمَزَّجَهَا أَقْلَامُ الْمَلَكُونِ ^(٩) ؛ يَتَقَدَّمُ الكِتيبة مِنْهُ لَوَاءُ نَاصِعٍ ، أَوْ أَيْضُ نَاصِعٍ ^(١٠) ؛ لِبَسَ وَقَارَ المَشِيبِ ، فِي رَيْعَانِ العُمُرِ القَشِيبِ ، وَأَنْصَبَتْ الْأَذَانُ مِنْ صَهِيلَةِ الْمُطِيلِ المَطِيبِ ، لَمَّا ارْتَدَّتْ بِالْبَيَاضِ إِلَى نَعْمَةِ الخَطِيبِ ؛ وَإِنْ تَعَتَّبَ مِنْهُ لِلتَّأْخِيرِ مُتَعَتِّبٌ ، قُلْنَا : الْوَاوُ لَا تُرْتَبُ ^(١١) ، مَا بَيْنَ فَحْلٍ وَحَرَّةٍ ، وَبِهْرْمَانَةٍ ^(١٢) وَدُرَّةٍ ؛ وَيَا لِلَّهِ

(١) رجل دارع : ذورع .

(٢) ذرع : أسرع ؛ كأنه لسرعته يقيس المسافات بالذراع .

(٣) الفارِع : المرتفع ، الحسن . والبارِع : التام في كل فضيلة .

(٤) يوري بأشهب بن عبد العزيز المالكي أبو عمر المصري . وقد تقدم ذكره .

(٥) الحُبَارِي : لونه لون الحُبَارِي . والحُبَارِي بضم الحاء ، وفتح الباء المخففة ، وراء مفتوحة بعد ألف : طائر

رماضي اللون ؛ وهو أشد الطير طيراناً ، وأبعدها شوطاً . ولذلك يقول : إن سرعة هذا الفرس تأتي من

شبهه بالحُبَارِي الذي له هذه الصفة . حياة الحيوان للدميري ١٩٦/١ .

(٦) أمر : كثر .

(٧) عجز بيت لأمرى القيس وصدره :

ورحنا يكاد الطرف بقشر دونه متى الخ .

وفي الأصول : «..... فيه تسهل» . والمثبت رؤية الديوان ، وشرحه للبطيوسي ص ٣٤ طبع التقدم

سنة ١٢٢٣ هـ .

(٨) جل الفرس ، وجاله : الغطاء الذي تلبسه إياه لتصونه .

(٩) الملوان : الليل والنهار .

(١٠) الناصع : الخالص من كل شيء ؛ والمناصع : المجالس . جمع منصع .

(١١) يشير إلى قول النحاة : أن العطف بالواو لا يفيد ترتيباً بين معطوفاتها .

(١٢) البهرمان : نبات بأرض العرب يصبغ به ، يقال له العصفر ، ولونه دون الأرجوان في الحمرة .

من ابتسام غرة ، ووضوح يُمن في طرة^(١) ، وبهجة للعين وقرة ؛ وإن ولع الناس بامتداح القديم ، وخصوا الحديث بفري الأديم^(٢) ، وأوجف المتعصب ، وإن أبى المنصب ، مرتبة التقديم ، وطمح الى رتبة المخدوم طرف الخديم ، وقورن المثري بالقديم ، وبُخس في سوق الكسد الكيل ، ودجا الليل ، وظهره في فلك الأنصاف الميل ، لَمَّا تذكركت الخيل ؛ فجيء بالوجيه^(٣) والخطار^(٤) ، والذائد^(٥) وذو الخار^(٦) وداحس^(٧) والسكب^(٧) ، والأبجر^(٩) وزاد الركب^(١٠) ، والجموح^(١١) واليحموم^(١٢) ، والكُميت^(١٣) ومكثوم^(١٤) ، والأعوج^(١٥) وحلوان ، ولأحق والغضبان ، وعفزر ، والزعفران والمحبّر واللّغاب ، والأغر والغراب ، وشُعلة والعقاب ، والفياض واليعسوب ، والمذهّب واليعسوب ، والصّموت والقُطيب ، وهيدب والصيّب ، وأهلوب وهذّاج ،

(١) الطرة : الناصية ، إشارة الى الحديث : «الخيال معقود في نواصيا الخير الى يوم القيامة» .

(٢) الاديم : الجلد ، وفريه : قطعه . وهو يشير الى قول ابن شرف القيرواني :

أغرى الناس بامتداح القديم
ليس إلا لأنهم حسدوا
وبذم الحديث غير القديم
الحي ورقوا على العظماء الرميم

(٣) الوجيه : فرس لغني بن أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان . وهو مما سمي من جياذ الفحول ، والانات المنجيات . تاج العروس (وجه) ، مخصص ١٩٥/٦ .

(٤) الخطار : فرس حذيفة بن بدر الفزاري . وله ذكر في حرب داحس والغبراء . المخصص ١٩٦/٦ ، تاج (خطر ، دحس) .

(٥) الذائد : فرس نجيب من نسل الحرون ، ومن أبنائه اشقر مروان . تاج (ذاد) .

(٦) ذو الخار : فرس للزبير بن العوام ، ولمالك بن نويرة الشاعر . المخصص ١٩٤/٦ تاج (خمس) .

(٧) داحس : فرس قيس بن زهير بن جذيمة العبسي . له ذكر في حرب داحس والغبراء المخصص ١٩٦/٦ ، تاج (دحس) ، وانظر مجمع الأمثال : «أشأم من داحس» ٢٥٦/١ .

(٨) السكب : من أفراس النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أول فرس ملكه . المخصص ١٩٣/٦ ، تاج (سكب) .

(٩) الأبجر : من خيل غطفان بن سعد ، وهو فرس عنزة بن شداد العبسي . تاج (بجر) .

(١٠) زاد الركب : فرس للأزد ، وهو من أقدم فرسان العرب .

(١١) الجموح (كصبور) : فرس مسلم بن عمرو الباهلي ، وفرس للحكم بن عرعة النخري تاج (جمع) .

(١٢) اليحموم : فرس النعمان بن المنذر ، ولذلك كان يقال للنعمان فارس اليحموم . سمي باليحموم عدة أفراس . تاج ٢٦١/٨ .

(١٣) الكميت : ذكر في تاج العروس في (كميت) عشرة أفراس باسم الكميت ، مع أسماء أصحابها .

(١٤) مكثوم : فرس لغني بن أعصر ، من جياذ الفحول . تاج (كتم) .

(١٥) أعوج (بلا لام) : فرس لبني هلال ؛ تنسب إليه الأعوجيات ، كان لكندة فأخذته سليم ، ثم صار إلى بني هلال ، بعد أن كان لبني آكل المرار . تاج (عوج) .

والْحَرُونَ وَخَرَجَ ، وَعَلَوَى وَالْجَنَاحَ ، وَالْأَحْوَى وَمِجَاحَ ، وَالْعَصَا وَالنَّعَامَةَ ، وَالْبَلْقَاءِ
وَالْحَامَةَ ، وَسَكَابَ وَالْجَرَادَةَ ، وَخَوْصَاءَ وَالْعَرَادَةَ^(١) ؛ فَكَمْ بَيْنَ الشَّاهِدِ وَالْغَائِبِ ،
وَالْفُرُوشِ وَالرَّغَائِبِ^(٢) ، وَفَرَقُ مَا بَيْنَ الْأَثَرِ وَالْعِيَانِ ، غَنِيٍّ عَنِ الْبَيَانِ ؛ وَشَتَانُ بَيْنِ
الصَّرِيحِ وَالْمُشْتَبَةِ ؛ وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَاتِلِ :

« خذ ما تراه ودَعْ شيئاً سَمِعْتَ بِهِ^(٣) »

وَالنَّاسِخَ^(٤) يَخْتَلَفُ بِهِ الْحُكْمُ ، وَشَرُّ الدَّوَابِّ عِنْدَ التَّفْضِيلِ بَيْنَ هَذِهِ الدَّوَابِّ الصُّمِّ
الْبُكْمِ^(٥) إِلَّا مَا رَكِبَهُ نَبِيٌّ ، أَوْ كَانَ لَهُ يَوْمُ الْإِفْتِخَارِ وَبِرْهَانُ خَفِيِّ^(٦) وَمُفْضِلُ مَا
سَمِعَ عَلَى مَا رَأَى غَبِيٌّ ؛ فَلَوْ أَنْصَفَتْ مُحَاسِنُهَا الَّتِي وَصِفَتْ ، لَأَقْضِمَتْ^(٧) حَبَّ
الْقُلُوبِ عِلْفًا ، وَأُورِدَتْ مَاءَ الشَّيْبَةِ نَطْفًا^(٨) ؛ وَاتَّخَذَتْ لَهَا مِنْ عُذْرٍ^(٩) الْخُدُودِ
الْمِلَاحِ عُذْرَ مُوشِيَةٍ^(١٠) ، وَعَلَّلَتْ بِصَفِيرِ الْحَانَ الْقِيَانِ كُلِّ عَشِيَّةٍ ؛ وَأُنْعَلَتْ بِالْأَهْلَةِ ،
وَعُطِيتْ بِالرِّيَاضِ بَدَلُ الْأَجَلَةِ^(١١) .

إِلَى الرَّقِيقِ^(١٢) ، الْخَلِيقُ بِالْحُسْنِ الْحَقِيقِ ، يَسُوقُهُ إِلَى مَثْوَى الرِّعَايَةِ رُوقَةً^(١٣) الْفَتْيَانِ
رُعَاتِهِ ، وَيُهْدِي عَقِيقَهَا مِنْ سَبَّحِهِ^(١٤) أَشْكَالًا تَشْهَدُ لِلْمَخْتَرَعِ سُبْحَانَهُ بِأَحْكَامِ
مَخْتَرَعَاتِهِ ، وَقَفَتْ نَازِلَةُ الْإِسْتِحْسَانِ لَا يَرِيمُ^(١٥) ، لِمَا بِهِرَهُ مَنْظَرُهَا الْوَسِيمِ ، وَتَخَامَلُ

(١) العرادة وما قبلها : أسماء أفراس لرجال مشهورين من رؤساء قبائل العرب القدماء .

(٢) الرغائب : جمع رغبة ، وهي الأمر المرغوب فيه . تاج (رغب) .

(٣) أصدر بيت للمتنبى من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ؛ وعجزة عن شرح العكبري ٦٨/٢ طبع
الشريفة : « في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل » .

(٤) النسخ في مصطلح أهل أصول الفقه : انتهاء حكم شرعي ثبت بنص شرعي ، وإحلال حكم آخر بدله
بنص شرعي جاء دليلاً على انتهاء الحكم الأول والناسخ : هو النص الأخير الذي بمقتضاه يرتفع الحكم
الأول ، ويلغى النص السابق .

(٥) الإشارة إلى الآية ٢٢ من سورة الأنفال .

(٦) خفي : خاف ، مستور .

(٧) القضم : أكل القضم ، وهو شعر الدابة ، وأقضم الدابة : قدم لها القضم .

(٨) النطفة : الماء الصافي ؛ والجمع نطف .

(٩) العذار : خط لحية الغلام ؛ والجمع عذر .

العذار من اللجام : السيران اللذان يحتمعان عند قفا الفرس ؛ والجمع عذر .

(١١) جل الدابة : ما تغطي به ، والجمع جلال ؛ وجمع جلال : أجلة .

(١٢) الرقيق : الضعيف لا صبر له على شدة البرد ، ونحوه .

(١٣) الروقة من الغلمان الملاح منهم ؛ يقال غلمان روقة : أي حسان ، والمفرد رائق .

(١٤) السبيح : خرز أسود .

(١٥) لا يريم : لا يبرح .

الظَّليم^(١) ، وتَصَاوُل الرِّيم^(٢) وأُخْرَسَ مُفَوَّه^(٣) اللسان ، وهو بملكات البيان ، الحفيظ العليم ؛ وناب لِسَانُ الحال ، عن لسان المقال ، عند الاعتقال^(٤) ، فقال يُخاطب المقام الذي أَطْلَعَتْ أَزْهَارُهَا غَنَائِمَ جُودِهِ ، واقتَصَتْ اختياراتها بركات وجوده : لو علمنا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْأَصِيلُ ، الذي كُرِّمَ مِنْهُ الْأَجْمَالُ والتفصيل ، أَنَّ الشَّاءَ يُوَازِيهَا ، لَكِنَّا لَكَ بِكَيْلِكَ ، أَوْ الشُّكْرَ يَعَادِلُهَا وَيُجَازِيهَا ، لَتَعَرَّضْنَا بِالْوِشْلِ^(٥) إِلَى نِيلِ نَيْلِكَ^(٦) ، أَوْ قُلْنَا هِيَ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا مُسْتَصْرَخُ سَلَفِكَ الْمُسْتَنْصِرُ بقوله : « ادرك بخيلك » ، حين شَرَقَ بدمعه الشَّرْقُ^(٧) ، وانْهَزَمَ الْجَمْعُ واستولى الفرق ، واتسع فيه — والحكم لله — الخَرْقُ^(٨) ورأى أن مقام التَّوْحِيدِ بالمظاهرة على التَّثْلِيثِ ، وحزبه الخبيث ، الْأَوَّلَى والأَحَقُّ .

وَالْآنَ قَدْ أَغْنَى اللَّهُ بِتِلْكَ النِّبَةِ ، عَنْ اتِّخَاذِ الطَّوَالِ الرُّدِينِيَّةِ^(٩) ، وبالدُّعَاءِ مِنْ تِلْكَ الْمَثَابَةِ الدِّينِيَّةِ إِلَى رَبِّ الْمَنِيَّةِ^(١٠) ، وَعَنْ الْجُرْدِ الْعَرَبِيَّةِ ، فِي مَقَاوِدِ اللَّيْثِ الْأَبِيَّةِ ؛ وَجَدَّدَ بَرَسَمَ هَذِهِ الْهَدْيَةِ ، مَرَامِسَ الْعُهُودِ الْوُدِّيَّةِ ، وَالذِّمِّ الْمُوَحِّدِيَّةِ ، لِتَكُونَ عَلَامَةً عَلَى الْأَصْلِ ، وَمَكْذِبَةً لِدَعْوَى الْوَقْفِ وَالْفَضْلِ ، وَإِشْعَارًا بِالْأَلْفَةِ الَّتِي لَا تَرَالُ أَلْفُهَا أَلْفَ الْوَصْلِ ، وَلَأْمُهَا حَرَامًا عَلَى النَّصْلِ^(١١) .

وَحَضَرَ بَيْنَ يَدَيْنَا رَسُولُكُمْ ، فَقَرَّرَ مِنْ فَضْلِكُمْ مَا لَا يُنْكِرُهُ مَنْ عَرَفَ عُلُوَّ مَقْدَارِكُمْ ، وَأَصَالَةَ دَارِكُمْ ، وَفَلَكَ إِبْدَارِكُمْ ، وَقُطِبَ مَدَارِكُمْ ؛ وَأَجَبْنَا عَنْهُ بِجَهْدِ^(١٢) مَا كُنَّا

(١) الظلم : ذكر النعام ؛ وفرس فضالة بن شريك الأسدي .

(٢) الريم : الظبي الخالص البياض .

(٣) رجل مفوه : يجيد القول .

(٤) اعتقل لسانه : حبس ، ولم يقدر على الكلام .

(٥) الوشل : الماء القليل .

(٦) النيل : نهر مصر . والنيل (بالفتح) : العطاء .

(٧) يريد شرق الأندلس .

(٨) يشير إلى المثل : « اتسع الخرق على الرافع » الذي يقال عند استفحال الأمر ، والعجز عن إصلاحه . تاج (خرق) .

(٩) الردينية : منسوبة إلى ردينة ، وهي امرأة السميري ؛ وكانا يقومان الرماح والقنا بخط هجر ؛ فيقال : الرماح الردينية ، والخطية ؛ نسبة إلى الشخص تارة ، وإلى الموضوع أخرى .

(١٠) البنية : الكعبة ، وكانت تسمى بنية إبراهيم ؛ وكثر قسمهم بها فيقولون : « لا ورب هذه البنية » .

(١١) اللام : جمع لأمة ؛ وهي الدرع . والنصل : حديدة السهم والرمح . اللسان (نصل) .

(١٢) الجهد (بالفتح) المشقة .

لَنَقْنَعَ مِنْ جَنَاهُ ^(١) الْمُهِتَصِرُ ^(٢) ، بِالْمَقْتَضَبِ الْمُخْتَصِرِ ، وَلَا لِنُقَابِلَ طُولَ طَوْلِهِ ^(٣) بِالْقِصْرِ ، لَوْلَا طَرُّوُ الْحَصْرِ ^(٤) .

وَقَدْ كَانَ بَيْنَ الْأَسْلَافِ — رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَرِضْوَانُهُ — وَدَّ أُبْرِمَتْ مِنْ أَجْلِ اللَّهِ مَعَاقِدُهُ ^(٥) ، وَوُثِّرَتْ لِلخُلُوصِ ^(٦) ، الْجَلِيِّ النَّصُوصِ ، مَضَاجِعُهُ الْقَارَّةَ وَمَرَاقِدُهُ ، وَتَعَاهُدُهُ بِالْجَمِيلِ يُوجَعُ لِفَقْدِهِ فَاقِدُهُ ، أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَكُمْ الْفَضْلُ فِي تَجْدِيدِهِ ، وَالْعَطْفُ بِتَوْكِيدِهِ ؛ فَنَحْنُ الْآنَ لَا نَدْرِي أَيَّ مَكَارِمِكُمْ نَذْكُرُ ، أَوْ أَيَّ فَوَاضِلِكُمْ نَشْرَحُ أَوْ نَشْكُرُ ، أَمْفَاتُحْتَكُمُ الَّتِي هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ عِنْدَنَا فَتَحٌ ، أَمْ هَدْيُتِكُمْ ، وَفِي وَصْفِهَا لِلْأَقْلَامِ سَبَجٌ ^(٧) ، وَلِعَدُّوُ الْإِسْلَامَ بِحِكْمَةِ حِكْمَتِهَا كَبَجٌ ^(٨) ، إِنَّمَا نَكِلُ الشُّكْرَ لِمَنْ يُؤَفِّي فِي جِزَاءِ الْأَعْمَالِ الْبِرَّةَ ، وَلَا يَبْخَسُ مِنْثِقَالَ الذَّرَّةِ وَلَا أَدْنَى مِنْ مِنْثِقَالِ الذَّرَّةِ ، ذِي الرَّحْمَةِ الثَّرَّةِ ^(٩) ، وَالْأَلْطَافِ الْمُتَّصِلَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

وإِنْ تَشَوَّفْتُمْ إِلَى الْأَحْوَالِ الرَّاهِنَةِ ، وَأَسْبَابِ الْكُفْرِ الْوَاهِيَةِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ — الْوَاهِنَةِ ^(١٠) ، فَنَحْنُ نُطَرِّفُكُمْ بِطَرَفِهَا ^(١١) ، وَنُطْلِعُكُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ بِطَرَفِهَا ؛ وَهُوَ أَنَّنَا لَمَّا أَعَادَنَا اللَّهُ مِنَ التَّمْحِصِصِ ، إِلَى مَثَابَةِ التَّخْصِصِصِ ، مِنْ بَعْدِ الْمَرَامِ الْعَوِصِصِ ، كَحَلَّنَا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ بَصَرَ الْبَصِيرَةِ ، وَوَقَفْنَا عَلَى سَبِيلِهِ مَسَاعِيِ الْحَيَاةِ الْقَصِيرَةِ ، وَرَأَيْنَا كَمَا نُقَلُّ إِلَيْنَا ، وَكُرِّرَ عَلَى مَنْ قَبْلُنَا وَعَلَيْنَا — أَنَّ الدُّنْيَا — وَإِنْ غَرَّ الْغُرُورُ ^(١٢) وَأَنَامَ عَلَى سُرْرِ الْغَفْلَةِ السَّرُورِ ، فَلَمْ يَنْفَعِ الْخُطُورُ ^(١٣) عَلَى أَجْدَاثِ ^(١٤) الْأَحْجَابِ وَالْمُرُورِ ، —

(١) الجنى : ما يجتنى من الشجر وغيره .

(٢) المهتصرة المال ؛ يقال هصرت الفصن : اذا أملتة إليك .

(٣) الطول (بالضم) : خلاف العرض . والطول (بالفتح) : المن ؛ يقال طال عليه : اذا امتن .

(٤) الحصر : العي . وعدم القدرة على الابانة .

(٥) المعاهد : العقد .

(٦) وثر الفراش (بالضم) : وطؤ ولان .

(٨) السبح : الجري .

(٩) كبح الفرس : جذبه إليه باللجام يمنعه عن الجري .

(١٠) الرحمة الثرة : الغزيرة الكثيرة .

(١١) وهي ، وهن : ضعف .

(١٢) جمع طرفة (بالضم) : الشيطان ؛ وفي القرآن : «ولا يغرنكم بالله الغرور» .

(١٣) الخطور : التبختر في المشي .

(١٤) جمع جدث : وهو القبر .

جِسْرُ يُعْبَرُ ، وَمَتَاعٌ لَا يُعْبَطُ مِنْ حُبِّي وَلَا يُخْبَرُ^(١) ، إِنَّمَا هُوَ خَبَرٌ يُخْبَرُ ؛ وَأَنْ
الْحَسْرَةَ بِمِقْدَارِ مَا عَلَى تَرْكِه يُجْبَرُ ، وَأَنْ الْأَعْمَارَ أَخْلَامَ ، وَأَنْ النَّاسَ نِيَامَ ؛ وَرَبِّهَا
رَحَلَ الرَّاحِلُ عَنْ الْخَانِ^(٢) ، وَقَدْ جَلَّلَهُ بِالْأَذَى وَالْدُّخَانِ ، أَوْ تَرَكَ بِهِ طَيْبًا ، وَثَنَاءً
يَقُومُ بَعْدُ لِلْآتِي خَطِيبًا ؛ فَجَعَلْنَا الْعَدْلَ فِي الْأُمُورِ مِلَاكًا^(٣) ، وَالتَّفَقُّدَ لِلشُّغُورِ
مِسْوَاكًا ، وَضَجِيعَ الْمِهَادِ ، حَدِيثَ الْجِهَادِ ، وَأَحْكَامَهُ مَنَاطَ الاجْتِهَادِ ، وَقَوْلَهُ :
«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ^(٤) مِنْ حُجَجِ الْإِسْتِشْهَادِ ؛ وَبَادِرْنَا
رَمَقَ^(٥) الْحِصُونِ الْمُضَاعَةِ وَجَنَحَ^(٦) التَّقِيَّةِ^(٧) دَامَسَ^(٨) ، وَعَوَارِيهَا^(٩) لَا تَرُدُّ يَدَ
لَامِسَ^(١٠) ، وَسَاكُنُهَا بَائِسَ ، وَالْأَعْصَمَ^(١١) فِي شَعَفَاتِهَا^(١٢) مِنْ الْعِصْمَةِ يَائِسَ ؛
فَرَيْنَا بَيْضَ الشَّرَفَاتِ ثَنَائِيهَا ، وَأَفْعَمْنَا بِالْعَذْبِ الْفُرَاتِ رَكَايَاهَا^(١٣) وَغَشِينَا بِالصَّفِيحِ
الْمُضَاعَفِ أَبْوَابَهَا ، وَاحْتَسَبْنَا عِنْدَ مُوَفِّي الْأَجُورِ ثَوَابَهَا ، وَبَيَّضْنَا بِنَاصِيعِ الْكِلْسِ
أَثْوَابَهَا ؛ فَهِيَ الْيَوْمَ تُوهِمُ حَسَّ الْعِيَانِ ، أَنَّهَا قَطَعَ مِنْ بَيْضِ الْعَنَانِ^(١٤) ، وَتَكَادُ
تَنَاقُلُ قَرُصَ الْبَدْرِ بِالْبَنَانِ ، مَتَكَفَّلَةً لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ فَرْعِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِالْأَمَانِ ؛
وَأَقْرَضْنَا اللَّهَ قَرْضًا ، وَأَوْسَعْنَا مُدَوَّنَةَ الْجَيْشِ^(١٥) عَرْضًا ، وَفَرَضْنَا إِنْصَافَهُ مَعَ الْإِهْلَةِ
قَرْضًا ؛ وَاسْتَنْدْنَا مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ الْغِنَى الْحَمِيدِ إِلَى ظِلِّ لَوَاءٍ ، وَنَبَذْنَا إِلَى الطَّاعِغَةِ

(١) يخبر بنعم ويسر ويكرم .

(٢) الخان المكان الذي ينزله المسافرين ، وهو الفندق .

(٣) ملاك الأمر : ما يقوم به ذلك الأمر .

(٤) يشير إلى الآيات (١٠ — ١٣) من سورة الصف .

(٥) الرمق : بقية الحياة والروح . وفي الكلام تجوز .

(٦) جنح الطريق : جانبه ، وجنح القوم : ناحيتهم .

(٧) التقية : التحفظ .

(٨) ليل دامس : مظلم .

(٩) جمع عارية ؛ وهي المتجردة من الثياب . والعورات : الخلل في الثغر وغيره ، يتخوف منه في الحروب .

(١٠) يقال للمرأة التي تزني : لا ترد يد لامس ؛ أي لا ترد من يريد بها عن نفسها .

(١١) الأعصم : الوعل ، وعصمته : بياض في رجله .

(١٢) الشعفات ، جمع شعفة ، وهي رؤوس الجبال .

(١٣) جمع ركية وهي البئر .

(١٤) العنان : السحاب .

(١٥) يريد الجيش الرسمي الذي كان مدونا في سجلات الدولة . وفي مقدمة الإحاطة ١٩/١ ، ٣٦ وصف للجيش الأندلسي ، وسلاحه ، وأقسامه ، وذكر لمقدار ما كان يأخذه كل شهر .

عنده على سواء^(١) وقلنا : رَبَّنَا أَنْتَ الْعَزِيزُ ، وَكُلُّ جَبَّارٍ لَعَزَكُ ذَلِيلٌ ، وَحِزْبُكَ هُوَ الْكَثِيرُ ، وَمَا سِوَاهُ قَلِيلٌ ؛ أَنْتَ الْكَافِي ، وَوَعْدُكَ الْوَعْدُ الْوَافِي ، فَأَفْضُ^(٢) عَلَيْنَا مَدَارِعُ^(٣) الصَّابِرِينَ ، وَاكْتُبْنَا مِنَ الْفَائِزِينَ بِحُظُوظِ رِضَاكَ الظَّافِرِينَ ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

فَنَحْرُكُنَا أَوَّلَ الْحَرَكَاتِ ، وَفَاتِحَةَ مُصْحَفِ الْبَرَكَاتِ ، فِي خِيفَةٍ مِنَ الْحُشُودِ ، وَاقْتِصَارِ عَلَى مَا يَحْضُرْتَنَا مِنَ الْعَسَاكِرِ الْمَظْفُورَةِ وَالْجُنُودِ ، إِلَى حِصْنِ آشَرَ^(٤) الْبَازِي الْمُطِلِّ ، وَرِكَابِ الْعَدُوِّ الضَّالِّ الْمُضِلِّ ، وَمُهِدِي نَفْثَاتِ^(٥) الصِّلِ^(٦) ، عَلَى امْتِنَاعِهِ وَارْتِفَاعِهِ ، وَسُمُومِ يَفَاعِهِ^(٧) ، وَمَا يَذُلُّ الْعَدُوَّ فِيهِ مِنْ اسْتِعْدَادِهِ ، وَتَوْفِيرِ أُسْلِحَتِهِ وَأَزْوَادِهِ ، وَانْتِخَابِ أَنْجَادِهِ ؛ فَصَلِّينَا بِنَفْسِنَا نَارَهُ ، وَزَاوَدْنَا عَلَيْهِ الشَّهَادَةَ نُصَابِرُ أَوَارَهُ^(٨) وَنَلْقَى بِالْجَوَارِحِ الْعَزِيزَةِ سِهَامَهُ الْمَسْمُومَةَ ، وَجَلَاءَ مِدَّةِ الْمَلْمُومَةِ^(٩) وَأَحْجَارِهِ ، حَتَّى قَرَعْنَا^(١٠) بِحَوْلٍ مِنْ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ — أَبْرَاجَهُ الْمَنِيعَةَ وَأَسْوَارَهُ ، وَكَفَفْنَا عَنْ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ أَضْرَارَهُ ، بَعْدَ أَنْ اسْتَصَفْنَا إِلَيْهِ حِصْنَ السَّهْلَةِ جَارَهُ ؛ وَرَحَلْنَا عَنْهُ بَعْدَ أَنْ شَحْنَاهُ رَابِطَةً وَحَامِيَةً ، وَأَزْوَادًا نَامِيَةً ، وَعَمَلْنَا بِيَدِنَا فِي رَمِّ مَا ثَلَمَ الْقِتَالِ ، وَبَقَرٍ مِنْ بَطُونِ مُسَابِقَةِ الرِّجَالِ ، وَاقْتَدَيْنَا بِنَبِيِّنَا — صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ — فِي الْخَنْدَقِ^(١١) لَمَّا حَمَى ذَلِكَ الْمَجَالُ ، وَوَقَعَ الْإِرْتِجَازُ الْمَنْقُولُ حَدِيثُهُ وَالْإِرْتِجَالُ^(١٢) ؛ وَمَا كَانَ لِيَقَرَّ لِلْإِسْلَامِ مَعَ تَرْكِهِ الْقَرَارِ ، وَقَدْ كَثَبَ الْجَوَارِ ،

(١) نَبَذَ الْعَهْدَ : نَقَضَهُ ؛ وَأَلْقَاهُ إِلَى مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ . وَالتَّعْبِيرُ مُقْتَبَسٌ مِنَ الْآيَةِ ٥٨ مِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ .
(٢) أَفْضُ : أَفْرَغَ .

(٣) جَمَعَ مَدْرَعَ : وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الثِّيَابِ .

(٤) حِصْنُ آشَرَ : يَقَعُ إِلَى الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ لِحِصْنِ وَرْطَةِ ، عَلَى ضَفَةِ رَافِدٍ مِنْ رَوَافِدِ نَهْرِ شَنْبِيلِ .

(٥) نَفَثَتِ الْحَيَّةُ السَّمَّ : إِذَا لَسَعَتْ بِأَنْفِهَا ، فَإِذَا عَضَتْ بِأُفْرِجِهَا قِيلَ : نَشَطَتْ .

(٦) الصِّلُ (بِالْكَسْرِ) : الْحَيَّةُ الَّتِي لَا تَنْفَعُ فِيهَا الرِّقِيَّةُ .

(٧) الْيَفَاعُ : مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ .

(٨) الْأَوَارُ (بِالضَّمِّ) : حَرَارَةُ النَّارِ ، وَالشَّمْسُ ، وَالْعَطَشُ .

(٩) جَلَامِدَةٌ ، جَمَعَ جَلَمِدٌ ؛ وَهُوَ الصَّخْرُ . وَالْمَلْمُومَةُ : الْمُسْتَدِيرَةُ الصَّلْبَةُ .

(١٠) قَرَعْنَا : عَلَوْنَا .

(١١) كَانَتْ غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ . الطَّبْرِي ٤٣/٣ .

(١٢) نَقَلَ السَّهْلِيَّ فِي الرُّوْضِ الْأَنْفِ عَنْ أَبِي عُمَانَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَلِّ الْهَدْيِيِّ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَرْتَجِزُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَيَقُولُ :

بِسْمِ اللَّهِ وَبِهِ يَدْنِيَا =

وَتَدَاعَى الدَّعْرَةُ^(١) وَتَعَاوَى الشَّرَارُ^(٢) .

وقد كنا أغرينا من بالجهة الغربية من المسلمين بمدينة بُرْغَةِ التي سدت بين القاعدتين رُنْدَةً ومالقة الطريق ، وألبست ذُلَّ الفراق ذلك الفريق ، ومنعتهما أن يُسَيِّغا الرِّيق ؛ فلا سبيل إلى الإمام ، لطيف المنام ، إلا في الأحلام ، ولا رسالة إلا في أَجْنَحَةِ هُدُلِ^(٣) الْحَمَام ؛ فَيَسِّرَ اللَّهُ فَتَحَهَا ، وَعَجَّلَ مَنَحَهَا ، بعد حَرْبٍ انبَثَّتْ فيها النُّحُورُ ، وَتَرَيَّنَتْ الحُورُ . وَتَبَعَ هَذِهِ الْأُمُّ بَنَاتُ شَهِيرَةٍ ، وَبُقِعَ لِلزَّرْعِ وَالضَّرْعِ خَيْرَةٌ^(٤) ، فَشَفِي الشَّغَرُ مِنْ بُوسِهِ ، وَتَهَلَّلَ وَجْهُ الْإِسْلَامِ بِتِلْكَ النَّاحِيَةِ النَّاجِيَةِ بَعْدَ عَبُوسَةٍ .

ثم أَعْمَلْنَا الحَرَكَةَ إِلَى مَدِينَةِ إِطْرِيرَةٍ^(٥) ، عَلَى بُعْدِ الْمَدَى ، وَتَغْلُغُهَا فِي بِلَادِ الْعَدَا ، وَاقْتِحَامِ هَوْلِ الْفَلَا وَغَوْلِ الرَّدَى ؛ مَدِينَةٍ تَبَنَّتْهَا حُمْصُ^(٦) فَأَوْسَعَتْ الدَّارَ ، وَأَغْلَتْ الشَّوَارَ^(٧) ، وَرَاعَتْ الْاسْتِكْثَارَ ، وَبَسَطَتْ الْإِعْتِمَارَ^(٨) ؛ رَجَّعَ لَدَيْنَا قَصْدَهَا عَلَى الْبُعْدِ ، وَالطَّرِيقَ الْجَعْدَ ، مَا أَسْفَتْ^(٩) بِهِ السُّلَيْمِينَ مِنْ اسْتِثْصَالِ طَائِفَةٍ مِنْ أَسْرَاهِمَ ، مَرُّوا بِهَا آمَنِينَ ، وَبَطَائِرُهَا الْمَشُومَ مَتَمِّمِينَ ، قَدْ أَنَهَكَهُمْ^(١٠)

= ولو عبدنا غيره شقينا
فحبذا ربنا وجب دينا

سيرة ابن هشام ٢٢٧/٣ ، ٢٢٨ .

(١) رجل داعر (بالمهمله) : يسرق ، يزني ، ويؤذي الناس ؛ والجمع دعرة .

(٢) تعاوت الشرار : تجمعت للفتنة ، وتعاووا عليه : تعاونوا وتساعدوا .

(٣) الهديل : ذكر الحمام . والجمع هدل ، كسرير وسرر .

(٤) الخيرة : المختار من كل شيء ؛ يريد : بقاع مختارة للزروع والضرع .

(٥) اطريرة : (Ultrera) تقع الجنوب الشرقي من إشبيلية على بعد ٣٩ كلم ، وقد ضببط بكسر الهجمة وسكون الطاء .

(٦) يريد إشبيلية ؛ ساءها حمص جند بني أمية الذي نزل بها حين جاء من حمص الشام . وقد فعلوا ذلك في كثير من مدن الأندلس . ياقوت (معجم البلدان) .

(٧) الشوار : متاع البيت ؛ ويريد به ما تعارف عليه الفقهاء ، مما يشتري من الصداق الذي يدفعه الزوج ؛ وتجهز به الزوجة من حلى ، وغطاء ، ووطاء الخ ، ذلك لأنه جعل «حمص» أما لاطريرة قد زوجها وجهازها ، فتأملت — لما في الأم من حب لابنتها — في هذا الجهاز الخ . فجاء بالألفاظ الفقهية بمعانيها التي اصطلاحوا عليها .

(٨) يريد بالاعتمار : الاستعمار ، والاستغلال .

(٩) أسفاه : أطاشه حلمه ، وحمله على الطيش .

(١٠) أنهكهم : أجهدهم ، وأضناهم .

الاعتقال ، والقُيُودُ الثِقَالُ ، وأضرعهم الأسار وجلَّلهم الإنكسار ، فجَدَّلوهم^(١) في مَضْرَعٍ واحدٍ ، وتركوهم عِبرةً للرَّائي والمُشاهد ، وأهدوا بوقِيعَتِهِم إلى الإسلام تُكُلُّ الواجد^(٢) ، وترّة الماجد^(٣) ؛ فكَبَسْنَاهَا كَبْسًا ، وفجَّأْنَاهَا بِإِلْهَامٍ مَن لا يَضِلُّ ولا يَنْسَى وصَبَّحَتِهَا الخيلُ ، ثم تلاحق الرَّجُلُ لَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ ، وحاك بها الويلُ ؛ فأبيع منها الدِّمَارُ^(٤) ، وأخذها الدِّمَارُ ، ومُحِقَّتْ^(٥) من مصانعها البيضُ الأَهْلَةُ وخَسِفَتِ الأَقْفَارُ ، وشُفِيَتْ من دماءِ أهلِها الضُّلُوعُ الحَرَارُ^(٦) ، وسلَّطت على هياكلها النَّارُ ، واستولى على الآلاف العديدة من سَبِيْهَا ، وانتهى إلى إِشْبِيلِيَّةِ الثَّكَلِي المَغَارِ^(٧) فجَلَّلَ وجوهَ مَنْ بها من كبار النِّصْرَانِيَّةِ الصَّغَارِ^(٨) ، واستولت الأيدي على ما لا يسعه الوصف ولا تُقَلِّه^(٩) الأوقار^(١٠) .

وَعَدْنَا والأَرْضُ تَمُوجُ سَبِيًّا ، لم نَتْرُكْ بِعَفْرَيْنَ شَيْلًا^(١١) ولا بَوَجْرَةَ طَبِيًّا^(١٢) ، والعَقَائِلُ^(١٣) حَسْرَى ، والْعِيُونُ يَبْهَرُهَا الصُّنْعُ الأَسْرَى^(١٤) وَصُبْحُ السُّرَى قَدْ حُمِدَ مِنْ بَعْدِ الْمَسْرَى^(١٥) ، فسُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى^(١٦) ؛ وَلِسَانُ الْحَمِيَّةِ يُنَادِي ، في تِلْكَ الكُنَائِسِ الْمُخْرَبَةِ والنُّوَادِي : يا لثَارَاتِ الأَسْرَى !

(١) فجَدَّلوهم : صرعوهم .

(٢) الثَّكَلُ : فقد المرأة ولدها ، وفقد الرجل ولده أيضا ، والواجد : الغضبان .

(٣) الترة : الذحل والثَّار . والماجد : الكريم ، ومن له آباء متقدمون في الشرف .

(٤) الدمار : ما وراء الرجل مما يحق له ان يحميهِ . والدِّمَارُ (بالمهمله) : الهلاك .

(٥) مُحِقَّتْ : النقصان وذهاب البكَّة . لسان العرب (محق) .

(٦) الضلوع الحَرَارُ : العطشى .

(٧) المغار : مصدر ميمي بمعنى الإغارة .

(٨) جَلَّلَ وجوههم : عم وجوههم . والصغار : الذل .

(٩) أَقَلَّ الشَّيْءُ : أطاق حملة .

(١٠) الأوقار : جمع وقر ، وهو الجميل . وأكثر ما يستعمل في حمل البغل والحمار .

(١١) عَفْرَيْنَ بِلَدٍ تَكْثُرُ فِيهِ الأَسْوَدُ . والشَّيْلُ : ولد الأسود .

(١٢) وَجْرَةٌ : فلاة بوسط نجد ، لا تخلو من شجر ، ومياه ، ومرعى . والوحش فيها كثير . (تاج — وجر) .

(١٣) جَمَعَ عَقِيلَةً ؛ وهي المرأة الكريمة ، النفيسة .

(١٤) الصنع الأسرى : الأشراف ، والأرفع .

(١٥) ينظر إلى المثل : « عند الصباح يحمد القوم السرى » ، الذي يضرب للرجل يحتمل الشقة رجاء الراحة .

أنظر الميدان ٣٠٤/٢ .

(١٦) اقتباس من الآية ١ من سورة الإسراء . وأسرى : سار ليلًا .

ولم يكن إلا أن نُفِلَت الأنفال ^(١) ، وُؤسِمَت بالأَوْضاح الأَغْفَال ^(٢) ، وتميَّزَت الهَوَادِي والأَكْفَال ^(٣) ، وكانَ إلى غَزْوِ مَدِينَةِ جَبَّانِ الاِخْتِفَالِ ، قُدْنَا إِلَيْهَا الجُرْدَ ^(٤) ، تَلَاعَبَ الظَّلَالُ نَشَاطًا ، والأَبْطَالُ تَقَتَّحِمَ الأَخْطَارَ رَضَى بِهَا عِنْدَ اللَّهِ وَاغْتِبَاطًا ، والمُسَهَّدَةُ الدَّلَقُ ^(٥) ، تَسْبِقُ إِلَى الرِقَابِ اسْتِلَالًا وَاخْتِرَاطًا ، وَاسْتَكْثَرْنَا مِنْ عُدَدِ الْقِتَالِ احتِطَاطًا ، وَأَزَحْنَا الْعِلَلَ عَمَّنْ أَرَادَ جِهَادًا مُنْجِيًا غُبَارَهُ مِنْ دُخَانِ جَهَنَّمَ وَرِبَاطًا ، وَنَادَيْنَا الْجِهَادَ ! الْجِهَادَ ! يَا أُمَّةَ الْجِهَادِ ! رَايَةَ النَّبِيِّ الْهَادِي ! الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ الْحِدَادِ ! ؛ فَهَـزَّ النَّدَاءُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى كُلَّ عَارِمٍ وَغَامِرٍ ^(٦) ، وَاتْتَمَرَ الْجَمُّ مِنْ دَعْوَى الْحَقِّ إِلَى أَمْرِ آمِرٍ ، وَأَتَى النَّاسُ مِنَ الْفُجُوجِ ^(٧) الْعَمِيقَةِ رَجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ^(٨) ، وَكَاثَرَتِ الرَّايَاتُ أَزْهَارَ الْبَطَاحِ لَوْنًا وَعَدًّا ، وَسَدَّتِ الْحُشُودُ مَسَالِكَ الطَّرِيقِ الْعَرِيضَةِ سَدًّا ، وَمُدَّ بَحْرُهَا الزَّاخِرَ مَدًّا ، فَلَا يَجِدُ لَهَا النَّظِيرَ وَلَا الْمُنَاطِرَ حَدًّا .

وهذه المَدِينَةُ هِيَ الأُمُّ الْوُلُودِ ، وَالْجَنَّةُ الَّتِي فِي النَّارِ لِسُكَّانِهَا مِنَ الْكُفَّارِ الْخُلُودِ ؛ وَكُرْسِيُّ الْمُلْكِ ، وَمُجَنَّبَةُ ^(٩) الْوَسْطَى مِنَ السِّلْكِ ؛ بَاءَتْ بِالْمَزَايَا الْعَدِيدَةِ وَنَجَحَتْ ، وَعِنْدَ الْوِزَانِ بَغِيرُهَا مِنْ أُمَمَاتٍ ^(١٠) الْبُلْدَانِ ، رَجَحَتْ ، غَابُ الْأَسُودِ ، وَجُحِرَ الْحَيَّاتُ السُّودُ ، وَمُنْصَبٌ ^(١١) التَّمَاثِيلِ الْهَائِلَةِ ، وَمُعَلَّقُ النُّوَاقِيسِ الْمُصْلَصَةِ .

-
- (١) الأنفال : جمع نفل ؛ وهو الغنيمة : ونفلت : أعطيت .
(٢) الأَوْضاح ، جمع وضع ؛ وهو البياض . والَاغْفَال : الاراضي الموات ؛ يقال ارض عفل : لا علم بها ، ولا سمه .
(٣) هوادى كل شيء : أوائله . يريد : تميز الشجعان الذين كانوا يتصدرون المعركة ، من الاكفال (جمع كفل) : وهم الذين يكونون في مؤخر الموقعة همتهم التأخر ، والفرار .
(٤) جمع أجرد ؛ وهو الفرس القصير الشعر ، وذلك في علامات العتق والكرم .
(٥) سيف دلق : سهل الخروج من غمده ؛ والجمع : دلق .
(٦) العامر من الأرض : المستغل . والغامر : الذي يغمره الماء ؛ ويراد به الارض التي لم تستثمر . يريد : أقبل الناس من كل جانب .
(٧) جمع فج ؛ وهو الطريق البعيد ، والواسع ، والذي بين جبلين .
(٨) الحمل الضامر : الخفيف الجسم .
(٩) المجنبة : التي تأخذ مكانها جانب الجوهرة الوسطى من العقد . يريد ان مدينة جيان تحتل المرتبة الثانية بالقياس الى حضرة الملك .
(١٠) أمات ، جمع أم ؛ ويغلب أن تأتي جمعاً لأم ما لا يعقل . وانظر اللسان «أم» ، «أمة» .
(١١) منصب اسم مكان ، بمعنى الموضع الذي أقيمت فيه هذه التماثيل .

فَأَذْنَبْنَا إِلَيْهَا الْمَرَاحِلَ ، وَعَيْنُنَا بِبَحَارِ الْمُحِلَّاتِ الْمُسْتَقِلَّاتِ مِنْهَا السَّاحِلَ ^(١) ، وَلَمَّا أَكْثَبْنَا ^(٢) جَوَارَهَا ، وَكِدْنَا نَلْتَمِجَ ^(٣) نَارَهَا ، تَحَرَّكْنَا إِلَيْهَا وَوَشَّاحَ ^(٤) الْأُفُقَ الْمَرْقُومَ ، بَزْهَرِ النُّجُومِ ، قَدْ دَارَ دَائِرُهُ ، وَاللَّيْلُ مِنْ خَوْفِ الصَّبَاحِ ، عَلَى سَطْحِهِ الْمُسْتَبَاحِ ، قَدْ شَابَتْ غَدَائِرُهُ ، وَالنَّسْرُ ^(٥) يُزْفَرُ بِالْيَمْنِ طَائِرُهُ ، وَالسَّمَاءُ الرَّامِحُ ^(٦) يَثَارُ بِعِزِّ الْإِسْلَامِ نَائِرُهُ ، وَالنَّعَائِمُ رَاعِدَةٌ ^(٧) فَرَائِصُ ^(٨) الْجَسَدِ ، مِنْ خَوْفِ الْأَسَدِ ^(٩) ، وَالْقَوْسُ ^(١٠) يُرْسِلُ سَهْمَ السَّعَادَةِ ^(١١) ، بِوَتْرِ الْعَادَةِ ، إِلَى أَهْدَافِ النِّعَمِ الْمُعَادَةِ ، وَالْجُوزَاءُ ^(١٢) عَابِرَةٌ نَهْرَ الْمَجَرَّةِ ^(١) ، وَالزُّهْرَةُ ^(٢) تَغَارُ مِنَ الشِّعْرِي الْعُبُورِ ^(٣)

(١) أحل فلان أهله بمكان كذا : جعلهم يحلونه . واستقل القوم : ذهبوا وارتحلوا .

(٢) اكتب : قارب ، ودنا من الشيء .

(٣) التمجع : ابصره بنظر خفيف .

(٤) الوشاح : شيء ينسج عريضا من أديم ، ويرضع بالجواهر ، وتشده المرأة بين عاتقها وكشحتها .

(٥) النسران : كوكبان شاميان ؛ أحدهما واقع ، والاخر طائر . فالواقع كوكب نير ، خلفه كوكبان اصغر منه ، يكونان معه صورة الاتافي ؛ ويقولون : هما جناحاه وقد ضمها إليه حين وقع . أما الطائر ؛ فهو ازاء النسر الواقع في ناحية الشمال ، وتفصل بينهما المجرة ؛ وهو كوكب منير بين كوكبين تحيلهما جناحيه قد نشرهما . وانظر كتاب «الانواء» لابن قتيبة ص ١٣٣ لسان (نسر) .

(٦) السماء الرامح : نجم نير شمالي ، خلفه كوكبان بمستزلة الرمح له . وهو نجم لا نوه له ويقابله السماء الأعزل ؛ وهو من منازل القمر .

(٧) النعائم : منزلة من منازل القمر ؛ وهي أربعة كواكب مربعة على طرف المجرة . وهناك نعائم واردة ، ونعائم صادرة ؛ فالواردة منها هي التي ترد في نهر المجرة ، والصادرة قد وردت وصدرت ، أي رجعت عنها . لسان العرب (نعم) .

(٨) راعدة الفرائص : فزعة ، مرتجفة ، والفرائص ، جمع فريضة ، وهي مرجع الكتف الى الخاصرة في وسط الجنب .

(٩) الأسد : أحد البروج الشمالية الاثني عشر . وكواكبه ٣٤ كوكبا .

(١٠) القوس ، ويسمى الرامي : أحد البروج الاثني عشر من البروج الجنوبية ؛ وهو كوكبة على صورة شخص نصفه الأعلى انسان ، بيده قوس يرمي به ، والنصف الأسفل منه على صورة فرس . وكواكبه ٣١ كوكبا ، ويقع خلف كوكبة العقرب .

(١١) السهم — في مصطلح النجمين : عبارة عن موضع في دائرة فلك البروج ، يقع بين طولي كوكبين من الكواكب السيارة . ولهم في استخراجهم طرق حسابية معروفة ؛ ولهذا الموضع المعين دلالة خاصة . وأقوى السهام : سهم السعادة ، وسهم الغيب .

(١٢) الجوزاء ، وتسمى التوأمن : بروج من بروج الشمس الشمالية ؛ وهي صورة انسانين رأسها ، وسائر كواكبها في الشمال والمشرق عن اجرة ، وأرجلها الى الجنوب والمغرب في نفس المجرة ؛ وهما كالمتعانقين . كواكبه ٢٥ كوكبا .

(١) المجرة : البياض الذي يرى في السماء ، وتسمى عند العوام بسيل التباين ؛ وهي كواكب صفار ، متقاربة ، متشابكة لا تميز حسا ، بل هي لشدة تكاثفها وصغرها صارت كأنها لطخات سحابية ؛ والعرب تسميها أم النجوم لاجتماع النجوم فيها . عجائب المخلوقات للقزويني ٣٢/١ وما بعدها .

بالصَّرة ؛ وعُطارد^(٤) يَنْدِي فِي حَبْلِ الحروب ، على الْبَلَدِ الْمَخْرُوبِ^(٥) وَيُلْحِمُهُ ، وَيُنَظِرُ على أَشْكَالِهَا الْهِنْدَسِيَّةِ فَيَفْجِئُهُ ، وَالْأَحْمَرُ^(٦) يَنْهَرُ ، وَبَعْلَمِهِ الْأَبْيَضُ يُغْرِى وَيَنْهَرُ ، وَالْمُشْتَرِي يُبْذِي فِي فَضْلِ الْجِهَادِ وَيُعِيدُ ، وَيُزَاحِمُ فِي الْحَلَقَاتِ ، على مَا لِلْسَّعَادَةِ مِنَ الصَّفَقَاتِ ، وَيَزِيدُ^(٧) ؛ وَزُحَلُ^(٨) عَنِ الطَّالِعِ^(٩) مُتَرْحِلُ^(١٠) ، وَعَنِ الْعَاشِرِ^(١١) مُتَرْحِلُ ، وَفِي زَلْقِ السُّعُودِ وَحِلْ ؛ وَالْبَدْرِ يَطَالِعُ حَجَرَ الْمُنْجَنِّيقِ^(١٢) ، كَيْفَ يَهْوِي إِلَى النَّيْقِ^(١٣) ، وَمَطْلِعُ الشَّمْسِ يُرْقَبُ ، وَجِدَارُ الْأَفْقِ يَكَادُ بِالْعُيُونِ عَنْهَا يُنْقَبُ .

ولما فشا سِرُّ الصُّبْحِ ، وَاهْتَرَّتْ أَعْطَافُ الرَّايَاتِ بِتَحِيَّاتِ مُبَشِّرَاتِ الرِّيحِ أَطْلَلْنَا^(١٤) عَلَيْهَا إِطْلَالَ الْأَسْوَدِ عَلَى الْفَرَائِسِ ، وَالْفُحُولِ عَلَى الْعَرَائِسِ ؛ فَنَظَرْنَا مَنْظَرًا يَرُوعُ بِأَسَا وَمَنْعَةً^(١٥) ، وَيَرُوقُ وَضِعًا وَصَنْعَةً ، تَلَفَّعَتْ^(١٦) مَعَاقِلُهُ الشَّمَّ لِلْسَّحَابِ بِبُرُودِ ،

(٢) الزهرة ، كَثُودَةٌ : نَجْمٌ أَيْضُ مَضِيٍّ مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ السَّيَّارَةِ ، وَيُسَمِّيهِا الْمُنْجَمُونَ السَّعْدَ الْأَصْفَرَ ، لِأَنَّهَا فِي السَّعَادَةِ دُونَ الْمُشْتَرِي . تَاجُ الْعُرُوسِ (زهر) .

(٣) الشَّعْرِي الْعُبُورُ (بِكْسَرِ الشَّيْنِ) : كَوْكَبٌ نِيرٌ مِنْ كَوْكَبَةِ الْجُوزَاءِ ، فِي حِجْمِ الزَّهْرَةِ وَنُورِهَا تَقْرِيبًا ؛ يُقَالُ لَهَا الشَّعْرَى الْعُبُورُ ، وَمَرْزَمُ الشَّعْرَى ، ذَكَرَتْ فِي الْقُرْآنِ : «وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى» (٤٩ من سورة النجم) . وَقَدْ عَبْدَهَا قَوْمٌ مِنَ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . وَسَمِيَتْ الْعُبُورُ لِأَنَّهَا — فِيمَا يَزْعُمُونَ — عَبَرَتْ السَّمَاءَ عَرْضًا ، وَلَمْ يَعْبرَهَا غَيْرُهَا ، فَلِذَلِكَ عَبْدُوهَا . تَاجُ الْعُرُوسِ (شعر) .

(٤) عَطَّارِدُ ، وَيُسَمَّى — فِي عَرَفِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ — الْكَاتِبُ : كَوْكَبٌ مِنَ السَّبْعَةِ السَّيَّارَةِ . وَاقْتَرَانُهُ بِزُحَلٍ يَدُلُّ عَلَى الْخُسْفِ وَالزَّلْزَالِ ، وَبِالْمَرِيخِ يَدُلُّ عَلَى الشَّدَائِدِ .

(٥) الْمَحْرُوبُ : الْمَسْلُوبُ الْمَالُ ، الْمَنْهُوبُ .

(٦) الْأَحْمَرُ وَهُوَ الْمَرِيخُ : دَلِيلٌ عَلَى الْحُرُوبِ وَأَصْحَابِهَا ؛ فَإِذَا كَانَ فِي الْبَرَجِ الرَّابِعِ مِنَ الطَّالِعِ ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى كَثْرَةِ الْقَتْلِ فِي الْحُرُوبِ ، وَشِدَّةِ الْهَوْلِ .

(٧) زُحَلُ ، وَالْمُشْتَرِي ، وَالْمَرِيخُ ، إِذَا اقْتَرَنَتْ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، أَوْ تَنَاظَرَتْ ؛ بِأَنَّ كَانَتْ نَازِرَةً بِبَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ نَظَرَ عَدَاوَةٍ ، وَذَلِكَ عِنْدَ التَّرْبِيعِ وَالْمُقَابَلَةِ — إِذَا حَصَلَ ذَلِكَ عِنْدَ حُلُولِ الشَّمْسِ بِرَأْسِ الْحَمَلِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى وَقُوعِ حَرْبٍ .

(٨) رَحْلُ ، وَهُوَ كَيُوبَانُ : إِذَا اتَّصَلَ بِهِ الْقَمَرُ اتِّصَالَ عَدَاوَةٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى الْبَلَايَا وَالرَّزَايَا .

(٩) الطَّالِعُ : هُوَ الْبَرَجُ الَّذِي عَلَى الْاَفْقِ الشَّرْقِيِّ .

(١٠) زُحَلُ عَنْ مَكَانِهِ : زَلٌّ ، وَحَادٌ .

(١١) الْعَاشِرُ : هُوَ الْبَرَجُ الَّذِي يَقَعُ فَوْقَ سَمْتِ الرَّأْسِ .

(١٢) الْمُنْجَنِّيقُ (بِفَتْحِ الْمِيمِ وَكَسْرِهَا) : آلَةٌ لِرَمْيِ الْحِجَارَةِ عَلَى الْعَدُوِّ فِي الْحَرْبِ . شَفَاءُ الْغَلِيلِ ص ١٣٣ .

(١٣) النَّيْقُ : أَرَفَعَ مَوْضِعَ فِي الْجَبَلِ .

(١٤) أَطْلَلْنَا عَلَيْهَا : أَشْرَفْنَا عَلَيْهَا .

(١٥) مَنْعَةٌ : قُوَّةٌ تَمْنَعُ مَنْ يَرِيدُهُ بِسُوءٍ .

(١٦) تَلَفَّعَتْ : تَلَفَّقَتْ .

ووردت من عُدر المُن في بُرود^(١) ، وأُشرعت لاقتطاف أزهار النجوم والذراع بين
النطاق معاصم رُود^(٢) ، وبلداً يحبي الماسح والذراع^(٣) ، وينظمُ المحاني
والأجارع^(٤) ؛ فقلنا : اللهم نَفْلُهُ أيدي عبادك ، وأرنا فيه آيةً من آيات جهادك ،
ونزلنا بساحتها العريضة المتون ، نُزُول الغيث الهتون ، وتيسمنا من فحصها بسورة
«التين والزيتون» ، مبتثرةً من أمان الرحان للبلد المفتون ؛ وأعجلنا الناس بحمّة
نُفوسهم النفيسة ، وسجّية شجاعتهم البئيسة^(٥) ، عن أن تبوأ^(٦) للقتال
المقاعد^(٧) ، وتُدني بأسماع شهير النفير منهم الأبعاد ، وقبل أن يلتقي الخديم
بالمخدوم ، ويركع المنجنيق ركعتي القدوم ؛ فدفعوا من أَصْحَر إليهم من الفرسان .
وسبق إلى حومة الميدان^(٨) ، حتى أحجروهم في البلد ، وسلبوهم لباسَ
الجلد^(٩) ، في موقفٍ يذهل الوالد عن الولد ، صابت السهام فيه غماما^(١٠) ، وطارت
كأسراب الحمام تُهدى حياما^(١١) ، واضحت القنا قصداً^(١٢) ، بعد أن كانت شهاباً
رصدّاً ؛ وماج بحر القتّام^(١٣) بأمواج النُصول ، وأخذ الأرض الرّجفان لِرّزال الصّباح
الموصول ؛ فلا ترى إلاّ شهيداً تظلّل مصرعه الحور^(١٤) ، وصريعاً تقذف به الى
الساحل تلك البحور ، ونواشب^(١٥) تبأى^(١٦) بها الوجوه الوجيه عند الله والنّحور؛

(١) البرود من الشراب : ما يبرد الغلة .

(٢) رخصة ناعمة .

(٣) مسح الارض : قاس مساحتها . وذرعها : قاسها بالذراع .

(٤) المحاني ، جمع محنة ؛ وهي منعرج الوادي ، وما انحنى من الارض . والاجارع ، جمع أجرع ؛ وهي
الارض الطيبة المنبت ، والارض فيها حزونة .

(٥) الشديدة البأس .

(٦) تبوأ : تهبأ .

(٧) المقاعد : مواقف للقتال تعين لكل واحد من المقاتلين ؛ يعني عجلنا بالهجوم قبل ان يتخذ كل مقاتل
مكاناً معيناً ، اشارة الى الآية «واذ غدوت من أهلك تبويء المؤمنين مقاعد للقتال» (١٢١ من سورة آل
عمران) .

(٨) حومة الميدان : أسد موضع فيه وقت القتال .

(٩) الجلد : القوة ، والصبر .

(١٠) صابت السهام غماما : نزلت كالغمام لكثرتها .

(١١) الحمام (بالكسر) : قضاء الموت وقدره .

(١٢) قصداً : قطعاً ؛ يقال : القنا قصد أي مكسورة .

(١٣) القتّام : الغبار .

(١٤) جمع حوراء ؛ وهي التي اشتد بياض عيناها ، وسواد سوادها .

(١٥) نواشب : سهام ناشبة في وجوه المحاربين ، أو في أعناقهم .

(١٦) تبأى بها : تنشق .

فَالْمِقْضَبُ ^(١) ، فَوْدُهُ ^(٢) يُخْضَبُ ، وَالْأَسْمَرُ ، غُصْنُهُ يُسْتَمَرُّ ، وَالْمِغْفَرُ ^(٣) ،
 حِمَاهُ يَخْفَرُ ، وَظُهُورُ الْقِسِيِّ تُقْصَمُ ^(٤) ، وَعِصْمُ الْجُنْدِ الْكَوَاغِرُ تُفْصَمُ ^(٥) ،
 وَوَرَقُ الْيَلْبِ ^(٦) فِي الْمُنْقَلَبِ يَسْقُطُ ، وَالْبَيْضُ تَكْتَبُ وَالسُّمَرُ تَنْقُطُ ^(٧) ، فَاقْتُنِجْ
 الرِّبْضُ الْأَعْظَمُ لَحِينَهُ ، وَأَظْهَرِ اللَّهُ لَعْيُونِ الْمُبْصِرِينَ وَالْمُسْتَبْصِرِينَ عِزَّةَ دِينِهِ ،
 وَتَبَرَّ الشَّيْطَانَ مِنْ خَدِينِهِ ^(٨) ، وَنَهَبِ الْكَفَّارَ وَخَذُلُوا ، وَبِكُلِّ مَرْصَدٍ جُدُّلُوا ؛ ثُمَّ
 دُخِلَ الْبَلَدُ بَعْدَهُ غِلَابًا ، وَجُلِّلَ ^(٩) قَتْلًا وَاسْتِلَابًا ؛ فَلَا تَسَلْ إِلَّا الطُّبَّاءَ ^(١٠)
 وَالْأَسْلَ ^(١١) عَنْ قِيَامِ سَاعَتِهِ ، وَهَوْلِ يَوْمِهَا وَشَنَاعَتِهِ ، وَتَخْرِيبِ الْمَبَائِتِ ^(١٢) وَالْمَبَانِي ،
 وَغَنَى الْأَيْدِي مِنْ خَزَائِنِ تِلْكَ الْمَغَانِي ، وَنَقْلِ الْوُجُودِ الْأَوَّلِ إِلَى الْوُجُودِ الثَّانِي ^(١٣) ؛
 وَتَخَارِقِ السَّيْفُ فَجَاءَ بَغَيْرِ الْمُعْتَادِ ، وَنَهَلَتْ الْقَنَا الرُّدَيْنِيَّةُ مِنَ الدِّمَاءِ ، حَتَّى
 كَادَتْ تُورِقُ كَالْأَغْصَانِ الْمُغْتَرَسَةِ وَالْأَوْتَادِ ، وَهَمَّتْ أَفْلَاكُ الْقِسِيِّ وَسَحَّتْ ،
 وَأَرْنَتْ حَتَّى بُحَّتْ ، وَنَفَدَتْ مَوَادُّهَا فَشَحَّتْ ، مِمَّا أَلَحَّتْ ، وَسَدَّتْ الْمَسَالِكَ
 جِثُّ الْقَتْلَى فَمَنَعَتْ الْعَابِرَ ، وَاسْتَأْصَلَ اللَّهُ مِنْ عَدُوهِ الشَّافَةَ وَقَطَعَ الدَّابِرَ ^(١٤) ،
 وَأَزْلَفَ الشَّهِيدَ وَأَحْسَبَ الصَّابِرَ ^(١٥) ، وَسَبَقَتْ رُسُلُ الْفَتْحِ الَّذِي لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ فِي

(١) سيف مقضب : قطاع .

(٢) الفود : معظم شعر اللمة مما يلي الأذن . وإسناد ذلك للسيف على جهة التوسع .

(٣) المغفر : ما يلبسه الدارع على رأسه من الزرد ونحوه .

(٤) تقصم : تكسر .

(٥) عصم الكوافر : جمع عصمة ، وأصل العصمة الجبل ، وكل ما أمسك شيئاً فقد عصمه . والكوافر جمع كافرة وهو يريد هنا أن الجند جماعات ، فصح له جمع فاعل على فواعل . تقصم : تقطع وتنفضل . مقتبس من الآية : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » .

(٦) اليلب : الدروع ، والدروق .

(٧) البيض : السيوف . والأسمر : الرماح .

(٨) الخدين : الصديق .

(٩) جلل قتلاً : عمه القتل .

(١٠) الظبا ، جمع ظبة ؛ وهي حد السيف ، والسنان ، والنصل ، والخنجر ، ونحوها .

(١١) الأسل : عيدان طوال دفاق مستوية لا ورق لها ؛ وتسمى الرماح والقنا أسلا ، على التشبيه بها في الطول ، والاستواء ، والدقة .

(١٢) المبات ، جمع مبيت ، مكان البيوتنة .

(١٣) يعني بالوجود الأول : الوجود الخارجي ، وهو المرئي بالعين الملموس . أما الوجود الثاني فهو الوجود الذهني ، والمعنى أن هذه المدينة قد أصبحت موجودة في الأذهان صورتها بعد أن كانت موجودة العين . وانظر معيار العلم للغزالي ص ٣٧ . وشرح المقاصد للسعد ٥٧/١ (طبع استانبول سنة ١٢٧٧ هـ) .

(١٤) الشافة : الأصل ، واستأصل شافته أي أصله . وقطع الدابر : استأصل آخرهم .

(١٥) أزلف الشهيد : قربته إليه . وأحسب الصابر : اعطاه ما يرضي ، أو اعطاه حتى قال حسبي .

الزمن الغابر . تَنْقُلُ البُشْرَى من أفواه المحابر ، إلى آذان المنابر .
أَقَمْنَا بها أياماً نَعْقِرُ الأشجار^(١) ، ونَسْتَأْصِلُ بالتَّخْرِيبِ الوجار^(٢) ، ولسانُ الانتقام
من عِبْدَةِ الأصنام ، يُنادي : يا لثاراتِ الإسْكَندَرِيَّةِ^(٣) تَشْفِياً من الفِجار^(٤) ،
ورعياً لحق الجار ؛ وقفلنا وأجنحةَ الرِّايات ، برياحِ العِنايات ، خافقة وأُوفاق^(٥) ،
التَّوفيق ، الناشئة من خُطوطِ الطَّرِيق ، مُوافِقةٌ ، وأسواقُ العِزِّ بالله نافقةٌ ، وحُمَلاءُ
الرفقِ مَصاحِبَةٌ — والحمدُ لله مُرافقةٌ ؛ وقد ضاقت ذُرُوعُ الجبال ، عن أعناقِ
الصَّهْبِ السِّبَالِ^(٦) ، ورُفِعت على الأكفال ، رُدَفاء كرائم الأنفال ، وقُلِقَلت من
النَّواقيس أجرام الجبال ، بالهِنْدَامِ^(٧) والأَحْتِيال ؛ وهَلَكَ بِمَهْلِكِ هذه الأُمِّ هذه
الأُمِّ بناتُ كَنٍّ يَرْتَضِعْنَ ثُدَيَّها الحوافِل^(٨) ، ويستوثِرن حِجرها الكافل ؛ شمل
التَّخْرِيبُ أسوارها ، وعَجَلت النَّارُ بوارها .

-
- (١) نَعْقِرُ الأشجار : نَقَطِعُ رُؤُوسَها ، فَنَيْبِس .
(٢) الوجار (بالكسر ويفتح) : جحر الضبع ، والاسد ، والذئب ونحوها .
(٣) يشير ابن الخطيب الى «الواقعة» التي حدثت بالاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ ، وعملها ان حاكم قبرص ،
انتزغية حاكم الاسكندرية في الحجاز للحج ، فهاجم البلد في اسطول بلغت قطعه نحو ٧٠ فيا قالوا ،
وقد خرج أهل الاسكندرية للترهة غير مقدرين للخطر ، وكانت الحامية الموجودة قليلة ، والأسوار
والحصون خالية من المدافعين ، فهاجم العدو الأهالي العز الأمنين ، ففروا الى المدينة ، وأغلَقوا عليهم
الأبواب ، فأحرقها العدو واقترح البلد عليهم .. فكانت مذابح هتكت فيها حرمت . وانظر تفصيلها في
العمرم ٥ .
(٤) شَبَّ مهاجمة الاسكندرية الآمنة بحرب «الفجار» ، التي سميت بذلك لما استحل فيها من حرمت ،
حيث كانت في الاشهر الحرم .
(٥) أوفاق ، جمع وفق ؛ وهي مربعات تحتوي على بيوت مربعة صغيرة ، وتوضع في تلك البيوت أرقام ، أو
حروف ، على نظام بحيث لا يتكرر عدد في بيتين ، وبحيث يكون مجموع اضلاع المربع ، ومجموع
أقطارها متساوياً ؛ ويسمى الوق — بعد ذلك — بها في أحد اضلاعه من بيوت ؛ فيقال : المثلث ،
والمربع ، والمخمس الخ ؛ وقد يحتوي على مئة من البيوت فيقال : الوق المئني . ويقول أصحاب
الأفق : ان للاعداد — في هذا الوضع — خواص روحانية ، وأثارا عجيبة ، اذا اختير للعمل بها وقت
مناسب ، وساعة شريفة . وكلام ابن الخطيب على التشبيه والتجوز .
(٦) الصَّهْب : جمع أصهب ، وهو الابيض تحالطه حمرة . والسبال : جمع سبله ؛ وهي اللحية ، أو ما
على الشارب من شعر ؛ ويقال للاعداد عامة هم صهب السبال ؛ ذلك لأن الصهوبة في الروم ، وقد
كانوا اعداء العرب ؛ ثم قالوا لكل الاعداء : هم صهب السبال .
(٧) المهندام آلة يمتثل بها على رفع أو تحريك الأشياء الثقيلة التي لا تستطيع قوى الانسان المجردة ان ترفعها ،
او تحركها . وقد وصف هذه الآلة ابن خلدون في آخر فصل البناء من مقدمته .
(٨) الحوافل : جمع حافلة ، الضرع الممتلئ لبناً .

ثُمَّ تَحَرَّكْنَا بَعْدَهَا حَرَكَةَ الْفَتْحِ ، وَأَرْسَلْنَا دَلَاءَ الْأَدِلَاءِ ^(١) قَبْلَ الْمَنْحِ ^(٢) ، فَبَشَّرَتْ بِالْمَنْحِ ؛ وَقَصَدْنَا مَدِينَةَ أَبْدَةَ ، وَهِيَ ثَانِيَةُ الْجَنَاحَيْنِ ، وَكُبِّرَى الْأَخْتَيْنِ ، وَمُسَاهِمَةُ جِيَّانَ فِي حِينِ الْحَيْنِ ^(٣) ؛ مَدِينَةُ أَخَذَتْ عَرْضَ الْفَضَاءِ الْأَخْرَقِ ^(٤) ، وَتَمَشَّتْ فِيهِ أَرْبَاضُهَا تَمْشِي الْكِتَابَةِ الْجَامِحَةِ فِي الْمُهْرَقِ ^(٥) ؛ الْمُسْتَمْلَةُ عَلَى الْمَتَاجِرِ وَالْمَكَاسِبِ ، وَالْوَضْعُ الْمُنْتَاسِبِ ، وَالْفُلُجُ الْمَغْيِبِي رَيْعُهُ ^(٦) عَمَلُ الْحَاسِبِ وَكَوَارَةُ ^(٧) الدَّبْرِ ^(٨) | اللَّاسِبِ ^(٩) الْمُتَعَدِّدَةِ الْيَعَاسِبِ ^(١٠) ؛ فَأَنَاحَ الْعَقَاءُ ^(١١) بُرْبُوعَهَا الْعَامِرَةَ ، وَدَارَتْ كُؤُوسُ عُقَارِ ^(١٢) الْحُتُوفِ ^(١٣) ، بَيْنَانَ السُّيُوفِ ، عَلَى مُتَدِيرِيهَا الْمُعَاقِرَةِ ^(١٤) ، وَصَبَّحَتْهَا طَلَائِعُ الْفَاقِرَةِ ^(١٥) ، وَأَغْرِيَتْ يَبْطُونُ أَسْوَارَهَا عُوجُ الْمَاعُولِ ^(١٦) ، الْبَاقِرَةِ ^(١٧) ؛ وَدَخَلَتْ مَدِينَتَهَا عُنُودُ السَّيْفِ ، فِي أَسْرَعَ مِنْ خَطَرَةِ الطَّيْفِ ، وَلَا تَسْأَلُ عَنِ الْكَيْفِ ، فَلَمْ يَبْلُغِ الْعَقَاءُ مِنْ مَدِينَةٍ حَافِلَةٍ ، وَعَقِيلَةٍ فِي حُلُلِ الْمَحَاسِنِ رَافِلَةٍ ^(١٨) ، مَا بَلَغَ مِنْ هَذِهِ الْبَائِسَةِ ^(١٩) الَّتِي سَجَدَتْ لِآلِهَةِ النَّيْرَانِ أَبْرَاجُهَا ،

-
- (١) جمع دلو ؛ وهي ما يستقى به . والأدلاء : جمع دليل ، وهو المرشد . ويريد : قدمنا قبل بدء القتال — طلائع لنكشف ما عند العدو من استعداد .
- (٢) المنح : الاستقاء .
- (٣) الحين : الهلاك .
- (٤) الأخرق : البعيد الواسع .
- (٥) المهرق : الصحيفة البيضاء يكتب فيها .
- (٦) الربيع : النماء ، والزيادة ، وأرض مربعة : محضبة ، وهذا هو المراد هنا .
- (٧) الكوار ، والكوارة : شيء يتخذ للنحل من القضبان .
- (٨) الدبر : النحل .
- (٩) لسبته النحلة ؛ لسعته .
- (١٠) اليسوب : أمير النحل . والجمع الصحيح يعاسيب .
- (١١) أناخ الحمل : برك . والعقاء : المحو ، والازالة .
- (١٢) العقار : الخمر .
- (١٣) الحنوف : جمع حنط ؛ وهو الموت .
- (١٤) معافر الخمر : مدمنها ، والجمع : معاقرة : ولعله يريد بمتمدريها ، ديارها .
- (١٥) الفاقرة : الداهية الكاسرة .
- (١٦) جمع معول ؛ وهو الحديد تنقر بها الجبال . أو هو الفأس .
- (١٧) بقر الشيء بقرأ : فتحه ، ووسعه ، وشقه .
- (١٨) امرأة رافلة : تجر ذيلها جراً حسناً إذا مشت .
- (١٩) البائسة : الفقيرة . والتي نزلت بها بلية ترحم من أجلها .

وَتَضَاعَلَ^(١) بِالرَّغَامِ^(٢) مِعْرَاجُهَا ؛ وَضَفَّتْ^(٣) عَلَى أَعْطَافِهَا^(٤) مَلَائِسُ الْخِذْلَانِ ،
وَأَقْفَرَ مِنْ كَنَائِسِهَا كَنَاسٌ^(٥) الْغِرْلَانِ .

ثُمَّ تَاهَبْنَا لَغَزْوِ أُمِّ الْقُرَى الْكَافِرَةِ ، وَخَزَائِنِ الْمَزَايِنِ^(٦) الْوَافِرَةِ ، وَرَبَّةِ الشُّهْرَةِ
السَّافِرَةِ^(٧) ، وَالْأَنْبَاءِ الْمَسَافِرَةِ ؛ قُرْطُبَةَ ، وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَّةُ ! ذَاتِ الْأَرْجَاءِ
الْحَالِيَةِ^(٨) الْكَاسِيَةِ^(٩) ، وَالْأَطْوَادِ الرَّاسِخَةِ الرَّاسِيَةِ ، وَالْمَسْبَاكِ الْمَبَاهِيَةِ ، وَالزَّهْرَاءِ^(١٠)
الزَّاهِيَةِ ، وَالْمَحَاسِنِ غَيْرِ الْمُتَنَاهِيَةِ ؛ حَيْثُ هَالَةُ بَدْرِ السَّمَاءِ قَدْ اسْتَدَارَتْ مِنَ السُّورِ
الْمَشِيدِ الْبِنَاءِ دَاراً ، وَنَهْرِ الْمَجْرَةِ مِنْ نَهْرِهَا الْفَيَاضِ ، الْمَسْلُولِ حُسَامُهُ مِنْ غُمُودِ
الْغِيَاضِ^(١١) ، قَدْ لَصَقَتْ بِهَا جَاراً ، وَفَلَكَ الدُّوْلَابِ ، الْمُعْتَدِلِ الْإِنْقِلَابِ ، قَدْ
اسْتَقَامَ مَدَاراً ، وَرَجَّعَ الْحَنِينَ اشْتِيَاقاً إِلَى الْحَبِيبِ الْأَوَّلِ وَادِّكَاراً^(١٢) حَيْثُ الطَّوْدُ
كَالْتَّاجِ ، يَزْدَانُ بُلُجَيْنِ الْعَذْبِ الْمُجَاجِ^(١٣) ، فَيُزْرِى بِتَاجِ كِسْرَى وَدَارَا ؛ حَيْثُ
قِسِيِّ الْجُسُورِ^(١٤) الْمَدِيدَةِ ، كَأَنَّهَا عُوجُ^(١٥) الْمَطْيِيِّ الْعَدِيدَةِ ، تَعْبُرُ النَّهْرَ قِطَاراً ؛

(١) تضاعل : تصاغروا وذلل .

(٢) الرغام (بالفتح) : التراب .

(٣) ثوب ضاف : سابغ طويل .

(٤) عطفا كل شيء : جانباه ، والجمع اعطاف .

(٥) الكناس : موضع في الشجري يستكن فيه الطيبي ويستقر ، إذا اشتد الحر .

(٦) المزاين : ما يترن به .

(٧) السافرة : الذاهبة كل مذهب .

(٨) الحالية : التي لبست حلياً .

(٩) الكاسية : المكتسية .

(١٠) الزهراء : مدينة في شمال قرطبة على بعد ثلاثة أميال منها ، تحت جبل العروس ؛ بنها الناصر المرواني أبو

المظفر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله أول سنة ٣٢٥ هـ ، وسماها باسم جارية كان يحبها ، اشتهت

أن يبني لها مدينة في جبل العروس ، ويسميا باسمها . وقد وصفها المقرئ في نفع الطيب

٣٤٤/١ — ٣٧٤ صنع ليدن .

(١١) الغيضة : مغيض ماء يجتمع ، فينبت فيه الشجر ؛ وجمعها غياض .

(١٢) يريد أن قرطبة دائمة الحنين إلى الحكم الإسلامي الذي انتظمها منذ الفتح حتى سنة ٦٣٣ هـ ، حيث

سقطت في أيدي الأسيان .

(١٣) الحجاج : العسل ، وبحاج المزن : مطرها .

(١٤) الذي نعرف أن على نهر قرطبة جسرين ، بني الأعظم منها — بأمر عمر بن عبد العزيز — السمح بن

مالك الخولاني . أو عبد الرحمن بن عبيد الله الغامتي ؛ وكانوا يسمونه قنطرة الوادي ، وكانت أقواسه

سبع عشرة قوساً ، سعة الواحدة منها خمسون شبراً . نفع الطيب ٢٢٦/١ ، ٢٤٦ بولاق .

(١٥) جمع عوجاء ؛ وهي الضامرة من الأبل . والمطي : جمع مطية ؛ وهي البعير يمتطي ظهره .

حيث آثار^(١) العامري^(٢) المجاهد^(٣) ، تعَبَقَ^(٤) بين تلك المَعَاهِدِ ، شَذِي مِعْطَاراً ؛ حيثُ كَرَاهِمُ السَّحَابِ ، تَرُورُ عَرَائِسَ الرِّيَاضِ الحَبَابِ ، فَتَحْمِلُ لها مِنَ الدَّرَنِثَارِ ؛ حَيْثُ شَمُولُ الشَّالِ^(٥) تُدَارِ عَلَى الْأَذْوَاحِ^(٦) ، بِالْغُدُوِّ وَالرَّوَّاحِ ، فَتَرَى الْغُصُونِ سُكَارَى ، وَمَا هِيَ بِسُكَارَى ؛ حَيْثُ أَيْدِي الْإِفْتِحَاحِ ، تَفْتَضُّ مِنَ شَقَائِقِ^(٧) الْبِطَاحِ ، أَبْكَاراً ؛ حَيْثُ تُغَوِّرُ الْأَفَاحِ^(٨) الْبَاسِمِ ، تَقْبِلُهَا بِالسَّحَرِ زَوَارُ النَّوَاسِمِ ، فَتَخْفِقُ قُلُوبُ النُّجُومِ الْغَيَّارَى ، حَيْثُ الْمُصَلَّى^(٩) الْعَتِيقِ ، قَدْ رَحِبَ بِجَالاً وَطَالَ مَنَاراً^(١٠) ، وَأَزْرَى بِبِلَاطِ الْوَلِيدِ^(١١) احْتِقَاراً ؛ حَيْثُ الظُّهُورِ^(١٢) الْمُثَارَةِ

(١) من آثاره : المنية المعروفة بالعامرية ، والمدينة «الزاهرة» التي اتخذها مقراً لحكمه ، والزيادة التي اضافها لمسجد قرطبة في الناحية الشرقية منه . نفح الطيب ١ ٢٦٠ — ٢٧٤ — ٢٧٧ بولاق .

(٢) هو محمد بن عبدالله بن أبي عامر بن محمد بن عبدالله بن عامر المعافري ، دخل جده الاندلس مع طارق بن زياد . واستوزره الحكم المستنصر لابنه هشام ، فلما مات حجه ابن أبي عامر ، واستولى على الدولة ، وأمر بأن يحيى بتحية الملوك ، وتسمى بالحاجب المنصور . توفي مبطوناً بمدينة سالم ، بأقصى ثغور المسلمين سنة ٣٩٣ أو ٣٩٤ . العبر لابن خلدون م ٤ .

(٣) كان المنصور بن أبي عامر محباً للجهاد ؛ غزا بنفسه — مدة ملكه — نيفاً وخمسين غزوة ، لم تتكس له فيها راية ، ولا قل له فيها جيش . ومن شعره في ذلك .

ألم ترني بعث المقامة بالسرى ولين الحشايسا بالخيول الضوامر
وبدلت بعد الزعفران وطيبه صدى السدرع من مستحكات المسامر
فلا تحسبوا أنني شغلت بلبدة ولكن أظعت الله في كل كافر

وكان يأمر أن ينفخ غبار ثيابه التي حضر فيها القتال ، وأن يجمع ويحتفظ به ؛ فلما حضرته الوفاة أمر أن ينشر على كفيه إذا وضع في قبره . رحمه الله . العبر م ٤ .

(٤) عقب الطيب : فاح وانتشر : (تاج) .

(٥) الشمول : الخمر . والشمال : الريح تهب من القطب ؛ ويقال ؛ خمر مشمولة اذا ضربتها ريح الشمال فأصبحت باردة الطعم .

(٦) جمع دوحة : وهي الشجرة العظيمة المتسعة .

(٧) يريد شقائق النعمان ، وتسمى الشقر ايضاً ، وهي نور أحمر ، والنعمان اسم الدم ، فشبهت حمرتها بحمرة الدم ، وسُميت شقائق النعمان ، وغلب عليها الشقائق .

(٨) جمع اقحوان ، وهو نبت طيب الريح ، له نور أصفر ، وحواليه ورق أبيض ، كأنه ثغر جارية حدث السن ، وانظر مفردات ابن البيطار ٤٨/١ . والصواب : «الاقحاح البواسم» .

(٩) يريد جامع قرطبة ، وقد وصفه الحميري في الروض المعطار وصفاً مفصلاً ص ١٥٣ — ١٥٥ ، وانظر نفح الطيب ٣٥٨/١ — ٣٦٠ طبع ليدن .

(١٠) وصف منارة جامع قرطبة وصفاً دقيقاً ، وقاسها كذلك ، الحميري في الروض المعطار ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(١١) كان الوليد بن عبد الملك من أفضل خلفاء بني أمية ؛ أعطى المخدمين ، وقال لهم لا تسألوا الناس ،

بِسِلَاحٍ ^(٢) الْفَلَاحَ ، تُجَبُّ عَنْ مِثْلِ أَسْنَمَةِ ^(٣) الْمَهَارَى ^(٤) ، وَالْبُطُونُ ^(٥) كَأَنَّهَا لَتَدْمِيثٍ ^(٦) الْغَائِمَ ، بُطُونُ الْعَذَارَى ، وَالْأَذْوَاخِ الْعَالِيَةِ ، تُخْتَرَقُ أَعْلَامُهَا الْهَادِيَةِ ، بِالْجُدَاوِلِ الْحَيَارَى ^(٧) . فَمَا شَتَّ مِنْ جَوِّ بَقِيلٍ ^(٨) ، وَمُعْرَسٍ لِلْحُسْنِ وَمَقِيلٍ ، وَمَالِكٍ لِلْعَقْلِ وَعَقِيلٍ ^(٩) ؛ وَخِمَائِلٍ ، كَمِ فِيهَا لِلْبَلَابِلِ ، مِنْ قَالَ وَقِيلٍ ، وَخَفِيفٍ يَجَاوِرُ بَثْقِيلٍ ؛ وَسَنَابِلَ تَكِي مِنْ فَوْقِ سَوْقِهَا ، وَقَصَبَ بِسَوْقِهَا ، الْهَمْزَاتِ عَلَى الْأَلِفَاتِ ، وَالْعَصَافِيرِ الْبَدِيعَةِ الصِّفَاتِ ، فَوْقَ الْقُصْبِ الْمُتَوَلِّفَاتِ ، تَمِيلُ لِهُبُوبِ الصَّبَا وَالْجَنُوبِ ، مَالِئَةً الْجُبُوبِ ، بِدُرِّ الْحُبُوبِ ؛ وَبِطَاحٍ لَا تَعْرِفُ عَيْنَ الْمَحَلِّ ^(١٠) ، فَتَطْلُبُهُ بِالذَّحْلِ ^(١١) ، وَلَا تَصْرِفُ فِي خِدْمَةِ بَيْضِ قَبَابِ الْأَزْهَارِ ، عِنْدَ افْتِتَاحِ السَّوْسَنِ وَالْبَهَارِ ^(١٢) ، غَيْرَ الْعُبْدَانِ مِنْ سُودَانِ النَّحْلِ ؛ وَبَحْرِ الْفَلَاحَةِ

وأعطى كل مقعد خادماً ، وكل ضرير قائداً ، وكان صاحب بناء واتخذ المصانع والضياح ؛ وكان الناس في زمانه ، يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع ؛ وبنى المساجد : مسجد المدينة ، ومسجد دمشق ، الذي أنفق عليه أموالاً عظيمة ، وأحضر له الصناع من بلاد الروم ومن سائر بلاد الإسلام ، وكانت العرب تسميه بلاط الوليد . وانظر تاريخ الطبري ٥٨/٨ — ٩٧ وتاريخ أبي الفداء ٢١٠/١ ، مقدمة ابن خلدون ص ٦٤٠ طبع دار الكتاب اللبناني — بيروت .

- (١) الظهر من الأرض : ما غلظ وارتفع .
- (٢) أثار الأرض بالسَّن — وهي الحديدية التي تحرث بها الأرض — إذا قلبها على الحُب بعدما فتحت مرة ، وفي القرآن : «وَأَثَارُوا الْأَرْضَ» : حَرَّثُوهَا وَزَرَعُوهَا ، واستخرجوا منها بركاتها .
- (٣) جب السنام : قطعه . وسنام الناقة : أعلى ظهرها ، والجمع أسنمة .
- (٤) ابل مهريّة : منسوبة الى مهرة بن حيدان أبي قبيلة ، وهم جي عظيم ، والجمع مهاري .
- (٥) جمع بطن ؛ والبطن من الأرض : ما لان وسهل واطمأن .
- (٦) دمث الشيء : مرسه حتى لان .
- (٧) الحيارى : جمع حيران ؛ وهو المتردد في الامر ، لا يدري وجهة يبتدي إليها . ويريد ان الجداول لالتواها ، وكثرة منعطفاتها ، تشبه في سيرها شخصاً حيران قد التبس عليه السبل .
- (٨) الجو : المنخفض من الأرض . والبقيّل : المكان ذو البقل ؛ وكل نبات أخضرت به الأرض فهو بقل .
- (٩) يوري بالالك وعقيل ابني فارج بن مالك ، نديمي جذيمة الأبرش ، ولها مع عمرو بن عدي خبر نجد تفصيله في تاريخ الطبري ٣٠/٢ — ٣١ .
- (١٠) المحل : الجذب ؛ وهو انقطاع المطر .
- (١١) الذحل : الثَّار .
- (١٢) البهار — عند أهل المغرب — : نبات طيب الريح ، له قضبان خضر ، في رؤوسها أقعاع يخرج منها نور ينسبط منه ورق أبيض ، وفي وسط البياض دائرة صفراء من ورق صغير . وهذه هي الصفة التي اثبتها أهل المشرق للترجس ، حيث قالوا : هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر ، فالبهار عند أهل المغرب هو الترجس عند أهل المشرق .

الذي لا يُدرك ساحله ، ولا يَبْلُغُ الطِّيبَةَ^(١) البعيدة راحله ؛ إلى الوادي ، وسَمَرَ النوادي^(٢) ، وقرار دُمُوع الغَوادي^(٣) ؛ للتَّجاسُّر على تَخْطِيهِ ، عِنْدَ تَمْطِيهِ^(٤) ، الجِسْرَ العادي ؛ والوَطَنَ الذي ليسَ من عَمَرُو ولا زيد ، والفَرَا الذي في جَوْفِهِ كُلُّ صَيْدٍ^(٥) ؛ أَقْلَ كَرْسِيهِ خِلافةَ الإِسْلام ، وأغار بالرُّصافة^(٦) والجِسْرَ دارَ السَّلام^(٧) ؛ وما عَسَى أن تُطَنِّبَ في وصفِهِ أَلْسِنَةُ الأَقلام أو تُعَبِّرَ به عن ذلك الكَمال فنونُ الكلام .

فأَعْمَلْنَا إليها السُّرى والسَّير ، وقُدْنَا إليها الخَيْلَ قَدْ عَقَدَ اللهُ في نواصِيها الخَيْرَ^(٨) . ولما وقَفْنَا بظاهرها المُبْهَت المُعْجَب ، واصْطَفَفْنَا بخارجها المُنِيتِ المُنْجِب ؛ والقلوبُ تَلْتَمِسُ الإِيعَانَةَ مِنْ مُنْعَمٍ مُعْزِل ، وتَسْتَنْزِلُ مَدَدَ المَلائِكَةِ مِنْ مُنْجِدٍ مُنْزِل ، والرَّكائِبُ واقِفَةٌ مِنْ خِلْفِنَا بِمَعْزِل ، تَتَنَاشَدُ في مَعَاهِدِ الإِسْلام :

« قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرِى حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ^(٩) »

بَرَزَ مِنْ حَامِيَتِهَا المُحَامِيهِ ، ووَقُودُ النَّارِ الحَامِيهِ ، وَبَقِيَّةُ السَّيْفِ الوَافِرَةِ على الحِصَادِ النَّامِيَةِ ، قَطَعَ الغَمامَ الهَامِيَةِ ، وأمَواجُ البُحُورِ الطَّامِيَةِ ؛ واستَجَنَّتْ^(١٠) بِظِلالِ أبطالِ المَجال ، أَعْدادُ الرِّجالِ ، الناشِبة^(١١) والرَّامِيَةِ ، وَتَصَدَّى لِلنِّزالِ ، من

(١) الطيبة : الناحية .

(٢) السمر : الحديث بالليل . والنادي : المجلس ، والجمع الصحيح : أندية .

(٣) الغاد : السحابة تنشأ فتمطر غدوة . والجمع غواد .

(٤) تمطية : امتداده . كنى به عن امتلاء النهر بالمياه أيام الشتاء .

(٥) الفرا : الحمار الوحشي ؛ وهو من اعظم ما يصطاده الناس . وفي الكلام إشارة إلى المثل : « كل الصيد في جوف الفرا » الذي يضرب لما يفضل على غيره . ميداني ٥٥/٢ .

(٦) الرصافة : قصر بناه عبد الرحمن الداخل . في الشمال الغربي لقرطبة ، واتخذها لسكناه ، نقل اليه من الشام كثيراً من أشجار الفاكهة والأزهار . وسماه باسم رصافة جده هشام بن عبد الملك . معجم البلدان ٢٥٧/٤ .

(٧) يريد بغداد . وسماها مدينة السلام أبو جعفر المنصور ، وكان ذلك سنة ١٤٦ هـ . أنظر تاريخ بغداد ٦٦/١ — ٦٧ .

(٨) إشارة إلى حديث البخاري : « الخيل معقود في نواصيا الخير إلى يوم القيامة » . الجامع الصحيح ١٨٧/٤ طبع الاستانة .

(٩) مطلع المعقة المشهورة لامرئ القيس .

(١٠) استجنت : استترت .

(١١) الناشبة : قوم يرمون بالنشاب ؛ وهي السهام .

صناديدها^(١) الصُّهْبُ السَّيَال ، أمثالُ الهَضَابِ الراسية ، تُجْنُها^(٢) جُنْ^(٣) السوايح الكاسية ، وقواميسها^(٤) المُقَادِيَةُ لِلصُّلْبَانِ يَوْمَ بُوسِهَا بِنُفُوسِهَا الْمُوَاسِيَةِ^(٥) ، وخنَازِيرُهَا التي عَدَتْهَا^(٦) عن قبول حُجَجِ اللَّهِ ورسوله ، سَتُورُ الظُّلَمِ الغَاشِيَةِ ، وصخور القلوب القاسية ؛ فكان بين الفريقين أَمَامَ جِسْرِهَا الذي فَرَقَ البحر ، وحَلَّى بلَجِينِهِ ، ولَآلِيَاءَ زَيْنِهِ ، منها النَّحْر ، حربٌ لم تَنْسُجْ الأَزْمَانَ على مَنَوَالِهَا^(٧) ، ولا أَتَتْ الأَيَّامُ الحَبَالِي بِمِثْلِ أَجَنَّةِ^(٨) أَهْوَالِهَا ؛ مَن قَاسَهَا بالفَجَارِ^(٩) أَفْكَ وَفَجَرَ^(١٠) ؛ أو مَثَلُهَا بِجَفَرِ الهَبَاءَةِ^(١١) خَرَفَ وَهَجَرَ^(١٢) ؛ وَمَن شَبَّهَهَا بحَرْبِ دَاحِسٍ والغِبْرَاءِ^(١٣) ، فَمَا عَرَفَ الخَبَرَ ، فليَسْأَلْ مَن جَرَّبَ وَخَبِرَ ؛ وَمَن نَظَرَهَا بيَوْمِ شِعْبِ جَبَلَةٍ^(١٤) فهو ذُو بَلَّةٍ^(١٥) ؛ أو عَادَهَا بِبُطْنِ عَاقِلٍ^(١٦) ، فغَيْرُ عَاقِلٍ ؛ أو احْتَجَّ بيَوْمِ ذِي قَارٍ^(١٧) ، فهو إلى

- (١) الصنديد : السيد الشجاع . والجمع صناديد .
- (٢) تجنّها : تسترها .
- (٣) الجنن : جمع جنة ، وهي البسرة .
- (٤) القواميس ، جمع قومس (بوزن جوهر) ؛ وهو مرافق الملك ، ونديمه ، والامير .
- (٥) المواسي : المعين .
- (٦) عديته فتعدى : أي تجاوز الحد الذي حد له .
- (٧) المنوال : المنسج تنسج عليه الثياب . يريد لم تأت الايام بمثل هذه الحروب .
- (٨) حبالى : جمع حبل . والاجنة جمع جنين .
- (٩) حروب الفجار عدة ؛ واشهرها — وهي آخرها — تلك التي كانت بين قريش وكنانة ، وبين هوازن . وقد شهدها النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : كنت أنبل على أعمامي يوم الفجار ، وسميت فجاراً لما استحلوا فيها من حرمة الأشهر الحرم . العقد الفريد ٣/٣٦٨ — ٣٧١ .
- (١٠) أفك : كذب . وفجر : مال عن الحق .
- (١١) جفر الهباءة : يوم كان لعيس على ذبيان ، سمي بالموضع الذي كانت فيه موقعتهم ؛ وهو مستنقع في ارض غطفان . العقد الفريد ٣/٣١٦ — ٣١٧ ، ياقوت (معجم البلدان) . الميداني ٢/٢٦٩ .
- (١٢) خرف : فسد عقله . هجر : خلط في كلامه وهذي .
- (١٣) داحس والغبراء : يوم من اشهر ايامهم ، بلغ من بعد اثره ان اتخذه مبدءاً من مبادئ تواريخهم في الجاهلية ؛ ويقال انه دام اربعين سنة . وكان بين عيس وذبيان .
- (١٤) داحس والغبراء : فرسان ، وسمي اليوم بهما لما انه كان يسبهما ، انظر العقد الفريد ٣/٣١٣ — ٣١٤ .
- (١٥) كان يوم شعب جبلة لعامر وعيس على ذبيان ، وكان — فيما يقول أبو عبيدة — قبل الاسلام بأربعين سنة (وشعب جبلة : هضبة حمراء بنجد) . العقد الفريد ٣/٣٠٧ — ٣١٠ ، ياقوت (معجم البلدان) .
- (١٦) البله : الغفلة .
- (١٧) بطن عاقل : يوم كان لذبيان على بني عامر ، (أو كان بين بني خثعم ، وبني حنظلة) ، ذكر سبيه في العقد الفريد ٣/٣٠٥ — ٣٠٦ ، وانظر مجمع الامثال ٢/٢٦٤ .
- (١٨) يوم ذي طار : يوم مشهور كان ايام النبي صلى الله عليه وسلم ، وأثر عنه انه قال : «انه أول يوم

المعرفة ذو افتقار ؛ أو ناضل بيوم الكديد^(١) ، فسهمه غير السديد ؛ انما كان مقاماً غير معتاد ، ومرعى نفوس لم يف بوصفه لسان مُرتاد^(٢) وزلزال جبال اوتاد^(٣) ، ومُتَلَف^(٤) مذخور لسلطان الشيطان وَعَتَاد^(٥) ؛ أَعْلَم^(٦) فيه البطلُ الباسل^(٧) ، وتورّد الأبيضُ الباتر^(٨) ، وتَأَوَّد الأسمر^(٩) العاسل^(١٠) ، ودَوَّم الجلمد^(١١) المتكاسل ، وانبعث من حذب^(١٢) الحنيّة^(١٣) ، إلى هدف الرميّة^(١٤) ، الناشر^(١٥) الناسل^(١٦) ، ورُويَت لمرسلات السّهام المراسل ؛ ثم أفضى أمر الرّماح إلى التّشاجر والارتباك ، ونشبت الأسدّة في الدّروع نَشَبَ السمك في الشّباك ؛ ثم اختلط المرعى بالهمل^(١٦) ، وعزل الرّديني عن العمل ؛ وعادت السيوف من فوق المفارق تيجانا ، بعد أن شقّت غدر السّوانغ خلجانا ؛ واتّحدت جداول الدّروع ، فصارت بحراً ، وكان التّعاق ، فلا ترى إلّا نحرأ يُلَازِم نحرأ ، عناق وداع ؛ وموقف شمل ذي انصداع ، وإجابة مُنادٍ إلى فراق الأبد وداع ؛ واستكشفت مآل الصّبر الأنفس الشّفاة^(١٧) ، وهبّت بريح النّصر الطّلائعُ المبشرة الهفّافة^(١٨) ؛ ثم أمدّ السّيل ذلك

انصفت فيه العرب من العجم . وتفصيل اخباره ، وأسبابه ، مذكورة في العقد ٣/٣٧٤ — ٣٧٨ .

(١) | كان يوم الكديد لسليم على كنانة ، وفيه قتل ربيعة بن مكرم ، فارس كنانة . وانظر العقد الفريد ٣٢٦/٣ .

(٢) المرتاد والرائد : الذي يتقدم القوم في التماس النجمة واختيار المرعى الحسن .

(٣) أوتاد الأرض : جبالها .

(٤) المتلف : المفارقة ، والفقر ؛ سمي بذلك لانه يتلف سالكه .

(٥) العتاد : العدة تعدّها لأمر ما .

(٦) أعلم الفارس : جعل لنفسه علامة الشجعان ، وأعلم نفسه : وسماها بسما الحرب .

(٧) الباسل : الشجاع .

(٨) تورّد : احمر . الأبيض الباتر : السيف القاطع .

(٩) تأوّد : اعوج وانثنى . الأسمر : الرمح .

(١٠) عسل : الرمح . اضطرب واحتز ، ورمح عاسل : مضطرب لدن .

(١١) دوم : تحرك ودار . والجلد : الصخر .

(١٢) حذب الحنية : تقوسها وانعطافها .

(١٣) الحنية : القوس ؛ فعيلة بمعنى مفعولة ؛ وأكثر ما تكون حنية عند توتيرها ، والرمي بها .

(١٤) الرميّة : الطريدة التي يرميها الصائد .

(١٥) الناشر : المهتز ، والناسل : المسرع .

(١٦) هو مثل والمرعى : الابل التي لها راع ، والهمل : الضوال من النعم لا راعي لها .

(١٧) أنفس شفاة : فاضلة .

(١٨) الهفّافة : السريعة المرور في هبوبها .

العباب ، وصَقَلَ الاستِصَارُ الألباب ، واستَخْلَص العزمُ صَفْوَةَ اللُّباب ، وقال لِسَان النَّصْر : « ادخلوا عليهم الباب » ؛ فأَصْبَحَتْ طَوَائِفُ الكُفَّار ، حَصَائِدَ مناجِل الشُّفَار ، فَمَغْفَرُهُمْ قَدْ رَضِيَتْ حُرْمَاتُهَا بِالْإِخْفَار^(١) ، ورَوَّسُهُمْ مَحْطُوطَةٌ فِي غير مَقَامِ الاستِغْفَار ، وعلت الرِّايَات من فوق تلك الأبراج المستطرفة والأسوار ، ورَفَرَف على المدينة جَنَاحُ البوار ، لولا الانتهاءُ إلى الحَدِّ والمِقْدَار ، والوقوفُ عِنْدَ اختفاءِ سِرِّ الأقدار .

ثم عبرنا نهرها ، وشَدَدْنَا بأيدي الله قَهَرَهَا ، وَضَيَّقْنَا حَصَرَهَا ، وَأَدْرْنَا بِلَالِيءِ القِيَاب البيض خَصَرَهَا ؛ وَأَقَمْنَا بها أَياماً تحوم عقبانُ البُنُود على فريستها حِياماً^(٢) ، وترمي الأدواح ببوارها ، وتُسَلِّطُ النَّيرانَ على أقطارها ؛ فلولا عائقُ المَطَر ، لحصلنا من فتح ذلك الوَطَنِ على الوَطَر ، فرأينا أَنَّ نَرُوضَهَا بِالْاجْتِثَاثِ^(٣) والانتِصافِ^(٤) ، ونُوَالِي على زُرُوعِهَا ورُبُوعِهَا كَرَاتِ رِياحِ الاعتِصافِ ؛ حَتَّى يَتِمَّهَا لِلْإِسْلَامِ لَوْكُ طَعْمَتِهَا ، وَتَهْنَأُ بِفَضْلِ اللَّهِ إِرْثَ نِعْمَتِهَا ؛ ثم كانت من مَوقِفِهَا الإِفَاضَةَ مِنْ^(٥) بَعْدِ نَحْرِ الشُّحُور ، وَقَذَفَ جِمارَ الدَّمَارِ على العدوِّ المَدْحُور ، وَتَدَافَعَتْ خَلْفَنَا السَّيِّقَاتُ^(٦) المُتَسَيِّقَاتُ تَدَافُعَ أمَواجِ البُحُور .

وبعد أن ألححنا على جَنَائِهَا المُصْحِرَةَ^(٧) ، وَكُرُومِهَا المُسْتَبْحِرَةَ إلحاح الغريم^(٨) ، وَعَوَّضْنَاهَا الْمَنْظَرَ الْكَرِيمَ من المنظر الكَرِيم ، وَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبَّنَا فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ^(٩) ، وَأَغْرَيْنَا حِلَاقَ^(١٠) النَّارِ بِجُجُمِ الْجَمِيمِ^(١١) ، وَرَاكَمْنَا فِي أَحْوَافِ

(١) اخفرت الرجل : اذا نقضت عهده ، وذمامه ، والهزمة فيه للزالة ؛ أي أزلت خفارته .

(٢) حام الطائر حول الماء حياما : دوم وذار .

(٣) الاجتثاث : انتزاع الشجر من أصوله .

(٤) انتصاف الزرع : اقتلاعه .

(٥) الافاضة : الدفع في السير بكثرة ؛ ولا يكون الا عن تفرق جمع . وفي « الافاضة » و « البحر » ، و « رمي الجمار » ثورية واضحة بالمعاني الاسلامية المتعارفة في باب « الحج » .

(٦) السيقات : ما استأفة العدو من الدواب ، ويقال لما سبق من النهب فطرد ، سيقة .

(٧) المتسعة ، يقال أصحَرَ المكان : أي اتسع .

(٨) الغريم : الذي له الدين .

(٩) الصريم : الليل ، وأصبحت كالصريم : احترقت وصارت في مثل سواده ؛ والاشارة إلى الآية :

« فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم » .

(١٠) حلاق الشعر : ازالته بالموسى . والكلام على تشبيه احراق النبات بخلق شعر الرأس .

(١١) الجمم : جمع جمّة ، وهي الشعر الكثير . والجميم نبت يطول حتى يصير مثل جمّة الشعر .

أجرافها^(١) غمام الدخان ؛ يُذَكِّرُ طَبِيبُهُ البانَ بيوم الغميم^(٢) ، وأرسلنا رياح الغارات
« لا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ »^(٣) ؛ واستقبلنا الوادي يهول مدأ ،
ويروع سيفه الصَّقِيلُ حدأ ؛ فیسرهُ الله من بعد الأعواز ، وانطلقت على الفرصة بتلك
الفُرْصَةُ أيدي الانتهاز ، وسألنا من سائله أسد بن الفرات^(٤) فأفتى برجحان الجواز ،
فعمَّ الاكْتِسَاحُ والاستباحُ جميع الأحواز^(٥) فأدبل^(٦) المصون ، وانتهت القرى ،
وهذَّت الحُصُونُ ، واجتشت الأصول ، وحُطِّمَت الفُصُونُ ؛ ولم نرفع عنها إلى اليوم
غارة تصابحها بالبُوس ، وتطلعُ عليها غُرُهَا الضَّاحِكَةُ باليوم العَبُوس ؛ فهي الآن
بحرى السوابق وبحرُ العوالي^(٧) ، على التَّوَالِي ، والحسرات تتجدد في أطلالها البوالي ؛
وكانَ بها قد ضَرَعَتْ ، وإلى الدعوة المُحَمَّدِيَّة أُسْرِعَتْ ، بقدره مَنْ لو انزل القرآن
على الجبال لخشعت من خشية الله وتصدعت^(٨) ، وعِزَّة من أذعنت الجبابرة لعزّه
وخضعت ، وعُدْنَا والبُؤْدُ لا يَعْرِفُ اللَّفَّ نَشَرَهَا ، والوجوهُ المُجَاهِدَةُ لا يُخَالِطُ
التَّقْطِيبُ بِشَرَّهَا ؛ والأيدي بالعُروَةِ الوُثْقَى متعلّقة ، والألسنُ بِشُكْرِ نِعَمِ الله
منطَلِقة ، والسُّيُوفُ في مضاجع الغُموْدِ قَلْبَهُ ، وسَرَايِلُ الدَّرُوعِ^(٩) خلقه^(١٠) ،
والجِيَادُ مِنْ رَدَّهَا إِلَى المَرَابِطِ والأَوَارِي^(١١) ، رَدَّ العَوَارِي ، حَنِيْقَةً ، وبَعَبَرَاتِ الغَيْظِ
المَكْظُومِ مُحْتَنِقَةً ؛ تَنْظُرُ إِلَيْنَا نَظْرَ العَايِبِ ، وتعودُ من مَيَادِينِ الاخْتِيَالِ والمَرَاكِحِ ،

(١) الأحواف ، جمع حوف وهو الناحية . والأجراف جمع جرف ؛ وهو ما أكل السيل من أسفل شق
الوادي . وعرض الجبل . ويريد الأمكنة الفائرة ، والمطمئنة .

(٢) الغميم : موضع بين مكة والمدينة . ويوم الغميم : من الأيام التي كانت بين كنانة وخزاعة سيرة ابن هشام
٣٤/٤ — ٣٥ .

(٣) الرميم : البالي .

(٤) يوري بأسد بن الفرات بن سنان : أبي عبدالله الفقيه المالكي المشهور (١٤٥ — ٢١٣) على خلاف في
المولد والوفاة . وانظر ترتيب المدارك . مخطوطة دار الكتب ١١٨/١ . معالم الإيمان ٢/٢ — ١٧ . ديباج
٩٨ .

(٥) الأحواز : ضواحي المدينة وأطرافها .

(٦) أدبل : أهين .

(٧) أجرة الرمح : طعنه به وتركه فيه يحرقه وألغالية : أعلى القناة ، والجمع : العوالي . وبحر العوالي : المكان
الذي يقع فيه الإجرار والطنن .

(٨) اقتباس من الآية ٢١ من سورة الحشر .

(٩) السراييل : الدروع ، وكل ما لبس فهو سرايل .

(١٠) الخلق : البالي ، يقال ثوب خلق ، وجبة خلق بالتذكير فيها . لسان العرب .

(١١) الأواري : جمع أري ؛ وهو مربوط الدابة ومحبسها .

تَحْتَ حُلُلِ السَّلَاحِ ، عَوْدَ الصَّبِيَّانِ إِلَى الْمَكَاتِبِ ، وَالطَّبْلُ بِلِسَانِ الْعِزِّ هَادِرٌ ^(١) .
وَالْعَزْمُ إِلَى مُنَادِي الْعَوْدِ الْحَمِيدِ مُبَادِرٌ ^(٢) ، وَوَجُودُ نَوْحِ الرَّمَاكِ ، مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
الْكَفَاحِ نَادِرٌ ، وَالْقَاسِمُ يُرْتَّبُ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ السَّبْيِ النَّوَادِرُ ، وَوَارِدُ مَنَاهِلِ الْأَجُورِ ،
غَيْرُ الْمُحَلَّلِ ^(٣) ، وَلَا الْمُهْجُورِ ، غَيْرُ صَادِرٍ ^(٤) ، وَمُنَاطِرُ الْفَضْلِ الْآتِي ، عَقِبَ
أَخِيهِ الشَّاتِي ، عَلَى الْمَطْلُوبِ الْمُوَاتِي مُصَادِرٌ ^(٥) . وَاللَّهُ عَلَى تَيْسِيرِ الصُّعَابِ ، وَتَخْوِيلِ
الْمَعْنِ الرُّغَابِ ^(٦) ، قَادِرٌ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . فَمَا أَجْمَلَ لَنَا صُنْعَهُ الْحَقِّي ^(٧) ، وَأَكْرَمَ بِنَا
لُطْفَهُ الْحَقِّي ، اللَّهُمَّ لَا نَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، وَلَا نَلْجَأُ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ ، وَلَا نَلْتَمِسُ
خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا لَدَيْكَ ، فَأَعِدْ عَلَيْنَا عَوَائِدَ نَصْرِكَ ، يَا مُبْدِيُ يَا مُعِيدُ ، وَأَعِنَّا
مِنْ وَسَائِلِ شُكْرِكَ ، عَلَى مَا يَنْتَالُ بِهِ الْمَزِيدُ ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ يَا فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ^(٨) .
وَقَارَنْتِ رِسَالَتَكُمْ الْمِيمُونَةَ لَدَيْنَا حَذَقَ فَتَحَ ^(٩) . بَعِيدَ صَبِيئَتِهِ ^(١٠) مُشْرَبٌ لَيْتُهُ ^(١١) ، وَفَخَزِ
مِنْ فَوْقِ النُّجُومِ الْعَوَامِ ^(١٢) مَبْنِيَّتُهُ ، عَجَبْنَا مِنْ تَأْتِي أَمَلِهِ الشَّارِدِ ، وَقُلْنَا : الْبَرَكَةُ فِي
قَدَامِ الْوَارِدِ ، وَهُوَ أَنَّ مَلِكَ النَّصَارَى لَأَطْفَنَّا بِجُمْلَةٍ مِنَ الْحِصُونِ كَانَتْ مِنْ مَمْلُوكَةِ
الْإِسْلَامِ قَدْ غَضِبَتْ ، وَالتَّمَاثِيلُ ^(١٣) فِيهَا بَسُيُوتُ اللَّهِ قَدْ نُصِبَتْ أَدَالِهَا ^(١٤) . اللَّهُ —
بِمُحَاوَلَتِنَا — الطَّيِّبُ مِنَ الْخَبِيثِ ، وَالتَّوْحِيدُ مِنَ التَّثْلِيثِ ، وَعَادَ إِلَيْهَا الْإِسْلَامُ عَوْدَ
الْأَبِ الْغَائِبِ ، إِلَى الْبَنَاتِ الْحَبَائِبِ ، يَسْأَلُ عَنْ شُؤْنِهَا ، وَيَمْسَحُ دُمُوعَ الرَّقَّةِ مِنْ

- (١) هَادِرٌ : يَرْدُدُ صَوْتَهُ .
(٢) بَادِرُهُ الْأَمْرُ : عَاجِلُهُ .
(٣) حَلًّا الْمَاشِيَةَ عَنِ الْمَاءِ : صَدَّهَا وَحَبَسَهَا عَنِ الْوُرُودِ .
(٤) الْوَارِدُ الَّذِي يَرِدُ الْمَاءُ . وَالصَّادِرُ : الَّذِي رَجَعَ مِنَ الْمَاءِ بَعْدَ الْوُرُودِ .
(٥) مُصَادِرٌ : مُرَاجِعٌ ، صَادِرَةٌ عَلَى كَذَا : رَاجِعَةٌ .
(٦) الرُّغْبَةُ : الْعِظَاءُ الْكَثِيرُ ، وَالْأَمْرُ يُرْغَبُ فِيهِ ، وَالْجَمْعُ رَغَابٌ .
(٧) الصَّنْعُ الْحَقِّي : اللَّطِيفُ .
(٨) كَذَا فِي الْأَصْلِ : « يَا فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ » . وَالْمُنَادِي هُنَا مَاجِبٌ فِيهِ النَّصَبُ . فَلِذَلِكَ الْأَصْحَحُ : يَا فَعَّالًا .
(٩) حَذَقَ الْغُلَامُ الْقُرْآنَ حَذَقًا : مَهَرَهُ ، وَيُقَالُ لِلْيَوْمِ الَّذِي يَخْتَمُ فِيهِ الْقُرْآنُ : هَذَا يَوْمُ حَذَاقٍ ، وَالْعَادَةُ أَنْ
يُحْتَفَلَ بِهَذَا الْيَوْمِ .
(١٠) بَعِيدَ الصَّبِيئَةِ : مُشْتَهَرَ الذِّكْرِ بَيْنَ النَّاسِ .
(١١) أَشْرَابٌ : ارْتَفَعَ وَعَلَا . وَاللَّيْتُ بِالْكَسْرِ : صَفْحَةُ الْعَنْقِ .
(١٢) النُّجُومُ الْعَوَامُ : الَّتِي تَظَلُّمُ مِنَ الْغُبَرَةِ الَّتِي فِي السَّمَاءِ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ فِي زَمَنِ الْجُلُوبِ ، لِأَنَّ نَجُومَ الشِّتَاءِ
أَشَدَّ اضْئَاءً لِبَقَاءِ السَّمَاءِ .
(١٣) التَّمَاثِيلُ : الْأَصْنَامُ .
(١٤) أَدَالَهَا اللَّهُ : أَبْدَاهَا .

جفونها ؛ وهي للرُّوم خُطَّةٌ خَسْفٌ^(١) قَلَمًا ارتكبوها فيما نَعَلَم من العُهود ، ونادرةً من نوادر الوجود . وإلى الله علينا وعليكم عَوَافٍ^(٢) الجُود ، وجعلنا في محارِبِ الشُّكر من الرُّكْع السُّجود .

عَرَفْنَاكم بمُجمَلاتِ أمورٍ تحتها تَفْسِيرٌ ، وُثِنٌ من الله وتيسيرٌ ، إذ استيفاء الجزئيات عسيرٌ لنُسِرْكم بما مَنَحَ الله دينكم ، وَنَتَوَجَّعُ بِعِزِّ الْمَلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ جَبِينَكُمْ ، وَنَخْطُبُ بَعْدَهُ دُعَاءَكم وتأمينكم ؛ فَإِنَّ دُعَاءَ الْمُؤْمِنِ لِأَخِيهِ يَظْهَرُ الْغَيْبِ سِلَاحٌ مَاضٍ ، وَكَفِيلٌ بِالْمَوَاهِبِ الْمَسْئُولَةِ مِنَ الْمُنْعِمِ الْوَهَّابِ مُتَقَاضٍ^(٣) ؛ أَوَّلُ مَنْ سَاهَمَ فِي بَرٍّ ، وَعَامَلَ اللَّهَ بِخُلُوصٍ سِرٍّ ؛ وَأَيْنَ يَذْهَبُ الْفَضْلُ عَنْ بَيْنِكُمْ ، وَهُوَ صِفَةُ حَكِيمٍ ، وَثَرَاثُ مَبْنِيِّكُمْ ؛ وَلَكُمْ مَزِيَّةُ الْقِدَمِ ، وَرُسُوخُ الْقَدَمِ ؛ وَالْخِلَافَةُ مَقَرُّهَا إِبْرَائِيكُمْ ، وَأَصْحَابُ الْإِمَامِ مَالِكٍ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — مُسْتَقَرُّهَا قَيْسِرَوَانُكُمْ ، وَهَجِيرُ الْمَنَابِرِ^(٤) ذِكْرُ إِمَامِيكُمْ ، وَالتَّوْحِيدُ إِعْلَامِيكُمْ ، وَالْوَقَائِعُ الشَّهِيرَةُ فِي الْكُفْرِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى أَيَّامِكُمْ ، وَالصُّحَابَةُ الْكَرَامُ فَتَحَهُ أَوْطَانُكُمْ ، وَسُلَالَةُ الْفَارُوقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَشَائِجُ سُلْطَانِكُمْ^(٥) ؛ وَنَحْنُ نَسْتَكْثِرُ مِنْ بَرَكَةِ خِطَابِكُمْ ، وَوُضْلَةِ جَنَابِكُمْ ؛ وَلَوْلَا الْأَعْذَارُ لَوَالِنَا بِالْمُتَرَيِّدَاتِ تَعْرِيفُ أَبْوَابِكُمْ .

وَاللَّهُ — عَزَّ وَجَلَّ — يَتَوَلَّى عَنَا مِنْ شُكْرِكُمْ الْحَتُّومَ ، مَا قَصَرَ الْمَكْتُوبُ مِنْهُ عَنِ الْمَكْتُومِ ، وَيُبْقِيكُمْ لِإِقَامَةِ الرُّسُومِ ، وَيُحِلُّ مَحَبَّتَكُمْ مِنَ الْقُلُوبِ مَحَلَّ الْأَرْوَاحِ مِنَ الْجُسُومِ ؛ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَصِلُ سَعْدُكُمْ ، وَيَحْرُسُ مَجْدُكُمْ ، وَيُوَالِي نِعْمَةَ عِنْدَكُمْ . وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ ، الطَّيِّبُ الزَّكِيُّ الْمُبَارَكُ الْبَرُّ الْعَمِيمُ ، يَخْصُكُمْ كَثِيرًا أَثِيرًا ، مَا أَطْلَعَ الصُّبْحُ وَجْهًا مُنِيرًا ، بَعْدَ أَنْ أُرْسِلَ النَّسِيمُ سَفِيرًا ، وَكَانَ الْوَمِيضُ^(٦) الْبَاسِمُ لَأَكْوَاسِ الْغَمَامِ^(٧) ، عَلَى أَزْهَارِ الْكَثَامِ^(٨) ، مُدِيرًا ؛ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

(١) الخطة : الطريقة . والخسف : الذل ، وتحميل الإنسان ما يكره .

(٢) العواف : جمع عارفة ، وهي العطية .

(٣) تقاضاه الدين : قبضه منه .

(٤) هجير المنابر : شأنها ودأبها .

(٥) يريد أن الحفصيين من سلالة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ وقد رأى بعض المؤرخين ذلك .

(٦) الوميض : اللامع من البرق لمعاً خفياً .

(٧) شبه القطرات من الماء تنثرها الغمام على الزهور ، بكؤوس الخمر تدار على الشاربين .

(٨) الكثائم : جمع كرامة ، وهي غطاء النور وبرعومه .

وكتب إليَّ يهتني بمولود ، ويُعَاتِبُ على تأخير الخبر بولاده عنه ^(١) :
 هنيئاً أبا الفضل الرضا وأبا زيد وأمنت من بغي يخاف ومن كيد
 بطالع يُمن طال في السعد شأوه ^(٢) فما هو من عمره الرجال ولا زيد
 وقيد بشكر الله أنعمه التي أوابدها ^(٣) تأبى سوى الشكر من قيد
 أهلاً بدرِّي المكاتب ^(٤) ، وصذري المراتب ، وعُتَبَى الزَّمن ^(٥) العاتِب ^(٦) وبكرِ
 المُشْتَرِي والكاتب ^(٧) ؛ ومرحباً بالطالع ، في أسعد المطالع ، والثَّاقِب ^(٨) ،
 في أَجَلَى المَرَاقِبْ ؛ وسَهلاً بِغِنَى البشير ، وعِزَّةَ الأهل والعشير ،
 وتَاجَ الفخر الذي يَقْصُرُ عنه كِسْرَى وأرْدَشِير ^(٩) ؛ الآن
 اعتضدت الحِلَّةَ الحضرمية ^(١٠) بالفارس ، وأمين السَّارح ^(١١) في حِمَى
 الحارس ، وسعدت بالمنير الكبير ، أفلاك التدوير ^(١٢) ، من حلقات المدارس ،
 وقَرَّتْ بالجنى الكريم عينُ الفارس ، واحتقرت أنظار الآبلي وأبحاث ابن الدَّارس ؛

(١) قدم لها ابن الخطيب في ربحانة الكتاب بقوله : ومن ذلك في مخاطبة صاحب قلم الإنشاء أبي زيد بن خلدون .

(٢) الشَّوْ : الشوط والغاية .

(٣) جمع أبدة ، وهي في الأصل البيمة توحشت ، ونفرت من الانس .

(٤) كوكب دري : ثاقب شديد الإنارة ، عظيم المقدار .

(٥) أعْتَبَهُ : أزال عتبه ؛ والعْتَبَى : اسم من الإعتاب . وفي المثل : « لك العتبي ولا أعود » . أي لك مني أن أَرْضِيكَ ؛ بقوله الثاقب المعتذر بجمع الأمثال ١٠٢/٢ .

(٦) الزمن العاتِب : الغاضب .

(٧) كان ابن الخطيب شغوفا بأن يوري في كتابه بمصطلحات العلوم ؛ وهو هنا ناظر الى ما اصطلاح عليه المنجمون من أن القمر اذا اتصل — وهو في البروج الصاعدة — بالمشتري ، وهو كوكب سعد ، وبالكاتب — وهو عطارد في عرف أهل المغرب — دل ذلك على أن المولود ذكر ، وأن حظّه من العلوم العقلية ، والنقلية كبير .

(٨) الثاقب : المرتفع .

(٩) هو أردشير بن بابك ؛ أول ملوك الدولة السلسانية (٢٢٦ — ٢٤١ م) . وقد ورد في بعض النسخ ، وتاريخ أبي الفداء : « أردشير » بالزاي . وهو تصحيف قديم ؛ فقد قال ابن حجر : « وسمعت من يذكّره بالزاي » . تاج العروس ٢٨٨/٢ ، الطبري ٥٦/٢ .

الحلة : البيت ؛ والجمع الحلال . والحضرمية نسبة الى حضرموت ؛ حيث ينتهي نسب ابن خلدون . السارح : الذي يغدو عليك وروح .

فلك التدوير — لكل كوكب — هو فلك صغير لا يحيط بالأرض ، وفيه يكون مسير الكوكب .

وقيل لِلْمُشْكَلَات : طالما أَلْفَتِ الْخِمْرَةَ ^(١) ، وَأَمْضَيْتِ عَلَى الْأَذْهَانِ الْأَمْرَةَ ^(٢) ،
فَتَأْهَبِي لِلْغَارَةِ الْمُبِيحَةِ لِحِمَاكَ ، وَتَحِيزِي إِلَى فِتْنَةِ الْبَطْلِ الْمُسْتَائِرِ بِرَشْفٍ لِمَاكَ . وَلِلَّهِ
مِنْ نَصَبَةٍ ^(٣) اخْتَفَى فِيهَا الْمُشْتَرِي وَاخْتَفَلَ ، وَكَفَى سِنِيَّ تَرْبِيَّتَهَا وَكَفَلَ ، وَاخْتَالَ
عُطَارِدٍ فِي حُلْلِ الْجَدَلِ لَهَا وَرَقَلَ ، وَأَتَضَحَّتِ الْحُدُودُ ^(٤) ، وَتَهَلَّتِ الْوُجُوهُ ^(٥) ،
وَتَنَافَسَتِ الْمُثَلَّثَاتُ ^(٦) تَوَمَّلُ الْحَظَّ وَتَرْجُوهُ ، وَنَبَّهَ الْبَيْتُ عَلَى ^(٧) وَاجِبِهِ ، وَأَشَارَ
لَحَظُّ الشَّرَفِ ^(٨) بِحَاجِبِهِ ، وَأَسْرَعَ نَيْرُ النَّوْبَةِ ^(٩) فِي الْأَوْبَةِ ^(١٠) ، قَائِمًا فِي الْإِعْتِدَارِ
مَقَامَ التَّوْبَةِ ؛ وَاسْتَائِرَ بِالْبُرُوجِ الْمُؤَلَّدَةِ بَيْتَ الْبَنِينِ ^(١١) ، وَتَخَطَّتْ خُطَا الْقَمَرِ رَأْسَ
الْجَوْزِهِرِ ^(١٢) وَذَنَبَ التَّنِينِ ؛ وَسَاوَقَ مِنْهَا حُكْمَ الْأَصْلِ ، حَدَّوْكَ التَّعْلَ بِالنَّعْلِ ،

(١) الخمرة : الاستتار ، والاختفاء .

(٢) الإمرة : الإمارة .

(٣) النصبة الفلكية : هي الهيئة التي يكون عليها الفلك حين طلب دلالاته على الحوادث .

(٤) قسم المنجمون درجات كل برج من البروج الاثني عشر ، بين الكواكب الخمسة المتحيرة ، قسمة غير متساوية ، وجعلوا كل قسم منها يحصى كوكباً من الكواكب الخمسة ، وسموه حد ذلك الكوكب .

(٥) وقسموا كذلك كل برج الى ثلاثة أقسام متساوية ، وسموا كل قسم منها وجهاً ، ثم فرقوها على الكواكب المتحيرة ، وابتدأوا من برج الحمل ، وجعلوا لكل وجه منها كوكباً من السبعة السيارة ، سموه صاحب ذلك الوجه .

(٦) البروج الاثنا عشر تنقسم الى أربعة أقسام — بعدد الطبائع الأربع ، وكل ثلاثة بروج منها تتفق في طبيعة واحدة من الطبائع الأربع تسمى مثلثة ، فيقال : مثلثة نارية ، أو ترابية ، أو هوائية ، أو مائية ؛ ويختص بكل مثلثة ثلاثة كواكب من السيارة تسمى أربابها ؛ يكون أحدها صاحب المثلث المقدم بالنهار ، والثاني المقم بالليل ، والثالث شريكها في الليل والنهار . ومعنى ذلك أن الكواكب اذا كان في واحد من هذه البروج التي تكون مثلثة ، قيل أنه في امثلته ، أي أنه في وضع له فيه حظ وقوة .

(٧) بيت الكوكب : محل أمنه ، وصحته ، وسلامته ؛ ولكل من النيرين : الشمس والقمر ، بيت واحد . أما بقية الكواكب الخمسة المتحيرة ، فكل واحد منها له بيتان .

(٨) شرف الكوكب : محل عزه ، وعلوه ، وسعاده ؛ ولكل من الكواكب السبعة برج فيه شرفه ، والبرج كله شرف لذلك الكوكب ، الا أن أقوى شرفه درجات معينة من ذلك البرج تنسب الى ذلك الكوكب وتختص به ، فيقال حين يحل بها : انه في شرفه .

(٩) نير النوبة يكون في الغالب الهيلاج (دليل العمر) ، وهو بالنهار الشمس ، وبالليل القمر .

(١٠) الأوبة : الرجوع والعودة .

(١١) البيت الذي له دلالة على الأولاد : هو البرج الخامس من البيوت الاثني عشر والابتداء في العد من البرج الطالع ، وهو الواقع على الأفق الشرقي ؛ ويزعمون أنه كلما كان الخامس أحد البروج الشمالية ، دل ذلك على كثرة النسل .

(١٢) النقطتان اللتان يتقاطع عليهما فلك البروج مع فلك أي كوكب ، تسميان العقدتين ، ونقطة التقاطع الشمالية منها ، يسمونها الجوزهر ، ونقطة الراس ، والتي نقابلها تسمى النوبهر ، ونقطة الذنب . والجوزهر الذي يقصدونه ، والذي دونوا حركته في التقاويم والأزياج ، هو جوزهر القمر خاصة .

تَحْوِيلُ السَّنِينَ ^(١) ، وَحَقَّقَ هَذَا الْمَوْلُودَ بَيْنَ الْمَوْلِيدِ نِسْبَةَ عُمُرِ الْوَالِدِ ، فَتَجَاوَزَ دَرَجَةَ الْمِثْنِ ؛ وَاقْتَرَنَ بِعَاشِرِهِ ^(٢) السَّعْدَانِ ^(٣) اقْتِرَانُ الْحَسَدِ ، وَثَبَّتَ بِدَقِيقَةٍ مَرْكَزَهُ قَلْبُ الْأَسَدِ ، وَسَرَقَ مِنْ بَيْتِ أَعْدَائِهِ ^(٤) خُرْنِيَّ ^(٥) الْغُلَّ وَالْحَسَدِ ؛ وَنُظِّفَتْ طُرُقُ التَّسْيِيرِ ^(٦) ، كَمَا نَفَعْلُ بَيْنَ يَدَيِ السَّادَةِ عِنْدَ الْمَسِيرِ ، وَسَقَطَ الشَّيْخُ الْهَرِمُ مِنَ الدَّرَجِ فِي الْبَيْرِ ، وَدُفِعَ الْمُقَاتِلُ إِلَى الْوَبَالِ ^(٧) الْكَبِيرِ .

لِمَ لَا يَنَالُ الْعُلَا أَوْ يُعَقَّدُ النَّاجُ وَالْمُشْتَرِي طَالِعُ وَالشَّمْسُ هِيْلَاجُ ^(٨)
وَالسَّعْدُ يَرْكُضُ فِي مِيدَانِهَا مَرِحًا جَذْلَانُ وَالْفَلَكَ الدَّوَارُ هِمْلَاجُ ^(٩)

كَأَنَّ بِهِ — وَاللَّهُ يَهْدِيهِ — قَدْ انْتَقَلَ مِنْ مَهْدِ التَّنْوِيمِ ، إِلَى النَّهْجِ الْقَوِيمِ ؛ وَمِنْ أَرِيكَةِ الذَّرَاعِ ، إِلَى تَصْرِيفِ الْبِرَاعِ ^(١٠) ، وَمِنْ كَتَدِ ^(١١) الدَّيَاةِ ^(١٢) ، إِلَى مَقَامِ الْهَدَايَةِ ، وَالْغَايَةِ الْمُخْتَطَفَةِ ^(١٣) الْبِدَايَةِ ؛ جَعَلَ اللَّهُ وَقَايَتَهُ عَلَيْهِ عَوْدَةً ^(١٤) ، وَقَسَمَ حَسَدَتَهُ قِسْمَةَ مُحَرَّمِ اللَّحْمِ ، بَيْنَ مُنْخَنَقَةٍ ^(١٥) وَنَظِيحَةٍ ^(١٦) وَمُتَرَدِّبَةٍ ^(١٧)

(١) هو تحصيل الحركة الوسطى للشمس عند حلولها برأس أحد الفصول الأربعة . وهم في ذلك طرق حسابية معروفة .

(٢) العاشر : هو بين السلطان .

(٣) السعدان : المشتري والزهرة ، وأكبرهما المشتري .

(٤) بيت الأعداء : هو البيت الثاني عشر .

(٥) الخرنبي (بالضم) : أثاث البيت ، أو إرداء المتاع .

(٦) التسير : أن يتطوَّركم بين الهلاج (دليل العمر) ، وبين السعد أو النحس ، فيؤخذ لكل درجة سنة ؛ ويقال تصيبه السعادة أو النحس إلى كذا وكذا سنة .

(٧) الوبال : هو البرج المقابل لبيت الكوكب ؛ وهو البرج السابع من كل بيت ، ويسمى نظيره ، ومقابله ؛ وذلك أن يكون بينها ستة بروج ، وهي نصف الفلك .

(٨) الهيلاج : دليل العمر ؛ والهيلاج خمسة : الشمس ، والقمر ، والطالع ، وسهم السعادة ، وجزء الاجتماع والاستقبال . وإنما كانت أدلة العمر لأنها تسير إلى السعد والنحس .

(٩) الهملاج : المركب الحسن السير ، والسرع . يقول : لم لا ينال العلا ، وقد اتخذ الفلك مركباً له .

(١٠) يعني باريكة الذراع عهد الطفولة . والبراع : القصب ؛ ويريد الأقلام .

(١١) الكتد : مجمع الكتفين من الإنسان ، وكأهله .

(١٢) الدياة : القابلة .

(١٣) يريد أنه سيبلغ الغاية في الفضل في الزمن القصير .

(١٤) العودة : ما يعلق على الإنسان ليقه من العين ونحوها .

(١٥) المنخقة : الشاة ، وغيرها ، تختج بجبل أو غيره .

(١٦) النظيحة : الشاة تنطحها الأخرى بقرونها ، فعيلة بمعنى مفعولة .

(١٧) المتردية . الساقطة من جبل ، أو في بحر .

وَمَوْفُودَةٌ^(١) ؛ وَحَفِظَ هِلَالَهُ فِي الْبِدَارِ^(٢) إِلَى تَمِّهِ وَبَعْدَ تَمِّهِ ، وَأَقْرَبَهُ عَيْنَ أَبِيهِ
وَأُمِّهِ . غَيْرَ أَنِّي — وَاللَّهِ يَغْفِرُ لِسَيِّدِي — بَيِّدَ أَنِّي رَاكِعٌ فِي سَبِيلِ الشُّكْرِ وَسَاجِدٌ ، فَأَنَا
عَاتِبٌ وَوَاجِدٌ ؛ إِذْ كَانَ ظَنِّي أَنَّ الْبَرِيدَ بِهَذَا الْخَبَرِ إِلَيَّ يُعْمَلُ ، وَأَنَّ اتِّخَافِي بِهِ لَا
يُهْمَلُ ، فَانْعَكَسَتِ الْقَضِيَّةُ ، وَرَأَيْتُ الْحَالَ الْمَرَضِيَّةَ ، وَفَضَّلْتُ الْأُمُورَ الذَّائِلَةَ الْأُمُورَ
الْعَرَضِيَّةَ ، وَالْحُكْمَ جَازِمٌ ، وَأَحَدُ الْفَرَضَيْنِ لَا زِمَ ؛ إِمَّا عَدَمَ السُّوِيَّةِ^(٣) ، وَيُعَارِضُهُ
اعْتِنَاءُ حَبْلِهِ مُغَارٍ^(٤) ، وَعَهْدُهُ سَلَمٌ لَمْ يَدْخُلْهَا جَزِيَّةٌ وَلَا صَغَارٌ ؛ أَوْ جَهْلٌ بِمَقْدَارِ
الْهَبَةِ ، وَيُعَارِضُهُ عِلْمٌ بِمَقْدَارِ الْحُقُوقِ ، وَرَضَى مُنَافٍ لِلْعُقُوقِ ، فَوَقَعَ الْأَشْكَالَ ؛
وَرَبَّمَا لَطْفٌ عَذْرَكَانَ عَلَيْهِ الْإِتْكَالَ . وَإِذَا لَمْ يُبَشِّرْ مِثْلِي بِمِنْحَةِ اللَّهِ قَبْلَ تِلْكَ الذَّاتِ
السَّرِيَّةِ ، الْخَلِيقَةِ بِالنَّعَمِ الْحَرِيَّةِ ؛ فَمَنْ الَّذِي يُبَشِّرُ ، وَعَلَى مَنْ يُعْرَضُ بَزْهًا^(٥) أَوْ
يُنْشَرُ ، وَهِيَ الَّتِي وَاصَلَتْ التَّفَقُّدَ^(٦) ، وَبُهِرَجَتْ^(٧) الْمُعَامَلَةَ وَأَبَتْ أَنْ تَنْقُدَ ،
وَأَنْتَسَتْ الْغَرَبَةَ وَجَرَحَهَا غَيْرُ مُنْدَمِلٍ^(٨) ، وَنَفَسَتْ الْكُرْبَةَ وَجَنَحُهَا^(٩) عَلَى
الْجَوَانِحِ^(١٠) مُشْتَمِلٍ ؛ فَمَتَى فُرِضَ نِسْيَانُ الْحُقُوقِ لَمْ يَنْلَنِي فَرَضٌ ، وَلَا شَهِدَ بِهِ عَلَيَّ
سَمَاءٌ وَلَا أَرْضٌ ؛ وَإِنْ قَصَّرَ فَمَا يَجِبُ لِسَيِّدِي عَمَلٌ ، لَمْ يُقْصَرْ رَجَاءٌ وَلَا أَمَلٌ ، وَلِي
فِي شَرْحِ حَمْدِهِ نَاقَةٌ وَجَمَلٌ^(١١) . وَمِنْهُ جَلٌّ وَعَلَا نَسَالُ أَنْ يُرِيَهُ قُرَّةَ الْعَيْنِ فِي نَفْسِهِ
وَمَالِهِ وَبَيْنِهِ ، وَيَجْعَلَ أَكْبَرَ عَطَايَا الْهِيَالِجِ أَضْفَرَ سِنِّيهِ ، وَيُقَلِّدَ عَوَاتِقَ^(١٢)

(١) الموقودة . المقتولة ضرباً بالخشب أو بالحجر . وكل هذه الاصناف قد حرم أكله القرآن على المسلم . وانظر الآية رقم ٣ من سورة المائدة ، وأحكام القرآن لابن العربي ١/٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) يدعوله بأن يصاحبه الحفظ في سائر أطوار نموه إلى أن يكتمل .

(٣) السوية . العدل ، والنصفة .

(٤) جبل مغار : محكم القتل .

(٥) البز : الثياب .

(٦) التفقد : التعرف لأحوال الناس ، وتعهدا .

(٧) بهرج : عدل عن الطريق المسلك .

(٨) اندمل الجرح . يرى .

(٩) الجنح : الظلمة .

(١٠) الجوانح : الضلوع تحت الترائب مما يلي الصدر .

(١١) هو عكس لمعنى المثل : « لا ناقي في هذا ، ولا جملي » ، الذي يضرب للتبري من الشيء ، الميداني

١١٣/٢ ، ١١٤ .

(١٢) العواتق : جمع عاتق ؛ وهو ما بين المنكب والعنق .

وإن أنعم سيدي بالإملاء بحاله ، وحال الولد المبارك ، فذلك من غرر إحسانه ، ومترئته في لحظ لحظي بمنزلة إنسانه ، والسلام .

752

بالأهل والولد ، في يوم المولد الكريم سنة أربع وسبعين وسبعائة متوجها الى السلطان وكان قد طرقة المرض فما هو إلا أن وصلت مليانة من أعمال المغرب الأوسط ، لقيني هنالك خبر وفاته ، وأن ابنه أبا بكر السعيد نصّب بعده للأمر في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي وأنه ارتحل إلى المغرب الأقصى مغدًا السير إلى فاس ، وكان على مليانة يومئذ عليّ بن حسون بن أبي علي الهساطلي^(١) من قواد السلطان وموالي بيته ، فارتحلت معه إلى أحياء العطاف ونزلنا على أولاد يعقوب بن موسى من أمرائهم ، وبدرني بعضهم إلى حلّة أولاد عريف أمراء سويد ، ثم لحق بنا بعد أيام عليّ بن حسون في عساكره وارتحلنا جميعاً إلى المغرب على طريق الصحراء ، وكان أبو حمو قد رجع بعد مهلك السلطان من مكان انتبأه بالقفر في تيكورارين إلى تلمسان فاستولى عليها وعلى سائر أعماله ، وأوعز إلى بني يغمور من شيوخ عبيدالله في المعقل أن يعترضونا بحدود بلادهم من رأس العين^(٢) مخرج وادي صا^(٣) ، فاعترضونا هنالك فنجا من نجائنا على خيولهم إلى جبل دبدو وانتهبوا جميع ما كان معنا وأرجلوا الكثير من الفرسان ، وكنت فيهم ، وبقيت يومئذ في قفره ضاحياً عارياً إلى أن حصلت إلى العمران ولحقت بأصحابي بجبل دبدو ووقع في خلال ذلك من الألفاف ما لا يعبر عنه ، ولا يسع الوفاء بشكره . ثم سرنا إلى فاس ووفدت على الوزير أبي بكر وابن عمّه محمد بن عثمان بفاس في جمادي من السنة ، وكان لي معه قديم صحبة واختصاص منذ نزع معي إلى السلطان أبي سالم بجبل الصفيحة ، عند إجازته من الأندلس لطلب ملكه كما مرّ في غير موضع من الكتاب ، فلقيني من برّ الوزير وكرامته وتوفير جرائته وإقطاعه ، فوق ما احتسب وأقت بمكاني من دولتهم أثير المحل ، ثابت^(٤) ، الرتبة عظيم الجاه ، منوّة المجلس عند السلطان . ثم انصرم فصل الشتاء وحدث بين الوزير أبي بكر بن غازي وبين السلطان ابن الأحمر منافرة بسبب ابن الخطيب ، وما دعا إليه ابن الأحمر من إبعاده عنهم ، وأنف الوزير من ذلك فأظلم الجوينيها ، وأخذ الوزير في تجهيز بعض القرابة من بني الأحمر ليشغله به ونزع ابن

(١) وفي نسخة ثانية : اليناطي .

(٢) رأس العين يعرف بعين بني مطهر ، وهي منابع تقع في شرق مدينة دبدو .

(٣) وادي صا ، أوزا بقع في جنوب عين البرديل عن يمين وادي ملوية حوالي ٥١ كلم .

(٤) وفي نسخة ثانية : نابه الرتبة .

الأحمر^(١) إلى إطلاق عبد الرحمن بن أبي يفلوس من ولد السلطان أبي علي ،
والوزير مسعود بن رحو^(٢) بن ماسي كان حبسها أيام السلطان عبد العزيز وأشار بذلك
ابن الخطيب حين كان في وزارتهما بالأندلس ، فأطلقهما الآن وبعثها لطلب المُلْك
بالمغرب ، وأجازهما في الأسطول إلى سواحل غساسة^(٣) فترلوا بها ولحقوا بقبائل بطوية
هنالك ، فاشتملوا عليهم ، وقاموا بدعوة الأمير عبد الرحمن . ونهض ابن الأحمر من
غرناطة في عساكر الأندلس فترل على جبل الفتح فحاصره ، وبلغت الأخبار بذلك
إلى الوزير أبي بكر بن غازي القائم بدعوة بني مرين ، فوجه لحينه ابن عمه محمد بن
عثمان بن الكاس إلى سبتة لإمداد الحامية الذين لهم بالجبل ، ونهض هو في العساكر
إلى بطوية لقتال الأمير عبد الرحمن ، فوجده قد ملك ملك تازي ، فأقام عليها
يحاصره ، وكان السلطان عبد العزيز قد جمع شباباً من بني أبيه المرشحين ، فحبسهم
بطنجة . صاحبه على ما كان منه ، واشتد عدل ابن الأحمر على إخلائهم الكرسي
من كُفِّهِ ، ونصّبهم السعيد بن عبد العزيز صبيّاً لم يشغره ، فاستعتب له محمد ،
واستقال من ذلك ، فحمله ابن الأحمر على أن يبايع لأحد الأبناء المحبوسين
بطنجة ، وقد كان الوزير أبو بكر أوصاه أيضاً بأنه إن تضايق عليه الأمر من الأمير
عبد الرحمن ، يفرّج عنه بالبيعة لأحد أولئك الأبناء .

وكان محمد بن الكاس قد استوزره السلطان أبو سالم لابنه أحمد أيام ملكه ، فبادر
من وقته إلى طنجة وأخرج السلطان أحمد ابن السلطان أبي سالم من محبسه ، وبايع
له وسار به إلى سبتة ، وكتب لابن الأحمر يعرفه بذلك ، ويطلب منه المدد على أن
يتزل له عن جبل الفتح ، فأمدّه بما شاء من المال والعسكر واستولى على جبل الفتح
وشحنه بحاميته ، وكان أحمد ابن السلطان أبي سالم قد تعاهد مع بني أبيه في
محبسهم ، على أن من صار له المُلْك إليه منهم ، يميز الباقيين إلى الأندلس ، فلما بويغ
له ذهب إلى الوفاء لهم بعهدهم ، وأجازهم جميعاً ، فترلوا على السلطان ابن
الأحمر ، فأكرم نزلهم ووفّر جراياتهم . وبلغ الخبر بذلك كلّهُ إلى الوزير أبي بكر
بمكانه من حصار الأمير عبد الرحمن بتازي ، فأخذهُ المقيم المقعد من فعلة ابن عمّه ،

(١) وفي نسخة ثانية : للإجلاب على الأندلس ، فبادر ابن الأحمر .

(٢) رحو في اللغة البربرية تعني تصغير عبد الرحمن .

(٣) غساسة تقع عند مصب وادي ملوية حيث تقطن قبائل بطوية .

وكرر^(١) راجعاً إلى دار الملك ، وعسكر بكديّة العرائس من فاس^(٢) وتوعد ابن عمه محمد بن عثمان فاعتذر بأنه امتثل وصيته ، فاستشاط وتهدده واتسع الخرق بينهما ، وارتحل محمد بن عثمان بسلطانه ومدده من عسكر الأندلس إلى أن احتل جبل زرهون^(٣) المطل على مكناسة ، فعسكر به ، واشتملوا عليه ، وزحف إليهم الوزير أبو بكر وصعد الجبل فقاتلوه وهزموه ، ورجع إلى مكانه بظاهر دار الملك ، وكان السلطان ابن الأحمر قد أوصى محمد بن عثمان بالاستعانة بالأمير عبد الرحمن والاعتضاد به ، ومساهمة في جانب من أعمال المغرب يستبدّ به لنفسه ، فراسله محمد ابن عثمان في ذلك ، واستدعاه واستمده وكان ونزمار بن عريف وليّ سلفهم قد أظلم الجوينيه وبين الوزير أبي بكر ، لأنّه سأله وهو يحاصر تازي في الصلح مع الأمير عبد الرحمن فامتنع ، واتهمه بمداخلته والميل له ، فاعتزم على التقبّض عليه ، ودسّ إليه بعض عيونه ، فركب الليل ولحق بأحياء الأحلاف من المعقل ، وكانوا شيعة للأمير عبد الرحمن ، ومعهم علي بن عمر الويغلافي كبير بني ورتاجن ، كان انتقض على الوزير ابن غازي ولحق بالسوس^(٤) . ثم خاض القفر إلى هؤلاء الأحلاف فترل بينهم مقيماً لدعوة الأمير عبد الرحمن ، فجاءهم ونزمار مفلتاً من حباله الوزير أبي بكر وحرّضهم على ما هم فيه ، ثم بلغهم خبر السلطان أحمد بن أبي سالم ووزيره محمد ابن عثمان ، وجاءهم وافد الأمير عبد الرحمن يستدعيهم . وخرج من تازي فلقبهم ، ونزل بين أحيائهم ، ورحلوا جميعاً إلى إمداد السلطان أبي العباس حتى انتهوا إلى صفرووي^(٥) . ثم اجتمعوا جميعاً على وادي النجا ، وتعاقدوا على شأنهم ، وأصبحوا غداً على التعبئة ، كلٌّ من ناحيته .

(١) وفي نسخة ثانية : وفوض راجعاً ولا معنى لها هنا حسب مقتضى السياق .

(٢) وفي نسخة ثانية : بكديّة العرائس من ظاهرها .

(٣) جبل زرهون : بقرب فاس فيه أمة لا يحصون ويقع على بعد ٣٠ كلم من مدينة مكناسة الزيتون ، وبه مدفن المولى ادريس الاكبر مؤسس الدولة الإدريسية بالمغرب ، وبالجبل تقع مدينة ويلي التاريخية .

(٤) السوس : إقليم واسع . يقع في جنوب مدينة مراكش وراء جبال أطلس ، ويتخلله واد عظيم يسمى وادي سوس ، تتفرع منه عدة اودية ، وحول الواهي وفروعه مزارع واسعة ، بها اشجار ونخيل ، وبإقليم السوس مدن كبيرة . منها : تارودانت وتزنيت ، وعلى ساحلي البحر المحيط حيث مصب وادي سوس تقع مدينة اغادير .

(٥) وفي نسخة ثانية : صفرووي .

وركب الوزير أبو بكر لقتالهم فلم يطق ، وولّى منهزماً فأنحجر بالبلد الجديد^(١) ، وخيّم القوم بكدية العرائس محاصرين له ، وذلك أيام عيد الفطر من سنة خمس وسبعين وسبعمائة فحاصروها ثلاثة أشهر وأخذوا بمخنتها إلى أن جهد الحصار الوزير ومن معه ، فأذعن للصالح على خلع الصبي المنصوب السعيد ابن السلطان عبد العزيز ، وخروجه إلى السلطان أبي العباس ابن عمّه ، والبيعة له ، وكان السلطان أبو العباس والأمير عبد الرحمن قد تعاهدوا عند الاجتماع بوادي النجا على التعاون والتناصر ، على أن الملك للسلطان أبي العباس بسائر أعمال المغرب ، وأنّ للأمير عبد الرحمن بلد سجلماسة ودرعة^(٢) والأعمال التي كانت لجدّه السلطان أبي علي أخيه السلطان أبي الحسن . ثم بدا للأمير عبد الرحمن في ذلك أيام الحصار ، واشتطّ بطلب مراکش وأعمالها فأغضوا له في ذلك ، وشارطوه على ذلك حتى يتمّ لهم الفتح ، فلما انعقد ما بين السلطان أبي العباس والوزير أبي بكر ، وخرج إليه من البلد الجديد ، وخلع سلطانه الصبي المنصوب ، ودخل السلطان أبو العباس إلى دار الملك فاتح ست وسبعين وسبعمائة وارتحل الأمير عبد الرحمن يفتّ السير إلى مراکش ، وبدا للسلطان أبي العباس ووزيره محمد بن عثمان في شأنه ، فسرحوا العساكر في اتباعه ، وانتهوا خلفه إلى وادي بهت فواقفوه ساعة من نهار ، ثم أحجموا عنه ، وولّوا على راياتهم ، وسار هو إلى مراکش ، ورجع عنه وزيره مسعود بن ماسي بعد أن طلب منه الإجازة إلى الاندلس يتودّع بها ، فسرحه لذلك ، وسار إلى مراکش فلكها .

وأما أنا فكنّت مقيماً بفاس في ظلّ الدولة وعنايتها ، منذ قدمت على الوزير سنة أربع وسبعين وسبعمائة كما مرّ ، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه ، فلما جاء السلطان أبو العباس والأمير عبد الرحمن وعسكروا بكدية العرائس ، وخرج أهل الدولة إليهم من الفقهاء والكتاب والجند ، وأذن للناس جميعاً في مباكرة أبواب السلطانين من غير نكير في ذلك ، فكنّت أباكرهما معا ، وكان بيني وبين الوزير محمد بن عثمان ما مرّ

(١) البلد الجديد : تسمّى أيضاً المدينة البيضاء ، وفاس الجديد ، بناها يعقوب بن عبد الحق المريني على وادي فاس سنة ٧٦٤ .

(٢) درعة : وتنطق درا وكذلك تكتب على الخرائط ، وهي مقاطعة كبيرة وراء جبال أطلس شرقي إقليم السوس ، تصل حدودها إلى البحر المحيط من مدن هذا الإقليم : ورزازات في السفح الجنوبي لجبال أطلس وسكانها مختلطين من العرب وبربر صنهاجة . وهذا الإقليم هو الموطن الأصلي لدولة السعديين بالمغرب .

ذكره قبل هذا ، فكان يُظهر لي رعاية ذلك ، ويكثر من المواعيد ، وكان الأمير عبد الرحمن يميل إليّ ويستدعيني أكثر أوقاته ، ويشاورني في أحواله ، ففصّ بذلك الوزير محمد بن عثمان وأغرى سلطانه فتقبّض عليّ . وسمع الأمير عبد الرحمن بذلك ، وعلم أنّي إنّما أتيت من جرّاه ، فحلف ليقوّض خيامه ، وبعث وزيره مسعود بن ماسي لذلك ، فأطلقني من الغد ، ثم كان افتراقهما لثالثة . ودخل الأمير أبو العباس دار الملك ، وسار الأمير عبد الرحمن إلى مراکش ، وكنت أنا يومئذٍ مستوحشاً ، فصحبت الأمير عبد الرحمن معترماً على الإجازة إلى الأندلس من ساحل آسفي ، معوّلاً في ذلك على صحابة الوزير مسعود بن ماسي لهواي فيه ، فلمّا رجع مسعود ثني عزمي في ذلك ، ولحقنا بو نرمار بن عريف بمكانه من نواحي كرسيف ، لتقدّمه وسيلة إلى السلطان أبي العباس صاحب فاس في الجواز إلى الأندلس ، ووافينا عنده داعي السلطان فصحبناه إلى فاس ، واستأذنه في شأني ، فأذن لي بعد مطاولة وعلى كره من الوزير محمد بن عثمان بن داود بن أعراب ، ورجال الدولة .

وكان الأخ يحيى لمّا رحل السلطان أبو حمّو من تلمسان ، رجع عنه من بلاد زغبة إلى السلطان عبد العزيز ، فاستقرّ في خدمته ، وبعده في خدمة ابنه السعيد المنصوب مكانه . ولمّا استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد استأذن الأخ في اللحاق بتلمسان ، فأذن له وقدم على السلطان أبي حمّو ، فأعاده لكتابة سرّه كما كان أوّل أمره ، وأذن لي أنا بعده فانطلقت إلى الأندلس بقصد القرار والدّعة إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الاجازة الثانية إلى الأندلس ثم إلى تلمسان واللاحاق بأحياء العرب والمقامة عند أولاد عريف

ولما كان ما قصصته من تنكّر السلطان أبي العباس صاحب فاس والذهاب مع الأمير عبد الرحمن ، ثم الرجوع عنه إلى ونرمار بن عريف طلباً للوسيلة في انصرافي إلى الأندلس بقصد الفرار والانقياض ، والعكوف على قراءة العلم ، فتمّ ذلك ووقع الإسعاف به بعد الامتناع ، وأجزت إلى الأندلس في ربيع سنة ست وسبعين وسبعمائة ولقيني السلطان بالكرامة وأحسن التزل على عادته ، وكنت لقيتُ بجبل الفتح كاتب

السلطان ابن الأحمر من بعد ابن الخطيب الفقيه أبا عبدالله بن زَمْرَك ، ذاهباً إلى فاس في غرض التهئة ، وأجاز إلى سبتة في أسطوله ، وأوصيته بإجازة أهلي وولدي إلى غرناطة ، فلماً وصل إلى فاس ، وتحدث مع أهلي في إجازتهم ، تنكروا لذلك ، وساءهم استقرارهم بالأندلس ، واتهموا آتي رباً أحمل السلطان ابن الأحمر على الميل إلى الأمير عبد الرحمن الذي اتهموني بملايسته ، ومنعوا أهلي من اللحاق بي . وخاطبوا ابن الأحمر في أن يرجعني إليهم ، فأبى من ذلك ، فطلبوا منه أن يجيزني إلى عدوة تلمسان ، وكان مسعود بن ماسي قد أذنوا له في اللحاق بالأندلس ، فحملوه مشافهة السلطان بذلك ، وأبدوا له أنني كنت ساعياً في خلاص ابن الخطيب ، وكانوا قد اعتقلوه لأوّل استيلائهم على البلد الجديد وظفرهم به . وبعث إليه ^(١) ابن الخطيب مستصرخاً به ، ومتوسلاً ، فعاطبت في شأنه أهل الدولة ، وعوّلت فيه منهم على ونزمار وابن ماسي ، فلم تنجح تلك السعاية ، وقتل ابن الخطيب بمحبسه ، فلماً قدم ابن ماسي على السلطان ابن الأحمر وقد أغروه بي فألقى إلى السلطان ما كان مني في شأن ابن الخطيب ، فاستوحش من ذلك ، وأسعفهم بإجازتي إلى العدو ، ونزلت بهنّين والجوّيين وبين السلطان أبي حمّو مظلم بما كان مني في إجلاب العرب عليه بالزباب كما مرّ . فأوعز بمقامي بهنّين ، ثم وفّد عليه محمد بن عريف فعذله في شأني فبعث عني إلى تلمسان ، واستقررت بها بالعُباد ، ولحق بي أهلي وولدي من فاس ، وأقاموا معي وذلك في عيد الفطر سنة ست وسبعين وسبعائة وأخذت في بثّ العلم ، وعرض للسلطان أبي حمّو رأيي في الزواودة ، وحاجة إلى استئلافهم ، فاستدعاني وكلفني السفارة إليهم في هذا الغرض ، فاستوحشت منه ونكرته على نفسي لِمَا أثرته من التخلّي والإنقطاع ، وأجبتّه إلى ذلك ظاهراً ، وخرجت مسافراً من تلمسان حتى انتهيت إلى البطحاء ، فعدلت ذات اليمين إلى مَنْدَاس ولحقت بأحياء أولاد عريف قبلة جبل كزول ^(٢) فلقوني بالتحف والكرامة ، وأقمتُ بينهم أياماً حتى بعثوا عن أهلي وولدي بتلمسان . وأحسنوا العذر إلى السلطان عني في العجز عن قضاء خدمته ، وأنزلوني بأهلي في قلعة أولاد سلامة ^(٣) من بلاد بني توجين التي صارت لهم بأقطاع السلطان . فأقمت بها أربعة

(١) الضمير يعود إلى ابن خلدون .

(٢) جبل كزول : يقع في الجنوب الغربي لمدينة تيارت على بعد ١٠ كلم .

(٣) تُسمى هذه القلعة قلعة تاوغزوت في مقاطعة وهران من بلاد الجزائر .

أعوام متخلياً عن الشواغل كلها ، وشرعت في تأليف هذا الكتاب ، وأنا مقيمٌ بها ، وأكملت المقدمة على ذلك النحو الغريب الذي اهتمت إليه في تلك الخلوة ، فسألت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها ، وتآلفت نتائجها ، وكانت من بعد ذلك الفيئة إلى تونس كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الفيئة الى السلطان أبي العباس بتونس) *

ولما نزلت بقلعة ابن سلامة من أحياء أولاد عريف ، وسكنتُ بقصر أبي بكر بن عريف الذي اختطه بها ، وكان من أحفل المساكن وأوثقها . ثم طال مقامي هنالك وأنا مستوحشٌ من دولة المغرب وتلمسان ، وعاكفٌ على تأليف هذا الكتاب ، وقد فرغتُ من مقدمته إلى أخبار العرب والبربر وزناته ، وتشوّفتُ إلى مطالعة الكتب والدواوين التي لا توجد إلا بالأمصار ، بعد أن أملتُ النكير من حفظي ، وأردتُ التنقيح والتصحيح ، ثم طرقتُ مرضٌ أربى على البنية لولا ما تدارك من لطف الله ، فحدث عندي ميلٌ إلى مراجعة السلطان أبي العباس والرحلة إلى تونس ، حيث قرار آبائي ومساكنهم ، وآثارهم وقبورهم ، فبادرتُ إلى خطاب السلطان بالفيئة إلى طاعته ، والمراجعة ، فما كان غير بعيد ، وإذا بخطابه وعهوده بالإذن والاستحاث للقدوم ، فكان الخفوق للرحلة فظعن عن أولاد عريف مع عرب الاجص^(١) من بادية رياح ، كانوا هنالك ينتجعون الميرة بمنداس ، وارتحلنا في رجب سنة ثمانين وسبعمئة وملكنا القفر إلى الدوسن من أطراف الزاب . ثم صعدت إلى التل مع حاشية يعقوب بن علي وجدتهم بفرفار^(٢) الضيعة التي اختطها بالزاب ، فرحلت معهم^(٣) إلى أن نزلنا عليه بضاحية قسنطينة ، ومعه صاحبها الأمير ابراهيم ابن السلطان أبي العباس بمخيمه ومعسكره ، فحضرتُ عنده وقسم لي من برّه وكرامته فوق الرضى وأذن لي في الدخول إلى قسنطينة وإقامة أهلي في كفالة إحسانه ، ريثما أصل إلى حضرة أبيه ، وبعث يعقوب بن علي معي ابن أخيه أبي دينار في جماعة من قومه ،

(١) وفي نسخة ثانية : عرب الأخضر .

(٢) فرفار : واحة صغيرة تبعد ٣٣ كلم عن مدينة بسكرة إلى الجنوب الغربي .

(٣) وفي نسخة ثانية : فرحلتهم معي .

وسرتُ إلى السلطان أبي العباس وهو يومئذ قد خرج من تونس في العساكر إلى بلاد الجريد لاستئزال شيوخها عن كراسي الفتنة التي كانوا عليها ، فوافيته بظاهر سوسة ، فحياً وفادتي برّ مقدمي وبالغ في تأنيسي ، وشاورني في مهمّات أموره ، ثم ردّني إلى تونس وأوعز إلى نائبه بها مولاه فارح بتهيئة المنزل ، والكفاية من الجراية والعلوفة ، وجزيل الإحسان ، فرجعت إلى تونس في شعبان من السنة ، وآويت إلى ظلّ ظليل من عناية السلطان وحرمة ، وبعثت إلى الأهل والولد وجمعت شملهم في مرعى تلك النعمة ، وألقيت عصا التسيار ، وطالت غيبة السلطان إلى أن افتتح أمصار الجريد ، وذهب فلّهم في النواحي ، ولحق زعيمهم يحيى بن يملول ببسكرة ، ونزل على صهره ابن مَرْني ، وقَسَمَ السلطان بلاد الجريد بين ولده ، فأُنزل ابنه محمداً المنتصر بتوزر^(١) وجعل نفطة ونفزاوة من أعماله ، وأنزل ابنه أبا بكر بقفصة ، وعاد إلى تونس مظفراً مزهراً ، فأقبل عليّ واستداناني بحالسته ، والنجاء في خلوته ، فغصّ بطانته من ذلك ، وأفاضوا في السعايات عند السلطان فلم تنجح ، وكانوا يعكفون على إمام الجامع ، وشيخ الفُتيا محمد بن عرفة ، وكان في قلبه نكتة من الغيرة من لدن اجتماعنا في المرسى بمجالسة الشيوخ ، فكثيراً ما كان يظهر شفوفي^(٢) عليه ، وإن كان أسنّ مني فاسودّت تلك النكتة في قلبه ، ولم تفارقه ، ولما قدمت تونس انثال عليّ طلبة العلم من أصحابه وسواهم يطلبون الإفادة والاشتغال ، وأسعفتهم بذلك ، فعظم عليه ، وكان يُسرّ التنفير إلى الكثير منهم ، فلم يقبلوا ، واشتدّت غيخته ووافق ذلك اجتماع البطانة إليه ، فاتفقوا على شأنهم في التأنيب والسعاية بي ، والسلطان خلال ذلك مُعرّضٌ عنهم في ذلك ، وقد كلفني بالأكباب على تأليف هذا الكتاب لتشوّقه إلى المعارف والأخبار ، واقتناء الفضائل فأكملت منه أخبار البربر وزناته ، وكتبتُ من أخبار الدولتين وما قبل الإسلام ما وصل اليّ منها ، وأكملت منها نسخة رفعتها إلى خزائنه . وكان مما يغرون به السلطان قعودي على امتداحه ، فإني كنتُ قد أهملتُ الشعر وانتحاله جملة ، وتفرّغت للعلم فقط ، فكانوا يقولون له إنّما ترك ذلك استهانة بسلطانك لكثرة امتداحه للملوك قبلك ، وتنسّمت ذلك عنهم من جهة بعض الصديق من بطانته . فلما رفعت له الكتاب وتوجّهت باسمه أنشدت في

(١) توزر : مدينة واقعة على الحافة الشمالية لشط الجريد بينها وبين نقطة عشرة فراسخ (معجم البلدان) .

(٢) شف عليه شفوفا إذا زاد أو نقص (لسان العرب) وهنا يعني الزيادة .

ذلك اليوم هذه القصيدة امتدحه ، وأذكر سيره وفتوحاته ، واعتذر عن انتحال الشعر واستعطفه بهدية الكتاب إليه فقلت :

هَلْ غَيْرُ بَابِكَ لِلغَرِيبِ مُؤَمِّلٌ
هِيَ هَمَّةٌ بَعَثَتْ إِلَيْكَ عَلَى النَّوَى
مَتَبَوِّأُ الدُّنْيَا وَمَتَجَجَّعُ الْمُنَى
حَيْثُ الْقَصُورُ الزَّاهِرَاتُ مَنِيفَةٌ
حَيْثُ الْخِيَامُ الْبَيْضُ تَرْفَعُ لِلْقَرَى
حَيْثُ الْحِمَى لِلْعَزِّ فِي سَاحَاتِهِ
حَيْثُ الرِّمَاحُ يَكَادُ يورِقُ عُودَهَا
حَيْثُ الْكِرَامُ يَنْوُبُ عَنْ نَارِ الْقَرَى
حَيْثُ الْجِيَادُ أَمْلَنَ شَجَعَانُ الْوَعَى
حَيْثُ الْوُجُوهُ الْغُرُقْنَعَهَا الْحَيَا
حَيْثُ الْمُلُوكُ الصَّيْدُ وَالنَّفَرُ الْأَى
مَنْ شِيعَةُ الْمَهْدِيِّ بَلْ مِنْ شِيعَةِ
شَادُوا عَلَى التَّقْوَى مِثْلَ مِثْلِي عَزَّهِمْ
بَلْ شِيعَةُ الرَّحْمَنِ أَلْقَى حَبَّهِمْ
قَوْمُ أَبُو حَفْصٍ أَبٌ لَهُمْ وَمَا
نَسَبٌ كَمَا اضْطَرَدَّتْ أَنْيَابُ الْقَنَا
سَامَ عَلَى هَامِ الزَّمَانِ كَأَنَّهُ

(١) وفي نسخة ثانية : تعنى بها زهر النجوم وتحفل .

(٢) وفي نسخة ثانية :

حَيْثُ الْخِيَامُ الْبَيْضُ يَرْفَعُ لِلْعَلَى

(٣) وفي نسخة ثانية :

حَيْثُ الْجِيَادُ أَمْلَنَ بَنُو الْوَعَى

(٤) وفي نسخة ثانية : يَفْصَلُ .

(٥) أبو حفص هو عمر بن عبد الله الصنهاجي ويعرف بأزناج وعمر ومزال ، ويذكر ابن خلدون أن نسب الحفصيين ينتهي إلى ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب ونقل ذلك عن ابن تيمية وغيره من المؤرخين (راجع المجلد السادس من هذا الكتاب) .

والمكرمات طرفها المتهدل

مما أطالوا في المغار وأوغلوا

فَصَلُّ الْأَنَامَ حَدِيثُهُمْ وَقَدْ يُمَهُم
وَبَنُوا عَلَى قُلُلِ التَّخُومِ وَوَطَّدُوا
وَلَقَدْ أَقُولُ لِحَائِضِ بَحْرِ الْغَلَا
مَاضٍ عَلَى غَوْلِ الدَّجَى لَا يَتَّقِي
مَتَقَلَّبُ فَوْقَ الرِّمَاحِ (٢) كَأَنَّهُ
يَبْغِي مَنَالَ الْفُوزِ مِنْ طُرُقِ الْغَنَى
أَرْحَ الرِّكَابُ فَقَدْ ظَفَرَتْ بِوَاهِبِ
لِلَّهِ مَنْ خُلِقَ كَرِيمٌ فِي النَّدَى
هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِمَامِنَا
هَذَا أَبُو الْعَبَّاسِ خَيْرُ خَلِيفَةِ
مُسْتَنْصَرٍ بِاللَّهِ فِي قَهْرِ الْعِدَا
سَبَقَ الْمُلُوكَ إِلَى الْعُلَا مَتَمَهَّلًا
فَلَأَنْتَ أَعْلَى الْمَالِكِينَ وَإِنْ غَدُوا
قَائِسٌ قَدِيمًا مِنْهُمْ بِقَدِيمِكُمْ (٣)
دَانُوا لِقَوْمِكُمْ بِأَقْوَمِ طَاعَةٍ
سَائِلٌ تَلَمَّسَانَا بِهَا وَزَنَاتَةٍ
وَأَسْأَلُ بِأَنْدَلُسِ مَدَائِنِ مُلْكِهَا
وَأَسْأَلُ بِذِمَارٍ كَشَا وَقُصُورِهَا
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْوَفِيُّ يَا ذَا الَّذِي
لِلَّهِ مِنْكَ مَوْبِدُّ عَزَمَاتِهِ
حَيْثُ الزَّمَانُ يَحْتُ أَعْظَمَ حَتِّهِ (٥)
وَالشَّمْلُ مِنْ أَنْبَائِهِ مُتَصَدِّعٌ

وَلَأَنْتَ إِنْ نَصَّبُوا أَعَزُّوا أَفْضَلُ
وَبِنَاؤُكَ الْعَالِي أَشَدُّ وَأَطْوَلُ
وَاللَّيْلُ مُدَثِّرُ الْجَوَانِبِ أَلِيلُ (١)
مِنْهَا وَذَا بَلَهْ ذُبَاكُ مُشْعَلُ
طَيْفٌ بِأَطْرَافِ الْمَهَادِ مُوَكَّلُ
وَيُرُودُ مَخْصِبِهَا الَّذِي لَا يَمْجَلُ
يُعْطِي عَطَاءَ الْمُنْعِمِينَ فَيَجْزَلُ
كَالرَوْضِ حَيَّاهُ نَدَى مَخْضُوضَلُ
فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا إِلَيْهِ الْمُؤْتَلُ
شَهِدَتْ لَهُ الشِّيمُ الَّتِي لَا تُجْهَلُ
وَعَلَى إِعَانَةِ رَبِّهِ مُتَوَكَّلُ
لِلَّهِ مِنْكَ السَّابِقُ الْمَتَمَهَّلُ
يَتَسَابِقُونَ إِلَى الْعَلَاءِ وَأَكْمَلُ
فَالْأَمْرُ فِيهِ وَاضِحٌ لَا يُجْهَلُ
هِيَ عُرْوَةُ الدِّينِ الَّتِي لَا تُفْصَلُ
وَمَرِينٌ قَبْلَهُمْ كَمَا قَدْ يَنْقَلُ
تَخْبِرُكَ حِينَ اسْتَأْنَسُوا وَاسْتَأْهَلُوا
فَلَقَدْ تَجِبُ رُسُومُهَا مَنْ يَسْأَلُ
مَلَأَ الْقُلُوبَ وَفَوْقَ مَا يَتِمَثَّلُ (٤)
تَمْضِي كَمَا يَمْضِي الْقَضَاءُ الْمُرْسَلُ
فَافْتَرَّ عَنْهُ وَهُوَ أَكْلَحُ أَعْضَلُ
وَعُلَا خِلَافَتِهِمْ (٦) مَضَاعُ مُهْمَلُ

(١) وفي نسخة ثانية : واللَّيْلُ مَزِيدُ الْجَوَانِبِ أَلِيلُ

(٢) وفي نسخة ثانية : الرِّحَالُ .

(٣) وفي نسخة ثانية : قَائِسٌ قَدِيمًا مِنْكُمْ بِقَدِيمِكُمْ .

(٤) وفي نسخة ثانية : يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي فِي نَعْتِهِ مَلَأَ الْقُلُوبَ وَفَوْقَ مَا يَتِمَثَّلُ

(٥) وفي نسخة ثانية : جَثَّ الزَّمَانُ بِحَيْثُ أَعْضَلُ خَطْبِهِ ، وَأَعْضَلُ مَكَانَ أَعْضَلُ فِي الشَّطْرِ الثَّانِي
وَالْأَعْضَلُ : الْمَوْجُ وَالشَّدِيدُ الْإِلْتَوَاءُ . وَالْأَعْضَلُ : الْأَشَدُّ قَبْحًا .

(٦) وفي نسخة ثانية : وَجَمَى خِلَافَتَهُ .

والخلقُ قد صَرَفُوا إِلَيْكَ قُلُوبَهُمْ
فَعَجَلْتَهُ لِمَا اتَّسَدَتْ لَأَمْرِهِ
ذَلَّتْ مِنْهُ جَامِعاً لَا يَنْثَنِي
وَأَلْتَمَسَتْ مِنْ سَوْسِ الْعَتَاةِ وَذُدَّتْهُمْ
كَأَنَّ لَصُولَةَ صَوْلَةٍ وَلِقَوْمِهِ
وَمُهْلَهُلٌ تُسْدي وتُلْحِمُ في التي

وَرَجَّوْا اصْلَاحَ الْحَالِ مِنْكَ وَأَمَلُوا
بِالْبَأْسِ وَالْعَزْمِ الَّذِي لَا يُمَهِّلُ
سَهَّلَتْ وَعَرَّأَ كَادَ لَا يَتَسَهَّلُ
عَنْ ذَلِكَ الْحَرَمِ الَّذِي قَدْ حَلَّلُوا
يَعْدُو ذَوِيبُ بِهَا وَتَسْطُو الْمُعْقِلُ
مَا أَحْكَمُهَا فَهِيَ بَعْدُ مُهْلَهُلٌ

والمراد بصولة هنا صولة بن خالد بن حمزة أولاد أبي الليل . وذؤيب هو ابن عمه
أحمد بن حمزة . والمعقل فريق من العرب من أحلافهم ، ومهلل هم بنو مهلهل بن
قاسم أنظارهم وأقتلهم . ثم رجع إلى وصف العرب وأحيائهم :

عَجَبَ الْأَنَامُ لِشَأْنِهِمْ بَادُونَ قَدْ
رَفَعُوا الْقِيَابَ عَلَى الْعَادِ وَعُنْدَهَا
فِي كُلِّ ظَامِي الرَّبِّ مَنَعْدُ الْحَصَا (٢)
حَنِيٌّ شَرَابُهُمُ السَّرَابُ وَرَزَقُهُمْ
حَيَّ حُلُولٌ بِالسَّالْعَاءِ وَدُونَهُمْ
كَانُوا يَزُوعُونَ الْمُلُوكَ بِمَا بَدَّوْا
فَبَدَّوَتْ لَا تَلْوِي عَلَى دَعَا وَلَا
طَوْرًا يَصَافِحُكَ الْهَجِيرُ وَتَارَةً
وَإِذَا تَعَاطَى الضَّمْرُ فِي يَوْمِ الْوَغَى (٥)
مَحْشُوشُنَا فِي الْعَزِّ مُعْتَمِلًا لَهُ
تَفْرِي حَشَى الْبَيْدَاءِ لَا يَسْرِي بِهَا
وَتَجَرَّ أَذْيَالُ الْكِتَابِ فَوْقَهَا

قَذَفَتْ بِجِيهِمُ الْمَطْيِيُّ الذَّلِيلُ
الْجَرْدُ السَّلَاحِبُ وَالرِّمَاحُ الْعُسْلُ (١)
تَهْدِي لِلجَّتِهِ الظَّاءُ فَتَهْلُ
رِيحٌ يَرُوحُ بِهِ الْكَمِيُّ وَمَنْصِلُ (٣)
قُذِفُ النَّوَى إِنْ يَظْعَنُوا أَوْ يُقْبِلُوا
وَعَدَتْ تَرْفَهُ بِالنَّعِيمِ وَتَخْضُلُ
تَأْوِي إِلَى ظِلِّ الْقُصُورِ وَتَهْزِلُ (٤)
فِيهِ بِخَفَاقِ الْبَنُودِ تُظَلِّلُ
كَأْسُ النَّجِيعِ فَبِالصَّهِيلِ تُعَلِّلُ
فِي مِثْلِ هَذَا يَحْسُنُ الْمُسْتَعْمَلُ
رَكْبٌ وَلَا يَهْوِي إِلَيْهِ جَحْفَلُ
تُخْتَالُ فِي السَّمْرِ الطُّوَالِ وَتَرْفُلُ

(١) السلاهب : ج سلهب . وسلاهبه : الطويل . والعسل : ذو العمل الصالح يستحلى الثناء عليه وهي
تجمع عاسل .

(٢) وفي نسخة ثانية : في كل ظامي الترب متقد الحصى .

(٣) وفي نسخة ثانية : جن شرابهم السراب ورزقهم رمح يروح به الكمي ومنصل

(٤) وفي نسخة ثانية : تأوي الى ظل القصور تهذل .

(٥) وفي نسخة ثانية : واذا تعاطي خمرأ يوم الوغى .

ترميم منها بكلّ مُدَجَّجٍ
وبكلّ أَسْمَرٍ غُصْنُهُ مُتَأَوِّدٌ
حتى تَفَرَّقَ ذلكَ الجَمْعُ الأَلَى
ثم اسْتَمَلَتْهُمْ بِنِعْمَتِكَ^(١) التي
ونزعت من أهل الجريد غوايةً
خَرَّبَتْ من بُيَانِهَا ما شِيدُوا
ونظمت من أمصاره وثغوره
فَسَدَّدَتْ مَطْلَعَ النِّفَاقِ وَأَنْتَ لَا
بشكيمةٍ مرهوبةٍ وسياسةٍ
عَذَبَ الزَّمانُ لها وَلَذَّ مَذَاقُهُ
فضوى الأَنَامُ لِعَزِّ أَرْوَعِ مَالِكٍ
وتطابقت فيه القلوبُ على الرضا
يا مالِكاً وَسِعَ الزَّمانُ وأَهْلُهُ
فالأَرْضُ لَا يُخْشَى بها غُولٌ وَلَا
والسَّرْبُ يَحْتَابُونَ كُلَّ تَنَوُّفَةٍ
سبحان من بعلاك قد أحيا المني
سبحان من بهدأك أَوْضَحَ لِلوَرَى
فكأنما الدنيا عروسٌ تَجَنَّلَى
وكانَ مُطَبَّقَةُ البلادِ بَعْدَلِهِ
وكانَ أنوار الكواكبِ ضَوْعَفَتْ
وكانَها رُفِعَ الحجابُ لناظِرٍ

ومنها في العذر عن مدحه :

مولاي غاضتُ فِكرتي وتبلّدتُ
تسمو إلى دَرْكِ الحَقائِقِ هَمِّي

شاكِي السَّلاحِ إذا اسْتَعَارَ الأَعَزْلُ
وبكلّ أَيْضٍ شَطَطُهُ مُنْهَدِلٌ
عَصَفَتْ بِهِم رِيحُ الجَلَاءِ فَرَزَلُوا
خَضَعُوا لِعَزِّكَ بَعْدَهَا وتَذَلَّلُوا
وقطعت من أسبابها ما أوصلوا
وقطعت من أسبابها ما أَصَلُوا
لِلْمَلِكِ عَقْدًا بِالْفَتْوحِ يُفْصَلُ
تَبَوَّأَ ظَبَاكَ وَلَا العَزِيمَةُ تَنْكُلُ
تَجْرِي كما يَجْرِي فَرَاتٌ سِلْسِلُ
من بَعْدِ ما قَدْ مَرَّ مِنْهُ الحَنْظَلُ
سَهْلُ الخَلِيقَةِ ما جِدُّ مُتَفَضِّلُ
سَيَّانٍ مِنْهَا الطِّفْلُ والمُتَكَهِّلُ
عَدَلًا وَأَمْنًا فَوْقَ ما قَدْ أَمَلُوا
يَعْدُو بِسَاحَتِهَا الهَزْبُ الرُّمُوشُ
سِرْبَ القِطَامِ راعَهُنَّ الأَجْدَلُ^(٢)
وأعاد حَلِيَّ الجِيْدِ وهو مَعْطَلُ
قَصْدَ السَّبِيلِ فَأَبْصَرَ المَنَامِلُ
فَتَمِيسُ في حُلُلِ الجِمالِ وتَرْفَلُ
عَادَتْ فُسيحاً لَيْسَ فيها مَجْهَلُ
من نورِ غَرَّتِهِ التي هي أَجْمَلُ
فَرَأَى الحَقِيقَةَ في الَّذِي يَتَخَيَّلُ

مَني الطَّبَاعُ فَكُلُّ شَيْءٍ مُشْكَلُ
فَأَصَدَّ عَنِ إدْرَاكِهِنَّ وَأَعَزَلُ

(١) وفي نسخة ثانية : بأنعمك التي .

(٢) وفي نسخة ثانية : والسَّفر ، وتنوفاً : القفر من الأرض دون ماء . والأجدل : الأشقر .

وأَجِدُّ لَيْلِي فِي امْتِرَاءٍ قَرِيحَتِي ^(١)
فَأَبَيْتُ يُخْتَلَجُ ^(٢) الْكَلَامُ بِخَاطِرِي
وَإِذَا امْتَرَيْتُ الْعَقُومَنَّهُ جَاهِدًا
مَنْ بَعْدَ حَوْلِ اتَّقِيهِ وَلَمْ يَكُنْ
فَأَصُونُهُ عَنْ أَهْلِهِ مَتَوَارِيًا
وَهِيَ الْبُضَاعَةُ فِي الْقَبُولِ نَفَاقُهَا
وَبَنَاتُ فِكْرِي إِنْ أَتَتْكَ كَلِيلَةٌ
فَلَهَا الْفَخَارُ إِذَا مَنَحْتَ قَبُولَهَا

ومنها في ذكر الكتاب المؤلف بخزائنه :
وإليك من سير الزَّمان وأهله
صحفا تترجمُ عن أحاديثِ الأولى
تبدي التبابعُ والعالمقُ سرَّها
والقائمون بملَّةِ الإسلامِ مِنْ
لَحْضَتِ كُتُبِ الْأَوَّلِينَ يَجْمَعُهَا
وَأَنْتَ حَوْشِي الْكَلَامِ كَأَنَّمَا
وَجَعَلْتَهُ لِسَوارِ مُلْكِكَ مَفْخَرًا
وَاللَّهُ مَا أَسْرَفْتُ فِيمَا قُلْتُه
وَلَأَنْتَ أَرْسَخُ فِي الْمَعَالِي رُتْبَةً
فَلَائِكَ كُلِّ فَضِيلَةٍ وَحَقِيقَةٍ
وَالْحَقُّ عِنْدَكَ فِي الْأُمُورِ مَقْدَمٌ

فَتَعُودُ غُورًا بَعْدَ مَا تَسْرُسُ
وَالنَّظْمُ يَشْرُدُ وَالْقَوَافِي تَجْفُلُ
عَابَ الْجَهَابِذُ صَنَعَهُ وَاسْتَزْدَلُوا
فِي الشَّعْرِ لِي قَوْلُ يَعَابُ وَيَمْهَلُ ^(٣)
أَنْ لَا يَضُمَّهُمْ وَشَعْرِي مَحْفَلُ
سَيَّانٍ فِيهِ الْفَحْلُ وَالْمُتَطَفَّلُ
زَهْرَاءُ ^(٤) تَخْطُرُ فِي الْقُصُورِ وَتَحْطُلُ
وَأَنَا عَلَى ذَاكَ الْبَلِيغِ الْمَقُولُ

عَبْرًا يَدِينُ بِفَضْلِهَا مَنْ يَعْدِلُ
دَرَجُوا ^(٥) فَتَجْمَلُ عَنْهُمْ وَتَفْصَلُ
وَتُمَوِّدُ قَبْلَهُمْ وَعَوَادُ الْأَوَّلُ
مُضْرُو بَرِيرِهِمْ إِذَا مَا حُصِّلُوا
وَأَتَيْتُ أَوْلَهَا بِمَا قَدَّ أَغْفَلُوا
سَرْدُ لِلْغَاتِ بِهَا لِنَطْقِي ذُلُّ
يَبْهِي النَّدِيَّ بِهِ وَيَزْهَوُ الْمَحْفَلُ ^(٦)
شَيْئًا وَلَا الْأَسْرَافُ مِنِّي يَجْمَلُ
مَنْ أَنْ يَمُوءَ عِنْدَهُ مُتَطَفَّلُ
النَّاسُ تَعْرِفُ فَضْلَهَا ^(٧) إِنْ بَدَّلُوا
أَبْدًا فَاذَا يَدَّعِيهِ الْمَبْطَلُ

(١) امتراء القريحة : استدرارها .

(٢) وفي نسخة ثانية : يعتلج .

(٣) وفي نسخة ثانية : في الشعر حولي يعاب ويمهل .

(٤) وفي نسخة ثانية : مرهاء ، وامرأة مرهاء أي غير مكتحلة .

(٥) وفي نسخة ثانية : غبروا .

(٦) وفي نسخة ثانية : وجعلته لصوان ملك مفخرًا .

ويبأي : يفخر .

(٧) وفي نسخة ثانية : تعرف وضعها .

والله أعطاك التي لا فوقها
أبقاك ربك للعباد تربهم
فاحكم بما ترضى فانت الأعذل
فالله يخلقهم ورعك يكفل

وكنتم انصرفتم من معسكره على سوسة إلى تونس ، بلغني وأنا مقيم بها أنه أصابه في طريقه مرض ، وعقبه براء فخاطبته بهذه القصيدة :

ضحكت وجوه الدهر بعد عبوس
وتوضحت غرر البشائر بعدما
صدعوا بها ليل الهموم كأنها
فكأنهم جنات عدن في الوري (٢)
قرت عيون الخلق منها بالتي
يتمايلون من المسرة والرضا
من راكب وافى يحيى راكباً
ومشفع لله يؤنس عنده
يعتد منها رحمة قدسية
طب بإخلاص الدعاء وأنه

وتخللتنا رحمة من بوس
انبهمت فأطلعها حداة العيس (١)
صدعوا الظلام بجذوة المقبوس
نشرت لها الآمال من مرموس
شربوا النعيم لها بغير كؤوس
ويقابلون أهلة بشموس
وجلس أنس قادة الجليس
أثر الهدى في المعهد المأنوس
فبيو للرحمن بالتقديس
يشفي من الداء العيا والبوس (٣)

والمعني به إمام الجامع الأعظم ، جامع الزيتونة بتونس .

يا ابن الخلافة (٤) والذين بنورهم
والناصر الدين القويم بعزمه
هجر المنى فيها ولذات المنى
حاط الرياضة بالسياسة فانطوت (٧)

نهجت سبيل الحق بعد دروس
طردت إمامتها بغير عكوس (٥)
في لذة التهجير والتغليس (٦)
منه لا كرم مالك وسيوس

(١) العيس : الواحد : اعيس ، والواحدة : عيساء : الإبل البيض يخالط بياضها سواد خفيف — كرام الإبل .

(٢) وفي نسخة ثانية : فكأنهم بثوا حياة في الوري .

(٣) البؤس : أي البؤس الشقاء وفي نسخة ثانية : يشفي من الداء العيا ويوسي .

(٤) وفي نسخة ثانية : يا ابن الخلائف .

(٥) وفي نسخة ثانية : طرد استقامتها بغير عكوس .

(٦) التهجير : التكبير إلى الصلاة وفي الحديث : لو يعلم الناس ما في التهجير لاستبقوا إليه . والتغليس : السير إلى صلاة الصبح عند ظلمة آخر الليل .

(٧) وفي نسخة ثانية : حاط الرعية بالسياسة فانضوت .

أَسَدٌ يَحَامِي عَنْ حِمَى أَشْبَالِهِ
قَسَمًا بِمَوْشِيَّ الْبَطَاحِ وَقَدْ غَدَتُ
وَالْمِائِلَاتِ مِنَ الْخَنَايَا جُثْمًا
وَحَزَّ الْبَلَى مِنْهَا الْغَوَارِبُ وَالذَّرَى
لَبَقَاكَ حِرْزٌ لِلْأَنَامِ وَعَصْمَةٌ
وَلَأَنْتَ كَافِلٌ دِينَنَا بِحِمَايَةِ
اللَّهِ أَعْطَاكَ الَّتِي لَا فَوْقَهَا

تَعْنُو الْقُلُوبُ إِلَيْكَ قَبْلَ وَجْهِهَا
فَإِذَا أَقَتَ فَإِنْ رُعِبَكَ رَاحِلٌ
وَإِذَا رَحِلْتَ فَالْسَعَادَةُ آيَةٌ
وَإِذَا الْأَدِلَّةُ فِي الْكِبَالِ تَطَابَقَتْ
فَنَانَعَمْ بِمَلِكِكَ دَوْلَةً عَادِيَّةً
وَالْيَكْهَهَا مِنِّي عَلَى خَجَلٍ بِهَا
عُذْرَاكَ قَدْ طَمَسَ الشَّبَابُ وَنَوْرُهُ
لَوْلَا عَنَّا يَتُوكَ الَّتِي أَوْلَيْتَنِي
وَاللَّهِ مَا أَبَقْتُ مِمَّا رَسَدَ النَّوَى
أُنَحْنِي الزَّمَانَ عَلَيَّ فِي الْأَدَبِ الَّذِي
فَسَطَا عَلَى فِرْعَوِي (٦) وَرَوَّعَ مَأْمَنِي
وَرِضَاكَ رَحِمَتِي الَّتِي أَعْتَدْتُهَا

ثم كثرت سعاية البطانة بكل نوع من أنواع السعائيات ، وابن عَرَفَةَ يزيد في إغرائهم
متى اجتمعوا إليه ، إلى أن أغروا السلطان بسفري معه ، ولقنوا النائب بتونس القائد

(١) الخيس : ج الخيسة : موضع الأسد .

(٢) الموكوس : (مص) مكس . المنقوص .

(٣) أي بالعذاب القوي .

(٤) الطروس : الصحيفة عموماً . الصحيفة التي محيت ثم كتبت (وهنا يعني الكتب) .

(٥) وفي نسخة ثانية : سوى حرس أحم وريس . والمرس : الحبل والأحم : الاسود والدريس : الخلق .

(٦) وفي نسخة ثانية : فسطا على وفري .

فأراح من موالي السلطان أن يتفادى من مقامي معه خشية على أمره مني بزعمه ، وتواطؤا على أن يشهد ابن عرفة بذلك للسلطان حتى شهد به في غيلة مني ونكر السلطان عليهم ذلك ، ثم بعث إليّ وأمرني بالسفر معه ، فسارعت إلى الامتثال ، وقد شق ذلك عليّ ، إلا أنني لم أجد مَحِيصاً ، فخرجت معه وانتهيت إلى تبسة ، وسط وطن تلول أفريقية ، وكان منحدرًا في عسكره وتوابعه من العرب إلى تَوَزَّرَ لأن ابن يملول أجلب عليها سنة ثلاث وثمانين وسبعائة واستنقذها من يد ابنه ، فسار السلطان إليه ، وشرده عنها ، وأعاد إليها ابنه وأولياءه . ولما نهض من تبسة رجعتني إلى تونس فأقمت بضبعة الرياحين من نواحيها لضمّ زراعتي^(١) بها إلى أن قفل السلطان ظافراً منصوراً فصحبته إلى تونس .

ولما كان شهر شعبان من سنة أربع وثمانين وسبعائة أجمع السلطان الحركة إلى الزاب بما كان صاحبه ابن مَزْنِي قد آوى ابن يملول إليه ومهد له في جواره ، فخشيت أن يعود في شأني ما كان في السنة قبلها ، وكان بالمرسى سفينة لتجّار الإسكندرية قد شحنها التجّار بامتعتهم وعروضهم ، وهي مقلعة إلى الإسكندرية فتطارحت على السلطان ، وتوسّلت إليه في تخلية سبيلي لقضاء فرضي ، فأذن لي في ذلك ، وخرجت إلى المرسى والناس متسايلون على أثري من أعيان الدولة والبلد وطلبة العلم . فودّعتهم وركبت البحر منتصف شعبان من السنة ، وقوّضت عنهم بحيث كانت الخيرة من الله سبحانه ، وتفرّعت لتجديد ما كان عندي من آثار العلم ، والله وليّ الأمور سبحانه .

* (الرحلة الى المشرق وولاية القضاء بمصر) *

ولما رحلت من تونس منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين وسبعائة أقناني البحر نحواً من أربعين ليلة ، ثم وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر ، ولعشر ليالي من جلوس الملك الظاهر على التخت ، واقتعاد كرسي الملك دون أهله بني قلاوون ، وكنا على ترّقب ذلك ، لما كان يؤثر بقاضية البلاد من سموه لذلك ، وتمهيد له . وأقمت بالإسكندرية شهراً لتهيئة أسباب الحج ولم يقدّر عامئذٍ ، فانتقلت إلى القاهرة أوّل ذي

(١) وفي نسخة ثانية : لضم زروعي .

العقدة فرأيت حاضرة الدنيا وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وإيوان الإسلام وكرسي المُلْك ، تلوح القصور والأواوين في جَوْه ، وتزهر الخواص والمدارس والكواكب بأفأقه ، وتضيء البدور والكواكب من علمائه ، قد مَثَلَ بشاطيء النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء . يسقيهم العَلَل والنَّهْلَ سيحُه . ويخني إليهم الثمرات والخيرات ثَجَه^(١) ومررتُ في سكك المدينة تغص بزحام المارة . وأسواقها ترخر بالنعم . وما زلنا نتحدَّث بهذا البلد وبُعْدِ مداه في العمران . واتساع الأحوال ، ولقد اختلفت عباراتُ من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا حاجهم وتاجرهم في الحديث عنه ، سألت صاحبنا كبير الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبا عبدالله المَقْرِي مقدمه من الحج سنة أربعين وسبعائة فقلت له : كيف هذه القاهرة ؟ فقال : من لم يرها لم يعرف عزَّ الإسلام .

وسألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك فقال : كأنما انطلق أهله من السحاب^(٢) يشير إلى كثرة أمه وأمنهم العواقب .

وحضر صاحبنا قاضي العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبو القاسم البُرْجِي بمجلس السلطان أبي عنان ، منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر وتأدية رسالته النبوية^(٣) إلى الضريح الكريم سنة ست وخمسين وسبعائة فسألته عن القاهرة فقال .

أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار : إنَّ الذي يتخيَّل الإنسان فإنَّما يراه دون الصورة التي تخيِّلها الاتساع الخيال عن كل محسوس ، إلا القاهرة ، فإنَّها أوسع من كل ما يتخيَّل فيها . فأعجب السلطان والحاضرون لذلك .

ولما دخلتها أقمت أياماً واثال عليَّ طلبة العلم بها يلتمسون الإفادة مع قَلَّة البضاعة ، ولم يوسعوني عُذْراً ، فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها .

ثم كان الاتصال بالسلطان فأبْرَ مقامِي وآنس الغربه ، ووفّر الجراية من صدقاته شأنه

(١) الثج : الصب الكثير .

(٢) وفي نسخة ثانية الحساب وهي الأصح وبذلك يقول المقرئ في خططه : « قال شيخنا الاستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى : أهل مصر كأنما فرقوا من الحساب » الخطط ٧٩/١ طبع مصر ١٣٢٤ هـ .

(٣) الرسالة النبوية اعتادوا كتابتها في مناسبات عديدة . كان يبعثون بها إلى قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بواسطة رسول خاص إلى الروضة الشريفة حيث تقرأ قرب القبر النبوي الكريم وفي نفع الطيب أمثلة عديدة لهذه الرسائل .

مع أهل العلم ، وانتظرت لحاق أهلي وولدي من تونس ، وقد صدّهم السلطان هنالك عن السفر اغتباطاً بعودي إليه فطلبت من السلطان صاحب مصر الشفاعة إليه لتخلية سبيلهم ، فخطبه في ذلك بمناصّه^(١) .

بسم الله الرحمن الرحيم^(٢) .

عبدالله ووليّه أخوه برقوق^(٣) [.....]^(٤) .

السلطان الأعظم ، المالك الملك الظاهر ، السيّد الأجلّ ، العالم العادل ، المؤيّد المجاهد ، المُرابط المُثاغر ، المظفرّ ، الشّاهنشاه ، سيف الدُّنيا والدين ، سُلطان الإسلام والمسلمين ، مُحْيِي العدل في العالمين ، مُنصف المظالمين من الظالمين ، وارث المُلك ، سلطان العرب والعجم والترك ، اسكندر الزّمان ، مولي الإحسان ، مُمَلِّك أصحاب التّخوت والأسرّة والتّيجان ، واهب الأقاليم والأقطار ، مبيد الطُّغاة والبُغاة والكفّار ، مَلِك البَحْرَيْن ، مُسَلِّك سبيل القِبْلَتَيْن ، خادِم الحَرَمَيْن الشّريّفين ، ظلّ الله في أرضه ، القائم بسُنّته وفرضه ، سلطان البسيطة مؤمّن الأرض المُحيطة ، سيّد المُلوِك والسلاطين ، قَسِيمٌ^(٥) أمير المؤمنين^(٦) ، أبو سعيد برقوق ابن الشّهِيد شرف الدّنيا والدين أبي المعالي أنس^(٧) . خَلَدَ الله سلطانه ، ونصر

(١) سقط نص هذه الرسالة في أكثر النسخ . وقد اضفنا من نسخة بولاق المصرية طبعة دار الكتاب اللبناني حتى لا يفوتنا شيء من هذا الكتاب .

(٢) حافظت في هذه الرسالة على الطريقة الرسمية التي كانت متبعة في ذلك العهد ، والتي يقول عنها القلقشندي في صبح الاعشى (٣٧٨/٧) ، في رسم المكاتب الى صاحب فاس ، وغيره من ملوك المغرب :

« ... وهو أن يكتب بعد البسملة ، بحيث يكون تحتها سواء ، في الجانب الايمن من غير أول السطر مسامتا للبسملة ، وهي : السلطان الاعظم الخ » .

(٣) في خطط المقرئ ٢١١/٢ بولاق : « واما البريد ، وخلاص الحقوق والظلامات ، فانه (السلطان) يكتب ايضا اسمه ، وربما كرم المكتوب اليه ، فكتب اليه : « أخوه فلان ، او والده فلان ، وأخوه » .

(٤) هذا البياض هو بيت العلامة ، وكانت علامة الناصر محمد بن قلاوون : « الله أُملي » ، وعمل ذلك الملوك بعده . خطط المقرئ ٢١١/٢ بولاق ، والاستقصا ٧٢/٢ ، صبح الاعشى ٣٧٨/٧ .

(٥) القسم بمعنى القاسم ؛ والمراد أنه قاسم أمير المؤمنين الملك ، وسأهم في الأمر ، فصارا فيه مشتركين . صبح الاعشى ٦٥/٧ ، ١١٣ .

(٦) هو المتوكل على الله ، ابو عبدالله محمد بن المعصود الخليفة العباسي . ولي سنة ٧٦٣ هـ وامتدت ايامه ٤٥ سنة ، حبس فيها وخلع ؛ ومات سنة ٨٠٨ هـ . « تاريخ الخلفاء » ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٧) كذا ، وهو سيف الدين اتز الجركسي العثماني سنة ٧٨٣ هـ .

جيوشه وأعوانه — يخص الحضرة السنية السرية ، المظفرة الميمونة ، المنصورة المصونة ، حضرة السلطان العالم ، العادل المؤيد ، المُجاهد الأوحد ، أبي العباس ، ذخر الإسلام والمسلمين ، عُدَّة الدنيا والدين ، قُدوة المُوحدين ، ناصر الغزاة والمُجاهدين ، سيف جماعة الشاكرين ، صلاحُ الدُول . لا زالت مملكته بقُوته عامرة ، ومهابته لنفوس الجبابرة قاهرة ، ومعدلته تُبَوِّثُهُ عُرفَات العز في الدنيا والاخرة . سلامٌ صفا وردّه وضفا برُدّه ، وثناءٌ فاح ندّه ، ولاح سعده ، ووداد زاد وجده ، وجاد جدّه .

أما بعد حمد الله الذي جعل القلوب أجناداً مجنّدة ، وأسباب الوداد على البعاد مؤكّدة ، ووسائل المحبة بين الملوك في كلّ يوم مجدّدة ؛ والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمدٍ عبده ورسوله ، الذي نصره الله بالرَّعب مسيرة شهر وأَيّده ^(١) وأعلى به منار الدين وشيّد به ؛ وعلى آله وأصحابه الذين اقتفوا طريقه وسوّدده ، صلاة دائمة مؤبّدة . فإننا نوضّح لعلّهم الكريم ، أن الله — وله الحمد — جعل جبلتنا الشريفة مجبولة على تعظيم العلم الشريف وأهله ، ورفعته شأنه ، ونشر إعلامه ، ومحبة أهله وخدّامه ، وتيسير مقاصدهم ، وتحقيق أمّلتهم ، والإحسان إليهم ، والتقرّب إلى الله بذلك في السرّ والعلانية ؛ فإن العلماء رضي الله عنهم ورثة الأنبياء وقرّة عين الأولياء ، وهُداه خلق الله في أرضه ؛ لا سيّما من رزقه الله الدّراية فيما علّمه من ذلك ، وهداه للدخول إليه من أحسن المسالك ، مثلُ مَنْ سطرنا هذه المكاتبة بسببه : المجلس ^(٢) السامي ، الشّيخي ، الأجلّي ، الكبيريّ ، العالمي ، الفاضلي ، الأتيلي ، الأثيريّ ، الإماميّ ، العلّامي القُدوة ، المقتدي ، الفريدي ، المحقّي ، الأصيليّ ، الأوحدي ، الماجدي ، الؤلوي ^(٣) ، جمال الإسلام والمسلمين ، جمال العلماء في العالمين ، أوحد الفضلاء ، قُدوة البلغاء ، علامة الأُمّة ، إمام الأئمّة ، مفيد

(١) يشير الى حديث الصحيحين : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » . (كنوز الحقائق) للمناوي .

(٢) هذا النوع من الحلّي والألقاب الخاصة بأرباب الوظائف الدينية ، يأتي في المرتبة الثالثة ، فالأولى : درجة «المقر» ؛ والثانية : درجة «الجناب» ، والثالثة : درجة «المجلس» ؛ ولكل من الدرجات فروع ؛ و«المجلس السامي» احد فروع درجة «المجلس» . وانظر تفصيل القول عن هذه الاستعمالات في صبح الاعشى ١٥/٧ ، ١٥٤ — ١٥٩ .

(٣) هذه النسبة الى «ولي الدين» .

الطالبين ، خالصه الملوك والسلاطين^(١) عبد الرحمن بن خلدون المالكي . أدام الله نعمته ؛ فانه أولى بالاكرام ، وأحرى ، وأحقُّ بالرعاية وأجلُّ قدراً ؛ وقد هاجر إلى ممالكنا الشريفة ، وآثر الإقامة عندنا بالديار المصرية ، لا رغبة عن بلاده ، بل تحبباً إلينا ، وتقرباً إلى خواطرننا ، بالجواهر النفيسة ، من ذاته الحسنة ، وصفاته الجميلة ؛ ووجدنا منه فوق ما في النفوس ، مما يجلُّ عن الوصف ويُربي على التعداد . ياله من غريبٍ وَصَفٍ ودار ، قد أتى عنكم بكل غريب ؛ وما برح — من حين ورد علينا — يُبالغ في شكر الحضرة العلية ، ومدح صفاتها الجميلة ، إلى أن استمال خواطرننا الشريفة إلى حبها ، وآثرنا المكاتبه إليها .

«والعين تعشق قبل الأذن أحياناً»^(٢)

وذكر لنا في أثناء ذلك ، أهله وأولاده ، في مملكة تونس تحت نظر الحضرة العلية ، وقصد إحصارهم إليه لقيموا عنده ، ويجمع شمله بهم مدة إقامته عندنا ، فاقتضت آراؤنا الشريفة ، الكتابة إلى الحضرة العلية لهذين السبين الجميلين ؛ وقد آثرنا إعلام الحضرة العلية بذلك ، ليكون على خاطره الكريم ، والقصد من محبته ، يُقدِّم أمره العالي بطلب أهل الشيخ ولي الدين المشار إليه ، وإزاحة أعدارهم ، وإزالة عوائقهم ، والوصية بهم ، وتجهيزهم إليه مُكرِّمين ، محترمين ، على أجمل الوجوه صُحبة قاصده الشيخ الصالح ، العارف السالك الأوحد ، سعد الدين مسعود المكناسي ، الواصل بهذه المكاتبه اعزه الله ؛ ويكون تجهيزهم على مركب من مراكب الحضرة للعية ، مع توصية من بها من البحرية بمضاعفة إكرام المشار إليهم ورعايتهم ، والتأكيد عليهم في هذا المعنى ، وإذا وصل من بها من البحرية ، كان لهم الأمن والإحسان فوق ما في أنفسهم ، ويُربي على أملهم ؛ بحيث يُهتَمُّ بذلك على ما عُهد من محبته ، وجميل اعتماده ، مع ما يُتحف به من مراسلاته ، ومقاصده ومكاتباته . والله تعالى يحرسه بملائكته وآياته ، بِمَنِّهِ وَيُمْنِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ .

(١) اصطلاحوا على أن يلحقوا بآء النسب بآخر الالقب المفردة للمبالغة في التعظيم ، ثم جعلوا النسبة الى نفس صاحب اللقب أرفع رتبة من النسبة الى شيء خارج عنه . ومن هنا كان «الاجلي» و «القاضي» ارفع رتبة من «الجلالي» ، و«القضائي» . صبح الاعشى ٧٨/٦ ، ١٠٠ . ثم ان هذه الالقب دلالات متعارفة خاصة . تولى تحديدها القلقشندي في صبح الاعشى ٢٠/٧ ، ٧٣ .

(٢) عجز بيت لبيار بن برد ؛ وصدره — كما في الأغاني ١٩/٣ بولاق :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والاذن

كُتِبَ خامسَ عشرَ صَفرَ المباركَ من سنة ستٍّ وثمانين وسبعمائة حَسَبَ المرسوم الشَريف . الحمد لله وصلواته على سَيِّدنا مُحَمَّد وآله وصَحْبِهِ وسلَّم .
ثم هلك بعضُ المدرِّسين بمدرسة القَمَحِيَّة^(١) بمصر ، من وَقَف صلاح الدين بن أيوب ، فولَّاني تدريسها مكانه^(٢) ، وبينَّا أَنا في ذلك ، إِذ سَخِطَ السلطانُ قاضي المالِكيَّة^(٣) في دولته ، لِبعضِ النَّزعاتِ فعزله ، وهو رابعُ أربعةٍ بعدد المذاهب ، يُدعى كلُّ منهم قاضي القضاة ، تمييزاً عن الحُكَّام بالنِّابة عنهم ، لِاتِّساعِ خُطَّةِ هذا المعمور ، وكثرةِ عوالمه ، وما يرتفعُ من الخصوماتِ في جوانبه ؛ وكبيرِ جماعتهم قاضي الشَّافعية ، لِعُموم ولايته في الأعمالِ شرقاً وغرباً ، وبالصَّعيد^(٤) والفيوم^(٥) ، واستقلالِهِ بالنَّظر في أموال اليتامى والوصايا ، ولقد يقال بأنَّ مباشرة السلطان قديماً بالولاية إِنما كانت تكون له .

فلما عزل هذا القاضي المالكيَّ سنة ستٍّ وثمانين وسبعمائة اختصَّني السلطان بهذه الولاية تأهيلاً لمكاني وتنوياً بذكري وشافهته بالتفادي من ذلك ، فأبى إِلاَّ إمضاءه وخلع عليَّ بآيوانه وبعث من كبار الخاصة من أقعدني بمجلس الحكم بالمدرسة الصالحية بين القصرين ، فممت بما دفع إليَّ من ذلك المقام المحمود ووفيت جهدي بما آمَني عليه من أحكام الله ، لا تأخذني في الله لومة ، ولا يرغبني عنه جاه ولا سطوة مسوياً بين الخصمين ، آخذاً بحقِّ الضعيف من الحكيم ، مُعْرِضاً عن الشفاعات والوسائل من الجانبين جانحاً إِلى التثبُّت في سماع البينات ، والنظر في عدالة المنتصبين لتحمل

(١) كان موقع القمحية بجوار العتيق (جامع عمرو) بمصر ، وكان موضعها يعرف بدار الغزل ؛ وهو قيسارية كان يباع فيها الغزل ، فهدمها صلاح الدين ، وأنشأ موضعها مدرسة للفقهاء المالكية ، ورتب فيها مدرسين ، وجعل لها أوقافاً كانت ضيعة بالفيوم تغل قمحاً كان مدرسوها يتقاسمونه ، ولذلك صارت لا تعرف الا بالمدرسة القمحية . خطط المقرئ ٣٦٤/٢ بولاق .

(٢) في السلوك في حوادث سنة ٧٨٦ :

« وفي ٢٥ محرم ، دُرِس شيخنا أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ، بالمدرسة القمحية بمصر ، عوضاً عن علم الدين سلمان البساطي بعد موته ، وحضر معه الأمير الطنغا الجوباني ، والأمير يونس الدوادار ، وقضاة القضاة والأعيان » .

(٣) هوجال الدين عبد الرحمن بن سلمان بن خير المالكي (٧٢١ — ٧٩١) :

(٤) كان القدماء يعتبرون مبدأ الصعيد الشمالي من قرب القاهرة ، ويمتد على ضفتي الوادي جنوباً حتى يصل الى أسوان الذي كان عندهم نهاية الصعيد الجنوبية ؛ وفيما بين أسوان ، واخميم ، كان الصعيد الأعلى ؛ ومن اخميم الى مدينة البهنسا الواقعة على الضفة الغربية لوادي النيل ، كان يسمى الصعيد الأوسط ؛ أما الصعيد الأدنى فكانت بدايته البهنسا ، ونهايته في الشمال ، قرب القسسطا . ياقوت معجم البلدان .
(٥) تقع الفيوم المدينة المعروفة ، في الجنوب الشرقي لبحيرة قارون ، في الغرب من وادي النيل .

الشهادات ، فقد كان البرّ منهم مختلطاً بالفاجر ، والطيّب ملتبساً بالخبيث ، والحكّام ممسكون عن انتقادهم ، متجاوزون عما يظهر عليهم من هناتهم ، لما يموّهون به من الاعتصام بأهل الشوكة فإن غالبهم مختلطون بالأمرء ، معلمون للقرآن ، وأئمة في الصلوات ، يلبسون عليهم بالعدالة ، فيظنون بهم الخير ويقسمون الحظ من الجاه في تركيبتهم عند القضاء ، والتوسّل لهم ، فأعضل داوهم ، وفشت المفاصد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم ، ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب ، ومؤلّم النكال وتأدّى لعلمي الجرح في طائفة منهم ، فنعتهم من تحمّل الشهادة ، وكان منهم كتاب الدواوين للقضاة والتوقيع في مجالسهم ، وتدرّبوا على إملاء الدعاوي وتسجيل الحكومات^(١) ، واستخدموا للأمرء فيما يعرض لهم من العقود بإحكام كتابتها ، وتوثيق شروطها ، فصار لهم بذلك شفوف^(٢) على أهل طبقتهم ، وتمويه على القضاة بجاههم يدّرعون^(٣) به مما يتوقعونه من مغبتهم ، لتعرضهم لذلك بفعلاتهم ، وقد تسلّط بعض قلمه ، على العقود المُحكّمة فيوجدُ السبيل إلى حلّها بوجه فقهيّ أو كتابيّ ، ويبادر إلى ذلك متى دعا إليه داعي جاه أو منحة ، وخصوصاً في الأوقاف التي جاوزت حدود النهاية في هذا المصر لكثرة عوالمه ، فأصبحت خافية الشهرة بجهولة الأعيان ، عرضةً للبطلان ، باختلاف المذاهب المنصوبة للأحكام بالبلد ، فن اختار فيها بيعاً أو تملكاً ، شارطوه وأجابوه مفتاتين فيه على الحكّام الذين ضربوا فيه سدّ الحظر والمنع حمايةً عن التلاعب ، وفشا من ذلك الضرر في الأوقاف ، وطرق الغرر^(٤) في العقود والأملاك .

فعاملتُ الله في حسم ذلك بما آسفهم عليّ وأحقدهم ، ثم التفت إلى أهل الفتيا بالمذهب ، وكان الحكّام منهم على جانب الحيرة لكثرة معارضتهم ، وتلقينهم الخصوم وفتياهم بعد نفوذ الحكم ، وإذا فيهم أصاغر ، فبينما هم يتشبهون بأذيال الطلب والعدالة ، ولا يكادون إذا بهم ظهرُوا إلى مراتب الفتيا والتدريس ، فاقتعدوها وتناولوها بالجحازف ، وأجازوها من غير مرتّب^(٥) ولا مستند للأهلية ، ولا مرشح ، اذ

(١) أي الأحكام .

(٢) الشفوف : الفضل .

(٣) أي يحتمون به .

(٤) هنا بمعنى الخداع .

(٥) وفي نسخة ثانية : فاحتازوها من غير مثرب . والمثرب : اللاتم .

الكثرة فيهم باللغة ، ومن كثرة الساكن مشتقة ، وقلم الفتيا في هذا المصر طلق ، وعنانها مُرسل ، يتجاذب كل الخصوم منها رسناً ، ويتناول من حافته شقاً ، يروم به الفتح^(١) على خصمه ، ويستظهر به لإرغامه ، فيعطيه المفتي من ذلك ملء رضاء ، وكفاء أمنيته متبعاً إياه في شغب الخلاف ، فتعارض الفتاوى وتتناقض ، ويعظم الشغب إن وقعت بعد نفوذ الحكم ، والخلاف في المذاهب كثير ، والإنصاف متعذر وأهلية المفتي وشهرة الإفتاء عندنا^(٢) ، فلا يكاد هذا المدى ينحسم^(٣) ولا الشغب ينقطع .

فصدعت في ذلك بالحق وكبحت أعتة أهل الهوى والجهل ، ورددتهم على أعقابهم . وكان فيهم ملتقطون سقطوا من المغرب يشعوزون بمفترق من اصطلاحات العلوم هنا وهناك ، ولا يتمون إلى شيخ معروف مشهود ، ولا يعرف لهم كتاب في فنّ اتخذوا الناس هزواً وعقدوا المجالس مثلبة للأعراض ومثابة^(٤) للحرم ، فأرغمهم ذلك مني وملأهم حسداً ، وحقدوا عليّ ، وخلوا إلى أهل جلدتهم من سكان الزوايا المنتحلين للعبادة ، ليشترون بها الجاه ، ويحتروا به على الله ، وربّما اضطرّ أهل الحقوق إلى تحكيمهم ، فيحكمون بما يُلقي الشيطان على ألسنتهم ، يترخصون به الإصلاح ، لا يزعمهم الدين عن التعرّض لأحكام الله بالجهل ، فقطعت الحبل في أيديهم ، وأمضيت حكم الله فيمن أجازوه ، فلم يغنوا عن الله شيئاً وأصبحت زواياهم مهجورة ، وبثرهم التي يمتاحون منها معطلة ، وانطلقوا يواطئون السفهاء من النيل في عرضي ، وسوء الاحدوثه عني بمختلق الافك وقول الزور ، ويثبونه في الناس ويدسّون إلى السلطان التظلم مني ، فلا يصغي إليهم ، وأنا في ذلك مُحْتَسِبٌ على الله ، ما منيت به في هذا الأمر ، ومُعَرِّضٌ فيه عن الجاهلين ، وماضٍ على سبيل سويٍّ من الصرامة وقوة الشكيمة ، وتحريّ العدالة ، وخلاص الحقوق ، والتنكب عن خطة الباطل متى دُعيت إليها ، وصلابة العود عن الجاه والإعراض متى غمزني لامسها ولم يكن ذلك شأن من رافقته من القضاة فنكروه مني ودعوني إلى متابعتهم فيما

(١) وفي نسخة ثانية : الفُلج ومعناه الظفر والفوز .

(٢) بياض بالأصل وفي طبعة بولاق : وشهرة الفتيا ليس تمييزها للعامي .

(٣) وفي نسخة ثانية : فلا يكاد هذا المدد ينحسر .

(٤) وفي نسخة ثانية : مأبته : وهو مكان الاتهام بالشر .

يصطلحون عليه من مرضاة الأكابر ومراعاة الأعيان ، والقضاء للجاه بالصور الظاهرة ، أو دفع الخصوم إذا تعذرت ، بناءً على أن الحاكم لا يتعين عليه الحكم مع وجود غيره ، وهم يعلمون أن قد تماثلوا عليه .
وليت شعري ما عذرهم في الصور الظاهرة إذا علموا خلافها ، والنبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم يقول : « من قضيتُ له من حقِّ أخيه شيئاً فإنما أقضي له من النار » .

فأبيتُ من ذلك كله إلا إعطاء العهدة حقها ، والوفاء لها ، ولمن قلّديها ، فأصبح الجميع عليّ الباء^(١) ولمن ينادي بالتأقف مني عوناً ، وفي النكير عليّ أمة ، وأسمعوا الشهود الممنوعين أن قد قضيت فيهم بغير وجه الحق ، لاعتماد عليّ علمي في الجرح ، وهي قضية إجماع . وانطلقت الألسن ، وارتفع الصخب وأرادني بعضُ على الحكم بغرضهم ، فتوقفت وأغروا بي الخصوم ، فتنادوا بالتظلم عند السلطان ، فجمع القضاة وأهل الفتيا في مجلس جُعِلَ للنظر في ذلك ، فخلصت تلك الحكومة من الباطل خلوص الإبريز ، وتبين أمرهم للسلطان ، وأمضيت فيها حكم الله تعالى إرغاماً لهم ، فغدوا على حرد قادرين ، ودسّوا الأولياء السلطان وعظاء الدولة ، يقبحون لهم إهمال جاههم وردّ شفاعاتهم ، موهين بأنّ الحامل على ذلك جهل المصطلح ، وينفقون هذا الباطل بعظائم ينسبونها إليّ ، تبعث الحليم وتغري الرشيد ، يستثيرون حفاظهم عليّ ويشربونهم البغضاء إليّ ، والله يحازيهم وسائلهم .

فكثر الشغب عليّ من كل جانب ، وأظلم الجويني وبين أهل الدولة ، ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد ، وصلوا من المغرب في السفين فأصابها قاصف من الريح ففرقت ، وذهب الموجود والسكن والمولود ، فعظم المصاب والجزع ، ورجع الزهد ، واعتزمتُ على الخروج عن المنصب ، فلم يوافقني عليه النصيح ممن استشرته خشية من نكير السلطان وسخطه ، فتوقفت بين الورد والصدر على صراط الرجاء واليأس ، وعن قريب تداركني اللطف الربّاني وشمّلتني نعمة السلطان أيده الله في النظر بعين الرحمة ، وتخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها ، ولا عرفت كما زعموا مصطلحها ، فردّها إلى صاحبها الأوّل ، وأنشطني من عقاها ، فانطلقت حميد

(١) أي يحكيون المكائد له دون علمه .

الأثر مشيعاً من الكافة بالأسد والدعاء ، وحמיד الثناء ، تلحظني العيون بالرحمة وتتناجى الآمال في العودة ، ورَتَعْتُ فيما كنت راتعاً فيه قبل من مراعي نعمته وظلّ رضاه وعنايته بالعافية التي سألتها رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربّه . عاكفاً على تدريس علم أو قراءة كتاب أو إعمال قلم في تدوين أو تأليف . مؤملاً من الله قطع صباية العمر^(١) في العبادة . ومحو عائق السعادة ، بفضل الله ونعمته .

* (السفر لقضاء الحج) *

ثم مكثت بعد العزل ثلاث سنين . واعتزمت على قضاء الفريضة . فودّعت السلطان والأمراء وزودوا وأعانوا فوق الكفاية ، وخرجت من القاهرة منتصف رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة إلى مرسى الطور^(٢) بالجانب الغربي من بحر السويس ، وركبت البحر من هنالك عاشر الفطر ، ووصلنا إلى الينبع^(٣) لشهر فوافينا المحمل ، ورافقتهم من هنالك إلى مكة ، ودخلتها ثاني ذي الحجة . فقضيت الفريضة في هذه السنة . ثم عدت إلى الينبع فأقمت بها خمسين ليلة حتى تهيأ لنا ركوب البحر ، ثم سافرنا إلى أن قاربنا مرسى الطور . فاعترضتنا الرياح فما وسعنا إلاّ قطع البحر إلى جانبه الشرقي ، ونزلنا بساحل القصير^(٤) ثم بَدَرْنَا ، ثم سرنا مع أعراب تلك الناحية إلى مدينة قوص^(٥) قاعدة الصعيد . فأرحنا بها أياماً . ثم ركبنا في بحر النيل إلى مصر ، فوصلنا إليها لشهر من سفرنا . ودخلتها في جمادي سنة تسعين وسبعمائة وقضيت حقّ السلطان في لقائه . وإعلامه بها اجتهدت فيه من الدعاء له ، فتقبّل ذلك بقبول حسن ، وأقمت فيما عهدت من رعايته وظلّ إحسانه .

(١) أي بغية العمر .

(٢) الطور : مدينة على الساحل الغربي لشبه جزيرة سيناء (معجم البلدان) .

(٣) الينبع : من مدن الجزيرة العربية . تقع على الساحل الشرقي من البحر الأحمر (وما تزال تحتفظ باسمها إلى هذا اليوم) (معجم البلدان) .

(٤) القصير : تصغير قصر . وهو مرفأ على الساحل الغربي للبحر الأحمر . تؤمه السفن التجارية من الجزيرة العربية واليمن بينه وبين قصبه الصعيد خمسة أيام (معجم البلدان) .

(٥) قوص : مدينة واسعة : كانت قصبه صعيد مصر . وكان أهلها أرباب غنى وثروة واسعة لأنها كانت محط التجار القادمين من عدن . وأكثر تجار عدن من مدينة قوص (معجم البلدان) .

وكننت لما نزلت بالينسج لقيت بها الفقيه الأديب المتفنن أبا القاسم بن محمد بن شيخ الجماعة ، وفارس الأدباء ، ومنفق سوق البلاغة ، أبي اسحق ابراهيم الساحلي المعروف جدّه بالطوّنجن وقد قدم حاجاً وفي صحبته كتاب رسالة من صاحبنا الوزير الكبير العالم كاتب سرّ السلطان ابن الأحمر صاحب غرناطة ، الحظي لديه أبي عبدالله بن زمرك ، خاطبني فيه بنظم ونثر يتشوف ويذكر بعهود الصعبة نصّه :

تَبَسَّم فاستبكي جفوني من الوجد
وسحّ به صوب الغائم من بعدي
دعوها ترذ هيماً عطاشاً على نجد
فإن زفير الشوق من مثلها يُعدي
حزون^(٣) على صفح من القفر ممتدّ
وما شوقها شوقي ولا وجدها وجدي
مياه بني الظلّ للبان والرند^(٤)
وقد لحن يوم النفر في قُصْبِ ملد^(٥)
وفي فلك الأزرار من قمر سغد
وكم ذابل قد هزّ من ناعم القدّ
ضعيفات كرّ اللحظ تفتك بالأسد
يصاب بها قلب البري على عمد
وما ضاع غير الورد في صفحة الخلد
فرش بماء الورد روضاً من الورد
وكل على كل من الشوق يستعدي
محاسن من روض الجمال بلا عدّ

سلوا البارق النجدي على عمل نجدي
أجاد ربوعي باللوى ، درك^(٢) اللوى
ويا زاجر الأظعان وهي ضوامر
ولا تنشقوا الأنفاس منها مع الصبا
براهها الهوى برّي القداح وخطها
عجبت لها أني تجاذبني الهوى
لئن شاقها بين العذيب وبارق
فما شاقني إلا بُدورُ خدورها
فكم في قباب الحي من شمس كلة
وكم صارم قد سلّ من لحظ أخور
خذوا الجذر من سگان رامة إنها
سهام جفون من قسي حواجب
وروض جمال ضاع عرف نسيمه
ونرجس لحظ أرسل الدمع لؤلؤاً
وكم غصن قد عانت الغصن مثله
قبيح وداع قد جلا لعيوننا

(١) وفي نسخة ثانية : سلوا البارق النجدي من علمي نجد .

(٢) وفي نسخة ثانية : بورك .

(٣) وفي نسخة ثانية : حروفا .

(٤) وفي نسخة ثانية : العذيب : ماء لبني نعيم . وكذلك بارق . والبان : شجر يسمو ويطول باستقام ، ومنه يستخرج دهن البان . والرند : شجر الغار له رائحة طيبة ويستخرج منه الدهن ايضاً .

(٥) الملد : اللين .

رعى الله ليلي لو علمتُ طريقَها
وما شاقني والطيْفُ يُرهبُ أذمعي
وقد سُلَّ خَفَاقُ الذَوَائِبِ بَارِقُ
وهزَّتْ مُحَلَاةٌ يَدَ الشَّوْقِ فِي الدُّجَى
وأقلقَ خَفَاقُ الْجَوَانِحِ نَسَمَةَ
وهبَ عَلِيلٌ لَفَّ طَيَّ بُرُودِهِ
سوى صادقٍ في الأيْكِ لم يدر ما الهوى
فهلْ عندَ ليلي نَعَمَ الله ليلها
وليلةٌ إذ وافى الحَجِيجُ إلى مِنى^(٢)
فَقَضَيْتُ مِنْهَا فَوْقَ مَا أَحْسَبُ الْمُنَى
وليس سوى لَحْظٍ خَفِيٍّ نُجَيْلُهُ
غَفَرْتُ لِدَهْرِي بَعْدَهَا كُلَّ مَا جَنَى
عَرَفْتُ بِهَذَا الشَّيْبِ فَضْلَ شَيْبَتِي
ومن نام في ليلِ الشَّبَابِ ضَلَالَةً
أما والهوى ما حُدَّتْ عَنْ سُنَنِ الْهُدَى^(٤)
تَجَاوَزَتْ حَدَّ الْعَاشِقِينَ الْأَوَّلَى مَضُوا^(٥)
نَسِيتُ وَمَا أَنْسَى وَفَانِي لَخَلَّتِي
إِلَيْكَ أبا زَيْدَ شِكَاةً رَفَعْتُهَا
بَعِيشِكَ خَبَرَنِي وَمَا زِلْتُ مُفْضِلًا
فَكَمْ ثَارَ بِي شَوْقُ إِلَيْكَ مَبْرَحُ
وَصَفَّقَ حَتَّى الرِّيحُ فِي لُحْمِ الرُّبَى
يُقَابِلُنِي مِنْكَ الصَّبَاحُ بِوَجْنَةٍ

فَرَشْتُ لِأَخْفَافِ الْمَطِيِّ بِهَا خَدَيَّ
وَسَبَّحُ فِي بَحْرِ مِنَ اللَّيْلِ مُزْبَدِ
كَمَا سُلَّ لَمَاعُ الصِّقَالِ مِنَ الْغَمْدِ
فَحَلَّ الَّذِي أَبْرَمْتُ لِلصَّبْرِ مِنْ عَقْدِي
تَمَّ مَعَ الْأَصْبَاحِ خَافِقَةَ الْبُرْدِ
أَحَادِيثُ أَهْدَاها إِلَى الْغُورِ مِنْ نَجْدِ^(١)
وَلَكِنْ دَعَا مِنِّي الشُّجُونُ عَلَى وَعْدِ
بِأَنْ جُفُونِي مَا تَمَلُّ مِنَ السُّهْدِ
وَفَتَّ لِي الْمُنَى مِنْهَا بِمَا شَتَّ مِنْ قَصْدِ
وَبُرْدُ عَفَافٍ صَانَهُ اللهُ مِنْ بُرْدِ
وَشَكْوَى كَمَا أَرْفَضُ الْجَانُ مِنَ الْعَقْدِ
سوى ما جَشَى^(٣) وَفَدُّ الْمَشِيبِ عَلَى قَوْدِي
وَمَا زَالَ فَضْلُ الضَّدِّ يُعْرِفُ بِالضَّدِّ
سَيُوقِظُهُ صُبْحُ الْمَشِيبِ إِلَى الرُّشْدِ
وَلَا جَرَّتْ فِي طَرِيقِ الصَّبَابَةِ عَنْ قَصْدِ
وَأَصْبَحْتُ فِي مَوْنِ الْهَوَى أَمَّةً وَخَدِي
وَأَقْفَرَ رَبْعَ الْقَلْبِ إِلَّا مِنَ الْوَجْدِ
وَمَا أَنْتَ مِنْ عَمْرِ وَلَدَيَّ وَلَا زَيْدِ
أَعْنَدُكَ مِنْ شَوْقٍ كَمَثَلِ الَّذِي عِنْدِي
فَظَلَّتْ يَدُ الْأَشْوَاقِ تَقْدَحُ مِنْ زَنْدِي
وَأَشْفَقَ حَتَّى الطِّفْلُ فِي كَبَدِ الْمَهْدِ
حَكِي شَفَقًا فِيهِ الْحَيَاءُ الَّذِي تُبْدِي

(١) هو غور تهامة ما بين ذات عرق في البحر ، وكل ما انحدر سبه مغرباً عن تهامة فهو غور (معجم البلدان) .

(٢) الحجيج : قاصدين بيت الله للحج ، وهنى : موضع في جبل عرفة بجانب مكة .

(٣) وفي نسخة ثانية : ما حنى .

(٤) وفي نسخة ثانية : أما والهوى ما حلت عن سنن الهوى .

(٥) وفي نسخة ثانية :

تَجَاوَزَتْ حَدَّ الْعَاشِقِينَ الْأَوَّلَى قَضُوا وَالْعَمَّةُ فِي الْبَصِيرَةِ كَالْعَمَى فِي الْبَصَرِ

وتوهمني الشمس المنيرة غرة
 مُحْيَاكَ أَجَلِي فِي الْعَيُونِ مِنَ الضُّحَى
 وما أنتَ إِلَّا الشَّمْسُ فِي عُلُوِّ أَفْقِهَا
 وفي غَمَّةٍ ^(١) من لا ترى الشَّمْسَ عَيْنُهُ
 من القومِ صَانُوا الْمَجْدَ صَوْنَ عُيُونِهِمْ
 إِذَا أَزْدَحَمُوا يَوْمًا عَلَى الْمَاءِ أُسْرَةً
 ومَهَا أَغَارُوا مِنْجِدِينَ صَرِيخَهُمْ
 ولم يَاقْتَنُوا بَعْدَ الثَّنَاءِ ^(٢) ذَخِيرَةً
 وما اقْتَسَمَ الْأَنْفَالُ إِلَّا مُمَدِّحٌ
 أَتَنَسَى وَلَا تَنَسَى لِبَالِنَا الَّتِي
 رَكَبْنَا إِلَى اللَّذَاتِ فِي طَلْقِ الصَّبَا
 فَإِنْ لَمْ نَدْرِ فِيهَا الْكَؤُوسَ فَإِنَّا
 لَقَيْتُكَ ^(٥) فِي غَرْبٍ وَأَنْتَ رَئِيسُهُ
 فَانْسَتْ حَتَّى مَا شَكُوتُ بَغْرِيَّةٍ
 وَعَسَدْتُ لِقَطْرِي شَاكِرًا مَا بَلَوْتُهُ
 إِلَى أَنْ أَجْزَتَ الْبَحْرُ يَا بَحْرُ نَحْوَنَا
 أَلَدُّ مِنَ النُّعْمَى عَلَى حَالِ فَاقَةٍ
 وَلَوْ سَاءَ أَنْ قَوَّضْتَ رِجْلَكَ بِالنَّوَى
 لَقَدْ سَرَّنِي أَنْ لُحْتَ فِي أَفْقِ الْعَلَا
 طَلَعْتَ بِأَفْقِ الشَّرْقِ نَجْمَ هَدَايَةِ

بَوْجْهَكَ صَانَ اللَّهُ وَجْهَكَ عَنْ رَدِّ
 وَذَكَرَكَ أَحَلَّى فِي الشِّفَاهِ مِنَ الشُّهَدِ
 نَفْدِيكَ مِنْ قُرْبٍ وَتُلَحَّظُ مِنْ بُعْدِ
 وما نَفَعُ نَوْرَ الشَّمْسِ فِي الْأَعْيُنِ الرُّمْدِ
 كَمَا قَدْ أَبَاحُوا الْمَالَ يُنْهَبُ لِلرُّفْدِ
 فَمَا أَزْدَحَمُوا إِلَّا عَلَى مُورِدِ الْمَجْدِ
 يَشْبُونُ نَارَ الْحَرْبِ فِي الْغَوْرِ وَالنَّجْدِ
 سَوَى الصَّارِمِ الْمَصْقُولِ وَالصَّافِنِ النَّهْدِ
 بَلَاهَا بِأَعْرَافِ الْمُطَهَّمَةِ الْجَرْدِ ^(٣)
 خَلَسْنَا بِهَا الْعَيْنِينَ مِنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ ^(٤)
 مَطَايَا اللَّيَالِي وَادِعِينَ إِلَى حَدِّ
 وَرَدْنَا بِهَا لِلْأَنْسِ مُسْتَعْذِبَ الْوَرْدِ
 وَبَابُكَ لِلْأَعْلَامِ بِمَجْتَمَعِ الْوَفْدِ
 وَوَالَيْتَ حَتَّى لَمْ أَجِدْ مُضَضَّ الْفَقْدِ
 مِنَ الْخُلُقِ الْمَحْمُودِ وَالْحَسَبِ الْعِدِّ ^(٦)
 وَزُرْتَ مَزَارَ الْغَيْثِ فِي عَقَبِ الْجَهْدِ
 وَأَشْهَى مِنَ الْوَضَلِ الْهَنْيَّ عَلَى صَدِّ
 وَعَوَّضْتَ مِنْهَا بِالزَّمِيلِ وَبِالْوَخْدِ ^(٧)
 عَلَى الطَّائِرِ الْمَيْمُونِ وَالطَّالِعِ السَّعْدِ
 فَجِئْتَ مَعَ الْأَنْوَارِ فِيهِ عَلَى وَعْدِ

(١) وفي نسخة ثانية : وفي غَمَّةٍ .

(٢) وفي نسخة ثانية : بعد البناء .

(٣) المطهمة : البارة الجمال والجرد : القصيرة الشعر .

(٤) وفي نسخة ثانية : خلَسَ بَيْنَ الْعَيْشِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ .

(٥) آتَيْتُكَ .

(٦) الحسب العد : القديم .

(٧) وإن ساءَ لِي أَنْ قَوَّضْتَ رِجْلَكَ بِالنَّوَى وَعَوَّضْتَ

عَنَّا بِالذَّمِيلِ وَبِالْوَخْدِ

والذميل : السير اللين ، والوخد الإسراع في المشي أوسع الخطور .

يَمِيناً بِن تَسْرِي المَطْيِي سُرَاهُم^(١)
إِلَى بَيْتِهِ كَمَا تَزُورُ مَعَاهِداً
لَأَنْتَ لَنَا مَهَا دَجَالِيلُ مُشْكِلِ
وَحَيْثُ اسْتَقَلَّتْ فِي رِكَابِ لَطِيَّةٍ
وَإِنِّي بِيَابِ الْمَلِكِ حَيْثُ عَمِدْتَنِي
أَجْهَزُ بِالْإِنْشَاءِ كُلَّ كَتِيبَةٍ
نَلُودُ مِنَ الْمَوْلَى الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ
إِذَا فَاضَ مِنْ يَمِينِهِ بِحُرِّ سَاحَةِ
رَكَبْنَا إِلَى الْإِحْسَانِ فِي سَفْنِ الرَّجَا
فَمَنْ مُبْلِغُ الْأَنْصَارِ عَنِي الْوَكَاةُ
بِآيَةٍ مَا أَعْطَى الْخَلِيفَةُ رَبُّهُ
وَدُونِكَ مِنْ رَوْضِ الْحَمَامِدِ نَفْحَةُ
ثَنَاءٍ يَقُولُ الْمِسْكُ إِنْ ذَاعَ عَرْفُهُ
وَمَا الْمَاءُ فِي جَوْ السَّحَابِ مَرُوقاً
فَكَيْفَ وَقَدْ حَلَّتْكَ أَسْرَابُهَا الْجَلَا^(٥)
وَمَا الطَّلُ^(٦) فِي ثَغْرِ مِنَ الزَّهْرِ بِاسْمِ
وَلَا الْبَدْرُ مَعْصُوماً بِتَاجِ تَمَامِهِ
بَقِيَتْ ابْنِ خَلْدُونِ إِمَامَ هِدَايَةِ

ووصلها بقوله : سيدي شيخ الأعلام ، كثر رؤساء الإسلام ، مشرف حملة السيوف
والأقلام ، جمال الخواص والظهوراء ، أثير الدول ، خالصة الملوك ، مجتبي
الخلفاء ، سر العلاء^(٧) أوحده الفضلاء ، قدوة العلماء ، حجة البلغاء ، أبقاكم الله

(١) وفي نسخة ثانية : سواهما : وهي ج ساهمة وهي الناقة الضامرة .

(٢) وفي نسخة ثانية : مديد ، والمستصحف : المستحكم .

(٣) وفي نسخة ثانية : تجزر عن قد .

(٤) الند الأولى : الطيب والند الثانية : القرين ، المثل .

(٥) وفي نسخة ثانية : الحلى .

(٦) الطل : الندى .

(٧) وفي نسخة ثانية : نير أبق العلاء .

بقاءً جميلاً ، يعقِدُ لواءَ الفخر ، ويعلى منار الفضل ، ويرفع عماد المجد ، ويوضح معالم السيادة^(١) ، ويرسل أشعة السعادة ، ويفيض أنوار الهداية ، ويطلق السنة المحامد ، وينير^(٢) أفق المعارف ، ويُعَذِّبُ موردَ العناية ، ويُمتِعُ بعمر النهاية ولا نهاية .

بأي التحيات أفاتحك وقدرك أعلى ، ومَطْلَعُ فضلك أوضح وأجلى ، إن قلتُ تحية كسرى في الشناء وتبع ، فأترك لا يقتفى ولا يتبع ، تلك تحية عجاء لا تبين ولا تبين ، وزمزمة نافرها اللسان العربي المبين ، وهذه جهالة جهلاء ، لا ينطبق على حروفها الاستعلاء ، قد محا رسومها الخفاء ، وعلى آثار دمنها العفاء ، وإن كانت التحيتان طالما أوجف بهما الركاب وقعقع البريد ، ولكن أين يقعان مما أريد .

تحية الإسلام أصلٌ في الفخر نسباً . وأوصلُ بالشرع سبباً ، فالأولى أن نحْيِكَ بها حياة الله في كتابه رسله وأنبياءه ، وحيَّت به ملائكته في جواره أوليائه ، فأقول :

السلام عليكم يُرْسِلُ من رحمة الله غماماً ويفتق من الطُّروس عن أزهار المحامد كماماً ، ويستصحب من البركات ما يكون على التي هي أحسن من ذلك مقاماً ، وأجدد السؤال عن الحال الحالية بالعلم والدين المستمدة من أنوارها سرج المهتدين . زادها الله صلاحاً وعرفها نجاحاً يتبع فلاحاً ، وأقرر ما عندي من تعظيم ارتقي كل آونة شرفه ، واعتقاد جميل يرفع عن وجه البدر كُلفه ، وثناء ، أنشر بيدك البيضاء صُحفه ، وعلى ذلك أيها السيد المالك ، فقد تشعبت عليّ في مخاطبتك المسالك ، إن أخذتُ في تقرير فضلك العميم ، ونسبك الصِّميم ، فوالله ما أدري بأيّ بيعة لفخرك تدفع الظلم ، وفي أيّ بحر من ثنائك يسبح القلم ، الأمرُ جَلَلٌ ، والشمسُ تكبرٌ على حلِّي وحلِّ ، وإن أخذت في شكاة الفراق ، والاستعداد على الأشواق اتسع المجال ، وحصرت الروية والارتجال ، فالأولى أن أترك عذبة اللسان تلعب بها رياحُ الأشواق وأسلة اليراع ، تخضبُ مفارق الطُّروس بصبيغ الخبر المَرَّاق ، وغيرُك من تركض في مخاطبته جياذ اليراع ، في مجال الرقاع ، مستولية على أمد الإبداع والاختراع ، فإنما هوبثٌ يُبكي ، وفراقٌ يُشكي ، فيعلم الله مرضي^(٣) عن أن أشافه

(١) وفي نسخة ثانية : السؤدد .

(٢) وفي نسخة ثانية : وينشر أفق المعارف .

(٣) وفي نسخة ثانية : جرحي .

من أنباتك ثغور البروق البواسم ، وأن أحملك الرسائل حتى مع سفراء النواسم ، وأن
أجتلي غُرر ذلك الجبين في مُحيا الشارق^(١) ، ولحج البارق .

ولقد وجَّهت إليك جملةً من الكتب والقصائد ، ولا كالقصيد الفريدة في تأبين
الجواهر اللائي استأثر بهن البحر ، قدس الله أرواحهم ، وأعظم الله أجرك فيهم ،
فإنها أنافت على مائة وخمسين بيتاً ، ولا أدري هل بلغكم ذلك أم غاله الضياع ،
وغدَر وصوله بُعد المسافة ، والذي يطرق في سوء الظنّ بذلك ما صدر في مقابلته
منكم . فإني على علم من كرم قصدكم ، ومن حين استغربناكم بذلك الأفق
الشرقي^(٢) لم يصلني منكم كتاب ، مع علمي بضياع إثنين منها بهذا الأفق الغربي
(اهـ) .

وفي الكتاب إشارة إلى أنه بعث قصيدة في مدح الملك الظاهر صاحب مصر ،
ويطلب مني رفعها إلى السلطان ، وعرضها عليه بحسب الإمكان ، وهي على روي
الهمزة ومطلعتها :

أَمَدَامِعٌ مُنْهَلَةٌ أَمْ لَوْلُوْ لَمَّا اسْتَهَلَّ الْعَارِضُ الْمُتَلَّيْءُ
وبعث في طي الكتاب ، واعتذر بأنه استتاب في نسخها ، فكتبت همزة رويها ألفاً ،
قال وحققها أن تكتب بالواو لأنها تبدل بالواو وتسهل بين الهمزة والواو ، وحرب
الإطلاق أيضاً يسوقها ، واواً ، هذا مقتضى الصناعة ، وإن قال بعض الشيوخ
تكتب ألفاً على كل حال على لغة من لا يسهل لكنّه ليس بشيء .

وأذن لي في نسخ القصيدة المذكورة بالخط الشرقي لتسهيل قراءتها عليهم ففعلت
ذلك ، ورفعت النسخة والأصل للسلطان ، وقرأها كاتب سرّه ولم يرجع إليّ منها
شيء ، ولم أستعجز أن أنسخها قبل رفعها إلى السلطان ، فضاعت من يدي .
وكان في الكتاب فصل عرّفني فيه بشأن الوزير مسعود بن رحو المستبدّ بأمر المغرب
لذلك العهد ، وما جاء به من الانتقاض عليهم ، والكفران لصنيعهم ، يقول فيه :
كان مسعود بن رحو الذي أقام بالأندلس عشرين عاماً يَتَبَسَّكُ النعيم^(٣) ويقود الدنيا
ويتحيز العيش والجاه ، قد أجزى صحبة ولدٍ عثمان كما تعرفتم من نسخة كتب انشائه

(١) الشارق : الشمس .

(٢) وفي نسخة ثانية : من كرم قصدكم وحسن عهدكم ، ومن حين استقل نيركم بذلك الأفق الشرقي .

(٣) تبسك بالنعيم : أقام به .

بجبل الفتح لأهل الحضرة ، فاستولى على المملكة ، وحصل على الدنيا ، وانفرد برياسة دار المغرب لضعف السلطان رحمه الله . ولم يكن إلا أن كُفِّرَت الحقوق ، وحُظِّلَت نخلته السحوق ، وشف على سواد جلده سواد العقوق ، وداخل من سبته ، فانتقضت طاعة أهلها ، وظنوا أن القصبة لا تثبت لهم ، وكان قائدها الشيخ الأبهة^(١) فلّ الحصار وجلى القتال ، ومحشّ الحرب أبو زكريا بن شعيب ، فثبت للصدمة ونور للأندلس ، فبادره المدد من الجبل ومن مالقة ، وتوالت الأمداد وخاف أهل البلد ، ورجع شرفاؤه ودخلوا القصبة . واستغاث أهل البلد بمن جاورهم ، وجاءهم المدد أيضاً ، ثم دخل الصالحون في رغبة هذا المقام ، ورَفَعَ القتال ، وفي أثناء ذلك غدروا ثانية ، فاستدعى الحال إجازة السلطان المخلوع أبي العباس لتبادر القصبة به ويتوجه منها إلى المغرب لرغبة بني مرين وغيرهم فيه ، وهو ولد السلطان المرحوم أبي سالم الذي قلّدهم رياسة داره ، وأوجب لكم المزية على أوليائه وأنصاره .

وبعده فصل آخر يطلب فيه كتباً من مصريقول فيه :

والمربوب من سيدي أن يبعث لي ما أمكن من كلام فضلاء الوقت وأشياخهم على الفاتحة ، إذ لا يمكن بعث تفسير كامل لأنّي أثبت في تفسيرها ما أرجوه النفع عند الله ، وقد علمتم أنّ عندي التفسير الذي أوصله عثمان النجاني من تأليف الطيبي^(٢) والسفر الأول من تفسير أبي حيّان ، وملخص إعرابه وكتاب المغني لابن هشام ، وسمعت عن براءة تفسير للإمام بهاء الدين ابن عُقيل ووصلت إليّ براءة من كلام أكمل الدين الأشيري رضي الله عن جميعهم ، ولكني لم أصل إلا للبسملة ، وذكر أبو حيّان في صدر تفسيره أنّ شيخه سليمان النقيب أو أبا سليمان لا أدري الآن صنّف كتاباً في البيان في سفرين جعله مقدّمة لكتاب تفسيره الكبير . فإن أمكن سيدي توجيهه لا بأس انتهى .

وفي الكتاب فصول أخرى في أغراض متعدّدة لا حاجة إلى ذكرها ههنا . ثم ختم الكتاب بالسلام ، وكتب اسمه محمد بن يوسف بن زمرّك الصّريحي ، وتاريخه

(١) وفي نسخة ثانية : الشيخ البهية .

(٢) هو الحسين بن محمد بن عبدالله شرف الدين الطيبي (توفي ٧٤٣) له حاشية قيمة على «الكشاف» في أربع مجلدات ضخمة . وشرع بعدها في جمع كتاب في التفسير .

العشرون من محرم سنة تسع وثمانين وسبعمائة (وكتب إليّ) قاضي الجماعة بغرناطة أبو الحسن علي بن الحسن البني^(١) :

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله يا سيدي وواحي ودأً
وحباً ، ونبيّ الروح بُعداً وقرباً أبقاكم الله وثوبُ سيادتكم سايب ، وقرُ سعادتكم كلما
أقلت الأثمار بازغ ، أسلم بآثم عليكم ، وأقرر بعض ما لديّ من الأشواق إليكم ،
من حضرة غرناطة مهّدها الله عن ذلك لكم يتصوّع طيبه وشكر لا يذوى وإن طال
الزمان طيبه قد كان بلغ ما جرى من تأخيركم عن الولاية التي تقلّدتُم أمرها ، وتحملتُم
مرّها ، فتمثّلت بها قاله شيخنا أبو الحسن بن الجيّاب^(٢) عند انفصال صاحبه
الشريف أبي القاسم^(٣) عن خطّة القضاء .

لا مرحباً بالناس أنفارك^(٤) اذ جهلت رفعة مقـدارك
لو أنها قد أوتيت رَشدها ما برحت نَعشو إلى نـارك

ثم تعرّفت كيفيّة انفصالكم وأنه كان عن رغبة من السلطان المؤيّد هنا لكم فرددتُ
وقد توهّمت مشاهدتكم هذه الأبيات .

لك الله يا بدرَ السماحة والبشرُ
ولكنك استعفيت عنها تورّعاً
جريت على نهج السلامة في الذي
وحقُّ بأنّ العلم ولآك خطّة
تريدُ على مرّ الجديدين جدّة
ومن لاحظ الأحوال وازن بينها
لقد حزت في الاحكام منزلة الفخر
وتلك سبيل الصالحين كما تدري
تخيّرته للنشر منك وللحشر^(٥)
من العزّ لا تنفك عنها مدى العُمُر
وتسري النجوم الزاهرات ولا تسري
وكم لذوي الدنيا الدنيّة من خطر^(٦)

(١) نسبة إلى بنة (معجم البلدان) وقد ضبطها ابن خلدون بضم الباء وبكسرها .

(٢) الجيّاب : هو أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان الغرناطي الشهير بابن الجيّاب (٦٧٣ — ٧٤٩) .

(٣) هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الحسني السبتي المعروف بالشرّيف الغرناطي (٦٩٨ — ٧٦٠) .

(٤) وفي نسخة ثانية : لا مرحباً بالناشر الفارك .

(٥) وفي نسخة ثانية : تخيّرته أبشّر بأمّتك في الحشر .

(٦) وفي نسخة ثانية : ولم يرَ للدنيا الدنيّة من خطر .

وَأَمْسَى لِأَنْوَاعِ الْوَلَايَاتِ نَابِذاً
فَهَيْئَتِكَ يَهْنِكُ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ
وَلَا تَكْثُرْ مِنْ حَاسِدِكَ فَإِنَّهُمْ
وَمَنْ عَامِلُ الْأَقْوَامِ بِاللَّهِ مُخْلِصاً
بَقِيَتْ لِرَفْعِ الْمَجْدِ تَحْمِي دِمَارُهُ
فَغَيْرُ نَكِيرٍ أَنْ يَوَاجِهَهُ بِالنُّكْرِ
مِنَ الزُّهْدِ فِيهَا وَالتَّوَقُّي مِنَ الْوُزْرِ
حَصَى وَالْحَصَى لَا يَرْتَقِي مُرْتَقَى الدَّرِّ (١)
لَهُ فِيهِمْ نَالُ الْجَزِيلِ مِنَ الْأَجْرِ
وَخَارَ لَكَ الرَّحْمَنُ فِي كُلِّ مَا يَجْرِي (٢)

إِيهِ سَيِّدِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَأَرْضَاكُمْ ، أَطْنَبْتُمْ فِي كِتَابِكُمْ فِي الثَّنَاءِ عَلَى السُّلْطَانِ
الَّذِي أَنْعَمَ بِالْإِعْفَاءِ ، وَالْمُسَاعَدَةِ عَلَى الْإِنْفِصَالِ عَنْ خَطَّةِ الْقَضَاءِ ، وَاسْتَوْهَبْتُمْ الدُّعَاءَ
لَهُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَلِلَّهِ دَرْكُكُمْ فِي التَّنْبِيهِ عَلَى الْإِرْشَادِ إِلَى ذَلِكُمْ ، فَالدُّعَاءُ لَهُ مِنَ الْوَاجِبِ
فِيهِ اسْتِقَامَةُ الْأُمُورِ وَصَلَاحُ الْخَاصَّةِ وَالْجُمْهُورِ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُ الْعُلَمَاءِ
وَالصُّلَحَاءِ بِهَذَا الْقَطْرِ لَهُ وَلَكُمْ بِجَمِيلِ الدُّعَاءِ . أَجَابَ اللَّهُ فِيكُمْ أَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ ،
وَبَلَغَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا قَصَدَهُ وَأَمَّلَهُ . وَأَنْتُمْ أَيْضاً مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْجَلَالَةِ ، وَالْفَضْلِ
وَالْأَصَالَةِ ، وَقَدْ بَلَغْتُمْ بِهَذِهِ الْبِلَادِ الْغَايَةَ مِنَ التَّنْوِيهِ ، وَالْحِظُّ الشَّرِيفَ النَّبِيَّ ، لَكِنْ
أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لِحَاسِنِكُمْ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ الْعَظِيمَةِ ظُهُورٌ ، وَتُحَدِّثَ بَعْدَ
الْأُمُورِ أُمُورٌ ، وَيَكِلَ اعْتِبَارٌ ، فَالزَّمَانُ بِكُمْ حَيْثُ كُنْتُمْ مَبَاهٍ ، وَالْحَمَامَةُ بِمَجْمُوعَةٍ لَكُمْ
جَمْعُ ثَنَاهُ . وَلَمَّا وَقَفَ عَلَى مَكْتُوبِكُمْ إِلَيَّ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ، أَطَالَ اللَّهُ الثَّنَاءَ
عَلَى مَقَاصِدِكُمْ ، وَتَحَقَّقَ جَمِيلٌ (٣) وَدَادَكُمْ ، وَصَحِيحٌ اعْتِقَادَكُمْ ، وَعَمَّرَ مَجْلِسَهُ
يَوْمَئِذٍ بِالثَّنَاءِ عَلَيْكُمْ ، وَالشُّكْرِ لِمَا لَدَيْكُمْ .

ثُمَّ خَتَمَ الْكِتَابَ بِالسَّلَامِ مِنْ كَاتِبِهِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ مُؤَرَّخاً بِصَفَرِ سَنَةِ تِسْعِينَ
وَسَبْعِمِائَةٍ وَفِي طَيْهِ مَدْرَجَةً بِخَطِّهِ وَقَدْ قَصَّرَ فِيهَا عَنِ الْإِجَادَةِ نَصَّهَا :

سَيِّدِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَأَرْضَاكُمْ ، وَأُظْفِرْكُمْ يُمْنَنَاكُمْ بِذَوَائِبِ مَنَاكُمْ أَعْتَذِرُ لَكُمْ
عَنِ الْكِتَابِ الْمَدْرَجِ بِهِ هَذَا غَيْرَ خَطِّي فَإِنِّي فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ بِحَالٍ مَرُوضٍ فِي عَيْنِي ،
وَلَكُمْ الْعَافِيَةُ الْوَافِيَةُ ، فَيَسْعُنِي سَمْحُكُمْ وَرَبِّمَا كَانَ لَدَيْكُمْ تَشَوُّفٌ بِمَا نَزَلَ فِي هَذِهِ
الْمَدَّةِ بِالْمَغْرِبِ مِنَ الْمَهْرَجِ أَمَا طَهُ اللَّهُ ، وَأَمَّنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ .

وَالْمَوْجِبُ أَنَّ الْحَصَّةَ الْمَوْجَّهَةَ فِي خِدْمَةِ أَمِيرِهِمُ الْوَائِقِ ظَهَرَ لَهُ وَلَوْزِيرِهِ وَمَنْ سَاعَدَهُ عَلَى

(١) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةٍ : الْبَدْرِ .

(٢) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةٍ : مَا يَجْزِي .

(٣) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةٍ : صَحِيحٌ وَدَادَكُمْ وَجَمِيلٌ اعْتِقَادَكُمْ .

رأيه إمساكها رهينة ، وجعله في القيود إلى أن يقع الخروج لهم على مدينة سبته ، وكان القائد على هذه الحصّة العليج المدعو المهنّد ، وصاحبه الفتى المدعو نصر الله . وكثر التردّد في القضية إلى أن أبرز القدر توجيه السلطان أبي العباس تولاه الله ، صحبة فرج بن رضوان بحصّة ثانية ، وكان ما كان حسبما تلقّيت من الركبان ، هذا ما وسع الوقت من الكلام ثم دَعَا وختم الكتاب .

وإنما كتبت هذه الأخبار وإن كانت خارجة عن غرض هذا الكتاب المؤلّف لأنّ فيها تحقيقاً لهذه الواقعات ، وهي مذكورة في أماكنها ، فربّما يحتاج الناظر إلى تحقيقها من هذا الموضع .

وبعد قضاء الفريضة رجعت إلى القاهرة محفوفاً بستر الله ولطفه ، ولقيت السلطان ، فتلقاني أيّده الله بمعهود مبرّته وعنايته وكانت فتنة الناصري بعدها سنة إحدى وتسعين وسبعائة . والله يعرفنا عوارف لطفه ، ويمدّ علينا ظلّ ستره ، ويختم لنا بصالح الأعمال ، وهذا آخر ما انتهيت إليه ، وقد نجز الغرض مما أردت إيراد في هذا الكتاب ، والله الموفّق برحمته للصواب ، والهادي إلى حسن المآرب ، والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمد وعلى آله والأصحاب والحمد لله رب العالمين .

* (ولاية الدروس والخوانق ^(١))

أهل هذه الدّولة التركيّة بمصر والشام معنيّون — على القِدَم منذ عهدِ مَوالِيهم مُلوك بني أيّوب — بإنشاء المدارس لتدريس العلم ، والخوانق لإقامة رُسُوم الفقراء في التخلّق بآداب الصّوفيّة السّنيّة في مطارحة الأذكار ، ونوافل الصّلوات . أخذوا ذلك عمّن قبلهم من الدّول الخِلافيّة ؛ فيختطّون مبانيها ويقفون الأراضي المِعْلّة للإنفاق منها على طلبّة العلم ، ومُتدريّي الفقراء . وإن استفضل الرّيع شيئاً عن ذلك ، جعلوه في أعقابهم خوفاً على الدّريّة الضّعاف من العيلة ^(٢) . واقتدى بسُنتهم في ذلك من تحت أيديهم من أهل الرّياسة والثّروة ، فكثرت لذلك المدارس والخوانق بمدينة

(١) هذا القسم وما يليه. أضفناه إلى طبعتنا هذه من نسخة طبعة بولاق المصرية دار الكتاب اللبناني .

(٢) العيلة (بفتح العين) : الفقر والفاقة .

القاهرة ، وأصبحت معاشاً للفقراء من الفقهاء والصوفية ، وكان ذلك من محاسن هذه الدولة التركية ، وآثارها الجميلة الخالدة .

وكنْتُ لأوَّل قُدومي على القاهرة ، وحُصولي في كفالة السلطان ، شَغَرْتُ مَدْرَسَةً بِمَصْرٍ من إنشاء صلاح الدين بن أيوب ، وقفها على المالكية يتدارسون بها الفقه ، ووقف عليها أراضي من الفيوم تُغَلُّ القمح ، فسُمِّيَتْ لذلك القَمْحِيَّة ؛ كما وقف أُخْرَى على الشَّافعية هنالك ؛ وتوفي مُدْرِسُهَا حينئذ ، فولَّاني السلطان تَدْرِيسَهَا ، وأعقبه بولاية قضاء المالكية سنة سِتِّ وثمانين وسبعمائة ، كما ذكرت ذلك من قَبْل ؛ وحضرتني يومَ جُلوسِي للتدريس فيها جماعة من أكابر الأمراء تنوياً بذكرِي ، وعناية من السلطان ومنهم بجانبي ؛ وخطبتُ يومَ جلوسِي في ذلك الحفل بخطبة أملت فيها بذكر القوم بما يُناسِبهم ، ويوفي حَقَّهم ، ووَصَفْتُ المَقَامَ ، وكان نَصُّهَا :

الحمدُ لله الذي بدأ بالنعم قبل سُؤالها ، ووفق مَنْ هداه للشكر على منالِها ، وجعل جزاءَ المُحْسِنِينَ في مَحَبَّتِهِ ، ففازوا بعظيم نوالِها . وعَلَّمَ الإنسانَ الأسماءَ والبيانَ ، وما لَمْ يَعْلَمْ من أمثالِها ، وميَّزه بالعقل الذي فضَّله على أصناف الموجودات وأجبالِها ، وهداه لقبول أمانة التَّكليف ، وحَمَلَ أثقالِها . وخلقَ الجنَّ والإنسَ للعبادة ، ففازَ مِنْهُمْ بالسَّعادة مَنْ جَدَّ في امتثالِها ، وَسَرَّ كلاً لما خُلِقَ له ^(١) ، من هِدَايَةِ نَفْسِهِ أو إضلالِها ؛ وفرغَ ربُّكَ من خَلْقِها وخلقِها وأرزاقِها وآجالِها . والصَّلَاةُ على سَيِّدِنَا ومولانا محمد نَكْتَةِ الأكوان وجِلالِها ، والحُجَّةِ البالغة لله على كمالِها ، الذي رَقَّاه في أطوار الاضطفاء ، وآدمَ بَيْنَ الطَّيْنِ والماء ؛ فجاءَ خَاتِمُ أَنْبِيائِها وأَرْسَلَهَا ^(٢) ؛ وَنَسَخَ المِلَلَ بِشريعته البَيضاءَ فتمَيَّزَ حَرَامُها . من حَلالِها ؛ وَرَضِيَ لَنَا الإسلامَ دِيناً ، فَأَتَمَّ عَلَيْنَا النِّعْمَةَ بِأَكْمالِها ^(٣) .

والرَّضَى عن آلِهِ وأَصحابِهِ غِيوْثَ رَحْمَتِهِ الْمُنْجِمَةِ وَطِلالِها ^(٤) ، وَلِيُوْثَ مَلāحِمِهِ ^(٥)

(١) يشير الى الحديث : « كل ميسر لما خلق له » ، والذي رواه الإمام أحمد في مسنده .

(٢) ورد في كلام كثير من علماء المغرب والأندلس ، جمع رسول على أرسال . ولم يرد في معاجم اللغة هذا الجمع . والأصح أن يقول ورسَلها .

(٣) يشير الى الآية ٣ من سورة المائدة : « اليوم اكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

(٤) الطلال جمع طلل ، وهو أخف المطر .

(٥) الملاحم جمع ملحمة ؛ وهي الوقعة العظيمة القتل ، وموضع القتال ، والحرب .

المشتهرة وأبطالها . وخير أمة أخرجت للناس ، في توسُّطها واعتدالها ، وظهور الهداية والاستقامة في أحوالها ، صَلَّى الله عليه وعليهم صلاة تتصل الخيرات باتصالها ، وتنال البركات من خلالها .

أما بعد فإن الله سبحانه لما أقر هذه الملة الإسلامية في نصابها ، وشفاها من أدوائها وأوصابها^(١) ، وأورث الأرض عباده الصالحين من أيدي غصابها ، بعد أن باهكت فارس بتاجها ، وعصابها^(٢) ، وخلت الروم إلى تائبيلها وأنصابها وجعل لها من العلماء حفظة وقواما ، ونجوماً يهتدي بها التابع وأعلاما ، يقربونها للدرية تبييناً وإفهاماً ، ويوسعونها بالتدوين ترتيباً وإحكاماً ، وتهذيباً لأصولها وفروعها ونظاماً . ثم اختار لها الملوك يرفعون عمدها ، ويُقيمون صغاها^(٣) بإقامة السياسة وأودها ، ويدفعون بغرائمهم الماضية في صدر من أرادها بكيد أو قصدتها ؛ فكان لها بالعلماء الظهور والانتشار ، والذكر السيار ، والبركات المخلدة والآثار ؛ ولها بالملوك العز والفخار ، والصولة التي يلين لها الجبار ، وبذل لِعزة المؤمنين بها الكفار ، وتجلل وجوه الشرك معها الصغار ؛ ولم تزل الأجيال تتداول على ذلك والأغصار ، والدول تحتفل والأمصار ، والليل يختلِف والنهار ، حتى أظلت الإسلام دول هذه العصابة المنصورة من الترك ، الماحين بأنوار أسنتهم ظلم الضلالة والشك ، القاطعين بينصابهم المرفقة علائق المين والإفك^(٤) ، المصيبين بسهامهم النافذة ثغر الجهالة والشرك ، المظهرين سر قولهم : « لا تزال طائفة من أمتي »^(٥) فيما يتناولونه من الأخذ والترك ؛ ففسحوا خطة الاسلام ، وقاموا بالدعوة الخلاقية أحسن القيام ، وبثوها في أقصى النخوم من الحجاز والشام ، واعتمدوا في خدمة الحرمين الشريفين ما فضّلوا به ملوك الأنام . واقتعدوا كرسي مضر الذي ألقت له الأقاليم يد الاستسلام ، على قدم الأيام ؛ فزخر بها منذ دولتهم بحر العمران ، وتجاوبت فيها المدارس بترجيع

(١) الوصب : الوجع ، والمرض ؛ والجمع أوصاب .

(٢) العصاب : العمامة .

(٣) الصغا : من الإصغاء ؛ أي مال إليه بسمعه .

(٤) علائق المين والإفك : أي علائق الكذب .

(٥) حديث رواه البخاري في آخر باب « علامة النبوة في الاسلام » ومسلم في بابي « الامارة » ، و « الايمان » .

شرح العيني على « صحيح » البخاري ٥٧٩/٧ ، وشرح النووي على « صحيح » مسلم ٥٥/١ ، ٢٠٦/٢ .

المثاني والقرآن وعُمِّرت المساجد بالصَّلوات والأذان ، تَكَاثُرُ عَدَدَ الحَصَى
والشُّهبان . وقامت المآذن على قَدَم الاستغفار والسُّبحان ^(١) مُعَلِّنة بِشعار الإيمان ،
وازدانَ جُوها بالقصر والقصر والإيوان فالإيوان . ونُظِم دَسْتُها بالعزیز ، والظَّاهر ،
والأمير ، والسلطان . فما شِئتَ من مَلِكٍ يخفُّ العِزُّ في إعلَامه ، وتَوَقَّد في لَيلِ
المَوَأكب نيرانُ الكَوَأكب من أَسَيتِه وسِهامِه ؛ ومن أَسرةٍ للعلَماء تَنَاولُ العِلْمَ بوعِدِ
الصَّادق ولو تعلقَ بأَعنانِ السَّماء ^(٢) ، وتُبِير سراجَه في جَوَانِبِ الشُّبهِ المُدلهِمَةِ
الظُّلَماء ؛ ومن قُضاةٍ يُبَاهون بالعِلْمِ والسُّودَدِ عند الانتماء ، ويشتملون الفَضائلِ
والمَنَاقِبِ اشْتِمَالِ الصَّفاء ^(٣) ، ويُفَصِّلون الخصوماتِ برأي يَفَرِّق بين اللَّبنِ والماء .
ولا كَدَوَلةَ السُّلطانِ الظَّاهِر ، والعزیزِ القاهر ، يعسوب ^(٤) العَصَابِ والجمَهر ، ومُطَّلِعِ
أنواعِ العِزِّ الباهر ، ومُصَرِّفِ الكُتائبِ تُزْرِى بِالبَحْرِ الزَّاهِر ، وتَقُومُ بالحُجَّةِ للقسِيِّ
على الأهلَةِ في المفاخِرِ ؛ سَيْفِ اللهِ المُنْتَضِي على العَدُوِّ الكافر ، ورحمته المتكفِّلة
للعباد بِاللُّطفِ السَّاتِرِ ؛ رَبِّ التَّيجانِ والأسِرَةِ والمنابر ، والأواوينِ العالِيَةِ والقُصُورِ
الأزاهر ، والمُلكِ المُرِيدِ بالبِيضِ البَوَازِر ، والرَّماحِ الشَّواجِرِ ^(٥) ، والأقلامِ المرتَضِعةِ
أَخْلَافَ ^(٦) العِزِّ في مُهُودِ المحابِر ، والفَيْضِ الرَّبَّاني الذي فَاقَ قُدرةَ القادر ، وسَبَقَتْ
به العِنايةُ للأواخِر . سَيِّدُ الملوِكِ والسُّلاطينِ ، كافِلُ أَميرِ المؤمنين ، أبو سَعِيدِ أَمَدِهِ اللهُ
بِالنَّصْرِ المُصاحِبِ ، والسَّعْدِ المُوَازِر ، وَعَرَفَهُ آثارُ عِنايَتِهِ في المَوارِدِ والمَصادرِ ،
وَأَرَاهُ حُسْنَ العَاقِبَةِ في الأولى وسُرُورَ المُنقَلَبِ في الآخر ؛ فَإِنَّهُ لما تَنَاولَ الأَمْرَ بِعِزائِمِهِ
وَعِزِّهِ ، وَأَوَى المُلكَ إلى كَنَفِهِ العَزِيزِ وَحِزِّهِ ، أَصابَ شاكِلَةَ الرَّأيِ عَندما سَدَّدَ من
سَهْمِهِ ، وَأَوَقَعَ الرِّعايا في ظِلٍّ من أَمْنِهِ ، وَعَدَّلَ من حُكْمِهِ ، وَقَسَمَ البَأْسَ والجُودَ
بَيْنَ حَرَبِهِ وَسَلْمِهِ ؛ ثُمَّ أَقامَ دولَتَهُ بالأَمراءِ الذين اخْتارَهُم باختيارِ اللهِ لأَرْكانِها ، وشَدَّ

(١) السبحان : التسبيح .

(٢) اعنان السماء : نواحيها ، وما اعترض من اقطارها .

(٣) اشتمال الصفاء ان تجل جندك بثوبك نحو شملة الأعراب بأكسبتهم ؛ وهي ان يرد الكساء من قبل يمينه
على يده اليسرى ، وعاتقه الأيسر ، ثم يرده ثانية من خلفه على يده اليمنى ، وعاتقه الأيمن فيغطيها
جميعاً .

(٤) اليعسوب أمير النحل .

(٥) رماح شواجر : مختلفة الطعن .

(٦) أخلاف الضرع : أطرافه . والكلام على التشبيه .

بهم أزره في رفع القواعد من بنيانها ؛ من بين مُصرفٍ لعنانها ، متقدّم القدم على أعيانها ، في بساط إيوانها ؛ وربّ مشورة تُضيء جوانب الملك بلمعانها ، ولا يذهب الصواب عن مكانها ؛ ومنفذ أحكام يُشرق الحق في بيانها ، ويضوع العدل من أركانها ^(١) ونجى ^(٢) خلوة في المهم الأعظم من شأنها ؛ وصاحب قلم يُفضي بالأسرار إلى الأسل ^(٣) الجرّار ، فيشفي الغليل بإعلانها . حفظ الله جميعهم وشمل بالسعادة والخيرات المبدأة المعادة تابعهم ومتبوعهم .

ولما سبحت في اللج الأزرق ، وخطوت من أفق المغرب إلى أفق المشرق ، حيث نهر النهار ينصب من صفح المشرق ، وشجرة الملك التي اعزّها الإسلام تهتز في دوحه المشرق ، وأزهار الفنون تسقط علينا من غصنه المورق ، وينابيع العلوم والفضائل تمدو شلنا ^(٤) من فرائه المغدق ؛ أو لوني عناية وتشريفاً ، وغمروني إحساناً ومعروفاً ، وأوسعوا بهمتي ^(٥) إيضاحاً ، ونكرتي تعريفاً ؛ ثم أهلوني للقيام بوظيفة السادة المالكية بهذا الوقف الشريف ، من حسنات السلطان صلاح الدين أيوب ملك الجلال والجهد ، ومحي آثار التلث والرّفص الخبيث من البلاد ، ومطهر القدس الشريف من رجس الكفر بعد أن كانت النواقيس والصُّلبان فيه بمكان العقود من الأجياد . وصاحب الأعمال المتقبلة يسعى نورها بين يديه في يوم التناد ^(٦) ؛ فأقامني السلطان — أيده الله — لتدريس العلم بهذا المكان ، لا تقدماً على الأعيان ، ولا رغبة عن الفضلاء من أهل الشان ؛ وإني موقن بالقصور ، بين أهل العصور ، مُعترف بالعجز عن المضاء في هذا القضاء ؛ وأنا أرغب من أهل اليد البيضاء ، والمعارف المتسعة الفضاء ، أن يلّمحوا بعين الارتضاء ، ويتغمّدوا بالصّفح والإغضاء ، والبضاعة بينهم مُزجاة ^(٧) ، والاعتراف من اللوم — إن شاء الله — منجاة ؛ والحسنى من الإخوان مُرتجاة . والله تعالى يرفع لمولانا السلطان في

(١) الأردن : الأكام . وفي الكلام تجوز .

(٢) النجي : الشخص الذي تساره ، وفلان نجي فلان ، أي يناجيه دون سواه .

(٣) الأسل : الرماح وكل حديد رهيف من سيف وسكين .

(٤) الوشل : الماء القليل .

(٥) البهمة : بُهم : الخطة الشديدة .

(٦) يوم التناد : يوم ينادي «أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله» . لسان العرب .

(٧) بضاعة مزجاة : قليلة .

مَدَارِجُ الْقَبُولِ أَعْمَالَهُ ، وَيَبْلُغُهُ فِي الدَّارَيْنِ آمَالَهُ ، وَيَجْعَلُ لِلْحُسْنَى وَالْمَقَرِّ الْأُسْنَى ، مَنَقَلَبَهُ وَمَالَهُ ؛ وَيُدَيِّمُ عَلَى السَّادَةِ الْأُمَرَاءِ نِعَمَتَهُ ، وَيَحْفَظُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بَانْتِظَامَ الشَّمْلِ دَوْلَتَهُمْ وَدَوْلَتَهُ ، وَيُمَدُّ قُضَاةَ الْمُسْلِمِينَ وَحُكَّامَهُمْ بِالْعَوْنِ وَالتَّسْدِيدِ ، وَيُسَمِّتُنَا بَانْفَسَاحِ آجَالِهِمْ إِلَى الْأَمَدِ الْبَعِيدِ ، وَيَشْمَلُ الْحَاضِرِينَ بِرِضْوَانِهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ السَّعِيدِ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

وَانْفَضَّ ذَلِكَ الْمَجْلِسُ ، وَقَدْ شَيَّعَتْنِي الْعُيُونُ بِالتَّجَلَّةِ وَالْوَقَارِ ، وَتَنَاجَتِ النَّفُوسُ بِالْأَهْلِيَّةِ لِلْمَنَاصِبِ ؛ وَأَقَمْتُ عَلَى الْإِشْتَغَالِ بِالْعِلْمِ وَتَدْرِيسِهِ إِلَى أَنْ سَخِطَ السُّلْطَانُ قَاضِي الْمَالِكِيَّةِ يَوْمُئِذٍ فِي نَزْعَةٍ مِنَ النَّزَعَاتِ الْمُلُوكِيَّةِ ، فَعَزَلَهُ ، وَاسْتَدْعَانِي لِلْوِلَايَةِ فِي مَجْلِسِهِ ، وَبَيْنَ أُمَرَائِهِ ؛ فَتَفَادَيْتُ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَبَى إِلَّا إِمضاءَهُ . وَخَلَعْتُ عَلَيَّ ، وَبَعَثَ مَعِيَ مِنْ أَجْلَسَنِي بِمَقْعَدِ الْحُكْمِ فِي الْمَدْرَسَةِ الصَّالِحِيَّةِ (١) فِي رَجَبِ سَنَةِ ثَمَانِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ؛ فَقُمْتُ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ الْحَمُودِ ، وَوَفَّيْتُ عَهْدَ اللَّهِ فِي إِقَامَةِ رُسُومِ الْحَقِّ ، وَتَحَرِّيِ الْمَعْدَلَةِ ، حَتَّى سَخِطَنِي مَنْ لَمْ تُرْضِهِ أَحْكَامُ اللَّهِ ، وَوَقَعَ مِنْ شَغَبِ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَالْمِرَاءِ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

وَكُنْتُ عِنْدَ وَصُولِي إِلَى مِصْرَ بَعَثْتُ عَنْ وَلَدِي مِنْ تُونِسَ ؛ فَمَنَعَهُمْ سُلْطَانُ تُونِسَ مِنَ اللَّحَاقِ بِي اغْتِبَاطاً بِمَكَانِي ؛ فَرَغَيْتُ مِنَ السُّلْطَانِ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَهُ فِي شَأْنِهِمْ ، فَأَجَابَ ، وَكُتِبَ إِلَيْهِ بِالشَّفَاعَةِ ؛ فَزَكَّيَا الْبَحْرَ مِنْ تُونِسَ فِي السَّفِينِ ؛ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ وَصَلُوا إِلَى مَرَسَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ؛ فَعَصَفَتْ بِهِمُ الرِّيَّاحُ وَغَرِقَ الْمَرْكَبُ بِمَنْ فِيهِ ، وَمَا فِيهِ ، وَذَهَبَ الْمَوْجُودُ وَالْمَوْلُودُ ؛ فَعَظُمَ الْأَسْفُ ، وَاخْتَلَطَ الْفِكْرُ ، وَأَعْفَانِي السُّلْطَانُ مِنْ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ وَأَرَاخُنِي ، وَفَرَعْتُ لَشَأْنِي مِنَ الْإِشْتَغَالِ بِالْعِلْمِ تَدْرِيساً وَتَأْلِيفاً .

ثُمَّ فَرَّغَ السُّلْطَانُ مِنْ اخْتِطَاطِ مَدْرَسَتِهِ (٢) بَيْنَ الْقَصْرَيْنِ ، وَجَعَلَ فِيهَا مَدَافِنَ أَهْلِهِ ، وَعَيَّنَ لِي فِيهَا تَدْرِيسَ الْمَالِكِيَّةِ ؛ فَأَنْشَأْتُ خُطْبَةً أَقُومُ بِهَا فِي يَوْمِ مُفْتَتِحِ التَّدْرِيسِ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي ذَلِكَ وَنُصَحَا :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنَّ عَلَى عِبَادِهِ ، بِنِعْمَةِ خَلْقِهِ وَإِيجَادِهِ ، وَصَرَّفَهُمْ فِي أَطْوَارِ اسْتِعْبَادِهِ بَيْنَ قَدَرِهِ وَمُرَادِهِ ، وَعَرَّفَهُمْ أَسْرَارَ تَوْحِيدِهِ ، فِي مَظَاهِرِ وُجُودِهِ ، وَآثَارِ لُطْفِهِ فِي وَقَائِعِ

(١) نسبة إلى بانيها الملك الصالح نجم الدين أيوب .

(٢) هي المدرسة الظاهرية ، وتسمى البروقية أيضاً . عهد في بنائها إلى الأمير جهر كس الخليلي ، فشرع في بنائها سنة ٨٨٦ ، وأنهاها سنة ٨٨٨ .

عباده ، وعَرَّضَهُمْ عَلَى أَمَانَةِ التَّكْلِيفِ لِيَسْلُوَهُمْ بِصَادِقِ وَعْدِهِ وَإِبْعَادِهِ ^(١) ، وَسَرَّ كُلاًّ لِّمَا خُلِقَ لَهُ ، مِنْ هِدَايَتِهِ أَوْ إِضْلَالِهِ ، وَغِيَّهَ أَوْ رَشَادِهِ ، وَاسْتَخْلَفَ الْإِنْسَانَ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ هَدَاهُ النَّجْدَيْنِ ^(٢) لَصَلَاحِهِ أَوْ فُسَادِهِ ، وَعَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ، مِنْ مَدَارِكِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَالْبَيَانِ عَمَّا فِي قُودِهِ ؛ وَجَعَلَ مِنْهُمْ أَنْبِيَاءَ وَمُلُوكاً يَجَاهِدُونَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَيُثَابِرُونَ عَلَى مَرْضَاتِهِ فِي اعْتِمَالِ الْعَدْلِ وَاعْتِمَادِهِ ؛ وَرَفَعَ الْبُيُوتَ الْمُقَدَّسَةَ بِسُبُحَاتِ ^(٣) الذِّكْرِ وَأَوْرَادِهِ .

وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْبَشَرِ مِنْ نَسْلِ آدَمَ وَأَوْلَادِهِ ، لَا . بَلْ سَيِّدِ الثَّقَلَيْنِ ^(٤) فِي الْعَالَمِ مِنْ إِنْسِيهِ وَجَنَّتِهِ وَأَرْوَاحِهِ وَأَجْسَادِهِ ، لَا . بَلْ سَيِّدِ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ ، الَّذِي خَتَمَ [اللَّهُ] كَمَالَهُمْ بِكَمَالِهِ وَأَمَادَهُمْ بِأَمَادِهِ ، الَّذِي شَرَّفَ بِهِ الْأَكْوَانَ فَأَضَاءَتْ أَرْجَاءُ الْعَالَمِ لِنُورِ وِلَادِهِ ؛ وَفَصَّلَ لَهُ الذِّكْرَ الْحَكِيمَ تَفْصِيلاً ، كَذَلِكَ لِيُثَبَّتَ مِنْ قُودِهِ ^(٥) ، وَالْقَى عَلَى قَلْبِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ بِتَنْزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لِيَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ لِعِبَادِهِ ^(٦) ؛ فَدَعَا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ بِصَادِقِ جِدَالِهِ وَجَلَادِهِ ^(٧) وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ النَّصْرَ الْعَزِيزَ ، وَكَانَتْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ مِنْ إِمْدَادِهِ ، حَتَّى ظَهَرَ نُورُ اللَّهِ عَلَى رَغَمٍ مِّنْ رَّغَمٍ ^(٨) . بِإِطْفَائِهِ وَإِخْلَادِهِ ، وَكَمُلَ الدِّينُ الْحَنِيفُ فَلَا تُخْشَى وَالْحَمْدُ لِلَّهِ غَائِلَةٌ انْقِطَاعِهِ وَلَا نَفَادِهِ ؛ ثُمَّ أَعَدَّ لَهُ مِنَ الْكَرَامَاتِ مَا أَعَدَّ فِي مَعَادِهِ ، وَفَضَّلَهُ بِالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ بَيْنَ أَشْهَادِهِ ، وَجَعَلَ لَهُ الشَّفَاعَةَ فِيمَنْ انْتَضَمَ فِي أَمَّتِهِ ، وَاعْتَصَمَ بِمَقَادِهِ .

وَالرُّضَى عَنْ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ، غُيُوثَ رَحْمَتِهِ ، وَلُيُوثَ إِنْجَادِهِ ، مِنْ ذَوِي رَحْمِهِ

(١) ينظر الى الآية ٧٢ من سورة الأحزاب : « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان » .

(٢) النجدان : طريق الخير ، وطريق الشر .

(٣) السبحات جمع سبحة ؛ وهي التطوع في الذكر ، والصلاة .

(٤) الثقلان : الجن والإنس .

(٥) يشير الى الآية ٣٢ من سورة الفرقان : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك » .

(٦) يشير كذلك الى الآيتين ١٩٣ ، ١٩٤ من سورة الشعراء : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » .

(٧) الجلال : الجهاد .

(٨) على رغم من رغم : من أساء ؛ والاشارة الى الآية ٣٢ من سورة التوبة : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا ان يتم نوره » .

الطَّاهِرَة وأهل وِدَادِهِ المتَرَوِّدين بالتَّقْوَى من خَيْرِ أَزْوَادِهِ ، والمُرَاعِمِينَ بِسُيُوفِهِم من جَاهِرٍ بِمُكَابَرَةِ الْحَقِّ وَعِنَادِهِ ، وَأَرَادَ فِي الدِّينِ بَظْلَمَهُ وَالْحَادِيهِ ، حَتَّى اسْتَقَامَ الْمَيْسَمُ^(١) فِي دِينِ اللَّهِ وَبِلَادِهِ ، وَانْتَضَمَت دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ أَقْطَارَ الْعَالَمِ ، وَشُعُوبَ الْأَنْامِ ، مِنْ عَرَبِهِ وَعَجَمِهِ وَفَارِسِهِ وَرُومِهِ وَتُرْكِيهِ وَأَكْرَادِهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ صَلَاةً تُؤْذِنُ بِاتِّصَالِ الْخَيْرِ وَاعْتِيَادِهِ ، وَتُوَهِّلُ لِقِتَاءِ الثَّوَابِ وَزِيَادِهِ ، وَسَلِّمَ كَثِيرًا ؛ وَعَنِ الْأُئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ^(٢) ، عُلَمَاءُ السَّنَةِ الْمُتَّبَعَةِ ، وَالْفَتَاةِ الْمُجْتَبَاةِ الْمُصْطَنَعَةِ ؛ وَعَنِ إِمَامِنَا مِنْ بَيْنِهِمُ الَّذِي حَمَلَ الشَّرِيعَةَ وَبَيَّنَّهَا ، وَحَرَّرَ مَقَاصِدَهَا الشَّرِيفَةَ وَعَيْنَهَا ، وَتَعَرَّضَ فِي الْآفَاقِ مِنْهَا وَالْمَطَالِعِ ، بَيْنَ شُهْبِهَا اللَّوَامِهِ ؛ فَرِيَّتَهَا . نُكِّنَتُ الْهَدَايَةَ إِذَا حَقَّقَ مَنَاطِئَهَا ، وَشَرَطُ التَّحْصِيلِ وَالِدَّرَايَةِ إِذَا رُوعِيَتْ أَشْرَاطُهَا ، وَقَصْدُ الرِّكَابِ إِذَا ضُرِبَتْ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ أَبَاطُهَا^(٣) ؛ عَالَمُ الْمَدِينَةِ وَإِمَامُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْأَمِينَةِ ، وَمُقْبِسُ أَنْوَارِ النُّبُوَّةِ مِنْ مِشْكَاتِهَا الْمُسَيَّنَةِ ، الْإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ . الْحَقُّهُ اللَّهُ بِرِضْوَانِهِ ، وَعَرَفْنَا بَرَكَتَهُ الْإِقْتِدَاءَ بِهَدْيِهِ وَعِرْفَانِهِ ؛ وَعَنِ سَلَفِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهْتَدِينَ ، وَتَابِعِيهِمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ يَكْفُهُمْ بِلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَيَكْفُلُهُمْ بِفَضْلِهِ وَنِعْمَتِهِ ، وَيُسَيِّرُهُمْ لِأَسْبَابِ السَّعَادَةِ بِآدَابِ دِينِهِ وَشَرْعَتِهِ ، وَيَحْمِلُهُمْ فِي الْعِنَايَةِ بِأُمُورِهِمْ ، وَالرَّعَايَةِ لَجُمُوهُورِهِمْ ؛ عَلَى مَنَاهِجِ سُنَّتِهِ وَلَطَائِفِ حِكْمَتِهِ . وَلِذَلِكَ اخْتَارَ لَهُمُ الْمُلُوكَ الَّذِينَ جَبَلَهُمْ عَلَى الْعَدْلِ وَفَطَرْتَهُ ، وَهَدَاهُمْ إِلَى التَّمَسُّكِ بِكَلِمَتِهِ . ثُمَّ فَضَّلَهُمْ بِمَا خَوَّلَهُمْ مِنْ سَعَةِ الرِّزْقِ وَبَسْطَتِهِ وَاشْتِقَاقِ التَّمَكُّنِ فِي الْأَرْضِ مِنْ قُدْرَتِهِ ، فَتَسَابَقُوا بِالْحَيَرَاتِ إِلَى جَزَائِهِ وَمَثُوبَتِهِ ، وَذَهَبُوا بِالدرَجَاتِ الْعُلَى فِي وَفُورِ الْأَجْرِ وَمَزِيَّتِهِ .

وَإِنَّ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ الْمَلِكَ الظَّاهِرَ ، الْعَزِيزَ الْقَاهِرَ ، الْعَادِلَ الطَّاهِرَ ، الْقَائِمَ بِأُمُورِ الْإِسْلَامِ عِنْدَمَا أُعْيَا حَمْلُهَا الْاِكْتَادَ^(٤) ، وَقُطِبَ دَائِرَةُ الْمُلْكِ الَّذِي أَطْلَعَ اللَّهُ مِنْ

(١) الميسم : الجمال .

(٢) هم المجتهدون أصحاب المذاهب الفقهية المشهورة : (مالك ، والشافعي ، وأبو حنيفة ، وأحمد بن حنبل) .

(٣) يشير إلى الحديث : « تضرب أكباد الابل في طلب العلم ، فلا يوجد عالم أعلم من عالم المدينة » ، وسيأتي له بعد .

(٤) جمع كتد ؛ وهو مجتمع الكتفين من الانسان . ويقال : خرجوا علينا اكتاداً وأكداداً أي فرقا وأرسالا .

حاشيته الأبدال^(١) وأنبت الأوتاد^(٢) ، ومُنَقَّق أسواق العزِّ بما بذلَ فيها من جميل نظره المذخور والعتاد ؛ رحمةُ الله الكافلةُ للخلق ، ويداه المبسوطتان بالأجل والرِّزق ، وظلُّه الوافي للعباد بما اكتنفهم من العدل والحق ، قَاصِمُ الجبَّارة ، والمعقِّي على آثار الأعاطِم من القياصرة ، وذوي التيجان من التبابعة والأكاسرة ، أولي الأقيال^(٣) والأساورة^(٤) ؛ وحائِزُ قَصَب السِّبْق في الملوك عند المناضلة والمفاخرة ، ومُفَوِّضُ الأمور بإخلاصه إلى وليِّ الدنيا والآخرة ؛ مُؤَيِّدُ كلمة الموحِّدين ، ورافع دعائم الدين ، وظهير خلافة المؤمنين ، سلطان المسلمين أبو سعيد . صدَّق الله فيما يقتني من الله ظنونه ، وجعل النصرَ ظهيره ، كما جعل السَّعدَ قرينه ، والعزَّ خديته^(٥) ، وكان وليه على القيام بأمور المسلمين ومُعِينه ، وبلغ الأُمَّة في اتصال أيامه ، ودوام سلطانه ، ما يرجونه من الله ويؤملونه . لمَّا قلَّده الله هذا الأمر الذي استوى له على كرسيِّ الملِّك ، وانتظمت عقود الدول في لَبَّاتٍ^(٦) الأيام ، وكانت دولته واسطة السِّلْك ، وجمع له الدين بولاية الحرَّمين ، والدنيا بسلطان التُّرك . وأجرى له أنهار مصر من الماء والمال ؛ فكان مجازه فيها بالعدل في الأخذ والتَّرك . وجمع عليه قلوب العباد . فشَهِدَ سرُّها بحمِّه الله [له] شهادةً خالصةً من الرِّيب ، بريئةً من الشُّك . حتى استولى من العزِّ والملِّك على المقام الذي رَضِيَهُ وَحَمِدَهُ . ثم تَأَقَّتْ نَفْسٌ إلى ما عند الله ، فصرف قصده إليه واعتمده ، وسَارَعَ إلى فعل الخيرات بنفسٍ مطمئنة ، لا يَسْأَلُ عليها أجراً ولا يُكَدِّرُها بالمتَّنة ، وأَحْسَنَ رعاية الدين والملِّك تشهدها الأنسُ والجِنَّة ، لا ؛ بل النَّسَمُ^(٧) والأجِنَّة^(٨) . ثم آوى الخلق إلى عدله

(١) يوري بالابدال في مصطلح الصوفية ، وهم أشخاص سبعة : يسافرون بأرواحهم من مكان الى اخر ، ويتركون جسدَهم في موضعهم الأول ، بحيث لا يحس احد بسفرهم . عن «تعريفات» الجرجاني ص ٢٧ ، و«تعريفات» ابن العربي ص ٢ .

(٢) والأتاد عند الصوفية ايضاً : عبارة عن أربعة رجال ، منازلهم على منازل الأربعة الأركان من العالم : الشرق ، والغرب ، والشمال ، والجنوب ؛ كل واحد منهم مقامه في تلك الجهة . عن الجرجاني في «التعريفات» ص ٢٧ ، وابن العربي ص ٢ . ويريد ان الدولة غنية بالرجال .

(٣) جمع قَبْل وهو ، في مملكة حمير ، بمنزلة الوزير بالنسبة للملك .

(٤) جمع أسوار ، وهو الرامي أو الفارس . وعند الفرس القائد وهنا تعني القواد .

(٥) الخدين : الحبيب والصاحب للمذكر والمؤنث .

(٦) من لَبَّاتٍ : لَبَّاتٌ يده : اي لواها . وهنا بمعنى اضطراب الأيام .

(٧) النسَم : نفس الروح .

(٨) الأجِنَّة : ج جنين : المستور من كل شيء . والولد ما دام في الرحم قبل أن يرى النور .

تصديقاً بأن الله يُؤوه يومَ القيامة إلى ظلالِهِ المستجَنَّة ، ونَافَسَ في اتِّخَاذِ المَدَارِس والرُّبُط لتعليم الكتاب والسُنَّة ، وبناء المساجد المقدَّسة يَبْنِي له بها الله البيوتَ في الجنة ، والله لا يَضِيعُ عَمَلُ عاملٍ فيها أَظْهره أَوْ أَكْثَره .

وإنَّ ما أنتَجَتْه قرائحُ هِمَّتِه وعِنايَتِه ، وأُطْلَعَتْه آفاقُ عدْلِه وهِدايَتِه ، ووَضَحَتْ شواهدُه علي بُعد مداه في الفخرِ وغايَتِه ، ونُجِحَ مقاصدُه في الدينِ وسِباعيَتِه ؛ هذا المَصْنَعُ الشَّريفُ ، والهِبْكَالُ الهِمَمِ البَشَرِيَّة تَرْتِيبُه وَرَصْفُه ، لا ! بل الكَلِمَ السَّحَرِيَّة تَمَثِيلُه ووَضَفُه وشَمْعُ بِمِطَاوِلَةِ السُّحُبِ ومِناوِلَةِ الشَّهْبِ مارِئُه^(١) العَزِيزُ وَأَنْفُه ، وأزْدَهِي بَلْبُوسُ السَّعَادَةِ وَالْقَبُولِ مِنَ اللَّهِ عِطْفُه ؛ إِنْ فَآخِرَ بِلَاطِ الْوَلِيدِ ، كانَ لَهُ الْفَخَارُ ؛ أَوْ بَاهِي الْقَصْرِ وَالْإِيوَانِ ، شَهِدَ لَهُ الْمَحْرَابُ وَالْمَنَارُ ؛ أَوْ نَاطَرَ صَنْعَاءَ وَغَمْدَانَ ، قَامَتْ بِحِجَّتِهِ الْآثَارُ . إِنَّمَا هُوَ بِهِؤُمِلُوه دِينٌ وَإِسْلَامٌ ، وَقَصْرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ ، وَفَضَاءٌ رَبَّانِي يَنْشَأُ فِي جَوْهٍ لِلرَّحْمَةِ وَالسَّكِينَةِ ظِلَّةٌ وَغَامٌ ، وَكَوْكَبٌ شَرْقِيٌّ يَصْاحِكُ وَجْهَ الشَّمْسِ مِنْهُ ثَغْرٌ بِسَامٌ ؛ دَفَعَ إِلَى تَشْيِيدِ أَرْكَانِهِ ، وَرَفَعَ الْقَوَاعِدَ مِنْ بُنْيَانِهِ ، سَيْفَ دَوْلَتِهِ الَّذِي اسْتَلَّهُ مِنْ قِرَابِ مُلْكِهِ وَانْتَضَاهُ ، وَسَهْمَهُ الَّذِي عَجَمَ عِيدَانُ كِنَانَتِهِ فَارْتَضَاهُ ، وَحُسَامَ أَمْرِهِ الَّذِي صَقَلَ فِرْنَدَهُ^(٢) بِالْعِزِّ وَالْعِزْمِ وَأَمْضَاهُ ، وَحَاكَمَهُ الْمُؤَيَّدَ الَّذِي طَالِبَ غَرِيمِ الْأَيَّامِ ، بِالْأَمَلِ الْعَزِيزِ الْمَرَامِ ؛ فَاسْتَوْفَى دَيْنَهُ وَاقْتَضَاهُ ، الْأَمِيرُ الْأَعَزُّ الْأَعْلَى جَهْرَكُسُ^(٣) الْخَلِيلِي أَمِيرُ الْمَاخُورِيَّةِ بِاسْطِبْلِهِ الْمَنِيعِ . حَرَسَهُ اللَّهُ مِنْ خُطُوبِ الْأَيَّامِ ، وَقَسَمَ لَهُ مِنْ عِنَايَةِ السُّلْطَانِ أَوْفَرَ الْحُظُوظِ وَالسَّهَامِ ؛ فَقَامَ بِالْخَطِّ الْوَسَّاعِ ، لِأَمْرِهِ الْمُطَاعِ ، وَأَغْرَى بِهَا أَيْدِي الْإِتْقَانِ وَالْإِبْدَاعِ . وَاخْتَصَّهَا مِنْ أَصْنَافِ الْفَعْلَةِ بِالْمَاهِرِ الصَّنَاعِ ، يَتَنَاطَرُونَ فِي إِجَادَةِ الْأَشْكَالِ مِنْهَا وَالْأَوْضَاعِ ، وَيَتَنَاطَلُونَ الْأَعْمَالَ بِالْهَنْدَامِ إِذَا تَوَارَتْ عَنْ قُدْرَتِهِمْ بِالْإِمْتِنَاعِ ؛ فَكَأَنَّ الْعَبْقَرِيَّ^(٤) ، يَفْرِي — الْفَرِيَّ^(٥) ، أَوْ

(١) المارن : طرف الأنف أو ما لان من طرفه .

(٢) فرنده : السيف ، جوهر السيف ووشيه وهو ما يرى فيه شبه مدبّ النمل أو شبه الغبار .

(٣) هو الأمير سيف الدين جهركس (ويكتب : جهاركس ، وجاركس) بن عبدالله اليلغاوي الحلبي ، الذي ينسب إليه «خان الخليلي» المعروف اليوم بالقاهرة . قتل بظاهر دمشق سنة ٨٩١ هـ في الوقعة بين منطاش ، والظاهر برقوق . خطط المقريري ١٥٢/٣ — ١٥٣ ، طبع مصر . وقد ضبط في «المنهل» : «جاركس» وهو لفظ أعجمي معناه أربعة أنفس .

(٤) العبقرى نسبة إلى «عبقري» ، وهي قرية تسكنها الجن فيها زعموا . ويقولون إذا تعجبوا من جودة شيء أو غرابته . أو دقة صنعه : هو عبقرى . ثم توسعوا فسموا الرجل ، والسيد ، والكبير — عبقرياً . (لسان العرب) .

(٥) يقال هو يفرى الفرى : إذا عمل عملاً فأجاده .

العقاريت ، قَدِمَتْ من أماريت^(١) . وكأنما حُشِرَت الجنُّ والشَّيَاطِينُ ، أو نُشِرَتْ
القَهَّارِمَةُ^(٢) من الحُكَمَاءِ الأوَّلِ والأساطين ، جابوا لها الصَّخْرَ بالأذْوَادِ^(٣) ، لا بالوَادِ ،
واستنزَلُوا صُفْمَ الأطْوَادِ على مطايا الأعْوَادِ ، ورفعوا سَمَكُهَا إلى أَقْصَى الآمَادِ ، على
بعيد المَهْوَى من العِمَادِ . وَغَشَّوْهَا من الوَشْيِ الأزهر ، المَضَاعَفُ الصَّدَفُ
والمرمر ، ومائع اللُّجَيْنِ الأبيض والذهب الأحمر ، بَكُلِّ مُسَهَّمِ الحواشي حالي
الأبراد ؛ وقَدَّرُوهُ مساجدَ للصلوات والأذكار ، ومقاعِدَ للسُّبُحات^(٤) بالعَشِي
والإبكار ، ومحالسَ للتلاوة والاستغفار ، في الآصال والأسحار ، وزوايا للتخلُّي عن
ملاحظة الأسماع والأبصار ، والتَّعَرُّضِ للفتوح الرِّبَّانية والأنوار ؛ ومدارسَ لِقَدْحِ
زناد الأفكار ، ونتاج المَعَارِفِ الأبكار ، وصَوغِ اللُّجَيْنِ والنُّضار ، في مَحَكِّ القرائع
والأبصار . تَتَفَجَّرُ ينابيعُ الحكمة في رياضهِ وبُستانهِ ، وتَفْتَحُ أبوابُ الجنة من غُرفهِ
وإيوانهِ ، وتُقْتَادُ غُرُ السَّوابِقِ من العلوم والحَقائِقِ ، في طَلْقِ^(٥) مِيدَانِهِ ، ويَصْعَدُ
الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعملُ الصَّالِحُ إلى الله من نواحي أَرْكَانِهِ ؛ وتُوفَّرُ الأجور لغاشيته
مُحْتَسِبَةً عندالله في ديوانهِ ، راجِحَةً في ميزانهِ .

ثم اختارَ لها من أئمة المذاهب الأربعة أعياناً ، ومن شيوخ الحقائق الصُّوفية فُرساناً ؛
تَصَفَّحَ لهم أهلَ مَمْلَكَتِهِ إنساناً إنساناً ، وأشدَّ بقدرهم عِنايةً وإحساناً ، ودَفَعَهُم إلى
وظائفهِ توسعاً في مذاهب الخير واقتنائاً . وعهد إليهم برياضة المريدين ، وإفادة
المستفيدين ، احتساباً لله وقرباناً ، وتَقِيلاً^(٦) لمذاهب الملوك من قومِهِ واستئنائاً ؛ ثُمَّ
نَظَّمَنِي معهم تطولا وامْتِنَاناً ، ونعمة عظُمت موقِعاً وجَلَّتْ شاناً ؛ وَأَنَا وإن كُنْتُ
لقصور البضاغة ، متأخراً عن الجماعة ، ولقُعود الهمة ، عيالا على هؤلاء الأئمة ،
فَسَمَحَهُم يَغْطِي وَيُلْحِفُ ، وبمواهب العفو والتَّجَاوُزِ يَمْنَحُ وَيُتَحَف . وإنما هي
رحمة من مولانا السلطان — أَيْدَهُ اللهُ — خَصَّتْ كما عَمَّتْ ، ووسَّمت أغفال
النِّكَرَةِ والإهمال وَسَمَّتْ ؛ وكَمَلَتْ بها مواهب عَطْفِهِ وجَبَّرَهُ وتمَّتْ ؛ وقد يَتَنَظَّمُ الدرُّ

(١) أماريت : جمع الجمع لمرت : وهي المفازة والفقر لا نبات فيه .

(٢) القهارة : جمع قهرمان ، الوكيل أو أمين الدخل والخرج (قاموس) .

(٣) الأذواد جمع ذود ؛ وهو الجماعة من الابل . لا يتجاوز عددها الثلاثين ولا يقلّ عن الثلاث .

(٤) جمع سبحة : وهي التطوع في الدعاء والصلاة .

(٥) الطلق : الشوط الواحد في جري الخيل ، والغاية التي يجري إليها الفرس في السباق .

(٦) بمعنى من تقيّل أباه : أشبهه ، وعمل عمله .

مع المَرَّجَان ، وتَلْتَبَسُ العَصَائِبُ بِالتَّيْجَان ؛ وتُراضُ المسوِّمةُ ^(١) العِرابُ ^(٢) على مُسَابِقَةِ الهِجَان ^(٣) ؛ والكُلُّ في نظر مَوْلَانَا السُّلْطَان وتَصْرِيفِهِ ، والأَهْلِيَّةُ بِتَأْهِيلِهِ والمَعْرِفَةُ بِتَعْرِيفِهِ ، وَقَوَامُ الحَيَاةِ وَالْآمَالِ بِلَطَائِفِ إِحْسَانِهِ وَصُنُوفِهِ ؛ وَاللَّهُ يُوزِعُنَا شُكْرَ مَعْرُوفِهِ ، وَيُوفِّقُنَا لِلْوَفَاءِ بِشَرْطِهِ فِي هَذَا الْوَقْفِ وَتَكْلِيفِهِ ، وَيَحْمِي حِجَاهَ مَنْ غَيْرِ الدَّهْرِ وَصُرُوفِهِ ، وَيُنِيءُ عَلَى مَالِكِ الْإِسْلَامِ ظِلَالَ أَعْلَامِهِ وَرِمَاحِهِ وَسُيُوفِهِ ، وَيُريهِ قُرَّةَ الْعَيْنِ فِي نَفْسِهِ وَبَيْنِهِ ، وَحَاشِيَتِهِ وَذَوِيهِ ، وَخَاصَّتِهِ وَلَفِيفِهِ ، عَنْ اللَّهِ وَفَضْلِهِ .

ثم تعاون العِدَاةُ عِنْدَ أَمِيرِ المَاخُورِيَّةِ ^(٤) ، الْقَائِمِ لِلسُّلْطَانِ بِأُمُورِ مَدْرَسَتِهِ ، وَأَغْرَوْهُ بِصَدِّيِّهَا ، وَقَطَعَ أَسْبَابِي مِنْ وِلَايَتِهَا ، وَلَمْ يُمَكِّنِ السُّلْطَانُ إِلَّا إِسْعَافَهُ فَأَعْرَضَتْ عَنْ ذَلِكَ ، وَشَغِلَتْ بِمَا أَنَا عَلَيْهِ مِنَ التَّدْرِيسِ وَالتَّلَافِيفِ .

ثمَّ خَرَجْتُ عَامَ تِسْعَةِ وَثَمَانِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ لِلْحَجِّ ، وَاقْتَضَيْتُ إِذْنَ السُّلْطَانِ فِي ذَلِكَ فَأَسْعَفَ ، وَزَوَّدَ هُوَ وَأَمْرَاؤُهُ بِمَا أَوْسَعَ الْحَالُ وَأَرْغَدَهُ ؛ وَرَكِبْتُ بِحَرَ السُّوَيْسِ مِنَ الطُّورِ إِلَى الْيَنْبُوعِ ؛ ثُمَّ صَعِدْتُ مَعَ الْمَحْمِلِ إِلَى مَكَّةَ ؛ فَقَضَيْتُ الْفَرَضَ عَامِئِذٍ وَعُدْتُ فِي الْبَحْرِ ؛ فَتَرَلْتُ بِسَاحِلِ الْقَصِيرِ ؛ ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهُ إِلَى مَدِينَةِ قُوصٍ فِي آخِرِ الصَّعِيدِ ، وَرَكِبْتُ مِنْهَا بِحَرَ النِّيلِ إِلَى مِصْرَ ، وَلَقِيتُ السُّلْطَانَ ، وَأَخْبَرْتُهُ بِدُعَائِي لَهُ فِي أَمَاكِنِ الْإِجَابَةِ ، وَأَعَادَنِي إِلَى مَا عَهَدْتُ مِنْ كَرَامَتِهِ ، وَتَفِيءِ ظِلِّهِ .

ثم شَغَرْتُ وَظِيفْتُ الْحَدِيثَ بِمَدْرَسَةِ صَلَغْتَمَشٍ ^(٥) فَوَلَّانِي إِيَّاهَا بَدَلًا مِنْ مَدْرَسَتِهِ وَجَسَلْتُ لِلتَّدْرِيسِ فِيهَا فِي مُحَرَّمٍ أَحَدٍ وَتِسْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَقَتُّ ذَلِكَ الْيَوْمِ — عَلَى الْعَادَةِ — بِخُطْبَةٍ نَصَّهَا :

«الْحَمْدُ لِلَّهِ إِجْلَالًا وَإِعْظَامًا ، وَاعْتِرَافًا بِحَقُوقِ النِّعَمِ وَالتَّرَامَا ، وَاقْتِبَاسًا لِلْمَزِيدِ مِنْهَا

(١) المسوِّمة من الخيل : المرعية ، والمعلمة .

(٢) العراب من الإبل ، والخيل : التي ليس فيها عرق هجين .

(٣) الهجان : جمع هجين ؛ وهو الفرس الذي ليس بعقيق .

(٤) الماخورية : من الماخور : ج مواخير ومواخير : مجلس الفساق بيت الريبة والدعارة . وقيل إن هذه الكلمة فارسية الأصل من (خور) وقيل هي عربية من (خورت السفينة) لتردد الناس إلى المكان المسمى بها .

(٥) كذا في الأصل : «صلغتمش» ، ولعلها كانت تنطق باللام فسجلها ابن خلدون كما سمعها . والمدرسة الصرغتمشية هذه التي تقع بجوار جامع أحمد بن طولون ، تنسب إلى بانها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري أمير رأس نوبة ، المتوفى سجيناً في الأشكندرية سنة ٧٥٩ ، خطط المقرئ ٢٥٦/٤ — ٢٥٨ طبع مصر .

واختتاماً ، وشكراً على الذي أحسن وتما ، وسع كل شيء رحمةً وإنعاماً ، وأقام على توحيده من أكوانه ووجوده آياتٍ واضحةً وأعلاماً ، وصَرَفَ الكائناتِ في قبضة قدرته ظهوراً وخفاءً وإيجاداً وإعداماً ، وأعطى كل شيء خلقه ثم هداه إلى مصالحه إلهاماً ، وأودع مقدور قضائه في مسطور كتابه ، فلا يجدُ محيصاً عنه ولا مراماً .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمدٍ نبيِّ الرحمة الهامية غماماً^(١) والملحمة التي أراقت من الكفر نجيعاً وحطمت أضناماً ، والعروة الوثقى ، فاز من اتخذها عصاماً^(٢) ، أول النبيين رتبةً وآخرهم ختاماً ، وسيدهم ليلة قاب قوسين إذ بات للملائكة والرسل إماماً ؛ وعلى آله وأصحابه الذين كانوا رُكناً لدعوته وسناماً^(٣) وحرماً على عدوه وساماً^(٤) ، وصلوا في مظاهرتة جداً واعتراها ، وقطعوا في ذات الله وابتغاء مرضاته أنساباً وأرحاماً ، حتى ملأوا الأرض إيماناً واسلاماً ، وأوسعوا الجاحد والمُعاند تبيكيتاً وإرغاماً^(٥) ، فأصبح نغر الدين بساماً ووجه الكفر والباطل عبوساً جهاماً . صلى الله عليه وعليهم ما عاقب ضياء ظلاماً ، صلاة ترجح القبول ميزاناً ، وتبوى عند الله مقاماً .

والرضى عن الأئمة الأربعة ، الهداة المتبعة ، مصابيح الأمان ومفاتيح السنة الذين أحسينا بالعلم قياماً وكانوا للمتقين إماماً .

أما بعد فإن الله سبحانه تكفل لهذا الدين بالعلاء والظهور ، والعز الخالد على الظهور ، وانفساح خطته في آفاق المعمور ، فلم يزل دولة عظيمة الآثار ، غزيرة الأنصار ، بعيدة لصيت عالية المقدار ، جامعة — بمحاسن آدابه وعزة جنابه — معاني الفخار ، مُنْفَقَةً بضائع علومه في الأقطار ، مفجرة ينابيعها كالبحار ، مُطلعة كواكبها المنيرة في الآفاق أضواءً من النهار ؛ ولا كالدولة التي استأثرت بقبلة الإسلام ومنابرهِ ، وفاخرت بحرّمات الله وشعائره واعتمدت بركة الإيمان وأواصره ، واعتمدت في إقامة رسوم العلم ليكون من مفاخره ، وشاهداً بالكمال لأوله وآخره . وإن مولانا السلطان الملك الظاهر ، العزيز القاهر ، شرف الأوائل والأواخر ، ورافع

(١) همت السماء : أمطرت / والغمام : القطر نفسه .

(٢) العصام : رباط كل شيء . من حبل ونحوه .

(٣) السنام : المرتفع من الرمل ، والجبل ، والمراد انه ملجأ .

(٤) السام : جمع سم ؛ وفي حديث عن علي رضي الله عنه : (الدنيا غداؤها سام) .

(٥) الجهام : السحاب لا ماء فيه ، ويريد : كريبها لا خير فيه .

لواء المعالي والمفاخر ، ربّ التَّيْجَانِ والأسرّة والمنابر ، والمُجَلِّي في مَيْدَانِ السَّابِقِينَ من الملوك الأكابر ، في الزمن الغابر ، حاملُ الأُمَّة بنظره الرشيد ورأيه الظافر ، وكافلُ الرعايا في ظلّه المديد. وعدّله الوافر ، ومُطْلِع أنوار العزّ والسَّعادة من أُنْفِقِهِ السَّافِر ؛ واسطة السِّلَك من هذا النِّظام ، والتَّاج المحلّي في مفارق الدول والأيام ، سيّد الملوك والسلاطين ، بركة الإسلام والمسلمين ، كافل أمير المؤمنين ، أبو سعيد . أعلى الله مقامه ، وكافاً عن الأُمَّة إحسانه الجزيل وأنعامه ، وأطال في السَّعادة والخيرات المبدأة المُعادة لياليه وأيامه ؛ لما أوسع الدين والمُلْك نظراً جميلاً من عنايته ، وأنام الخلق في حُجْر كِفَالَتِهِ ، ومهاد كِفَايَتِهِ ، وأيقظ لتَفَقُّد الأمور ، وصلاح الخاصّة والجمهور ، عينَ كِلَاعَتِهِ ، كما قلّده الله رعايته^(١) وأقام حكامَ الشريعة والسياسة يُوسِّعون نطاقَ الحق إلى غايته ، ويُطلِّعون وجه العدل سافراً عن آيته . ونَصَب في دست النيابة من وثق بعدله وسياسته ، ورضي الدينُ بحُسن إِيالته ، وأَمَنَهُ على سُلْطانه ودولته ، وهو الوفيُّ — والحمد لله — بأمانته ؛ ثم صَرَفَ نظره إلى بيوت الله يُعْنِي بِإِنْشَائِهَا وتَأْسِيسِهَا ، ويعمل النّظَر الجميل في إِيَادَتِهَا وتَقْدِيسِهَا ، ويقرضُ الله القَرْضَ الحَسَنَ في وَقْفِهَا وتَحْيِيسِهَا وَيَنْصِبُ فِيهَا لَبَثَ العلم من يُؤَهِّلُهُ لوظائفها ودُروسها ؛ فيُضْنِي عليه بذلك من العناية أفخر لبوسها ، حتى زهت الدولة بِمِلْكِهَا ومصرِهَا ، وفاخرت الأَنَامُ بِزَمَانِهَا الزاهر وعَصْرِهَا . وخَضَعَتِ الأَوَاوينَ لِإِيوانِهَا العَالِي وقصرِهَا ؛ فابْتَهَجَ الْعَالَمُ سروراً بِمَكَانِهَا ، واهْتَزَّتِ الأَكْوَانُ لِلْمُفَاخِرَةِ بِشَأْنِهَا ، وَتَكَفَّلَ الرَّحْمَنُ ، لِمَن أَعْتَرَبَهُ الْإِيْمَانُ ، وَصَلَّحَ عَلَى يَدِهِ الزَّمَانُ ، بِوَفُورِ الْمُثُوبَةِ وَرُجْحَانِهَا .

وكان مما قد من به الآن تدرّيسُ الحديث بهذه المدرسة وقف الأمير صرغتمش من سَلَفِ أُمَرَاءِ التُّرك ، خَقَّفَ الله حسابَه وثَقَّلَ في الميزان — يوم يُعْرَضُ على الرحمن — كتابه ، وأَعْظَمَ جزاءَه في هذه الصَّدَقَةِ الجارية وثوابه ، عنايةً جَدَّدَ لي لباسها ، وإِيثاراً بِالنِّعْمَةِ الَّتِي صَحَّحَتْ قِيَّاسَها ، وعرفتُ منه أنواعها وأجناسها ، فامتثلتُ المَرْسُومَ ، وانطلقتُ أَقِيمُ الرُّسُومَ ، وأشكُرُ من الله وسُلْطانه الحِظَّ المقسوم . وأنا مع هذا مُعْتَرِفٌ بِالْقُصُورِ ، بين أهل العُصُورِ ، مُسْتَعِيدٌ بِاللَّهِ وَبِرُكَّةِ هَؤُلَاءِ الْحُضُورِ ،

(١) كذا في الأصل ؛ ولعلها : «قلّده الله حق رعايته» ، أو «واجب رعايته» ، أو نحو هذا .

السَّادَةُ الصُّدُورُ ، أَنْ يَجْمَعَ بِي مَرْكَبُ الْغُرُورِ ، أَوْ يَلِجَ شَيْطَانُ الدَّعْوَى وَالزُّورِ . فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ . وَاللَّهُ تَعَالَى يَنْفَعُ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ بِصَالِحِ أَعْمَالِهِ ، وَيُعْرِفَهُ الْحُسْنَى وَزِيَادَةَ الْحِظِّ الْأُسْنَى فِي عَاقِبَتِهِ وَمَالِهِ ، وَيُرِيهِ فِي سُلْطَانِهِ وَبَنِيهِ وَحَاشِيَتِهِ وَذَوِيهِ قُرَّةَ عَيْنِهِ وَرِضَى آمَالِهِ ، وَيَدِيمُ عَلَى السَّادَةِ الْأُمَرَاءِ مَا خَوَّلَهُمْ مِنْ رِضَاهِ وَإِقْبَالِهِ ، وَيَحْفَظُ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْأَمْرِ السَّعِيدِ بِدَوَامِهِ وَإِتِّصَالِهِ ، وَيَسِدُّ قُضَاتِهِمْ وَحُكَامَهُمْ لِاعْتِمَادِ الْحَقِّ وَاعْتِمَالِهِ بِمَنْ اللَّهِ وَافْضَالِهِ .

وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ أَقْرَرَ لِلْقِرَاءَةِ فِي هَذَا الدَّرْسِ ، كِتَابَ الْمُوطَأَ لِلْإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَإِنَّهُ مِنْ أُصُولِ السُّنَنِ ، وَأُمَمَاتِ الْحَدِيثِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ أَصْلُ مَذَهَبِنَا الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُ مَسَائِلِهِ ، وَمَنَاطُ أَحْكَامِهِ ، وَإِلَى آثَارِهِ يَرْجِعُ الْكَثِيرُ مِنْ فِقْهِهِ .

فَلَنَفْتَحَ الْكَلَامَ بِالْتَّعْرِيفِ بِمُؤَلَّفِهِ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَمَكَانِهِ مِنَ الْأَمَانَةِ وَالِدَيَانَةِ ، وَمُتَزَلَّةِ كِتَابِهِ «الْمُوطَأُ» مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ . ثُمَّ نَذْكُرُ الرِّوَايَاتِ وَالطَّرِيقَ الَّتِي وَقَعَتْ فِي هَذَا الْكِتَابِ ، وَكَيْفَ اقْتَصَرَ النَّاسُ مِنْهَا عَلَى رِوَايَةِ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى ، وَنَذْكُرُ أَسَانِدِي فِيهَا ، ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى الْكَلَامِ عَلَى مَتْنِ الْكِتَابِ .

أَمَّا الْإِمَامُ مَالِكُ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَهُوَ إِمَامُ دَارِ الْهَجْرَةِ ، وَشَيْخُ أَهْلِ الْحِجَازِ فِي الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ غَيْرِ مُنَازَعٍ ، وَالْمَقْلَدُ الْمُتَّبَعُ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَخُصُوصاً أَهْلِ الْمَغْرِبِ . قَالَ الْبُخَارِيُّ : مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ بْنُ أَبِي عَامِرٍ الْأَصْبَحِيُّ . كُنِيَّتُهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ، حَلِيفُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَثْمَانَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ الْقُرَشِيِّ التَّيْمِيِّ ابْنِ أَخِي طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ . كَانَ إِمَامًا ، رَوَى عَنْهُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ . انْتَهَى كَلَامُ الْبُخَارِيِّ .

وَجَدُّهُ أَبُو عَامِرٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْحَرِثِ بْنِ عَثْمَانَ بَغِيْنٌ مُعْجَمَةٌ مُفْتُوحَةٌ ، وَيَاءٌ تَحْتَانِيَّةٌ سَاكِنَةٌ ، ابْنُ جَثِيلٍ بِجِيمٍ مَضْمُومَةٌ وَثَاءٌ مُثَلَّثَةٌ مُفْتُوحَةٌ ، وَيَاءٌ تَحْتَانِيَّةٌ سَاكِنَةٌ ، وَيُقَالُ حُثِيلٌ أَوْ خُثِيلٌ بِحَاءٍ مَضْمُومَةٌ مُهْمَلَةٌ أَوْ مُعْجَمَةٌ ، عَوْضَ الْجِيمِ ؛ وَيُقَالُ حِسْلٌ بِحَاءٍ مُهْمَلَةٌ مَكْسُورَةٌ ، وَسِينٌ مُهْمَلَةٌ سَاكِنَةٌ ، ابْنُ عَمْرِو بْنِ الْحَرِثِ ؛ وَهُوَ ذُو أَصْبَحَ . وَذُو أَصْبَحَ بَطْنٌ مِنْ جَمِيرٍ ، وَهُمْ إِخْوَةٌ يَحْضُبُ ، وَنَسَبُهُمْ مَعْرُوفٌ ؛ فَهُوَ جَمِيرِيٌّ صَلِيبَةٌ ، وَفَرَشِيٌّ حِلْفًا . وَلِدَ سَنَةَ إِحْدَى وَتَسْعِينَ ^(١) — فِيهَا

(١) فِي مَوْلِدِ مَالِكٍ اقْوَالٌ أُخْرَى غَيْرُ مَا ذَكَرَ ابْنُ خَلْدُونٍ تَجِدُهَا فِي «الْإِنْسَابِ» لِلْسَمْعَانِيِّ ، وَ«وَفَيَاتِ» ابْنِ خَلْكَانٍ ؛ وَ«الْإِنْتِقَاءَ» لِابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ ص ١٠ .

قال ابن بكير^(١) . واربعة وتسعين — فيما قال محمد بن عبدالله بن عبد الحكيم^(٢) ؛ ونشأ بالمدينة . وتفقه بها . أخذ عن ربيعة الرأي^(٣) ، وابن شهاب^(٤) وعن عمه أبي سهيل^(٥) . وعن جماعة ممن عاصروهم من التابعين وتابعي التابعين ؛ وجلس للفتيا والحديث في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم شاباً يناهز العشرين ، وأقام مفتياً بالمدينة ستين سنة . وأخذ عنه الجهم الغفير من العلماء الأعلام ، وارتحل إليه من الأمصار من لا يحصى كثرة ؛ وأعظم من أخذ عنه الإمام محمد بن إدريس الشافعي^(٦) ، وابن وهب^(٧) ، والأوزاعي^(٨) ، وسفيان الثوري^(٩) ، وابن المبارك^(١٠) — في أمثال لهم وأنظار . وتوفي سنة تسع وسبعين ومائة باتفاق من الناقلين لوفاته ، وقال الواقدي^(١١) : عاش مالك تسعين سنة ، وقال سحنون^(١٢) عن ابن

(١) هو يحيى بن عبدالله بن بكير القرشي المخزومي بالولاء المصري [١٥٤ — ٢٣١] أحد رواة «الموطأ» عن مالك .

(٢) أبو عبدالله محمد بن عبد الحكيم الفقيه الشافعي المصري المشهور [١٨٢ — ٢٦٨] . «وفيات» ٥٧٨/١ .

(٣) هو أبو عثمان ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ مولى آل المنكدر . المعروف بريبعة الرأي . فقيه مدني جليل . أدرك جماعة من الصحابة . توفي بالأنبار بمدينة «الهاشمية» سنة ١٣٦ على خلاف . «المعارف» لابن قتيبة ص ٢١٧ (وفيات) ٢٢٨/١ .

(٤) أبو بكر محمد بن مسلم بن عبدالله بن شهاب الزهري القرشي . من أجل فقهاء التابعين بالمدينة . أدرك جماعة من الصحابة [٥١ — ١٤٢] على خلاف في المولد والوفاة . (وفيات) ابن خلكان ٥٧١/١ — ٥٧٢ .

(٥) نافع بن مالك بن أبي عامر الأصبحي أبو سهيل التيمي . مات في إمارة أبي العباس . تهذيب التهذيب ٤٠٩/١٠ .

(٦) الإمام المجتهد أبو عبدالله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ينتهي نسبه إلى عبد مناف بن قصي ، حيث يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم [١٥٠ — ٢٠٤] «الانتقاء» لابن عبد البرص ٦٦ — ١٢٢ .

(٧) أبو محمد عبدالله بن وهب بن مسلم القرشي المصري [١٢٥ — ١٩٧] ، لازم مالكا مدة طويلة .

(٨) أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي ، ونسبته أما إلى «الأوزاع» بطن من همدان ، أو من ذي كلاع من اليمن ، أو إلى «الأوزاع» قرية بدمشق نزل بها فنسب إليها أدخلته أمه «بيروت» فسكنها ، وبها مات سنة ١٥٧ ، ومولده ببعلبك سنة ٨٨ ، أو ٩٣ . «المعارف» لابن قتيبة ص ٢١٧ ، «وفيات» ٣٤٥/١ .

(٩) أبو عبدالله سفيان بن سعيد المعروف بالثوري ، أحد الأئمة المجتهدين ، ولاه المهدي قضاء الكوفة فامتنع ، ورمى بصك الولاية في دجلة . «وفيات الاعيان» ٢٦٣/١ .

(١٠) أبو عبد الرحمن عبدالله بن المبارك بن واضح المروزي مولى بني حنظلة ، أحد رواة «الموطأ» عن مالك . «وفيات» ٣١١/١ .

(١١) أبو عبدالله محمد بن عمر بن واقد المدني صاحب «المغازي» ؛ تولى القضاء ببغداد في أيام المأمون . ضعفه في الحديث [١٣٠ — ٢٠٧] . «وفيات» ٦٤٠/١ .

(١٢) أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الفقيه المالكي المشهور [١٦٠ — ٣٤٠] .

نافع^(١) : توفي مالك ابن سبع وثمانين سنة ، ولم يختلف أهل زمانه في أمانته ، وإتقانه ، وحفظه وتثبتته وورعه ، حتى لقد قال سفيان بن عيينة^(٢) : كُنَّا نَرَى فِي الْحَدِيثِ الْوَارِدِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «تُضْرَبُ أَكْبَادُ الْإِبِلِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَلَا يُوجَدُ عَالِمٌ أَعْلَمُ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ» إِنَّهُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ .

وقال الشافعي : إذا جاء الأثر فمالك النجم ، وقال : إذا جاءك الحديث عن مالك ، فشد به يدك ، وقال أحمد بن حنبل^(٣) : إذا ذكر الحديث فمالك أمير المؤمنين .

وقد ألف الناس في فضائله كتباً ، وشأنه مشهور .
وأما الذي بعثه على تصنيف «الموطأ» — فيما نقل أبو عمر بن عبد البر — فهو أن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون^(٤) ، عمل كتاباً على مثال «الموطأ» ، ذكر فيه ما اجتمع عليه أهل المدينة ، ولم يذكر فيه شيئاً من الحديث ، فأتي به مالك ، ووقف عليه وأعجبه ، وقال : ما أحسن ما عمل هذا ! ولو كنت أنا الذي عملت لبدأت بالآثار ، ثم شددت ذلك بالكلام . وقال غيره : حج أبو جعفر المنصور^(٥) ، ولقيه مالك بالمدينة ، فأكرمه وفأوضه . وكان فيما فأوضه : يا أبا عبد الله لم يبق علي وجه الأرض أعلم مني ومنك ، وقد شغلني الخلافة ، فضع أنت للناس كتاباً يتفعون به ، تجنب فيه رخص ابن عباس^(٦) وشذائد ابن عمر^(٧) ووطئه للناس

(١) أبو محمد عبد الله بن نافع بن أبي نافع الصائغ المخزومي ، يروي عن مالك كثيراً ، ولهم في الثقة به كلام .

(٢) سفيان بن عيينة بن أبي عمران أبو محمد المحدث المشهور (١٠٧ — ١٩٨) «وفيات» ٢٦٤/١ .

(٣) أبو عبد الله أحمد بن حنبل الإمام المجتهد المعروف ، ينتهي نسبه إلى بني شيبان (١٦٤ — ٢٤١) . «وفيات» ٢٠/١ .

(٤) عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون المتوفى سنة ١٦٤ ببغداد في خلافة المهدي . «المعارف» ص ٢٠٣ ، «تهذيب التهذيب» ٣٤٣/٦ .

(٥) أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الخليفة العباسي الثاني تولى الخلافة سنة ١٣٦ ، وتوفي سنة ١٥٨ . له ترجمة واسعة في «تاريخ الطبري» ٢٥٤/٩ — ٣٢٣ .

(٦) أبو العباس عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحبه ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وتوفي سنة ٦٨ على خلاف في سنة الوفاة . تاريخ الإسلام للذهبي ٣٠/٣ — ٣٧ .

(٧) أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي صاحب رسول الله ، وابن صاحبه . وفي سنة ٧٣ ، وكان عمره يوم الخندق ٢٥ سنة . تاريخ الإسلام للذهبي ٢٧٧/٣ — ٢٨٤ .

توطئة . قال مالك : فلقد علّمني التأليف ؛ فكانت هذه وأمثالها من البواعث لمالك على تصنيف هذا الكتاب ، فصنّفه وسمّاه «الموطأ» أي المُسهَّل^(١) . قال الجوهري وَطُو يَوطُو وَطَاءً ، أي صَارَ وَطِيئًا ؛ وَوُطِّئَتْهُ تَوَطُّتْهُ ؛ وَلَا يُقَالُ وَطِيئَتْهُ^(٢) . ولما شغل بتصنيفه أخذَ النَّاسُ بالمدينة يومئذٍ في تصنيف موطآت ، فقال لمالك أصحابه : نراك شغلت نفسك بأمر قد شركك فيه النَّاسُ ؛ وأتني ببعضها فنظر فيه ، ثم طرحه من يده وقال : لِيُعْلَمَنَّ أَن هَذَا لَا يَرْتَفِعُ مِنْهُ إِلَّا مَا أُرِيدُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ ؛ فكأنما أَلْقَيْتَ تِلْكَ الْكُتُبَ فِي الْآبَارِ ، وَمَا سَمِعَ لشيءٍ مِنْهَا بَعْدَ ذَلِكَ ذِكْرَ ، وَأَقْبَلَ مَالِكٌ عَلَى تَهْذِيبِ كِتَابِهِ وَتَوَطُّتْهُ ؛ فَيُقَالُ إِنَّهُ أَكْمَلَهُ فِي أَرْبَعِينَ سَنَةً . وَتَلَقَّتْ الْأُمَّةُ هَذَا الْكِتَابَ بِالْقَبُولِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا ، وَمِنْ لَدُنْ صُنِفَ إِلَى هَلَمَ^(٣) . وَطَالَ ثَنَاءُ الْعُلَمَاءِ فِي كُلِّ عَصْرِ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَخْتَلَفْ فِي ذَلِكَ إِثْنَانٌ . قَالَ الشَّافِعِيُّ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ^(٤) : مَا فِي الْأَرْضِ كِتَابٌ بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ أَنْفَعُ ، وَفِي رِوَايَةٍ أَصَحُّ ، وَفِي رِوَايَةٍ أَكْثَرُ صَوَابًا ، مِنْ «مُوطَأٍ» مَالِكٍ^(٥) . وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى^(٦) : مَا رَأَيْتُ كِتَابًا أَلْفَ فِي الْعِلْمِ أَكْثَرَ صَوَابًا مِنْ «مُوطَأٍ» مَالِكٍ . وَأَمَّا الطَّرُقُ وَالرِّوَايَاتُ الَّتِي وَقَعَتْ فِي هَذَا الْكِتَابِ ، فَإِنَّهُ كَتَبَهُ عَنْ مَالِكٍ جَمَاعَةٌ نُسِبَ الْمَوْطَأُ إِلَيْهِمْ بِتِلْكَ الرِّوَايَةِ ، وَقِيلَ مَوْطَأُ فَلَانٍ لِرَاوِيهِ عَنْهُ^(٧) فَهِيَ مَوْطَأُ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ

(١) ذكر الزرقاني في شرحه للموطأ ٨/١ ، نقلا عن ابن فهد ، وجها آخر لتسميته بالموطأ ، قال : «....» قال مالك : عرضت كتابي هذا على سبعين فقيها من فقهاء المدينة ، فكلهم واطأني عليه ، فسميته بالموطأ» .

(٢) انظر لسان العرب (وطأ) .

(٣) كذا في الأصلين ، وهو استعمال غريب . وقد استعمله في «مقدمته» في فصل الكيمياء ص . وانظر شرح الشريشي على مقامات الحريري ٨٤/١ ، تاج العروس (ج) .

(٤) أبو سعيد عبد الرحمن بن مهدي بن حسان بن عبد الرحمن العنبري البصري المتوفى سنة ١٩٨ . «تهذيب التهذيب» ٢٨١/٦ ، «المعارف» ص ٢٢٤ .

(٥) بعد أن ألف البخاري ، ومسلم صحيحهما ، لم تبق للموطأ هذه المكانة ، ومن هنا أولوا قول الشافعي هذا بأنه كان قبل وجود الصحيحين . وانظر مقدمة ابن الصلاح ص ١٤ ، تدريب الراوي ص ٢٥ ، مقدمة

شرح الزرقاني على الموطأ ٩/١ ، مقدمة موطأ محمد بن الحسن اللكنوي ص ٢٦ طبع الهند سنة ١٣٠٦ . (٦) أبو موسى يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن ميسرة المحدث المقرئ المصري (١٧٠ — ٢٦٤) . تهذيب

التهذيب ٤٤٠/١١ ، طبقات القراء ٤٠٦/٢ .

(٧) في «ترتيب المدارك» ٣٤/١ ظ (نسخة خاصة) ، وشرح الزرقاني على الموطأ ٦/١ — كلمة جامعة عن الذين رووا الموطأ عن مالك ، وفي مقدمة عبد الحي اللكنوي لموطأ محمد بن الحسن : ان احد علماء =

إدريس الشافعي^(١) ، ومنها موطأ عبدالله بن وهب ، ومنها موطأ عبدالله بن مسلمة القعنبي^(٢) ، ومنها موطأ مطرف بن عبدالله اليساري^(٣) نسبة إلى سليمان بن يسار ، ومنها موطأ عبد الرحمن بن القاسم^(٤) رواه عنه سُخْنُون بن سعيد ؛ ومنها موطأ يحيى بن يحيى الأندلسي^(٥) . رحل إلى مالك بن أنس من الأندلس وأخذ عنه الفقه والحديث ، وَرَجَعَ بعلم كثير وحديث جَمٍّ ؛ وكان فيما أخذَ عنه «الموطأ» ، وأدخله الأندلسَ والمغربَ ؛ فأَكَبَّ الناسُ عليه ، واقتَصَرُوا على روايته دونَ ما سواها^(٦) ، وعَوَّلُوا على نَسَقِهَا وترتيبها في شرحهم لكتاب «الموطأ» وتفسيرهم ، ويشيرون إلى الروايات الأخرى إذا عرضت في أمكنتها ، فهُجِرَت الروايات الأخرى ، وسائرُ تلك الطرق ، ودَرَسَت تلك الموطآت إلا موطأ يحيى بن يحيى ، فبروايته أخذ الناس في هذا الكتاب لهذا العهد شرقاً وغرباً .

وأما سندي في هذا الكتاب المتصل بيحيى بن يحيى فعلى ما أصفه :
حدثني به جماعة من شيوخنا رحمة الله عليهم . منهم إمام المالكية ، قاضي

= «دهلي» ، أورد في كتاب له بالفارسية سماه «بستان المحدثين» القول المستفيض عن الموطأ ، ومؤلفه ، ونسخه ؛ ويتبين من الخلاصة التي عرّبها عن الفارسية عبد الحي اللكنوي ان صاحب «البستان» كاد ان يستقصي الموضوع .

(١) قال أحمد بن حنبل : كنت سمعت الموطأ من بضعة عشر رجلاً من حفاظ اصحاب مالك ، فأعدته على الشافعي لأنه أقومهم . زرقاني ٧/١ .

(٢) أبو عبد الرحمن عبدالله بن مسلمة بن قعنب القعني الحارثي المدني المتوفى سنة ٢٢١ أو ٢٢٠ . سمع من الإمام مالك نصف الموطأ بقراءة الإمام ، وقرأ هو الصف الباقي على الإمام .

(٣) مطرف بن عبدالله بن مطرف بن سليمان اليساري الهلالي أبو مصعب المدني ابن اخت الإمام مالك (١٣٧ — ٢١٤) ، على خلاف في وفاته . تهذيب التهذيب ١٧٥/١٠ الانتقاء ص ٥٨ .

(٤) أبو عبدالله عبد الرحمن بن القاسم بن جنادة العتقي المصري المالكي (١٢٨ — ١٩١) ، أول من نقل الموطأ إلى مصر . وكان ابو الحسن القاسبي يقدم روايته للموطأ على غيره : ويقول في ذلك انه — مع ما يتصف به من الفهم والورع — قد اختص بمالك ، ولم يكثر من النقل عن غيره ، فخلص بذلك من ان تختلط عليه الفاظ الرواة ، او تبدل الأسانيد ، وانما نقل كتاباً مصنفًا ، فهو وافر الحظ من السلامة في النقل .

(٥) هو ابو محمد يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاسن المصمودي البربري الليثي بالولاء . (١٥٢ — ٢٣٤) وفيات ٢٨٥/٢ — ٢٨٧ .

(٦) كان بقي بن مخلد المحدث الأندلسي يقدم على رواية يحيى هذه ، رواية أبي المصعب الزهري ، ورواية يحيى بن بكير ، وعاتبه في ذلك عبيدالله بن يحيى ، وأخوه اسحق بن يحيى ، فاحتج لفعله بأن أبا المصعب قرشي فاستحق التقديم ، وبأن يحيى بن بكير أكبر من أبيهما في السن ، وأنه سمع الموطأ من مالك سبع عشرة مرة ، ويحيى أبوهما لم يسمعه إلا مرة واحدة .

الجماعة بتونس وشيخ الفُتَيَّا بها ، أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن يوسف الهوّاري ، سَمِعْتُهُ عليه بمنزله بتونس ، من أوله إلى آخره . ومنهم شيخ المُسْنِدَيْن بتونس ، الرَّحالة أبو عبد الله محمد بن جابر بن سلطان القيسي الوادي آشي ، سَمِعْتُ عليه بَعْضَهُ ، وأجازني بسائره . ومنهم شيخ المُحدِّثين بالأندلس ، وكبير القضاة بها ، أبو البركات محمد بن محمد بن محمد — ثلاثة من المُحدِّثين — ابن ابراهيم بن الحاجّ البَلْفَيقِي ، لقيته بفاس سنة ست وخمسين وسبعمائة من هذه المائة السابعة ، مَقْدَمُهُ من السَّقارة بين ملك الأندلس وملك المغرب . وحضرت مجلسه بجامع القرويين من فاس ؛ فَسَمِعْتُ عليه بعضاً من هذا الكتاب ، وأجازني بسائره . ثم لقيته لقاءً أخرى سنة إثنين وستين وسبعمائة ، استَقْدَمَهُ ملك المغرب ، السلطان أبو سالم ابن السلطان أبي الحسن للأخذ عنه ؛ وكنت أنا القاريء فيما يأخذه عنه ، فقرأت عليه صَدرًا من كتاب «الموطأ» ، وأجازني بسائره إجازةً أخرى .

ومنهم شيخ أهل المغرب لعصره في العلوم العقلية ، ومُفِيدُ جماعتهم ، أبو عبد الله محمد ابن ابراهيم الآبِي ، قرأتُ عليه بَعْضَهُ ، وأجازني بسائره ، قالوا كُلُّهُمْ : حدثنا الشيخ المُعَمَّر ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون الطائي^(١) ، عن القاضي أبي القاسم أحمد بن يزيد بن بَقِيٍّ^(٢) ، عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الحق الخزرجي^(٣) .

وحدثني به أيضاً شيخنا أبو البركات ، عن إمام المالكية بيجاية ، ناصر الدين أبي علي ، منصور بن أحمد بن عبد الحق المَشْدَالِي^(٤) ، عن الإمام شَرَف الدين

(١) أبو محمد عبد الله بن محمد بن هرون بن محمد بن عبد العزيز الطائي القرطبي ثم التونسي الإمام المسند . أخذ عنه الوادي آشي وغيره من مشايخ العلم والحديث (٦٠٣ — ٧٠٢) . ديباج ص ١٤٣ الدرر الكامنة ٣٠٣/٢ .

(٢) أبو القاسم أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن ... بن بقي بن مخلد (٥٣٣ — ٦٢٥) . «التكلمة لكتاب الصلة» ص ١٤١ طبع الجزائر سنة ١٣٣٧ هـ ، «تكميل الديباج» ص ٧٣ .

(٣) أبو عبد الله محمد بن عبد الحق بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الحق الخزرجي القرطبي . سمع من ابن الطلاع . ذكره ابن الأبار في «التكلمة» ٢١٤/١ طبع مدريد سنة ١٨٨٩ م ؛ وقال انه لم يقف على وفاته .

(٤) منصور بن محمد بن أحمد بن عبد الحق الزواوي المشدالي ناصر الدين . وهو لقب لزمه من المشرق ، حيث انه رحل اليه ، وأخذ عن علمائه ؛ ويقول العبدري في «رحلته» : انه لم تكن له عناية والرواية ؛ ومشدالة قبيلة من زواوة .

محمد بن أبي الفضل المُرسي ، عن أبي الحسن علي بن موسى بن النقرات ^(١) عن أبي الحسن علي بن أحمد الكِنَاني ^(٢) . قال الخزرجي والكناني : حدثنا أبو عبدالله محمد بن فرج ^(٣) مولى ابن الطَّلّاع ، عن القاضي أبي الوليد يونس بن عبدالله بن مُغيث بن الصَّفَّار قاضي الجماعة بقرطبة .

وحدثني به أيضا شيخنا أبو عبدالله بن جابر عن القاضي أبي العباس أحمد بن محمد ابن الغَمَّاز ، عن شيخه أبي الربيع سلّمان بن موسى بن سالم ^(٤) الكِلَاعي ، عن القاضي أبي القاسم عبد الرحمن بن حُبَيْش ، وأبي عبدالله محمد بن سعيد بن زَرْقُون ^(٥) ، شارح كتاب «الموطأ» ، قال ابن زَرْقُون : حدثنا به أبو عبدالله الخولاني ^(٦) ، عن أبي عمرو عثمان بن أحمد القَيْجَاطِي ^(٧) ، وقال ابن حُبَيْش : حدثنا به القاضي أبو عبدالله بن أَصْبَغ ^(٨) ويونس بن محمد بن مُغيث ، قالوا : قرأناه على أبي عبدالله محمد بن الطَّلّاع ^(٩) . وقال ابن حُبَيْش أيضا : حدثنا به أبو

(١) علي بن موسى بن علي (ويقال ابن القاسم) بن علي الأنصاري الجبائي يعرف بابن النقرات يكنى أبا الحسن ، ويعرف أيضا بابن أرفع رأسه (٥١٥ — ٥٩٣) ، ويقول ابن القاضي في جذوة الاقتباس انه كان حيا في سنة ٥٩٣ . طبقات القراء ٥٨١/١ ، الجذوة ص ٣٠٥ ، فوات الوفيات ٩٢/٢ ، تكملة الصلة ٦٧٤/٢ .

(٢) اعلي بن أحمد بن أبي بكر الكناني ، يعرف بابن حنين ، ويكنى أبا الحسن (٤٧٦ — ٥٦٩) سمع من ابن الطلاع موطأ مالك . جذوة الاقتباس ص ٣٠٤ .

(٣) هو الحافظ أبو عبدالله محمد بن فرج بن الطلاء بالهمزة ، وكان أبو مروان بن سراج يقول : كان فرج يطلي مع سيده اللحم في الربض الشرقي عند الباب الجديد من قرطبة ، قال : ومن قال الطلاع بالعين فقد اخطأ ، وكذلك قال أبو الوليد بن خيرة ، وقالوا أيضا : ان الطلاع بالعين هو والد مولاه محمد بن يحيى البكري المعروف بابن الطلاع . اما ابوبكر ابن برنجال الداني فيقول : هو بالعين لأن اياه كان يطلع النخل في قرطبة لاجتماعها فعرف بذلك . وقد رحل الناس الى ابن فرج من كل قطر لسماع الموطأ والمدنة ، وكان يحفظ الموطأ ، وله فيه سند عال . ديباج ص ٢٥٧ .

(٤) ابو الربيع سلّمان بن موسى بن سالم بن حسان بن سلّمان يعرف بابن سالم الكلاعي (٥٦٥ — ٦٣٤) .

(٥) محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد بن عبد العزيز زرقون (٥٠٢ — ٥٨٦) ، آخر من حدث بالإجازة عن الخولاني ، وكان عالي الرواية . ديباج ص ٢٨٥ .

(٦) ابو عبدالله احمد بن محمد بن عبد الرحمن بن غلبون الخولاني (٤١٨ — ٥٠٨) روى عن جماعة . منهم ابو عمرو عثمان بن احمد القيشطالي (القيجاطي) . صلة ٧٦/١ .

(٧) عثمان بن احمد بن محمد بن يوسف المعافري القرطبي يكنى ابا عمرو ، ويعرف بالقيشيطالي (القيشطالي) . القيشطالي ، توفي سنة ٤٣١ عن ٨٠ سنة . صلة ٣٩٧/١ .

(٨) محمد بن اصبغ بن محمد بن اصبغ الأزدي ابو عبدالله ، سمع من ابي عبدالله محمد بن فرج . توفي سنة ٥٣٦ ، وهو من ابناء الستين . صلة ٥٢٨/٢ .

(٩) محمد بن يحيى البكري المتوفي سنة ٤٩٧ . الاستقصا ١٢٩/١ .

القاسم أحمد بن محمد ورد^(١) ، عن القاضي أبي عبدالله محمد بن خلف ابن المُرابط^(٢) ، عن المقرئ أبي عُمَر أحمد بن محمد بن عبدالله المُعافري الطَّلْمَنَكِي^(٣) ؛ قال القاضي أبو الوليد بن مُغيث ، والقَيْجَاطِي ، والطَّلْمَنَكِي : حَدَّثَنَا أَبُو عَيْسَى يَحْيَى بن عبدالله بن يَحْيَى عن عم أبيه مروان عبيدالله بن يَحْيَى عن أبيه يَحْيَى بن يَحْيَى . وقال الطَّلْمَنَكِي : حَدَّثَنَا أَبُو جَعْفَر أحمد بن محمد بن حُدَيْر البَرَّاز ، قال حدثنا أبو محمد قاسم بن أَصْبَغ^(٤) ، قال حدثنا أبو عبدالله محمد ابن وضَّاح^(٥) ، قال حدثنا يَحْيَى بن يَحْيَى عن مالك ، إلا ثلاثة أبواب من آخر كتاب الاعتكاف ، أولها خروج المعتكف إلى العيد فإنَّ يَحْيَى شكَّ في سماعها عن مالك ، فسمعها من زياد بن عبد الرحمن الملقَّب شَبْطُون^(٦) عن مالك .

ولي في هذا الكتاب طرق أخرى لم يحضرنى الآن اتَّصالُ سَنَدِي فيها .
فنها عن شَيْخنا أبي محمد عبد المُهَيْمِن بن محمد الحَضْرَمِيَّ كاتب السلطان أبي الحسن ، لقيته بَتُونَس عند استيلاء السلطان عليها ، وهو في جملة سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، وحضرتُ مجلسه ، وأخذتُ عنه كثيراً ، وسمعتُ عليه بعض «الموطأ» ، وأجازني بالاجازة العامَّة ، وهو يرويه عن الأستاذ أبي جعفر بن الزُّبَيْر ، وعن شيخه الأستاذ أبي إسحق الغافقي ، وعن أبي القاسم القَبْتُوري ، وجماعة من مَشِيخَةِ أهل سَبْتَة ، ويتَّصل سَنَدُهُ فيه بالقاضي عِيَّاض ، وأبي العَبَّاس العَزَّ في صاحب كتاب (الدَّر المنظَّم في المولَد المعظَّم) .

-
- (١) أحمد بن محمد بن عمر بن يوسف بن ادريس بن عبدالله بن ورد التيمي أبو القاسم (٤٦٥ — ٥٤٠) ، سمع الموطأ من أبي علي الغساني . احاطة ٥٧/١ .
(٢) القاضي ابو عبدالله محمد بن خلف بن سعيد المعروف بابن المُرابط . اجازة ابو عمر الطلمنكي ، توفي بالمدينة بعد سنة ٤٨٠ . ديباج ٢٧٣ ، ٢٧٤ .
(٣) أحمد بن محمد بن أبي عبدالله بن أبي عيسى المعافري ابو عمر الطلمنكي ، المتوفي سنة ٤٢٩ ديباج ص ٣٩ .
(٤) قاسم بن اصْبَغ بن محمد بن يوسف بن ناصح أبو محمد البياي القرطبي (٢٤٤ — ٣٤٠) ، سمع من ابن وضَّاح . تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ٢٩٧/١ .
(٥) محمد بن وضَّاح بن بديع القرطبي ابو عبدالله (١٩٩ — ٢٨٦) ، على خلاف في مولده ، ووفاته ، سمع من يَحْيَى بن يَحْيَى . ديباج ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .
(٦) زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف بشبْطُون [بشين معجمة مفتوحة فباء موحدة ساكنة ، وبعدها طاء تليها واو ساكنة فنون] ، اول من أدخل هذَّهْب مالك الى الاندلس ، وكان اهلها قبله على مذهب الاوزاعي . توفي سنة ٢٠٤ على خلاف . نفح الطيب ٣٤٩/١ .

ومنها عن شيخنا أبي عبدالله الكوسي خطيب الجامع الأعظم بغرناطة ، سمعت عليه بعضه وأجازني بساثره وهو يرويه عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير عن القاضي أبي عبدالله بن بكّار ، وجماعة من مشيخة أهل الأندلس ، ويتصل سنده فيه بالقاضي أبي الوليد الباجي ^(١) ، والحافظ أبي عمّر بن عبد البر بسندهما .

ومنها عن شيخنا المكتّب أبي عبد الله محمد بن سعد بن بُرّال الأنصاري شيخ القراءة بتونس ، ومُعَلّمي كتاب الله ؛ قرأت عليه القرآن العظيم بالقِراءات السبع وعَرَضْتُ عليه قَصِيدتي الشَّاطِبي ^(٢) في القراءة ، وفي الرِّسم ، وعَرَضْتُ عليه كتاب التَّقْصِي لابن عبد البر ، وَغَيْرَ ذَلِكَ ، وأجازني بالإجازة العامة ، وفي هذه بالإجازة الخاصة ، وهو يروي هذا الكتاب عن القاضي أبي العباس أحمد بن مُحمد بن الغَمَّاز ، وعن شيخه أبي العباس أحمد بن موسى البَطْرَني بسندهما .

ومنها عن شيخنا الأستاذ أبي عبدالله محمد بن الصَّفَّار المَرَّاكُشي ، شيخ القراءات بالمغرب ، سَمِعْتُ عليه بعض هذا الكتاب بمجلس السلطان أبي عثمان مَلِك المغرب ، وهو يُسمعه إياه ، وأجازني بساثره ؛ وهو يرويه عن شيخه مُحَدِّث المغرب أبي عبدالله محمد بن رُشيد الفِهْرِي السَّبْتِي ^(٣) عن مشيخة أهل سَبْتَة ، وأهل الأندلس ، حَسَمًا ذلك مذكور في كُتُبِ رواياتهم وطُرقِ أسانيدهم ، إلا أنها لم تحضُرني الآن ، وفيما ذكرناه كفاية والله يوفقنا أجمعين لطاعته وهذا حين أبتدي ، وبالله أهتدي .

وانْقَضَ ذلك المَجْلِس ، وقد لَاحَظْتُني بالتَّجَلَّة والوَقَار العيُون ، واستشعرتُ أهليتي للمناصب القُلُوبُ ، وأُخْلَصَ النُّجَيَّ في ذلك الخاصَّة والجُمهُور ، وأنا أُنابُ مجلس السلطان في أكثر الأحيان ، لِتَأْدِيَةِ الْوَاجِبِ مِنَ التَّحِيَّةِ والمُشَافَهَةِ بالدُّعَاءِ ، الى أن سَخِطَ السلطانُ قاضي المَالِكِيَّةِ يومئذ في نَزْعَةٍ مِنَ النِّزَعَاتِ المُلُوكِيَّةِ ، فأبعَدَهُ ، وأخره عن خِطَّةِ الْقَضَاءِ في رَجَبِ سِتِّ وثمانين وسبعائة ، ودَعَانِي لِلوَلَايَةِ في مجلسه ، وبينَ أَمْرَائِهِ فَتَفَادَيْتُ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَبَى إِلَّا إِمضاءه ، وَخَلَعَ عَلَيَّ ، وَبَعَثَ الْأَمْرَاءَ

(١) سليمان بن خلف بن سعد بن ايوب ابو الوليد القاضي . رحل الى المشرق ، وعاد الى الاندلس بعلم كثير (٤٠٣ — ٤٩٤) . ديباج ص ١٢٠ .

(٢) اللامية المسماة بحرز الاماني ، والمشهورة بالشاطبية ، والرائية ، وتسمى «عقيلة اتراب القصائد» .

(٣) هو ابو عبدالله محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي (٦٥٧ — ٧٢١) .

معي إلى مقعد الحكم بمدرسة القضاء ؛ فقمّت في ذلك المقام الحمود ، ووفيت عهد الله وعهده في إقامة رسوم الحق ، وتحريّ المعدلة ، حتى سخطني من لم ترّضه أحكام الله ، ووقع في ذلك ما تقدّم ذكره ، وكثر شغب أهل الباطل والميراء ، فأعفاني السلطان منها لحول من يوم الولاية ، وكان تقدّمها وصول الخبر بفرق السفين الواصل من تونس إلى الأسكندرية ، وتلف الموجود والمولود ، وعظم الأسف ، وحسن الغزاء ، والله قادر على ما يشاء .

ثم خرجت عام تسعة وثمانين وسبعائة لقضاء الفرض ، وركبت بحر السويس من الطور إلى الينبع ، ورافقت المحمل إلى مكة ، فقضيت الحجّ عامئذ ، وعدت إلى مصر في البحر كما سافرت أولاً . وشغرت وظيفة الحديث بمدرسة صليغتمش ، فولّاني السلطان إياها بدلاً من مدرسته في محرم أحد وتسعين وسبعائة ، ومضيت على حالي من الانقباض ، والتدريس ، والتأليف ، حتى ولّاني خانقاه بيبرس ، ثم عزلني عنها بعد سنة أو أزيد ، بسبب أنا أذكره الآن .

* (ولاية خانقاه بيبرس ، والغزل منها) *

لما رجعت من قضاء الفرض سنة تسعين وسبعائة ، ومضيت على حالي من التدريس والتأليف ، وتعاهد السلطان باللقاء والتحية والدعاء ، وهو ينظر إليّ بعين الشفقة ، ويحسن المواعيد . وكانت بالقاهرة خانقاه شيدّها السلطان بيبرس ، ثامن ملوك الترك الذي استبدّ على الناصر محمد بن قلاوون^(١) هو ورفيقه سلا^(٢) وأنف الناصر من استبداديهما ، وخرج للصيد ، فلما حاذى الكرك امتنع به ، وتركهم وشأنهم ، فجلس بيبرس على التخت مكانه ، وكاتب الناصر أمراء الشام من ممالك أبيه ، واستدعوه للقيام معه ، وزحف بهم إلى مصر ، وعاد إلى سلطانه ، وقتل بيبرس

(١) هو الملك الناصر محمد بن الملك المنصور ابن قلاوون . تولى الملك ثلاث مرات كانت الأخيرة منها في سنة

٧٠٩ ، وبقي ملكاً حتى مات سنة ٧٤١ ، وعمره ٥٨ سنة . الخطط طبع مصر ٩٨/٤ — ١٠٢ .

(٢) الأمير سيف الدين سلا المنصوري ، كان من أسرى التار ، فخلص وصار مولى لعلاء الدين علي بن المنصور بن قلاوون ، واليه ينتسب ؛ ساءت علاقته بالناصر ، فاعتقله ، واستصفى أمواله وقتله . راجع المجلد الخامس من هذا الكتاب .

وسلار سنة ثمانٍ وسبعائة^(١) . وشيّد بيبرس هذا أيام سلطانه داخل باب النصر^(٢) من أعظم المصانع وأحفلها ، وأوفرها ريعاً ، وأكثرها أوقافاً ، وعين مشيختها ، ونظرها لمن يستعدّ له بشرطه في وقفه ، فكان رزقُ النَّظَرِ فيها والمشيخة واسعة لمن يتولّاه ، وكان ناظرها يومئذ شرف الدين الأشقر إمام السلطان الظاهر . فتوفي عند منصرفي من قضاء الفرض ، فولّاني السلطان مكانه توسعة عليّ ، وإحساناً إليّ ، وأقمت على ذلك إلى أن وقعت فتنة الناصري .

فتنة الناصري

* (وسياقه الخبر عنها بعد تقديم كلام في أحوال الدول يليق بهذا الموضع ، ويطلعك على أسرار في تنقل أحوال الدول بالتدرّج الى الضخامة والاستيلاء ، ثم الى الضعف والاضمحلال ، والله بالغ أمره) *

وذلك أن الدّول الكليّة ، وهي التي تتعاقب فيها الملوك واحداً بعد واحد ، في مدة طويلة ، قائمين على ذلك بعصبيّة النّسب أو الولاء ، وهذا كان الأصل في استيلائهم وتغلّبهم ، فلا يزالون كذلك إلى انقراضهم ، وغلب مستحقّين آخرين يترعونه من أيديهم بالعصبيّة التي يقتدرون بها على ذلك ، ويحوزون الأعمال التي كانت بأيدي الدولة الأولى ؛ يفضون جبايتها بينهم على تفاضل البأس والرجولة والكثرة في العصابة أو القلّة ؛ وهم على حالهم من الخشونة لمعانة البأس ، والإقلال من العيش لاستصحاب حال البدّاءة ، وعدم الثروة من قبل . ثم تنمو الثروة فيهم بنمو الجباية التي ملكوها ، ويُرزّن حُبُّ الشّهوات للإقتدار عليها ، فيعظمُ الترف في الملابس والمطاعم والمساكن والمراكب والممالك ، وسائر الأحوال ، ويتزايد شيئاً فشيئاً

(١) في المجلد الخامس من هذا الكتاب : ان ذلك كان في سنة ٧١ وهو الأشبه بالصواب ، لأن الناصر عاد الى الملك في سنة ٧٠٩ .

(٢) كذا بالأصل . ويظهر ان هنا كلمة سقطت أثناء النسخ . ومقتضى السياق : « وشيّد بيبرس هذا أيام سلطانه داخل باب النصر خائفاً ، وهي من أعظم المصانع وأحفلها ... الخ » .

بَتَزَايِدِ النِّعَمِ وَتَتَسَّعُ الْأَحْوَالُ أَوْسَعَ مَا تَكُونُ ، وَيَقْصُرُ الدَّخْلُ عَنِ الْخَرَجِ ، وَتَقْصُرُ الْجَبَايَةُ عَنِ أَرْزَاقِ الْجُنْدِ وَأَحْوَالِهِمْ ، وَيَحْصُلُ ذَلِكَ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ تَحْتِ أَيْدِيهِمْ ، لِأَنَّ النَّاسَ تَبَعَ لِلْمُلُوكِهِمْ وَدَوْلَتِهِمْ ، وَيُرَاجِعُ كُلُّ أَحَدٍ نَظْرَهُ فِيهَا هُوَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ ، فَيَرْجِعُ وَرَاءَهُ ، وَيَطْلُبُ كِفَاءَ خَرَجِهِ بِدَخْلِهِ .

ثُمَّ إِنَّ الْبَأْسَ يَقِلُّ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ بِمَا ذَهَبَ لَهُمْ مِنَ الْخَشُونَةِ ، وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ رَقَّةِ الْحَاشِيَةِ وَالتَّنَعُّمِ ؛ فَيَتَطَاوَلُ مِنْ بَقِيٍّ مِنْ رُؤَسَاءِ الدَّوْلَةِ إِلَى الْإِسْتِبْدَادِ بِهَا غَيْرَةً عَلَيْهَا مِنَ الْخَلَلِ الْوَاقِعِ بِهَا . وَيَسْتَعِدُّ لَذَلِكَ بِمَا بَقِيَ عِنْدَهُ مِنَ الْخَشُونَةِ ، وَيَحْمِلُهُمْ عَلَى الْإِقْلَاعِ عَنِ التَّرَفِّ ، وَيَسْتَأْنِفُ لَذَلِكَ الْعَصَابَةَ بِعَشِيرَةٍ أَوْ بَمَنْ يَدْعُوهُ لَذَلِكَ ؛ فَيَسْتَوْلِي عَلَى الدَّوْلَةِ ، وَيَأْخُذُ فِي دَوَائِمِهَا مِنَ الْخَلَلِ الْوَاقِعِ ؛ وَهُوَ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ ، وَأَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ ؛ فَيَصِيرُ الْمُلْكُ لَهُ ، وَفِي عَشِيرِهِ ؛ وَتَصِيرُ كَأَنَّهَا دَوْلَةٌ أُخْرَى ، تَمُرُّ عَلَيْهَا الْأَوْقَاتُ . وَيَقَعُ فِيهَا مَا وَقَعَ فِي الْأُولَى ؛ فَيَسْتَوْلِي آخَرُ مِنْهُمْ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ الدَّوْلَةُ بِأَسْرَافِهَا ، وَتَخْرُجَ عَنِ الْقَوْمِ الْأَوَّلِينَ أَجْمَعِ . وَتَأْتِي دَوْلَةٌ أُخْرَى مُبَايِنَةٌ لِعَصَابَةِ هَؤُلَاءِ فِي النَّسَبِ ، أَوِ الْوَلَاءِ . سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ .

وَكَانَ مَبْدَأُ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الزَّرْكِيَّةِ ، أَنَّ بَنِي أَيُّوبَ لَمَّا مَلَكَوا مِصْرَ وَالشَّامَ ، كَمَا قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ فِي أَخْبَارِهِمْ وَاسْتَقْلَّ بِهَا كَبِيرُهُمْ صِلَاحُ الدِّينِ ، وَشَغِلَ بِالْجِهَادِ وَانْتَرَعَ الْقِلَاعَ وَالْحُصُونِ مِنْ أَيْدِي الْفَرَنْجِ الَّذِينَ مَلَكَوْهَا بِالسَّوَاخِلِ ، وَكَانَ قَلِيلَ الْعَصَابَةِ ، إِنَّمَا كَانَ عَشِيرُهُ مِنَ الْكُرْدِ يُعْرِفُونَ بَيْنِي هَذَا^(١) ، وَهُمْ قَلِيلُونَ ، وَإِنَّمَا كَثُرَ مِنْهُمْ جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ ، بِهَيْمَةِ الْجِهَادِ الَّتِي كَانَ صِلَاحُ الدِّينِ يَدْعُو إِلَيْهِ ؛ فَعَظُمَتْ عَصَابَتُهُ بِالْمُسْلِمِينَ ، وَأُسْمِعَ دَاعِيَهُ ، وَنَصَرَ اللَّهُ الدِّينَ عَلَى يَدِهِ . وَانْتَرَعَ السَّوَاخِلَ كُلَّهَا مِنْ أَيْدِي نَصَارَى الْفَرَنْجِ ، حَتَّى مَسْجِدَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا مَلَكَوْهُ وَأَفْحَشُوا فِيهِ بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ ؛ فَادَّهَبَ اللَّهُ هَذِهِ الْوَضْعَةَ عَلَى يَدِ صِلَاحِ الدِّينِ ، وَانْقَسَمَ مُلْكُ بَنِي أَيُّوبَ بَعْدَهُ بَيْنَ وَلَدِهِ وَوَلَدِ أَخِيهِ . وَاسْتَفْحَلَ أَمْرُهُمْ ؛ وَاقْتَسَمُوا مَدُنَ الشَّامِ ، وَمِصْرَ بَيْنَهُمْ ، إِلَى أَنْ جَاءَ آخَرُهُمُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّينِ أَيُّوبُ بْنُ الْكَامِلِ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرٍ أَخِي صِلَاحِ الدِّينِ ، وَأَرَادَ الْإِسْتِكْثَارَ مِنَ الْعِصَابَةِ لِلْحِمَايَةِ لِلدَّوْلَةِ ، وَإِقَامَةَ رِسْمِ الْمُلْكِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَحْصُلُ بِاتِّخَاذِ الْمَالِيكَ ، وَالْإِكْثَارِ مِنْهُمْ ، كَمَا كَانَ

(١) يَفْتَحُ الْهَاءُ ، وَالذَّالُ الْمَعْجَمَةُ ، وَبَعْدَهَا أَلِفٌ ، ثُمَّ نُونٌ ؟ وَهِيَ قَبِيلَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ قِبَائِلِ الْأَكْرَادِ وَفِيَاتِ

آخرًا في الدولة العباسية ببغداد ؛ وأخذ التجار في جلبهم إليه ، فاشترى منهم أعداداً ، وأقام لتربيتهم أساتيد^(١) معلمين لحرفة الجندية ، من الثقافة والرمي ، بعد تعليم الآداب الدينية والخلقية إلى أن اجتمع له منهم عددٌ جُمَّ يناهز الألف ؛ وكان مقيماً بأحواز دِمياط^(٢) في حماية البلاد من طوارق الفرنج المتغلّين على حصنها دِمياط . وكان أبوه قد اتخذ لتزله هنالك قلعةً سمّاها المنصورة^(٣) ، وبها توفي رحمه الله ، فكان نجم الدين نازلاً في مُدافعة ساكني دِمياط من الفرنج ، فأصابه هنالك حدث الموت ، وكان ابنه المعظم تُورنشا نائباً في حصن كيفا^(٤) من ديار بكر وراء الفُرات ، فاجتمع الجندُ على بيعته ، وبعثوا عنه ، وانتظروا . وتَقَطَّن الفرنج لشأنهم ، فهاجموا عليهم ، واقتتلوا فنصر الله المسلمين ، وأسر ملك الفرنج ريد إفرنس ؛ فبعثوا به إلى مصر . وحُبِس بدارلُفمان ، إلى أن فادّوه بِدِمياط ، كما هو مذكور في أخبار بني أيوب . ونصبوا — للمُلك ، ولهذا اللقاء — زوجة الصالح أيوب واسمها شَجَرُ الدر^(٥) ، فكانت تحكم بين الجند ، وتكتبُ على المراسيم^(٦) ، وركبت يوم لقاء الفرنج ، تحت الصّناجق^(٧) ، والجندُ مُحذقون بها ، حتى أعزَّ الله دينه ، وأتمَّ نصره . ثم وصل تورنشا المعظم ؛ فأقاموه في خُطّة المُلك مكان أبيه الصالح

(١) اساتيد وأساتذة ج استاذ : معلم .

(٢) وقد ضبطها ابن خلدون بخطه بالحركات ، بكسر الذال المعجمة ؛ وقد حكى الاعجام الزبيدي في «تاج العروس» ، والسمعاني في «الانساب» عن أبي محمد بن أبي حبيب الاندلسي قال السمعاني معقبا : «وما عرفناه الا بالبدال المهملة» . (معجم البلدان) ، تاج العروس (دمط ، ذمط) .

(٣) بلدة أنشأها الملك الكامل بن العادل بن أيوب بين دِمياط والقاهرة ، ورابط فيها في وجه الافرنج لما ملكوا دِمياط وذلك في سنة ٦١٦ ، ولم يزل بها حتى استنفذ دِمياط في رجب سنة ٦١٨ . (معجم البلدان) .

(٤) حصن كيفا : قلعة عظيمة مشرفة على دجلة ، بين آمد وحيزة ابن عمر من ديار بكر . (معجم البلدان) .

(٥) بعضهم يكتبها : «شجرة الدر» ، وكان يخطب باسمها على المنابر ، ونقشت على «السكة» ، وكان نقشها : «السكة المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، والدة المنصور خليل» ، وخليل هذا ابنها من الملك الصالح توفي في حياة أبيه ، وكانت تكنى به . العبر ٥ ، الخطط ٢٣٧/٢ بولاق .

(٦) يعني اتخذت لها «علامة» تحتم بها على المراسيم ، وكانت علامتها — فيما يرى ابن خلدون : «أم خليل» ، أما ابن الوردي فيقول : «والدة خليل» . العبر ٥ ، ابن الوردي ١٨٣/٢ .

(٧) جمع سنجق وهو الأصل الرمح ، وكانت تجعل في رأسه الراية ، ومن ثم أصبح معناه : الراية مباشرة . صح الاعشى ٤٥٨/٥ .

أيوب ، ووَصَلَ معه مَمَالِيكُ يُدِلُّونَ بِمَكَانِهِمْ مِنْهُ ، وَلَهُمْ بِهِ اخْتِصَاصٌ ، وَمِنْهُ مَكَانٌ ؛ وَكَانَ رُؤَسَاءُ التُّرْكَ يَوْمئِذٍ الْقَائِمُونَ بِالدَّوْلَةِ مِنْ عَهْدِ أَبِيهِ وَجَدَهُ . أَقْطَايَ الْجَمْدَارُ (١) وَأَيْبَكُ التُّرْكَمَانِي ، وَقَلَاوُنُ الصَّالِحِي ، فَأَنْفَعُوا مِنْ تَصَرُّفَاتِ مَمَالِيكِ تُوْرُنْشَاه ، وَاسْتَعْلَاهُمْ بِالْحِظِّ مِنَ السُّلْطَانِ ، وَسَخَطُوهُمْ وَسَخَطُوهُ ، وَأَجْمَعُوا قَتْلَهُ . فَلَمَّا رَحَلَ إِلَى الْقَاهِرَةِ اغْتَالَوْهُ فِي طَرِيقِهِ بِفَارِسْكُو ، وَقَتَلُوهُ ، وَنَصَبُوا لِلْأَمْرِ أَيْبَكُ التُّرْكَمَانِي مِنْهُمْ ، وَاسْتَحْدَثُوا هَذِهِ الدَّوْلَةَ التُّرْكِيَّةَ كَمَا شَرَحْنَاهُ فِي أَخْبَارِهَا ؛ وَهَلَكَ بَعْدَ أَيْبَكُ ابْنُهُ عَلِيُّ الْمَنْصُورِ ، ثُمَّ مَوْلَاهُ قُطْزُ ، ثُمَّ الظَّاهِرُ بَيْبَرْسُ الْبُنْدُقْدَارِي (٢) . ثُمَّ ظَهَرَ أَمْرُ الطَّطَرِ (٣) ، وَاسْتَفْحَلَ مَلِكُهُمْ . وَزَحَفَ هُوَلَاكُو بْنُ طُولِي بْنِ جَنْكِزْخَانَ مِنْ خُرَاسَانَ إِلَى بَغْدَادَ ؛ فَلَمَّا هَلَكَ ، وَقَتَلَ الْخَلِيفَةُ الْمُسْتَعَصِمُ أَخْرَجَ بَنِي الْعَبَّاسِ . ثُمَّ زَحَفَ إِلَى الشَّامِ ؛ فَلَمَّا مَدَّنَهُ وَحَاضَرَهُ مِنْ أَيْدِي بَنِي أَيُّوبَ ، إِلَى أَنْ اسْتَوْعَبَهَا . وَجَاءَ الْخَبَرُ بِأَنْ بَرَكَةَ صَاحِبَ صَرَائِي شَرِيكَهُ فِي نَسَبِ جَنْكِزْخَانَ ، زَحَفَ إِلَى خُرَاسَانَ ؛ فَامْتَعَصَ لَذَلِكَ ، وَكَّرَّ رَاجِعاً ، وَشُغِلَ بِالْفِتْنَةِ مَعَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ . وَخَرَجَ قُطْزُ مِنْ مِصْرَ عِنْدَمَا شُغِلَ هُوَلَاكُو بِفِتْنَةِ بَرَكَةَ ؛ فَلَمَّا الشَّامُ كُلَّهُ ، أَمْصَارَهُ وَمُدَنَهُ ، وَأَصَارَهُ لِلتُّرْكَ مَوَالِي بَنِي أَيُّوبَ . وَاسْتَفْحَلَتْ دَوْلَةُ هُوَلَاءِ الْمَمَالِيكِ ، وَاتَّصَلَتْ أَيَّامُهَا وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ ، كَمَا ذَكَرْنَا فِي أَخْبَارِهِمْ . ثُمَّ جَاءَ قَلَاوُنُ عِنْدَمَا مَلَكَ بَيْبَرْسُ الظَّاهِرُ مِنْهُمْ ؛ فَتَظَاهَرَ بِهِ ، وَأَضْهَرَ إِلَيْهِ ، وَالتَّرَفُ يَوْمئِذٍ لَمْ يَأْخُذْ مِنْهُمْ ، وَالشَّدَّةُ وَالشُّكِيمَةُ مَوْجُودَةٌ فِيهِمْ ، وَالْبَأْسُ وَالرَّجُولَةُ شَعَارُهُمْ ؛ وَهَلَكَ الظَّاهِرُ بَيْبَرْسُ ، وَإِبْنَاهُ مِنْ بَعْدِهِ ، كَمَا فِي أَخْبَارِهِمْ . وَقَامَ قَلَاوُونُ بِالْأَمْرِ ، فَاتَّسَعَ نِطاقُ مُلْكِهِ ، وَطَالَ ذِرْعُ سُلْطَانِهِ ، وَقُصُرَتْ أَيْدِي الطَّطَرِ عَنِ الشَّامِ بِمَهْلِكِ هُوَلَاكُو ، وَوَلَايَةِ الْأَصَاغِرِ مِنْ وَلَدِهِ ؛ فَعَظُمَ مُلْكُ قَلَاوُنَ ، وَحَسُنَتْ آثَارُ سِيَاسَتِهِ ، وَأَصْبَحَ حُجَّةً عَلَى مَنْ بَعْدَهُ ؛ ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ إِبْنَاهُ : خَلِيلُ الْأَشْرَفِ ، ثُمَّ مُحَمَّدُ النَّاصِرِ . وَطَالَتْ أَيَّامُهُ ، وَكَثُرَتْ عَصَابَتُهُ مِنْ مَمَالِيكِهِ ،

(١) أَخْبَارُ أَقْطَايَ مُفَصَّلَةٌ فِي الْعَبْرِ ٥ م . وَالْجَمْدَارُ : هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى الْبَاسَ السُّلْطَانُ ، أَوِ الْأَمِيرُ نِيَابَهُ ؛ وَأَصْلُهُ جَامَا دَارُ فَحَذَفَ الْمَدَّ مِنْهُ فَقِيلَ : جَمْدَارُ ، وَهُوَ مُرَكَّبٌ مِنْ كَلِمَتَيْنِ فَارْسِيَّتَيْنِ : «جَامَا» . وَمَعْنَاهَا ثَوْبٌ ، وَ«دَارُ» ، وَمَعْنَاهَا : مَسْكٌ . صَبِيحُ الْإِعْشَى ٥٩٩/٥ .

(٢) أَنْظَرَ تَرْجُمَتَهُ فِي الْخَطِّ ٣٠٠/٢ ، ٢٣٨ بُولَاق . وَخَيْرُ تَوَلِيهِ السُّلْطَنَةَ فِي الْعَبْرِ ٥ . وَالْبُنْدُقْدَارِي : هُوَ الَّذِي يَحْمِلُ غَرَارَةَ الْبُنْدُقِ خَلْفَ السُّلْطَانِ . وَالْبُنْدُقُ : الَّذِي يَرْمِي بِهِ وَأَصْلُهُ الْبُنْدُقُ الَّذِي يُؤَكِّلُ ، وَهُوَ فِي الْعَرَبِيَّةِ الْجُلُوزُ ؛ صَبِيحُ الْإِعْشَى ٥٥٧/٥ .

(٣) كَذَا بِالْأَصْلِ ، وَهِيَ : التَّرَفُ .

حتى كَمُلَ منهم عَدَدٌ لم يَقَعْ لغيره . وَرَتَّبَ لِلدَّوْلَةِ المَرَاتِبَ ، وَقَدَّمَ مِنْهُمْ فِي كُلِّ رُتْبَةٍ الْأُمَرَاءَ ، وَأَوْسَعَ لَهُمُ الْأَقْطَاعَ وَالْوِلَايَاتَ ، حَتَّى تَوَفَّرَتْ أَرْزَاقُهُمْ وَاتَّسَعَتْ بِالتَّوَرَّفِ أَحْوَالُهُمْ . وَرَحَلَ أَرَبَابُ البُضَائِعِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالتُّجَّارِ إِلَى مِصْرَ ؛ فَأَوْسَعَهُمْ حِجَاباً وَبَرّاً . وَتَنَافَسَتْ أُمَرَاءُ دَوْلَتِهِ فِي اتِّخَاذِ الْمَدَارِسِ وَالرُّبُطِ وَالْخَوَانِقِ ، وَأَصْبَحَتْ دَوْلَتُهُمْ غُرَّةً فِي الزَّمَانِ ، وَوَاسِطَةً فِي الدَّوَلِ . ثُمَّ هَلَكَ النَّاصِرُ بَعْدَ أَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، فَطَفِقَ أُمَرَاءُ دَوْلَتِهِ يَنْصُبُونَ بَنِيهِ لِلْمَلِكِ ، وَاحِداً بَعْدَ آخَرٍ ، مُسْتَبَدِّينَ عَلَيْهِمْ ، مُتَنَافِسِينَ فِي الْمَلِكِ ، حَتَّى يَغْلِبَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ الْآخَرَ ، فَيَقْتُلُهُ ، وَيَقْتُلَ سُلْطَانُهُ مِنْ أَوْلَادِ النَّاصِرِ ، وَيَنْصِبَ آخَرَ مِنْهُمْ مَكَانَهُ ، إِلَى أَنْ انْسَاقَ الْأُمَرَاءُ لَوْلَدِهِ حَسَنَ النَّصْرِ ؛ فَقَتَلَ مُسْتَبَدَّهُ شَيْخُونَ ، وَمَلِكُ أَمْرِهِ . وَأَلْقَى زِمَامَ الدَّوْلَةِ بِيَدِ مَمْلُوكِهِ يَلْبُغَا ؛ فَقَامَ بِهَا ، وَنَافَسَهُ أَقْرَانُهُ ، وَأَغْرَوَا بِهِ سُلْطَانَهُ ؛ فَاجْتَمَعَ قَتْلُهُ . وَنُمِيَ إِلَيْهِ الْخَبَرُ وَهُوَ فِي عُلُوفَةِ الْبَرْسِيمِ عِنْدَ خَيْلِهِ الْمُتَرَبِّطَةِ لَذَلِكَ ؛ فَاعْتَرَمَ عَلَى الْاِمْتِنَاعِ ، وَاسْتَعَدَّ لِلْقَاءِ . وَاسْتَدْعَاهُ سُلْطَانُهُ ؛ فَتَنَاقَلَ عَنْ الْقُدُومِ . وَاسْتَشَاطَ السُّلْطَانُ ، وَرَكِبَ فِي خَاصَّتِهِ إِلَيْهِ ، فَرَكِبَ هُوَ لِمَصَادِمَتِهِ . وَهَاجَمَ السُّلْطَانُ فَهْلَهُ ، وَرَجَعَ إِلَى الْقَلْعَةِ ، وَهُوَ فِي اتِّبَاعِهِ ، فَلَمْ يُلْفِهِ بِقُصْرِهِ ، وَأَغْرَى بِهِ الْبَحْثَ فَتَقَبَّضَ عَلَيْهِ ، وَاسْتَصَفَاهُ ، وَقَتْلَهُ ؛ وَنَصَبَ لِلْمَلِكِ مُحَمَّدَ الْمَنْصُورَ بْنَ الْمُظْفَرَ حَاجِيَّ بْنَ النَّاصِرِ . وَقَامَ بِالدَّوْلَةِ أَحْسَنَ قِيَامٍ ، وَأَغْرَى نَفْسَهُ بِالِاسْتِكْثَارِ مِنَ الْمَالِيكِ ، وَتَهْذِيبِهِمُ بِالتَّرْبِيَةِ ، وَتَوْفِيرِ النِّعَمِ عِنْدَهُمُ بِالْإِقْطَاعِ ، وَالْوِلَايَاتِ ، حَتَّى كَمُلَ مِنْهُمْ عَدَدٌ لَمْ تَعْهَدِهِ الدَّوْلَةُ . ثُمَّ خَلَعَ الْمَنْصُورُ بْنُ الْمُظْفَرَ لِسِتَيْنِ ، وَنَصَبَ مَكَانَهُ لِلْمَلِكِ شُعْبَانَ الْأَشْرَفَ بْنَ حُسَيْنَ بْنَ النَّاصِرِ ؛ فَأَقَامَ عَلَى التَّخْتِ وَهُوَ فِي كِفَالَتِهِ ؛ وَهُوَ عَلَى أَوَّلِهِ فِي إِعْزَازِ الدَّوْلَةِ ، وَإِظْهَارِ التَّرَفِ وَالثَّرْوَةِ . حَتَّى ظَهَرَتْ مَخَايِلُ الْعِزِّ وَالنِّعَمِ ، فِي الْمَسَاكِنِ وَالْحِيَادِ وَالْمَالِيكِ وَالزَّيْنَةِ ؛ ثُمَّ بَطَرُوا النِّعْمَةَ ؛ وَكَفَرُوا بِالْحَقُوقِ ، فَحَنَقُوا عَلَيْهِ لِأَنَّهُ كَانَ يَتَجَاوَزُ الْحُدُودَ بِهِمْ فِي الْأَدَابِ ؛ فَهَمُّوا بِقَتْلِهِ وَخَلَصُوا نَجِيًّا لَذَلِكَ فِي مُتَصَيِّدِهِمُ الشُّتَوِيِّ ، وَقَدْ بَرَزُوا لَهُ بِخِيَامِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ عَلَى عَادَتِهِمْ . وَلَمَّا أَحْسَسَ بِذَلِكَ رَكِبَ نَاجِياً نَفْسَهُ إِلَى الْقَاهِرَةِ ؛ فَدَخَلُوا عَلَى السُّلْطَانِ الْأَشْرَفِ . وَجَاءُوا بِهِ عَلَى إِثْرِهِ ، وَأَجَازُوا الْبَحْرَ ؛ فَقَبِضُوا عَلَيْهِ عَشِيِّ يَوْمِهِمْ . ثُمَّ قَتَلُوهُ فِي مَحْبِسِهِ عِشَاءً . وَانْطَلَقَتْ أَيْدِيهِمْ عَلَى أَهْلِ الْبَلَدِ بِمَعَرَّاتٍ لَمْ يَعْهَدُوهَا مِنْ أَوَّلِ دَوْلَتِهِمْ ، مِنْ النَّهْبِ وَالتَّخْطُّفِ وَطُرُوقِ الْمَنَازِلِ وَالْحَمَّامَاتِ لِلْعَبَثِ بِالْحَرَمِ . وَإِطْلَاقِ أَعْنَةِ الشَّهَوَاتِ وَالبَغْيِ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ؛ فَمَرَجَ أَمْرُ النَّاسِ ، وَرَفَعَ الْأَمْرُ إِلَى السُّلْطَانِ .

وكثر الدعاء واللجأ إلى الله . واجتمع أكابر الأمر إلى السلطان ، وفاوضوه في كف عاديّتهم ؛ فأمرهم بالركوب ، ونادى في جُنْدِه ورعيته بانطلاق الأيدي عليهم ، والاحتياط بهم في قبضة القهر ؛ فلم يكن إلا كَلَمَحَ البَصَر ، وإذا بهم في قبضة الأسر . ثم عُمِرَت بهم السُجُون ، وصُفِّدُوا وطُيِفَ بهم على الجِمال ينادى بهم ، إبلاغاً في الشهرة ؛ ثم وُسِّطَ ^(١) أكثرهم ، وتَّبَعَ البقية بالنفي والحبس بالشغور القصية ، ثم أطلقوا بعد ذلك . وكان فيمن أطلق جماعة منهم بحبس الكرك : فيهم برقوق الذي ملك أمرهم بعد ذلك ، وبركة الجوباني ^(٢) ، والطنبغا الجوباني ^(٣) وجهركس الخليلي .

وكان طشتمر ^(٤) ، دَوَادِر يُلْبِغَا ^(٥) ، قد لطفَ محلّه عند السلطان الأشرف ، وولي الدَّوَادِرِية له ، وكان يؤمِّل الاستبداد كما كان أستاذه يُلْبِغَا ، فكان يحتال في ذلك يجمع هؤلاء الممالك اليلبغاوية من حيث سقطوا ، يُريد بذلك اجتماعهم عُصبة له على هواه ، ويُغري السلطان بها شِفَاهاً ورسالة ، إلى أن اجتمع أكثرهم بباب السلطان الأشرف ، وجعلهم في خدمة ابنه عليّ وليّ عهده . فلما كثروا ، وأخذتهم أُرْجِيئة العز بعصبيّتهم ، صاروا يَسْتَطُون على السلطان في المطالب ، ويعتزون بعصبيّة اليلبغاوية . واعتزم السلطان الأشرف عام سبعة وسبعين وسبعائة على قضاء الفرض ، فخرج لذلك خروجاً فحماً ، واستناب ابنه عليّاً على قلّعته ومُلِكه في كفالة قُرطاي ^(٦) من أكابر اليلبغاوية ، وأخرج معه الخليفة والقضاة ، فلما بلغ العقبة ^(٧) اشتطّ المالك في

(١) وسطه توسيطاً : قطعه نصفين ، ويقال قتل فلان موسطاً .

(٢) هوبركة بن عبدالله الجوباني اليلبغاوي الأمير زين الدين . كان أميراً شجاعاً يحب العلماء ؛ له مآثر خيرية بمكة ، والحرم ، وبطريق المدينة . قتل سنة ٨٧٢ .

(٣) علاء الدين الطنبغا بن عبدالله الجوباني اليلبغاوي الأمير ؛ كان من خيار الأمراء ديناً ، وعقلاً وشجاعة . مات في الواقعة بين منطاش والناصرى خارج دمشق سنة ٧٩٢ هـ ، وكان صديقاً لابن خلدون ، وقد عرف به وأثنى عليه في العبرم ٥ .

(٤) طشتمر بن عبدالله العلاني الدوادار الأمير سيف الدين ، توفي في دمياط منفياً سنة ٧٨٦ . أثنى عليه ابن تغري بردي كثيراً بمقدار ما قدح في بركة ، والظاهر برقوق .

(٥) لقب للذي يمسك دواة السلطان أو الأمير ، ويتولى من الأمور ما يلزم هذا المعنى ، من حكم ، أو تنفيذ أمور ، أو غير ذلك . صبح الأعشى ٤٦٢/٥ .

(٦) قرطاي (أو قراطاي) بن عبدالله المعزي الأشرفي سيف الدين ، رفيق أئنيك ، وصهره ، وكان من أصاغر الأمراء في دولة الأشرف شعبان بن حسين ، ولكنه أصبح في أيام ولده عليّ أمير مئة ، ثم مقدم ألف .

وأختلف مع صديقه أئنيك ، فحبسه إلى أن مات سنة ٧٧٩ .

(٧) موقعها في النهاية الشرقية الشمالية لبخليج العقبة .

طلب جرايتهم من العُلوفة والزَّاد ، واشتَطَّ الذين بمصر كذلك في طلب أرزاقهم من المتولِّين للجباية . وصار الذين مع السلطان إلى المكاشفة في ذلك بالأقوال والأفعال ، وطشتم الدَّوادار يُغْضِي عَنْهُمْ يَحْسَبُ وَقْتَ استبداده قد أَزَفَ ، إلى أن راغمهم السُّلطان بالزَّجر ؛ فركبوا عليه هنالك ، وركب من خيامه مع لفيف من خاصَّته ، فنَضَحوه بالنَّبل ، وَرَجَعَ إلى خيامه ، ثم ركب الهُجُن مساءً ، وسار فصَبَّح القاهرة ، وعَرَّس هو ولفيفه بَقْبَةَ النُّصْر .

وكان قُرطاي كافلُ ابنه عليَّ المنصور ، حَدَثَ بَيْنَهُ وبين ناظر الخاص المَقْسي مكاملة عند مَغِيب السُّلطان أَحَقَدَتْهُ . وجاشت بها كان في نفسه ؛ فأغرى عليَّ المنصور بن السلطان بالتَّوْبِ على المُلك ، فارتاح لذلك وأجابه ، وأصبح يوم ثورة المماليك بالعقبة ؛ وقد أجلسَ عليَّ مكفوله بباب الإسطبل ، وعَقَدَ له الراية بالنداء على جلوسه بالتخت ؛ وبينما هم في ذلك ، صَبَّحهم الخبر بوصول السلطان الأشرف إلى قبة النصر لِيَلْتَنِدَ ، فطاروا إليه زُرَافَاتٍ ووُحْدَانًا ؛ فوجدوا أصحابه نياماً هنالك ، وقد تسَلَّلَ من بينهم هو ويُلْبِغُ الناصري^(١) من أكابر اليَلْبِغَاوِيَّة ؛ فقطوا رؤوسهم جميعاً ، ورجعوا بها تَسِيلَ دَمًا . وَوَجَمُوا لَفَقْدَانِ الأشرف ، وتابعوا النِّداء عليه ، وإذا بامرأة قد دَلَّتْهم عليه في مكانٍ عَرَفْتَهُ ؛ فتسابقوا إليه ، وجاءوا به فقتلوه لوقته بخلع أكتافه ، وانعقدت بيعة ابنه المنصور . وجاء طشتم الدَّوادار من الغَدِ بمن بقي بالعقبة من الحُرَم ، ومُخَلَّفِ السلطان ، واعترم على قتالهم طمعاً في الاستبداد الذي في نفسه ؛ فدافعوه وغلبوه وحصل في قبضتهم ، فخلعوا عليه بناية الشام ، وصرفوه لذلك ، وأقاموا في سلطانهم . وكان أَيْنَبُكُ أميراً آخر من اليَلْبِغَاوِيَّة^(٢) قد ساهم قُرطاي في هذا الحادث ، وأصهر إليه في بعض حُرَمه ؛ فاستنام له قُرطاي ، وطمِع هو في الاستيلاء . وكان قُرطاي مواصلاً صَبُوحَه بَغْبُوقِهِ ، ويستغرق في ذلك ؛ فركب في بعض أيامه ؛ وأركب معه السلطان عليا ، واحتاز الأمر من يد قُرطاي ،

(١) يلبغا بن عبدالله الناصري الاتابكي الأمير سيف الدين . وهو صاحب الوقعة مع الملك الظاهر بظاهر دمشق . الدرر الكامنة ٤/٤٤٠ — ٤٤٢ .

(٢) أَيْنَبُكُ بن عبدالله البدري الأمير سيف الدين . كان هو وقُرطاي صاحبي الحل والعقد في الدولة . استبد بالمنصور بن الأشرف . ثم تغلب عليه يلبغا الناصري وأودعه سجن الاسكندرية .

وصيرَه إلى صَفَد^(١) ، واستَقَلَّ بالدولة ، ثم انتقض طشتمر بالشام مع سائر أمرائه ؛ فخرج أَيْنَبَك في العساكر ، وسَرَّحَ المَقْدَمَةَ مع جماعة من الأمراء ؛ وكان منهم بَرْقُوق وبركة المستوليان عَقِبَ ذلك ؛ وخرج هُوَ والسُلطان في السَّاقَةِ^(٢) ؛ فلما انتهوا إلى بُلَيْس ، ثار الأمراء الذين في المقدمة عليه ، ورجع إليه أخوه مُنْهَزمًا ؛ فرجع إلى القلعة . ثم اختلف عليه الأمراء ، وطالبوه بالحرب في قُبَّةِ النَّصْر ؛ فسَرَّحَ العساكر لذلك ؛ فلَمَّا فَصَلُوا فَرَّ هُوَ هاربًا ، وقبض عليه وثُقِفَ بالإسكندرية . واجتمع أمراء اليلبغاوية يقدمهم قطلقتمر العلاني ، وَيُلْبغا النَّاصري وَدُمُرْدَاش اليوسفي وبركة وبرقوق ؛ فتصدى دُمُرْدَاش وَيُلْبغا وبركة وبرقوق ، إلى الاستقلال بالأمر وتغلبوا على سائر الأمراء ؛ واعتقلوهم بالإسكندرية . وقَوَّضُوا الأمر إلى يُلْبغا النَّاصري ، وهم يرونه غير خبير ، فأشاروا باستدعاء طشتمر ، وبعثوا إليه ، وانتظروا . فلما جاءه الخبر بذلك ظَنُّهَا مُنِيَّةَ نفسه ، وسارَ إلى مصر ؛ فدفعوا الأمر إليه ، وجَعَلُوا له التولية والعزل وأخذ بَرْقُوق ، وبركة يستكثران من المالِك ، بالاستخدام والجاه ، وتوفير الاقطاع ، إكثافاً لعصبيتهما ؛ فانصرفت الوجوه عن سواهما ، وارتاب طشتمر بنفسه ، وأغراه أصحابه بالتوثب ؛ ولما كان الأضحى في سنة تسع وسبعين وسبعائة استعجل أصحابه على غير رَوِيَّة ، وركبوا وبعثوا إليه فأحجم ، وقاتلوا فانهزموا . وتقبَّضَ على طشتمر ، وحُبِسَ بالإسكندرية ، وبعث معه يُلْبغا النَّاصري ، وخَلَّتِ الدَّوْلَةُ لِلْأُمِيرين بَرْقُوق وبركة من المنازعين ، وعمروا المراتب بأصحابهما . ثم كثر شَغْبُ التُّرْكَمَانَ والعَرَبِ بنواحي الشام ، فدفعوا يُلْبغا النَّاصري إلى النِّيَابَةِ بحلب ليستكفوا به في تلك الناحية . ثم تنافس بَرْقُوق وبركة في الاستقلال ، وأضمر كُلُّ واحدٍ منهما لصاحبه ، وخشيَ منه ؛ فقبَضَ بَرْقُوقُ على بطانة بركة من عصابته لِيُخْصَّ بذلك جَنَاحَهُ ؛ فارتاع لذلك بركة ، وخرج بعصابته إلى قُبَّةِ النَّصْرِ لِيُواضع بَرْقُوقاً وأصحابه الحرب هنالك ، وَرَجَا أن تكون الدائرة له . وأقام بَرْقُوق بمكانه من الاسطبل ، وسَرَّبَ أصحابه في جموعهم إلى مُجَاوَلَةِ أولئك . وأقاموا كذلك أياماً يُغَادُونهم ويرأوهُونهم ثلاثاً ، إلى أن عَضَّتْ بركة وأصحابه الحرب ؛ فانفضُّوا عنه ، وجيء ببركة ، وبعث به إلى

(١) صفد : مدينة في شمالي فلسطين ، واقعة في الشمال الغربي لبحيرة طبرية ، قريبة من حدود سوريا في الجنوب الغربي ، ومن حدود لبنان في الجنوب .

(٢) ساقه الجيش : مؤخره .

الإسكندرية ؛ فحبس هنالك إلى أن قتله ابن عَرَّام نائب الإسكندرية . وارتفع أصحابه إلى برقوق شاكين ؛ فنأزهم منه بإطلاق أيديهم في النَّصْفَة ؛ فانصرفوا منه بقتله في ساحة القلعة ١١ بعد أن سُمِّرَ ، وحُمِلَ على جَمَلٍ عقاباً له ؛ ولم يُقنعهم ذلك ، فأطلق أيديهم فيما شاءوا منه ، ففعلوا ما فعلوا . وانفرد برقوق — بعد ذلك — بحمل الدولة ينظر في أعطافها^(١) بالتهديد ، والتسديد ، والمُقاربة^(٢) ، والحرص على مكافأة الدُّخْل بالخرَج . ونَقَصَ ما أفاض فيه بنو قلاؤن من الإيعان في الترف ، والسرف في العوائد والنفقات ، حتى صار الكيلُ في الخرج بالكيال الرَّاجح ، وعجزت الدولة عن تمشية أحوالها ؛ وراقبَ ذلك كله برقوق ، ونظر في سدِّ خلل الدولة منه ، وإصلاحها من مفاسدها ، يَعْتَدُ ذلك ذريعةً للجلوس على التَّخت ، وحياسة إسم السلطان من أولاد قلاؤن ، بما أفسد الترفُ منهم ، وأحال الدولة بسببهم ، إلى أن حصل من ذلك على البغية ، ورَضِيَ به أصحابه وعصابته ؛ فجلس على التَّخت في تاسع عشر رمضان من سنة أربع وثمانين وسبعائة ، وتلقَّب بالظاهر . ورتَّبَ أهل عصابته في مراتب الدولة ؛ فقام وقاموا بها أحسن قيام ، وانقلبت الدولة من آل قلاؤن إلى برقوق الظاهر وبنيه . واستمرَّ الحال على ذلك ، ونافسه اليلبغاوية — رُفقاؤه في ولاء يلبغا — فيما صار إليه من الأمر ، وخصوصاً يلبغا نائب حلب ، فاعترم على الانتقاض . وشعر به الظاهر فبعث باستدعائه ؛ فجاء وحسبه مُدَّة ، ثم رجعَ إلى نيابة حلب ، وقد وُغِرَ صدره من هذه المعاملة . وارتاب به الظاهر ؛ فبعث سنة تسعين وسبعائة دواذره للقبض عليه ، ويستعين في ذلك بالحاجب . وانتَقَضَ ، واستدعى نائبَ مَلَطِيَّة^(٣) ، وهو منطاش من أمراء اليلبغاوية ، وكان قد انتقض قبله ، ودعا نواب الشام إلى المسير إلى مصر إلْباً على الظاهر ؛ فأجابوه ، وساروا في جُمْلته ، وتحت لوائه ؛ وبلغ الخبر إلى الظاهر برقوق ؛ فأخرج عساكره مع أمراء اليلبغاوية من أصحابه : وهم الدواذار الأكبر يونس^(٤) ،

(١) الأعطاف : الجوانب .

(٢) المقاربة : ترك الغلو في الأمور ، وقصد السداد فيها .

(٣) بفتح الميم واللام ، وسكون الطاء ، ثم ياء مفتوحة ؛ والعامة تكسر الطاء ، وتشدد الياء . تقع في الشمال الغربي لذيابكر من الجمهورية التركية . (معجم البلدان) ، تاج العروس (ملط) .

(٤) يونس بن عبدالله الأمير سيف الدين الدواذار الأكبر لفك الظاهر ، ويعرف بالنوروري (نسبة إلى معتقله الأمير جرجي النوروري) . كان من أعظم دولة الظاهر برقوق ، حارب منطاش ، والناصرى ، وعاد في =

وجهرمس الخليلي أمير الاسطبل ، والأتابكي أيتمش ، وأيدكار حاجب الحجاب^(١) وأحمد بن يلبغا استأذهم^(٢) . وخرج الناصري من حلب في عسكره ، واستنفر العرب والتركمان وأمرأ الشام ، ولما تراءى الجمعان بناحية دمشق ، نزح كثير من عسكر السلطان إليهم ، وصدقوا الحملة على من بقي فأنقضوا . ونجا ايتمش إلى قلعة دمشق ؛ فدخلها ، وقتل جهرمس ، ويونس ، ودخل الناصري دمشق ؛ ثم أجمع المسير إلى مصر ، وعميت أنباؤهم حتى أطلوا على مصر .

وفي خلال ذلك أطلق السلطان الخليفة من مَحْبَسِه كان بعض الغواة أنمى عنه ، أنه داخله شيطان من شياطين الجند ، يعرف بقرط^(٣) في قتل السلطان يوم ركوبه إلى الميدان قبل ملكه بسنين ، فلما صَحَّ الخبر أمر بقتله ، وحبس الخليفة سبعا إلى تلك السنة ، فأطلقه عند هذا الواقع ؛ ولما وصل إلى قيطا اجتمعت العساكر ، ووقف السلطان أمام القلعة يومه حتى غَشِيَ الليل ، ثم دخل إلى بيته وخرج متنكرا ، وتسرب في غيابات المدينة ، وباكر الناصري وأصحابه القلعة ، وأمير حاج ابن الأشرف ؛ فأعادوه إلى التخت ولقبوه المنصور . وبعثوا عن الأمراء المحبوسين بالإسكندرية ، وكان فيهم أَلْطُبُغا الجوباني الذي كان أمير مجلس^(٤) ، وقبض السلطان الظاهر عليه ، وحبسه أياما ، ثم أطلقه وبعثه نائبا على دمشق ، ثم ارتفعت عنه الأقوال بأنه يروم الانتقاض ، وداخل الناصري نائب حلب في ذلك ، وأكد ذلك عند السلطان ما كان بينه وبين الناصري من المصافاة والمخالصة ، فبعث عنه . ولما جاء حبسه بالإسكندرية ؛ فلما ملك الناصري مصر ، وأجلس أمير حاج بن

= جيش منهزم إلى القاهرة ، وفي طريقه قتل سنة ٧٩١ عن نيف وستين سنة . خطط المقريري ٤٢٦/٢ بولاق .

(١) أيدكار بن عبدالله العمري سيف الدين ، كان أحد أعيان الملك الظاهر ، وولاه حجابة الحجاب . ثم انحاز إلى حزب منطاش ، ولما عاد برقوق إلى الملك قبض عليه في سنة ٧٩٤ ، وقتله .

(٢) الأمير شهاب الدين أحمد بن يلبغا العمري الخاصكي ، كان برقوق مملوكا لوالده ، ولذلك عفا عنه حين انحاز إلى الناصري ومنطاش . ولما مات الظاهر ، ثار ايتمش وآخرون بالشام ؛ فانضم إليهم أحمد بن يلبغا هذا ، وحاربهم فرج بن الظاهر ، فانتصر عليهم ، وقبض على أحمد بن يلبغا ، فقتله في سنة ٨٠٢ .

(٣) قرط بن عمر من التركمان المستخدمين في الدولة ، وكان له اقدام وشجاعة وصل بها إلى مرادفة الأمراء في مذهبهم . قتل سنة ٧٨٥ .

(٤) معناه صاحب الشورى في الدولة ، وهو ثاني الأتابك ، وتلو رتبته . العبرم ٥ صبح الأعشى ٤٥٥/٥ .

الأشرف^(١) على التخت ، بعث عنه ليستعين به على أمره ؛ وارتابوا لغيبة الظاهر ، وبالغوا في البحث عنه ، فاستدعى الجوباني واستنام له ، واستحلفه على الأمان ؛ فحلف له ، وجاء به إلى القلعة بعد أن ساور صاحبه الناصري في المُضَيِّ إلىه وتأمينه . وجسوه في بعض قصور الملك ، وتشاوروا في أمره ؛ فأشار أمراء اليلبغاوية كلهم بقتله ، وبالع في ذلك منطاش ، ووصل نُعَيْرُ أمير بني مُهَنَّا^(٢) بالشام للصحابة بينه وبين الناصري ، فحضرهم على قتله ، ومنع الجوباني من ذلك وفاء يمينه ، فغلت صُودورهم منه . واعتزموا على بَعْثه إلى الكرك^(٣) ، ودافعوا منطاشاً بأنهم يبعثونه إلى الإسكندرية ، فيعترضه عند البحر بما شاء من رأيه . ووثق بذلك ، فقعده عند المرساة ، وخالفوا به الطريق إلى الكرك ، وولّوا عليها نائباً وأوصوه به ؛ فأخفق مَسْعَى منطاش ، ودبّر في اغتيال الدولة ، وتمارض في بيته . وجاءه الجوباني عائداً فقبض عليه ، وحبسه بالإسكندرية ، وركب مُنتَقِضاً ، ووقف عند مدرسة الناصر حسن بن الناصري بالقلعة . واستجاش هو بأمراء اليلبغاوية ؛ فداهنوا في إجابته ، ووقفوا بالرُمَيْلة أمام القلعة . ولم يزل ذلك بينهم أياماً حتى انفضَّ جمع الناصري ، وخرج هارباً ؛ فاعترضه أصحاب الطريق بفارسكو ، وردّوه ؛ فَحَبَسَهُ منطاش بالإسكندرية مع صاحبه ، واستقلّ بأمر الملك . وبعث إلى الكرك بقتل الظاهر ؛ فامتنع النائب ، واعتذر بوقوفه على خطّ السلطان والخليفة والقضاة . وبث الظاهر عطاءً في عامّة أهل الكرك ؛ فانتدبت طائفة منهم لقتل البريدي الذي جاء في ذلك ، فقتلوه ؛ وأخرجوا الظاهر من محبسه فأصبحروا . واستألف أفاريق من العرب ، واتصل به بعض مماليكه ، وسار إلى الشام . واعترضه ابن باكيش^(٤) نائب

(١) الملك الصالح حاجي بن الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، يلقب بالمنصور (غير لقبه الصالح إلى المنصور) ، وخلع نفسه يوم أن عاد برقوق إلى الملك .

(٢) نعيم بن محمد بن حيار بن مهنا بن مانع ، لبثه القدم الراسخة في الإمارة .

وفي ظفر برقوق به ، وبمنطاش ، يقول الشيخ زين الدين بن ظاهر :

الملك الظاهر في عزه أذل من ضل ومن طــــاشا
ورد في قبضته طائِعاً نعيراً العــــاصي ومنطــــاشا

(٣) مدينة في الاردن على بعد ١٤٥ كلم من القدس عرفت قديماً باسم (كبر مؤاب) كانت حصناً للمؤابيين . احتلها الصليبيون واستردها صلاح الدين سنة ١١٨٨ ، كانت مقر مطرانية منذ اوائل العهد المسيحي كما كانت قاعدة لدولة المماليك سنة ١٣٠٩

(٤) الحسن بن باكيش الأمير بدر الدين التركماني ، نائب غزة من قبل منطاش . قتله الظاهر بالقاهرة سنة ٧٩٣ . وكان مشهوراً بالشجاعة .

غَزَّة^(١) ، فأوقع به الظاهر ، وسار إلى دمشق ، وأخرج منطاش العساكر مع سلطانه أمير حاج ، وسار على التعبئة ليمانع الظاهر عن دمشق . وسبقه الظاهر ففنه جتتمر نائب دمشق^(٢) ؛ فواقعه ، وأقام محاصراً له . ووصل إليه كمشْبُغا^(٣) الحموي نائب حلب ، وكان قد أظهر دعوته في عمله ، وتجهز للقائه بعسكره ؛ فلقيه وأزال عِلَّله ، فأقام له أُنْبَهة الملك . وبيناهم في الحصار إذ جاء الخبر بوصول منطاش بسلطانه وعساكره لقتالهم ، فلقبهم الظاهر بشَقْحَب^(٤) ، فلما تراءى الجمعان ، حمل الظاهر على السلطان أمير حاج وعساكره ففَضَّهم ، وانزَمَ كمشْبُغا إلى حَلَب . وسار منطاش في إتباعه ؛ فهجم الظاهر على تعبئة أمير حاج ؛ ففَضَّها ، واحتاز السلطان ، والخليفة والقضاة ، ووكل بهم . واحتلَّط الفريقان ، وصاروا في عَمِيَاء من أمرهم ، وفرَّ منطاش إلى دمشق . واضطرب الظاهر أخبثته^(٥) ، ونزل على دمشق محاصراً لها . وخرج إليه منطاش من الغد فهزمه ، وجمع القضاة والخليفة ؛ فشهدوا على أمير حاج بالخلع ، وعلى الخليفة بإعادة الظاهر إلى مُلكه . ورحل إلى مصر فلقبه بالطريق خبر القلعة بمصر ، وتغلَّب مماليكه عليها ؛ وذلك أن القلعة لما خلت من السلطان ومنطاش والحامية ، وكان ممالك السلطان محبوسين هنالك في مُطبق أُعَدَّ لهم ، فتناجوا في التَّسَوُّر منه إلى ظاهره ، والتوَّب على القلعة والملك ، فخرجوا ، وهرب دودار منطاش الذي كان هنالك بمن كان معه من الحاشية . وملك ممالك الظاهر القلعة ، ورأسهم مملوكه بَطَّا^(٦) وساس أمرهم ، وانتظر خبر سلطانه ، فلما وصل الخبر بذلك إلى الظاهر ، أَعَدَّ السَّير إلى مصر . وتلقاه الناس فرحين مسرورين بعوده وجبره . ودخل مُنْتَصَفَ صفر من سنة إحدى وتسعين وسبعائة ، وولَّى بَطَّا دوداراً ، وبعث عن الأمراء المحبوسين بالإسكندرية ، وأعتبهم ، وأعادهم إلى

(١) مدينة بفلسطين قرب الساحل ، بها ولد الإمام الشافعي . ويروى له فيها شعر . (معجم البلدان) .

(٢) الأمير جتتمر التركاني .

(٣) كمشْبُغا بن عبدالله الحموي اليلغاوي الأمير سيف الدين . توفي سنة ٨٠١ .

(٤) شَقْحَب (كجعفر) : موضع قرب دمشق ، نسب إليه جماعة من المحدثين . (تاج العروس) .

(٥) كذا في الاصول ، وهي مكرونة في أماكن متعددة من تاريخ العبر . وأظنها محرفة أثناء النسخ عن كلمة (ضرب) . فتصبح العبارة : «وضرب الظاهر أخبثته» .

(٦) الأمير بطا الطولونمري ، خلع عليه الظاهر برفوق سنة ٧٩٢ دوداراً ، ثم نائب دمشق ، ولها من قبل استاذة في ذي القعدة سنة ٧٩٣ إلى أن توفي بها سنة ٧٩٤ . وانظر تفصيل ثورة بطا ومن كان معه من المسجونين ، في «العبر» المجلد الخامس .

مراتبهم . وبعث الجوباني إلى دمشق ، والناصري إلى حلب كما كانا ، وعادت الدولة إلى ما كانت عليه . وولّى سودون على نيابته ، وكان ناظراً بالخانقاه التي كنتُ فيها ، وكان يَنْقِم عليَّ أحوالاً من مُعاصاته فيما يريد من الأحكام في القضاء أزمان كنتُ عليه ، ومن تَصَرُّفات دوا داره بالخانقاه ، وكانَ يَسْتَنِيه عليها ؛ فَوَغَرَ صَدْره من ذلك ؛ وكان الظاهر يَنْقِم علينا مَعْبِشَ الفقهاء فتاوى^(١) استدعاها مِنَّا مَنْطَاش ، وأَكْرَهنا على كتابها ؛ فكتبناها ، وورَّينا فيها بما قدرنا عليه . ولم يقبل السلطان ذلك ، وعتب عليه ، وخصوصاً عليّ ؛ فصادف سودون منه إجابةً في إخراج الخانقاه عَنِّي ، فولّى فيها غيـري وعزَّلني عنها . وكتبت إلى الجوباني بأبيات اعتذر عن ذلك ليطالعه بها ؛ فتغافل عنها ، وأعرضَ عني مُدَّة ، ثم عاد إلى ما أعرف من رضاه وإحسانه ، ونَصَّ الأبيات :

سَيِّدِي وَالظُّنُونُ فَيْكَ جَمِيلَةَ	وَأَيَادِيكَ بِالْأُمَانِي كَفِيلَةَ
لَا تَحُلْ عَن جَمِيلِ رَأْيِكَ إِنِّي	مَالِي الْيَوْمَ غَيْرُ رَأْيِكَ حِيلَةَ
وَاصْطَنَعَنِي كَمَا اصْطَنَعْتَ بِإِسْدَا	ءِ يَدٍ مِنْ شَفَاعَةِ أَوْ وَسِيلَةَ
لَا قُضِعْنِي فَلَسْتُ مِنْكَ مُضْيعاً	ذِمَّةَ الْحَبِّ ، وَالْأَيَادِي الْجَمِيلَةَ
وَأَجْرَنِي فَالْخُطْبُ عَضٌّ بَنَابِيهِ	وَأَجْرَى إِلَى حَيَايَ خِيُولَهِ

(١) في السلوك : « في ٢٥ قعدة ، حضرت نسخ الفتوى في الملك الظاهر ، وزيد فيها : « واستعان على قتل المسلمين بالكفار ، وحضر الخليفة المتوكل ، وقضاة القضاة : بدر الدين محمد بن أبي البقاء الشافعي . وابن خلدون ، وسراج الدين عمر بن الملحق الشافعي ، وعدة دون هؤلاء ، في القصر الأبلق ، بحضرة الملك المنصور ، ومنطاش ، وقدمت اليهم الفتوى ، فكتبوا عليها باجمعهم ، وانصرفوا » . وفي تاريخ ابن الفرات :

« وفي يوم الاثنين اجتمعت الأمراء بالقصر الأبلق بقلعة الجبل ، بحضرة السلطان الملك المنصور وحاجي ، والأمير منطاش ، والخليفة محمد ، والقضاة الأربعة ، والشيخ سراج الدين البلقيني ، وولي القاضي جلال الدين عبد الرحمن قاضي العسكر ، وقاضي القضاة بدر الدين بن أبي البقاء الشافعي ، وقضاة العسكر ، ومفتون (كذا) دار العدل ، وكتبت فتاوى تضمن : هل يجوز قتال الملك الظاهر بقوق أم لا ؟ وذكروا في الفتاوى أشياء تخالف الشرع الشريف ، وما تضمنته الفتاوى : انه يستعين على قتال المسلمين بالنصارى ، فسألوهم (كذا) الجماعة عن ذلك ، فقبل لهم ان الملك الظاهر معه جماعة من نصارى الشوبك نحو ٦٠٠ نفس يقاتل بهم في عسكره : ولم يكن الأمر كذلك ، وانما ارادوا التلبس على العلماء المفتين ، فعند ذلك وضعوا (كذا) المذكورون خطوطهم على الفتاوى المذكورة بجواز قتاله ، وانفصل المجلس على ذلك ونودي في بكرة هذا النهار في القاهرة لأجناد الحلقة : أن لا يتأخر أحد منهم عن العرض ، ومن لم يحضر قطع خبزه » .

وَلَوْ أَنِّي دَعَا بِنَصْرِي دَاعٍ
أَنَّهُ أَمْرِي إِلَى الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ
وَأَرَاهُ فِي مُلْكِهِ الْآيَةَ
أَشْهَدْتُهُ عناية الله في التَّحْيِصِ
الْعَزِيزُ السُّلْطَانُ وَالْمَلِكُ الظَّالِمُ
وَمُجِيرُ الْإِسْلَامِ مِنْ كُلِّ خَطْبٍ
وَمُدِيلُ الْعَدُوِّ بِالطَّعْنَةِ النَّجْلَاءِ
وَشُكُورٍ لِأَنْعَمِ اللَّهِ يُفْنِي
وَتَلَطَّفَ فِي وَصْفِ حَالِي وَشُكْوَى
قُلْ لَهُ وَالْمَقَالُ يَكْرُمُ مِنْ مِثْلِكَ
يَا خَوْنَدَ الْمُلُوكِ يَا مَعْدَ الدَّ
لَا تَقْصِرْ فِي جَبْرِ كَسْرِي فَا
أَنَا جَارٌّ لَكُمْ مِنْعَمِ حِمَاهِ
وَعَرِيبٌ أَنْتُمْوه عَلَى الْوَحْشَةِ
وَجَمَعْتُمْ مِنْ شَمْلِهِ فَقَضَى اللَّهُ
غَالَهُ الدَّهْرُ فِي الْبَيْنِ وَفِي الْأَهْلِ
وَرَمَتْهُ النَّوَى^(٥) فَقِيداً قَدْ
فَجَذَبْتُمْ بِضَبْعِهِ^(٦) وَأَنْتُمْ
وَرَفَعْتُمْ مِنْ قَدْرِهِ قَبْلَ أَنْ
وَفَرَضْتُمْ لَهُ حَقِيقَةً وَدَّ
هَمَّةً مَا عَرَفْتُمْهَا لِسَوَاكُم

كُنْتُ لِي خَيْرَ مَعَشَرٍ وَفَصِيلَةٍ
أُمُورَ الدُّنْيَا لَهُ مَكْفُولَةٌ
الْكُبْرَى فَوَلَّاهُ ثُمَّ كَانَ مُدِيلَهُ
أَنْ كَانَ عَوْنَهُ وَمُنِيلَهُ
هُرٌّ فَخَرُّ الدُّنْيَا وَعِزُّ الْقَبِيلَةِ
كَادَ زَلْزَالٌ بَأْسَهُ أَنْ يُزِيلَهُ
وَتُفْرِي مَا ذِيَّهُ وَنُصُولَهُ^(١)
فِي رِضَاهِ غُذُوهُ وَأَصِيلَهُ
خَلَّتِي^(٢) يَا صَفِيَّةَ وَخَلِيلَهُ
فِي مَحْفِلِ الْعُلَا أَنْ يَقُولَهُ
هُرٌّ إِذَا عَدَلَّ^(٣) الزَّمَانُ فُصُولَهُ
زَلْتُ أَرْجِيكَ لِلْأَيَادِ الطَّوِيلَةِ
وَنَهَجْتُمْ إِلَى الْمَعَالِي سَبِيلَهُ
وَالْحُزْنَ بِالرَّضَى وَالسُّهُولَةَ
فِرَاقاً وَمَا قَضَى مَأْمُولَهُ
لِ مَا كَانَ ظَنُّهُ أَنْ يَغُولَهُ^(٤)
اجْتَاوَتْ عَلَيْهِ فُرُوعُهُ وَأُصُولُهُ
كُلَّ مَا شَاءَتِ الْعُلَا أَنْ تُنِيلَهُ
إِلَيْكُمْ عِيَاءَهُ وَخُمُولَهُ
حَاشَ لِلَّهِ أَنْ تُرَى مُسْتَحِيلَةَ
وَأَنَا مِنْ خَبَرْتُ دَهْرِي وَجِيلَهُ

(١) الطعنة النجلاء : الواسعة العريضة . وتفري : تشق . والمأذي (بالعجمة) : كل سلاح من الحديد .

والنصول جمع نصل ؛ وهو خديدة السهم .

(٢) الحلة (بالفتح) : الحاجة ، والفقر .

(٣) عدل الحكم : أقامه ، والميزان سواه .

(٤) يشير إلى غرق أهله في المركب الذي أقبلهم من المغرب ، وقد تقدم له ذكر هذا .

(٥) النوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد . وهي مؤنثة لا غير .

(٦) الضبع : العضد .

وَالْعِدَا نَمَّقُوا أَحَادِيثَ إِفْكٍ
رَوَّجُوا فِي شَأْنِي غَرَائِبَ زُورٍ
وَرَمَوْا بِاللَّذِي أَرَادُوا مِنْ
زَعَمُوا أَنِّي أَتَيْتُ مِنَ الْأَقْوَا
كَيْفَ لِي أَغْمِطُ الْحَقُّوقَ وَأَنِّي
كَيْفَ لِي أَنْكُرُ الْأَيْبَادِي الَّتِي تَعِدُ
إِنْ يَكُنْ ذَا فَقَدْ بَرِئْتُ مِنْ
طَوَقُونَا أَمْرَ الْكِتَابِ فَكَانَتْ
لَا وَرَبِّ الْكِتَابِ أَنْزَلَهُ اللَّهُ
مَا رَضِينَا بِذَاكَ فَعَلَاءً وَلَا جُنَّاهُ
إِنَّمَا سَامَنَّا الْكِتَابَ ظُلْمًا
سَخَطُ نَسَاجِزٍ وَحِلْمٌ بَطِيءٌ
وَدَعَوْنِي وَلَسْتُ مِنْ مُنْصِبِ الْحُكْمِ
غَيْرَ أَنِّي وَشَى بِذِكْرِي وَاشْ
فَكْتَبْنَا مَعُولِينَ عَلَى حِلْمِكَ
مَا أَشْرْنَا بِهِ لِزَيْدٍ وَلَا عَمْرٍو
إِنَّمَا يَذْكُرُونَ عَمَّنْ وَفِيمَنْ
وَيُظَنُّ أَنَّ ذَاكَ عَلَى مَسَافَةٍ
وَهُوَ ظَنٌّ عَنِ الصَّوَابِ بَعِيدٌ
وَجَنَابُ السُّلْطَانِ تَزْهِهِ اللَّهُ
وَأَجَلُ الْمُلُوكِ قَدَرًا صَفُوحٌ
فَاقْبَلُوا الْعُذْرَ إِنَّنَا الْيَوْمَ نَرْجُو
وَاعِينُوا عَلَى الزَّمَانِ غَرِيبًا

كُلُّهَا فِي طَرَائِقٍ مَعْلُوكَةٍ
نَصَبُوهَا لِأَمْرِهِمْ أَحْبُوكَةٍ
الْيَهْتَانُ ظَنًّا بِأَنَّهَا مَقْبُولَةٌ
لَ مَا لَا يُظَنُّ بِي أَنْ أَقُولَهُ
شُكْرُ نَعَاكُمُ عَلَيَّ الْخَزِيلَةُ ؟
رَفَهَا الشَّمْسُ وَالظَّلَالُ الظِّلِيلَةُ ؟
اللَّهُ تَعَالَى وَخُتُّ جَهْرًا رَسُولَهُ
لَقَدَّاحُ الظُّنُونِ فِينَا مُجِيلَةٌ (١)
عَلَى قَلْبٍ مِنْ وَعَى تَزْيِيلَةٍ
طَوْعًا وَلَا اقْتِفِينَا دَلِيلَهُ
لَا يُرَجَّى دِفَاعُهُ بِالْحِيلَةِ
وَسِلَاحُ (٢) لِلْوُخْزِ فِينَا صَقِيلَةٌ
وَلَا سَاحِبًا لَدَيْهِمْ ذُبُولَهُ
يَتَقَصَّى أَوْتَارَهُ وَدُخُولَهُ (٣)
تَمْحُو الْأَصَارَ عَنَّا الثَّقِيلَةَ
وَلَا عَيْنُنَا لَنَا تَفْصِيلَهُ
مُبْهَاتٍ أَحْكَامُهَا مَنْقُولَةٌ
اضْمُرُوا مِنْ شِنَاعَةٍ أَوْ رَذِيلَةٍ
وِظْلَامٌ لَمْ يُحْسَنُوا تَأْوِيلَهُ
عَنِ الْعَابِ (٤) بِالْهُدَى وَالْفَضِيلَةِ
يَرْتَجِي ذَنْبَ دَهْرِهِ لِيُقِيلَهُ
بِحَيَاةِ السُّلْطَانِ مِنْكُمْ قَبُولَهُ
يَشْتَكِي جَذْبَ عَيْشِهِ وَمُحْوَلَهُ

(١) يشير الى الفتوى السالفة الذكر عن المقرئزي وابن الفرات .

(٢) السلاح : آلة الحرب ، او حديدته ، ويؤنث .

(٣) اوتار جمع وتر ، بمعنى الذحل . والذحل : العداوة . والجمع ذحول .

(٤) العاب : العيب .

جَارَكُمْ ضَيْفُكُمْ نَزِيلُ حَاكِمِ
جَدِّدُوا عِنْدَهُ رُسُومَ رِضَاكُمْ
دَارِكُوهُ بِرَحْمَةٍ فَلَقَدْ أَمَّ
وَانْحَلُوهُ جَبْرًا فَلَيْسَ يُرْجَى
يَا حَمِيدَ الْأَثَارِ فِي الدَّهْرِ يَا
كَيْفَ بِالْخَائِنِقَاهِ يَنْقُلُ عَنِّي
بَلْ تَقَلَّدَتْهَا شُغُورًا بِمَرْسُومِ
وَلَقَدْ كُنْتُ آمِلًا لِسَوَاهَا
وَتَوَثَّقْتُ لِلزَّمَانِ عَلَيْهَا
أَبْلَغُنْ قِصَّتِي فَثَلُكْ مَنْ يَقْدُ
وَإِغْنَمُوا مِنْ مَثَوْبِي وَدَعَايَ

وَفِي التَّعْرِيزِ بِسَفَرِهِ إِلَى الشَّامِ :

لَا يُضْيَعُ الْكَرِيمُ يَوْمًا نَزِيلُهُ
فَرُسُومُ الْكَرَامِ غَيْرُ مُحْيِلَةٍ
سَتَ عَقُودُ إِصْطِبَارِهِ مَحْلُولَةٍ
غَيْرَ إِحْسَانِكُمْ لَهُذِي النَّحِيلَةِ
الطَّنْبُغَايَا رَوْضُ الْعُلَا وَمَقِيلُهُ
لَا لَذَنِّبَ أَوْ جُنْحَةٍ مَقْبُولَةٍ
مِ شَرِيفٍ وَخِلْعَةٍ مَسْدُولَةٍ
وَسَوَاهَا بِوَعْدِهِ إِنْ يُنِيلُهُ
بِعَقُودِ مَا خِلَتْهَا مَحْلُولَةٍ
صِدْقُ فِعْلِ الْحَسَنِ بِمَنْ يَتَمَيَّ لَهُ
قُرْبَةٍ عِنْدَ رَبِّكُمْ مَقْبُولَةٍ

وَاصْحَبِ الْعَزَّ ظَافِرًا بِالْأُمَانِي
وَاعْتَمِلْ فِي سَعَادَةِ الْمَلِكِ الظَّا
وَتُعَيْدِ الدُّنْيَا لِأَحْسَنِ شَمْلِي
وَاطْلُبِ النَّصْرَ مِنْ سَعَادَتِهِ يَصْحَبُكَ
وَارْتَقِبْ مَا يُجِلُّهُ بِالْأَعَادِي
وَخُذْهُ فَالًا بِحُسْنِ قَبُولِ
فَلَقَدْ كَانَ يَحْسُنُ الْقَالَ عِنْدَ

وَاتْرُكِ الْعُصْبَةَ الْعِدَا مَفْلُولَةً
هَرَّ أَنْ تَمْحُو الْأَذَى وَتُرِيْلَهُ
حِينَ تُضْجِي بِسَعْدِهِ مَشْمُولَةً
دَائِبًا فِي الظُّعْنِ وَالْحَيْلُولَةِ
فِي جُجَادَى أَوْ زِدْ عَلَيْهِ قَلِيلَهُ
صَدَّقَ اللَّهُ فِي الزَّمَانِ مَقُولَةً
الْمُصْطَفَى دَائِمًا وَيَرْضَى جَمِيلَةً

* (السَّعَايَةُ فِي الْمَهَادَاةِ وَالْإِتْحَافِ بَيْنَ مُلُوكِ الْمَغْرِبِ)

وَالْمَلِكِ الظَّاهِرِ) *

كثيْرًا مَا يَتَعَاهَدُ الْمُلُوكُ الْمُتَجَاوِرُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالْإِتْحَافِ يُطَرِّفُ أَوْطَانَهُمْ ،

للمواصلَة والإعانة متى دعا إليها داع . وكان صلاح الدين بن أيوب هادي يعقوب المنصور ملك المغرب من بني عبد المؤمن ، واستجاش به بأسطوله في قطع مدد الفرنج عن سواحل الشام حين كان معيّناً بإرجاعهم عنها ، وبَعَثَ في ذلك رسوله عبد الكريم بن مُنْقِذ^(١) من أمراء شيزر^(٢) ، فأكرم المنصور رسوله ، وقعد عن إجابته في الأسطول لما كان في الكتاب إليه^(٣) من العدول عن تخطيطه^(٤) بأمر المؤمنين ؛ فوجدَهَا غُصَّةً في صدره منعته من إجابته إلى سؤاله ؛ وكان المانع لصلاح الدين من ذلك كاتبه الفاضل عبد الرحيم البيساني^(٥) بما كان يُشاوِرُه في أموره ، وكان مُقيماً لدعوة الخليفة العبَّاسي بمصر ؛ فرأى الفاضل أن الخلافة لا تنعقد لإثنين في الملة كما هو المشهور ، وإن اعتمد أهل المغرب سوى ذلك ، لما يرون أن ، الخلافة ليست لقباً فقط ، وإنما هي لصاحب العصبة القائم عليها بالشدة والحماية ؛ والخلاف في ذلك معروف بين أهل الحق . فلما انقرضت دولة الموحدين ، وجاءت دولة بني مرين من بعدهم ، وصار كُبراًؤهم ورؤساؤهم يتعاهدون قضاء فرضهم لهذه البلاد الشرقية ، فيتعاهدهم ملوكها بالإحسان إليهم ، وتسهيل طريقهم ؛ فحسُن في مكارم الأخلاق انتحال البر والمواصلَة ، بالانحاف والاستطراف والمكافأة في ذلك بالهمم الملوكية ؛ فسنت لذلك طرائق وأخبار مشهورة ، من حقها أن تذكر ؛ وكان يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق ثالث ملوك بني مرين ، أهدى لصاحب مصر عام سبعمائة^(٦) ، وهويومئذ الناصر بن محمد بن قلاون ، هدية ضخمة ، أصبحها كريمة

(١) هكذا سباه ابن خلدون هنا ، وفي «المقدمة» ؛ وفي «وفيات ابن خلكان» (٤٣٣/٢) ، والروستين لأبي شامة ١٧٣/١ ، والاستقصاء ١٧٤/١ ، ان اسمه عبد الرحمن .

وهو شمس الدين ابو الحارث (وكانه في الروستين أبا الحزم) ، عبد الرحمن بن نجم الدولة أبي عبد الله محمد بن مرشد ، المتوفى سنة ٦٠٠ بالقاهرة ، والمولود بشيزر سنة ٥٢٣ .

(٢) قرية قرب المعرة بينها وبين حماة ، فتحت سنة ١٧ هجرية ، ومنها الأمراء من بني منقذ ، وأول من ملكها منهم من يد الروم علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنافي ، وذلك في سنة ٤٧٤ (معجم البلدان) ، وفيات ٤٦٤/١ ، تاريخ أبي الفداء ٣٥٢/٢ (سنة ٥٠٢) . وانظر أخبار بني منقذ في تاريخ أبي الفداء أيضاً ٣٢/٣ وما بعدها .

(٣) جاء في الروستين (١٧٠/٢ — ١٧٥) نص الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل إلى المنصور الموحدي ، ونص رسالة أخرى مضمونها تكليف الأمير ابن منقذ هذا بالسفارة الى الموحدين .

(٤) تحليته .

(٥) عبد الرحيم بن الأشرف بهاء الدين ... العسقلاني ، ثم المصري المعروف بالقاضي الفاضل مجير الدين (٥٢٩ — ٥٩٦) . وفيات ٣٥٧/١ وما بعدها .

(٦) أنظر العبر المجلد الخامس ، والاستقصاء ٤٠/٢ — ٤١ ، حيث تجد تفصيل الحديث عن هذه الهدية .

من كرائم داره ، احتفل فيها ما شاء من أنواع الطُرف ، وأصناف الذخائر ،
وخصوصاً الخيل والبغال .

أخبرني الفقيه أبو إسحق الحسناوي ، كاتب الموحدين بتونس ، أنه عاين تلك الهدية
عند مرورها بتونس ، قال : وعددت من صنف البغال الفارهة فيها أربعائة ،
وسكت عما سوى ذلك . وكان مع هذه الهدية من فقهاء المغرب ، أبو الحسن التَّنسي
كبير أهل الفتيا تِلْمسان . ثم كافأ الناصر عن هذه الهدية بأعلى منها وأحفل^(١) مع
أميرين من أمراء دولته ، أدركا يوسف بن يعقوب وهو يحاصر تِلْمسان ، فبعثها إلى
مراكش للترّاهة^(٢) في محاسنها ، وأذركه الموت في مغيبهما ، ورجعا من مراكش ؛
فجهّزها حافظه أبو ثابت المالك بعده ، وشيّعها إلى مصر ؛ فاعترضتها قبائل حصّين
ونهبوها^(٣) ، ودخلا بجاية ، ثم مضيا إلى تونس ، ووصلا من هنالك إلى مصر .

ولمّا ملك السلطان أبو الحسن تِلْمسان ، اقترحت عليه جارية أبيه أبي سعيد ،
وكانت لها عليه تربية ؛ فأرادت الحجّ في أيامه وبعنايته ؛ فأذن لها في ذلك ، وبعث
في خدمتها وليّه عَريف بن يحيى من أمراء سُويد ، وجماعة من أمرائه وبطانته ،
واستصحبوا هدية منه للملك الناصر احتفل فيها ما شاء . وانتقى من الخيل العِناق ،
والمطايا الفُره وقُمّاش الحرير والكتّان ، والصوف ومدبوغ الجلود الناعمة ، والأواني
المتخذة من النحاس والفخار المخصوص كلُّ مصر من المغرب بأصناف من
صنائعها ، متشابهة الأشكال والأنواع ، حتى لقد زعموا أنه كان فيها مَكيلة من
اللايء والفصوص ، وكان ذلك وقر خمس مائة بَعير ، وكانت عِناق الخيل فيها
خمس مائة فرس ، بالسروج الذهبية المرصّعة بالجواهر ، واللجم المذهبة ، والسيوف
المحلّاة بالذهب واللايء ؛ كانت قيمة المركب الأول منها عشرة آلاف دينار ،

(١) جاء في الاستقصاء : ٤١/٢ : «... وأما الملك الناصر ، فانه كافأ السلطان يوسف على هديته ، بأن
جمع من طرف بلاد المشرق ما يستغرب جنسه وشكله ، من الثياب والحيوانات ، ونحو ذلك ، مثل
الفيل والزرافة ونحوهما ، وأوفد به مع عطاء دولته سنة ٧٠٥ » .

(٢) استعمال التزاهة ، والتزّهة بهذا المعنى مختلف فيه بين اللغويين . وانظر تاج العروس «نزه» ، حيث تجد
أقوالهم .

(٣) في الاستقصاء : ٤٢/٢ : «... ولما انتهوا إلى بلاد بني حسن في سنة ٧٠٨ ، اعترضتهم الأعراب
بالقفر ، فانتهبوهم ، وخلصوا إلى مصر بجريعة الذقن ، فلم يعاودوا بعدها سفراً ، ولا لفتوا إليه وجهها ،
وطالما أوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يؤبه له ، ويهادونهم ويكافئون ، ولا يزيّدون
في ذلك كله على الخطاب شيئاً » .

وتدرّجت على الولاء إلى آخر الخمس مائة ؛ فكانت قيمته مائة دينار . تحدّث الناس بهذه الهدية دهرأ ، وعرضت بين يدي الملك الناصر ، فأشار إلى خاسكيته بانتهاء فنهب بين يديه ، وبُلوغ في كرامة أولئك الضيوف ، في إنزالهم وقراءهم وإزوادهم إلى الحجاز وإلى بلادهم ؛ وبقي شأن الهدية حديثاً يتجاراه الناس في مجالسهم وأسفارهم ؛ وكان ذلك عام ثمانية وثلاثين وسبعائة . ولما فصل أرسال^(١) ملك المغرب ، وقد قضوا فرضهم ، بعث الملك الناصر معهم هدية كفاء هديتهم ، وكانت أصنافها حمل القماش من ثياب الحرير والقماش المصنوعة بالإسكندرية ، تحمل كل عام إلى دار السلطان ، قيمة ذلك الحمل خمسون ألف دينار ، وخيمة من خيام السلطان المصنوعة بالشام على مثال القصور ، تشتمل على بيوت للمراقدة ، وأواوين للجلوس والطبخ ، وأبراج للإشراف على الطرقات ، وأبراج أحدها لجلوس السلطان للعرض ؛ وفيها تمثال مسجد بمحاربه ، وعمده ، ومأذنته ؛ حوائطها كلها من خرق الكتان الموصولة بحبك الخياطة مفصلة على الأشكال التي يقترحها المتخذون لها . وكان فيها خيمة أخرى مستديرة الشكل ، عالية السمك ، مخروطة الرأس ، رحبة الفناء ، تظل خمس مائة فارس أو أكثر ، وعشرة من عتاق الخيل بالمرابك الذهبية الصقيلة ، ولحمها كذلك ؛ ومرت هذه الهدية بتونس ، ومعها الخدام القائمون بنصب الأبنية ، فعرضوها على السلطان بتونس . وعينت يومئذ أصناف تلك الهدية ، وتوجهوا بها إلى سلطانهم ، وبقي التعجب منها دهرأ على الألسنة . وكان ملوك تونس من الموحدين ، يتعاهدون ملوك مصر بالهدية في الأوقات .

ولما وصلت إلى مصر ، واتصلت بالملك الظاهر ، وغمرني بنعمه وكرامته ، كاتب السلطان بتونس يومئذ ، وأخبرته بما عند الملك الظاهر من التشوف إلى جياذ الخيل ، وخصوصاً من المغرب ، لما فيها [من تحمل] الشدة والصبر على المتاعب ، وكان يقول لي مثل ذلك ، وأن خيل مصر قصرت بها الراحة والتنعيم ، عن الصبر على التعب ؛ فحضضت السلطان بتونس على إنحاف الملك الظاهر بما يتقيه من الجياذ الرائعة ، فبعث له خمسة انتقاها من مراكبه ، وحملها في البحر في السفين الواصل بأهلي وولدي ؛ ففرقت بمرسى الإسكندرية ، ونفقت تلك الجياذ ، مع ما ضاع في

(١) فصل من البلد : خرج عنه . وقد استعمل ابن خلدون « ارسال » جمع رسول في أماكن متفرقة من كتاب العبر ، وهذا غير جائز في مختلف كتب اللغة .

ذلك السَّفين ، وكلُّ شيء بقدر .

ثم وصل إلينا عامَ ثلاثة وتسعين وسبعائة شيخُ الأعراب : المَعْقِل بالمغرب ، يوسف ابن علي بن غانم ، كبير أولاد حُسَيْن ناجياً من سَخَط السلطان أبي العباس أحمد ابن أبي سالم ، من ملوك بني مَرين بفاس ، يَروم قَضاءَ قرضه ، ويتوسَّل بذلك لرَضَى سُلطانهِ ؛ فوجدَ السلطان غائباً بالشام في فِتنة منطاش ؛ فعرضته لصاحب المَحْمِل . فلماً عادَ من قَضاء قرضه ، وكان السلطان قد عاد من الشام ، فوصلته به ، وحضر بين يديه ، وشكا بَشَّه ؛ فكتب الظاهر فيه شفاعَةً لسلطان وطنه بالمغرب ، وحمله مع ذلك هديةً إليه من قماش وطيب وقسي ، وأوصاه بانتقاء الخيل له من قطر المغرب ، وانصرف ؛ فقبل سلطانه فيه شفاعَةَ الظاهر ، وأعادَه إلى مَترلته . وانتقى الخيول الرائعة لمهاداة الملك الظاهر ، وأحسن في انتقاء أصناف الهدية ؛ فعاجلته المنيَّة دُونَ ذلك ، وولي ابنُه أبو فارس ، وبقي أياماً ثم هلك ، وولي أخوه أبو عامر ، فاستكمل الهدية ، وبعثها صُحبة يوسف بن علي الوارد الأول .

وكان السلطان الملك الظاهر ، لما أبطأ عليه وصولُ الخيل من المغرب ، أراد أن يبعثَ من أمرائه من ينتقي له ما يشاء بالشراء ، فعينَ لذلك مملوكاً من مماليكه منسوباً إلى تربية الخليلي ، اسمه قُطْلُوبغا^(١) ، وبعثَ عني ، فحضرتُ بين يديه ، وشاورني في ذلك فوافقته ، وسألني كيف يكون طريقه ، فأشرت بالكتاب في ذلك الى سلطان تونس من الموحدين^(٢) ، وسلطان تِلْمَسَان من بني عبد الواد ، وسلطان فاس والمغرب من بني مَرين ، وحمله لكل واحد منهم هدية خفيفةً من القماش والطيب والقسي ، وانصرف عامَ تسعة وتسعين وسبعائة إلى المغرب ، وشيَّعه كل واحد من ملوكه إلى مأمنه ، وبالع في إكرامه بما يتعين . ووصلَ إلى فاس ، فوجدَ الهدية قد استكملت ، ويوسف بن علي على المسير بها عن سلطانه أبي عامر من ولد السلطان أبي العباس المخاطب أولاً . وأظلمهم عيدُ الأصْحى بفاس ، وخرجوا متوجَّهين إلى مصر ، وقد أفاض السُّلطان من إحسانه وعطائه ، على الرِّسول قُطْلُوبغا ومن في جُمْلته بما أقرَّ عيونهم ، وأطلق بالشكر ألسنتهم ، وملاً بالثناء ضماثرهم ، ومروا بِلِمَسَان ، وبها

(١) هو قطلوبغا بن عبد الله التوفي سنة ٨٢١ . تولى نيابة الاسكندرية والحجاية أيام الظاهر . ونيابة الإسكندرية أيام المؤيد . قال في المنهل : وأظنه من ممالك جاركش الخليلي أمير أخور . والله اعلم .

(٢) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أبي حفص الموحدي .

يومئذ أبو زِيَّان ، ابنُ السلطان أبي حَمُو من آل يَعْمَرَسَن بن زِيَّان ، فبعث معهم هدية أخرى من الجياد بمراكبها ، وكان يحوكُ الشعر ، فامتدح الملك الظاهر بقصيدة بعثها مع هديته ، ونصّها من أولها الى آخرها :

والصَّبْرُ — إلاَّ بعدَهَن — جَمِيلُ
ظُعُنٌ^(٣) يَمِيلُ القَلْبُ حَيْثُ تُمِيلُ
فالحسنُ فوقَ ظهورها مَحْمُولُ
تنجّاب عنها للظلام سدولُ
ولها بأستار الجُدول أفولُ
تَزَعُ السدجى يجينها فيحولُ
مَتَنِي كَثِيبٍ والكثيب مَهِيْلُ
واعْتَادَ قلبي زفرةً وغَلِيْلُ
نَظَرُ تخالسه العيون كليْلُ
طوراً وَيَغْلِبُنِي الأَسَى فَيَسِيْلُ
فكأنّها قالُ عليه وقيلُ
لِمُصُونِ جَوْهر دَمْعَهَن تَذِيْلُ
ويروغُه ظَنِيّ الحِمَى المكْحُولُ
فالحرُّ عبْدٌ والعَزِيز ذَلِيْلُ
هل ساعةٌ تَضْغِين لي فأقولُ
أرتاحُ شوقاً للحِمَى وأَمِيْلُ
إن الصَّبَا لصَبَابتي تَعْلِيْلُ
وأذاذُ عَنْه وورْدُه مَنهولُ^(٥)

لَمِن الرِّكائب سَيَرَهَن دَمِيْلُ^(١)
يا أيها الحادي رُوَيْدَكَ^(٢) إِنَّهَا
رفقاً بَمَن حملته فوقَ ظهورها
لله آيةٌ أنجم : شَفَافَة
شُهْبٌ بآفاق الصدور طلوعها
في الهَوْدَجِ المَزْرُورِ منها غادةٌ
فكأنّها قر على غُصْنٍ على
ثارت مطايا فثارَ بي الهَوَى
أومت لتوديعي فغالبَ عِزِّي
دمعُ أُعْيَضَ منه خوفُ رقيها
ويعحُ الحبُّ وشتَ به عِبرَاتُه
صانُ الهَوَى وجفونُه يوم النَوَى
وتهايُه أَسْدُ السَّرَى في خيسها^(٤)
تأبى النفوسُ الضَّيْمَ إلاَّ في الهَوَى
يا بانه الوادي ويا أهلَ الحِمَى
مالي إذا هبَّ النسيم من الحِمَى
خلّوا الصَّبَا يَخْلُصُ إليّ نَسِيْمُهَا
مالي أحلاً عن ورود محلّه

(١) الذميل : ضرب من سير الإبل فوق التريد .

(٢) رويدك : اسم فعل بمعنى أمهل .

(٣) جمع ظئنة ؛ وهي المرأة تكون في الهودج ، والهودج نفسه .

(٤) الخيس : موضع الأسد .

(٥) حلاً الإبل عن ورود الماء : منعها ، وذادها .

والباب ليس بمرتج^(١) عن مرتج^(٢)

ما مثله في المرسلين رسول
والجتنى وله انتهى التفضيل
أثنى عليه الوحي والتزييل
قلب النبي محمد جبريل
بقدمك التوراة والانجيل
مهما تكرّر ذكرك المعسول
قلباً بحبك ربّعه مأهول
خير الوری فهو المنى والسؤل
إن الزمان بوغده لبخيل
إن الجرائم حملهنّ ثقیل
فتحاوزوا أنا عائر فأقيلوا
فأمنوا والمرتجى فأنيلوا
والقلب بين حمولة^(٤) محمول
فدماؤه بمحمد موصول
يُسمع هناك دعاؤك المقبول

فلکم لکمه نحو الرسول رسول
يا جّذاک المَحْمِلُ المحْمُولُ
سيفٌ على أعدائیه مسلُولُ
فلهم به نحو الرسول وُصول^(٥)

من لي بزورة روضة الهادي الذي
هو أحمد ومحمد والمصطفى
يا خير من أهدى الهدى وأجل من
وحي من الرحمن يُلقيه على
مدحتك آيات الكتاب وبشرت
صلة الصلاة عليك تحلو في فمي
فور بعك المأهول إن بأضلعي
هل من سبيل للسرى حتى أرى
حتام تطلني الليالي وغدها
ما عاقني إلا عظيم جرائم
أنا مغمم فتعطفوا أنا مذب
وأنا البعيد فقرّبوا والمستجير
يا سائقاً نحو الحجاز حمولة^(٣)
لمحمد بلغ سلام سميّه
وسل الاله له اغتفار ذنوبه

وعن الملك أبي سعيد فلتنب
متحمّل لله كسوة بيتيه
سعد الملك أبي سعيد إنه
ملك يحج المغرب الأقصى به

(١) باب مرتج : مغلق .

(٢) من الرجاء .

(٣) الحمولة (بالفتح) : ما يحمل عليه الناس من الدواب .

(٤) المحمول جمع حمل ، وهو ما حمل على ظهر الدابة .

(٥) كانت العناية التي يلقاها الحجاج المغاربة من ملوك مصر ، مما يقدره ملوك المغرب التقدير الجميل ، وكان

مما يقلقهم ان يتعرض وفد الحجاج المغاربة للمتاعب في سفره . صبح الأعشى ٢٥٠/٩ .

مَلِكٌ بِهِ نَامَ الْأَنَامُ وَأَمَّنْتُ
فَالْمَلِكُ ضَخْمٌ وَالْجَنَابُ مُؤَمَّلٌ
وَالصُّنْعُ أَجْمَلُ وَالْفَخَارُ مُؤَثِّلُ
يَا مَالِكَ الْبَحْرَيْنِ بُلُغْتَ الْمُنَى
يَا خَادِمَ الْحَرَمَيْنِ حُقَّ لَكَ الْهَنَاءُ
يَا مُتَحَنِّنِي وَمُقَاتِلِي بِرِسَالَةٍ
أَهْدَيْتَهَا حَسَنَاءَ بَكْرًا مَا لَهَا
ضَاءَ الْمِدَادُ مِنَ الْوِدَادِ بِصُحُفِهَا
جُمِعَتْ وَحَامِلُهَا بِحَضْرَتِنَا كَمَا
وَتَأَكَّدَتْ بِهَدْيَةٍ وَدِيَّةٍ
أَطْلَعَتْ فِيهَا لِلْقِسِيِّ أَهْلًا
وَحُسَامَ نَصْرٍ زَاهِيًا بِنُضَارِهِ
مَاضِي الشَّبَابِ^(٥) لِمَصَابِهِ تَعْنُو الطُّبَا
وَبَدَائِعَ الْحُلَلِ الْمَائِنَةِ الَّتِي
فَأَجَلَتْ فِيهَا نَاطِرِي فَرَأَيْتُهَا
جَلَّتْ مَحَاسِنُهَا فَأَهْوَى نَحْوَهَا
يَا مُسْعِدِي وَأَخِي الْعَزِيزَ وَمُنْجِدِي
إِنْ كَانَ رِسْمُ الْوُدِّ مِنْكَ مَذْبِلًا
فَنَظِيرُهُ عِنْدِي وَلَيْسَ يَضِيرُهُ
وَدٌّ «يَزِيدُ» وَ«ثَابِتٌ» شَهِدَا بِهِ
وَالْيَكْهَمَا تُنْبِئُكَ صَدَقَ مَوَدَّتِي
فَإِذَا بِذَاكَ الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ سَمَتْ

سُبُلَ الْمَخَافِ^(١) فَلَا يَخَافُ سَبِيلُ
وَالْفَضْلُ جَمٌّ وَالْعَطَاءُ جَزِيلُ
وَالْمَجْدُ أَكْمَلُ وَالْوَفَاءُ أَصِيلُ
قَدْ عَادَ مِصْرُ عَلَى الْعِرَاقِ يَصُولُ
فَعَلَيْكَ مِنْ رَوْحِ^(٢) الْإِلَهِ قَبُولُ
سَلَسَالَةٍ يُزْهِى بِهَا التَّرْسِيلُ
غَيْرِي ، وَإِنْ كَثُرَ الرِّجَالُ ، كَفِيلُ
حَتَّى اضْمَحَلَّ عُبُوسُهُ الْمَجْبُولُ^(٣)
جُمِعَتْ بُشِينَةٌ فِي الْهَوَى وَجَمِيلُ^(٤)
هِيَ لِلْإِخْيَاءِ الْمُرْتَضَى تَكْمِيلُ
يَرْتَدُّ عَنْهَا الطَّرْفُ وَهُوَ كَلِيلُ
رَاقٍ الْعَيُونَ فِرْنَسْدُهُ الْمَغْسُولُ
فِيهِ تَصُولُ عَلَى الْعِدَا وَتَطُولُ
رَوَى مَعَاطِفَهَا بِمِصْرِ النَّيْلِ
تُحَفًّا بِمَجُولِ الْحَسَنِ حَيْثُ تَجُولُ
بِقَمِّ الْقَبُولِ اللَّثْمُ وَالتَّقْيِيلُ
وَمِنْ الْقُلُوبِ إِلَى هَوَاهُ تَمِيلُ
بِالْبَرِّ وَهُوَ بِذَيْلِهِ مَوْصُولُ
بِمَعَارِضٍ وَهُمْ وَلَا تَخْيِيلُ
و«لِخَالِدٍ» بِخُلُودِهِ تَذْيِيلُ
صَحَّ الدَّلِيلُ وَوَافَقَ الْمَدْلُولُ
فَلَدَيْكَ إِقْبَالٌ لَهَا وَقَبُولُ

(١) المخاف : موضع الخوف .

(٢) روح الاله : رحمته .

(٣) يعني : اضمحلَّ العُبُوسُ الطَّبِيعِي .

(٤) جميل بن عبدالله بن معمر العذري ، وبشينة صاحبتة التي عشقها منذ أيام صباه .

(٥) الشبابة : حد السيف وطرفه ، والجمع شبَابٌ .

دام الودادُ على البِعَادِ موَصَّلاً بينَ القُلُوبِ وَحِلاً — موَصُولُ
وَبَقِيَتْ فِي نِعَمٍ لَدَيْكَ مَزِيدُهَا وَعَلَيْكَ يَضْفُو ظِلُّهَا الْمَسْدُولُ

ثُمَّ مَرُّوا بَعْدَهَا بِتُونِسَ ، فَبَعَثَ سُلْطَانُ تُونِسَ أَبُو فَارِسَ عَبْدَ الْعَزِيزِ ابْنَ السُّلْطَانِ أَبِي الْعَبَّاسِ مِنْ مُلُوكِ الْمُوَحِّدِينَ ، هَدِيَّةً ثَالِثَةً انْتَقَى لَهَا جِيَادَ الْخَيْلِ ، وَعَزَّزَ بِهَا هَدِيَّةَ السُّلْطَانِينَ وَرَأَاهُ ، مَعَ رَسُولِهِ مِنْ كِبَارِ الْمُوَحِّدِينَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ تَافَرَاكِينَ ، وَوَصَلَتْ الْهَدَايَا الثَّلَاثُ إِلَى بَابِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ فِي آخِرِ السَّنَةِ ، وَعُرِضَتْ بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ ، وَانْتَهَبَ الْخَاسِكِيَّةُ مَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْأَقْمِشَةِ وَالسُّيُوفِ وَالْبُسُطِ وَمَرَكَبِ الْخَيْلِ ، وَحَمَلَ كَثِيرًا مِنْهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ تِلْكَ الْجِيَادِ وَارْتَبَطَ الْبَاقِيَاتُ .

وَكَانَتْ هَدِيَّةُ صَاحِبِ الْمَغْرِبِ تَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسَةِ وَثَلَاثِينَ مِنْ عِتَاقِ الْخَيْلِ بِالسُّرُوجِ وَاللُّجَمِ الذَّهَبِيَّةِ ، وَالسُّيُوفِ الْمُحَلَّلَةِ ، وَخَمْسَةِ وَثَلَاثِينَ جِمَلًا مِنْ أَقْمِشَةِ الْحَرِيرِ وَالْكُتَّانِ وَالصُّوفِ وَالْجُلْدِ ، مُتَقَاةً مِنْ أَحْسَنِ هَذِهِ الْأَصْنَافِ .
وَهَدِيَّةُ صَاحِبِ تَلَمْسَانَ تَشْتَمِلُ عَلَى ثَلَاثِينَ مِنَ الْجِيَادِ بِمَرَكَبِهَا الْمُمَوَّهَةِ ، وَأَحْمَالًا مِنْ الْأَقْمِشَةِ .

وَهَدِيَّةُ صَاحِبِ تُونِسَ تَشْتَمِلُ عَلَى ثَلَاثِينَ مِنَ الْجِيَادِ مُغَشَّاةً بِبَرَاقِعِ الثِّيَابِ مِنْ غَيْرِ مَرَكَبٍ ، وَكُلُّهَا أُنِيقَ فِي صُنْعِهِ مُسْتَطَرَفٌ فِي نَوْعِهِ ؛ وَجَلَسَ السُّلْطَانُ يَوْمَ عَرْضِهَا جُلُوسًا فَخْمًا فِي إِيْوَانِهِ ، وَحَضَرَ الرُّسُلَ ، وَأَدَّوْا مَا يَجِبُ عَنْ مُلُوكِهِمْ . وَعَامَلَهُمُ السُّلْطَانُ بِالْبَرِّ وَالْقَبُولِ ، وَانصَرَفُوا إِلَى مَنَازِلِهِمْ لِلْجَرَائِاتِ الْوَاسِعَةِ ، وَالْأَحْوَالِ الضَّخْمَةِ . ثُمَّ حَضَرَ وَقْتُ خُرُوجِ الْحَاجِّ ؛ فَاسْتَأْذَنُوا فِي الْحَجِّ مَعَ مَحْمِلِ السُّلْطَانِ ، فَأَذِنَ لَهُمْ ، وَأَرْغَدَ أَرْوَدَتِهِمْ . وَقَضَوْا حَجَّتَهُمْ ، وَرَجَعُوا إِلَى حَضْرَةِ السُّلْطَانِ وَمَعَهُودِ مَبَرَّتِهِ . ثُمَّ انصَرَفُوا إِلَى مَوَاطِنِهِمْ ، وَشَبَّعَهُمْ مِنْ بَرِّ السُّلْطَانِ وَإِحْسَانِهِ ، مَا مَلَأَ حَقَائِبَهُمْ ، وَأَسْنَى ذَخِيرَتَهُمْ ، وَحَصَلَ لِي أَنَا مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ فِي الْفَخْرِ ذِكْرٌ جَمِيلٌ بَهَا تَنَاولْتُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ مِنَ السَّعْيِ فِي الْوُصْلَةِ الْبَاقِيَةِ عَلَى الْأَبَدِ ، فَحَمَدْتُ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ .

* (وَاِلَايَةِ الْقَضَاءِ الثَّانِيَةِ بِمِصْرَ) *

مَا زِلْتُ ، مِنْذُ الْعَزْلِ عَنْ الْقَضَاءِ الْأَوَّلِ سَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، مَكْبَأً عَلَى

الاشتغال بالعلم ، تأليفاً وتدريساً ؛ والسلطان يولي في الوظيفة من يراه أهلاً متى دعاه إلى ذلك داع ، من موت القائم بالوظيفة ، أو عزله ؛ وكان يراني الأوّل بذلك ، لولا وجود الذين شَغَبُوا من قبلُ في شأني ، من أمراء دولته ، وكبار حاشيته ، حتى انقرضوا . واتفقت وفاة قاضي المالكية إذ ذاك ناصر الدين بن التَّنَسِي (١) ، وكنتُ مقيماً بالفيوم لضمّ زرعِي هنالك ؛ فبعث عني ، وقلّدي وظيفة القضاء في منتصف رمضان من سنة إحدى وثمانمائة ؛ فجريت على السّنّ المعروف مني ، من القيام بما يجب للوظيفة شرعاً وعادة ؛ وكان رحمه الله يرَضِي بما يَسْمَع عني في ذلك . ثم أدركته الوفاة في منتصف شوال بعدها ، وأخضر الخليفة والقضاة والأمراء ، وعهد إلى كبير أبنائه فرج ، ولأخوته من بعده واحداً واحداً ، وأشهدهم على وصيته بما أراد . وجعل القائم (٢) بأمر ابنه في سلطانه إلى أتاكبه ايتمش (٣) ، وقضى رحمة الله عليه ، وترتبت الأمور من بعده كما عهد لهم ، وكان النائب بالشام يومئذ أمير من خاسكية السلطان يعرف بتم (٤) ، وسمع بالوقائع بعد السلطان ففصّل أن لم يكن هو كافل ابن الظاهر بعده ، ويكون زمام الدولة بيده . وطفق سَمَاسِرَةُ الفتن يُغَرُونَهُ بذلك ، وبينما هم في ذلك إذ وقعت فتنة الأتابك (٥) أيتمش ، وذلك أنه كان للأتابك دَوادار غرّ يتناول إلى الرئاسة ، ويرتفع على أكابر الدولة بحظه من أستاذه ، وما له من الكفالة على السلطان ؛ فنقموا حالهم مع هذا الدَوادار ، وما يسؤمهم به من الترفع عليهم ، والتعرض لإهمال نصائحهم ؛ فأغروا السلطان

(١) هو أحمد بن محمد بن عطاء الله بن عوض الزبيرى الاسكندري المالكي المشهور بابن التنسي (بفتح التاء والنون وكسر السين المهملة) ، ولد سنة ٧٤٠ ، وتوفي سنة ٨٠١ .

(٢) كذا بالأصل ؛ ولعلها «القيام بأمر» .

(٣) هو أيتمش بن عبدالله الأندمري البجاسي الجرجاني الأمير سيف الدين ؛ أتابك العساكر بالديار المصرية ؛ أصله من مماليك اسدمر البجاسي الجرجاني (نسبة إلى جرجي نائب حلب) وكان ملك ايتمش قبل أن يحorre الظاهر بقوق .

(٤) الأمير سيف الدين تم بن عبدالله الحسني الظاهري ؛ اسمه الأصلي تنبك ؛ وغلب عليه «تم» ؛ كان نائب دمشق ؛ وهو من مماليك الظاهر بقوق ؛ قتل سنة ٨٠٢ بقلعة دمشق .

(٥) يطلق «اتابك» في أيام الممالك ؛ على مقدم العساكر أو القائد العام ؛ على انه أبو العساكر والامراء جميعاً . وهو مركب من كلمتين : «أنا» بمعنى «أب» ؛ و«بك» ومعناها أمير . صبح الأعشى ١٨/٤ ، ١/٦ .

بالخروج من ريقه الحجر ، وأطاعهم في ذلك ، وأحضر القضاة بمجلسه للدعوى على الأتابك باستغناؤه عن الكافل ، بما عُلِمَ من قيامه بأمره وحُسن تصرفاته . وشهد بذلك في المجلس أمراء أبيه كافة ، وأهلُ المراتب والوظائف منهم ، شهادةً قبلها القضاة . وأعذروا إلى الأتابك فيهم فلم يدفع في شيء من شهادتهم ، ونفذ الحكم يومئذ برفع الحجر عن السلطان في تصرفاته وسياسة مملكه ، وانفضَّ الجمع ، ونزل الأتابك من الإسطنبول إلى بيت سُكناه . ثم عاود الكثير من الأمراء نظرهم فيما أتوه من ذلك ؛ فلم يروهُ صواباً ، وحملوا الأتابك على نقضه ، والقيام بما جعل له السلطان من كفالة ابنه في سلطانه . وركب ، وركبوا معه في آخر شهر المولد النبوي ، وقتلهم أولياء السلطان فرج عشيَّ يومهم وليلتها ؛ فهزموهم ، وساروا إلى الشام مستصرخين بالنائب تنم ، وقد قر في نفسه ما قر من قبل ؛ فبر وفادتهم ، وأجاب صريخهم . واعتزموا على المضي إلى مصر . وكان السلطان لما انفضت جموع الأتابك ، وسار إلى الشام ، اعتمله في الحركة والسفر لخضد شوكتهم ، وتفريق جماعتهم ؛ وخرج في جمادى حتى انتهى إلى غزة ، فجاءه الخبر بأن نائب الشام تنم ، والأتابك ، والأمراء الذين معه ، خرجوا من الشام زاحفين للقاء السلطان ، وقد احتشدوا وأوعبوا ، وانتهوا قريباً من الرملة ^(١) ؛ فراسلهم السلطان مع قاضي القضاة الشافعي صدر الدين المناوي ^(٢) ، وناصر الدين الرماح ، أحد المعلمين لثقافة الرماح ، يُعذِر إليهم ، ويخيلهم على اجتماع الكلمة ، وترك الفتنة ، وإجابتهم إلى ما يطلبون من مصالحهم ؛ فاشتطوا في المطالب ، وصمموا على ما هم فيه . ووصل الرسولان بخبرهم ، فركب السلطان من الغد ، وعبى عساكره ، وصمم لمعاجلتهم ؛ فلقيهم أثناء طريقه ، وهاجمهم فهاجموه ، ثم ولّوا الأدبار منهزمين . وصُرع الكثير من أعيانهم وأمرائهم في صدر موكبه ، فغاشيهم الليل إلا وهم مصفدون في الحديد ، يقدّمهم الأمير تنم نائب الشام وأكابرهم كلهم . ونجا الأتابك أيتمش إلى القلعة بدمشق ، فأوى إليها ، واعتقله نائب القلعة . وسار السلطان إلى دمشق ؛ فدخلها على التعبئة في يوم أغر ، وأقام بها أياماً ، وقتل هؤلاء

(١) الرملة : مدينة بفلسطين بينها وبين القدس نحو ١٨ ميلاً ؛ كانت ذا شأن عظيم في الحروب الصليبية

(معجم البلدان) .

سدر الدين محمد بن ابراهيم بن اسحق الشافعي .

الأمراء المعتقلين ، وكبيرهم الأتابك ذبحاً ، وقتلَ تَينَم من بينهم خَنَقاً ، ثم ارتحل راجعاً إلى مصر .

وكنْتُ استأذنتُ في التقدُّم إلى مصر بين يَدَي السُلطان لزيارة بيت المقدس ، فأذن لي في ذلك . ووصلتُ إلى القدس ودخلت المسجد ، وتبرَّكت بزيارته والصَّلَاة فيه ، وتعفَّفتُ عن الدخول إلى القُمامة ^(١) لما فيها من الإشادة بتكذيب القرآن ، إذ هو بناءُ أُم النصرانية على مكان الصَّليب بزعمهم ، فنكرتُه نَفْسِي ، ونكرتُ الدُّخول إليه . وقضيت من سُنن الزيارة ونافلتيها ما يجب ، وانصرفتُ إلى مدفن الخليل عليه السلام . ومررتُ في طريقي إليه بيت لَحْم ، وهو بناءٌ عظيم على موضع ميلاد المسيح ، شيدت القياصرة عليه بناءً بسياطين من العَمَد الصَّخُور ، مُنَجِّدة مضطَّعة ، مرقوماً على رؤوسها صُورُ ملوك القياصرة ، وتوارىخ دُولهم ، مُبَسَّرة لمن يتنَّغي تحقيق نَفْلِها بالتَّراجمة العارفين لأوضاعها ؛ ولقد يشهد هذا المصنَّع بعِظَم مُلك القياصرة وضخامة دولتهم . ثم ارتحلتُ من مدفن الخليل إلى غَزَّة ، وارتحلتُ منها ، فوافيتُ السُلطان بظاهر مِصر ، ودخلتُ في رِكابه أواخر شهر رمضان سنة إثنين وثمانائة . وكان بمصر فقيه من المالكية يعرف بنور الدين بن الخلال ^(٢) ، ينوب أكثر أوقاته عن قُضاة القضاة المالكية ؛ فحرَّضه بعض أصحابه على السَّعي في المنصب ، وبذل ما تيسَّر من مَوجوده لبعض بطانة السُلطان الساعين له في ذلك ، فتمَّت سِعايته في ذلك ، وليسَ منتصفَ المحرم سنة ثلاث وثمانائة ؛ ورجعتُ أنا للإشغال بما كنتُ مشغولاً به من تدريس العلم وتأليفه ، إلى أن كان السَّفر لمدافعة تمر عن الشام .

* (سفر السُلطان إلى الشام لمدافعة الططر عن بلاده) *

هؤلاء الططر من شعوب الترك ، وقد اتفق النسابة والمؤرخون على أن أكثر أُم العالم فرقان ، وهما : العرب والترك ، وليس في العالم أمة أوفرَ منها عدداً ، هؤلاء في

(١) القمامة (بالضم) : كنيسة كبرى ببيت المقدس . تاج العروس (قم) (معجم البلدان) .

(٢) علي بن يوسف بن عبدالله (أو ابن مكِّي) الدميري (أو الزبيري) ، المعروف بابن الخلال المالكي .

جنوب الأرض ، وهؤلاء في شمالها ، وما زالوا يتناوبون الملك في العالم ؛ فتارةً يملك العرب ويَزْحلون^(١) الأعاجم إلى آخر الشمال ، وأخرى يزحلهم الأعاجم والترك إلى طرف الجنوب ، سنة الله في عباده .

فلنذكر كيف انساق الملك لهؤلاء الططر^(٢) ، واستقرت الدول الإسلامية فيهم لهذا العهد فنقول : إن الله سبحانه خلق هذا العالم واعتمره بأصناف البشر على وجه الأرض ، في وسط البقعة التي انكشفت من الماء فيه ، وهي عند أهل الجغرافيا مقدار الربع منه ، وقسموا هذا المعمور بسبعة أجزاء يُسمونها الأقاليم ، مبتدأة من خط الإستواء بين المشرق والمغرب ، وهو الخط الذي تسامت الشمس فيه رؤوس السكان ، إلى تمام السبعة أقاليم . وهذا الخط في جنوب المعمور ، وتنتهي السبعة الأقاليم في شماله . وليس في جنوب خط الإستواء عمارة إلى آخر الربع المنكشف ، لإفراط الحر فيه ، وهو يمنع من التكوين ؛ وكذلك ليس بعد الأقاليم السبعة في جهة الشمال عمارة ، لإفراط البرد فيها ، وهو مانع من التكوين أيضاً . ودخل الماء المحيط بالأرض من جهة الشرق فوق خط الإستواء بثلاث عشرة درجة ، في مدخل فسيح ، وانساح مع خط الاستواء مغرباً ؛ فمر بالصين ، والهند والسند واليمن ، في جنوبها كلها . وانتهى إلى وسط الأرض ، عند باب المندب^(٣) ، وهو البحر الهندي والصيني ، ثم انحرف من طرفه الغربي في خليج عند باب المندب ، ومر في جهة الشمال مغرباً باليمن وتهامة والحجاز ومدين^(٤) وأيلة^(٥) وفاران^(٦) ، وانتهى إلى

(١) زحل عن مكانه : زل . وبعد .

(٢) كذا بالأصل . وهي : التتر .

(٣) باب المندب : هو المضيق الواقع في النهاية الجنوبية للبحر الأحمر .

(٤) Midian : مقاطعة في شمال الحجاز تمتد على الساحل الشرقي للبحر الأحمر إلى مبدأ خليج العقبة . وفي الجهة الشرقية منها يقع جبل الصفاة .

(٥) أيلة (Aila أو Ailat) : ميناء واقع في الزاوية الشمالية الشرقية لخليج العقبة . وكان في القديم مدينة تجارية ذات أهمية كبرى . وقد ورد ذكرها في التوراة : في سفر الملوك ٩ : ٢٦ . ٢٧ . خطط المقريري ٢٩٨/١ (طبع مصر) .

(٦) فاران : مدينة كانت على ساحل بحر القلزم بناحية الطور . ويقول المقريري في الخطط (١/٣٠٤ طبع مصر) : «... وكانت مدينة فاران من جملة مدائن مدين إلى اليوم . وبها نخل كثير مشمر . أكلت من ثمره ، وبها نهر عظيم ، وهي خراب يمر بها العربان» .

مدينة القلزم^(١) ، ويُسمى بحر السويس ، وفي شرقيه بلاد الصَّعيد إلى عَيْذاب^(٢) ، وبلاد البُجاة^(٣) ؛ وخرج من هذا البحر الهندي من وسطه خليج آخر يُسمى الخليج الأخضر^(٤) ، ومَرَّ شمالاً إلى الأبله^(٥) ، ويسمى بحر فارس^(٦) ، وعليه في شرقيه بلاد فارس^(٧) ، وكِرْمَان^(٨) ، والسِّند^(٩) ؛ ودخل الماء أيضاً ، من جهة الغرب في خليج مُتضايق في الإقليم الرابع ، ويُسمى بحر الرُّقاق^(١٠) ، تكون سعته هنالك ثمانية عشر ميلاً . ويمرُّ مُشرقاً ببلاد البربر ، من المغرب الأقصى والأوسط وأرض إفريقية والإسكندرية وأرض التَّيه^(١١) وفلسطين والشام ؛ وعليه في الغرب بلاد الإفرنج كلها ؛ وخرج منه في الشمال خليجان : الشرقي منها خليج القُسطنطينية^(١٢) والغربي خليج البَنادقة ، ويُسمى هذا البحر البحرَ الروسي ، والشامي .

ثم إن هذه السبعة الأقاليم المعمورة ، تنقسم من شرقيها وغربيها بنصفين : فنصفها

(١) القلزم بالضم ثم السكون ثم زاي مضمومة : بلد ساحلية بجوار السويس والطور ، واليا ينسب البحر . فيقال بحر القلزم ، ويقول ياقوت في معجم البلدان : «... وأما اليوم فهي خراب يباب ، وصار الميناء إلى مدينة قربها يقال لها السويس» .

(٢) عيذاب : مدينة مصرية على الساحل الإفريقي للبحر الأحمر ، وكانت في العصور الوسطى ميناء مهماً للحجاج الذين يقصدون مكة من الغرب ، ومحطة للسفن الهندية التي كانت تأتي من عدن . ولتجار إفريقية الوسطى ، (معجم البلدان) .

(٣) البجاة ، ويقال البجة : مجموعة من القبائل الحامية تسكن فيما بين النيل والبحر الأحمر ؛ واسمها «البجة» قديم يرجع إلى ما قبل الاسلام ، الخطط (طبع مصر ١/٣١٣ - ٣١٩) . صبح الأعشى ٥/٢٧٣ .

(٤) يريد بالخليج الأخضر خليج عمان .

(٥) ضبطها ابن خلدون بضم الهزة والباء الموحدة ، وتشديد اللام المفتوحة ؛ وهي مدينة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة . معجم البلدان ، صبح الأعشى ٤/٣٣٦ .

(٦) يسمى بحر فارس اليوم ، الخليج الفارسي .

(٧) فارس ، أو بلاد العجم : هي التي تعرف اليوم باسم إيران اشتقاقاً من كلمة «آرية» وتدل الآن على المملكة الفارسية . (معجم البلدان) .

(٨) كرمان : إحدى المدن الجبلية من مدن إيران : وكانت في القديم ولاية تفصل بين فارس في الغرب . وصحارى لوط في الشرق . (معجم البلدان) .

(٩) السند : بلاد كانت تفصل بين الهند وكرمان ، وبعضهم كان يعد من إقليم السند بلاد مكران الواقعة في جنوب فارس . (معجم البلدان) .

(١٠) هو مضيق جبل طارق الآن .

(١١) أرض التيه : هي شبه جزيرة سيناء اليوم .

(١٢) يتحدث الآن عن بحاريجة الذي يصل البحر الأبيض عن طريق الدردنيل ، والبوسفور بالبحر الأسود .

(١٣) خليج البنادقة ؛ هو البحر الادرياتي الذي يقع في نهايته الشمالية خليج البندقية . صبح الأعشى ٥/٤٠٤ وما بعدها .

الغربي في وسطه البحرُ الرُّومِيّ ، وفي النصف الشرقي من جانبه الجنوبي البحر الهندي ؛ وكان هذا النصف الغربيّ أقلَّ عِمارَةً من النصف الشرقي ، لأنَّ البحرُ الرُّومِيّ المتوسط فيه ، انفسَحَ في انسياحه ، فغمرَ الكثيرَ من أرضه . والجانبُ الجنوبيُّ منه قليلُ العِمارَةِ لشِدَّةِ الحرِّ ؛ فالعمران فيه من جانب الشَّمالِ فقط ، والنصف الشرقي عُمرانه أكثرُ بكثيرٍ ، لأنَّه لا بحر في وسطه يُزاحم . وجانبه الجنوبي فيه البحر الهنديّ ، وهو مُتَّسِعٌ جدًّا ؛ فلطُفَ الهواء فيه بمجاورة الماء ، وعدَّلَ مِزَاجَهُ للتَّكوينِ ؛ فصارت أقاليمُهُ كُلُّها قابلةً للعِمارَةِ ؛ فكثُرَ عُمرانه . وكان مبدأُ هذا العمران في العالم ، من لَدُنْ آدَمَ صلواتُ الله عليه ، وتناسل ولده أولاً في ذلك النصف الشرقيّ ، وبادت تلك الأمم ما بينه وبين نوح ، ولم نَعْلَمْ شيئاً من أخبارها ، لأنَّ الكُتُبَ الإلهية لم يرد علينا فيها إلا أخبارُ نوح وبَنِيهِ ؛ وأما ما قبل نوح فلم نَعْرِفْ شيئاً من أخباره ؛ وأقدَمَ الكُتُبِ المتزلة المتداولة بين أيدينا التوراةُ ، وليس فيها من أخبار تلك الأجيال شيء ، ولا سبيل إلى اتصال الأخبار القديمة إلا بالوحي ؛ وأما الأخبار فهي تَدْرُسُ بدروس أهلها .

واتفق النَّسَّابون على أن النسل كُلَّهُ منحصر في بني نوح ، وفي ثلاثة من ولده ، وهم سَامٌ ، وحَامٌ ، ويافِثٌ ؛ فمن سَامَ : العرب ، والعِبرانيُّون ، والسَّبَّائِيُّونَ^(١) ؛ ومن حَامَ : القِبط ، والكَنْعَانِيُّونَ ، والبربر ، والسُّودان ؛ ومن يافِثَ : التُّرك ، والروم ، والخَزَرُّ^(٢) ، والفُرس ، والدَّيْلَمُ ، والجِيلُ .

ولا أدري كيف صَحَّ انحصارُ النَّسَبِ في هؤلاء الثلاثة عند النَّسَّابين ؛ أَمِنْ النُّقل ؟ وهو بعيدٌ كما قدَّمناه ، أو هو رأي تفرَّعَ لهم من انقِسامِ جَمَاعَةِ المَعْمُورِ ؛ فجعلوا شعوب كلِّ جهة لأهل نَسَبٍ واحدٍ يشتركون فيه ؛ فجعلوا الجنوب لبني سَامَ ، والمغرب لبني حَامَ ، والشمال لبني يافِثَ . إلا أنَّه المتناقل بين النَّسَّابة في العالم ، كما قلناه ، فلنعتده ونقول : أولُ من ملك الأرض من نَسْلِ نوح عليه السَّلام ، التَّمرود بن كَنْعَانَ بن كوش بن حام ووقع ذكره في التوراة . وملك بعده عابر بن شالغ الذي يُنسَبُ إليه

(١) كذا في الأصل . ولعلها : «السريانيون» .

(٢) ضبطه ابن خلدون بفتح الخاء والزاي ؛ وفي «تثقيف اللسان» لأبي جعفر عمر بن مكي الصقلي «... ويقولون لقبيلة من الترك الخَزَرُ بفتح الخاء والزاي والصواب الخَزَرُ بضم الخاء واسكان الزاي ، ويقال انهم سموا بذلك لخَزَرِ أعينهم» أي ضيقها .

العبرانيون ، والسُريانيون ، وهم النَّبَط ، وكانت لهم الدَّولة العظيمة ، وهم ملوك بابل ، من نَبِيط بن أَشُور بن سام ، وقيل نَبِيط بن ماش بن إرم ؛ وهم ملوك الأرض بعد الطوفان على ما قاله المَسْعُودِي . وغلبهم الفُرس على بَابِل ، وما كان في أيديهم من الأرض ، وكانت يومئذ في العالم دولتان عظيمتان ، للملك بابل هؤلاء ، وللقيب بمصر : هذه في المغرب ، والأخرى في المشرق ؛ وكانوا ينتحلون الأعمال السحرية ، ويُعولون عليها في كثير من أعمالهم ، وبَرَّابِي مِصر^(١) ، وفلاحَةُ ابن وحشية ، يشهدان بذلك . فلما غلب الفُرس على بابل ، استقلَّ لهم ملك المشرق ، وجاء موسى — صلوات الله عليه — بالشرِعة الأولىَّة ، وحَرَّمَ السَّحَر وطُرُقَه ، وغلب الله له القِبْط بِإِغْرَاقِ فِرْعَوْنَ وقومه ؛ ثم مَلَكَ بنو إِسْرَائِيلَ الشَّامَ ، واحتطَّوا بيت المقدس ، وظهر الرومُ في ناحية الشمال والمغرب ، فغلبوا الفُرس الأولى على مُلكهم . ومَلَكَ ذو القرنين الإسكندر ما كان بأيديهم ؛ ثم صار ملك الفُرس بالمشرق إلى ملوكهم السَّاسانية ، ومَلَكَ بني يونان بالشَّام والمغرب إلى القياصرة ، كما ذكرنا ذلك كُلَّه من قَبْل . وأصبحت الدولتان عظيمتين ، وانتظمتا العالم بما فيه . ونازع التركُ ملوكَ فارس في خراسان^(٢) ، وما وراء النهر^(٣) ، وكانت بينهم حُرُوبٌ مشهورة ، واستقرَّ ملكُهم في بَنِي أَفْرَاسِيَاب ؛ ثم ظهر خاتِمُ الأنبياء مُحَمَّدٌ صلوات الله عليه ، وجمع العرب على كلمة الإسلام ، فاجتمعوا له ، «لَوَانْفَقَتْ ما في الأرض جميعاً ما أَلَفَتْ بين قلوبهم ولكنَّ الله أَلَفَ بينهم»^(٤) ، وقبضه الله اليه ، وقد أَمَرَ بالجهاد ، ووعد عن الله بأن الأرض لأُمَّته ، فزحفوا إلى كِسْرَى ، وقبضَ بعد ستين من وفاته ، فانتزعوا المُلك من أيديهما ، وتجاوزوا الفُرس إلى التُّرك ، والروم إلى البَرْبَر والمغرب ، وأصبح العالم كُلُّهُ مُنْتَظِماً في دَعْوَةِ الإسلام . ثم اختلف أهل الدين من بعده في رجوعهم إلى من ينظم أمرهم ، وتشيع قوم من العرب فزعموا أنه

(١) كان القدماء يعتقدون أن الرسوم التي توجد على البرابي ، والمعابد المصرية القديمة . ليست الاطلاسم . وأوفاً . نقشَت على جدرانها ليكون لها مفعول سحري معين : خطط المقريري ٤٨/١ طبع مصر . معجم البلدان «برابي» .

(٢) تطلق خراسان اليوم على القسم الشرقي لايران . الذي يتصل بافغانستان . وقد فتحت خراسان سنة ٣١ هجرية في أيام عثمان رضي الله عنه . (معجم البلدان) .

(٣) ما وراء النهر : إقليم مشهور يقع فيما وراء نهر جيحون «وهو المراد بالنهر» . (معجم البلدان) .

(٤) الآية ٦٣ من سورة الأنفال .

أوصى بذلك لابن عمه عليّ ، وامتنع الجماعة من قبول ذلك ، وأبوا إلا الاجتهاد في تعيينه ، فمضى على ذلك السلف في دولة بني أمية التي استفحل الملك والإسلام فيها ، وتناقل التشيع بتشعب المذاهب ، في استحقاق بني عليّ ، وأيهم يتعين له ذلك ، حتى انساق مذهب من مذاهيمهم إلى محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس ^(١) ؛ فظهرت شيعة بخراسان ، وملكوا تلك الأرض كلها ، والعراق بأسره . ثم غلبوا على بني أمية ، وانترعوا الملك من أيديهم ، واستفحل ملكهم ، والإسلام باستفحاله ، وتعدّد خلفاؤهم . ثم خامر الدولة ما يخامر الدول من الترف والراحة ؛ ففشلوا . وكثر المنازعون لهم من بني عليّ وغيرهم ؛ فظهرت دولة لبني جعفر الصادق بالمغرب ، وهم العبيديون ^(٢) بنو عبيد الله المهدي بن محمد ، قام بها كرامة وقبائل البربر ، واستولوا على المغرب ومصر ؛ ودولة بني العلوي بطبرستان ، قام بها الديلم وإخوانهم الجيل ، ودولة بني أمية النائية بالأندلس ، لأن بني العباس لما غلبوهم بالشرق ، وأكثروا القتل فيهم ، هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، ونجا إلى المغرب . ثم ركب البحر إلى الأندلس ؛ فاجتمع عليه من كان هنالك من العرب وموالي بني أمية ، فاستحدث هنالك ملكاً آخر لهم ، وانقسمت الملة الإسلامية بين هذه الدول الأربع إلى المائة الرابعة . ثم انقرض ملك العلوية من طبرستان ^(٣) ، وانتقل إلى الديلم ، فاقتسموا خراسان وفارس والعراق ، وغلبوا على بغداد ، وحجّر الخليفة بها بنو بويه منهم ^(٤) . وكان بنو سامان — من أتباع بني طاهر — قد تقلّدوا عمالات ما وراء النهر ، فلمّا فشل أمر الخلافة استبدّوا بتلك النواحي ، وأصاروا لهم فيها ملكاً ضخماً ^(٥) ، وكان آخرهم محمود بن سكتكين من مواليمهم ، فاستبدّ عليهم ، ومكّ خراسان ، وما وراء النهر إلى الشاش ، ثم

(١) كان ذلك في سنة ١٢٩٠ هـ ، وانظر تفصيل القول في تاريخ الطبري ٨٢/٩ وما بعدها ، تاريخ أبي الفداء ٢٢٠/١ وما بعدها .

(٢) كان مبدأ دولة الفاطميين بالمغرب في سنة ٢٩٦ هـ ، ونهايتها سنة ٣٦١ هـ .

(٣) طبرستان : إقليم متسع في غربي خراسان ، ويقول ياقوت انه الذي يسمى أيضاً بهازندران . وهو إقليم واقع في شمالي مرتفعات البرز ، ويشرف على بحر قزوين . (معجم البلدان) .

(٤) بنو بويه دولة أسسها اتراك من الديلم في خلافة الرازي بالله (٣٢٢ — ٤٤٧ هـ) . تاريخ أبي الفداء ٨٣/٢ ، ١٥٢ ، في المجلد الرابع وما بعدها .

(٥) ملكت دولة بني سامان هذه ما وراء النهر ، وأقامت هناك دعوة بني العباس ، ثم استقلت . وقد تحدث عنها ابن خلدون في المجلد الرابع ، أبو فداء ١٢٣/٢ ، ١٤١ ، صبح الاعشى ٤٤٦/٤ .

غَزَنَةَ^(١) ، وما وراءها جنوباً إلى الهند . وأجاز إلى بلاد الهند ؛ فافتتح منها كثيراً ، واستخرج من كنوزها ذخائر لم يعثر عليها أحدٌ قبله . وأقامت المَلَّةُ على هذا النَّمَطِ إلى انقضاء المائة الرَّابِعة ، وكان التُّرك منذُ تَعَبَدُوا للعرب ، وأَسْلَمُوا على ما بأيديهم وراءَ النَّهر ، من كاشغَر^(٢) ، والصَّاغُون إلى فَرغانة^(٣) ، ولأَهم الخلفاء عليها ؛ فاستحدثوا بها مُلكاً ، وكانت بَوَادِي التُّرك في تلك النواحي مُتَجَعَّةً أَمْطَارَ السَّمَاءِ ، وَعُشْبَ الْأَرْضِ ، وكان الظهور فيهم لقبيلة الغَزُّ من شعوبهم ، وهُم الخُوز ، إلا أن استعمال العرب لها عَرَّبَ خاءَهَا المعجمة غينا ، وأدغمت واوها في الزَّاي الثانية ؛ فصارت زايًا واحدة مشدَّدة . وكانت رياسة الغَزِّ هؤلاء في بني سَلْجُوق بن ميكائل ، وكانوا يُسْتَحْدَمُونَ للملوك التُّرك بِتُرْكِسْتان تارة ، ولملوك بني سامان في بُخَارَى أخرى . وتَحَدَّثَ بينهما الفتنة ؛ فَيَتَأَلَّفُونَ مَنْ شَاءُوا مِنْهَا^(٤) ؛ ولما تَغَلَّبَ محمود بن سُبُكْتِكِين^(٥) على بني سامان ، وأجاز من خراسان فَنَزَلَ بُخَارَى^(٦) ، واقتعد كَرْسِيَهُمْ ، وتَقَبَّضَ على كبار بني سَلْجُوق هؤلاء ، وحبسهم بخُرَّاسان . ثم مات وقام بالأمر أخوه مَسْعُود^(٧) ، فملك مكانه ، وانتَقَضَ عليه بنو سَلْجُوق^(٨) هؤلاء ، وأجاز الغَزُّ إلى خراسان فملكوها ، وملكوا طَبْرِسْتان من يد الدَّيْلَم ، ثم اِضْبِهَان^(٩)

(١) غزنة : مدينة من مدن افغانستان ، وكانت عاصمة الدولة التي اسسها نصر الدين محمود بن سبكتكين سنة ٣٦٦ هـ ، والتي استمرت الى سنة ٥٧٨ هجرية . العبرم ٤ .

(٢) كانت كاشغر قاعدة «التركستان» وكانت تسمى ايضاً «أزدوكد» وهي اليوم في الصين «معجم البلدان» صبح الاعشى ٤٤٠/٤ .

(٣) فرغانة كورة واسعة فيما وراء النهر ، متاخمة لبلاد تركستان . (معجم البلدان) .

(٤) انظر كلمة موجزة عن الغز في تاريخ أبي الفداء ٢٧/٣ وما بعدها .

(٥) هو محمود بن ناصر الدولة بن سبكتكين (٣٦١ — ٤٢١) ، يلقب سيف الدولة ، ويمين الدولة . وليمين الدولة هذا ينسب التاريخ «اليميني» الذي ألفه له ابو نصر العتبي . ترجمة يمين الدولة في «الوفيات» ١١٠/٢ — ١١٤ ، وانظر تاريخ أبي الفداء ١٦٥/٢ .

(٦) تقع بخارى اليوم في جمهورية الاتحاد السوفياتي ، وكانت قاعدة الدولة السامانية ، فتحت فيما بين سنتي ٥٣ هـ ، ٥٥ هـ ، في ايام معاوية . ياقوت (معجم البلدان) .

(٧) هكذا في الأصل : «أخوه مسعود» . وهو سبق قلم ، والصواب : «ابنه مسعود» العبرم ٤ ، «تاريخ دول آل سلجوق» ص ٨ .

(٨) ابتدأت الدولة السلجوقية في خلافة القائم بأمر الله العباسي سنة ٤٣٢ هـ ، وانتهت في سنة ٥٧٢ هـ ، تاريخ أبي الفداء ١٧١/٢ وما بعدها ، العبر ١/٥ وما بعدها . وقد خص هذه الدولة بالتأليف العاد الأصفهاني ، وطبع مختصر لكتاب العاد بالقاهرة سنة ١٩٠٠ م .

(٩) كذا بالأصل ، أضبهان ، وكذا في أكثر الكتب القديمة . وهي : أضفهان بفتح الهمزة وكسرهما : مدينة =

وفارس ، من أيدي بني بُونَه ، ومَلِكُهُم يومئذ طُغْرُلْبِك^(١) بن ميكائيل من بني سَلْجُوق ، وغلب على بغداد^(٢) من يد بني مُعز الدولة بن بُونَه المستبدِّين على الخليفة يومئذ المطيع^(٣) ، وحَجَّرَه عن التصرف في أمور الخِلافة والمُلْك ، ثم تجاوز إلى عراق العَرَب ، فغلب على ملوكه ، وأبادَهُم ، ثم بلاد البحرين وعُمان ، ثم على الشَّام ، وبلاد الرُّوم ، واستوعب ممالك الإسلام كُلَّها ، فأصارها في مُلكه ؛ وانقبضت العرب راجعة إلى الحجاز ، مسلوبة من المُلْك ، كأن لهم فيه نصيب ، وذلك أعوامَ الأربعين والأربعائة ؛ وخرج الإفرنج على بقايا بني أُمَيَّة بالأندلس ، فانتزعوا الملك من أيديهم ، واستولوا على حواضر الأندلس وأمصارها ، وضاق النطاقُ على العُبيدِيِّين بالقاهرة بملوك الغُزُّ زاحمونهم فيها من الشام ، بمحمود بن زنكي وغيره^(٤) من أبنائهم ومماليكهم ، وبملوك المغرب قد اقتطعوا ما وراء الإسكندرية ، بملوك صنهاجة في إفريقية ، والمُلتَمِين المرابطين بعدهم بالمغرب الأقصى والأوسط ، والمصامدة الموحدين بعدهم كذلك ، وأمام الغُزِّ والسَلْجُوقية في مُلك المشرق ، وبنوهم ومواليهم من بعدهم إلى انقضاء القرن السادس ؛ وقد فشل ريع الغُزِّ ، واختلت دولتهم ، فظهر فيهم جنكيزخان أمير المُغل من شعوب الططر^(٥) ، وكان كاهناً ، وجدّه النجر كاهناً مثله . ويزعمون أنه وُلد من غير أب^(٦) ؛ فغلب الغُزِّ في المفازة ، واستولى على مُلك الططر ، وزحفَ إلى كرسيّ

= جليّة عظيمة في جنوب عراق العجم من بلاد فارس ، وتطلق اصفهان على الاقليم أيضا ، فتحت في سنة ٢٣ هـ في أيام عمر بن الخطاب (معجم البلدان) .

(١) أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سَلْجُوق ، ركن الدين طغرل بك (٣٨٥ — ٤٥٥) . وفيات الأعيان ٥٩/٢ — ٦٠ .

(٢) كان دخول بغداد والعراق سنة ٤٤٧ . وفيات الأعيان ٦٠/٢ ، تاريخ دولة آل سَلْجُوق ص ٩ .

(٣) كذا بالأصل : «المطيع» والصواب : «القائم» لأنه الذي عاصر طغرل بك . وهو أبو جعفر عبدالله بن القادر ، القائم بأمر الله . ولد سنة ٣٩١ ، وولي الخلافة سنة ٤٢٢ ، وتوفي سنة ٤٦٧ . تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٦٧ — ١٦٩ .

(٤) رسمه ، على قاعدته التي قررها في أول «المقدمة» بصاد وسطها زاي إشارة الى أن الصاد تشم — عند النطق بها — زايًا . وانظر أخبار تملك محمود بن زنكي ، في تاريخ ابني الفداء ٣٠/٣ — ٥٨ .

(٥) ولد جنكيز خان ويقال جنكس قان) في سنة ٥٤٩ ، وهو من قبيلة تركية تسمى ثبات من أشهر قبائل المُغل ، وأكثرهم عدداً ؛ وكان اسمه — حين بلغ من العمر ١٣ سنة — تموجين ثم أصاروه : «جنكيز» ؛ و«خان» تمام الاسم ؛ وهو بمعنى الملك عندهم . العبرم ٥ .

(٦) ينتهي نسبه إلى : «بوذَ نسبه إلى : «بوذَ نجر بن الان قوی» ؛ وألان قوی اسم امرأة هي جدتهم ؛ كانت =

الملك بخوارزم . وهو علاء الدين خوارزم شاه ، سلفه من موالي طغرل بك ، فغالبه على ملكه ، وفرأ أمامه ، وأتبعه إلى بحيرة طبرستان ؛ فنجأ إلى جزيرة فيها ، ومريض هنالك ومات^(١) ، ورجع جنكيزخان إلى ما زندران ، من أمصار طبرستان فترها ، وأقام بها ، وبعث عساكره من المغل حتى استولوا على جميع ما كان للغز ، وأنزل ابنه طولي^(٢) بكرسي خراسان ، وابنه دوشيخان^(٣) بصراي وبلاد الترك ، وابنه جقطاي^(٤) بكرسي الترك فيما وراء النهر ، وهي كاشغر وتركستان ، وأقام بما زندران إلى أن مات جنكيزخان ودفن بها^(٥) ؛ ومات ابنه طولي وله ولدان ، قبلاي^(٦) وهولاكو^(٧) ، ثم هلك قبلاي ، واستقل هولاكو بملك خراسان ، وحدث بينه وبين بركة بن دوشيخان^(٨) فتنة بالمنازعة في القانية ، تحاربوا فيها طويلاً ، ثم أقصروا ،

= متروجة ثم مات زوجها ؛ وتأيمت وحملت وهي أيم ، فنكر عليها اقرباؤها ، فذكرت انها رأيت بعض الأيام أن نوراً دخل فرجها ثلاث مرات ، وطراً عليها الحمل بعد ذلك ، وقال ان في حملي ثلاث ذكور ، فان صدقت عند الوضع فذلك ، والا فافعلوا ما بدا لكم ؛ فوضعت ثلاث توائم في ذلك الحمل ، فظهرت براءتها ، بزعمهم ، وكان ثالث التوائم «بودنجر» جد جنكيز خان ، وكانوا يسمون التوائم الثلاث : النورانيين نسبة إلى النور المذكور ، ولذلك كانوا يقولون لجنكيز خان : ابن الشمس . العبرم ٥ .

(١) هو السلطان علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش بن أرسلان : كان من علماء الملوك وعظماهم ، وكانت مدة ملكه ٢١ سنة ، وتوفي عام ٦١٧ ، وانظر اخبار حروبه مع جنكيزخان في تاريخ أبي الفداء ١٣٣/٣ — ١٣٤ ، ١٥٤ — ١٥٨ .

(٢) هو الابن الاصغر لجنكيز خان ، وكان عاقلاً كيساً ، ولذلك أمره أبوه أن يرأس اخويه : جوجي ، وجفتاي في حرب قلعة الطالقان التي استعصى عليها الاستيلاء عليها . وطاؤه تنطق بين التاء والطاء ، ويقال في اسمه ايضاً : «تولوي» . وانظر العبرم ٥ .

(٣) ويقال طوشي خان (بين التاء والطاء) ، ويقال جوجي خان .

(٤) جقطاي ، ويقال «جفتاي» ، ويسمى ايضاً كداي ، وجداي .

(٥) كانت وفاته في سنة ٦٢٥ ، وهناك رأي غير ما ذكره ابن خلدون في مكان وفاة جنكيزخان ، نجده في السلوك ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٦) قبلاي بن تولي خان المتوفى سنة ٦٩٥ . وقد ضبطه ابن خلدون بالحركات — بضم القاف ، وسكون الباء الموحدة ، ولام مفتوحة مخففة ، ثم ياء ساكنة .

(٧) يكتبه ابن خلدون : «هولاوو» بواوين أحياناً ، وأحياناً أخرى يكتبه : «هولاكو» بنقطة تحت الكاف إشارة إلى أن الكاف تنطق كافاً فارسية . وقد ابتداءً أمر هولاكو في الظهور في سنة ٦٥٤ ، وتوفي سنة ٦٠٣ . وانظر السلوك ص ٥٤١ .

(٨) ويقال ايضاً : بركة بن توشي بن جنيكر خان . وقد توفي سنة ٦٦٥ . كان مسلماً يعظم اهل العلم ، وكان يميل الى الملك الظاهر بيبرس .

وصرف هولاكو وجهه إلى بلاد أصبهان ، وفارس ، ثم إلى الخلفاء المستبدين ببغداد ، وعراق العرب ، فاستولى على تلك النواحي ، واقتحم بغداد ^(١) على الخليفة المستعصم ، آخري بني العباس ^(٢) وقتله ، وأعظم فيها العيث والفساد ، وهو يومئذ على دينه من المجوسية ؛ ثم تخطاه إلى الشام ؛ فملك أمصاره وحواصره إلى القدس ، وملك مصر يومئذ من موالي بني أيوب قد استحاشوا ببركة صاحب صراي ؛ فزحف إلى خراسان ليأخذ بحجزه هولاكو عن الشام ومصر . وبلغ خبره إلى هولاكو فجرد ^(٣) لذلك ، لما بينها من المنافسة والعداوة ، وكرّ راجعا إلى العراق ، ثم إلى خراسان ، لمدافة بركة . وطالت الفتنة بينها إلى أن هلك هولاكو سنة ثلاث وستين من المائة السابعة ، وزحف أمراء مصر من موالي بني أيوب ، وكبيرهم يومئذ قطز ، وهو سلطانهم فاستولى على أمصار الشام التي كان هولاكو انتزعها من أيدي بني أيوب ، واحدة واحدة ، واستضاف الشام إلى مصر في ملكه . ثم هدى الله أبغا بن هولاكو إلى الإسلام ، فأسلم بعد أن كان أسلم بركة ابن عمه صاحب التخت بصراي من بني دوشي خان على يد مريد من أصحاب شمس الدين كبرى ^(٤) ، فتواطأ هو وأبغا بن هولاكو على الإسلام . ثم أسلم بعد ذلك بنو جقطي وراء النهر ؛ فانتمت ممالك الإسلام في أيدي ولد جنكيز خان من المغل ، ثم من الططر ، ولم يخرج عن ملكهم منها إلا المغرب والأندلس ومصر والحجاز ، وأصبحوا ، وكانهم في تلك الممالك خلف من السلجوقية والغز . واستمر الأمر على ذلك لهذا العهد ، وانقرض ملك بني هولاكو بموت أبي سعيد آخرهم سنة أربعين من المائة الثامنة ^(٥) . وافترت دولتهم بين عمال الدولة وقرباتها من المغل ؛ فملك عراق العرب ، وأذربيجان ^(٦)

(١) دخل هولاكو بغداد في سنة ٦٥٦ هـ .

(٢) هو أبو أحمد عبد الله بن المنتصر ، ولد سنة ٦٠٩ ، وقتل سنة ٦٥٦ .

(٣) حرد : اغتاظ وغضب .

(٤) هو أبو الجناح أحمد بن عمر بن نجم الخيوفي شيخ خوارزم . عرف به السبكي في طبقاته ١١/٥ ، ١٢ ، ولم يذكر مولده ولا وفاته ؛ ووصفه في تاريخ جنكيز خان بأنه : « شيخ المشايخ ، وقطب الأوتاد ، نجم الدين الكبرى » ، وذكر أنه مات في حصار مدينة خوارزم . وقد ضبطه ابن خلدون . بضم الكاف وسكون الباء ، وفي طبقات الشافعية : « الكبرى على صيغة فعل كعظمي » .

(٥) هو أبو سعيد بن خربند بن ارغوين ابغا بن هولاكو . وانصر اخباره في العبرم ٥ .

(٦) أذربيجان ، واسمها القديم أثروباتان : إقليم يقع في الجنوب الغربي لبحر قزوين (بحر الخزر) ويحده في الشمال إقليم داغستان ، وإقليم جورجيا ، ومن المغرب ، والجنوب الغربي مقاطعة أرمينية . (معجم البلدان) .

وتُوريز^(١) ، الشيخ حسن سبط هولكو^(٢) ، واتصل مُلكها في يَنيه لهذا العهد ؛ ومَلِك خُراسان وطَبْرِستان شاه وليّ من تابعة بني هولاكو ؛ ومَلِك أَصْبَهان ، وفارس ، بنو مُظفّر البردي^(٣) من عُمّاهم أيضاً ؛ وأقاموا بنو دُوشي خان في مملكة صَرَاي وآخِرهم بها طقطمش بن بُردي بك^(٤) ؛ ثم سَمّا لبني جَقَطاي وراء النهر ، وملوكهم أَمَلٌ في التغلب على أعمال بني هولاكو ، وبني دُوشي خان ، بما استفحل ملكهم هنالك ، لعدم الترف والتّنعيم ، فبقُوا على البِداوة ؛ وكان لهم مَلِك اسمه ساطلمش^(٥) هَلَك لهذا العهد ، وأجلَسوا ابنَه على التّخت مكانه ، وأمرأُ بني جَقَطاي جميعاً في خدمته ، وكبِيرهم تيمور المعروف بتمر بن طَرَغاي^(٦) فقام بأمر هذا الصبي وكفَله ، وتزوَّج أمّه ، ومدَّ يَدَه إلى ممالك بني دُوشي خان التي كانت على دعوتهم وراء النهر ، مثل سمرقند^(٧) ، وبُخارى ، وخوارزم ، وأجاز إلى طَبْرِستان وخراسان فملكها . ثم ملك أَصْبَهان ، وزحفَ إلى بغداد ؛ فملكها من يد أحمد بن أُويس . وقرَّ أحمد مستجيراً بملك مصر ، وهو المَلِك الظاهر برقوق ، وقد تقدّم ذكره ؛ فأجاره ، ووعدَه النَّصر من عدوّه . وبعث الأمير تمر رُسلًا إلى صاحب مصر ، يقررون معه الولاية والاتّحاد ، وحُسِّنَ الجوار ؛ فوصلوا إلى الرّحبة ؛ فلقبهم عاملها ، ودار بينهم الكلام فأوحشوه في الخطاب ، وأنزلهم ، فبَيَّتَ جميعهم ، وقتلهم . وخرج الظاهر برقوق من مصر ، وجمَعَ العرب والتُّركمان ، وأناخ على الفرات ، وصَرَخ بطقطمش من كرسيه بصَرَاي ؛ فحشد ووصل إلى الأبواب^(٨) . ثم زحف تمر إلى الشام سنة سِت وتسعين وسبعائة وبلغ الرُّها^(٩) ، والظاهر يومئذ على

(١) توريث (تبريز) : إحدى مدن إيران الشمالية ، وكانت في القديم تشملها مقاطعة آذربيجان (معجم البلدان) .

(٢) يسمى أيضاً الشيخ حسن الصغير .

(٣) ورد في العبري : «اليزدي» .

(٤) ضبطه ابن خلدون بالحركات بفتح الباء وضمها ، وسكون الراء بعدها دال ثم ياء مثناة تحتية ساكنة . ثم باء موحدة مفتوحة .

(٥) كذا في الأصل ، وفي هامش أصل أياصوفيا بخطه : «سيورغمش» وكتب فوقها كلمة : «أصح» .

(٦) في نسخة : «طرغان» ، وفي هامش أصل أياصوفيا بخطه : «ترغاي» وكتب فوقها كلمة «أصح» .

(٧) مدينة مشهورة ، تقع اليوم في جمهورية الاتحاد السوفيتي ، وكانت في القديم عاصمة بلاد الصغد . (معجم البلدان) .

(٨) يريد بالأبواب المضائق والممرات التي في الجبال الفاصلة بين إقليم مازندران والعراق العجمي .

(٩) بلدة مشهورة في شمال حران ، وتقع اليوم في الجمهورية التركية ، وتسمى أورفة .

الفرات ، فعَاصِمٌ^(١) تمر عن لقائه . وسار إلى محاربة طقطمش ؛ فاستولى على أعماله كلها ، ورجعت قبائل المَغل إلى تَمر ؛ وساروا تحت رايته . وذهب طقطمش في ناحية الشمال ، وراء بُلغار ، متذمماً بقبائل أروس من شعوب التُّرك في الجبال . وسارت عصابات التُّرك كلها تحت رايات تمر ؛ ثم اضطرب ملوك الهند ، واستصرخ خارجٌ منهم بالأمير تمر ؛ فسار إليهم في عساكر المَغل ، ومَلِك دِلِّي^(٢) ، وفر صاحبها إلى كَنبَاية^(٣) مرسى بحر الهند ، وعاثوا في نواحي بلاد الهند . ثم بلغه هنالك مهلكُ الظاهر برقوق بمصر ؛ فرجع إلى البلاد ، ومرَّ على العراق ، ثم على أرمينية^(٤) وأرزنكان^(٥) ، حتى وصل سيواس^(٦) فخرَّبها ، وعاث في نواحيها ، ورجع عنها أول سنة ثلاث من المائة التاسعة . ونازل قلعة الروم^(٧) ، فامتعت ، وتجاوزها إلى حَلَب ؛ فقابله نائب الشام وعساكره في ساحتها ؛ ففضَّهم ، واقتحم المَغل المدينة من كل ناحية . ووقع فيها من العيث والنهب والمصادرة واستباحة الحُرَم ، ما لم يعهد الناس مثله ؛ ووصل الخبر إلى مصر ، فتجهز السلطان فرج ابن المَلِك الظَّاهر^(٨) إلى المدافعة عن الشَّام ، وخرج في عساكره من التُّرك مُسابقا المَغل وملِكهم تمر أن يصدَّهم عنها .

* (لقاء الأمير تمر سلطان المغل والططر) *

لما وصل الخبر إلى مصر بأن الأمير تمر^(٩) مَلِك بلاد الروم ، وخرَّب سيواس ، ورجع

(١) خام عنه : نكص ، وجبن .

(٢) هي دلهي اليوم . صبح الأعشى ٦٨/٥ — ٦٩ .

(٣) كباية ، أوكبايت ، ضبطها ابن خلدون بالحركات بفتح الكاف وسكون التون ، وباء مفتوحة بعدها الف ثم باء مفتوحة بعدها هاء للتأنيث . وفي صبح الأعشى ٧١/٥ : أنه ينسب إليها فيقال أنباتي وعلى ذلك فاسمها «أنبات» بابدال الكاف همزة . وهي مدينة على ساحل بحر الهند .

(٤) أرمينية : إقليم واقع في غرب آذربيجان ، وفي شماله الغربي يقع إقليم جورجيا . صبح الأعشى ٣٥٣/٤ ، (معجم البلدان) .

(٥) أرزنكان ، ويقال أرزنجان : بلدة كانت تعد قديما من بلاد ارمينية ، وهي الآن من بلاد الجمهورية التركية . صبح الأعشى ٣٥٤/٤ .

(٦) سيواس : مدينة في تركيا ، تبعد ستين ميلا نحو الشرق من «قيسارية» السلوك ص ٣١٣ .

(٧) هي قلعة حصينة واقعة في غربي الفرات مقابل «البيرة» . (معجم البلدان) .

(٨) هو الملك الناصر زين الدين أبو السادات فرج بن الملك الظاهر . المقرئ ٣/٣٩٢ — ٣٩٣ طبع مصر .

(٩) في عجائب المقدور ص ٥ ، ٦ : «... اسمه تيموربثاء مثناة مكسورة ساكنة ، فثناة تحت ، وواو ساكنة =

إلى الشام ، جمع السلطان عساكره ، وفتح ديوان العطاء ، ونادى في الجُند بالرحيل إلى الشام ، وكنتُ أنا يومئذ معزولاً عن الوظيفة ^(١) ؛ فاستدعاني دوا داره يشبك ^(٢) وأرادني على السَّفَر معه في ركاب السلطان ؛ فتجافيتُ عن ذلك . ثم أظهر العزم عليّ بلّين القول ، وجزيل الانعام فأصخيتُ ، وسافرت معهم مُنتصف شهر المولد الكريم من سنة ثلاث وثمانمائة ؛ فوصلنا إلى غَزّة ، فأرحنا بها أياماً نترقب الأخبار ؛ ثم وصلنا إلى الشام مسابقين الطَّطر إلى أن نزلنا شَقَب ^(٣) ، وأسرينا فصبَّحنا دمشق ، والأمير تَمَر في عساكره قد رحل من بعلبك ^(٤) قاصداً دمشق ، فضرب السلطان خيامه وأبنتيه بساحة قُبّة يَلْبُغا . ويشسّ الأمير تَمَر من مهاجمة البلد ، فأقام بمِرقَب على قُبّة يَلْبُغا يراقبنا ونراقبه أكثر من شهر ، تجاول العسكران في هذه الأيام مراتٍ ثلاثاً أو أربعاً ، فكانت حربهم سِجالاً ؛ ثم نُمي الخبر إلى السلطان وأكابر أمرائه ، أن بعض الأمراء المنغمسين في الفتنة يُحاولون الهَرَب إلى مصر للثورة بها ؛ فأجمع رأيهم للرجوع إلى مصر خشيةً من انتقاض الناس وراءهم ، واختلال الدّولة

= بين ميم مضمومة وراء مهملة ، هذه طريقة املائه ... لكن كرة الألفاظ الأعجمية إذا تداولها صولحان اللغة العربية خروطها في الدوران على بناء اوزانها ... فقالوا تارة تمور ، وأخرى تمرلنك . وضبطه البدر العيني في «عقد الجمان» بخطه بالحركات بفتح التاء وضم الميم بعد راء ساكنة ، ثم لام مفتوحة ، فنون ساكنة ، فكاف .

(١) في عقد الجمان ، في حوادث سنة ٨٠٣ ، وتاريخ ابن قاضي شعبة كذلك : «... خرج السلطان الملك الناصر فرج ، ومعه الخليفة المتوكل على الله ، والقضاة الثلاثة ، وهم صدر الدين المناوي الشافعي ، والقاضي نور الدين علي بن الحلال المالكي ، والقاضي موفق الدين بن الحنبلي ، وأما القاضي جمال الدين الملطي الحنفي فإنه سار لكونه ضعيفاً ، وشار معهم القاضي ولي الدين ابن خلدون المالكي ، وهو معزول» .

(٢) هو الأمير يشبك الشيباني كان من أمراء الملك الظاهر ، تقلب في مناصب مختلفة ، وجعل له الملك الظاهر الوصية على أولاده ؛ وفي أيام الملك فرج ، تولى وظيفة دوا دار كبير ، ومشير المملكة تاريخ ابن اياس ٣٠٨/٢ ، ٣١٤ ، ٣٣٧ . وقد ضبطه البدر العيني بخطه في «عقد الجمان» بكسر الباء ، وسكون الشين ، وفتح الباء .

(٣) بفتح الشين والحاء المهملة ، وسكون القاف بينهما (كجعفر) ، ويقول المقرئ في الخطط ٣٩٩/٣ (طبع مصر) : «... انها بظاهر دمشق ؛ وزاد في السلوك ص ٩٣٢ : «تحت جبل غباغب» ؛ فهي — باء على هذا — في جنوب دمشق . وانظر تاج العروس (شقب) .

(٤) بعلبك : إحدى مدن لبنان المشهورة ، وهي واقعة في الشمال الشرقي لمدينة زحلة . (معجم البلدان) .

بذلك ، فَأَسْرُوا لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ مِنْ شَهْرِ [...] (١) وَرَكِبُوا جَبَلَ الصَّالِحِيَّةِ ، ثُمَّ انْخَطَوْا فِي شِعَابِهِ ، وَسَارُوا عَلَى شَاقَةِ الْبَحْرِ إِلَى غَزَّةَ ، وَرَكِبَ النَّاسُ لَيْلًا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ السُّلْطَانَ سَارَ عَلَى الطَّرِيقِ الْأَعْظَمِ إِلَى مِصْرَ ؛ فَسَارُوا عَصَبًا وَجَمَاعَاتٍ عَلَى شَقْحَبٍ إِلَى أَنْ وَصَلُوا إِلَى مِصْرَ ، وَأَصْبَحَ أَهْلُ دِمَشْقَ مُتَحَيِّرِينَ قَدْ عَمِيَ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ .

وَجَاءَنِي الْقَضَاةُ وَالْفُقَهَاءُ ، وَاجْتَمَعَتْ بِمَدْرَسَةِ الْعَادِلِيَّةِ ، وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى طَلَبِ الْأَمَانِ مِنَ الْأَمِيرِ تَمَرٍ عَلَى يَبُوتِهِمْ وَحُرْمَتِهِمْ ، وَشَاوَرُوا فِي ذَلِكَ نَائِبَ الْقَلْعَةِ ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَنَكَرَهُ ؛ فَلَمْ يوافقوه . وَخَرَجَ الْقَاضِي بُرْهَانُ الدِّينِ بْنِ مَفْلَحِ الْحَنْبَلِيِّ (٢) وَمَعَهُ شَيْخُ الْفُقَرَاءِ بَزَاوِيَّةٌ [....] (٣) فَأَجَابَهُمْ إِلَى التَّائِمِينَ ، وَرَدَّهُمْ بِاسْتِدْعَاءِ الْوُجُوهِ وَالْقَضَاةِ ، فَخَرَجُوا إِلَيْهِ مُتَدَلِّينَ مِنَ السُّورِ بِمَا صَبَّحَهُمْ مِنَ التَّقَدُّمَةِ ، فَأَحْسَنَ لِقَاءَهُمْ وَكَتَبَ لَهُمُ الرِّقَاعَ بِالْأَمَانِ ، وَرَدَّهُمْ عَلَى أَحْسَنِ الْأَمَالِ ، وَاتَّفَقُوا مَعَهُ عَلَى فَتْحِ الْمَدِينَةِ مِنَ الْغَدِ ، وَتَصَرَّفَ النَّاسُ فِي الْمَعَامَلَاتِ ، وَدَخَلَ أَمِيرُ يَتْرَلٍ بِمَحَلِّ الْإِمَارَةِ مِنْهَا ، وَيَمْلِكُ أَمْرَهُمْ بَعْزٌ وَلَايَتَهُ .

وَأَخْبَرَنِي الْقَاضِي بُرْهَانُ الدِّينِ أَنَّهُ سَأَلَهُ عَنِّي ، وَهَلْ سَافَرْتُ مَعَ عَسَاكِرِ مِصْرَ أَوْ أَقَمْتُ بِالْمَدِينَةِ ، فَأَخْبَرَهُ بِمَقَامِي بِالْمَدْرَسَةِ حَيْثُ كُنْتُ ، وَبَتْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ عَلَى أَهْبَةِ الْخُرُوجِ إِلَيْهِ ؛ فَحَدَّثَ بَيْنَ بَعْضِ النَّاسِ تَشَاجُرًا فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ ، وَأَنْكَرَ الْبَعْضُ مَا وَقَعَ مِنْ الْاسْتِنَامَةِ إِلَى الْقَوْلِ . وَبَلَغَنِي الْخَبَرُ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ ؛ فَخَشِيتُ الْبَادِرَةَ عَلَى نَفْسِي ، وَبَكَرْتُ سَحَرًا إِلَى جَمَاعَةِ الْقَضَاةِ عِنْدَ الْبَابِ ، وَطَلَبْتُ الْخُرُوجَ أَوْ التَّدَلِّيَ مِنَ السُّورِ ، لَمَّا حَدَّثَ عِنْدِي مِنْ تَوَهُّمَاتِ ذَلِكَ الْخَبَرِ ؛ فَأَبَا عَلِيٌّ أَوَّلًا ، ثُمَّ أَصْخَوُا لِي ، وَدَلَّوْنِي مِنَ السُّورِ ؛ فَوَجَدْتُ بَطَانَتَهُ عِنْدَ الْبَابِ ، وَنَائِبَهُ الَّذِي عَيْنُهُ لِلْوَلَايَةِ عَلَى دِمَشْقَ ، وَاسْمُهُ شَاهُ مَلِكٍ ، مِنْ بَنِي جَقَطَايَ أَهْلُ عَصَابَتِهِ ، فَحَيَّيْتُهُمْ وَحَيَّوْنِي ، وَفَدَّيْتُ وَفَدَّوْنِي ، وَقَدَّمَ لِي شَاهُ مَلِكٍ ، مَرْكُوبًا ، وَبَعَثَ مَعِيَ مِنْ بَطَانَةِ السُّلْطَانِ مَنْ أَوْصَلَنِي إِلَيْهِ . فَلَمَّا وَقَفْتُ بِالْبَابِ خَرَجَ الْإِذْنُ بِإِجْلَاسِي فِي خِيْمَةٍ هُنَالِكَ تُجَاوِرُ خِيْمَةَ جُلُوسِهِ ، ثُمَّ زِيدَ فِي التَّعْرِيفِ بِإِسْمِي أَنِّي الْقَاضِي الْمَالِكِيُّ الْمَغْرِبِيُّ ، فَاسْتَدْعَانِي ،

(١) بِيَاضٌ بِالْأَصْلِ ، وَلَعَلَّهُ يَرِيدُ (شَهْرَ جَادَى الْآخِرَةَ) . وَانْظُرْ تَارِيخَ ابْنِ أَبِياسَ ٣٢٩/١ .

(٢) هُوَ بُرْهَانُ الدِّينِ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مَفْلَحٍ (٧٤٩ — ٨٠٣) ، وَكَانَ يُحْسِنُ اللَّغَتَيْنِ : التَّرْكِيَّةَ ، وَالْفَارْسِيَّةَ ، وَلَعَلَّهُمْ . لِذَلِكَ — اخْتَارُوهُ لِلْسَّفَارَةِ . وَانْظُرْ ابْنَ أَبِياسَ ٣٣٦/١ .

(٣) بِيَاضٌ فِي الْأَصْلِ وَلَمْ نَعْرِ فِي الْمَرَاجِعِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا عَلَى اسْمِ هَذِهِ الزَّوَايَةِ .

ودخلتُ عليه بخيمة جلوسه ، مُتَكِنًا على مرفقه ، وصِحفاء الطَّعام تَمَرُّ بين يديه ، يُشير بها إلى عُصَبِ الْمُغْلِ جُلُوسًا أَمَامَ خِيَمَتِهِ ، حَلَقًا حَلَقًا . فلما دخلتُ عليه فاتحتُ بالسَّلام ، وأُومِيتُ إِيْمَاءَ الْخُضُوعِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ ، وَمَدَّ يَدَهُ إِلَيَّ فَقَبَّلَتْهَا ، وَأَشَارَ بِالْجُلُوسِ فَجَلَسْتُ حَيْثُ انْتَهَيْتُ . ثُمَّ اسْتَدْعَى مِنْ بَطَانَتِهِ الْفَقِيهَ عَبْدَ الْجُبَّارِ بْنِ النُّعْمَانِ مِنْ فُقَهَاءِ الْحَنْفِيَّةِ بِخُوارزم^(١) ، فَأَقْعَدَهُ يَتَرَجِّمُ مَا بَيْنَنَا ، وَسَلَّنِي مِنْ أَيْنَ جِئْتُ مِنَ الْمَغْرِبِ ؟ وَلِمَا^(٢) جِئْتُ ؟ فَقُلْتُ : جِئْتُ مِنْ بِلَادِي لِقَضَاءِ الْقَرْضِ رَكْبْتُ إِلَيْهَا^(٣) الْبَحْرَ ، وَوَأَفَيْتُ مَرْسَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ يَوْمَ الْفِطْرِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ مِنْ هَذِهِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ ، وَالْمَفْرَحَاتِ بِأَسْوَارِهِمْ لِلْجُلُوسِ الظَّاهِرِ عَلَى تَحْتِ الْمَلِكِ لَتِلْكَ الْعَشْرَةِ الْأَيَّامِ بَعْدَهَا . فَقَالَ لِي : وَمَا فَعَلَ مَعَكَ ؟ قُلْتُ كُلَّ خَيْرٍ ، بَرَّ مَقْدَمِي ، وَأَرْغَدَ قِرَايَ ، وَزَوَّدَنِي لِلْحَجِّ ، وَلَمَّا رَجَعْتُ وَفَرَّجَرَايَتِي ، وَأَقَمْتُ فِي ظِلِّهِ وَنِعْمَتِهِ ؛ رَحِمَهُ اللَّهُ وَجَزَاهُ . فَقَالَ : وَكَيْفَ كَانَتْ تَوَلِيَّتُهُ إِيَّاكَ الْقَضَاءَ ؟ فَقُلْتُ : مَاتَ قَاضِي الْمَالِكِيَّةِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِشَهْرٍ ، وَكَانَ يَظُنُّ بِي الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ فِي الْقِيَامِ بِالْوُضُوءِ ، وَتَحَرِّيِ الْمَعْدَلَةِ وَالْحَقِّ ، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْجَاهِ ، فَوَلَّانِي مَكَانَهُ ، وَمَاتَ لَشَهْرٍ بَعْدَهَا ، فَلَمْ يَرْضَ أَهْلُ الدَّوْلَةِ بِمَكَانِي ، فَأَدَالُونِي مِنْهَا بِغَيْرِي جَزَاهُمْ اللَّهُ . فَقَالَ لِي : وَأَيْنَ وَلَدُكَ ؟ فَقُلْتُ : بِالْمَغْرِبِ الْجَوَّانِي كَاتِبٌ^(٤) لِلْمَلِكِ الْأَعْظَمِ هُنَالِكَ . فَقَالَ وَمَا مَعْنَى الْجَوَّانِي فِي وَصْفِ الْمَغْرِبِ ؟ فَقُلْتُ هُوَ عَرَفَ خِطَابَهُمْ مَعْنَاهُ الدَّاخِلِي ، أَيْ الْأَبْعَدَ ، لِأَنَّ الْمَغْرِبَ كُلَّهُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الشَّامِيِّ مِنْ جَنُوبِهِ ؛ فَالْأَقْرَبُ إِلَى هُنَا بَرْقَةٌ ؛ وَافْرِيقِيَّةُ^(٥) ؛ وَالْمَغْرِبُ الْأَوْسَطُ^(٦) : تَلَمْسَانَ وَبِلَادَ زَنَاتَةَ ؛ وَالْأَقْصَى : فَاسَ وَمَرَكَشَ ، وَهُوَ مَعْنَى

(١) هو : (عبد الجبار بن النعمان المعتزلي ، أحد خواص تيمور الذين طافوا معه البلاد ، وأهلكوا العباد ، وأظهروا الظلم والفساد . ذكره علاء الدين في (تاريخ حلب) وقال : اجتمعت به ، فوجدته ذكيًا فاضلا ، وسألته عن مولده ، فقال : يكون لي نحو الأربعين . ورأيت شرح الهداية لأكمل الدين ، وقد طالعه عبد الجبار المذكور ، وعلم على مواضع منه ، ذكر أنها غلط . وذكره ابن المبرد في (الرياض) وقال : (كان له معرفة بالفقه ، والعلوم العقلية ، وكان يمتحن العلماء وينظرهم بين يدي الملك . وهو من قلة الدين على جانب كبير . توفي سنة ٨٠٨ هـ) .

(٢) كذا في الأصل بإثبات الف (ما) المحرورة عند الاستفهام ؛ وهي لفظة حكوها عن الأنخفش .

(٣) كذا بالأصل .

(٤) كذا في الأصل .

(٥) هي المملكة التونسية اليوم .

(٦) مكانه اليوم بلاد (الجزائر) .

الجَوَانِي . فقال لي : وأين مكانُ طنجة من ذلك المغرب ؟ فقلت : في الزاوية التي بين البحر المحيط ، والخليج المسمَّى بالزُّقاق ، وهو خليج البحر الشَّامي ؟ فقال : وسبَّته ؟ فقلت : على مسافة من طنجة على ساحل الزُّقاق ، ومنها التَّغذية إلى الأندلس ، لقرب مسافته ، لأنها هناك نحو العشرين ميلاً . فقال : وفاس ؟ فقلت : ليست على البحر ، وهي في وسط التُّلول ، وكُرسيُّ ملوك المغرب من بني مَرين . فقال : وسجلَّاسَة ؟ قلت : في الحدِّ ما بين الأرياف والرِّمال من جهة الجنوب . فقال : لا يُقْنَعَنِي هذا ، وأحبُّ أن تكتب لي بلادَ المغرب كُلِّها ، أقاصيها وأدانيها وجباله وأنهاره وقراه وأمصاره ، حتى كأني أشاهده . فقلت : يحصل ذلك بِسعادتك ؛ وكتبْتُ له بعدَ انصرافي من المجلس لما طلب من ذلك ، وأوعبتُ الغرض فيه في مختصرٍ وجيز يكون قدرُ اثنتي عشرة من الكرايس المنضَّفة القطع . ثم أشار إلى خدَمه بإحضار طعام من بيته يسمونه الرشته ، ويحكمونه على أبلغ ما يمكن ؛ فأحضرت الأواني منه ، وأشار بعرضها عليّ ، فثَلْتُ قائماً وتناولتها وشربت واستطبت ؛ ووقع ذلك منه أحسنَ المواقع ؛ ثم جلستُ وسكتنا ، وقد غلَّبني الوجَل بما وقع من نكبة قاضي القضاة الشافعية ، صدر الدين المُنَاوي ، أسره التَّابعون لعسكر مِصرَ . بشَقِّحَب ، وردُّوه ؛ فحبُسَ عندهم في طلب الفدية منه ؛ فأصابنا من ذلك وجَل ؛ فزُورْتُ في نفسي كلاماً أخاطبه به ، وأتلفه بتعظيم أحواله ، ومُلُكه . وكنت قبل ذلك بالمغرب قد سمعت كثيراً من الحدَّثان في ظهوره ، وكان المنجِّمون المتكلِّمون في قِرانات العلويِّين ^(١) يترقبون القِرانَ العاشرَ في المثلثة الهوائية ^(٢) ، وكان يُترَقَّب عام ستة وستين من المائة السَّابعة . فلَقِيتُ ذاتَ يوم من عام أحدٍ وستين وسبعائة بِجامع القرويين من فاس ، الخطيبَ أبا عليِّ بن باديس خطيب قُسْطَينَة ، وكان ماهراً في ذلك الفن ، فسألته عن هذا القِرانِ المتوقَّع ، وما هي آثاره ؟ فقال لي : يدلُّ على نائِر عظيم في الجانب الشَّامي الشرقي ، من أمة بادية

(١) الكوكبان العلويان : زحل ، والمشتري ؛ والمراد بالقِران — عند الإطلاق — اجتماع المشتري ، وزحل خاصة (مفاتيح العلوم ص ٢٣٢) .

(٢) المثلثة : كل ثلاثة بروج تكون متفقة في طبيعة واحدة من الطبائع الأربع . (مفاتيح العلوم ص ٢٢٦) . ولعل ابن خلدون كان يعرف أن تيمورلنك (كان يعتمد على أقوال الأطباء والمنجمين ، ويقربهم ويدينهم ، حتى أنه كان لا يتحرك الا باختيار فلكي) ، فحدثه بهذا الحديث .

أهل خيام ، تتغلب على الممالك ، وتقلب الدول ، وتستولي على أكثر المعمور .
فقلت : ومتى زمنه ؟ فقال : عام أربعة وثمانين تنتشر أخباره . وكتب لي بمثل ذلك
الطبيب ابن زرزر اليهودي ، طيب ملك الأفرنج ابن أذفونش ومنجمه . وكان
شيخه رحمه الله إمام المعقولات محمد بن إبراهيم الآبلي متى فاضته في ذلك ، أو
سأله عنه يقول : أمره قريب ، ولا بد لك إن عشت أن تراه .

وأما المتصوفة فكنا نسمع عنهم بالمغرب ترقيهم لهذا الكائن ، ويرون أن القائم به هو
الفاطمي المشار إليه في الأحاديث النبوية^(١) من الشيعة وغيرهم ؛ فأخبرني يحيى بن
عبدالله حافد الشيخ أبي يعقوب البادسي كبير الأولياء بالمغرب ، أن الشيخ قال لهم
ذات يوم ، وقد انفلت من صلاة الغداة : إن هذا اليوم ولد فيه القائم الفاطمي ،
وكان ذلك في عشر الأربعين من المائة الثامنة ؛ فكان في نفسي من ذلك كله ترقب
له .

فوقع في نفسي لأجل الوجل الذي كنت فيه أن أفأوضه في في شيء من ذلك يستريح
إليه ، ويأنس به مني ، ففأتحته وقلت : أيدك الله ! لي اليوم ثلاثون أو أربعون سنة
أتمنى لقاءك . فقال لي الترجمان عبد الجبار : وما سبب ذلك ؟ فقلت : أمران ،
الأول أنك سلطان العالم ، وملك الدنيا ، وما أعتقد أنه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا
العهد ملك مثلك ، ولست ممن يقول في الأمور بالجزاف ، فإني من أهل العلم ،
وأبين ذلك فأقول :

إن الملك إنما يكون بالعصبية ، وعلى كثرتها يكون قدر الملك ؛ واتفق أهل العلم
من قبل ومن بعد ، أن أكثر أُمم البشر فرقتان : العرب والترك ، وأنتم تعلمون ملك
العرب كيف كان لما اجتمعوا في دينهم على نبيهم ، وأما الترك ففي مزاحمتهم لملوك
الفرس ، وانتزاع ملكهم أفراسياب خراسان من أيديهم شاهد بنصا بهم من الملك .
ولا يساويهم في عصبيتهم أحد من ملوك الأرض من كسرى ، أو قيصر ، أو
الأسكندر ، أو بختنصر ، أما كسرى فكبير الفرس وملكهم ؛ وأين الفرس من
الترك ؟ وأما قيصر والإسكندر فملوك الروم ، وأين الروم من الترك ؟ وأما بختنصر فكبير
أهل بابل ، والنبط . وأين هؤلاء من الترك ؟ وهذا برهان ظاهر على ما ادعيت في هذا

(١) ذكر هذه الأحاديث في المقدمة .

الملك .

وأما الأمر الثاني مما يَحْمِلُنِي عَلَى تَمَنِّي لقائه ، فهو ما كنت أَسْمَعُهُ مِنْ أَهْلِ الْحَدَثَانِ بِالْمَغْرِبِ ، وَالْأَوَّلِيَاءِ ، وَذَكَرْتُ مَا قَصَصْتُهُ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ . فَقَالَ لِي : وَأَرَاكَ قَدْ ذَكَرْتَ بُخْتَنْصَرَ مَعَ كِسْرَى ، وَقِيصَرَ ، وَالْإِسْكَندَرَ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِدَادِهِمْ ، لِأَنَّهُمْ مَلُوكُ أَكَابِرَ . وَبُخْتَنْصَرُ قَائِدُ مَنْ قَوَادِ الْفَرَسِ ، كَمَا أَنَا نَائِبُ مِنْ نَوَابِ صَاحِبِ التَّخْتِ ، وَهُوَ هَذَا ، وَأَشَارَ إِلَى الصَّفِّ الْقَائِمِينَ وَرَاءَهُ ، وَكَانَ وَاقِفًا مَعَهُمْ ؛ وَهُوَ رَبِيبُهُ الَّذِي تَقَدَّمَ لَنَا أَنَّهُ تَزَوَّجَ أُمَّهُ بَعْدَ أَبِيهِ سَاطَلْمَشَ ، فَلَمْ يُلْقِهِ هُنَاكَ ، وَذَكَرَ لَهُ الْقَائِمُونَ فِي ذَلِكَ الصَّفِّ أَنَّهُ خَرَجَ عَنْهُمْ .

فَرَجَعَ إِلَيَّ فَقَالَ : وَمِنْ أَيِ الطَّوَائِفِ هُوَ بُخْتَنْصَرُ ؟ فَقُلْتُ : بَيْنَ النَّاسِ فِيهِ خِلَافٌ ، فَقِيلَ مِنَ النَّبْطِ بَقِيَّةُ مَلُوكِ بَابِلَ ، وَقِيلَ مِنَ الْفَرَسِ الْأَوَّلَى ، فَقَالَ : يَعْنِي مِنْ وَلَدِ مَنُوشِيرٍ^(١) . قُلْتُ نَعَمْ هَكَذَا ذَكَرُوا ، فَقَالَ : وَمَنُوشِيرُ لَهُ عَلَيْنَا وَلَادَةٌ مِنْ قَبْلِ الْأُمَهَاتِ . ثُمَّ أَفْضَتْ مَعَ التُّرْجَمَانِ فِي تَعْظِيمِ هَذَا الْقَوْلِ مِنْهُ ، وَقُلْتُ لَهُ : وَهَذَا مِمَّا يَجْعَلُنِي عَلَى بَنِي لِقَائِهِ .

فَقَالَ الْمَلِكُ : وَأَيُّ الْقَوْلَيْنِ أَرْجَحُ عِنْدَكَ فِيهِ ؟ فَقُلْتُ إِنَّهُ مِنْ عَقْبَةِ مَلُوكِ بَابِلَ ، فَذَهَبَ هُوَ إِلَى تَرْجِيحِ الْقَوْلِ الْآخَرَ . فَقُلْتُ : يَعْكَرُ تَمْلِينَا رَأْيَ الطَّبْرِيِّ ، فَإِنَّهُ مُؤَرِّخُ الْأُمَةِ وَمُحَدِّثُهُمْ ، وَلَا يَرْجُحُهُ غَيْرُهُ ، فَقَالَ : وَمَا عَلَيْنَا مِنَ الطَّبْرِيِّ ؟ نُحْضِرُ كُتُبَ التَّارِيخِ لِلْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ، وَنَنْظُرُكَ . فَقُلْتُ : وَأَنَا أَيْضًا أَنْظُرُ عَلَى رَأْيِ الطَّبْرِيِّ ، وَانْتَهَى بِنَا الْقَوْلَ ، فَسَكَتَ ؛ وَجَاءَهُ الْخَبَرُ بِفَتْحِ بَابِ الْمَدِينَةِ ، وَخُرُوجِ الْقُضَاةِ وَفَاءً بِمَا زَعَمُوا مِنَ الطَّاعَةِ الَّتِي بَدَّلَ لَهُمْ فِيهَا الْأَمَانَ ، فَرُفِعَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِينَا ، لَمَّا فِي رُكْبَتِهِ مِنَ الدَّاءِ ، وَحُمِلَ عَلَى فَرَسِهِ فَقَبِضَ شِكَاثِمَهُ ، وَاسْتَوَى فِي مَرْكَبِهِ . وَضُرِبَتْ الْآلَاتُ حِفَافِيهِ حَتَّى ارْتَجَّ لَهَا الْجَوُّ . وَسَارَ نَحْوَ دِمَشْقَ ، وَنَزَلَ فِي تَرَبَةِ مَنْجَكَ عِنْدَ بَابِ الْجَاهِيَّةِ ؛ فَجَلَسَ هُنَاكَ ، وَدَخَلَ إِلَيْهِ الْقُضَاةُ وَأَعْيَانُ الْبَلَدِ ، وَدَخَلْتُ فِي جُمْلَتِهِمْ ؛ فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ بِالْانْصِرَافِ ، وَإِلَى شَاهِ مَلِكِ نَائِبِهِ أَنْ يَخْلَعَ عَلَيْهِمْ فِي وَظَائِفِهِمْ ؛ وَأَشَارَ إِلَيَّ بِالْجُلُوسِ ، فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ . ثُمَّ اسْتَدْعَى أَمْرَاءَ دَوْلَتِهِ الْقَائِمِينَ عَلَى أَمْرِ الْبِنَاءِ ؛

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ وَهُوَ : مَنُوشِيرُ بِالْجِيمِ الْمُتَوَسِّطَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشَّيْنِ اسْمُ مَلِكٍ مِنَ الْفَرَسِ . الْأَوَّلُ وَمَعْنَاهُ فَضِيَّةُ الطَّلْعَةِ . وَذَلِكَ لِجَاهِهِ ؛ فَإِنْ مَنُوشِيرُ بِالْفَارْسِيَّةِ : الضُّفَّةُ . فَاقْتَصَرُوا عَلَى حَذْفِ الْيَاءِ وَقَالُوا مَنُوشِيرُ . وَجَهْرُ الطَّلْعَةِ .

فأحضروا عرّاء البنيان المهندسين، وتناظروا في إذهاب الماء الدائر بحفير القلعة، لعلهم يعثرون بالصّناعة على منقذه ؛ فتناظروا في مجلسه طويلاً ، ثم انصرفوا ، وانصرفت الى بيتي داخل المدينة بعد أن استأذنته في ذلك ، فأذن فيه . وأقت في كسر البيت ، واشتغلت بما طلب مني في وصف بلاد المغرب ؛ فكتبته في أيام قليلة ، ورفعته إليه فأخذه من يدي ، وأمر موقّعه بترجمته الى اللسان المغلي . ثم اشتد في حصار القلعة ، ونصب عليها الآلات من المجانيق ، والنُفوط ، والعرّادات ، والنقب ؛ فنصبوا لأيام قليلة ستين منجنيقاً إلى ما يُشاكلها من الآلات الأخرى ، وضاق الحصار بأهل القلعة ، وتهدّم بناؤها من كل جهة ، فطلبوا الأمان .

وكان بها جماعة من خدام السلطان ومخلفه ، فأمنهم السلطان تمر ، وحضروا عنده . وخرب القلعة وطمس معالمها ، وصادر أهل البلد على قناطير من الأموال استولى عليها بعد أن أخذ جميع ما خلفه صاحب مصر هنالك ، من الأموال والظّهر والخيام . ثم أطلق أيدي النّهابة على بيوت أهل المدينة ؛ فاستوعبوا أناسيها ؛ وأمتعتها ، وأضرموا النّار فيما بقي من سقط الأقمشة والخرشي ؛ فاتصلت النار بحيطان الدور المدعمة بالخشب ؛ فلم تزل تتوقّد إلى أن اتصلت بالجامع الأعظم ، وارتفعت إلى سقّفه ؛ فسال رصاصه ، وتهدّمت سقّفه وحوائطه ، وكان أمراً بلغ مبالغته في الشّناعة والقبح . وتصاريف الأمور بيد الله يفعل في خلقه ما يريد ، ويحكم في ملكه ما يشاء .

وكان أيام مقامي عند السلطان تمر ، خرج إليه من القلعة يوم آمن أهلها رجل من أعقاب الخلفاء بمصر ، من ذرية الحاكم العبّاسي ^(١) الذي نصبه الظاهر بيبرس ؛ فوقف إلى السلطان تمر يسأله النّصف في أمره ؛ ويطلب منه منصيب الخلافة كما كان لسلفه ، فقال له السلطان تمر : أنا أحضر لك الفقهاء والقضاة ، فإن حكّموا لك بشيء أنصفتك فيه . واستدعى الفقهاء والقضاة ، واستدعاني فيهم ؛ فحضرنا عنده وحضر هذا الرجل الذي يسأل منصيب الخلافة ، فقال له عبد الجبار : هذا مجلس النّصف فتكلّم . فقال : إن هذه الخلافة لنا ولسلفنا ، وإن الحديث ^(٢) صحّ بأن

(١) هو أبو العباس أحمد بن أبي علي الحسن القطبي المتوفى سنة ٧٠١ .

(٢) في تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٠٠ ، ١٠١ بعض الآثار التي تمسك بها العبّاسيون في خلافتهم .

الأمر لبني العباس ما بقيت الدنيا ، يعني أمر الخلافة . وإني أحقُّ من صاحب المنصب الآن بمصر ، لأن آبائي الذين ورثتهم كانوا قد استحقَّوه ، وصار إلى هذا بغير مستند ، فاستدعى عبدُ الجبار كلاً منّا في أمره ، فسكتنا بُرْهةً ، ثم قال : ما تقولون في هذا الحديث ؟ فقال بُرْهان الدين بن مُفلح : الحديث ليس بصحيح . واستدعى ما عندي في ذلك فقلت : الأمر كما قلتُ من أنّه غير صحيح ، فقال السلطان تَمر : فما الذي أصرَّ الخلافة لبني العباس إلى هذا العهد في الإسلام ؟ وشافهني بالقول ، فقلت : أيّدك الله ! اختلف المسلمون من لدن وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، هل يجب على المسلمين ولاية رجل منهم يقوم بأمرهم في دينهم ودُنياهم ، أم لا يجب ذلك ؟ فذهبت طائفة إلى أنه لا يجب ، ومنهم الخوارج ، وذهب الجماعة إلى وجوبه ، واختلفوا في مُستند ذلك الوجوب ؛ فذهب الشيعة كلّهم إلى حديث الوصية ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بذلك لعليّ ، واختلفوا في تنقلها عنه إلى عَقِبِهِ إلى مذاهب كثيرة تشدُّ عن الحصر . وأجمع أهل السنة على إنكار هذه الوصية ، وأن مستند الوجوب في ذلك إنما هو الاجتهاد ، يعنون أن المسلمين يَجْتَهِدُونَ في اختيار رجل من أهل الحقِّ والفقهِ والعدل ، يُفَوِّضُونَ إليه النظرَ في أمورهم .

ولما تعدّدت فرق العلوية وانتقلت الوصية بزعمهم من بني الحنفية إلى بني العباس ، أوصى بها أبو هاشم بن محمد بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وبثَّ دُعَاةَ بخراسان . وقام أبو مُسلم^(١) بهذه الدعوة ؛ فملك خراسان والعراق ، ونزل شيعتهم الكوفة ، واختاروا للأمر أبا العباس السفّاح^(٢) ابنَ صاحب هذه الدعوة ؛ ثم أرادوا أن تكون بيعته على إجماع من أهل السنة والشيعة ، فكتبوا كبار الأمة يومئذ ، وأهل الحلِّ والعقد ، بالحجاز والعراق ، يشاورونهم في أمره ؛ فوقع اختيارهم كلّهم على الرضى به ، فبايع له شيعته بالكوفة بيعة إجماع وإصفاق . ثم عهد بها إلى أخيه المنصور^(٣) ، وعهد بها المنصور إلى بنيه ؛ فلم تزل مُتناقلة فيهم ، إما

(١) أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني . له ترجمة واسعة في وفيات ابن خلكان ٣٥٢/١ — ٣٥٦ .

(٢) أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (١٠٤ — ١٣٦) . وأنظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٩٩ وما بعدها .

(٣) أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (٩٥ — ١٥٨) . تاريخ الخلفاء ١٠١ —

بِعَهْدٍ او باختيار أهل العصر ، إلى أن كان المستعصم آخرهم ببغداد . فلما استولى عليها هولاكو وقتله ، افترق قرابته ، ولحق بعضهم بمصر ، وهو أحمد الحاكم من عقب الراشد ، فنصبه الظاهر بيبرس بمصر ، بمألة أهل الحل والعقد من الجند والفقهاء . وانتقل الأمر في بيته إلى هذا الذي بمصر ، لا يُعلم خلاف ذلك . فقال لهذا الرَّافع : قد سمعتَ مقال القضاة ، وأهل الفتيا ، وظهر أنه ليس لك حقّ تطلبه عندي . فانصرف راشداً .

* (الرجوع عن هذا الامير تمر الى مصر) *

كنت لما لقيته ، وتدلّيتُ إليه من السور كما مرّ أشار عليّ بعض الصّحاب من يخبر أحوالهم بما تقدّمتُ له من المعرفة بهم ؛ فأشار بأن أطرفه ببعض هديّة ، وإن كانت نزرةً فهي عندهم متأكّدة في لقاء ملوكهم ، فانتقيتُ من سوق الكتب مُصحّفاً رائعاً حسناً في جزء محدو ، وسجّادة أنيقة ، ونسخة من قصيدة البردة المشهورة للأبوصيري^(١) في مدح النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة . وجئتُ بذلك فدخلتُ عليه ، وهو بالقصر الأبلق جالس في إيوانه ؛ فلما رأيته مقبلاً مثل قائماً وأشار إليّ عن يمينه ؛ فجلستُ وأكابر من الحفطيّة حفاقيّة ؛ فجلستُ قليلاً ، ثم استدرت بين يديه ، وأشرتُ إلى الهدية التي ذكرتها ، وهي بيد خدامي ؛ فوضعتها ، واستقبلني ؛ ففتحتُ المُصحف فلما رآه وعرفه ، قام مُبادراً فوضعه على رأسه . ثم ناولته البردة ، فسألني عنها وعن ناظمها فأخبرته بما وقفت عليه من أمرها . ثم ناولته السجّادة ، فتناولها وقبلها . ثم وضعتُ علب الحلوى بين يديه ، وتناولتُ منها حرفاً على العادة في التأنيس بذلك . ثم قسم هو ما فيها من الحلوى بين الحاضرين في مجلسه ، وتقبّل ذلك كلّهُ ، وأشعر بالرّضى به . ثم حومت على الكلام بما عندي في شأن نفسي ، وشأن أصحاب لي هنالك . فقلتُ أيدك الله ! لي كلام أذكره بين يديك ، فقال : قل . فقلتُ أنا غريب بهذه البلاد غُربتين ، واحدة من

(١) هو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد الدلاصي البوصيري الصنهاجي (٦٠٨ — ٦٩٤) على خلاف في تاريخ الوفاة . له ترجمة في فوات الوفيات ٢/٢٠٥ — ٢٠٩ ، حسن المحاضرة ١/٣٦٠ .

المغرب الذي هو وطني ومنشأني وأخرى من مصر وأهل جيلي بها ، وقد حصلتُ في ظلك ، وأنا أرجو رأيك لي فيما يُؤنسني في غربتي ، فقال : قل الذي تريد أفعله لك ، فقلت : حال الغربة أنستني ما أريد ، وعساك — أيديك الله — أن تعرف لي ما أريد . فقال : انتقل من المدينة إلى الأردن^(١) عندي ، وأنا إن شاء الله أو في كُنه قصدك . فقلت يأمر لي بذلك نائبك شاه ملك ، فأشار إليه بامضاء ذلك ، فشكرت ودعوتُ وقلت : وبقيتُ لي أخرى . فقال : وما هي ؟ فقلت هؤلاء المخلفون عن سلطان مصر . من القراء ، والموقعين ، والدواوين^(٢) ، والعمال ، صاروا إلى إيلالتك والمملك لا يغفل مثل هؤلاء فسُلطانكم كبير ، وعمالاتكم متسعة ، وحاجة مُلككم إلى المتصرفين في صنوف الخدم أشد من حاجة غيركم ، فقال وما تريد لهم ؟ قلت : مكتوب أمان يستنيمون إليه ، ويعولون في أحوالهم عليه . فقال لكاثبه : اكتب لهم بذلك^(٣) ، فشكرتُ ودعوتُ . وخرجتُ مع الكاتب حتى كتب لي مكتوب الأمان ، وختمه شاه ملك بخاتم السلطان ، وانصرفتُ إلى منزلي . ولما قُرب سفره واعتزم على الرحيل عن الشام ، دخلتُ عليه ذات يوم ، فلمّا قضينا المعتاد ، التفت إليّ وقال : عندك بغلة هنا ؟ قلت نعم ، قال حسنة ؟ قلت نعم ، قال وتبيعهما ؟ فأنا اشتريها منك ، فقلتُ أيديك الله ! مثلي لا يبيع من مثلك ، إنا أنا أخذُك بها ، وبأمثالها لو كانت لي ، فقال : أنا أردت أن أكافئك عنها بالإحسان ، فقلت : وهل بقي إحسان وراء ما أحسنت به ، اصطنعتني ، وأحللتني من مجلسك محلّ خواصك ، وقابلتني من الكرامة والخير بما أرجو الله أن يقابلك بمثلِه ، وسكتَ وسكتَ وحملتُ البغلة — وأنا معه في المجلس — إليه ، ولم أرها بعد .

ثم دخلتُ عليه يوماً آخر فقال لي : أتسافر إلى مصر ؟ فقلتُ أيديك الله ، رغبتني إنما هي أنت ، وأنت قد آويت وكفّلت ، فإن كان السفر إلى مصر في خدمتك فنعم ، وإلا فلا بُغية لي فيه ، فقال لا ، بل تسافر إلى عيالك وأهلك ، فالتفت إلى ابنه ، وكان مسافراً إلى شقحب لمربع دوابه ، واشتغل بحادثه ، فقال لي الفقيه عبد الجبار الذي كان يترجم بيننا : إن السلطان يُوصي ابنه بك ، فدعوتُ له ، ثم رأيتُ أن

(١) الأردن : المعسكر (تركية) .

(٢) كذا في الاصل . ولعلها : (بالدواوين) أو (وأصحاب الدواوين) .

(٣) ذكر هذه الشفاعة المقريري في السلوك في حوادث سنة ٨٠٣ .

السفر مع ابنه غير مُستَين الوجهة ، والسفرُ إلى صَفَدَ أَقْرَبِ السواحل إلينا أَمَلِكُ لأَمري ، فقلتُ له ذلك ؛ فَأَجابَ إليهِ ، وَأَوْصِي بِي قاصداً كان عنده من حَاجِبِ صَفَدَ ابن الدَّأَوِيْدَري^(١) ، فودَّعته وانصرفت ، واختلفت الطريق مع ذلك القاصد ، فذهب عني ، وذهبتُ عنه ، وسَافرتُ في جمع أصحابي ؛ فاعترضتنا جماعة من العشير قطعوا علينا الطريق ، ونهبوا ما معنا ، ونجونا إلى قرية هنالك عرايا . واتصلنا بعد يومين أو ثلاث بالصُّبْيِيَّة فخلَفْنَا بعضَ الملبوس ، وأَجَزْنَا إلى صَفَدَ ، فَأَقْنَا بها أياماً . ثم مررنا مركب من مراكب ابن عُثْمَانَ سلطان بلاد الرُّوم ، وصل فيه رسولٌ كان سفر إليه عن سلطان مصر ، ورجع بجوار رسالته ؛ فركبتُ معهم البحر إلى غَزَّة ، ونزلت بها ، وسَافرتُ منها إلى مصر ، فوصلتها في شعبان من هذه السَّنة ، وهي سنة ثلاث وثمانائة ؛ وكان السلطان صاحب مصر ، قد بعث من بابه سفيراً إلى الأمير تِمْرُ إجابةً إلى الصلح الذي طلب منه ؛ فَأَعقَبني إليه . فلما قضى رسالته رجع ، وكان وصوله بعد وصولي ؛ فبعثَ إليَّ مع بعض أصحابه يقول لي : إِنَّ الأمير تِمْرُ قد بعثَ معي إليك ثمن البَغْلة التي ابتاعَ منك ، وهي هذه فخذها ، فَإِنَّه عَزَمَ علينا من خلاص دَمَتِه من مالِك هذا . فقلتُ لا أَقبله إلا بَعْدَ إِذْنِ مِنَ السُّلْطَانِ الذي بعثَكَ إليه ، وَأَمَّا دُونُ ذلك فلا . ومضيتُ إلى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ فَأخبرته الخبرَ فقال وما عليك ؟ فقلتُ : إِنَّ ذلك لا يَجْمَلُ بي أَنْ أَفْعَلَه دون إطلاعكم عليه ، فَأَغْضِي عن ذلك ، وبعثوا إليَّ بذلك المَبْلُغَ بعد مدَّة ، واعتذرَ الحامل عن نقصه بأنه أعطيه كذلك ، وحمدت الله على الخَلاص .

وكتبتُ حينئذ كتاباً إلى صاحب المغرب ، عَرَفْتِه بما دار بيني وبين سلطان الطُّطَرِ تِمْرُ ، وكيف كانت واقعتُهُ معنا بالشَّام ، وضمَّنتُ ذلك في فصل من الكتاب نصُّه :

«وإن تفضَّلتم بالسؤال عن حال المملوك ، فهي بخير والحمد لله ، وكنت في العام الفارط توجَّهتُ صُحْبَةَ الرِّكَّابِ السلطاني إلى الشام عندما زَحَفَ الطُّطَرُ إليه من بلاد الروم والعراق ، مع مَلِكِهِمْ تِمْرُ ، واستولى على حَلَبَ وحِمَاةٍ وَحِمَصَ وَبَعْلَبَكُ ،

(١) كذا بالأصل وفي عجائب المقدور ص ١١٣ : «... وكان في صفد تاجر من أهل البلاد أحد الرؤساء والتجار ، يدعى علاء الدين ، وينسب إلى دودار ، كان تقدمت له خدمة على السلطان فولاه حجابة ذلك المكان» .

وخرَّبها جميعاً ، وعانت عساكره فيها بما لم يُسمع أشنع منه . ونهَضَ السلطان في عساكره لاستنقاذها ، وسبق إلى دِمَشق ، وأقام في مقابلته نحواً من شهر ؛ ثم قفل راجعاً إلى مصر ، وتحلَّف الكثير من أمرائه وقضاته ، وكنتُ في المخلفين . وسمعت أن سلطانهم تمرُّ سأل عني ؛ فلم يسع إلا لقاءه فخرجتُ إليه من دِمَشق ، وحضرتُ مجلسه ، وقابلني بخير ، واقتضيتُ منه الأمان لأهل دِمَشق ، وأقتُ عنده خمساً وثلاثين يوماً ، أباكره واراوجه . ثم صرَفني ، وودَّعني على أحسن حال ، ورجعتُ إلى مصر . وكان طلبُ مِنِّي بَغْلَةً كنتُ أركبُها فأعطيته إياها ، وسألني البيع فتأفَّفتُ منه ، لما كان يُعامل به من الجميل ، فبعدَ انصرافي إلى مصر بعث إليَّ بِشَمَها مع رسول كان من جهة السلطان هنالك ، وحمدتُ الله تعالى على الخلاص من ورطات الدنيا .

وهؤلاء الطُّطَر هم الذين خرجوا من المَقَازة وراء النهر ، بينه وبين الصين ، أعوام^(١) عشرين وستائة مع ملكهم الشهير جنكزخان وملك المشرق كله من أيدي السِّلْجُوقية ومواليهم إلى عراق العرب ، وقَسَمَ الملك بين ثلاثة من بنيه وهم جَفَطَاي ، وطولي ، ودوشي خان :

فَجَفَطَاي كبيرُهم ، وكان في قسمته تُرْكِسْتان وكاشغَر ، والصَّاغُون ، والشَّاش وفرغانة ، وسائر ما وراء النهر من البلاد .

وطولي كان في قسمته أعمال خراسان ، وعراق العجم ، والرِّيَّ إلى عراق العرب وبلاد فارس وسجِسْتان والسند . وكان أبناؤه : قَبَلَاي ، وهولاكو .

ودوشي خان كان في قسمته بلاد قَبْجَق ، ومنها صَرَاي ، وبلاد الترك إلى خوارزم . وكان لهم أخ رابع يسمى أوكداي كبيرهم ، ويسمونه الخان ، ومعناه صاحب التَّخت ، وهو بمِثَابَةِ الخليفة في مُلْك الإسلام . وانقرضَ عَقْبُهُ ، وانتقلت الخانيَّة إلى قَبَلَاي ، ثم إلى بني دوشي خان ، أصحاب صَرَاي . واستمرَّ مُلْك الططر في هذه الدول الثلاث ، وملك هولاكو بَغْدَاد ، وعراق العرب ، إلى ديار بكر ونهر الفرات . ثم زحفَ إلى الشام وملكها ، ورجع عنها ، وزحفَ إليها بَنُوهُ مراراً ، وملوكُ مصر من الترك يُدافعونهم عنها ، إلى أن انقرض مُلْك بني هولاكو أعوامَ أربعين وسبعمئة ،

(١) كذا بالأصل ، وهو تعبير مألوف في أسلوب ابن خلدون . ورد كثيراً في أماكن متفرقة من كتابه .

وَمَلَكَ بَعْدَهُمُ الشَّيْخُ حَسَنُ التَّوْنِ وَبَنُوهُ . وَافْتَرَقَ مُلْكُهُمْ فِي طَوَائِفٍ مِنْ أَهْلِ دَوْلَتِهِمْ ، وَارْتَفَعَتْ نِقْمَتُهُمْ عَنْ مَلُوكِ الشَّامِ وَمِصْرَ . ثُمَّ فِي أَعْوَامِ السَّبْعِينَ أَوْ الثَّمَانِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، ظَهَرَ فِي بَنِي جُفْطَايَ وَرَاءَ النَّهْرِ أَمِيرٌ إِسْمُهُ تَيْمُورٌ ، وَشُهِرَتْهُ عِنْدَ النَّاسِ تَيْمُرٌ ، وَهُوَ كَافِلٌ لَصَبِيٍّ مُتَّصِلِ النَّسَبِ مَعَهُ إِلَى جُفْطَايَ فِي آبَاءِ كُلِّهِمْ مَلُوكٌ ، وَهَذَا تَيْمُرُ بْنُ طَرغَايَ هُوَ ابْنُ عَمِّهِمْ ، كَفَلَ صَاحِبُ التَّخْتِ مِنْهُمْ إِسْمَهُ مُحَمَّدٌ ، وَتَزَوَّجَ أُمَّ صَرَعْمِشَ ، وَمَدَّ يَدَهُ إِلَى مَمَالِكِ التُّرْكِيَّةِ ؛ فَاسْتَوَلَى عَلَيْهَا إِلَى دِيَارِ بَكْرَ ، ثُمَّ جَالَ فِي بِلَادِ الرُّومِ وَالْهِنْدِ ، وَعَاطَتْ عَسَاكِرُهُ فِي نَوَاحِيهَا ، وَخَرَّبَ حُصُونَهَا وَمُدُنَهَا ، فِي أَخْبَارٍ يَطُولُ شَرْحُهَا . ثُمَّ زَحَفَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الشَّامِ ، فَفَعَلَ بِهِ مَا فَعَلَ ، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ . ثُمَّ رَجَعَ آخِرًا إِلَى بِلَادِهِ ، وَالْأَخْبَارُ تَتَّصِلُ بِأَنَّهُ قَصَدَ سَمَرْقَنْدَ ، وَهِيَ كَرْسِيَّةٌ .

وَالْقَوْمُ فِي عَدَدٍ لَا يَسَعُهُ الْإِحْصَاءُ ، إِنْ قَدَرْتَ أَلْفَ أَلْفٍ فَغَيْرُ كَثِيرٍ ، وَلَا تَقُولُ أَنْقَصَ ، وَإِنْ خَيَّمُوا فِي الْأَرْضِ مَلَأُوا السَّاحَ ، وَإِنْ سَارَتْ كَتَائِبُهُمْ فِي الْأَرْضِ الْعَرِيضَةِ ضَاقَ بِهِمُ الْفَضَاءُ ؛ وَهُمْ فِي الْغَارَةِ وَالنَّهْبِ وَالْفَتْكِ بِأَهْلِ الْعُمُرَانِ ، وَابْتِلَائِهِمْ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ ، عَلَى مَا يَحْصُلُونَهُ مِنْ فِتَائِهِمْ آيَةٌ عَجَبٌ ، وَعَلَى عَادَةِ بَوَادِي الْأَعْرَابِ .

وَهَذَا الْمَلِكُ تَيْمُرُ بْنُ زُعْمَاءِ الْمُلُوكِ وَفِرَاعَتِهِمْ ، وَالنَّاسُ يَنْسُبُونَهُ إِلَى الْعِلْمِ ، وَآخَرُونَ إِلَى اعْتِقَادِ الرَّفْضِ ، لَمَّا يَرُونَ مِنْ تَفْضِيلِهِ لِأَهْلِ الْبَيْتِ ، وَآخَرُونَ إِلَى انْتِحَالِ السِّحْرِ ؛ وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي شَيْءٍ ؛ إِنَّمَا هُوَ شَدِيدُ الْفِطْنَةِ وَالذِّكَاءِ ، كَثِيرُ الْبَحْثِ وَاللَّجَاجِ بِمَا يَعْلَمُ وَبِمَا لَا يَعْلَمُ ، عُمُرُهُ بَيْنَ السِّتَيْنِ وَالسَّبْعِينَ ، وَرَكِبَتْهُ الْيُمْنَى عَاطِلَةٌ مِنْ سَهْمِ أَصَابِهِ فِي الْغَارَةِ أَيَّامَ صِبَاهِهِ عَلَى مَا أَخْبَرَنِي ، فَيَجْرُهَا فِي قَرِيبِ الْمَشِيِّ ، وَيَتَنَاوَلُهُ الرِّجَالُ عَلَى الْأَيْدِي عِنْدَ طُولِ الْمَسَافَةِ ، وَهُوَ مَصْنُوعٌ لَهُ ؛ وَالْمَلِكُ لِلَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ .

* (وَلَايَةُ الْقِضَاءِ الثَّلَاثَةِ وَالرَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ بِمِصْرَ) *

كَتَبْتُ — لَمَّا أَقَمْتُ عِنْدَ السُّلْطَانِ نَيْمُرَ تِلْكَ الْأَيَّامَ الَّتِي أَقَمْتُ — طَالَ مَغِيْبِي عَنْ

مِصرَ ، وشيَّعت الأخبار عني بالهلاك ، فُقِّدِمَ للوظيفة من يقوم بها من فضلاء المالكية ، وهو جمال الدين الأقفهسي^(١) ، غَزِيرَ الحفظ والذكاء ، عَفِيفَ النَّفْسِ عن التصدِّيِّ لحاجات النَّاسِ ، ورع في دينه ؛ فقلَّده متصِفَ جُمَادَى الآخرة من السنة .

فلما رجعتُ إلى مصرَ ، عدَّلُوا عن ذلك الرأي ، وبَدَأَ لهم في أمري ؛ فوَلَّوني في أواخر شعبان من السنة . واستمرتُ على الحال التي كنتُ عليها من القيام بالحقِّ ، والإعراض عن الأغراض ، والإنصاف من المطالب ، ووقَّعَ الإنكارُ عليَّ ممَّن لا يَدِينُ للحقِّ ، ولا يُعْطِي النَّصْفَ من نفسه ، فسَعَوْا عند السلطان في ولاية شخصٍ من المالكية يُعرف بجمال الدين البساطي^(٢) ، بَدَّلَ في ذلك لِسُعاةٍ داخلوه ، قطعةً من ماله ، ووُجِّهوا من الأغراض في قضائه . قاتل الله جميعهم ؛ فخلَعُوا عليه أواخرَ رجب ، سنة أربع وثمانمائة . ثم راجع السلطان بصيرته ، وانتقد رأيه ، وَرَجَعَ إليَّ الوظيفة خاتَمَ سنة أربع وثمانمائة ، فأجريتُ الحال على ما كان . وبقي الأمر كذلك سنة وبعض الأخرى . وأعادُوا البساطي إلى ما كان ، وبما كان ، وعلى ما كان ، وخلَعُوا عليه سادسَ ربيع الأول سنة ست وثمانمائة^(٣) ، ثم أعادوني عاشر شعبان سنة سبع وثمانمائة^(٤) ، ثم أدالوا به مِنِّي أواخرَ ذي القعدة^(٥) من السنة ويبد الله تصارييف الأمور .

تم الجزء السابع من تاريخ ابن خلدون وبتمامه اكتمل للمؤرخ ديوان المبتدأ والخبر من عرب وعجم وبربر ويليهِ الجزء الثامن وهو فهراس عامة للتاريخ المذكور وضع باشراف دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع في بيروت .

وكان الفراغ من طبعة في الرابع والعشرين من شعبان عام ١٤٠١ هـ الموافق ٢٦ حزيران ١٩٨١ م والحمد لله رب العالمين .

(١) هو عبدالله بن مقداد بن اسماعيل بن عبدالله الأقفهسي . جمال الدين المالكي المتوفي سنة ٧٢٣ هـ .

(٢) يوسف بن خالد بن نعم بن نعم بن محمد بن حسن بن علي بن محمد بن علي . جمال الدين .

(٣) انظر «عقد الجمان» للعيني ، في حوادث سنة ٨٠٦ .

(٤) في صبح الأعشى ١٨٩/١١ نص «التقليد» الذي تولى به البساطي القضاء بعد ابن خلدون .

(٥) الذي في «عقد الجمان» للعيني في حوادث سنة ٨٠٧ . أن الذي خلف ابن خلدون هو جمال الدين

الأقفهسي . ولعل ابن خلدون أعرف بمن ولي بدله .

فهرس الجزء السابع من تاريخ ابن خلدون

- الخبر عن زناته من قبائل البربر وما كان بين أجيالهم من الغز والظهور وما
 ٣ تعاقب فيهم من الدول القديمة والحديثة
- ٤ الخبر عن نسبة زناته مذكر الخلاف الواقع فيه وتعدد شعوبهم
- ١٠ فصل في تسمية زناته ومبنى هذه الكلمة
- ١١ فصل في أولية هذا الجيل وطبقاته
- ١٢ الخبر عن الكاهنة وقومها جراوة من زناته وشأنهم مع المسلمين عند الفتح
- ١٣ الخبر عن مبتدأ دول زناته في الإسلام ومصير الملك اليهم بالمغرب وأفريقية
 الطبقة الاولى من زناته ونبدأ بالخبر عن بني يفرن وانسابهم وشعوبهم وما كان
 لهم من الدول بأفريقية والمغرب
- ١٥ الخبر عن أبي قره وما كان لقومه من الملك بتلمسان ومبدأ ذلك ومصائره
- ١٧ الخبر عن أبي يزيد الخارجي صاحب الحمار من بني يفرن ومبدأ أمره مع
 الشيعة ومصائره
- ١٨ الخبر عن الدولة الأولى لبني يفرن بالمغرب الاوسط والاقصى ومبادئ
 ٢٤ أمورهم ومصايرها
- الخبر عن الدولة الثانية لبني يفرن بسلامن المغرب الاقصى وأولية ذلك
 وتصاريفه
- ٢٥ الخبر عن أبي نور بن أبي قرّة وما كان له من الملك بالاندلس ايام الطوائف
- ٣٢ الخبر عن مرنجيسة من بطون بني يفرن وشرح احوالهم
- ٣٢ الخبر عن مغراوة من أهل الطبقة الاولى من زناته وما كان لهم من الدول
 بالمغرب ومبدأ ذلك وتصاريفه
- ٣٣ الخبر عن آل زيري بن عطية ملوك فاس وأعمالها من الطبقة الأولى من مغراوة
 وما كان لهم بالمغرب الاقصى من الملك والدولة ومبادئ ذلك وتصاريفه
- ٣٩

- الخبر عن بني خزرون ملوك سجلماسة من الطبقة الأولى من مغراوة وأولية ملكهم ومصائره ٥٠
- الخبر عن ملوك طرابلس من بني خزرون بن فلفول من الطبقة الأولى وأولية أمرهم وتصاريف أحوالهم ٥٣
- الخبر عن بن يعلى ملوك تلمسان من آل خزر من أهل الطبقة الأولى والامام ببعض دولهم ومصائرها ٦٠
- الخبر عن أمراء أغمات من مغراوة ٦٢
- الخبر عن بني سنجاس وريغة والاغواط وبني ورا من قبائل مغراوة من أهل الطبقة الأولى وتصاريف أحوالهم ٦٣
- الخبر عن بني يرينان اخوة مغراوة وتصاريف أحوالهم ٦٦
- الخبر عن وجديجن وأوغمرت من قبائل زناتة ومبادئ أحوالهم وتصاريفهم ٦٧
- الخبر عن بني واركلا من بطون زناتة والمصر المنسوب اليهم بصحراء أفريقية وتصاريف أحوالهم ٦٩
- الخبر عن دمر من بطون زناتة ومن ولي منهم بالاندلس وأوليه ذلك ومصائره ٧١
- الخبر عن بني برزال احدى بطون دمر وما كان لهم من الحال بقرمونة وأعمالهم من الاندلس ايام الطوائف وأولية ذلك ومصائره ٧٢
- الخبر عن بني وماتوا وبني يلومي من الطبقة الأولى من زناتة ٧٤
- اخبار الطبقة الثانية من زناتة وذكر انسابهم ذشعوبهم وأوليته مصائر ذلك ٧٨
- الخبر عن أحوال هذه الطبقة قبل الملك وكيف كانت تصاريف أحوالهم إلى ان غلبوا على الملك والدول ٨٣
- الخبر عن أولاد منديل من الطبقة الثانية وما اعدوا لقومهم مغراوة من الملك بموطنهم الاول من شلب وما إليه من نواحي المغرب الأوسط ٨٥
- الخبر عن بني عبد الواد من هذه الطبقة الثانية وما كان لهم بتلمسان وبلاد المغرب الاوسط من الملك والسلطان وكيف كان مبدأ أمرهم ومصائر أحوالهم ٩٧
- الخبر عن تلمسان وما تأدى اليها من أحوالها من الفتح إلى ان تأثرت بها سلطان بني عبد الواد ودولتهم ١٠٢
- الخبر عن استقلال يغمراسن بن زيان بالملك والدولة بتلمسان وما إليها وكيف

- ١٠٥ مهد الأمر لقومه وأصاره تراثا لبيه
- ١٠٦ الخبر عن استيلاء الامير أبي زكريا على تلمسان ودخول يغمراسن في دعوته
- الخبر عن نهوض السعيد صاحب مراکش ومنازلته يغمراسن بجبل تامز
- ١٠٩ ردكت ومهلكه هناك
- ١١١ الخبر عما كان بينه وبين بني مرين من الاحداث سائر ايامه
- ١١٣ الخبر عن كائنه النصارى وايقاع يغمراسن بهم
- ١١٤ الخبر عن تغلب يغمراسن على سجلماة ثم مصيرها بعد إلى اiale بني مرين
- ١١٥ الخبر عن حروب يغمراسن مع يعقوب بن عبد الحق
- ١١٦ الخبر عن شأن يغمراسن مع مغراوة وبني توجين وما كان بينهم من الأحداث
- ١١٨ الخبر عن انتراء الزعيم بن مكن ببلد مستغانم
- الخبر عن شأن يغمراسن في معاقده مع ابن الاحمر والطاغية على فتنة
- ١١٩ يعقوب بن عبد الحق والأخذ بحجزته
- الخبر عن شأن يغمراسن مع الخلفاء من بني أبي حفص الذي كان يقيم
- ١٢٠ بتلمسان دعوتهم ويأخذ قومه بطاعتهم
- الخبر عن مهلك يغمراسن بن زيان وولاية ابنه عثمان وما كان من دولته من
- ١٢٢ الاحداث
- الخبر عن شأن عثمان بن يغمراسن مع مغراوة وبني توجين وغلبه على معاقلهم
- ١٢٣ والكثير من اعمالهم
- ١٢٥ الخبر عن منازلة بجاية وما دعا اليها
- ١٢٥ الخبر عن معاودة الفتنة مع بني مرين وشأن تلمسان في الحصار الطويل
- الخبر عن مهلك عثمان بن يغمراسن وولاية ابنه أبي زيان وانتهاء الحصار من
- ١٢٧ بعده الى غايته
- ١٣٠ الخبر عن شأن السلطان أبي زيان من بعد الحصار الى حين مهلكه
- ١٣١ الخبر عن محو الدعوة الحفصية من منابر تلمسان
- ١٣١ الخبر عن دولة أبي حموا الاوسط وما كان فيها من الاحداث
- ١٣٣ الخبر عن استئزال زيرم بن حماد من ثغر برشك وما كان قبله
- ١٣٤ الخبر عن طاعة الجزائر واستئزال ابن غلان منها وذكر أوليته

- الخبر عن حركة صاحب المغرب الى تلمسان وأولية ذلك ١٣٥
- الخبر عن مبدأ حصار بجاية وشرح الداعية إليه ١٣٦
- الخبر عن خروج محمد بن يوسف ببلاد بني توجين وحروب السلطان معه ١٣٨
- الخبر عن مقتل السلطان أبي حمو وولاية ابنه أبي تاشفين من بعده ١٣٩
- الخبر عن نهوض السلطان أبي تاشفين لمحمد بن يوسف بجبل وانشريس واستيلاؤه عليه ١٤٢
- الخبر عن حصار بجاية والفتنة الطويلة مع الموحدین التي كان فيها حتفه وذهاب سلطانه وانقراض الأمر عن قومه برهة من الدهر ١٤٣
- الخبر عن معاودة الفتنة بين بني مرين وحصارهم تلمسان ومقتل السلطان أبي تاشفين ومصائر ذلك ١٤٦
- الخبر عن رجال دولته وهم موسى بن علي ويحيى بن موسى ومولاه هلال وأوليئهم ومصاير أمورهم واختصاصهم بالذكر لما صار من شهرتهم وارتفاع صيتهم ١٤٩
- الخبر عن انتراء عثمان بن جرار على ملك تلمسان بعد نكبة السلطان أبي الحسن بالقيراون وعود الملك بذلك لبني زيان ١٥٣
- الخبر عن دولة أبي سعيد وأبي ثابت من آل يغمراسن وما فيها من الأحداث ١٥٤
- الخبر عن لقاء أبي ثابت مع الناصر ابن السلطان أبي الحسن وفتح وهران بعدها ١٥٦
- الخبر عن وصول السلطان أبي الحسن من تونس ونزوله بالجزائر وما دار بينه وبين أبي ثابت من الحروب ولخوقه بعد الهزيمة بالمغرب ١٥٨
- الخبر عن حروبهم مع مغراوة واستيلاء أبي ثابت على بلادهم ثم على الجزائر ومقتل علي بن راشد بتونس على أثر ذلك ١٥٩
- الخبر عن استيلاء السلطان أبي عنان على تلمسان وانقراض أمر بني عبد الواد ثانية ١٦١
- الخبر عن دولة السلطان أبي حمو الأخير مدبل الدولة بتلمسان في الكرة الثالثة لقومه وشرح ما كان فيها من الأحداث لهذا العهد ١٦٢

- الخبر عن اجفال أبي حمو عن تلمسان أمام عساكر المغرب ثم عودته اليها ١٦٤
- الخبر عن مقدم عبدالله بن مسلم من مكان عمله بدرعه ونزوله من ايالة بني مرين الى أبي حمو وتقليده اياه الوزارة وذكر أوليته ومصاير أموره ١٦٥
- الخبر عن استيلاء السلطان أبي سالم على تلمسان ورجوعه الى المغرب بعد أن ولى عليها أبو زيان حافد السلطان أبي تاشفين وما آل أمره ١٦٦
- الخبر عن قدوم أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد من المغرب لطلب ملكه وما كان من أحواله ١٦٧
- الخبر عن قدوم أبي زيان حاقدا السلطان أبي تاشفين ثانية من المغرب الى تلمسان لطلب ملكها وما كان من أحواله ١٦٩
- الخبر عن حركة السلطان أبي حمو على ثغور المغرب ١٧٠
- الخبر عن حركة السلطان أبي حمو الى بجاية ونكبته عليها ١٧١
- الخبر عن خروج أبي زيان بالقاصية الشرقية من بلاد حصين وتغلبه على المرية والجزائر ومليانة وما كان من الحروب معه ١٧٣
- الخبر عن حركة السلطان عبد العزيز على تلمسان واستيلائه عليها ونكبة أبي حمو وبني عامر بالدوس من بلاد الزاب وخروج أبي زيان من تيطري الى أحياء رياح ١٧٦
- الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط ورجوع أبي زيان الى تيطري واجلاب أبي حمو على تلمسان ثم انهزامها وتشريدتها على سائر النواحي ١٧٨
- الخبر عن عود السلطان أبي حمو الأخير الى تلمسان الكرة الثالثة لبني عبد الواد في الملك ١٧٩
- الخبر عن رجوع أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد الى بلاد حصين ثم خروجه عنها ١٨٠
- الخبر عن اجلاب عبدالله بن صغير وانتقاض أبي بكر بن عريف وبيعتهما للأمير أبي زيان ورجوع أبي بكر الى الطاعة ١٨١
- الخبر عن وصول خالد بن عامر من المغرب والحرب التي دارت بينه وبين سويد وأبي تاشفين هلك فيها عبدالله بن صغير وأخوانه ١٨٢
- الخبر عن انتقاض سالم بن ابراهيم ومظاهرته خالد بن عامر على الخلاف

- وبيعتها للأمير أبي زيان ثم مهلك خالد ومراجعة سالم الطاعة وخروج أبي
 ١٨٣ زيان الى بلاد الجريد
- ١٨٦ قسمة السلطان للأعمال بين ولده وما حدث بينهم من التنافس
- ١٨٧ وثبة أبي تاشفين بجيحيى بن خلدون كاتب أبيه
- ١٨٨ حركة أبي حمو على ثغور المغرب الأوسط ودخول ابنه أبي تاشفين الى
 جهات مكناسة
- ١٨٩ نهوض السلطان أبي العباس صاحب المغرب الى تلمسان واستيلاؤه عليها
 واعتصام أبي حمو بجبل تاحجموت
- ١٩٠ رجوع السلطان أبي العباس الى المغرب واختلال دولته ورجوع السلطان
 أبي حمو الى ملكه بتلمسان
- ١٩١ تجدد المنافسة بين اولاد السلطان أبي حمو ومحاهرة أبي تاشفين بذلك لهم
 ولأبيه
- ١٩١ خلع السلطان أبي حمو واستبداد ابنه أبي تاشفين بالملك واعتقاله اياه
- ١٩٢ خروج السلطان أبي حمو من الاعتقال ثم القبض عليه وتغريبه الى المشرق
- ١٩٣ نزول السلطان أبي حمو ببجاية من السفين واستيلاؤه على تلمسان ولحق أبي
 تاشفين بالمغرب
- ١٩٤ نهوض أبي تاشفين بعساكر بني مرين ومقتل السلطان أبي حمو
- ١٩٦ مسير أبي زيان بن أبي حمو لحصار تلمسان ثم اجفاله عنها وحلاقه
 بصاحب المغرب
- ١٩٦ وفاة أبي تاشفين واستيلاء صاحب المغرب على تلمسان
- ١٩٦ وفاة أبي العباس صاحب المغرب واستيلاء أبي زيان بن أبي حمو على
 تلمسان والمغرب الأوسط
- ١٩٧ الخبر عن بني كمي احد بطون بني القاسم بن عبد الواد وكيف نزعوا الى بني
 مرين وما صار لهم بنواحي مراکش وأرض السوس من الرياسة
- ٢٠٠ الخبر عن بني راشد بن محمد بن يادين وذكر أوليتهم وتصاريق أحوالهم
- ٢٠٣ الخبر عن بني توجين من شعوب بني يادين من أهل هذه الطبقة الثالثة من
 زناتة وما كان لهم من الدولة والسلطان بالمغرب الأوسط وأولية ذلك ومصابيره
- ٢٠٥

- الخبر عن بني سلامة أصحاب قلعة تاوغزوت رؤوساء بني يدلتن من بطون
توجين من هذه الطبقة الثانية وأوليتهم ومصايرهم ٢١٦
- الخبر عن بني يرنا تن احدى بطون توجين من هذه الطبقة الثانية وما كان لهم
من الثقلب والامارة وذكر اوليتهم ومصايره ٢١٨
- الخبر عن بني مرين وانسابهم وشعوبهم ٢٢١
- الخبر عن اماره عبد الحق بن محيو المستقرة في بنيه وامارة ابنه عثمان من بعده ٢٢٤
- الخبر عن دولة الامير أبي يحيى بن عبد الحق مدبل الأمر لقومه بني مرين ٢٢٧
- الخبر عن انتقاض أهل فاس على أبي يحيى بن عبد الحق وظفره بهم بعد
ايقاعه بيغمراسن وقومه بايسلي ٢٣٠
- الخبر عن تغلب الامير أبي يحيى على مدينة سلا وارتجاعها من يده وهزيمة
المرتضى بعدها ٢٣٢
- الخبر عن فتح سجلماسة وبلاد القبلة وما كان في ذلك من الأحداث ٢٣٣
- الخبر عن مهلك أبي يحيى وما كان أثر ذلك من الاحداث التي تمحضت
عن استبداد أخيه يعقوب بن عبد الحق بالأمر ٢٣٤
- الخبر عن فجأة العدو بمدينة سلا واستنقاذها من ايديهم ٢٣٥
- الخبر عن منازلة السلطان أبي يوسف حضرة مراکش دار الخلافة ٢٣٧
- الخبر عن وقعة تلاغ بين السلطان يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن بن زيان
باغراء أبي دبوس وتضريه ٢٣٨
- الخبر عن السفارة والمهاوأة التي وقعت بين السلطان يعقوب بن عبد الحق
وبين المستنصر الخليفة بتونس من آل أبي حفص ٢٣٩
- الخبر عن فتح مراکش ومهلك أبي دبوس وانقراض دولة الموحدين من
المغرب ٢٤١
- الخبر عن عهد السلطان لابنه أبي مالك وما كان عقب ذلك من خروج
القراية عليه اولاد اخيه ادريس واجازتهم الى الاندلس ٢٤٢
- الخبر عن حركة السلطان أبي يوسف الى تلمسان وواقعيته على يغمراسن
وقومه بايسلي ٢٤٣
- الخبر عن افتتاح مدينة طنجة وطاعة أهل سبتة وفرض الاتاوة عليهم وما

- ٢٤٥ قارن ذلك من الاحداث
- الخبر عن فتح سجلماسة الثاني ودخولها عنوة على بني عبد الواد والمنبات من
- ٢٤٨ عرب المعقل
- الخبر عن شأن الجهاد وظهور السلطان أبي يوسف على النصارى وقتل
- ٢٥٠ زعيمهم ذننة وما قارن ذلك
- ٢٥٦ الخبر عن اختطاط ابيد ابيسيد بفاس وما كان على بقية ذلك من الأحداث
- ٢٥٩ الخبر عن اجازة امير المسلمين ثانية وما كان فيها من الغزوات
- ٢٦١ الخبر عن تملك السلطان مدينة مالقة من يد ابن اسقيلولة
- الخبر عن تظاهر ابن الاحمر والطاغية على منع السلطان ابي يوسف من
- ٢٦٢ اجازة ابن الاحمر واصفاق يغمراسن بن زيان معهم
- الخبر عن اجازة السلطان أبي يوسف صريخا للطاغية لخروج ابنه شانجة
- ٢٧٠ عليه وافتراق كلمة النصرانية وما كان في هذه الاخبار من الغزوات
- الخبر عن شأن السلم مع ابن الاحمر وتجافي السلطان له عن مالقة ثم تجدد
- ٢٧١ الغزو بعد ذلك
- الخبر عن اجازة السلطان أبي يوسف الرابعة ومحاصرة شريش وما تخلل ذلك
- ٢٧٣ من الغزوات
- ٢٧٦ الخبر عن وفادة الطاغية شانجة وانعقاد السلم ومهلك السلطان على تفيئة ذلك
- الخبر عن دولة السلطان وما كان فيها من الاحداث وشأن الخوارج لأول
- ٢٧٨ دولته
- الخبر عن دخول واوي آش في طاعة السلطان ثم رجوعها الى طاعة ابن
- ٢٨٠ الأحمر
- ٢٨١ الخبر عن خروج الأمير أبي عامر ونزوعه الى مراکش ثم فيئته الى الطاعة
- الخبر عن تجدد الفتنة مع عثمان بن يغمراسن وغزو السلطان مدينة تلمسان
- ٢٨٢ ومنازلته إياها
- ٢٨٤ الخبر عن انتفاض الطاغية واجازة السلطان لغزوه
- الخبر عن انتفاض ابن الاحمر ومظاهرتة للطاغية على طريف اعادها الله
- ٢٨٥ للمسلمين

- ٢٨٦ الخبر عن وفادة ابن الاحمر على السلطان والتقاءها بطنجة
الخبر عن انتراء الوزير الوساطي بحض تازوطا من جهات الريف واستنزال
السلطان اياه
- ٢٨٧
- ٢٨٨ الخبر عن نزوع أبي عامر ابن السلطان الى بلاد الريف وجهات غمارة
- ٢٨٩ الخبر عن حصار تلمسان الكبير وما تخلل ذلك من الاحداث
- ٢٩١ الخبر عن الحصار الكبير لتلمسان وما تخلل ذلك من الأحداث
- ٢٩٣ الخبر عن افتتاح بلاد مغراوة وما تخلل ذلك من الاحداث
- ٢٩٥ الخبر عن افتتاح بلاد توجين وما تخلل ذلك
- ٢٩٦ الخبر عن مراسلة الموحيدين ملوك افريقية بتونس وبجاية لزناة وأحوالهم معهم
- الخبر عن مراسلة ملوك المشرق الأقصى ومهاداتهم ووقادة امراء الترك على
السلطان وما تخلل ذلك
- ٢٩٨
- الخبر عن انتقاض ابن الاحمر واستيلاء الرئيس سعيد على سبتة وخروج
عثمان بن العلاء في غمارة
- ٣٠١
- ٣٠٣ الخبر عن انتقاض بني كمي من بني عبد الواد وخروجهم بأرض السوس
- ٣٠٥ الخبر عن مهلك المشيخة من المصامدة تبليس أبي الملياني
- ٣٠٧ الخبر عن رئاسة اليهود بني رقاصة ومقتلهم
- ٣٠٧ الخبر عن مهلك السلطان أبي يعقوب
- الخبر عن ولاية السلطان أبي ثابت واستلحامه المرشحين وما تخلل ذلك من
الاحداث
- ٣٠٨
- ٣١١ الخبر انتراء يوسف بن أبي عياد بمراكش وتغلب السلطان عليه
- الخبر عن غزاة السلطان لمداغة عثمان بن أبي العلاء ببلاد الهبط ومهلكه
بطنجة بعد ظهوره
- ٣١٢
- ٣١٤ الخبر عن دولة السلطان أبي الربيع وما كان فيها من الاحداث
- ٣١٥ الخبر عن مقتل عبدالله بن أبي مدين
- ٣١٦ الخبر ثورة أهل سبتة بالاندلسيين ومراجعتهم طاعة السلطان
- الخبر عن بيعة عبد الحق بن عثمان بمالأة الوزير والمشيخة وظهور السلطان
عليهم ثم مهلكه باثر ذلك
- ٣١٨

- ٣١٩ الخبر عن دولة السلطان أبي سعيد وما كان فيها من الاحداث
- ٣٢٠ الخبر عن حركه السلطان أبي سعيد الى تلمسان أولى حركاته اليها
- ٣٢١ الخبر عن انتقاض الأمير أبي علي وما كان بينه وبين أبيه من الوقعات
- ٣٢٤ الخبر عن نكبة منديل الكتاني ومقتله
- الخبر عن انتقاض الغزي بسبته ومنازلته ثم مصيرها الى طاعة السلطان بعد مهلكه
- ٣٢٦
- ٣٢٨ الخبر عن استقدام عبد المهيمن للكتابة والعلامة
- ٣٢٩ الخبر عن صريح أهل الأندلس ومهلك بطرة على غرناطة
- الخبر عن صهر الموحدين والحركة الى تلمسان على أثره وما تخلل ذلك من الاحداث
- ٣٣١
- الخبر عن مهلك السلطان أبي سعيد عفا الله عنه وولاية السلطان أبي الحسن وما تخلل ذلك من الاحداث
- ٣٣٤
- الخبر عن حركة السلطان أبي الحسن الى سجلماسة وانكفائه عنها الى تلمسان بعد الصلح مع أخيه والاتفاق
- ٣٣٥
- الخبر عن انتقاض الأمير أبي علي ونهوض السلطان أبي الحسن اليه وظفره به
- ٣٣٦
- ٣٣٧ الخبر عن منازلته جبل الفتح واستئثار الأمير أبي مالك والمسلمين به
- الخبر عن حصار تلمسان وتغلب السلطان أبي الحسن عليها وانقراض أمر بني عبد الواد بمهلك أبي تاشفين
- ٣٣٩
- الخبر عن نكبة الأمير عبد الرحمن بمتيجة وتقبض السلطان عليه ثم مهلكه اخرا
- ٣٤٢
- ٣٤٣ الخبر عن خروج ابن هيدور وتلبسية بأبي عبد الرحمن
- ٣٤٤ الخبر عن شأن الجهاد واغراء السلطان ابنه الأمير ابا مالك واستشهاده
- ٣٤٥ الخبر عن واقعة الملند والظفر به وظهور اساطيل المسلمين على اسطول النصارى
- ٣٤٦
- الخبر عن واقعة طريف وتمحيص المسلمين
- الخبر عن منازل الطاغية الجزيرة ، ثم تغلبه عليها بعد ان غلب على القلعة
- ٣٤٧
- ثغور ابن الأحمر

- ٣٤٩ الخبر عن شفاعة صاحب تونس في اولاد أبي العلاء ووصولهم الى السلطان
الخبر عن هدية السلطان الى المشرق وبعثه بنسخ المصحف من خطه الى
الحرمين والقدس
- ٣٥٠
- ٣٥٢ الخبر عن هدية السلطان الى ملك مالي من السودان المجاورين للمغرب
- ٣٥٣ الخبر عن اصهار السلطان الى صاحب تونس
- ٣٥٤ الخبر عن حركة السلطان الى افريقية واستيلائه عليها
- الخبر عن واقعة المغرب مع السلطان أبي الحسن بالقيروان وما تخللها من
الاحداث
- ٣٦١
- ٣٦٦ الخبر عن انتفاض الثغور الغربية ورجوعها الى دعوة الموحدين
- الخبر عن انتراء اولاد السلطان بالمغرب الاوسط والاقصى ثم استقلال أبي
عنان بملك المغرب
- ٣٦٨
- الخبر عن انتفاض النواحي وانتراء بني عبد الواد بتلمسان ومغراوة بشلف
وتوجين بالمرية
- ٣٧١
- ٣٧٣ الخبر عن رجوع الثغور الغربية لأمراء الموحدين ببجاية وقسنطينة
- الخبر عن نهوض الناصر ابن السلطان وولية عريف بن يحيى من تونس الى
المغرب الاوسط
- ٣٧٤
- الخبر عن رحلة السلطان أبي الحسن الى المغرب وتغلب المولى الفضل على
تونس وما دعا الى ذلك من الاحوال
- ٣٧٥
- الخبر عن استيلاء السلطان على سجلماسة ثم فرارة عنها امام ابنه الى مراکش
واستيلائه عليها وما تخلل ذلك
- ٣٧٨
- الخبر عن استيلاء السلطان على مراکش ثم انهزامه امام الامير أبي عنان
ومهلكه بجبل هنتاة عفا الله عنه
- ٣٧٩
- الخبر عن حركة السلطان أبي عنان الى تلمسان وايقاعه ببني عبد الواد
بانكاد ومهلك سلطانهم سعيد
- ٣٨١
- الخبر عن شأن أبي ثابت وايقاع بني مرين به بوادي شلف وتقبض الموحدين
عليه ببجاية
- ٣٨٢
- ٣٨٣ الخبر عن تملك السلطان أبي عنان ببجاية وانتقال صاحبها الى المغرب

- ٣٨٣ الخبر عن ثورة أهل بجاية ونهوض الحاجب اليها في العساكر
- ٣٨٦ الخبر عن الحاجب ابن أبي عمرو وما عقد له السلطان على ثغر بجاية وعلى منازل قسنطينة ونهوضه لذلك
- ٣٨٨ الخبر عن خروج أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن بجبل السكسيوي ومكر عامل درعة به ومهلكه
- ٣٩٠ الخبر عن انتفاض عيسى بن الحسن بجبل الفتح ومهلكه
- ٣٩٢ الخبر عن نهوض السلطان الى فتح قسنطينة وفتحها ثم فتح تونس عقبها
- ٣٩٥ الخبر عن وزارة سليمان بن داود ونهوضه بالعساكر الى افريقية
- ٣٩٦ الخبر عن مهلك السلطان أبي عنان ونصب السعيد للأمر باستبداد الوزير حسن بن عمر في ذلك
- ٣٩٧ الخبر عن تجهيز العساكر الى مراکش ونهوض الوزير سليمان بن داود لمحاربة عامر بن محمد
- ٣٩٨ الخبر عن ظهور أبي حمو بنواحي تلمسان وتجهيز العساكر لمدافعته ، ثم تغلبه وما تخلل ذلك من الاحداث
- ٤٠٠ الخبر عن نهوض الوزير مسعود بن ماسي الى تلمسان وتغلبه عليها ثم انتفاضه ونصبه سليمان بن منصور للامر
- ٤٠٢ الخبر عن نزول المولى أبي سالم بجبال غمارة واستيلائه على ملك المغرب ومقتل منصور بن سليمان
- ٤٠٥ الخبر عن خلع ابن الأحمر صاحب غرناطة ومقتل رضوان ومقدمه على السلطان
- ٤١٠ الخبر عن انتفاض الحسن بن عمر وخروجه بتادلا وتغلب السلطان عليه ومهلكه
- ٤١١ الخبر عن وفد السودان وهديتهم واغرابهم فيها بالزرافة
- ٤١٢ الخبر عن حركة السلطان الى تلمسان واستيلائه عليها وايثار أبي زيان حافد أبي تاشفين بملكها وما كان من ذلك من صرف امراء الموحدين الى بلادهم
- ٤١٣ الخبر عن مهلك السلطان أبي سالم واستيلاء عمر بن عبد الله على ملك المغرب ونصبه للملوك واحداً بعد واحد الى ان هلك

- الخبر عن الفتك بابن أنطول قائد العسكر من النصارى ثم خروج يحيى بن
٤١٦ رحو وبني مرين عن الطاعة
- الخبر عن وصول عبد الحلیم ابن السلطان من تلمسان وحصار البلد الحديد
٤١٨ الخبر عن قدوم الأمير محمد ابن الأمير عبد الرحمن ويبعته بالبلد الحديد في
٤٢٠ كفالة عمر بن عبد الله
- الخبر عن تجهيز السلطان عبد الحلیم واخوته الى سجلماسة بعد الواقعة عليهم
٤٢١ بمكناسة
- الخبر عن قدوم عامر بن محمد ومسعود بن ماسي من مراكش وما كان من
٤٢٢ وزارة ابن ماسي واستبداد عامر بمراكش
- الخبر عن زحف الوزير عمر بن عبد الله الى سجلماسة
٤٢٣
- الخبر عن بيعة العرب لعبد المؤمن وخروج عبد الحلیم الى المشرق
٤٢٤
- الخبر عن نهوض ابن ماسي بالعساكر الى سجلماسة واستيلائه عليها ولحاق
٤٢٥ عبد المؤمن بمراكش
- الخبر عن انتفاض عامر ثم انتفاض الوزير ابن ماسي على اثره
٤٢٥
- الخبر عن نهوض الوزير عمر وسلطانه الى مراكش
٤٢٧
- الخبر عن مهلك السلطان محمد بن أبي عبد الرحمن وبيعة عبد العزيز ابن
٤٢٨ السلطان أبي الحسن
- الخبر عن مقتل الوزير عمر بن عبد الله واستبداد السلطان عبد العزيز بأمره
٤٢٩
- الخبر عن انتراء أبي الفضل بن المولى أبي سالم ثم نهوض السلطان اليه
٤٣٠ ومهلكه
- الخبر عن نكبة الوزير يحيى بن ميمون بن مصمود ومقتله
٤٣١
- الخبر عن حركة السلطان الى عامر بن محمد ومنازلته بجبله ثم الظفر به
٤٣١
- الخبر عن ارتجاع الجزيرة الخضراء
٤٣٣
- الخبر عن حركة السلطان الى تلمسان واستيلائه عليها وغلب سائر بلادها وفرار
٤٣٥ أبي حمو عنها
- الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط ورجوع أبي زيان الى تيطرا واجلاب
العرب بأبي حمو على تلمسان الى أن غلبهم السلطان جميعاً على الأمر

واستوسق له الملك

الخبر عن قدوم ابن الخطيب على السلطان بتلمسان نازعاً اليه عن سلطانه
ابن الأحمر صاحب الاندلس

٤٤٠

الخبر عن مهلك السلطان عبد العزيز وبيعة ابنه السعيد واستبداد أبي بكر
بن غازي عليه ورجوع بني مرين الى المغرب

٤٤٦

٤٤٦

الخبر عن استيلاء أبي حمو على تلمسان والمغرب الأوسط

الخبر عن اجازة الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن الى المغرب واجتماع
بطوية اليه وقيامهم بشأنه

٤٤٧

الخبر عن بيعة السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم واستقلاله بالملك
وما كان خلال ذلك من الأحداث

٤٤٩

٤٥٢

الخبر عن مثل ابن الخطيب

٤٥٤

الخبر عن اجازة سليمان ب داود الأندلس ومقامه الى أن هلك بها
الخبر عن شأن الوزير أبي بكر بن غازي وما كان من تغريبه الى ما يرقه ثم
رجوعه وانتقاضه بعد ذلك

٤٥٥

الخبر عن انتقاض الصلح بين الأمير عبد الرحمن صاحب مراکش
والسلطان أبي العباس صاحب فاس واستيلاء عبد الرحمن على أزموور
ومقتل عاملها حشون بن علي

٤٥٧

الانتقاض الثاني بين صاحب فاس وصاحب مراکش ونهوض فاس اليه
وحصاره ثم عودهما الى الصلح

٤٥٩

انتقاض علي بن زكريا شيخ الهاجرة على الأمير عبد الرحمن وقتكه بمولاه
منصور ومقتل الأمير عبد الرحمن

٤٦٠

اجلاب العرب على المغرب في مغيب السلطان بغرية من ولد أبي علي وأبي
تاشفين بن أبي حمو صاحب تلمسان ومحيء أبي حمو على أثرهم

٤٦١

٤٦٢

نهوض السلطان الى تلمسان وفتحها وتخريبها

اجازة السلطان موسى ابن السلطان أبي عنان من الأندلس الى المغرب
واستيلاؤه على الملك وظفره بابن عمه السلطان أبي العباس وارعاجه الى
الاندلس

٤٦٣

- ٤٦٦ كبة الوزير محمد بن عثمان ومقتله
- الخبر عن خروج الحسن بن الناصر بغارة ونهوض الوزير ابن ماسي اليه
٤٦٧ بالعساكر
- ٤٦٧ وفاة السلطان موسى والبيعة للمنتصر ابن السلطان أبي العباس
- اجازة الواثق محمد بن أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن من الاندلس
والبيعة له
٤٦٨
- الفتنة بين الوزير ابن ماسي وبين السلطان ابن الأحمر واجازة السلطان أبي
٤٧٠ العباس الى سبتة لطلب ملكه واستيلاؤه عليها
- مسير السلطان أبي العباس من سبتة لطلب ملكه بفاس ونهوض ابن ماسي
لدفاعه ورجوعه منهزماً
٤٧١
- ٤٧٣ ظهور دعوة السلطان أبي العباس في مراکش واستيلاء اوليائه عليها
- ٤٧٣ ولاية المنتصر ابن السلطان أبي علي على مراکش واستقلاله بها
- ٤٧٤ حصار البلد الجديد وفتحها ونكبة الوزير ابن ماسي ومقتله
- ٤٧٥ وزارة محمد بن علال
- ٤٧٦ ظهور محمد ابن السلطان عبد الحليم بسجلماسة
- ٤٧٨ نكبة ابن أبي عمر ومهلكه وحركات ابن حسون
- ٤٧٩ خلاف علي بن زكريا بجبل المساكرة ونكبته
- وفادة أبي تاشفين على السلطان أبي العباس صريحاً على أبيه ومسيره
٤٧٩ بالعساكر ومقتل أبيه السلطان أبي حمو
- ٤٨٢ وفاة أبي تاشفين واستيلاء صاحب المغرب على تلمسان
- وفاة أبي العباس صاحب المغرب واستيلاء أبي زيان بن أبي حمو على
٤٨٢ تلمسان والمغرب الأوسط
- الخبر عن القرابة المرشحين من آل عبد الحق من الغزاة المجاهدين بالاندلس
٤٨٥ الذين قاسموا ابن الأحمر في ملكه وانفردوا برياسة جهاده
- الخبر عن موسى بن رحو فاتح هذه الرياسة بالاندلس وخبر أخيه عبد الحق
من بعده وابنه حمو بن عبد الحق بعدهما
٤٨٧
- ٤٨٨ الخبر عن عبد الحق بن عثمان شيخ الغزاة بالاندلس

- ٤٩٠ الخبر عن عثمان بن أبي العلاء من أمراء الغزاة المجاهدين بالأندلس
- ٤٩٣ الخبر عن رياسة ابنه أبي ثابت من بعده ومصير أمرهم
- الخبر عن يحيى بن عمر بن رحو ومارته على الغزاة بالأندلس أولاً وثانياً
- ٤٩٥ ومبدأ ذلك وتصاريفه
- ٤٩٧ الخبر عن ادريس بن عثمان بن أبي العلاء ومارته بالأندلس ومصاير أمره
- ٤٩٩ الخبر عن إمارة علي بن بدر الدين على الغزاة بالأندلس ومصاير أمره
- الخبر عن إمارة عبد الرحمن بن علي أبي يفلوس ابن السلطان أبي علي
- ٥٠٠ على الغزاة بالأندلس ومصاير أمره
- ٥٠٣ التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب
- ولاية العلامة بتونس ثم الرحلة بعدها الى المغرب والكتابة على السلطان أبي
- عنان
- ٥٣٩ حديث النكبة من السلطان أبي عنان
- ٥٤٠ الكتابة عن السلطان أبي سالم في السر والانشاء
- ٥٤٨ الرحلة الى الأندلس
- ٥٥٧ الرحلة من الأندلس الى بجاية وولاية الحجاية بها على الاستبداد
- ٥٦١ مشايعة أبي حمو صاحب تلمسان
- ٥٨٠ مشايعة السلطان عبد العزيز صاحب المغرب على بني عبد الواد
- ٥٩١ فضل الوزير ابن الخطيب
- ٦٣٢ العودة الى المغرب الأقصى
- الاجازة الثانية الى الأندلس ثم الى تلمسان والحق بأحياء العرب والمقامة
- ٦٣٧ عند اولاد عريف
- ٦٣٩ الفتيحة الى السلطان أبي العباس بتونس
- ٦٤٨ الرحلة الى المشرق وولاية القضاء بمصر
- ٦٥٧ السفر لقضاء الحج
- ٦٦٧ ولاية الدروس والخوانق
- ٦٩٠ ولاية خانقاه ببيرس ، والغزل منها
- فتنة الناصري وسياقه الخبر عنها بعد تقديم كلام في احوال الدول يليق بهذا

	الموضع — ويطلعك على أسرار في تنقل احوال الدول بالتدرج الى
٦٩١	الضخامة والاستيلاء ، ثم الى الضعف والاضمحلال ، والله بالغ أمره
٧٠٦	السعاية في المهادة والاتحاف بين ملوك المغرب والملك الظاهر
٧١٤	ولاية القضاء الثانية بمصر
٧١٧	سفر السلطان الى الشام لمداغة الططر عن بلاده
٧٢٨	لقاء الامير تمر سلطان المغل والططر
٧٣٧	الرجوع عن هذا الامير تمر الى مصر
٧٤١	ولاية القضاء الثالثة والرابعة والخامسة بمصر
	يقول المتوكل على من وصف نعمه بالاسباغ الفقير الى الله تعالى محمد الصباغ
٧٤٢	مصصح دار الطباعة الخديوية ببولاق مصر المعزية
٧٤٥	الفهرس

المصادر والمراجع القديمة

- ١ — ابن الاثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيناني الملقب بعز الدين ٦٣٠ هـ — ١٢٣٣ م) .
« الكامل في التاريخ — دار صادر ١٩٦٥ .
- ٢ — الاصطخري (الشيخ أبي اسحق الفارسي) .
« كتاب الاقاليم — مكتبة المثنى — بغداد .
- ٣ — الاصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسن بن محمد القرشي الاموي الكاتب ت ٣٥٦ هـ — ٩٦٧ م)
« الاغانى — الطبعة المصورة عن طبعة بولاق المصرية — دار الفكر — بيروت ١٩٧٠ .
- ٤ — ابن أبي أصيبعة الخزرجي السعدي (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم) .
« عيون الأنباء في طبقات الاطباء — اعتناء الاستاذ مد . كونسيرج ١٨٨٤ م المطبعة الوهبية ١٣٠٠ هـ .
- ٥ — البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر ٢٧٩ هـ — ٨٩٢ م) .
« فتوح البلدان — عني بنشره رضوان محمد رضوان — المطبعة المصرية — الازهر ١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م .
- ٦ — البلخي (أبو زيد بن سهل ت ٣٢٣ هـ) .
« البدء والتاريخ « ينسب الى مطهر بن طاهر المقدسي » .
- ٧ — البيروني (أبو الرخان محمد بن أحمد ت ٤٤٠ هـ) .
« الآثار الباقية عن القرون الخالية — طبعة ليبزج ١٨٧٨ م .
- ٨ — البغدادي السويدي (أبو الفوز محمد أمين) .
« سياتك الذهب في معرفة قبائل العرب — مكتبة المثنى — بغداد .
- ٩ — تلمساني (الشيخ أحمد بن محمد المقرئ) .
« نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب — دار صادر — بيروت ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م تحقيق الدكتور احسان عباس .
- ١٠ — الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر ٢٥٥ هـ) .
« البيان والتبيين (تحقيق المحامي فوزي عطوي — مكتبة الطلاب — بيروت) .
« التاج في اخبار الملوك (تحقيق أحمد زكي باشا — المطبعة الاميرية القاهرة ١٣٢٣ هـ — ١٩١٤ م) .
- ١١ — الحزري (عز الدين بن الاثير) .
« اللباب في تهذيب الانساب (دار المثنى — بغداد) .
- ١٢ — ابل حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الاندلسي) .
« جمهرة انساب العرب — تحقيق عبد السلام محمد هارون (دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م — ١٣٨٢ هـ) .
- ١٣ — الحسيني الزبيدي (محمد مرتضى) .
« دج نعروس من جواهر القاموس (تحقيق عبد العليم الصحاوي ومراجعة عبد الكريم الغزالي وعبد الستار أحمد فرج) مضبعة انكويت ١٩٧٤ .

- ١٤ — الحموي (شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت ت ٦٣٦ هـ) .
* معجم البلدان — دار صادر .
- ١٥ — ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر ٦٠٨ هـ — ٦٨١ هـ) .
* وفيات الأعيان وأنباء الزمان — تحقيق الدكتور إحسان عباس — دار صادر .
- ١٦ — الدينوري (أبي حنيفة أحمد بن داود ت ٢٨٢ هـ) .
* الأخبار الطوال — تحقيق عبد المنعم عامر ومراجعة جمال الدين الشيال — دار احياء الكتب العربية — القاهرة ١٩٦٠ الطبعة الاولى .
- ١٧ — ابن أبي زرع الفارسي (الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمر ت ٧٢٦ هـ) .
* الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس طبع بفاس ١٣٠٣ هـ .
- ١٨ — السمعاني (أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التيمي ت ٥٦٢ هـ) .
* كتاب الانساب — لندن ١٩١٢ .
- ١٩ — السيوطي (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١ هـ) .
* تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد — مطبعة المدني — الطبعة الرابعة القاهرة ١٩٦٤ .
- ٢٠ — الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة . ت ٥٩٩ هـ) .
* بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس — طبع في مدينة مجريط بمطبع روخس سنة ١٨٨٣ م .
- ٢١ — الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير . ت ٣١٠ هـ) .
* تاريخ الأمم والملوك — دار صادر — بيروت .
- ٢٢ — ابن عربشاه الدمشقي ٧٩١ — ٨٥٤ هـ .
* عجائب المقدور في أخبار نواب تيمود — ليدن ١٦٣٦ م .
- ٢٣ — ابن العماد الحنبلي (أبي الفلاح عبد الحفيظ ت ١٠٨٩ م) .
* شذرات الذهب في أخبار من ذهب — دار الآفاق الجديدة — بيروت .
- ٢٤ — العيني (بدر الدين ٧٦٣ — ٨٥٥ هـ) .
* عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان .
- ٢٥ — أبو الفداء (اسماعيل بن علي بن محمد ت ٧٣٢ هـ) .
* المختصر في أخبار البشر — المطبعة الحسينية المصرية — الطبعة الاولى .
- ٢٦ — القلقشندي (أحمد بن علي) .
* صبح الأعشى في كتابة الانشا — دار الكتب المصرية ١٣٣٨ هـ — ١٩٢٠ م .
- ٢٧ — الكندي المصري (أبي عمر محمد بن يوسف) .
* كتاب الولاة وكتاب القضاة — مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨ ، اعادت طبعة بالأوفست مكتبة المثنى — بغداد .
- ٢٨ — لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ — ٧٧٦ هـ) .
* الاحاطة في أخبار غرناطة — شركة طبع الكتب العربية — مصر — ١٣١٩ هـ .
- ٢٩ — ابن ماكولا ت ٤٧٥ هـ — ١٠٨٢ م .
* الاكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمختلف في الاسماء والكنى والانساب . اعتني بتصحيحه والتعليق عليه الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني — مطبعة مجلس دائرة المعارف

العثمانية — حيدر آباد — الطبعة الثانية .

٣٠ — المقرئزي (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ) .
• كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بـ (الخطط المقرئزية) — دار صادر بيروت .

٣١ — ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ت ٧١١ هـ) .
• لسان العرب — دار صادر — ١٩٦٨ .

المراجع الحديثة

- ١ — (الأمير شكيب) أرسلان .
• الحلل السندسية .
- ٢ — (كارل) بروكلمان .
• تاريخ الشعوب الاسلامية — ترجمة نبيه امين فارس — منير بعلبكي دار العلم للملايين بيروت — الطبعة الخامسة .
- ٣ — (فرانز) روزنثال .
• علم التاريخ عند المسلمين — نشر بالمشاركة مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر بغداد — نيويورك (مكتبة المثنى بغداد ١٩٦٣) ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي . مراجعة محمد توفيق حسين .
- ٤ — زامباور .
• معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي — أخرجه الدكتور زكي محمد حسن بك وحافظ أحمد حمدي وأحمد ممدوح حمدي — (مطبعة فؤاد الأول ١٩٥١) .
- ٥ — الزركلي (خير الدين) .
• «العلام» قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين» (دار العلم للملايين الطبعة الرابعة ١٩٧٩) .
- ٦ — سركيس (يوسف) .
• معجم المطبوعات العربية والعربية — مطبعة سركيس بمصر ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م .
- ٧ — ابن عبد الله (عبد العزيز) .
• الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية — مطبعة فضالة — المغرب ١٩٧٦ .
• المعجم التاريخي (مكتبة السلام — مكتبة المعارف المغرب) .
- ٨ — ابن العربي (الصدقي) .
• كتاب المغرب (مطبعة الامنية الرباط — ١٩٥٦ الطبعة الثانية) .
- ٩ — ابن منصور (عبد الوهاب) .
• قبائل المغرب (المطبعة الملكية — الرباط — ١٩٦٨ الجزء الاول) .
- ١٠ — نقاش (زكي) .
• العلاقات الاجتماعية — دار الكتاب اللبناني .
- ١١ — البينة — مجلة الرسالة الخالدة والثقافة المتحررة — العدد الثالث — ١٩٦٢ م — ١٣٨٢ هـ .